تاريخ
ابن خلدون

المسمّى

ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر
ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر

تأليف

عبد الرحمن بن خلدون
٧٣٢-٨٠٨هـ - ١٣٣٢-١٤٠٦م

ضبط المتن ووضع الحواشي والفهارس
الأستاذ خليل شحادة

مراجعة الدكتور
سهيل زكار

طبعة مستكملة ومقارنة مع عدة نسخ
ومخطوطات ومذيلة بحواشي وشروح وتمتاز
بفهارس للموضوعات والأعلام والأماكن الجغرافية

دار الفكر

تاريخ
ابن خلدون

تاريخ ابن خلدون

المسمى

ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر
ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر

تأليف

عبد الرحمن بن خلدون

٧٣٢-٨٠٨هـ - ١٣٣٢-١٤٠٦م

ضبط المتن ووضع الحواشي والفهارس
الاستاذ خليل شحادة

مراجعة الدكتور
سهيل زكار

طبعة مستكملة ومقارنة مع عدة نسخ
ومخطوطات ومذيلة بحواشي وشروح وتمتاز
بفهارس للموضوعات والأعلام والاماكن الجغرافية

الجزء السابع

دار الفكر

١٤٢١ هـ - ٢٠٠٠ م

Email: darelfkr@cyberia.net.lb
E-mail: darlfikr@cyberia.net.lb
Home Page: www.darelfikr.com.lb



حارة حريك - شارع عبد النور - برقيا: فكسي - ص.ب: ١١/٧٠٦١
تلفون: ٥٥٩٩٠٠ - ٥٥٩٩٠١ - ٥٥٩٩٠٢ - ٥٥٩٩٠٣
فاكس: ٠٠٩٦١١٥٥٩٩٠٤

بيروت
لبنان

* (بسم الله الرحمن الرحيم) *

الخبر عن زناتة من قبائل البربر وما كان بين أجيالهم من العز والظهور وما تعاقب فيهم من الدول القديمة والحديثة

هذا الجيل في المغرب جيل قديم العهد معروف العين والأثر ، وهم لهذا العهد آخذون من شعائر العرب في سكنى الخيام واتخاذ الإبل وركوب الخيل والتغلّب في الأرض وإيلاف الرحلتين ، وتخطّف الناس من العمران والإباية عن الانقياد للنصفة . وشعارهم بين البربر اللغة التي يتراطنون بها ، وهي مشتهرة بنوعها عن سائر رطانة (١) البربر . ومواطنهم في سائر مواطن البربر بأفريقية والمغرب ، فمنهم ببلاد النخيل ما بين غدامس والسوس الأقصى حتى أنّ عامة تلك القرى الجريدية بالصحراء منهم كما نذكره . ومنهم قوم بالتلول بجبال طرابلس وضواحي أفريقية ، وبجبل أوراس بقايا منهم سكنوا مع العرب الهلاليين لهذا العهد ، وأذعنوا لحكمهم ، والأكثر منهم بالمغرب الأوسط حتى أنه ينسب إليهم ويعرف بهم فيقال : وطن زناتة . ومنهم بالمغرب الأقصى أمم أخرى ، وهم لهذا العهد أهل دول وملك بالمغربين ، وكانت لهم فيه دول أخرى في القديم ، ولم يزل الملك يتداول في شعوبهم حسبما نذكره بعد لكل شعب منهم إن شاء الله تعالى .

---

(١) وفي نسخة أخرى : رطاناتهم .

* (الخبر عن نسبة زناتة وذكر الخلاف الواقع فيه وتعديد شعوبهم) *

أمّا نسبهم بين البربر فلا خلاف بين نسّابتهم أنهم من ولد شانا وإليه نسبهم ، وأمّا شانا فقال أبو محمد بن حزم في كتاب الجمهرة ، قال بعضهم : هو جانا بن يحيى بن صولات بن ورماك بن ضري بن رحيك بن مادغيس بن بربر[1] . وقال أيضاً في كتاب الجمهرة ذكر لي يوسف الورّاق عن أيوب بن أبي يزيد يعني حين وفد على قرطبة عن أبيه الثائر بأفريقية أيام الناصر قال : هو جانا بن يحيى بن صولات بن ورساك بن ضري بن مقبو بن قروال بن يملا بن مادغيس بن رحيك[2] بن همرحق ابن كراد بن مازيغ بن هراك بن هرك بن برا بن بربر بن كنعان بن حام هذا ما ذكره ابن حزم . ويظهر منه أنّ مادغيس ليس نسبة إلى البربر وقد قدّمنا ما في ذلك من الخلاف ، وهو أصح ما ينقل في هذا الآن ابن حزم موثوق ولا يعدل به غيره .

(ونقل) عن ابن أبي ريد وهو كبير زناتة ويكون البربر على هذا من نسل برنس فقط ، والبتر الذين هم بنو مادغيس الأبتر ليسوا من البربر ومنهم زناتة وغيرهم كما قدّمنا لكنهم إخوة البربر لرجوعهم كلهم إلى كنعان بن حام كما يظهر من هذا النسب .

(ونقل) عن أبي محمد بن قتيبة في نسب زناتة هؤلاء أنهم من ولد جالوت في رواية أن

---

(١) ورد في جمهرة انساب العرب لابن حزم ص ٤٩٥ ان زناتة هو شانا ابن يحيى بن صولات بن ورتناج بن ضري بن سَقْفُو بن جُنْدُواذ بن يمْلا بن مادغيس بن هرك بن هرْسق بن كراد بن مازيغ بن هراك بن هريك بن بدا بن بديان بن كنعان بن حام بن نوح النبي (صلى الله عليه وسلم) .

(٢) كذا في قبائل المغرب وفي نسخة أخرى من ابن خلدون زجيك وفي مراجع أخرى زجيك (الاستقصاء لأخبار دول المغرب الاقصى للشيخ أبي العباس أحمد بن خالد الناصري) .

زناتة هو جانا بن يحيى بن ضريس بن جالوت ، وجالوت هو ونور بن جريبل[1] بن جديلان بن جاد بن رديلان بن حصي بن باد بن رحيك بن مادغيس الأبتر بن قيس بن عيلان .

(وفي) رواية أخرى عنه أنّ جالوت بن جالود بن بردنال[2] بن قحطان بن فارس ، وفارس مشهور .

(وفي) رواية أخرى عنه أنه ابن هربال[3] بن بالود بن ديال بن برنس بن سفك ، وسفك أبو البربر كلهم ، ونسّابة الجيل نفسه من زناتة يزعمون أنهم من حِمْيَر ، ثم من التبابعة منهم[4] . وبعضهم يقول أنّهم من العمالقة ، ويزعمون أنّ جالوت جدّهم من العمالقة ،.والحقّ فيهم ما ذكره أبو محمد بن حزم أوّلاً وما بعد ذلك فليس شيء منه بصحيح . فأمّا الرواية الأولى عن أبي محمد بن قتيبة فمختلطة وفيها أنساب متداخلة .

وأمّا نسب مادغيس إلى قيس عيلان فقد تقدّم في أوّل كتاب البربر عند ذكر أنسابهم وأن أبناء قيس معروفون عند النسّابة . وأمّا نسب جالوت إلى قيس فأمر بعيد عن القياس ، ويشهد لذلك أنّ معدّ بن عدنان الخامس من آباء قيس إنما كان معاصراً لبخْتَنَصّر كما ذكرناه أوّل الكتاب . وأنّه لما سلّط على العرب أوحى الله إلى أَرَمْيَاء نبيّ بني إسرائيل أن يخلّص مَعَدّاً ويسير به إلى أرضه ، وبختنصّر كان بعد داود بما يناهز أربعمائة وخمسين من السنين ، فإنه خرّب بيت المقدس بعد بناء داود وسليمان له بمثل هذه المدّة .

فمعدّ متأخّر عن داود بمثلها سواء ، فقيس الخامس من أبنائه متأخّر عن داود بأكثر من ذلك ، فجالوت على ما ذكر أنه من أبناء قيس متأخّر عن داود بأضعاف ذلك الزمن . وكيف يكون ذلك مع أنّ داود هو الذي قتل جالوت بنصّ القرآن ؟

(وأمّا) إدخاله جالوت في نسب البربر ، وأنه من ولد مادغيس أو سفك فخطأ ،

---

(١) وفي نسخة أخرى : هريبل .

(٢) وفي نسخة أخرى : بن ديّال .

(٣) وفي نسخة أخرى : ابن هوبال .

(٤) يقول ابن حزم في الجمهرة : (وادعت طوائف منهم الى اليمن ، الى حمير ، وبعضهم الى برّ بن قيس عيلان وهذا باطل لا شك فيه .. وما علم النسابون لقيس عيلان ابنا اسمه برّ أصلاً . ولا كان لحمير طريق الى بلاد البربر ، إلاّ في تكاذيب مؤرخي اليمن) . ص ٤٩٥ .

وكذلك من نسبه إلى العمالقة . والحق أنّ جالوت من بني فلسطين بن كسلوحيم بن مصرايم بن حام أحد شعوب حام بن نوح ، وهم إخوة القِبْطِ والبَرْبَر والحَبَشَةِ والنوبَةِ كما ذكرناه في نسب أبناء حام . وكان بين بني فلسطين هؤلاء وبين بني إسرائيل حروب كثيرة ، وكان بالشام كثير من البربر إخوانهم ، ومن سائر أولاد كنعان يضاهونهم فيها ، ودثرت أمّة فلسطين وكنعان وشعوبهما لهذا العهد ، ولم يبق إلاّ البربر ، واختص إسم فلسطين بالوطن الذي كان لهم فاعتقد سامع إسم البربر مع ذكر جالوت أنه منهم وليس كذلك .

(وأمّا) ما رأي نسّابة زناتة أنهم من حِمْيَر فقد أنكره الحافظان أبو عمر بن عبد البرّ وأبو محمد بن حزم وقالا ما كان لحِمْيَر طريق إلى بلاد البربر إلا في أكاذيب مؤرخي اليمن ، وإنما حمل نسّابة زناتة على الانتساب في حِمْيَر الترفّع عن النسب البربري لما يرونهم في هذا العهد خوَلاً وعبيداً للجباية وعوامل الخراج ، وهذا وَهْمٌ فقد كان في شعوب البربر من هم مكافؤن لزناتة في العصبية أو أشدّ منهم مثل هوّارة ومكناسة ، وكان فيهم من غلب العرب على ملكهم مثل كتامة وصنهاجة ومن تلقّف الملك من يد صنهاجة مثل المصامِدة ، كل هؤلاء كانوا أشدّ قوّة وأكثر جمعاً من زناتة . فلمّا فنيت أجيالهم أصبحوا مغلّبين فنالهم ضرُّ المغرم ، وصار إسم البربر مختصًّا لهذا العهد بأهل المغرم ، فأنف زناتة منه فراراً من الهضيمة .

وأعجبوا بالدخول في النسب العربي لصراحته وما فيه من المزيّة بتعدد الأنبياء ولا سيما نسب مُضَر وأنهم من وُلْد اسمعيل بن ابراهيم بن نوح بن شيث بن آدم ، خمسة من الأنبياء ليس للبربر إذا نسبوا إلى حام مثلها مع خروجهم عن نسب ابراهيم الذي هو الأب الثالث للخليقة إذ الأكثر من أجيال العالم لهذا العهد من نسله . ولم يخرج عنه لهذا العهد إلاّ الأقل مع ما في العربية أيضاً من عزّ التوحّش ، والسلامة من مذمومات الخلق بانفرادهم في البيداء . فأعجب زناتة نسبهم وزيّنه لهم نسّابتهم ، والحق بمعزل عنه ، وكونهم من البربر بعموم النسب لا ينافي شعارهم من الغلب والعز ، فقد كان الكثير من شعوب البربر مثل ذلك وأعظم منه . وأيضاً فقد تميّزت الخليقة وتباينوا بغير واحد من الأوصاف ، والكلّ بنو آدم ونوح من بعده . وكذلك تميّزت العرب وتباينت شعوبها والكلّ لسام ولا سمعيل بعده .

(وأمّا) تعدّد الأنبياء في النسب فذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ، ولا يضرّك الاشتراك

مع الجيل[١] في النسب العام إذا وقعت المباينة لهم في الأحوال التي ترفع عنهم ، مع أنّ المذلّة للبربر إنما هي حادثة بالقلّة ودثور أجيالهم بالملك الذي حصل لهم ، ونفقوا في سبله وترفه كما تقدّم لك في الكتاب الأوّل من تأليفنا . وإلاّ فقد كان لهم من الكثرة والعزّ والملك والدولة ما هو معروف .

(وأمّا) أنّ جيل زناتة من العمالقة الذين كانوا بالشام فقول مرجوح وبعيد عن الصواب لأن العمالقة الذين كانوا بالشام صنفان . عمالقة من ولد عيصو بن إسحق ، ولم تكن لهم كثرة ولا ملك ، ولا نقل أنّ أحداً منهم انتقل إلى المغرب بل كانوا لقلّتهم ودثور أجيالهم أخفى من الخفاء . والعمالقة الأخرى كانوا من أهل الملك والدولة بالشام قبل بني إسرائيل وكانت أريحاء دار ملكهم . وغلب عليهم بنو إسرائيل وابتزّوهم ملكهم بالشام والحجاز وأصبحوا حصائد سيوفهم ، فكيف يكون هذا الجيل من أولئك العمالقة الذين دثرت أجيالهم ؟ وهذا لو نقل لوقع به الاسترابة فكيف وهو لم ينقل ؟ هذا بعيد في العبادة والله أعلم بخلقه .

(وأمّا) شعوب زناتة وبطونهم فكثير[٢] ولنذكر المشاهير منها (فنقول) : اتفق نسّاب زناتة على أنّ بطونهم كلها ترجع إلى ثلاثة من ولد جانا وهم : ورسيك وفرني والديرت[٣] . هكذا في كتب أنساب زناتة . (وذكر) أبو محمد بن حزم في كتاب الجمهرة له من ولد ورسيك عند نيّابتهم مَسَّارَت ورغاي وواشروجن ، ومن واشروجن واريغن بن واشروجن . وقال أبو محمد بن حزم في ولد ورسيك أنهم مسارت وناجرت وواسين[٤] .

(وأمّا) فرني بن جانا فمن ولده عند نسّابة زناتة يزمرتن ومرنجيصة ووركلة ونمالة

---

(١) وفي نسخة أخرى : مع أهل الجيل .

(٢) قوله : وأمّا شعوب الخ . بهامش ما نصّه من هنا إلى الشجرة الآتية أسماء بربرية لا يمكن ضبطها بل ولا النطق بها كما هي في لسانهم ولا يتعلق بها غرض مهم . اهـ . (كتبه حسن العطار) ونزيد بأن هذه الاسماء تختلف من مرجع الى آخر من المراجع التي تناولت تاريخ البربر وهذا التحريف في الاسماء ليس له أي أهمية في سرد الحوادث التاريخية ولكن رأينا أن نشير الى هذه الأسماء لاطلاع القارىء الكريم الى هذا الاختلاف .

(٣) وفي نسخة ثانية : ورشيل وفريني والديدت . وفي جمهرة أنساب العرب ورسيج والدّيديت وفريني (ص ٤٩٦) .

(٤) وفي نسخة ثانية تاجرة وراسين وفي الجمهرة : بني تاجرة وبني واسين وفي النسخة الباريسية باجرة .

وسبرترة ، ولم يذكر أبو محمد بن حزم سبرتره وذكر الأربعة الباقية . (وأمّا) الديرت ابن جانا فمن ولده عند نسّابة زناتة جداو[1] بن الديرت ، ولم يذكره ابن حزم . وإنما قال عند ذكر الديرت ومن شعوبه : بنوورسيك بن الديرت وهم بطنان دمّر بن ورسيك وزاكيا بن ورسيك قال : ودمّر لقب واسمه الغانا . قال : فمن ولد زاكيا بنو مغراو وبنو يفرن وبنو واسين. قال : وأمّهم واسين مملوكة لأمّ مغراو وهم ثلاثتهم بنو يصلتن بن مسرا بن زاكيا . ويزيد نسّابة زناتة في هؤلاء يرنيات بن يصلتن أخاً لمغراو ويفرن وواسين ولم يذكره ابن حزم .

قال : ومن ولد دمّر بنو ورنيد بن وانتن بن وارديرن بن دمّر ، وذكر لبني دمّر أفخاذاً سبعة وهم عرازول ولفورة وزناتين[2] ، وهؤلاء الثلاثة مختصّون بنسب دمّر ، وبرزال ويصدرين وصغمان ويَطُوَّفَت ، هكذا ذكر أبو محمد بن حزم وزعم أنه من إملاء أبي بكر بن يكنى البرزالي الأباضي . وقال فيه : كان ناسكاً عالماً بأنسابهم ، وذكر أنّ بني واسين وبني برزال كانوا أباضية وأنّ بني يفرن ومغراوة كانوا سنية . وعند نسّابة البربر مثل سابق بن سليمان المطماطي وهانىء بن يصدور[3] والكومي وكهلان بن أبي لوا ، وهو مسطّر في كتبهم أنّ بني ورسيك بن الديرت بن جانا ثلاثة بطون وهم بنو زاكيا وبنو دمّر وآنشة بنو آنش ، وكلّهم بنو وارديرن بن ورسيك ، فمن زاكيا بن وارديرن أربعة بطون : مغراوة وبنو يفرن وبنو يرنيان وبنو واسين ، كلّهم بنو يصلتن ابن مسرا بن زاكيا ومن آنش بن وارديرن أربعة بطون : بنو برنال وبنو صقمات وبنو يصدورين وبنو يطوفت كلّهم بنو آنش بن وارديرن ومن دمّر ابن وارديرن ثلاثة بطون : بنو تقورت وبنو عزرول وبنو ورتاتين كلّهم بنو وتيد[4] بن دمّر ، هذا الذي ذكره نسّابة البربر وهو خلاف ما ذكره ابن حزم . ويذكر نسابة زناتة آخرين من شعوبهم ولا ينسبونهم مثل يجفش وهم أهل جبل قازاز قريب مكناسة وسنجاسن وورسيغان وتحليلة وتيسات وواغمرت وتيفراض ووجديجن وبنو بلومو وبنو وماني[5] وبنو توجين على أنّ بني توجين ينتسبون في بني واسين نسباً ظاهراً صيحياً بلا شك

---

(١) وفي نسخة أخرى : جراد .

(٢) وفي نسخة أخرى : غرزول ولقورة وورتاتين .

(٣) وفي نسخة أخرى : صدور .

(٤) وفي نسخة أخرى : ورينذ بن دمّر .

(٥) وفي نسخة أخرى : تيغرض ووجديجن وبني يلومي وبني ومانوا وبني توجين .

على ما يذكر في أخبارهم . وبعضهم يقول في وجديجن وواغمرت بنو ورتنيص[1] أنهم من البرانس من بطون البربر على ما قدمناه . وذكر ابن عبد الحكم في كتابه فتح مصر خالد بن حميد الزناتي ، وقال فيه هو من شورة إحدى بطون زناتة ، ولم نره لغيره . هذا ملخص الكلام في شعوب زناتة وأنسابهم بما لا يوجد في كتاب . والله الهادي إلى مسالك التحقيق لا رب غيره .

برزال بن ورنيد بن واتن بن وارديرن بن دمر بن ورسيك بن اللديرت بن جانا
يصرتن
وصغان
يطوفت
واسين
جداو
واركله
مرنجيصة
واغمرت
واريغن بن واشروجن بن ورسيك
ناجرت
واسين

(١) وفي النسخة الباريسية : ورتيند وفي نسخة أخرى : ورتنيص .

* (فصل في تسمية زناتة ومبنى هذه الكلمة) *

(أعلم) أن كثيراً من الناس يبحثون عن مبنى هذه الكلمة واشتقاقها على ما ليس معروفاً للعرب ولا لأهل الجيل أنفسهم فيقال : هو إسم وضعته العرب على هذا الجيل ، ويقال بل الجيل وضعوه لأنفسهم أو اصطلحوا عليه . ويقال : هو زانا بن جانا فيزيدون في النسب شيئاً لم تذكره النسّابة . وقد يقال إنه مشتق ولا يعلم في لسان العرب أصل مستعمل من الأسماء يشتمل على حروفه المادية ، وربّما يحاول بعض الجهلة اشتقاقه من لفظ الزنا ، ويعضده بحكاية خسيسة يدفعها الحق ، وهذه الأقوال كلّها ذهاب[1] إلى أنّ العرب وضعت لكل شيء إسماً ، وأنّ استعمالها إنّما هو لأوضاعها التي من لغتها ارتجالاً واشتقاقاً . وهذا إنّما هو في الأكثر وإلاّ فالعرب قد استعملت كثيراً من غير لغتها في مسمّاه إمّا لكونه عَلَماً فلا يغير مثل ابراهيم ويوسف واسحق من اللغة العبرانية ، وإمّا استعانة وتخفيفاً لتداوله بين الألسنة كاللجام والديباج والزنجبيل والنيروز والياسمين والآجرّ ، فتصير باستعمال العرب كأنها من أوضاعهم . ويسمّونها المعرّبة وقد يغيّرونها بعض التغيير في الحركات أو في الحروف ، وهو شائع لهم لأنه بمنزلة وضع جديد .

وقد يكون الحرف من الكلمة ليس من حروف لغتهم فيبدّلونه بما يقرب منه في المخرج فإن مخارج الحروف كثيرة منضبطة وإنّما نطقت العرب منها بالثمانية والعشرين حروف أبجد . وبين كل مخرجين منها حروف أكثر من واحد فمنها ما نطقت به الأمم ، ومنها ما لم تنطق به ، ومنها ما نطق به بعض العرب كما هو مذكور في كتب أهل اللسان . واذا تقرّر ذلك فاعلم أن أصل هذه اللفظة التي هي زناتة من صيغة جانا التي هي اسم أبي الجيل كله ، وهو جانا بن يحيى المذكور في نسبهم . وهم إذا أرادوا الجنس في التعميم الحقوا بالاسم المفرد تاء فقالوا جانات . واذا أرادوا التعميم زادوا مع التاء نونا فصار جاناتن ، ونطقهم بهذه الجيم ليس من مخرج الجيم عند العرب بل ينطقون بها بين الجيم والشين وأميل إلى السين ، ويقرب للسمع منها بعض الصفير فأبدلوها زاياً

(١) الصحيح أن يقول تذهب .

محضة لاتصال مخرج الزاي بالسين ، فصارت زانات لفظاً مفرداً دالاً على الجنس . ثم الحقوا به هاء النسبة وحذفوا الألف التي بعد الزاي تخفيفاً لكثرة دورانه على الألسنة والله أعلم .

* (فصل في أولية هذا الجيل وطبقاته) *

أمّا أولية هذا الجيل بأفريقية والمغرب فهي مساوية لأولية البربر منذ أحقاب متطاولة لا يعلم مبدأها إلاّ الله تعالى . ولهم شعوب أكثر من أن تحصى مثل مغراوة وبني يفرن وجراوة وبني يرنيان ووجديجن وغمرة وبني ويجفش وواسين وبني تيغرست وبني مرين وتوجين وبني عبد الواد وبني راشد وبني برزال وبني ورنيد وبني زنداك وغيرهم . وفي كل واحد من هذه الشعوب بطون متعدّدة . وكانت مواطن هذا الجيل من لدن جهات طرابلس إلى جبل أوراس والزاب إلى قبلة تِلْمِسَانِ ثم إلى وادي مَلَويّة . وكانت الكثرة والرياسة فيهم قبل الإسلام لجراوة ثم لمغراوة وبني يفرن .
(ولما) ملك الإفرنجة بلاد البربر في ضواحيهم صاروا يؤدّون لهم طاعة معروفة ، وخراجاً معروفاً مؤقتاً ، ويعسكرون معهم في حروبهم ويمتنعون عليهم فيما سوى ذلك حتى جاء الله بالإسلام ، وزحف المسلمون إلى أفريقية ومَلِكَ الإفرنجة بها يومئذ جرجير ، فظاهره زناتة والبربر على شأنه مع المسلمين وانفضّوا جميعاً . وقتل جرجير وأصبحت أموالهم مغانم ونساؤهم سبايا ، وافتتحت سبيطلة . ثم عاود المسلمون غزو أفريقية وافتتحوا جلولاء وغيرها من الأمصار ، ورجع الإفرنجة الذين كانوا يملكونهم على أعقابهم إلى مواطنهم وراء البحر . وظنّ البربر بأنفسهم مقاومة العرب فاجتمعوا وتمسّكوا بحصون الجبال واجتمعت زناتة إلى الكاهنة وقومها جراوة بجبل أوراس حسبما نذكره ، فأثخن العرب فيهم واتبعوهم في الضواحي والجبال والقفار حتى دخلوا في دين الإسلام طوعاً وكرهاً ، وانقادوا الى إيالة مِصْرَ وتولّوا من أمرهم ما كان الإفرنجة يتولونه حتى إذا انحلت بالمغرب عرى الملك العربي وأخرجهم من أفريقية البربر من كتامة وغيرهم ، قدح هذا الجيل الزناتي زناد الملك فأورى لهم ، وتداول فيهم الملك جيلاً بعد جيل في طبقتين حسبما نقصّه عليك إن شاء الله تعالى .

* (الخبر عن الكاهنة وقومها جراوة من زناتة وشأنهم مع المسلمين عند الفتح) *

كانت هذه الأمّة من البربر بأفريقية والمغرب في قوّة وكثرة وعديد وجموع ، وكانوا يعطون الإفرنجة بأمصارهم طاعة معروفة وملك الضواحي كلّها لهم ، وعليهم مظاهرة الإفرنجة مهما احتاجوا إليهم ولما أطلّ المسلمون في عساكرهم على أفريقية للفتح ظاهروا جرجير في زحفه إليهم حتى قتله المسلمون وانفضّت جموعهم وافترقت رياستهم ولم يكن بعدها بأفريقية موضع للقاء المسلمين يجمعهم لِمَا كانت غزواتهم لكل أمّة من البربر في ناحيتها وموطنها مع من تحيّز إليهم من قبل الإفرنجة .

(ولما) اشتغل المسلمون في حرب عليّ ومعاوية أغفلوا أمر أفريقية ثم ولّاها معاوية بعد عام الجامعة عقبة بن نافع الفِهْرِيّ فأثخن في المغرب في ولايته الثانية ، وبلغ إلى السوس وقتل بالزاب في مرجعه . واجتمعت البربر على كُسَيْلَة كبير أَوْرَبَة ، وزحف إليه بعد ذلك زهير بن قيس البلَوِيّ أيام عبد الملك بن مروان فهزمه وملك القيروان وأخرج المسلمين من أفريقية .

(وبعث) عبد الملك حسّان بن النعمان في عساكر المسلمين فهزموا البربر ، وقتلوا كسيلة واسترجعوا القَيْرَوان وقَرْطَاجَنَّة وأفريقية والإفرنجة والروم إلى صِقِلِّيَّة والأندلس ، وافترقت رياسة البربر في شعوبهم . وكانت زناتة أعظم قبائل البربر وأكثرها جموعاً وبطوناً ، وكان موطن جراوة منهم بـجبل أوراس ، وهم ولد كراو بن الديرت بن جانا[1] . وكانت رياستهم للكاهنة دهِيا بنت[2] بن نيعان بن بارو[3] بن مصكسرى بن أفرد بن وصيلا بن جراو . وكان لها بنون ثلاثة ورثوا رياسة قومهم عن سلفهم وربوا في حجرها ، فاستبدّت عليهم وعلى قومهم بهم ، وبما كان لها من الكهانة والمعرفة بغيب أحوالهم وعواقب أمورهم فانتهت إليها رياستهم .

قال هاني بن بكور الضريسي : ملكت عليهم خمساً وثلاثين سنة[4] وعاشت مائة

(١) كراد بن الديديث بن شانا (جمهرة انساب العرب(ص ٤٩٨) .
(٢) بياض بالأصل وفي النسخة الباريسية : دهيا بنت ثابتة وكذلك في نسخة أخرى دهيا بنت ثابتة .
(٣) وفي نسخة أخرى : بن نيقان بن باورا .
(٤) وفي نسخة أخرى : خمساً وستين سنة .

وسبعا وعشرين سنة . وكان قتل عقبة بن نافع في البسيط قبلة جبل أوراس باغرائها برابرة تهودا عليه ، وكان المسلمون يعرفون ذلك منها . فلما انقضى جمع البربر وقتل كسيلة رجعوا إلى هذه الكاهنة بمعتصمها من جبل أوراس ، وقد ضوى إليها بنو يفرن ومن كان بأفريقية من قبائل زناتة وسائر البتر ، فلقيتهم بالبسيط أمام جبلها ، وانهزم المسلمون واتبعت آثارهم في جموعها حتى أخرجتهم من أفريقية ، وانتهى حسّان إلى بَرْقَة فأقام بها حتى جاءه المدد من عبد الملك ، فزحف إليهم سنة أربع وسبعين وفضّ جموعهم ، وأوقع بهم وقتل الكاهنة ، واقتحم جبل أوراس عنوة واستلحم فيه زهاء مائة ألف .

وكان للكاهنة إبنان قد لحقا بحسّان وحسن إسلامها واستقامت طاعتها ، وعقد لها على قومها جراوة ومن انضوى إليهم بجبل أوراس . ثم افترق فلّهم من بعد ذلك وانقرض أمرهم . وافترق جراوة أوزاعاً بين قبائل البربر ، وكان منهم قوم بسواحل مليلة ، وكان لهم آثار بين جيرانهم هناك . وإليهم نزع ابن أبي العيش لمّا غلبه موسى ابن أبي العافية على سلطانه بتلمسان أوّل المائة الرابعة حسبما نذكره . فنزل عليهم وبنى القلعة بينهم إلى أن خرّبت من بعد ذلك . والفلّ منهم بذلك الوطن إلى الآن لهذا العهد مندرجون في بطونه[1] ومن إليهم من قبائل غمارة والله وارث الأرض ومن عليها .

* (الخبر عن مبتدا دول زناتة في الإسلام ومصير الملك اليهم بالمغرب وافريقية) *

لما فرغ شأن الردّة من أفريقية والمغرب وأذعن البربر لحكم الإسلام وملكت العرب ، واستقلّ بالخلافة وريآسة العرب بنو أمية اقتعدوا كرسيّ الملك بدمشق ، واستولوا على سائر الأمم والأقطار ، وأثخنوا في القاصية من لدن الهند والصين في المشرق ، وفرغانة في الشمال ، والحبشة في الجنوب ، والبربر في المغرب ، وبلاد الجلالقة والإفرنجة في الأندلس . وضرب الإسلام بجرانه ، وألقت دولة العرب بكلكلها على الأمم . ثم جدع بنو أمية أنوف بني هاشم مقاسميهم في نسب عبد مناف ، والمدّعين

(١) وفي نسخة أخرى : يطوفت .

استحقاق الأمر بالوصية . وتكرّر خروجهم عليهم ، فأثخنوا فيهم بالقتل والأسر ، حتى توغرّت الصدور واستحكمت الأوتار وتعدّدت فرق الشيعة باختلافهم في مساق الخلافة من عليّ إلى من بعده من بني هاشم . فقوم ساقوها إلى آل العبّاس ، وقوم إلى آل الحسن ، وآخرون إلى آل الحسين ، فدعت شيعة آل العبّاس بخراسان وقام بها اليمنية فكانت الدولة العظيمة الحائزة للخلافة ونزلوا بغداد واستباحوا الأمويين قتلاً وسبياً . وخلص من جاليتهم إلى الأندلس عبد الرحمن بن معاوية بن هشام ، فجدّد بها دعوة الأمويين واقتطع ما وراء البحر عن ملك الهاشميين فلم تخفق لهم به راية .

(ثم نفس) آل أبي طالب على آل العبّاس ما أكرمهم الله به من الخلافة والملك ، فخرج المهدي محمد بن عبدالله المدعوّ بالنفس الزكية في بني أبي طالب على أبي جعفر المنصور ، وكان من أمرهم ما هو مذكور واستلحمتهم جيوش بني العبّاس في وقائع عديدة . وفرّ ادريس بن عبدالله أخو المهدي من بعض وقائعهم إلى المغرب الأقصى فأجاره البرابرة من أَوْرَبَة ومقيلة وصدينة ، وقاموا بدعوته ودعوة بنيه من بعده ، ونالوا به الملك وغلبوا على المغرب الأقصى والأوسط ، وبثّوا دعوة إدريس وبنيه من أهله بعده في أهله من زناتة مثل بني يفرن ومغراوة وقطعوه من ممالك بني العبّاس . واستمرّت دولتهم إلى حين انقراضها على يد العُبَيْديّين .

ولم يزل الطالبيون أثناء ذلك بالمشرق ينزعون إلى الخلافة ويبثّون دعاتهم بالقاصية إلى أن دعا أبو عبدالله المحتسب بأفريقية إلى المهديّ ولد اسمعيل الإمام بن جعفر الصادق ، فقام برابرة كتامة ومن إليهم من صنهاجة وملكوا أفريقية من يد الأغالبة ، ورجع العرب إلى مركز ملكهم بالمشرق ، ولم يبق لهم في نواحي المغرب دولة ، ووضع العرب ما كان على كاهلهم من أمر المغرب ووطأة مُضَر بعد أن رسخت الملّة فيهم ، وخالطت بشاشة الإيمان قلوبهم ، واستيقنوا بوعد الصادق أنّ الأرض لله يورثها من يشاء من عباده . فلم تنسلخ الملة بانسلاخ الدولة ولا تقوّضت مباني الدين بتقويض معالم الملك ، وعداً من الله لن يخلفه في تمام أمره وإظهار دينه على الدين كلّه . فتناغى حينئذ البربر في طلب الملك والقيام بدعوة الأعياص من بني عبد مناف يسدّون منها حسداً في ارتقاء[1] إلى أن ظفروا من ذلك بحظّ مثل كتامة بأفريقية ،

(١) وفي نسخة ثانية : يسترون منها حسواً في ارتغاء .

ومكناسة بالمغرب ، ونافسهم في ذلك زناتة ، وكانوا من أكثرهم جمعاً وأشدّهم قوّة فشمّروا له حتى ضربوا معهم بسهم ، فكان لبني يفرن بالمغرب وأفريقية على يد صاحب الحمار ، ثم على يد يعلى بن محمد وبنيه ملك ضخم . ثم كان لمغراوة على يد بني خزّر دولة أخرى تنازعوها مع بني يفرن وصنهاجة . ثم انقرضت تلك الأجيال وتجرّد الملك بالمغرب بعدهم في جيل آخر منهم ، فكان لبني مرين بالمغرب الأقصى ملك ، ولبني عبد الواد بالمغرب الأوسط ملك آخر تقاسمهم فيه بنو توجين والفلّ من مغراوة حسبما نذكر ونستوفي شرحه ، ونجلب[1] أيامهم وبطونهم على الطريقة التي سلكناها في أخبار البربر ، والله المعين سبحانه لا رب سواه ، ولا معبود إلاّ إياه .

* (الطبقة الأولى من زناتة ونبدأ منها بالخبر عن بني يفرن وأنسابهم وشعوبهم وما كان لهم من الدول بأفريقية والمغرب) *

وبنو يفرن هؤلاء من شعوب زناتة وأوسع بطونهم ، وهم عند نسّابة زناتة بنو يفرن بن يصلتين بن مسرا بن زاكيا بن ورسيك بن الديرت[2] بن جانا وإخوته مغراوة وبنو يرنيان وبنو واسين ، والكلّ بنو يصلتين . ويفرن في لغة البربر هو القار[3] وبعض نسّابتهم يقولون : إنّ يفرن هو ابن ورتنيذ[4] بن جانا وإخوته مغراوة وغمرت ووجديجن . وبعضهم يقول يفرن بن مرّة بن ورسيك بن جانا ، وبعضهم يقول هو ابن جانا لصلبه والصحيح ما نقلناه عن أبي محمد بن حزم .

(وأمّا) شعوبهم فكثير ومن أشهرهم بنو واركوا ومر نجيصة . وكان بنو يفرن هؤلاء لعهد الفتح أكبر قبائل زناتة وأشدّها شوكة ، وكان منهم بأفريقية وجبل أوراس والمغرب الأوسط بطون وشعوب ، فلمّا كان الفتح غشى أفريقية ومن بها من البربر جنود الله المسلمون من العرب فتطامنوا لبأسهم حتى ضرب الدين بجرانه ، وحسن

---

(١) جلب جلباً : اجتمع (قاموس) .

(٢) وفي جمهرة انساب العرب : الديديت (ص ٤٩٦) .

(٣) وفي نسخة أخرى : الفار وفي النسخة الباريسية الغار .

(٤) وفي النسخة الباريسية : ونيتص ، وفي نسخة أخرى : ونيتر ، وفي جمهرة انساب العرب ص ٤٩٨ : ورنيد .

إسلامهم . ولمّا فشا دين الخارجية في العرب وغلبهم الخلفاء بالمشرق واستلحموهم نزعوا إلى القاصية ، وصاروا يبثّون بها دينهم في البربر فتلقّته رؤساؤهم على اختلاف مذاهبه باختلاف رؤوس الخارجية في أحكامهم من أباضية وصُفْرِيّة وغيرهما كما ذكرناه في بابه ، ففشا في البربر وضرب فيه يفرن هؤلاء بسهم وانتحلوه وقاتلوا عليه . وكان أوّل من جمع لذلك منهم أبو قرّة من أهل المغرب الأوسط . ثم من بعده أبو يزيد صاحب الحمار وقومه بنو واركوا ومر نجيصة . ثم كان لهم بالمغرب الأقصى من بعد الانسلاخ من الخارجيّة دولتان على يد يعلى بن محمد صالح وبنيه حسبما نذكر ذلك مُفسّراً إن شاءالله تعالى .

مر نجيصة بن يفرن بن يصليتن بن مسرا بن زاكيا بن ورسيك بن الديرت بن جانا

واركوا

مغراو

مغراو

(خ) إيفرن

(خ) إيفرن

اجديجن بن ورتنيص

* (الخبر عن أبي قرّة وما كان لقومه من الملك بتلمسان ومبدأ ذلك ومصائره) *

كان من بني يفرن بالمغرب الأوسط بطون كثيرة بنواحي تلمسان إلى جبل بني راشد المعروف بهم لهذا العهد ، وهم الذين اختطّوا تلمسان كما نذكره في أخبارها . وكان رئيسهم لعهد انتقال الخلافة من بني أمية إلى بني العباس أبو قرّة ولا نعرف من نسبه أكثر من أنّـه منهم . ولما انتقض البرابرة بالمغرب الأقصى وقام مَيْسَرَة وقومه بدعوة الخارجيّة وقتله البرابرة قدّموا على أنفسهم مكانه خالد بن حميد من زناتة ، فكان من حروبه مع كلثوم بن عيّاض وقتله إياه ما هو معروف . ورأس على زناتة من بعده أبو قرّة هذا .

ولما استأثلت[1] دولة بني أمية كثرت الخارجيّة في البربر ، وملك ورفجومة القيروان ، وهوّارة وزناتة طرابلس ومكناسة سجلماسة ، وابن رستم تاهَرْت . وقدم ابن الأشعث أفريقية من قبل أبي جعفر المنصور . وخافه البربر فحسم العلل وسكّن الحروب . ثم انتقض بنو يفرن بنواحي تلمسان ودعوا إلى الخارجيّة ، وبايعوا أبا قرّة كبيرهم بالخلافة سنة ثمان وأربعين ومائة ، وسرّح إليهم ابن الأشعث الأغلب بن سوادة التميمي فانتهى إلى الزاب وفرّ أبو قرّة إلى المغرب الأقصى ، ثم راجع موطنه بعد رجوع الأغلب .

(ولما انتقض) البرابرة على عُمَر بن حَفْص بن أبي صُفْرَة الملقّب هزار مرد عام خمسين ومائة وحاصروه بطبنة كان فيمن حاصره أبو قرّة اليفرني في أربعين ألفاً صفرية من قومه وغيرهم حتى اشتدّ عليه الحصار ، وداخل أبا قرّة في الإفراج عنه على يد ابنه على أن يعطيه أربعين ألفاً ، ولابنه أربعة آلاف ، فارتحل بقومه وانفضّ البرابرة عن طُبْنَة . ثم حاصروه بعد ذلك بالقيروان واجتمعوا عليه وأبو قرّة معهم بثلثمائة وخمسين ألفاً ، الخيالة منها خمسة وثمانون ألفاً . وهلك عمر بن حفص في ذلك الحصار .

وقدم يزيد بن حاتم والياً على أفريقية ففضّ جموعهم وفرّق كلمتهم ، ولحق أبو قرّة

(١) وفي نسخة أخرى · لما التاثت .

وبنو يفرن أصحابه بمواطنهم من تلمسان بعد أن قتل صاحبه أبو حاتم الكندي رأس الخوارج ، واستلحم بني يفرن وتوغّل يزيد بن حاتم في المغرب ونواحيه وأثخن في أهله إلى أن استكانوا واستقاموا . ولم يكن لبني يفرن من بعدها انتقاض حتى كان شأن أبي يزيد بأفريقية في بني واركوا ومر نجيصة منهم حسبما نذكره إن شاءالله تعالى الكريم . وبعض المؤرّخين ينسب أبا قرّة هذا إلى مغيلة ، ولم أظفر بصحيح في ذلك ، والطرائق متساوية في الجانبين ، فإنّ نواحي تلمسان وإن كانت موطناً لبني يفرن فهي أيضاً موطن لمغيلة ، والقبيلتان متجاورتان ، لكن بنو يفرن كانوا أشدّ قوّة وأكثر جمعاً ، ومغيلة أيضاً كانوا أشهر بالخارجيّة من بني يفرن لأنهم كانوا صُفْرِيّة . وكثير من الناس يقولون : إنّ بني يفرن كانوا على مذهب أهل السنّة كما ذكره ابن حَزم وغيره والله أعلم .

* (الخبر عن أبي يزيد الخارجي صاحب الحمار من بني يفرن ومبدأ أمره مع الشيعة ومصائره) *

هذا الرجل من بني واركوا إخوة مر نجيصة ، وكلهم من بطون بني يفرن ، وكنيته أبو يزيد ، واسمه مخلّد بن كيداد لا يعلم من نسبه فيهم غير هذا . وقال أبو محمد بن حزم : ذكر لي أبو يوسف الورّاق عن أيوب بن أبي يزيد أنّ إسمه مخلّد بن كيداد[1] بن سعدالله بن مغيث بن كرمان بن مخلّد بن عثمان بن ورنمت بن حونيفر[2] بن سميران بن يفرن بن جانا وهو زناتة . قال : وقد أخبرني بعض البربر بأسماء زائدة بين يفرن وجانا ، اهـ. كلام ابن حزم . ونسبه ابن الرقيق أيضاً في بني واسين بن ورسيك بن جانا ، وقد تقدّم نسبهم أوّل الفصل . وكان كيداد أبوه يختلف إلى بلاد السودان في التجارة ، فولد له أبو يزيد بكركوا من بلادهم ، وأمّه أم ولد إسمها سيكة[3] ورجع به إلى قيطون زناتة ببلاد قصطيلة . ونزل تَوْزَر متردداً بينها وبين تقيّوس ، وتعلّم القرآن وتأدّب ، وخالط النكارية فمال إلى مذاهبهم وأخذها عنهم ، ورأس فيها

(١) وفي النسخة الباريسية : كنداك .
(٢) وفي النسخة الباريسية : ورينت بن جوسفر وفي نسخة أخرى : جونفر .
(٣) وفي نسخة ثانية : سبيكه

ورحل إلى مشيختهم بتهيرت ، وأخذ عن أبي عُبَيْدَة منهم أيام اعتقال عبيدالله المهدي بسجلماسة

ومات أبوه كيداد وتركه على حال الخصاصة والفقر ، فكان أهل القيطون يصلونه بفضل أموالهم ، وكان يعلّم صبيانهم القرآن ومذاهب النكارية . واشتهر عنه تكفير أهل الملّة وسبّ عليّ فخاف وانتقل إلى تقيّوس . وكان يختلف بينها وبين توزر ، وأخذ نفسه بالتغيير على الولاة ، ونمي عنه إعتقاد الخروج عن السلطان فنذر الولاة بقصطيلة دمه ، فخرج إلى الحجّ سنة عشر وثلثمائة وأرهقه الطلب فرجع من نواحي طرابلس إلى تقيّوس . ولمّا هلك عبدالله أوعز القائم إلى أهل قصطيلة في القبض عليه ، فلحق بالمشرق وقضى الفرض وانصرف إلى موطنه ، ودخل تَوْزَرَ سنة خمس وعشرين وثلثمائة مستتراً . وسعى به ابن فرقان عند والي البلد فتقبّض عليه واعتقله ، وأقبل سرعان[1] زناتة إلى البلد ومعهم أبو عمّار الأعمى رأس النكارية وإسمه كما سبق عبد الحميد ، وكان ممن أخذ عنه أبو يزيد فتعرّضوا للوالي في إطلاقه ، فتعلّل عليهم بطلبه في الخراج ، فاجتمعوا إلى فضل ويزيد إبني أبي يزيد ، وعمدوا إلى السجن فقتلوا الحرس وأخرجوه ، فلحق ببلد بني واركلا ، وأقام بها سنة يختلف إلى جبل أوراس وإلى بني برزال في مواطنهم بالجبال قبلة المسيلة ، وإلى بني زنداك من مغراوة إلى أن أجابوه ، فوصل إلى أوراس ومعه أبو عمّار الأعمى في إثني عشر من الراحلة ، ونزلوا على النكارية بالنوالات[2] . واجتمع إليه القرابة وسائر الخوارج ، وأخذ له البيعة عليهم أبو عمّار صاحبه على قتال الشيعة وعلى استباحة الغنائم والسبي ، وعلى أنهم إن ظفروا بالمهديّة والقيروان صار الأمر شورى ، وذلك سنة إحدى وثلاثين وثلثمائة .

وترصّدوا غيبة صاحب باغاية في بعض وجوهه فضربوا على بسيطها ، واستباح بعض القصور بها سنة إثنتين وثلاثين وثلثمائة وعسس بذلك أيدي البربر في الفتنة . ثم زحف بهم إلى باغاية واستولت عليه وعلى أصحابه الهزيمة فلحقوا بالجبل . وزحف إليهم صاحب باغية فانهزم ورجع إلى بلده ، فحاصره أبو يزيد وأوعز أبو القاسم القائم إلى كتامة في إمداد كنون صاحب باغاية ، فتلاحقت به العساكر فبيّتهم أبو يزيد وأصحابه

(١) سرعان زناتة : أي اوائلهم السابقون (قاموس) .
(٢) أسم موضع كلما يتردد إليه هؤلاء النكارية .

ففلّوهم ، وامتنعت عليه باغاية وكاتب أبو يزيد البربر الذين حول قصطيلة من بني واسين وغيرهم ، فحاصروا تَوْزَر سنة ثلاث وستين وثلثمائة ورحل إلى تَبْسَة فدخلها صلحاً ، ثم إلى بجاية كذلك ، ثم إلى مَرْمَاجَنّة . كذلك ، وأهدوا له حماراً أشهب فلزم ركوبه حتى اشتهر به . وبلغ خبره عساكر كتامة بالاربص[1] فانفضوا وملك الأربص وقتل إمام الصلاة بها . وبعث عسكراً إلى تبسة فملكوها وقتلوا عاملها . وبلغ الخبر القائم وهو بالمهديّة فهاله . وسرّح العساكر لضبط المدن والثغور ، وسرّح مولاه بشرى الصِقِلّي إلى باجة ، وعقد لميسور على الجيوش فعسكر بناحية المهدية ، وسرّح خليل بن اسحق إلى القيروان فعسكر بها . وزحف أبو يزيد إلى بشرى بباجة ، واشتدّت الحرب بينهم ، وركب أبو يزيد حماره وأمسك عصاه فاستمالت النكارية ، وخالفوا بشرى إلى معسكره فانهزم إلى تونس ، واقتحم أبو يزيد باجة واستباحها ، ودخل بشرى إلى تونس وارتدت البرابر من كل ناحية فأسلم تونس ولحق بسوسة . واستأمن أهل تونس إلى أبي يزيد فأمّنهم وولّى عليهم ، وانتهى إلى وادي مجدرة[2] فعسكر بها . ووافته الحشود هنالك . ورعب الناس منه فأجفلوا إلى القيروان ، وكثرت الأراجيف وسرّب أبو يزيد جيوشه في نواحي أفريقية ، فشنّوا الغارات وأكثروا السبي والقتل والأسر . ثم زحف إلى رقادة فانفضّ كتامة الذين كانوا بها ولحقوا بالمهديّة . ونزل أبو يزيد رقادة في مائة ألف .

ثم زحف إلى القيروان فانحصر بها خليل بن إسحق ثم أخذه بعد مراوضة في الصلح ، وهمّ بقتله فأشار عليه أبو عمّار باستبقائه فلم يطعه وقتله . ودخلوا القيروان فاستباحوها ولقيه مشيخة الفقهاء فأمّنهم بعد التقريع والعتب ، وعلى أن يقتلوا أولياء الشيعة ، وبعث رسله في وفد من أهل القيروان إلى الناصر الأموي صاحب قرطبة ملتزماً لطاعته والقيام لدعوته وطالباً لمدده ، فرجعوا إليه بالقبول والوعد . ولم يزل يردّد ذلك سائر أيام الفتنة حتى أوفد إبنه أيوب في آخرها سنة خمس وثلاثين وثلثمائة ، فكان له اتصال بالناصر سائر أيامه . وزحف ميسور من المهديّة بالعساكر وفرّ عنه بنو كملان من هوّارة ولحقوا بأبي يزيد وحرّضوه على لقاء ميسور ، فزحف إليه واستوى اللقاء . واستمات أبو يزيد والنكارية فانهزم ميسور وقتله أبو كملان وبعث برأسه إلى القيروان ،

(١) وفي نسخة ثانية : الأربس وكذلك في معجم البلدان .
(٢) وفي نسخة ثانية : مجردة .

ثم إلى المغرب واستبيح معسكره .

وسرّح أبو يزيد عساكره إلى مدينة سوسة فاقتحموها عنوة وأكثروا من القتل والمثلة . وعظم القتل بضواحي أفريقية ، وخلت القرى والمنازل ومن أفلته السيف أهلكه الجوع . واستخفّ أبو يزيد بالناس بعد قتل ميسور فلبس الحرير وركب الفاره . ونكر عليه أصحابه ذلك ، وكاتبه به رؤساؤهم من البلاد ، والقائم خلال ذلك بالمهديّة يخندق على نفسه ويستنفر كتامة وصنهاجة للحصار معه . وزحف أبو يزيد حتى نزل المهديّة وناوش عساكرها الحرب ، فلم يزل الظهور عليهم ، وملك زويله . ولما وقف بالمصلّى قال القائم لأصحابه من ههنا يرجع ، واتصل حصاره للمهديّة ، واجتمع إليه البربر من قابس وطرابلس ونفوسة .

وزحف إليهم ثلاث مرّات فانهزم في الثالثة ولم يقلع ، وكذلك في الرابعة ، واشتدّ الحصار على المهديّة ونزل الجوع بهم . واجتمعت كتامة بقُسَنْطِينَة وعسكروا بها لامداد القائم ، فسرّح إليهم أبو يزيد يكموس[1] المزاتي من ورفجومة ، فانفضّ معسكر كتامة من قسنطينة . ويئس القائم من مددهم وتفرّقت عساكر أبي يزيد في الغارات والنهب فخفّ المعسكر ، ولم يبق به إلاّ هوّارة وراس بني كملان[2] وكثرت مراسلات القائم للبربر .

وإستراب بهم أبو يزيد وهرب بعضهم إلى المهديّة ، ورحل آخرون إلى مواطنهم ، فأشار عليه أصحابه بالإفراج عن المهديّة فأسلموا معسكرهم ، ولحقوا بالقيروان سنة أربع وثلاثين وثلثمائة . ودبّر أهل القيروان في القبض عليه فلم يتهيّأ لهم ، وعذله أبو عمّار فيما أتاه من الاستكثار من الدنيا فتاب وأقلع ، وعاود لبس الصوف والتقشّف . وشاع خبر إجفاله عن المهديّة فقتل النكارية في كل بلد ، وبعث عساكره فعاثوا في النواحي وأوقعوا بأهل الأمصار وخرّبوا كثيرا منها . وبعث إبنه أيوب إلى باجة فعسكر بها ينتظر وصول المدد من البربر وسائر النواحي فلم يفجأه إلاّ وصول عليّ بن حمدون الأندلسي صاحب المسيلة في حشد كتامة وزواودة ، وقد مرّ بقسنطينة والأربص وشقنبارية ، واستصحب منها العساكر فبيّته أيوب وانفضّ معسكره ، وتردّى به فرسه في بعض الأوعار فهلك .

(١) وفي نسخة ثانية : زكوا .

(٢) وفي نسخة ثانية : هوارة وراس وبنو كملان .

ثم زحف أيوب في عسكره إلى تونس وقائدها حسن بن علي من دعاة الشيعة فانهزم، ثم أتيحت له الكرّة ولحق حسن بن عليّ بلد كتامة فعسكر بهم على قسطينة . وسرّح أبو يزيد جموع البربر لحربه . ثم اجتمعت لأبي يزيد حشود البربر من كل ناحية وثابت إليه قوّته . وارتحل إلى سوسة فحاصرها ونصب عليها المجانيق . وهلك القائم سنة أربع وثلاثين وثلثمائة في شوّال وصارت الخلافة لإبنه إسمعيل المنصور فبعث بالمدد إلى سوسة بعد أن اعتزم على الخروج إليها بنفسه فمنعه أصحابه . ووصل المدد إلى سوسة فقاتلوا أبا يزيد فانهزم ولحق بالقيروان، فامتنعت عليه فاستخلص صاحبه أبا عمّار من أيديهم وارتحل عنهم .

وخرج المنصور من المهديّة إلى سوسة، ثم إلى القيروان فملكها وعفا عن أهلها وأمّنهم وأحسن في مخلّف أبي يزيد وعياله . وتوافى المدد إلى أبي يزيد ثالثة فاعتزم على حصار القيروان، وزحف إلى عسكر المنصور بساحتها فبيّتهم، واشتدّ الحرب واستمات الأولياء وافترقوا آخر نهارهم . وعاودوا الزحف مرّات ووصل المدد إلى المنصور من الجهات حتى اذا كان منتصف المحرّم كان الفتح، وانهزم أبو يزيد وعظم القتل في البربر ورحل المنصور في اتباعه فمرّ[1] ثم تبسة حتى انتهى إلى باغاية . ووافاه بها كتاب محمد بن خزر بالطاعة والولاية والاستعداد للمظاهر، فكتب إليه بترصّد أبي يزيد والقبض عليه، ووعده في ذلك بعشرين حملا من المال . ثم رحل إلى طبنة فوافاه بها جعفر بن عليّ عامل المسيلة بالهدايا والأموال . وبلغه أنّ أبا يزيد نزل بَسْكَرَة وأنه كاتب محمد بن خزر يسأله النصرة، فلم يجد عنده ما يرضيه، فارتحل المنصور إلى بَسْكَرَة فتلقّاه أهلها . وفرّ أبو يزيد إلى بني برزال بجبل سالات، ثم إلى جبل كتامة وهو جبل عياض لهذا العهد . وارتحل المنصور في أثره إلى ومرة[2] وبيّته أبو يزيد هنالك فانهزم ولم يظفر وانحاز إلى جبل سالات . ثم لحق بالرمال ورجع عنه بنو كملان، وأمّنهم المنصور على يد محمد بن خزر .

وسار المنصور في التعبية حتى نزل جبل سالات، وارتحل وراءه إلى الرمال . ثم رجع ودخل بلاد صنهاجة، وبلغه رجوع أبي يزيد إلى جبل كتامة فرجع إليه، ونزل عليه المنصور في كتامة وعجيسة وزواوة وحشد بني زنداك ومزاته ومكناسة ومكلاته .

(١) بياض بالأصل وفي نسخة ثانية : فمرّ بسبية ثم تبسة
(٢) وفي نسخة أخرى : مغرة

وتقدّم المنصور إليه فقاتلوا أبا يزيد وجموع النكارية فهزموهم واعتصموا بجبل كتامة ، ورحل المنصور إلى المسيلة وانحصر أبو يزيد في قلعة الجبل ، وعسكر المنصور أزاءها واشتدّ الحصار ، وزحف إليها مرّات ، ثم اقتحمها عليهم فاعتصم أبو يزيد بقصر في ذروة القلعة فأحيط به واقتحم ، وقتل أبو عمّار الأعمى ويكموس المزاتي ونجا أبو يزيد مثخناً بالجراحة محمولاً بين ثلاثة من أصحابه فسقط في مهواة من الأوعار فوهن وسيق من الغداة إلى المنصور فأمر بمداواته . ثم أحضره ووبّخه وأقام الحجّة عليه وتجافى عن دمه ، وبعثه إلى المهديّة وفرض له بها الجراية فجزاه خيراً . وحمل في القفص فمات من جراحته سنة خمس وثلاثين وثلثمائة . وأمر به فسلخ وحشي جلده بالتبن وطيف به في القيروان . وهرب الفلّ من أصحابه إلى ابنه فضل ، وكان مع معبد بن خزر فأغاروا على ساقة المنصور ، وكمن لهم زيري بن مناد أمير صنهاجة فأوقع بهم . ولم يزل المنصور في اتباعه إلى أن نزل المسيلة وانقطع أثر معبد ، ووافاه بمعسكره هنالك انتقاض حميد بن يصل عامل تيهرت[1] من أوليائهم ، وأنه ركب البحر من تنس إلى العدوة فارتحل إلى تيهرت وولّى عليها وعلى تنس . ثم قصد لواتة فهربوا إلى الرمال ، ورجع إلى أفريقية سنة خمس وثلاثين وثلثمائة . ثم بلغه أنّ فضل بن أبي يزيد أغار على جهات قصطيلة ، فرحل من سنته في طلبه وانتهى إلى قَفْصَة ثم ارتحل إلى[2] من أعمال الزاب ، وفتح حصن ماداس مما يليه . وهرب فضل في الرمال فأعجزه ورجع إلى القيروان سنة ست وثلاثين . ومضى فضل إلى جبل أوراس ، ثم سار منه إلى باغاية فحاصرها . وغدر به ماطيط[3] بن يعلى من أصحابه ، وجاء برأسه إلى المنصور . وانقرض أمر أبي يزيد وبنيه وافترقت جموعهم . واغتال عبدالله ابن بكار من رؤساء مغراوة بعد ذلك أيوب بن أبي يزيد وجاء برأسه إلى المنصور متقرّباً إليه . وتتبّع المنصور قبائل بني يفرن بعدها إلى أن انقطع أثر الدعوة . والبقاء لله تعالى وحده .

---

(١) تاهرت : معجم البلدان .

(٢) بياض بالأصل وفي النسخة الباريسية : مديلية وفي نسخة أخرى ميطلة .

(٣) وفي نسخة ثانية : باطيط .

* (الخبر عن الدولة الأولى لبني يفرن بالمغرب الأوسط والأقصى ومبادىء أمورهم ومصايرها) *

كان لبني يفرن من زناتة بطون كثيرة وكانوا متفرقين بالمواطن ، فكان منهم بافريقية بنو واركوا ومرنجيصة وغيرهم كما قدّمناه ، وكان منهم بنواحي تلمسان ما بينها وبين تاهَرْت أمم كثير عددهم وهم الذين اختطّوا مدينة تلمسان كما نذكره بعد . ومنهم أبو قرّة المنتري بتلك الناحية لأوّل الدولة العبّاسيّة ، وهو الذي حاصر عمر بن حفص بطبنة كما تقدّم . ولما انقرض أمر أبي يزيد وأثخن المنصور فيمن كان بأفريقية من بني يفرن أقام هؤلاء الذين كانوا بنواحي تلمسان على وفودهم . وكان رئيسهم لعهد أبي يزيد محمد بن صالح . ولما تولى المنصور محمد بن خزر وقومه مغراوة ، وكان بينه وبين بني يفرن هؤلاء فتنة هلك فيها محمد بن صالح على يد عبدالله بن بكّار من بني يفرن ، كان متحيزاً إلى مغراوة . وولي أمره في بني يفرن من بعده إبنه يعلى فعظم صيته ، واختط مدينة إفكان[1] .

ولما خطب عبد الرحمن الناصر طاعة الأموية من زناتة أهل العدوة واستألف ملوكهم ، سارع يعلى لإجابته ، واجتمع عليها مع الخير بن محمد بن خزر وقومه مغراوة ، وأجلب على وَهْرَان فملكها سنة ثلاث وأربعين وثلثمائة من يد محمد بن عون ، وكان ولاّه عليها صولات اللميطي[2] أحدر جالات كتامه سنة ثمان وتسعين ومائتين فدخلها يعلى عنوة على بنيه وخرّبها . وكان يعلى قد زحف مع الخير بن محمد إلى تاهرت وبرز إليه ميسور الخصيّ في شيعته من لماية فهزموهم وملكوا تاهَرْت ، وتقبّض على ميسور وعبدالله بن بكّار فبعث به الخير إلى يعلى بن محمد ليثأر به ، فلم يرضه كفؤاً لدمه ودفعه إلى من ثأر به من بني يفرن . واستفحل سلطان يعلى في ناحية المغرب وخطب على منابرها لعبد الرحمن الناصر ما بين تاهرت إلى طنجة .

واستدعى من الناصر تولية رجال بيته على أمصار المغرب فعقد على فاس لمحمد بن

---

(١) ايفكان : تقع بين معسكر وسيدي بلعباس من عمالة وهْرَان على بعد ٢٥ كلم من الأولى ، تعرف اليوم بعين فكان ، وكانت تدعى في العهد الزناتي أفكان (قبائل المغرب ص ١٢٠) .

(٢) وفي نسخة أخرى : دواس بن صولات اللبيصي .

الخير بن محمد بن عشيرة ونسك محمد لسنة من ولايته ، واستأذن في الجهاد والرباط بالأندلس فأجاز لذلك واستخلف على عمله ابن عمه أحمد بن أبي بكر بن أحمد ابن عثمان بن سعيد ، وهو الذي اختطّ مأذنة القرويين سنة أربع وأربعين وثلثمائة كما ذكرناه ولم يزل سلطان يعلى بن محمد بالمغرب عظيماً إلى أنّ أغزى بعد المعز لدين الله كاتبه جوهر الصِقِلّي من القيروان إلى المغرب سنة سبع وأربعين وثلثمائة فلما فصل جوهر بالجنود بادر أمير زناتة بالمغرب يعلى بن محمد اليفرني إلى لقائه والإذعان لطاعته والانحياش إليه ، ونبذ عهد الأموية ، وأعمل إلى لقيه الرحلة من بلده إيفكان وأعطاه يد الإنقياد وعهد البيعة عن قومه بني يفرن وزناتة ، فتقبّلها جوهر وأضمر الفتك به ، وتحيّر لذلك يوم فصوله من بلده ، وأسرّ إلى بعض مستخلصيه من الاتباع فأوقعوا نفرة في أعقاب العسكر طار إليها الزعماء من كتامة وصنهاجة وزناتة ، وتقبّض على يعلى فهلك في وطيس تلك الهيعة فغضّ بالرماح على أيدي رجالات كتامة وصنهاجة ، وذهب دمه هدراً في القبائل . وخرب جوهر مدينة إيفكان وفرّت زناتة أمامه وكشف القناع في مطالبتهم .

(وقد ذكر) بعض المؤرخين أنّ يعلى إنّما لقي جوهراً عند منصرفه من الغزاة بمدينة تاهَرْت ، وهنالك كان فتكه به بناحية شلف ، فتفرّقت بعدها جماعة بني يفرن وذهب ملكهم فلم يجتمعوا إلاّ بعد حين على إبنه بدوي بالمغرب كما نذكره . ولحق الكثير منهم بالأندلس كما يأتي خبرهم في موضعه وانقرضت دولة بني يفرن هؤلاء إلى أن عادت بعد مدّة على يد يعلى بفاس . ثم استقرّت آخراً بسلا وتعاقب فيهم هنالك إلى آخرها كما نذكره إن شاءالله تعالى .

* (الخبر عن الدولة الثانية لبني يفرن بسلا من المغرب الأقصى وأولية ذلك وتصاريفه) *

لما أوقع جوهر الكاتب قائد المُعِز بيعلى بن محمد أمير بني يفرن وملك المغرب سنة سبع وأربعين وثلثمائة كما ذكرناه وتفرّقت جموع بني يفرن لحق إبنه بدوي بن يعلى بالمغرب الأقصى وأحسّ بجوهر من ورائه فأبعد المفرّ وأصحر إلى أن رجع جوهر من المغرب . ويقال إنّ جوهراً تقبّض عليه واحتمله أسيراً فاعتقل إلى أن فرّ من معتقله بعد حين ،

واجتمع عليه قومه من بني يفرن وكان جوهر عند منصرفه من المغرب ولّى على الأدارسة المتحيزين إلى الريف وبلاد غمارة الحسن بن كنون شيخ بني محمد منهم فنزل[1]   وأجاز الحكم المستنصر لأوّل ولايته سنة خمس وثلثمائة[2] وزيره محمد بن قاسم بن طملس في العساكر لتدويخ المغرب واقتلاع جرثومة الأدارسة ، فأجاز في العساكر وغلبهم على بلادهم وأزعجهم جميعاً عن المغرب إلى الأندلس سنة خمس وستين وثلثمائة كما ذكرناه . ومهّد دعوة الأموية بالمغرب ، وأقفل الحكم مولاه غالباً وردّه إلى الثغر لسدّه ، وعقد على المغرب ليحيى بن محمد بن هاشم التجيبي صاحب الثغر الأعلى ، وكان أجازه مدداً لغالب في رجال العرب وجند الثغور حتى اذا انغمس الحكم في علّة الفالج وركدت ريح المروانية بالمغرب واحتاجت الدولة إلى رجالها لسدّ الثغور ودفاع العدو ، استدعى يحيى بن محمد بن هاشم من العدوة ، وأداله الحاجب المصحفي بجعفر بن علي بن حمدون أمير الزاب والمسيلة النازع إليهم من دعوة الشيعة ، وجمعوا بين الانتفاع به في العدوة والراحة مما يتوقّع منه على الدولة ومن البرابرة في التياث الخلافة لما كانوا أصاروا إليه من النكبة ، وطوّقوه من المحنة . ولما كان اجتمع بقرطبة من جموع البرابرة فعقدوا له ولأخيه يحيى على المغرب وخلعوا عليهما وأمكنوهما من مال دثروكسي فاخرة للخلع على ملوك العدوة ، فنهض جعفر إلى المغرب سنة خمس وستين وثلثمائة وضبطه .

واجتمع إليه ملوك زناتة مثل بدوي[3] بن يعلى أمير بني يفرن وابن عمّه نوبخت بن عبدالله بن بكّار ، ومحمد بن الخير بن خزر وابن عمّه بكساس بن سيّد الناس ، وزيري بن خزرو زيري ومقاتل إبنا عطية بن تبادها[4] وخزرون بن محمد وفلفول بن سعيد أمير مغراوة ، واسمعيل بن البوري أمير مكناسة ، ومحمد ابن عمه عبدالله بن مدين وخزرون بن محمد الازداجي ، وكان بدوي بن يعلى من أشدّهم قوة وأحسنهم طاعة . ولما هلك الحكم وولي مكانه هشام المؤيد ، وانفرد محمد بن أبي عامر بحجابته اقتصر من العدوة لأوّل قيامه على مدينة سبتة ، فضبطها بجند السلطان

(١) بياض بالأصل وفي إحدى النسخ : فنزل البصرة

(٢) حسب مجرى الأحداث : يجب أن تكون خمسين وثلثمائة .

(٣) وفي نسخة أخرى : يدر .

(٤) وفي نسخة أخرى : تبادلت .

ورجال الدولة ، وقلّدها الصنائع من أرباب السيوف والأقلام ، وعوّل في ضبط ما وراء ذلك على ملوك زناتة وتعهّدهم بالجوائز والخلع ، وصار إلى إكرام وفودهم وإثبات من رغب في الإثبات في ديوان السلطان منهم ، فجدّدوا في ولاية الدولة وبث الدعوة.

وفسد ما بين أمير العدوة جعفر بن علي وأخيه يحيى واقتطع يحيى مدينة البصرة لنفسه وذهب بأكثر الرجال. ثم كانت على جعفر النكبة التي نكبه برغواطة في غزاته إياهم ، واستدعاه محمد بن أبي عامر لأول أمره لما رآه من استقامته إليه ، وشدّ أزره وتلوّى عليه كراهية لما يلقى بالأندلس من الحكم. ثم أصلحه وتخلّى لأخيه عن عمل المغرب وأجاز البحر إلى ابن أبي عامر فحلّ منه بالمكان الأثير، وتناغت زناتة في التزلّف إلى الدولة بقرب الطاعات ، فزحف خزرون بن فلفول سنة ست وستين وثلثمائة إلى مدينة سجلماسة فاقتحمها ومحى دولة آل مدرار منها ، وعقد له المنصور عليها كما ذكرنا ذلك قبل.

وزحف عقب هذا الفتح بُلُكّين بن زيري قائد أفريقية للشيعة إلى المغرب سنة تسع وستين وثلثمائة زحفه المشهور وخرج محمد بن أبي عامر من قرطبة إلى الجزيرة لمدافعته بنفسه ، واحتمل من بيت المال مائة حمل ومن العساكر ما لا يحصى عدّه. وأجاز جعفر بن علي بن حمدون إلى سبتة ، وانضمّت إليه ملوك زناتة ورجع بُلُكّين عنهم إلى غزو برغواطة إلى أن هلك سنة ثلاث وسبعين وثلثمائة كما ذكرناه.

ورجع جعفر إلى مكانه من ابن أبي عامر ، لم يسمح بمقامه عنه ، ووصل حسن بن كنون خلال ذلك من القاهرة بكتاب العزيز نزار بن معدّ إلى بلكّين صاحب أفريقية في إعانته إلى ملك المغرب وإمداده بالمال والعساكر ، فأمضاه بلكّين لسبيله ، وأعطاه مالاً ووعده بإضعافه ونهض إلى المغرب فوجد طاعة المروانية قد استحكمت فيه. وهلك بلكّين أثر ذلك وشغل إبنه المنصور عن شأنه فدعا الحسن بن كنون إلى نفسه ، وأنفذ أبو محمد بن أبي عامر ابن عمه محمد بن عبدالله ويلقّب عسكلاجة لحربه سنة خمس وسبعين وثلثمائة وجاء أثره إلى الجزيرة كما يشارف القصة ، وأحيط بالحسن بن كنون فسأل الأمان وعقد له مقارعه عمر وعسكلاجة ، وأشخصه إلى الحضرة فلم يمض ابن أبي عامر أمامه ، ورأى أن لا ذمّة له لكثرة نكثة فبعث من ثقاته من أتاه برأسه ، وانقرض أمر الأدارسة وانمحى أثرهم فأغضب عمر وعسكلاجة لذلك.

واستراح إلى الجند بأقوال نميت عنه إلى المنصور فاستدعاه من العدوة وألحقه بمقتوله ابن كنون .

وعقد على العدوة للوزير حسن بن أحمد بن عبد الودود السلمي ، واكثف عدده ، وأطلق في المال يده ، ونفذ إلى عمله سنة ست وسبعين وثلثمائة فضبط المغرب أحسن ضبط وهابته البرابرة ، ونزل فاس من العدوة ، فعزّ سلطانه وكثر جمعه ، وانضّم إليه ملوك النواحي ختى حذر ابن أبي عامر مغبّة استقلاله ، واستدعاه ليبلو صحة طاعته ، فأسرع اللحاق به ، فضاعف تكرمته وأعاده إلى عمله ، وكان بدوي بن يعلى هذا من بين ملوك زناتة كثير الاضطراب على الأموية والمراوغة لهم بالطاعة . وكان لمنصور بن أبي عامر يضرب بينه وبين قرينه زيري بن عطية ويقرن كلاً منهما بمناغاة صاحبه في الاستقامة ، وكان إلى زيري أميل وبطاعته أوثق ، لخلوصه وصدق طويته وانحياشه فكان يرجو أن يتمكّن من قياد بدوي بن يعلى بمناغاته ، فاستدعى بزيري بن عطية إلى الحضرة سنة سبع [1] وسبعين وثلثمائة فبادر إلى القدوم عليه وتلقّاه وأكبر موصله وأحسن مقامه ومنقلبه وأعظم جائزته ، وسام بدوي مثلها فامتنع ، وقال لرسوله : قل لابن أبي عامر متى عهد حمر الوحش تنقاد للبيطارة . وأرسل عنانه في العيث والفساد ونهض إليه صاحب المغرب الوزير حسن بن عبد الودود في عساكره وجموعه من جند الأندلس وملوك العدوة مظاهراً عليه لعدوّة زيري بن عطية ، وجمع لهم بدوي ولقيهم سنة إحدى وثمانين وثلثمائة فكان الظهور له .

وانهزم عسكر السلطان وجموع مغراوة ، واستلحموا وجرح الوزير حسن بن عبد الودود جراحات كان فيها لليال مهلكه . وطار الخبر إلى ابن أبي عامر فاغتمّ لذلك وكتب إلى زيري بضبط فاس ومكاتبة أصحاب حسن ، وعقد له على المغرب كما نستوفي ذكره عند ذكر دولتهم . وغالبه بدوي عليها مرّة بعد أخرى ونزع أبو البهار بن زيري بن مناد الصنهاجي عن قومه ، ولحق بسواحل تلمسان ناقضاً لطاعة الشيعة ، وخارجاً على أخيه المنصور بن بلكّين صاحب القيروان . وخاطب ابن أبي عامر من وراء البحر وأوفد عليه ابن أخيه ووجوه قومه فسرّب إليه الأموال والصلاة بفاس مع

---

(١) وفي نسخة أخرى : سنة تسع وسبعين .

زيري حسبما نذكره ، وجمع أيديهما على مدافعة بدوي ، فساء أمره فيهما جميعاً إلى أن راجع أبو البهار ولاية منصور ابن أخيه كما نذكره بعد . وحاربه زيري فكان له الظهور عليه ولحق أبو البهار بسبتة ، ثم عاد إلى قومه .

واستفحل زيري من بعد ذلك ، وكانت بينه وبين بدوي وقعة اكتسح زيري من ماله ومعسكره مالا كفؤ له ، وسبى حرمه . واستلحم من قومه زهاء ثلاثة آلاف فارس . وخرج إلى الصحراء شريداً سنة ثلاث وثمانين وثلثمائة . وهلك هناك فولي أمره في قومه حبّوس ابن أخيه زيري بن يعلى ، ووثب به ابن عمه أبو يداس بن دوتاس فقتله طمعاً في الرياسة من بعده ، واختلف عليه قومه فأخفق أمله وعبر البحر إلى الأندلس في جمع عظيم من قومه . ووَلِيَ أمر بني يفرن من بعده حمامة بن زيري بن يعلى أخو حبّوس المذكور ، فاستقام عليه أمر بني يفرن وقد مرّ ذكره في خبر بدوي غير مرّة ، وأنه كانت الحرب بينه وبين زيري بن عطية سجالاً ، وكانا يتعاقبان ملك فاس بتناول الغلب . وأنه لما وفد زيري على المنصور خالفه بدوي إلى فاس فملكها ، وقتل بها خلقاً من مغراوة ، وأنه لمّا رجع زيري اعتصم بدوي بفاس فنازله زيري وهلك من مغراوة وبني يفرن في ذلك الحصار خلق . ثم اقتحمها زيري عليهم عنوة فقتله وبعث برأسه إلى سدّة الخلافة بقرطبة سنة ثلاث وثمانين وثلثمائة والله أعلم .

(ولمّا) اجتمع بنو يفرن على حمامة تحيّز بهم إلى ناحية شالة من المغرب فملكها وما إليها من تادّلاّ ، واقتطعها من زيري ، ولم يزل عميد بني يفرن في تلك العمالة ، والحرب بينه وبين زيري ومغراوة متّصلة ، وكانت بينه وبين المنصور صاحب القيروان مهاداة ، فأهدى إليه وهو محاصر لعمّه حماد بالقلعة سنة ست وأربعمائة ، وأوفد بهديته أخاه زاوي بن زيري فلقيه بالطبول والبنود . ولما هلك حمامة قام بأمر بني يفرن من بعده أخوه الأمير أبو الكمال تميم بن زيري بن يعلى فاستبدّ بملكهم ، وكان مستقيماً في دينه مولعاً بالجهاد ، فانصرف إلى جهاد برغواطة وسالم مغراوة وأعرض عن فتنتهم .

(ولمّا) كانت سنة أربع وعشرين وأربعمائة تجدّدت العداوة بين هذين الحيّين بني يفرن ومغراوة ، وثارت الإحن القديمة ، وزحف أبو الكمال صاحب شالة وتادلا وما إلى ذلك في جموع يفرن . وبرز إليه حمامة بن المعز في قبائل مغراوة ، ودارت بينهم حروب شديدة وانكشفت مغراوة وفرّ حمامة إلى وجدة ، واستولى الأمير أبو الكمال تميم وقومه على فاس وغلبوا مغراوة على عمل المغرب . واكتسح تميم اليهود بمدينة فاس ،

واصطلم نعمهم واستباح حرمهم . ثم احتشد حمامة من وجدة سائر قبائل مغراوة وزناتة وبعث الحاشدين في قياطينهم لجميع بلاد المغرب الأوسط ، ووصل إلى تنس صريخاً لزعمائهم . وكاتب من بعد عنه من رجالاتهم ، وزحف إلى فاس سنة تسع وعشرين وأربعمائة فأفرج عنها أبو الكمال تميم ولحق ببلده ومقر ملكه من شالة ، وأقام بمكان عمله وموطن إمارته منها إلى أن هلك سنة ست وأربعين وأربعمائة ووَليَ ابنه حمّاد إلى أن هلك سنة تسع وأربعين وأربعمائة . ووَليَ بعده إبنه يوسف إلى أن توفي سنة ثمان وخمسين وأربعمائة ، فوليَ بعده عمّه محمد ابن الأمير أبي تميم إلى أن هلك في حروب لمتونة حين غلبوهم على المغرب أجمع حسبما نذكره ، والملك لله يؤتيه من يشاء من عباده والعاقبة للمتّقين .

(وأمّا) أبو يداس بن دوناس قاتل حبوس بن زيري بن يعلى بن محمد فإنه لما اختلف عليه بنو يفرن وأخفق أمله في اجتماعهم له ، أجاز البحر إلى الأندلس سنة إثنتين وثمانين وثلثمائة فرفعه إخوانه أبو قرّة وأبو زيد وعطاف ، فحلّ كلّهم من المنصور محل التكرمة والإيثار ونظمه في جملة الرؤساء والأمراء واسنى له الجراية والأقطاع ، وأثبت رجاله في الديوان ، ومن أجاز من قومه فبعد صيته وعلا في الدولة كعبه .

(ولما) افترقت الجماعة وانتثر سلك الخلافة كان له في حروب البربر مع جند الأندلس آثار بعيدة وأخبار غريبة ، ولما ملك المستعين قرطبة سنة أربعمائة واجتمع إليه من كان بالأندلس من البرابرة لحق المهدي بالثغور واستجاش طاغية الجلالقة ، فزحف معه إلى غرناطة وخرج المستعين في جموعه من البرابرة إلى الساحل واتبعهم المهدي في جموعه فتواقعوا بوادي أيرة[1] فكانت بين الفريقين جولة عظم بلاء البرابرة ، وطار لأبي يداس فيما ذكر ، وانهزم المهدي والطاغية وجموعهم بعد أن تضايقت المعركة وأصابت أبا يداس بن دوناس جراحة كان فيها مهلكه ، ودفن هناك . وكان لإبنه خلوف وحافده تميم بن خلوف من رجالات زناتة بالأندلس شجاعة ورياسة ، وكان يحيى بن عبد الرحمن ابن أخيه عطاف من رجالاتهم ، وكان له اختصاص ببني حمّود ، ثم بالقاسم منهم ، ولاّه على قرطبة أيام خلافته والبقاءلله وحده .

---

(١) وفي النسخة الباريسية : أبرة .

يوسف بن حماد بن تميم بن زيري بن يعلى بن محمد بن صالح

محمد

حبوس

بدوي

حمامة

بن دوناس بن يداس بن خلوف بن تميم

عطاف بن عبد الرحمن بن يحيى

محمد الخير بن محمد

ولاه يعلى على فاس

[أحمد بن أبي بكر بن أحمد بن عثمان بن سعيد] ولاه يعلى على فاس

* (الخبر عن أبي نور بن أبي قرّة وما كان له من الملك بالأندلس أيام الطوائف) *

هذا الرجل إسمه أبو نور بن أبي قرّة بن أبي يفرن من رجالات البربر الذين استظهر بهم قومهم أيام الفتنة ، تغلّب على رندة أزمان تلك الفتنة ، وأخرج منها عامر بن فتوح من موالي الأموية سنة خمس وأربعمائة فملكها واستحدث بها لنفسه سلطاناً . ولما استفحل أمر ابن عبّاد بأشبيلية وأسف إلى تملّك ما جاوره من الأعمال والثغور ، نشأت الفتنة بينه وبين أبي نور هذا . واختلف حاله معه في الولاية والانحراف ، وسجل له سنة ثلاث وأربعين واربعمائة برنده وأعمالها فيمن سجل له من البربر . واستدعاه بعدها سنة خمسين واربعمائة لبعض ولائمه وكاده بكتاب أوقفه عليه على لسان جارية بقصره تشكو إليه ما نال منها ابنه من المحرّم ، فانطلق إلى بلده وقتل ابنه . وشعر بالمكيدة فمات أسفاً ووَلِيَ إبنه الآخر أبو نصر الى سنة سبع وخمسين وأربعمائة فغدر به بعض جنده ، وخرج هارلاً فسقط من السور ومات . وتسلّم المعتمد رنده من بعد ذلك ويقال إنّ ذلك كان عند كائنة الحمام سنة خمس وأربعين وأربعمائة وانّ أبا نور هلك فيها . ولما بلغ الخبر ابنه أبا نصر وقع ما وقع والله أعلم .

* (الخبر عن مرنجيصة من بطون بني يفرن وشرح أحوالهم) *

كان هذا البطن من بني يفرن بضواحي أفريقية وكانت لهم كثرة وقوّة . ولما خرج أبو يزيد على الشيعة وكان من أخوالهم بنو واركوا ظاهروه على أمره بما كان له معهم من العصبية . ثم انقرض أمره وأخذتهم دولة الشيعة وأولياؤهم صنهاجة وولاتهم على أفريقية بالسطوة والقهر ، وانزال العقوبات بالأنفس والأموال إلى أن تلاشوا وأصبحوا في عداد القبائل الغارمة . وبقيت منهم أحياء نزلوا ما بين القيروان وتونس أهل شاء وبقر وخيام يظعنون في نواحيها ، وينتحلون الفلح في معاشهم ، وملك الموحدون أفريقية وهم بهذا الحال ، وضربت عليهم المغارم والضرائب والعسكرة مع السلطان في غزواته بعدّة مفروضة يحضرون بها متى استقروا .

(ولما تغلّب) الكعوب من بني سُلَيْم على ضواحي أفريقية وأخرجوا منها الزواودة من الرياح أعداء الدولة لذلك العهد ، واستظهر بهم السلطان عليهم ، اتخذوا أفريقية وطناً من قابس إلى باجة . ثم اشتدّت ولايتهم للدولة وعظم الاستظهار بهم وأقطعهم ملك الدولة ما شاؤه من الأعمال والخراج فكان في أقطاعهم خراج مرنجيصة هؤلاء . ولمّا كانت وقعة بنو مزين على القيروان وكان بعدها في الفترة ما كان من طغيان الفتنة التي اعتزّ فيها العرب على السلطان والدولة ، كان لهؤلاء الكعوب المتغلّبين مدد قوي من أحياء مرنجيصة هؤلاء من الخيل للحملان ، والخيالة للاستظهار بأعدادهم في الحروب فصاروا لهم لحمة وخولاً ، وتملّكوهم تملّك العبيد ، حتى إذا اذهب الله بحمى الفتنة وأقام مائل الخلافة والدولة وصار تراث هذا الملك الحفصي إلى الأحق به مولانا السلطان أبي العبّاس أحمد ، فانقشع الجو وأضاء الأفق ودفع المتغلّبين من العرب عن أعماله ، وقبض أيديهم عن رعاياه وأصار مرنجيصة هؤلاء من صفاياه بعد إنزال العقوبة بهم على لياذهم بالعرب وظعنهم معهم ، فراجعوا الحق وأخلصوا في الانحياش ورجعوا إلى ما ألفوه من الغرامة وقوانين الخراج ، وهم على ذلك لهذا العهد والله وارث الأرض ومن عليها .

* (الخبر عن مغراوة من أهل الطبقة الأولى من زناتة وما كان لهم من الدول بالمغرب ومبدأ ذلك وتصاريفه) *

هؤلاء القبائل من مغراوة كانوا أوسع بطون زناتة وأهل الباس والغلب منهم ، ونسبهم إلى مغراو بن يصلتين بن مسر بن زاكيا بن ورسيك بن ألديرت بن جانا إخوة بني يفرن وبني يرنيان ، وقد تقدّم الخلاف في نسبهم عند ذكر بني يفرن ، ولمّا شعوبهم وبطونهم فكثير مثل بني يلنت[1] وبني زنداك وبني رواو[2] ورترمير وبني أبي سعيد وبني ورميغان والأغواط وبني ريغة وغيرهم ممن لم يحضرني أسماؤهم . وكانت مُحلاّتهم بأرض المغرب الأوسط من شلف إلى تلمسان إلى جبل مدبولة[3] وما إليها

(١) وفي نسخة أخرى : بني يليث .
(٢) وفي نسخة أخرى : بني وراق .
(٣) وفي نسخة أخرى : جبل مديونة .

ولهم مع إخوانهم بني يفرن اجتماع وافتراق ومناغاة في أحوال البدو. وكان لمغراوة هؤلاء في بدوهم ملك كبير أدركهم عليه الإسلام فأقرّه لهم وحسن إسلامهم.

وهاجر أميرهم صولات بن وزمار إلى المدينة، ووفد على أمير المؤمنين عثمان بن عفّان رضي الله عنه، فلقاه برّاً وقبولاً لهجرته، وعقد له على قومه ووطنه. وانصرف إلى بلاده محبوّاً محبوراً مغتبطاً بالدين مظاهراً لقبائل مُضَر، فلم يزل هذا دأبه. وقيل إنه تقبّض عليه أسيراً لأوّل الفتح في بعض حروب العرب مع البربر قبل أن يدينوا بالدين فأشخصوه إلى عثمان لمكانه من قومه فمنّ عليه وأسلم فحسن إسلامه، وعقد له على عمله فاختصّ صولات هذا وسائر الأحياء من مغراوة بولاء عثمان وأهل بيته من بني أمية، وكانوا خاصة لهم دون قريش، وظاهروا دعوة المروانية بالأندلس رعياً لهذا الولاء على ما تراه بعد في أخبارهم.

ولما هلك صولات قام بأمره في مغراوة وسائر زناتة من بعده إبنه حفص وكان من أعظم ملوكهم، ثم لما هلك قام بأمره إبنه خَزَر وعندما تقلّص ظلّ الخلافة عن المغرب الأقصى بعض الشيء، وأظلت فتنة ميسرة الحقير ومظفره[1] فاعتزّ خزر وقومه على أمر المضرية بالقيروان، واستفحل ملكهم وعظم شأن سلطانهم على البدو من زناتة بالمغرب الأوسط. ثم انتقض أمر بني أمية بالمشرق فكانت الفتنة بالمغرب فازدادوا اعتزازاً وعتوّا، وهلك خلال ذلك خَزَر وقام بملكه إبنه محمد وخلص إلى المغرب إدريس الأكبر بن عبدالله بن حسن بن الحسن سنة سبعين ومائة في خلافة الهادي. وقام برابرة المغرب من أَوْرَبَة ومدينة ومغيلة بأمره، واستوثق له الملك واقتطع المغرب عن طاعة بني العبّاس سائر الأيام.

ثم نهض إلى المغرب الأوسط سنة أربع وسبعين ومائة فتلقّاه محمد بن خزر هذا وألقى إليه المقادة، وبايع له عن قومه وأمكنه من تلمسان بعد أن غلب عليها بني يفرن أهلها. وانتظم لإدريس بن إدريس الأمر وغلب على جميع أعمال أبيه، وملك تلمسان وقام بنو خزر هؤلاء بدعوته كما كانوا لأبيه. وكان قد نزل تلمسان لعهد إدريس الأكبر أخوه سليمان بن عبدالله بن حسن بن الحسن القادم إليه من المشرق، وسجّل له بولاية تلمسان من سجل ابنه إدريس لمحمد ابن عمّه سليمان من بعده،

---

(١) وفي نسخة أخرى: مطخرة.

فكانت ولاية تلمسان وأمصارها في عقبه ، واقتسموا ولاية ثغورها الساحلية فكانت تلمسان لولد إدريس بن محمد بن سليمان ، وأرشكول لولد عيسى بن محمد ، وتنس لولد ابراهيم بن محمد ، وسائر الضواحي من أعمال تلمسان لبني يفرن ومغراوة .

ولم يزل الملك بضواحي المغرب الأوسط لمحمد بن خزر كما قلناه إلى أن كانت دولة الشيعة واستوثق لهم ملك أفريقية . وسرّح عبيدالله المهدي إلى المغرب عروبة بن يوسف الكتاميّ في عساكر كتامة سنة ثمان وتسعين ومائتين ، فدوّخ المغرب الأدنى ورجع . ثم سرّح بعده مصالة بن حبّوس إلى المغرب في عساكر كتامة ، فاستولى على أعمال الأدارسة واقتضى طاعتهم لعبيدالله . وعقد على فاس ليحيى بن إدريس بن عمر آخر ملوك الأدارسة . وخلع نفسه ودان بطاعتهم ، وعقد له مصالة على فاس ، وعقد لموسى بن أبي العالية أمير مكناسة وصاحب تازة[1] ، واستولى على ضواحي المغرب ، وقفل إلى القيروان . وانتقض عمر بن خزر من أعقاب محمد بن خزر الداعية لإدريس الأكبر ، وحمل زناتة وأهل المغرب الأوسط على البرابرة من الشيعة وسرّح عبيدالله المهدي مصالة قائد المغرب في عساكر كتامة سنة تسع وثلثمائة ، ولقيه محمد ابن خزر في جموع مغراوة وسائر زناتة ففلّ عساكر مصالة وخلص إليه فقتله ، وسرّح عبيد الله إبنه أبا القاسم في العساكر إلى المغرب سنة عشر وثلثمائة ، وعقد له على حرب محمد بن خزر وقومه ، فأجفلوا إلى الصحراء ، واتبع آثارهم إلى ملوية فلحقوا بسجلماسة وعطف أبو القاسم على المغرب فدوّخ أقطاره وجال في نواحيه وجدّد لابن أبي العافية على عمله ورجع ولم يلق كيداً .

(ثم إنّ الناصر) صاحب قرطبة سما له أمل في ملك العدوة ، فخاطب ملوك الأدارسة وزناتة ، وبعث إليهم خالصته محمد بن عبيدالله بن أبي عيسى سنة ستة عشر وثلثمائة فبادر محمد بن خزر إلى إجابته وطرد أولياء الشيعة من الزاب . وملك شلب وتنس من أيديهم ، وملك وَهْرَان وولّى عليها إبنه المنير[2] ، وبثّ دعوة الأموية في أعمال المغرب الأوسط ما عدا تاهَرْت . وبدأ في القيام بدعوة الأموية إدريس بن ابراهيم

---

(١) تازة : مدينة متوسطة من أقدم المدن المغربية ، تقع وسط قبيلة غياثة في منتصف الطريق بين مكناس ووجدة في موقع جبلي ممتاز بين الأطلس المتوسط وجبال الريف في ممر استراتيجي عظيم بين الغرب الشرقي وسهول فاس (كتاب المغرب ص ٧٤) .

(٢) وفي نسخة ثانية : الخير .

بن عيسى بن محمد بن سليمان صاحب أرشكول . ثم فتح الناصر سبتة سنة سبع عشرة وثلثمائة من يد الأدارسة وأجار موسى بن أبي العالية على طاعته ، واتصلت يده بمحمد بن خزر وتظاهروا على الشيعة وخالف فلفول بن خزر أخاه محمد إلى طاعة الشيعة ، وعقد له عبدالله على مغراوة .

وزحف إلى المغرب حميد بن يَصَل[1] سنة إحدى وعشرين وثلاثمائة في عساكر كتامة الى عبدالله على تاهرت فانتهى الى فاس وأجفلت أمامه ظواعن زناتة ومكناسة ودوّخ المغرب . وزحف من بعده ميسور الخصيّ سنة إثنتين وعشرين وثلثمائة فحاصر فاس وامتنعت عليه ورجع . ثم انتقض حميد بن يصل سنة ثمان وعشرين وثلثمائة وتحيّز إلى محمد بن خَزَر . ثم أجاز إلى الناصر وولاّه على المغرب الأوسط . ثم شغل الشيعة بفتنة أبي يزيد وعظمت آثار محمد بن خزر وقومه من مغراوة ، وزحفوا إلى تاهَرْت مع حميد بن يصل قائد الأموية سنة ثلاث وثلاثين وثلثمائة . وزحف معه الخير بن محمد وأخوه حمزة وعمّه عبدالله بن خَزَر ، ومعهم يعلى بن محمد في قومه بني يفرن ، وأخذوا تاهَرْت عنوة وقتلوا عبدالله بن بكّار ، وأسروا قائدها ميسور الخصيّ بعد أن قتل حمزة بن محمد بن خزر في حروبها .

وكان محمد بن خزر وقومه زحفوا قبل ذلك إلى بَسْكَرَة ففتحوا وقتلوا زيدان الخصيّ . ولما خرج إسمعيل من حصار أبي يزيد وزحف إلى المغرب في اتباعه خشية محمد بن خزر على نفسه لما سلف منه في نقض دعوتهم وقتل أتباعهم ، فبعث إليه بطاعة معروفة وأوعز إليه إسمعيل بطلب أبي يزيد ووعده في ذلك بعشرين حملاً من المال . وكان أخوه معبد بن خزر في موالاة أبي يزيد إلى أن هلك . وتقبّض اسمعيل بعد ذلك على على معبد سنة أربعين وثلثمائة وقتله ، ونصب رأسه بالقَيْرَوَان . ولم يزل محمد بن خزر وإبنه الخير متغلّباً على المغرب الأوسط ، ومقاسماً فيها ليعلى بن محمد . ووفد فتوح بن الخير سنة أربعين وثلثمائة على الناصر مع مشيخة تاهَرْت ووَهْرَان فأجازهم وصرفهم إلى أعمالهم .

ثم حدثت الفتنة بين مغراوة وصنهاجة وشغل محمد بن الخير وابنه خزر بحروبهم ، وتغلّب يعلى بن محمد على وَهْرَان وخرّبها وعقد الناصر لمحمد بن يَصَل على تلمسان

---

(١) هو حميد بن يصليتن الكتامي وقد زحف في عشرين ألف فارس (قبائل المغرب ١٢٠) .

وأعمالها ، وليعلى بن محمد على المغرب وأعماله ، فراجع محمد بن خزر طاعة الشيعة من أجل قريعة يعلى بن محمد . ووفد على المعز بعد مهلك أبيه إسمعيل سنة إثنتين وأربعين وثلثمائة فأولاه تكرمة وتمّ على طاعتهم إلى أن حضر مع جوهر في غزاته إلى المغرب بأعوام سبع أو ثمان وأربعين وثلثمائة ثم وفد على المعز بعد ذلك سنة خمسين وثلثمائة ، وهلك بالقيروان ، وقد نيف على المائة من السنين . وهلك الناصر المرواني عامئذ على حين انتشرت دعوة الشيعة بالمغرب وانقبض أولياء الأموية إلى أعمال سَبْتَة وطَنْجَة فقام بعده إبنه الحكم المستنصر ، واستأنف مخاطبة ملوك العدوة فأجابه محمد بن الخير ابن محمد بن خزر بما كان من أبيه الخير وجدّه محمد في ولاية الناصر ، والولاية التي لبني أمية على آل خزر بوصية عثمان بن عفّان لصولات بن وزمار جدّهم كما ذكرناه . فأثخن في الشيعة ودوّخ بلادهم . ورماه معدّ بقرينه[1] زيري بن مناد أمير صنهاجة فعقد له على حرب زناتة وسوّغه ما غلب عليه من أعمالهم ، وجمعوا للحرب سنة ستين ومائتين فلقي بلكّين بن زيري جموعهم بدسيسة من بعض أولياء محمد بن الخير قبل أن يستكمل تعبيتهم ، فأبلى منهم ثباتاً وصبراً واشتدّت الحرب بينهم وانهزمت زناتة ، حتى اذا رأى محمد بن الخير أن قد أحيط به انتبذ إلى ناحية من العسكر وذبح نفسه . واستمرّت الهزيمة على قومه ووجد منهم في المعركة سبعة عشر أميراً سوى الأتباع . وتحيز كلّ إلى فريقه .

وولى بعد محمد في مغراوة إبنه الخير وأغرى بلكّين بن زيري الخليفة معدّ وجندل بن جعفر بن علي بن حمدون صاحب المسيلة والزاب بموالاة محمد[2] بن الخير فاستراب جعفر وبعث عنه معدّ لولاية أفريقية حتى اعتزم على الرحيل إلى القاهرة ، فاشتدّت استرابته ولحق بالخير بن محمد وقومه . وزحفوا إلى صنهاجة فأتيحت لهم الكرّة وأصيب زيري بن مناد كبير العصابة ، وبعثوا برأسه إلى قرطبة في وفد من وجوه بني خَزَر مع يحيى بن عليّ أخي جعفر . ثم استراب بعدها جعفر من زناتة ولحق بأخيه يحيى ، ونزلوا على الحكم وعقد معه لبلكّين بن زيري على حرب زناتة وأمدّه بالأموال والعساكر ، وسوّغه ما تغلّب عليه من أعمالهم ، فنهض إلى المغرب سنة إحدى وستين ومائتين وأوغر بالبرابرة منهم وتقرى أعمال طبنة وباغاية والمسيلة وبسكرة

(١) وفي نسخة ثانية : قريعة .

(٢) وفي نسخة ثانية : حمد بن الخير .

وأجفلت زناتة أمامه . وتقدّم إلى تاهَرْت فمحا من المغرب الأوسط آثار زناتة ، ولحق بالمغرب الأقصى .

واتبع بلكّين آثار الخير بن محمد وقومه إلى سِجِلْمَاسَة ، فأوقع بهم وتقبّض عليهم ، فقتله صبراً وفضّ جموعهم ، ودوّخ المغرب وانكف رَاجعاً ، ومرّ بالمغرب الأوسط فالتحم بوادي زناتة ومن إليهم من المصاصين[1] ورفع الأمان على كل من ركب فرساً أو أنتج خيلاً من سائر البربر . ونذر دماءهم فأقفر المغرب الأوسط من زناتة وصار إلى ما وراء ملوية من بلاد المغرب الأقصى إلى أن كان من رجوع بني يعلى بن محمد إلى تلمسان وملكهم إياها ، ثم هلك بنو خَزَر بسِجِلْمَاسَة وطرابلس ، وملك بني زيري ابن عطية بفاس ما نحن ذاكروه إن شاءالله تعالى .

الخير بن محمد بن الخير بن محمد بن خزر من أعقاب محمد بن خزر بن حفص بن صولات بن وزمار

حمزة

عطية بن عبدالله

سعيد

---

(١) وفي نسخة ثانية : الخصّاصين .

* (الخبر عن آل زيري بن عطية ملوك فاس وأعمالها من الطبقة الأولى من مغراوة وما كان لهم بالمغرب الأقصى من الملك والدولة ومبادىء ذلك وتصاريفه) *

كان زيري هذا أمير آل خَزَر في وقته ، ووارث ملكهم البدوي ، وهو الذي مهّد الدولة بفاس والمغرب الأقصى وأورثها بنيه إلى عهد لمتونة حسبما نستوفي في شرحه . وإسمه زيري بن عطية بن عبد الرحمن بن خَزَر وجدّه عبدالله أخو محمد داعية الناصر الذي هلك بالقيروان كما ذكرناه . وكانوا أربعة إخوة محمد ومعبد الذي قتله إسمعيل وفلفول الذي خالف محمداً إلى ولاية الشيعة وعبدالله هذا وكان يعرف بأمه وإسمها تبادلت . وقد قيل إنّ عبدالله هذا هو ابن محمد بن خزر ، وأخوه حمزة بن محمد الهالك في حربه مع ميسور عند فتح تاهَرْت . ولما هلك الخير بن محمد كما قلناه بيد بلكّين سنة إحدى وستين وثلثمائة وارتحلت زناتة إلى ما وراء ملوية من المغرب الأقصى ، وصار المغرب الأوسط كلّه لصنهاجة ، واجتمع مغراوة إلى بقية آل خَزَر وأمراؤهم يومئذ محمد بن خير المذكور ومقاتل وزيري إبنا مقاتل بْن عطية بن عبدالله وخَزْرون بن فلفول .

ثم كان ما ذكرناه من ولاية بلكّين بن زيري على أفريقية ، وزحف إلى المغرب الأقصى زحفه المشهور سنة تسع وستين وثلثمائة وأجفلت أمامه ملوك زناتة من بني خزرو بني محمد بن صالح ، وانحازوا جميعاً إلى سبتة . وأجاز محمد بن الخير البحر إلى المنصور بن أبي عامر صريخاً ، فخرج المنصور في عساكره إلى الجزيرة ممدّاً لهم بنفسه . وعقد لجعفر بن علي على حرب بلكّين ، وأجازه البحر وأمدّه بمائة حمل من المال ، فاجتمعت إليه ملوك زناتة وضربوا مصافهم بساحة سبتة . وأطلّ عليهم بلكين من جبل تطاون[1] فرأى ما لا قبل له به فارتحل عنهم ، وأشغل نفسه بجهاد برغواطة إلى أن هلك منصرفاً من المغرب سنة إثنتين وسبعين وثلثمائة كما ذكرناه .

وعاد جعفر بن علي إلى مكانه من الحضرة ، وساهمه المنصور في حمل الرياسة وبقي

---

(١) تطوان : قبائل المغرب/١٤٠ . وفي نسخة أخرى تيطاوين .

المغرب غفلاً من الولاية ، واقتصر المنصور على ضبط سَبْتَة ووكّل إلى ملوك زناتة دفاع صنهاجة وسائر أولياء الشيعة . وقام يبلو طاعتهم إلى أن قام بالمغرب الحسن بن كنون من الأدارسة ، بعثه العزيز نزار من مِصْرَ لاسترجاع ملكه بالمغرب ، وأمدّه بلكين بعسكر من صنهاجة وهلك على تفيئة ذلك بلكّين ، ودعا الحسن إلى أمره بالمغرب ، وانضمّ إليه بدوي[1] بن يعلى بن محمد اليفرني وأخوه زيري وابن عمه أبو يداس فيمن إليهم من بني يفرن ، فسرّح المنصور لحربه ابن عمّه أبا الحكم عمرو بن عبدالله بن أبي عامر الملقّب عسكلاجه ، وبعثه بالعساكر والأموال فأجاز البحر وانحاش إليه ملوك آل خزر محمد بن الخير ، ومقاتل وزيري إبنا عطية ، وخزرون بن فلفول في جميع مغراوة ، وظاهروه على شأنه .

وزحف بهم أبو الحكم بن أبي عامر إلى الحسن بن كنون حتى الجؤه إلى الطاعة ، وسأل الأمان على نفسه فعقد له عمرو بن أبي عامر مارضيه من ذلك ، وأمكن به من قياده ، وأشخصه إلى الحضرة فكان من قتله وإخفار ذمّة أبي الحكم بن أبي عامر وقتله بعده ما تقدّم حسبما ذكرنا ذلك من قبل .

وكان مقاتل وزيري إبنا عطية من بين ملوك زناتة أشدّ الناس انحياشاً للمنصور قياماً بطاعة المروانية . وكان بدوي بن يعلى وقومه بنو يفرن منحرفين عن طاعتهم . ولما انصرف أبو الحكم بن أبي عامر من المغرب عقد المنصور عليه للوزير حسن بن أحمد ابن عبد الودود السلمي وأطلق يده في انتقاء الرجال والأموال فأنفذه إلى عمله سنة ست وسبعين وثلثمائة وأوصاه بملوك مغراوة من زناتة ، واستبلغ بمقاتل وزيري من بنيهم لحسن انحياشهم وطاعتهم ، وأغراه ببدوي بن يعلى المضطرب الطاعة الشديد المراوغة ، فنفذ لعمله ونزل بفاس ، وضبط أعمال المغرب ، واجتمعت إليه ملوك زناتة .

وهلك مقاتل بن عطية سنة ثمان وسبعين وثلثمائة واستقلّ برياسة الظواعن البدو من مغراوة إخوة زيري بن عطية ، وحسنت مخاللته لابن عبد الودود صاحب المغرب وانحياشه بقومه إليه . واستدعاه المنصور من محله بفاس سنة إحدى وثمانين وثلثمائة إشادةً بتكريمه وأغراه ببدوي بن يعلى بمنافسته في الحظ وإيثار الطاعة فبادر

---

(١) يدو بن يعلى اليغرني : /قبائل المغرب/١٢١ .

إلى إجابته بعد ان استخلف على المغرب. إبنه المعزّ ، وأنزله بتلمسان ثغر المغرب وولّى على عدوة القرويين من فاس علي بن محمود بن أبي عليّ قشوش ، وعلى عدوة الأندلسيين عبد الرحمن بن عبد الكريم بن ثعلبة . وقدّم بين يديه هدية إلى المنصور ، ووفد عليه فاستقبله بالجيوش والعُدَّة واحتفل للقائه ، وأوسع نزله وجرايته ونوّه بإسمه في الوزارة وأقطعه رزقها . وأثبت رجاله في الديوان ووصله بقيمة هدّيته وأسنى فيها . وأعظم جائزته وجائزة وفده وعجّل تسريحه إلى عمله فقفل إلى إمارته من المغرب . ونمي عنه خلاف ما احتسب فيه من غمط[1] المعروف وإنكار الصنيع ، والاستنكاف من لقب الوزارة الذي نوّه به ، حتى أنه قال لبعض حشمه ، وقد دعاه بالوزير : وزير من يالكَع[2] فما والله إلا أمير ابن أمير، واعجبا من ابن أبي عامر ومخرقته[3] ، والله لو كان بالأندلس رجل ما تركه على حاله ، وإن له منّا ليوماً ، والله لقد تأجّرني فيما أهديت إليه حطا للقِيم ، ثم غالطني بما بذله تنبيتاً للكرم ، إلاّ أن يحتسب بثمن الوزارة التي حطّني بها عن رتبتي .

ونمي ذلك إلى ابن أبي عامر فصرّ عليها أذنه وزاد في اصطناعه ، وبعث بدوي بن يعلى اليفرني قريعه في ملك زناتة يدعوه إلى الوفادة فأساء إجابته وقال : متى عهد المنصور حمر الوحش تنقاد للبياطرة . وأخذ في إفساد السابلة والاجلاب على الأحياء والعيث في العمالة ، فأوعز المنصور إلى عامله بالمغرب الوزير حسن بن عبد الودود بنبذ العهد إليه ، ومظاهرة عدوّه زيري بن عطية عليه ، فجمعوا له سنة إحدى وثمانين وثلثمائة ولقوه فكانت الدائرة عليهم ، وتحرّم العسكر وأثبت[4] الوزير ابن عبد الودود جراحة كان فيها حتفه . وبلغ الخبر إلى المنصور فشقّ عليه وأهمه شأن المغرب ، وعقد عليه لوقته لزيري بن عطية ، وكتب إليه بعهده وأمر بضبط المغرب ومكانفة[5] جند السلطان وأصحاب حسن بن عبد الودود ، فاطلع بأعبائه وأحسن الغناء في عمله .

---

(١) غمط : احتقره وازدرى به .

(٢) بمعنى أحمق .

(٣) لعله ينوي خرقه : أي حمقه وسوء تصرّفه .

(٤) وفي نسخة أخرى : اثبتت . ويقال طعنه فاثبت فيه الرمح أي أنفذه ، وضربوه حتى اثبتوه : أي اثخنوه (القاموس) .

(٥) بمعنى المحافظة على جند السلطان وفي نسخة أخرى : مكاتبة .

واستفحل شأن بدوي بن يعلى وبني يفرن ، واستغلظوا على زيري بن عطية وأصلوه نار الفتنة ، وكانت حروبهم سجالاً ، وسئمت الرعايا بفاس كثرة تعاقبهم عليها وانتزاؤهم على عملها . وبعث الله لزيري بن عطية ومغراوة مدداً من أبي البهار بن زيري بن مناد بما كان انتقض على ابن أخيه منصور بن بلكّين صاحب القيروان وأفريقية ، ونزع عن دعوة الشيعة إلى المروانية . واقتفى أثره في ذلك خلّوف بن أبي بكر صاحب تاهَرْت وأخوه عطية لصهر كان بينهما وبين زيري ، فاقتسموا[1] أعمال المغرب الأوسط ما بين الزاب وأنشريس[2] ووهران ، وخطبوا في سائر منابرها باسم هشام المؤيّد ، وخاطب أبو البهار من وراء البحر محمد بن أبي عامر ، وأوفد عليه أبا بكر بن أخيه حَبُّوس بن زيري في طائفة من أهل بيته ووجوه قومه ، فاستقبلوا بالجيش ولقاه رحباً وتسهيلاً ، وأعظم موصله وأسنى جوائز وفده وصلاتهم ، وأنفذ معه إلى عمه أبي البهار بخمسمائة قطعة من صنوف الثياب الخز والعبيد ، وما قيمته عشرة آلاف درهم من الآنية والحلي ، وبخمسة وعشرين ألفاً من الدنانير ، ودعاه إلى مظاهرة زيري بن عطيّة على بدوي بن يعلى ، وقسّم بينهما أعمال المغرب شق الأَبْـلُـمَة حتى لقد اقتسما مدينة فاس عدوة بعد عدوة ، فلم يرع ذلك بدوي ولا وزعه عن شأنه من الفتنة والاجلاب على البدو والحاضرة ، وشق عصا الجماعة . وانتقض خلّوف بن أبي بكر على المنصور لوقته ، وراجع ولاية المنصور بن بلكّين .

ومرض أبو البهار في المظاهرة عليه للوصلة التي بينهما ، وقعد عمّا قام له زيري بن عطية من حرب خلّوف بن أبي بكر ، وأوقع به زيري في رمضان سنة إحدى وثمانين وثلثمائة واستلحمه وكثيراً من أوليائه ، واستولى على عسكره ، وانحاش إليه عامّة أصحابه . وفرّ عطية شريداً إلى الصحراء ، ثم نهض على أثرها لبدوي بن يعلى وقومه فكانت بينهم لقاآت انكشف فيها أصحاب بدوي واستلحم منهم زهاء ثلاثة آلاف ، واكتسح معسكره وسبيت حرمه التي كانت منهنّ أمّه وأخته ، وتحيّز سائر أصحابه إلى فئة زيري وخرج شريداً إلى الصحراء إلى أن اغتاله ابن عمّه أبو يدّاس بن دوناس كما ذكرناه ، وورد خبر الفتحين متعاقبين على المنصور فعظم موقعها لديه . وقد قيل إنّ مقتل بدوي إنّما كان عند إياب زيري من الوفادة ، وذلك أنه لما استقدمه المنصور

---

(١) وفي نسخة أخرى : فاقتطعوا .

(٢) جبال ونشريس : قبائل المغرب/١٢١ .

ووفد عليه كما ذكرناه ، خالفه بدوي إلى فاس فملكها وقتل من مغراوة خلقاً واستمكن بها أمره . فلمّا رجع زيري من وفادته امتنع بها بدوي فنازله زيري وطال الحصار وهلك من الفريقين خلق . ثم اقتحمها عليه عنوة وبعث برأسه إلى سدّة الخلافة بقرطبة . إلا أن راوي هذا الخبر يجعل وفادة زيري على المنصور وقتله لبدوي سنة ثلاث وثمانين وثلثمائة[1] فالله أعلم أيّ ذلك كان .

(ثم إنّ زيري) فسد ما بينه وبين أبي البهار الصنهاجي وتزاحفا فأوقع به زيري وانهزم أبو البهار إلى سَبْتَة موريا بالعبور إلى المنصور فبادر بكاتبه عيسى بن سعيد بن القطاع في قطعة من الجند إلى تلقّيه فحاد عن لقائه . وصاعد إلى قلعة جراوة ، وقد قدم الرسل إلى ابن أخيه المنصور صاحب القيروان مستميلاً إلى أن التحم ذات بينهما . ثم تحيّز إليه وعاد إلى مكانه من عمله ، وخلع ما تمسّك به من طاعة الأموية وراجع طاعة الشيعة فجمع المنصور لزيري بن عطيّة أعمال المغرب . واستكفى به في سدّ الثغر وعوّل عليه من بين ملوك المغرب في الذبّ عن الدعوة ، وعهد إليه بمناجزة أبي البهار وزحف إليه زيري في أمم عديدة من قبائل زناتة وحشود البربر وفرّ أمامه ، ولحق بالقيروان . واستولى زيري على تلمسان وسائر أعمال أبي البهار . وملك ما بين السوس الأقصى والزاب فاتسع ملكه وانبسط سلطانه واشتدّت شوكته ، وكتب بالفتح إلى المنصور بمائتين من الخيل وخمسين جملاً من المهاري السبق ، وألف درقة من جلود اللمط وأحمال من قسي الزان وقطوط الغالية والزرافة وأصناف الوحوش الصحراوية كاللمط وغيره ، وألف حمل من التمر وأحمال من ثياب الصوف الرفيعة كثيرة ، فجدّد له عهده على المغرب سنة إحدى وثمانين وثلثمائة وأنزل أحياءه بأنحاء فاس في قياطينهم .

واستفحل أمر زيري بالمغرب ودفع بني يفرن عن فاس إلى نواحي سلا ، واختط مدينة وَجْدة سنة أربع وثمانين وثلثمائة وأنزلها عساكره وحشمه ، واستعمل عليها ذويه ، ونقل إليها ذخيرته ، وأعدّها معتصماً ، وكانت ثغراً للعمالتين المغرب الأقصى والأوسط .

(ثم فسد) ما بينه وبين المنصور بما نمي عنه من التألف لهشام باستبداد المنصور عليه

---

(١) كذا في قبائل المغرب سنة ٣٨٣هـ./ص ١٢١ .

فسامه المنصور الهضيمة . وأبى منها ، وبعث كاتبه ابن القطاع في العساكر ، فاستعصى عليه وأمكنه صاحب قلعة حجر النسر منها ، فأشخصه إلى الحضرة . وأحسن إليه المنصور وسمّاه الناصح ، وكشف زيري وجهه في عداوة ابن أبي عامر والإغراء به والتشيّع لهشام المؤيّد والامتعاض له من هضيمته وحجره ، فسخطه عند ابن أبي عامر وقطع عنه رزق الوزارة ، ومحى إسمه من ديوانه ونادى بالبراءة منه .

وعقد لواضح مولاه على المغرب وعلى حرب زيري بن عطية ، وانتقى له الحماة من سائر الطبقات ، وأزاح عللهم وأمكنه من الأموال للنفقات وأحمال السلاح والكسي ، وأصحبه طائفة من ملوك العدوة كانوا بالحضرة ، منهم : محمد بن الخير ابن محمد بن الخير وزيري بن خزر وابن عمها بكساس بن سيّد الناس . ومن بني يفرن أبو بخت[1] بن عبدالله بن بكّار . ومن مكناسة اسماعيل بن البوري ومحمد بن عبدالله بن مدين ، ومن أزداجَة خَزْرُون بن محمد وأمدّه بوجوه الجند . وفصل من الحضرة سنة سبع وثمانين وثلثمائة وسار في التعبية وأجاز البحر إلى طَنْجَة فعسكر بوادي ردات[2] وزحف زيري بن عطيّة في قومه ، فعسكر إزاءه وتواقفا ثلاثة أشهر ، واتهم واضح رجالات بني مرزال بالادهان فأشخصهم إلى الحضرة وأغرى بهم المنصور فوبخّهم وتنصّلوا فصفح عنهم ، وبعثهم في غير ذلك الوجه . ثم تناول واضح حصن أصيلا ونكّور فضبطها واتصلت الوقائع بينه وبين زيري ، وبيّت واضح معسكر زيري بنواحي أصيلا وهم غارّون[3] فأوقع بهم وخرج ابن أبي عامر من الحضرة لاستشراف أحوال واضح وإمداده ، فسار في التعبية واحتلّ بالجزيرة عند فرضة المجاز ، ثم بعث عن ابنه المظفّر من مكان استخلافه بالزاهرة ، وأجاز إلى العدوة واستكمل معه أكابر أهل الخدمة وجلّة القواد . وقفل المنصور الى قُرْطُبَة واستراع[4] خبر عبد الملك بالمغرب ورجع إليه عامّة أصحاب زيري من ملوك البربر وتناولهم من إحسانه وبرّه ما لم يعهدوا مثله .

وزحف عبد الملك الى طَنجَة واجتمع مع واضح ، وتلوم هناك مزيحاً لعلل العسكر ، فلما

---

(١) وفي نسخة اخرى : ابو نو بخت .

(٢) كذا في النسخة الباريسية وفي نسخة اخرى : وادي ركاب .

(٣) بمعنى (مغيرون) .

(٤) كذا في النسخة الباريستية وفي نسخة اخرى : استذاع بمعنى ذاع وهذه من التعابير التي يستعملها ابن خلدون .

استتم تدبيره زحف في جمع لا كفاء له . فلقيه زيري بوادي منى من أحواز طَـنْجَة في شوّال سنة ثمان وثمانين وثلثمائة فدارت بينهم حروب شديدة . وهمّ[1] فيها أصحاب عبد الملك وثبت هو . وبينما هم في حَوْمَة الحرب إذ طعن زيري بعض الموتورين من أتباعه اهتبل الغـرّة في ذلك الموقف فطعنه ثلاثاً في نحره أشواه بها ، ومرّ يشتدّ نحو المظفّر ، وبشرّه فاستكذبه لثبوت رايته ثم سقط إليه الصحيح فشدّ عليهم فاستوت الهزيمة وأثخن فيه بالقتل ، واستولى على ما كانَ في عسكرهم مما يذهب فيه الوصف . ولحق زيري بفاس جريحاً في قلّة ، فامتنع عليه أهلها ودافعوه بحرمه ، فاحتملهنّ وفرّ أمام العساكر إلى الصحراء ، وأسلم جميع أعماله . وطيّر عبد الملك بالفتح إلى أبيه فعظم موقعه عنده وأعلَن بالشكر لله والدعاء وبثّ الصَدقَات وأعتقَ الموالي ، وكتب إلى إبنه عبد الملك بعهده على المغرب فأصلح نواحيه وسدّ ثغوره ، وبعث العمّال في جهاته : فأنفذ محمد بن الحسن بن عبد الودود في جند كثيف إلى تادلا[2] واستعمل حميد بن يصل المكناسي[3] على سجلماسة فخرج كل لوجهه ، واقتضوا الطاعة وحملوا إليه الخراج ، وأقفل المنصور ابنه عبد الملك في جمادى من سنة تسع وثمانين وثلثمائة وعقد على المغرب لواضح فضبطه واستقام على تدبيره . ثم عزله في رمضان من سنته بعبيدالله ابن أخيه يحيى ، ثم ولّى عليه من بعده اسمعيل بن البوري ، ثم من بعده أبا الأحوص معن بن عبد العزيز التجيبيّ إلى أن هلك المنصور .

وأعاد المظفّر بن المعز بن زيري من منتبذه بالمغرب الأوسط لولاية أبيه بالمغرب فنزل فاس ، وكان من خبر زيري أنه لما استقل من نكبته وهزيمة عبد الملك إيّاه ، واجتمع إليه بالصحراء فلّ مغراوة ، وبلغه اضطراب صنهاجة واختلافهم على باديس بن المنصور بعد مهلك أبيه ، وأنه خرج عليه بعد عمومته مع ماكسن بن زيري ، فصرف وجهه حينئذ إلى أعمال صنهاجة ينتهز فيها الفرصة . واقتحم المغرب الأوسط ونازل تاهرْت وحاصر بها يطوّفت بن بلكّين . وخرج باديس من القيروان صريخاً له . فلمّا مرّ بطبنة امتنع عليه فلفول بن خَزْرُون وخالفه إلى أفريقية فشغل بحربه . وكان

(١) همّ بالشيء : عزم عليه وقصد فعله ولم يعمله .
(٢) تادلا : مركز فلاحي عسكري يبلغ ارتفاعه عن سطح البحر ٥٠٠ م على الضفة اليمنى لوادي ام الربيع يقع وسط ناحية اشتهرت بتربية الاغنام وبجودة الاصناف (كتاب الغرب/٧٢) .
(٣) هو حميد بن يصلتين الكتامي (قبائل الغرب ١٢٠) .

أبو سعيد بن خزرون لحق بأفريقية وولاّه المنصور على طبنة كما نذكره ، فلما انتقض سار إليه باديس ودفع حمّاد بن بلكين في عساكر صنهاجة إلى مدافعة زيري بن عطية فالتقيا بوادي ميناس قرب تاهَرْت ، فكانت الدبرة على صنهاجة ، واحتوى زيري على معسكرهم واستلحم ألوفا منهم . وفتح مدينة تاهرت وتلمسان وشلف وتنس والمسيلة ، وأقام الدعوة فيها كلّها للمؤيد هشام ولحاجبه المنصور من بعده .

ثم اتبّع آثار صنهاجة إلى أشير قاعدة ملكهم ، فأناخ عليها واستأمن إليه زاوي بن زيري ومن معه من أكابر أهل بيته المنازعين لباديس فأعطاه منه ما سأل ، وكتب إلى المنصور بذلك يسترضيه ويشترط على نفسه الرهن والاستقامة إنْ أعيد إلى الولاية ، ويستأذنه في قدوم زاوي وأخيه خلاّل ، فأذن لهما وقدما سنة تسعين وثلثمائة ، وسأل أخوهما أبو البهار مثل ذلك ، وأنفذ رسله يذكر تقديمه فسوّفه المنصور لما سبق من نكثه . واعتلّ زيري بن عطيّة وهو بمكانه من حصار أشير فأفرج عنها . وهلك في منصرفه سنة إحدى وتسعين وثلثمائة واجتمع آل خزر وكافة مغراوة من بعده على ابنه المُعزّ بن زيري فبايعوه ، وضبط أمرهم وأقصر عن محاربة صنهاجة ثم استجدى للمنصور واعتلق بالدعوة العامريّة وصلحت حاله عندهم ، وهلك المنصور خلال ذلك ورغب المعز من ابنه عبد الملك المظفّر أن يعيده إلى عمله على مال يحمله إليه وعلى أن يكون ولده معنصر رهينة بقرطبة فأجابه إلى ذلك وكتب له عهده وأنفذ به وزيره أبا علي بن خديم[1] (ونسخته) : **بسم الله الرحمن الرحيم** صلى الله علي سيدنا محمد وآله من الحاجب المظفّر سيف الدولة دولة الامام الخليفة هشام المؤيد بالله أمير المؤمنين أطال الله بقاءه عبد الملك بن المنصور بن أبي عامر إلى كافة مَدَنيّي فاس وكافة أهل المغرب سلّمهم الله أمّا بعد أصلح الله شأنكم وسلّم أنفسكم وأديانكم ، فالحمد لله علاّم الغيوب وغفّار الذنوب ومقلّب القلوب ذي البطش الشديد المبديء المعيد الفعّال لما يريد ، لا رادّ لامره ، ولا معقب لحكمه ، بل له الملك والأمر ، وبيده الخير والشرّ ، إيّاه نعبد وايّاه نستعين ، واذا قضى أمراً فإنمّا يقول له كن فيكون . وصلى الله على سيّدنا محمد سيّد المرسلين وعلى آله الطيبين ، وجميع الأنبياء والمرسلين والسلام عليكم أجمعين .

---

(١) كذا في النسخة الباريسية وفي نسخة اخرى : علي بن جدلم .

وإن المعزّ بن زيري بن عطيّة أكرمه الله تابع رسله لدينا وكتبه متنصّلا من هنات دفعته إليها ضرورات ، ومستغفراً من سيآت حطتها من توبته حسنات ، والتوبة محاء الذنب ، والاستغفار منقذ من العيب[1] . واذا أذن الله بشيء يسرّه ، وعسى أن تكرهوا شيئاً ولكم فيه خير . وقد وعد من نفسه استشعار الطاعة ، ولزوم الجادة ، واعتقاد الاستقامة وحسن المعونة وخفة المؤنة ، فوليّناه ما قبلكم ، وعهدنا إليه أن يعمل بالعدل فيكم ، وأن يرفع أعمال الجور عنكم . وأن يعمّر سبلكم ، وأن يقبل من محسنكم ويتجاوز عن مسيئكم إلاّ في حدود الله تبارك وتعالى . وأشهدنا الله عليه بذلك وكفى بالله شهيدا . وقد وجّهنا الوزير أبا علي بن خديم أكرمه الله وهو من ثقاتنا ووجوه رجالنا ليأخذ بشأنه ويؤكد العهد فيه عليه بذلك ، وأمرناه بإشراككم فيه ونحن بأمركم معتنون وأحوالكم مطالعون ، وأن يقضي على الأعلى للأدنى ، ولا يرتضي فيكم بشيء من الأدنى فثقوا بذلك وأسكنوا إليه وليمض القاضي أبو عبدالله أحكامه مشدوداً ظهره بنا ، معقودا سلطانه بسلطاننا ، ولا تأخذه في الله لومة لائم ، فذلك طبنا به إذ ولّيناه ، وأملنا فيه اذ قلّدناه ، والله المستعان ، وعليه التكلان ، لا إله إلاّ هو ، وتبلغوا منا سلاماً طيباً جزيلاً ورحمة الله وبركاته كتب في ذي القعدة من سنة ست وتسعين وثلاثمائة .

(ولما وصل) إلى المعز بن زيري عهد المظفّر بولايته على المغرب ما عدا كورة سجلماسة ، فإنّ واضحاً مولى المنصور عهد في ولايته على المغرب بها لوَانُدِين بن خَزْرُون بن فلفول حسبما نذكره ، فلم تدخل في ولاية المعز هذه . فلمّا وصله عهد المظفّر ضمّ نشره[2] وثاب إليه نشاطه ، وبثّ عمّاله في جميع كور المغرب وجبي خراجها ، ولم تزل ولايته متسقة ، وطاعة رعاياه منتظمة .

(ولما) افترق أمر الجماعة بالأندلس واختلّ رسم الخلافة وصار الأمر فيها طوائف إستحدث المعزّ في التغلّب على سجلماسة وانتزاعها من أيدي بني وَانُدين بن خزرون فأجمع لذلك ، ونهض إليه سنة سبع وأربعمائة وبرزوا إليه في جموعهم فهزموه ، ورجع إلى فاس في فلّ من قومه وأقام على الاضطراب من أمره إلى أن هلك سنة سبع عشرة وأربعمائة وولي من بعده ابن عمه حمامة بن المعز بن عطية ، وليس كما يزعم

---

(١) وفي نسخة ثانية : العتب .

(٢) النشر : القوم المتفرقون لا يجمعهم رئيس .

بعض المؤرخين انه ابنه وإنما هو اتفاق في الأسماء أوجب هذا الغلط ، فاستولى حمامة هذا على عملهم واستفحل ملكه ، وقصده الامراء والعلماء وأتته الوفود ومدحه الشعراء ثم نازعه الأمر أبو الكمال تميم بن زيري بن يعلى اليفرني سنة أربع وعشرين وأربعمائة من بني يدوي بن يعلى المتغلبين على نواحي سلا ، وزحف إلى فاس في قبائل بني يفرن ومن انضاف إليهم من زناتة .

وبرز إليه حمامة في جموع مغراوة ومن إليهم فكانت بينهم حروب شديدة أجلت عن هزيمة حمامة . ومات من مغراوة أمم واستولى تميم على فاس وأمال المغرب ، ولما دخل فاس استباح يهود وسبى حرمهم واصطلم نعمتهم ، ولحق حمامة بوَجْدَة فامتدّ من هنالك من قبائل مغراوة من أنجاد مديونة وملوية . وزحف إلى فاس فدخلها سنة تسع وعشرين وأربعمائة وتحيّز تميم إلى موضع إمارته من سلا وأقام حمامة في سلطان المغرب . وزحف إليه سنة ثلاثين وأربعمائة القائد ابن حمّاد صاحب القلعة في جموع صنهاجة ، وخرج إليه مجمعاً حربه ، وبثّ القائد عطاءه في زناتة واستعبدهم[1] على صاحبهم حمامة ، فأقصر عن لقائه ولاذ منه بالسلم والطاعة ، رجع القائد عنه ورجع هو إلى فاس . وهلك سنة إحدى وثلاثين وأربعمائة فوليّ بعده ابنه دوناس ويكنّى أبا العطاف ، واستولى على فاس وسائر عمل أبيه ، وخرج عليه لأوّل أمره حمّاد ابن عمه معنصر بن المعز فكانت له معه حروب ووقائع ، وكثرت جموع حمّاد فغلب دوناس على الضواحي وأحجره بمدينة فاس وخندق دوناس على نفسه الخندق المعروف بسياج حماد ، وقطع حمّاد جرية الوادي عن عدوة القرويين إلى أن هلك محاصراً لها سنة خمس وثلاثين وأربعمائة فاستقامت دولة دوناس ، وانفسحت أيامه ، وكثر العمران ببلده ، واحتفل في تشييد المصانع وأدار السور على أرباضها ، وبنى بها الحمامات والفنادق فاستبحر عمرانها ورحل التجّار إليها بالبضائع ، وهلك دوناس سنة إحدى وخمسين وأربعمائة فوليَ بعده ابنه الفتوح ونزل بعدوة الاندلس ونازعه الامر أخوه الاصغر عجيسة وامتنع بعدوة القرويين ، وافترق أمره بافتراقها وكانت الحرب بينهما سجالاً ، ومحالها بين المدينتين حيث يفضي باب النقبة بعدوة القرويين لهذا العهد ، وشيّد الفتوح باب عدوة الأندلس وهو مسمّى به إلى الآن ، واختطّ عجيسة

(١) وفي نسخة ثانية : واستفسرهم .

باب الجيسة وهو أيضا مسمّى به وإنما حذفت عينه لكثرة الاستعمال [1] وأقاموا على ذلك إلى أن غدر الفتوح بعجيسة أخيه سنة ثلاث وخمسين وأربعمائة وبيّته فظفر به وقتله ، ودهم المغرب أثر ذلك على ما دهمه من أمر المرابطين من لمتونة ، وخشي الفتوح مغبّة أحوالهم فأفرج عن فاس .

وزحف صاحب القلعة بلكّين بن محمد بن حمّاد إلى المغرب سنة أربع وخمسين وأربعمائة على عادتهم في غزوه ، ودخل فاس واحتمل من أكابرهم وأشرافهم رهناً على الطاعة ، وقفل إلى قلعته . وولّى على المغرب بعد الفتوح معنصر بن حماد بن معنصر[2] ، وشغل بحروب لمتونة . وكانت له عليهم الوقعة المشهورة سنة خمس وخمسين وأربعمائة ولحق بضرية[3] وملك يوسف بن تاشفين والمرابطون ، فاس وخلّف عليها عامله وارتحل إلى غمارة فخالفه معنصر إلى فاس وملكها وقتل العامل ومن معه من لمتونة ، ومثّل بهم بالحرق والصلب . ثم زحف إلى مهدي ابن يوسف الكترناني[4] صاحب مدينة مكناسة ، وقد كان دخل في دعوة المرابطين فهزمه وقتله وبعث برأسه إلى سكوت البرغواطي الحاجب صاحب سبتة . وقد بلغ الخبر إلى يوسف بن تاشفين فسرّح عساكر المرابطين لحصار فاس فأخذوا بمخنقها ، وقطعوا المرافق عنها حتى اشتدّ بأهلها الحصار ومسّهم الجهد . وبرز معنصر لإحدى الراحتين فكانت الدبرة عليه ، وفقد في الملحمة ذلك اليوم سنة ستين وأربعمائة وبايع أهل فاس من بعده لابنه تميم بن معنصر فكانت أيامه أيام حصار وفتنة وجهد وغلاء . وشغل يوسف بن تاشفين عنهم بفتح بلاد غمارة حتى اذا كان سنة إثنتين وستين وأربعمائة وفرغ من فتح غمارة صمد إلى فاس فحاصرها أياماً ، ثم اقتحمها عنوة وقتل بها زهاء ثلاثة آلاف من مغراوة وبني يفرن ومكناسة وقبائل زناتة . وهلك تميم في جملتهم حتى أعوزت مواراتهم فرادى ، فاتخذت لهم الأخاديد وقبروا جماعات . وخلص من نجا من القتل منهم إلى تلمسان ، وأمر يوسف بن تاشفين بهدم الأسوار التي كانت فاصلة بين العدوتين وصيّرهما مصراً ، وأدار عليهما سوراً واحداً ، وانقرض أمر مغراوة من فاس والبقاء لله سبحانه وتعالى .

---

(1) وفي نسخة ثانية : لكثرة الدوران في استعمالهم .
(2) وفي نسخة ثانية : بن منصور .
(3) وفي نسخة ثانية : ولحق بصدينة .
(4) وفي نسخة ثانية : الكزناني .

شعم زن بن معنصر بن حماد بن معنصر بن المعز بن زيري بن عطية بن عبدالله بن خزر

ـــ أولاه القديد بن حماد صاحب القلعة

المنتصر ـــ

ـــ منصور بن مصال

الفتوح بن دوناس حمامة بن المعز ـــ

عجيسة

* (الخبر عن بني خزرون ملوك سجلماسة من الطبقة الاولى من مغراوة وأولية ملكهم ومصائره) *

كان خزرون بن فلفول من أمراء مغراوة وأعيان بني خَزَر ، ولما غلبهم بلكّين بن زيري على المغرب الأوسط تحيّزوا إلى المغرب الأقصى وراء ملويّة . وكان بنو خزّر يدينون بالدعوة المروانية كما ذكرناه . وكان المنصور بن أبي عامر القائم بدولة المؤيد قد اقتصر لأوّل حجابته من أحوال العدوة على ضبط سبتة برجال الدولة ووجوه القوّاد وطبقات العسكر ، ودفع ما وراءها إلى أمراء زناتة من مغراوة وبني يفرن ومكناسة . وعوّل في ضبط كوره وسداد ثغوره عليهم وتعهّدهم بالعطاء وأفاض فيهم الإحسان فازدلفوا إليه بوجوه التقرّبات وأسباب الوصائل . وكان خَزْرُون بن فلفول هذا زحف يومئذ إلى سجلماسة وبها المعتز من أعقاب آل مدرار ، فانتزى بها أخوه المنتصر بعد قفول جَوْهَر

إلى المغرب وظفر بأميرهم الشاكر لله محمد بن الفتح ، فوثب المنتصر من أعقابهم بعده على سجلماسة وتملّكها . ثم وثب به أخوه أبو محمد سنة إثنتين وخمسين وثلثمائة فقتله وقام بأمر سجلماسة ، وأعاد بها ملك بني مدرار وتلقّب المعتز بالله فزحف إليه خزرون ابن فلفول سنة سبع وستين وثلثمائة في جموع مغراوة وبرز إليه المعتز فهزمه خزرون واستولى على مدينة سجلماسة ومحا دولة آل مدرار والخوارج منها آخر الدهر ، وأقام الدعوة بها للمؤيد هشام ، فكانت أول دولة أقيمت للمروانيين بذلك الصقع ، ووجد للمعتز مالاً وسلاحاً فاحتقنها وكتب بالفتح إلى هشام وأنفذ رأس المعتز فنصب بباب سدّته ونسب الأثر في ذلك الفتح لصحابة محمد بن أبي عامر ويُمْن طائره ، وعقد لخزرون على سجلماسة وأعمالها ، وجاءه عهد الخليفة بذلك فضبطها وقام بأمرها إلى أن هلك ، فولي أمر سجلماسة من بعده ابنه وانودين .

ثم كان زحف زيري بن مناد إلى المغرب الأقصى سنة تسع وستين وثلثمائة وفرّت زناتة أمامه إلى سبتة . وملك أعمال المغرب وولّى عليها من قبله وحاصر سبتة . ثم أفرج عنها وشغل بجهاد برغواطة ، وبلغه أن وانودين بن خزرون أغار على نواحي سجلماسة ، وأنه دخلها عنوة وأخذ عامله وما كان معه من الأموال والذخيرة ، فدخل إليها سنة ثلاث وتسعين وأربعمائة وفصل عنها فهلك في طريقه ، ورجع وانودين بن خزون إلى سجلماسة . وفي أثناء ذلك كان استيلاء زيري بن عطية بن عبدالله بسن خَزَر على المغرب وملك فاس بعهد هشام . ثم انتقض على المنصور آخراً وأجاز ابنه عبد الملك في العساكر إلى العدوة سنة ثمان وثمانين وأربعمائة فغلب عليها بني خزر ونزل فاس ، وبثّ العمّال في سائر نواحي المغرب لسدّ الثغور وجباية الخراج ، وعقد فيما عقد على سجلماسة لحميد بن يصل المكناسي[1] النازع إليهم من أولياء الشيعة فعقد له على سجلماسة حين فرّ عنها بنو خزرون فملكها وأقام فيها الدعوة . ولما قفل عبد الملك إلى العدوة وأعاد واضحاً إلى عمله بفاس ، استأمن إليه كثير من بني خَزَر كان منهم وانودين بن خَزْرُون صاحب سجلماسة وابن عمّه فلفول بن سعيد فأمّنهم ، ثم رجع وانودين إلى علمه بسجلماسة بعد أن تضامن أمرها وانودين وفلفول بن سعيد على مال مفروض ، وعدة من الخيل والدرق[2] يحملان إليه ذلك كلّ سنة . وأعطيا في ذلك

(١) حميد بن يصليتن الكتامي وقد مرّ معنا من قبل .

(٢) الدرق : ج درقة وهي الترس من الجلد ليس فيه خشب ولا عقب .

أبناءهما رهناً فعقد لهما واضح بذلك ، واستقل وانودين بعد ذلك بملك سجلماسة منذ أول سنة تسعين وأربعمائة مقيماً فيها للدعوة المروانية . ورجع المعز بن زيري إلى ولاية المغرب بعهد المظفّر بن أبي عامر سنة ست وتسعين وأربعمائة واستثنى عليه فيها أمر سجلماسة لمكان وانودين بها . ولما انتثر سلك الخلافة بقرطبة ، وكان أمر الجماعة والطوائف واستبدّ أمراء الأمصار والثغور وولاة الأعمال بما في أيديهم ، استبدّ وانودين هذا بأعمال سجلماسة وتغلّب على عمل درعة واستضافه إليه .

ونهض المعز بن زيري صاحب فاس سنة سبع وأربعمائة مع جموع من مغراوة يحاول انتزاع هذه الأعمال من يد وانودين ، فبرز إليه في جموعه وهزمه ، وكان ذلك سبباً في اضطراب أمر المعز إلى أن هلك ، واستفحل ملك وانودين واستولى على صبرون[1] من أعمال فاس وعلى جميع قصور ملوية ، وولّى عليها من أهل بيته . ثم هلك ووَلِيَ أمره من بعده إبنه مسعود بن وانودين ، ولم أقف على تاريخ ولايته ومهلك أبيه .

(ولمّا) ظهر عبدالله بن ياسين واجتمع إليه المرابطون من لمتونة ومسوفة وسائر المتلثّمين ، وافتتحوا أمرهم بغزو درعة سنة خمس وأربعين وأربعمائة فأغاروا على إبل كانت هناك في حمى لمسعود بن وانودين وقتل كما ذكرناه في أخبار لمتونة . ثم عاودوا الغزو إلى سجلماسة فدخلوها من العام المقبل مدخلوها ، وقتلوا من كان بها من فلّ مغراوة . ثم تتّبعوا من بعد ذلك أعمال المغرب وبلاد سوس وجبال المصامدة ، وافتتحوا صفروي سنة خمس وخمسين وأربعمائة وقتلوا من كان بها من أولاد وانودين وبقية مغراوة . ثم افتتحوا حصون ملوية سنة ثلاث وستين وأربعمائة وانقرض أمر بني وانودين كأن لم يكن ، والبقاءلله وحده وكل شيء هالك إلاّ وجهه ، سبحانه وتعالى لا ربّ سواه ، ولا معبود إلاّ إيّاه ، وهو على كل شيء قدير .

---

(١) كذا في النسخة الباريسية وفي نسخة أخرى : صفروي .

مسعود بن وانودين بن خزرون بن فلفول بن خزر

- مسعود — قتله عبدالله بن ياسين والمرابطون
- وانودين — ملك سجلماسة من يد المعتز بن محمد بن مدرار وعقد له عليها هشام المؤيد
- خزرون — فلفول بن سعيد

* (الخبر عن ملوك طرابلس من بني خزرون بن فلفول من الطبقة الأولى وأولية أمرهم وتصاريف أحوالهم) *

كان مغراوة وبنو خزر ملوكهم قد تحيّزوا إلى المغرب الأقصى أمام بلكّين ، ثم اتبعهم سنة تسع وستين وثلثمائة في زحفه المشهور ، وأحجرهم بساحل[1] سبتة حتى بعثوا صريخهم إلى المنصور. وجاءهم إلى الجزيرة مشارفاً لأحوالهم وأمدّهم بجعفر بن يحيى ومن كان معه من ملوك البربر وزناتة ، فامتنعوا على بلكّين ، ورجع عنهم فتقرى أعمال المغرب ، وهلك في منصرفه سنة إثنتين وسبعين وثلثمائة ورجع أحياء مغراوة وبنو يفرن إلى مكانهم منه . وبعث المنصور الوزير حسن بن عبد الودود عاملاً

(١) وفي نسخة أخرى : بساحة .

على المغرب ، وقدم سنة ست وسبعين وثلثمائة واختص مقاتلاً وزيري إبني عطية بن عبدالله بن خَزَر بمزيد التكرمة ، ولحق نظراؤهما من أهل بيتهما الغيرة من ذلك ، فنزع سعيد بن خزرون بن فلفول بن خزر إلى صنهاجة سنة سبع وسبعين وثلثمائه منحرفاً عن طاعة الأموية . ووافى المنصور بن بلكّين بأشير منصرفه من إحدى غزواته ، فتلقّاه بالقبول والمساهمة ، وبالغ في تكرمته[1] وعقد له على عمل طبنة سنة إحدى وثمانين وثلثمائة وخرج للقائه ، واحتفل في تكرمته ونُزُله . وأدركه الموت بالقيروان فهلك لسنته . ووفد إبنه فلفول من مكان عمله ، فعقد له على عمل أبيه وخلع عليه ، وزفّ إليه ابنته ، وسوّغه ثلاثين حملاً من المال ، وثلاثين تختاً من الثياب ، وقرّب إليه مراكب بسروج مثقلة وأعطاه عشرة من البنود مذهّبة ، وانصرف إلى عمله .

وهلك المنصور بن بلكّين سنة خمس وثمانين وثلثمائة ووَلِيَ إبنه باديس فعقد لفلفول على عمله بطبنة ، ولما انتقض زيري بن عطيّة على المنصور بن أبي عامر ، وسرّح إليه إبنه المظفّر كما قلناه ، فغلبه على أعمال المغرب . ولحق زيري بالقفر ، ثم عاج على المغرب الأوسط ، ونازل ثغور صنهاجة ، وحاصر تَيْهَرت ، وبها يطّوفت بن بلكّين . وزحف إليه حمّاد بن بلكّين من أشير في العساكر من تُلُكّاتَة ، ومعه محمد بن أبي العرب قائد باديس ، بعثه في عساكر صنهاجة من القيروان مدداً ليطّوفت . وأوغر إلى فلفول وهو بأشير أن يكون معهم . ولقيهم زيري بن عطيّة ففضّ جموعهم ، واستولى على معسكرهم ، واضطربت أفريقية فتنة وتنكّرت صنهاجة لمن كان بجهاتها من قبائل زناتة . وخرج باديس بن المنصور من رقادة في العساكر إلى المغرب . ولمّا مرّ بطبنة استقدم فلفول بن سعيد بن خزرون ليستظهر به على حربه ، فاستراب واعتذر عن الوصول . وسأل تجديد العهد إلى مقدّم السلطان فأسعف . ثم اشتدّت استرابته ومن كان معه من مغراوة فارتحلوا عن طبنة وتركوها . ولما أبعد باديس رجع فلفول إلى طبنة فعاث في نواحيها ، ثم فعل في تيجس[2] كذلك ، ثم حاصر باغاية . وانتهى باديس

---

(١) بياض بالأصل وفي نسخة ثانية : واستبلغ في ترك الأحن .

(٢) مدينة قديمة عتيقة كانت تسكنها قبيلة ورغروسة من القبائل البربرية ولعلّها تيجيساس التي وصفها موليبراس بأنها مدينة صغيرة جميلة ومرسى بحري وأنها محاطة بالحدائق الغناء (قبائل المغرب/ص ٣٠٧) (المغرب المجهول ج ٢/٢٥٦) .

إلى أشير وفرّ زيري بن عطيّة إلى صحراء المغرب ورجع على باديس بعد أن ولّى على تاهرت وأشير عمّه يطوفت بن بلكّين وانتهى إلى المسيلة فبلغه خروج عمومته ماكِسن وزاوي وغرم ومغنين فخاف أبو البهار إخَن زيري ولحق بهم من معسكره ، وبعث باديس في أثرهم عمّه حمّاد بن بلكّين ، ورحل هو إلى فلفول بن سعيد بعد أن كان سرّح عساكره إليه ، وهو محاصر باغاية ، فهزمهم وقتل قائدهم أبارعبل(١) . ثم بلغه وصول باديس فأفرج عنها ، واتبعه باديس إلى مَرْمَاجَنّة ، فتزاحفوا وقد اجتمع لِفلفول من قبائل زناتة والبربر أمم ، فلم يثبتوا لِلّقاء وانكشفوا عنه . وانهزم إلى جبل الحِنَاش ، ونزل القَيْطون بما فيه . وكتب باديس بالفتح إلى القيروان ، وقد كان الارجاف أخذ منهم المأخذ ، وفرّ كثير منهم إلى المهديّة وشرعوا في عمل الدروب بما كانوا يتوقّعون من فلفول بن سعيد حين قتل أبا رعبل ، وهزم جيوش صنهاجة ، وكانت الواقعة آخر سنة تسع وثمانين وثلثمائة وانصرف باديس إلى القيروان ، ثم بلغه ان أولاد زيري اجتمعوا مع فلفول بن سعيد وعاقدوه ، ونزلوا جميعاً فحصروا تَبْسَة فخرج باديس من القيروان إليهم ، فافترقوا ولحق العمومة بزيري بن عطية ما خلا ماكسن وابنه حسنا(٢) ، فإنهما أقاما مع فلفول . ورجع باديس في أثره سنة إحدى وتسعين وثلثمائة وانتهى إلى بسكرة ففرّ فلفول إلى الرمال . وكان زيري بن عطية محاصراً لأشير أثناء هذه الفتنة ، فأفرج عنها ، ورجع عنها أبو البهار إلى باديس ، وقفل معه إلى القيروان وتقدّم فلفول بن سعيد إلى نواحي قابس وطرابلس فاجتمع إليه من هنالك من زناتة ، وملك طرابلس على ما نذكره .

(وذلك) أنّ طرابلس كانت من أعمال مِصْرَ وكان العامل عليها بعد رحيل مَعَدّ إلى القاهرة عبدالله بن يخلف الكتامي . ولما هلك معدّ رغب بلكّين من نزال العزيز إضافتها إلى عمله ، فأسعفه بها ، وولّى عليها تمصولة بن بكّار من خواصّ مواليه . نقله إليها من ولاية بونة ، فلم يزل عليها إلى أن أرسل إلى الحاكم(٣) بمصر يرغب الكون في حضرته ، وأن يتسلّم منه عمل طرابلس . وكان بَرْجُوَان الصِقِلّي يستبد على

---

(١) وفي نسخة ثانية : أبا زعيل .

(٢) وفي نسخة ثانية : محسن .

(٣) وفي نسخة ثانية : فأقام عليها عشرين سنة إلى أيام باديس ، فتنكّرت له الأحوال عما عهد ، وبعث الى الحاكم .

الدولة ، وكان يغصّ بمكان يأنس الصِقّلي منها ، فأبعده عن الحضرة لولاية برقه ثم لمّا تتابعت رغبة تمصولة صاحب طرابلس ، أشار برجوان ببعث يأنس إليها ، فعقد له الحاكم عليها ، وأمره بالنهوض إلى عملها فوصلها سنة تسعين وثلثمائة ولحق تمصولة بمصر وبلغ الخبر إلى باديس ، فسرّح القائد جعفر بن حبيب في العساكر ليصدّه عنها . وزحف إليه يأنس فكانت عليه الهزيمة وقتل . ولحق فتّوح بن علي من قوّاده بطرابلس ، فامتنع بها ونازله جعفر بن حبيب وأقام عليها مدّة . وبينما هو محاصر له إذ وصله كتاب يوسف بن عامر عامل قابس يذكر أن فلفول بن سعيد نزل على قابس ، وأنه قاصد إلى طرابلس ، فرحل جعفر عن البلد إلى ناحية الجبل ، وجاء فلفول بن سعيد فنزل بمكانه ، وضاقت الحال بجعفر وأصحابه فارتحلوا مصممين على المناجزة وقاصدين قابس ، فتخلى فلفول عن طريقهم وانصرفوا الى قابس .

وقدم فلفول مدينة طرابلس فتلقّاه أهلها ، ونزل له فتوح بن علي عن إمارتها فملكها ، وأوطنها من يومئذ وذلك سنة إحدى وتسعين وثلثمائة وبعث بطاعته الى الحاكم فسرّح الحاكم يحيى بن علي بن حمدون ، وعقد له على أعمال طرابلس وقابس ، فوصل إلى طرابلس ، وارتحل معه فلفول وفتوح بن علي بن غفيانان في عساكر زناتة إلى حصار قابس ، فحاصروها مدّة ورجعوا إلى طرابلس . ثم رجع يحيى بن علي إلى مِصْرَ واستبدّ فلفول بعمل طرابلس ، وطالت الفتنة بينه وبين باديس ، ويئس من صريخ مصر فبعث بطاعته إلى المهدي محمد بن عبد الجبّار بقرطبة ، وأوفد إليه رسله في الصريخ والمدد ، وهلك فلفول قبل رجوعهم إليه سنة أربعمائة ، واجتمعت زناتة إلى أخيه ورّوا بن سعيد .

وزحف باديس إلى طرابلس وأجفل ورّوا ومن معه من زناتة عنها ، ولحق بباديس من كان بها من الجند ، فلقوه في طريقه ، وتمادى إلى طرابلس فدخلها ونزل قصر فلفول ، وبعث إليه ورّوا بن سعيد يسأل الأمان له ولقومه ، فبعث إليه محمد بن حسن من صنائعه ، فاستقدم وفدهم بأمانه فوصلهم ، وولّى ورّوا على نفزاوة والنعيم ابن كنون على قسطيلية وشرط عليهم أن يرحلوا بقومهم عن أعمال طرابلس ، فرجعوا إلى أصحابهم . وارتحل باديس إلى القيروان ، وولّى على طرابلس محمد بن الحسن . ونزل ورّوا بنفزاوة والنعيم بقسطيلية .

(ثم انتقض) ورّوا سنة إحدى وأربعمائة ، ولحق بجبال ايدمر فتعاقدوا على

الخلاف ، واستضاف النعيم بن كنون نفزاوة إلى عمله . ورجع خزرون بن سعيد عن أخيه ورّوا إلى السلطان باديس ، وقدم عليه بالقيروان سنة إثنتين وأربعمائة فتقبّله ووصله ، وولاّه عمل أخيه نفزاوة ، وولّى بني بجلية من قومه على قَفْصَه ، وصارت مدن الماء كلّها لزناتة ، وزحف ورّوا بن سعيد فيمن معه من زناتة إلى طرابلس ، وبرز إليه عاملها محمد بن حسن فتواقعوا ودارت بينهم حروب شديدة انهزم فيها ورّوا ، وهلك الكثير من قومه . ثم راجع حصارها وضيّق على أهلها فبعث باديس إلى خزرون وأخيه وإلى النعيم بن كنون وأمراء الجريد من زناتة بأن يخرجوا لحرب صاحبهم ، فخرجوا إليه وتواقعوا بعبرة[1] ما بين قابس وطرابلس ، ثم اتفقوا ولحق أصحاب خزرون بأخيه ورّوا . ورجع خزرون إلى عمله واتّهمه السلطان بالمداهنة في شأن أخيه ورّوا . فاستقدمه من نفزاوة فاستراب وأظهر الخلاف وسرّح السلطان إليه فتوح بن أحمد في العساكر فأجفل عن عمله ، واتبعه النعيم وسائر زناتة ، ولحقوا جميعاً بورّوا بن سعيد سنة أربع وأربعمائة وتظاهروا على الخلاف ونصبوا الحرب على مدينة طرابلس .

واشتدّ فساد زناتة فقتل السلطان من كان عنده من رهن زناتة ، واتفق وصول مقاتل ابن سعيد نازعاً عن أخيه ورّوا في طائفة من أبنائه وأخواله[2] فقتلوا معهم جميعاً ، وشغل السلطان بحرب عمّه حمّاد . ولما غلبه بشلب سنته وانصرف إلى القيروان بعث إليه ورّوا بطاعته ، ثم كان مهلك ورّوا سنة خمس وأربعمائة وانقسم قومه على ابنه خليفة وأخيه خزرون بن سعيد ، واختلفت كلمتهم ودسّ حسن بن محمد عامل طرابلس في التصريف[3] بينهم . ثم صار أكثر زناتة إلى خليفة ، وناجز عمّه خزرون الحرب فغلبه على القيطون وضبط زناتة ، وقام فيهم بأمر أبيه وبعث بطاعته إلى السلطان باديس بمكانه من حصار القلعة فتقبّلها . ثم هلك باديس ووليَ ابنه المعزّ سنة ست وأربعمائة وانتقض خليفة بن ورّوا عليه ، وكان أخوه حماد بن ورّوا يضرب على أعمال طرابلس وقابس ، ويواصل عليه الغارة والنهب إلى سنة ثلاث عشرة وأربعمائة فانتقض عبدالله بن حسن صاحب طرابلس على السلطان وأمكنه من طرابلس . وكان

---

(١) وفي نسخة ثانية : بصبرة .
(٢) وفي نسخة ثانية : أخوانه .
(٣) وفي نسخة ثانية : التضريب .

سبب ذلك أنّ المعز بن باديس لأوّل ولايته استقدم محمد بن حسن من عمله ، واستخلف عليه أخاه عبدالله بن حسن وقدم على المعز وفوّض اليه أمر[1] مملكته ، وأقام على ذلك سبعاً ، وتمكّنت حاله عند السلطان ، وكثرت السعاية فيه فنكبه وقتله ، وبلغ الخبر إلى أخيه فانتقض كما قلناه ، وامكن خليفة بن وروّا وقومه من مدينة طرابلس ، فقتلوا الصنهاجيين واستولوا عليها . ونزل خليفة بقصر عبدالله وأخرجه عنه ، واستصفى أمواله وحرمه . واتصل ملك خليفة بن وروّا وقومه بني خزرون بطرابلس . وخاطب الخليفة بالقاهرة الظاهر بن الحكم سنة سبع عشرة وأربعمائة بالطاعة وضمان السابلة وتشييع الرّفاق ، ويحفظ عهده على طرابلس فأجابه إلى ذلك ، وانتظم في عمله . وأوفد في هذه السنة أخاه حمّاداً على المعزّ بهديته فتقبلها وكافأه عليها .

(هذا آخر ما حدّث به) ابن الرقيق من أخبارهم ، ونقل ابن حمّاد وغيره أنّ المُعزّ زحف أعوام ثلاثين وأربعمائة إلى زناتة بجهات طرابلس ، فبرزوا إليه وهزموه . وقتلوا عبدالله بن حمّاد وسبوا أخته أم العلو بنت باديس ، ومنّوا عليها بعد حين وأطلقوها إلى أخيها . ثم زحف إليهم ثانية فهزموه . ثم أتيحت له الكرّة عليهم فغلبهم وأذعنوا لسلطانه ، واتّقوه بالمهادنة ، فاستقام أمرهم على ذلك . وكان خزرون بن سعيد لما غلبه خليفة بن وروّا على إمارة زناتة لحق بمصر ، فأقام فيها بدار الخلافة ونشأ بنوه بها ، وكان منهم المنتصر بن خزرون وأخوه سعيد . ولما وقعت الفتنة بين الترك والمغاربة بمصر وغلبهم الترك وأجلوهم عنها ، لحق المنتصر وسعيد بطرابلس وأقاما في نواحيها . ثم وَليَ سعيد أمر طرابلس ولم يزل والياً عليها إلى أن هلك سنة تسع وعشرين وأربعمائة .

(وقال أبو محمد) التيجاني في رحلته عند ذكر طرابلس : ولما قتلت زغبة سعيد بن خزرون سنة تسع وعشرين وأربعمائة قدم خليفة بن خزرون من القيطون بقومه إلى ولايتها ، فأمكنه منها رئيس الشورى وبها يومئذ من الفقهاء أبو الحسن بن المنتصر المشتهر بعلم الفرائض ، وبايع له ، وقام بها خزرون إلى سنة ثلاثين وأربعمائة بعدها فقام المنتصر بن خزرون في ربيع الأوّل منها ، ومعه عساكر زناتة ، ففرّ خزرون بن خليفة من طرابلس مختفياً ، وملكها المنتصر بن خزرون ، وأوقع بابن المنتصر ونفاه ،

---

(١) وفي نسخة ثانية : تدبير .

واتصلت بها إمارته انتهى ما نقله التيجاني .

(وهذا الخبر) مشكل من جهة أنّ زغبة من العرب الهلاليين وإنّما جاؤا إلى أفريقية من مِصْرَ بعد الأربعين من تلك المائة ، فلا يكون وجودهم بطرابلس سنة تسع وعشرين وأربعمائة إلاّ إن كان تقدّم بعض أحيائهم إلى أفريقية من قبل ذلك .

فقد كان بنو مرّة ببرقة ، بعثهم الحاكم مع يحيى بن علي بن حمدون . إلا أنّ ذلك لم ينقله أحد .

ولم تزل طرابلس بأيدي بني خزرون الزناتيين ولما وصل العرب الهلاليون وغلبوا المعز بن باديس على أعمال أفريقية واقتسموها كانت قابس وطرابلس في قسمة زغبة ، والبلد لبني خزرون . ثم استولى بنو سليم على الضاحية وغلبوا عليها زغبة ورحّلوهم عن تلك المواطن . ولم تزل البلد لبني خزرون . وزحف المنتصر بن خزرون مع بني عدي من قبائل هلال مجلباً على بني حمّاد حتى نزل المسيلة ونزل أشير . ثم خرج إليهم الناصر ، ففرّ أمامه إلى الصحراء ، ورجع إلى القلعة ، فرجعوا إلى الاحلاف على أعماله ، فراسله الناصر على الصلح وأقطعه ضواحي الزاب وريغة ، وأوعز إلى عروس بن سندي رئيس بسكرة لعهده أن يمكر به ، فلما وصل المنتصر إلى بسكرة أنزله عروس ثم قتله غيلة أعوام ستين وأربعمائة ، ووليَ طرابلس آخر من بني خزرون لم يحضرني إسمه واختلّ ملك صنهاجة واتصل فيهم ملك تلك الأعمال إلى سنة أربعين وخمسمائة .

ثم نزل بطرابلس ونواحيها في هذا العام مجاعة ، وأصابهم منه شدّة هلك فيها الناس ، وفرّوا عنها وظهر اختلال أحوالها وفناء حاميتها ، فوجّه إليها رجار طاغية صقلية أسطولاً لحاصارها بعد استيلائه على المهدّية وصفاقس واستقرار ولايته فيهما ، ووقع بين أهل طرابلس الخلاِف فغلب عليهم جرجي بن ميخايل قائد الأسطول وملكها ، وأخرج منها بني خزرون وولّي على البلد شيخهم أبا يحيى بن مطروح التميمي ، فانقرض أمر بني خزرون منها . وبقي منهم من بقي بالضاحية إلى أن افتتح الموحدون أفريقية آخر الدولة الصنهاجية . والملك لله وحده يؤتيه من يشاء من عباده سبحانه لا إله غيره .

خزرون بن خليفة بن وروا بن سعيد بن خزرون بن فلفول بن خزر

سعيد بن خزرون

الخبر عن بني يعلى ملوك تلمسان من آل خزر من أهل الطبقة الاولى والالمام ببعض دولهم ومصائرها

قد ذكرنا في أخبار محمد بن خَزَر وبنيه أنّ محمد بن الخير الذي قتل نفسه في معركة بلكـيّن كان من ولده الخير ويعلى . وأنهما اللذان ثأرا منه بأبيهما زيري فقتلوه واتبعهم بلكّين من بعد ذلك وأجلاهم إلى المغرب الأقصى حتى قتل منهم محمد صبرا أعوام ستين وثلثمائة بنواحي سجلماسة قبل وصول معدّ إلى القاهرة ، وولاية بلكّين على أفريقية وقام بأمر زناتة بعد الخير إبنه محمد ، وعمه يعلى بن محمد . وتكـرّرت إجازة محمد بن الخير هذا وعمه يعلى إلى المنصور بن أبي عامر كما ذكرنا ذلك من قبل . وغلبهم إبنا عطية بن عبدالله بن خزر وهما مقاتل وزيري على رياسة مغراوة . وهلك مقاتل واختصّ المنصور زيري بن عطيّة باثرته ، وولاّه على المغرب كما ذكرناه ، وقارن ذلك مهلك بلكّين وانتقاض أبي البهار بن زيري صاحب المغرب الأوسط على باديس ،

فكان من شأنه مع زيري ويدوي[1] بن يعلى ما قدّمناه . ثم استقلّ زيري وغلبهم جميعاً على المغرب ، ثم انتقض على المنصور فأجاز إليه إبنه المظفرّ وأخرج زناتة من المغرب الأوسط ، فتوغّل زيري في المغرب الأوسط ونازل أمصاره وانتهى إلى المسيلة وأشير . وكان سعيد بن خزرون قد نزع إلى زناتة وملك طبنة . واجتمع زناتة بأفريقية عليه وعلى إبنه فلفول من بعده . وانتقض فلفول على باديس عند زحف زيري إلى المسيلة وأشير ، وشغل باديس ثم ابنه المنصور على المغرب الأوسط بحروب فلفول وقومه ، ودفعوا إليه حمّاد بن بلكّين فكانت بينه وبين زناتة حروب سجال ، وهلك زيري بن عطيّة واستقل المعزّ وابنه بملك المغرب سنة ثلاث وتسعين وثلثمائة ، وغلب صنهاجة على تلمسان وما إليها ، واختط مدينة وجدة كما ذكرنا ذلك كله من قبل .
ونزل يعلى بن محمد مدينة تلمسان فكانت خالصة له ، وبقي ملكها وسائر ضواحيها في عقبه . ثم هلك حمّاد بعد استبداده ببلاد صنهاجة على آل بلكّين وشغل بنوه بحرب بني باديس ، فاستوسق ملك بني يعلى خلال ذلك بتلمسان ، واختلفت أيامهم مع آل حمّاد سلما وحرباً . ولما دخل العرب الهلاليون أفريقية وغلبوا المعزّ وقومه عليها واقتسموا سائر أعمالها ، ثم تخطوا إلى أعمال بني حمّاد فأحجروهم بالقلعة . وغلبوهم على الضواحي فرجعوا إلى استئلافهم واستخلصوا الأُثبج منهم وزغبة . فاستظهروا بهم على زناتة المغرب الأوسط وأنزلوهم بالزاب ، وأقطعوهم الكثير من أعماله . فكانت بينهم وبين بني يعلى أمراء تلمسان حروب ووقائع . وكان زغب أقرب إليهم بالمواطن .
وكان أمير تلمسان لعهدهم بختى من ولد يعلى . وكان وزيره وقائد حروبه أبو سعيد ابن خليفة بن[2] اليفرني ، فكان كثيراً ما يخرج بالعساكر من تلمسان لقتال عرب الأثبج وزغبة ، ويحتشد من إليها من زناتة من أهل المغرب الأوسط مثل . مغراوة وبني يفرن وبني يلومو وبني عبد الواد وتوجين وبني مرين ، وهلك في بعض تلك الملاحم هذا الوزير أبو سعيد أعوام خمسين وأربعمائة .
(ثم ملك) المرابطون أعمال المغرب الأقصى بعد مهلك يحيى[3] وولاية ابنه العبّاس ابن يحيى بتلمسان . وسرّح يوسف بن تاشفين قائده مزدلي بن[4] في عساكر

(١) هو يدّو بن يعلى كما في قبائل المغرب وفي أماكن من بعض نسخ ابن خلدون وقد مرّ معنا من قبل .
(٢) بياض بالاصل وفي نسخة أخرى أبو سعدى مكان أبو سعيد .
(٣) وفي نسخة ثانية : بختي .
(٤) بياض بالأصل ولم نستطع تحديد اسم والد هذا القائد في المراجع التي بين أيدينا .

لمتونة لحرب من بقي بتلمسان من مغراوة ، ومن لحق بهم من فلّ بني زيري وقومهم ، فدوّخ المغرب الأوسط وظفر بمعلى بن العبّاس بن بختي ، وبرز لمدافعتهم ، فهزمه وقتله وانكفّ راجعاً إلى المغرب . ثم نهض يوسف بن تاشفين بنفسه في جموع المرابطين سنة ثلاث وسبعين وأربعمائة فافتتح تلمسان واستلحم بني يعلى ومن كان بها من مغراوة وقتل العبّاس بن بختي أميرها من بني يعلى . ثم افتتح وهرَان وتنس وملك جبل وانشريس وشلف إلى الجزائر وانكفّ راجعاً وقد محى أثر مغراوة من المغرب الأوسط وأنزل محمد بن تينعمر المسوفي في عسكر من المرابطين بتلمسان ، واختطّ مدينة تاكرارت بمكان معكسره وهو اسم المحلّة بلسان البربر ، وهي التي صارت اليوم مع تلمسان القديمة التي تسمى أكادير بلداً واحداً ، وانقرض أمر مغراوة من جميع المغرب كان لم يكن والبقاء لله وحده سبحانه .

معلي بن العبـــــــــاس بن بختـيّ بن[1]

بن يعلي بـن محمـــــد بـن الخير بـن محمـــــد بـن خزر

* (الخبر عن أمراء اغمات من مغراوة) *

لم أقف على أسماء هؤلاء إلا أنهم أمراء بأغمات آخر دولة بني زيري بفاس ، وبني يعلى اليفرني بسلا وتادلا في جوار المصامدة وبرّ غواطة . وكان لقوط بن يوسف بن علي آخرهم في سني الخمسين وأربعمائة ، وكانت امرأته زينب بنت اسحق النفزاوية من إحدى نساء العالم المشهورات بالجمال والرياسة . ولما غلب المرابطون على أغمات سنة تسع وأربعين وأربعمائة فرّ لقوط هذا إلى تادلا سنة إحدى وخمسين وأربعمائة ، وقتل الأمير محمد واستلحم بني يفرن ، فكان فيمن استلحم وخلفه أبو بكر بن عمر أمير المرابطين على زينب بنت اسحق حتى اذا ارتحل إلى الصحراء سنة ثلاث وخمسين وأربعمائة واستعمل ابن عمّه يوسف بن تاشفين على المغرب ، نزل له عن زوجه زينب هذه فكان لها رياسة أمره وسلطانه ، وما أشارت إليه عند مرجع أبي بكر من الصحراء في إظهار الاستبداد حتى تجافى عن منازعته ، وخلص ليوسف بن تاشفين

(١) بياض في جميع النسخ ولم نجد والد نجتي هذا في المراجع التي بين أيدينا .

ملكه كما ذكرناه في أخبارهم . ولم نقف من لقوط بن يوسف وقومه على غير هذا الذي كتبناه ، والله وليّ العون سبحانه .

الخبر عن بني سنجاس وريغة والاغواط وبني ورّا من قبائل مغراوة من أهل الطبقة الاولى وتصاريف أحوالهم

هذه البطون الأربعة من بطون مغراوة وقد زعم بعض الناس أنهم من بطون زناتة غير مغراوة . أخبرني بذلك الثقة عن ابراهيم بن عبدالله التمر وغني[1] قال وهو نسّابه زناتة لعهده : ولم تزل هذه البطون الأربعة من أوسع بطون مغراوة . (فأمّا) بنو سنجاس فلهم مواطن في كل عمل من أفريقية والمغربين ، فمنهم قبلة المغرب الأوسط بجبل راشد وجبل كريكرة[2] وبعمل الزاب وبعمل شلف ، ومن بطونهم بنو عيار[3] ببلاد شلف أيضاً ، وبنو عيار بأعمال قسنطينة . وكان بنو سنجاس هؤلاء من أوسع القبائل وأكثرهم عدداً ، وكان لهم في فتنة زناتة وصنهاجة آثار بأفريقية والمغرب ، وأكثرها في إفساد السبيل والعيث في المدن ، ونازلوا قَفْصَة سنة أربع عشرة وخمسمائة بعد أن عاثوا بجهات القصر ، وقتلوا من وجدوا هنالك من عسكر تلكاتة[4] . وخرجت إليهم حامية قَفْصَة فأثخنوا فيهم ، ثم كثر فسادهم ، وسرّح السلطان قائده محمد بن أبي العرب في العساكر إلى بلاد الجريد فشرّدهم عنها وأصلح السابلة . ثم عادوا إلى مثلها سنة خمس عشرة وخمسمائة فأوقع بهم قائد بلاد الجريد وأثخن فيهم بالقتل ، وحمل رؤوسهم إلى القَيْرَوَان فعظم الفتح فيهم ، ولم تزل الدولة تتبعهم بالقتل والاثخان إلى أن كسروا[5] من شوكتهم .

وجاء العرب الهلاليون وغلبوا على الضواحي كل من كان بها من صنهاجة وزناتة ، وتحيّز فلهم إلى الحصون والمعاقل ، وضربت عليهم المغارم إلاّ ما كان ببلاد المغرب

---

(١) كذا في النسخة الباريسية وفي نسخة أخرى : التيمز وغني .

(٢) وفي النسخة الباريسية : كركرة .

(٣) كذا في النسخة الباريسية وفي نسخة أخرى : غيار وفي نسخة ثانية عنّان .

(٤) وفي نسخة ثانية : ملكاتة .

(٥) وفي نسخة ثانية : خضدوا .

القفر مثل جبل راشد ، فإنهم لبعدهم عن منازل الملك لا يعطون مغرماً ، إلا أنه غلب عليهم هنالك العمور من بطون الهلاليين ، ونزلوا معهم . وملكوا عليهم أمرهم وصاروا لهم فيئه ومن بني سنجاس من نزل الزاب ، وهم لهذا العهد أهل مغارم لمن غلب على ثغورهم من مشايخهم ، وأمّا من نزل منهم ببلاد شلف ونواحي قسنطينة فهم لهذا العهد أهل مغارم للدول . وكان دينهم جميعاً الخارجية على سنن زناتة في الطبقة الأولى ، ومن بقي منهم اليوم بالزاب فعلى ذلك . ومن بني سنجاس هؤلاء بأرض المشيل(١) من جبل بني راشد وطنوا جبلاً في جوار غمرة وصاروا عند تغلب الهلاليين في ملكهم يقبضون الأتاوة منهم . ونزل منهم لهذا العهد الصحاري من بطون عروة من زغبة ، وغلبوهم على أمرهم وأصاروهم خولاً .

(وأما بنو ريغة) فكانوا أحياء متعدّدة ولما افترق أمر زناتة تحيّز منهم إلى جبل عيّاض وما إليه من البسيط إلى نقاوس وأقاموا في قياطينهم ، فمن كان بجبل عيّاض منهم أهل مغارم لأمراء عياض يقبضونها للدولة الغالبة ببجاية ، وأمّا من كان ببسيط نقاوس فهم في أقطاع العرب لهذا العهد . ونزل أيضاً الكثير منهم ما بين قصور الزاب وواركلا ، فاختطوا قصوراً(٢) كثيرة في عدوة واد ينحدر من المغرب الى المشرق يشتمل على المصر الكبير والقرية المتوسطة ، والأطم قد رفّ عليها الشجر ونضدت حفافيها النخيل ، وانساحت خلالها المياه ، وزهت ينابعها الصحراء ، وكثر في قصورها العمران من ريغه هؤلاء ، وبهم تعرف لهذا العهد ، وهم أكثرها . ومن بني سنجاس وبني يفرن وغيرهم من قبائل زناتة . وتفرّقت جماعتهم للتنازع في الرياسة فاستقلت كل طائفة منهم بقصور منها أو بواحد . ولقد كانت فيها يقال أكثر من هذا العدد أضعافاً وانّ ابن غانية المسوفي حين كان يجلب على بلاد أفريقية والمغرب في فتنته مع الموحدين خرّب عمرانها ، واجتثّ شجرها ، وغوّر مياهها ، ويشهد لذلك آثار العمران بها في أطلال الديار ورسوم البناء وأعجاز النخل المنقعر ، وكان هذا العمل يرجع في أوّل الدولة الحفصيّة لعامل الزاب ، وكان من الموحّدين ، ونزل بسكرة ما بينها وبين مغرة ، وكان من أعماله قصور واركلا أيضاً . ولما فتك المنتصر بمشيخة الزواودة كما قلناه في أخباره ، وقتلوا بعد ذلك عامل الزاب ابن عتوا من مشيخة

---

(١) كذا في النسخة الباريسية وفي نسخة أخرى : المشنتل .

(٢) وفي نسخة ثانية : قرى .

الموحدين ، وغلبوا على ضواحي الزاب وواركلا . وأقطعتهم إيّاها الدول بعد ذلك فصارت في أقطاعهم . ثم عقد صاحب بجاية بعد ذلك على العمل كلّه لمنصور بن مزني واستقرّ في عقبه . فربما يسيمون بعض الأحيان أهل تلك القصور المغرم للسلطان بما كان من الأمر القديم ، ويعسكر عليهم في ذلك كتائب من رجّالة الزاب وخيّالة العرب ، ويبرز عليها بأمر الزواودة . ثم يقاسمهم فيما يمتريه منهم . وأكبر هذه الأمصار يسمّى تُقَّرت ، مصر مستبحر العمران بدويّ الأحوال ، كثير المياه والنخل ، ورياسته في بني يوسف بن عبدالله كانت لعبيدالله بن يوسف ، ثم لابنه داود ، ثم لأخيه يوسف بن عبيدالله . وتغلّب على واركلا من يد أبي بكر بن موسى أزمان حداثته ، وأضافها إلى عمله . ثم هلك وصار أمر تقّرت لأخيه مسعود بن عبيدالله ، ثم لابنه حسن بن مسعود ، ثم لابنه أحمد بن حسن شيخها لهذا العهد . وبنو يوسف بن عبدالله هؤلاء من ريغة ، ويقال إنّهم من سِنْجَاس ، وفي أهل تلك الأمصار من مذاهب الخوارج وفرقهم كثير ، وأكثرهم على دين العزابية[1] ومنهم النكاريّة ، وأقاموا على انتحال هذه الخارجية لبعدهم عن منال الأحكام . ثم بعد مدينة تقّرت بلد تماسين وهي دونها في العمران والخطة ورياسته لبني ابراهيم بن[2] من ريغة وسائر أمصارهم كذلك ، كل مصر منها مستبد بأمره وحرب لجاره .

(وأما لقواط) وهم فخذ من مغراوة أيضا فهم في نواحي الصحراء ما بين الزاب وجبل راشد ، ولهم هنالك قصر مشهور بهم ، فيه فريق من أعقابهم على سغب من العيش لتوغّله في القفر ، وهم مشهورون بالنجدة والامتناع من العرب ، وبينهم وبين الدوسن أقصى عمل الزاب مرحلتان ، وتختلف قصودهم إليهم لتحصيل المرافق منهم . والله يخلق ما يشاء ويختار .

وأمّا بنو ورا) فهم فخذ من مغراوة أيضاً ، ويقال من زناتة وهم متشعبّون ومفترقون بنواحي المغرب : منهم بناحية مراكش والسوس ومنهم ببلاد شلف ومنهم بناحية قسنطينة ولم يزالوا على حالهم منذ انقراض زناتة الأوّلين ، وهم لهذا العهد أهل مغارم وعسكرة مع الدول ، وأكثر الذين كانوا بمراكش قد انتقل رؤساؤهم إلى ناحية شلف نقلهم يوسف بن يعقوب سلطان بني مرين في أوّل هذه المائة الثامنة ، لما

---

(١) كذا في النسخة الباريسية وفي نسخة أخرى : الغرابة وفي نسخة ثانية : القرابة .

(٢) بياض بالأصل ولم نستطع معرفة اسم والده في المراجع التي بين أيدينا .

ارتاب بأمرهم في تلك الناحية ، وخشي من إفسادهم وعيثهم ، فنقلهم في عسكر الى موطن شلف لحمايته ، فنزلوا به . ولما ارتحل بنو مرين من بعد مهلك يوسف بن يعقوب أقاموا ببلاد شلف فأعقابهم بها لهذا العهد ، وأحوالهم جميعاً في كل قطر متقاربة في المغرم والعسكرة مع السلطان ولله الخلق والأمر جميعاً . سبحانه لا إله إلا هو الملك العظيم .

* (الخبر عن بني يرنيان اخوة مغراوة وتصاريف أحوالهم) *

قد ذكرنا بني يرنيان هؤلاء ، وأنهم إخوة مغراوة وبني يفرن ، والكل ولد يصلتين . ونسبهم جميعاً إلى جانا مذكور هنالك ، وهم مبثوثون كثيراً بين زناتة في المواطن . وأمّا الجمهور منهم فموطنهم بملويّة من المغرب الأقصى ما بين سجلماسة وكرسيف ، كانوا هناك مجاورين لمكناسة في مواطنهم ، واختطوا حفافي وادي ملويّة قصوراً كثيرة متقاربة الخطّة ، ونزلوها وتعدّدت بطونهم وأفخاذهم في تلك الجهات . ومنهم بنو وطاط متوطّنون لهذا العهد بالجبال المطلّة على وادي ملوية من جهة القبلة ، ما بينه وبين تازى وفاس ، وبهم تعرف تلك القصور لهذا العهد ، وكان لبني يرنيان هؤلاء صولة واعتزاز ، وأجاز الحكم بن المستنصر منهم ، والمنصور بن أبي عامر من بعده فيمن أجازوه من زناتة في المائة الرابعة ، وكانوا من أفحل جند الأندلس وأشدّهم شوكة . وبقي أهل المواطن منهم في مواطنهم مع مكناسة أيام ملكهم ، ويجمعهم معهم عصبية يحيى . ثم كانوا مع مغراوة أيضاً أيام ملكهم المغرب الاقصى ولما ملك لمتونة والموحّدون من بعدهم لحق الظواعن منهم بالقفر ، فاختلطوا بأحياء بني مرين الموالين لتلول المغرب من زناتة ، أقاموا معهم في أحيائهم ، وبقي من عجز عن الظعن منهم بمواطنهم : مثل بني وطاط وغيرهم ، ففرضت عليهم المغارم والجبايات . ولما دخل بنو مرين للمغرب ساهموهم في اقتسام أعماله ، وأقطعوهم البلد الطيب من ضواحي سلا والمعمورة ، زيادة إلى وطنهم الأوّل بملوية ، وأنزلوهم بنواحي سلا بعد أن كان منهم انحراف عنهم في سبيل المدافعة عن أوطانهم الأولى . ثم

اصطلحوا[1] ورعى لهم بنو عبد الحق سابقتهم معهم فاصطفوهم للوزارة والتقدّم في الحرب ، ودفعوهم الى المهات وخلطوهم بأنفسهم . وكان من أكابر رجالاتهم لعهد السلطان أبي يعقوب وأخيه أبي سعيد الوزير ابراهيم بن عيسى ، استخلصوه للوزارة مرّة بعد أخرى ، واستعمله السلطان أبو سعيد على وزارة ابنه أبي علي ، ثم لوزارته . واستعمل ابنه السلطان أبو الحسن أبناء ابراهيم هذا في أكابر الخدام فعقد لمسعود بن ابراهيم على أعمال السوس عندما فتحها أعوام الثلاثين والسبعمائة ، ثم عزله بأخيه حسون ، وعقد لحسون على بلاد الجريد من أفريقية عند فتحه إيّاها سنة ثمان وأربعين وسبعمائة وكان فيها مهلكه . ونظم أخاهما موسى في طبقة الوزارة ، ثم أفرده بها أيام نكبته وإلحاقه بجبل هنتاتة ، واستعمله السلطان أبو عنان بعد في العظمات ، وعقد له على أعمال سدويكش بنواحي قسنطينة . ورشّح ابنه محمد السُبَيْع لوزارته إلى أن هلك ، وتقلّبت بهم الأيام بعده . وقلّد عبد الحميد[2] المعروف بحلى ابن السلطان أبي علي وزارته محمد بن السُبَيْع بعد هذا أيام حصاره لدار ملكهم سنة إثنتين وستين وسبعمائة كما نذكره في أخبارهم ، فلم يقدّر لهم الظفر . ثم رجع السبيع بعدها إلى محله من دار السلطان وطبقة الوزارة ، وما زال يتصرّف في الخدم الجليلة والأعمال الواسعة ما بين سجلماسة ومراكش وأعمال تازى وتادلا وغمارة ، وهو على ذلك لهذا العهد . والله وارث الأرض ومن عليها سبحانه لا إله غيره .

* (الخبر عن وجديجن وأوغمرت من قبائل زناتة ومبادىء أحوالهم وتصاريفهم) *

قد تقدّم أنّ هذين البطنين من بطون زناتة من ولد ورتنيص بن جانا ، وكان لهم عدد وقوة ، ومواطنهم مفترقة في بلاد زناتة . فأمّا وجديجن فكان جمهورهم بالمغرب الأوسط ، ومواطنهم منه منداس ما بين بني يفرن من جانب المغرب ، ولواتة من جانب القبلة في السرسو ، ومطماطة في جانب الشرق في وانشريس ، وكان أميرهم

(١) وفي نسخة ثانية : ثم اصطلحوا .
(٢) وفي نسخة ثانية : عبد الحليم .

لعهد يحيى بن محمد اليفرني رجلاً منهم إسمه عنّان ، وكان بينهم وبين لواتة الموطنين بالسرسو فتنة متصلة ، يذكر أنها بسبب امرأة من وجديجن نكحت في لواتة وتلا ، جامعها نساء قيطونهم فعيّرنها بالفقر ، فكتبت بذلك إلى عنّان تذمّره[1] ، فغضب واستجاش بأهل عصبته من زناتة وجيرانه ، فزحف معه يعلى في بني يفرن وكلمام بن حياتي[2] في مغيلة وغرابة في مطاطة ، ودارت الحرب بينهم وبين لواتة ملياً . ثم غلبوا لواتة على بلاد السرسو وانتهوا بهم إلى كدية العابد من آخرها وهلك عنّان شيخ وجديجن في بعض تلك الوقائع بـملاكوا من جهات السرسو. ثم لجأت زناتة إلى جبل كريكرة قبلة السرسو ، وكان يسكنه أحياء من مغراوة يعرف شيخهم لذلك العهد علاهم ربيب لشيخهم عمر بن تامصا الهالك قبله ، ومعنى تامصا بلسان البربر الغول . ولما لجأت لواتة إليه غدر بهم وأغزى قومه ، فوضعوا أيديهم فيهم قتلاً وسلباً فلاذوا بالفرار ولحقوا بجبل معود[3] وجبل دراك فاستقرّوا هناك آخر الدهر . وورثت وجديجن مواطنهم بمنداس إلى أن غلبهم عليها بنو يلومين[4] ، وبنو ومانوكل من جهته ، ثم غلب الآخرين عليها بنو عبد الواد ، وبنو توجين إلى هذا العهد . والله وارث الأرض ومن عليها .

(وأمّا أوغمرت[5]) ويسمى لهذا العهد غمرت ، وهم إخوة وجديجن من ولد ورتنيص بن جانا كما قلناه . فكانوا من أوفر القبائل عدداً ، ومواطنهم متفرّقة ، وجمهورهم بالجبال إلى قبلة بلاد صنهاجة من المشتتل إلى اللوسن وكان لهم مع أبي يزيد صاحب الحمار في الشيعة آثار ، وأوقع بهم اسمعيل القائم عند ظهوره على أبي يزيد وأثخن فيهم ، وكذلك بلكّين وصنهاجة من بعده . ولما افترق أمر صنهاجة لحمّاد وبنيه كانوا شيَعاً لهم على بني بلكّين. ونزع عن حمّاد أيام فتنته ابن أبي جلى من مشيختهم ، وكان مختصاً بهم ، إلى باديس ، فوصله وحمل أصحابه ، وعقد له على طبنة وأعمالها . حتى إذا جاء العرب الهِلاليون وغلبوهم على الضواحي اعتصموا بتلك الجبال قبلة المسيلة وبلاد صنهاجة ، وقعدوا بها عن الظعن ، وتركوا القيطون إلى

---

(١) ذمّره : هدده ، وذمره على الأمر : حضّه مع لوم ليجدّ فيه .
(٢) وفي نسخة ثانية : كلمام بن حيّان .
(٣) كذا في النسخة الباريسية وفي نسخة بولاق : العود ، وفي نسخة أخرى : يعود .
(٤) وفي نسخة أخرى : يلومي .
(٥) وفي نسخة أخرى : واغمرت .

سكنى المدن . ولما تغلّب الزواودة على ضواحي الزاب وما إليها ، أقطعتهم الدولة مغارم هذه الجبال التي لغمرت . وهم لهذا العهد في سهمان أولاد يحيى بن علي بن سبّاع من بطونهم وكان في القديم من غمرت هؤلاء كاهن زناتة موسى بن صالح مشهور عندهم حتى الآن ، ويتناقلون بينهم كلماته برطانتهم على طريق الرجز، فيها أخبار بالحدثان فيما يكون لهذا الجيل الزناتي من الملك والدولة ، والتغلّب على الأحياء والقبائل والبلدان. شهد كثير من الواقعات على وفقها بصحتها ، حتى لقد نقلوا من بعض كلماته ما معناه باللسان العربي أنّ تلمسان مآلها الخراب ، وتصير دورها فُدُناً حتى يثير أرضها حرّاث أسود بثور أسود أعور . وذكر الثقات أنهم عاينوا ذلك بعد انتشار كلماته هذه أيام لحقها الخراب في دولة بني مرين الثانية سنة ستين وسبعمائة ، وأفرط الخلاف بين هذا الجيل الزناتيّ في التشيع له والحمل عليه ، فمنهم من يزعم أنه نبي أو وَلِيّ ، وآخرون يقولون كاهن شيطان ، ولم تقفنا الأخبار الصحيحة على الجلي من أمره . والله سبحانه وتعالى أعلم لا ربّ غيره .

* (الخبر عن بني واركلا من بطون زناتة والمصر المنسوب إليهم بصحراء افريقية وتصاريف أحوالهم) *

بنو واركلا هؤلاء إحدى بطون زناتة كما تقدّم ، من ولد فرني[1] بن جانا ، وقد مرّ ذكرهم . وأنّ أخوتهم الديرت ومرنجيصة وسبرترة ونمالة[2] والمعروفون لهذا العهد ، منهم بنو واركلا وكانت فئتهم قليلة ، وكانت مواطنهم قبلة الزاب ، واختطوا المصر المعروف بهم لهذا العهد على ثمان مراحل من بَسْكَرَة في القبلة عنها ميامنة إلى المغرب ، بنوها قصوراً متقابلة متقاربة الخطة . ثم استبحر عمرانها فَأْتَلَفَت وصارت مصراً واحداً . وكان معهم هناك جماعة من بني زنداك من مغراوة ، وإليهم كان هرب أبي زيد النكارى[3] عند فراره من الاعتقال سنة خمس وعشرين وثلثمائة ، وكان مقامه بينهم سنة يختلف إلى بني برزال قبلة المسيلة بسالات ، وإلى

(١) كذا في النسخة الباريسية وفي نسخة أخرى فريني .
(٢) كذا في النسخة الباريسية وفي نسخة أخرى : يزمرتن ومنجصة وغالته .
(٣) وفي نسخة ثانية : ابن أبي يزيد النكاري .

قبائل البربر بجبل أوراس ، يدعوهم جميعاً إلى مذهب النكارية ، إلى أن ارتحل إلى أوراس ، واستبحر عمران هذا المصر واعتصم به بنو واركلا هؤلاء ، والكثير من ظواعن زناتة عند غلب الهلاليين إيّاهم على الضواحي ، واختصاص الأثبج بضواحي القلعة والزاب وما إليها .

ولما استبد الأمير أبو زكريا بن أبي حفص بملك أفريقية وجال في نواحيها في اتباع بن غانية ، مرّ بهذا المصر فأعجبه وكلف بالزيادة في تمصيره ، فاختطّ مسجده العتيق ومأذنته المرتفعة ، وكتب عليها إسمه وتاريخ وضعه نقشاً في الحجر . وهذا البلد لهذا العهد باب لولوج السفر[١] من الزاب إلى المفازة الصحراوية المفضية إلى بلاد السودان يسكنها التجّار الداخلون لها بالبضائع وسكانه لهذا العهد من بني واركلا وأعقاب إخوانهم من بني يفرن ومغراوة ، ويعرف رئيسه باسم السلطان ، شهرة غير نكيرة بينهم ، ورياسته لهذه الأعصار مخصوصه ببني أبي عبدل[٢] ، ويزعمون أنهم من بني واكين إحدى بيوت بني واركلا ، وهو لهذا العهد أبو بكر بن موسى بن سليمان من بني أبي عبدل ، ورياستهم متصلة في عمود هذا النسب وعلى عشرين مرحلة من هذا في القبلة منحرفاً إلى المغرب بيسير بلد تكرت[٣] قاعدة وطن الملثّمين وركاب الحجاج من السودان اختطّه الملثمون من صنهاجة وهم سكانه لهذا العهد ، وصاحبه أمير من بيوتاتهم يعرفونه باسم السلطان ، وبينه وبين أمير الزاب مراسلة ومهاداة . (ولقد) قدمت على بسكرة سنة أربع وخمسين أيام السلطان أبي عنان في بعض الأغراض السلطانية ولقيت رسول صاحب تكرت عند يوسف بن مزني أمير بسكرة ، وأخبرني عن استبحار هذا المصر في العمارة ومرور السابلة ، وقال لي : اجتاز بنا هذا العام سفر من تجّار المشرق إلى بلد مالي كانت ركابهم إثني عشر ألف راحلة . وذكر لي غيره أنّ ذلك هو الشأن في كل سنة . وهذا البلد في طاعة سلطان مالي من السودان كما في سائر تلك البلاد الصحراوية المعروفة بالملثمين[٤] لهذا العهد ، والله غالب على أمره سبحانه .

---

(١) بمعنى المسافرين .
(٢) كذا في النسخة الباريسية وفي نسخة أخرى : أبي غبول .
(٣) وفي نسخة ثانية : تكدت .
(٤) كذا في النسخة الباريسية وفي نسخة أخرى : باطلستين .

* (الخبر عن دمر من بطون زناتة ومن ولي منهم بالاندلس وأولية ذلك ومصائره) *

بنو دمّر هؤلاء من زناتة وقد تقدّم أنهم من ولد ورسيك بن الديرت بن جانا ، وشعوبهم كثيرة ، وكانت مواطنهم بأفريقية في نواحي طرابلس وجبالها وكان منهم آخرون ظواعن من عرب أفريقية . ومن بطون بني دمّر هؤلاء بنو ورغمة ، وهم لهذا العهد مع قومهم بجبال طرابلس . ومن بطونهم أيضاً بطن متسع كثير الشعوب وهم : بنو ورنيدين بن وانتن بن واردين بن دمّر ، وأن من شعوبهم بني ورتاتين وبني عزرول وبني تغورت ، وربما يقال إنّ هؤلاء الشعوب لا ينتسبون إلى بني ورنيدين كما تقدّم ، وبقايا بني ورنيدين لهذا العهد بالجبل المطل على تلمسان ، بعد أن كانوا في البسيط قبلته ، فزاحمهم بنو راشد حين أجلوهم من بلادهم بالصحراء إلى التل ، وغلبوهم على تلك البسائط فإنزاحوا إلى الجبل المعروف بهم لهذا العهد ، وهو المطل على تلمسان وكان قد أجاز إلى الأندلس من بني دمّر هؤلاء أعيان ورجالات حرب فيمن أجاز إليها من زناتة وسائر البربر ، أيام أخذهم بدعوة المنتصر[1] فضمّهم السلطان إلى عسكره ، واستظهر بهم المنصور بن أبي عامر من بعد ذلك على شأنه ، وقوى بهم المستعين أديم دولته ، ولما اعصوصب البربر على المستعين وبني حمود من بعده وغالبوا جنود الأندلس من العرب ، وكانت الفتنة الطويلة بينهم التي نثرت سلك الخلافة وفرّقت شمل الجماعة ، واقتسموا خطط الملك وولايات الأعمال ، وكان من رجالاتهم نوح الدمري ، وكان من عظماء أصحاب المنصور ، وولاّه المستعين أعمال مورور[2] وأركش فاستبدّ بها سنة أربع في غمار الفتنة ، وأقام بها سلطاناً لنفسه إلى أن هلك سنة ثلاث وثلاثين ، فولى إبنه أبا مناد محمد بن نوح وتلقّب بالحاجب عز الدولة لقبين في قرن شأن ملوك الطوائف . وكانت بينه وبين ابن عبّاد شأن غرب الأندلس . خطوب ومرّ المعتضد في بعض أسفاره بحصن أركش ، وتطوّف به مختفياً فقبض عليه بعض أصحاب ابن نوح ، وساقه إليه ، فخلّى سبيله وأولاه كرامة احتسبها عنده يداً ،

---

(١) وفي نسخة ثانية : بدعوة الحكم المستنصر .

(٢) كذا في النسخة الباريسية وفي نسخة أخرى : مودور وفي نسخة ثانية : مدور .

وذلك سنة ثلاث وأربعين وثلثمائة ، فانطلق إلى دار ملكه ورجع بعدها إلى ولاية الملوك الذين حوله من البربر . وأسجل لابن نوح هذا على عَمَلَيْ أركش ومورور فيمن أسجل له منهم ، فصاروا إلى مخالصته إلى أن استدعاهم سنة خمس وأربعين وثلثمائة بعدها إلى صنع ودعا إليه الجفلى من أهل أعماله ، واختصّه بدخول حمام أعدّه لهم استبلاغاً في تكريمهم . وتخلّف ابن نوح عنده من بينهم ، فلما حصلوا داخل الحمام أطبقه عليهم ، وسدّ المنافس للهوى دونهم إلى أن هلكوا . ونجا منهم ابن نوح لسالفة يده ، وطيّر في الحين من تسلّم معاقلهم وحصونهم ، فانتظمهم في أعماله . وكان منها رَنْدَة[1] وشريش وسائر أعمالها ، وهلك من بعد ذلك الحاجب أبو مناد بن نوح سنة[2] ، ووليَ ابنه أبو عبدالله ، ولم يزل المعتضد يضايقه إلى أن انخلع سنة ثمان وخمسين وثلثمائة ، فانتظمها في أعماله وسار إليه محمد بن أبي مناد إلى أن هلك سنة ثمان وستين وانقرض ملك بني نوح والبقاءلله وحده سبحانه .

أبو عبدالله بن الحاجب أبي مناد بن نوح الدمّري .

* (الخبر عن بني برزال إحدى بطون دمر وما كان لهم من الحال بقرمونة وأعمالها من الأندلس أيام الطوائف وأولية ذلك ومصائره) *

قد تقدّم لنا أنّ بني برزال هؤلاء من ولد ورنيدين[3] بن وانتن بن وارديرن بن دمّر ، كما ذكره ابن حزم ، وأنّ إخوتهم بنو يصدرين وبنو صمغان[4] وبنو يطوفت . وكان بنو برزال هؤلاء بأفريقية ، وكانت مواطنهم منها جبل سالات وما إليها من أعمال المسيلة . وكان لهم ظهور ووفور عدد ، وكانوا نكارية من فرق الخوارج . ولما فرّ أبو زيد أمام اسمعيل المنصور ، وبلغه أنّ محمد بن خزر يترصّد له ، أجمع الاعتصام بسالات وصعد إليه ، وأرهقته عساكر المنصور فانتقل عنه إلى كتامة . وكان من أمره

(١) وفي نسخة أخرى : وفدة .

(٢) بياض في الأصل ولم نستطع تحديد سنة مهلكه في المراجع التي بين أيدينا .

(٣) وفي نسخة ثانية : ورنيد .

(٤) وفي نسخة ثانية : بنو صغمار .

ما قدّمناه . ثم استقام بنو برزال على طاعة الشيعة وموالاة جعفر بن علي بن حمدون صاحب المسيلة والزاب ، حتى صاروا له شيعاً .

(ولما انتقض) جعفر بن معد سنة ستين وثلثمائة كان بنو برزال هؤلاء في جملته من أهل خصوصيته ، فأجازوا معه البحر إلى الأندلس أيام الحكم المستنصر ، فاستخدمهم ونظمهم في طبقات جنده إلى من كان به من قبائل زناتة وسائر البربر أيام أخذهم بالدعوة الأموية ، ومحاربتهم عليها للادارسة ، فاستقروا جميعاً بالأندلس . وكان لبني بر زال من بينهم ظهور وغنى مشهور .

(ولما أراد) المنصور بن أبي عامر الاستبداد على خليفته هشام ، وتوقع النكير من رجالات الدولة وموالي الحكم ، استكثر بني برزال وغيرهم من البربر وأفاض فيهم الإحسان ، فاعتز أمره واشتدّ أزره حتى أسقط رجال الدولة ومحى رسومها ، وأثبت أركان سلطانه . ثم قتل صاحبهم جعفر بن يحيى كما ذكرناه خشية عصبيته بهم . واستمالهم من بعده فأصبحوا له عصبة . وكان يستعملهم في الولايات النبيهة والأعمال الرفيعة . وكان من أعيان بني برزال هؤلاء اسحق بن[1] فولاّه قرمونة وأعمالها ، فلم يزل عليها أيام بني عامر وجدّد له العقد عليها المستعين في فتنة البرابرة ووليها من بعده ابنه عبدالله .

(ولما انقرض) ملك بني حمّود من قرطبة ودفع أهلها القاسم المأمون عنهم سنة أربع عشرة وأربعمائة أراد اللحاق بأشبيلية ، وبها نائبه محمد بن أبي زيري من وجوه البربر ، بقرمونة عبدالله بن اسحق البرزالي فداخلها القاضي ابن عبّاد في خلع طاعة القاسم ، وصدّه عن العملين فأجابا إلى ذلك . ثم دسّ للقاسم بالتحذير من عبدالله بن إسحق فعدل القاسم عنهما جميعاً إلى شريش ، واستبدّ كل منهم بعمله . ثم هلك عبدالله من بعد ذلك ، وولي ابنه محمد سنة[2] وكانت بينه وبين المعتمد بن عبّاد حرب ، وظاهر عليه يحيى بن علي بن حمود في منازلة أشبيلية سنة ثمان عشرة وأربعمائة ثم اتفق مع ابن عبّاد بعدها وظاهره على عبدالله الأفطس . وكانت بينهما حرب كانت الدائرة فيها على ابن الأفطس . وحصل ابنه المظفّر قائد العسكر في قبضة محمد بن عبدالله بن اسحق إلى أن منّ عليه ذلك وأطلقه . ثم كانت الفتنة بين محمد

---

(١) بياض بالأصل ولم نستطع معرفة والد اسحق هذا في المراجع التي بين أيدينا .
(٢) بياض بالأصل ولم نستطع معرفة سنة ولايته في المراجع التي بين أيدينا .

ابن اسحق وبين المعتضد وأغار اسمعيل بن المعتضد على قرمونة في بعض الأيام بعد أن كمن الكمائن من الخيّالة والرجل ، وركب إليه محمد في قومه فأستطرد له اسمعيل إلى أن بلغوا الكمائن فثاروا بهم وقتلوا محمداً البرزالي وذلك سنة أربع وثلاثين وأربعمائة وولي ابنه العزيز بن محمد وتلقّب بالمستظهر مناغياً لملوك الطوائف لعهده . ولم يزل المعتضد يستولى على غرب الأندلس شيئاً فشيئاً إلى أن ضايقه في عمل قرمونة ، واقتطع منه أسجه والمورو [1] ثم انخلع له العزيز عن قرمونة سنة تسع وخمسين وأربعمائة ونظّمها المعتضد في ممالكه ، وانقرض ملك بني برزال من الأندلس ثم انقرض من بعد ذلك حيهم من جبل سالات ، وأصبحوا في الغابرين . والبقاءلله وحده سبحانه .

العزيز محمد بن عبدالله بن اسحق البرزالي

* (الخبر عن بني وماتوا وبني يلومي من الطبقة الأولى من زناتة وما كان لهم من الملك والدولة بأعمال المغرب الأوسط ومبدأ ذلك وتصاريفه) *

هاتان القبيلتان من قبائل زناتة ومن توابع الطبقة الأولى ، ولم نقف على نسبهما إلى جانا ، إلاّ أنّ نسّابتهم متفقون على أنّ يلومي وورتاجن الذي هو أبو مرين أخوان ، وأنّ مديون أخوهما للأم ، ذكر ذلك غير واحد من نسّابتهم . وبنو مرين لهذا العهد يعرفون لهم هذا النسب ، ويوجبون لهم العصبيّة له .

وكانت هاتان القبيلتان من أوفر بطون زناتة وأشدّهم شوكة ، ومواطنهم جميعاً بالمغرب الأوسط . وبنو وماتوا منهم إلى جهة المشرق عن وادي ميناس ومرات وما إليها من أسافل شلف وبنو يلومي بالعدوة الغربية منه بالجعبات والبطحاء وسيد [2] وسيرات وجبل هوّارة وبني راشد .

(وكان لمغراوة) وبني يفرن التقدّم عليهم في الكثرة والقوّة . ولما غلب بلكّين بن زيري

---

(١) كذا في النسخة الباريسية وفي نسخة أخرى : أسيجة والمدور.

(٢) وفي نسخة ثانية : سيك .

مغراوة وبني يفرن على المغرب الأوسط ، وأزاحهم إلى المغرب الأقصى بقيت هاتان القبيلتان بمواطنهما ، واستعملهم صنهاجه في حروبهم ، حتى اذا تقلّص ملك صنهاجة عن المغرب الأوسط واعتزوا عليهم . واختصّ الناصر بن علناس صاحب القلعة ومختط بجاية بني وماتوا هؤلاء بالولاية ، فكانوا شيعاً لقومه دون يلومي . وكانت رياسة بني وماتوا في بيت منهم يعرفون ببني ماخوخ . وأصهر المنصور بن الناصر إلى ماخوخ منهم في أخته ، فزوّجها إليه فكان لهم بذلك مزيد ولاية في الدولة .

ولمّا ملك المرابطون تلمسان أعوام سبعين وأربعمائة وأنزل يوسف بن تاشفين بها عامله محمد بن تينعمر المسوفيّ ، ودوّخ أعمال المنصور وملك أمصارها إلى أن نازل الجزائر . وهلك فولي أخوه تاشفين على عمله ، فغزا أشير وافتتحها وخرّبها وكان لهذين الحيين في مظاهرته وإمداده أحقد عليهم المنصور بعدها وأغرى بني وماتوا في عساكر صنهاجة ، وجَمَع له ماخوخ فهزمه وأتبعه منهزماً إلى بجاية ، وقتل لمدخله إلى قصره قتلته زوجه أخت ماخوخ تشفّياً وضغنا . ثم نهض إلى تلمسان في العساكر واحتشد العرب من الأُثْبجُ ورياح وزغبة ومن لحق به من زناتة وكانت الغزاة المشهورة سنة ست وثمانين وأربعمائة أبقى فيها ابن تينعمر المسوفي بعد استمكانه من البلد كما ذكرناه في أخبار صنهاجة . ثم هلك المنصور وولي إبنه العزيز ، وراجع ماخوخ ولايته وأصهر إليه العزيز أيضاً في ابنته فزوّجها إيّاه . واعتز البدو في نواحي المغرب الأوسط ، واشتعلت نار الفتنة بين هذين الحيين من بني وماتوا وبني يلومي فكانت بينهم حروب ومشاهد . وهلك ماخوخ وقام بأمره في قومه بنوه تاشفين وعلي وأبو بكر ، وكان أحياء زناتة الثانية من بني عبد الواد وتوجين وبني راشد وبني ورسِفَان من مغراوة مدداً للفريقين ، وربّما مادّ بنو مرين إخوانهم بني يلومي لقرب مواطنهم منهم ، إلا أنّ زناتة الثانية لذلك العهد مغلوبون لهذين الحيّين ، وأمرهم تبع لهم إلى أن ظهر أمر الموحدين . وزحف عبد المؤمن إلى المغرب الأوسط في اتباع تاشفين بن علي ، وتقدّم أبو بكر بن ماخوخ ويوسف بن زيد من بني وماتوا إلى طاعته ، ولحقوه بمكانه من أرض الريف ، فسرّح معهم عسكر الموحّدين لنظر يوسف بن وَانُدِين وابن يغمور ، فأثخنوا في بلاد بني يلومي وبني عبد الواد ، ولحق صريخهم بتاشِفين بن علي بن يغمور ، فأثخنوا في بلاد بني يلومي وبني عبد الواد ، ولحق صريخهم بتاشِفين بن علي ابن يوسف ، فأمدّهم بالعساكر ونزلوا منداس . واجتمع لبني يلومي بنو وَرْسِفَان من

مغراوة وبني توجين من بني بادين وبنو عبد الواد منهم أيضاً ، وشيخهم حمامة بن مظهر ، وبنو يكناسن من بني مرين وأوقعوا ببني وماتـوا وقتلوا أبا بكر في ستمائة منهم واستنفذوا غنائمهم . وتحصّن الموحدون وفلّ بني ومانوا بجبل سيرات ، ولحق تاشفين بن ماخوخ صريخاً بعبد المؤمن . وجاء في جملته حتى نزل تاشفين بن علي بتلمسان . ولما ارتحل في أثره إلى وَهْـرَان كما قدّمناه سرّح الشيخ أبو حفص في عساكر الموحّدين إلى بلاد زَنَاتَـة فنزلوا منداس وسط بلادهم ، وأثخنوا فيهم حتى أذعنوا لطاعته ودخلوا في الدعوة . ووفد على عبد المؤمن بمكانه من حصار وَهْـرَان مقدمهم سيّد الناس بن أمير الناس شيخ بني يلومي وحمامة بن مظهر شيخ بني عبد الواد . وعطية الخير شيخ بني توجين وغيرهم ، فتلقاهم بالقبول .

ثم انتقضت زناتة بعدها وامتنع بنو يلومي بحصنهم الجعبات ومعهم شيخهم سيّد الناس ومدرج[1] إبنا سيّد الناس . فحاصرتهم عساكر الموحدين وغلبوهم عليها وأشخصوهم إلى المغرب . ونزل سيّد الناس بمراكش ، وبها كان مهلكه أيام عبد المؤمن . وهلك بعد ذلك بنو ماخوخ .

(ولما) أخذ أمير هذين الحيين في الانتقاض جاذب بنو يلومي في تلك الأعمال بنو توجين ، وشاجروهم في أحواله ثم واقعوهم الحرب في جوانبه وتولّى ذلك فيهم عطية الخير شيخ بني توجين ، وصلى بنارها معه منهم بنو منكوش[2] من قومه حتى غلبوهم على مواطنهم وأذلّوهم وأصاروهم جيراناً لهم في قياطينهم . واستعلى بنو عبد الواد وتوجين على هذين الحيّين وغيرهم بولايتهم للموحدين ومخالطتهم إيّاهم ، فذهب شأنهم وافترق قيطونهم أوزاعاً في زناتة الوارثين أوطانهم من عبد الواد وتوجين والبقاء لله سبحانه . (ومن بطون بني وماتوا هؤلاء بنو يامدس[3]) وقد يزعم زاعمون أنهم من مغراوة ومواطنهم متصلة قبلة المغرب الأقصى والأوسط وراء العرق المحيط بعمرانها المذكور قبل . واختطوا في المواطن القصور والأطم ، واتخذوا بها الجنات من النخيل والأعناب وسائر الفواكه ، فمنها على ثلاثة مراحل قبلة سجلماسة ، ويسمى وطن توات ، وفيه قصور متعدّدة تناهز المائتين ، آخذة من المشرق إلى المغرب وآخرها

---

(١) كذا في النسخة الباريسية وفي نسخة بولاق : بدرج وفي نسخة أخرى : مضرج .

(٢) وفي نسخة ثانية : بنو منكرس .

(٣) وفي نسخة ثانية : ومن بطون بني ومانوا هؤلاء قبائل بني يالدسّ .

من جانب المشرق يسمّى تمنطيت ، وهو بلد مستجر في العمران ، وهو محط ركاب التجار المتردّدين من المغرب إلى بلد مالي من السودان لهذا العهد ، ومن بلد مالي إليه ، وبينه وبين ثغر بلاد مالي المسمّى غار ، المفازة المجهلة لا يهتدي فيها للسبل ، ولا يمر الوارد إلاّ بالدليل الخبير[1] من الملثمين الظواعن بذلك القفز ، يستأجره التجّار على الدربة بهم فيها بأوفر الشروط ، وكانت بلد بودي[2] وهي أعلى تلك القصور بناحية المغرب من بادية السوس هي الركاب إلى والاتن الثغر الآخر من أعمال مالي . ثم أهملت لما صارت الأعراب بادية السوس يغيرون على سابلتها ويعترضون رفاقها ، فتركوا تلك ونهجوا الطريق إلى بلد السودان من أعلى تمنطيت .

ومن هذه القصور قبلة تلمسان ، وعلى عشر مراحل منها قصور تيكارين[3] وَهي كثيرة تقارب المائة في بسيط وادٍ منحدر من المغرب إلى المشرق ، واستبحرت في العمران وغصت بالساكن . وأكثر سكان هذه القصور الغريبة في الصحراء بنو يامدس هؤلاء ومعهم من سائر قبائل البربر مثل ورتطغير ومصاب وبني عبد الواد وبني مرين ، وهم أهل عدد وعدة وبعد عن هضمة الأحكام وذلّ المغارم ، وفيهم الرجّالة والخيّالة وأكثر معاشهم من بلح النخل[4] ، وفيهم التجّار إلى بلاد السودان وضواحيهم كلّها مشتاة للعرب ، ومختصه بعبيدالله من المعقل ، عيّنتها لهم قسمة الرحلة . وربما شاركهم بنو عامر بن زغبة في تيكُرَارِين فتصل إليها ناجعتهم بعض السنين .

وأمّا عبيدالله فلا بدّ لهم في كل سنة من رحلة الشتاء إلى قصور توات وبلد تمنطيت ، ومع ناجعتهم تخرج قفول التجّار من الأمصار والتلول حتى يحطوا بتمنطيت . ثم يبذرقون منها إلى بلاد السودان . وفي هذه البلاد الصحراوية غريبة في استنباط المياه الجارية لا توجد في تلول المغرب ، وذلك أنّ البئر تحفر عميقة بعيدة المهوى وتطوى جوانبها إلى أن يوصل بالحفر إلى حجارة صلدة ، فتنحت بالمعاول والفؤس إلى أن يرقّ جرمها ، ثمّ تصعد الفعلة ويقذفون عليها زبرة من الحديد تكسر طبقها على الماء ،

(١) وفي نسخة ثانية : المخرّيت .
(٢) وفي النسخة الباريسية : هودي .
(٣) وفي نسخة ثانية : تيكورارين .
(٤) وفي نسخة ثانية : من فلح النخل .

فينبعث صاعداً فيعمّ البئر ثم يجري على وجه الأرض وادياً ، ويزعمون أنّ الماء ربّما أعجل بسرعته عن كل شيء . وهذه الغريبة موجودة في قصور توات وتيكرارين وواركلا وريغ . والعالم أبو العجائب والله الخلاّق والعليم . وهذا آخر الكلام في الطبقة الأولى من زناتة فلنرجع إلى أخبار الطبقة الثانية . وهم الذين اتصلت دولتهم إلى هذا العهد .

* (أخبار الطبقة الثانية من زناتة وذكر أنسابهم وشعوبهم وأوليتهم ومصائر ذلك) *

قد تقدّم لنا في أضعاف الكلام قبل انقراض الملك من الطبقة من زناتة ما كان على يد صنهاجة والمرابطين من بعدهم ، وأنّ عصبية أجيالهم افترقت بانقراض ملكهم ودولهم ، وبقي منهم بطون لم يمارسوا الملك ، ولا أخلقهم ترفه ، فأقاموا في قياطينهم بأطراف المغربين يتتجعون جانبي القَفْر والتلّ ، ويعطون الدول حق الطاعة . وغلبوا على بقايا الأجيال الأولى من زناتة بعد أن كانوا مغلوبين لهم فأصبحت لهم السورة والعزة وصارت الحاجة من الدول إلى مظاهرتهم ومسالمتهم ، حتى انقرضت دولة الموحدين فتطاولوا إلى الملك وضربوا فنيه مع أهلهم بسهم . وكانت لهم دول نذكرها إن شاءالله تعالى . وكان أكثر هذه الطبقة من بني واسين بن يصلتن إخوة مغراوة وبني يفرن ، ويقال إنهم من بني وانتن بن ورسيك بن جانا إخوة مسارة وتاجرت ، وقد تقدّم ذكر هذه الأنساب . وكان من بني واسين هؤلاء ببلد قسطيلية . وذكر ابن الرقيق أنّ أبا يزيد النكاري لما ظهر بجبل أوراس كتب إليهم بمكانهم حول توزر يأمرهم بحصارها فحاصروها سنة ثلاث وثلاثين وثلثمائة . وربما كان منهم ببلد الحامة لهذا العهد ، ويعرفون ببني ورتاجن إحدى بطونهم . وأمّا جمهورهم فلم يزالوا بالمغرب الأقصى بين ملوية إلى جبل راشد .

(وذكر موسى) بن أبي العافية في كتابه إلى الناصر الأموي يعرّفه بحربه مع ميسور مولى أبي القاسم الشيعيّ ، ومن صار إليه من قبائل زناتة ، فذكر فيمن ذكر ملوية ، وسار من قبائل بني واسين وبني يفرن وبني يرناتن وبني ورنمت[1] ومطماطة ، فذكر

(١) وفي نسخة أخرى : بني ورتاسن وبني وريمت ، وبني يزناسن في قبائل المغرب/١٣٧ .

منهم بني واسين لأنّ تلك المواطن من مواطنهم قبل الملك .

(وفي هذه الطبقة منهم بطون) : فمنهم بنو مرين ، وهم أكثرهم عدداً وأقواهم سلطاناً وملكاً وأعظمهم دولة . (ومنهم) : بنو عبد الواد تلوهم في الكثرة والقوّة ، وبنو توجين من بعدهم كذلك هؤلاء أهل الملك من هذه الطبقة . وفيها غير أهل الملك بنو راشد إخوة بني يادين كما نذكره ، وفيها أهل الملك أيضاً من غير نسبهم بقية من مغراوة بمواطنهم الأولى من وادي شلف نبضت فيهم عروق الملك بعد انقراض جيلهم الأوّل ، فتجاذبوا حبله مع أهل هذا الجيل وكانت لهم في مواطنهم دولة كما نذكره .

(ومن أهل هذه الطبقة) كثير من بطونهم ليس لهم ملك نذكرهم الآن عند تفصيل شعوبهم . وذلك أنّ أحياءهم جميعاً تشعّبت من زرجيك بن واسين فكان منهم بنو يادين بن محمد ، وبنو مرين بن ورتاجن ، فأمّا بنو ورتاجن فهم من ولد ورتاجن بن ماخوخ بن جريح[1] بن فاتن بن بدر بن يخفت بن عبدالله ورتنيد بن المعز بن ابراهيم بن زحيك . (وأمّا بنو مرين) بن ورتاجن فتعدّدت أفخاذهم وبطونهم كما نذكر بعد ، حتى كثروا سائر شعوب بني ورتاجن ، وصار بنو ورتاجن معدودين في جملة أفخاذهم وشعوبهم . (وأما بنو يادين) بن محمد فمن ولد زرجيك ولا أذكر الآن كيف يتصل نسبهم به . وتشعّبوا إلى شعوب كثيرة ، فكان منهم : بنو عبد الواد وبنو توجين وبنو مصاب وبنو زردال[2] يجمعهم كلّهم نسب يادين بن محمد . وفي محمد هذا يجتمع يادين وبنو راشد ، ثم يجتمع محمد مع ورتاجن في زرجيك[3] بن واسين ، وكانوا كلّهم معروفين بين زناتة الأولى ببني واسين قبل أن تعظم هذه البطون والأفخاذ ، وتتشعب مع الأيام . وبأرض أفريقية وصحراء برقة وبلاد الزاب منهم طوائف من بقايا زناتة الأولى قبل انسياحهم إلى المغرب ، فمنهم بقصور غدامس على عشرة مراحل قبلة سرت ، وكانت مختطّة منذ عهد الإسلام ، وهي خطة مشتملة على قصور وآطام عديدة ، وبعضها لبني ورتاجن وبعضها لبني واطاس من أحياء بني مرين ، يزعمون أنّ أوليتهم اختطّوها ، وهي لهذا العهد قد استبحرت في العمارة ،

---

(١) وفي نسخة أخرى : بن وجديج .

(٢) كذا في النسخة الباريسية وفي نسخة أخرى : زردان وفي نسخة ثانية : ازردال .

(٣) كذا في النسخة الباريسية وفي نسخة أخرى : زحيك وفي نسخة ثانية : زجيك .

واتسعت في التمدّن بما صارت محطًّا لركاب الحاج من السودان ، وقفل التجّار إلى مصر والاسكندرية عند اراحتهم من قطع المفازة ذات الرمال المعترضة أمام طريقهم دون الأرياف والتلول ، وباباً لولوج تلك المفازة والحاج والتجر في مرجعهم ومنهم ببلد الحامة[1] غربيّ قابس أمّة عظيمة من بني ورتاجن . وفرّت منهم حاميتها ، واشتدّت شوكتها ورحل إليها التجر بالبضائع لنفاق أسواقها ، وتبحّر عمرانها ، وامتنعت لهذا العهد على من يرومها ممن يجاورها ، فهم لا يؤدّون خراجاً ولا يسامون بمغرم ، حتى كأنهم لا يعرفونه عزة جناب ، وفضل بأس ومنعة . ويزعمون أنّ سلفهم من بني ورتاجن اختطّوها ، ورياستهم في بيت منهم يعرفون ببني وشاح ، ولربّما طال على رؤسائهم عهد الخلافة ووطأة الدولة فيتطاولون إلى التي تنكر على السوقة من اتخاذ الآلة ، ويبرزون في زيّ السلطان أيام الزينة تهاوناً بشعار الملك ، ونسياناً لمألوف الانقياد شأن جيرانهم رؤساء توزر ونفطة . وسابق الغاية في هذه الضحكة هو يملول مقدّم توزر .

(ومن بني واسين) هؤلاء بقصور مصاب على خمس مراحل من جبل قيطري في القبلة لما دون الرمال على ثلاث مراحل من قصور بني ريغة في المغرب ، وهذا الاسم للقوم الذين اختطّوها ونزلوها من شعوب بني يادين[2] حسبما ذكرناهم الآن . وضعوها في أرض حرّة على أحكام[3] وضراب ممتنعة في قننها . وبينها وبين الأرض المحجرة المعروفة بالحمادة في سمت العرق متوسطة فيه قبالة تلك البلاد على فراسخ في ناحية القبلة ، وسكانها لهذا العهد شعوب بني يادين من بني عبد الواد وبني توجين ومصاب وبني زردال فيمن انضاف إليهم من شعوب زناتة ، وإن كانت شهرتها مختصة بمصاب ، وحالها في المباني والاغتراس وتفرّق الجماعات بتفرّق الرياسة شبيهة بحال بني ريغة والزاب . ومنهم بجبل أوراس بأفريقية طائفة من بني عبد الواد موطّنوه منذ العهد القديم لأوّل الفتح ، معروفون بين ساكنيه .

(وقد ذكر) بعض الأخباريين أنّ بني عبد الواد حضروا مع عقبة بن نافع في فتح المغرب عند ايغاله في ديار المغرب ، وانتهائه إلى البحر المحيط بالسوس في ولايته

---

(١) وفي نسخة ثانية : ومنهم ببلاد الحمة .

(٢) وفي نسخة ثانية : بني يادين .

(٣) وفي نسخة ثانية : آكام .

الثانية . وهي الغزاة التي هلك فيها في منصرفه منها ، وأنهم أبلوا البلاء الحسن فدعا لهم وأذن في رجوعهم قبل استتمام الغزاة . ولما تحيّزت زناتة أمام كتامة وصنهاجة اجتمع شعوب بني واسين هؤلاء كلّهم ما بين ملوية كما ذكرناه . وتشعّبت أحياؤهم وبطونهم ، وانبسطوا في صحراء المغرب الأقصى والأوسط إلى بلاد الزاب وما إليها من صحارى أفريقية إذ لم يكن للعرب في تلك المجالات كلّها مذهب ولا مسلك إلى المائة الخامسة كما سبق ذكره . ولم يزالوا بتلك البلاد مشتملين لبوس العزّ مشمّرين للانفة ، وكانت مكاسبهم[1] الأنعام والماشية ، وابتغاؤهم الرزق من تحيّف السابلة ، وفي ظل الرماح المشرّعة ، وكانت لهم في محاربة الأحياء والقبائل ومنافسة الأمم والدول ومغالبة الملوك أيام ووقائع ، نلمّ بها ولم تعظم العناية باستيعابها ، فنأتي به . والسبب في ذلك أنّ اللسان العربي كان غالباً لغلبة دولة العرب وظهور الملّة العربية ، فالكتاب والخط بلغة الدولة ولسان الملك ، واللسان العجمي مستتر بجناحه مندرج في غماده ، ولم يكن لهذا الجيل من زناتة في الأحقاب القديمة ملك يحمل أهل الكتاب على العناية بتقييد أيامهم وتدوين أخبارهم ، ولم تكن مخالطة بينهم وبين أهل الأرياف والحضر ، حتى يشهدوا آثارهم لإبعادهم في القفار كما رأيت في مواطنهم ، وتوحّشهم عن الانقياد ، فبقوا غفلاً إلى أن درس منها الكثير ، ولم يصل إلينا بعد ملكهم إلاّ الشارد القليل يتبعه المؤرّخ المضطلع في مسالكه ، ويتقرّاه في شعابه ويثيره من مكامنه ، وأقاموا بتلك القفار إلى أن تسنّموا منها هضبات الملك على ما تصفه .

(١) وفي نسخة ثانية : وكان جل مكاسبهم .

مصاب بـــــن يادين بن محمد بن رزجيك بن واسين بن يصلتن بن مسر بن زاكيا بن ورسيك بن اديدت بن جانا

— عبد الواد
— توجين
— رزدال
— مرين ولد ابراهيم

* (الخبر عن أحوال هذه الطبقة قبل الملك وكيف كانت تصاريف أحوالهم الى أن غلبوا على الملك والدول) *

وذلك أنّ أهل هذه الطبقة من بني واسين وشعوبهم التي سمّيناها كانوا تبعاً لزناتة الأولى . ولما انزاحت زناتة إلى المغرب الأقصى أمام كتامة وصنهاجة ، خرج بنو واسين هؤلاء إلى القَفْر ما بين ملوية وصا ، فكانوا يرجعون إلى ملك المغرب لذلك العهد . مكناسة أوّلاً ثم مغراوة من بعدهم . ثم حسر تيّار بني صنهاجة عن المغرب وتقلّص ملكهم ، بعض الشيء وصاروا إلى الاستجاشة على القاصية بقبائل زناتة ، فأومضت بروقهم ، ورفت في ممالك زناتة منابتهم كما قدّمناه . واقتسم أعمالها بنو ومانو وبنو يلومي ناحيتين ، وكانت ملوك صنهاجة أهل القلعة اذا عسكروا للغرب يستنفرونهم لغزوه ، ويجمعون حشدهم للتوغّل فيه ، وكان بنو واسين هؤلاء ومن تشعّب معهم من القبائل الشهيرة الذكر مثل بني مرين وبني عبد الواد وبني توجين ومصاب قد ملكوا القفر ما بين ملوية وأرض الزاب ، وامتنعت عليهم المغربان ممن ملكها من زناتة الذين ذكرناهم .

(وكان) أهل الرياسة بتلك الأرياف والضواحي من زناتة مثل بني ومانوا وبني يلومي بالمغرب الأوسط ، وبني يفرن ومغراوة بتلمسان يستجيشون بني واسين هؤلاء وشعوبهم ، ويستظهرون بجموعهم على من زاحمهم أو نازعهم من ملوك صنهاجة وزناتة وغيرهم ، يحاجون[1] بهم عن مواطنهم لذلك ، ويقرضونهم القرض الحسن من المال والسلاح والحبوب المعوزة لديهم بالقفار ، فيتأثلون منهم ويرتاشون . وعظمت حاجة بني حمّاد إليهم في ذلك عندما عصفت بهم ريح العرب الضوالع من بني هِلال بن عَامِر ، وصرعوا دولة المعزّ وصنهاجة بالقَيْرَوَان والمهديّة والايواء عن مدّهم[2] ، وزحفوا إلى المغرب الأوسط فدافعوا بني حمّاد عن حوزته وأوعزوا إلى زناتة بمدافعتهم أيضاً ، فاجتمع لذلك بنو يعلى ملوك تلمسان من مغراوة وجمعوا من كان إليهم من بني واسين هؤلاء من بني مرين وعبد الواد وتوجين وبني راشد . وعقدوا

---

(١) وفي نسخة ثانية : يحأجئون بهم من مواطنهم لذلك .

(٢) وفي نسخة ثانية : والانواء من حدهم .

اليفرني ، فكان له على حرب الهلاليين لوزيرهم أبي سعدى خليفة بن[1] مقامات في حروبهم ودفاعهم عن ضواحي الزاب وما إليه من بلاد أفريقية والمغرب الأوسط إلى أن هلك في بعض أيامه معهم ، وغلب الهلاليون قبائل زناتة على جميع الضواحي وأزاحوهم عن الزاب وما إليه من بلاد أفريقية ، وانشمر بنو واسين هؤلاء من بني مرين وعبد الواد وتوجين عن الزاب إلى مواطنهم بصحراء المغرب الأوسط من مصاب وجبل راشد إلى ملوية فيكيك . ثم إلى سجلماسة ولاذوا ببني ومانوا وبني يلومي ملوك الضواحي بالمغرب الأوسط ، وتفيّؤا ظلّهم واقتسموا ذلك القفر بالمواطن ، فكان لبني مرين الناحية الغربية منها قبلة المغرب الأقصى بتيكورارين ودبّروا إلى ملوية وسجلماسة ، وبعدوا عن بني يلومي إلا في الأحايين وعند الصريخ ، وكان لبني يادين منها الناحية الشرقية قبلة المغرب الأوسط ما بين فيكيك ومديونة إلى جبل راشد ومصاب . وكان بينهم وبين بني مرين فتن متصلة باتصال أيامهم في تلك المواضع[2] بسيل القبائل الجيران في مواطنهم ، وكان الغلب في حروبهم أكثر ما يكون لبني يادين لما كانت شعوبهم أكثر وعددهم أوفر ، فإنهم كانوا أربعة : شعوب بني عبد الواد وبني توجين وبني زردال وبني مصاب ، كان معهم شعب آخر وهم إخوانهم بنو راشد ، لأنّا قدّمنا أنّ راشداً أخو يادين . وكان موطن بني راشد الجبل المشهور بهم بالصحراء ، ولم يزالوا على هذه الحال إلى أن ظهر أمر الموحدين ، فكان لبني عبد الواد وتوجين ومغراوة من المظاهرة لبني يلومي على الموحدين ما هو مذكور في أخبارهم .

ثم غلب الموحدون على المغرب الأوسط وقبائله من زناتة فأطاعوا وانقادوا ، وتحيّز بنو عبد الواد وبنو توجين إلى الموحدين وازدلفوا إليهم بامحاض النصيحة ومشايعة الدعوة ، وكان التقدم لبني عبد الواد دون الشعوب الآخر ، وأمحضوا النصيحة للموحدين فاصطنعوهم دون بني مرين كما نذكر في أخبارهم وترك[3] الموحدون ضواحي المغرب الأوسط كما كانت لبني يلومي وبني ومانوا فملكوها . وتفرّد بنو مرين بعد دخول بني يادين إلى المغرب الأوسط بتلك الصحراء ، لما اختار الله لهم

(١) بياض بالأصل ولم نستطع تحديد اسم والده في المراجع التي بين أيدينا .

(٢) وفي نسخة أخرى : المواطن .

(٣) وفي نسخة أخرى : واقطعهم .

من وفور قسمهم في الملك ، واستيلائهم على سلطان المغرب الذي غلبوا به الدول ، واشتملوا الأقطار ونظّموا المشارق إلى المغارب ، واقتعدوا كراسي الدول المسامته لهم بأجمعها ما بين السوس الأقصى إلى أفريقية . والملك لله يؤتيه من يشاء من عباده .
فأخذ بنو مرين وبنو عبد الواد من شعوب بني واسين بحظ من الملك أعادوا فيه لزناتة دولةً وسلطاناً في الأرض ، واقتادوا الأمم برسن الغلب ، وناغاهم في ذلك الملك البدوي إخوانهم بنو توجين ، وكان في هذه الطبقة الثانية بقية أخرى مما ترك آل خَزَر من قبائل مغراوة الأولى ، كانوا موطنين بقرار عزّهم ومنشأ جيلهم بوادي شلف ، فجاذبوا هؤلاء القبائل حبل الملك وناغوهم في أطوار الرياسة ، واستطالوا بمن وصل جناحهم من هذه العشائر فتطاولوا إلى مقاسمتهم في الماء(١) ومساهمتهم في الأمر ، وما زال بنو عبد الواد في الغضّ من عنانهم وجدع أنوف عصبيتهم حتى أوهنوا من بأسهم ، وخصّت الدولة العبد الوادية ثم المرينية بسمة الملك المخلّفة من جناح تطاولهم ، وتمحض ذلك كله عن استبداد بني مرين واستتباعهم لجميع هؤلاء العصائب كما نذكر لك الآن دولهم واحدة بعد أخرى ، ومصائر هؤلاء القبائل الأربعة التي هي رؤوس هذه الطبقة الثانية من زناتة . والملك لله يؤتيه من يشاء والعاقبة للمتقين .
(ولنبدأ منها بذكر مغراوة) بقية الطبقة الأولى وما كان لرؤسائهم أولاد منديل من الملك في هذه الطبقة الثانية ، كما ستراه إن شاءالله تعالى .

* (الخبر عن أولاد منديل من الطبقة الثانية وما أعادوا لقومهم مغراوة من الملك بموطنهم الأول من شلب وما إليه من نواحي المغرب الأوسط) *

لما ذهب الملك من مغراوة بانقراض ملوكهم آل خزر ، واضمحلت دولتهم بتلمسان وسجلماسة وفاس وطرابلس ، وبقيت قبائل مغراوة متفرقة في مواطنها الأولى بنواحي المغربين وأفريقية بالصحراء والتلول ، والكثير منهم بعنصرهم ومركزهم الأول بوطن

(١) وفي نسخة أخرى : الملك .

شلف وما إليه ، فكان به بنو ورسيفان وبنو يرنا وبنو ينلت [١] . ويقال إنهم من وترمار وبنو سعيد وبنو زحاك [٢] وبنو سنجاس ، وربما يقال إنهم من زناتة وليسوا من مغراوة ، وكان بنو خزرون الملوك بطرابلس لما انقرض أمرهم ، وافترقوا في البلاد ، ولحق منهم عبد الصمد بن محمد بن خزرون بجبل أوراس فراراً من أهل بيته هنالكَ الذين استولوا على الأمر وجدّه خزرون بن خليفة السادس من ملوكهم بطرابلس ، فأقام بينهم أعواماً . ثم ارتحل عنهم فنزل على بقايا قومه مغراوة بشلف من بني ورسيفان وبني ورتزمين وبني بو سعيد وغيرهم ، فتلقّوهم بالمبرّة والكرامة ، وأوجبوا له حق البيت الذي ينسب إليه فيهم ، وأصهر إليهم فأنكحوه وكثر ولده وعرفوا بينهم ببني محمد ، ثم بالخَزْرِيّة نسبة إلى سلفه الأول . وكان من ولده الملقّب أبو ناس بن عبد الصمد بن وَرْجِيع بن عبد الصمد . وكان منتحلاً للعبادة والخيرية ، وأصهر إليه بعض ولد ماخوخ ملوك بني وماتوا بابنته ، فأنكحه إيّاها ، فعظم أمره عندهم بقومه ونسبه وصهره . وجاءت دولة الموحدين على أثر ذلك فرمقوه بعين التجلّة لما كان عليه من طرق الخير ، فأقطعوه بوادي شلف وأقام على ذلك . وكان له من الولد ورجيع وهو كبيرهم ، وغربي ولغريات [٣] وماكور ، ومن بنت ماخوخ عبد الرحمن ، وكان أجلّهم شأناً عنده وعند قومه عبد الرحمن هذا ، لما يوجبون له بولادة ماخوخ لأمّه ، ويتفرّسون فيه أنّ له ولعقبه ملكاً .

وزعموا أنه لما ولد خرجت به أمه إلى الصحراء فألقته إلى شجرة وذهبت في بعض حاجاتها ، فأطاف به يعسوب من النحل متواقعين عليه ، وبصرت به على البعد فجاءت تعدو لما أدركها من الشفقة ، فقال لها بعض العارفين : خفّي عنك فوالله ليكوننّ لهذا شأن . ونشأ عبد الرحمن هذا في جوّ هذه التجلّة مدلاً بنسبه وبأسه ، وكثرت عشيرته من بني أبيه ، واعصوصب عليه قبائل مغراوة ، فكان له بذلك شوكة . وفي دولة الموحدين تقدمة ، لما كان يوجب لهم على نفسه من الانحياش والمخالطة والتقدّم في مذاهب الطاعة . وكان السادة منهم يمرّون به غزواتهم إلى أفريقية ذاهبين وجائين [٤] ، فينزلون منه خير نزل ، وينقلبون بحمده والشكر لمذهبه ،

(١) وفي النسخة الباريسية : بنو ووترمار وبنو يلتت وفي نسخة ثانية : بنو ووتزمان وبنو ايليت .

(٢) وفي نسخة ثانية : زجاك .

(٣) وفي نسخة ثانية : عزيز ويغريان .

(٤) وفي نسخة ثانية : راجعين .

فيزيد خلفاؤهم اغتباطاً به . وأدرك بعض السادة وهو بأرض قومه الخبر بمهلك الخليفة بمراكش ، فخلف الذخيرة والظهر ، وأسلمها لعبد الرحمن هذا ، ونجا بدمائه بعد أن صحبه إلى تخوم وطنه ، فكانت له بها ثروة أكسبته قوّة وكثرة فاستركب من قومه ، واستكثر من عصابته وعشيرته . وهلك خلال ذلك وقد فشل ريح بني عبد المؤمن وضعف أمر الخليفة بمراكش .

(وكان له من الولد) منديل وتميم ، وكان أكبرهما منديل ، فقام بأمر قومه على حين عصفت رياح الفتنة ، وسما لمنديل أمل في التغلّب على ما يليه ، فاستأسد في عرينه وحامى عن أشباله . ثم فسح خطوته إلى ما جاوره من البلاد فملك جبل وانشريس والمريّة وما إلى ذلك واختط قصبة مرات . وكان بسيط متيجة لهذا العهد في العمران آهلاً بالقرى والأمصار .

(ونقل الأخباريون) أنّ أهل متيجة لذلك العهد يجمعون في ثلاثين مصراً فجاس خلالها وأوطأ الغارات ساحتها وخرّب عمرانها حتى تركها خاوية على عروشها . وهو في ذلك يوهم التمسّك بطاعة الموحدين ، وأنه سلم لمن سالمهم حرب لمن عاداهم . وكان ابن غانية منذ غلبه الموحدون عن أفريقية قد أزاحوه إلى قابس وما إليها ، فنزل الشيخ أبو محمد بن أبي حفص بتونس ودفعه إلى أفريقية إلى أن هلك سنة ثمان عشرة وستمائة فطمع يحيى بن غانية في استرجاع أمره وسبق إلى الثغور والأمصار يعبث فيها ويخرّبها ، ثم تجاوز أفريقية إلى بلاد زناتة وشنّ عليها الغارات واكتسح البسائط ، وتكرّرت الوقائع بينه وبينهم ، فجمع له منديل بن عبد الرحمن ولقيه بمتيجة ، وكانت الدبرة عليه وانفضت عنه مغراوة ، فقتله ابن غانية صبراً سنة إثنتين أو ثلاث وعشرين وستمائة وتغلّب على الجزائر أثر نكبته ، فصلب شلوه بها وصيره مثلا للآخرين . وقام بأمره في قومه بنوه ، وكان منجبا فكان لهم العدد والشرف ، وكانوا يرجعون في أمرهم إلى كبيرهم العبّاس ، فتقلّد[1] مذاهب أبيه واقتصر على بلاد متيجة . ثم غلبهم بنو توجين على جبل وانشريس وضواحي المريّة وما إلى ذلك . وانقبضوا إلى مركزهم الأوّل شلف ، وأقاموا فيها ملكاً بدوياً لم يفارقوا فيه الظعن والخيام والضواحي والبسائط . واستولى على مدينة مليانة وتنس وبرشك وشرشال

---

(١) وفي نسخة ثانية : فتقبّل مذاهب أبيه وأقصر على بلاد متيجة .

مقيمين فيها للدعوة الحفصيّة واختطوا قرية مازونة .

(ولما استوسق) الملك بتلمسان ليغمراسن بن زيان ، واستفحل سلطانه بها وعقد له عليها ولأخيه من قبله عبد المؤمن ، سما على التغلّب على أعمال المغرب الأوسط ، وزاحم بني توجين وبني منديل هؤلاء بمكناسة فلفتوا وجوههم جميعاً إلى الأمير أبي زكريا بن أبي حفص مديل الدولة بأفريقية من بني عبد المؤمن ، وبعثوا إليه الصريخ على يغمراسن ، فاحتشد لهم جميع الموحدين والعرب ، وغزا تلمسان وافتتحها كما ذكرناه .

ولما قفل إلى الحضرة عقد في مرجعه لأمراء زناتة كل على قومه ووطنه ، فعقد للعبّاس ابن منديل على مغراوة ، ولعبد القوي على توجين ولاولاد حورة[1] على ملكيش ، وسوّغ لهم اتخاذ الآلة فاتخذوها بمشهد منه . وعقد العبّاس السلم مع يغمراسن ، ووفد عليه بتلمسان فلقاه مبرّة وتكريماً ، وذهب عنه بعدها مغاضباً . يقال إنه تحدّث بمجلسه يوماً فزعم أنه رأى فارساً واحداً يقاتل مائتين من الفرسان ، فنكر ذلك من سمعه من بني عبد الواد وعرّضوا بتكذيبه ، فخرج العبّاس لها مغاضبا حتى أتى بقومه ، وأتى يغمراسن مصداق قوله ، فانه كان يعني بذلك الفارس نفسه .

وهلك العبّاس لخمس وعشرين سنة بعد أبيه سنة سبع وأربعين وستمائة وقام بالأمر بعده أخوه محمد بن منديل وصلحت الحال بينه وبين يغمراسن وصاروا إلى الاتفاق والمهادنة ، ونفر معه بقومه مغراوة إلى غزو المغرب سنة كلومان[2] وهي سنة سبع وأربعين وستمائة ، هزمهم فيها يعقوب بن عبد الحق فرجعوا إلى أوطانهم وعاودوا شأنهم في العداوة . وانتقض عليهم أهل مليانة وخلعوا الطاعة الحفصيّة .

(وكان من خبر) هذا الانتقاض أنّ أبا العباس أحمد الملياني كان كبير وقته علماً وديناً وروايةً ، وكان عالي السند في الحديث فرحل إليه الأعلام ، وأخذ عنه الأئمة وأوفت به الشهرة على ثنايا السيادة ، فانتهت إليه رياسة بلده على عهد يعقوب المنصور وبنيه . ونشأ ابنه أبو عليّ في جوّ هذه العناية وكان جموحاً للرياسة طامحاً للاستبداد ، وهو مع ذلك خلو من المغارم . فلمّا هلك أبوه جرى في شأو رياسته طلقاً ، ثم رأى ما بين مغراوة وبني عبد الواد من الفتنة ، فحدّثته نفسه بالاستبداد ببلده ، فجمع لها

(١) وفي النسخة الباريسية : حتورة وفي نسخة ثانية : حبورة .

(٢) وفي نسخة اخرى : كلدمان .

جراميزه ، وقطع الدعاء للخليفة المستنصر سنة تسع وخمسين وستمائة ، وبلغ الخبر الى تونس فسرّح الخليفة أخاه في عسكر من الموحدين في جملته «دون الديك بن هرنزة[1]» من آل أدفونش ملوك الجلالقة ، كان نازعاً إليه عن أبيه في طائفة من قومه ، فنازلوا مليانة أياماً . وداخل السلطان طائفة من مشيخة البلد المنحرفين عن ابن الملياني ، فسرّب إليهم جنوداً بالليل واقتحموها من بعض المداخل ، وفرّ أبو عليّ الملياني تحت الليل . وخرج من بعض قنوات البلد ، فلحق بأحياء العرب ، ونزل على يعقوب بن موسى بن العطاف من بطون زغبة ، فأجاره إلى أن لحق بعدها بيعقوب بن عبد الحق ، فكان من أمره ما ذكرناه في أخبارهم . وانصرف عسكر الموحدين والأمير أبو حفص إلى الحضرة ، وعقد لمحمد بن منديل على مليانة ، فأقام بها الدعوة الحفصية على سنن قومه . ثم هلك محمد بن منديل سنة إثنتين وستين وستمائة لخمس عشرة من ولايته ، قتله أخواه ثابت وعابد بمنزل ظواعنهم بالخيس[2] من بسيط بلادهم ، وقتل معه عطية ابن أخيه منيف وتولّى عابد وشاركه ثابت في الأمر ، واجتمع إليه قومه وتقطع ما بين أولاد منديل وخشّنت صدورهم . واستغلظ يغمراسن بن زيان عليهم ، وداخله عمر بن منديل في أن يمكّنه من مليانة ، ويشدّ عضده على رياسة قومه ، فشارطه على ذلك وأمكنه من أزمّة البلد سنة ثمان وستين وستمائة ونادى بعزل ثابت ومؤازرة عمر على الأمر فتمّ لهما ما أحكماه من أمرهما في مغراوة . واستمكن بها يغمراسن من قيادة قومه . ثم تناغى أولاد منديل في الازدلاف إلى يغمراسن بمثلها نكاية لعمر ، فاتفق ثابت وعابد أولاد منديل أن يحكماه من تونس[3] فأمكناه منها سنة إثنتين وسبعين وستمائة على إثني عشر ألفاً من الذهب .

واستمرّت ولاية عمر إلى أن هلك سنة ست وسبعين وستمائة ، فاستقل ثابت بن منديل برياسة مغراوة ، وأجاز عابد أخوه إلى الأندلس للرباط والجهاد مع صَاحِبَيْه زيّان بن محمد بن عبد القوي وعبد الملك بن يغمراسن فحوّل زناتة واسترجع ثابت بلاد تونس ومليانة من يد يغمراسن ، ونبذ إليه العهد ، ثم استغلظ يغمراسن عليهم واستردّ تونس سنة إحدى وثمانين وستمائة بين يدي مهلكه .

---

(١) وفي نسخة اخرى : دون الريك بن هراندة .

(٢) وفي نسخة اخرى : بالخميس .

(٣) وفي نسخة ثانية : في تنس .

(ولما) هلك يغمراسن وقام بالأمر بعده ابنه عثمان انتقضت عليه تونس ، ثم ردّد الغزو إلى بلاد توجين ومغراوة حتى غلبهم آخراً على ما بأيديهم ، وملك المرية بمداخلة بني لمدية أهلها سنة سبع وثمانين وستمائة وغلب ثابت بن منديل على مازونة ، فاستولى عليها ثم نزل له عن تونس أيضاً فملكها . ولم يزل عثمان مراغماً لهم إلى أن زحف إليهم سنة ثلاث وتسعين وستمائة فاستولى على أمصارهم وضواحيهم ، وأخرجهم عنها وألجأهم إلى الجبال . ودخل ثابت بن منديل إلى برشك ممانعاً دونها ، فزحف إليهم عثمان وحاصره بها حتى إذا استيقن أنه محاط به[1] ، ركب البحر إلى المغرب ، ونزل على يوسف بن يعقوب سلطان بني مرين صريخاً سنة أربع وتسعين وستمائة فأكرمه ووعده بالنصرة من عدوّه ، وأقام بفاس وكانت بينه وبين ابن الأشهب من رجالات بني عسكر صحبة ومداخلة ، فجاءه بعض الأيام الى منزله ، ودخل عليه من غير استئذان وكان ابن الاشهب ثملاً ، فسطا به وقتله وثأر السلطان به منه ، وانفجع لموته . وكان ثابت بن منديل قد أقام ابنه محمد الأمير في قومه ، وولاّه عليهم لعهده واستبدّ بملك مغراوة دونه .

(ولما انصرف) أبوه ثابت إلى قومه أقام هو في إمارته على مغراوة . وهلك قريباً من مهلك أبيه ، فقام بأمرهم من بعده شقيقه عليّ ، ونازعه الأمر أخواه رحمون ومنيف ، فقتله منيف ونكر ذلك قومهما وأبوا من إمارتهما عليهم ، فلحقا بعثمان بن يغمراسن فأجازهما إلى الأندلس .

(وكان) أخوهما معمّر بن ثابت قائداً على الغزاة بالعزة[2] فتزل لمنيف عنها ، فكانت أوّل ولاية وليها بالأندلس . ولحق بهم أخوهم عبد المؤمن فكانوا جميعاً هنالك ومن أعقاب عبد المؤمن يعقوب بن زيان بن عبد المؤمن ، ومن أعقاب منيف[3]

بن عمر بن منيف وجماعة منهم لهذا العهد بالأندلس .

(ولما هلك) ثابت بن منديل سنة أربع وتسعين وستمائة كما قلناه ، كفل السلطان ولده وأهله ، وكان فيهم حافده راشد بن محمد ، فأصهر إليه في أخته فأنكحه إياها . ونهض إلى تلمسان سنة ثمان وتسعين وستمائة فأناخ عليها ، واختطّ مدينته لحصارها

---

(١) وفي نسخة ثانية : انه محيط به .

(٢) كذا في النسخة الباريسية وفي نسخة أخرى : بالبغيرة ، وفي نسخة ثانية بالنغيرة .

(٣) بياض بالأصل ولم نستطع معرفة اسم ابن عمر هذا في المراجع التي بين أيدينا .

وسرّح عساكره في نواحيها ، وعقد على مغراوة وشلف لعمر بن يعزن[1] بن منديل ، وبعث معه جيشاً ففتح مليانة وتونس ومازونة سنة تسع وتسعين وستمائة ووجد راشد في نفسه إذ لم يوله على قومه ، وكان يرى أنه الأحق لنسبه وظهره ، فنزع عن السلطان ولحق بجبال متيجة ودسّ إلى أوليائه من مغراوة حتى وجد فيهم الدخلة ، فأجدّ[2] السير ولحق بهم ، فافترق أمر مغراوة ، وداخل أهل مازونة فانتقضوا على السلطان وبيّت عمر بن ويعزن بأزمور[3] من ضواحي بلادهم فقتله ، واجتمع عليه قومه وسرّح السلطان إليه الكتائب من بني عسكر لنظر الحسن بن عليّ بن أبي الطلاق ، ومن بني ورتاجن لنظر عليّ بن محمد الخير ، ومن بني توجين لنظر أبي بكر بن ابراهيم بن عبد القوي . ومن الجند لنظر علي بن حسّان الصبحي من صنائعه ، وعقد على مغراوة لمحمد بن عمر بن منديل ، وزحفوا إلى مازونة وقد ضبطها راشد ، وخلّف عليها عليًّا وحموّ إبني عمه يحيى بن ثابت . ولحق هو ببني بو سعيد مطلاً عليهم وأناخت العساكر على مازونة ، ووالوا عليها الحصار سنين حتى أجهدوهم . وبعث عليّ بن يحيى أخاه حموّ إلى السلطان من غير عهد فتقبّض عليه . ثم اضطره الجهد إلى مركب الغرور فخرج إليهم ملقياً بيده سنة ثلاث وسبعمائة وأشخصوه إلى السلطان فعفا عنه واستبقاه ، واحتسبها تأنيساً واستمالة لراشد ثم سرّح العساكر الى قاصية الشرق لنظر أخيه أبي يحيى بن يعقوب ، فنازل راشد بن محمد في معقل بني بوسعيد ، وطال حصاره إياه ، وأمكنته الغرّة بعض الأيام في العساكر ، وقد تعلقوا بأوعار البلد زاحفين إليه فهزمهم . وهلك في تلك الواقعة خلق من بني مرين وعساكر السلطان ، وذلك سنة أربع وسبعمائة . وبلغ الخبر الى السلطان فأحفظه ذلك عليهم ، وأمر بابن عمّه علي بن يحيى وأخيه حموّ ومن معهم من قومهم ، فقتلوا رشقاً بالسهام واستلحمهم .

---

(١) كذا في النسخة الباريسية ويعزن وفي نسخة ثانية : ويغرن .

(٢) كذا في النسخة الباريسية وفي نسخة ثانية : فأغذّ .

(٣) سمّاها ياقوت في معجم البلدان أزمورة بثلاث ضمات وكذلك ابن حوقل . وأزمور مدينة صغيرة على شاطىء المحيط الأطلنطي بين الدار البيضاء والجديدة على ضفة وادي أم الربيع ، تعتبر مركزاً مهما لقبائل الحوزية وشتوكه بدكاله . ويرجع تاريخها الى العصور القديمة حيث عرفها الفينيقيون . (تقع المدينة على بعد ٢ كلم من الشاطىء و١٧ كلم من الجديدة و٨٠ كلم من البيضاء) . (المعجم التاريخي ٣ — كتاب المغرب/٤٢ .

ثم سرّح أخاه أبا يحيى بن يعقوب ثانية سنة أربع وسبعمائة فاستولى على بلاد مغراوة ، ولحق راشد بجبال صنهاجة من متيجة ، ومعه عمّه منيف بن ثابت ومن اجتمع إليهم من قومهم ، فنازلهم أبو يحيى بن يعقوب . وراسل راشد يوسف بن يعقوب فانعقدت بينهما السلم ، ورجعت العساكر عنهم . وأجاز منيف بن ثابت معه بنيه وعشيرته إلى الأندلس ، فاستقرّوا هنالك آخر الأيام .

(ولمّا هلك) يوسف بن يعقوب بمناخه على تلمسان آخر سنة ست وسبعمائة انعقدت السلم بين حافده أبي ثابت وبين أبي زيّان بن عثمان سلطان بني عبد الواد على أن يخلي له بنو مرين عن جميع ما ملكوه من أمصارهم وأعمالهم وثغورهم ، وبعثوا في حاميتهم وعمّالهم وأسلموها لعمّال أبي زيّان . وكان راشد قد طمع في استرجاع بلاده ، وزحف إلى مليانة فأحاط بها . فلما نزل عنها بنو مرين لأبي زيّان وصارت مليانة وتونس له ، أخفق سعي راشد وأفرج عن البلد . ثم كان مهلك أبي زيّان قريباً ، وولّى أخوه أبو حمّو موسى بن عثمان واستولى على المغرب الأوسط فهلك تافريكت[1] سنة سبع وسبعمائة وملك بعدها مليانة والمريّة ، ثم ملك تونس وعقد عليها لمولاه مسامح ، وقارن ذلك حركة صاحب بجاية السلطان أبي البقاء خالد ابن مولانا الأمير أبي زكريا ابن السلطان أبي اسحق إلى متيجة لاسترجاع الجزائر من يد ابن علان الثائر بها عليهم ، فلقيه هنالك راشد بن محمد وصار في جملته وظاهره على شأنه . ولقاه السلطان تكرمة وبرّاً ، وعقد له ولقومه حلفاً مع صنهاجة أولياء الدولة والمتغلّبين على ضاحية بجاية وجبال زواوة ، فاتصلت يد راشد بيد زعيمهم يعقوب بن خلوف أحد زعماء الدولة .

ولما نهض السلطان للاستيثار بملك الحضرة بتونس ، استعمل يعقوب بن خلوف على بجاية وعسكر معه راشد بقومه ، وأبلى في الحروب بين يديه وأغنى في مظاهرة أوليائه حتى إذا ملك حضرتهم واستولى على تراث سلفهم ، أسف حاجب الدولة راشد هذا وقومه بامضاء الحكم في بعض حشمه ، وتعرّض للحرابة في السابلة ، فتقبّض عليه ورفع إلى سدّة السلطان فأمضى فيه حكم الله . وذهب راشد مغاضباً ولحق بوليّه ابن خلوف ومضطربه من زواوة . وكان يعقوب بن خلوف قد هلك وولّى السلطان مكانه

(١) وفي نسخة أخرى : تافركينت .

ابنه عبد الرحمن ، فلم يرع حق أبيه في إكرام صديقه راشد . وتشاجر معه في بعض الأيام مشاجرة نكر عبد الرحمن فيها ملاحاة راشد له ، وأنف منها ، وأدلّ فيها راشد بمكانه من الدولة وببأس قومه ، فلدغه بالقول وتناوله عبد الرحمن وحشمه وخزاً بالرماح إلى أن أقعصوه[1] واندعر جمع مغراوة ولحقوا بالثغور القاصية ، وأقفر منهم شلف وما إليه كأن لم يكونوا به فأجاز منهم بنو منيف وبنو يعزن إلى الأندلس للمرابطة بثغور المسلمين ، فكانت منهم عصابة موطّنة هناك أعقابهم لهذا العهد . وأقام في جوار الموحّدين فلّ آخر من أوساط قومهم كانوا شوكة في عساكر الدولة إلى أن انقرضوا ولحق علي بن راشد بعمّته في قصر بني يعقوب بن عبد الحق فكفلته ، وصار أولاد منديل عُصَباً إلى وطن بني مرين فتولّوهم وأحسنوا جوارهم ، وأصهروا إليهم سائر الدولة ، إلى أن تغلّب السلطان أبو الحسن على المغرب الأوسط ومحا دولة آل زيّان ، وجمع كلمة زناتة ، وانتظم مع بلادهم بلاد أفريقية وعمل الموحدين وكانت نكبته على القيروان سنة تسع وأربعين وسبعمائة كما شرحناه قبل . فانتقضت العمالات والأطراف وانتزى أعياص الملك بمواطنهم الأولى ، فتوثّب عليّ بن راشد بن محمد ابن ثابت بن منديل على بلاد شلف وتملّكها وتغلّب على أمصارها مليانة وتنس وبرشك وشرشال ، وأعاد ما كان لسلفه بها من الملك على طريقتهم البدوية ، وأرهفوا حدّهم لمن طالبهم من القبائل .

وخلص السلطان أبو الحسن من ورطته إلى أفريقية ، ثم من ورطة البحر من مرسى الجزائر إلى بجاية يحاول استرجاع ملكه المفرّق ، فبعث إلى عليّ بن راشد وذكّره ذمّتهم فتذكر وحنّ ، واشترط لنفسه التجافي له عن ملك قومه بشلف على أن يظاهره على بني عبد الواد فأبى السلطان أبو الحسن من اشتراط ذلك له ، فتحيّز عنه إلى فينة بني عبد الواد الناجمين بتلمسان كما ذكرناه قبل ، وظاهرهم عليه وبرز إليهم السلطان أبو الحسن من الجزائر والتقى الجمعان بشربونة[2] سنة إحدى وخمسين وسبعمائة فاختلف مصافّ السلطان أبي الحسن وانهزم جمعه ، وهلك ابنه الناصر ، طاح دمه في مغراوة وهؤلاء . وخرج إلى الصحراء ولحق منها بالمغرب الأقصى كما نذكره بعد . وتطاول الناجمون بتلمسان من آل يغمراسن الى انتظام بلاد مغراوة في ملكهم كما كان

(١) قال الجوهري : يقال ضربه فاقعصه أي قتله مكانه .

(٢) كذا في النسخة الباريسية وفي نسخة أخرى : شربوبة وفي نسخة ثانية : شدبونة .

لسلفهم ، فنهض إليهم بعساكر بني عبد الواد رديف سلطانهم وأخوه أبو ثابت الزعيم ابن عبد الرحمن بن يحيى بن يغمراسن ، فأوطأ قومه بلاد مغراوة سنة إثنتين وخمسين وسبعمائة وفلّ جموعهم وغلبهم على الضاحية والأمصار . وأحجر عليّ بن راشد بتنس في شرذمة من قومه ، وأناخ بعساكره عليه وطال الحصار ووقع الغلب ولما رأى علي بن رشد أن قد أحيط به دخل الى زاوية من زوايا قصره انتبذ فيها عن الناس وذبح نفسه بحدّ حسامه ، وصار مثلاً وحديثاً للآخرين . واقتحم البلد لحينه ، واستلحم من عثر عليه من مغراوة ، ونجا الآخرون إلى أطراف الأرض ، ولحقوا بأهل الدول فاستركبوا واستلحقوا وصاروا جنداً للدول وحَشَماً وأتباعاً ، وانقرض أمرهم من بلاد شلف .
ثم كانت لبني مرين الكرّة الثانية إلى تلمسان ، وغلبوا آل زيّان ومحوا آثارهم . ثم فاء ظلّهم بملك السلطان أبي عنّان ، وحسر تيارهم ، وجدّد الناجمون من آل يغمراسن دولة ثانية بمكان عملهم على يد أبي حموّ الأخير ابن موسى بن يوسف كما نذكره في أخبارهم . ثم كانت لبني مرين الكرّة الثالثة إلى بلاد تلمسان ، ونهض السلطان عبد العزيز ابن السلطان ابي الحسن إليها فدخلها فاتح سنة إثنتين وسبعين وسبعمائة وسرّح عساكره في اتباع أبي حمو الناجم بها من آل يغمراسن حين فرّ أمامه في قومه وأشياعه من العرب كما يأتي ذلك كله . ولما انتهت العساكر إلى البطحاء تلوموا هنالك أياماً لإزاحة عللهم . وكان في جملتهم صبيّ من ولد عليّ بن راشد الذبيح إسمه حمزة ، رُبِّيَ يتيماً في حجر دولتهم لذمام الصهر الذي لقومه فيهم ، فكفلته نعمهم وكنفه جوّهم ، حتى شبّ واستوى وسخط رزقه في ديوانهم وحاله بين لِدانهم ، واعترض بعض الأيام قائد الجيوش الوزير أبا بكر بن غازي شاكياً ، فجبهه وأساء ردّه ، فركب الليل ولحق بمعقل بني بو سعيد من بلاد شلف فأجاروه ومنعوه ، ونادى بدعوة قومه فأجابوه ، وسرّح إليه السلطان وزيره عبد العزيز عمر بن مسعود بن منديل بن حمامة كبير يتريعن [1] في جيش كثيف من بني مرين والجند فنزل بساحة ذلك الجبل حولاً كريتاً [2] فحاصرهم ينال منهم وينالون منه ، وامتنعوا عليه واتهم السلطان وزيره بالمداهنة ، وسعى به منافسوه ، فتقبّض عليه ، وسرّ وزيره الآخر أبا بكر بن غازي ، فنهض يجرّ العساكر الضخمة والجيوش الكثيفة إلى أن نزل

(١) كذا في النسخة الباريسية وفي نسخة ثانية : تير بيغين .
(٢) قال الجوهري : سنة كريت أي سنة تامة ..

بهم وصبحهم القتال ، فقذف الله في قلوبهم الرعب وأنزلهم من معقلهم . وفرّ حمزة بن عليّ في فلّ من قومه ، فنزل ببلاد حصين المنتقضين كانوا على الدولة مع أبي زيّان بن أبي سعيد الناجم من آل يغمراسن حسبما نذكره . وأتى بنو أبي سعيد طاعتهم ، وأخلصوا الضمائر في مغبتها فحسن موقعهم وبدأ حمزة في الرجوع إليهم فأغذّ السير في لمّة من قومه ، حتى إذا ألمّ بهم نكروه لمكان ما اعتقلوا به من حبل الطاعة ، فتساهل إلى البسائط وقصد تيمروغت[1] يظنّ بها غرّة ينتهزها ، فبرز إليه حاميتها ففلّوا حدّة وردّوه على عقبه ، وتسابقوا في اتباعه إلى أن تقبّضوا عليه ، وقادوه إلى الوزير ابن غازي بن الكاس . فأوعز إليه السلطان بقتله مع جملة أصحابه ، فضربت أعناقهم ، وبعث بها إلى سدّة السلطان وصلب أشلاؤهم على خشب مسندة نصبها لهم ظاهر مليانة ، ومحّى أثر مغراوة ، وانقرض أمرهم وأصبحوا خولاً للأمراء ، وجنداً في الدول ، وأوزاعاً في الأقطار كما كانوا قبل هذه الدولة الأخيرة لهم . والبقاء لله وحده ، وكل شيء هالك إلاّ وجهه ، له الحكم وإليه ترجعون لا ربّ غيره ولا معبود سواه وهو على كل شيء قدير .

(١) كذا في النسخة الباريسية ، وفي نسخة أخرى : تيمزوغت .

حمزة بن علي بن راشد بن محمد بـــن ثابت بــــن منديل بـــن عبد الرحمن بـــن محمد بن عبد الصمد بن ورجيع بن عبد الصمد بن محمد بن خزرون

- عمر
- عطية بن منديل
- يعقوب بن زيان بن عبد الحق
- علي بن حارون
- حمزة بن يحيى
- عابد
- العباس
- حمزة بن زيد بن منيف بن محمد
- عمر بن منديل
- عيسى بن عمر
- محمد
- حمو
- تميم
- ماكور
- يفرنان
- غربة
- ورجيع

الخبر عن بني عبد الواد من هذه الطبقة الثانية وما كان لهم بتلمسان وبلاد المغرب الأوسط من الملك والسلطان وكيف كان مبدأ أمرهم ومصائر أحوالهم

قد تقدّم لنا في أوّل هذه الطبقة الثانية من زناتة ذكر بني عبد الـواد هؤلاء وأنهم من ولد يادين بن محمد إخوة توجين ومصاب وزردال وبني راشد ، وأن نسبهم يرتفع إلى رزجيك بن واسين بن ورسيك بن جانا ، وذكرنا كيف كانت حالهم قبل الملك في مواطنهم تلك . وكان إخوانهم بـمصاب وجبل راشد وفيكيك وملوية.، ووصفنا من حال فتنتهم مع بني مرين إخوانهم المجتمعين معهم بالنسب في رزجيك بن واسين .
ولم يزل بنو عبد الواد هؤلاء بـمواطنهم تلك وبنو راشد بنو زردال ومصاب منجدين إليهم بالنسب والحلف ، وبنو توجين منابذين لهم أكثر أزمانهم . ولم يزالوا جميعاً متغلّبين على ضاحية المغرب الأوسط عامة الأزمان ، وكانوا تبعاً فيه لبني ومانوا وبني يلومي حين كان لهم التغلّب فيهم . وربما يقال : كان شيخهم لذلك العهد يعرف بيوسف بن تكفا ، حتى إذا نزل عبد المؤمن والموحّدون نواحي تلمسان ، وسارت عساكرهم إلى بلاد زناتة تحت راية الشيخ أبي حَفَص ، فأوقعوا بهم كما ذكرناه ، وحسنت بعد ذلك طاعة بني عبد الواد وانحياشهم إلى الموحّدين . وكانت بطونهم وشعوبهم كثيرة أظهرها فيما يذكرون ستة : بنو ياتكين وبنو وللوا وبنو ورصطف ومصوصة وبنو تومرت وبنو القاسم . ويقولون بلسانهم أيت القاسم وايت حرف الإضافة النسبية عندهم . ويزعم بنو القاسم هؤلاء أنهم من أولاد القاسم بن إدريس . وربّما قالوا في هذا القاسم إنه ابن محمد بن إدريس ، أو ابن محمد بن عبدالله ، أو ابن محمد بن القاسم وكلّهم من أعقاب إدريس ، زعماً لا مستند له إلاّ اتفاق بني القاسم هؤلاء عليه ، مع أن البادية بعداء عن معرفة هذه الأنساب . والله أعلم بصحة ذلك .

(وقد قال يغمراسن) بن زيّان أبو ملوكهم لهذا العهد لما رفع نسبه إلى إدريس كما يذكرون فقال برطانتهم ما معناه : إن كان هذا صحيحاً فينفعنا عند الله . وأمّا الدنيا فإنما نلناها بسيوفنا . ولم تزل رياسة بني عبد الواد في بني القاسم لشدّة شوكتهم واعتزاز

عصبيتهم ، وكانوا بطوناً كثيرة فمنهم : بنو يكمثين[١] بن القاسم . وكان منهم ويعزن ابن مسعود بن يكمثين وأخواه يكمثين وعمر ، وكان أيضاً منهم أغدوي[٢] بن يكمثين الأكبر ، ويقال الأصغر . ومنهم أيضاً عبد الحق بن منغفاد من ولد ويعزن ، وكانت الرياسة عليهم لعهد عبد المؤمن لعبد الحق بن منغفاد وأغدوي بن يكمثين وعبد الحق ابن منغفاد هو الذي استنقذ الغنائم من يدي بني مرين ، وقتل المخضب المسوّف حين بعثه عبد المؤمن مع الموحّدين لذلك ، والمؤرّخون يقولون : عبد الحق بن معاد بميم وعين مهملة مفتوحتين وألف بعدها دال ، وهو غلط ، وليس هذا اللفظ بهذا الضبط من لغة زناتة ، وإنما هو تصحيف منغفاد بميم ونون مفتوحتين وغين بعدهما معجمة ساكنة وفاء مفتوحة ، والله أعلم .

(ومن بطون) بني القاسم أيضا : بنو مطهر بن يمل بن يزكين[٣] بن القاسم وكان حمامة ابن مطهر من شيوخهم لعهد عبد المؤمن ، وأبلى في حروب زناتة مع الموحدين ، ثم حسنت طاعته وانحياشه . (ومن بطون) بني القاسم أيضاً : بنو عليّ ، وإليهم انتهت رياستهم وهم أشدّ عصبيّة وأكثر جمعا ، وهم أربعة أفخاذ : بنو طاع الله ، وبنو دلول وبنو كمين[٤] وبنو معطي بن جوهر ، والأربعة بنو عليّ . ونصاب الرياسة في بني طاع الله لبني محمد بن زكراز[٥] بن تيدوكسن بن طاع الله ، هذا ملخص الكلام في نسبهم .

(ولما) ملك الموحدون بلاد المغرب الأوسط وأبلوا من طاعتهم وانحياشهم ما كان سبباً لاستخلاصهم ، فأقطعوهم عامّة بلاد بني ومانوا ، وأقاموا بتلك المواطن ، وحدثت الفتنة بين بني طاع الله وبني كمين إلى أن قتل كندوز بن[٦] من بني كمين زيّان بن ثابت كبير بني محمد بن زكراز[٧] وشيخهم وقام بأمرهم بعده جابر ابن عمه يوسف بن محمد ، فثار كندوز بزيّان ابن عمه وقتله في بعض أيامهم وحروبهم .

---

(١) وفي نسخة ثانية : مكنيمن .
(٢) وفي نسخة ثانية : أعدوي .
(٣) كذا في النسخة البار يسية وفي نسخة أخرى : يزكن وفي نسخة ثانية بني مزكن .
(٤) وفي نسخة ثانية : بنوكمي .
(٥) وفي نسخة ثانية : ابن زكران .
(٦) بياض بالأصل ولم نستطع معرفة والد كندوز هذا في المراجع التي بين أيدينا .
(٧) كذا في النسخة البار يسية وفي نسخة أخرى : زكدان وفي نسخة ثانية : زكدار وفي أخرى ايضاً : زكداز

ويقال قتله غيلة ، وبعث برأسه ورؤوس أصحابه إلى يغمراسن بن زيّان بن ثابت ، فنصبت عليها القدور أثا في شفاية لنفوسهم من شأن أبيه زيّان .
وافترق بنو كمين ، وفرّ بهم كبيرهم عبدالله بن كندوز ، فلحقوا بتونس . ونزل على الأمير أبي زكريا كما نذكره بعد . واستبدّ جابر بن يوسف بن محمد برياسة بني عبد الواد . وأقام هذا الحيّ من بني عبد الواد بضواحي المغرب الأوسط ، حتى إذا فشل ريح بني عبد المؤمن ، وانتزى يحيى بن غانية على جهات قابس وطرابلس ، وردّد الغزو والغارات على بسائط أفريقية والمغرب الأوسط فاكتسحها وعاث فيها . وكبس الأمصار فأقتحمها بالغارة وإفساد السابلة وانتساف الزرع ، وحطّم النعم إلى أن خربت ، وعفا رسمها لسني الثلاثين من المائة السابعة . وكانت تلمسان نزلاً للحامية ومناخاً للسيد من القرابة الذي يضمّ نشرها ، ويذبّ عن أنحائها وكان المأمون قد استعمل على تلمسان أخاه السيد أبا سعيد ، وكان مغفّلاً ضعيف التدبير . وغلب عليه الحسن بن حبون من مشيخة قومه كومية ، وكان عاملاً على الوطن . وكانت في نفسه ضغائن من بني عبد الواد جرّها ما كان حدث لهم من التغلّب على الضاحية وأهلها ، فأغرى السيد أبا سعيد بجماعة مشيخة منهم وفدوا عليه فتقبّض عليهم واعتقلهم .
وكان في حامية تلمسان لمّة من بقايا لمتونة تجافت الدولة عنهم ، وأثبتهم عبد المؤمن في الديوان وجعلهم مع الحامية . وكان زعيمهم لذلك العهد ابراهيم بن اسمعيل بن علاّن ، فشفع عندهم في المشيخة المعتقلين من بني عبد الواد فردّوه ، فغضب وحمى أنفه وأجمع الانتقاض والقيام بدعوة ابن غانية ، فجدّد ملك المرابطين من قومه بقاصية المشرق ، فاغتال الحسن بن حبون لحينه ، وتقبّض على السيد أبي سعيد وأطلق المشيخة من بني عبد الواد ، ونقض طاعة المأمون وذلك سنة أربع وعشرين وسبعمائة فطيّر الخبر إلى ابن غانية فأجدّ إليه السير . ثم بدا له في أمر بني عبد الواد ، ورأى أنّ ملاك أمره في خضد شكوتهم[1] وقصّ جناحهم ، فحدث نفسه بالفتك بمشيختهم ، ومكر بهم في دعوة وأعدهم لها ، وفطن لتدبيره ذلك جابر بن يوسف شيخ بني عبد الواد ، فواعده اللقاء والمؤازرة ، وطوى له على النث[2] ، وخرج ابراهيم بن علاّن إلى لقائه ففتك به جابر . وبادر إلى البلد فنادى بدعوة المأمون

(١) خضد الشجر : قطع شوكه : (قاموس) .
(٢) النث : نثّا الخبر : أفشاه (قاموس) .

وطاعته ، وكشف لأهلها القناع عن مكر ابن علاّن بهم ، وما أوقعهم فيه من ورطة ابن غانية ، فحمدوا رأيه وشكروا جابراً على صنيعه ، وجدّدوا البيعة للمأمون. واجتمع إلى جابر في أمره هنا كافة بني عبد الواد وأحلافهم من بني راشد ، وبعث إلى المأمون بطاعته واعتماله في القيام بدعوته فخاطبه بالشكر ، وكتب له بالعهد على تلمسان وسائر بلاد زناتة على رسم السادات الذين كانوا يلون ذلك من القرابة ، فاضطلع بأمر المغرب الأوسط .

(وكانت) هذه الولاية ركوباً إلى صهوة الملك الذي اقتعدوه من بعد . ثم انتقض عليه أهل اربونة[1] بعد ذلك فنازلهم وهلك في حصارها بسهم غرب سنة تسع وعشرين وسبعمائة .

وقام بالأمر بعده ابنه الحسن وجدّد له المأمون عهده بالولاية ، ثم ضعف عن الأمر وتخلى عنه لستة أشهر من ولايته . ودفع إليه عمّه عثمان بن يوسف ، وكان سيء الملكة كثير العسف والجور فثارت به الرعايا بتلمسان وأخرجوه سنة إحدى وثلاثين وسبعمائة وارتضوا لمكانه ابن عمه زكراز[2] بن زيّان بن ثابت الملقّب بأبي عزة فاستدعوه لها ، وولّوه على أنفسهم وبلدهم ، وسلّموا له أمرهم وكان مضطلعاً بأمر زناتة ومستبداً بر ياستهم ومستولياً على سائر الضواحي ، فنفس بنو مطهر عليه وعلى قومه بني عليّ إخوانهم ما آتاهم الله من الملك ، وأكرمهم الله به من السلطان وحسدوا زكراز وسلفه فيما صار لهم من الملك ، فشاقوه ودعوا إلى الخروج عليه ، واتبعهم بنو راشد أحلافهم منذ عهد الصحراء ، وجمع لهم أبو عزة سائر قبائل بني عبد الواد ، فكانت بينه وبينهم حرب سجال هلك في بعض أيامها سنة ثلاث وثلاثين وسبعمائة وقام بالأمر بعده أخوه يغمراسن بن زيّان ، فوقع التسليم والرضى به وسائر القبائل ، ودان له بالطاعة جميع الأمصار. وكتب له الخليفة الرشيد بالعهد على عمله وكان له ذلك سلّماً الى الملك الذي أورثه بنيه سائر الأيام . والملك لله يؤتيه من يشاء .

---

(١) وفي نسخة ثانية : ندرومه وهو الصحيح كما في قبائل المغرب/٤٢٦ .

(٢) وفي نسخة ثانية : زكران .

زكراز بن زيان بن ثابت بن محمد بن زكراز بن تيدوكس بن طاع الله بن علي بن القاسم بن عبد الواد

يغمراسن

دلول

معطى بن جوهر

عبد الحق بن

عمر

منغفاد بن ويعزن بن مسعود بن سيمكس

واعزوى

يكيكس

بنو ورصطف

مصوه وللدا

الخبر عن تلمسان وما تأدّى الينا من أحوالها من الفتح إلى أن تأثل بها سلطان بني عبد الواد ودولتهم

هذه المدينة قاعدة المغرب الأوسط ، وأم بلاد زناتة اختطّها بنو يفرن بما كانت في مواطنهم ، ولم نقف على أخبارها فيما قبل ذلك . وما يزعم بعض العامّة من ساكنها أنها أزليّة البناء ، وأنّ الجدار الذي ذكر في القرآن في قصّة الخضر وموسى عليهما السلام هو بناحية أكادير منها ، فأمر بعيد عن التحصيل لأنّ موسى عليه السلام لم يفارق المشرق إلى المغرب ، وبنو اسرائيل لم يبلغ ملكهم لأفريقية ، فضلاً عمّا وراءها . وإنما هي من مقالات التشيّع المجبول عليه أهل العالم في تفضيل ما ينسب إليهم أو ينسبون إليه من بلد أو أرض أو أعلم أو صناعة . ولم أقف لها على خبر أقدم من خبر ابن الرقيق بأنّ أبا المهاجر الذي وليّ أفريقية بين ولايتي عُقْبَة بن نَافِع الأولى والثانية ، توغّل في ديار المغرب ووصل إلى تلمسان ، وبه سمّيت عيون أبي المهاجر قريباً منها . وذكرها الطبري عند ذكر أبي قرّة وإجلائه مع أبي حاتم والخوارج على عمر بن حفص . ثم قال : فأفرجوا عنه وانصرف أبو قرّة إلى مواطنه بنواحي تلمسان . وذكرها ابن الرقيق أيضاً في أخبار ابراهيم بن الأغلب قبل استبداده بأفريقية ، وأنه توغّل في غزوه إلى المغرب ونزلها ، واسمها في لغة زناتة مركّب من كلمتين : تلم سان[1] ومعناهما تجمع إثنين يعنون البرّ والبحر .

(ولما خلص) إدريس الأكبر بن عبدالله بن الحسن إلى المغرب الأقصى واستولى عليه ، نهض إلى المغرب الأوسط سنة أربع وسبعين ومائة فتلقّاه محمد بن خَزَر بن صولات أمير زناتة وتلمسان ، فدخل في طاعته وحمل عليها مغراوة وبني يفرن وأمكنه من تلمسان فملكها ، واختطّ مسجدها[2] وصعد منبره وأقام بها أشهراً وانكفأ راجعاً إلى المغرب . وجاء على أثره من المشرق أخوه سليمان بن عبدالله فنزلها وولاّه أمرها . ثم هلك إدريس وضعف أمرهم . ولما بويع لابنه إدريس من بعده واجتمع إليه برابرة

(١) كذا في النسخة الباريسية وفي نسخ اخرى : تلم سين وتلم سن وتم سين وهذا كله تحريف .

(٢) ابرز ابن مرزوق اتفاق الرحالين . واجماع المتجولين على انهم لم يرو ثانيا لجامع تلمسان (المعجم التاريخي/٢٠) .

المغرب نهض إلى تلمسان سنة تسع وتسعين ومائة ، فجدّد مسجدها وأصلح منبرها ، وأقام بها ثلاث سنين دوّخ فيها بلاد زناتة . واستوسقت له طاعتهم . وعقد عليها لبني محمد ابن عمه سليمان .

(ولما هلك إدريس) الأصغر واقتسم بنوه أعمال المَغْرِبَيْن بإشارة أمّه كنزة ، كانت تلمسان في سهمان عيسى بن إدريس بن محمد بن سليمان وأعمالها لبني أبيه محمد بن سليمان . فلما انقرضت دولة الأدارسة من المغرب ، وولي أمره موسى بن أبي العافية بدعوة الشيعة ، نهض إلى تلمسان سنة تسع عشرة ومائتين وغلب عليها أميرها لذلك العهد الحسن بن أبي العيش بن عيسى بن إدريس بن محمد بن سليمان ، ففرّ عنها إلى مليلة ، وبنى حصناً لامتناعه بناحية نكور ، فحاصره مدّة ، ثم عقد له سلماً على حصنه .

ولما تغلّب الشيعة على المغرب الأوسط أخرجوا أعقاب محمد بن سليمان من سائر أعمال تلمسان ، فأخذوا بدعوة بني أميّة من وراء البحر وأجازوا إليهم . وتغلّب يعلى بن محمد اليفرني على بلاد زناتة والمغرب الأوسط ، فعقد له الناصر الأموي عليها وعلى تلمسان أعوام أربعين وثلثمائة . ولما هلك يعلى وأقام بأمر زناتة بعده محمد بن الخير بن محمد بن خَزَر داعية الحكم المستنصر فملك تلمسان أعوام ستين وثلثمائة . وهلك في حروب صنهاجة وغلبوهم على بلادهم ، وانجلوا إلى المغرب الأقصى ودخلت تلمسان في عمالة صَنْهَاجَة إلى أن انقسمت دولتهم ، وافترق أمرهم . واستقلّ بإمارة زناتة وولاية المغرب زيري بن عطيّة ، وطرده المنصور عن المغرب أعوام[1] ، فصار إلى بلاد صَنْهَاجَة وأجلب عليها ، ونازل معاقلهم وأمصارهم مثل تلمسان وهراة[2] وتنس وأشير والمسيلة . ثم عقد المظفّر بعد حين لابنه المعزّ بن زيري على أعمال المغرب سنة ست وتسعين وثلثمائة فاستعمل على تلمسان ابنه يعلى بن زيري واستقرّت ولايتها في عقبه إلى أن انقرض أمرهم على يد لمتونة . وعقد يوسف بن تاشفين عليها لمحمد بن تَيْنَّعْمَر المسوفي وأخيه تاشفين من بعده ، واستحكمت الفتنة بينه وبين المنصور بن الناصر صاحب القلعة من ملوك بني حمّاد ، ونهض إلى تلمسان وأخذ بمخنقها ، وكاد أن يغلب عليها كما ذكرنا ذلك كله في مواضعه .

---

(١) بياض بالاصل ولم نستطع معرفة هذه السنة في المراجع التي بين أيدينا .

(٢) وفي نسخة ثانية : وهدان .

(ولما غلب) عبد المؤمن لمتونة وقتل تاشفين بن علي بوَهْرَان خرّبها وخرّب تلمسان بعد أن قتل الموحّدون عامّة أهلها ، وذلك أعوام أربعين من المائة السادسة . ثم راجع رأيه فيها وندب الناس إلى عمرانها ، وجمع الأيدي على رمّ ما تثلّم من أسوارها ، وعقد عليها لسليمان بن واندين من مشايخ هنتاتة وآخر[1] بين الموحّدين بين هذا الحيّ من بني عبد الواد بما أبلى من طاعتهم وانحياشهم . ثم عقد عليها لابنه السيّد أبي حفص ، ولم يزل آل عبد المؤمن بعد ذلك يستعملون عليها من قرابتهم وأهل بيتهم ويرجعون إليه أمر المغرب كلّه وزناتة أجمع إهتماماً بأمرها واستعظاماً لعملها .

وكان هؤلاء الأحياء من زناتة بنو عبد الواد وبنو توجين وبنو راشد غلبوا على ضواحي تلمسان والمغرب الأوسط وملكوها . وتقلّبوا في بسائطها ، واحتازوا باقطاع الدولة الكثير من أرضها والطيب من بلادها والوافر للجباية من قبائلها ، فاذا خرجوا إلى مشاتيهم بالصحراء خلّفوا أتباعهم وحاشيتهم بالتلول لاعتمار أرضهم وازدراع فدنهم وجباية الخراج من رعاياهم . وكان بنو عبد الواد من ذلك فيها بين البطحاء وملوية ، ساحله وريفه وصحراءه . وصرف ولاة الموحّدين بتلمسان من السادة نظرهم واهتمامهم بشأنها إلى تحصينها وتشييد أسوارها ، وحشد الناس إلى عمرانها والتناغي في تمصيرها واتخاذ الصروح والقصور بها ، والاحتفال في مقاصر الملك واتساع خطّة الدور . وكان من أعظمهم اهتماماً بذلك وأوسعهم فيه نظراً السيّد أبو عمران موسى ابن أمير المؤمنين يوسف العشري ووليها سنة ست وخمسين وستمائة على عهد أبيه يوسف ابن عبد المؤمن . واتصلت أيام ولايته فيها ، فشيّد بناءها وأوسع خطتها وأدار سياج الأسوار عليها ، ووليها من بعد السيد ابو الحسن ابن السيّد أبي حفص بن عبد المؤمن ، وتقبّل فيها مذهبه .

(ولما كان) من أمر بني غانية وخروجهم من ميورقة سنة إحدى وثمانين ما قدّمناه وكبسوا بجاية فملكوها ، وتخطّوا الى الجزائر ومليانة فغلبوا عليها ، تلافى السيد أبو الحسن أمره بانعام النظر في تشييد أسوارها والاستبلاغ في تحصينها وسدّ فروجها ، وأعماق الحفائر نطاقا عليها ، حتى صيّرها من أعز معاقل المغرب وأحصن أمصاره ، وتقبّل ولاتها هذا المذهب من بعده في المعتصم بها . (واتفق من الغرائب) . أنّ أخاه

(١) وفي نسخة ثانية : وآخى .

السيد أبا زيد هو الذي دفع لحرب بني غانية فكان لها في رقع الخرق والمدافعة عن الدولة آثار. وكان ابن غانية قد اجتمع إليه ذؤبان العرب من الهلاليين بأفريقية، وخالفتهم زغبة إحدى بطونهم إلى الموحّدين، وتحيزوا إلى زناتة المغرب الأوسط، وكان مفزعهم جميعاً ومرجع نقضهم وابرامهم إلى العامل بتلمسان من السادة في مثواهم وحامي حقيقتهم. وكان ابن غانية كثيراً ما يجلب على ضواحي تلمسان وبلاد زناتة ويطرقها معه من ناعق الفتنة إلى أن خرّب كثيراً من أمصارها مثل تاهرّت وغيرها، فأصبحت تلمسان قاعدة المغرب الأوسط، وأمّ هؤلاء الأحياء من زناتة والمغرب الكافية لهم المهيّئة في حجرها مهادنومهم لما خرّبت المدينتان اللتان كانتا من قبل قواعد في الدول السالفة والعصور الماضية، وهما أرشكول بسيف البحر وتاهرّت فيما بين الريف والصحراء من قبلة البطحاء وكان خراب هاتين المدينتين فيما خرّب من أمصار المغرب الأوسط فتنة ابن غانية وباجلاب هؤلاء الأحياء من زناتة وطلوعهم على أهلها بسوم الخسف والعيث والنهب، وتخطّف الناس من السابلة وتخريب العمران ومغالبتهم حاميتها من عساكر الموحدين، مثل: قصر عجيسة وزرفة والخضراء وشلف ومتيجة وحمزة ومرسى الدجاج والجعبات، ولم يزل عمران تلمسان يتزايد وخطّتها تتسع الصروح بها بالآجرّ والفهر[1] تعلى وتشاد إلى أن نزلها آل زيان واتخذوها داراً لملكهم، وكرسيًّا لسلطانهم، فاختطوا بها القصور المؤنقة والمنازل الحافلة واغترسوا الرياض والبساتين وأجروا خلالها المياه، فأصبحت أعظم أمصار المغرب. ورحل إليها الناس من القاصية ونفقت بها أسواق العلوم والصنائع، فنشأ بها العلماء واشتهر فيها الأعلام. وضاهت أمصار الدول الإسلامية والقواعد الخلافية. والله وارث الأرض ومن عليها

* (الخبر عن استقلال يغمراسن بن زيان بالملك والدولة بتلمسان وما اليها وكيف مهّد الامر لقومه وأصاره تراثا لبنيه) *

كان يغمراسن بن زيّان بن ثابت بن محمد من أشدّ هذا الحيّ بأساً، وأعظمهم في

(١) الفهر: حجر رقيق تسحق به الادوية، وفي نسخة ثانية القرميد.

النفوس مهابةً وإجلالاً وأعرفهم بمصالح قبيله ، وأقواهم كاهلاً على حمل الملك واضطلاعاً بالتدبير والرياسة ، شهدت له بذلك آثاره قبل الملك وبعده . وكان مرموقاً بعين التجلّة مؤمّلاَ للأمر عند المشيخة وتعظمه من أمره عند الخاصّة ، ويفزع إليه في نوائبها العامّة . فلمّا ولي هذا الأمر بعد أخيه أبي عزّة زكراز بن زيّان سنة ثلاث وثلاثين قام به أحسن قيام ، واضطلع بأعبائه وظهر على بني مطهر وبني راشد الخارجين على أخيه ، وأصارهم في جملته وتحت سلطانه . وأحسن السيرة في الرعيّة ، واستمال عشيرته وقومه وأحلافهم من زغبة بحسن السياسة والاصطناع وكرم الجوار ، واتخذ الآلة ورتّب الجنود والمسالح ، واستلحق العساكر من الروم والغزّ رامحة وناشبة . وفرض العطاء واتخذ الوزراء والكتّاب ، وبعث في الأعمال ولبس شارة الملك والسلطان ، واقتعد الكرسي ومحا آثار الدولة المؤمنية ، وعطّل من الأمر والنهي دستها ، ولم يترك من رسوم دولتهم وألقاب ملكهم إلاّ الدعاء على منابره للخليفة بمراكش ، وتقلّد[1] العهد من يده تأنيساً للكافة ومرضاة للأكفّاء من قومه . ووفد عليه لأوّل دولته ابن وضّاح إثر الموحدين ، أجاز البحر مع جالية المسلمين من شرق الأندلس ، فآثره وقرّب مجلسه وأكرم نزله ، وأحلّه من الخلّة والشورى بمكان اصطفاه له . ووفد في جملته أبو بكر بن خطّاب المبايع لأخيه بمرسية ، وكان مرسلاً بليغاً ، وكاتباً مجيداً ، وشاعراً محسنا ، فاستكتبه وصدر عنه من الرسائل في خطاب خلفاء الموحّدين بمراكش وتونس في عهود بيعاتهم ما تنوقل وحفظ . ولم يزل يغمراسن محامياً عن غيله محارباً لعدوّه . وكانت له مع ملوك الموحدين من آل عبد المؤمن ومديلهم آل أبي حفص مواطن في التمرّس به ومنازلة بلده ، نحن ذاكروها كذلك . وبينه وبين أقتاله بني مرين قبل ملكهم المغرب وبعد ملكه وقائع متعدّدة . وله على زناتة الشرف من توجين ومغراوة في فلّ جموعهم وانتساف بلادهم وتخريب أوطانهم أيام مذكورة وآثار معروفة ، نشير إلى جميعها إن شاء الله تعالى .

* (الخبر عن استيلاء الأمير أبي زكريا على تلمسان ودخول يغمراسن في دعوته) *

لما استقلّ يغمراسن بن زيّان بأمر تلمسان والمغرب الأوسط ، وظفر بالسلطان وعلا

(١) وفي نسخة ثانية : وتناول .

كعبه على سائر أحياء زناتة ، نفسوا عليه ما آتاه الله من العزّ ، وكرّمه به من الملك ، فنابذوه العهد وشاقوه الطاعة ، وركبوا له ظهر الخلاف والعداوة ، فشمّر لحربهم ونازلهم في ديارهم وأحجرهم في أمصارهم ومعتصماتهم من شواهق الجبال ومتمنع الأمصار. وكانت له عليهم أيام مشهورة ووقائع معروفة . وكان متولي كبر هذه المشاقة عبد القوي بن عبّاس شيخ بني توجين أقتالهم من بني يادين ، والعباس بن منديل بن عبد الرحمن وإخوته أمراء مغراوة . وكان المولى الأمير أبو زكريا بن أبي حفص منذ استقلّ بأمر أفريقية واقتطعها من الإيالة المؤمنية سنة خمس وعشرين وستمائة كما ذكرناه متطاولاً إلى إحتياز المغرب والاستيلاء على كرسيّ الدعوة بمراكش ، وكان يرى أنّ بمظاهرة زناتة له على شأنه يتمّ له ما يسمو إليه من ذلك ، فكان يداخل أمراء زناتة فيرغّبهم ويراسلهم بذلك على الأحيان من بني مرين وبني عبد الواد وتوجين ومغراوة . وكان يغمراسن منذ تقلّد طاعة بني عبد المؤمن أقام دعوتهم بعمله متحيزاً إليهم سلما لولّيهم وحرباً على عدوّهم . وكان الرشيد منهم قد ضاعف له البرّ والخلوص ، وخطب منه مزيد الولاية والمصافاة ، وعاوده الاتحاف بأنواع الألطاف والهدايا عام سبع وثلاثين وستمائة تقمنا لمسرّاته ، وميلاً إليه عن جانب أقتال بني مرين المجلبين على المغرب والدولة . وأحفظ الأمير أبا زكريا بن عبد الواحد صاحب أفريقية ما كان من اتصال يغمراسن بالرشيد ، وهو من جواره بالمحل القريب ، واستكره ذلك . وبينما هو على ذلك إذ وفد عليه عبد القويّ بن عبّاس ، وولد منديل بن محمد صريخين على يغمراسن وسهّلوا له أمره وسوّلوا له الاستيلاء على تلمسان ، وجمع كلمة زناتة واعتدّا ذلك ركاباً لما يرومه من امتطاء ملك الموحّدين وانتظامه في أمره ، وسلّماً لارتقاء ما يسمو إليه من ملكه ، وباباً للولوج على أهله ، فحركه املاؤهم وهزه إلى النعرة صريخهم ، وأهبّ بالموحّدين وسائر الأولياء والعساكر إلى الحركة على تلمسان ، واستنفر لذلك سائر البدو من الأعراب الذين في عمله من بني سُلَيْم ورياح بظعنهم فأهطعوا لداعيه ، ونهض سنة تسع وثلاثين وستمائة في عساكر ضخمة وجيوش وافرة ، وسرّح أمام حركته عبد القويّ بن العبّاس وأولاد منديل بن محمد لحشد مَنْ بأوطانهم من أحياء زناتة ، وأتباعهم وذؤبان قبائلهم ، وأحياء زغبة أحلافهم من العرب ، وضرب لهم موعداً لموافاتهم في تخوم بلادهم . ولما نزل زاغر قبلة تيطري منتهى مجالات رياح وبني سُلَيْم في المغرب ، وافته هنالك أحياء زغبة

من بني عامر وسويد ، وارتحلوا معه حتى نازل تلمسان ، فجمع عساكر الموحّدين وحشد زناتة وظعن المغرب ، بعد أن قدم إلى يغمراسن الرسل من مليانة والأعذار والبراءة والدعاء والطاعة فرجّعهم بالخيبة .

(ولما حلّت) عساكر الموحدين بساحة البلد وبرز يغمراسن وجموعه نضحتهم ناشبة السلطان بالنبل ، فانكشفوا ولاذوا بالجدران ، وعجزوا عن حماية الأسوار ، فاستمكنت المقاتلة من الصعود . ورأى يغمراسن أن قد أحيط بالبلد فقصد باب العقبة من أبواب تلمسان ملتفاً على ذويه وخاصته ، واعترضه عساكر الموحّدين فصمد نحوهم وجندل بعض أبطالهم ، فافرجوا له ، ولحق بالصحراء . وانسلّت الجيوش إلى البلد من كل حدب ، فاقتحموه وعاثوا فيه بقتل النساء والصبيان ، واكتساح الأموال . ولما تجلّى عشاء تلك الهيعة وحسر تيار الصدمة ، وخمدت نار الحرب ، راجع الموحدون بصائرهم ، وأمعن الأمير نظره فيمن يقلّده أمر تلمسان والمغرب الأوسط ، وينزله بثغرها لإقامة دعوته الدائلة من دعوة المؤمن والمدافعة عنها . واستكبر ذلك أشرافهم وتدافعوه وتبرّأ أمراء زناتة منه ضعفاً عن مقاومة يغمراسن ، وعلماً بأنه الفحل الذي لا يجدع أنفه ، ولا يطرق غيله ، ولا يصدّ عن فريسته ، وسرّح يغمراسن الغارات في نواحي العسكر فاختطفوا الناس من حوله ، وأطلوا من المراقب عليه . وخاطب يغمراسن خلال ذلك الأمير أبا زكريا راغباً في القيام بدعوته بتلمسان ، فراجعه بالاسعاف واتصال اليد على صاحب مراكش ، وسوّغه على ذلك جباية اقتطعها له ، وأطلق أيدي العمّال ليغمراسن على جبايتها . ووفدت أمّه سوط النساء للاشتراط والقبول فأكرم وصلها وأسنى جائزتها وأحسن وفادتها ومنقلبها ، وارتحل إلى حضرته لسبع عشرة ليلة من نزوله وفي أثناء طريقه وَسْوَسَ إليه بعض الحاشية باستبداد يغمراسن عليه ، وأشاروا بإقامة منافسيه من زناتة ، فأجابهم وقلّد عبد القويّ بن عطية التوجيني ، والعبّاس بن منديل المغراوي ، وعليّ بن منصور الملكيشي[1] على قومهم ووطنهم ، وعهد إليهم بذلك ، وأذن لهم في اتخاذ الآلة والمراسم السلطانية على سنن يغمراسن قريعهم ، فاتخذوها بحضرته وبمشهد من ملك الموحّدين ، وأقاموا مراسمها ببابه ، وأغذّ السير لتونس قرير العين بامتداد ملكه ،

(١) وفي نسخة ثانية : المليكشي .

وبلوغ وطره ، والإشراف على أذعان المغرب لطاعته وانقياده وحكمه ، وإدالة عبد المؤمن فيه بدعوته . ودخل يغمراسن بن زيّان ووفّى للأمير أبي زكريا بعهده ، وأقام بها الدعوة له على سائر منابره ، وصرف إلى مشاقيه من زناتة وجوه عزائمه ، فأذاق عبد القويّ وأولاد عبّاس وأولاد منديل نكال الحرب ، وسامهم سوء العذاب والفتنة ، وجاس خلال ديارهم وتوغّل في بلادهم وغلبهم على الكثير من ممالكهم ، وشرّد عن الأمصار والقواعد ولاتهم وأشياعهم ودعاتهم ، ورفع عن الرعيّة ما نالهم من عدوانهم وسوء ملكتهم وثقيل عسفهم وجورهم . ولم يزل على تلك الحال إلى أن كان من حركة صاحب مراكش بسبب أخذ يغمراسن بالدعوة الحفصيّة ما نذكره إن شاءالله تعالى .

* (الخبر عن نهوض السعيد صاحب مراكش ومنازلته يغمراسن بجبل تامزردكت ومهلكه هنالك) *

لما انقضت دولة بني عبد المؤمن . وانتزى الثوّار والدعاة بقاصية أعمالهم . وقطعوها عن ممالكهم ، فاقتطع ابن هود ما وراء البحر من جزيرة الأندلس واستبدّ بها ، وورّى بالدعاء للمستنصر بن الظاهر خليفة بغداد من العبّاسيين لعهده ، ودعا الأمير أبو زكريا بن أبي حفص بأفريقية لنفسه ، وسما إلى جمع كلمة زناتة والتغلّب على كرسي الدعوة بمراكش ، فنازل تلمسان وغلب سنة أربعين وستمائة وقارن ذلك ولاية السعيد علي بن المأمون إدريس بن المنصور يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن ، وكان شهماً حازماً يقظاً بعيد الهمّة ، فنظر في أعطاف دولته ، وفاوض الملأ في تثقيف أطرافها وتقويم مائلها ، وأثار حفائظهم ما وقع من بني مرين في ضواحي المغرب . ثم في أمصاره وأستيلائهم على مكناسة ، وإقامتهم الدعوة الحفصيّة فيها كما نذكره . فجهّز الملوك والعساكر وأزاح عللهم ، واستنفر عرب المغرب وما يليه[1] ، واحتشد كافة المصامدة . ونهض من مراكش آخر سنة خمس وأربعين وستمائة يريد القاصية ، ويشرّد بني مرين عن الأمصار الدانية . واعترض العساكر والحشود بوادي بهت ،

(١) وفي نسخة ثانية : وقبائله .

وأغذّ السير إلى تازى ، فوصلته هناك طاعة بني مرين كما نذكره . ونفر معه عسكرٌ منهم ، ونهض إلى تلمسان وما وراءها ونجا يغمراسن بن زيّان وبنو عبد الواد بأهليهم وأولادهم إلى قلعة تامز ردكت قبلة وَجْدَة ، فاعتصموا بها .

ووفد على السعيد الفقيه عبدون وزير يغمراسن مؤدّياً للطاعة ثابتاً في مذاهب الخدمة ، ومتولياً من حاجات الخليفة بتلمسان ما يدعوه إليه ويصرفه في سبيله ، ومعتذراً عن وصول يغمراسن ، فلجّ الخليفة في شأنه ولم يعذره . وأبى إلاّ مباشرة طاعته بنفسه ، وساعده في ذلك كانون بن جرمون السفياني صاحب الشورى بمجلسه ومن حضر من الملأ(١) ورجعوا عبدونا لإستقدامه ، فتثاقل خشية على نفسه . واعتمد السعيد الجبل في عساكره وأناخ بها في ساحة(٢) وأخذ بمخنقهم ثلاثاً ، ولرابعها ركب مهجراً على حين غفلة منْ الناس في قائلة ليتطوّف على المعتصم ، ويتقرّى مكامنه ، فبصر به فارس من القوم يعرف بيوسف بن عبد المؤمن الشيطان ، كان أسفل الجبل للاحتراس وقريباً منه يغمراسن بن زيّان وابن عمّه يعقوب بن جابر فانقضوا عليه من بعض الشعاب ، وطعنه يوسف فأكبّه عن فرسه ، وقتل يعقوب بن جابر وزيره يحيى بن عطوش . ثم استلحموا لوقتهم مواليه ناصحاً من العلوج وعنبراً من الخصيان ، وقائد جند النصارى أخو القمط ، ووليداً يافعاً من ولد السعيد .

(ويقال) إنما كان ذلك يوم عبّى العساكر وصعد الجبل للقتال ، وتقدّم أمام الناس فأقتطعه بعض الشعاب المتوعّرة في طريقه ، فتواثب به هؤلاء الفرسان وكان ما ذكرناه ، وذلك في صفر سنة ست وأربعين وستمائة . ووقعت النفرة في العساكر لطائر الخبر فأجفلوا ، وبادر يغمراسن إلى السعيد وهو صريع بالأرض فنزل إليه وحيّاه وفدّاه وأقسم له على البراءة من هلكته ، والخليفة واجم بمصرعه يجود بنفسه إلى أن فاض وانتهب المعسكر بجملته ، وأخذ بنو عبد الواد ما كان به من الأخبية والغازات . واختصّ يغمراسن بفسطاط السلطان فكان له خالصة دون قومه ، واستولى على الذخيرة التي كانت فيه ، منها مصحف عثمان بن عفّان رضي الله عنه يزعمون أنه أخذ المصاحف التي انتسخت لعهد خلافته ، وأنه كان في خزائن قرطبة عند ولد عبد

---

(١) وفي نسخة ثانية : الحلة .

(٢) بياض بالأصل ولم نستطع معرفة اسم هذه الساحة في المراجع التي بين أيدينا .

رحمن الداخل ، ثم صار في ذخائر لمتونة فيما صار إليهم من ذخائر ملوك الطوائف بالأندلس ، ثم إلى خزائن الموحّدين من خزائن لمتونة ، وهو لهذا العهد في خزائن بني مرين فيما استولوا عليه من ذخيرة آل زيّان حين غلبهم إياهم على تلمسان ، واقتحامها عنوة على ملكها منهم عبد الرحمن بن موسى بن عثمان بن يغمراسن فريسة السلطان أبي الحسن ، مقتحمها غلاباً سنة سبع وثلاثين وسبعمائة كما نذكره . ومنها العقد المنتظم من خرزات الياقوت الفاخرة والدرر ، المشتمل على مئين متعدّدة من حصبائه يسمى بالثعبان ، وصار في خزائن بني مرين بعد ذلك الغلاب فيما اشتملوا عليه من ذخيرتهم إلى أن تلف في البحر عند غزو الأسطول بالسلطان أبي الحسن بمرسى بجاية مرجعه من تونس حسبما نذكره بعد إلى ذخائر من أمثاله وطرف من أشباهه مما يستخلصه الملوك لخزائنهم ويعنون به من ذخائرهم . ولما سكنت النفرة وركد عاصف تلك الهيعة نظر يغمراسن في شأن مواراة الخليفة ، فجهّز ورفع على الأعواد إلى مدفنه بالعبّاد بمقبرة الشيخ أبي مدين عفاالله عنه . ثم نظر في شأن حرمه وأخته تاعزونت الشهيرة الذكر ، بعد أن جاءها واعتذر إليها مما وقع ، وأصحبهنّ جملة من مشيخة بني عبد الواد إلى مأمنهنّ وألحقوهنّ بدرعة من تخوم طاعتهم ، فكان له بذلك حديث جميل في الإبقاء على الحرم ورعى حقوق الملك ورجع إلى تلمسان . وقد خضدت شوكة بني عبد المؤمن وأمّنهم على سلطانه والله أعلم .

* (الخبر عما كان بينه وبين بني مرين من الاحداث سائر أيامه) *

قد ذكرنا ماكان بين هذين الحيين من المناغاة والمنافسة منذ الآماد المتطاولة بما كانت مجالات الفريقين بالصحراء متجاورة ، وكان التخم بين الفريقين واديا إلى فيكيك . وكان بنو عبد المؤمن عند فشل الدولة وتغلّب بني مرين على ضاحية المغرب يستجيشون بني عبد الواد مع عساكر الموحّدين على بني مرين فيجوسون خلال المغرب ما بين تازى إلى فاس إلى القصر في سبيل المظاهرة للموحدين والطاعة لهم . وسنذكر أخبار بني مرين كثيراً من ذلك . فلما هلك السعيد وأسف بنو مرين إلى ملك المغرب

بيغمراسن أمل في مزاحمتهم . وكان أهل فاس بعد تغلّب أبو يحيى بن عبد الحق عليهم قد نقموا على قومه سوء السيرة ، وتمشّت رجالاتهم في اللياذ بطاعة الخليفة المرتضى ففعلوا فعلتهم في الفتك بعامل أبي يحيى بن عبد الحق ، والرجوع إلى طاعة الخليفة . وأغذّ أبو يحيى المسير إلى منازلتهم ، فحاصرهم شهوراً وفي أثناء هذا الحصار اتصلت المخاطبة بين الخليفة المرتضى ويغمراسن بن زيان في الأخذ بحجزة أبي يحيى بن عبد الحق بفاس ، فأجاب يغمراسن داعيه ، واستنفر لها إخوانه من زناتة فنفر معه عبد القوي بن عطية بقومه من توجين وكافة القبائل من زناتة والمغرب ، ونهضوا جميعاً إلى المغرب . وبلغ خبرهم إلى أبي يحيى بن عبد الحق بمكانه من حصار فاس ، فجهّز كتائبه عليها ونهض للقائهم في بقية العساكر ، والتقى الجمعان بايسلي من ناحية وجدة ، وكانت هناك الواقعة المشهورة بذلك المكان انكشف فيها جموع يغمراسن ، وهلك منهم يغمراسن وغيره ، ورجعوا في فلّهم إلى تلمسان ، واتصلت بعد ذلك بينهم الحروب والفتنات سائر أيامه ، وربما تخللتها المهادنات قليلا .

وكان بينه وبين يعقوب بن عبد الحق ذمّة مواصلة أوجب له رعيها ، وكثيراً ما كان يثني عليه أخوه أبو يحيى من أجلها . ونهض أبو يحيى بن عبد الحق سنة خمس وخمسين وستمائة إلى قتاله وبرز إليه يغمراسن ، وتزاحف جموعهم بأبي سليط ، فانهزم يغمراسن واعتزم أبو يحيى على اتباعه ، فردّه أخوه يعقوب بن عبد الحق .

(ولما) قفل إلى المغرب صمد يغمراسن إلى سجلماسة ، لمداخلة كانت بينه وبين المنبات من عرب المعقل ، أهل مجالاتها وذئاب فلاتها ، حدّثته نفسه باهتبال الغرّة في سجلماسة من أجلها ، وكانت قد صارت إلى إيالة أبي يحيى بن عبد الحق منذ ثلاث كما ذكرناه في أخبارهم . ونذر بذلك أبو يحيى ، فسابق إليها يغمراسن بمن حضره من قومه فثقفها وسدّ فرجها . ووصل يغمراسن عقيب ذلك بعساكره ، وأناخ بها وامتنعت عليه فأفرج عنها قافلاً إلى تلمسان . وهلك أبو يحيى بن عبد الحق إثر ذلك منقلبه إلى فاس ، فاستنفر يغمراسن أولياءه من زناتة وأحياء زغبة ، ونهض إلى المغرب سنة سبع وخمسين وستمائة وانتهى إلى كلداماز . ولقيه يعقوب بن عبد الحق في قومه فأوقع به . وولّى يغمراسن منهزماً ، ومرّ في طريقه بتافرسيت فانتسفها وعاث في نواحيها . ثم تداعوا للسلم ووضع أوزار الحرب ، وبعث يعقوب بن عبد الحق ابنه أبا مالك بذلك ، فتولّى عقده وإبرامه . ثم كان التقاؤهما سنة تسع وخمسين وستمائة

براجر[١] قبالة بني يزناسن ، واستحكم عقد الوفاق بينهما بذلك ، واتصلت المهادنة إلى أن كان بينهما ما نذكره إن شاءالله تعالى .

* (الخبر عن كائنة النصارى وايقاع يغمراسن بهم) *

كان يغمراسن بن زيان بعد مهلك السعيد وانفضاض عساكر الموحدين قد استخدم طائفة من جند النصارى الذين كانوا في جملته مستكثراً بهم معتدّاً بمكانهم مباهياً بهم في المواقف والمشاهد . وناولهم طرفاً من حبل عنايته ، فاعتزوا به واستفحل أمرهم بتلمسان حتى إذا كان سنة إثنتين وخمسين وستمائة بعد مرجعه من بلاد توجين في إحدى حركاته إليها ، كانت قصة غدرهم الشنعاء التي أحسن الله في دفاعها عن المسلمين . وذلك أنه ركب في بعض أيامه لاعتراض الجنود بباب القرمادين[٢] من أبواب تلمسان . وبينما هو واقف في موكبه عند قائلة الضحا عدا عليه قائدهم ، وبادر النصارى إلى محمد بن زيّان أخي يغمراسن فقتلوه ، وأشار له بالنجوى فبرز من الصف لاسراره وأمكنه من أذنه ، فتنكّبه النصراني[٣] وقد خالطه روعة أحس منها يغمراسن بمكره فانحاص منه ، وركض النصراني أمامه يطلب النجاة ، وتبين الغدر ، وثارت بهم الدهماء من الحامية والرعايا ، فأحيط بهم من كل جانب وتناولتهم أيدي الهلاك بكل مهلك قعصاً بالرماح وهبراً بالسيوف وشدخاً بالعصي والحجارة حتى استلحموا ، وكان يوماً مشهوداً . ولم يستخدم من بعدها جند النصارى بتلمسان حذراً من غائلتهم . ويقال إنّ محمد بن زيّان هو الذي داخل القائد في الفتك بأخيه يغمراسن ، وأنه إنما قتله عندما لم يتم لهم الأمر تبرءاً من مداخلته ، فلم يمهله غاشي الهيعة للتثبّت في شأنها والله أعلم .

---

(١) كذا في النسخة البارسية وفي نسخة أخرى : براجر .
(٢) كذا في النسخة البارسية وفي نسخة أخرى : المفرمادين وفي نسخة ثانية الغزمادين وأخرى : الترمادين .
(٣) الضمير هنا يعود الى قائدهم .

* (الخبر عن تغلب يغمراسن على سجلماسة ثم مصيرها بعد الى إيالة بني مرين) *

كان عرب المعقل منذ دخول العرب الهلاليين إلى صحراء المغرب الأقصى أحلافاً وشيعاً لزناتة ، وأكثر انحياشهم إلى بني مرين إلاّ ذوي عبيدالله منهم لما كانت مجالاتهم لصق مجالات بني عبد الواد ومشاركة لها . ولما استفحل شأن بني عبد الواد بين يدي ملكهم زاحموهم عنها بالمناكب ، ونبذوا إليهم العهد واستخلصوا دونهم المنبات من ذوي منصور أقتالهم ، فكانوا حلفاء وشيعة ليغمراسن ولقومه . وكانت سجلماسة في مجالاتهم ومنقلب رحلتهم ، وكانت قد صارت إلى ملك بني مرين ، ثم استبدّ بها القطراني ، ثم ثاروا به ورجعوا إلى طاعة المرتضى . وتولّى كبر ذلك علي بن عمر كما ذكرناه في أخبار بني مرين . ثم تغلّب المنبات على سجلماسة وقتلوا عاملها علي بن عمر سنة إثنتين وستين وستمائة وآثروا يغمراسن بملكها ، ودخل أهل البلد في القيام بدعوته وحملوهم عليها . فجأجأوا بيغمراسن فنهض إليها في قومه ، وأمكنوه من قيادها فضبطها ، وعقد عليها لولده يحيى . وأنزل معه ابن أخته حنينة ، واسمه عبد الملك ابن محمد بن علي بن قاسم بن درم[1] من ولد محمد ، وأنزل معها يغمراسن بن حمامة فيمن معهم من عشائرهم وحشمهم فأقام ابنه يحيى أميراً عليها إلى أن غلب يعقوب ابن عبد الحق الموحدين على دار خلافتهم . وإطاعته طنجة وعامّة بلاد المغرب ، فوجّه عزمه إلى انتزاع سجلماسة من طاعة يغمراسن وزحف إليها في العساكر والحشود من زناتة والعرب والبربر ، ونصب عليها آلات الحصار إلى أن سقط جانب من سورها فاقتحموها منه عنوة في صفر سنة ثلاث وسبعين وستمائة واستباحوها وقتل القائدان عبد الملك بن حنينة ويغمراسن بن حمامة ومن معهم من بني عبد الواد أمراء المنبات ، وصارت إلى طاعة بني مرين آخر الأيام : والملك بيد الله يؤتيه من يشاء من عباده .

---

(١) وفي نسخة ثانية : درع .

* (الخبر عن حروب يغمراسن مع يعقوب بن عبد الحق) *

قد ذكرنا ما كان من شأن بني عبد المؤمن عند فشل دولتهم ، واستطالة بني مرين عليهم في الاستظهار ببني عبد الواد واتصال اليد بهم في الأخذ بحجزة عدوهم من بني مرين عليهم . ولما هلك المرتضى وولى أبو دبوس سنة خمس وستين وستمائة وحمي وطيس فتنته مع يعقوب بن عبد الحق ، فراسل يغمراسن في مدافعته ، وأكّد العهد وأسنى الهدية ، وأجلب إليه يغمراسن وشنّ الغارات على ثغور المغرب وأضرمها ناراً . وكان يعقوب بن عبد الحق محاصراً لمراكش فأفرج عنها ورجع إلى المغرب . واحتشد جموعه ، ونهض إلى لقائه وتزاحف الفريقان بوادي تلاغ ، وقد استكمل كل تعبيته ، وكانت الوقيعة على يغمراسن استبيحت فيها حرمه واستلحم قومه ، وهلك إبنه أبو حفص عمر أعزّ ولده عليه في أتراب له من عشيرته مثل : ابن أخته عبد الملك بن حنينة ، وابن يحيى بن مكي ، وعمر بن ابراهيم بن هشام ، ورجع عنه يعقوب بن عبد الحق إلى مراكش حتى انقضى شأنه في التغلّب عليها ، ومحى أثر بني عبد المؤمن منها ، ونزع لمحاربة بني عبد الواد وحشد كافة أهل المغرب من المصامدة والجموع والقبائل ، ونهض إلى بني عبد الواد سنة سبعين وستمائة فبرز إليه يغمراسن في قومه وأوليائه من مغراوة والعرب ، وتزاحفوا بايسلى من نواحي وَجْدَة ، فكانت الدبرة على يغمراسن انكشفت جموعه ، وقتل إبنه فارس ، ونجا بأهله بعد أن أضرم معسكره ناراً تفادياً من معرّة اكتساحه ، ونجا إلى تلمسان فانحجر بها ، وهدم يعقوب بن عبد الحق وَجْدَة ، ثم نازله بتلمسان ، واجتمع إليه هنالك بنو توجين مع أميرهم محمد ابن عبد القوي ، وصل يده بيد السلطان على يغمراسن وقومه ، وحاصروا تلمسان أياماً فامتنعت عليهم ، وأفرجوا عنها . وولّى كلٌّ إلى عمله ومكان ملكه حسبما نذكره في أخبارهم . وانعقدت بينهما المهادنة من بعد ذلك وفرغ يعقوب بن عبد الحق للجهاد ، ويغمراسن لمغالبة توجين ومغراوة على بلادهم إلى أن كان من شأنهم ما نذكره والله أعلم .

* (الخبر عن شأن يغمراسن مع مغراوة وبني توجين وما كان بينهم من الأحداث) *

كانت مغراوة في مواطنهم الأولى من نواحي شلف قد سالمتهم الدول عند تلاشي ملكهم ، وساموهم الجباية فرضوا بها مثل : بني ورسفين وبني يلنث وبني ورتزمير ، وكان فيهم سلطان لبني منديل بن عبد الرحمن من أعقاب آل خَزَر ملوكهم الأولى منذ عهد الفتح وما بعده على ما ذكرناه في خبرهم . فلما انتثر عقد الخلافة بمراكش وتشظّت عصاها وكثر الثوّار والخوارج بالجهات ، استقل منديل بن عبد الرحمن وبنوه بتلك الناحية وملكوا مليانة وتنس وشرشال وما إليها ، وتطاولوا إلى متيجة فتغلّبوا عليها . ثم مدّوا أيديهم إلى جبل وانشريش وما إليه ، فتناولوا الكثير من بلاده ثم أزاحهم عنها بنو عطيّة الحيو وقومه من بني توجين المجاورون لهم في مواطنهم بأعالي شلف شرقي أرض السوس[1] وكان ذلك لأوّل دخول أحياء زناتة الناجعة بأرض القبلة إلى التلول ، فتغلّب بنو عبد الواد على نواحي تلمسان إلى وادي صا . وتغلّب بنو توجين على ما بين الصحراء والتل من بلد المريّة إلى جبل وانشريس ، إلى مرات الجعبات ، وصار التخم لملك بني عبد الواد سبك والبطحاء ، فمن قبليها مواطن بني توجين ومن شرقيها مواطن مغراوة . وكانت الفتنة بين بني عبد الواد وبين هذين الحيّين من أوّل دخولهم إلى التلول .

(وكان المولى) الأمير أبو زكريا بن أبي حَفْص يستظهر بهذين الحيّين على بني عبد الواد ويراغمهم بهم ، حتى كان من فتح تلمسان ما قدّمناه ، وألبس جميعهم شارة الملك على ما ذكرناه ونذكره في أخبارهم ، فزاحموا يغمراسن بعدها بالمناكب وصرف هو إليهم وجه النقمة والحروب . ولم يزل الشأن ذلك حتى انقرض ملك هذين الحيّين لعهد إبنه عثمان بن يغمراسن وعلى يده ، ثم على يد بني مرين من بعدهم كما يأتي ذكره .

(ولما رجع) يغمراسن بن زيّان من لقاء بني مرين بايسلي من نواحي وَجْدَة التي كانت سنة سبع وأربعين وستمائة ، وكان معه فيها عبد القوي بن عطية بقومه من بني

---

(١) كذا في النسخة الباريسية وفي نسخة أخرى : السرسو.

توجين ، وهلك مرجعه منها ، أنفذ[1] يغمراسن العهد لابنه محمد الأمير بعده ، وزحف إلى بلاده فجاس خلالها ، ونازل حصونها فامتنعت عليه . وأحسن محمد بن عبد القوي في دفاعه ، ثم زحف ثانية سنة خمسين وستمائة إليهم فنازل حصن تافركينت من حصونهم . وكان به علي بن أبي زيّان حافد محمد بن عبد القوي فامتنع به في طائفة من قومه . ورحل يغمراسن كظيماً ، ولم يزل يغمراسن بعدها يثير الغارات على بلادهم ، ويجمع الكتائب على حصونهم . وكان بتافركينت صنيعة من صنائع بني عبد القوي ونسبه في صنهاجة أهل ضاحية بجاية ، اختصّ بهذا الحصن ورسخت قدمه فيه ، واعتزّ بكثرة ماله وولده فأحسن الدفاع عنه ، وكان له مع يغمراسن في الامتناع عليه أخبار مذكورة حتى سطا به بنو محمد بن عبد القوي حين شرهوا إلى نعمته ، وأنفوا من استبداده فأتلفوا نفسه وتخطفوا نعمته ، فكان حتف ذلك الحصن في حتفه كما يأتي ذكره .

(وعند) ما شبتّ نار الفتنة بين يغمراسن ومحمد بن عبد القوي وصل محمد يده بيعقوب بن عبد الحق . فلمّا نازل يعقوب تلمسان سنة سبعين وستمائة بعد أن هدم وَجْدَة ، وهزم يغمراسن بايسلي ، جاءه محمد بن عبد القوي بقومه من بني توجين ، وأقام معه على حصارها ورحلوا بعد الامتناع عليهم ، فرجع محمد إلى مكانه . ثم عاود يعقوب بن عبد الحق منازلة تلمسان سنة ثمانين وستمائة بعد إيقاعه بيغمراسن في خرزوزة ، فلقيه محمد بن عبد القوي بالقصبات واتصلت أيديهم على تخريب بلاد يغمراسن ملياً ، ونازلوا تلمسان أياماً ثم افترقوا ورجع كل إلى بلده .

(ولما) خلص يغمراسن بن زيّان من حصاره زحف إلى بلادهم وأوطأ عسكره أرضهم ، فغلب على الضاحية وخرّب عمرانها إلى أن تملكها بعده ابنه عثمان كما نذكره .

(وأمّا) خبره مع مغراوة فكان عماد رأيه فيهم التغريب[2] بين بني منديل بن عبد الرحمن للمنافسة التي كانت بينهم في رياسة قومهم . ولما رجع من واقعة تلاغ سنة ست وستين وستمائة وهي الواقعة التي هلك فيها ولده عمر زحف بعدها إلى بلاد مغراوة ، فتوغّل فيها وتجاوزها إلى من وراءهم من مليكش والثعالبة ، وأمكنه عمر

---

(١) وفي نسخة ثانية : فنبذ .

(٢) وفي نسخة ثانية : التضريب .

من مليانة سنة ثمان وستين وستمائة على شرط المؤازرة ، والمظاهرة على إخوته ، فملكها يغمراسن يومئذ وصار الكثير من مغراوة إلى ولايته ، وزحفوا معه إلى المغرب سنة سبعين وستمائة ثم زحف بعدها إلى بلادهم سنة إثنتين وسبعين وستمائة فتجافى له ثابت ابن منديل عن تنس بعد أن أثخن في بلادهم ورجع عنها ، فاسترجعها ثابت ، ثم نزل له عنها ثانياً سنة إحدى وثمانين وستمائة بين يدي مهلكه عندما تمّ له الغلب عليهم والإثخان في بلادهم إلى أن كان الاستيلاء عليها لابنه عثمان على ما نذكره إن شاءالله .

* (الخبر عن انتزاء الزعيم بن مكن ببلد مستغانم) *

كان بنو مكن هؤلاء من علية القرابة من بني زيان يشاركونهم في نسب محمد بن زكراز ابن تيدوكس[1] بن طاع الله ، وكان لمحمد هذا أربعة من الولد كبيرهم يوسف ومن ولده جابر بن يوسف أوّل ملوكهم وثابت بن محمد ومن ولده زيان بن ثابت أبو الملوك من بني عبد الواد ، ودرع بن محمد ومن ولده عبد الملك بن محمد بن علي بن قاسم ابن درع المشتهر بأمه حنينة أخت يغمراسن بن زيّان ومكن بن محمد . وكان له من الولد يحيى وعمرس ، وكان من ولد يحيى الزعيم وعلي ، وكان يغمراسن بن زيّان كثيراً ما يستعمل قرابته في الممالك ويولّيهم على العمالات ، وكان قد استوحش من يحيى بن مكن وإبنه الزعيم وغرّبهما إلى الأندلس ، فأجازا من هنالك إلى يعقوب بن عبد الحق سنة ثمانين وستمائة ولقياه بطنجة في إحدى حركات جهاده . وزحف يعقوب بن عبد الحق إلى تلمسان عامئذ وهما في جملته فأدركتهما النغرة على قومهما وآثرا مفارقة السلطان إليهم ، فأذن لهم في الانطلاق ولحقا بيغمراسن بن زيّان حتى اذا كانت الواقعة عليه بخرزوزة سنة ثمانين كما قدّمناه ، وزحف بعدها إلى بلاد مغراوة وتجافى له ثابت بن منديل عن مليانة وانكفّ راجعاً إلى تلمسان ، استعمل على ثغر مستغانم الزعيم بن يحيى بن مكن . فلمّا وصل إلى تلمسان انتقض عليه . ودعا إلى الخلاف ومالأ عدوه من مغراوة على المظاهرة عليه ، فصمد إليه يغمراسن وحجزه بها حتى لاذ منه بالسلم على شرط الإجازة إلى العدوة ، فعقد له وأجازه . ثم أثره أباه

(١) وفي نسخة أخرى : زكدان بن تيدوكسن وفي شجرة النسب تيدوكس وكذلك في النسخة الباريسية .

يحيى واستقرّ بالأندلس إلى أن هلك يحيى سنة إثنتين وتسعين وستمائة ووفد الزعيم بعد ذلك على يوسف بن يعقوب وسخطه لبعض النزعات ، فاعتقله وفرّ من محبسه . ولم يزل الاغتراب مطوّحاً به إلى أن هلك والبقاء لله وحده . ونشأ ابنه الناصر بالأندلس فكانت مثواه وموقف جهاده إلى أن هلك .

(وأمّا) أخوه عليّ بن يحيى فأقام بتلمسان وكان من ولده داود بن علي كبير مشيخة بني عبد الواد صاحب شوراهم وكان منهم أيضاً ابراهيم بن عليّ عقد له أبو حمو الأوسط على ابنته ، فكان منها ولد ذكر ، وكان لداود ابن اسمه يحيى بن داود استعمله أبو سعيد بن عبد الرحمن في دولتهم الثانية على وزارته فكان من شأنه ما نذكره في أخبارهم والأمر لله .

* (الخبر عن شأن يغمراسن في معاقدته مع ابن الاحمر والطاغية على فتنة يعقوب بن عبد الحق والاخذ بحجزته) *

كان يعقوب بن عبد الحق لما أجاز إلى الجهاد وأوقع بالعدوّ وخرّب حصونهم ، ونازل أشبيلية وقرطبة ، وزلزل قواعد كفرهم . ثم أجاز ثانية ، وتوغّل في دار الحرب وأثخن فيها ، وتخلى له ابن اشقيلولة عن مالقة فملكها . وكان سلطان الأندلس يومئذ الأمير محمد المدعو بالفقيه ثاني ملوك بني الأحمر ملكهم ، هو الذي استدعى يعقوب بن عبد الحق للجهاد بما عهد له أبو الشيخ بذلك . فلما استفحل أمر يعقوب بالأندلس وتعاقب الثوار إلى اللياذ به خشيه ابن الأحمر على نفسه ، وتوقّع منه مثل فعل يوسف بن تاشفين بابن عبّاد ، فاعتمل في أسباب الخلاص مما توهّم وداخل الطاغية في اتصال اليد والمظاهرة عليه ، وكانت عالقة لعمر يحيى بن علي[1] ، استعمله عليها يعقوب بن عبد الحق حين ملكها من يد أشقيلولة ، فاستماله ابن الأحمر وخاطبه مقارنة وعداً وأداله بشلوبانية من مالقة طعمة خالصة له فتخلى عن مالقة إليها . وأرسل الطاغية أساطيله في البحر لمنع الزقاق من إجازة السلطان وعساكره ، وراسلوا يغمراسن من وراء البحر في الأخذ بحجزة يعقوب وشنّ الغارات على ثغوره ليكون

(١) كذا في النسخة الباريسية وفي نسخة أخرى : بن محلى .

ذلك شاغلاً له عنهم . فبادر يغمراسن باجابتهم وتردّدت الرسل إليه من الطاغية ومنه إلى الطاغية كما نذكره . وبثّ السرايا والبعوث في نواحي المغرب ، فشغل يعقوب عن شأن الجهاد حتى لقد سأله المهادنة وأن يفرغ لجهاد العدّو فأبى عليه . وكان ذلك مما دعا يعقوب إلى الصمود إليه ومواقعته بخرزوزة كما ذكرناه . ولم يزل شأنهم ذلك مع يعقوب بن عبد الحق وأيديهم متصلة عليه من كل جهة ، وهو ينتهز الفرص في كل واحد منهم متى أمكنه حتى هلك وهلكوا . والله وارث الأرض ومن عليها سبحانه .

* (الخبر عن شأن يغمراسن مع الخلفاء من بني أبي حفص الذي كان يقيم بتلمسان دعوتهم ويأخذ قومه بطاعتهم) *

كان زناتة يدينون بطاعة خلفاء الموحّدين من بني عبد المؤمن أيام كونهم بالقفار ، وبعد دخولهم إلى التلول . فلما فشل أمر بني عبد المؤمن ودعا الأمير أبو زكريا بن أبي حفص بأفريقية لنفسه ، ونصب كرسيّ الخلاف للموحدين بتونس انصرفت إليه الوجوه من سائر الآفاق بالعدوتين ، وأملوه الكرّة ، وأوفد زناتة عليه رسلهم من كل حيّ بالطاعة ، ولاذ مغراوة وبنو توجين بظل دعوته ودخلوا في طاعته ، واستنهضوه لتلمسان ، فنهض إليها وافتتحها سنة أربعين وستمائة ورجع إليها يغمراسن واستعمله عليها وعلى سائر ممالكها ، فلم يزل مقيماً لدعوته واتبع أثره بنو مرين في إقامة الدعوة له فيما غلبوا عليه من بلاد المغرب ، وبعثوا إليه ببيعة مكناسة وتازى والقصر كما نذكره في أخبارهم إلى ما دانوا به ولابنه المستنصر من بعده من خطاب التمويل والإشارة بالطاعة والانقياد حتى غلبوا على مراكش ، وخطبوا باسم المستنصر على منابرها حينا من الدهر . ثم تبين لهم بعد تناول تلك القاصية عليه ، فعطّلوا منابرهم من أسماء أولئك وأقطعوهم جانب الوداد والموالاة . ثم سموا إلى اللقب والتفنن في الشارة الملوكية كما تقتضيه طبيعة الدول ، وأما يغمراسن وبنوه فلم يزالوا آخذين بدعوتهم واحداً بعد واحد متجافين عن اللقب أدباً معهم ، مجدّدين البيعة لكل من يتجدّد قيامه بالخلافة ، منهم يوفدون بها كبار أبنائهم وأولى الرأي من قومهم ولم يزل الشأن ذلك . ولما هلك الأمير أبو زكريا وقام ابنه محمد المستنصر بالأمر من بعده ، وخرج عليه أخوه

الأمير أبو إسحق في أحياء الزواودة من رياح ، ثم غلبهم المستنصر جميعاً . ولحق الأمير أبو اسحق بتلمسان في أهله فأكرم يغمراسن نزلهم وأجاز إلى الأندلس للمرابطة بها ، والجهاد حتى إذا هلك المستنصر سنة سبع وسبعين وستمائة واتصل به خبر مهلكه ورأى انه أحق بالأمر فأجاز البحر من حينه ونزل بمرسى هني[1] سنة سبع وسبعين وستمائة ولقّاه يغمراسن مبرّة وتوقيراً ، واحتفل لقدومه وأركب الناس لتلقّيه ، وأتاه ببيعته على عادته مع سلفه ، ووعده النصرة على عدوه والمؤازرة على أمره . وأصهر إليه يغمراسن في إحدى بناته المقصورات في خيام الخلافة بابنه عثمان ولي عهده . وأسعفه وأجمل في ذلك وعده . وانتقض محمد بن أبي هلال عامل بجاية على الواثق ، وخلع طاعته ودعا للأمير أبي اسحق واستحثّه للقدوم ، فأغذّ إليه السير من تلمسان وكان من شأنه ما قدّمناه في أخباره فلما كانت سنة إحدى وثمانين وستمائة وزحف يغمراسن إلى بلاد مغراوة ، وغلبهم على الضواحي والأمصار ، بعث من هنالك ابنه ابراهيم وتسميه زناتة برهوم ، ويكنّى أبا عامر أوفده في رجال من قومه على الخليفة أبي اسحق لإحكام الصهر بينهما ، فنزلوا منه على خير نزل من اسناء الجراية ، ومضاعفة الكرامة والمبرّة ، وظهر من آثاره في حروب ابن أبي عمارة ما مدّ الأعناق إليه وقصّر الشيم الزناتية على بيته . ثم انقلب آخراً بظعينته محبوّاً محبوراً ، وابتنى بها عثمان لحين وصولها وأصبحت عقيلة قصره ، فكان ذلك مفخراً لدولته وذكراً له ولقومه . ولحق الأمير أبو زكريا ابن الأمير أبي اسحق بتلمسان بعد خلوصه من مهلك قومه في واقعة الدعيّ ابن أبي عمارة عليهم بمرما جنّة سنة إثنتين وثمانين وستمائة فنزل من عثمان بن يغمراسن صهره خير نزل برًّا واحتفاء وتكريماً وملاطفة . وسرّبت إليه أخته من القصر أنواع التحف والانس ، ولحق به أولياؤهم من صنائع دولتهم وكبيرهم أبو الحسن محمد بن الفقيه المحدّث أبي بكر بن سيّد الناس اليَعْمَرِيّ ، فتفيؤا من كرامة الدولة بهم ظلاً وارفاً واستنهضوه إلى ثرات ملكه . وفاوض أبا مثواه عثمان بن يغمراسن في ذلك ، فنكره لما كان قد أخذه بدعوة الحضرة . أوفد عليه رجال دولته بالبيعة على العادة في ذلك ، فحدّث الأمير أبو زكريا نفسه بالفرار عنه . ولحق بداود ابن هلال بن عطاف أمير البدو من بني عامر إحدى بطون زغبة ، فأجاره وأبلغه مأمنه

---

(١) وفي نسخة ثانية : هنين .

يحيى الزواودة أمراء البدو بعمل الموحدين. ونزل منهم على عطية بن سليمان بن سبّاع كما قدّمناه، واستولى على بجاية سنة أربع وثمانين وستمائة بعد خطوب ذكرناها، واقتطعها عن ملك عمه صاحب الدولة بتونس أبي حفص، ووفّى لداود بن عطاف وأقطعه بوطن بجاية عملاً كبيراً أفرده لجبايته، كان فيه ايقداران بالخميس من وادي بجاية. واشتغل الأمير أبو زكريا بمملكة بونة وقسنطينة وبجاية والجزائر والزاب وما وراءها وكان هذا الصهر وصلة له مع عثمان بن يغمراسن وبنيه.

(ولما نازل) يوسف بن يعقوب تلمسان سنة ثمان وتسعين وستمائة، وبعث الأمير أبو زكريا المدد من جيوشه إلى عثمان بن يغمراسن، وبلغ الخبر بذلك إلى يوسف بن يعقوب، فبعث أخاه أبا يحيى في العساكر لاعتراضهم، والتقوا بجبل الزاب، فكانت الدبرة على عسكر الموحّدين واستلحموا هناك. وتسمّى المعركة لهذا العهد بمرسى الرؤوس. واستحكمت من أجل ذلك صاغية الخليفة بتونس إلى بني مرين، وأوفد عليهم مشيخة من الموحدين يدعوهم إلى حصار بجاية، وبعث معهم الهدية الفاخرة وبلغ خبرهم إلى عثمان بن يغمراسن من وراء جدرانه فتنكّر لها وأسقط ذكر الخليفة من منابره، ومحاه من عمله، فنسي لهذا العهد. والله مالك الأمر سبحانه.

* (الخبر عن مهلك يغمراسن بن زيان وولاية ابنه عثمان وما كان في دولته من الاحداث) *

كان السلطان يغمراسن قد خرج من تلمسان سنة إحدى وثمانين وستمائة واستعمل عليها ابنه عثمان، وتوغّل في بلاد مغراوة وملك ضواحيهم. ونزل له ثابت بن منديل عن مدينة تنس، فتناولها من يده. ثم بلغه الخبر بإقبال ابنه أبي عامر برهوم من تونس بابنة السلطان أبي إسحق عرس إبنه عثمان، فتلوّم هنالك إلى أن لحقه بظاهر مليانة، فارتحل إلى تلمسان وأصابه الوجع في طريقه. وعندما أحل سريره اشتدّ به وجعه فهلك هنالك آخر ذي القعدة من سنته، والبقاءلله وحده. فحمله ابنه أبو عامر على أعواد وواراه في خدر موريا لمرضه إلى أن تجاوز بلاد مغراوة إلى سيك. ثم أغذّ السير إلى تلمسان، فلقيه أخوه عثمان بن يغمراسن ولي عهد أبيه في قومه، فبايعه الناس وأعطوه صفقة أيمانهم. ثم دخل تلمسان فبايعه العامّة والخاصة، وخاطب

لحينه الخليفة بتونس أبا اسحق وبعث إليه ببيعته ، فراجعه بالقبول وعقد له على عمله على الرسم . ثم خاطب يعقوب بن عبد الحق يخطب منه السلم ، لما كان أبوه يغمراسن أوصاه به .

(حدّثنا) شيخنا العلامة أبو عبدالله محمد بن ابراهيم الآيلي قال : سمعت من السلطان أبي حمّو موسى بن عثمان ، وكان قهرماناً بداره ، قال : أوصى دادا يغمراسن لدادا عثمان (ودادا حرف كنايه عن غاية التعظيم بلغتهم) فقال له : يا بني إنّ بني مرين بعد استفحال ملكهم واستيلائهم على الأعمال الغربية وعلى حضرة الخلافة بمراكش ، لا طاقة لنا بلقائهم اذا جمعوا الوفور مددهم ، ولا يمكنني أنا القعود عن لقائهم لمعرّة النكوص عن القرن التي أنت بعيد عنها . فإيّاك واعتماد لقائهم ، وعليك باللياذ بالجدران متى دلفوا إليك ، وحاول ما استطعت الاستيلاء على ما جاورك من عمالات الموحّدين وممالكهم يستفحل به ملكك ، وتكافىء حشد العدو بحشدك . ولعلك تصيّر بعض الثغور الشرقية معقلاً لذخيرتك . فعلقت وصية الشيخ بقلبه ، وعقدا عليها ضمائره ، وجنح إلى السلم مع بني مرين ليفرغ عزمه لذلك . وأوفد أخاه محمد بن يغمراسن على يعقوب بن عبد الحق بمكانه من العدوة الأندلسية في إجازته الرابعة إليها فخاض إليه البحر ووصله بأركش ، فلقاه برًّا وكرامة ، وعقد له على السلم ما أحب وانكفّ راجعاً إلى أخيه ، فطابت نفسه وفرغ لإفتتاح البلاد الشرقية ، كما نذكره إن شاءالله تعالى .

* (الخبر عن شأن عثمان بن يغمراسن مع مغراوة وبني توجين وغلبه على معاقلهم والكثير من أعمالهم) *

لما عقد عثمان بن يغمراسن السلم مع يعقوب بن عبد الحق صرف وجهه إلى الأعمال الشرقية من بلاد توجين ومغراوة وما وراءها من أعمال الموحّدين ، فتغلّب أولاً على ضواحي بني توجين ومغراوة وما وراءها ، ودوّخ قاصيتها ، وسار إلى بلاد مغراوة كذلك ، ثم إلى متيجة فانتسب نعمها وخطم زرعها . ثم تجاوزها إلى بجاية فحاصرها كما نذكره بعد . وامتنعت عليه فانكفّ راجعاً ومرّ في طريقه بمازونة ، فحاصرها وأطاعته ، وذلك سنة ست وثمانين وستمائة ونزل له ثابت بن منديل أمير مغراوة عن

تنس فاستولى عليها وانتظم سائر بلاد مغراوة في إيالته . ثم عطف في سنته على بلاد توجين فاكتسح حبوبها واحتكرها بمازونة استعداداً لما يتوقع من حصار مغراوة إياها . ثم دلف إلى تافركنيت فحاصرها وأخذ بمخنقها . وداخل قائدها غالباً الخصيّ من موالي بني محمد بن عبد القوي ، كان مولى سيّد الناس منهم ، فنزل له غالب عنها واستولى عليها ، وانكفأ إلى تلمسان . ثم نهض إلى بني توجين سنة سبع وثمانين وستمائة فغلبهم على وانشريس مثوى ملكهم ومنبت عزّهم ، وفرّ أمامه أميرهم مولى بني زرارة من ولد محمد بن عبد القوي . وأخذ الحلف منهم فلحق بضواحي المرية في الأعشار وأولاد عزيز من قومه . واتبع عثمان بن يغمراسن آثارهم وشرّدهم من تلك القاصية ، وهلك مولى زرارة في مغرّة . وكان عثمان قبل ذلك قد دوّخ بلاد بني يدللتين من بني توجين ، ونازل رؤساءهم أولاد سلامة بالقلعة المنسوبة إليهم مرّات فامتنعوا عليه ، ثم أعطوه أيديهم على الطاعة ومفارقة قومهم بني توجين إلى سلطان بني يغمراسن ، فنبذوا العهد إلى بني محمد بن عبد القوي أمرائهم منذ العهد الأوّل . ووصلوا أيديهم بعثمان وألزموا رعاياهم وعمالهم المغارم له إلى أن ملك وانشريس من بعدها كما نذكر ذلك في أخبارهم . وصارت بلاد توجين كلها من عمله ، واستعمل الحشم بجبل وانشريس . ثم نهض بعدها إلى المرية وبها أولاد عزيز من توجين فنازلها ، وقام بدعوته فيها قبائل من صنهاجة يعرفون بلمدية وإليهم ينسب ، فأمكنوه منها سنة ثمان وثمانين وستمائة وبقيت في إيالته سبعة أشهر ثم انتقضت عليه ورجعت إلى ولاية أولاد عزيز(١) وصالحوه عليها ، وأعطوه من الطاعة ما كانوا يعطونه محمد بن عبد القوي وبنيه . فاستقام أمره في بني توجين ودانت له سائر أعمالهم . ثم خرج سنة تسع وثمانين وستمائة إلى بلاد مغراوة لما كانوا عليه لبني مرين في إحدى حركاتهم على تلمسان ، فدوّخها وأنزل ابنه أبا حمّو بشلف(٢) مركز عملهم ، فأقام به وقفل هو إلى الحضرة . وتحيّز فلّ مغراوة إلى نواحي متيجة ، وعليهم ثابت بن منديل أميرهم ، فلم يزالوا به . ونهض عثمان إليهم سنة ثلاث وتسعين وستمائة بعدها فانحجزوا بمدينة برشك ، وحاصرهم بها أربعين يوماً ثم افتتحها . وخاض ثابت البحر إلى المغرب فنزل على يوسف بن يعقوب كما ذكرناه ونذكره . واستولى عثمان على سائر عمل مغراوة كما

(١) وفي نسخة ثانية : وزحف الى ايالة اولاد عزيز .
(٢) وفي النسخة البارسية : شلب وفي قبائل الغرب : شلف .

استولى على عمل بني توجين ، فانتظم بلاد المغرب الأوسط كلّها وبلاد زناتة الأولى . ثم اشغل بفتنة بني مرين كما نذكر بعد إن شاءالله تعالى .

* (الخبر عن منازلة بجاية وما دعا إليها) *

قد ذكرنا أنّ المولى أبا زكريا الأوسط ابن المولى أبي اسحق بن أبي حفص لحق بتلمسان عند فراره من بجاية أمام شيعة الدعي ابن أبي عمارة ، ونزل على عثمان بن يغمراسن خير نزل . ثم هلك الدعى ابن أبي عمارة واستقل عمه الأمير أبو حفص بالخلافة ، وبعث إليه عثمان بن يغمراسن بطاعته على العادة ، وأوفد عليه وجوه قومه ، ودسّ الكثير من أهل بجاية إلى الأمير أبي زكريا يستحثونه للقدوم ، ويعدونه إسلام البلد إليه . وفاوض عثمان بن يغمراسن في ذلك فأبي عليه وفاء بحق البيعة لعمه الخليفة بالحضرة فطوى عنه الخبر وتردّد في النقض أياماً . ثم لحق بأحياء زغبة في مجالاتهم بالقفر ، ونزل على داود بن هلال بن عطاف وطلب عثمان بن يغمراسن إسلامه فأبى عليه وارتحل معه إلى أعمال بجاية ، ونزلوا على أحياء الزواودة كما قدّمناه ثم استولى المولى أبو زكريا بعد ذلك على بجاية في خبر طويل ذكرناه في أخباره . واستحكمت القطيعة بينه وبين عثمان ، وكانت سبباً لاستحكام الموالاة بين عثمان وبين الخليفة بتونس . فلما زحف إليه عثمان سنة ست وثمانين وستمائة وتوغّل في قاصية المشرق ، أعمل الرحلة إلى عمل بجاية ، ودوّخ سائر أقطارها . ثم نازلها بعد ذلك يروم كيدها بالاعتمال في مرضاة خليفته بتونس ، ويسر بذلك حسواً في ارتقاء ، فأناخ عليها بعساكره سبعاً ، ثم أفرج عنها منقلباً إلى المغرب الأوسط ، فكان من فتح تافركنيت ومازونة ما قدّمناه .

* (الخبر عن معاودة الفتنة مع بني مرين وشأن تلمسان في الحصار الطويل) *

لما هلك يعقوب بن عبد الحق سلطان بني مرين على السلم المنعقد بينه وبين بني عبد الواد لشغله بالجهاد ، وقام بالأمر من بعده في قومه ابنه يوسف كبير ولده على حين

اتبعهم أنفسهم شأن الجهاد . واسفهم يغمراسن وابنه بممالأة الطاغية وابن الأحمر فعقد يوسف بن يعقوب السلم مع الطاغية لحينه ، ونزل لابن الأحمر عن ثغور الأندلس التي كانت لهم ، وفرغ لحرب بني عبد الواد ، واستتب له ذلك لأربع من مهلك أبيه ، دلف إلى تلمسان سنة تسع وثمانين وستمائة ولاذ منه عثمان بالأسوار فنازلها صباحاً ، وقطع شجرها ونصب عليها المجانيق والآلات ثم أحس بامتناعها فأفرج عنها وانكفأ راجعاً . وتقبّل عثمان بن يغمراسن مذهب أبيه في مداخلة ابن الأحمر والطاغية ، وأوفد رسله عليها فلم يغن ذلك عنه شيئاً . وكان مغراوة قد لحقوا بيوسف بن يعقوب بتلمسان فنالوا منه أعظم النيل . فلما أفرجوا عن تلمسان نهض عثمان إلى بلادهم فدوّخها وغلبهم عليها ، وأنزل ابنه أبا حمّو بها كما قدّمناه . فلما كانت سنة خمس وتسعين وستمائة نهض يوسف بن يعقوب إلى حركته الثانية فنازل ندرومة ، ثم ارتحل عنها إلى ناحية وَهْرَان وأطاعه جبل كيدره وتاسكدلت رباط عبد الحميد ابن الفقيه أبي زيد اليرناسي[1] ثم كرّ راجعاً إلى المغرب . وخرج عثمان بن يغمراسن فأثخن في تلك الجبال لطاعتهم عدوّه واعتراضهم جنده ، واستباح رباط تاسكدلت . ثم أغزاه يعقوب بن يوسف ثالثة سنة ست وتسعين وستمائة ثم رجع إلى المغرب . ثم أغزاه رابعة سنة سبع وتسعين وستمائة فتأثّل[2] تلمسان وأحاط بها معسكره وشرعوا في البناء . ثم أفرج عنها لثلاثة أشهر ، ومرّ في طريقه بوَجْدَة ، فأمر بتجديد بنائها وجمع الفعلة عليها . واستعمل أخاه أبا يحيى بن يعقوب على ذلك ، وأقام لشأنه ، ولحق يوسف بالمغرب . وكان بنو توجين قد نازلوا تلمسان مع يوسف بن يعقوب ، وتولّى كبر ذلك منهم أولاد سلامة أمراء بني يد للتين ، وأصحاب القلعة المنسوبة إليهم . فلما أفرج عنها خرج إليهم عثمان بن يغمراسن فدوّخ بلادهم وحاصرهم بالقلعة ونال منهم أضعاف مانالوا منه ، وطال مغيبه في بلادهم ، فخالفه أبو يحيى بن يعقوب إلى ندرومة فاقتحمها عنوة بعسكره بمداخلة من قائدها زكريا بن يخلف بن المطغَرى صاحب توقت[3] . فاستولى بنو مرين على ندرومة وتوقت ، وجاء يوسف بن يعقوب على أثرها فوافاهم ودلفوا جميعاً إلى تلمسان . وبلغ الخبر إلى عثمان بمكانه من

(١) كذا في النسخة الباريسية وفي نسخة أخرى : اليزناسني .
(٢) وفي نسخة ثانية : فنازل .
(٣) وفي نسخة ثانية : ثاونت .

حصار القلعة فطوى المراحل إلى تلمسان ، فسبق إليها يوسف بن يعقوب بعض يوم . ثم أشرفت طلائع بني مرين عشيّ ذلك اليوم ، فأناخوا بها في شعبان سنة ثمان وتسعين وستمائة وأحاط العسكر بها من جميع جهاتها . وضرب يوسف بن يعقوب عليها سياجاً من الأسوار محيطاً بها ، وفتح فيه أبواباً مداخل لحربها ، واختط لنزله إلى جانب الأسوار مدينة سمّاها المنصورة. وأقام على ذلك سنين يغاديها القتال ويراوحها . وسرّح عسكره لافتتاح المغرب الأوسط وثغوره ، فملك بلاد مغراوة وبلاد توجين كما ذكرناه في أخباره وجثم هو بمكانه من حصار تلمسان لا يعدوها كالأسد الضاري على فريسته إلى أن هلك عثمان وهلك هو من بعده كما نذكره . والى الله المصير سبحانه وتعالى لا رب غيره .

* (الخبر عن مهلك عثمان بن يغمراسن وولاية ابنه أبي زيان وانتهاء الحصار من بعده الى غايته) *

لما أناخ يوسف بن يعقوب بعساكره على تلمسان ، انحجز بها عثمان وقومه واستسلموا ، والحصار آخذ بمخنقهم . وهلك عثمان لخامسة السنين من حصارهم سنة ثلاث وسبعمائة ، وقام بالأمر من بعده ابنه أبو زيان محمد .

(أخبرني) شيخنا العلامة محمد بن ابراهيم الايلي ، وكان في صباه قهرمان دارهم قال : هلك عثمان بن يغمراسن بالديماس ، وكان قد أعدّ لشربه لبناً ، فلما أخذ منه الديماس وعطش ، دعا بالقدح فشرب اللبن ونام فلم يكن بأوشك أن فاضت نفسه . وكنا نرى معشر الصنائع أنه داف فيه السم تفادياً من معرّة غلب عدوهم إياهم . قال : وجاء الخادم إلى قعيدة بيته زوجه بنت السلطان أبي اسحق ابن الأمير أبي زكريا بن عبد الواحد بن أبي حفص صاحب تونس ، وخبرها الخبر فجاءت ووقعت عليه واسترجعت وخيّمت على الأبواب بسدادها . ثم بعثت إلى أبيه محمد أبي زيان وموسى أبي حمو فعزتهما عن أبيهما . وأحضرا مشيخة بني عبد الواد وعرضوا لهم بمرض السلطان فقال أحدهم مستفهماً عن الشأن ومترجماً عن القوم : السلطان معنا آنفاً ، ولم يمتدّ الزمن لوقوع المرض ، فإن يكن هلك فخبّرونا ، فقال له أبو حمو : واذا هلك فما أنت صانع ؟ فقال : إنما نخشى من مخالفتك ، وإلا فسلطاننا

أخوك الأكبر أبو زيان . فقام أبو حمّو من مكانه وأكبّ على يد أخيه يقبّلها ، وأعطاه صفقة يمينه واقتدى به المشيخة ، فانعقدت بيعته لوقته واشتمل بنو عبد الواد على سلطانهم واجتمعوا إليه ، وبرزوا إلى قتال عدوّهم على العادة فكأنّ عثمان لم يمت .

(وبلغ الخبر) إلى يوسف بن يعقوب بمكانه من حصارهم فتفجّع له ، وعجب من صرامة قومه من بعده . واستمرّ حصاره إيّاهم إلى ثمانية سنين وثلاثة أشهر من يوم نزوله ، نالهم فيها من الجهد ما لم ينله أمّة من الأمم ، واضطروا إلى أكل الجيف والقطوط والفيران حتى أنهم زعموا أنهم أكلوا فيها أشلاء الموتى من الناس ، وخرّبوا السقف للوقود ، وغلت أسعار الأقوات والحبوب وسائر المرافق بما تجاوز حدود العوائد . وعجز وجدهم عنه فكان ثمن مكيال القمح الذي يسمونه البرشالة ويتبايعون به ، مقداره إثنا عشر رطلاً ونصف مثقالين ونصفاً من الذهب العين . وثمن الشخص الواحد من البقر ستين مثقالاً ، ومن الضان سبعة مثاقيل ونصفاً ، وأثمان اللحم من الجيف الرطل من لحم البغال والحمير بثمن المثقال ، ومن الخيل بعشرة دراهم صغار من سكتهم ، تكون عشر المثقال والرطل من الجلد البقري ميتة أو مذكى بثلاثين درهماً ، والهرّ الداجن بمثقال ونصف ، والكلب بمثله والفار بعشرة دراهم . والحية بمثله ، والدجاجة بثلاثين درهماً ، والبيض واحدة بستة دراهم ، والعصافير كذلك . والأوقية من الزيت بإثني عشر درهماً ، ومن السمن بمثلها ومن الشحم بعشرين ، ومن الفول بمثلها ، ومن الملح بعشرة ، ومن الحطب كذلك . والأصل الواحد من الكرنب بثلاثة أثمان المثقال . ومن الخس بعشرين درهماً ومن اللفت بخمسة عشر درهماً ، والواحدة من القثاء والفقوس بأربعين درهماً ، والخيار بثلاثة أثمان الدينار ، والبطيخ بثلاثين درهماً ، والحبة من التين والإجاص بدرهمين . واستهلك الناس أموالهم وموجودهم ، وضاقت أحوالهم .

واستفحل ملك يوسف بن يعقوب بمكانه من حصارها ، واتسعت خطة مدينة المنصور المشيّدة عليها . ورحل إليها التجّار بالبضائع من الآفاق ، واستبحرت في العمران بما لم تبلغه مدينة ، وخطب الملوك سلمه ووده ، ووفدت عليه رسل الموحّدين وهداياهم من تونس وبجاية ، وكذلك رسل صاحب مصر والشام وهديتهم ، واعتز اعتزازاً لا كفاء له كما يأتي في أخباره وهلك الجند حامية بني يغمراسن وقبيلتهم وأشرفوا على الهلاك فاعتزموا على الإلقاء باليد والخروج بهم للاستماتة ، فكيّف الله لهم الصنيع

الغريب . ونفس عن مخنقهم بمهلك السلطان يوسف بن يعقوب على يد خصيّ من العبيد ، فأسخطته بعض النزعات الملوكية فاعتمده في كسر بيته ومخدع نومه ، وطعنه بخنجر قطع أمعاءه ، وأدرك فسيق إلى وزرائه فمزّقوه أشلاءً . ولم يبق شيء من بقايا عهدهم كما ذكرناه والأمر لله وحده . وأذهب الله العناء عن آل زيان وقومهم وساكني مدينتهم كأنما نشروا من الأجداث . وكتبوا لها في سكتهم ما أقرب فرج الله استغراباً لحادثتها .

(وحدثني) شيخنا محمد بن ابراهيم الآيلي قال : جلس السلطان أبو زيّان صبيحة يوم الفرج وهو يوم الأربعاء في خلوة زوايا قصره ، واستدعى ابن حجاف خازن الزرع فسأله كم بقي من الأهراء والمطامير المختومة ؟ فقال له : إنما بقي عولة اليوم وغد فاستوصاه بكتمانها . وبينما هم في ذلك دخل عليه أخوه أبو حمّو فأخبروه فوجم لها ، وجلسوا سكوتاً لا ينطقون . واذا بالخادم دعد قهرمانة القصر من وصائف بنت السلطان أبي اسحق وحظية أبيهم خرجت من القصر إليهم ، فوقفت وحيتهم تحيتها وقالت : تقول لكم حظايا قصركم وبنات زيّان حرمكم ما لنا وللبقاء ، وقد أحيط بكم وأسف عدوّكم لالتهامكم ، ولم يبق إلاّ فواق بكيئة لمصارعكم . فأريحونا من معرّة السبي ، وأريحوا فينا أنفسكم وقربوا إلى مهالكنا فالحياة في الذل عذاب والوجود بعدكم عدم . فالتفت أبو حمو إلى أخيه وكان من الشفقة بمكان وقال : قد صدقتك الخبر فما تنظر بهنّ ؟ فقال : يا موسى أرجئني ثلاثاً لعلّ الله يجعل بعد عسر يسراً ، ولا تشاورني بعدها فيهن ، بل سرّح اليهود والنصارى إلى قتلهنّ وتعال إليّ نخرج مع قومنا إلى عدوّنا فنستميت ، ويقضي الله ما يشاء . فغضب أبو حمو وأنكر الأرجاء في ذلك ، وقال : إنما نحن والله نتربّص المعرّة بهنّ وبأنفسنا ، وقام عنه مغضباً وجهش السلطان أبو زيان بالبكاء . قال ابن حجاف : وأنا بمكاني بين يديه لا أملك متأخراً ولا متقدّماً إلى أن غلب عليه النوم فما راعني إلاّ حرسيّ الباب يشير إليّ أن اذن السلطان بمكان رسول من معسكر بني مرين لسيدة القصر ، فلم أطق رجع جوابه إلا بإشارة وانتبه السلطان من خفيف إشارتنا فزعاً ، فأذنته واستدعاه . فلما وقف بين يديه قال له : إنّ يوسف بن يعقوب هلك الساعة ، وأنا رسول حافده أبي ثابت إليكم ، فاستبشر السلطان واستدعى أخاه وقومه حتى أبلغ الرسول رسالته

بمسمع منهم ، وكانت إحدى المغربات في الأيام[1] .

(وكان من خبر هذه الرسالة) أن يعقوب بن يوسف لما هلك تطاول للأمر الأعياص من إخوته وولده وحفدته ، وتحيّز أبو ثابت حافده إلى بني ورتاجن لخؤلة كانت له فيهم ، فاستجاش بهم واعصوصبوا عليه وبعث إلى أولاد عثمان بن يغمراسن أن يعطوه الآلة ويكونوا مفزعاً له ومأمناً إن أخفق مسعاه على أنه إن تمّ أمره قوّض عنهم معسكر بني مرين فعاقدوه عليها . ووفّي لهم لما تمّ أمره ونزل لهم عن جميع الأعمال التي كان يوسف بن يعقوب استولى عليها من بلادهم ، وجاء بجميع الكتائب التي أنزلها في ثغورهم وقفلوا إلى أعمالهم بالمغرب الأوسط كلّها إلى أن كان من أمره ما نذكره إن شاء الله تعالى .

* (الخبر عن شأن السلطان أبي زيان من بعد الحصار إلى حين مهلكه) *

كان من أوّل ما افتتح به السلطان أبو زيان أمره بعد الخروج من هون الحصار وتناوله الأعمال من يد بني مرين ، أن نهض من تلمسان ومعه أخوه أبو حمو آخرذي الحجة من سنة ست وسبعمائة ، فقصد بلاد مغراوة وشرّد من كان هنالك منهم في طاعة بني مرين ، واحتاز الثغور من يد عمّالهم . ودوّخ قاصيتها . ثم عقد عليها المسامح مولاه ، ورجع عنها ، فنهض إلى السرسو ، وكان العرب قد تملكوه أيام الحصار ، وغلبوا زناتة عليه من سويد والديالم ومن إليهم من بني يعقوب بن عامر فأجفلوا أمامه . واتبعوا آثارهم إلى أن أوقع بهم وانكفأ راجعاً ومرّ ببلاد بني توجين ، فاقتضى طاعة من كان بقي بالجبل من بني عبد القوى والحشم فأطاعوه ، ورياستهم يومئذ لمحمد بن عطيّة الأصمّ من بني عبد القوي . وقفل إلى تلمسان لتسعة أشهر من خروجه ، وقد ثقف أطراف ملكه ، ومسح أعطاف دولته . فنظر في إصلاح قصوره ورياضه ، ورمّ ما تثلّم من بلده ، وأصابه المرض خلال ذلك فاشتدّ وجعه سبعاً ، ثم هلك أخريات شوّال من سنة سبع وسبعمائة والبقاء لله وحده .

(١) وفي نسخة ثانية : إحدى المقربات في الأنام .

* (الخبر عن محو الدعوة الحفصية من منابر تلمسان) *

كانت الدعوة الحفصية بأفريقية قد انقسمت بين أعياصهم في تونس وبجاية وأعمالها ، وكان التخم بينهما بلد عجيسة ووشتاتة . وكان الخليفة بتونس الأمير أبو حفص ابن الأمير أبي زكريا الأوّل منهم ، وله الشفوف على صاحب بجاية والثغور الغربية بالحضرة . فكانت بيعة بني زيان له والدعاء على منابرهم باسمه ، وكانت لهم مع المولى الأمير أبي زكريا الأوسط صاحب بجاية وصلة لمكان الصهر بينهم وبينه ، وكانت الوحشة قد اعترضت ذلك عندما نزل عثمان بجاية كما قدّمناه . ثم تراجعوا إلى وصلتهم واستمرّوا عليها إلى أن نازل يوسف بن يعقوب تلمسان ، والبيعة يومئذ للخليفة بتونس السلطان أبي عصيدة بن الواثق ، والدعوة على منابر تلمسان باسمه ، وهو حاقد عليهم ولايتهم للأمير أبي زكريا الأوسط صاحب الثغر ، فلما نزل يوسف بن يعقوب بأعلى تلمسان وبعث عساكره في قاصية الشرق استجاش عثمان بن يغمراسن بصاحب بجاية ، فسرّح عسكراً من الموحدين لمدافعتهم عن تلك القاصية ، والتقوا معهم بجبل الزاب فانكشف الموحّدون بعد معترك صعب واستلحمهم بنو مرين ، ويسمى المعترك لهذا العهد بمرسي الرؤوس لكثرة ما تساقط في ذلك المجال من الرؤوس . واستحكمت المنافرة بين يوسف بن يعقوب وصاحب بجاية فأوفد الخليفة بتونس على يوسف بن يعقوب مشيخة من الموحّدين تجديداً لوصلة سلفهم مع سلفه واغراء بصاحب بجاية وعمله ، فجاء موقع ذلك من عثمان بن يغمراسن وأحفظه ممالأة[1] خليفته لعدوّه ، فعطّل منابره من ذكره ، وأخرج قومه وإيالته عن دعوته ، وكان ذلك آخر المائة السابعة . والله تعالى أعلم .

* (الخبر عن دولة أبي حمو الاوسط وما كان فيها من الاحداث) *

لما هلك الأمير أبو زيان قام بالأمر بعده أخوه أبو حمّو في أخريات سنة سبع كما

(١) وفي نسخة ثانية : موالاة الخليفة لعدوه .

قدّمناه ، وكان صارماً يقظاً حازماً داهيةً ، قويّ الشكيمة صعب العريكة ، شرس الأخلاق مفرط الدهاء[1] والحدة . وهو أوّل ملوك زناتة ، رتّب مراسم الملك وهذّب قواعده ، وأرهف في ذلك لأهل ملكه حدّه ، وقلب لهم مجنّ بأسه حتى ذلّوا لِعِزِّ ملكه وتأدّبوا بآداب السلطان .

(سمعت) عريف بن يحيى أمير سويد من زغبة وشيخ المجالس الملوكية يقول ويعنيه : موسى بن عثمان هو معلّم السياسة الملوكية لزناتة ، وإنما كانوا رؤساء بادية حتى قام فيهم موسى بن عثمان ، فحدّ حدودها ، وهذّب مراسمها ونقل عنه ذلك أمثاله وأنظاره ، فتقبّلوا مذهبه واقتدوا بتعليمه انتهى كلامه .

(ولما استقلّ) بالأمر افتتح شأنه بعقد السلم مع سلطان بني مرين لأوّل دولته فأوفد كبراء دولته على السلطان أبي ثابت ، وعقد له السلم كما رضي . ثم صرف وجهه إلى بني توجين ومغراوة ، فردّد إليهم العساكر حتى دوّخ بلادهم وذلّل صعابهم ، وشرّد محمد بن عطية الأصمّ عن نواحي وانشريس ، وراشد بن محمد عن نواحي شلف ، وكان قد لحق بها بعد مهلك يوسف بن يعقوب فأزاحه عنها ، واستولى على العملين ، واستعمل عليهما ، وقفل إلى تلمسان ، ثم خرج سنة عشر وسبعمائة في عساكره إلى بلاد بني توجين ، ونزل تافركينت وسط بلادهم فشرّد الفلّ من أعقاب محمد بن عبد القوي عن وانشريس ، واحتاز رياستهم في بني توجين دونهم . وأدام منهم بالحشم وبني تيغزين[2] . وعقد لكبيرهم يحيى بن عطية على رياسة قومه في جبل وانشريس ، وعقد ليوسف بن حسن من أولاد عزيز على المدية وأعمالها ، وعقد لسعد من بني سلامة على قومه من بني يد لتين إحدى بطون بني توجين وأهل الناحية الغربية من عملهم . وأخذ من سائر بطون بني توجين الرهن على الطاعة والجباية ، واستعمال عليهم جميعاً من صنائعه قائده يوسف بن حيون الهوّاري ، وأذن له في اتخاذ الآلة . وعقد لمولاه مسامح على بلاد مغراوة وأذن له أيضا في اتخاذ الآلة . وعقد لمحمد بن عمه يوسف على مليانة ، وأنزله بها وقفل إلى تلمسان . والله أعلم .

---

(١) وفي نسخة ثانية : مفرط الذكاء

(٢) وفي نسخة ثانية : بني تيغرين .

* (الخبر عن استنزال زيرم بن حماد من ثغر برشك وما كان قبله[1]) *

كان هذا الغمر من مشيخة هذا القصر لوفور عشيرته من مكلاته داخله وخارجه ، وإسمه زيري بالياء ، فتصرّفت فيه العامّة وصار زيرم بالميم . ولما غلب يغمراسن على بلاد مغراوة دخل أهل هذا القصر في طاعته . حتى اذا هلك حدّثت هذا الغمر نفسه بالانتزاء والاستبداد بملك برشك ما بين مغراوة وبني عبد الواد ، ومدافعة بعضهم ببعض . فاعتزم على ذلك وأمضاه وضبط برشك لنفسه سنة ثلاث وثمانين وستمائة ونهض إليه عثمان بن يغمراسن سنة أربع وثمانين وستمائة بعدها ، ونازله فامتنع . ثم زحف سنة ثلاث وتسعين إلى مغراوة ، فلجأ ثابت بن منديل إلى برشك وحاصره عثمان بها أربعين يوماً . ثم ركب البحر إلى المغرب كما قلناه . وأخذ زيري بعدها بطاعة عثمان بن يغمراسن دافعه بها ، وانتقض عليه ، مرجعه إلى تلمسان ، وشغل بنو زيان بعدها بما دهمهم من شأن الحصار ، فاستبدّ زيري هذا ببرشك واستفحل شأنه بها . واتقى بني مرين عند غلبهم على بلاد[2] مغراوة وتردّد عساكرهم فيها باخلاص الطاعة والانقياد ، فلما انقشع إيالة بني مرين بمهلك يوسف بن يعقوب ، وخرج بنو يغمراسن من الحصار رجع إلى ديدنه من التمريض في الطاعة ، ومناولة طرفها على البعد حتى اذا غلب أبو حمّو على بلاد مغراوة وتجاوزت طاعته هذا المصر إلى ما وراءه ، خشيه زيري على نفسه ، وخطب منه الأمان على أن ينزل له عن المصر ، فبعث إليه رئيس الفتيا بدولته أبا زيد عبد الرحمن بن محمد الإمام ، كان أبوه من أهل برشك ، وكان زيري قد قتله لأوّل ثورته غيلة . وفرّ ابنه عبد الرحمن هذا وأخوه عيسى ، ولحقا بتونس فقرّا بها ، ورجعا إلى الجزائر فأوطناها . ثم انتقلا إلى مليانة واستعملها بنو مرين في خطة القضاء بمليانة . ثم وفدا بعد مهلك يوسف بن يعقوب على أبي زيان وأبي حمو مع عمّال بني مرين وقوّادهم بمليانة ، وكان فيهم منديل بن محمد الكناني صاحب أشغالهم المذكور في أخبارهم . وكانا يقرآن ولده محمداً فأشادا

(١) وفي نسخة ثانية : وما كان من قتله .
(٢) وفي نسخة ثانية : أعمال .

عند أبي زيان وأبي حو بمكانهما من العلم ، ووقع ذلك من أبي حمو أبلغ المواقع حتى اذا استقلّ بالأمر ابتنى المدرسة بناحية المطهر من تلمسان لطلبة العلم . وابتنى لهما دارين على جانبيها وجعل لهما التدريس فيها في إيوانين معدّين لذلك . واختصّهما بالفتيا والشورى ، فكانت لهما في دولته قدم علية فلما خطب زيري هذا الأمان من أبي حمّو وأن يبعث إليه من يأمن معه في الوصول إلى بابه ، بعث إليه أبا زيد عبد الرحمن الأكبر منهما ، فنهض لذلك بعد أن استأذنه في أن يثأر منه بأبيه إن قدر عليه ، فأذن له . فلمّا احتلّ ببرشك أقام بها أياماً يغاديه فيها زيري ويراوحه بمكان نزله ، وهو يعمل الحيلة في اغتياله حتى اذا أمكنته فقتله في بعض تلك الأيام سنة ثمان وسبعمائة ، وصار أمر برشك إلى السلطان أبي حمو وانمحى منه أثر المشيخة والاستبداد والأمور بيد الله سبحانه .

* (الخبر عن طاعة الجزائر واستنزال ابن علان منها وذكر أوليته) *

كانت مدينة الجزائر هذه من أعمال صنهاجة ، ومختطها بلكّين بن زيري ونزلها بنوه من بعده . ثم صارت للموحْدين وانتظمها بنو عبد المؤمن في أمصار المغربين وأفريقية ، ولما استبدّ بنو أبي حفص بأمر الموحدين وبلغت دولتهم بلاد زناتة . وكانت تلمسان ثغراً لهم ، واستعملوا عليها يغمراسن وبنيه من بعده ، وعلى ضواحي مغراوة بني منديل بن عبد الرحمن ، وعلى وانشريس وما إليها من عمل توجين محمد بن عبد القوى وبنيه . وبقي ما وراء هذه الأعمال إلى الحضرة لولاية الموحّدين أهل دولته ، فكان العامل على الجزائر من الموحْدين أهل الحضرة .

وفي سنة أربع وستين وستمائة انتقضوا على المستنصر ومكثوا في ذلك الانتقاض سبعاً . ثم أوعز إلى أبي هلال صاحب بجاية بالنهوض إليها في سنة إحدى وسبعين وستمائة فحاصرها أشهراً وأفرج عنها . ثم عاودها بالحصار سنة أربع وسبعين وستمائة أبو الحسن ابن ياسين بعساكر الموحّدين فاقتحمها عليهم عنوة واستباحها . وتقبّض على مشيختها فلم يزالوا معتقلين إلى أن هلك المستنصر. ولما انقسم أمر بني أبي حفص واستقل الأمير أو زكريا الأوسط بالثغور الغربية وأبوه ، بعثوا إليه بالبيعة ، وولّى عليهم ابن أكمازير ،

وكانت ولايتها[1]   من قبل ، فلم يزل هو والياً عليها إلى أن أسنّ وهرم . كان ابن علاّن من مشيخة الجزائر مختصاً به ، ومنتصباً في أوامره ونواهيه ، ومصدّراً لإمارته وحصل له بذلك الرياسة على أهل الجزائر سائر أيامه . فلمّا هلك ابن أكمازير حدّثته نفسه بالاستبداد والانتزاء بمدينته ، فبعث عن أهل الشوكة من نظائره ليله هلاك أميره . وضرب أعناقهم وأصبح منادياً بالاستبداد ، واتخذ الآلة واستركب واستلحق من الغرباء والثعالبه عرب متيجة ، واستكثر من الرجال والرماة . ونازلته عساكر بجاية مراراً فامتنع عليهم . وغلب مليكش على جباية الكثير من بلاد متيجة ، ونازله أبو يحيى بن يعقوب بعساكر بني مرين عند استيلائهم على البلاد الشرقية ، وتوغلهم في القاصية ، فأخذ بمخنقها وضيّق عليها ، ومرّ بابن علاّن القاضي أبو العبّاس الغماري رسول الأمير خالد إلى يوسف بن يعقوب ، فأودعه الطاعة للسلطان والضراعة إليه في الإبقاء ، فأبلغ ذلك عنه وشفع له ، فأوعز إلى أبيه يحيى بمسالمته[2] . ثم نازله الأمير خالد بعد ذلك فأمتنع عليه وأقام على ذلك أربع عشرة سنة وعيون الخطوب تحدّده[3] ، والأيام تستجمع لحربه . فلمّا غلب السلطان أبو حمو على بلاد توجين واستعمل يوسف بن حبون الهواري على وانشريس ، ومولاه مسامحاً على بلاد مغراوة ، ورجع إلى تلمسان . ثم نهض سنة إثنتي عشرة وسبعمائة الى بلاد شلف فنزل بها ، وقدم مولاه مسامحاً في العساكر فدوّخ متيجة من سائر نواحيها ، وترس بالجزائر ، وضيّق حصارها حتى مسهم الجهد وسأل ابن علاّن النزول على أن يشترط لنفسه ، فتقبّل السلطان اشتراطه ، وملك السلطان أبو حمو الجزائر وانتظمها في أعماله . وارتحل ابن علاّن في جملة مسامح ، ولحقوا بالسلطان بمكانه من شلف فانكفأ إلى تلمسان وابن علاّن في ركابه ، فأسكنه هنالك ووفّي له بشرطه إلى أن هلك والبقاء لله سبحانه .

* (الخبر عن حركة صاحب المغرب الى تلمسان وأولية ذلك) *

لما خرج عبد الحق بن عثمان من أعياص الملك على السلطان أبي الربيع بفاس ،

(١) بياض بالاصل وفي نسخة اخرى : لبطة ، وفي ثانية : ليطة .

(٢) وفي نسخة ثانية : بمصالحته .

(٣) وفي نسخة ثانية : تحرزه .

وبايع له الحسن بن عليّ بن أبي الطلاق صاحب بني مرين بمداخلة الوزير رحّوا بن يعقوب كما قدّمناه في أخبارهم . وملكوا تازى ، زحف إليهم السلطان أبو الربيع فبعثوا وفدهم إلى السلطان أبي حمو صريخاً . ثم أعجلهم أبو الربيع وأجهضهم على تازى ، فلحقوا بالسلطان أبي حمو ودعوه إلى المظاهرة على المغرب ليكونوا رداءً له دون قومهم . وهلك السلطان أبو الربيع خلال ذلك واستقلّ بملك المغرب أبو سعيد عثمان بن يعقوب بن عبد الحق ، فطالب السلطان أبا حمو باسلام أولئك النازعين إليه ، فأبى من إسلامهم وإخفار زمّته فيهم وأجازهم البحر إلى العدوة ، فأغضى له السلطان أبو سعيد عنها ، وعقد له السلم . ثم استراب يعيش بن يعقوب بن عبد الحق بمكانه عند أخيه السلطان أبي سعيد لما سعى فيه عنده ، فنزع عنه إلى تلمسان وأجاره السلطان أبو حمو على أخيه فأحفظه ذلك ، ونهض إلى تلمسان سنة أربع عشرة وسبعمائة وعقد لابنه الأمير أبي عليّ وبعثه في مقدّمته ، وسار هو في الساقة . ودخل أعمال تلمسان على هذه التعبية فاكتسح بسائطها ، ونازل وجْدَة فقاتلها وضيّق عليها . ثم تخطّاها إلى تلمسان فنزل بساحتها وانحجر موسى بن عثمان من وراء أسوارها ، وغلب على ضواحيها ورعاياها ، وسار السلطان أبو سعيد في عساكره يتقرّى شعارها وبلادها بالحطم والانتساف والعيث . فلمّا أحيط به وثقلت وطأة السلطان عليه وحذر المغبة منه ألطف الحيلة في خطاب الوزراء الذين كان يسرّب أمواله فيهم ويخادعهم من نضائح سلطانهم حتى اقتضى مراجعتهم في جاره يعيش بن يعقوب وإدالته من أخته . ثم بعث خطوطهم بذلك إلى السلطان أبي سعيد فامتلاء قلبه منها خشية ورهبة ، واستراب بالخاصّة والأولياء ونهض إلى المغرب على تعبيته . ثم كان خروج إبنه عمر عليه بعد مرجعه ، وشغلوا عن تلمسان وأهلها برهة من الدهر حتى جاء أمر الله في ذلك عند وقته ، والله تعالى أعلم .

* (الخبر عن مبدأ حصار بجاية وشرح الداعية اليه) *

لما رجع السلطان أبو سعيد إلى المغرب وشغل عن تلمسان ، فزع أبو حمو لأهل

القاصية من عمله . وكان راشد بن محمد بن ثابت بن منديل قد جاء من بلاد زواوة أثناء هذه الغمرة ، فاحتل بوطن شلف واجتمع إليه أوشاب قومه ، وحين تجلت الغمرة عن السلطان أبي حمو نهض إليه بعد أن استعمل ابنه أبا تاشفين على تلمسان ، وجمع له الجموع ففرّ أمامه ناجياً إلى مثوى اغترابه ببجاية . وأقام بنو سعيد بمعاقلهم من جبال شلف على دعوته ، فاحتل السلطان أبو حمو بوادي تمل[1] فخيم به . وجمع أهل أعماله لحصار بني أبي سعيد شيعة راشد بن محمد ، واتخذ هنالك قصره المعروف باسمه . وسرّح العساكر لتدويخ القاصية ولحق به هنالك الحاجب ابن أبي[2] حين مرجعه من الحج سنة إحدى عشرة وسبعمائة ، فأغراه بملك بجاية ورغبه فيه . وكان قد ثاب له طمع منذ رسالة السلطان مولانا أبي يحيى إليه . وذلك أنه لما انتقض على أخيه خالد ودعا لنفسه بقسنطينة ، ونهض إلى بجاية فانهزم عنها كما قدمنا في أخباره . وأوفد على السلطان أبي حمو بعض رجال دولته مغرياً له بابن خلوف وبجاية ثم بعث إليه ابن خلوف أيضاً يسأله المظاهرة والمدد فأطمعه ذلك في ملك بجاية .

(ولما هلك) ابن خلوف كما قدّمناه ، لحق به كاتبه عبدالله بن هلال ، فأغراه واستحثّه ، وشغله عن ذلك شأن الجزائر . فلما استولى على الجزائر ، بعث مولاه مسامحاً في عسكر مع ابن أبي حي ، فبلغوا إلى جبل الزاب وهلك ابن أبي حي ورجع مسامح . ثم شغله عن شأنها زحف ، وفرغ من أمر عدوّه ، ونزل بلد شلف كما ذكرناه آنفاً ولحق به عثمان بن سباع بن يحيى بن سبّاع بن سهل أمير الزواودة ، يستحثّه لملك الثغور الغربية من عمل الموحّدين ، فاهتز لذلك وجمع له الجموع ، وعقد لمسعود ابن عمه أبي عامر برهوم على عسكر وأمره بحصار بجاية ، وعقد لمحمد ابن عمّه يوسف قائد مليانة على عسكر ، ولمولاه مسامح على عسكر آخر ، وسرّحهم إلى بجاية وما وراءها لتدويخ البلاد . وعقد لموسى بن عليّ الكردي على عسكر ضخم ، وسرّحه مع العرب من الزواودة وزغبة على طريق الصحراء . فانطلقوا إلى وجههم ذلك ، وفعلوا الأفاعيل كلّ فيما يليه وتوغّلوا في البلاد الشرقية ، حتى انتهوا إلى بلاد بونة . ثم انقلبوا من هنالك ومرّوا في طريقهم بقسنطينة ، ونازلوها أياماً .

---

(١) وفي نسخة ثانية : نهل .

(٢) بياض بالاصل ولم نستطع معرفة الاسم الكامل لهذا الحاجب في المراجع التي بين ايدينا .

وصعدوا جبل ابن ثابت المطلّ عليها فاستباحوه . ثم مرّوا ببني باورار فاستباحوها وأضرموها ، واكتسحوا سائر ما مرّوا عليه . وحدثت بينهم المناكرة حسداً ومنافسةً ، فافترقوا ولحقوا بالسلطـان ولحق مسعود بن برهوم محاصراً لبجاية وبنى حصناً بأصفون لمقامه . وكان يسرّح الجيوش لقتالها فتجوّل في ساحتها ، ثم تراجع إلى الحصن . ولم يزل كذلك حتى بلغه خبر خروج محمد بن يوسف فأجفل عنها على ما نذكره الآن فلم يرجعوا لحصارها إلا بعد مدّة والله تعالى أعلم .

* (الخبر عن خروج محمد بن يوسف ببلاد بني توجين وحروب السلطان معه) *

لما رجع محمد بن يوسف من قاصية الشرق كما قدّمناه ، وسابقه إلى السلطان موسى بن علي الكرديّ ، وجوانحه تلتهب غيظاً وحقداً عليه . وسعى به عند السلطان فعزله عن مليانة ، فوجم لها وسأله زيارة ابنه الأمير أبي تاشفين بتلمسان ، وهو ابن أخته فأذن له . وأوعز إلى ابنه بالقبض عليه ، فأبى من ذلك ، وأراد هو الرجوع إلى معسكر السلطان فخلى سبيله . ولما وصل إليه تنكّر له وحجبه ، فاستراب وملاء قلبه الرعب ، وفرّ من المعسكر ولحق بالمرية[1] ، ونزل على يوسف بن حسن بن عزيز عاملها للسلطان من بني توجين . فيقال انه أوثقه اعتقالاً حتى غلبه قومه على بغيته من الخروج معه ، لما كان السلطان أبو حمو يوسقهم به من نزاعته ، فأخذ له البيعة على قومه ومن إليهم من العرب . وزحفوا إلى السلطان بمعسكره من نهل ، فلقيهم في عساكره ، فكانت الدبرة على السلطان ، ولحق بتلمسان وغلب محمد بن يوسف على بني توجين ومغراوة ونزل مليانة . وخرج السلطان من تلمسان لأيام من دخولها ، وقد جمع الجموع وأزاح العلل وأوعز إلى مسعود بن برهوم بمكانه من حصار بجاية بالوصول إليه بالعساكر ، ليأخذ بحجزتهم من ورائهم ، وخرج محمد بن يوسف على مليانة لاعتراضه ، واستعمل على مليانة يوسف بن حسن بن عزيز ، فلقيه ببلاد مليكش وانهزم محمد بن يوسف . ولجأ إلى جبل مرصالة[2] وحاصره بها مسعود بن

(١) وفي نسخة ثانية : بالمدية .

(٢) وفي نسخة ثانية : موصاية .

برهوم أياماً ، ثم أفرج عنه . ولحق بالسلطان فنازلوا جميعاً مليانة . وافتتحها السلطان عنوة وجيء بيوسف بن حسن أسيراً من مكمنه ببعض المسارب فعفا عنه وأطلقه ، ثم زحف إلى المرية فملكها وأخذ الرهن من أهل تلك النواحي ، وقفل إلى تلمسان . واستطال محمد بن يوسف على النواحي ففشت دعوته في تلك القاصية . وخاطب مولانا السلطان أبا يحيى بالطاعة فبعث إليه بالهدية والآلة ، وسوّغه سهام يغمراسن ابن زيّان بأفريقية ، ووعده بالمظاهرة وغلب سائر بلاد بني توجين . وبايع له بنو تيغرين أهل جبل وانشريس ، فاستولى عليه . ثم نهض السلطان إلى الشرق سنة سبع عشرة وسبعمائة وملك المرية واستعمل عليها يوسف بن حسن لمدافعة محمد بن يوسف ، واستبلغ في أخذ الرهن منه ومن أهل العمالات وقبائل زناتة والعرب ، حتى من قومه بني عبد الواد . ورجع إلى تلمسان وأنزله بالقصبة وهي الغور الفسيح الخطّة تماثل بعض الأمصار العظيمة ، اتخذها للرهن . وكان يبالغ في ذلك حتى يأخذ الرهن المتعدّدة من البطن الواحد والفخذ الواحد والرهط . وتجاوز ذلك إلى أهل الأمصار والثغور والمشيخة والسوقة فملاء تلك القصبة من أبنائهم وإخوانهم ، وشحنها بالأمم بعد الأمم ، وأذن لهم في ابتناء المنازل واتخاذ النساء . واختط لهم المساجد فجمعوا بها لصلاة الجمعة ، ونفقت بها الأسواق والصنائع وكان حال هذه البنية من أغرب ما حكي في العصور عن سجن . ولم يزل محمد بن يوسف بمكان خروجه من بلاد توجين إلى أن هلك السلطان ، والبقاء لله .

* (الخبر عن مقتل السلطان أبي حمو وولاية ابنه أبي تاشفين من بعده) *

كان السلطان أبو حمو قد اصطفى ابن عمه برهوم وتبناه من بين عشيرته وأولي قرباه لمكان صرامته ودهائه ، واختصاص أبيه برهوم المكنّى أبا عامر بعثمان بن يغمراسن شقيقه من بين إخوته[1] ، فكان يؤثره على بنيه ويفاوضه في شؤونه ، ويصله إلى خلواته . وكان دفع إلى ابنه عبد الرحمن أبا تاشفين أتراباً له من العلوجين[2] يقومون

(١) وفي نسخة ثانية : من بين سائر الاخوة .
(٢) وفي نسخة ثانية : المعلوجي .

بخدمته في مرباه ومنتشئه ، كان منهم : هلال المعروف بالقطاني[1] ، ومسامح المسمّى بالصغير ، وفرج بن عبدالله وظافر ومهديّ وعليّ بن تاكررت وفرج الملقب شَقّوُرة ، وكان ألصقهم وأعلقهم بنفسه تلاد له منهم يسمى هلالاً ، وكان أبو حمو أبوه كثيراً ما يقرّعه ويوبّخه إرهاقا في اكتساب الخلال ، وربما يقذع في تقريعه لما كان عفا الله عنه فحاشاً فيحفظه لذلك . وكان مع ذلك شديد السطوة متجاوزاً بالعقاب وحدوده في الزجر والأدب ، فكان أولئك العلوجين تحت رهب منه ، وكانوا يغرون لذلك مولاهم أبا تاشفين بأبيه ، ويبعثون غيرته لما يذكرون له من اصطفاء ابن أبي عامر دونه . وقارن ذلك أن مسعود بن أبي عامر أبلى في لقاء محمد ابن يوسف الخارج على أبي حمو البلاء الحسن عندما رجع من حصار بجاية ، فاستحمد له السلطان ذلك ، وعيّر ابنه عبد الرحمن بمكان ابن عمّه هذا من النجابة والصرامة يستجد له بذلك خلالاً ويغريهُ بالكمال . وكان عمّه أبو عامر ابراهيم بن يغمراسن ثري بما نال من جوائز الملوك في وفاداته ، وما أقطع له أبوه وأخوه سائر أيامهما .

ولما هلك سنة ست وتسعين وستمائة أوصى أخاه عثمان بولده فضمهم إليه ، ووضع تراثهم بموضع ماله ، حتى يأنس منهم الرشد في أحوالهم ، حتى اذا كانت غزاة ابنه أبي سرحان هذه ، وعلا فيها ذكره وبَعُدَ صيته ، رأى السلطان أبو حمو أن يدفع إليه تراث أبيه لاستجماع خلاله ، فاحتمل إليه من المودع . ونمي الخبر إلى ولده أبي تاشفين وباطنته السوء من العلوجين ، فحسبوه مال الدولة قد حمل إليه لبعد عهدهم بما وقع في تراث أبي عامر أبيه ، واتهموا السلطان بايثاره بولاية العهد دون ابنه ، فأغروا أبا تاشفين بالتوثّب على الأمر وحملوه على الفتك بمشتويه مسعود بن أبي عامر ، واعتقال السلطان أبي حمو ليتمّ له الاستبداد . وتحيّنوا لذلك قائلة الهاجرة عند منصرف السلطان من مجلسه ، وقد اجتمع إليه ببعض حجر القصر خاصته من البطانة وفيهم مسعود بن أبي عامر والوزراء من بني الملاح . وكان بنو الملاح هؤلاء قد استخصهم السلطان بحجابته سائر أيامه ، وكان مسمّى الحجابة عنده قهرمة الدار والنظر في الدخل والخرج ، وهم أهل بيت من قرطبة كانوا يحترفون فيها بسكّة الدنانير

(١) وفي نسخة ثانية : القطلاني .

والدراهم . وربما دفعوا إلى النظر في ذلك ثقة بأماناتهم ، نزل أوّلهم بتلمسان مع جالية قرطبة فاحترفوا بحرفتهم الأولى .وزادوا إليها الفلاحة وتحلوا بخدمة عثمان بن يغمراسن وابنه ، وكان لهم في دولة أبي حمو مزيد حظوة وعناية ، فولّى على حجابته منهم لأوّل دولته محمد بن ميمون بن الملاح . ثم ابنه محمد الأشقر من بعده . ثم ابنه ابراهيم بن محمد من بعدهما ، واشترك معه من قرابته علي بن عبدالله بن الملاّح ، فكانا يتولّيان مهمه بداره ويحضران خلوته مع خاصته ، فحضروا يومئذ مع السلطان بعد انفضاض مجلسه كما قلناه ، ومعه من القرابة مسعود القتيل وحماموش بن عبد الملك بن حنينة . ومن الموالي معروف الكبير ابن أبي الفتوح بن عنتر من ولد نصر بن عليّ أمير بني يزيد[1] بن توجين ، وكان السلطان قد استوزره .

(فلما علم) أبو تاشفين باجتماعهم هجم ببطانته عليهم وغلبوا الحاجب على بابه حتى ولجوه متسايلين بعد أن استمسكوا من اغلاقه ، حتى اذا توسّطوا الدار اعتوروا السلطان بأسيافهم فقتلوه . وحام أبو تاشفين عنها ، فلم يفرجوا عليه ولاذ أبو سرحان منهم ببعض زوايا الدار ، واستمكن من غلقها دونهم ، فكسروا الباب وقتلوه ، واستلحموا من كان هنالك من البطانة ، فلم يفلت إلا الأقل . وهلك الوزراء بنو الملاّح واستبيحت منازلهم . وطاف الهاتف بسكك المدينة بأنّ أبا سرحان غدر بالسلطان ، وأنّ ابنه أبا تاشفين ثأر منه ، فلم يخف على الناس الشأن . وكان موسى ابن عليّ الكرديّ قائد العساكر قد سمع الصَيْحَة فركب إلى القصر ، فوجده مغلقاً دونه ، فظنّ الظنون فخشي استيلاء مسعود على الأمر فبعث إلى العبّاس بن يغمراسن كبير القرابة ، فأحضره عند باب القصر حتى إذا مرّ بهم الهاتف واستيقن مهلك أبي سرحان ، ردّ العباس على عقبه إلى منزله . ودخل إلى السلطان أبي تاشفين ، وقد أدركه الدهش من المواقعة فثبته ونشطه فحفه ، وأجلسه بمجلس أبيه وتولى له عقد البيعة على قومه خاصة وعلى الناس عامّة ، وذلك آخر جمادى الأولى من تلك السنة . وجهّز السلطان إلى مدفنه بمقبرة سلفه من القصر القديم ، وأصبح مثلاً في الآخرين والبقاء لله .

وأشخص السلطان لأوّل ولايته سائر القرابة الذين كانوا بتلمسان من ولد يغمراسن ،

---

(١) وفي نسخة اخرى : يزناتن .

وأجازهم إلى العدوة حذراً من مغبّة ترشيحهم ، وما يتوقع من الفتن على الدولة من قبلهم وقلّد حجابته مولاه هلالاً فاضطلع بأعبائها ، واستبدّ بالعقد والحلّ والابرام والنقض صدراً من دولته ، إلى أن نكبه حسبما نذكره . وعقد ليحيى بن موسى السنوسي من صنائع دولتهم على شلف وسائر أعمال مغراوة ، وعقد لمحمد بن سلامة بن عليّ على عمله من بلاد بني يدللتن من توجين ، وعزل أخاه سعداً ، فلحق بالمغرب . وعقد لموسى بن عليّ الكردي على قاصية المشرق ، وجعل إليه حصار بجاية ، وأغرى دولته بتشييد القصور واتخاذ الرياض والبساتين ، فاستكمل ما شرع فيه أبوه من ذلك أربى عليه ، فاحتفلت القصور والمصانع في الحسن ما شاءت ، واتسعت أخباره على ما نذكره إن شاءالله تعالى .

الخبر عن نهوض السلطان أبي تاشفين لمحمد بن يوسف بجبل وانشريس واستيلاؤه عليه

كان محمد بن يوسف بعد مرجع السلطان أبي حمو كما ذكرناه قد تغلّب على جبل وانشريس ونواحيه واجتمع إليه الفلّ من مغراوة فاستفحل أمره ، واشتدّت في تلك النواحي شوكته . وأهمّ أبا تاشفين أمره فاعتزم على النهوض إليه ، وجمع لذلك وأزاح العلل . وخرج من تلمسان سنة تسع عشرة وسبعمائة واحتشد سائر القبائل من زناتة والعرب ، وأناخ على وانشريس وقد اجتمع به بنو توجين ومغراوة مع محمد بن يوسف . وكان تيغرين من بني توجين بطانة ابن عبد القويّ يرجعون في رياستهم إلى عمر بن عثمان بن عطيّة حسبما نذكره . وكان قد استخلص سواه من بني توجين دونه فأسفه بذلك ، وداخل السلطان أبا تاشفين وواعده أن يتحرّك[1] عنه ، فاقتحم السلطان عليهم الجبل وانحجزوا جميعاً إلى حصن توكال ، فخالفهم عمر بن عثمان في قومه إلى السلطان بعد أن حاصرهم ثمانياً ، فتخرّم الجمع واختلّ الأمر وانفضّ الناس فاقتحم الحصن ، وتقبّض على محمد بن يوسف وجيء به إلى السلطان أسيراً وهو في مركبه فعدّد عليه ، ثم وخزه برمحه ، وتناوله الموالي برماحهم فأقعصوه ، وحمل رأسه

(١) وفي نسخة ثانية : ان ينحرف عنه .

على القناة إلى تلمسان ، فنصب بشرفات البلد ، وعقد لعمر بن عثمان على جبل وانشريس وأعمال بني عبد القوي ، ولسعيد العربي من مواليه على عمل المرية. وزحف إلى الشرق فأغار على أحياء رياح وهم بوادي الجنان حيث الثنية المفضية من بلاد حمزة إلى القبلة ، وصبح أحياءهم فاكتسح أموالهم ومضى في وجهه إلى بجاية ، فعرس بساحتها ثلاثاً وبها يومئذ الحاجب يعقوب بن عمر فامتنعت عليه ، فظهر له وجه المعذرة لأوليائهم في استحصانها لهم . وقفل إلى تلمسان إلى أن كان من أمره ما نذكره إن شاءالله تعالى .

الخبر عن حصار بجاية والفتنة الطويلة مع الموحدين التي كان فيها حتفه وذهاب سلطانه وانقراض الامر عن قومه برهة من الدهر

لما رجع السلطان أبو تاشفين من حصار بجاية سنة تسع عشرة وسبعمائة اعتمل في ترديد البعوث إلى قاصية الشرق ، والإلحاح بالغزو إلى بلاد الموحّدين ، فأغزاها جيوشه سنة عشرين وسبعمائة فدوّخوا ضواحي بجاية وقفلوا . ثم غزاهم ثانية سنة إحدى وعشرين وسبعمائة وعليهم موسى بن عليّ الكردي فانتهى إلى قُسَنْطِينَة وحاصرها فامتنعت عليه فأفرج عنها ، وابتنى حصن بكر لأوّل مضيق الوادي ، وادي بجاية ، وأنزل به العساكر لنظر يحيى بن موسى قائد شلف وقفل إلى تلمسان . ثم نهض موسى بن عليّ ثالثة سنة إثنتين وعشرين وسبعمائة فدوّخ نواحي بجاية ونازلها أياماً وامتنعت عليه فأفرج عنها . ووفد سنة ثلاث وعشرين وسبعمائة على السلطان حمزة بن عمر بن أبي الليل كبير البدو بأفريقية صريخاً على صاحب أفريقية مولانا السلطان أبي يحيى ، فبعث معهم العساكر من زناتة وعامّتهم من بني توجين وبني راشد ، وأمّر عليهم القواد وجعلهم لنظر قائده موسى بن علي الكردي ، ففصلوا إلى أفريقية ، وخرج السلطان للقائهم ، فانهزموا بنواحي مَرْمَاجَنَّة ، وتخطّفتهم الأيدي فاستلحموا ، وقتل مسامح مولاه ، ورجع موسى بن عليّ ، فاتهمه السلطان بالادهان وكان من نكبته ما نذكره في أخباره وسرّح العساكر سنة أربع وعشرين وسبعمائة فدوّخت نواحي بجاية ، ولقيهم ابن سيّد الناس فهزموهم ، ونجا إلى البلد .

ووفد على السلطان سنة خمس وعشرين وسبعمائة مشيخة سُلَيْم حمزة بن عمر بن

أبي الليل وطالب بن مهلهل ، الغملان المتزاحمان في رياسة الكعوب . ومحمد بن مسكين من بني القوس كبراء حكيم ، فاستحثوه للحركة واستصرخوه على أفريقية ، وبعث معهم العساكر لنظر قائده موسى بن علي ونصب لهم ابراهيم بن أبي بكر الشهيد من أعياص الحفصيّين . وخرج مولانا السلطان أبو يحيى من تونس للقائهم وخشيهم على قُسَنْطِينَة فسابقهم إليها ، فأقام موسى بن عليّ بعساكره على قسنطينة ، وتقدّم ابراهيم بن أبي بكر الشهيد في أحياء سُلَيْم إلى تونس فملكها كما ذكرناه في أخبارهم . وامتنعت قسنطينة على موسى بن علي فأقلع[1] عنها لخمس عشرة ليلة من حصارها وعاد إلى تلمسان . ثم أغزاه السلطان سنة ست وعشرين وسبعمائة في الجيوش وعهد إليه بتدويخ الضاحية ومحاصرة الثغور ، فنازل قُسَنطِينَةَ وأفسد نواحيها . ثم رجع إلى بجاية فحاصرها ، ثم عزم على الإقلاع ورأى أن حصن بكر غير صالح لتجهيز الكتائب إليها لبعده ، وارتاد للبناء عليها ما هو أقرب منه ، فاختط بمكان سوق الخميس بوادي بجاية مدينة لتجهيز الكتائب لها على بجاية . وجمع الأيدي على بنائها من الفعلة والعساكر ، فتمت لأربعين يوماً وسمّوها تامزيزدكت باسم الحصن القديم الذي كان لبني عبد الواد قبل الملك بالجبل قبلة وَجْدَة ، وأنزل بها عساكر تناهز ثلاثة آلاف ، وأوعز السلطان إلى جميع عمّاله ببلاد المغرب الأوسط بنقل الحبوب إليها حيث كانت ، والأدم وسائر المرافق حتى الملح ، وأخذ الرهن من سائر القبائل على الطاعة واستوفوا جبايتهم . فثقلت وطأتهم على بجاية واشتدّ حصارها وغلت أسعارها .

(وبعث) مولانا السلطان أبو يحيى جيوشه وقوّاده سنة سبع وعشرين وسبعمائة فسلكوا إلى بجاية على جبل بني عبد الجبّار ، وخرج بهم قائدها أبو عبدالله بن سيّد الناس إلى ذلك الحصن . وقد كان موسى بن عليّ عند بلوغ خبرهم إليه استنفر الجنود من ورائه ، وبعث إلى القوّاد قبله بالبراز فالتقى الجمعان بضاحية تامز يزدكت ، فانكشف ابن سيّد الناس ومات ظافر الكبير مقدّم الموالي من العلوجين بباب السلطان واستبيح معسكرهم . ولمّا سخط السلطان قائده موسى بن عليّ ونكبه كما نذكره في أخباره أغزى يحيى بن موسى السنوسيّ في العساكر إلى أفريقية ومعه القوّاد ، فعاثوا في

---

(١) وفي نسخة ثانية : فأفرج عنها .

نواحي قُسَنْطِينَة وانتهوا إلى بلد بونة ورجعوا . وفي سنة تسع وعشرين وسبعمائة بعدها وفد حمزة بن عمر على السلطان أبي تاشفين صريخاً ، ووفد معه أو بعده عبد الحق ابن عثمان ، فحلّ الشول من بني مرين . وكان قد نزل على مولانا السلطان أبي يحيى منذ سنين ، فسخط بعض أحواله ولحق بتلمسان ، فبعث السلطان معهم جميع قوّاده بجيوشه لنظر يحيى بن موسى . ونصب عليهم محمد بن أبي بكر بن عمران من أعياص الحفصيّين ، ولقيهم مولانا السلطان أبو يحيى بالدياس[1] من نواحي بلاد هوّارة ، وانخزل عنه أحياء العرب من أولاد مهلهل الذين كانوا معه ، وانكشفت جموعه واستولى على ظعائنه بما فيها من الحرم ، وعلى ولديه أحمد وعمر ، فبعثوا بهم إلى تلمسان ، ولحق مولانا المنصور أبو يحيى بقُسَنْطِينَة وقد أصابه بعض الجراحة في حومة الحرب ، وسار يحيى بن موسى وابن أبي عمران إلى تونس ، واستولوا عليها ورجع يحيى بن موسى عنهم بجموع زناتة لأربعين يوماً من دخولها ، فقفل إلى تلمسان وبلغ الخبر إلى مولانا السلطان أبي يحيى بقفول زناتة عنهم ، فنهض إلى تونس وأجهض عنها ابن أبي عمران بعد أن كان أوفد من بجاية إبنه أبا زكريا يحيى ومعه محمد بن تافراكين من مشيخة الموحدين صريخاً على أبي تاشفين ، فكان ذلك داعية إلى انتقاض ملكه كما نذكره بعد . وداخل السلطان أبا تاشفين بعض أهل بجاية ، ودلّوه على عورتها ، واستقدموه فنهض إليها وحذر بذلك الحاجب ابن سيّد الناس فسابقه إليها ، ودخل يوم نزوله عليها ، وقتل من اتهمه بالمداخلة فانحسم الداء . وأقلع السلطان أبو تاشفين عنها ، وولّى عيسى بن مزروع من مشيخة بني عبد الواد على الجيش الذي بتامزيزدكت ، وأوعز إليه ببناء حصن أقرب إلى بجاية من تامزيزدكت فبناه بالياقونه من أعلى واد قبالة بجاية . فأخذ بمخنقها واشتدّ الحصار إلى أن أخذ السلطان أبو الحسن بحجزتهم ، فأجفلوا جميعاً إلى تلمسان ، ونفس مخنق الحصار عن بجاية . ونهض مولانا السلطان أبو يحيى بجيوشه من تونس إلى تامزيزدكت سنة إثنتين وثلاثين وسبعمائة فخرّبها في ساعة من نهار كأن لم تغن بالأمس ، حسبما ذكرنا ذلك في أخباره . والله تعالى أعلم .

(١) وفي نسخة ثانية : الرياس .

* (الخبر عن معاودة الفتنة بين بني مرين وحصارهم تلمسان ومقتل السلطان أبي تاشفين ومصائر ذلك) *

كان السلطان أبو تاشفين قد عقد السلم لأوّل دولته مع السلطان أبي سعيد ملك المغرب ، فلما انتقض عليه ابنه أبو عليّ سنة إثنتين وعشرين وسبعمائة بعد المهادنة الطويلة من لدن استبداده بسجلماسة ، بعث ابنه القعقاع إلى أبي تاشفين في الأخذ بحجزة أبيه عنه ، ونهض هو إلى مراكش فدخلها . وزحف إليه السلطان أبو سعيد فبعث أبو تاشفين قائده موسى بن عليّ في العساكر إلى نواحي تازى ، فاستباح عمل كارث ، واكتسح زروعه وقفل . واعتدّها عليه السلطان أبو سعيد ، وبعث أبو تاشفين وزيره داود بن علي بن مكن رسولاً إلى السلطان أبي عليّ بسجلماسة ، فرجع عنه مغاضباً وجنح أبو تاشفين بعدها إلى التمسّك بسلم السلطان أبي سعيد ، فعقد لهم ذلك وأقاموا عليها مدّة . فلما نفر ابن مولانا السلطان أبي يحيى على السلطان أبي سعيد ملك المغرب ، وانعقد الصهر بينهم كما ذكرناه في أخبارهم ، وهلك السلطان أبو سعيد ، نهض السلطان أبو الحسن إلى تلمسان بعد أن قدّم رسله إلى السلطان أبي تاشفين في أن يقلع بجيوشه عن حصار بجاية ، ويتجافى للموحدين عن عمل تنس[1] فأبى وأساء الردّ ، وأسمع الرسل بمجلسه هجر القول . وأفزع لهم الموالي في الشتم لمرسلهم بمسمع من أبي تاشفين ، فأحفظ ذلك السلطان أبو الحسن ونهض في جيوشه سنة إثنتين وثلاثين إلى تلمسان فتخطّاها إلى تاسالت وضرب بها معسكره ، وأطال المقام وبعث المدد إلى بجاية مع الحسن البطوي من صنائعه ، وركبوا في أساطيله من سواحل وَهْرَان ووافاهم مولانا السلطان أبو يحيى ببجاية وقد جمع لحرب بني عبد الواد وهدمَ تامز يزدكت وجاء لموعد السلطان أبي الحسن معه أن يجتمعا بعساكرهما لحصار تلمسان ، فنهض من بجاية إلى تامز يزدكت وقد أجفل منها عساكر بني عبد الواد وتركوها قفراً[2] . ولحقت بها عساكر الموحدين ، فعاثوا فيها تخريباً ونهباً . وألصقت جدرانها بالأرض وتنفّس مخنق بجاية من الحصار ، وانكمش بنو عبد الواد

(١) وفي نسخة ثانية : تدلس .

(٢) وفي نسخة ثانية : قواء .

إلى ما وراء تخومهم .

وفي خلال ذلك انتقض أبو عليّ ابن السلطان أبي سعيد على أخيه ، وصمد من مقرّه بسجلماسة إلى درعة ، وفتك بالعامل وأقام فيها دعوته كما نذكر ذلك بعد . وطار الخبر إلى السلطان أبي الحسن بمحلّته بتاسالت ، فنهض[1] راجعاً إلى المغرب لحسم دائه ، وراجع السلطان أبو تاشفين عزّه وانبسطت عساكره في ضواحي عمله ، وكتب الكتائب وبعث بها مدداً للسلطان أبي عليّ . ثم استنفر قبائل زناتة وزحف إلى تخوم المغرب سنة ثلاث وثلاثين وسبعمائة ليأخذ بحجزة السلطان أبي الحسن عن أخيه ، وانتهى إلى الثغر من تاوريرت ولقيه هناك تاشفين ابن السلطان أبي الحسن في كتيبة جهّزها أبوه معه هنالك لسدّ الثغور ، ومعه منديل بن حمامة شيخ بني تيريغين من بني مرين في قومه .فلما برزوا إليه انكشف ورجع إلى تلمسان . ولمّا تغلّب السلطان أبو الحسن على أخيه وقتله سنة أربع وثلاثين وسبعمائة جمع لغزو تلمسان وحصارها ونهض إليها سنة خمس وثلاثين وسبعمائة وقد استنفذ وسعه في الاحتفال لذلك واضطربت بها عساكره وضرب عليها سياج الأسوار وسرادقات الحفائر أطيفت[2] عليهم ، حتى لا يكاد الطيف يخلص منهم ولا إليهم . وسرّح كتائبه إلى القاصية من كل جهة ، فتغلّب على الضواحي وافتتح الأمصار جميعاً ، وخرّب وَجْدَة كما يأتي ذكر ذلك كله . وألحّ عليها بالقتال يغاديها ويراوحها ، ونصب المجانيق وانحجز بها مع السلطان أبي تاشفين زعماء زناتة من بني توجين وبني عبد الواد وكان عليهم في بعض أيامها اليوم المشهور الذي استلحمت فيه أبطالهم وهلك أمراؤهم . وذلك أنّ السلطان أبا الحسن كان يباكرهم في الاسحار فيطوف من وراء أسواره التي ضربها عليهم شوطاً يرتّب المقاتلة ويثقف الأطراف ويسدّ الفروج ويصلح الخلل ، وأبو تاشفين يبعث العيون في ارتصاد فرصه فيه ، وأطاف في بعض الأيام منتبذاً عن الجملة فكمنوا له حتى اذا سلك ما بين الجبل والبلد انقضوا عليه يحسبونها فرصة قد وجدوها ، وضايقوه حتى كاد السرعان من الناس أن يصلوا إليه ، وأحس أهل المعسكر بذلك فركبوا زرافات ووحداناً ، وركب ابناه الأميران أبو عبد الرحمن وأبو مالك جناحا عسكره ، وعقابا جحافله وتهاوت إليهم صقور بني مرين من كل جوّ ، فانكشفت عساكر البلد ورجعوا

---

(١) وفي نسخة ثانية : فنكص .

(٢) وفي نسخة ثانية : اطبقت .

القهقرى ، ثم ولّوا الأدبار منهزمين لا يلوي أحدٌ منهم على أحد ، واعترضهم مهوى الخندق فتطارحوا فيه وتهافتوا على ردمه ، فكان الهالك يومئذ بالردم أكثر من الهالك بالقتل . وهلك من بني توجين يومئذ كبير الحشم وعامل جبل وانشريس ، ومحمد بن سلامة بن علي أمير بني يَدْلِلْتِن وصاحب قلعة تاوغزوت[1] وما إليها من عملهم ، وهما ما هما في زناتة إلى أشباه لهما وأمثال استلحموا في هذه الوقعة فحط[2] هذا اليوم جناح الدولة وحطّم منها ، واستمرّت منازلة السلطان أبي الحسن إياها إلى آخر رمضان من سنة سبع وثلاثين وسبعمائة فاقتحمها يوم السابع والعشرين منه غلاباً . ولجأ السلطان أبو تاشفين إلى باب قصره في لمة من أصحابه ، ومعه ولداه عثمان ومسعود ووزيره موسى بن عليّ وعبد الحق بن عثمان بن محمد بن عبد الحق من أعياص بني مرين ، وهو الذي لحق بهم من تونس كما ذكرناه ، وسيأتي ذكره وخبره . ومعه يومئذ إبنا أخيه أبو زيّان وأبو ثابت فمانعوا دون القصر مستميتين إلى أن استلحموا ورفعت رؤسهم على عصيّ الرماح ، فطيف بها ، وغصت سكك البلد من خارجها وداخلها بالعساكر ، وكظّت أبوابها بالزحام ، حتى لقد كبّ الناس على أذقانهم وتواقعوا فوطئوا بالحوافر وتراكمت أشلاؤهم ما بين البابين حتى ضاق المذهب ما بين السقف ومسلك الباب وانطلقت الأيدي على المنازل نهباً واكتساحاً ، وخلص السلطان إلى المسجد الجامع ، واستدعى رؤساء الفتيا والشورى أبا زيد عبد الرحمن وأبا موسى عيسى إبني الإمام ، قدمهما من أعماله لمكان معتقده في أهل العلم ، فحضروه ورفعوا إليه أمر الناس وما نالهم من معرة العسكر ووعظوه فأناب ونادى مناديه برفع الأيدي عن ذلك ، فسكن الاضطراب وأقصر العيث . وانتظم السلطان أبو الحسن أمصار المغرب الأوسط وعمله إلى سائر أعماله . وتاخم الموحدين بثغوره وطمس رسم الملك لآل زيّان ومعالمه ، واستتبع زناتة عصباً تحت لوائه من بني عبد الواد وتوجين ومغراوة وأقطعهم ببلاد المغرب سهاماً أدالهم بها من تراثهم من أعمال تلمسان ، فانقرض ملك آل يغمراسن برهة من الدهر إلى أن أعاده منهم أعياص سموا إليه بعد حين عند نكبة السلطان أبي الحسن بالقيروان كما نذكره ، فأومض بارقه ، وهبّت ريحه ، والله يؤتي ملكه من يشاء .

---

(١) كذا في النسخة الباريسية وفي نسخة ثانية : تاوعزدوت .

(٢) وفي نسخة ثانية : في هذه الوقائع . فقصّ هذا اليوم .

* (الخبر عن رجال دولته وهم موسى بن علي ويحيى بن موسى ومولاه هلال وأوليتهم ومصاير أمورهم واختصاصهم بالذكر لما صار من شهرتهم وارتفاع صيتهم) *

فأمّا موسى بن علي الحاجب الهالك مع السلطان ، فأصله من قبيلة الكرد من أعاجم المشرق ، وقد أشرنا الى الخلاف في نسبهم بين الأمم . وذكر المسعودي منهم أصنافاً سمّاهم في كتابه من الشاهجان والبرسان والكيكان إلى آخرين منهم ، وأنّ مواطنهم ببلاد أذربيجان والشام والموصل ، وأنّ منهم نصارى على رأي اليعقوبية وخوارج على رأي البراءة من عثمان وعلي انتهى كلامه .

(وكان) منهم طوائف بجبل شهرزور من عراق العجم وعامّتهم يتقلّبون في الرحلة وينتجعون لسائمتهم مواقع الغيث ، ويتّخذون الخيام لسكناهم من اللبود ، وجل مكاسبهم الشاء والبقر من الأنعام ، وكانت لهم عزة وامتناع بالكثرة ورياسات ببغداد أيام تغلّب الأعاجم على الدولة واستبدادهم بالرياسة . ولما طمس ملك بني العباس وغلب التتر على بغداد سنة ست وخمسين وستمائة ، وقتل ملكهم هلاون آخر خلفاء العباسيّين ، وهو المستعصم . ثم ساروا في ممالك العراق وأعماله ، فاستولوا عليها وعبر الكثير من الكرد نهر الفرات فراراً أمام التتر لما كانوا يدينون بدين المجوسيّة وصاروا في إيالة الترك ، فاستنكف أشرافهم وبيوتاتهم من المقام تحت سلطانهم . وجاز منهم إلى المغرب عشيرتان تعرفان ببني لوين وبني بابير[1] فيمن إليهم من الأتباع ودخلوا المغرب لآخر دولة الموحّدين ونزلوا على المرتضى بمراكش فأحسن تلقيهم وأكرم مثواهم ، وأسنى لهم الجراية والأقطاع وأحلّهم بالمحل الرفيع من الدولة .

(ولما انتقض) أمر الموحدين بحدثان وصولهم صاروا إلى ملكة بني مرين ، ولحق بعضهم بيغمراسن بن زيّان ، ونزع المستنصر إلى أفريقية يومئذ بيت من بني بابير لا أعرفهم ، كان منهم محمد بن عبد العزيز المعروف بالمزوار ، صاحب مولانا السلطان أبي يحيى وآخرون غيره منهم ركان[2] من أشهر من بقي في إيالة بني مرين منهم . ثم

(١) وفي نسخة ثانية : بني تابير .
(٢) وفي نسخة ثانية : وكان .

من بني بابير علي بن حسن بن صاف وأخوه سلمان ، ومن بني لوين الخضر بن محمد ، ثم بنو حمّور ، ثم بنو بوصة . وكانت رياسة بني بابير لسلمان وعليّ ، ورياسة لوين لخضر بن محمد . وكادت تكوّن الفتنة بينهم كما كانت في مواطنهم الاولى ، فاذا اتعدوا للحرب توافت إليهم أشياعهم من تلمسان ، وكان نضالهم بالسهام وكانت القسيّ سلاحهم . وكان من أشهر الوقائع بينهم وقيعه بفاس سنة أربع وسبعين وستمائة ، جمع لها خضر رئيس بني لوين وسلمان وعليّ رئيسا بني بابير ، واقتتلوا خارج باب الفتوح . وتركهم يعقوب بن عبد الحق لشأنهم من الفتنة حياء منهم ، فلم يعرض لهم . وكان مهلك سلمان منهم بعد ذلك مرابطاً بثغر طريف عام تسعين وستمائة ، وكان لعليّ بن حسن ابنه موسى اصطفاه السلطان يوسف بن يعقوب ، وكشف له الحجاب عن داره ، وربى بين حرمه فتمكّنت له دالة سخط بسببها بعض الأحوال مما لم يرضه ، فذهب مغاضباً ودخل إلى تلمسان أيام كان يوسف بن يعقوب محاصراً لها ، فتلقّاه عثمان بن يغمراسن من التكرمة والترحيب بما يناسب محلّه من قومه ومنزلته من اصطناع السلطان . وأشار يوسف بن يعقوب على أبيه باستمالته فلقيه في حومة القتال وحادثه واعتذر له بكرامة القوم إياه ، فحضّه على الوفاء لهم ، ورجع إلى السلطان فخبّره الخبر فلم ينكر عليه . وأقام هو بتلمسان وهلك أبوه عليّ بالمغرب سنة سبع وسبعمائة .

ولما هلك عثمان بن يغمراسن بن زيّان زاده بنوه اصطناعاً ومداخلةً ، وخلطوه بأنفسهم وعقدوا له على العساكر لمحاربة أعدائهم . وولّوه الأعمال الجليلة والرتب الرفيعة من الوزارة والحجابة . ولما هلك السلطان أبو حمو وقام بأمره إبنه أبو تاشفين ، وكان هو الذي تولّى له أخذ البيعة على الناس ، وغصّ بمكانه مولاه هلال فلما استبدّ عليه وكان كثيراً ما ينافس موسى بن علي ويناقشه ، فخشيه على نفسه ، وأجمع على إجازة البحر للمرابطة بالأندلس ، فبادره هلال وتقبّض عليه وغرّبه إلى العدوة ونزل بغرناطة ، وانتظم في الغزاة المجاهدين وأمسك عن جراية السلطان فلم يمدّ إليها يداً أيام مقامه ، وكانت من أنزه ما جاء به وتحدّث به الناس فأغربوا ، واتقدت لها جوانح هلال حسداً وعداوةً ، فأغرى سلطانه فخاطب ابن الأحمر في استقدامه ، فأسلمه إليه . واستعمله السلطان في حروبه على قاصيته حتى كان من نهوضه بالعساكر إلى أفريقية للقاء مولانا السلطان أبي يحيى سنة سبع وعشرين وسبعمائة . وكانت الدبرة

عليه واستلحمت زناتة ، ورجع في الفلّ فأغرى هلال السلطان وألقى في نفسه التهمة به . ونمي ذلك إليه فلحق بالعرب الزواودة ، وعقد مكانه على محاصرة بجاية ليحيى ابن موسى صاحب شلف ، ونزل هو على سليمان ويحيى بن علي بن سبّاع بن يحيى من أمراء الزواودة في أحيائهم[1] فلقوه مبرة وتعظيماً ، وأقام بين أحيائهم مدّة ، ثم استقدمه السلطان ورجع إلى محلّه من مجلسه . ثم تقبّض عليه لأشهر ، وأشخصه إلى الجزائر فاعتقله بها وضيّق عليه محبسه ذهاباً مع أغراض منافسة هلال ، حتى إذا أسخط هلالاً استدعاه من محبسه أضيق ما كان ، فانطلق إليه . فلما تقبّض على هلال قلّد موسى بن عليّ حجابته ، فلم يزل مقيماً لرسمها إلى يوم اقتحم السلطان أبو الحسن تلمسان ، فهلك مع أبي تاشفين وبنيه في ساحة قصرهم كما قلناه . وانقضى أمره والبقاء لله .

وانتظم بنوه بعد مهلكه في جملة السلطان أبي الحسن وكان كبيرهم سعيد قد خلص من بين القتلى في تلك الملحمة بباب القصر بعد هدوّ من الليل مثخناً بالجراح ، وكانت حياته بعدها تعدّ من الغرائب ، ودخل في عفو السلطان إلى أن عادت دولة بني عبد الواد ، فكان له في سوقها نفاق حسبما نذكره والله غالب على أمره .

(وأمّا يحيى بن موسى) فأصله من بني سَنُوس إحدى بطون كومية ، ولهم ولاء في بني كمين[2] بالاصطناع والتربية . ولمّا فصل بنو كمين إلى المغرب قعدوا عنهم واتصلوا ببني يغمراسن واصطنعوهم ، ونشأ يحيى بن موسى في خدمة عثمان وبنيه واصطناعهم . (ولما كان) الحصار ولاّه أبو حمو مهمة من التطواف بالليل على الحرس بمقاعدهم من الأسوار ، وقسم القوت على المقاتلة بالمقدار ، وضبط الأبواب والتقدّم في حومة الميدان[3] ، وكان له أعوان على ذلك من خدّامه قد لزموا الكون معه في البكر والآصال . والليل والنهار ، وكان يحيى هذا منهم فعرفوا له خدمته وذهبوا إلى اصطناعه وكان من أوّل ترشيحه ترديد أبي يوسف بن يعقوب بمكانه من حصارهم : فيما يدور بينهم من المضاربة ، فكان يجلّي في ذلك ويوفي من عرض مرسله[4] ، ولما خرجوا من الحصار أربوا به على رتب الاصطناع والتنويه .

---

(١) وفي نسخة ثانية : المذكورين في أخبارهم .

(٢) وفي نسخة ثانية : بني كمي .

(٣) وفي نسخة ثانية : في حومة القتال .

(٤) وفي نسخة ثانية : ويؤتي غرض مرسله .

(ولما ملك أبو تاشفين) استعمله بشلف مستبداً بها وأذن له في اتخاذ الآلة . ثم لما عزل موسى بن علي عن حرب الموحدين وقاصية الشرق عزله به ، وكانت المرية وتنس من عمله . فلما نازل السلطان أبو الحسن تلمسان راسله بالطاعة والكون معه ، فتقبّله وجاء به[1] من مكان عمله ، فقدم عليه بمخيّمه على تلمسان ، فاختصه باقباله ورفع مجلسه من بساط ، ولم يزل عنده بتلك الحال إلى أن هلك بعد افتتاح تلمسان والله مصرّف الأقدار.

(وأمّا هلال) فأصله من سبي النصارى القطلونيّين أهداه السلطان ابن الأحمر الى عثمان بن يغمراسن ، وصار إلى السلطان أبي حمو فأعطاه إلى ولده أبي تاشفين فيما أعطاه من الموالي المعلوجين ، ونشأ عنده وتربّى ، وكان مختصًّا عنده بالراحلة والدالة ، وتولى كبر تلك الفعلة التي فعلوا بالسلطان أبي حمو. ولمّا ولي بعده ابنه أبو تاشفين ولاّه على حجابته ، وكان مهيباً فظًّا غليظاً ، فقعد مقعد الفصل ببابه وأرف للناس سطوه[2] ، وزحزح المرشّحين عن رتب المماثلة إلى التعلّق بأهدابه ، فاستولى على الأمر واستبدّ على السلطان . ثم حذر مغبة الملك وسوء العواقب ، فاستأذن السلطان في الحج وركب إليه من هُنَيْن بعض السفن اشتراها بماله وشحنها بالعديد والعدّة والأقوات والمقاتلة ، وأقام كاتبه الحاج محمد بن حواتة[3] بباب السلطان على رسم النيابة عنه ، وأقلع سنة أربع وعشرين وسبعمائة فنزل بالاسكندرية وصحب الحاج من مصرفي جملة الأمير عليهم ، ولقي في طريقه سلطان السودان من آل منسى موسى ، واستحكمت بينهما المودّة . ثم رجع بعد قضاء فرضه إلى تلمسان . فلم يجد مكانه من السلطان ولم يزل من بعد ذلك يتنكر له وهو يسايسه بالمداراة والاستجداء إلى أن سخطه ، فتقبّض عليه سنة تسع وعشرين وسبعمائة وأودعه سجنه ، فلم يزل معتقلاً إلى أن هلك من وجع أصابه قبيل فتح تلمسان ، ومهلك السلطان بأيام ، فكانت آية عجباً في تقارب مهلكهما واقتران سعادتهما ونحوسهما . وقد كان السلطان أبو الحسن يتبع الموالي الذين شهدوا مقتل السلطان أبي حمو ، وأفلت هلال هذا من عقابه بموته . والله بالغ حكمه.

---

(١) وفي نسخة ثانية : وجأجأ.

(٢) وفي نسخة ثانية : وأرهب الناس سطوته.

(٣) كذا في النسخة الباريسية وفي نسخة أخرى : حونته.

الخبر عن انتزاء عثمان بن جرار على ملك تلمسان بعد نكبة السلطان أبي الحسن بالقيروان وعود الملك بذلك لبني زيان

كان بنو جرار هؤلاء من فضائل نيدوكسن[1] بن طاع الله وهم بنو جرار بن يعلى بن نيدوكسن ، وكان بنو محمد بن زكراز يفضون إليهم من أوّل الأمر ، حتى صار الملك إليهم واستبدوا به ، فجرّوا على جميع الفصائل من عشائرهم ذيل الاحتقار . ونشأ عثمان بن يحيى بن محمد بن جرّار هذا من بينهم مرموقاً بعين التجلّة والرياسة ، وسعى عند السلطان أبي تاشفين بأن في نفسه تطاولاً للرياسة فاعتقله مدّة . وفرّ من محبسه فلحق بملك المغرب السلطان سعيد فآثر محله وأكرم منزله ، واستقرّ بمثواه فنسك وزهد . واستأذن السلطان عند تغلّبه على تلمسان في الحج بالناس فأذن له . وكان قائد الركب من المغرب إلى مكة سائر أيامه حتى استولى السلطان أبو الحسن على أعمال الموحّدين ، وحشد أهل المغرب من زناتة والعرب لدخول أفريقية اندرج عثمان هذا في جملته ، واستأذنه قبيل القيروان في الرجوع إلى المغرب فأذن له ولحق بتلمسان فنزل على أميرها من ولد الأمير أبي عنّان ، كان قد عقد له على عملها ، ورشّحه لولاية العهد بولايتها ، فازدلف إليه بما بثّه من الخبر عن أحوال أبيه ، وتلطّف فيما أودع سمعه من تورّط أبيه في مهالك أفريقية ، وإياسه من خلاصه ، ووعده بمصير الأمر إليه على ألسنة الخبراء والكهّان . وكان يظنّ فيه أنّ لديه من ذلك علماً ، وعلى تفيئة ذلك كانت نكبة السلطان أبي الحسن بالقيروان . وظهر مصداق ظنّه وإصابة قياسه فأغراه بالتوثّب على ملك أبيه بتلمسان ، والبدار إلى فاس لغلب منصور ابن أخيه أبي مالك عليها ، كان استعمله جدّه أبو الحسن هنالك وأراه آية سلطانه وشواهد ملكه ، وتحيّل عليه في إشاعة مهلك السلطان أبي الحسن والقائه على الألسنة حتى أوهم صدقه . وتصدّى الأمير أبو عنان للأمر ، وتسايل إليه الفلّ من عساكر بني مرين ، فاستلحق وبث العطاء وأعلن بابا لدعاء نفسه في ربيع سنة تسع وأربعين وسبعمائة وعسكر خارج تلمسان للنهوض إلى المغرب كما نذكره في أخبارهم ولما فصل دعا عثمان لنفسه وانتزى على كرسيه واتخذ الآلة وأعاد من ملك بني عبد الواد رسماً لم

(١) كذا في النسخة الباريسية نيدوكسن وفي نسخة أخرى : تيدوكسن .

يكن لآل جرار ، واستبدّ أشهراً قلائل إلى أن خلص إليه من آل زيان من ولد عبد الرحمن بن يحيى بن يغمراسن من طمس معالمه ، وخسف به وبداره ، وأعاد أمر بني عبد الواد في نصابه حسبما نذكره إن شاء الله تعالى والله أعلم .

* (الخبر عن دولة أبي سعيد وأبي ثابت من آل يغمراسن وما فيها من الأحداث) *

كان الأمير أبو يحيى جدّهما من أكبر ولد يغمراسن بن زيّان ، وكان ولي عهده بعد مهلك أخيه عُمر الأكبر . ولما تغلّب يغمراسن على سجلماسة سنة إحدى وستين وستمائة استعمله عليها ، فأقام بها حولاً وولد له هناك ابنه عبد الرحمن . ثم رجع إلى تلمسان فهلك بها ونشأ عبد الرحمن بسجلماسة ، ولحق بتلمسان بعد أمه[1] ، فأقام مع بني أبيه إلى أن غصّ السلطان بمكانه وغرّبه إلى الأندلس ، فمكث بها حيناً ، وهلك في مرابطته بثغر قَرْمُونَة في بعض أيام الجهاد . وكان له بنون أربعة يوسف وعثمان والزعيم وابراهيم ، فرجعوا إلى تلمسان وأوطنوها أعواماً حتى اذا استولى السلطان أبو الحسن على ملكهم ، وأضاف إلى دولته دولتهم نقلهم من تلمسان إلى المغرب في جملة أعياصهم . ثم سألوا إذنه في المرابطة بثغور الأندلس التي في عمله ، فأذن لهم وفرض لهم العطاء وأنزلهم بالجزيرة فكانت لهم بالجهاد مواقف مذكورة ومواطن معروفة . ولما استنفر السلطان أبو الحسن زناتة لغزو أفريقية سنة ثمان وأربعين وسبعمائة كانوا في جملته مع قومهم بني عبد الواد وفي رايتهم ، ومكانهم معلوم بينهم . فلما اضطرب أمر السلطان أبي الحسن وتألّب عليه الكعوب من بني سُلَيْم أعراب أفريقية ، وواضعوه الحرب بالقيروان ، كان بنو عبد الواد أوّل النازعين عنه إليهم . فكانت النكبة وانحجز بالقيروان وانطلقت أيدي الأعراب على الضواحي وانتقض المغرب من سائر أعماله ، أذنوا لبني عبد الواد في اللحاق بقطرهم ومكان عملهم ، فمروا بتونس وأقاموا بها أياماً ، وخلص الملاء منهم نجياً في شأن أمرهم ومن يقدّمون عليهم فأصفقوا بعد الشورى على عثمان بن عبد الرحمن واجتمعوا إليه لعهده بهم يومئذ ، وقد خرجوا به

---

(١) وفي نسخة ثانية : بعد أبيه .

إلى الصحراء وأجلسوه بباب مصلى العيد من تونس على درقة . ثم ازدحموا عليه بحيث توارى شخصه عن الناس ، يسلّمون عليه بالإمارة و يعطونه الصفقة على الطاعة والبيعة حتى استهلوا[1] جميعا . ثم انطلقوا به إلى رحالهم . واجتمع مغراوة أيضاً إلى أميرهم عليّ بن راشد بن محمد بن ثابت بن منديل الذي ذكرناه من قبل ، وتعاهدوا على الصحابة إلى أعمالهم والمهادنة آخر الأيام واستئثار كل بسلطانه وتراث سلفه ، وارتحلوا على تفيئة ذلك الى المغرب . وشنّت البوادي عليهم الغارات في كل وجه ، فلم يظفروا منهم بقلامة ظفر : مثل ونيفن ونونة وأهل جبل بني ثابت . ولما مرّوا ببجاية وكان بها فلّ من مغراوة وتوجين ، نزلوا بها منذ غلبوا على أعمالهم ، وصاروا في جند السلطان فارتحلوا معهم . واعترضهم بجبل الزاب برابرة زواوة ، فأوقعوا بهم وظهر من نجدتهم وبلائهم في الحروب ما هو معروف لأوليهم . ثم لحقوا بشلف فتلقّتهم قبائل مغراوة ، وبايعوا لسلطانهم عليّ بن راشد فاستوسق ملكه .

وانصرف بنو عبد الواد والأميران أبو سعيد وأبو ثابت بعد أن أحكموا العقد[2] وأبرموا الوثاق مع عليّ بن راشد وقومه . وكان في طريقهم بالبطحاء أحياء سو يد ومن معهم من أحلافهم قد نزلوا هناك مع شيخهم وترمار بن عريف ، منهزمهم من تاسالت أمام جيوش السلطان أبي عنّان فأجفلوا من هنالك ، ونزل بنو عبد الواد مكانهم ، وكان في جملتهم جماعة من بني جرار بن نيدوكسن كبيرهم عمران بن موسى ، ففرّ ابن عثمان بن يحيى بن جرار إلى تلمسان فعقد له على حرب أبي سعيد وأصحابه ، فنزل الجند الذين خرجوا معه إلى السلطان أبي سعيد . وانقلب هو الى تلمسان والقوم في أثره ، فأدرك بطريقه وقتل . ومرّ السلطان إلى البلد فثارت العامة بعثمان بن جرار فاستأمن لنفسه من السلطان فأمّنه ودخل إلى قصر الملك آخر جمادى الأخيرة من سنة تسع وأربعين وسبعمائة فاقتعد أريكته وأصدر أوامره واستوزر واستكتب ، وعقد لأخيه أبي ثابت الزعيم على ما وراء بابه من متون[3] ملكها ، وعلى القبيل والحروب ، واقتصر هو على ألقاب الملك وأسمائه ولزم الدعة . وتقبّض لأوّل دخوله على عثمان بن يحيى بن جرار فأودعه المطبق إلى أن مات في رمضان من سنته ، ويقال قتيلاً . وكان

(١) وفي نسخة ثانية : حتى استكملوا جميعاً .
(٢) وفي نسخة ثانية : العهد .
(٣) وفي نسخة ثانية : شؤون .

من أوّل غزوات السلطان أبي ثابت غزاته إلى كومية ، وذلك أن كبيرهم ابراهيم بن عبد الملك كان شيخاً عليهم منذ حين من الدهر ، وكان ينتسب في بني عابد ، وهم قوم عبد المؤمن بن عليّ من بطون كومية . فلما وقع الهرج بتلمسان حسب أنه لا ينجلي غمامه[1] وحدّثته نفسه بالانتزاء فدعا لنفسه ، وأضرم بلاد كومية وما إليها من السواحل ناراً وفتنة . فجمع له السلطان أبو ثابت ونهض إلى كومية فاستباحهم قتلاً وسبياً واقتحم هُنَيْن ، ثم ندرومة بعدها . وتقبّض على ابراهيم بن عبد الملك الخارج فجاء به معتقلاً إلى تلمسان وأودعه السجن ، فلم يزل به إلى أن قتل بعد أشهر. وكانت أمصار المغرب الأوسط وثغوره لم تزل على طاعة السلطان أبي الحسن والقيام بدعوته ، وبها حاميته وعمّاله وأقرب بها إلى تلمسان مدينة وَهْرَان ، كان بها القائد عبد بن سعيد بن جانا من صنائع بني مرين ، وقد ضبطها وثقفها وملأها أقواتاً ورجلاً وسلاحاً ، وملأ مرساها أساطيل ، فكان أوّل ما قدّموه من أعمالهم النهوض إليه فنهض السلطان أبو ثابت بعد أن جمع قبائل زناتة والعرب ونزل على وَهْرَان وحاصرها أياماً . وكان في قلوب بني راشد أحلافهم مرض فداخلوا قائد البلد في الانقضاض على السلطان أبي ثابت ووعدوه الوفاء بذلك عند المناجزة ، فبرز وناجزهم الحرب فانهزم بنو راشد وجرّوا الهزيمة على من معهم وقتل محمد بن يوسف بن عنّان بن فارس أخي يغمراسن بن زيّان من أكابر القرابة ، وانتهب المعسكر ونجا السلطان أبو ثابت إلى تلمسان إلى أن كان ما نذكره إن شاء الله تعالى .

* (الخبر عن لقاء أبي ثابت مع الناصر ابن السلطان أبي الحسن وفتح وهران بعدها) *

كان السلطان أبو الحسن بعد وقعة القيروان قد لحق بتونس ، فأقام بها والعرب محاصرون له ينصبون الأعياص من الموحّدين لطلب تونس واحداً بعد آخر كما ذكرناه في أخبارهم . وبينما هو مؤمّل الكرّة ووصول المدد من المغرب الأقصى إذ بلغه الخبر بانتثار السلك أجمع ، وبانتقاض ابنه وحافده ، ثم استيلاء بني عنّان على المغرب

(١) وفي نسخة ثانية : لا تتجلّى غيابته .

كلّه ، ورجوع بني عبد الواد ومغراوة وتوجين إلى ملكهم بالمغرب الأوسط ووفد عليه يعقوب بن علي أمير الزواودة ، فاتفق مع عريف بن يحيى ، أمير سويد وكبير مجلس السلطان ، على أن يغرياه ببعث إبنه الناصر إلى المغرب الأوسط . للدعوة التي كانت قائمة بأمصاره في الجزائر ووَهْرَان وجبل وانشريس ، وكان به نصر بن عمر بن عثمان ابن عطيّة قائماً بدعوته ، وأن يكون عريف بن يحيى في جملة الناصر لمكانه من السلطان ومكان قومه من الولاية . وكان ذلك من عريف تفادياً من المقام بتونس فأجاب إليه السلطان وبعثهم جميعاً ، ولحق الناصر ببلاد حصين فأعطوه الطاعة وارتحلوا معه ، ولقيه الـ ـاف والديالم وسويد فاجتمعوا إليه وتألّبوا معه ، وارتحلوا يريدون منداس . وبينما الأمير أبو ثابت يريد معاودة الغزو إلى وَهْرَان إذ فجاءه الخبر بذلك ، فطيّر به إلى السلطان أبي عنّان وجاءه العسكر من بني مرين مدداً صحبة أبي زيان ابن أخيه أبي سعيد ، كان مستقرّاً[1] بالمغرب منذ نهوضهم إلى القيروان وبعث عنه أبوه فجاء مع المدد من العساكر والمال ، ونهض أبو ثابت من تلمسان أوّل المحرّم سنة خمسين وسبعمائة وبعث إلى مغراوة بالخبر فقعدوا عن مناصرته ، ولحق ببلاد العطاف فلقيه الناصر هنالك في جموعه بوادي ورك آخر شهر ربيع الأوّل ، فانكشفت جموع العرب وانهزموا ، ولحق الناصر بالزاب فنزل على أبي مزني ببسكرة إلى أن أصحبه من رجالات سُلَيْم من أوصله إلى أبيه بتونس . ولحق عريف بن يحيى بالمغرب الأقصى ، واحتل عند السلطان أبي عنّان بمكانه من مجلسهم ، فحصل على البغية ورجع العرب كلّهم إلى طاعة أبي ثابت وخدمته ، واستراب بصغير بن عامر بن ابراهيم فتقبّض عليه وأشخصه معتقلاً مع البريد إلى تلمسان ، فاعتقل بها إلى أن أطلق بعد حين . وقفل أبو ثابت إلى تلمسان فتلوم بها أياماً ، ثم نهض إلى وَهْرَان في جمادى من سنته ، فحاصرها أياماً ، ثم افتتحها عنوة وعفا عن عليّ بن جانا[2] القائم بعد مهلك أخيه عبوا وعلى من معه ، وأطلق سبيلهم واستولى على ضواحي وَهْران وما إليها ، ورجع إلى تلمسان وقد استحكمت العداوة بينه وبين مغراوة ، وكان قد استجرّها ما قدّمناه من قعودهم عن نصره ، فنهض إليهم في شوّال

---

(١) وفي نسخة ثانية : مستنفراً .

(٢) وفي نسخة ثانية : علي بن أجانا .

من سنته والتقوا في عدوة وادي زهير[1] فاقتتلوا ملياً . ثم انكشفت مغراوة ولحقوا بمعاقلهم واستولى أبو ثابت على معسكرهم وملك مازونة ، وبعث ببيعتها إلى أخيه السلطان أبي سعيد . وكان على أثر ذلك وصول السلطان أبي الحسن من تونس ، كما نذكره إن شاء الله تعالى والله أعلم .

الخبر عن وصول السلطان أبي الحسن من تونس ونزوله بالجزائر وما دار بينه وبين أبي ثابت من الحروب ولحوقه بعد الهزيمة بالمغرب

كان السلطان أبو الحسن بعد واقعة القيروان طال مقامه بتونس وحصار العرب إياه ، واستدعاه أهل المغرب الأقصى وانتقض عليه أهل الجريد وبايعوا للفضل ابن مولانا السلطان أبي يحيى ، فأجمع الرحلة إلى المغرب وركب السفن من تونس أيام الفطر من سنة خمسين وسبعمائة فعصفت به الريح وأدركه الغرق ، فغرق أسطوله على ساحل بجاية ونجا بدمائه إلى بعض الجزائر هنالك ، حتى لحقه أسطول من أساطيله ، فنجا فيه إلى الجزائر وبها حمو بن يحيى بن العسري قائده وصنيعة أبيه ، فنزل عليه . وبادر إليه أهل ضاحيتها من مليكش والثعالبة ، فاستخدمهم وبثّ فيهم العطاء . واتصل خبره بونزمار بن عريف وهو في أحياء سويد ، فوفد عليه في مشيخة من قومه ، ووفد معه نصر بن عمر بن عثمان صاحب جبل وانشريس من بني تيغرين ، وعديّ بن يوسف بن زيان بن محمد بن عبد القوي الثائر بنواحي المرية من ولد عبد القوى ، فأعطوه الطاعة واستحثوه للخروج معهم ، فردّهم للحشد ، فجمعوا من إليهم من قبائل العرب وزناتة . وبينما الأمير أبو ثابت ببلاد مغراوة محاصراً لهم في معاقلهم إذ بلغه الخبر بذلك في ربيع سنة إحدى وخمسين وسبعمائة فعقد السلم معهم ورجع إلى قتال هؤلاء ، فأخذ على منداس وخرج إلى السرسو قبلة وانشريس . وأجفل أمامه ونزمار وجموع العرب الذين معه ، ولحق به هنالك مدد السلطان أبي عنان قائدهم يحيى بن رحو بن تاشفين بن معطى ، فاتبع آثار العرب وشرّدهم . ولحقت أحياء حصين بمعاقلهم من جبل تيطرى ، ثم عطف على المرية ففتحها وعقد

(١) وفي نسخة ثانية : وادي رهيو.

عليها لعمر بن موسى الجلولي من صنائعهم . ثم نهض إلى حُصَين فاقتحم عليهم الجبل فلاذوا بالطاعة وأعطوا أبناءهم رهناً عليها ، فتجاوزهم إلى وطاء حمزة فدوّخها ، واستخدم قبائلها من العرب والبربر ، والسلطان أثناء ذلك مقيم بالجزائر . ثم قفل أبو ثابت إلى تلمسان وقد كان استراب بيحيى بن رحو وعسكره من بني مرين . وأنهم داخلوا السلطان أبا الحسن وبعث فيه إلى السلطان أبي عنّان ، فأداله بعيسى بن سليمان بن منصور بن عبد الواحد بن يعقوب فبعثه قائداً على الحصة المرينية ، فتقبّض على يحيى بن رحو ولحقوا مع أبي ثابت بتلمسان . ثم أجاز إلى المغرب وأوعز السلطان أبو الحسن إلى ابنه الناصر مع أوليائه من زناتة والعرب فاستولى على المرية وقتل عثمان بن موسى الجلولي . ثم تقدّم إلى مليانة فملكها ، وإلى تيمزوغت كذلك . وجاء على أثره السلطان أبو الحسن أبوه ، وقد اجتمعت إليه الجموع من زغبة ومن زناتة ومن عرب أفريقية سُلَيْم ورِيَاح مثل : محمد بن طالب بن مهلهل ، ورجال من عشيرته ، وعمر بن عليّ بن أحمد الزواودي ، وأخيه أبي دينار ، ورجالات من قومها . وزحف على هذه التعبية وابنه الناصر أمامه ، فأجفل عليه بن راشد وقومه مغراوة عن بلادهم إلى البطحاء ، وطيّر الخبر إلى أبي ثابت فوافاه في قومه وحشوده ، وزحفوا جميعاً إلى السلطان أبي الحسن وقومه ، فالتقى الجمعان بتيمغزين من شلف . وصابروا مليا ، ثم انكشف السلطان أبو الحسن وقومه ، وطعن ولده الناصر بعض فرسان مغراوة وهلك آخر يومه . وقتل محمد بن عليّ بن العربي قائد أساطيله وابن البواق والقبائلي كاتباه . واستبيح معسكره وما فيه من متاع وحرم ، وخلص بناته إلى وانشريس ، وبعث بهن أبو ثابت إلى السلطان أبي عنّان بعد استيلائه على الجبل . وخلص السلطان أبو الحسن إلى أحياء سويد ، بالصحراء فنجا به ونزمار بن عريف إلى سجلماسة كما يأتي ذكره في أخباره ، ودوّخ أبو ثابت بلاد بني توجين وقفل إلى تلمسان والله تعالى أعلم .

الخبر عن حروبهم مع مغراوة واستيلاء أبي ثابت على بلادهم ثم على الجزائر ومقتل عليّ بن راشد بتنس على أثر ذلك

كان بين هذين الحيّين من عبد الواد ومعراوة فتن قديمة سائر أيامهم ، قد ذكرنا الكثير

منها في أخبارهم . وكان بنو عبد الواد قد غلبوهم على أوطانهم حتى قتل راشد بن محمد في جلائه أمامهم بين زواوة . ولما اجتمعوا بعد نكبة القيروان على أميرهم علي بن راشد وجاؤه من أفريقية إلى أوطانهم مع بني عبد الواد ، ولم يطيعوهم حينئذ أن يغلبوهم رجعوا حينئذ إلى توثيق العهد وتأكيد العقد[1] فأبرموه وقاموا على الموادعة والتظاهر على عدوهم ، وعروق الفتنة تنبسط من كل منهم[2] . ولما جاء الناصر من أفريقية وزحف إليه أبو ثابت ، قعد عنه علي بن راشد وقومه ، فاعتدّها عليهم وأسرّها في نفسه . ثم اجتمع بعد ذلك للقاء السلطان أبي الحسن حتى انهزم ومضى إلى المغرب . فلما رأى أبو ثابت أنه قد كفى عدوّه الأكبر وفرغ إلى عدوّه الأصغر نظر في الانتقاض عليهم . فبينما هو يروم أسباب ذلك إذ بلغه الخبر أنّ بعض رجالات بني كمين[3] من مغراوة جاء إلى تلمسان فاغتالوه فحمى له أنفه وأجمع لحربهم . وخرج من تلمسان فاتحة إثنتين وخمسين وسبعمائة وبعث في أحياء زغبة من بني عامر وسويد ، فجاؤه بفارسهم وراجلهم وظعائنهم ، وزحف إلى مغراوة فخافوا من لقائه ، وتحصّنوا بالجبل المطل على تنس ، فحاصرهم فيه أياماً اتصلت فيها الحروب وتعدّدت الوقائع . ثم ارتحل عنهم فجال في نواحي البلد ، ودوّخ أقطارها ، وأطاعته مليانة والمرية وبرشك وشرشال . ثم تقدّم بجموعه إلى الجزائر فأحاط بها وفيها فلّ بني مرين وعبدالله بن السلطان أبي الحسن ، تركه هناك صغيراً في كفالة علي بن سعيد ابن جانا ، فغلبهم على البلد وأشخصهم في البحر إلى المغرب ، وأطاعته الثعالبة ومليكش وقبائل حُصَيْن . وعقد على الجزائر لسعيد بن موسى بن علي الكردي ، ورجع الى مغراوة فحاصرهم بمعقلهم الأوّل بعد أن انصرفت العرب إلى مشاتيها ، فاشتدّ الحصار على مغراوة وأصاب مواشيهم العطش ، فانحطت دفعة واحدة من الجبل تطلب المورد فأصابهم الدهش . ونجا ساعتئذ عليّ بن راشد إلى تنس ، فأحاط به أبو ثابت أياماً . ثم اقتحمها عليه غلاباً منتصف شعبان من سنته ، فاستعجل المنية وتحامل على نفسه فذبح نفسه ، وافترقت مغراوة من بعده وصارت أوزاعاً في القبائل

---

(1) وفي نسخة بولاق المصرية : توثيق العقد وتأكيد العهد .

(2) وفي نسخة أخرى : تنبض في كل منهم

(3) وفي نسخة أخرى : بني كمي .

وقفل أبو ثابت إلى تلمسان إلى أن كان من حركة السلطان أبي عنّان ما نذكره إن شاء الله تعالى .

الخبر عن استيلاء السلطان أبي عنان على تلمسان وانقراض أمر بني عبد الواد ثانية

لما لحق السلطان أبو الحسن بالمغرب ، وكان من شأنه مع ابنه أبي عنّان إلى أن هلك بـجبل هنتاتة على ما نذكره في أخبارهم . فاستوسق ملك المغرب للسلطان أبي عنّان وفرغ لعدوّه وسما لاسترجاع الممالك التي ابتزّها أبوه وانتزعها ممن توثّب عليه ، وكان قد بعث إليه عليّ بن راشد من مكان امتناعه من جبل تنس يسأل منه الشفاعة ، ونذر بذلك أبو سعيد وأخوه ، فخرج أبو ثابت وحشد القبائل من زناتة والعرب منتصف ذي القعدة ، ونزل بوادي شلف . واجتمع الناس إليه وواصلته هناك بيعة تدلس في ربيع من سنة ثلاث وخمسين وسبعمائة . غلب عليها الموحدون جانا الخراساني[1] من صنائعه ، وبلغه من مكانه ذلك زحف السلطان أبي عنّان فرجع إلى تلمسان ، ثم خرج إلى المغرب . وجاء على أثره أخوه السلطان أبو سعيد في العساكر من زناتة ومعه بنو عامر من زغبة والفل من سويد ، إذ كان جمهورهم قد لحقوا بالمغرب لمكان عريف بن يحيى وابنه من ولاية بني مرين ، فزحفوا على هذه التعبية وزحف السلطان أبو عنّان في أمم المغرب من زناتة والعرب المعقل والمصامدة وسائر طبقات الجنود والحشد ، وانتهوا جميعاً إلى انكاد من بسيط وَجْدَة ، فكان اللقاء هنالك آخر ربيع الثاني من سنة ثلاث وخمسين وسبعمائة واجتمع بنو عبد الواد على صدمة العساكر وقت القائلة ، وبعد ضرب الأبنية وسقاء الركاب وافتراق أهل المعسكر في حاجاتهم ، فأعجلوهم عن ترتيب المصاف . وركب السلطان أبو الحسن لتلافي الأمر ، فاجتمع إليه أوشاب من الناس وانفض[2] سائر المعسكر ثم زحف إليهم فيمن حضره وصدقوهم القتال ، فاختلّ مصافهم ومنحوا أكتافهم وخاضوا بـحر الظلماء . واتبع بنو مرين آثارهم وتقبّض على أبي سعيد ليلتئذ مقيداً أسيراً إلى السلطان أبي

---

(١) وفي نسخة أخرى : غلب عليها الموحدين جابر الخراساني .
(٢) وفي نسخة بولاق المصرية : وانتقض .

عنّان ، فأحضره بمشهد الملأ ووبخه . ثم نقل إلى محبسه وقتل لتاسعة من ليالي اعتقاله . وارتحل السلطان أبو عنّان إلى تلمسان ، ونجا الزعيم أبو ثابت بمن معه من فلّ بني عبد الواد ومن خلص إليه منهم ذاهباً إلى بجاية ليجد في إيالة الموحدين وليجة من عدوه ، فبيّته زواوة في طريقه وألدّ عن أصحابه وأرجل عن فرسه[1] وذهب راجلاً عارياً ومعه رفقاء من قومه منهم أبو زيّان محمد ابن أخيه السلطان أبي سعيد ، وأبو حمو وموسى ابن أخيهم يوسف ابن أخيه ، ووزيرهم يحيى بن داود بن فكن[2] وكان السلطان أبو عنان أوعز إلى صاحب بجاية يومئذ المولى أبي عبيدالله حافد مولانا السلطان أبي بكر بأن يأخذ عليهم الطرق ، ويذكي في طلبهم العيون ، فعثر عليهم بساحة البلد وتقبّض على الأمير أبي ثابت الزعيم وابن أخيه محمد بن أبي سعيد ووزيرهم يحيى بن داود وأدخلوا إلى بجاية . ثم خرج صاحبها الأمير أبو عبدالله إلى لقاء السلطان أبي عنّان ، واقتادهم في قبضة أسره فلقيه بمعسكره من ظاهر المرية[3] ، فأكرم وفادته وشكر صنيعه ، وانكفأ راجعاً إلى تلمسان فدخلها في يوم مشهود . وحمل يومئذ أبو ثابت ووزيره يحيى على جملين يتهاديان بهما بين سماطي ذلك المحمل ، فكان شأنهما عجباً . ثم سيقا ثاني يومهما الى مصرعهما بصحراء البلد ، فقتلا قعصاً بالرماح وانقرض ملك آل زيّان ، وذهب ما أعاده لهم بنو عبد الرحمن هؤلاء من الدولة بتلمسان إلى أن كانت لهم الكرّة الثالثة على يد أبي حمو موسى بن يوسف بن عبد الرحمن المتولّيها لهذ العهد على ما سنذكره ونستوفي من أخباره إن شاء الله تعالى .

الخبر عن دولة السلطان أبى حمو الأخير مديل الدولة بتلمسان في الكرّة الثالثة لقومه وشرح ما كان فيها من الأحداث لهذا العهد

كان يوسف بن عبد الرحمن هذا في إيالة أخيه السلطان أبي سعيد بتلمسان هو

(1) وفي نسخة بولاق المصرية : فبيتته زواوة في طريقه ، وأبعد عن صحبه وأرجل عن فرسه .

(2) وفي نسخة ثانية : مكن .

(3) وفي نسخة ثانية : المدية .

أخوه[1] أبو حمو موسى ، وكان متكاسلاً عن طلب الظهور ، متجافياً عن التهالك في طلب العزّ جانحاً إلى السكون ومذاهب أهل الخير ، حتى إذا عصفت بدولتهم رياح بني مرين ، وتغلّب السلطان أبو عنان عليهم وابتزّهم ما كان بيدهم من الملك ، وخلص ابنه أبو حمو موسى مع عمه أبي ثابت إلى الشرق ، وقذفت النوى بيوسف مع أشراف قومه إلى المغرب فاستقرّ به . ولما تقبّض على أبي ثابت بوطن بجاية أغفل أمر أبي حمو من بينهم ونبت عنه العيون ، فنجا إلى تونس ونزل بها على الحاجب أبي محمد بن تافراكين ، فأكرم نزله وأحلّه بمكان أعياص الملك من مجلس سلطانه ، ووفرّ جرايته ، ونظم معه آخرين من فل قومه ، وأوعز السلطان أبو عنان إليه بإزعاجهم عن قرارهم في دولته ، فحمى لها أنفه وأبى عن الهضيمة لسلطانه ، فأغرى ذلك أبا عنّان بمطالبته ، وكانت حركته إلى بلاد أفريقية ومنابذة العرب من رياح وسُلَيْم لعهده ونقضهم لطاعته كما نستوفي أخباره .

ولما كانت سنة تسع وخمسين وسبعمائة قبل مهلكه اجتمع أمر الزواودة من رياح إلى الحاجب أبي محمد بن تافراكين ، ورغّبوه في لحاق أبي حمو موسى بن يوسف بالعرب من زغبة ، وأنهم ركابه لذلك ليجلب على نواحي تلمسان ، ويجعل السلطان أبي عنّان شغلاً عنهم . وسألوه أن يجهّز عليه بعض آلة السلطان . ووافق ذلك رغبة صغير بن عامر أمير زغبة في هذا الشأن ، وكان يومئذ في أحياء يعقوب بن عليّ وجواره ، فأصلح الموحدون شأنه بما قدروا عليه ودفعوه إلى مصاحبة صغير وقومه من بني عامر ، وارتحل معهم من الزواودة عثمان بن سبّاع ومن أحلافهم بنو سعيد دعّار بن عيسى بن رحاب وقومه ونهضوا بجموعهم يريدون تلمسان وأخذوا على القفر ولقيهم أثناء طريقهم الخبر عن مهلك السلطان أبي عنّان فقويت عزائمهم على ارتجاع ملكهم ، ورجع عنهم صولة بن يعقوب . وأغذّ السير إلى تلمسان وبها الكتائب المجمهرة من بني مرين ، واتصل خبر أبي حمو بالوزير الحسن بن عمر القائم بالدولة من بعد مهلك السلطان أبي عنّان ، والمتغلّب على ولده السعيد من بعده ، فجهّز المدد إلى تلمسان من الحامية والأموال ، ونهض أولياء الدولة من أولاد عريف بن يحيى أمراء البدو من المغرب في قومهم من سويد ومن إليهم من العرب لموافقة

[1] وفي نسخة ثانية : هو وولده أبو حمو.

السلطان أبي حمو وأشياعه ، فانفضّ جمعهم وغلبوا على تلك المواطن واحتل السلطان أبو حمو وجموعه بساحة تلمسان ، وأناخوا ركابهم عليها ، ونازلوها ثلاثاً ، ثم اقتحموها في صبيحة الرابع ، وخرج ابن السلطان أبي عنان الذي كان أميراً عليها في لمّة من قومه ، فنزل على صغير بن عامر أمير القوم ، فأحسن تجلّته وأصحبه من عشيرته إلى حضرة أخيه[1] ، ودخل السلطان أبو حمو تلمسان لثمان خلون من الربيع الأوّل سنة ستين وسبعمائة واحتلّ منها بقصر ملكه ، واقتعد أريكته ، وبويع بيعة الخلافة ، ورجع إلى النظر في تمهيد قواعد ملكه واخراج بني مرين من أمصار مملكته . والله أعلم .

* (الخبر عن اجفال أبي حمو عن تلمسان أمام عساكر المغرب ثم عوده إليها) *

كان القائم بأمر المغرب بعد السلطان أبي عنّان وزيره الحسن بن عمر كافل ابنه السعيد الذي أخذ له البيعة على الناس ، فاستبدّ عليه وملك أمره ، وجرى على سياسة السلطان الهالك واقتفى أثره في الممالك الدانية والقاصية في الحماية والنظر لهم وعليهم . ولما اتصل به خبر تلمسان وتغلّب أبي حمو عليها قام في ركائبه وشاور الملأ في النهوض إليه ، فأشاروا عليه بالقعود وتسريح الجنود والعساكر ، فسرّح لها ابن عمّه مسعود بن رحّو بن علي بن عيسى بن ماساي بن فودود[2] وحكمه في اختيار الرجال واستجادة السلاح وبذل الأموال واتخاذ الآلة ، فزحف إلى تلمسان واتصل الخبر بالسلطان أبي حمّو وأشياعه من بني عامر ، فأفرج عنها ولحق بالصحراء . ودخل الوزير مسعود بن رحّو تلمسان وخالفه السلطان أبي حمو إلى المغرب ، فنزل بسيط أنكاد . وسرّح إليهم الوزير مسعود بن رحّو ابن عمه عامر بن عبد بن ماساي في عسكر من كتائبه ووجوه قومه ، فأوقع بهم العرب وأبو حمّو ومن معهم واستباحوهم . وطار الخبر إلى تلمسان واختلفت أهواء من كان بها من بني مرين ، وبدا ما كان في قلوبهم من المرض لتغلّب الحسن بن عمر على سلطانهم ، ودولتهم فتحيّزوا زرافات

(١) وفي نسخة ثانية : ابيه .

(٢) وفي نسخة ثانية : فردود .

لمبايعة بعض الأعياص من آل عبد الحق . وفطن الوزير مسعود بن رحّو لما دبّروه ، وكان في قلبه مرض من ذلك فاغتنمها وبايع لمنصور بن سليمان بن منصور بن عبد الواحد بن يعقوب بن عبد الحق كبير الأعياص المنفرد بالتجلّة . وارتحل به وبقومه من بني مرين إلى المغرب ، وتجافى عن تلمسان وشأنها واعترضه عرب المعقل في طريقهم إلى المغرب ، فأوقع بهم بنو مرين وصمّموا لصليهم ، ورجع السلطان أبو حمّو إلى تلمسان ، واستقرّ بحضرته ودار ملكه ، ولحق به عبدالله بن مسلم فاستوزره وأسام إليه فاشتدّ به أزره وغلب على دولته كما نذكره إلى أن هلك ، والبقاء لله وحده .

الخبر عن مقدم عبدالله بن مسلم من مكان عمله بدرعة ونزوله من ايالة بني مرين إلى أبّي حمو وتقليده إياه الوزارة وذكر أوليته ومصاير أموره

كان عبدالله بن مسلم من وجوه بني زردال من بني بادين إخوة بني عبد الواد وتوجين ومصاب ، إلا أن بني زردال أندرجوا في بني عبد الواد لقلّتهم واختلطوا بنسبهم ، ونشأ عبدالله بن مسلم في كفالة موسى بن علي لعهد السلطان أبي تاشفين مشهوراً بالبسالة والإقدام ، طار له بها ذكر وحسن بلاؤه في حصار تلمسان . ولما تغلّب السلطان أبو الحسن على بني عبد الواد وابتزهم ملكهم استخدمهم ، وكان ينتقي أولي الشجاعة والإقدام منهم ، فيرمي بهم ثغور المغرب ، ولما اعترض بنو عبد الواد ومرّ به عبدالله هذا ذكر له شأنه ونعت ببأسه ، فبعثه إلى درعة واستوصى عامله به ، فكان له عنه غناء في مواقفه مع خوارج العرب وبلاء حسن ، جذب ذلك بضبعه ، ورقى عند السلطان منزلته ، وعرّفه على قومه .

ولما كانت نكبة السلطان أبي الحسن بالقيروان ومرج أمر المغرب ، وتوثّب أبو عنّان على الأمر ، وبويع بتلمسان واستجمع حافده منصور بن أبي مالك عبد الواحد لمدافعته ، وحشد حامية الثغور للقائه ، وانفضّت جموعه بتازى وخلص إلى البلد الجديد ونازله ، وكان عبدالله بن مسلم في جملته . ولما نازله السلطان أبو عنّان واتصلت الحرب بينهم أياماً ، كان له فيها ذكر . ولما رأى أنه أحيط بهم ، سابق لناس إلى السلطان أبي عنّان فرأى سابقيته وقلّده عمل درعة ، فاضطلع بها مدّة

خلافته وتأكدت له أيام ولايته مع عرب المعقل وصلة وعهد ضرب بهما في مواخاتهم بسهم . وكان السلطان أبو عنّان عند خروج أخيه أبي الفضل عليه لحقه بجبل ابن حميدي من معاقل درعة ، أوعز إليه بأن يعمل الحيلة في القبض عليه ، فداخل ابن حميدي ووعده وبذل له فأجاب وأسلمه . وقاده عبدالله بن مسلم أسيراً إلى أخيه السلطان أبي عنّان فقتله . ولما استولى السلطان أبو سالم رفيق أبي الفضل في منوى اغترابهما بالأندلس على بلاد المغرب من بعد مهلك السلطان أبي عنّان ، وما كان أثره من الخطوب ، وذلك آخر سنة ستين وسبعمائة خشيه ابن مسلم على نفسه ، ففارق ولايته ومكان عمله وداخل أولاد حسين أمراء المعقل في النجاة به إلى تلمسان فأجابوه ، ولحق بالسلطان أبي حمو في ثروة من المال وعصبة من العشيرة وأولياء من العرب ، فسرّ بمقدمه وقلّده لحينه وزارته وشدّ به أواخي سلطانه ، وفوّض إليه تدبير ملكه ، فاستقام أمره وجمع القلوب على طاعته وجاء بالمعقل من مواطنهم الغريبة ، فأقبلوا عليه وعكفوا على خدمته . وأقطعهم مواطن تلمسان وآخى بينهم وبين زغبة ، فعلا كعبه واستفحل أمره ، واستقامت رياسته إلى أن كان من أمره ما نذكره إن شاء الله تعالى والله تعالى أعلم .

الخبر عن استيلاء السلطان أبي سالم على تلمسان ورجوعه الى المغرب بعد أن ولى عليها أبو زيّان حافد السلطان أبي تاشفين وما آل أمره

لما استوسق للسلطان أبي سالم ملك المغرب ومحا أثر الخوارج على الدولة ، سما إلى امتداد ظلّه إلى أقصى تخوم زناتة كما كان لأبيه وأخيه ، وحركه إلى ذلك ما كان من فرار عبدالله بن مسلم إلى تلمسان بحيالة[1] عمله ، فأجمع أمره على النهوض إلى تلمسان وعسكر بظاهر فاس منتصف إحدى وستين وسبعمائة وبعث في الحشود فتوافت ببابه واكتملت . ثم ارتحل إليها ، وبلغ الخبر الى السلطان أبي حمو ووزيره عبدالله ابن مسلم فنادوا في العرب من زغبة والمعقل كافة فأجابوهم إلاّ شرذمة قليلة من

(١) وفي نسخة ثانية : بجباية .

الأحلاف ، وخرجوا بهم إلى الصحراء ونازل حللهم بعسكره . ولما دخل السلطان أبو سالم وبنو مرين تلمسان خالفوهم إلى المغرب فنازلوا وَطَاط وبلاد مَلَوِيّة وكَرْسِيف ، وحطّموا زروعها وانتسفوا أقواتها وخرّبوا عمرانها . وبلغ السلطان أبا سالم ما كان من صنيعهم ، فأهمّه أمر المغرب وأجلاب المفسدين عليه . وكان في جملته من آل يغمراسن محمد بن عثمان ابن السلطان أبي تاشفين ويكنى بأبي زيّان ، ويعرف بالفنز[1] ومعناه العظيم الرأس فدفعه للأمر وأعطاه الآلة وكتب له كتيبة من توجين ومغراوة كانوا في جملته ، ودفع إليه أعطياتهم وأنزله بقصر أبيه بتلمسان وانكفأ راجعاً إلى حضرته ، فأجفلت العرب والسلطان أبو حمو أمامه وخالفوه إلى تلمسان فأجفل عنها أبو زيان وتحيّز إلى بني مرين بأمصار الشرق من البطحاء ومليانة ووَهْرَان وأوليائهم من بني توجين وسويد من قبائل زغبة ودخل السلطان أبو حمو ووزيره عبدالله بن مسلم إلى تلمسان ، وكان مقير[2] بن عامر هلك في مذهبهم ذلك . ثم خرجوا فيمن إليهم من كافة عرب المعقل وزغبة في أتباع أبي زيّان ونازلوه بجبل وانشريس فيمن معه إلى أن غلبوا عليه وانفضّ جمعه ، ولحق بمكانه من إيالة بني مرين بفاس . ورجع السلطان أبو حمو إلى معاقل وطنه يستنقذها من ملكة بني مرين ، فافتتح كثيرها وغلب على مليانة والبطحاء . ثم نهض إلى وهران ونازلها أياما واقتحمها غلاباً ، واستلحم بها من بني مرين عدداً . ثم غلب على المرية والجزائر ، وأزعج عنها بني مرين فلحقوا بأوطانهم . وبعث رسله إلى السلطان أبي سالم فعقد معه المهادنة[3] ووضعوا أوزار الحرب . ثم كان مهلك السلطان أبي سالم سنة إثنتين وستين وسبعمائة ، وقام بالأمر من بعده عمر بن عبدالله بن علي من أبناء وزرائهم مبايعاً لولد السلطان أبي الحسن واحداً بعد آخر كما نذكره عند ذكر أخبارهم إن شاء الله تعالى .

الخبر عن قدوم أبي زيان ابن السلطان أبي سعيد من المغرب لطلب ملكه وما كان من أحواله

كان أبو زيّان هذا ، وهو محمد ابن السلطان أبي سعيد عثمان بن عبد

(١) وفي نسخة أخرى : القبي وفي نسخة ثانية الفتى .
(٢) وفي نسخة أخرى : صغير .
(٣) وفي نسخة أخرى : السلم .

الرحمن بن يحيى بن يغمراسن ، لما تقبّض عليه مع عمه أبي ثابت ووزيرهم يحيى بن داود بجايــــة من أعمال الموحّـــدين ، وسيقوا إلى السلطــان أبي عنّــان ، فقتــل أبــا ثــابت ووزيره واستبقى محمداً هــذا وأودعه السجن سائر أيامه ، حتى إذا هلك واستوسق أمر المغرب لأخيه أبي سالم من بعد خطوب وأهوال يأتي ذكرها ، امتنّ عليه السلطان أبو سالم وأطلقه من الاعتقال ونظمه بمجلس ملكه في مراتب الأعياص وأعدّه لمزاحمة ابن عمه . وجرت بينه وبين السلطان أبي حمو سنة إثنتين وستين وسبعمائة بين يدي مهلكه نكراء بعد مرجعه من تلمسان ، ومرجع أبي زيّان حافد السلطان أبي تاشفين من بعده ، تحقق السعي فيما نصبه له ، فسما له أمل في أبي زيّان هذا أن يستأثر بملك أبيه ، ورأى أن يحسن الصنيع فيه فيكون فيئة له ، فأعطاه الآلة ونصبه للملك ، وبعثه إلى وطن تلمسان ، وأتى إلى تازي ولحقه هنالك الخبر بمهلك السلطان أبي سالم . ثم كانت فتن وأحداث نذكرها في محلّها وأجلب عبد الحليم ابن السلطان أبي علي ابن السلطان أبي سعيد بن يعقوب بن عبد الحق على فاس ، واجتمع إليه بنو مرين ونازلوا البلد الجديد . ثم انفضّ جمعهم ولحق عبد الحليم بتازى كما نذكره في موضعه إن شاء الله تعالى . ورجا من السلطان أبي حموّ المظاهرة على أمره فراسله في ذلك واشترط عليه كبح ابن عمه أبي زيّان فاعتقله مرضاة له ، ثم ارتحل إلى سجلماسة كما نذكره بعد ونازله في طريقه أولاد حسين من المعقل بحللهم وأحيائهم فاستغفل أبو زيان ذات يوم الموكّلين به ، ووثب على فرس قائم حذاءه وركضه من معسكر عبد الحليم إلى حلّة أولاد حسين مستجيراً بهم ، فأجاروه . ولحق ببني عامر على حين غفلة ، وجفوة كانت بين السلطان أبي حمو وبين خالد بن عامر أميرهم ذهب لها مغاضباً ، فأجلب به على تلمسان . وسرّح إليهم السلطان أبو حمو عسكراً فشرّدهم عن تلمسان . ثم بذل المال لخالد بن عامر على أن يقصيه إلى بلاد رياح ، ففعل وأوصله إلى الزواودة فأقام فيهم . ثم دعاه أبو الليل بن موسى شيخ بني يزيد وصاحب وطن حمزة وبني حسن وما إليه ، ونصبه للأمر مشاقة[1] وعناداً للسلطان أبي حمو . ونهض إليه الوزير عبدالله بن مسلم في عساكر بني عبد الواد وحشود العرب وزناتة فأيقن أبو الليل بالغلب

(١) وفي نسخة ثانية : مشافهة .

وبذل له الوزير المال وشرط له التجافي عن وطنه على أن يرجع عن طاعة أبي زيّان ففعل ، وانصرف إلى بجاية ونزل بها على المولى أبي اسحق ابن مولانا السلطان أبي يحيى أكرم نزل ، ثم وقعت المراسلة بينه وبين السلطان أبي حمو وتمت المهادنة وانعقد السلم على إقصاء أبي زيان عن بجاية المتاخمة لوطنه ، فارتحل إلى حضرة تونس . وتلقّاه الحاجب أبو محمد بن تافراكين ، قيوم دولة الحفصيّين لذلك العهد من المبرّة والترحيب واسناء الجراية له ، وترفيع المنزلة بما لم يعهد لمثله من الأعياص . ثم لم تزل حاله على ذلك إلى أن كان من أمره ما نذكره ان شاء الله تعالى .

الخبر عن قدوم أبي زيّان حافد السلطان أبي تاشفين ثانية من المغرب الى تلمسان لطلب ملكها وما كان من أحواله

كان العرب من سويد إحدى بطون زغبة فيئة لبني مرين وشيعة من عهد عريف بن يحيى مع السلطان أبي الحسن وابنه أبي عنّان ، فكانوا عند بني عبد الواد في عداد عدوّهم من بني مرين مع طاغية[1] الدولة لبني عامر أقتالهم ، فكانوا منابذين لبني عبد الواد آخر الأيام ، وكان كبيرهم ونزمار بن عريف أوطن كَرْسِف في جوار بني مرين ، مذ مهلك السلطان أبي عنّان ، وكان مرموقاً بعين التجلّة يرجعون إلى رأيه ويستمعون إلى قوله . وأهمه شأن إخوانه في موطنهم ومع أقتالهم بني عامر ، فاعتزم على نقض الدولة من قواعدها ، وحمل صاحب المغرب عمر بن عبدالله على أن يسرّح محمد بن عثمان حافد أبي تاشفين لمعاودة الطلب لملكه ، ووافق ذلك نفرة استحكمت بين السلطان أبي حمو وأحمد بن رحّو بن غانم كبير أولاد حسن من المعقل بعد أن كانوا فيئة له ولوزيره عبدالله بن مسلم ، فاغتنمها عمر بن عبدالله وخرج أبو زيّان محمد بن عثمان سنة خمس وستين وسبعمائة فنزل في حلل المعقل بملوية . ثم نهضوا به إلى وطن تلمسان وارتاب السلطان أبو حمو بخالد بن عمر أمير بني عامر فتقبّض عليه وأودعه المطبق[2] ، ثم سرّح وزيره عبدالله بن مسلم في عساكر بني عبد الواد

(١) وفي نسخة ثانية : صاغية .
(٢) سجن تحت الأرض .

والعرب ، فأحسن دفاعهم وانفضّت جموعهم ورحلهم إلى ناحية الشرق ، وهو في اتباعهم إلى أن نزلوا المسيلة من وطن رياح ، وصاروا في جوار الزواودة . ثم نزل بالوزير عبدالله بن مسلم داء الطاعون الذي عاود أهل العمران عامئذ من بعدما أهلكهم سنة تسع وأربعين وسبعمائة قبلها ، فانكفأ به ولده وعشيرته راجعين ، وهلك في طريقه وأرسلوا شلوه إلى تلمسان فدفن بها . وخرج السلطان أبو حمو إلى مدافعة عدوّه وقد فتّ مهلك عبدالله في عضده . ولما انتهى إلى البطحاء وعسكر بها ، ناجزته جموع السلطان أبي زيان الحرب وأطلت راياته على المعسكر فداخلهم الرعب وانفضوا ، وأعجلهم الأمر عن أبنيتهم وأزوادهم ، فتركوها وانفضّوا وتسلّل أبو حمو يبغي النجاة إلى تلمسان واضطرب أبو زيّان فسطاطه بمكان معسكره ، وسابقه أحمد بن رحّو أمير المعقل إلى منجاته فلحقه بسيك وكرّ إليه السلطان أبو حمّو فيمن معه من خاصّته ، وصدقوه الدفاع فكبا به فرسه وقطع رأسه . ولحق السلطان أبو حمو بحضرته وارتحل أبو زيان والعرب في اتباعه إلى أن نازلوه بتلمسان أياماً . وحدثت المنافسة بين أهل المعقل وزغبة ، واسف زغبة استبداد المعقل عليهم وانفراد أولاد حسين برأي السلطان دونهم ، فاغتنمها أبو حمّو وأطلق أميرهم عامر بن خالد من محبسه ، وأخذ عليه الموثق من الله ليخذلنّ الناس عنه ما استطاع ، وليرجعنّ بقومه عن طاعة أبي زيّان وليفرقنّ جموعه ، فوفّى له بذلك العهد ونفس عليه المخنق وتفرّقت أحزابهم ورجع أبو زيّان إلى مكانه من إيالة بني مرين واستقام أمر السلطان أبي حمّو وصلحت دولته بعد الالتياث ، إلى أن كان من أمره ما نذكره إن شاء الله تعالى .

* (الخبر عن حركة السلطان أبي حمو على ثغور المغرب) *

كان ونزمار بن عريف متولي كبر هذه الفتن على أبي حمو ، وبعث الأعياص عليه واحداً بعد واحد ، لما كان بينهم من العداوة المتصلة كما قدّمناه . وكان منزله كرسيف من ثغور المغرب . وكان جاره محمد بن زكراز[1] كبير بني علي من بني ونكاسن

---

(١) وفي نسخة ثانية : زكدان .

الموطنين بجبل دبدو ، وكانت أيديهما عليه واحدة فلما سكن غرّب الثوار عنه وأزاحهم عن وطنه إلى المغرب ، وانعقد سلمه معهم ، رأى أن يعتور هذين الأميرين في ثغورهما ، فاعتمل الحركة إلى المغرب فاتح سنة ست وستين وسبعمائة و نتهى إلى دبدو وكرسيف ، وأجفل ونزمار وامتنع بمعاقل الجبال ، فانتهب أبو حمّو الزروع وشمل بالتخريب والعيث سائر النواحي . وقصد محمد بن زكراز أيضاً في معقل دبدو فامتنع بحصنه الذي اتخذه هناك ، وعاج عليه أبو حمّو بركابه ، وجاس خلال وطنه ، وشمل بالتخريب والعيث نواحي بلده ، وانكفأ راجعاً إلى حضرته ، وقد عظمت في تخوم بني مرين وثغورهم نكايته ، وثقلت عليهم وطأته ، وانعقدت بينهما بعد بدء المهادنة والسلم . فانصرفت عزائمه إلى بلاد أفريقية ، فكانت حركته إلى بجاية من العام المقبل ونكبته عليها كما نذكره إن شاء الله تعالى .

* (الخبر عن حركة السلطان أبي حمّو إلى بجاية ونكبته عليها) *

كان صاحب بجاية المولى الأمير أبو عبدالله لما استولى عليها وعادت إليه العودة الثانية سنة خمس وستين وسبعمائة كما ذكرناه في أخباره ، زحف إلى تدلس ، فغلب عليها بني عبد الواد ، وأنزل بها عامله وحاميته . ثم أظلم الجوّ بينه وبين صاحب قسنطينة السلطان أبي العباس ابن عمّه الأمير أبي عبدالله لما جرّته بينهما المتاخمة في العمالات ، فنشأت بينهما فتن وحروب شغل بها عن حماية تدلس ، وألحت عليها عسكر بني عبد الواد بالحصار . وأحيط بها فأوفد رسله على السلطان أبي حمّو صاحب تلمسان في المهادنة على النزول له عن تدلس ، فتسلّمها أبو حمو وأنزل بها حاميته . وعقد معه السلم وأصهر إليه في ابنته فأجابه ، وزفّها إليه فتلقّاها قبلة زواوة بآخر عملهم من حدود بجاية . وفرغ صاحب بجاية لشأنه ، وكان أثناء الفتنة معه قد بعث إلى تونس عن أبي زيان ابن عمّه السلطان أبي سعيد لينزله بتدلس ، ويشغل به السلطان أبا حمو عن فتنته .

وكان من خبر أبي زيان هذا أنه أقام بتونس بعد مهلك الحاجب أبي محمد بن تافراكين كما ذكرناه إلى أن دسّ إليه مرضى القلوب من مشيخة بني عبد الواد

بتلمسان بالإجلاب على السلطان أبي حمو. ووعدوه عن أنفسهم الجنوح معه، فصغى إليها واعتدّها وارتحل يريد تخوم تلمسان وعمل بجاية. ومرّ بقُسَنْطِينَة فتجافى عن الدخول إليها، وتنكّر لصاحبها، وبلغ خبره السلطان أبا العبّاس صاحبها يومئذ فأجمع أمره على صدّه عن وجهه، وحبسه بقسنطينة واتصلت الفتنة بينه وبين ابن عمه صاحب بجاية، وكان شديد الوطأة على أهل بلده مرهف الحدّ لهم بالعقاب الشديد، حتى لقد ضرب أعناق خمسين منهم قبل أن يبلغ سنتين في ملكه، فاستحكمت النفرة وساءت الملكة، وعضل الداء وفزع أهل البلد إلى مداخلة السلطان أبي العبّاس باستنفاذهم من ملكة العسف والهلاك، بما كان أتيح له من الظهور على أميرهم، فنهض إليها آخر سنة سبع وستين وسبعمائة وبرز الأمير أبو عبدالله للقائه وعسكر بنامروا[1] الجبل المطل على تاكردت[2] وصبحه السلطان أبو العبّاس بمعسكره هنالك، فاستولى عليه وركّض هو فرسه ناجياً بنفسه. ومرّت الخيل[3] تعادي في أثره حتى أدركوه، فأحاطوا به وقتلو قعصاً بالرماح عفا الله عنه. وأجاز السلطان أبو العبّاس إلى البلد فدخلها منتصف يوم العشرين من شعبان، ولاذ الناس به من دهش الواقعة وتمسّكوا بدعوته، وآتوه طاعتهم، فانجلت القيامة واستقام الأمر، وبلغ الخبر إلى السلطان أبي حمو فأظهر الامتعاض لمهلكه والقيام بثأره وسيّر من ذلك حشوده في ارتقاء ونهض يجرّ الأمم إلى بجاية من العرب وزناتة والحشد حتى أناخ بها وملأت مخيّماته[4] الجهات بساحتها، وجنح السلطان الى مبارزته، فتمهّد به أهل البلد ولاذوا بمقامه فأسعفهم وطير البريد الى قسنطينة، فأطلق أبا زيّان من الاعتقال وسوّغه الملابس والمراكب والآلة، وزحف به مولاه بشير في عسكر إلى أن نزل حذاء معسكر أبي حمو واضطربوا محلهم بسفح جبل بني عبد الجبّار وشنوا الغارات على معسكر أبي حمو صباحاً ومساء لما كان نمي إليهم من مرض قلوب جنده والعرب الذين معه. وبدا للسلطان أبي حمو ما لم يحتسب من امتناعها، وكان تقدّم إليه بعض سماسرة الفتن بوعد على لسان المشيخة من أهل البلد أطمعه فيها، ووثق بأنّ ذلك يغنيه عن الاستعداد، فاستبق إليها وأغفل الحزم فيما دونها، فلما امتنعت عليه

---

(١) وفي نسخة ثانية: بليزو.

(٢) وفي نسخة ثانية: تاكررت.

(٣) وفي نسخة ثانية: الجنود.

(٤) وفي نسخة ثانية: وملأ بخيامه.

انطبق الجوّ على معسكره وفسدت السابلة على العير للميرة ، واستجم الزبون في احياء معسكره بظهور العدوّ المساهم في الملك . وتفادت رجالات العرب من سوء المغبّة وسطوة السلطان ، فتمشوا بينهم في الانفضاض وتحينوا لذلك وقت المناوشة ، وكان السلطان لما كذبه وعد المشيخة أجمع قتالهم ، واضطرب الفساطيط مضايقة للأسوار ، متسنمة وعراً من الجبل لم يرضه أهل الرأي . وخرج رجل الجبل على حين غفلة فجاولوا من كان بتلك الأخبية من المقاتلة فانهزموا أمامهم وتركوها بأيديهم فمزقوها بالسيوف . وعاين العرب على البعد انتهاب الفساطيط فأجفلوا وانفضّ المعسكر بأجمعه . وحمل السلطان أبو حمو أثقاله للرحلة فأجهضوه عنها فتركها ، وانتهب مخلفه أجمع . وتصايح الناس بهم من كل حدب ، وضاقت المسالك من ورائهم وأمامهم ، وكظّت بزحامهم ، وتواقعوا لجنوبهم ، فهلك الكثير منهم وكانت من غرائب الواقعات ، تحدث الناس بها زماناً وسيقت حظاياه إلى بجاية ، واستأثر الأمير أبو زيان منهنّ بحظيته الشهيرة ابنة يحيى الزابي ، ينسب إلى عبد المؤمن بن علي . وكان أصهر فيها إلى أبيها أيام تقلبه في سبيل الاغتراب ببلاد الموحدين كما سبقَ ، وكانت أعلق بقلبه من سواها ، فخرجت في مغانم الأمير أبي زيّان . وتحرّج عن مواقعتها حتى أوجده أهل الفتيا السبيل إلى ذلك لحنث زعموا وقع من السلطان أبي حمو في نسائه . وخلص السلطان أبو حمو من هوّة ذلك العصب بعد غصّة الريق ، ونجا إلى الجزائر لا يكاد يردّ النفس من شناعة ذلك الهول . ثم خرج منها ولحق بتلمسان ، واقتعد سرير ملكه واشتدّت شوكة أبي زيّان ابن عمّه ، وتغلب على القاصية واجتمعت إليه العرب ، وكثر تابعه . وزاحم السلطان أبا حمو بتلك الناحية الشرقية سنين تباعاً نذكر الآن أخبارها ، إن شاء الله تعالى .

* (الخبر عن خروج أبي زيان بالقاصية الشرقية من بلاد حصين وتغلبه على المرية والجزائر ومليانة وما كان من الحروب معه) *

لما انهزم السلطان أبو حمّو بساحة بجاية عشيّ يومه من أوائل ذي الحجة ، خاتم سنة سبع وستين وسبعمائة قرع الأمير أبو زيّان طبوله واتبع أثره ، وانتهى إلى بلاد حصين

من زغبة . وكانوا سائمين من الهضيمة والعسف اذا كانت الدول تجريهم مجرى الرعايا المعبّدة في المغرم ، وتعدل بهم عن سبيل إخوانهم من زغبة أمامهم ووراءهم لبغية الغزو فبايعوه على الموت الأحمر ووقفوا بمعتصم[1] من جبل تيطري إلى أن دهمتهم عساكر السلطان . ثم أجلبوا على المرية[2] وكان بها عسكر ضخم للسلطان أبي حمو لنظر وزرائه : عمران بن موسى بن يوسف ، وموسى بن برغوث ، ووادفل ابن عبو بن حمّاد ، ونازلوهم أياماً ثم غلبوهم على البلد . وملكها الأمير أبو زيان ومنّ على الوزراء ومشيخة بني عبد الواد وترك سبيلهم إلى سلطانهم ، وسلك سبيلهم الثعالبة في التجافي عن ذلّ المغرم ، فأعطوه يد الطاعة والانقياد للأمير أبي زيّان ، وكانت في نفوس أهل الجزائر نفرة من جور العمّال عليهم ، فاستمالهم بها سالم بن ابراهيم بن نصر أمير الثعالبة إلى طاعة الأمير أبي زيان . ثم دعا أبو زيّان أهل مليانة إلى مثلها فأجابوه . واعتمل السلطان أبو حمو نظره في الحركة الحاسمة لدائهم[3] ، فبعث في العرب وبذل المال ، وأقطع البلاد على أشطاط منهم في الطلب . وتحرّك إلى بلاد توجين ونزل قلعة بني سلامة سنة ثمان وستين وسبعمائة يحاول طاعة أبي بكر بن عريف أمير سويد . فلم يلبث عنه خالد بن عامر ولحق بأبي بكر بن عريف ، واجتمعا على الخلاف عليه ونقض طاعته . وشنّوا الغارة على معسكره ، فاضطرب وأجفلوا وانتهبت محلاّته وأثقاله ، ورجع إلى تلمسان . ثم نهض إلى مليانة فافتتحها ، وبعث إلى رياح على حين صاغية[4] إليه من يعقوب بن علي بن أحمد وعثمان بن يوسف بن سليمان بن علي أميرَيْ الزواودة لما كان وقع بينهما وبين السلطان مولانا أبي العباس من النفرة ، فاستنظره للحركة على الأمير أبي زيان وبعدها إلى بجاية . وضمنوا له طاعة البدو من رياح ، وبعثوا إليه رهنهم على ذلك فردّها وثوقاً بهم ، ونهض من تلمسان وقد اجتمع إليه الكثير من عرب زغبة . ولم يزل أولاد عريف بن يحيى وخالد بن عامر في أحيائهما منحرفين عنه بالصحراء . وصمّم إليهم فاجفلوا أمامه ، وقصد المخالفين من حصين والأمير أبا زيّان إلى معتصمهم بجبل تيطري .

---

(١) وفي نسخة ثانية : ووثقوا بمعتصمهم .

(٢) المرية : مدينة كبيرة من بلاد الأندلس وليست هي المقصودة في بحثنا هذا والمقصود المدية وهي بلدة من بلاد توجين في المغرب الأوسط .

(٣) وفي نسخة بولاق المصرية : لرأيهم .

(٤) وفي نسخة ثانية : على حين طاعتهم إليه .

وأغذّ إليه السير يعقوب بن علي وعثمان بن يوسف بمن معهم من جموع رياح حتى نزلوا بالقلعة حذاءهم. وبدر أولاد عريف وخالد بن عامر إلى الزواودة ليشرّدوهم عن البلاد قبل أن تتصل يد السلطان بيدهم، فصبحوهم يوم الخميس أخريات ذي القعدة من سنة تسع وستين وسبعمائة ودارت بينهم حرب شديدة، وأجفلت الزواودة أوّلاً، ثم كان الظهور لهم آخراً. وقتل في المعركة من زغبة عدد، ويئسوا من صدّهم عما جاؤا إليه، فانعطفوا إلى حُصَيْن والأمير أبي زيّان، وصعدوا إليهم بناجعتهم، وصاروا لهم مدداً على السلطان أبي حمّو، وشنّوا الغارة على معسكره، فصمدوا نحوه وصدقوه القتال، فاختلّ مصافه، وانهزمت عساكره، ونجا بنفسه إلى تلمسان على طريق الصحراء. وأجفل الزواودة إلى وطنهم، وتحيّز كافة العرب من زغبة إلى الأمير أبي زيان، واتبع آثار المنهزمين، ونزل بسيرات. وخرج السلطان أبو حمو في قومه ومن بقي معه من بني عامر. وتقدّم خالد إلى مصادمته ففلّه السلطان وأجفل القوم من ورائه. ثم تلطّف في مراسلته وبذل المال له وأوسع له في الاشتراط فنزع إليه والتبس بخدمته، ورجع الأمير أبو زيّان إلى أوليائه من حصين متمسّكاً بولاية أولاد عريف. ثم نزع محمد بن عريف إلى طاعة السلطان، وضمن له العدول بأخيه عن مذاهب الخلاف عليه، وطال سعيه في ذلك فاتهمه السلطان وحمله خالد بن عامر عدوّه على نكبته، فتقبّض عليه وأودعه السجن. واستحكمت نفرة أخيه أبي بكر، ونهض السلطان بقومه وكافة بني عامر إليه سنة سبعين وسبعمائة واستغلظ أمر أبي بكر فجمع الحرث بن أبي مالك ومن وراءهم من حصين، واعتصموا بالجبال من دراك وتيطري، ونزل السلطان بجموعه لعود بلاد الديالمة من الحرث، فانتسفها والتعمها وحطّم زروعها ونهب مداثرها. وامتنع عليه أبو بكر ومن معه من الحرث وحصين والأمير أبي زيان بينهم، فارتحل عنهم وعطف على بلاد أولاد عريف وقومهم من سويد فملأها عيثاً، وخرّب قلعة ابن سلاّمة لما كانت أحسن أوطانهم. ورجع عليهم إلى تلمسان وهو يرى ان كان قد شفا نفسه في أولاد عريف، وغلبهم على أوطانهم، ورجع عليهم منزلة عدوّهم، فكان من لحاق أبي بكر بالمغرب وحركة بني مرين ما نذكره.

* (الخبر عن حركة السلطان عبد العزيز على تلمسان واستيلائه عليها ونكبة أبي حمو وبني عامر بالدوس من بلاد الزاب وخروج أبي زيان من تيطري الى أحياء رياح) *

لما تقبّض أبو حمو على محمد بن عريف وفرق شمل قومه سويد ، وعاث في بلادهم أجمع ، رأى أخيه الأكبر الصريخ بملك المغرب . فارتحل إليه بناجعته من بني مالك أجمع من أحياء سويد والديالم والعطاف حتى احتل ببسائط ملوية من تخوم المغرب . وسار إلى أخيه الأكبر ونزمار بمقرّه من قصر مرادة الذي اختطّه بارجاع وادي ملوية في ظل دولة بني مرين وتحت جوارهم لما كان ملاك أمرهم بيده ، ومصادرهم عن آرائه خطّة ورثها عن أبيه عريف بن يحيى مع السلطان أبي سعيد وابنه أبي الحسن وابنه أبي عنان . فتقبّل ملوك المغرب مذاهب سلفهم فيه ، وتيمنوا برأيه واستأمنوا إلى نصيحته . فلمّا قدم عليه أخوه أبو بكر مستحفياً بملك المغرب ، وأخبر باعتقال أخيه الآخر محمد ، قدح عزائمه ، وأوفد أخاه أبا بكر ومشيخة قومهم من بني مالك على السلطان عبد العزيز ابن السلطان أبي الحسن منصرفه من افتتاح جبل هنتاتة ، وظفر بعامر بن محمد بن عليّ النازع إلى الشقاق في معتصمه ، فلقوه في طريقه ولقاهم مبرة وتكرمة واستصرخوه لاستنقاذ أخيهم فأجاب صريخهم ، ورغبوه في ملك تلمسان وما وراءها ، فوافق صاغيته لذلك بما كان في نفسه من الموجدة على السلطان أبي حمو لقبوله كل من ينزع إليه من عربان المـَعْقِل أشياع الدولة وبدوها ، وما كان بعث إليه في ذلك ، وصرف عن استماعه ، فاعتزم على الحركة إلى تلمسان ، وألقى زمامه بيد ونزمار وعسكر بساحة فاس . وبعث الحاشدين في الثغور والنواحي من المغرب ، فتواقف الحاشدون ببابه ، وارتحل بعد قضاء النسك من الأضحى سنة إحدى وسبعين وسبعمائة واتصل الخبر بالسلطان أبي حمو وكان معسكراً بالبطحاء ، فانكفأ راجعاً إلى تلمسان ، وبعث في أوليائه عبيدالله والأحلاف من عرب المعقل ، فصموا عن إجابته ونزعوا إلى ملك المغرب ، فأجمع رأيه إلى التحيّز إلى بني عامر وأجفل غرّة المحرم سنة إثنتين وسبعين وسبعمائة واحتلّ السلطان عبد العزيز تلمسان في يوم عاشوراء بعدها . وأشار ونزمار بن عريف بتسريح العساكر في اتباعه ، فسرّح السلطان وزيره أبا بكر بن

غازي بن السكّاء[1] حتى انتهى إلى البطحاء . ثم لحق به هنالك ونزمار وقد حشد العرب كافة ، وأغذّ السير في اتباع السلطان أبي حمو وبني عامر ، وكانوا قد أبعدوا المذهب ، ونزلوا على الزواودة وسرّح إليهم السلطان يومئذ عبد العزيز يحملهم على طاعته ، والعدول بهم عن صحابة بني عامر وسلطانهم . وسرّح فرج بن عيسى بن عريف إلى حصين لاقتضاء طاعتهم واستدعاء أبي زيان إلى حضرته ، ونبذهم عهده ، وانتهيا جميعاً إلى أبي زيّان مقدمة أوليائه[2] ، ولحق بأولادِ يحيى بن عليّ ابن سبّاع من الزواودة ، وانتهيت أنا إليهم فخفظت عليهم الشأن في جواره لما كانت مرضاة السلطان ، وحذّرتهم شأن أبي حمو وبني عامر ، وأوفدت مشيختهم على ونزمار والوزير أبي بكر بن غازي فدلّوهما على طريقه ، فأغذّوا السير وبيّتوهم بمنزلهم على الدوس آخر عمل الزاب من جانب المغرب ففضوا جموعهم ، وانتهبوا جميع معسكر السلطان أبي حمو بأموالهم وأمتعته وظهره . ولحق فلّهم بمصاب ورجعت العساكر من هنالك ، فسلكت على قصور بني عامر بالصحراء قبلة جبل راشد التي منها ربا ولون ساعون[3] إليها فأنتهبوها وخرّبوها وعاثوا فيها وانكفؤا راجعين إلى تلمسان . وفرّق السلطان عمّالهِ في بلاد المغرب الأوسط من وَهْرَان ومليانة والجزائر والمرية وجبل وانشريس . واستوسق به ملكه ونزع عنه عدوّه ، ولم يبق به يومئذ إلاّ ضرمة من نار الفتنة ببلاد مغراوة بوعد من ولد عليّ بن راشد ، سخط خالد في الديوان ولحق بجبل بني سعيد . واعتصم به فجهّز السلطان الكتائب لحصاره ، وسرّح وزيره عمر بن مسعود لذلك كما ذكرناه في أخبار مغراوة . واحتقر شأنه . وأوفدت أنا عليه يومئذ مشيخة الزواودة ، فأوسعهم حباءً وكرامةً ، وصدروا مملوءة حقائبهم خالصة قلوبهم منطلقة بالشكر ألسنتهم . واستمرّ الحال إلى أن كان ما نذكره إن شاءالله تعالى والله تعالى أعلم .

---

(١) وفي نسخة ثانية : بن الكاس .

(٢) وفي نسخة ثانية : ففارقه أولياؤه .

(٣) وفي نسخة أخرى : التي منها ربا ولون سمعون ، وفي نسخة ثانية : التي منها ريا بن سمعون .

* (الخبر عن اضطراب المغرب الأوسط ورجوع أبي زيان الى تيطري واجلاب أبي حمو على تلمسان ثم انهزامهما وتشريدهما على سائر النواحي) *

كان بنو عامر من زغبة شيعة خالصة لبني عبد الواد من أوّل أمرهم ، وخلص سويد لبني مرين كما قدّمناه ، فكان من شأن عريف وبنيه عند السلطان أبي الحسن وبنيه ما هو معروف . فلما استبيحت أحياؤهم بالدوس مع أبي حمو ، ذهبوا في القفر إشفاقاً ويأساً من قبول بني مرين عليهم لما كان ونزمار بن عريف وإخوانه من الدولة ، فحدبوا على سلطانهم أبي حمو يتقلّبون معه في القفار. ثم نزع إليهم رحّو بن منصور فيمن أطاعه من قومه عبيدالله من المعقل ، وأجلبوا على وجدة فاضطرم النفاق على الدولة ناراً ، وخشي حصين مغبة أمرهم من السلطان بما تسموا به من الشقاق والعناد ، فمدّوا أيديهم إلى سلطانهم أبي زيّان ، وأوفد مشيختهم لاستدعائه من حلّة أولاد يحيى بن علي فاحتلّ بينهم وأجلبوا به على المرية فملكوا نواحيها ، وامتنع عليهم مصرها ، واستمرّ الحال على ذلك واضطرب المغرب الأوسط على السلطان ، وانتقضت به طاعته وسرّح الجيوش والعساكر إلى قتال مغراوة وحصين ، فأجمع أبو حمو وبنو عامر على قصده بتلمسان حتى اذا احتلوا قريباً منها دسّ السلطان عبد العزيز بعض شيعته إلى خالد بن عامر وزغبة في المال والحظ منه ، وكان أبو حمّو قد آسفه بمخالطة بعض عشيره وتعقّب رأيه برأي من لم يسم إلى خطته . ولم يرتض كفاءته فجنح إلى ملك المغرب ، ونزع يده من عهد أبي حمّو ، وسرّح السلطان عبد العزيز عسكره إلى خالد فأوقع بأبي حمّو ومن كان من العرب عبيدالله وبني عامر ، وانتهب معسكره وأمواله ، واحتقبت حرمه وحظاياه إلى قصر السلطان ، وتقبّض على مولاه عطيّة ، فمنّ عليه السلطان وأصاره في حاشيته ووزرائه ، وأصفقت زغبة على خدمة ملك المغرب وافق هذا الفتح عند السلطان فتح بلاد مغراوة ، وتغلّب وزيره أبو بكر بن غازي على جبل بني سعيد ، وتقبّض على حمزة بن علي بن راشد في لمّة من أصحابه ، فضرب أعناقهم وبعث بها إلى سدّة السلطان ، وصلب أشلاءهم بساحة مليانة معظم الفتح واكتمل الظهور. وأوعز السلطان إلى وزيره أبي بكر بن غازي بالنهوض إلى

حُصَيْن ، فنهض إليهم وخاطبني وأنا مقيم ببسكرة في دعايته بأن احتشد أولياءه من الزواودة ورياح ، والتقى الوزير والعساكر على حصن تيطري ، فنازلناه أشهراً . ثم انفضّ جمعهم وفرّوا من حصنهم ، وتمزّقوا كل ممزق ، وذهب أبو زيّان على وجهه ، فلحق ببلد واركلا قبلة الزاب لبعدها عن منال الجيوش والعساكر ، فأجاروه وأكرموا نزله . وضرب الوزير على قبائل حُصَيْن والثعالبة المغارم الثقيلة ، فأعطوها عن يد وجهضهم باقتضائها ، ودوّخ قاصية الثغور ورجع إلى تلمسان عالي الكعب عزيز السلطان ظاهر اليد . وقعد له السلطان بمجلسه يوم وصوله قعوداً فخماً ، وصل فيه إليه ، وأوصل من صحبه من وفود العرب والقبائل فقسّم فيهم برّه وعنايته وقبوله على شاكلته . واقتضى من أمراء العرب زغبة أبناءهم الأعزة رهناً على الطاعة ، وسرّحهم لغزو أبي حمّو بمنتبذه من تيكورارين فانطلقوا لذلك ، وهلك السلطان عبد العزيز لليال قلائل من مقدم وزيره ، وعساكره أواخر شهر ربيع الآخر من سنة أربع وسبعين وسبعمائة لمرض مزمن كان يتفادى بالكتمان والصبر من ظهوره . وانكفأ بنو مرين راجعين إلى ممالكهم بالمغرب بعد أن بايعوا لولده دراجاً حماسياً ، ولقّبوه بالسعيد وجعلوا أمره إلى الوزير أبي بكر بن غازي ، فملك أمرهم عليهم واستمرّت حاله كما نذكره في أخباره إن شاءالله تعالى .

* (الخبر عن عود السلطان أبي حمو الاخير الى تلمسان الكرّة الثالثة لبني عبد الواد في الملك) *

لما هلك السلطان عبد العزيز ورجع بنو مرين إلى المغرب ، نصبوا من أعياص بني يغمراسن لمدافعة أبي حمو من بعدهم عن تلمسان ، ابراهيم بن السلطان أبي تاشفين ، كان ناشئاً بدولتهم مذ هلك(١) أبوه . وتسلّل من جملتهم عطيّة بن موسى مولى السلطان أبي حمو وخالفهم إلى البلد غداة رحيلهم ، فقام بدعوة مولاه ودافع ابراهيم بن تاشفين عن مرامه ، وبلغ الخبر أولياء السلطان أبي حمو من عرب المعقل أولاد يغمور بن عبيدالله ، فطيّروا إليه النجيب على حين غلب عليه اليأس . وأجمع الرحلة إلى بلاد السودان لما بلغه من اجتماع العرب للحركة عليه كما قلناه ، فأغذّ السير

(١) وفي نسخة ثانية : منذ مهلك أبيه .

من مطرح اغترابه . وسابقه إبنه ولي عهده في قومه عبد الرحمن أبو تاشفين مع ظهيرهم عبدالله بن صغير فدخلوا البلد ، وتلاهم السلطان لرابعة دخولهم ، وعاود سلطانه واقتعد أريكته ، وكانت إحدى الغرائب وتقبّض ساعتئذ على وزرائه ، اتهمهم بمداخلة خالد بن عامر فيما نقض من عهده وظاهر عليه عدوه ، فأودعهم السجن وذبحهم ليومَهم حنقاً عليهم . واستحكم لها نفرة خالد وعشيرته ، وحصلت ولاية أولاد عريف بن يحيى لمنافرة بني عامر إيّاه ، واقبال السلطان عبد العزيز عليه ، ووثق بمكان ونزمار كبيرهم في تسكين عادية ملوك المغرب عليه[1] . ورجع إلى تمهيد وطنه ، وكان بنو مرين عند انفضاضهم إلى مغربهم قد نصبوا من اقتال مغراوة ، ثم بني منديل علي بن هرون بن ثابت بن منديل وبعثوه إلى شلف مزاحمة للسلطان أبي حمو ، ونقضاً لأطراف ملكه . وأجلب أبو زيان ابن عمّه على بلاد حصين ، فكان من خبره معها ما نذكره إن شاءالله تعالى .

* (الخبر عن رجوع أبي زيان ابن السلطان أبي سعيد الى بلاد حصين ثم خروجه عنها) *

كان الأمير أبو زيان ابن السلطان أبي سعيد ، لمّا هلك السلطان عبد العزيز وبلغه الخبر بمنجاته من واركلا ، نهض منها إلى التلول ، واسفّ إلى الناحية التي كان منترياً بها مساهماً لأبي حمو فيها ، فاقتطعت لدعوته كما كانت ، ورجع أهلها إلى ما عُرفوا من طاعته ، فنهض السلطان أبو حمو لتمهيد نواحيه وتثقيف أطراف ملكه ، ودفع الخوارج عن ممالكه ، وظاهره على ذلك أمير البدو من زغبة أبو بكر ومحمد إبنا عريف بن يحيى ، دسّ إليهما بذلك كبيرهما ونزمار ، وأخذهما بمناصحة السلطان ومخالصته ، فركبا من ذلك أوضح طريق وأسهل مركب . ونبذ السلطان العهد إلى خالد وعشيره ، فضاقت عليهم الأرض ولحقوا بالمغرب لسابقة نزوعهم إلى السلطان عبد العزيز . وابتدأ السلطان بما يليه ، فأزعج بمظاهرتهما عليّ بن هرون عن أرض شِلْف سنة خمس وسبعين وسبعمائة بعد حروب هلك في بعضها أخوه رحمون بن

---

(١) وفي نسخة ثانية : تسكين عادية ملوك العرب عنه .

هرون . وخلص إلى بجاية ، فركب منها السفن إلى المغرب ، ثم تخطّى السلطان أبو حمو إلى ما وراء شلف . وسفر محمد بن عريف بينه وبين إبن عمه بعد أن نزع إليه الكثير من أوليائه حصين والثعالبة بما بذل لهم من الأموال ، وبما سئموا من طول الفتنة ، فشارطه على الخروج من وطنه إلى جيرانهم من رياح على أتاوة وتحمل اليه ، فقبل ووضع أوزار الحرب ، وفارق مكان ثورته ، وكان لمحمد بن عريف فيها أثر محمود ، واستألف سالم بن ابراهيم كبير الثعالبة المتغلّب على بسيط متيجة وبلد الجزائر ، بعد أن كان خبّ في الفتنة ، وأوضع فاقتضى له من السلطان عهده من الأمان والولاية على قومه وعمله . وقلّد السلطان أبناءه ثغور أعماله . فأنزل ابنه بالجزائر لنظر سالم بن ابراهيم من تحت استبداده ، وابنه أبا زيّان بالمدية ، وانقلب السلطان إلى حضرته بتلمسان بعد أن دوّخ قاصيته ، وثقف أطراف عمله ، وأصلح قلوب أوليائه واستألف شيعة عدوه ، فكان فتحاً لا كفاء له من بعد ما خلع من ربقة الملك ، ونزع من شرع[1] السلطان وانتبذ من قومه وممالكه إلى قاصية الأرض ، ونزل في جوار من لا ينفذ أمره ولا يقوم بطاعته . والله مالك الملك يؤتي الملك من يشاء ويعز من يشاء ويذلّ من يشاء .

* (الخبر عن اجلاب عبدالله بن صغير وانتقاض أبي بكر بن عريف وبيعتهما للأمير أبي زيان ورجوع أبي بكر الى الطاعة) *

كانت خالد بن عامر وابن أخيه عبدالله بن صغير وسائر إخوانهم من ولد عامر بن ابراهيم قد لحقوا بالمغرب صرخى ببني مرين لما وقع بينهم وبين أبي حمو من الفعلة التي فعل خالد معه . ويئس عبدالله بن صغير من صريخهم بما عقد ونزمار بن عريف من السلم بين صاحب المغرب وصاحب تلمسان ، فخاض القفر بمن معه من قومه ولحق بوطن زغبة ، وأجلب على جبل راشد وبه العمّور أحلاف سويد من بني هلال . فاعترضتهم سويد ودارت بينهم حرب شديدة ، كان الظهور فيها لسويد عليهم . وفي خلال ذلك فسد ما بين السلطان وبين أبي بكر بن عريف بسبب صاحب جبل

(١) وفي نسخة ثانية : من لبوس .

وانشريس يوسف بن عمر[1] بن عثمان ، أراده السلطان على النزول عن عمله ، فغضب له أبو بكر لقديم الصداقة بين سلفهما ، ووصل يده بعبدالله بن صغير بعد الواقعة . ودعاه إلى بيعة أبي زيان فأجابه وأوفدوا رجالاتهم عليه بمكانه من مجالات رياح ، فوصلوه معهم ونصّبوه للأمر ، وتحيّز محمد بن عريف إلى السلطان في جموع سويد . ونهض السلطان من تلمسان سنة سبع وسبعين وسبعمائة فيمن معه من قبائل بني عبد الواد وعرب المعقل وزغبة ، ودس إلى أولياء أبي زيّان يرغّبهم في المواعد . وحكم أبا بكر في الاشتراط عليه ففاء إلى الطاعة والمخالصة . ورجع أبو زيّان إلى مكانه من حلل الزواودة ، وأغذّ السلطان السير إلى حضرته فتملّى أريكته ، وحدث بعد ذلك ما نذكره إن شاءالله تعالى .

* (الخبر عن وصول خالد بن عامر من المغرب والحرب التي دارت بينه وبين سويد وأبي تاشفين هلك فيها عبدالله بن صغير واخوانه) *

لما بلغ خالد بن عامر بمكانه من المغرب خبر عبدالله ابن أخيه صغير ، قفل من المغرب يئساً من مظاهرة بني مرين فخفق السعي في صريخه بهم لما كانوا عليه من افتراق الأمر كما ذكرناه قبل . ووصل معه ساسي بن سليم في قومه بني يعقوب ، وتظاهر الحيّان على العيث في بلاد أبي حمّو . واجتمع إليهم أبناء الفتنة من كل أوب ، فأجلبوا على الأطراف وشنّوا الغارة في البلاد ، وجمع أولاد عريف لحربهم قومهم من سويد وأحلافهم من العطاف ، وبعثوا بالصريخ إلى السلطان فسيّر لحرب عدوّه وعدوّهم ابنه أبا تاشفين وليّ عهده في قومه ، وبرز لذلك في العساكر والجنود . ولما انتهى إلى بلاد هوّارة ، واضطرب عسكره بها ، أعجله صريخ أوليائه عن مناخ الركاب ، فاستعجل الرحلة ولحق بأوليائه أولاد عريف ومن معهم من أشياع الدولة من زغبة . وأغذّوا السير إلى واد هناك شرقي القلعة ، فتلاقى[2] الجمعان وتواقفوا للقاء سائر

(١) وفي نسخة ثانية : يوسف بن عاجر .

(٢) وفي نسخة ثانية : فتراءى .

يومهم . واستضاؤا بإضرام النيران مخافة البيات ، وأصبحوا على التعبية . وتمشت الرجالات في مواضعة الحرب ، فأعجبهم مناشبة القوم ، وتزاحفت الصفوف ، وأعلم الكماة ، وكشفت الحرب عن ساقها ، وحمي الوطيس ، وهبت الريح المبشرة ، فخفقت لها رايات الأمير وهدرت طبوله ، ودارت رحى الحرب وصمدت إليها كتائب العرب ، فبرىء[1] فيها الأبطال منهم وانكشفوا ، وأجلت المعركة عن عبدالله ابن صغير صريعاً ، فأمر أبو تاشفين فاحتزّ رأسه وطيّر به البريد إلى أبيه . ثم عثرت المواكب بأخيه ملّوك بن صغير مع العبّاس ابن عمه موسى بن عامر ، ومحمد بن زيّان من وجوه عشيرتهم متواقعين بجنودهم متضاجعين في مراقدهم كانما أقعدوا للردى ، فوطأتهم سنابك الخيل وغشيهم قتام المراكب . وأطلقت العساكر أعنّتها في اتباع القوم فاستاقوا نعمهم وأموالهم . وكثرت يومئذ الأنفال ، وغشيهم الليل فتستّروا بجناحه . ولحقهم فلّهم بجبل راشد ، وأطرب أبو تاشفين أباه بمشتهى ظهوره وأملاه السرور بما صنع الله على يده ، وما كان له ولقومه من الأثر في مظاهرة أوليائه . وطار له بها ذكر على الأيام ، ورجع إلى أبيه بالحضرة مملوء الحقائب بالأنفال والجوانح بالسرور والأيام بالذكر عنه وعن قومه ، ومضى خالد لوجهه في فلّ من قومه . ولحق بجبل راشد إلى أن كان من أمره ما نذكره إن شاءالله ، والله تعالى أعلم .

* (الخبر عن انتقاض سالم بن ابراهيم ومظاهرته خالد بن عامر على الخلاف وبيعتهما للأمير أبي زيان ثم مهلك خالد ومراجعة سالم الطاعة وخروج أبي زيان الى بلاد الجريد) *

كان سالم بن ابراهيم هذا كبير الثعالبة المتغلّبين على حصن متيجة منذ انقراض مليكش ، وكانت الرياسة فيهم لأهل بيته حسبما ذكرناه في أخبارهم عند ذكر المعقل . ولما كانت فتنة أبي زيّان بعد نكبة أبي حمّو على بجاية ، وهبّت ريح العرب واستغلظ أمرهم ، وكان سالم هذا أوّل من غمس يده في تلك الفتنة ، ومكر بعليّ بن غالب من بيوتات الجزائر ، كان مغربا عنها منذ تغلّب بني مرين على المغرب الأوسط

(١) وفي نسخة ثانية : فتردى .

ايام بني عثمان(١) ولحق بها عندما أظلم الجوّ بالفتنة ، واس[illegible]ت نفرة أهل الجزائر عن أبي حمو ، فأظهر بها الاستبداد واجتمع بها إليه الأوشاب والطغام . ونكره سالم أمير الضاحية أطمعه في الاستيلاء على الجزائر ، فداخل في شأنه الملأ من أهل المدينة ، وحذّرهم منه أنه يروم الدعوة للسلطان أبي حمّو، فاستشاطوا نفرة وثاروا به ، حتى إذا رأى سالم أنه قد أحيط به خلّصه من أيديهم وأخرجه إلى حيّه. وأبلغه(٢) هنالك . وحوّل دعوة الجزائر إلى الأمير أبي زيّان تحت استبداده ، حتى اذا كان من أمر بني مرين وحلول السلطان عبد العزيز بتلمسان كما قدّمناه ، أقام دعوتهم في الجزائر إلى حين مهلكه ورجوع أبي حمّو إلى تلمسان . وأقبل جيش أبي زيّان إلى تيطري ، فأقام سالم هذا دعوته في أحيائه وفي بلد الجزائر ، خشية على نفسه من السلطان أبي حمو ، لما كان يعتمد عليه في الادالة من أمره بالجزائر بأمر ابن عمّه . ولما كان من خروج أبي زيّان إلى أحياء رياح على يد محمد بن عريف ما قدّمناه . واقتضى سالم عهده من السلطان ، وولي سالم على الجزائر ، أقام سالم على أمره من الاستبداد بتلك الاعمال واستضافة جبايتها لنفسه ، وأوعز السلطان إلى سائر عمّاله باستيفاء جبايتها ، فاستراب وبقي في أمره على المداهنة .

وحدثت إثر ذلك فتنة خالد بن عامر ، فتربّص دوائرها رجاء أن يكون الغلب له ، فيشغل السلطان عنه . ثم بدا له ما لم يحتسب ، وكان الغلب للسلطان ولأوليائه . وكان قد حدثت بينه وبين بني عريف عداوة خشي أن يحمل السلطان على النهوض إليه ، فبادر إلى الإنتقاض على أبي حمو ، واستقدم الأمير أبو زيان فقدم عليه وجاءا بخالد بن عامر من المخالفين معه من العرب ، فوصلوا إليه أوّل سنة ثمان وسبعين وسبعمائة ، وعقد بينهم حلفاً مؤكّداً ، وأقام الدعوة للأمير أبي زيّان بالجزائر . ثم زحفوا إلى حصار مليانة وبها حامية السلطان فامتنعت عليهم ، ورجعوا إلى الجزائر فهلك خالد بن عامر على فراشه ودفن بها ، وولي أمر قومه من بعده المسعود ابن أخيه صغير ، ونهض إليهم السلطان أبو حمّو من تلمسان في قومه وأوليائه من العرب ، فامتنعوا بجبال حُصَيْن وناوشتهم جيوش السلطان القتال بأسافل الجبل فغلبوهم عليها ، وانفضّت الناجعة عنهم من الديالم والعطاف وبني عامر ، فلحقوا بالقفر.

---

(١) وفي نسخة ثانية : ايام أبي عنّان .

(٢) وفي نسخة ثانية : واتلفه هنالك .

ورأى سالم أصحابه أن قد أحيط بهم فلاذ بالطاعة ، وحمل عليها أصحابه . وعقد لهم السلطان من ذلك ما أرادوه على أن يفارقوا الأمير أبا زيان ففعلوا . وارتحل عنهم فلحق ببلاد المغرب ريغ ، ثم أجازها إلى نَفْطَة من بلاد الجريد ، ثم إلى تَوْزَر ، فنزل على مقدّمها يحيى بن يملول ، فأكرم نزله وأوسع قراره إلى أن كان من أمره ما نذكر .

ورجع السلطان أبو حمو إلى تلمسان وفي نفسه من سالم حرارة لكثرة اضطرابه ومراجعته الفتن ، حتى توسّط فصل الشتاء ، وأبعدت العرب في مشاتيها ، فنهض من تلمسان في جيوش زناتة ، وأغذّ السير فصبح بحصن متيجة بالغارة الشعواء . وأجفلت الثعالبة فلحقوا برؤوس الجبال وامتنع سالم بجبل بني خليل . وبعثوا ابنه وأولياءه إلى الجزائر فامتنعوا بها وحاصروه أياماً . ثم غلبوه على مكامنه . فانتقل إلى بني مَيْسَرَة من جبال صنهاجة . وخلّف أهله ومتاعه ، وصار الكثير من الثعالبة إلى الطاعة ، وابتهلوا بأمان السلطان وعهده إلى فحص متيجة ، وبعث هو أخاه ثانياً إلى السلطان بانتقاضه العهد[1] ، ونزل من رأس ذلك الشاهق إلى ابنه أبي تاشفين فأوصله إلى السلطان إحدى ليالي العشر الأواخر من رمضان ، فأخفر عهده وذمّة ابنه ، وتقبّض عليه صبيحة ليلته . وبعث قائده إلى الجزائر فاستولى عليها وأقام دعوته بها ، وأوفد عليه مشيختها فتقبّض عليهم ، وعقد على الجزائر لوزيره موسى بن مرعوت[2] ، ورجع إلى تلمسان فقضى بها عيد النحر ، ثم أخرج سالم بن ابراهيم من محبسه إلى خارج البلد ، وقتل قعصاً بالرماح ، ونصب شلوه وأصبح مثلاً للآخرين ، ولله البقاء . وعهد السلطان لابنه المنتصر على مليانة وأعمالها ، ولابنه أبي زيان على وَهْرَان . وراسله ابن يملول صاحب توزر ، وصهره ابن قرى صاحب بسكرة وأولياؤهما من الكعوب والزواودة لما أهمهم أمر السلطان أبي العبّاس ، وخافوه على أمصارهم فراسلوا أبا حمّو يضمنون له مسالمة أبي زيّان على أن يوفي لهم بما اشترط له من المال ، وعلى أن يشبّ نار الفتنة من قبله على بلاد الموحّدين ليشغل السلطان أبا العباس عنهم على حين عجزه[3] وضعف الدولة عنه . فأوهمهم من نفسه القدرة وأطمعهم في ذلك .

---

(١) وفي نسخة ثانية العبارة مختلفة تماماً : وبعث هو اخاه ثابتاً الى السلطان ، فاقتضى له العهد .

(٢) وفي نسخة ثانية : موسى بن برغوت وقد مرّ معنا من قبل في غير هذا المكان .

(٣) الضمير هنا يعود الى أبي حمّو.

وما زال يراجعهم ويراجعونه بالمقاربة والوعد إلى أن أحيط بابن يملول ، واستولى السلطان على بلده فلحق ببسكرة وهلك بها لسنة من خروجه آخر سنة إحدى وثمانين وسبعمائة وبقي ابن مزني من بعده متعلّلاً بتلك الأماني الكاذبة إلى أن ظهر أمره وتبيّن عجزه ، فراجع طاعة السلطان أبي العباس واستقام على الموادعة ، ولحق الأمير أبو زيّان بحضرة السلطان بتونس فنزل بها أكرم نزل مؤمّلاً منه المظاهرة على عدوّه . والحال بالمغرب الأوسط لهذا العهد على ما شرحناه مراراً من تغلّب العرب على الضواحي والكثير من الأمصار . وتقلّص ظلّ الدولة عن القاصية وارتدادها على عقبها إلى مراكزها بسيف البحر ، وتضاؤل قدرتها على قدرتهم ، وإعطاء اليد في مغالبتهم ببذل رغائب الأموال . وإقطاع البلاد والنزول عن الكثير من الأمصار ، والقنوع بالتغريب بينهم وإغراء بعضهم ببعض والله وليّ الأمور .

* (قسمة السلطان للأعمال بين ولده وما حدث بينهم من التنافس) *

كان لهذا السلطان أبي حمّو جماعة من الولد كبيرهم أبو تاشفين عبد الرحمن . ثم بعده أربعة لأم واحدة ، كان تزوّجها بمَـيْـلَـةَ من أعمال قُسَنْطِينَـة أيام جولته في بلاد الموحدين ، كبيرهم المنتصر . ثم أبو زيان محمد ، عمر ويلقب عميرا ، ثم بعد ولد كثيرون ابناء علات . وكان أبو تاشفين ولي عهده ، وقد رفعه على الباقين وأشركه في رأيه[1] ، وأوجب له الحق على وزراء دولته ، فكان لذلك رديفه في ملكه ومظهر سلطانه . وكان مع ذلك يتعاهد أولئك الإخوة الأشقاء بحنوه ، ويقسّم لهم من ترشيحه والنجاء في خلوته ، فتنغّص أبو تاشفين منهم ، فلما استفحل أمر السلطان وانمحت من دولته آثار الخوارج[2] ، أعمل نظره في قسمة الأعمال بين ولده وترشيحهم للإمارة والبعد بهم عن أخيهم أبي تاشفين ، أن يصيبهم بمكروه عند إيناس الغيرة منهم ، فولّى المنتصر كبيرهم على مليانة وأعمالها ، وأنفذه إليها ومعه أخوه عمر الأصغر في كفالته ، وولّى أخاهما الأوسط أبا زيّان على المرية وما إليها من بلاد

(١) وفي نسخة ثانية : اشركه في أمره .
(٢) وفي نسخة ثانية : اثار الخلاف .

حصين . وولّى إبنه يوسف ابن الزابية على تدلس وما إليها من آخر أعماله . واستقرّ أمرهم على ذلك . ثم كان من انتقاض سالم الثعلبي بالجزائر ما قدّمناه ، فنمي إلى السلطان أنّ ابنه أبا زيّان داخله في الخلاف ، فلمّا فرغ من أمر سالم كما مرّ وطرد أبا زيان ابن عمه عن أعماله إلى الجريد ، أعمل نظره في نقل ابنه أبي زيان من المرية إلى ولاية وَهْرَان وأعمالها بعداً له عن العرب المجلبين في الفتن ، وأنزل معه بعض وزرائه عيناً عليه ، وأقام والياً عليها والله أعلم .

* (وثبة أبي تاشفين بيحيى بن خلدون كاتب أبيه) *

كان أوّل شيء حدث من منافسة أبي تاشفين لإخوته ، أن السلطان لمّا ولّى ابنه أبا زيّان على وَهْرَان وأعمالها طلبه أبو تاشفين في ولايتها لنفسه فأسعفه ظاهراً ، وعهد إلى كاتبه يحيى بن خلدون بمماطلته في كتابها حتى يرى المخلص من ذلك ، فأقام الكاتب يطاوله . وكان في الدولة لئيم من سفلة الشرط يدعى بموسى بن يخلف ، صحبهم أيام الاغتراب بتيكورارين أيام ملك تلمسان عليهم السلطان عبد العزيز بن السلطان أبي الحسن كما مرّ . وخلاله وجه السلطان أبي حمو وإبنه ، فتقرّب إليه بخدمته ورعاها له . فلما رجع السلطان إلى تلمسان بعد مهلك عبد العزيز قدّمه وآثره واستخلصه ، فكان من أخلص بطانته . وكان أبو تاشفين أيضاً استخلصه وجعله عيناً على أبيه . وكان هو أيضاً يغص بابن خلدون كاتب السلطان ، ويغار من تقدّمه عنده ويغري به أبا تاشفين جهده ، فدسّ إليه أثناء هذه المطاولة أنّ الكاتب ابن خلدون إنما مطله بالكتاب خدمة لأبي زيّان أخيه وايثاراً له عليه ، فاستشاط له أبو تاشفين ، وترصّد له منصرفه من القصر إلى بيته بعد التراويح في احدى ليالي رمضان سنة ثمانين وسبعمائة في رهط من الأوغاد ، كان يطوف بهم في سكك المدينة ، ويطرق معهم بيوت أهل السرّ والحشمة في سبيل الفساد ، فعرضوا له وطعنوه بالخناجر حتى سقط عن دابته ميتاً . وغدا الخبر على السلطان صبيحة تلك الليلة فقام في ركائبه وبثّ الطلب عن أولئك الرهط في جوانب المدينة . ثم بلغه أنّ ابنه أبا تاشفين صاحب الفعلة ، فأغضى وطوى عليها جونحه ، وأقطع أبا تاشفين مدينة وَهْرَان كما وعده . وبعث ابنه أبا زيّان

على بلاد حُصَيْن والمرية كما كان . ثم طلب أبو تاشفين من أبيه أن تكون الجزائر خالصة له فأقطعه إيّاها ، وأنزل بها من إخوته يوسف ابن الزابية بما كان شيعة له من بينهم وفيئة في صحبته ومخالصته ، فأقام والياً عليها ، والله أعلم .

* (حركة أبي حمو على ثغور المغرب الأوسط ودخول ابنه أبي تاشفين الى جهات مكناسة) *

كان أبو العبّاس بن السلطان أبي سالم ملك بني مرين بالمغرب الأقصى قد نهض في عساكره سنة ثلاث وثمانين وسبعمائة[1] الى مراكش ، وبها الأمير عبد الرحمن بن يفلوس ابن السلطان أبي عليّ مقاسمه في نسبه وملكه . وكان قد سوّغ له مراكش وأعمالها عند ما أجلب معه على البلد الجريد سنة خمس وسبعين وسبعمائة كما في أخبارهم . واستقرّ الأمير عبد الرحمن بمراكش . ثم حدثت الفتنة بينه وبين السلطان أحمد ، ونهض إليه من فاس فحاصره أوّلاً وثانياً يفرج فيهما عنه . ثم نهض إليه سنة أربع وثمانين وسبعمائة فحاصره وأخذ بمخنقه وأطال حصاره . وكان يوسف بن علي بن غانم أمير المعقل من العرب منتقضاً على السلطان وقد بعث السلطان العساكر إلى أحيائه ، فهزموه وخرّبوا بيوته وبساتينه بسجلماسة ورجعوا . وأقام هو بصحرائه منتقضاً . فلما جهد الحصار الأمير عبد الرحمن بمراكش ، بعث أبا العشائر ابن عمّه منصور بن السلطان أبي علي إلى يوسف بن علي بن غانم ، ليجلب به على فاس وبلاد المغرب ، فيأخذ بحجزة السلطان عنه وينفس من مخنقه ، فسار يوسف بن على مع أبي العشائر إلى السلطان أبي حمّو بتلمسان يستنجده على هذا الغرض لقدرته عليه دون العرب ، بما له من العساكر والأبهة ، فأنجده على ذلك . وقدم إبنه أبا تاشفين معهم ، وخرج هو في أثرهم ، فساروا إلى المغرب . ونزل يوسف بن علي بقومه قريباً من مكناسة ، ومعه الأميران أبو العشائر وأبو تاشفين . وجاء أبو حمّو من خلفهم فحصر تازي سبعاً ، وخرّب قصر تازروت المعدّ هنالك لنزل السلطان .

وكان السلطان قد استخلف على فاس في مغيبه علي بن مهدي العسكري من عمّال

(١) وفي نسخة ثانية : إحدى وثمانين .

دولته ووجوه قبيله ، وكان هنالك عرب المنبأة[1] من المعقل قد أخذوا الميرة ، فأهاب بهم ونزمار بن عريف وليَ الدولة من عرب سويد ، وهو نازل بقصر مرادة من جوار[2] تازى ، فاستألفهم لمدافعة أبي حمو وابنه . وخرج بهم علي بن مهدي . ثم وصل الخبر باستيلاء السلطان على مراكش منتصف خمس وثمانين وسبعمائة فأجفل أبو تاشفين وأبو العشائر ومن معهما من العرب ، واتبعهم علي بن مهدي بمن معه من المنباة . وأجفل أبو حمّو على تازى ومرّ بمرادة على قصر ونزمار فهدمه وعاث فيه ، وانكفأ راجعاً إلى تلمسان . وفارق إبنه أبو تاشفين أصحابه أبا العشائر والعرب ولحق بأبيه إلى أن كان ما نذكره إن شاءالله تعالى .

* (نهوض السلطان أبي العبّاس صاحب المغرب إلى تلمسان واستيلاؤه عليها واعتصام أبي حمو بجبل تاحجموت[3]) *

لما استولى السلطان أبو العبّاس على مراكش كما قلناه ، رجع إلى دار ملكه بفاس وقد آسفه السلطان أبو حمو باجلابه على وطنه هو وابنه أبو تاشفين مع العرب أيام مغيبه بمراكش ، فأجمع الرحلة إلى تلمسان ، وخرج في عساكره . وراجع يوسف بن علي الطاعة ورحل معه في جموعه . وبلغ الخبر إلى السلطان أبي حمو فتردد بين الحصار بتلمسان أو مفارقتها . وكان بينه وبين ابن الأحمر صاحب الأندلس مواصلة ، ولابن الأحمر دالة على السلطان أبي العباس كما مرّ . فكان يحفظ له الشأن في قصد تلمسان ويلبثه عنها فيعطيه المقادة في ذلك ، فيعلّل هو السلطان أبا حمو بأنّ السلطان أبا العبّاس لا يصل إليه . ثم أجمع السلطان أبو العبّاس أمره ، ونهض على حين غفلة مغذّاً إلى تلمسان . وتقدّم الخبر إلى أبي حمو فأجمع مفارقة تلمسان بعد أن أظهر لأوليائه وأهل دولته أنه على الحصار . ثم خرج حين غشية الليل الى معسكره بالصفيف ، وافتقده أهل بلده من صبيحتهم ، فتبادر أكثرهم إليه متعلّقين بأذياله خوفاً من معرّة العدوّ ، ثم ارتحل يطوي المراحل إلى البطحاء ، ودخل السلطان أبو

(١) وفي نسخة ثانية : المنبات .

(٢) وفي نسخة ثانية : من أحواز .

(٣) وفي نسخة ثانية : بحصن تاجحمومت .

العبّاس تلمسان واستولى عليها ، وجهّز العساكر لاتباع أبي حمو وقومه ، فأجفل من البطحاء ولحق بتاحجموت فاعتصم بمعقلها ولحق به ابنه المنتصر من مليانة بما كان معه من الذخيرة ، فاستمدّ بها وأقام هناك عازماً على الامتناع والله تعالى أعلم .

* (رجوع السلطان أبي العباس الى المغرب واختلال دولته ورجوع السلطان أبي حمو الى ملكه بتلمسان) *

كان السلطان أبو العباس لما استولى على مملكة تلمسان ، طيّر كتبه ورسله بفتحها إلى ابن الأحمر صاحب الأندلس ، ويعتذر إليه من مخالفة رأيه في الحركة إليها . وقد كان ابن الأحمر آسفه ذلك إلى ما انتظم إليه من النزعات الملوكية التي يؤسف بها بعضهم بعضاً ، وهو يطوي جوانحه عليها ، واطلع على فساد طاقة السلطان أبي العبّاس في أهل دولته وفقد[1] ضمائرهم له ، فأزعج لوقته موسى ابن السلطان أبي عنان من أعياص ملكهم ، كان عنده بالأندلس ، وجهّزه بما يحتاج إليه وبعث في خدمته مسعود بن رحّو بن ماسالي[2] وزيرهم المشهور ، وأركبه السفن إلى سبتة ، فنزلوا بساحتها أوّل ربيع سنة ست وثمانين وسبعمائة واستولوا عليها . ثم تقدّموا إلى فاس فنازلوا دار الملك أياماً وبها محمد بن حسن كاتب محمد بن عنان القائم بدولة السلطان أبي العباس والمستبدّ عليه ، واشتدّوا في حصارها وتوافت إليهم الأمداد والحشود فداخله الخور وألقى بيده ، وداخل السلطان موسى إلى دار الملك تاسع عشر ربيع الأوّل من السنة ، وجلس على أريكته ، وآتاه الناس طاعتهم . وطار الخبر إلى السلطان أبي العباس بتلمسان وقد تجهّز لاتباع أبي حمو ، ونزل على مرحلة من تلمسان بعد أن أغراه ونزمار بن عريف أمير سويد بتخريب قصور الملك بتلمسان ، وكانت لا يعبّر عن حسنها ، اختطّها السلطان أبو حمو الأوّل وابنه أبو تاشفين ، واستدعى لها الصنّاع والفعلة من الأندلس لحضارتها وبداوة دولتهم يومئذ بتلمسان ، فبعث إليهما السلطان أبو الوليد صاحب الأندلس بالمهرة والحذّاق من أهل صناعة البناء بالأندلس ، فاستجادوا لهم القصور والمنازل والبساتين بما أعيا على الناس بعدهم أن يأتوا بمثله ،

---

(١) وفي نسخة ثانية : ونغل .

(٢) وفي نسخة ثانية : ماساي .

فأشار ونزمار على السلطان أبي العبّاس بتخريب هذه القصور وأسوار تلمسان انتقاما بزعمه من أبي حمو ، وأخذاً بالثأر منه فيما اعتمده من تخريب قصر الملك بتازى ، وتخريب قصره هو بمرادة ، فأتى عليها الخراب أسرع من لمح البصر . وبينما هو في ذلك وهو يروم السفر لاتباع أبي حمو ، إذ جاءه الخبر بأنّ السلطان موسى ابن عمه السلطان أبي عنّان قد استولى على دار ملكهم بفاس ، واقتعد أريكتهم ، فكرّ راجعاً إلى المغرب لا يلوي على شيء ، وترك تلمسان لشأنها ، وكان من أمره ما يأتي ذكره في أخبارهم ، وطار الخبر إلى السلطان أبي حمو بمكانه من تاحجموت ، فاغذّ السير إلى تلمسان ودخلها ، وعاد إلى ملكه بها ، وتفجّع لتلك القصور بما ذهب من رونق حسنها ، وراجع دولته بني عبد الواد وسلطانهم بتلمسان والله سبحانه وتعالى أعلم .

* (تجدّد المنافسة بين أولاد السلطان أبي حمو ومجاهرة أبي تاشفين بذلك لهم ولأبيه) *

كان التنافس بين هؤلاء الأولاد خفيًّا على الناس بما كان السلطان أبوهم يؤامل بينهم ويداري بعضهم عن بعض . فلما خرجوا أمام بني مرين وعادوا إلى تلمسان صار تنافسهم إلى العداوة . واتّهم أبو تاشفين أباه بمالأة إخوته عليه ، فشمّر لعقوقه وعداوته ! وشعر السلطان بذلك فأعمل الحركة إلى ناحية البطحاء مورياً بإصلاح العرب ، ومعتزماً على لقاء ابنه المنتصر بمليانة جناحه ، ويتخطّى إلى الجزائر فيجعلها دار ملكه بعد أن استخلف بتلمسان ابنه أبا تاشفين وحالفه على المناصحة . واطلع موسى بن يخلف على خبيئة السلطان بذلك ، فدسّ بها إلى أبي تاشفين على عادته ، فطار به الأسف كل مطار وأغذّ السير من تلمسان فيمن معه من العسكر ، وصبح أباه بأسافل البطحاء قبل أن يتصل بالمنتصر ، وكشف القناع عن التكبّر والتسخط على ما بلغه ، فحلف له السلطان على ذلك وأرضاه بالرجوع معه إلى تلمسان فرجعا جميعاً .

* (خلع السلطان أبي حمو واستبداد ابنه أبي تاشفين بالملك واعتقاله اياه) *

ولما رجع السلطان من البطحاء وبطل ما كان يؤمّله من الاتصال بالمنتصر ، دسّ إليه

مع خالصة من أهل دولته يعرف بعلي بن عبد الرحمن بن الكليب بأحمال من المال يودعها إلى أن يجد السبيل لحاجة نفسه . وكتب له بولاية الجزائر ليقيم بها حتى يخلص إليه . واطلع موسى على ذلك فأطلع أبا تاشفين على الخبر ، فبعث في أثره من حاشيته من اغتال ابن الكليب وجاء إليه بالمال والكتب ، فاطلع منها على حقيقة أمرهم وأنهم متربّصون به ، فاستشاط وجاهر أباه وغدا عليه بالقصر ، فأوقفه على الكتاب وبالغ في عذله . وتحيّز موسى بن يخلف إلى أبي تاشفين ، وهجر باب السلطان وأغرى به ابنه فغدا على أبيه بالقصر بعد أيام وخلعه ، وأسكنه بعض حجر القصر ، ووكّل به ، واستخلص ما كان معه من الأموال والذخيرة . ثم بعث به إلى قصبة وَهْرَان فاعتقله بها ، واعتقل من حضر بتلمسان من إخوته ، وذلك آخر ثمان وثمانين وسبعمائة وبلغ الخبر إلى المنتصر بمليانة وأبي زيان وعُـمَيْر ، فلحقوا بقبائل حُصَـيْن واستذمّوا بهم ، فأذمّوهم وأنزلوهم عندهم بجبل تيطري . وجمع أبو تاشفين العساكر واستألف العرب من سويد وبني عامر ، وخرج في طلب المنتصر وإخوته ، ومرّ بمليانة فملكها . ثم تقدّم إلى جبل تيطري وأقام في حصارهم به ، وهم ممتنعون عليه . والله تعالى أعلم .

* (خروج السلطان أبي حمو من الاعتقال ثم القبض عليه وتغريبه الى المشرق) *

لما طال مقام أبي تاشفين على تيطري لحصار إخوته ، ارتاب بأمر أبيه وطول مغيبه عنه . وشاور أصحابه في شأنه ، فأشاروا بقتله واتفقوا على ذلك ، فبعث أبو تاشفين ابنه أبا زيّان في لمة من حاشيته فيهم ابن الوزير عمران بن موسى ، وعبدالله ابن الخراساني ، فقتلوا من كان معتقلاً بتلمسان من أبناء السلطان ، وتقدّموا إلى وَهْـرَان وسمع أبو حمّو بقدومهم ، فأوجس الخيفة منهم واطلع من جدران القصبة ينادي بالصريخ في أهل البلد ، فتبادروا إليه من كل جهة ، وتدلى لهم بحبل وصله من عمامته التي كان متعمماً بها ، فشالوه حتى استقرّ بالأرض واجتمعوا إليه . وكان الرهط الذين جاؤا والقتلة بباب القصر ، وقد أغلقه دونهم . فلما سمعوا الهيعة واستيقنوا الأمر ، طلبوا

النجاة بدمائهم . واجتمع أهل البلد على السلطان ، وتولى كبر ذلك خطيبهم ، وجدّدوا له البيعة وارتحل من حينه إلى تلمسان ، فدخلها أوائل تسع وثمانين وسبعمائة وهي يومئذ عورة بما كان بنو مرين هدموا من أسوارها وأزالوا حصنها . وبعث فيمن كان مخلفاً بأحياء بني عامر من أكابرهم ووجوههم ، فقدموا عليه . وطار الخبر إلى أبي تاشفين بمكانه من حصار تيطري ، فانكفأ راجعاً إلى تلمسان فيمن معه من العساكر والعرب ، وبادره قبل أن يستكمل أمره فأحيط به . ونجا إلى مأذنة الجامع فاعتصم بها ، ودخل أبو تاشفين القصر ، وبعث في طلبه . وأخبر بمكانه فجاء إليه بنفسه واستنزله من المأذنة ، وأدركته الرقّة ، فجهش بالبكاء وقبّل يده ، وغدا به إلى القصر واعتقله ببعض الحجر هنالك ، ورغب إليه أبوه في تسريحه إلى المشرق لقضاء فرضه ، فشارط بعض تجّار النصارى المتردّدين إلى تلمسان من القيطلان على حمله إلى الإسكندرية ، وأركبه السفن معهم بأهله من فرضة وَهْرَان ذاهباً لطيبة موكّلاً به ، وأقبل أبو تاشفين على القيام بدولته ، والله تعالى أعلم .

* (نزول السلطان أبي حمو ببجاية من السفين واستيلاؤه على تلمسان ولحاق أبي تاشفين بالمغرب) *

لما ركب السلطان أبو حمّو السفين ذاهباً إلى الإسكندرية ، وفارق أعمال تلمسان وحاذى بجاية ، داخل صاحب السفينة في أن ينزله ببجاية ، فأسعفه بذلك . فخرج من الطارمة التي كان بها معتقلاً ، وصار الموكّلون به في طاعته . وبعث إلى محمد بن أبي مهدي قائم الأسطول ببجاية المستبدّ على أميرها من ولد السلطان أبي العبّاس بن أبي حفص . وكان محمد خالصة المستنصر بن أبي حمو من ناحية دولتهم . قد خلص إلى بجاية من تيطري بعدما تنفس لحصار عنهم فبعثه ابن أبي مهدي إلى السلطان أبي حمّو بالإجابة إلى ما سأل . وأنزله ببجاية آخر تسع وثمانين وسبعمائة وأسكنه بستان الملك المسمّى بالرفيع ، وطيّر بالخبر إلى السلطان بتونس ، فشكر له ما آتاه من ذلك ، وأمره بالاستبلاغ في تكريمه ، وأن يخرج عساكر بجاية في خدمته إلى حدود عمله متى احتاج إليها . ثم خرج السلطان أبو حمو من بجاية ونزل متيجة واستنفر طوائف العرب من كل ناحية فاجتمعوا إليه ونهض يريد تلمسان واعصوصب

بنو عبد الواد على أبي تاشفين بما بذل فيهم من العطاء وقسم من الأموال ، فنابذوا السلطان أبا حمّو واستصعب عليه أمرهم . وخرج إلى الصحراء وخلف ابنه أبا زيّان في جبال شلف مقيماً لدعوته . وبلغ إلى تاسة[1] من ناحية المغرب . وبلغ الخبر إلى أبي تاشفين فبعث عسكراً إلى شلف مع ابنه أبي زيّان ووزيره محمد بن عبد الله ابن مسلم ، فتواقفوا مع أبي زيّان ابن السلطان أبي حمو فهزمهم . وقتل أبو زيان بن أبي تاشفين ووزيره ابن مسلم ، وجماعة من بني عبد الواد . وكان أبو تاشفين لما بلغه وصول أبيه إلى تاسة ، سار إليه من تلمسان في جموعه ، فأجفل أبو حمو إلى وادي صا[2] واستجاش بالأحلاف من عرب المعقل هنالك ، فجاؤا لنصره ، ورعوا زمامه فنزلها ، وأقام أبو تاشفين قبالته وبلغه هنالك هزيمة ابنه ومقتله ، فولّى منهزماً إلى تلمسان وأبو حمّو في اتباعه . ثم سرّح أبو تاشفين مولاه سعادة في طائفة من العسكر لمحاولة العرب في التخلّي عن أبي حمو ، فانتهز فيه الفرصة وهزمه وقبض عليه ، وبلغ الخبر إلى أبي تاشفين بتلمسان ، وكان يؤمّل النجاح عند سعادة فيما توجه فيه ، فأخفق سعيه ، وانفض عنه بنو عبد الواد والعرب الذين معه ، وخرج هارباً من تلمسان مع أوليائه من سويد إلى مشاتيهم بالصحراء . ودخل السلطان أبو حمّو تلمسان في رجب سنة تسعين وسبعمائة وقدم عليه أبناؤه فأقاموا معه بتلمسان ، فطرق المنتصر ابنه المرض فهلك بها لأيام من دخوله تلمسان ، واستقرّ الأمر على ذلك ، والله أعلم .

* (نهوض أبي تاشفين بعساكر بني مرين ومقتل السلطان أبي حمو) *

لما خرج أبو تاشفين من تلمسان أمام أبيه ، واتصل بأحياء سويد ، أجمعوا رأيهم على الاستنجاد بصاحب المغرب ، فوفد أبو تاشفين ومعه محمد بن عريف شيخ سويد على السلطان أبي العبّاس صاحب فاس ، وسلطان بني مرين صريخين على شأنهما ، فقبل وفادتهما ووعدهما بالنصر من عدوّهما . وأقام أبو تاشفين عنده ينتظر إنجاز وعده ،

---

(١) وفي نسخة أخرى : تامة .

(٢) ويدعى وادي (زا) وهو الى يمين وادي ملوية. ونطقه عند أهل المغرب بين الصاد والزاي .

وكان بين أبي حمو وابن الأحمر صاحب الأندلس وشيجة ودّ وعقيدة وصلة ، ولابن الأحمر دالة وتحكّم في دولة أبي العبّاس صاحب المغرب بما سلف من مظاهرته على أمره منذ أول دولته ، فبعث أبو حمو في الدفاع عنه من إجازة أبي تاشفين من المغرب إليه ، فلم يجبه صاحب المغرب وفاء بذمّته وعلّله بالقعود عن نصره . وألحّ عليه ابن الأحمر في ذلك ، فتعلّل بالمعاذير . وكان أبو تاشفين قد عقد لأوّل قدومه مع وزير الدولة محمد بن يوسف بن علاّل حلفاً اعتقد الوفاء به ، فكان هواه في إنجاده ونصره من عدوّه ، فلم يزل يفتّل لسلطانه في الذروة والغارب ، ويلوي عن ابن الأحمر المواعيد حتى أجابه السلطان إلى غرضه .

وسرّح ابنه الأمير أبا فارس والوزير محمد بن يوسف بن علال في العساكر لمصارخة أبي تاشفين . وفصلوا عن فاس أواخر إحدى وتسعين وسبعمائة وانتهوا إلى تازى . وبلغ خبرهم إلى السلطان أبي حمّو فخرج من تلمسان وجمع أشياعه من بني عامر والخراج[1] بن عبيدالله وقطع جبل بني ورنيد المطل على تلمسان ، وأقام بالغيران من جهاته . وبلغ الخبر إلى أبي تاشفين فقدم إلى تلمسان فجدد المكر والخديعة وشيطان الفتنة والشر موسى بن يخلف ، فاستولى عليها وأقام دعوة أبي تاشفين فيها ، فطيّر الخبر إلى أبي حمو ابنه عمير ، فصبحه بها لليلة من مسيرة ، فأسلمه أهل البلد . وتقبّض عليه ، وجاء به أسيراً إلى أبيه بمكانه من الغيران ، فوبّخه أبو حمّو على فعاله . ثم أذاقه أليم عقابه ونكاله ، وأمر به فقتل أشنع قتلة . وجاءت العيون إلى أبي فارس ابن صاحب المغرب ووزيره ابن علال بمكان أبي حمّو واغرابه بالغير ان ، فنهض الوزير ابن علال في عساكر بني مرين لغزوه ، وسار أمامهم سليمان بن ناجي من الأحلاف إحدى بطون المعقل ، يدل بهم طريق القفر حتى صبحوه ومن معه من أحياء الخراج في مكان مقامتهم بالغيران . وناوشوهم القتال فلم يطيقوهم لكثرتهم ، وولّوا منهزمين ، وكبا بالسلطان أبي حمر فرسه فسقط وأدركه بعض فرسانهم وعرفه فقتله قعصاً بالرماح ، وجاؤا برأسه إلى الوزير ابن علاّل وأبي تاشفين ، وجيء بابنه عُـمَيْر أسيراً . وهمّ أبو تاشفين أخوه بقتله فمنعوه أياماً ، ثم أمكنوه منه فقتله ، ودخل أبو تاشفين تلمسان أواخر إحدى وتسعين وسبعمائة وخيّم الوزير وعساكر بني مرين

---

(١) وفي نسخة أخرى : الجراح .

بظاهر البلد حتى دفع إليهم ما شارطهم عليه من المال . ثم قفلوا إلى المغرب وأقام هو بتلمسان يقيم دعوة السلطان أبي العبّاس صاحب المغرب ويخطب له على منابره ، ويبعث إليه بالضريبة كل سنة كما اشترط على نفسه إلى أن كان ما نذكره إن شاءالله تعالى .

* (مسير أبي زيان بن أبي حمو لحصار تلمسان ثم اجفاله عنها ولحاقه بصاحب المغرب) *

كان السلطان أبو حمو قد ولّى على الجزائر ابنه أبا زيّان لما عاد إلى ملكه بتلمسان ، وأخرج منها أبا تاشفين . فلما قتل أبو حمّو بالغيران كما قلناه ، وخرج أبو زيّان من الجزائر ناجياً إلى أحياء حُصَيْن يؤمّل الكرّة بهم والأخذ بثأر أبيه وأخيه ، فاشتملوا عليه وأجابوا صريخه . ثم وفد عليه أمراء بني عامر من زغبة يدعونه لملكه ، فسارإليهم وقام بدعوته وطاعته شيخهم المسعود بن صغير ، ونهضوا جميعاً إلى تلمسان في رجب سنة إثنتين وتسعين وسبعمائة فحاصروها أياماً ، وسرّب أبو تاشفين المال في العرب ، فافترقوا على أبي زيّان ، وخرج إليه أبو تاشفين فهزمه في شعبان من السنة . ولحق بالصحراء واستألف أحياء المعقل ، وعاود حصار تلمسان في شوّال ، وبعث أبو تاشفين ابنه صريخاً إلى المغرب ، فجاءه بمدد من العسكر . ولما انتهى إلى تاوريرت أفرج أبو زيان عن تلمسان ، وأجفل إلى الصحراء . ثم أجمع رأيه على الوفادة إلى صاحب المغرب فوفد عليه صريخاً ، فتلقّاه وبرّ مقدمه ، ووعده النصر من عدوّه ، وأقام عنده إلى حين مهلك أبي تاشفين والله تعالى أعلم .

* (وفــاة أبـي تــاشفين واستيلاء صاحب المغرب على تلمسان) *

لم يزل هذا الأمير أبو تاشفين مملكاً على تلمسان ومقيماً فيها لدعوة صاحب المغرب أبي العباس ابن السلطان أبي سالم ، ومؤدّياً للضريبة التي فرضها عليه منذ أوّل ملكه ، وأخوه الأمير أبو زيّان مقيم عند صاحب المغرب ينتظر وعده في النصر عليه

حتى تغيّر السلطان أبو العبّاس على أبي تاشفين في بعض النزغات الملوكية ، فأجاب داعي أبي زيّان وجهّزه بالعساكر لملك تلمسان ، فسار لذلك منتصف سنة خمس وتسعين وسبعمائة وانتهى إلى تازى وكان أبو تاشفين قد طرقه مرض أزمن به . ثم هلك منه في رمضان من السنة . وكان القائم بدولته أحمد بن العزّ من صنائعهم ، وكان يمت إليه بخؤلة ، فولّى بعده مكانه صبياً من أبنائه وقام بكفالته ، وكان يوسف بن أبي حمّو وهو ابن الزابية والياً على الجزائر من قبل أبي تاشفين ، فلما بلغه الخبر أغذّ السير مع العرب ، ودخل تلمسان فقتل أحمد بن العز والصبيّ المكفول ابن أخيه تاشفين . فلّما بلغ الخبر إلى السلطان أبي العبّاس صاحب المغرب ، خرج إلى تازى وبعث من هناك إبنه أبا فارس في العساكر ، وردّ أبا زيان بن أبي حمو إلى فاس ووكّل به . وسار ابنه أبو فارس إلى تلمسان فملكها ، وأقام فيها دعوة أبيه ، وتقدّم وزير أبيه صالح بن حمو إلى مليانة فملكها ، وما بعدها من الجزائر وتدلس إلى حدود بجاية . واعتصم يوسف ابن الزابية بحصن تاحجموت . وأقام الوزير صالح يحاصره ، وانقرضت دعوة بني عبد الواد من المغرب الأوسط ، والله غالب على أمره .

* (وفاة أبي العباس صاحب المغرب واستيلاء أبي زيان بن أبي حمو على تلمسان والمغرب الأوسط) *

كان السلطان أبو العباس بن أبي سالم لما وصل إلى تازى ، وبعث إبنه أبا فارس إلى تلمسان فملكها ، وأقام هو بتازى يشارف أحوال ابنه ووزيره صالح الذي تقدّم لفتح البلاد الشرقية . وكان يوسف بن علي بن غانم أمير أولاد حسين من المعقل قد حجّ سنة ثلاث وتسعين وسبعمائة واتصل بملك مصر من الترك الملك الظاهر برقوق ، وتقدّمت إلى السلطان فئة وأخبرته بمحلّه من قومه ، فأكرم تلقّيه وحمله بعد قضاء حجّة هدية إلى صاحب المغرب ، يطوقه فيها بتحف من بضائع بلده على عادة الملوك. فلمّا قدم بها يوسف على السلطان أبي العباس عظم موقعها ، وجلس في مجلس جعله لعرضها والمباهاة بها ، وشرع في المكافأة عنها بتخيّر الجياد والبضائع والثياب ، حتى استكمل من ذلك مارضيه ، واعتزم على انفاذها مع يوسف بن علي حاملها الأول . وأنه يرسله من تازى أيام مقامته هناك ، فطرقه هنالك مرض كان فيه حتفه في محرم

سنة ست وتسعين وسبعمائة واستدعوا ابنه أبا فارس من تلمسان فبايعوه بتازى ، وولّوه مكانه ، ورجعوا به إلى فاس ، وأطلقوا أبا زيان بن أبي حمو من الاعتقال ، وبعثوا به إلى تلمسان أميراً عليها ، وقائماً بعد السلطان أبي فارس فيها ، فسار إليها وملكها ، وكان أخوه يوسف بن الزابية قد اتصل بأحياء بني عامر يروم ملك تلمسان والاجلاب عليها ، فبعث إليهم أبو زيان عندما بلغه ذلك وبذل لهم عطاء جزيلاً على أن يبعثوا به إليه ، فأجابوه إلى ذلك وأسلموه إلى ثقات أبي زيان ، وساروا به فاعترضهم بعض أحياء العرب ليستنقذوه منهم ، فبادروا بقتله ، وحملوا رأسه إلى أخيه أبي زيّان فسكنت أحواله ، وذهبت الفتنة بذهابه ، واستقامت أمور دولته ، وهم على ذلك لهذا العهد والله غالب على أمره .

وقد انتهى بنا القول في دولة بني عبد الواد من زناتة الثانية ، (وبقي) علينا خبر الرهط الذين تحيّزوا منهم إلى بني مرين منذ أول الدولة ، وهم بنو كمي من فصائل علي بن القاسم إخوة طاع الله بن علي ، وخبر بني كندور أمرائهم بمراكش ، فلنرجع إلى ذكر أخبارهم ، وبها نستوفي الكلام في أخبار بني عبد الواد . والله وارث الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين .

يوسف بن السلطان أبي حمو موسى بن يوسف بن عبد الرحمن بن يحيى بن يغمراسن بن زيان بن ثابت بن محمد بن زكراز بن تيندوكسن بن طاع الله

أبو تاشفين
عمر

أبو زيان محمد بن عثمان
ابو ثابت

أبو تاشفين بن أبي حمو موسى بن عثمان
فارس
أبو زيان
زكرار

عثمان
الحسن بن جابر بن يوسف
عبد الملك بن محمد بن قاسم بن درع

عثمان بن يحيى بن محمد بن أحمد بن يعلى

يوسف بن محمد

عمر بن عموش
الناصر

* (الخبر عن بني كميّ احد بطون بني القاسم بن عبد الواد وكيف نزعوا الى بني مرين وما صار لهم بنواحي مراكش وأرض السوس من الرياسة) *

قد تقدّم لنا أوّل الكلام في بني عبد الواد أنّ بني كمي هؤلاء من شعوب القاسم ، وأنهم بنو كمي بن يمل بن يزكن بن القاسم إخوة طاع الله وبني دلول وبني معطي دلول . وبني معطي بن جوهر بن علي[1] . وذكرنا ما كان بين طاع الله وبين إخوانهم بني كمي من الفتنة ، وكيف قتل كندوز بن عبدالله كبير بني كمي زيّان بن ثابت بن محمد كبير بني طاع الله ، وأنّ جابر بن يوسف بن محمد القائم بالأمر من بعده ثار منهم بزيّان ، وقتل كندوزاً غيلة أو حرباً ، وبعث برأسه إلى يغمراسن بن زيّان فنصب عليها أهل . بيته القدور شفاية لنفوسهم . واستمرّ الغلب بعدها على بني كمي ، فلحقوا بحضرة تونس وكبيرهم إذ ذاك عبدالله بن كندوز. ونزلوا على الأمير أبي زكريا حتى كان من استيلائه على تلمسان ما قدّمنا ذكره . وطمع عبدالله في الاستبداد بتلمسان ، فلم يتفق ذلك . ولما هلك مولانا الأمير أبو زكريا ، وولي ابنه المنتصر ، أقام عبدالله صدراً من دولته . ثم ارتحل هو وقومه إلى المغرب ونزل على يعقوب بن عبد الحق قبل فتح مراكش ، فاهتزّ يعقوب لقدومه وأحلّه بالمكان الرفيع من دولته . وأنزل قومه بجهات مراكش ، وأقطعهم البلاد التي كفتهم مهماتهم . وجعل السلطان انتجاع إبله وراحلته في أحيائهم . وقدّم على رعايتها حسّان بن أبي سعيد الصبيحي وأخاه موسى ، وصلا في لفيفه من بلاد المشرق ، وكانا عارفين برعاية الإبل والقيام عليها ، وأقاموا يتقلّبون في تلك البلاد ، ويتعدّون في نجعتها إلى أرض السوس . وأوفد يعقوب بن عبد الحق عبدالله بن كندوز هذا على المنتصر صاحب أفريقية سنة خمس وستين وستمائة مع عامر ابن أخيه إدريس كما قدّمناه . والتحم بنو كمي ببني مرين وأصبحوا إحدى بطونهم . وهلك عبدالله بن كندوز ، وصارت رياستهم من بعده لابنه عمر بن عبدالله . فلمّا نهض يوسف بن يعقوب بن عبد الحق

(١) وفي نسخة أخرى : وبني دلوك وبني موطي بن جوهر بن علي .

إلى المغرب الأوسط وشغل بحصار تلمسان ، وتحدّث الناس بما نزل بعبد الواد من بني مرين ، أخذت بني كمي الحمية وامتعضوا لقومهم ، وأجمعوا الخلاف والخروج على السلطان . ولحقوا بحاجة[1] سنة ثلاث وسبعمائة ، واستولوا على بلاد السوس ، فخرج إليهم أخو السلطان الأمير بمراكش يعيش بن يعقوب ، فناجزوه الحرب بتادارت وغلبوه ، واستمرّوا على خلافهم . ثم عاود محاربتهم بتامطولت سنة أربع وسبعمائة بعدها ، فهزمهم الهزيمة الكبرى التي قصّت جناحهم . وقتل عمر بن عبدالله وجماعة من كبرائهم ، وفرّوا أمامه إلى الصحراء ، ولحقوا بتلمسان وهدم يعيش بن يعقوب تارودنت قاعدة أرض السوس ، وأقام بنوكندوز بعدها بتلمسان نحواً من ستة أشهر . ثم توجّسوا الغدر من ولد عثمان بن يغمراسن فرجعوا إلى مراكش . واتبعهم عساكر السلطان وأبلى منهم في القتال عنهم محمد بن أبي بكر بن حمامة بن كندوز ، وخلصو إلى منجاتهم مشرّدين بصحراء السوس إلى أن هلك السلطان يوسف بن يعقوب . وراجعوا طاعة الملوك بالمغرب فعفوا لهم عما سلف من هذه الجزيرة وأعادوهم إلى مكانهم من الولاية ، فأمحضوا النصيحة والمخالصة . وكان أميرهم من بعد عمر ابنه محمد ، وأقام في إمارتهم سنين[2] ثم إبنه موسى بن محمد من بعده كذلك . واستخلصه السلطان أبو الحسن أيام الفتنة بينه وبين أخيه أبي عليّ ، لعهد أبيهما السلطان أبي سعيد ومن بعده ، فكانت له في المدافعة عن نواحي مراكش آثار وأيام . ثم هلك موسى بن محمد فولّى السلطان أبو الحسن مكانه ابنه يعقوب بن موسى . ولما غلب على تلمسان وأصار بني عبد الواد في خوله وجنوده ، تمشّت رجالاتهم وساموا أشجانهم حتى اذا كانت واقعة القيروان وتواقف السلطان وبني سُلَيْم داخلهم يعقوب بن موسى في أن ينخذل عن السلطان إليهم ببني عبد الواد ومن إليهم من مغراوة وتوجين ، وأوعدهم لذلك ، ثم مشى في قومه وكافة بني عبد الواد فأجابوه الى ذلك . ولحقوا جميعاً ببني سُلَيْم ، فجرّوا بذلك الهزيمة على السلطان وكانت نكبة القيروان المشهورة . ولحقوا[3] بعدها بتلمسان ، وولّوا أمرهم في

(١) وفي نسخة أخرى : ولحقوا بالحاحة . ولم يذكر صاحب معجم البلدان هذه ولا تلك وانما ذكر حاجة : موضع في قول لبيد : فذكّرها مناهل آجنات بحاجة ، لا تنزّحُ بالدّوالي .

(٢) كذا في النسخة الباريسية وفي نسخة أخرى : ستتين .

(٣) الضمير يعود الى بني عبد الواد .

بني يغمراسن . وهلك يعقوب بن موسى بأفريقية ، ولحق أخوه رحو بالمغرب . وكان السلطان أبو عنّان قد استعمل على جماعتهم وعملهم عبو بن يوسف بن محمد . وهو ابن عمهم دنيا ، فأقام فيهم كذلك حتى هلك ، فولي من بعده إبنه محمد بن عبو وهم على ذلك لهذا العهد ، يعسكرون للأمير بمراكش ، ويتولون من خدمة السلطان هنالك ما لهم فيه الغناء والكفاية . فكأنّهم بمعزل عن بني عبد الواد لاستحكام العداوة بمقتل زيان بن ثابت . والله وارث الأرض ومن عليها ، وهو خير الوارثين ، لا رب غيره ولا معبود سواه .

يعقوب بن موسى بن محمد بن عمر بن عبدالله بن كندوز

رحو — بن موسى

محمد بن عبو بن يوسف — بن محمد

محمد بن أبي بكر بن حمامة — بن كندوز

* (الخبر عن بني راشد بن محمد بن يادين وذكر أوّليتهم وتصاريف أحوالهم) *

وإنما قدّمنا ذكرهم قبل استتمام بطون بني يادين لأنهم لم يزالوا أحلافاً لبني عبد الواد ومن جملتهم ، فكانت أخبارهم من أخبارهم ، وأمّا راشد أبوهم فهو أخو يادين . واختصّ بنوه كما قلنا ببني عبد الواد ، وكانت مواطنهم بالصحراء بالجبل المعروف براشد اسم أبيهم . وكانت مواطن مديونة من قبائل البربر قبلة تاسالت وبنو ورنيد من بطون دمر قبلة تلمسان الى قصر سعيد . وكان جبل هوّارة موطناً لبني يلوما الذين كان لهم الملك كما قدّمنا . ولما اضمحل أمر بني يلوما وذهبت دولتهم ، زحف بنو راشد هؤلاء من بطونهم بجبل راشد إلى بسائط مديونة وبني ورنيد ، فشنّوا عليهم الغارات ، وطالت بينهم الحرب إلى أن غلبوهم على مواطنهم وألجؤهم إلى الأوعار ، فاستوطن بنو ورنيد الجبل المطل على تلمسان ، واستوطن مديونة جبل تاسالت . وملك بنو راشد بسائطهم القبلية . ثم استوطنوا جبلهم المعروف بهم لهذا العهد ، وهو بلد بني يفرن الذين كانوا ملوك تلمسان لأول الاسلام ، وكان منهم أبو قرّة الصفري كما قدّمناه . وكان منهم بعد ذلك يعلى بن محمد الأمير الذي قتله جوهر الصقلي قائد الشيعة كما ذكرناه في أخبارهم . ويعلى هذا هو الذي اختط بهذا الجبل مدينة ايفكان التي هدمها جوهر يوم قتله . فلما ملك بنو راشد هذا الجبل استوطنوه وصار حصناً لهم ، ومجالاتهم في ساحة القبلة إلى أن غلبهم العرب عليها لهذا العهد ، وألجؤهم إلى الجبل . وكان غلب بني راشد على هذه الأوطان بين دخول بني عبد الواد إلى المغرب الأوسط ، وكانوا شيعة لهم وأحلافاً في فتنتهم مع بني توجين وبني مرين ، وكانت رياستهم في بيت منهم يعرفون ببني عِمْرَان ، وكان القائم بها لأوّل دخولهم ابراهيم بن عمران واستبدّ عليه إخوه وترمار[1] وقام بأمرهم إلى أن هلك ، فولى ابنه مقاتل بن وترمار وقتل عمه ابراهيم وافترقت رياسة بني عمران من يومئذ بين بني ابراهيم وبني وترمار إلا أنّ رياسة بني ابراهيم أظهر ، فولي بعد ابراهيم بن عمران إبنه وترمار وكان معاصراً ليغمراسن بن زيّان وطال عمره ، ولما هلك لتسعين من المائة السابعة ولي

---

(١) هكذا في الجدول المرفق وترمار وفي نسخة أخرى : ونزمار .

أمرهم غانم ابن أخيه محمد بن ابراهيم . ثم كان فيهم من موسى بن يحيى بن وترمار ، لا أدري معاقباً لغانم أو توسطها أحد . ولما زحف بنو مرين إلى تلمسان آخر زحفهم ، صار بنو راشد هؤلاء إلى طاعة السلطان أبي الحسن ، وشيخهم لذلك العهد أبو يحيى موسى بن عبد الرحمن بن وترمار بن ابراهيم . وانحصر بتلمسان بنو عمه كرجون بن وترمار وانقرض أمر بني عبد الواد وأشياعهم . ونقل بنو مرين رؤوس زناتة أجمع إلى المغرب الأقصى ، فكان بنو وترمار هؤلاء ممن صار إلى المغرب وأوطنوه إلى أن صار الأمر لبني عبد الواد الكرّة الثالثة على يد أبي حمو الأخير موسى بن يوسف . وكان شيخ بني راشد لعهده ابن أبي يحيى بن موسى المذكور أقبل إليهم من المغرب من إيالة بني مرين ، فاتهمه أبو حمّو بمداخلتهم ، فتقبّض عليه واعتقله مدّة بوَهْرَان . وفرّ من معتقله فلحق بالمغرب وارتحل بين أحيائهم مدّة . ثم رجع إلى الطاعة واقتضى العهد من السلطان أبي حمو ، وولاّه على قومه . ثم تقبّض عليه واعتقله إلى أن قتله بمحبسه سنة ثمان وستين وسبعمائة ، وانقرض أمر بني وترمار بن ابراهيم ، وأمّا بنو وترمار بن عمران فقام بأمرهم بعد مقاتل بن وترمار أخوه أبو زركن[1] بن وترمار ، ثم ابنه يوسف بن أبي زركن ، ثم آخرون من بعدهم لم تحضرني أسماؤهم إلى أن غلب عليهم بنو وترمار بن ابراهيم . وقد ذهبت لهذا العهد رياسة أولاد عمران جميعاً ، وصار بنو راشد هؤلاء خولاً للسلطان وجباية ، وبقيتهم بجبلهم على الحال التي ذكرناها ، والله وارث الأرض ومن عليها ، وهو خير الوارثين .

(١) وفي نسخة ثانية : تورزكن .

زيان بن أبي يحيى بن موسى بن عبد الرحمن بن وترمار بن ابراهيم بن عمران

موسى بن يحيى

كرجون

مقاتل

يوسف بن زركن بن وترمار

* (الخبر عن بني توجين من شعوب بني يادين من أهل هذه الطبقة الثالثة من زناتة وما كان لهم من الدولة والسلطان بالمغرب الأوسط وأوّلية ذلك ومصايره) *

كان هذا الحيّ من أعظم أحياء بني يادين وأوفرهم عدداً . وكانت مواطنهم حفافي وادي شلف قبلة جبل وانشريس من أرض السرسو ، وهو المسمّى لهذا العهد نهر صا[1] وكان بأرض السرسو بجهة الغرب منه بطون من لواتة ، وغلبهم عليها بنووجديجن

(١) وفي نسخة ثانية : نهر واصل واما صاحب معجم البلدان فقد ذكر صا : بالقصر كورة بمصر . وصا مسماة بصا بن مصر بن بيصر بن حام بن نوح .

ومطاطة . ثم صارت أرض السرسو لبني توجين هؤلاء واستضافوها الى مواطنهم الأولى وصارت مواطنهم ما بين موطن بني راشد وجبل دراك في جانب القبلة . وكانت لهم رياسة أيام صنهاجة لعطيّة بن دافلتن ، وابن عمه لقمان بن المعتز كما ذكره ابن الرقيق . ولما كانت فتنة حمّاد بن بلكين مع عمه باديس ، ونهض إليه باديس من القيروان حتى احتل بوادي شلف ، تحيّز إليه بنو توجين هؤلاء ، وكان لهم في حروب حمّاد آثار مذكورة . وكان لقمان بن المعتز أظهر من عطية بن دافلتن ، وكان قومهم يومئذ زهاء ثلاثة آلاف . وأوفد لقمان ابنه بدراً على باديس قبل اللقاء طاعة له وانحياشاً . فلما انهزم حمّاد رعى لهم باديس انحياشهم إليه ، وسوّغ لهم ما غنموه ، وعقد للقمان على قومه ومواطنه ، وعلى ما يفتحه من البلاد بدعوته . ثم انفرد برياستهم بعد حين بنو دافلتن . ويقال إنه دافلتن بن أبي بكر بن الغلب . وكانت رياستهم لعهد الموحدين لعطية بن مناد بن العبّاس بن دافلتن ، وكان يلقّب عطية الحيو . وكانت بينهم لعهده وبين بني عبد الواد حروب ، كان متولي كبرها من بني عبد الواد شيخهم لذلك العهدا عدوى بن يكنيجن[1] بن القاسم ، فلم تزل تلك الفتنة بينهم إلى أن غلبهم بنو عبد الواد آخراً على مواطنهم كما نذكره .

ولما هلك عطية الحيو قام بأمرهم أبو العبّاس ، وكانت له آثار في الإجلاب على ضواحي المغرب الأوسط . ونقض طاعة الموحدين إلى أن هلك سنة سبع وستمائة ، دسّ عامل تلمسان يومئذ أبو زيد بن لوحان[2] من اغتاله فقتله . وقام بأمرهم من بعده ابنه عبد القوي ، فانفرد برياستهم وتوارثها عقبه من بعده كما نذكره . وكان من أشهر بطون بني توجين هؤلاء يومئذ بنو يدللتن وبنو قري[3] وبنو مادون وبنو زنداك وبنو وسيل وبنو قاضي وبنو مامت ، ويجمع هؤلاء الستة بنو مدن . ثم بنو تيغرين وبنو يرناتن وبنو منكوش ، ويجمع هؤلاء الثلاثة بنو سرغين[4] ، ونسب بني زنداك دخيل فيهم ، وإنما هم من بطون مغراوة . وبنو منكوش هؤلاء منهم عبد القوي بن العبّاس ابن عطية الحيو ، هكذا رأيت نسبه لبعض مؤرّخي زناتة المنكوشي . وكانت رياسة بني

---

(١) وفي نسخة ثانية : يكنمن .

(٢) وفي نسخة ثانية : بوجان .

(٣) وفي نسخة ثانية : نمزي .

(٤) وفي نسخة ثانية : رسوغين .

توجين جميعاً عند انقراض أمر بني عبد المؤمن لعبد القويّ بن العبّاس بن عطية الحيو ، وأحياؤهم جميعاً بتلك المجالات القبلية .

فلمّا وهن أمر بني عبد المؤمن وتغلّب مغراوة على بسائط متيجة ، ثم على جبل وانشريس ، نازعهم عبد القوي هذا وقومه أمر وانشريس ، وغالبوهم إلى أن غلبوهم عليه ، واستقرّ في ملكهم وأوطنه بنو تيغرين وبنو منكوش من أحيائهم . ثم تغلبوا على منداس وأوطنها أحياء بني مدن جميعاً . وكان الظهور منهم لبني يدللتن ، ورياسة بني يدللتن لبني سلامة . وبقي بنو يرناتن من بطونهم بمواطنهم الأولى قبلة وانشريس . وكان من أحلاف بني عطية الحيو بنو تيغرين منهم خاصة ، وأولاد عزيز بن يعقوب ، ويعرفون جميعاً بالوزراء[1] ولما تغلّبوا على الأوطان والتلول ، وأزاحوا مغراوة عن المدية ووانشريس وتافركينت ، واستأثروا بملكها وملك الأوطان عن غربيها مثل : منداس والجعبات وتاوغزوت ، ورئيسهم لذلك العهد عبد القويّ بن العباس ، والكل لأمره . فصار له ملك بدوي ولم يفارق فيه سكنى الخيام ولا أبعاد النجعة ولا ائتلاف الرحلتين . ينتابون في مشاتيهم إلى مصاب والزاب ، وينزلون في المصايف بلادهم هذه من التل ولم يزل هذا شأن عبد القوي وابنه محمدا ، إلى أن تنازع بنوه الأمر من بعده ، وقتل بعضهم بعضاً . وتغلّب بنو عبد الواد على عامّة أوطانهم وأحيائهم ، واستبدّ عليهم بنو يرناتن وبنو يدللتن فصاروا إلى بني عبد الواد . وبقي أعقابهم بجبل وانشريس إلى أن انقرضوا على ما نذكره بعد .

وكان عبد القويّ لما غلب مغراوة على جبل وانشريس ، اختطّ حصن مرات ، بعد أن كان منديل المغراوي شرع في اختطاطه ، فبنى منه القصبة ولم يكمله ، فأكمله محمد بن عبد القوي من بعده . ولما استبدّ بنو أبي حفص بأمر أفريقية ، وصارت لهم خلافة الموحّدين نهض الأمير أبو زكريا إلى المغرب الأوسط ، ودخلت في طاعته قبائل صنهاجة ، وفرّت زناتة أمامه . وردّد إليهم الغزو فأصاب منهم . وتقبّض في بعض غزواته على عبد القوي بن العبّاس أمير بني توجين فاعتقله بالحضرة . ثم منّ عليه وأطلقه على أن يستألف له قومه ، فصاروا شيعة له ولقومه آخر الدهر . ونهض الأمير أبو زكريا بعدها إلى تلمسان ، فكان عبد القوي وقومه في جملته حتى اذا ملك

---

(١) وفي نسخة ثانية : بالحشم .

تلمسان ، ورجع إلى الحضرة عقد لعبد القويّ هذا على قومه ووطنه ، وأذن له في اتخاذ الآلة ، فكانت أوّل مراسم الملك لبني توجين هؤلاء . وكانت حالهم مع بني عبد الواد تختلف في السلم والحروب . ولما هلك السعيد على يد يغمراسن وقومه كما ذكرناه ، استنفر يغمراسن سائر أحياء زناتة لغزو المغرب ، ومسابقة بني مرين إليه ، فنفر معه عبد القوي في قومه سنة سبع وأربعين وستمائة وانتهوا إلى تازى ، واعترضهم أبو يحيى بن عبد الحق أمير بني مرين في قومه ، فنكصوا واتبعهم إلى انكاد فكان اللقاء ، وانكشفت جموع بني يادين وكانت الهزيمة التي ذكرناها في أخبار بني عبد الواد . وهلك عبد القوي مرجعه منها في سنته بالموضع المعروف باحمون[1] من مواطنهم . وتصدّى للقيام بعده بأمرهم ابنه يوسف ، فمكث في تلك الإمارة أسبوعاً ، ثم قتله على جدث أبيه أخوه محمد بن عبد القويّ ، وولي عهد أبيه سابع مواراته . وفرّ ابنه صالح بن يوسف إلى بلاد صنهاجة بجبال المدية ، فأقام بها هو وبنوه . واستقلّ محمد برياسة بني توجين ، واستغلظ ملكه ، وكان الفحل الذي لا يقرع أنفه . ونازعه يغمراسن أمره ونهض إلى حربه سنة تسع وأربعين وستمائة وعمد إلى حصن تافركينت فنازله ، وبه يومئذ حافده عليّ بن زيان بن محمد في عصابة من قومه ، فحاصره أياماً وامتنعت عليه فارتحل عنها ، ثم تواضعوا أوزار الحرب ودعاه يغمراسن إلى مثل ما دعا إليه أباه من غزو بني مرين في بلادهم فأجاب . ونهضوا سنة سبع وخمسين وستمائة ومعهم مغراوة فانتهوا إلى كلدمان ما بين تازي وأرض الريف . ولقيهم يعقوب بن عبد الحق في جموعه فانكشفوا ورجعوا منهزمين إلى بلادهم كما ذكرناه . وكانت بينه وبين يغمراسن بعد ذلك فتن وحروب ، فنازله فيها بجبل وانشريس مرّات ، وجاس خلال وطنه . ولم يقع بعدها بينهما مراجعة لاستبداد يغمراسن بالملك ، وسموّه إلى التغلّب على زناتة أجمع وبلادهم ، وكانوا جميعاً منحاشين إلى الدولة[2] الحفصيّة . وكان محمد بن عبد القوي كثير الطاعة للسلطان المستنصر .

(ولما نزل) النصارى الإفرنجة بساحل تونس سنة ثمان وستين وستمائة وطمعوا في ملك الحضرة ، بعث المستنصر إلى ملوك زناتة بالصريخ فصرفوا وجوههم إليه ، وخفّ من بينهم محمد بن عبد القويّ في قومه ومن احتشد من أهل وطنه ، ونزل على السلطان

(١) وفي نسخة ثانية : ماحنون ، وفي نسخة أخرى : ماحيون .
(٢) وفي نسخة ثانية : الدعوة الحفصيّة .

بتونس وأبلى في جهاد العدوّ أحسن البلاء ، وكانت له في أيامه معهم مقام مذكورة ، ومواقف مشهورة ، وعندالله محتسبة معدودة . ولما ارتحل العدوّ عن الحضرة وأخذ محمد بن عبد القويّ في الانصراف إلى وطنه ، أسنى السلطان جائزته ، وعمّ بالإحسان وجوه قومه وعساكره ، وأقطعه بلاد مغراوة وأوماش من وطن الزاب ، وأحسن منقلبه . ولم يزل بعد ذلك معتقلاً بطاعته مستظهراً على عدوه بالانحياش إليه . ولما استغلظ بنو مرين على يغمراسن بعد استيلائهم على أمصار المغرب واستبدادهم بملكه ، وصل محمد يده بهم في الاستظهار على يغمراسن ، وأوفد ابنه زيّان بن محمد عليهم .

ولما نهض يعقوب بن عبد الحق إلى تلمسان سنة سبعين وستمائة وأوقع بيغمراسن في الوقيعة التي هلك فيها ابنه فارس . نهض محمد بن عبد القوي للقائه ومرّ في طريقه بالبطحاء ، وهي يومئذ ثغر لأعمال يغمراسن فهدمها . ولقي يعقوب بن عبد الحق في ساحة تلمسان مباهياً بآلته فأكرم يعقوب وفادته وبرّ مقدمه . ونازلوها أياماً فامتنعت عليهم ، وأجمعوا على الإفراج وتأذن لهم يعقوب بن عبد الحق متلوماً عليها إلى أن يلحق محمد وقومه ببلادهم ، حذراً عليهم من غائلة يغمراسن ففعل ، وملأ حقائبهم باتحافه ، وجنّب لهم مائة من الجياد العتاق بالمراكب الثقيلة ، وأراح عليهم ألف ناقة حلوب ، وعمّهم بالصلات والخلع الفاخرة ، واستكثر لهم من السلاح والفازات والأخبية والحملان وارتحلوا ، ولحق محمد بن عبد القويّ بمكانه من جبل وانشريس ، واتصلت حروبه مع يغمراسن ، وكثر اجلابه على وطنه وعيثه في بلاده . وهو مع ذلك مقيم على موالاة يعقوب واتحافه بالعتاق من الخيل والمستجاد من الطرف . حتى أنّ يعقوب اذا اشترط على يغمراسن في مهادنته جعل سلمهم من سلمه ، وحربهم من حربه ، وبسببهم كان نهوض يعقوب بن عبد الحق سنة ثمانين وستمائة لما اشترط عليه ذلك ، ولجّ في قبوله ، فنهض إليه وأوقع به بخرزوزة . ثم أناخ عليه بتلمسان ، ووافاه هنالك محمد بن عبد القويّ فلقيه بالقصاب[1] ، وعاثوا في نواحي تلمسان نهباً وتخريباً . ثم أذن يعقوب لمحمد وقومه في الانطلاق إلى بلادهم ، وتلوم هو بمكانه من ضواحي تلمسان مدة منجاتهم إلى مكانهم من وانشريس حذراً عليهم من اعتراض

(١) وهي القصبات : مدينة بالمغرب من بلاد البربر : معجم البلدان .

يغمراسن . ولم يزل شأنهما ذلك إلى أن هلك يغمراسن بسد لونة[1] من بلاد مغراوة خاتمة إحدى وثمانين وستمائة وفي خلال ذلك استغاظ بنو مرين على بني عبد الواد ، واستوسق لمحمد هذا ملكه ، فتغلب على أوطان صنهاجة بجبال المدية ، وأخرج الثعالبة من جبل تيطري بعد أن غدر بمشيختهم وقتلهم ، فانزاحوا عنه إلى بسائط متيجة وأوطنوها . واستولى محمد على حصن المدية وهو المسمى بأهله لَمْدِيّة (بفتح اللام والميم وكسر الدال وتشديد الياء بعدها وهاء النسب في آخرها) . وهم بطن من بطون صنهاجة وكان المختط لها بلكّين بن زيري . ولما استولى محمد عليها وعلى ضواحيها انزل أولاد عزيز بن يعقوب من حشمه بها ، وجعلها لهم موطناً وولاية . وفرّ بنو صالح ابن أخيه يوسف بن عبد القوي من مكانهم بين صنهاجة منذ مقتل أبيه يوسف كما ذكرناه . ولحقوا ببلاد الموحدين بأفريقية ، فلقوهم مبرّةً وتكريماً . وأقطعوا لهم بضواحي قُسَنْطِينَة ، وكانوا يقولون عليهم أيام حروبهم وفي مواطن قتالهم . وكان من أظهرهم عمر بن صالح وابناه صالح ويحيى بن عمر ، وحافده يحيى بن صالح بن عمر في آخرين مشاهير .

وأعقابهم لهذا العهد بنواحي قسنطينة وفي إيالة الملوك من آل أبي حفص ، يعسكرون معهم في غزواتهم ويبلون في حروبهم ، ويقومون بوظائف خدمتهم . وكان الوالي من أولاد عزيز على المدية حسن بن يعقوب ، وبنوه من بعده يوسف وعليّ ، وكانت مواطنهم ما بين المدية وموطنهم الأوّل ماخنون . وكان بنو يدللتن أيضاً من بني توجين قد استولوا على حصن الجعبات وقلعة تاوغزوت . ونزل القلعة كبيرهم سلامة بن علي مقيماً على طاعة محمد بن عبد القوي وقومه ، فاتصل ملك محمد بن عبد القوي في ضواحي المغرب الأوسط ما بين مواطن بني راشد إلى جبال صنهاجة بنواحي المدية ، وما في قبلة ذلك من بلاد السرسو وجباله إلى أرض الزاب . وكان يبعد الرحلة في مشتاه فينزل الروسن ومغرة[2] والمسيلة . ولم يزل دأبه ذلك . ولما هلك يغمراسن سنة إحدى وثمانين وستمائة كما ذكرناه استجدّت الفتنة بين عثمان ابنه وبين محمد بن عبد القوى على أثر ذلك سنة أربع وثمانين وستمائة وولي من بعده ابنه سيّد الناس ، فلم تطل مدّة ملكه . وقتله أخوه موسى لسنة أو نحوها من بعده مهلك أبيه . وقام موسى بن

(١) وفي نسخة أخرى : شدبوية ولم يذكرها ياقوت الحموي في معجمه .

(٢) وفي نسخة ثانية : الدوسن والمقرة .

محمد في إمارة بني توجين نحواً من عامين . وكان أهل مرات من أشدّ أهل وطنه شوكة وأقواهم غائلة ، فحدّثته نفسه أن يستلحم مشيختهم ويريح نفسه من محاذرتهم ، فأجمع لذلك ونزلها ، ونذروا بشأنه ورأيه فيهم فاستماتوا جميعاً وثاروا به فقاتلهم . ثم انهزم مثخناً بالجراحة وألجأوه إلى مهاوي الحصن فتردّى منها وهلك . ووليَ من بعده عمر ابن أخيه اسمعيل بن محمد مدّة أربعة أعوام ، ثم غدر به أولاد عمّه زيان بن محمد فقتلوه وولّوا كبيرهم ابراهيم بن زيان وكان حسن الولاية عليهم ، يقال : ما ولي بعد محمد فيهم مثله . وفي خلال هذه الولايات استغلظ عليهم بنو عبد الواد واشتدّت وطأة عثمان بن يغمراسن عليهم بعد مهلك أبيهم محمد ، فنهض إليهم سنة ست وثمانين وستمائة وحاصرهم بجبل وانشريس وعاث في أوطانهم ونقل زروعها إلى مازونة حين غلب عليها مغراوة . ثم نازل حصن تافركينت وملكها بمداخلة القائد بها غالب الخصيّ مولى سيّد الناس بن محمد ، وقفل إلى تلمسان . ثم نهض إلى أولاد سلامة بقلعة تاوغزوت ، وامتنعوا عليه مراراً ، ثم أعطوه اليد على الطاعة ومفارقة بني محمد بن عبد القوي فنبذوا لهم العهد ، وصاروا إلى إيالة عثمان بن يغمراسن . وفرضوا لهم المغارم على بني يدللتن . وسلك عثمان بن يغمراسن مسلك التضريب بين قبائل بني توجين وتحريضهم على ابراهيم بن زيّان أميرهم ، فعدا عليه زكرار[1] بن أعجمي شيخ بني مادون وقتله بالبطحاء في إحدى غزواته لسبعة أشهر من ملكه . ووليَ بعده موسى بن زرارة بن محمد بن عبد القوي ، بايع له بنو تيغرين واختلف سائر بني توجين فأقام بعض سنة . وعثمان بن يغمراسن في خلال هذا يستألف بني توجين شعباً فشعباً إلى أن نهض إلى جبل وانشريس فملكه . وفرّ أمامه موسى بن زرارة إلى نواحي المدية وهلك في مفرّه ذلك . ثم نهض عثمان إلى المدية سنة ثمان وثمانين وستمائة بعدها فملكها بمداخلة المدية من قبائل صنهاجة ، غدروا بأولاد عزيز وأمكنوه منها . ثم انتقضوا عليه لسبعة أشهر ورجعوا إلى إيالة أولاد عزيز ، فصالحوا عثمان بن يوسف على الأتاوة والطاعة كما كانوا مع محمد بن عبد القوي وبنيه ، فملك عثمان بن يغمراسن عامّة بلاد توجين . ثم شغل بما دهمه من مطالبة بني مرين أيام يوسف بن يعقوب ، فولّى على بني توجين من بني محمد بن عبد القوي أبو بكر بن ابراهيم بن محمد مدّة

(١) كذا في النسخة الباريسية وفي نسخة أخرى : زكدان .

عامين ، أخاف فيها الناس وأساء السيرة . ثم هلك فنصب بنو تيغرين بعده أخاه عطية المعروف بالأصمّ ، وخالفهم أولاد عزيز وجميع قبائل توجين فبايعوا ليوسف ابن زيان بن محمد . وزحفوا إلى جبل وانشريس فحاصروا به عطية وبني تيغرين عاماً أو يزيد . وكان يحيى بن عطية كبير بني تيغرين هو الذي تولّى البيعة لعطية الأصمّ . فلما اشتدّ بهم الحصار واستفحل ملك يوسف بن يعقوب بمكانه من حصار تلمسان ورغبه في ملك جبل وانشريس فبعث معه الجيوش لنظر أخيه أبي سرحان ، ثم أخيه أبي يحيى . وكان نهوض أبي يحيى سنة إحدى وسبعمائة ، فتوغّل في ناحية الشرق ، ولما رجع صمد إلى جبل وانشريس ، فهدم حصونه ، وقفل ونهض ثانية إلى بلاد بني توجين فشرّدهم عنها ، وأطاعه أهل تافركينت ، ثم انتهى إلى المدية فافتتحها صلحاً ، واختطّ قصبتها ورجع إلى أخيه يوسف بن يعقوب ، فانتقض أهل تافركينت بعد صدوره عنهم . ثم راجع بنو عبد القوي بصائرهم في التمسّك بالطاعة . ووفدوا على يوسف بن يعقوب فتقبّل طاعتهم وأعادهم إلى بلادهم ، وأقطعهم . وولّى عليهم علي بن الناصر بن عبد القوي ، وجعل وزارته ليحيى بن عطية فغلبه على دولته ، واستقام ملكه . وهلك خلال ذلك فعقد يوسف بن بن يعقوب مكانه لمحمد بن عطية الأصمّ ، واستقام على طاعته وقتاً ، ثم انتقض بين يدي مهلكه سنة ست وسبعمائة وحمل قومه على الخلاف . ولما هلك يوسف بن يعقوب وتجافى بنو مرين من بعدها لبني يغمراسن عن جميع الأمصار التي تملّكوها بالمغرب الأوسط ، استمكن بنو يغمراسن منها ودفعوا المتغلّبين عنها . ولحق الفلّ من أولاد عبد القوي ببلاد الموحدين ، فحلّوا من دولتهم محل الإيثار والتكرمة . وكان للعبّاس بن محمد بن عبد القوي مع الملوك من آل أبي حفص مقام الخلّة والمصافاة إلى أن هلك ، وبقي عقبه في جند السلطان . ولما خلا الجوّ من هؤلاء المرشحين تغلّب على جبل وانشريس من بعدهم كبير بني تيغرين أحمد بن محمد من أعقاب يعلى بن محمد سلطان بني يفرن . فأقام يحيى بن عطية هذا في رياستهم أياماً ، ثم هلك ، وقام بأمره من بعده أخوه عثمان بن عطية . ثم هلك وولي من بعده ابنه عمر بن عثمان ، واستقل مع قومه بجبل وانشريس ، واستقلّ أولاد عزيز بالمدية ونواحيها ورياستهم ليوسف وعليّ إبنيّ حسن ابن يعقوب ، والكل في طاعة أبي حمو سلطان بني عبد الواد لما غلبهم على أمرهم ،

وانتزع الرياسة من بني عبد القوي[1] أمرائهم إلى أن خرج على السلطان أبي حمو ابن عمه يوسف بن يغمراسن ، ولحق بأولاد عزيز فبايعوه وداخلوا في كشانة عمر بن عثمان كبير بني تيغرين وصاحب جبل وانشريس ، فأجابهم وأصفق معهم سائر الأعشار ويكوشة[2] وبنو يرناتن . وزحفوا مع محمد بن يوسف إلى السلطان أبي حمو في عسكره بتهل ففضّوه ، وكان من شأن فتنته معهم ما ذكرناه في أخبار بني عبد الواد إلى أن هلك السلطان أبو حمو وولي إبنه أبو تاشفين ، فنهض إليهم في العساكر ، وكان عمر بن عثمان قد لحقته الغيرة من مخالصة محمد بن يوسف لأولاد عزيز دون قومه ، فداخل السلطان أبا تاشفين في الإنحراف عنه ، فلما نزل بالجبل ، ولحق محمد بن يوسف بحصن توكال ليمتنع له ، نزع عنه عمر بن عثمان ولحق بأبي تاشفين ودلّه على مكامن الحصن ، فدلف إليه أبو تاشفين وأخذ بمخنقه . وافترق عن محمد بن يوسف أولياؤه وأشياعه فتقبّض عليه ، وقيد أسيراً إلى السلطان أبي تاشفين فقتل بين يديه قعصاً بالرماح سنة تسع عشرة وسبعمائة وبعث برأسه إلى تلمسان ، وصلب شلوه بالحصن الذي امتنع فيه أيام انتزائه . ورجع أمر وانشريس إلى عمر بن عثمان هذا ، وحصلت ولايته لأبي تاشفين إلى أن هلك بتلمسان في بعض أيامهم مع بني مرين ، أعوام نازلها السلطان أبو الحسن كما ذكرنا في أخبار الحصار.

ثم لما تغلّب بنو مرين على المغرب الأوسط استعمل السلطان أبو الحسن ابنه نصر بن عمر على الجبل ، وكان خيرَ والٍ وفاء بالذمّة والطاعة[3] وخلوصاً في الولاية ، وصدقاً في الانحياش ، وإحساناً للمملكة ، وتوفيراً للجباية . ولما كانت نكبة السلطان أبي الحسن بالقَيْرَوَان ، وتطاول الأعياص من زناتة إلى استرجاع ملكهم ، انتزى بضواحي المدية من آل عبد القوي عَدِيّ بن يوسف بن زيان بن محمد بن عبد القوي ، وناغى الخوارج في دعوتهم ، واشتمل عليه بنو عزيز هؤلاء وبنو يرناتن جيرانهم ، وزحف إلى جبل وانشريس لينال مع الحشم من يلي أمرهم والمداخلين لعدوّهم في قطع دابرهم ، وكبيرهم يومئذ نصر بن عمر بن عثمان . وبايع نصر المسعود ابن أبي زبد بن خالد بن محمد بن عبد القوي من أعقابهم ، ثم خلص إليهم من

(١) وفي نسخة ثانية : من بني عبد الواد .
(٢) وفي نسخة ثانية : منكوشة .
(٣) وفي نسخة ثانية : وفاءَ بأزمّة الطاعة .

جملة عدي بن يوسف حذراً على نفسه من أصحابه . وقاتلهم عَدِي وقومه فامتنعوا عليه ، ودارت بينهم حروب كانت العاقبة فيها والظهور لنصر بن عمر وقومه . ثم دخل عَدِي في جملة السلطان أبي الحسن لما خلص من تونس إلى الجزائر ، وبقي مسعود بينهم وملّكه أبو سعيد بن عبد الرحمن لما ملك تلمسان هو وقومه . فلم يزل هنالك الى أن غلبهم السلطان أبو عنان ، فسار في جملته بعد أن فرّ إلى زواوة . واستنزله منها ونقله إلى فاس ، وانقضى ملكهم ودولتهم ، وانقطع أثر بني محمد بن عبد القوي . وأقام نصر بن عمر في ولاية جبل وانشريس وعقد له السلطان أبو عنان عليه سائر دولته . ولم يزل قائماً بدعوة بني مرين من بعده إلى أن غلبهم السلطان أبو حمو الأخير ، وهو ابن موسى بن يوسف على الأمر ، فأعطاه نصر الطاعة . ثم اضطرمت نار الفتنة بين العرب وبين بني عبد الواد أعوام سبعين وسبعمائة ، وقاموا بدعوة أبي زيان ابن السلطان أبي سعيد عمّ أبي حمو ، فانحاش نصر بن عمر إليهم ، وأخذ بدعوة الأمير أبي زيان حيناً . ثم هلك أيام تلك الفتنة وقام بأمرهم من بعده أخوه يوسف بن عمر متقبّلاً مذاهبه . وهو لهذا العهد وهو سنة ثلاث وثمانين وسبعمائة صاحب جبل وانشريس ، وحاله مع أبي حمّو مختلف في الطاعة والخلاف ، والله مالك الأمور ، لا رب غيره ولا معبود سواه .

عدي بن يوسف بن زيان بن محمد بن عبد القوي بن العباس بن عطية الحيو بن مناد بن العباس بن داقلتن بن أبي بكر بن القلب

مسعود بن بو زيد بن خالد —

محمد بن عطية بن ابراهيم ——

سيد الناس — [illegible]

موسى — [illegible]

يحيى بن صالح بن عمر بن صالح بن يوسف —

زيان بن يوسف بن موسى —

محمد بن عيسى بن موسى بن محمد

عمر

فللوا

* (الخبر عن بني سلامة أصحاب قلعة تاوغزوت رؤساء بني يدللتن من بطون توجين من هذه الطبقة الثانية وأوّليتهم ومصايرهم) *

كان بنو يدللتن هؤلاء من شعوب بني توجين وأشدّهم شوكة وأوفرهم عدداً ، وكان لهم ظهور من بين سائر تلك البطون . وكان بنو عبد القويّ ملوك بني توجين يعرفون لهم ذلك ، ويوجبون لهم حقّه . ولما دخلوا إلى التلول بعد انقراض بني يلومي وبني ومانوا نزل بنو قاضي وبنو مادون بأرض منداس ، فأوطنوها . وجاء بنو يدللتن على أثرهم ، فأوطنوا الجعبات وتاوغزوت ورياستهم يومئذ لنصر بن سلطان بن عيسى . ثم هلك فقام بأمرهم ابنه مناد بن نصر ، ثم أخوه عليّ بن نصر من بعده ثم ابنه ابراهيم بن عليّ من بعده . ثم هلك وقام بأمرهم أخوه سلامة بن عليّ على حين استفحل ملك عبد القويّ وبنيه ، فاستفحل أمره هو في قومه واختطّ القلعة بتاوغزوت المنسوبة إليه وإلى بنيه ، وكانت من قبل رباطاً لبعض المنقطعين من عرب سويد . ويزعم بنو سلامة هؤلاء أنهم دخلاء في نسب توجين ، وأنهم من العرب من بني سُلَيْم بن منصور . وجاء جدّهم عيسى أو سلطان نازعاً عن قومه لدم أصابه فيهم ، فخلطه شيخ بني يدللتن من بني توجين بنسبه ، وكفل بنيه من بعده فكانت له سبباً في رياسته على بني يدللتن وبنيه من بعده .

ولما هلك سلامة بن علي قام بأمرهم من بعده إبنه يغمراسن بن سلامة ، على حين استغلظ بنو عبد الواد على بني توجين من بعد مهلك محمد بن عبد القوي سلطانهم الأكبر . فكان عثمان بن يغمراسن يتردّد إلى بلادهم بالغزو ، ويطيل فيها العيث . ونازل في بعض غزواته قلعتهم هذه ، وبها يغمراسن فامتنع عليه . وخالفه يوسف بن يعقوب وبنو مرين إلى تلمسان ، فأجفل على القلعة وسابق بني مرين إلى دار ملكه . واتبعه يغمراسن بن سلامة مغيراً في أعقابه ، فكرّ عليه بالمكان المعروف بتليوان . ودارت بينهم هناك حروب هلك فيها يغمراسن بن سلامة ، وقام بالأمر من بعده أخو محمد بن سلامة ، فأذعن لطاعة عثمان بن يغمراسن ، وخالف بنو عبد القوي وجعل الأتاوة على قومه ووطنه لملوك بني عبد الواد ، فلم تزل عليهم لملوك تلمسان . ولحق

اخوه سعد بالمغرب ، وجاء في جملة السلطان يوسف بن يعقوب في غزوته التي حاصر فيها تلمسان حصاره الطويل ، فرعى لسعد بن سلامة هجرته إليه وولاّه على بني يدللتن والقلعة . وفرّ أخوه محمد بن سلامة فلحق بجبل راشد وأقام هنالك الى أن هلك يوسف بن يعقوب ورجع أمر المغرب الأوسط لبني عبد الواد فوضعوا الأتاوة على بني توجين وأصاروهم الى الجباية . ولم يزل سعد على ولايته إلى أن هلك أبو حمو وولي تاشفين ، فسخط سعداً وبعث عن أخيه محمد من جبل راشد ، فولاّه مكانه .

ولحق سعد بالمغرب ، وجاء في جملة السلطان أبي الحسن ، ودخل أخوه محمد مع أبي تاشفين فانحصر بتلمسان ، وولي سعد بن سلامة مكانه . ثم هلك محمد في بعض أيام الحصار وحروبه . ولما انقرض أمر بني عبد الواد رغب سعد من السلطان تخلية سبيله لقضاء فرضه ، فحجّ وهلك مرجعه من الحج في طريقه . وعهد إلى السلطان أبي الحسن واستوصاه ببنيه على لسان وليّة عريف بن يحيى كبير بني سويد . فولّى السلطان أبو الحسن إبنه سليمان بن سعد على بني يدللتن والقلعة ، وانتقض أمر السلطان أبي الحسن وعاد الأمر إلى أبي سعيد وأبي ثابت إبني عبد الرحمن بن يحيى بن يغمراسن ، فكانت بينه وبينهم ولاية انحراف . وكان أولياؤهم من العرب بني سويد من زغبة لما كانوا جيرانهم في مواطنهم من ناحية القبلة ، فطمع وترمار بن عريف شيخهم في التغلّب على وطن بني يدللتن ، ومانعه دونه سليمان هذا ، وبالغ في دفاعه إلى أن ملك السلطان أبو عنّان بلاد المغرب الأوسط ، ورعى لوترما وإبنه عريف حق انحياشهم إليه وهجرتهم إلى قومه ، فأقطع وترمار بن عريف القلعة وما إليها وجباية بني يدللتن أجمع . وألحق سليمان بن سعد بن سلامة في جنده ووجوه عسكره إلى أن هلك السلطان ، وعاد الأمر لبني عبد الواد على يد أبي حمو الأخير ، فولّي سليمان على القلعة وعلى قومه . واستغلظ أمر العرب عليه فاستراب سليمان هذا ونذر بالشرّ منه ، فلحق بأولاد عريف ، ثم راجع الطاعة فتقبّض عليه واغتاله ، وذهب دمه هدراً . ثم غلبه العرب على عامّة المغرب الأوسط ، وأقطع القلعة وبني يدللتن لأولاد عريف استئلافاً لهم . ثم أقطعهم بني مادون ثم منداس ، فأصبحت بطون بني توجين كلّها خولاً لسويد وعبداً لجبايتهم إلاّ جبل وانشريس فإنه لم يزل لبني تيغرين والوالي عليهم يوسف بن عمر منهم كما قلناه . ونظّم أبو حمو أولاد سلامة في جنده وأثبتهم في ديوانه وأقطعهم القصبات من نواحي تلمسان في عطائهم .

وهم على ذلك لهذا العهد . ولله الخلق والأمر ، لا ربّ سواه ولا معبود إلاّ إيّاه ، له الحكم وإليه ترجعون ، وهو نعم المولى ونعم النصير ، وهو على كل شيء قدير ، ولا حول ولا قوّة إلاّ بالله العلي العظيم .

سلطان بن سعد بن سلامة بن علي بن نصر بن سلطان بن عيسى

سلطان — يغمراسن
سلطان — [illegible]
سعد — يغمراسن
سعد — [illegible]
سلامة — [illegible]
علي — [illegible]

الخبر عن بني يرناتن إحدى بطون توجين من هذه الطبقة الثانية وما كان لهم من التقلب والامارة وذكر أوّليتهم ومصايره

كان بنو يرناتن هؤلاء من أوفر قبائل بني توجين وأعزّهم جانباً وأكبرهم صيتاً . ولما دخل بنو توجين إلى تلول المغرب الأوسط ، أقاموا بمواطنهم الأولى ما بين واضون وزمتة[1] . ثم يعودون من القبلة يجولون جانبي نهر واصل من أعلى وادي شلف .

(١) وفي نسخة ثانية : رينه .

وكانت رياستهم في نصر بن عليّ بن تميم بن يوسف بن بو نوال ، وكان شيخهم مهيب ابن نصر منهم ، وكان عبد القوي بن العبّاس وابنه محمد أمراء بني توجين يختصّونهم بالإثرة والتجلّة لمكانهم من قومهم ، وما يؤنسون من عظيم عنائهم . وكان محمد بن عبد القوي في سلطانه يؤثر عليهم من الحشم أولاد عزيز ، وكان واليهم لعهده وعهد بنيه عبو بن حسن بن عزيز . وقد كان أصهر مهيب بن نصر إلى عبد القوي في ابنته ، فأنكحه إياها وولدت له نصر بن مهيب ، فشرفت خؤلته لمحمد بن عبد القوي وعلا كعبه في إمارته . ثم ولي بعده ابنه عليّ بن نصر ، وكان له من الولد نصر وعنتر وآخرون يعرفون بأمّهم ، واسمها تاسرغينت . وولي بعده ابنه نصر بن علي فطال أمد إمارته في قومه . واختلف بنو عبد القوي وغلبهم بنو عبد الواد على ما بأيديهم ، فصرفت ملوك زناتة وجه العناية إليه ، فبعد صيته وعرف بنوه من بعده بشهرته ، وكان ولوداً فيقال : إنّه خلّف ثلاثة عشر من البنين ، ما منهم إلاّ صاحب حرب أو مقنب . ومن مشاهيرهم عمر الذي قتله السلطان أبو الحسن بسمرات حين سعى به أنه داخل في اغتياله ، ففرّ وأدرك فقتل بسمرات . ومنهم منديل الذي قتله بنو تيغرين أيام ولّوا عليّ ابن الناصر وقتلوا معه عبو بن حسن بن عزيز ، ومنهم عنّان ومات قتيلاً في حصار تلمسان أيام أبي تاشفين ، ومنهم مسعود ومهيب وسعدو وداود وموسى ويعقوب والعبّاس ويوسف في آخرين معروفين عندهم . هذا شأن أولاد نصر بن علي بن نصر ابن مهيب .

وأمّا ولد عنتر أخيه فكان منهم أبو الفتوح بن عنتر . ثم من ولده عيسى بن أبي الفتوح ، فكان رئيساً على بني أبيه ، وكانت إحدى وصائفهم سقطت بدار عثمان بن يغمراسن ، وادّعت الحمل من سيّدها أبي الفتوح ، وجاءت بأخ لعيسى يسمّى معروفاً ، رُبيّ بدارهم . واستوزره أبو حمو وابنه من بعده ، وبلغ المبالغ في دولتهم وكان يدعى معروفاً الكبير . ولحق به أيام رياسته في دولة أبي حمو الأوّل أخوه عيسى ابن أبي الفتوح مغاضباً لقومه ، فسعى له في الولاية على بني راشد وجباية أوطانهم ، وأنزله بلد سعيدة ، فكانت له بها إمارة ، وكان له من الولد أبو بكر وعبو وطاهر ووترمار ،وعندما غلب بنو مرين على بني عبد الواد ولاّهم السلطان أبو الحسن على بني يرناتن متداولين وأما ولد تاسرغينت من بني علي بن نصر بن مهيب ، فلم يكن لهم ذكر في رياسة قومهم ، إلا أنّ بعض وصائفهم سقطت أيضاً إلى دار أبي تاشفين

فولدت غلاماً يعرف بعطية بن موسى نشأ في دارهم ينسب إلى بني تاسرغينت هؤلاء . وتناولته النجابة في خدمتهم ، فولّوه الأعمال النبيهة ، وهو لهذا العهد عامل أبي حمو الأخير على شلف وما إليها . وقد غلب العرب لهذا العهد على وطن بني يرناتن ، وملكوا عليهم يعود ماحنون . وبقيت صبابتهم بـجبل ورنيد[1] . وعليهم لهذا العهد سعيد بن عمر من ولد نصر بن نصر بن عليّ بن نصر بن مهيب ، يعطون المغرم للسلطان ويصانعون العرب بالأتاوة . وبيد الله تصاريف الأمور سبحانه لا رب غيره .

سعيد بن عمر بن نصر بن علي بن نصر بن علي بن نصر بن عمر بن يوسف بن بو نوال بن نوال

عنان —
مهيب —
يعقوب —
موسى —

عيسى بن أبي الفتوح بن عشر —

معروف الكبير —

(١) وفي نسخة ثانية : جبل ورينة .

الخبر عن بني مرين وأنسابهم وشعوبهم وما تأثلوا بالمغرب من السلطان والدولة التي استعملت سائر زناتة وانتظمت كراسيّ الملك بالعدوتين وأولية ذلك ومصايره

قد ذكرنا أنّ بني مرين هؤلاء من شعوب بني واسين ، وذكرنا نسب واسين في زناتة ، وذكرنا أنهم بنو مرين بن ورتاجن بن ماخوخ بن جديج بن فاتن بن يدر بن يخفت ابن عبدالله بن ورتنيص بن المعز بن ابراهيم بن سجيك بن واسين ، وأنهم إخوة بني يلومي ومديونة . وربّما يشهد بذلك جوار مواطنهم قبل الملك ما بين صا[1] وملويّة . وذكرنا كيف اقتسموا الضاحية والقفر مع إخوانهم بني بادين[2] بن محمد ، وكيف اتصلت فتنتهم معهم سائر أيامهم . وكان الغلب أولاً لبني بادين بن محمد لكثرة عددهم ؛ فإنهم كما ذكرنا خمسة بطون : بنو عبد الواد وتوجين ومصاب ، وبنو زردال وإخوانهم بنو راشد بن محمد . وكانوا أهل تلول المغرب الأوسط دونهم . وبقي هذا الحي من بني مرين بمجالات القفر من فيكيك إلى سجلماسة إلى ملويّة . وربما يتخطّون في ظعنهم إلى بلاد الزاب . ويذكر نسّابتهم أن الرياسة فيهم قبل تلك العصور كانت لمحمد بن ورزين[3] بن فكوس بن كوماط بن مرين ، وأنه كان لمحمد إخوة آخرون يعرفون بأمهم تنالفت . وكان بنو عمّه ونكاسن بن فكوس . وكان لمحمد من الولد سبعة : شقيقان وهما حمامة وعسكر . وأبناء علات أمهات أولاد ، وهم سنكمان وسكميان وسكم ووراغ وقزونت[4] وتسمّى هذه الخمسة في لسانهم تيريغين ، ومعناه عندهم الجماعة .

يزعمون أن محمداً لما هلك قام بأمره في قومه إبنه حمامة ، وكان الأكبر . ثم من بعده أخوه عسكر ، وكان له من الولد ثلاثة : نكوم وأبو يكنى ، ويلقب المخضّب ، وعلي ويلقّب لاعُدَر . ولما هلك قام برياسته فيهم إبنه المخضّب ؛ فلم يزل أميراً عليهم إلى أن كان أمر الموحّدين . وزحف عبد المؤمن إلى تاشفين بن علي بن يوسف ؛ فحاصره

(١) كذا ، وهو وادي (زا) . (وقد مرّ معنا من قبل ولم نجد له ذكر في معجم البلدان) .
(٢) وفي نسخة ثانية : بني يادين .
(٣) كذا ، وفي نسخة : ورزير .
(٤) كذا ، وفي نسخة : فرونت .

بتلمسان . وسرّح الشيخ أبا حفص في العساكر لحرب زناتة بالمغرب الأوسط ، وجمع له بنو بادين كلّهم وبنو يلومي وبنو مرين ومغراوة ؛ ففضّ الموحّدون جموعهم واستلحموا أكثرهم . ثم راجع بنو يلومي وبنو بادين طاعتهم ، وأخلص بنو عبد الواد في خدمتهم ونصيحتهم . ولحق بنو مرين بالقفر ؛ فلما غلب عبد المؤمن على وَهْران واستولى على أموال لمتونة وبعث ذخيرتهم بتلك الغنائم إلى جبل تينملل حيث داره ، ومن أين كان منبعث الدعوة . وبلغ الخبر إلى بني مرين بمكانهم من الزاب ، وشيخهم يومئذ المخضّب بن عسكر ، فأجمع اعتراضها بقومه . ولحق العير بوادي تلاغ ؛ فاحتازها من أيدي الموحدين . واستنفر عبد المؤمن لاستنقاذها أولياءه من زناتة ، وسرّحهم مع الموحدين لذلك ؛ فأبلى بنو عبد الواد فيها بلاءً حسناً . وكان اللقاء في فحص مسون ، وانكشف بنو مرين ، وقتل المخضّب بن عسكر ، واكتسح بنو عبد الواد حللهم ، وذلك سنة أربعين وخمسماية . فلحق بنو مرين بعدها بصحرائهم ومجالات قفرهم ، وقام بأمرهم من بعد المخضّب أبو بكر ابن عمّه حمامة ابن محمد إلى أن هلك ، فقام بأمره إبنه محيو ؛ ولم يزل مطاعاً فيهم إلى أن استنفرهم المنصور لغزاة الأركة ، فشهدوها وأبلوا البلاء الحسن . وأصابت محيو يومئذ جراحة انتقضت عليه مرجعه منها ؛ فهلك بصحراء الزاب سنة إحدى وتسعين وخمسماية . وكان من رياسة عبد الحق إبنه من بعده ، وبقائها في عقبه ما نذكره إن شاء الله تعالى .

عبد الحق بن محيو ابن أبي بكر بن حمامة بن محمد بن ورزير بن فكوس بن كرماط بن مرين بن ورتاجن بن ماخوخ

بن جديج بن فاتن بن يدر بن يخفت .

اسمعيل بن عيسى بن يحيى بن وسنان

عمر بن عثمان بن يوسف بن

ابن عياد بن يحيى

عثمان بن الاعذر بن عسكر

منصور بن مندل بن

المخضب

لكوم

أبويكي

بنو تنابعت

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

بنو سكم عمر

[illegible]

[illegible]

سليمان عبد الحق

الخبر عن إمارة عبد الحق بن محيو المستقرة في بنيه وإمارة ابنه عثمان من بعده ثم أخيه محمد بن عبد الحق بعدهما وما كان فيها من الأحداث

لمّا هلك محيو بن أبي بكر بن حمامة من جراحته كما قلناه ، وكان له من الولد عبد الحق ووسناف ويحياتن . وكان عبد الحق أكبرهم ؛ فقام بأمر بني مرين ، وكان خير أمير عليهم قياماً بمصالحهم وتعففاً عما في أيديهم ، وتقويماً لهم على الجادة ونظراً في العواقب ، واستمرّت أيامهم . ولما هلك الناصر رابع خلفاء الموحّدين بالمغرب سنة عشر وستماية مرجعه من غزاة العقاب ، وقام بأمر الموحّدين من بعده إبنه يوسف المستنصر ، نصبه الموحّدون للأمر غلاماً لم يبلغ الحلم . وشغلته أحوال الصبا وجنونه عن القيام بالسياسة وتدبير الملك ؛ فأضاع الحزم وأغفل الأمور. وتواكل الموحّدون بما أرخى لهم من طيل الدالة عليه . ونفس عن مخنقهم من قبضة الاستبداد والقهر ؛ فضاعت الثغور وضعفت الحامية . وتهاونوا بأمرهم ، وفشلت ريحهم . وكان هذا الحي لذلك العهد بمجالات القفار ، من فيكيك الى صا وملويّة كما قدمناه من شأنهم .وكانوا يطرقون في صعودهم إلى التلول والأرياف منذ أول دولة الموحدين وما قبلها جهات كرسيف إلى وطاط ، ويأنسون بمن هنالك من بقايا زناتة الأولى : مثل مكناسة بجبال تازى ، وبني يرنيان من مغراوة الموطنين قصور وطاط من أعالي ملوية . فيتقلّبون بتلك الجهات عام المربع والمصيف ، وينحدرون إلى مشاتيهم بما امتاروه من الحبوب لأقواتهم . فلما رأوا من اختلال بلاد المغرب ما رأوا انتهزوا فيها الفرصة ، وتخطّوا إليها القفر ، ودخلوا ثناياه ، وتفرّقوا في جهاته : وأرجفوا بخيلهم وركابهم على ساكنه ، واكتسحوا بالغارة والنهب عامة بسائطهم . ولجأت الرعايا إلى معتصماتهم ومعاقلهم ، وكثر شاكيهم . واظلم الجو بينهم وبين السلطان والدولة ، فآذنوهم بالحرب وأجمعوا لغزوهم وقطع دابرهم . وأغرى الخليفة المستنصر عظيم الموحّدين أبا علي بن وانودين بجميع العساكر والحشود من مراكش ، وسرّحه إلى السيد أبي ابراهيم ابن أمير الموحّدين يوسف بن عبد المؤمن بمكانه من إمارة فاس . وأوعز إليه أن يخرج لغزو بني مَرين ، وأمره أن يثخن ولا

يستبقي . واتصل الخبر ببني مرين وهم في جهات الريف وبلاد بطوِيَّة ؛ فتركوا أثقاه بحصن تازوطا ، وصمدوا إليهم . والتقى الجمعان بوادي نكور ؛ فكان الظهور لبني مرين والدَبَرَة على الموحّدين . وامتلأت الأيدي من أسلابهم وأمتعتهم ، ورجعوا إلى تازى وفاس عراة يخصفون عليهم من ورق النبات المعروف عند أهل المغرب بالمشغلة . يوارون به سوءاتهم لكثرة الخصب عامئذ ، واعتمار الفدن بالزرع وأصناف الباقلاً . حتى لقد سميت الواقعة يومئذ بعام المشغلة .

وصمد بنو مرين بعدها إلى تازى ، ففلّوا حاميتها أخرى . ثم اختلفت بنو محمد رؤساؤهم وانتبذ عنهم من عشائرهم بنو عسكر بن محمد ، لمنافسة وجدوها في أنفسهم من استقلال بني عمهم حمامة بن محمد بالرياسة دونهم ، بعد أن كان أومض عندهم منها في عسكر ، وابنه المخضّب إيماض من أخلف بارقه . فحالفوا عبد الحق أميرهم وقومه إلى مظاهرة أولياء الموحدين ، وحامية المغرب من قبائل رياح الموطنين بالهبط وأزغار لحديث عهدهم بالتوحّش والعزّ منذ إنزال المنصور إيّاهم بذلك القطر من أفريقية ؛ فتحيّزوا إليهم وكاثروهم على قومهم .

وصمدوا جميعاً للقاء بني مرين سنة أربع عشرة وستمائة ، ودارت بينهم حرب تولّى الصبر مقامها . وهلك فيها أميرهم عبد الحق وكبير بنيه إدريس . وتذامر لمهلكها بنو مرين . وجلّى في تلك الحومة حمامة بن يصليتن من بني عسكر ، والأمير ابن محيو السكمي . فانكشفت رياح آخراً ، وقتل منهم أبطال . وولّى بنو مرين عليهم بعد مهلك عبد الحق ابنه عثمان تلو إدريس ، وشهرته بينهم أدرغال ، ومعناه برطانتهم الأعور . وكان لعبد الحق من الولد عشرة ، تسعة ذكور وأختهم ورتطليم : فإدريس وعبدالله ورحو لامرأة من بني علي إسمها سوط النساء ، وعثمان ومحمد لامرأة من بني ونكاسن إسمها النوّار بنت تصاليت ، وأبو بكر لامرأة من بني تنالفت وهي تاغزونت بنت أبي بكر بن حفص ، وزيّان لامرأة من بني ورتاجن ، وأبو عياد لامرأة من بني وللوى إحدى بطون عبد الواد وإسمها أم الفرج ، ويعقوب لأم اليمن بنت محلى من بطوية . وكان أكبرهم إدريس الهالك مع أبيه عبد الحق ؛ فقام بأمر بني مرين من بعد عبد الحق إبنه عثمان ؛ بايعه لوقته حمامة بن يصليتن ولمير بن محيو ومن إليهما من مشيخة قومها . واتبعوا منهزمة رياح وأثخنوا فيهم . وثار عثمان بأبيه وأخيه حتى شفا نفسه منهم ولاذوا بالسلم ، فسالمهم على أتاوة يؤدونها إليه وإلى قومه كل سنة . ثم

استشرى من بعد ذلك داء بني مرين واعضل خطبهم ، وكثر الثوّار بالمغرب ، وامتنع عامة الرعايا عن المغرم ، وفسدت السابلة . وأعتصم الأمراء والعمّال من السلطان فمن دونه بالأمصار والمدن ، وغلبوا أولئك على الضاحية . وتقلّص ظل الحكّام عن البدو جملة . وافتقد بنو مرين الحامية دون الوطن والدفاع ؛ فمدوا إلى البلاد يداً . وسار بهم أميرهم أبو سعيد عثمان بن عبد الحق في نواحي المغرب يتقرى مسالكه وشعوبه ، ويضع المغارم على أهله حتى دخل أكثرهم في أمره ؛ فبايعه من الظواعن الشاوية والقبائل الآهلة : هوّارة وزكارة ، ثم تسول ومكناسة ، ثم بطوية وفشتالة ، ثم سدراتة وبهلولة ومديونة . ففرض عليهم الخراج وألزمهم المغارم ، وفرّق فيهم العمّال . ثم فرض على أمصار المغرب مثل فاس وتازى ومكناسة وقصر كتامة ضريبة معلومة يؤدونها إليه على رأس كل حول ، على أن يكفّ الغارة عنهم ويصلح سابلتهم . ثم غزا ظواعن زناتة سنة عشرين وستمائة ، وأثخن فيهم حتى اذعنوا ، وقبض أيديهم عمّا امتدت إليه من الفساد والنهب . وعطف بعدها على رياح أهل أزغار والهبط وأثار به بأبيه ؛ فأثخن فيهم وأبادهم . ولم يزل دأبه ذلك إلى أن هلك باغتيال علجة سنة سبع وثلاثين وستمائة .

وقام بأمر بني مرين من بعده أخوه محمد بن عبد الحق ؛ فتقبّل سنن أخيه في تدويخ بلاد المغرب وأخذ الضريبة من أمصاره وجباية المغارم والوضائع من ظواعنه وبدوه وسائر رعاياه . وبعث الرشيد أبا محمد بن وانودين لحربهم . وعقد له على مكناسة ، فدخلها وأجحف بأهلها في المغارم . ثم نزل بنو مرين بمتيجة وغيرها من ضواحيها ؛ فنادى في عساكره وخرج إليهم ؛ فدارت بينهم حرب شديدة هلك فيها خلق من الجانبين . وبارز محمد بن إدريس بن عبد الحق قائداً من الروم ، واختلفا ضربتين هلك العلج بإحداهما ، وانجرح محمد في وجهه بالأخرى . واندمل جرحه ؛ فصار أثر في وجهه لقب من أجله أبا ضربة . ثم شدَّ بنو مرين على الموحّدين ؛ فانكشفوا ورجع ابن وانودين إلى مكناسة مفلولاً . وبقي بنو عبد المؤمن أثناء ذلك في مرض من الأيام ، وتثاقل عن الحماية . ثم أومضت دولتهم آخراً إيماض الخمود . وذلك أنه لما هلك الرشيد بن المأمون سنة أربعين وستماية ، وولي أخوه علي وتلقّب بالسعيد ، وبايعه أهل المغرب ، انصرفت عزائمه إلى غزو بني مرين ، وقطع أطماعهم عما سمت إليه من تملّك الوطن ؛ فأغزى عسكر الموحّدين لقتالهم ، ومعهم قبائل العرب والمصامدة

وجموع الروم . فنهضوا سنة إثنتين وأربعين وستمائة في جيش كثيف يناهز عشرين ألفاً فيما زعموا . وزحف إليهم بنو مرين بوادي ياباش ؛ وصبر الفريقان ، وهلك الأمير محمد بن عبد الحق في الجولة بيد زعيم من زعماء الروم . وانكشفت بنو مرين واتبعهم الموحدون ، ودخلوا تحت الليل ؛ فلحقوا بجبال غياثة من نواحي تازى واعتصموا بها أياماً . ثم خرجوا إلى بلاد الصحراء ؛ وولّوا عليهم أبا يحيى بن عبد الحق ؛ فقام بأمرهم على ما نذكره إن شاء الله تعالى .

الخبر عن دولة الأمير أبي يحيى بن عبد الحق مديل الأمر لقومه بني مرين وفاتح الامصار ومقيم الرسوم الملوكية من الآلة وغيرها لمن بعده من امرائهم

لما ولي أبو يحيى بن عبد الحق أمر بني مرين سنة إثنتين وأربعين وستمائة ، كان من أول ما ذهب إليه ورآه من النظر لقومه ، أن قسّم بلاد المغرب وقبائل جبايته بين عشائر بني مرين . وأنزل كلاًّ منهم في ناحية تسوّغها سائر الأيام طعمة . فاستركبوا الرجل أتباعهم ، واستلحقوا من غاشيتهم ، وتوفّرت عساكرهم . ثم نبضت نار المنافسة بين أحيائهم ، وخالف بنو عسكر جماعتهم ، وصاروا إلى الموحدين ؛ فحرّضوهم على أبي يحيى بن عبد الحق وبني حمامة وأغروهم بهم . وبعثوا الصريخ إلى يغمراسن بن زيان ، فوصل في قومه إلى فاس . واجتمعوا جميعاً إلى قائد الموحّدين . وأعطوا الرهن على صدق البلاء في الأمير أبي يحيى وأتباعه . وصمدوا إليه حتى انتهوا إلى ورغة ، ثم إلى كرت[1] . وأعجزهم فانكفّوا راجعين إلى فاس . ونذر يغمراسن بغدر الموحدين ؛ فخرج في قومه مع أوليائه بني عسكر . وعارضهم الأمير أبو يحيى بوادي سبو ؛ فلم يطق حربهم . ورجع عنهم عسكر الموحدين بما صرخ في معسكرهم من موت الخليفة السعيد . ثم بعثوا إليهم لملاطفتهم في الفيئة إلى الطاعة ومذاهب الخدمة ، القائد عنبر الخصيّ مولى الخليفة في حصّة من الروم والناشبة ؛ فتقبّض عليهم بنو عسكر وتمسّكوا بهم في رهنهم . وقتلوا كافة النصارى ؛ فأطلق أبناءهم ولحق

(1) هي كُرْت : مدينة في أقصى بلاد المغرب قرب بلاد السودان وربما قبلت بالثاء . (معجم البلدان) .

يغمراسن وقومه بتلمسان . ثم رجع بنو عسكر إلى ولاية أميرهم أبي يحيى . واجتمع بنو مرين لشأنهم وتملّكوا الأعمال . ثم مدوا عينهم إلى تملّك الأمصار ؛ فنزل أبو يحيى بجملته جبل زرهون . ودعا أهل مكناسة إلى بيعة الأمير أبي زكرياء بن أبي حفص صاحب أفريقية ، لما كان يومئذ على دعوته وفي ولايته ؛ فحاصرها وضيّق عليها بقطع المرافق وترديد الغارات ومعاودة الحرب ؛ إلى أن أذعنوا لطاعته ، فافتتحها صلحاً بـمداخلة أخيه يعقوب بن عبد الحق لزعيمها أبي الحسن بن أبي العافية .

وبعثوا بيعتهم إلى الأمير أبي زكرياء ، وكانت من إنشاء أبي المطرف بن عُـمَيْرَة ، كان قاضياً فيهم يومئذ ؛ فأقطع السلطان ليعقوب ثلث جبايتها ، ثم أحسّ الأمير أبو يحيى بن عبد الحق من نفسه الاستبداد ، ومن قبيله الاستيلاء فاتخذ الآلة . وبلغ الخبر إلى السعيد بتغلّبه على مكناسة وصرفها إلى دعوة ابن أبي حفص ؛ فوجم لها وفاوض الملأ من أهل دولته في أمره ، وأراهم كيف اقتطع الأمر عنهم شيئاً فشيئاً : فابن أبي حفص اقتطع أفريقية . ثم يغمراسن بن زيّان وبنو عبد الواد اقتطعوا تلمسان والمغرب الأوسط ، وأقاموا فيها دعوة ابن أبي حفص ، وأطمعوه في الحركة إلى مراكش بـمظاهرتهم . وابن هود اقتطع عدوة الأندلس ، وأقام فيها دعوة بني العباس ، وابن الأحمر في الجانب الآخر مقيم لدعوة ابن أبي حفص . وهؤلاء بنو مرين تغلّبوا على ضواحي المغرب ، ثم سموا إلى تملّك الأمصار. ثم افتتح أميرهم أبو يحيى مكناسة وأظهر فيها دعوة ابن أبي حفص ، وجاهر بالاستبداد . ويوشك إن رضينا هذه الدَّنِيَّة ، وأغضينا عن هذه الواقعات ، أن يختلّ الأمر أو تنقرض الدعوة . فتذامروا وامتعضوا وتداعوا للصمود إليهم ؛ فجهّز السعيد عساكره .

واحتشد عرب المغرب وقبائله ، واستنفر الموحدين والمصامدة ، ونهض من مراكش سنة خمس وأربعين وستمائة يريد مكناسة : وبني مرين أوّلا ، ثم تلمسان ويغمراسن ثانياً ، ثم أفريقية وابن أبي حفص آخراً . واعترض العساكر والحشود بوادي بَهْت . ووصل الأمير أبو يحيى إلى معسكره متوارياً عنهم عيناً لقومه ، حتى صدقهم كنه الخبر. وعلم أن لا طاقة له بهم ؛ فأفرج عن البلاد . وتناذر بنو مرين بذلك من أماكنهم ؛ فتلاحقوا به واجتمعوا إليه بتازوطا من بلاد الريف . ونزل سعيد مكناسة ، ولاذ أهلها بالطاعة ، وسألوا العفو عن الجريرة . واستشفعوا بالمصاحف ، برز بها الأولاد على رؤوسهم ، وانتظموا مع النساء في صعيد حاسرات منكسرات الطرف من

الخشوع ووجوم الذنب والتوسّل . فعفا عنهم وتقبّل فيئهم ، وارتحل إلى تازى في اتباع بني مَرين . وأجمع بنو أوطاس الفتك بأبي يحيى بن عبد الحق غيرة ومناسفة ، ودس إليه بذلك مهيب من مشيختهم ؛ فترحّل عنهم إلى بلاد بني يزناسن ، ونزل بعين الصفا .

ثم راجع نظره في مسالمة الموحّدين والفيئة إلى أمرهم ومظاهرتهم على عدوّهم يَغَمْراسِن وقومه من بني عبد الواد ، ليكون فيها شفاء نفسه منهم ؛ فأوفد مشيخة قومه عليه بتازى ؛ فأدوا طاعته وفيئته ؛ فتقبّلها وصفح لهم عن الجرائر التي أتوها . وسألوه أن يستكفي بالأمير أبي يحيى في أمر تلمسان ويغمراسن ، على أن يمده بالعساكر رامحة وناشبة ؛ فاتهمهم الموحدون وحذروا منهم غائلة العَصَبِيَّةِ ، فأمرهم السعيد بالعسكرة معه ؛ فأمده الأمير أبو يحيى بخمسماية من قبائل بني مرين . وعقد عليهم لابن عمه أبي عياد بن يحيى بن أبي بكر بن حمامة ، وخرجوا تحت رايات السلطان . ونهض من تازى يريد تِلْمسان وما وراءها ، وكان من خبر مهلكه على جبل تامزردكت بيد بني عبد الواد ما ذكرناه في أخبارهم .

ولما هلك وانفضت عساكره متسابقين إلى مراكش ، وجمهورهم مجتمعون إلى عبدالله ابن الخليفة السعيد ولي عهده ، وتحت رايات أبيه . وطار الخبر بذلك إلى الأمير أبي يحيى بن عبد الحق ، وهو بجهات بني يزناسن . وقد خلص إليه هنالك ابن عمه أبو عياد . وبعث بني مرين من تيار تلك الصدمة ، فانتهز الفرصة وأرصد لعسكر الموحدين وفلّهم بكرسيف ؛ فأوقع بهم وامتلأت أيدي بني مرين من أسلابهم ، وانتزعوا الآلة من أيديهم . وأصار إليه كتيبة الروم والناشبة من الغزو ، واتخذ الموكب الملوكي . وهلك الأمير عبدالله بن السعيد في جوانب تلك الملحمة ، ويئسوا للموحدين بعدها من الكرّة . ونهض الأمير أبو يحيى وقومه إلى بلاد المغرب مسابقين إليه يَغَمْراسِن بن زيَان بها كان ملوك الموحدين ، أوجدوهم السبيل إلى ذلك باستجاشة على بني مرين أيام فتنتهم معهم ؛ فكانوا يبيحونه حرم المغرب ويوطئونه عساكر قومه ما بين تازى إلى فاس ، إلى القصر مع عساكر الموحدين ؛ فكان ليغمراسن وقومه بذلك طمع فيها لولا ما كبحهم فأس بني مرين وجدّع من أنوفهم .

وكان أول ما بدأ به أبو يحيى بن عبد الحق أعمال وطاط ؛ فافتتح حصونهم بملوية

ودوّخ جبلهم . ثم رحل إلى فاس ، وقد أجمع أمره على انتزاعها من ملكة بني عبد المؤمن ، وإقامة الدعوة لابن أبي حفص بها وبسائر نواحيها . والعامل بها يومئذ السيد أبو العبّاس ؛ فأناخ عليها بركابه . وتلطّف في مداخلة أهلها ، وضمن لهم جميل النظر وحميد السياسة . وكفّ الأيدي عنهم ، والحماية لهم بحسن المغبّة ، وصالح العائدة ؛ فأجابوه ووثقوا بعهده وعنائه . وآووا إلى ظلّه وركنوا إلى طاعته ، وانتحال الدعوة الحفصيّة بأمره . ونبذوا طاعة بني عبد المؤمن يأساً من صريخهم وكثرتهم . وحضر أبو محمد القشتالي ، وأشهده الله على الوفاء بما اشترط على نفسه من النظر لهم والذبّ عنهم ، وحسن الملكة والكفالة . وتقبَّل مذاهب العدل فيهم ؛ فكان حضوره ملاك تلك العقدة والبركة التي يعرف أثرها خلفهم في تلك البيعة . وكانت البيعة بالرابطة خارج باب الفتوح . ودخل إلى قصبة فاس لشهرين إثنين من مهلك السعيد ، فاتح ست وأربعين وستمائة . وأخرج السيد أبا العبّاس من القصبة ، وبعث معه خمسين فارساً أجازوه أم ربيع ورجعوا . ثم نهض إلى منازلة تازى ، وبها السيد أبو علي ، فنازلها أربعة أشهر . ثم نزلوا على حكمه ، فقتلهم ومنَّ على آخرين منهم . وسدّ ثغرها ، وثقف أطرافها ، وأقطع رباط تازى وحصون ملويّة لأخيه يعقوب بن عبد الحق . ورجع إلى فاس ، فوفد عليه بها مشيخة أهل مكناسة ، وجددوا بيعتهم وعاودوا طاعتهم . ولحق بهم على أثرهم أهل سلا ورباط الفتح ، فتملّك الأمير أبو يحيى هذه البلاد الأربعة أمّهات أمصار المغرب . واستولى على نواحيها إلى وادي أم ربيع ، فأقام فيها دعوة ابن أبي حفص ، وبعث بها إليه . واستبدّ بنو مرين بـملك المغرب الأقصى ، وبنو عبد الواد بـملك المغرب الأوسط ، وبنو أبي حفص بأفريقية . وخمد ذبال آل عبد المؤمن ، وركدت ريحهم ، وآذنت بالانقراض دولتهم ، وأشرف على الفناء أمرهم . وإلى الله عاقبة الأمور .

الخبر عن انتقاض أهل فاس على أبي يحيى بن عبد الحق وظفره بهم بعد إيقاعه بيغمراسن وقومه بايسلى

لما ملك الأمر أبو يحيى بن عبد الحق بـمدينة فاس سنة ست وأربعين وستمائة ، استولى على بلاد المغرب بعد مهلك السعيد . وقام بأمر الموحّدين بـمراكش أبو حفص عمر

لمرتضى ابن السيّد أبي ابراهيم إسحاق الذي كان قائد عسكر الموحدين في حربهم مع بني مرين عام المشغلة ، ابن أمير المؤمنين أبي يعقوب يوسف بن عبد المؤمن. كان السعيد تركه والياً بقصبة رباط الفتح من سلا ؛ فاستدعاه الموحدون وبايعوه بيعة الخلافة. وقام بأمرهم ؛ فلما تغلّب الأمير أبو يحيى على بلاد المغرب وملك مدينة فاس كما ذكرناه ؛ خرج إلى بلاد فازاز والمعدن لفتح بلاد زناتة وتدويخ نواحيها. واستعمل على فاس مولاه السعود بن خرباش ، من جماعة الحشم أحلاف بني مرين وصنائعهم. وكان الأمير أبي يحيى استبقى بها من كان فيها من عسكر الموحدين من غير عيصهم في السبيل التي كانوا عليها من الخدمة. وكان فيهم طائفة من الروم ، استخدمهم إلى نظر قائدهم شأنه ، وكانوا من حصّة السعود هنالك. ووقعت بينهم وبين شيع الموحدين من أهل البلد مداخلة ، وفتكوا بالسعود عاملهم وقلبوا الدعوة للمرتضى الخليفة بمراكش سكيت الحلبة ومخلف المضمار. وكان المتولي لكبر تلك الثورة ابن حشّار المشرف وأخوه وابن أبي طاهر[1] وإبنه ، اجتمعوا إلى القاضي أبي عبد الرحمن المُغَيْلي ، زعيم فئة الشورى بينهم يومئذٍ وتوامروا فيها. وأغروا قائد الروم بقتل السعود ، وعدوا عليه بمقعد حكمه من القَصَبَة ، وهاجوه ببعض المحاورات فغضب. ووثب عليه الرومي ؛ فقتله وطاف برأسه الهاتف بسكك المدينة في شوال سنة سبع وأربعين وستمائة. وانتهبت داره ، واستبيحت حرمه. ونصبوا قائد الروم لضبط البلد ، وبعثوا بيعتهم إلى المرتضى. واتصل الخبر بالأمير أبي يحيى ، وهو منازل بلد فازاز ؛ فأفرج عنها. وأغذّ السير إلى فاس ؛ فأناخ بعساكره عليها. وشمّر لحصارها ، وقطع السابلة عنها. وبعثوا إلى المرتضى بالصريخ ، فلم يرجع إليهم قولاً ؛ ولا ملك لهم ضرّاً ولا نفعاً ؛ ولا وجّه لما نزل بهم وجهاً. حاشا إنّه استجاش بالأمير أبي يحيى يَغَمْراسن بن زيان على أمره ، وأغراه بعدوه ، وأمّله لكشف هذه النازلة عمن انحاش إلى طاعته.

وتعلّقت أطماع يغمراسن بطروق بلاد المغرب ؛ فاحتشد لحركته. ونهض من تلمسان للأخذ بحجزة الأمير أبي يحيى عن فاس ، وإجابة صريخ الخليفة لذلك. وبلغ الأمير أبا يحيى خبر نهوضه إليه لتسعة أشهر من منازلته البلد ؛ فجمّر الكتائب عليها.

---

(١) كذا ، في النسخة الباريسية وفي نسخة أخرى : طاطو.

صمد إليه قبل وصوله من تخوم بلاده ، والتقى الجمعان بايسلى من بسائط وَجْدَة ؛ فتزاحف القوم وأبلوا . وكانوا ملحمة عظيمة ، هلك فيها عبد الحق بن محمد بن عبد الحق بيد ابراهيم بن هشام من بني عبد الواد . ثم انكشف بنو عبد الواد ، وهلك يغمراسن بن تاشفين من أكابر مشيختهم ، ونجا يَغَمْراسن بن زَيَّان إلى تِلْمسان . وانكفأ الأمير أبو يحيى إلى معسكره للأخذ بمخنق فاس ، فسقط في أيدي أهلها ؛ ولم يجدوا وليجة من دون طاعته ، فسألوا الأمان ؛ وبذله لهم على غرم ما تلف له من المال بداره يوم الثورة ؛ وقدره مائة ألف دينار ؛ فتحمّلوها . وأمكنوه من قياد البلد ؛ فدخلها في جمادى من سنة ثمان وأربعين وستمائة . وطالبهم بالمال ؛ فعجزوا ونقضوا شرطه ؛ فحقّ عليهم القول . وتقبّض على القاضي أبي عبد الرحمن وابن أبي طاطو وابنه ، وابن حشار وأخيه المتولّين كبر الفعلة فقتلهم ، ورفع على الشرفات رؤوسهم . وأخذ الباقين بغرم المال طوعاً أو كرهاً ؛ فكان ذلك مما عبَّد رعية فاس وقادهم لأحكام بني مرين . وضرب الرهب على قلوبهم لهذا العهد ؛ فخشعت منهم الأصوات وانقادت الهِمَم ؛ ولم يحدّثوا بعدها أنفسهم بغمس يد في فتنة . والله مالك الأرض ومن عليها .

الخبر عن تغلب الأمير أبي يحيى على مدينة سلا وارتجاعها من يده وهزيمة المرتضى بعدها

لما كمل للأمير أبي يحيى فتح مدينة فاس ، واستوسق أمر بني مرين بها ، رجع إلى ما كان فيه من منازلة بلاد فازاز فافتتحها . ودوَّخ أوطان زناتة ، واقتضى مغارمهم وحسم علل الثائرين فيها . ثم تخطّى إلى مدينة سَلا ورِباط الفتح سنة تسع وأربعين وستمائة ؛ فملكها وتاخم الموحِدّين بثغرها . واستعمل عليها ابن أخيه يعقوب بن عبدالله ابن عبد الحق ، وعقد له على ذلك الثغر ، وضمّ إليه الأعمال . وبلغ الخبر بذلك إلى المرتضى ، فأهمّه الشأن . وأحضر الملأ من الموحِدّين وفاوضهم ، واعتزم على حرب بني مرين . وسرّح العساكر سنة خمسين وستمائة ؛ فأحاطت بسلا ؛ فافتتحوها وعادت إلى طاعة المرتضى . وعقد عليها لأبي عبدالله بن أبي يعلو من مشيخة الموحدين . وكان المرتضى قد صمد بنفسه سنة تسع وأربعين وستمائة إلى محاربة بني

مرين في جموع الموحّدين وعساكر الدولة ، صمد بنو مرين للقائه . والتقى الجمعان بايملولين ؛ ففضّوا جموعه ؛ وكانت الدبرة عليه والظهور لهم . ثم كان بعدها فتح سلا ، وغلب الموحدين عليها . وأجمع المرتضى بعدها على احتشاد أهل سلطانه ، ومعاودة الخروج بنفسه إلى غزوهم لما خشي من امتداد أمرهم . وتقلّص ملك الموحّدين ؛ فعسكر خارج حضرته سنة ثلاث وخمسين وستمائة وبعث الحاشرين في الجهات ؛ فاجتمع إليه أمم الموحدين والعرب والمصامدة . وأغذّ السير تلقاءهم ، حتى إذا انتهى إلى جبال بهلولة من نواحي فاس ، وصمد إليه الأمير أبو يحيى في عساكر بني مرين ، ومن اجتمع إليهم من دونهم . والتقى الجمعان هنالك . وصدقهم بنو مرين القتال ؛ فاختلّ مصاف السلطان ؛ وانهزمت عساكره وأسلمه قومه . ورجع إلى مراكش مفلولاً . واستولى القوم على معسكره واستباحوا سرادقه وفساطيطه ، وانتهبوا جميع ما وجدوا بها من المال والذخيرة ، واستاقوا سائر الكراع والظهر ، وامتلأت أيديهم من الغنائم . واعتزّ أمرهم ، وانبسط سلطانهم ، وكان يوماً له ما بعده . وأغرى أثر هذه الحركة عساكر بني مرين تادلا[1] واستباح بني جابر حاميتها من جشم ببلد أبي نفيس ، واستلحم أبطالهم ، وألان من حَدِهم ، وخضّد من شوكتهم . وفي أثناء هذه الحروب كان مقتل علي بن عثمان بن عبد الحق ، وهو ابن أخي الأمير أبي يحيى . شعر منه بفساد الدخلة والاجتماع للتوثّب به ؛ فدسّ لابنه أبي حديد مفتاح بقتله ؛ بجهات مكناسة سنة إحدى وخمسين وستمائة . والله تعالى أعلم .

* (الخبر عن فتح سجلماسة وبلاد القبلة وما كان في ذلك من الاحداث) *

لما يئس بنو عبد المؤمن من غلبهم بني مرين على ما صار في أيديهم من بلاد المغرب وعادوا إلى مدافعتهم عن صمامة الدولة التي تحملت إياها شفافهم لو أطاقوا المدافعة عنها وملك بنو مرين عامّة بلاد التلول ، اعتزم الأمير أبو يحيى بعدها على الحركة إلى بلاد القبلة ففتح سجلماسة ودرعة وما إليها سنة ثلاث وخمسين وستمائة وافتتحها بمداخلة من ابن القطراني ، غدر بعامل الموحّدين فتقبّض عليه ، وأمكن منها الأمير

(١) كذا بالأصل في جميع النسخ ، وفي معجم البلدان : تادلة .

أبا يحيى فملكها ، وما إليها من درعة سائر بلاد القبلة . وعقد لابنه أبي حديد . وبلغ الخبر إلى المرتضى فسرّح العساكر سنة أربع وخمسين وستمائة لاستنقاذها ، وعقد عليهم لابن عطوّش ، ففرّ راجعاً إلى مراكش ، ثم نهض سنة خمس وخمسين وستمائة إلى محاربة يغمراس وبنيه بأبي سليط ، فأوقع بهم واعتزم على اتباعه ، فثناه عن رأيه في ذلك أخوه يعقوب بن عبد الحق لعهد تأكد بينه وبين يغمراس فرجع . ولما انتهى إلى المقرمدة هذه ، بلغه أن يغمراسن قصد سجلماسة ودرعة لمداخلة من بعض أهلها أطمعته في ملكها ، فأغذّ السير إليها بجموعه ، ودخلها ولصبيحة دخوله وصل يغمراسن لشأنه ، فلمّا علم بمكان أبي يحيى من البلد سقط في يده ويئس من غلابه ، ودارت بينهم حرب تكافؤا فيها وهلك سليمان بن عثمان بن عبد الحق ابن أخي الأمير أبي يحيى ، وانقلب يغمراسن إلى بلده ، وعقد الأمير أبو يحيى على سجلماسة ودرعة وسائر بلاد القبلة ليوسف بن يزكاسن ، واستعمل على الجباية عبد السلام الأوربي وداود بن يوسف ، وانكفأ راجعاً إلى فاس . والله تعالى أعلم .

الخبر عن مهلك أبي يحيى وما كان اثر ذلك من الاحداث التي تمحضت عن استبداد أخيه يعقوب بن عبد الحق بالأمر

لما رجع الأمير أبو يحيى من حرب يغمراسن بسجلماسة ، أقام أياماً بفاس . ثم نهض إلى سجلماسة متفقداً لثغورها ، فانقلب منها عليلاً . وهلك حتف أنفه على سرير ملكه في رجب سنة ست وخمسين وستمائة أمضى ما كان عزماً ، وأطول إلى تناول الملك يداً . اختطفته المنون عن شأنه ودفن بمقبرة باب الفتوح من فاس ، ضجيعاً للمولى أبي محمد الفشتالي كما عهد لأهل بيته . وتصدّى للقيام بأمره ابنه عمر واشتمل عليه عامّة قومه . ومالت المشيخة وأهل الحل والعقد إلى عمّه يعقوب بن عبد الحق ، وكان غائباً عن مهلك أخيه بتازى ، فلما بلغه الخبر أسرع اللحاق بفاس وتوجهت إليه وجوه الأكابر . وأحس عمر بصاغية الناس إليه ، وحرّضه أتباعه على الفتك بعمه[1] ، فاعتصم بالقصبة ، وسعى الناس في إصلاح ذات بينهما ، فتفادى يعقوب عن الأمر ، ودفعه لابن أخيه ، على أن تكون له بلاد تازى وبطوية وملوية ، ولما لحق

(١) وفي نسخة ثانية : به .

بتازى واجتمع إليه كافة بني مرين ، عذلوه فيما كان منه فاستلأم ، وحملوه على العودة في الأمر ، ووعدوه من أنفسهم المظاهرة والمؤازرة فأجاب ، وبايعوه وصمد إلى فاس ، وبرز عمر للقائه فانتهى إلى المسجدين ، ولما تراءى الجمعان خذ له جنوده وأسلموه ، فرجع إلى فاس مغلولاً ، ووجّه الرغبة إلى عمه أن يقطعه مكناسة وينزل له عن الأمر ، فأجابه إلى ذلك ، ودخل السلطان أبو يوسف يعقوب بن عبد الحق مدينة فاس فملكها سنة سبع وخمسين وستمائة وتمشت طاعته في بلاد المغرب ما بين ملوية وأم الربيع وسجلماسة وقصر كتامة . واقتصر عمر على إمارة مكناسة فتولاها أياماً ، ثم اغتاله من عشيره عمر وابراهيم إبنا عمّه عثمان بن عبد الحق والعباس ابن عمه محمد بن عبد الحق فقتلوه وثأروا منه بدم كانوا يعتدّونه عليه . وهلك لعام أو بعد عام من إمارته ، فكفى يعقوب شأنه واستقام سلطانه ، وذهب التنازع والمشاق عن أمره . وكان يغمراسن بعد مهلك قرنه الأمير أبي يحيى سماله أمل في الاجلاب على المغرب ، فجمع لذلك قومه واستجاش بني توجين ومغراوة وأظمعهم في غيل الأسود ونهضوا إلى المغرب حتى انتهوا الى كلدامان.وصمد السلطان يعقوب بن عبد الحق إلى لقائهم فغلبهم ورجعوا الى تفيئته[1] ، ومرّ يغمراسن ببلاد بطوية فأحرق وانتسف واستباح وأعظم فيها النكاية . ورجع السلطان إلى فاس وتقبّل مذاهب أخيه الأمير أبي يحيى في فتح أمصار المغرب وتدويخ أقطاره . وكان مما أكرمه الله به أن فتح أمره باستنقاذ مدينة سلا من أيدي النصارى ، فكان له بها أثر جميل وذكر خالد ، على ما نذكره إن شاء الله تعالى .

* (الخبر عن فجاة العدو مدينة سلا واستنقاذها من أيديهم) *

كان يعقوب بن عبدالله[2] قد استعمله عمّه الأمير أبو يحيى على مدينة سلا لما ملكها كما ذكرناه . ولما استرجعها الموحّدون من يده أقام يتغلب في جهاتها مراصداً لأهلها وحاميتها . ولما بويع عمّه يعقوب بن عبد الحق اسقته بعض الأحوال ، فذهب

(١) وفي نسخة ثانية : ورجعوا على تعبية .

(٢) وفي نسخة ثانية : بن عبد الحق .

مغاضباً حتى نزل غبولة ، وألطف الحيلة في تملك رباط الفتح وسلا ليعتدّها ذريعة لما أسرّ في نفسه ، فتمّت له الحيلة ، وركب عاملها ابن يعلو البحر فاراً إلى أزمور . وخلف أمواله وحرمه فتملّك يعقوب بن عبدالله البلد وجاهر بالخلع ، وصرف إلى منازعة عمه السلطان أبي يوسف وجوه العزم ، وداخل تجار الحرب في الامداد بالسلاح . فتماروا في ذلك وكثر سفر المتردّدين بينهم ، حتى كثروا أهلها وأسملوا فيها غرّة عيد الفطر من سنة ثمان وخمسين وستمائة عند شغل الناس بعيدهم . وثاروا بسلا ، وسبوا الحرم وانتهبوا الأموال ، وضبطوا البلد وامتنع يعقوب بن عبدالله برباط الفتح ، وطار الصريخ إلى السلطان أبي يوسف ، وكان بتازى مستشرفاً لأحوال يغمراسن ، فنادي في قومه ، وطار بأجنحة الخيول ووصلها ليوم وليلة ، وتلاحقت به أمداد المسلمين من أهل الديوان والمطوعة . ونازلها أربع عشرة ليلة ، ثم اقتحمها عليهم عنوة ، وأثخن فيهم بالقتل . ثم رمّ بالبناء ما كان متثلّما بسورها الغربي حيث أمكنت منه الفرصة في البلد وتناول البناء فيه بيده والله لا يضيع عمل عامل .

وخشي يعقوب بن عبدالله بادرة السلطان ، فخرج من رباط الفتح وأسلمه فضبطه السلطان وثقفه . ثم نهض إلى بلاد تامسنا وأنفى ، فملكها وضبطها ولحق يعقوب بن عبدالله بحصن علودان من جبال غمارة ، فامتنع به وسرّح السلطان ابنه أبا مالك عبد الواحد وعليّ بن زيّان لمنازلته . وسار إلى لقاء يغمراسن لقاء المهادنة ، فلقيه بجو حرمان[1] وافترقا على السلم ووضع أوزار الحرب ، ورجع السلطان إلى المغرب فخرج عليه أبناء أخيه أولاد إدريس . ولحقوا بقصر كتامة . شايعوا يعقوب ابن عمهم عبدالله على رأيه . واجتمعوا إلى أكبرهم محمد بن ادريس فيمن إليهم من العشير والصنائع ، فنهض إليهم واعتصموا بجبال غمارة ، ثم استنزلهم واسترضاهم وعقد لعامر ابن ادريس سنة ستين وستمائة على عسكر من ثلاثة آلاف فارس أو يزيدون من المطوعة من بني مرين ، وأغزاهم إلى العدوة لجهاد العدوّ وحملهم ، وفرض لهم . وشفع بها عمله في واقعة سلا وهو أوّل جيش أجاز من بني مرين ، فكان لهم في الجهاد والمرابطة مقامات محمودة وذكر خالد تقبّل سلفهم فيها خلفهم من بعدهم حسبما نذكره .

وأقام يعقوب بن عبدالله خارجا بالنواحي متقلاً في الجهات إلى أن قتله طلحة بن على

(١) وفي نسخة ثانية : فلقيه بوادي محرمان .

بساقيه غبّولة من ناحية سلا سنة ثمان وستين وستمائة فكفى السلطان شأنه . وكان المرتضى مذ توالت عليهم الوقائع واستمرّ الظهور لبني مرين انحجر في جدرانه وتوارى بالأسوار عن عدوّه ، فلم يسم إلى لقاء زحف ولا حدّث نفسه بشهود حرب ، واستأسد بنو مرين على الدولة وشرهوا إلى التهام البقية ، وأسفوا إلى منازلة مراكش دار الخلافة ، كما نذكره إن شاء الله تعالى والله أعلم .

الخبر عن منازلة السلطان أبي يوسف حضرة مراكش دار الخلافة وعنصر الدولة وما كان أثر ذلك من نزوع أبي دبوس إليه وكيف نصبه للامر وكان مهلك المرتضى على يده ثم انتقض عليه

لما فرغ السلطان من شأن الخوارج عليه من عشيره ، استجمع لمنازلة المرتضى والموحّدين في دارهم ، ورأى أنه أوهن لدولتهم وأقوى لأمره عليهم . وبعث قومه واحتشد أهل ممالكه ، واستكمل تعبيته وسار حتى انتهى إلى ايكليز[1] واعترم على ذلك سنة ستين وستمائة وشارف دار الخلافة . ثم نزل بقعرها وأخذ بمخنقها . وعقد المرتضى لحربهم للسيد أبي العلاء إدريس المكنّى بأبي دبّوس ابن السيّد أبي عبدالله ابن السيد أبي حفص بن عبد المؤمن ، فعبّى كتائبه ورتّب مصافه ، وبرز لمدافعتهم ظاهر الحضرة ، فكانت بينهم حروب بعد العهد بمثلها ، استشهد فيها الأمير عبدالله بن يعقوب بن عبد الحق ، وكانوا يسمونه برطانتهم المعجوب[2] ففتّ مهلكه في عضدهم ، وارتحلوا عنها إلى أعمالهم ، واعترضهم عساكر الموحّدين بوادي أمّ الربيع ، وعليهم يحيى بن عبدالله بن وانودين ، فاقتتلوا في بطن الوادي وانهزمت عساكر الموحدين . وكان في مسيل الوادي كدي تحسر عنها غمر الماء تبدو كأنها أرجل ، فسميت الواقعة بها أمّ الرجلين . ثم سعى سماسرة الفتن عند الخليفة المرتضى في ابن عمّه وقائد حربه السيد أبي دبوس بطلبه الأمر لنفسه ، وشعر بالسعاية فخشي

---

(١) وفي نسخة اخرى : ايكلين .

(٢) كذا في النسخة الباريسية وفي نسخة اخرى : ايعجوب .

بادرة المرتضى ولحق بالسلطان أبي يوسف مدخله إلى فاس من منازلته آخر سنة إحدى وستين وستمائة نازعاً إليه ، فأقام عنده ملياً . ثم سأل منه الإعانة على أمره بعسكر يمدّه وآلة يتخذها لملكه ، ومال يصرفه في ضروراته على أن يشركه في القسمة والفتح والسلطان ، فأمدّه بخمسة آلاف من بني مرين ، وبالكفاية من المال والمستجاد من الآلة وأهاب له بالعرب والقبائل من أهل مملكته ومن سواهم أن يكونوا يداً معه . وسار في الكتائب حتى شارف الحضرة ، ودسّ إلى أشياعه ومن يداخله من الموحّدين في أمره ، فثاروا بالمرتضى وأخفضوه[1] عنها ، فلحق بأزمور مستجيشاً بصهره ابن عطوش . ودخل أبو دبوس الحضرة في المحرّم فاتح خمس وستين وستمائة وتقبّض ابن عطوش عامل أزمور على المرتضى واقتاده أسيراً إلى أبي دبوس ، فبعث مولاه مزاحماً فاحتزّ رأسه في طريقه ، واستقلّ بالخلافة صبابه آل عبد المؤمن . ثم بعث إليه السلطان في الوفاء بالمشارطة ، فاستنكف ، وعثا ونقض العهد وأساء الخطاب ، فنهض إليه في جموع بني مرين وعساكر المغرب ، فخام عن اللقاء وانحجز بمراكش . ونازله السلطان أياماً تباعاً ثم سار في الجهات والنواحي يحطّم الزرع وينسف الأقوات . وعجز أبو دبوس عن دفاعه ، فاستجاش عليه بيغمراسن بن زيان ليفتّ في عضده ويشغله عما وراءه ، ويأخذ بحجزته عن التهامه على ما نذكر لو أمهلته الأيام ، وانفسح له الأجل .

الخبر عن وقيعة تلاغ بين السلطان يعقوب بن عبد الحق ويغمراسن بن زيان باغراء أبي دبوس وتضريبه

لما نازل السلطان أبو يوسف حضرة مراكش وقعد على ترائبه للتوثّب عليها ، لم يجد أبو دبّوس وليجة من دون قصده إلاّ استجاشته بيغمراسن وقومه عليه ، ليأخذوا بحجزته عنه ، ويشغلوه من ورائه . فبعث إليه الصريخ في كشف بلواه ومدافعة عدوّه . وأكد العهد وأسنى الهديّة ، فشمّر يغمراسن لاستنقاذه وجذب عدوّه من ورائه ، وشنّ الغارات على ثغور المغرب وأضرم ناراً فأهاج عليه وعلى قومه من السلطان يعقوب ليثاً عادياً ، وأرهف منه عزماً ماضياً ، وأفرج يعقوب على مراكش بعزم النهوض إلى

(١) وفي نسخة ثانية : اجهضوه .

تلمسان ، ونزل بفاس ، فتلوم بها أياماً حتى أخذ أهبة الحرب ، وأكمل استعدادها ورحل فاتح ست وستين وستمائة وسلك على كرسيف ، ثم على تافرطا ، وتزاحف الفريقان بوادي تلاغ . وعبّى كل منهم كتائبه ورتّب مصافه ، وبرز النساء سافرات الوجوه على سبيل التحريض لحسن وسعد بن ويرغين[1] ولما فاء الفيء ومال النهار ، وكثرت حشود المغرب وجموع بني عبد الواد ومن إليهم ، انكشفوا ومنحوا العدوّ أكتافهم . وهلك أبو حفص عمر كبير ولد يغمراسن وولي عهده في جماعة من عشيرة ، ذكرناهم في أخباره . وأخذ يغمراسن بأعقاب قومه ، فكان لهم ردءاً إلى أن خلصوا من المعترك ووصلوا إلى بلادهم في جمادى من سنتهم ، وعاد السلطان أبو يوسف إلى مكانه من حصار مراكش والله أعلم .

الخبر عن السفارة والمهاداة التي وقعت بين السلطان يعقوب ابن عبد الحق وبين المستنصر الخليفة بتونس لن آل ابي حفص

كان الأمير أبو زكريا يحيى بن عبد الواحد بن أبي حفص منذ دعا لنفسه بتونس سنة خمس وعشرين وستمائة طموحاً إلى ملك مرّاكش مقر الدعوة ومنبعث الدولة وأصل الخلافة . وكان يؤمّل لذلك زناتة ، وإلاّ فمادونه من خضد شوكة آل عبد المؤمن ، وتقليم أظافر بأسهم ، وردّهم على أعقابهم أن يخلصوا إليه ، وتغلّب على تلمسان سنة أربعين وستمائة ودخل يغمراسن بن زيان في دعوته وصار فيئة له وتبعه على عدوّه كما ذكرناه ، فوصل به جناحة للمدافعة . وناغاه بنو مرين في مراسلة ابن أبي حفص ومخاطبتة ، والتخفيض عليه فيما يهمه من شأن عدوه ، وحمل ما يفتحون من بلاد المغرب على البيعة له والطاعة مثل : فاس ، ومكناسة والقصر . وكان هو يلاطفهم بالتحف والهدايا ، ويريهم البرّ في الكتاب والخطاب والمعاملة والتكريم للوفد غير سبيل آل عبد المؤمن ، فكانوا يجنحون بذلك إلى مراسلته ، وإيفاد قرابتهم عليه . وولي ابنه المستنصر بعده سنة سبع وأربعين وستمائة فتقبّل مذاهب أبيه وأوفي عليه بالايعاز إليهم بمنازلة مراكش ، وضمان الانفاق عليهم فيها ، فكان يبث لذلك أحمالاً

(١) وفي نسخة ثانية : على سبيل التحريض ، يحيين ويعدين ويرغين .

من المال والسلاح وأعداداً وافرة من الخيل بمراكبها للحملان ، ولم يزل ذلك دأب معهم . ولما فعل أبو دبّوس فعلته في نقض العهد واستجمع السلطان لمنازلته ، قدم بين يدي عمله مراسلة الخليفة المستنصر يخبره الخبر ويتلطّف له في استنزال المدد ، فأوفد عليه ابن أخيه عامر بن إدريس بن عبد الحق ، وأصحبه عبدالله بن كندوز لعبد الواد كبير بني كمي ، وقريع يغمراسن الذي ثأر يغمراسن من أبيه كندوز بأبيه زيان كما ذكرناه في أخبارهم . وكان خلص إليه من حضرة المستنصر فلقاه مبرّة وتكريماً ، وأوفد معهم الكاتب أبا عبدالله محمد الكناني من صنائع دولة آل عبد المؤمن ، كان نزع إلى أخيه الأمير أبي يحيى لما رأى من اختلال الدولة ، وأنزله مكناسة وآثره بالصحبة والخلّة ، فجمع له يعقوب بن عبد الحق في هذا الوفد من الأشراف من يحسن الرياسة ، ويعرب عما في ضمائر الناس ، ويدله على شرف مرسله . فوفدوا على المستنصر سنة خمس وستين وستمائة وأدّوا رسالتهم وحركوا له جوار المظاهرة على صاحب مراكش وكبح عنانه ، فحنّ واهتز سروراً من أعواده ، ولقاهم مبرّة التكريم واحسان النزل ، وردّ الأمير عامر بن إدريس وعبدالله بن كندوز لوقتهما . وتمسّك بالكناني من بينهم لمصاحبة وفده ، فطال مقامه عنده إلى أن كان من فتح مراكش ما نذكره .

ثم أوفد المستنصر على السلطان يعقوب بن عبد الحق آخر سنة تسع وستين وستمائة بعدها شيخ الجماعة من الموحّدين لعهده أبا زكريا يحيى بن صالح الهنتاني مع جماعة من مشيخة الموحدين في مرافقة محمد الكناني ، وبعث معهم إلى السلطان هدية سنيّة يلاطفه بها ويتاحفه ، انتخب فيها من الجياد والسلاح وأصناف الثياب الغريبة العمل ما انتقاه . ووفق رضاه وهمته على الاستكثار منه ، فحسن موقعها وتحدّث وانقلب وفده أحسن منقلب بعد أن تلطّف محمد الكناني في ذكر الخليفة المستنصر على منبر مراكش ، فتم له ، وشهد له وفد الموحّدين فعظم سرورهم وانقلبوا محبورين مسرورين ، واتصلت بعد ذلك مهاداة المستنصر ليعقوب بن عبد الحق إلى أن هلك ، وحذا ابنه الواثق من بعده على سننه ، فبعث إليه سنة سبع وسبعين وستمائة هدية حافلة ، بعث بها القاضي أبا العباس الغماريّ قاضي بجاية فعظم موقعها ، وكان لأبي العبّاس الغماري بالمغرب ذكر تحدّث به الناس والله أعلم .

* (الخبر عن فتح مراكش ومهلك أبي دبوس وانقراض دولة الموحدين من المغرب) *

لما رجع السلطان أبو يوسف من حرب يغمراسن ورأى أن قد كفى عدوّه وكف غربه وردّ من كيده وكيد أبي دبوس صريخه ، صرف حينئذ عزائمه إلى غزو مراكش ، والعودة إلى مضايقتها كما كان لأول أمره ، ونهض لغزاته من فاس في شعبان من سنته . ولما جاوزوا أمّ الربيع ، بثّ السرايا وسرّح الغارات ، وأطلق الأيدي والأعنة للنهب والعيث ، فحطّموا زروعها وانتسفوا آثارها ، وتقرى نواحيها كذلك بقية عامة . ثم غزا عرب الخلط من جشم بتادلا ، فأثخن فيهم واستباحهم . ثم نزل وادي العبيد ، ثم غزا بلاد صنهاجة ، ولم يزل ينقل ركابه بأنحاء البلاد المراكشية وأحوازها حتى حضرت صدور بني عبد المؤمن وقومه ، وأغزاهم أولياء الدولة من عرب جشم بنهوض الخليفة لمدافعة عدوّه ، فجمع لذلك وبرز في جيوش ضخمة وجموع وافرة ، واستجرّه أبو يوسف بالفرار أمامه ليبعد عن مدد الصريخ ، فيستمكن منه حتى نزل عفو. ثم كرّ إليه والتحم القتال فاختل مصافه وفرّت عساكره . وانهزم يريد مراكش فأدركوه دون أمله . واعتاقه أجله ، فطعن في مفرّه وخرّ صريعاً لليدين وللفم واجتز رأسه . وهلك بمهلكه وزيره عمران وكاتبه عليّ بن عبدالله المغيلي . وارتحل السلطان أبو يوسف إلى مراكش وفرّ من كان بها من الموحدين ، فلحقوا بجبل تينملل ، وبايعوا اسحق أخا المرتضى ، فبقي ذبالة هنالك سنين . ثم تقبّض عليه سنة أربع وسبعين وستمائة ، وسيق إلى السلطان هو وأبو سعيد ابن عمّه السيد أبي الربيع والقبائلي وأولاده فقتلوا جميعاً . وانقرض أمر بني عبد المؤمن . والله وارث الأرض ومن عليها .

وخرج الملاء وأهل الشورى من الحضرة إلى السلطان فأمّنهم ووصلهم . ودخل مراكش في بروز فخم فاتح سنة ثمان وستين وستمائة وورث ملك آل عبد المؤمن وتولاّه . واستوسق أمره بالمغرب ، وتطامن الناس لبأسه ، وسكنو الظلّ سلطانه . وأقام بمراكش إلى رمضان من سنته ، وأغزى ابنه الأمير أبا مالك إلى بلاد السوس فافتتحها وأوغل في ديارها ودوّخ أقطارها ، ثم خرج بنفسه إلى بلاد درعة فأوقع بهم

الوقيعة المشهورة التي خضدت من شوكتهم ، ورجع لشهرين من غزاته ، ثم أجمع الرحلة إلى داره بفاس فعقد على مراكش وأعمالها لمحمد بن عليّ بن يحيى من كبار أوليائهم ومن أهل خؤلته ، وكان من طبقة الوزراء حسبما يأتي التعريف به وبعشيرته ، وأنزله بقصبة مراكش ، وجعل المسالح في أعمالها لنظره ، وعهد إليه بتدويخ الأقطار ومحو آثار بني عبد المؤمن ، وفصل إلى حضرته في شوّال وأراح بسلا ، فكان من خبر عهده لابنه ما نذكره ان شاء الله تعالى .

الخبر عن عهد السلطان لابنه أبي مالك وما كان عقب ذلك من خروج القرابة عليه أولاد أخيه إدريس واجازتهم الى الاندلس

لما تلوم السلطان بسلا منصرفه من رباط الفتح وأراح بها ركائبه عرض له طائف من المرض ووعك وعكاً شديداً . فلمّا أبلّ جمع قومه وعهد لابنه فيهم أبي مالك عبد الواحد كبير ولده ، لما علم من أهليته لذلك . وأخذ له البيعة عليهم ، فأعطوها طواعية ، وأسف القرابة من ولد أخويه عبدالله وادريس لأمّهما سوط النساء ، ووجدوا في أنفسهم لما يرون أنّ عبدالله وإدريس أكابر ولد عبد الحق ، ولهما التقدّم على من بعدهما من ولده ، وأنهما أحق بالأمر ، فرجعت هنت إلى أذنابها[1] ، ونفسوا عن ابن السلطان لما أخذ له من البيعة والعهد . ونزعوا عنه إلى جبل علودان من جبال غمارة عشّ خلافهم . ومدرج فتنتهم ، وذلك سنة تسع وستين وستمائة ورياستهم يومئذ لمحمد بن إدريس وموسى بن رحّو بن عبدالله ، وخرج معهم ولد أبي عياد بن عبد الحق وأغزاهم السلطان ولده أبا يعقوب يوسف في خمسة آلاف من عسكره ، فأحاط بهم وأخذ بمخنقهم ، ولحق به أخوه أبو مالك في عسكره ، ومعه مسعود بن كانون شيخ سفيان . ثم خرج في أثرهم السلطان أبو يوسف واجتمع معسكرهم بتافركا ونازلوهم ثلاثاً . وهلك في حروبهم منديل بن ورتطليم . ولما رأوا أن أحيط بهم سألوا الأمان ، فبذله وأنزلهم . واستلّ سخائمهم ومسح ما في صدورهم ، ووصل بهم إلى

(١) وفي نسخة ثانية : فعادت هيف الى أديانها .

حضرته . وسألوا منه الاذن في اللحاق بتلمسان حياءً من كبر ما ارتكبوه ، فأذن لهم ، وأجازوا البحر إلى الأندلس ، وخالفهم عامر بن إدريس لما أنس من صاغية السلطان إليه ، فتخلّف عنهم بتلمسان حتى توثق لنفسه بالعهد وعاد الى قومه بعد منازلة السلطان بتلمسان كما نذكره الآن .

واحتلّ بنو إدريس وعبدالله وابن عمهم أبو عياد باندلس على حين أقفر من الحامية جوها ، واستأسد العدوّ على ثغرها . وغلبت شفاههم فاحتلّوها أسوداً ضارية ، وسيوفاً ماضية ، معوّدين لقاء الأبطال وقراع الحتوف والنزال . مستغلظين بخشونة البداوة وصرامة العز وبسالة التوحّش فعظمت نكايتهم في العدوّ واعترضوا شجي في صدره دون الوطن الذي كان طعمه له في ظنّه ، وارتدّوه على عقبه ، ونشطوا من همم المسلمين المستضعفين وراء البحر وبسطوا من آمالهم لمدافعة طاغيتهم . وزاحموا أمير الأندلس في رياستها بمنكب ، فتجافى لهم عن خطّة الحرب ورياسة الغزاة من أهل العدوة من أعياصهم وقبائلهم ومن سواهم من أمم البرابرة ، وتناقلوه وساهموه في الجباية لفرط العطاء والديوان ، فبذله لهم واستمدّوا على العدوّ(١) وحسن أثرهم فيها كما نذكره بعد في أخبار القرابة . ثم أعمل السلطان نظره في غزو تلمسان على ما نذكره إن شاء الله تعالى .

الخبر عن حركة السلطان أبي يوسف الى تلمسان وواقعيته على يغمراسن وقومه بايسيلى

لما غلب السلطان أبو يوسف على بني عبد المؤمن وفتح مراكش واستولى على ملكهم سنة ثمان وستين وستمائة وعاد إلى فاس كما ذكرناه ، تحرّك ما كان في نفسه من ضغائن يغمراسن وبني عبد الواد ، وما أسفوا به من تخذيل عزائمه ومحادلته(٢) عن قصده . ورأى أنّ واقعة تلاغ لم تشف صدره ، ولا أطفأت نار موجدته ، فأجمع أمره على غزوهم . واقتدر بما صار إليه من الملك والسلطان على حشد أهل المغرب لحربهم وقطع دابرهم ، فعسكر بفاس ، وسرّح ولده وولّي عهده أبا مالك إلى مراكش في

(١) وفي نسخة ثانية : واستمروا على ذلك لهذا العهد .
(٢) وفي نسخة اخرى : محاذبته .

خواصّه ووزرائه حاشدين في مدائنها وضواحيها وقبائل العرب والمصامدة وبني ورا وغمرة وصنهاجة ، وبقايا عساكر الموحدين بالحضرة ، وحامية الأمصار من جند الروم وناشبة الغزو فاستكثر من أعدادهم واستوفى حشدهم . واحتفل السلطان بحركته وارتحل عن فاس سنة سبعين وسبعمائة وتلوم بملوية إلى أن لحقته الحشود وتوافت إليه أمداد العرب من قبائل جشم أهل تامسنا الذين هم سُفْيان والخُلْط والعاصم ، وبنو جابر ومن معهم من الأثبج ، وقبائل ذوي حسّان والشبانات من المعقل أهل السوس الأقصى ، وقبائل رياح أهل أزغار والهبط . فاعترض هنالك عساكر وعبّى مواكبه ، فيقال بلغت ثلاثين ألفاً . وارتحل يريد تلمسان ، ولما انتهى إلى أنكاد[1] وافته رسل ابن الأحمر هنالك ووفد المسلمين بالأندلس صريخاً على العدوّ يستجيشون باخوانهم المسلمين ويسألونهم الإعانة ، فتحرّكت همته للجهاد ونصر المسلمين من عدوّهم . ونظر في صرف الشواغل عن ذلك ، وجنح إلى السلم مع يغمراسن ، وصوّب الملاء في ذلك رأيه لما كانوا عليه من إيثار الجهاد . وانتدب جماعة من المشيخة إلى السعي في صلاح ذات بينهما ، وانكفأ من غرب عدوتها .

وساروا إلى يغمراسن فوافوه بظاهر تلمسان وقد أخذ أهبته واستعدّ للقاء . واحتشد زناتة أهل ممالكه بالشرق من بني عبد الواد وبني راشد ومغراوة وأحلافهم من العرب زغبة . فلجّ في ذلك واستكبر وصم عن إسعافهم . وزحف في جموعه ، والتقى الجمعان بوادي ايسيلي من بسائط وَجْدَة ، والسلطان أبو يوسف قد عبى كتائبه ، ورتّب مصافه وجعل ولديه الأميرين أبا مالك وأبا يعقوب في الجناحين ، وسار في القلب ، فدارت بينهم حرب شديدة أنجلت عن هلاك فارس بن يغمراسن ، وجماعة من بني عبد الواد . وكاثرهم حشود المغرب الأقصى وقبائله ، وعساكر الموحدين والبلاد المراكشية ، فولوا الأدبار . وهلك عامّة عسكر الروم لثباتهم بثبات السلطان فطحنتهم رحى الحرب . وتقبّض على قائدهم بيرنيس . ونجا يغمراسن بن زيان في فلّه مدافعاً دون أهله إلى تلمسان . ومرّ بفساطيطه ، فأضرمها ناراً ، وانتهب معسكره ، واستبيحت حرمه . وأقام السلطان أبو يوسف على وَجْدَة حتى خرّبها وأصرع بالتراب

---

(١) انكاد : مدينة قرب تلمسان من بلاد البربر من أرض المغرب ، كانت لعليّ بن أحمد قديماً ، ذات سور من تراب في غاية الارتفاع والعرض ، ووواديها يشقها نصفين ، منها الى تاهرت بالعرض مشرقاً ثلاث مراحل (معجم البلدان) .

أسوارها ، وألصق بالرغام جدرانها . ثم نهض إلى تلمسان فحاصرها أياماً وأطلق الأيدي في ساحتها بالنهب والعيث ، وشنّ الغارات على البسائط ، فاكتسحها سبياً ونسفها نسفاً .

وهلك في طريقه إلى تلمسان وزيره عيسى بن ماساي ، وكان من علية وزرائه وحماة ميدانه له في ذلك أخبار مذكورة . وكان مهلكه في شوّال من هذه السنة . ووصله بمثواه من حصارها محمد بن عبد القوي أمير بني توجين ، ومستصرخه على بني عبد الواد لما نال منه يغمراسن من طبخ القهر وذلّ الغلب والتحيف في كافة قبيلة مباهياً بآلته ، فأكرم السلطان أبو يوسف وفادته واستركب الناس للقائه وبرور مقدمه . واتخاذ رتبة السلاح لمباهاته ، وأقام محاصراً لتلمسان معه أياماً حتى وقع اليأس وامتنع البلد ، واشتدّ شوكة حاميته ثم أجمع السلطان أبو يوسف على الإفراج عنها وأشار على الأمير محمد بن عبد القويّ وقومه بالقفول قبل قفوله ، وان يغذّوا السير إلى بلادهم . وملاء حقائبهم باتحافه وجنب لهم من المائة من المقرّبات بمراكبها ، وأراح عليهم ألف ناقة حلوب . وعمهم بالخلع مع الصلات والخلع الفاخرة . واستكثر لهم من السلاح والفازات والفساطيط ، وحملهم على الظهر ، وارتحلوا وتلّوم السلطان أياماً لمنجاتهم إلى مقرّهم من جبل وانشريس حذراً من غائلة يغمراسن من انتهاز الفرصة فيهم .

ثم دخل إلى فاس ودخلها مفتتح إحدى وسبعين وستمائة وهلك ولده الأمير أبو مالك وليّ عهده لأيام من مقدمه ، فأسف لمهلكه . ثم تعزى بالصبر الجميل عن فقده ، ورجع إلى حاله في افتتاح بلاد المغرب . وكان في غزوته هذه ملك حصن تاونت ، وهو معقل مَطْغَرة ، وشحنه بالأقوات لما رآه ثغراً مجاوراً لعدوّه . وأسلمه لنظر هرون ابن شيخ مطغرة . ثم ملك حصن مليلة بساحل الريف مرجعه من غزاته هذه . وأقام هرون بحصن تاونت ، ودعا لنفسه . ولم يزل يغمراسن يردّد الغزو إليه حتى فرّ من الحصن واستلمه سنة خمس وسبعين وستمائة ولحق بالسلطان أبي يوسف كما ذكرناه في أخباره ، عند ذكر قبيلة مطغرة وكان من شأنه ما ذكرناه .

الخبر عن افتتاح مدينة طنجة وطاعة اهل سبتة وفرض الاتاوة عليهم وما قارن ذلك من الاحداث

كانت هاتان المدينتان سبتة وطنجة من أوّل دولة الموحّدين من أعظم عمالاتهم وأكبر

ممالكهم بما كانت ثغر العدوة ومرفأ الأساطيل ، وداراً لإنشاء الآلات التجرية[1] ، وفرضة الجواز إلى الجهاد . فكانت ولايتها مختصة بالقرابة من السادة بني عبد المؤمن . وقد ذكرنا أن الرشيد كان عقد علي أعمالها لأبي عليّ بن خلاص من أهل بلنسيَة ، وأنه بعد استفحال الأمير أبي زكريا بأفريقية ومهلك الرشيد ، صرف الدعوة إليه سنة أربعين وستمائة وبعث إليه بالمال والبيعة مع ابنه أبي القاسم . وولّى على طنجة يوسف ابن محمد بن عبدالله بن أحمد الهمداني المعروف بابن الأمير قائداً على الرجل الأندلسيين ، وضابطاً للقصبة . وعقد الأمير أبو زكريا على سبتة لأبي يحيى بن أبي زكريا ، ابن عمه أبي يحيى الشهيد ابن الشيخ أبي حفص فنزل بها واستراب أبو علي ابن خلاص من العواقب عند مهلك ابنه الوافد على السلطان غريقاً في البحر ، فرحل بجملته إلى تونس في السفن ، وأراح ببجاية ، فكان فيها هلاكه سنة ست وأربعين وستمائة ويقال هلك في سفينته ودفن بجاية ، ولما هلك الأمير أبو زكريا سنة سبع وأربعين وستمائة بعدها انتقض أهل سبتة على ابنه المستنصر وطردوا ابن الشهيد ، وقتلوا العمّال الذين كانوا معه ، وصرفوا الدعوة للمرتضى . وتولّى ذلك حجفون[2] الرنداحي بمداخلة أبي القاسم العزفي كبير المشيخة بسبتة ، وأعظمهم تجلّة ، نشأ في حجر أبيه الفقيه الصالح أبي العبّاس أحمد مكنوفاً بالجلالة مغذّواً بالعلم والدين ، لما كان له فيها قدم إلى أن هلك ، فأوجب أهل البلد لابنه ما عرفوه من حقّه وحق أبيه من قبله ، وكانوا يفزعون إليه في المهمّات ويسلمون له في الشورى ، فأغرى الرنداحي بهذه الفعلة ففعلها وعقد المرتضى لأبي القاسم العزفي على سبتة مستقلاً من غير إشراف أحد من السادة ، ولا من الموحّدين . واكتفى بغنائه في ذلك الثغر وعقد لحجفون الرنداحي على قيادة الأساطيل بالمغرب ، فورثها عنه بنوه إلى أن زاحمهم العزفي بمناكب رياسته ، فقوضوا عن سبتة فمنهم من نزل بمالقة على ابن الأحمر ومنهم من نزل بجاية على أبي حفص ، ولهم في الدولتين آثار تشهد برياستهم . واستقل الفقيه أبو القاسم العزفي برياسة سبتة ، وأورثها بنيه من بعده على ما نذكره بعد .

وكانت طنجة تالية سبتة في سائر الأحوال وتبعاً لها ، فاتبع ابن الأمير صاحبها إمارة

---

(١) وفي نسخة ثانية : البحرية .

(٢) وفي نسخة اخرى : حجبون الرنداحي وفي نسخة ثانية : حجبون الزنداحي .

الفقيه أبي القاسم . ثم انتقض عليه لسنة واستبدّ وخطب لابن أبي حفص ، ثم للعباسي ، ثم لنفسه ، وسلك فيها مسلك العزفي في سبتة ، ولبثوا كذلك ما شاء الله ، حتى اذا ملك بنو مرين المغرب وانبثوا في شعابه ، ومدّوا اليد في ممالكه فتناولوها ، ونزلوا معاقله وحصونه فافتتحوها ، وهلك الأمير أبو يحيى عبد الحق وابنه عمر من بعده . وتحيّز بنوه في ذويهم وأتباعهم وحشمهم إلى ناحية طنجة وأصيلا ، فأوطنوا ضاحيتها وأفسدوا سابلتها وضيقوا على ساكنها ، واكتسحوا ما حواليها ، وشارطهم ابن الأمير على خراج معلوم على أن يكفوا الأذيّة ويحموا الحوزة ويصلحوا السابلة . فاتصلت يده بيدهم ، وتردّدوا إلى البلد لاقتضاء حاجاتهم . ثم مكروا وأضمروا الغدر ودخلوا في بعض أيامهم متأبطين السلاح ، وفتكوا بابن الأمير غيلة ، فثارت بهم العامّة لحينهم واستلحموا في مصرع واحد سنة خمس وستين وستمائة واجتمعوا إلى ولده وبقيت في ملكته خمسة أشهر . ثم استولى عليها العزفي فنهض إليها بعساكره من الرجل برّاً وبحراً ، واستولى عليها ، وفرّ ابن الأمير ولحق بتونس ونزل على المستنصر واستقرّت طنجة في إيالة العزفي فضبطها وقام بأمرها ، وولّى عليها من قبله . وأشرك الملاء من أشرافها في الشورى . ونازلها الأمير أبو مالك سنة ست وستين وستمائة فامتنعت عليه وأقامت على ذلك ستاً ، حتى اذا انتظم السلطان أبو يوسف ببلاد المغرب في ملكته ، واستولى على حضرة مراكش ومحا دولة بني عبد المؤمن ، وفرغ من أمر عدوه يغمراسن ، وهم بتلك الناحية واستضافة عملها ، فأجمع الحركة إليها ونازل طنجة مفتتح سنة إثنتين وسبعين بما كانت في البسيط من دون سبتة ، وأقام عليها أياماً . ثم اعتزم على الإفراج عنها ، فقذف الله في قلوبهم الرعب ، وافترق بينهم . وتنادى في بعض الناشية من السور بشعاب بني مرين ، فبادر سرعان أناس إلى تسوّر حيطانها فملكوها عليهم ، وقاتلوا أهل البلد ظلام ليلتهم ، ثم دخلوا البلد من صبيحتها عنوة ، ونادى منادي السلطان في الناس بالأمان والعفو عن أهل البلد ، فسكن روعهم ومهد وفرغ من شأن طنجة . ثم بعث ولده الأمير أبا يعقوب في عساكر ضخمة لمنازلة العزفي في سبتة وارغامه على الطاعة ، فنازلها أياماً ، ثم لاذ بالطاعة على المنعة . واشترط على نفسه خراجاً يؤدّيه كل سنة ، فتقبّل السلطان منه ، وأفرجت عساكره عنهم ، وقفل إلى حضرته . وصرف نظره إلى فتح سجلماسة وإزعاج بني عبد الواد المتغلّبين عليها ، كما نذكره إن شاء الله تعالى .

الخبر عن فتح سجلماسة الثاني ودخولها عنوة على بني عبد الواد والمنبات من عرب المعقل

قد ذكرنا ما كان من تغلّب الأمير أبي يحيى بن عبد الحق على سجلماسة وبلاد درعة ، وأنه عقد عليها وعلى سائر بلاد القبلة ليوسف بن يزكاسن ، وأنزل معه ابنه مفتاحا المكنّى بأبي حديد في مشيخته لحياطتها . وأنّ المرتضى سرّح وزيره ابن عطوش سنة أربع وخمسين وستمائة في العساكر لارتجاعها ، فنهض الأمير أبو يحيى إليه وشرّده عنها ورجعه على عقبه . وأن يغمراسن بن زيّان من بعد واقعة أبي سليط سنة خمس وخمسين وستمائة ، قصدها لعورة دلّ عليها ، وغرّة أمل إصابتها ، فسابقه اليها الأمير أبو يحيى ومالقه من دونها ورجع عنها خائب المسعى مفلول الحامية . وكان الأمير أبو يحيى من بعد أن عقد عليها ليوسف بن يزكاسن عقد عليها من بعده لسنة ونصف من ولايته ليحيى بن أبي منديل كبير بني عسكراً قتالهم ، ومقاسميهم نسب محمد بن وطيص[1] ثم عقد عليها لشهرين لمحمد بن عمران ابن عبلة من بني يرنيان صنائع دولتهم . واستعمل معه على الجباية أبا طالب الحبشي[2] وجعل مسلحة الجند بها لنظر أبي يحيى القطراني ، وملّكه قيادتهم . وأقاموا على ذلك سنتين إثنتين.

ولما هلك الأمير أبو يحيى وشغل السلطان أبو يوسف بحرب يغمراسن ومنازلة مراكش ، سما للقطراني أمل في الاستبداد بها ، وداخل في ذلك بعض أهل الفتن وظاهره يوسف بن الغزي[3] وفتكوا بعمّار الورند غزاني شيخ الجماعة بالبلد . وائتمروا بمحمد بن عمران بن عبلة ، فخرج ولحق بالسلطان ، واستبدّ القطراني بها . ثم ثار به أهل البلد سنة ثمان وخمسين وستمائة لسنة ونصف من لدن استبداده وقتلوه . وصرفوا بيعتهم إلى الخليفة المرتضى بمراكش . وتولّى كبر ذلك القاضي ابن حجّاج وعليّ بن عمر ، فعقد له المرتضى عليها وأقام بها أميراً . ونازلتهم عساكر بني مرين والسلطان أبو يوسف سنة ستين وستمائة ونصب عليها آلات الحصار فأحرقوها وامتنعوا ،

---

(١) وفي نسخة ثانية : ورصيص .

(٢) وفي نسخة ثانية : أبا طالب بن الحبسي .

(٣) وفي نسخة أخرى : يوسف بن فرج العزفي .

وأفرج عنهم . وأقام عليّ بن عمر في سلطانه ذلك ثلاث سنين ، ثم هلك . وكان الأمير يغمراسن بن زيان منذ غلب الموحدين على تلمسان والمغرب الأوسط ، وصار في ملكته ، تحيّز إليه من عرب المعقل قبيل المنبات من ذوي منصور ، بما كانت مجالات المعقل مجاورة لمجالات بني يادين في القفر . وإنما ارتحلوا عنها من بعد ما جاجأ يغمراسن من بني عامر بمجالاتهم من مصاب ببلاد بني يزيد ، فزاحموا المعقل بالمناكب عن مجالاتهم ببلاد فيكيك وصا . ورحّلوهم إلى ملويّة وما وراءها من بلاد سجلماسة ، فملكوا تلك المجالات .

ونبذ يغمراسن العهد إلى ذوي عبيدالله منهم واستخلص المنبات هؤلاء ، فكانوا له حلفاء وشيعة ولقومه ودعوته خالصة . وكانت سجلماسة في مجالاتهم منقلب ظعنهم وناجعتهم ، ولهم فيها طاعة معروفة . فلما هلك عليّ بن عمر آثروا يغمراسن بملكها ، فحملوا أهل البلد على القيام بطاعته ، وخاطبوه وجاجؤا به ، فغشيها بعساكره وملكها وضبطها . وعقد عليها لعبد الملك بن محمد بن علي بن قاسم بن درع من ولد محمد بن زكراز بن يندوكس[1] ويعرف بابن حنينة نسبه إلى أمّ أبيه أخت يغمراسن ومعه يغمراسن بن حمامة . وأنزل معهما ولده الأمير يحيى لاقامة الرسم الملوكي . ثم أداله بأخيه من السنة الأخرى ، وكذا كان شأنه في كل سنة . ولما فتح السلطان أبو يوسف بلاد المغرب وانتظم أمصاره ومعاقله في طاعته ، وغلب بني عبد المؤمن على دار خلافتهم ، ومحا رسمهم ، وافتتح طنجة وطوع سبتة مرفأ الجواز إلى العدوة ، وثغر المغرب ، سما أمله إلى بلاد القبلة فوجه عزمه إلى افتتاح سجلماسة من أيدي بني عبد الواد المتغلّبين عليها وأدالة دعوته فيها من دعوتهم ، فنهض إليها في العساكر والحشود في رجب من سنة إثنتين وسبعين وستمائة فنازلها وقد حشد إليها أهل المغرب أجمع ، من زناتة والعرب والبربر وكافة الجنود والعساكر ، ونصب عليها آلات الحصار من المجانيق والعرّادات ، وهندام النفط القاذف بحصى الحديد ينبعث من خزانه أمام النار الموقدة في البارود بطبيعة غريبة تردّ الأفعال إلى قدرة باريها . فأقام عليها حولاً كريتاً يغاديها القتال ويراوحها ، إلى أن سقطت ذات يوم على حين غفلة طائفة من سورها بالحاح الحجارة من المنجنيق عليها ، فبادروا إلى اقتحام البلد ، فدخلوها عنوة من

(١) وفي نسخة أخرى : زكدان بن تيدوكسن .

تلك الفرجة في صفر من سنة ثلاث وسبعين وستمائة فقتلوا المقاتلة والحامية وسبوا الذرية[1] ، وقتل القائدان عبد الملك بن حنينة ويغمراسن بن حمامة ، ومن كان معهم من بني عبد الواد وأمراء المنبات ، وكمل فتح بلاد المغرب للسلطان أبي يوسف ، وتمشّت طاعته في أقطاره . فلم يبق فيه معقل يدين بغير دعوته ، ولا جماعة تتحيّز إلى غير فيئته ولا أمل ينصرف إلى سواه ، ولما كملت له نعم الله في استيساق ملكه وتمهيد أمره ، انصرف أمله إلى الغزو وايثار طاعة الله بجهاد أعدائه ، واستنقاذ المستضعفين من وراء البحر من عباده على ما نذكره إن شاء الله تعالى . ولما انكفأ راجعاً من سجلماسة ، قصد مراكش من حيث جاء ، ثم وقف إلى سلا فأراح بها أياماً ونظر في شؤونها ، وسدّ ثغورها . وبلغه الخبر بوفادة أبي طالب صاحب سبتة الفقيه أبي القاسم العزفي على فاس ، فأغذّ السير إلى حضرته ، وأكرم وفادته وأحسن منقلبه إلى أبيه مملوء الحقائب ببرّه ، رطب اللسان بشكره . ثم شرع في إجازة ولده كما نذكره الآن إن شاء الله تعالى .

الخبر عن شأن الجهاد وظهور السلطان أبي يوسف على النصارى وقتل زعيمهم ذننة وما قارن ذلك

كانت عدوة الأندلس منذ أوّل الفتح ثغراً للمسلمين ، فيه جهادهم ورباطهم ومدارج شهادتهم وسبيل سعادتهم . وكانت مواطنهم فيه على مثل الرضف ، وبين الظفر والناب من اسود الكفر لتوقر أممهم جوارها[2] وإحاطتهم بها من جميع جهاتها ، وحجز البحر بينهم وبين إخوانهم المسلمين وقد كان عمر بن عبد العزيز رأى أن يخرج المسلمين منها لانقطاعهم عن قومهم وأهل دينهم ، وبعدهم عن الصريخ . وشاور في ذلك كبار التابعين وأشراف العرب فرأوه رأياً . واعتزم عليه لولا ما عاقه من المنية وعلى ذلك ، فكان للإسلام فيه اعتزاز على من جاورهم من أهل الكفر ، بطول دولة العرب من قريش ومضر واليمن . وكانت نهاية عزّهم وسورة غلبهم أيام بني أمية

(١) وفي نسخة ثانية : سبوا الرعية .

(٢) وفي نسخة ثانية : لتوفر امتهم في جوارها .

بها ، الطائرة الذكر الباسطة جناحها على العدوتين منذ ثلاث مئات من السنين أو ما يقاربها .

حتى انتثر سلكها بعد المائة الرابعة من الهجرة ، وافترقت الجماعة طوائف وفشلت ريح المسلمين وراء البحر بفناء دولة العرب . واعتز البربر بالمغرب واستفحل شأنهم وجاءت دولة المرابطين فجمعت ما كان مفترقاً بالمغرب من كلمة الإسلام . وتمسكوا بالسنّة وتشوّقوا إلى الجهاد ، واستدعاهم إخوانهم من وراء البحر للمدافعة عنهم ، فأجازوا إليهم وأبلوا في جهاد العدوّ أحسن البلاء ، وأوقعوا بالطاغية ابن أدفوش يوم الزلاّقة وغيرها . وفتحوا حصوناً واسترجعوا أخرى واستنزلوا الثوّار ملوك الطوائف ، وجمعوا الكلمة بالعدوتين . وجاء على أثرهم الموحّدون سالكين أحسن مذاهبهم ، فكان لهم في الجهاد آثار على الطاغية أيام ، منها يوم الأرك ليعقوب بن المنصور وغيره من الأيام ، حتى إذا فشلت ريح الموحدين وافترقت كلمتهم وتنازع الأمر سادة بني عبد المؤمن الأمراء بالأندلس ، وتحاربوا على الخلافة واستجاشوا بالطاغية وأمكنوه من كثير من حصون المسلمين طعمة على الاستظهار ، فخشي أهل الأندلس على أنفسهم وثاروا بالموحدين وأخرجوهم وتولى ذلك ابن هود بمرسية وشرق الأندلس ، وعمّ بدعوته سائر أقطارها ، وأقام الدعوة فيها للعبّاسيّين ، وخاطبهم ببغداد كما ذكرناه في أخبارهم . واستوفينا كلا بما وضعناه في مكانه . ثم انحجز ابن هود على الغريبة[1] لبعدها عنه ، وفقده للعصابة المتناولة لها ، وأنه لم تكن صنعته في الملك مستحكمة وتكالب الطاغية على الأندلس من كل جهة ، وكثر اختلاف المسلمين بينهم . وشغل بنو عبد المؤمن بما دهمهم من المغرب من شأن بني مرين وزناتة . فتلافى محمد بن يوسف بن الأحمر أمر الغربية ، وثار بحصنه أرجونة وكان شجاعا قدماً ثبتا في الحروب ، فتلقّف الكرّة من يد ابن هود خلع الدعوة العبّاسية ، ودعا للأمير أبي زكريا بن أبي حفص سنة تسع وعشرين وستمائة فلم يزل في فتنة ابن هود يجاذبه الحبل ويقارعه على عمالات الأندلس واحدة بعد أخرى إلى أن هلك ابن هود سنة خمس وثلاثين وستمائة .

وتكالب العدو خلال ذلك على جزيرة الأندلس من كل جانب ووفر له ابن هود

---

(١) وفي نسخة ثانية : ثم عجز ابن هود عن الغربية .

الجزية وبلغ بها أربعمائة ألف من الدنانير في كل سنة . ونزل له على اثنتين(٢) من حصون المسلمين . وخشي ابن الأحمر أن يستغلظ عليه بالطاغية فجنح هو إليه وتمسّك بعروته ، ونفر في جملته إلى منازلة أشبيلية نكاية لأهلها . ولما هلك الأمير أبو زكريا نبذ الدعوة الحفصيّة ، واستبدّ لنفسه ، وتسمّى بأمير المسلمين ، ونازعه بالشرق أعقاب ابن هود وبني مردنيش ، ودعاه الأمر إلى النزول للطاغية من بلاد الفرنتيرة ، فنزل عليها بأسرها . وكانت هذه المدّة من سنة إثنتين وعشرين إلى سنة سبعين ، فترة ضاعت فيها ثغور المسلمين واستبيح حماهم ، والتهم العدوّ بلادهم وأموالهم نهباً في الحروب ، ووضيعة ومداراة في السلم . واستولى طواغيت الكفر على أمصارها وقواعدها فملك ابن أدفوش قرطبة سنة ست وثلاثين ، وجيان سنة أربع وأربعين ، وأشبيلية سنة ست وأربعين .

وتملك قمط برشلونة مدينة بلنسية سنة سبع وثلاثين إلى ما بينهما من الحصون والمعاقل التي لا تعدّ ولا تحصى ، وانقرض أمر الثوار بالشرق وتفرّد ابن الأحمر بغرب الأندلس ، وضاق نطاقه على الممانعة دون البسائط الفيح من الفرنتيرة وما قاربها ، ورأى أنّ التمسك بها مع قلّة العدد وضعف الشوكة مما يوهن أمره ويطمع فيه عدوّه ، فعقد السلم مع الطاغية على النزول عنها أجمع . ولجأ بالمسلمين إلى سيف البحر معتصمين بأوعاره من عدوّهم . واختار لنزله مدينة غرناطة ، وابتنى بها لسكناه حصن الحمراء حسبما شرحنا ذلك كله في مواضعه . وفي أثناء هذا كلّه لم يزل صريخه ينادي بالمسلمين من وراء البحر والملأ من أهل الأندلس يفدون على أمير المسلمين أبي يوسف للإعانة ونصر الملة ، واستنقاذ الحرم والولدان من أنياب العدو فلا يجد مفزعاً إلى ذلك بما كان فيه من مجاذبة الحبل مع الموحدين ، ثم مع يغمراسن . ثم شغله بفتح بلاد المغرب وتدويخ أقطاره إلى أن هلك السلطان أبو عبدالله محمد بن يوسف ابن الأحمر المعروف بالشيخ ، وأبي دبوس ، لقبين كانا له على حين استكمال أمير المسلمين فتح المغرب وفراغه من شأن عدوّه سنة إحدى وسبعين وستمائة على أن بني مرين كانوا يؤثرون الجهاد ويسمون إليه وفي نفوسهم جنوح إليه وصاغية .

ولما استوحش بنو إدريس بن عبد الحق وخرجوا سنة إحدى وستين وستمائة على

---

(١) وفي نسخة ثانية : ثلاثين .

السلطان يعقوب بن عبد الحق واسترضاهم واستصلحهم انتدب الكثير منهم للغزو وإجازة البحر لصريخ المسلمين بالأندلس ، واجتمع إليهم من مطوعة بني مرين عسكر ضخم من الغزاة ثلاثة آلاف أو يزيدون وعقد السلطان على ذلك العسكر لعامر بن إدريس فوصلوا إلى الأندلس فكان لهم فيها ذكر ونكاية في العدوّ ، وكان الشيخ ابن الأحمر عهد إلى ولده القائم بالأمر بعده محمد ، الشهير بالفقيه ، لانتحاله طلب العلم أيام أبيه . وأوصاه أن يتمسّك بعروة أمير المسلمين ويخطب نصره ، ويدرأبه ويقدّمه عن نفسه وعن المسلمين تكالب الطاغية . فبادر لذلك لحين موارأة أبيه وأوفد مشيخة الأندلس كافة عليه ، ولقيه وفدهم منصرفاً من فتح سجلماسة خاتم الفتوح بالثغور المغربية وملاذ العز ومقاد الملك . وتبادروا للإسلام[1] وألقوا إليه كنه الخبر عن كَلَب العدو على المسلمين ، وثقل وطأته ، فحيّا وفدهم ورؤوساءهم ، وبادر لإجابة داعي الله واستثار الجنة . وكان أمير المسلمين منذ أوّل أمره مؤثراً أعمال الجهاد كلفاً به مختاراً له حتى أعطي الخيار سائر آماله ، حتى لقد كان اعتزم على الغزو إلى الأندلس أيام أخيه الأمير أبي يحيى وطلب إذنه في ذلك عندما ملكوا مكناسة سنة ثلاث وأربعين وستمائة فلم يأذن له وفصل إلى الغزو في حشمه وذويه ومن أطاعه من عشيرته . وأوعز الأمير أبو يحيى لصاحب الأمر بسبتة لذلك العهد أبي علي بن خلاص بأن يمنعه الإجازة ، ويقطع عنه أسبابها . ولما انتهى إلى قصر الجواز ، ثنى عزمه عن ذلك الولي يعقوب بن هرون الخبري ، ووعده بالجهاد أميراً مستنفراً للمسلمين ظاهراً على العدوّ ، فكان في نفسه من ذلك شغل وإليه صاغية .

فلما قدم عليه هذا الوفد نبّهوا عزائمه وذكروا همته ، فأعمل في الاحتشاد وبعث في النفير . ونهض من فاس شهر شوّال من سنة ثلاث وسبعين وستمائة إلى فرضة المجاز من طنجة . وجهّز خمسة آلاف من قومه أزاح عللهم واستوفى أعطياتهم وعقد عليهم لابنه منديل وأعطاه الراية . واستدعى من الغد صاحب سبتة في السفن لأجازتهم فوافاه بقصر الجواز عشرون من الأساطيل ، فأجاز العسكر ونزل بطريف ، وأراح ثلاثاً ، ودخل دار الحرب وتوغّل فيها ، وأجلب على ثغورها وبسائطها . وامتلأت أيديهم من المغانم وأثخنوا بالقتل والأسر وتخريب العمران ونسف الآثار ، حتى نزل

(١) وفي نسخة أخرى : وتنادوا للإسلام بالثأر .

بساحة شريس ، فخام حاميتها عن اللقاء وانحجروا في البلد ، وقفل عنها إلى الجزيرة وقد امتلأت أيديهم من الأموال وحقائبهم من السبي وركائبهم من الكراع والسلاح . ورأى أهل الأندلس قد ثاروا بعام العقاب حتى جاءت بعدها الطاعة الكبرى على أهل الكفر ، واتصل الخبر بأمير المسلمين فاعتزم على الغزو بنفسه ، وخشي على ثغور بلاده من عادية يغمراسن في الفتنة ، فبعث حافده تاشفين بن عبد الواحد في وفد من بني مرين لعقد السلم مع يغمراسن والرجوع للاتفاق والموادعة . ووضع أوزار الحرب بين المسلمين للقيام بوظيفة الجهاد فأكرم موصله وموصل قومه . وبادر إلى الإجابة والألفة ، وأوفد مشيخة بني عبد الواد على السلطان لعقد السلم . وبعث معهم الرسل وأسنى الهديّة وجمع الله كلمة الإسلام ، وعظم موقع هذا السلم من أمير المسلمين لما كان في نفسه من الصاغية إلى الجهاد ، وإيثاره مبرورات الأعمال . وبثّ الصدقات يشكر الله على ما منحه من التفرّغ لذلك . ثم استنفر الكافة واحتشد القبائل والجموع ، ودعا المسلمين إلى الجهاد . وخاطب في ذلك كافة أهل المغرب من زناتة والعرب والموحّدين والمَصَامِدَة وصَنْهَاجَة وغُمَارَة وأَوْرَبَة ومِكْنَاسَة وجميع قبائل البرابرة وأهل المغرب من المرتزقة والمطّوعة . وأهاب بهم وشرع في إجازة البحر ، فأجازه من فرضة طنجة لصفر من سنة أربع وسبعين وستمائة واحتلّ بساحة طريف . وكان لما استصرخه السلطان ابن الأحمر وأوفد عليه مشايخ الأندلس اشترط عليه النزول عن بعض الثغور بساحل الفرضة لاحتلال عساكره ، فتجافى له عن رَنْدَة وطريف . ولما احتل بطنجة بادر إليه ابن هشام الثائر بالجزيرة الخضراء ، وأجاز البحر إليه . ولقيه بظاهر طنجة فأدّى له طاعته وأمكنه من قياد بلده . وكان الرئيس أبو محمد بن أشقيلولة وأخوه أبو اسحق صهر السلطان ابن الأحمر تبعاً له في أمره ومؤازراً له على شأنه كله . وأبوهما أبو الحسن هو الذي تولى كبر الثورة على ابن هود ومداخلة أهل أشبيلية في الفتك بابن الباجي . فلما استوت قدمه في ملكه وغلب الثوّار على أمره فسد ما بينهما بعد أن كان ولّى أبا محمد على مقاله وأبا اسحق على وادي آش[1] ، فامتنع أبو محمد بن أشقيلولة بمالقة واستأثر بها وبغربيتها دونه . ومع ذلك فكانوا على

---

(١) أش : بالفتح والشين مخففة ، وربما مدت همزته : مدينة الأشات بالأندلس من كورة البيرة وتعرف بوادي أشٍ ، والغالب على شجرها الشاهبلّوط ، وتنحدر إليها أنهارمن جبال الثلج ، بينها وبين غرناطة أربعون ميلاً ، وهي بين غرناطة وبجّانة (معجم البلدان) .

الصاغية فيئة ولحمة . ولما أحس أبو محمد بإجازة السلطان يعقوب بن عبد الحق ، قدم إليه الوفد من أهل مالقة ببيعتهم وصريخهم ، وانحاش إلى جانب السلطان وولايته ، وأمحضه المخالصة والنصيحة . فلما احتل السلطان بناحية طريف ملأت كتائبه ساحة الأرض ما بينها وبين الجزيرة وتسابق السلطان ابن الأحمر ، وهو الفقيه أبو محمد ابن الشيخ أبي دبوس صاحب غرناطة والرئيس أبو محمد بن أشقيلولة صاحب مالقة والغربية ، وأخوه أبو اسحق صاحب وادي آش إلى لقاء السلطان وتناغوا في برور مقدمه والإذعان له ، ففاوضهما في أمور الجهاد ، وأرجعهما لحينه إلى بلديهما . وانصرف ابن الأحمر مغاضباً لبعض النزعات أحفظته وأغذّ السير إلى الفرنتيرة ، وعقد لولده الأمير أبي يعقوب على خمسة آلاف من عسكره . وسرّح كتائبه في البسائط وخلال المعاقل تنسف الزرع وتحطّم الغروس وتخرّب العمران وتنتهب الأموال وتكتسح السرح وتقتل المقاتلة وتسبي النساء والذرّية ، حتى انتهى إلى المدور وتالسة[1] وأبدة[2] واقتحم حصن بلمة عنوة . وأتى على سائر الحصون في طريقه فطمس معالمها واكتسح أموالها . وقفل والأرض تموج سبياً إلى أن عرس بأستجة من تخوم دار الحرب . وجاء النذير باتباع العدو وآثارهم لاستنقاذ أسراهم وارتجاع أموالهم . وأنّ زعيم الروم وعظيمهم ذُنّته[3] خرج في طلبهم بأمم بلاد النصرانية من المحتلم فما فوقه . فقدّم السلطان الغنائم بين يديه وسرّح ألفا من الفرسان أمامها ، وسار يقتفيها ، حتى إذا طلّت رايات العدو من ورائهم كان الزحف ، ورتّب المصاف وحرّض وذكّر . وراجعت زناتة بصائرها وعزائمها وتحرّكت هممها ، وأبلت في طاعة ربّها والذبّ عن دينها . وجاءت بما يعرف من بأسها وبلائها في مقاماتها ومواقفها . ولم يكن إلاّ كلاّولا ، حتى هبت ريح النصر وظهر أمر الله وانكشفت جموع النصرانية ، وقتل الزعيم ذننه والكثير من جموع الكفر . ومنح الله المسلمين اكتافهم ، واستمرّ القتل فيهم . وأحصي القتلى في المعركة فكانوا ستة آلاف ، واستشهد من المسلمين ما يناهز الثلاثين أكرمهم الله بالشهادة وآثرهم بما عنده . ونصر الله حزبه

(١) كذا في النسخة الباريسية وفي نسخة ثانية : بايسة .

(٢) أُبَّدَة : بالضم ثم الفتح والتشديد : اسم مدينة بالأندلس من كورة جيّان تعرف بأبدة العرب ، اختطها عبد الرحمن بن الحكم بن هشام بن عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك وتمّمها ابنه محمد . (معجم البلدان) .

(٣) وفي نسخة أخرى دتنه ، وكذا في نفح الطيب ج ١ ص ٤٤٩ وقد ذكر ايضاً ذونّنه ودونّنه .

وأعزّ أولياءه ونصر دينه . وبدا للعدو ما لم يحتسبه بمحاماة هذه العصابة عن الملّة وقيامها بنصر الكلمة . وبعث أمير المسلمين برأس الزعيم ذنّنه إلى ابن الأحمر فردّه زعموا سراً إلى قومه بعد أن طيّبه وأكرمه ، ولايةً أخلصها لهم ، مداراةً وانحرافاً عن أمير المسلمين ، ظهرت شواهده عليه بعد حين كما نذكره ، وقفل أمير المسلمين من غزاته إلى الجزيرة منتصف ربيع من سنته ، فقسّم في المجاهدين الغنائم وما نفلوه من أموال عدوّهم وسباياهم وأسراهم وكراعهم ، بعد الاستئثار بالخمس لبيت المال على موجب الكتاب والسنّة ليصرفه في مصارفه . ويقال : كان مبلغ الغنائم في هذه الغزاة مائة ألف من البقر وأربعة وعشرين ألفاً ، ومن الأسارى سبعة آلاف وثمان مائة وثلاثين ، ومن الكراع أربعة عشر ألفاً وستمائة ، وأمّا الغنم فاتسعت عن الحصر كثرة ، حتى لقد زعموا بيعت الشاة في الجزيرة بدرهم واحد ، وكذلك السلاح . وأقام أمير المسلمين بالجزيرة أياماً ثم خرج لجمادى غازياً إلى أشبيلية فجاس خلالها وتقرّى نواحيها وأقطارها ، وأثخن بالقتل والنهب في جهاتها وعمرانها . وارتحل إلى شريش فأذاقها وبال العيث والاكتساح . ورجع إلى الجزيرة لشهرين من غزاته ، ونظر في اختطاط مدينة بفرضة المجاز من العدوة لنزل عسكره متنبذاً عن الرعية لما يلحقهم من ضرر العسكر وجفائهم . وتحيّز لها مكانا لصق الجزيرة ، فأوعز ببناء المدينة المشهورة بالبنية وجعل ذلك لنظر من يثق به من ذويه(١) . ثم أجاز البحر إلى المغرب في رجب من سنة أربع وسبعين وستمائة فكان مغيبه وراء البحر ستة أشهر ، واحتل بقصر مصمودة وأمر ببناء السور على بادس مرفأ الجواز ببلاد غمارة . وتولى ذلك ابراهيم بن عيسى كبير بني وسناف بن محيو. ثم رحل إلى فاس فدخلها في شعبان ، وصرف النظر إلى أحوال دولته ، واختطاط البلد الجديد لنزله ونزل حاشيته ، واستنزال الثوّار عليه بالمغرب على ما نذكره إن شاء الله تعالى .

* (الخبر عن اختطاط البلد الجديد بفاس وما كان على بقية ذلك من الأحداث) *

لما قفل السلطان أمير المسلمين من غزاته الجهاديّة ، وتمّ صنع الله لديه في ظهور

(١) وفي نسخة ثانية : دونه .

الإسلام على يديه ، واعتزاز أهل الأندلس بفيئته ، راح بالمغرب إلى نعمة أخرى من ظهور أوليائه وحسم أدواء الفساد في دولته ، شفعت مواهب السعادة ، واجملت[1] عوائد الصنع ، وذلك أنّ صبابة بني عبد المؤمن وفلّهم ، لمّا فرّوا من مراكش عند الفتح لحقوا بجبل تينملل جرثومة أمرهم ، ومنبعث دعوتهم . وملاحد خلفائهم ، وحضرة سلفهم ، ودار إمامهم ، ومسجد مهديّهم . كانوا يعكفون عليه متيّمنين بطيره ، ملتمسين بركة زيارته ، ويقدمون ذلك أمام غزواتهم قربة بين يدي أعمالهم يعتدّونها من صالح مساعيهم . فلما خلص الفلّ إليه اعتصموا بمعقله وآووا إلى ركونه ، ونصبوا للقيام بأمرهم عيصاً من أعياص خلفاء بني عبد المؤمن ضعيف المنبه[2] خاسر الصفقة من مواهب الحظ ، وهو اسحق أخو المرتضى . وبايعوه سنة تسع وستين وستمائة يرجون منه رجع الكرّة ، وأدالة الدولة ، وكان المتولى لكبر ذلك وزير دولتهم ابن عطّوش .

ولما عقد السلطان يعقوب بن عبد الحق لمحمد بن علي بن محلى على أعمال مراكش ، لم يقدّم عملاً على محاربتهم ، وتخذيل الناس عنهم ، واستمالة أشياعهم . وجمعوا له سنة أربع وسبعين وستمائة على غرّة ظنّوها ، فأوقع بهم وفلّ من غربهم . ثم صمد إلى الجبل لشهر ربيع من سنته فافتضّ عذرته وفضّ ختامه ، واقتحمه عليهم عنوة بعد مطاولة النزال والحرب . وهلك الوزير ابن عطوش في جوانب الملحمة ، وتقبّض على خليفته المتستضعف . وابن عمّه أبي سعيد ابن السيّد أبي الربيع ومن معهما من الأولياء . وجنبوا إلى مصارعهم بباب الشريعة بمراكش ، فضربت أعناقهم وصلبت أشلاؤهم . وكان فيمن قتل منهم كاتبه القبائلي وأولاده ، وعاثت العساكر في جبل تينما[3] واكتسحت أمواله . وبعثرت قبور خلفاء بني عبد المؤمن . واستخرج شلو يوسف وابنه يعقوب المنصور ، فقطعت رؤوسهم . وتولى كبر ذلك أبو علي الملياني النازع إلى السلطان أبي يوسف من مليانة عش غوايته ومواطن انتزائه كما قدّمناه وكان السلطان أقطعه بلاد أغوات إكراماً لوفادته ، فحضر هذه الغزاة في جملة العساكر

---

(١) وفي نسخة ثانية : وأكملت .

(٢) وفي نسخة ثانية : ضعيف المنية .

(٣) تين ملل : جبال بالمغرب بها قرى ومزارع يسكنها البرابرة ، بين أوّلها ومراكش ، سرير ملك بني عبد المؤمن ، نحو ثلاثة فراسخ ، بها كان أول خروج محمد بن تومرت المسمّى بالمهدي الذي أقام الدولة .

ورأى ان قد شفى نفسه بإخراج هؤلاء الخلائق من أرماسهم ، والعيث بأشلائهم لما نقم منه الموحّدون. وأزعجوه من قراره ، فنكرها السلطان لجلاله. وتجاوز عنها للملياني تأنيساً لقربته وجواره ، وعدّها من هناته.

ولما وصل أمير المسلمين إلى حضرته من غزاة الجهاد ، ترادفت عليه أخبار هذه الملحمة ، وقطع دابر بني عبد المؤمن ، فتظاهر السرور لديه ، وارتفعت إلى الله كلمات الشكر طيبة منه. ولما سكن غُرب الثوار ، وتمهّد أمر المغرب ، ورأى أمير المسلمين أنّ أمره قد استفحل ، وملكه قد استوسق ، واتسع نطاق دولته ، وعظمت غاشيته وكثر وافده ، رأى أن يختط بلداً يتميز بسكناه في حاشيته وأهل خدمته وأوليائه الحاملين سرير ملكه. فأمر ببناء البلد الجديد لصق فاس ، بساحة الوادي المخترق وسطها من أعلاه ، وشرع في تأسيسها لثالث من شوال في سنة أربع وسبعين وستمائة هذه. وجمع الأيدي عليها ، وحشد الصنّاع والفعلة لبنائها. وأحضر لها الحزى والمعدلين لحركات الكواكب ، فاعتاموا في الطوالع النجومية مما يرضون أثره ، ورصدوا أوانه. وكان فيهم الإمامان أبو الحسن بن القطّان وأبو عبدالله بن الحبّاك ، المقدّمان في الصناعة ، فكمل تشييد هذه المدينة على ما رسم وكما رضي. ونزلها بحاشيته ، وذويه سنة أربع وسبعين وستمائة كما ذكرناه. واختطّوا بها الدور والمنازل ، وأجرى فيها المياه إلى قصوره ، وكانت من أعظم آثار هذه الدولة وأبقاها على الأيام. ثم أوعز بعد ذلك ببناء قصبة مدينة مكناسة ، فشرع في بنائها من سنته ، وكان لحين إجازته البحر قافلاً من غزاته لحق طلحة بن محلى بجبل أزرو[1] نازعاً إلى قبائل زناتة من صنهاجة ، فاغذ إليه السلطان بعساكره وأناخ عليه. واستنزله لشهر على ما سأل من الأمان والرتبة. وحسم الداء من خروجه. واستوزر صنيعته فتح الله السدراتي ، وأجرى له رزق الوزارة على عوائدهم. ثم بعث إلى يغمراسن كفاء هديته التي اتحفه بها بين يدي غزاته. وكان شغله عنها أمر الجهاد ، فبعث له فسطاطاً رائقاً كان صنع له بمراكش ، وحكمات مموهة بالذهب والفضة ، وثلاثين من البغال الفارهة ذكوراً وإناثاً بمراكبها الفارسية من السروج ، والنسوانية من الولايا ، وأحمالاً من الأديم المعروف دباغة بالشركسي ، إلى غير ذلك مما يباهي به ملوك المغرب وينافسون فيه.

---

(١) وفي نسخة ثانية : أزور.

وفي سنة خمس وسبعين وستمائة من بعدها أهدى له محمد بن عبد القوي أمير بني توجين ، وصاحب جبل وانشريش أربعة من الجياد انتقاها من خيل المغرب كافة ، ورأى أنها على قلّة عددها أحفل هدية . وفي نفسه اثناء هذا كله من الجهاد شغل شاغل يتخطى إليه سائر أعماله حسبما نذكر .

* (الخبر عن إجازة أمير المسلمين ثانية وما كان فيها من الغزوات) *

لما قفل أمير المسلمين من غزاته الأولى ، واستنزل الخوارج وثقف الثغور ، وهادى الملوك واختط المدينة لنزله كما ذكرنا ذلك كله . ثم خرج فاتح سنة ست وسبعين وستمائة إلى جهة مراكش لسدّ ثغوره ، وتثقيف أطرافه . وتوغّل في أرض السوس ، وبعث وزيره فتح الله السدراتي بالعساكر فجاس خلاله ، ثم انكفأ راجعاً . وخاطب قبائل المغرب كافة بالنفير إلى الجهاد ، فتباطؤا واستمرّ على تحريضهم ، ونهض إلى رباط الفتح وتلوم بها في انتظار الغزاة فثبطوا ، فخفّ هو واحتل بطريف آخر محرم . ثم ارتحل إلى الجزيرة ، ثم إلى رندة . ووافاه هنالك الرئيسان أبو اسحق بن أشقيلولة صاحب قمارش ، وأبو محمد صاحب مالقة للغزو معه . وارتحلوا إلى منازلة أشبيلية فعرسوا عليها يوم المولد النبوي . وكان بها ملك الجلالقة ابن أدفونش ، فخام عن اللقاء وبرز إلى ساحة البلد محامياً عن أهلها . ورتّب أمير المسلمين مصافه وجعل ولده الأمير أبا يعقوب في المقدّمة ، وزحف في التعبية فأحجروا العدو في البلد ، واقتحموا أثرهم الوادي وأثخنوا فيهم . وباتت العساكر ليلتهم يجادون في متون الخيل وقد أضرموا النيران بساحتها . وارتحل من الغد إلى أرض الشرط ، وبثّ السرايا والغوازي في سائر النواحي . وأناخ بجمهور العسكر عليها ، فلم يزل يتقرّى تلك الجهات حتى أباد عمرانها وطمس معالمها . ودخل حصن قطيانة وحصن جليانة وحصن القليعة عنوة ، وأثخن في القتل والسبي . ثم ارتحل بالغنائم والأثقال[1] إلى الجزيرة لسرارشهره ، فأراح وقسّم الغنائم في المجاهدين . ثم خرج غازيا إلى شريش منتصف ربيع الآخر

(١) وفي نسخة ثانية : ثم قفل بالغنائم والأنفال .

فنازلها وأذاقها نكال الحرب . وأقفر نواحيها ، وقطع أشجارها وأباد خضراءها وحرق ديارها ، ونسف آثارها ، وأثخن فيها بالقتل والأسر . وبعث ولده الأمير أبي يعقوب في سريّة من مسعكره للغوار على اشبيلية وحصون الواد[1] ، فبالغ في النكاية واكتسح حصن روطة وشلوقة وغليانة والقناطير[2] . ثم صبح إشبيلية بمقاره فاكتسحها وانفكأ إلى أمير المسلمين ، فقفلوا جميعاً إلى الجزيرة . وأراح وقسّم في المجاهدين غنائمهم . ثم ندب إلى غزو قرطبة ، ورغبهم في عمرانها وثروة مساكنها ، وخطب بلادها ، فانعطفوا إلى إجابته ، وخاطب ابن الأحمر يستنفره . وخرج لأوّل جمادى من الجزيرة ، ووافاهم ابن الأحمر بناحية أرشدونة ، فأكرم وصوله وشكر حفوفه الى الجهاد وبداره . ونازلوا حصن بني بشير فدخلته عنوة ، وقتلت المقاتلة وسبيت النساء ، ونفلت الأموال وخرّب الحصن . ثم بثّ السرايا والغارات في البسائط فاكتسحها وامتلأت الأيدي وأثرى العسكر . وتقرّوا المنازل والعمران في طريقهم حتى احتلوا بساحة قرطبة فنازلوها ، وانحجرت حامية العدوّ من وراء الأسوار وانبثت بعوث المسلمين وسراياهم في نواحيها ، فنسفوا آثارها وخرّبوا عمرانها واكتسحوا قراها وضياعها . وتردّدوا على جهاتها ، ودخل حصن بركونة عنوة ، ثم أرجونة كذلك ، وقدّم بعثاً إلى حيانة[3] قاسمها حظها من الخسف والدمار . وخام الطاغية عن اللقاء وأيقن بخراب عمرانها . واتلاف بلده . فجنح إلى السلم وخطبه من أمير المسلمين ، فدفعه إلى ابن الأحمر وجعل الأمر في ذلك إليه تكرمة لمشهده ووفاء بحقه ، وأجابهم ابن الأحمر إليه بعد عرضه على أمير المسلمين والتماس إذنه فيه لما فيه من المصلحة وجنوح أهل الأندلس إليه منذ المدد الطويلة ، فانعقد السلم . وقفل أمير المسلمين من غزاته وجعل طريقه على غرناطة احتفاء بالسلطان ابن الأحمر وخرج له عن الغنائم كلّها ، فاحتوى عليها . ودخل أمير المسلمين الى الجزيرة في أوّل رجب من عامئذ ، فأراح ونظر في ترتيب المسالح على الثغور ، وتملّك مالقة كما نذكره .

---

(١) وفي نسخة ثانية : حصون الوادي .
(٢) وفي نسخة ثانية : القناطير .
(٣) حيانة : لا وجود لحيانة وإنما حيّانية وهي في أرض دمشق والمقصود جيان كما في نسخة أخرى .

* (الخبر عن تملك السلطان مدينة مالقة من يد ابن اشقيلولة) *

كان بنو اشقيلولة هؤلاء من رؤساء الأندلس المؤمّلين لمدافعة العدوّ ، وكانوا نظراء لابن الأحمر في الرياسة ، وهما أبو محمد عبدالله وأبوا اسحق ابراهيم ابنا أبي الحسن بن أشقيلولة . وكان أبو محمد منهم صهراً له على ابنته فكانوا له بذلك خاصة فأشركهم في أمره واعتضد بعصابتهم وبأبيهم من قبل على مقاومة ابن هود وسائر الثوّار حتى إذا استمكن من فرصته واستوى على كرسيه استبدّ دونهم وأنزلهم الى مقامات الوزراء . وعقد لأبي محمد صهره على ابنته على مدينة مالقة والغربيّة ، وعقد لأبي الحسن صهره على أخته على وادي آش وما إليها ، وعقد لابنه أبي اسحق ابراهيم بن عليّ على قمارش وما إلى ذلك . ووجدوا في أنفسهم ، واستمرّ الحال على ذلك . ولما هلك الشيخ ابن الأحمر سنة إحدى وسبعين وستمائة وولي إبنه الفقيه محمد ، سموا إلى منازعته . وأوفد أبو محمد صاحب مالقة ابنه أبا سعيد على السلطان يعقوب بن عبد الحق ، وهو منازل طنجة . ووفد معه أبو محمد إلى السلطان بطاعته وبيعته أهل مالقة سنة ثلاث وسبعين وستمائة وعقد له عليها . ونزع ابنه أبو سعيد فرج إلى دار الحرب ، ثم رجع لسنته فقتل بمالقة . ولما أجاز السلطان إلى الأندلس إجازته الأولى سنة أربع وسبعين وستمائة تلقّاه أبو محمد بالجزيرة مع ابن الأحمر وفاوضهما السلطان في أمر الجهاد وردّهما إلى أعمالهما . ولما أجاز إجازته الثانية سنة ست وسبعين وستمائة لقيه بالجزيرة الرئيسان ابنا أشقيلولة : أبو محمد صاحب مالقة ، وأخوه أبو إسحق صاحب وادي آش وقمارش ، فشهدا معه الغزاة . ولما قفل اعتلّ أبو محمد صاحب مالقة ، ثم هلك غرة جمادى من سنته فلحق ابنه محمد بالسلطان آخر شهر رمضان . وهومتلوّم بالجزيرة ، منصرفه عن الغزو كما ذكرناه ، فنزل له عن البلد ودعاه إلى احتيازها ، فعقد عليها لابنه أبي زيّان منديل ، فسار إليها في بعث ، وكان ابن أشقيلولة لحين فصوله إلى لقاء السلطان ، أمر ابن عمّه محمد الأزرق بن أبي الحجّاج يوسف بن الزرقاء باخلاء منازل السلطان بالقصبة واعدادها ، فتمّ ذلك لثلاث ليال ، واضطرب الأمير أبو زيّان معسكره بخارجها ، وأنفذ محمد بن عمران بن عيلة في

رهط من رجال بني مرين إلى القصبة فنزلها وملك أمر البلد. وكان السلطان ابن الأحمر لما بلغه وفاة أبي محمد بن أشقيلولة سما أمله إلى الاستيلاء على مالقة وأنّ ابن أخته شيعة له. وبعث لذلك وزيره أبا سلطان عزيز الداني، فوافى معسكر الأمير أبي زيان بساحتها. ورجا أن يتجافى عنها لسلطانه، فأعرض عن ذلك وتجهّم له. ودخل إليها لثلاث بقين من رمضان. وانقلب الداني عنها بخفي حُنَيْن، ولما قضى السلطان بالجزيرة صومه ونسكه، خرج إلى مالقة فوافاها سادس شوّال، وبرز إليه أهلها في يوم مشهود، واحتفلوا له احتفال أيام الزينة سروراً بمقدم السلطان، ودخولهم في إيالته. وأقام فيهم إلى خاتم سنته. ثم عقد عليها لعمر بن يحيى بن محلى من صنائع دولتهم. وأنزل معه المسالح وزيان بن أبي عيّاد بن عبد الحق في طائفة لنظره من أبطال بني مرين. واستوصاه بمحمد بن أشقيلولة وارتحل إلى الجزيرة. ثم أجاز إلى المغرب سنة سبع وسبعين وستمائة وقد اهتزت الدنيا لقدومه وامتلأت القلوب سروراً بما كيّفه الله من نصر المسلمين بالعدوة، وعلوّ راية السلطان على كل راية. وعظمت لذلك موجدة ابن الأحمر، ونشأت الفتنة كما نذكره إن شاء الله تعالى.

الخبر عن تظاهر ابن الأحمر والطاغية على منع السلطان أبي يوسف من إجازة ابن الأحمر واصفاق يغمراسن بن زيان معهم من وراء البحر على الأخذ بحجزته عنهم وواقعة السلطان على يغمراسن بخرزوزة

لما أجاز أمير المسلمين إلى العدوة إجازته الأولى، ولقي العدو بأستجة، وقتل الله ذننه بأيدي عسكره. وصنع له من الظهور والعزّ ما لا كفاء له، ارتاب ابن الأحمر بمكانه، فبدا له ما لم يكن يحتسب، وظنّ بأمير المسلمين الظنون، واعترض ذكره شأن يوسف بن تاشفين والمرابطين مع ابن عبّاد سلطان الأندلس. وأكّد ذلك عنده جنوح الرؤساء من بني أشقيلولة وغيرهم إليه وانقيادهم لأمره، فشرق بمكانه وحذر غوائله. وتكدّر الجو بينهما وأجاز الإجازة الثانية، فانقبض ابن الأحمر عن لقائه، ودارت بينهما مخاطبات شعريّة في معنى العتاب على ألسِنَة كتّابهما نسردها الآن،

(فمن ذلك قصيدة كتبها إليه ابن الأحمر سنة أربع وسبعين وستمائة بعد واقعة ذننّه واعتزامه على الرجوع إلى المغرب ، فخاطبه بها ليلة الإقامة بالجزيرة حذراً من غائلة العدو ، وينحو فيها منحى الاستعطاف وهي من نظم كاتبه أبي عمر بن المرابط :

هل من مُعيني في الهوى أو مُنْجدي ... من مُتْهِم في الأرض أو من مُنْجدِ
هـذا الهوى داع فَهَلْ من مُسْعِفٍ ... بـإجَـابَـةٍ وإنَـابَـةٍ أو مُسْعِـدِ
هذا سبيلُ الرشدِ قد وَضَحَتْ فَهَلْ ... بـالعُـدْوَتَيْن من امْرِىءٍ مُسْتَرْشَدِ
يَرْجو النجـاةَ بجنّـةِ الفردوس أو ... يخشى المصير إلى الجحيم المُوقَـدِ
يـا آمِـلَ النَصْرِ العزيزِ على العِـدَا ... أجبِ الهُـدَى تَسْعَـدْ بـهِ وتُؤَيّـدِ
سِرِّ النجـاة إلى النجـاةِ مُشمّرا ... إنَّ الهُـدَى لهو النجـاةُ لمن هُـدِي
يـا من يقولُ غـداً أتوبُ ولا غدٌ ... ألـديكَ عِلمٌ أنْ تعيشَ إلى غـدِ
لا تَغْتَرِرْ بنَسيئَـةِ الأجـلِ الـذي ... إنْ لم يَحِنْ لك نَقْـدُهُ فَكَأَن قَدِ
سَفَرٌ عليكَ طويلـةٌ أيَـامُـهُ ... لم تَسْتَعِـدَّا لطولـهِ فـاسْتَعْـدِدِ
أَوَ مـا عَلِمْتَ بـأنّـه لا بدّ من ... زاد لكـلِّ مسافرٍ فتزوَّدِ
هـذا الجهـادُ رئيسُ أعمالِ التُقى ... خُـذْ مِنْـهُ زادَكَ لارتحالك تُسْعَـدِ
هذا الرِباطُ بأرضِ أندَلُسٍ فَرُحْ ... مِنْـهُ لِمَـا يُرْضي إلَهَكَ واغتـدِي
سوّدتَ وجهَكَ بـالمعاصي فالتمِسْ ... وجهـاً لِلُقيـا اللهِ غيرَ مُسَوَّدِ
وامحُ الخطـايـا بـالـدموعِ فربّما ... محتِ الـدموعُ خطيئـةَ المُتَعَمِـدِ
مَنْ ذا يتوب لربّـهِ من ذَنْبـهِ ... أو يَقْتَـدِي بنبيّـه أو يَهْتَـدِي
وتَعَوَّضَتْ منهم بكُـلِّ مُعَـانِـدِ ... مستكبرٍ قـد كـان لم يتشهَّـدِ
كم من أسير عنـدهم وأسيرَةٍ ... فكِلاَهُمَـا يبغي الفِـداءَ فما فُـدِي
كم من عقيلـةِ مَعْشَرٍ معقولـةٍ ... فيهم تَـوَدُّ لو أنها في مَلْحَـدِ
كم من وليـدٍ بَيْنَهُم قـدودٌ مِن ... وَلَـداهُ وَدَّا أنّـه لم يُولَـدِ
كم من تقيٍّ في السلاسل موثَقٍ ... يبكي لآخَرَ في الكُبولِ مُقيّـدِ
وشَهيـدِ مُعْتَرَكٍ تَـوَزَّعَـهُ الردى ... مـا بين حَـدَّيْ ذابِـلٍ ومُـهَنَّـدِ
ضجّت ملائكـةُ السماءِ لحالِهِمْ ... وَرَثَى لهم من قَلْبِـهِ كـالجَلْمَـدِ
أفلا تـذوبُ قُلُوبُكُم إخوانَنَـا ... مما دهـانـا من ردىً أو من ردي

أفلا تراعون الأذمّة بيننا ... من حرمة ومحبّة وتودد

أكذا يعيث الروم في اخوانكم ... وسيوفكم للثأر لم تتقلّد

يا حسرتي لحميّة الإسلام قد ... خمدت وكانت قبل ذا تتوقّد

أين العزائم ما لها لا تقتضي[١] ... هل يقطع الهندي غير مجرّد

أبني مرين أنتم جيراننا ... وأحق من في صرخة بهم ابتدي

فالجار كان به يوصّي المصطفى ... جبريل حقاً في الصحيح المسند

أبني مرين والقبائل كلّها ... في المغرب الأدنى لنا والأبعد

كتب الجهاد عليكم فتبادروا ... منه إلى الفرض الأحق الأوكد

وارضوا بإحدى الحسنيين وأقرضوا ... حسناً تفوزوا بالحسان الخرّد

هذي الجنان تفتّحت أبوابها ... والحور قاعدة لكم بالمرصد

هل من بايع[٢] من ربّه من مشتر ... منه الحصول على النعيم السرمد

لله في نصر الخليفة[٣] موعد ... صدق فثوروا لانتجاز الموعد

هذي الثغور بكم إليكم تشتكي ... شكوى العديم إلى الغني الأوجد

ما بال شمل المسلمين مبدّد ... فيها وشمل الكفر غير مبدّد

أنتم جيوش الله ملء فضائه ... تأسون للدين الغريب المفرد

ماذا اعتذاركم غداً لنبيّكم ... وطريق هذا العذر غير ممهّد

إن قال لم فرّطتم في أمّتي ؟ ... وتركتموهم للعدوّ المعتدي ؟

تالله لو أنّ العقوبة لم تخف ... لكفى الحياء من وجه ذاك السيّد

إخواننا صلّوا عليه وسلّموا ... وسلوا الشفاعة منه يوم المشهد

واسعوا لنصرة دينه يسقيكم ... من حوضه في الحشر أعذب مورد

وصدر جوابها من نظم عبد العزيز شاعر السلطان يعقوب بن عبد الحق بما نصّه : لبيّك لا تخش اعتداء المعتدي الخ وكذلك أجاب عنها أيضاً مالك بن المرحل بقوله :

---

(١) وفي نسخة ثانية : لا تنقضي .

(٢) وفي نسخة ثانية : من بائع .

(٣) وفي نسخة ثانية : الخليفة .

شَهِدَ الإله وأنت يا أرضُ اشهدي الخ فأجابهما أبو عمرو بن المرابط كاتب ابن الأحمر بقوله :
قل للبغاةِ وللعُداةِ الحُسَّدِ الخ ولما أجاز السلطان يعقوب بن عبد الحق الإجازة الثانية سنة ست وسبعين وستمائة كما نذكره ، صار ابن الأحمر إلى الاستعتاب والرضا ولقي يعقوب بن عبد الحق فأنشد كاتبه أبو عمرو بن المرابط يوم اجتماعهما قوله * بشرى لحزب الله والإيمان الخ ولما انقضى المجلس أمر السلطان شاعره عبد العزيز بمساجلة قصيدته ، وأنشدها ثاني المجلس بحضرة ابن الأحمر ونصّها * اليوم كن في غبطة وأمان * الخ ثم كان أثناء ذلك ما وقع من استيلاء السلطان يعقوب بن عبد الحق على مدينة مالقة والغربيّة ، جلّ عمله بعد مهلك صاحبها أبي محمد عبدالله بن أشقيلولة ، فبرم لذلك وخيل عليه ، ففزع الى مداخلة الطاغية في شأنه واتصال يده بيده ، وان يعود إلى مكان أبيه من ولايته ليدافع به السلطان وقومه عن أرضه ، ويأمن معه من زوال سلطانه ، لما كانت كلمة الإسلام حجزاً دونه . فاهتبل الطاغية غرّتها ، ونكث عهد أمير المسلمين ، ونقض السلم ، ونبذ إليه العهد . واغزى أساطيله الجزيرة الخضراء حيث مسالح السلطان وعساكره. وأرست بالزقاق حيث فراض الجواز. هنا وانقطع المسلمون من جنود السلطان وقومه وراء البحر ويئسوا من صريخه . وانتبذ عمر ابن يحيى بن محلى عن قومه بمكان إمارته مالقة ، وكان بنو محلى هؤلاء من كبار قومهم بَطَوِيَّة وكانوا حلفاء لبني حمامة بن محمد منذ دخولهم المغرب . وأصهر عبد الحق أبو الأملاك إلى أبيهم محلى في ابنته أم اليُمْن ، فكان من ولدها السلطان يعقوب بن عبد الحق . وكانت امرأة صالحة خرجت إلى الحجّ سنة ثلاث وأربعين وستمائة فقضت فريضة الله عليها وعادت إلى المغرب رابعة من السنين سنة سبع وأربعين وستمائة ثم خرجت ثانية سنة اثنتين وخمسين وستمائة فتطوّعت بحجة أخرى وهلكت بمصر منصرفها من تلك السنة سنة ثلاث وخمسين وستمائة فكان لبني محلى أبيها مكان من الدولة ودالة على السلطان لخؤلتهم ووشايج قرابتهم وغنائهم في قومهم ولما استولى السلطان على حضرة الموحّدين مراكش ، عقد لمحمد بن علي بن محلى على جميع أعمالها ، فكانت له بالاضطلاع بها مقاما محمودة . واتصلت ولايته عليها من لدن سنة ثمان وستين إلى سنة سبع وثمانين وستمائة ثم كان مهلكه أيام يوسف بن يعقوب كما نذكر. ولما نزع محمد بن أشقيلولة إلى السلطان بالجزيرة سنة ست وسبعين وستمائة

متجافياً له عن ولاية مالقة بعد وفاة أبيه الرئيس أبي محمد ، واستولى السلطان عليها ، واعتزم على الإجازة كما قدّمناه ، وعقد على مالقة والغربية وسائر ثغورها وأعمالها لعمر بن يحيى بن محلى . وكان أخوه طلحة بن يحيى ذا بأس وصرامة وقوة شكيمة ، واعتزاز على السلطان بـمكان الخؤلة ، وهو الذي قتل يعقوب بن عبد الحق بغبولة سنة ثمان وستين وستمائة كما قلناه ، وظاهر فتح الله الهدراي[1] مولى السلطان ووزيره على قتال أبي العلاء بن أبي طلحة بن أبي قريش ، عامل المغرب بكدية العرايش بظاهر فاس سنة إثنتين وستين وستمائة ونزع سنة أربع وسبعين وستمائة إلى جبل آزروا عند مرجع السلطان من إجازته الأولى ، فاستنزله ورجّعه إلى مجلسه من جملته . ثم نزع من الجزيرة إلى غرناطة سنة ست وسبعين وستمائة عند مرجع السلطان من أمر مالقة ، وأجاز البحر إلى بلاد الريف . ثم رجع إلى القبلة وأقام بين بني توجين . ثم أجازا إلى الأندلس سنة سبع وسبعين وستمائة عندما أضرم نار هذه الفتنة بين هذا السلطان وبين ابن الأحمر والطاغية ، واحتل أسطول النصارى بالزقاق ، وانقطعت عساكر السلطان وراء البحر . وأحس أخوه عمر صاحب مالقة باظلام الجوّ بينه وبين السلطان بما كان من أمر أخيه طلحة من قبل فلاطفه ابن الأحمر عند استقراره بغرناطة في مداخلة أخيه عمر في النزول عن مالقة ، والاعتياض عنها بشلوبانية[2] والمنكب طعمة . وخاطبه في ذلك أخوه طلحة فأجاب وخرج ابن الأحمر بعساكره إلى مالقة ، وتقبّض عمر بن محلى على زيّان بن بو عياد قائد بني مرين ومحمد بن أشقيلولة . وأمكن ابن الأحمر من البلد فداخلها آخر رمضان من سنته .

وأنزل ابن محلى بشلوبانية واحتمل ذخيرته وما كان السلطان ائتمنه عليه من المال والعدد الجهاديّة . واتصلت يد ابن الأحمر بيد الطاغية على منع أمير المسلمين من الإجازة ، وراسلوا يغمراسن بن زيّان من وراء البحر وراسلهم في مشاقة السلطان وإفساد ثغوره وإنزال العوائق به المانعة من حركته ، والأخذ بأذياله عن النهوض إلى الجهاد . وأسنوا فيما بينهما الاتحاف والمهاداة . وجنب يغمراسن إلى ابن الأحمر ثلاثين

(١) وفي نسخة ثانية : السدراتي وقد مرّ معنا من قبل السدراتي .

(٢) هي شلوبينية حصن بالأندلس من أعمال كورة إلبيرة على شاطىء البحر كثير الموز وقصب السكر والشاه بلوط (معجم البلدان) .

من عتاق الخيل مع ثياب من عمل الصوف ، وبعث إليه ابن الأحمر صحبة ابن مروان التجاني كفء ذلك عشرة آلاف دينار ، فلم يرض بالمال في هديته وردّه . وأصفقت أيديهم جميعاً على السلطان ، ورأوا أن قد بلغوا في إحكام أمرهم وسدِّ مذاهبه إليهم ، واتصل الخبر بأمير المسلمين وهو بمراكش . كان صمد إليها مرجعه من الغزو في شهر المحرّم فاتح سبع وسبعين وستمائة لما كان من عيث العرب جَشْم بتامِسْنا وإفسادهم السابلة . فنقف أطرافها وحسم أدواءها . ولما بلغه خبر ابن محلى ومالقة ومنازلة الطاغية للجزيرة ، نهض لثالثة من شوّال يريد طنجة . ولما انتهى إلى تامسنا ، وافاه الخبر بنزول الطاغية على الجزيرة ، وإحاطة عساكره بها سادس شوال ، بعد أن كانت أساطيله مُنَازِلَتَها منذ ربيع ، وأنه مشرف على التهامها . وبعثوا إليه يستعدونه فاعتزم على الرحيل .

ثم اتصل به الخبر بخروج مسعود بن كانون أمير سفيان من جشم ببلاد نفيس من المصامدة خامس ذي القعدة . وأنّ الناس اجتمعوا إليه من قومه وغيرهم . فكرّ إليه راجعاً وقدم بين يديه حافده تاشفين بن أبي مالك ، ووزيره يحيى حازم ، وجاء على ساقتهم وفرّوا أمام جيوشه ، وانتهب معسكرهم وحللهم ، واستباح عرب الحرث ابن سفيان . ولحق مسعود بمعقل السكسيوي ، ونازله السلطان بعساكره أياماً . وسرّح ابنه الأمير أبا زيّان منديل إلى بلاد السوس لتمهيدها وتدويخ أقطارها ، فأوغل في ديارها وقفل إلى أبيه خاتم سنته . واتصل بالسلطان ما نال أهل الجزيرة من ضيق الحصار وشدّة القتال وأعواز الأقوات ، وأنهم قتلوا الأصاغر من أولادهم خشية عليهم من معرّة الكفر ، فأهمه ذلك وأعمل النظر فيه ، وعقد لولي عهده ابنه الأمير أبي يعقوب من مراكش على الغزو إليها . وأغزى الأساطيل في البحر إلى جهاد عدوهم . فوصل إلى طنجة لصفر من سنة ثمان وسبعين وستمائة وأوعز إلى البلاد البحرية لاعداد الأساطيل بسَبْتَة وطَنْجَة وسَلا ، وقسّم الأعطيات وتوفّرت هِمَمُ المسلمين على الجهاد ، وصدقت عزائمهم على الموت . وأبلى الفقيه أبو حاتم العزفي صاحب سبتة لما بلغه خطاب أمير المسلمين في ذلك البلاء الحسن ، وقام فيه المقام المحمود . واستقرّ كافة أهل بلده فركبوا البحر أجمعين من المحتلم فما فوقه .

ورأى ابن الأحمر ما نزل بالمسلمين في الجزيرة ، وإشراف الطاغية على أخذها ، فندم في ممالأته ونبذ عهده ، وأعدّ أساطيل سواحله من المنكب والمريّة ومالقة مدداً

للمسلمين. واجتمعت الأساطيل بمرفأ سبتة تناهز السبعين، قد أخذت بطرفي الزقاق في أحفل زيّ وأحسن قوّة وأكمل عدة وأوفر عدد، وعقد عليهم الأمير أبو يعقوب رايته، وأقلعوا عن طنجة ثامن ربيع الأوّل. وانتشرت قلوعهم في البحر فأجازوه، وباتوا ليلة المولد الكريم بمرقى الجبل، وصبحوا العدوة وأساطيلهم تناهز أربعمائة، فتظاهروا في دروعهم وأسبغوا من شكّتهم، وأخلصوا لله عزائمهم، وصدقوا مع الله نياتهم، وتنادوا بالجنّة شعارهم. ووعظ وذكر خطباؤهم، والتحم القتال ونزل الصبر. ولم يكن إلا كلاّولا حتى نضحوا العدوّ بالنبل، فانكشفوا وتساقطوا في العُبَاب. فاستلحمهم السيف وغشيهم اليم، وملك المسلمون أساطيلهم ودخلوا مرقى الجزيرة وفرضتها عنوة، فاختل معسكر الطاغية. وداخلهم الرعب من إجازة الأمير أبي يعقوب ومن معه من الحامية، فأفرج لحينه عن البلد، وانتشرت النساء والصبيان بساحته، وغلبت المقاتلة كثيراً من العسكر على مخلفهم، فغنموا من الحنطة والأدم والفواكه ما ملأ أسواق البلد أياماً، حتى وصلتها الميرة من النواحي.
وأجاز الأمير أبو يعقوب من حينه فأرهب العدوّ في كل ناحية، وصدّه عن الغزو شأن الفتنة مع ابن الأحمر، فرأى أن يعقد مع الطاغية سلماً، ويصل به لمنازلة غرناطة يداً. وأجابه إلى ذلك الطاغية رهبة من بأسه، وموجدة على ابن الأحمر في مدد أهل الجزيرة. وبعث أساقفته لعقد ذلك فأجازهم الأمير أبو يعقوب إلى أبيه أمير المسلمين فغضب لها، ونكر على ابنه. وزوى عنه وجه رضاه، ورجّعهم إلى طاغيتهم مخفقي السعي. وأجاز أبو يعقوب ابن السلطان إلى أبيه ومعه وفد أهل الجزيرة، فلقوا السلطان بمكانه من بلاد السوس. وولّى عليهم ابنه أبا زيّان فنزل بالجزيرة، وأحكم العقدة مع الطاغية، ونازل المريلة[1] من طاعة ابن الأحمر براً وبحراً فامتنعت عليه. وانضوى إليه أهل الحصون الغربيّة بطاعتهم حذراً من الطاغية فتقبّلهم. ثم جاءه المدد من المغرب، ونازل رندة فامتنعت. والطاغية أثناء ذلك يجوس خلال الأندلس. ونازل ابن الأحمر بغرناطة مع بني أشقيلولة وابن الدليل. ثم راجع ابن الأحمر مسالمة بني مرين، وبعث لأبي زيّان ابن السلطان بالصلح، واجتمع معه بأحواز مريلة كما نذكر بعد.

(١) وفي نسخة أخرى: مرتلة وفي نسخة ثانية: مديلة.

ولما ارتحل السلطان من معسكره إلى جبل السكسيوي يريد السوس ، ثم أغزى العساكر ورجع من طريقه الى مراكش حتى إذا انقضت غزاة البربر رجع إلى فاس ، وبعث خطابه إلى الآفاق مستنفراً للجهاد . وفصل في رجب من سنة ثمان وسبعين وستمائة حتى انتهى إلى طنجة وعاين ما اختلّ من أحوال المسلمين في تلك الفترة ، وما جرت إليه فتنة ابن الأحمر من اعتزاز الطاغية ، وما حدّثته نفسه من التهام الجزيرة الأندلسية ومن فيها . وظاهره على ابن الأحمر منافسوه في رياسته بنو أشقيلولة ، فاستجرّه الرئيس أبو الحسن بن أبي إسحق صاحب وادي آش ، ونازل معه غرناطة سنة تسع وسبعين وستمائة خمسة عشر يوماً ثم أفرجوا ، ولقيتهم عساكر غرناطة من زناتة بعد ذلك من سنتهم . وغلبهم[1] طلحة بن محلى وتاشفين بن معطى كبير تيربيغين بحصن المسلى ، فأظهرهم الله عليهم . وهلك من النصارى ما يناهز سبعمائة من فرسانهم . واستشهد فيها من أعياص بني مرين عثمان بن محمد بن عبد الحق . واستجر الطاغية سنة ثمانين وستمائة بعدها الرئيس أبو محمد عبدالله أخو صاحب وادي آش إلى منازلة غرناطة ، فنازلها الطاغية وأقام عليها أياماً . ثم ارتحل وقد اعتز عليهم ، وأشفق السلطان على المسلمين وعلى ما نال ابن الأحمر من خسف الطاغية ، فراسله في الموادعة واتفاق الكلمة وشرط عليه النزول عن مالقة ، فرجع السلطان إلى إزالة العوائق عن شأنه من الجهاد ، وكان من أعظمها فتنة يغمراسن . واستيقن ما دار بينه وبين ابن الأحمر والطاغية ابن أخي أدفونش من الاتصال والاصفاق في تجديد الصلح والاتفاق ، فلجّ وكشف الوجه في العناد وأعلن بما وقع بينه وبين أهل العدوة مسلمهم وكافرهم من الوصلة ، وأنه معتزم على طيّ[2] بلاد المغرب . فصرف أمير المسلمين عزمه إلى غزو يغمراسن . وقفل إلى فاس لثلاثة أشهر من نزوله طنجة ، فدخلها آخر شوّال وأعاد الرسل إلى يغمراسن لإقامة الحجّة عليه ، والتجأ بمسالمة بني توجين والتجافي عنهم لموالاتهم أمير المسلمين . فقام يغمراسن في ركائبه وقعد ولج في طغيانه . وارتحل أمير المسلمين من فاس سنة تسع وسبعين وستمائة وقدم ابنه أبا يعقوب في العساكر وأدركه بتازى . ولما انتهى إلى ملوية تلوّم في انتظار

(١) وفي نسخة أخرى : وعليهم .
(٢) وفي نسخة ثانية : وصلي .

العساكر ثم ارتحل إلى تاسة ثم تاقيا[1] وصمد إليه يغمراسن بحشود زناتة والعرب بحللهم وكافة ناجعتهم ، والتقت عيون القوم ، فكانت بينهم حرب . وركب على آثارهما العسكران والتحم القتال ، وكان الزحف بخرزوزة من ملعب تيفني[2] ، ورتّب أمير المسلمين مصافه وجعل كتيبته وكتيبة ابنه الأمير أبي يعقوب جناحين للعسكر . واشتد القتال سائر النهار ، وانكشف بنو عبد الواد عندما أراح القوم ، وانتهب جميع مخلفهم وما كان في معسكرهم من المتاع والكراع والسلاح والفساطيط ، وبات عسكر أمير المسلمين ليلتهم في صهوات خيلهم ، واتبعوا من الغد آثار عدوّهم . واكتسحت أموال العرب الناجعة الذين كانوا مع يغمراسن ، وامتلأت أيدي بني مرين من نعمهم وشائهم . ودخلوا بلاد يغمراسن وزناتة . ووافاه هنالك محمد بن عبد القوي أمير بني توجين ، لقيه بناحية القصبات ، وعاثوا جميعاً في بلاده نهباً وتخريباً ثم أذن لبني توجين في اللحاق ببلادهم وأخذ هو بمخنق تلمسان متلوّماً لوصول محمد بن عبد القوي وقومه إلى منجاتهم من جبل ونشريس حذراً عليهم من غائلة يغمراسن . ثم أفرج عنها وقفل إلى المغرب ودخل فاس شهر رمضان من سنة ثمانين وستمائة ثم نهض إلى مراكش فاحتلّ بها فاتح إحدى وثمانين وستمائة بعدها ، وسرّح ابنه الأمير أبا يعقوب إلى السوس لتدويخ أقطاره ، ووافاه بمراكش صريخ الطاغية على ابنه شانجة الخارج عليه ، فاغتنم الفرصة في فساد بينهم لقضاء أربه من الجهاد ، وارتحل مبادراً بالاجازة إلى الأندلس . والله تعالى أعلم .

الخبر عن اجازة السلطان أبي يوسف صريخا للطاغية لخروج ابنه شانجة عليه وافتراق كلمة النصرانية وما كان في هذه الأخبار من الغزوات

لما رجع السلطان من غزاة تلمسان إلى فاس ، وارتحل إلى مراكش وافاه بها وفد الطاغية من بطارقته وزعماء دولته ، وقواميس ملّته صريخاً على ابنه شانجة . خرج عليه في طائفة من النصارى وغلبوه على أمره ، فانتصر أمير المسلمين ودعاه لحربهم

(١) كذا في النسخة الباريسية ونسخة أخرى ، وفي نسخة ثانية : ثم ارتحل الى نامه ثم إلى تافنا .
(٢) وفي نسخة ثانية : منتي .

وأمّله لاسترجاع ملكه من آيديهم ، فأجاب أمير المسلمين داعية رجاء للكرة بافتراقهم ، وارتحل حتى انتهى إلى قصر المجاز ، وأوعز إلى الناس بالنفير إلى الجهاد ، وأجاز إلى الخضراء فاحتل بها الربيع الثاني من سنة إحدى وثمانين وستمائة واجتمعت عليه مسالح الثغور بالأندلس وسار حتى نزل صخرة عبّاد[1] ، فوافاه بها الطاغية ذليلا لعزّ الإسلام مؤمّلاً صريخ السلطان ، فأكبر وفادته وأكرم موصله وعظّم قدره وأمدّه لنفقاته بمائة ألف من مال المسلمين استرهن فيها التاج الذخيرة عند سلفه ، وبقي بدارهم فخراً للأعقاب لهذا العهد . ودخل معه دار الحرب غازياً حتى ينازل قرطبة ، وبها شانجة ابن الطاغية الخارج عليه مع طائفة ، فقاتلها أياماً ثم أفرج عنها . وتنقّل في جهاتها ونواحيها وارتحل إلى طُلَيْطلَة فعاث في جهاتها ، وخرّب عمرانها حتى انتهى إلى حصن مجريط من أقصى الثغر ، فامتلأت أيدي المسلمين وضاق معسكرهم بالغنائم التي استاقوها . وقفل إلى الجزيرة فاحتلّ بها لشعبان من سنته ، وكان عمر بن محلى نزع إلى طاعة السلطان فهمّ به ابن الأحمر ، ونبذ إليه عهده . وارتجع المنكب من يده ونازله بعساكره فاتح هذه السنة ، فجهّز السلطان إليه لوصوله الجزيرة أسطوله . وأفرج ابن الأحمر عنه ، فبادر إلى السلطان بطاعته ، ووصل بيعة شلوبانية فأبقاه فيها بدعوته . ثم راجع طاعة ابن الأحمر في شوّال من سنته ، فتقبّل فيئته وأعاضه عنها بالمنكب[2] إلى أن كان ما نذكره إن شاء الله تعالى والله أعلم .

الخبر عن شأن السلم مع ابن الأحمر وتجافي السلطان له عن مالقة ثم تجدّد الغزو بعد ذلك

لما اتصلت يد السلطان بيد الطاغية ، خشي ابن الأحمر غائلته ، فجنح إلى موالاة شانجة الخارج عن أبيه . ووصل يده بيده ، وأكّد له العقد على نفسه وأضرمت له الأندلس ناراً وفتنة . ولم تغن شانجة عن ابن الأحمر شيئاً ورجع السلطان من غزاته مع الطاغية ، وقد ظهر على ابنه فأجمع على منازلة مالقة ، ونهض إليها من الجزيرة فاتح إثنتين وثمانين وستمائة فتغلّب على الحصون الغربيّة كلّها . ثم أسعف إلى مالقة

(١) وفي نسخة أخرى : عياد .
(٢) المنكب : كان حصناً قوياً ، وهو اليوم فرضة صغيرة على البحر تابعة لمركز مطريل في مديرية غرناطة .

فأناخ عليها بعساكره . وضاق النطاق على ابن الأحمر وبدا له سوء المغبّة في شأن مالقة ومداخلة ابن محلي في الغدر بها ، وأعمل نظره في الخلاص من ورطتها . ولم يَرَ لها إلاّ وليّ عهد السلطان ابنه أبا يوسف ، فخاطبه بمكانه من المغرب مستصرخاً لرقع هذا الخرق ، وجمع كلمة المسلمين على عدوّهم ، فأجابه واغتنم المثوبة في مسعاه . وأجاز لشهر صفر ، فوافى أمير المسلمين بمعسكره على مالقة . ورغب منه السلم لابن الأحمر عن شأن مالقة والتجافي له عنها ، فأسعف رغبة ابنه لما يؤمّل في ذلك من رضى الله في جهاد عدوّه وإعلاء كلمته . وانعقد السلم وانبسط أمل ابن الأحمر ، وتجدّدت عزائم المسلمين ، وقفل السلطان إلى الجزيرة وبثّ السرايا في دار الحرب فأوغلوا وأثخنوا . ثم استأنف الغزو بنفسه إلى طليطلة فخرج من الجزيرة غازياً غرّة ربيع الثاني من سنة إثنتين وثمانين وستمائة حتى انتهى إلى قرطبة ، فأثخن وغنم وخرّب العمران وافتتح الحصون . ثم ارتحل نحو البرت وخلف معسكره بظاهر بيّاسة[1] وأغذ السير في أرض قفر لليلتين انتهى إلى البرت من نواحي طليطلة[2] ، فسرّح الخيل في البسائط حتى تقرّى جميع ما فيها . ولم ينته إلى طليطلة لتثاقل الناس بكثرة الغنائم ، وأثخن في القتل ، وقفل على غير طريقه فأثخن وخرّب وانتهى إلى أُبُدَّة . ووقف بساحتها والعدوّ منحجزون ، ثم رجع إلى معسكره بساسة وأراح ثلاثاً ينسف آثارها ويقتلع أشجارها . وقفل إلى الجزيرة فاحتلّ بها شهر رجب وقسّم الغنائم ونفل من الخمس . وولّى على الجزيرة حافده عيسى ابن الأمير أبي مالك إبنه ، فهلك شهيداً بالمعترك لشهرين من ولايته ، وأجاز السلطان غرّة شعبان إلى المغرب ، ومعه ابنه أبو زيّان منديل ، وأراح بطنجة ثلاثاً . وأغذّ السير إلى فاس فاحتل بها آخر شعبان ، ولما قضى صيامه ونسكه ، ارتحل إلى مراكش لتمهيدها . وتفقّد أحوالها . وقسّم من نظره لنواحي سَلا وأزدرد[3] فأقام برباط الفتح شهرين إثنين ، واحتل مراكش فاتح ثلاث وثمانين وستمائة وبلغه مهلك الطاغية ابن أدفونش واجتماع النصرانية على ابنه شانجة الخارج عليه ، فتحرّكت إلى الجهاد عزائمه وسرّح الأمير أبا يعقوب وليّ عهده

---

(١) بياسة : بينها وبين جيّان عشرون ميلاً وتطل على النهر الكبير ، استولى عليها الروم سنة ٦٣٢ هجرية .

(٢) طليطلة : كانت عاصمة الأندلس قبل دخول طارق بن زياد ، وهي مشرفة على ما يليها من الاندلس الى الجنوب ، وكانت من أولى المدن التي انتزعت من يد العرب إذ استولى عليها الفونش السادس عام ٤٧٨ هـ وجرّ ذلك الى معركة الزلاّقة .

(٣) وفي نسخة ثانية : أزور.

بالعسكر إلى بلاد السوس لغزو العرب ، وكفّ عاديتهم ، ومحو آثار الخوارج المنتزين على الدولة ، فأجفلوا أمامه ، واتبع آثارهم إلى الساقية الحمراء آخر العمران من بلاد السوس ، فهلك أكثر العرب في تلك القفار مسغبة وعطشاً ، وقفل لما بلغه من اعتلال أمير المؤمنين ، ووصل إلى مراكش وقد أبلّ ، وقد اعتزم على الجهاد والغزو وشكر الله ، كما نذكره إن شاء الله تعالى .

الخبر عن إجازة السلطان أبي يوسف الرابعة ومحاصرة شريش وما تخلل ذلك من الغزوات

لما اعتزم أمير المسلمين على الإجازة واعترض جنوده وحاشيته ، وأزاح عللهم ، وبعث في قبائل المغرب بالنفير ، ونهض من مراكش في جمادى الآخرة لثلاث وثمانين وستمائة واحتل رباط الفتح منتصف شعبان فقضى به صومه ونسكه ، ثم ارتحل إلى قصر مصمودة وشرع في إجازة العساكر والحشود من المرتزقة والمطوّعة خاتم سنته . ثم أجاز البحر بنفسه غرّة صفر من سنة أربع وثمانين وستمائة بعدها واحتلّ بظاهرها[1] . ثم سار منها إلى الخضراء وأراح أياماً . ثم خرج غازياً حتى انتهى إلى وادلك[2] ، وسرّح الخيول في بلاد العدوّ وبسائطها يحرق وينسف . فلمّا خرّب بلاد النصرانية ودمّر أرضهم قصد مدينة شريش[3] ، فنزل بساحتها وأناخ عليها ، وبثّ السرايا والغارات في جميع نواحيها ، وبعث المسالح التي كانت بالثغور ، فتوافت لديه . ولحقه حافده عمر بن أبي مالك بجمع وافر من المجاهدين من أهل المغرب فرساناً ورجالاً ، ووافته حصة العزفي من سبتة غزاة ناشبة تناهز خمسمائة من الرجل . وأوعز إلى وليّ عهده الأمير أبي يعقوب باستنفار من بقي بالعدوة من المسلمين الى الجهاد ، وعقد لحافده الآخر منصور بن عبد الواحد على الف فارس من الغزاة . وأعطاه الراية

(١) وفي نسخة ثانية : واحتل بطريق .
(٢) وفي نسخة ثانية : وادي لك وفي نفح الطيب ج ١ ص ٢٤٩ وادي لكة .
(٣) شريش : قال الحجاري : ان مدينة شريش بنت أشبيلية — تقع الى الجنوب الشرقي من بطليوس وتشتهر اليوم بالنبيذ الجيّد — وواديها ابن واديها . وهي مدينة جليلة ضخمة الأسواق ، لأهلها همم ، وظرف في اللباس واظهار الرفاهية وتخلّق بالآداب . ولا تكاد ترى فيها إلاّ عاشقاً ومعشوقاً . تشتهر بالمجنبات وهي نوع من القطائف يضاف إليها الجبن في عجينها (نفح الطيب ج ١ ص ١٨٤) .

وسرّحه لغزو إشبيلية لآخر صفر من سنته ، فغنموا ومرّوا بقرمونة[1] في منصرفهم فاستباحوها وأثخنوا بالقتل والأسر ورجعوا وقد امتلأت أيديهم من الغنائم . وبعث وزيره محمد بن عطوا[2] ومحمد بن عمران بن عبلة عيوناً ، فوافوا حصن القناطر وروطه ، واستكشفوا ضعف الحامية واختلال الثغور ، فعقد ثانية لحافده عمر بن عبد الواحد على مثلها من الفرسان لثالثة من ربيع وأعطاه الراية ، وسرّحه إلى بسائط وَادِلَكّ ، فرجعوا من الغنائم بما ملأ العساكر بعد أن أثخنوا فيها بالقتل والتخريب وتحريق الزروع واقتلاع الثمار ، وأبادوا عمرانها . ثم سرّح ثامن ربيع عسكراً للإغارة على حصن أركش ، ووافوه على غرّة فاكتسحوا أموالهم . ثم عقد تاسع ربيع لابنه أبي معروف على ألف من الفرسان . وسرّحه لغزو إشبيلية فساروا حتى توقف عليها . وانحجزت منه حاميتها ، فخرّب عمرانها وحرق زروعها وقطع شجرها . وامتلأت أيدي عسكره سبياً وأموالاً ، ورجع إلى معسكر السلطان مملوء الحقائب . ثم عقد ثالثة لحافده عمر منتصف ربيع لغزو حصن كان بالقرب من معسكره ، وسرّح الرجل من الناشبة والفعلة بالآلات . وأمدّه بالرجل من المصامدة . وغزاة سبتة فاقتحموه عنوة على أهله ، وقتلوا المقاتلة وسبوا النساء والذريّة ، وأرغموا خده بالتراب .

ولسبع عشرة من الشهر ركب السلطان إلى حصن سقوط قريباً من معسكره ، فخرّبه وحرّقه بالنار ، واستباحه . وقتل المقاتلة وسبى أهله . ولعشرين من شهره وصل وليّ عهده ، الأمير أبو يعقوب من العدوة بنفير أهل المغرب وكافّة القبائل في جيوش ضخمة ، وعساكر موفورة ، وركب أمير المسلمين للقائهم وبرور مقدمهم . واعترض العساكر الموافية يومئذ فكانت ثلاثة عشر ألفا من المصامدة ، وثمانية آلاف من برابرة المغرب متطوّعون كلّهم بالجهاد ، فعقد السلطان له على خمسة آلاف من المرتزقة وألفين من المتطوّعة وثلاثة عشر ألفاً من الرجل والفين من الناشبة وسرّحه لغزو إشبيلية والإثخان في نواحيها ، فعبّى كتائبه ونهض لوجهه . وبث الغارات بين يديه ، فأثخنوا وسبوا وقتلوا واقتحموا الحصون واكتسحوا الأموال . وعاج على الشرق والغابة من بسيط إشبيلية فنسف قراها واقتحم من حصونها عدة ، وقفل إلى معسكر أمير المسلمين

---

(١) قرمونة : مدينة الى الشمال الشرقي من إشبيلية على بعد ٣٥ كلم وكانت كورة واسعة تضم عدة مدن وحصون .

(٢) وفي نسخة ثانية : محمد بن عتّو .

ظاهراً عزيزاً غانماً . ولسادس ربيع الثاني وصل الأمير أبو زيّان منديل بن طريف بعسكر وافر من المسلمين فعقد له غداة وصوله وأمدّه بعسكر آخر وأغزاه قرمونة والوادي الكبير ، فأغار على قرمونة . وطمعت حاميتها في المدافعة فبرزوا له وصدقهم القتال فانكشفوا حتى احجزوهم في البلد . ثم أحاطوا ببرج كان قريباً من البلد ، فقاتلوه ساعة من نهار واقتحموه عنوة ، ولم يزل يتقرّى المنازل والعمران حتى وقف بساحة إشبيلية ، فأغار واقتحم برجاً كان هنالك عيناً على المسلمين ، وأضرمه ناراً . وامتلأت أيدي عساكره ، وقفل إلى معسكر أمير المسلمين .

ولثلاث عشرة من ربيع الثاني عقد للأمير أبي يعقوب لمنازلة جزيرة كيوثر[1] ، فصمد إليها وقاتلها واقتحمها عنوة . وفي ثاني جمادى عقد لطلحة بن يحيى بن محلى ، وكان بعد مداخلته أخاه عمر في شأن مالقة سنة خمس وسبعين وستمائة خرج إلى الحجّ ، فقضي فرضه ورجع ، ومرّ في طريقه بتونس واتهمه الدعي ابن أبي عمارة كان بها يومئذ فاعتقله سنة إثنتين وثمانين ، ثم سرّحه ولحق بقومه بالمغرب . ثم أجاز الأندلس غازياً في ركاب السلطان ، فعقد له في هذه الغزاة على مائتين من الفرسان وسرّحه إلى إشبيلية ليكون رتبة[2] للمعسكر وبعث معه لذلك عيوناً من اليهود والمعاهدين من النصارى ، يتعرّفون له أخبار الطاغية شانجة وأمير المسلمين أثناء ذلك يغادي شريش ويراوحها بالقتال والتخريب ، ونسف الآثار ، وبث السرايا كل يوم وليلة في بلاد العدو ، فلا يخلو يوماً عن تجهيز عسكر أو اغزاء جيش أو عقد راية أو بعث سرية ، حتى انتسف العمران في جميع بلاد النصرانيّة ، وخرّب بسائط إشبيلية وليلة[3] وقرمونة واستجة وجبال الشرق وجميع بسائط الفرنتيرة . وأبلى في هذه الغزوات عيّاد العاصمي من شيوخ جَشْم ، وخضر الغزي أمير الأكراد بلاءً عظيماً . وكان لهم فيها ذكر . وكذلك غزاة سبتة وسائر المجاهدين والعرب من جَشْم وغيرهم . فلما دمّرها تدميراً ونسفها تخريباً واكتسحها غارةً ونهباً ، وزحم فصل الشتاء وانقطعت الميرة عن العسكر ، اعتزم على القفول وأفرج عن شريش لآخر رجب ، ووافاه مدد غرناطة من عساكر الغزاة وقائدهم يعلى بن أبي عياد بن عبد الحق بوادي بردة ،

(١) وفي نسخة ثانية : جزيرة كبوتر .
(٢) بمعنى قائداً وفي نسخة ثانية : ربيبة وليس لها أي معنى حسب مقتضى السياق .
(٣) وفي نسخة ثانية : لبلة كما في نفح الطيب ١٤١/١ .

فلقاهم مبرّة ، وتكريماً وانقلبوا إلى أهلهم . واتصل به أنّ العدو أوعز إلى أساطيله باحتلال الزقاق والاعتراض دون الفراض فأوعز أمير المسلمين الى جميع سواحله من سبتة وطنجة والمنكب وجزيرة وطيف وبلاد الريف ورباط الفتح . واستدعى أساطيله فتوافت منها ستة وثلاثون أسطولاً متكاملة في عدّتها وعديدها ، فأحجمت أساطيل العدوّ عنها وارتدت على أعقابها . واحتلّ بالجزيرة غرّة رمضان . واستيقن الطاغية شانجة وأهل ملّته أنّ بلادهم قد فنيت وأرضهم خربت وتبيّنوا العجز عن المدافعة والحماية ، فجنحوا إلى السلم وضرعوا إلى أمير المسلمين في كفّ عاديته عنهم على ما يذكر ووصل إلى السلطان بمكانه من منازلة شريش عمر بن أبي يحيى بن محلي نازعاً إلى طاعته ، فاتهمه لما سبق من تلاعبه وأمر أخاه طلحة فنكبه . واحتمل إلى طريف فاعتقل بها ، وسار طلحة إلى المنكب فاستصفى أموال أخيه عمر وذخائره وسار إلى السلطان . وأقرّ ثانية أخاه موسى على عمله بالمنكب ، وأمدّه بعسكر من الرجل . ثم أطلق عمر لليال من اعتقاله . وأجاز طلحة وعمر في ركاب السلطان . ونزع منصور بن أبي مالك حافد السلطان إلى غرناطة ، ثم لحق منها بالمنكب وأقام مع موسى بن أبي يحيى بن محلى ، فأقرّه السلطان ورضي بمقامه والله تعالى أعلم .

* (الخبر عن وفادة الطاغية شانجة وانعقاد السلم ومهلك السلطان على تفيئة ذلك) *

لما نزل ببلاد النصرانية بلاد ابن أدفونش من أمير المسلمين ما نزل من تدمير قراهم واكتساح أموالهم وسبي نسائهم وإبادة مقاتلتهم وتخريب معاقلهم وانتساف عمرانهم ، زاغت منهم الأبصار وبلغت القلوب الحناجر واستيقنوا أن لا عاصم من أمير المسلمين ، فاجتمعوا إلى طاغيتهم شانجة ، خاشعة أبصارهم ترهقهم ذلّة ، متوجعين مما أذاقهم جنود الله من سوء العذاب وأليم النكال . وحملوه على الضراعة لأمير المسلمين في السلم وإيفاد الملأ من كبار النصرانية عليه في ذلك . وإلاّ فلا تزال تصيبهم منه قارعة ، وتحل قريباً من دارهم فأجاب إلى ما دعوه إليه من الخسف والهضيمة لدينه . وأوفد على أمير المسلمين من بطارقتهم وشمامستهم وأساقفهم يخطبون السلم ويضرعون في المهادنة والإبقاء ووضع أوزار الحرب ، فردّهم أمير المسلمين

اعتزازاً عليهم . ثم أعادهم الطاغية بترديد الرغبة على أن يشترط ما شاء من عزّ دينه وقومه . فأسعفهم أمير المسلمين وجنح إلى السلم لما تيقن من صاغيتهم إليه وذلّهم لعز الاسلام . وأجابهم إلى ما سألوه واشترط عليهم ما تقبّلوه من مسالمة المسلمين كافة من قومه وغير قومه ، والوقوف عند مرضاته في ولاية جيرانه من الملوك أو عداوتهم ، ورفع الضريبة عن تجّار المسلمين بدار الحرب من بلاده ، وترك التضريب بين ملوك المسلمين والدخول بينهم في فتنة . وبعث لعمّه عبد الحق ابن الترجمان باشتراط ذلك وأحكام عقده . فاستبلغ وأكّد في الوفاء . ووفدت رسل ابن الأحمر على الطاغية وهو عنده لعقد السلم معه دون أمير المسلمين على قومه ، ومدافعته عنهم ، فأحضرهم بمشهد ابن الترجمان وأسمعهم ما عقد أمير المسلمين على قومه وأهل ملّته . وقال لهم إنما أنتم عبيد آبائي فلستم معي في مقام السلم والحرب ، وهذا أمير المسلمين ولست أطيق مقاومته ولا دفاعه عنكم فانصرفوا . ولما رأى عبد الحق صاغيته إلى مرضاة السلطان وسوس إليه بالوفادة لتتمكن الألفة وتستحكم العقدة ، وأراه مغبة ذلك في سل السخيمة وتسكين الحفيظة وتمكين الألفة ، فصغى إلى وفاته . وسأل لقيّ الأمير أبي يعقوب ولي عهده من قبل ليطمئن عليه ، فوصل إليه ولقيه على فراسخ من شريش . وباتا بمعسكر المسلمين هنالك . ثم ارتحلا من الغد للقاء أمير المسلمين وقد أمر الناس بالاحتفال للقاء الطاغية وقومه وإظهار شعار الإسلام أبهته ، فاحتفلوا وتأهبوا وأظهروا عزّ الملّة وشدّة الشوكة ووفور الحامية .

ولقيه أمير المسلمين بأحسن مبرّة وأتم كرامة يلقى بها مثله من عظماء الملل . وقدّم الطاغية بين يديه هديّـة أتحف بها أمير المسلمين وابنه من ظرف بلاده ، كان فيها زوج من الحيوان الوحشي المسمّى بالفيل ، وحمارة من حمر الوحش إلى غير ذلك من الظرف . فقبلها السلطان وابنه وقابلوه بكفائها ومضاعفتها ، وكمل عقد السلم ، وتقبّل الطاغية سائر الشروط ورضي بعزّ الاسلام عنه . وانقلب إلى قومه بملء صدره من الرضا والمسرّة وسأل منه أمير المسلمين أن يبعث من كتب العلم التي بأيدي النصارى منذ استيلائهم على مدن الإسلام ، فاستكثر من أصنافها في ثلاثة عشر حملاً بعث بها إليه ، فوقفها السلطان بالمدرسة التي أسسها بفاس لطلب العلم .

وقفل أمير المسلمين إلى الجزيرة لليلتين بقيتا لرمضان ، فقضى صومه ونسكه . وجعل من قيام ليله جزءاً لمحاضرة أهل العلم . وأعدّ الشعراء كلمات أنشدوها يوم الفطر بمشهد

الملأ في مجلس أمير المسلمين . وكان من أسبقهم في ذلك الميدان شاعر الدولة عزّوز المكناسي . ذكر فيها سير أمير المسلمين وغزواته على نسق .

ثم أعمل أمير المسلمين نظره في الثغور فرتّب بها المسالح وعقد عليها لإبنه الأمير أبي زيّان منديل ، وأنزله بركوان مقربة مالقة ، واستوصاه بأن لا يحدث في بلاد ابن الأحمر حدثاً . وعقد لعيّاد بن أبي عيّاض العاصمي على مسلحة أخرى ، وأنزله بأصطبونة . وأجاز إبنه الأمير أبا يعقوب لتفقد أحوال المغرب ومباشرة أموره ، فأجاز في أسطول القائد محمد بن القاسم الرنداحي قائد سبتة . وأوعز إليه بالبناء على قبر أبيه أبي الملوك عبد الحق ، ولقيه إدريس بتافرطست ، فاختطّ هنالك رباطاً وبنى على قبورهم أسمنة من الرخام ، ونقشها بالكتابة ، ورتّب عليها قرّاء لتلاوة القرآن ، ووقف على ذلك ضياعاً وفدناً . وهلك خلال ذلك وزيره يحيى بن أبي منديل العسكري لمنتصف رمضان . ثم اعتلّ بعد ذلك أمير المسلمين لشهر ذي الحجة واشتدّ وجعه وهلك لآخر محرّم سنة خمس وثمانين وستمائة والله أعلم .

* (الخبر عن دولة السلطان وما كان فيها من الاحداث وشأن الخوارج لأوّل دولته) *

لما اعتل أمير المسلمين أبو يوسف بالجزيرة ، مرّضه نساؤه ، وطيّرن الخبر إلى ولي العهد الأمير أبي يعقوب وهو بمكانه من المغرب ، فأغذّ السير ، وقضى أمير المسلمين قبل وصوله ، فأخذ له البيعة على الناس وزراء أبيه وعظماء قومه ، وأجاز إليهم البحر ، فجدّدوا بيعته غرّة صفر سنة خمس وثمانين وستمائة وأخذوها على الكافة . وانعقد أمر السلطان يومئذ ففرّق الأموال وأجزل الصلات ، وسرّح السجون ورفع عن الناس الأخذ بزكاة الفطر ، ووكّلهم فيها إلى أمانتهم . وقبض أيدي العمّال عن الظلم والاعتداء والجور على الرعايا ، ورفع المكوس ومحا رسم الرتب ، وصرف اعتناءه إلى إصلاح السابلة . وكان أوّل شيء أحدث من أمره إلى أن بعث ابن الأحمر وضرب موعداً للقائه ، فبدر إليه ولقيه بظاهر مربالة(١) لأوّل ربيع . ولقاه مبرّة وتكريماً

(١) وفي نفح الطيب ج ٥ ص ٨٥ : مربلة .

وتجافى له عن جميع الثغور الأندلسية التي كانت لمملكته ما عدا الجزيرة وطريف. وتفرّقا من مكانهما على أكمل حالات المصافاة والوصلة، ورجع السلطان إلى الجزيرة ووافاه بها وفد الطاغية شانجة مجدّدين عقد السلم الذي عقد له أمير المسلمين عفا الله عنه فأجابهم. ولمّا تمهّد أمر الأندلس ومرّ عن النظر فيها، عهد لأخيه أبي عطيّة العبّاس على الثغور الغربية والإمارة عليها. وعقد لعلي بن يوسف بن يزكاسن على مسالحها، وأمدّه بثلاثة آلاف من عساكره. وأجاز الى المغرب فاحتلّ بقصر مصمودة سابع ربيع الثاني. ثم ارتحل إلى فاس، واحتلّ بها لإثنتي عشرة خلت من جمادى، ولحين استقراره بدار ملكه، خرج عليه محمد بن إدريس بن عبد الحق في إخوته وبنيه وذويهم، ولحق بجبل ورغة[1]. ودعا لنفسه، وسرّح إليه السلطان أخاه أبا معروف، فبدا له في النزوع إليهم، ولحق بهم. فأغزاهم السلطان عساكره وردّد إليهم البعوث والكتائب، وتلطّف في استنزال أخيه، فنزل عن الخلاف وعاد إلى حسن طاعته. وفرّ أولاد إدريس إلى تلمسان، وتقبّض عليهم أثناء طريقهم، وسرّح السلطان أخاه أبا زيّان إلى تازى، وأوعز إليه بقتلهم بمليلي خارج تازى لرجب من سنة خمس وثمانين وستمائة ورهب الأعياص عند ذلك من بادرة السلطان ففرقوا ولحق بغرناطة أولاد أبي العلاء إدريس بن عبد الحق، وأولاد يحيى بن عبد الحق، وأولاد عثمان بن يزول. ورجع أولاد أبي يحيى إلى السلطان بعد اقتضاء عهده وأمانه. وهلك أخوه محمد بن يعقوب بن عبد الحق لشعبان من سنته. وهلك عمر ابن أخيه أبي مالك بطنجة. ثم خرج على السلطان عمر بن عثمان بن يوسف العسكري بقلعة قندلاوة، ونبذ الطاعة وأذن بالحرب. وأوعز السلطان إلى بني عسكر ومن إليهم من القبائل المجاورين لها، فاحتشدوا له ونازلوه. ثم نهض بركابه وعساكره إلى منازلته، واحتل بسدورة[2]، وخافه عمر على نفسه، وأيقن أنه أحيط به، فسأل الأمان. وبذله السلطان على شريطة اللحاق بتلمسان، فبعث من يوثق به من الخيرة فنزل. فوفّى له السلطان بعهده، ولحق بتلمسان بأهله وولده.

ثم ارتحل السلطان في رمضان من سنته إلى مراكش لتمهيد أنحائها، وتثقيف أطرافها،

---

(١) وفي نسخة ثانية: جبل درعة.

(٢) وفي نسخة ثانية: بنبدورة.

واحتل بها في شوّال ، واعتمل النظر في مصالحها ، ونزع خلال ذلك طلحة بن محلى البطوي إلى بني حسّان من المعقل ، وخرج على السلطان ودعا لنفسه . وعقد السلطان لمنصور ابن أخيه أبي مالك على العساكر ، وعهد له بولاية السوس وسرّحه لاستنزال الخوارج ، ومحو آثار الفساد . وارتاب بمكان أخيه عمر فغرّبه إلى غرناطة ، فقتله أولاد أبي العلاء يوم وصوله إليها ، فسار الأمير منصور في الجيوش والكتائب ، وغزا عرب المعقل وأثخن فيهم . وقتل طلحة بن محلى في بعض حروبهم لثلاث عشرة في جمادى سنة ست وثمانين وستمائة وبعث برأسه إلى سدّة السلطان فعلق بتازي . ثم نهض في رمضان لغزو المعقل بصحراء درعة لما أضرّوا العمران وأفسدوا السابلة . وسار إليهم في اثني عشر ألفاً من الفرسان ، ومرّ على بلاد هسكورة معترضاً جبل درن . وأدركهم بالقفر نواجع ، فأثخن فيهم بالقتل والسبي . واستكثر من رؤسهم فعلّقت بشرافات مراكش وسجلماسة وفاس . وعاد من غزوه إلى مراكش آخر شوّال ، فنكب محمد بن علي بن محلى عاملها القديم الولاية عليها من لدن غلب الموحدين ، لما وقع من الارتياب بأولاد محلى لما آتاهم كبيرهم طلحة ، فنكب غرّة المحرّم من سنة سبع وثمانين وستمائة . وهلك في محبسه لشهر صفر بعده . وهلك على ذلك المزوار قاسم بن عتوّ[1] . وعقد السلطان على مراكش وأعمالها لمحمد بن عطو الجاناتي من موالي دولتهم ولاء الحلف . وترك معه ابنه أبا عامر . ثم ارتحل إلى حضرة فاس ، فاحتل بها منتصف ربيع ، ووافته بها عرسه بنت موسى بن رحّو بن عبدالله بن عبد الحق من غرناطة في وفد من وزراء ابن الأحمر وأهل دولته ، فأعرس بها وكان بعث إلى أبيها من قبل في الاصهار بها . ووافت معها رسل ابن الأحمر يسألونه التجافي عن وادي آش ، فأسعفهم بها ، كما نذكره إن شاءالله تعالى والله أعلم .

* (الخبر عن دخول وادي آش في طاعة السلطان ثم رجوعها الى طاعة ابن الاحمر) *

كان أبو الحسن بن أشقيلولة ظهير السلطان ابن الأحمر على ملكه ، ومعينه على شأنه ، وكان له في الدولة بذلك مكان . ولما هلك خلف من الولد أبا محمد عبدالله وأبا

(١) وفي نسخة ثانية : قاسم بن عتّو.

اسحق ابراهيم ، فعقد ابن الأحمر لأبي محمد على مالقة ولأبي اسحق على قمارش ووادي آش . ولما هلك السلطان ابن الأحمر حدثت مغاضبات ومنافسات بينهما وبينه ، وتأدى ذلك إلى الفتنة كما قلناه ودخل أبو محمد في طاعة السلطان أبي يوسف . ثم هلك فلحق ابنه محمد بالسلطان ، ونزل له عن البلد سنة ست وسبعين وستمائة ثم هلك أبو اسحق سنة إثنتين وثمانين وستمائة وغلب ابن الأحمر على حصن قمارش وصار إليه . وكان الرئيس أبو اسحق قد عقد لإبنه أبي الحسن على وادي آش وحصونها ، واتصلت الفتنة بينه وبين ابن الأحمر ، وظاهر أبو الحسن عليه الطاغية وأجلب أخوه أبو محمد معه على غرناطة هو وابن الدليل . وطال أمر الفتنة بينهما وبين ابن الأحمر . ثم انعقد السلم بين المسلمين والنصارى ، وخشي أبو محمد بن أشقيلولة على نفسه عادية ابن الأحمر ، فتذمم بطاعة صاحب المغرب ، وأقام دعوته بوادي آش سنة ست وثمانين وستمائة فلم يعرض لها ابن الأحمر حتى اذا وقعت المواصلة بينه وبين ابن السلطان أبي يعقوب ، وكان شأن هذا الصهر على يده ، بعث رسله إلى السلطان يسأله التجافي عن وادي آش ، فتجافى له عنها وبعث إلى أبي الحسن بن أشقيلولة بذلك فتركها . وارتحل إليه سنة سبع وثمانين وستمائة ولقيه بسلا ، فأعطاه القصر الكبير وأعماله طعمة سوّغه إياها . ثم نزل لبنيه آخر دولتهم . واستمكن ابن الأحمر من وادي آش وحصونها ، ولم يبق له بالأندلس منازع من قرابته . والله يؤتي ملكه من يشاء ، والله أعلم .

* (الخبر عن خروج الامير أبي عامر ونزوعه الى مراكش ثم فيئته الى الطاعة) *

لما احتل السلطان بفاس وأقام بها خرج عليه ابنه أبو عامر ، ولحق بمراكش ، ودعا لنفسه أخريات شوال من سنة سبع وثمانين وستمائة وساعده على الخلاف والانتزاء عاملها محمد بن عطّو. وخرج السلطان في أثره إلى مراكش ، فبرز إلى لقائه ، فكانت الدائرة عليهم وحاصرهم السلطان بمراكش أياماً . ثم خلص أبو عامر إلى بيت المال فاستصفى ما فيه وقتل المشرف ابن أبي البركات ، ولحق بجبال المصامدة ، ودخل السلطان من غده إلى البلد يوم عَرَفَة ، فعفا وسكن ونهض منصور ابن أخيه

الأمير أبو مالك من السوس إلى حاجة فدوّخ انحاءها . ثم سرّح إليه المدد من مراكش ، فأوقعوا بوكنة[1] من برابرة السوس ، وقتل منهم ما يناهز أربعين من سرواتهم . وكان فيمن قتل منهم شيخهم حيون[2] بن ابراهيم . ثم إنّ ابنه أبا عامر ضاق ذرعه بسخط أبيه وإجلابه في الخلاف ، فلحق بتلمسان ومعه وزيره ابن عطو فاتح سنة ثمان وثمانين وستمائة فآواهم عثمان بن يغمراسن ، ومهّد لهم المكان ولبثوا عنده أياماً. ثم عطف السلطان على ابنه رحم لما عطفت ابنته عليه ، فرضي عنه وأعاده إلى مكانه ، وطالب عثمان بن يغمراسن أن يسلم إليه ابن عطو الناجم في النفاق مع ابنه ، فأبى من إضاعة جواره وإخفار ذمّته ، وأغلظ له الرسول في القول فسطا به واعتقله ، فثارت من السلطان الحفائظ الكامنة ، وتحركت الأحن القديمة ، والنزلات المتوارثة . واعتزم على غزو تلمسان والله أعلم .

* (الخبر عن تجدد الفتنة مع عثمان بن يغمراسن وغزو السلطان مدينة تلمسان ومنازلته اياها) *

كانت الفتنة بين هذين الحيّين قديمة من لدن مجالاتهم بالقفر من حمراء ملويّة إلى صا ، إلى فيكيك ، ولما انتقلوا إلى التلول وتغلّبوا على الضواحي بالمغرب الأقصى والأوسط ، لم تزل فتنتهم متّصلة وأيام حروبهم فيها مذكورة . وكانت دولة الموحدين عند اختلالها والتياثها تستنصر منهم بالتضريب بينهم والفتنة ، فتأكدت لذلك أحوالها واتصلت أيامها . وكان بين يغمراسن بن زيّان وأبي يحيى بن عبد الحق فيها وقائع ومشاهد ، نقلنا منها بعضاً من كل . واستظهر الموحدون بيغمراسن عليه في بعضها . وكان الغلب أكثر ما يكون لأبي يحيى بن عبد الحق لوفور قبيلة . إلاّ أنّ يغمراسن كان يتصدّى لمقاومته في سائر وقائعه . ولما طمس أثر بني عبد المؤمن واستولى يعقوب ابن عبد الحق على ملكهم ، وصارت في جملته عساكرهم ، وتضاعف عليه ، وأسف على ملك يغمراسن ملكه . وجمع له فأوقع به في تلاغ الواقعة المعروفة . ثم أوقع به ثانية وثالثة . ولما استوت قدم يعقوب بن عبد الحق في ملكه ، واستكمل فتح

(١) كذا في النسخة الباريسية وفي نسخة أخرى : زكنة .
(٢) كذا في النسخة الباريسية وفي نسخ أخرى : حبون ــ حبور ــ حنون .

المغرب وسائر أمصاره ، وكبح يغمراسن عن التطاول إلى مقاومته ، وأوهن قواه بفلّ جموعه ومنازلته في داره ، ومظاهرة أقتاله من زناتة بني توجين ومغراوة عليه. فانصرف بعد ذلك إلى الجهاد ، فكان له فيه شغل عمّا سواه كما نقلناه في أخباره. ولما انصرف ارتاب ابن الأحمر بمكان السلطان يعقوب بن عبد الحق من الأندلس ، وحذّره على ملكه ، وتظاهر مع الطاغية على منعه من الإجازة إلى عدوتهم ، ثم خشوا أن لا يستقلوا بمدافعته ، فراسلوا يغمراسن في الأخذ بحجزته. وأجابهم إليها وجرّد عزائمه لها ، واتصلت أيديهم في التظاهر عليه. ثم فسد ما بين ابن الأحمر والطاغية ولم يكن له بدّ من ولاية يعقوب بن عبد الحق ، فتولى[1] بواسطة ابنه يوسف بن يعقوب كما ذكرناه وأطلعوه على خباء يغمراسن في مظاهرتهم ، فأغزاه سنة تسع وسبعين وستمائة وهزمه بخرزونة[2] . ونازله بتلمسان ووطأ عدوّه من بني توجين بساحته كما ذكرناه. ثم انصرف إلى شأنه من الجهاد ، وهلك يغمراسن بن زيّان على تفيئة ذلك سنة إحدى وثمانين وستمائة ، وأوصى ابنه عثمان ولي عهده ، زعموا أن لا يحدّث نفسه بمقاومة بني مرين ومساماتهم في الغلب ، وأن لا يبرز إلى لقائهم بالصحراء ، وأن يلوذ منهم بالجدران متى سموا إليه. وألقى إليه ، زعموا أنّ بني مرين بعد تغلّبهم على مراكش ، وانضياف سلطان الموحدين إلى سلطانهم ، ازدادت قوّتهم وتضاعف غلبهم. وقال له زعموا فيما أوصاه. ولا يغرّنك أني رجعت إليهم بعدها ، وبرزت إلى لقائهم ، فإني أنفت أن أرجع عن مقاومتهم بعد اعتيادها ، وأترك مبارزتهم وقد عرفها الناس. وأنت لا يضرّك العجز عن مبارزتهم والنكول عن لقائهم ، فليس لك في ذلك مقام معلوم ، ولا عادة سالفة ، واجهد جهدك في التغلّب على أفريقية وراءك ، فإن فعلت كانت المناهضة. وهذه الوصاة زعموا هي التي حملت عثمان وبنيه من بعده على طلب ملك أفريقية ، ومنازلة بجاية وحربهم مع الموحدين. ولمّا هلك يغمراسن ذهب ابنه إلى مسالمة بني مرين ، فبعث أخاه محمداً إلى السلطان يعقوب بن عبد الحق ، وأجاز البحر إليه بالأندلس. ووافاه بأركش في إجازته الرابعة سنة أربع وثمانين وستمائة فعقد له ما جاء إليه من السلم والمهادنة ، ورجّعه إلى أخيه وقومه ممتلئاً كرامةً وسروراً. وهلك يعقوب بن عبد الحق أثر ذلك سنة خمس وثمانين

---

(١) وفي نسخة ثانية : فتولاه.

(٢) وفي نسخة ثانية : خرزوزة.

وسبعمائة وقام بالأمر إبنه يوسف بن يعقوب . وانتزى الخوارج عليه بكل جهة ، فشمّر لهم واستنزلهم وحسم أدواءهم . ثم خرج عليه ابنه آخراً كما ذكرناه بممالأة وزير السلطان محمد بن عطّو. ثم فاء إلى طاعة أبيه ورضي عنه ، وأعاده إلى مكانه من حضرته . وطالب عثمان بن يغمراسن كما ذكرناه في ابن عطو المنتزي عليه مع ابنه ، فأبى عثمان من تسليمه وتحركت حفيظة السلطان واعتزم على غزوهم ، فارتحل من مراكش لصفر من سنة سبع وثمانين[1] وعقد عليها لإبنه الأمير أبي عبد الرحمن . ثم نهض لغزاته من فاس آخر ربيع من سنته في عساكره وجنوده ، وحشد القبائل وكافة أهل المغرب ، وسار حتى نزل تلمسان فانحجز عثمان وقومه بها ، ولاذوا منه بجدرانها . فسار في نواحيها ينسف الآثار ويخرب العمران ويحطم الزرع . ثم نزل بذراع الصابون بساحتها . ثم انتقل منه إلى تامة[2] وحاصرها أربعين يوماً ، وقطع أشجارها ، وأباد خضراءها . ولما امتنعت عليه أفرج عنها وانكفأ راجعاً إلى المغرب . وقضى نسك الفطر بعين الصفا من بلاد بني يرناتن ، ونسك الأضحى وقربانه بتازى ، وتلبّث بها ، ومنها كان فصوله للغزو عند انتقاض الطاغية كما نذكره إن شاءالله تعالى .

* (الخبر عن انتقاض الطاغية واجازة السلطان لغزوه) *

لما رجع السلطان من غزو تلمسان وافاه الخبر بأنّ الطاغية شانجة انتقض ونبذ العهد ، وتجاوز التخوم وأغار على الثغور ، فأوعز إلى قائد المسالح علي بن يوسف بن يزكاسن بالدخول إلى دار الحرب ومنازلة شريش . وشنّ الغارات على بلاد الطاغية ، فنهض لذلك في ربيع الآخر مَن سنة تسعين وستمائة وجاس خلالها ، وتوغّل في أقطارها ، وأبلغ في النكاية . وفصل السلطان من تازى غازياً على أثره في جمادي ، واحتل قصر مصمودة ، واستنفر أهل المغرب وقبائله . ونفروا وشرع في إجازتهم البحر . وبعث الطاغية أساطيله إلى الزقاق حجزاً دون الإجازة ، فأوعز السلطان إلى قوّاد أساطيله بالسواحل فأغزاهم . والتقت الأساطيل ببحر الزقاق في شعبان فاقتتلوا وانكشف

(١) وفي نسخة ثانية : تسع وثمانين .
(٢) وفي نسخة ثانية : تمامة .

المسلمون ومحصهم الله . ثم أغزاهم ثانية وخامت أساطيل العدو عن اللقاء ، وصاعدوا عن الزقاق . وملكته أساطيل السلطان فأجاز أخريات رمضان واحتلّ بطريف. ثم دخل دار الحرب غازياً ، فنازل حصن بجير ثلاثة أشهر ، وضيّق عليهم . وبثّ السرايا في أرض العدو ، وردّد الغارات على شريش وإشبيلية ونواحيها إلى أن بلغ في النكاية والإثخان . وقضى من الجهاد وطراً ، وزاحمه فصل الشتاء وانقطاع الميرة عن العسكر ، فأفرج عن الحصن ورجع إلى الجزيرة . ثم أجاز إلى المغرب فاتح إحدى وتسعين وستمائة فتظاهر ابن الأحمر والطاغية على منعه كما نذكره إن شاءالله تعالى ، والله أعلم .

* (الخبر عن انتقاض ابن الأحمر ومظاهرته للطاغية على طريف اعادها الله للمسلمين) *

لما قفل السلطان من غزاته فاتح إحدى وتسعين وستمائة كما ذكرناه ، وقد أبلغ في نكاية العدوّ وأثخن في بلاده ، فأهمّ الطاغية أمره ، وثقلت عليه وطأته ، والتمس الوليجة من دونه . وحذّر ابن الأحمر غائلته ، ورأى أنّ مغبّة حاله الاستيلاء على الأندلس وغلبه على أمره ، ففاوض الطاغية وخلصوا نجيّا . وتحدّثوا أنّ استمكانه من الإجازة إليهم إنّما هو لقرب مسافة بحر الزقاق ، وانتظام ثغور المسلمين حفافيه لتصرف شوانيهم وسفنهم متى أرادوا فضلاً عن الأساطيل وأن أمّ تلك الثغور طريف ، وأنهم اذا استمكنوا منها كانت ربيئة لهم على بحر الزقاق . وكان أسطولهم بمرقاها بمرصد الأساطيل صاحب المغرب الخائضين لجّة ذلك البحر ، فاعتزم الطاغية على منازلة طريف . وزعم له ابن الأحمر بمظاهرته على ذلك ، وشرط له المدد والميرة لأقوات العسكر أيام منازلتها ، على أن تكون له إن خلصت . وتعاونوا على ذلك وأناخ الطاغية بعساكر النصرانية على طريف . وألحّ عليها بالقتال ونصب الآلات وانقطع عنها المدد والميرة . واحتلت أساطيله ببحر الزقاق ، فحالفوا دون الصريخ من السلطان وإخوانهم المسلمين . وضرب ابن الأحمر معسكره بمالقة قريباً منه ، وسرّب إليه المدد من السلاح والرجال والميرة من الأقوات ، وبعث عسكراً لمنازلة حصن أصطبونة ، وتغلّب عليه بعد مدة من الحصار . واتصلت هذه الحال أربعة أشهر حتى أصاب

أهل طريف الجهد ، ونال منهم الحصار ، فراسلوا الطاغية في الصلح والنزول عن البلد ، فصالحهم واستنزلهم سنة إحدى وتسعين وستمائة ووفّى لهم بعهده . واستشرف ابن الأحمر إلى تجافي الطاغية عنها لما عقدوا عليه ، فأعرض عن ذلك واستأثر بها بعد أن كان نزل له عن ستة من الحصون عوضاً منها ، ففسد ذات بينهما ، ورجع ابن الأحمر إلى تمسّكه بالسلطان واستعانته به لأهل ملّته على الطاغية . وأوفد ابن عمّه الرئيس أبا سعيد فرج بن اسمعيل بن يوسف ووزيره أبا سلطان عزيز الداني في وفد من أهل حضرته لتجديد العهد وتأكيد المودّة وتقرير المعذرة عن شأن طريف . فوافوه بمكانه من منازلة تازوطا كما يذكر بعد . فأبرموا العقد وأحكموا الصلح وانصرفوا إلى ابن الأحمر سنة إثنتين وتسعين وستمائة بأسعاف غرضه من المواخاة واتصال اليد . وهلك خلال ذلك قائد المسالح بالأندلس علي بن يزكاسن في ربيع الأوّل سنة إثنتين وتسعين وستمائة وعقد السلطان لإبنه ولي عهده ، الأمير أبي عامر على ثغور الأندلس التي في طاعته ، وعهد له بالنظر في مصالحها . وأنفذه إلى قصر المجاز بعسكره فوافاه هنالك السلطان ابن الأحمر كما يذكر إن شاءالله تعالى ، والله أعلم .

* (الخبر عن وفادة ابن الاحمر على السلطان والتقائهما بطنجة) *

لما رجعت الرسل الى ابن الأحمر ، وقد كرّمت وفادتهم وقضيت حاجتهم ، وأحكمت في المواخاة مقاصدهم ، وقع ذلك من ابن الأحمر أجمل موقع ، وطار سروراً من أعواده . وأجمع الرحلة إلى السلطان لإحكام الودّ والاستبلاغ في العذر عن واقعة طريف وشأنها ، واستعدادهم لإغاثة المسلمين ونصرهم من عدوّهم . فاعتزم على ذلك وأجاز البحر ذا القعدة سنة إثنتين وتسعين وستمائة واحتل بنيونش من ساحة سبتة . ثم ارتحل إلى طنجة ، وقدّم بين يدي نجواه هدية سنيّة أتحف بها السلطان ، كان من أحفلها وأحسنها موقعاً لديه فيما زعموا المصحف الكبير ، أحد مصاحف عثمان ابن عفّان أحد الأربعة المنبعثة إلى الآفاق ، المختص هذا منها بالمغرب ، كما نقله السلف . كان بنو أمية يتوارثونه بقرطبة ، فتلقاه الأمير أبو عامر هنالك ، وأخوه الأمير

أبو عبد الرحمن ابنا السلطان واحتفلا في مبرّته . ثم جاء السلطان على أثرهما من حضرته لتلقّيه وبرور مقدمه ، ووافاه بطنجة ، وبلغ في تكرمته وبرّ وفادته ما يكرّم به مثله . وبسط ابن الأحمر العذر عن شأن طريف فتجافى السلطان عن العذل وأعرض عنه وقبل منه . وبرّ واحتفى ووصل وأجزل ، ونزل له ابن الأحمر عن الجزيرة ورندة والغربيّة وعشرين حصناً من ثغور الأندلس كانت من قبل لطاعة صاحب المغرب ونزل عساكره . وعاد ابن الأحمر إلى الأندلس خاتم إثنتين وتسعين وستمائة محبوًّا محبوراً . وأجازت عساكر السلطان معه لحصار طريف وعقد على حربها ومنازلتها لوزيره الطائر الذكر عمر بن السعود بن الخرباش الجشمي ، فنازلها مدّة ، وامتنعت فأفرج عنها . وصرف السلطان همّته إلى غزو تلمسان وحصارها . كما يذكر إن شاءالله تعالى .

* (الخبر عن انتزاء الوزير الوساطي بحصن تازوطا من جهات الريف واستنزال السلطان اياه) *

كان بنو الوزير هؤلاء رؤساء بني واطاس من قبل بني مرين ، ويرون أن نسبهم دخيل في بني مرين . وأنّهم من أعقاب علي بن يوسف بن تاشفين لحقوا بالبدو ونزلوا على بني واطاس ، ورسخت فيهم عروقهم حتى لبسوا جلدتهم . ولم يزل السرو متربعاً بين أعينهم لذلك ، والرياسة شامخة بأنوفهم . وكانوا يرومون الفتك بالأمراء من أولاد عبد الحق ، فلم يطيقوه . ولما احتلّ السعيد بتازي غازياً إلى تلمسان كما ذكرناه ، ولحق ببلدهم الأمير أبو يحيى بن عبد الحق ائتمروا في الفتك به . ونذر بشأنهم فارتحل ، ففرّوا إلى غبولة وعين الصفا من بلاد بني يزناسن ، وهنالك بلغه خبر مهلك السعيد . وكانت بلاد الريف لبني واطاس من لدن دخول بني مرين المغرب واقتسامهم لأعماله فكانت ضواحيها لنزلهم وأمصارها ورعاياها لجبايتهم . وكان حصن تازوطا بها من أمنع المعاقل بالمغرب وكان الملوك من أولاد عبد الحق يعتنون بشأنه ، وينزلونه من أوليائهم من يثقون بغنائه واطلاعه ، ليكون آخذاً بناصية هؤلاء الرهط . وشجا في صدورهم عمّا يسيمون إليه . وكان السلطان قد عقد عليه لمنصور ابن أخيه الأمير أبي مالك بعد مهلك ابنه أمير المسلمين يعقوب بن عبد الحق . وكان عمر بن يحيى ابن الوزير وأخوه

عامر رئيسين على بني واطاس لذلك العهد ، فاستوهنوا أمر السلطان بعد مهلك أبيه ، وحدّثوا أنفسهم بالانتزاء بتازوطا والاستبداد بتلك الناحية ، فوثب عمر منهم بمنصور ابن أخي السلطان شهر شوال من سنة إحدى وتسعين وسبّمائة وفتك برجاله وذويه وأزعجه عنها ، وغلبه على مال الجباية الذي كان بقصره ، فاستصفاه واستأثر به . واستبدّ وشحن الحصن برجاله وحاشيته ووجوه قومه . ووصل منصور إلى السلطان وهلك لليال من منجاته أسفاً لما أصابه . وسرّح السلطان وزيره الطائر الذكر عمر بن السعود بن خرباش بالعساكر لمنازلته فأناخ عليه . ثم نهض السلطان على أثره ووافاه واضطرب معسكره بساحته . وخالف عامر أخاه عمر إلى السلطان بقومه حذراً من مغبّة الأمر ، وأشفق عمر لشدّة الحصار ويئس من الخلاص ، وظنّ أن قد أحيط به ودسّ إلى أخيه عامر ، فاستأذن السلطان في مداخلته في الدخول على الحصن فأذن له . واحتمل ذخيرته وفرّ إلى تلمسان . وبدا لعامر في رأيه عندما خلص إلى الحصن وخلاله من أخيه عمر الجوّ . وحذر غائلة السلطان وخشي أن يثأر منه بابن أخيه ، فامتنع بالحصن . ثم ندم وسقط في يده ، وفي خلال ذلك كان وصول وفد الأندلس ، وأرسوا أساطيلهم بمرسى غساسة ، فبعث إليهم عامر أن يشفعوا له عند السلطان لوجاهتهم لديه ، فتقبّلت شفاعتهم على شريطة إجازته إلى الأندلس ، وكره ذلك وقدّم بين يديه بعض حاشيته إلى الأسطول مكراً بهم ، وخاض الليل إلى تلمسان ، وتقبّض السلطان على ولده وقتل . وأسلم أهل الاسطول من كان من حاشيته لديهم ، وتجافوا عن إجازتهم على السلطان لما مكر بهم عامر فامر فاستلحموا مع من كان بالحصن من أتباعهم وقرابتهم وذريّاتهم[1] وتملّك السلطان حصن تازوطا وأنزل به عمّاله ، ومسلحته وقفل إلى حضرته بفاس آخر جمادى من سنة إثنتين وتسعين وسبّمائة والله تعالى أعلم .

* (الخبر عن نزوع أبي عامر ابن السلطان الى بلاد الريف وجهات غمارة) *

كان الأمير أبو عامر بعد إجازة ابن الأحمر إلى السلطان أبيه ورضاه عنه ، وتأكيد

(۱) في نسخة ثانية : ذويهم .

مؤاخاته وإغراء وزيره بمنازلة طريف ، واستنزاله أولاد الوزير المنتزين بحصن تازو. رجع من قصر مصمودة إلى بلاد الريف بإيعاز أبيه إليه بذلك لتسكين أحوالها . وكان أولاد الأمير أبي يحيى بن عبد الحق قد نزعوا إلى تلمسان لسعاية فيهم ، وقرت في صدر السلطان ، فأقاموا بها أياماً ، ثم استعطفوا السلطان واسترضوه ، فرضي وأذن لهم في الرجوع في محلّهم من قومهم ودولتهم . وبلغ الخبر الأمير أبا عامر وهو بمعسكره من الريف ، فأجمع على اغتيالهم في طريقهم فظنّ أنه يرضي بذلك أباه . واعترضهم بوادي القطف من ملويّة سنة خمس وتسعين وستمائة فاستلحمهم وانتهى الخبر إلى السلطان فقام في ركائبه وقعد ، وتبرأ إلى ابنه[1] من إخفار ذمّته . ومن صنيع ابنه . وسخطه وأقصاه ، فذهب مغاضباً ولحق ببلاد الريف . ثم صعد إلى جبل غمارة ، فلم يزل طريداً بينهم . ونازلته عساكر أبيه لنظر ميمون بن وردار[2] الجَشْمِيّ ، ثم لنظر يرزيكن بن المولاة تاميمونت . وأوقع بهم مراراً آخرها بيرزيكن سنة سبع وتسعين وستمائة ، وذكر الربجي[3] مؤرّخ دولتهم أنّ خروجه بجبل غمارة كان سنة أربع وتسعين وستمائة وقتله لأولاد الأمير أبي يحيى كان سنة خمس وتسعين وستمائة بعدها أغزاهم[4] من مثوى انتزائه ، وقتلهم كما ذكرناه والله أعلم . ولم يزل هذا دأبه إلى أن هلك ببني سعيد من جبال غمارة سنة ثمان وتسعين وستمائة ونقل شلوه إلى فاس فووري بباب الفتوح ملحد قومهم هنالك . وأعقب ولدين نقلهما السلطانْ جدّهما ، فكانا الخليفتين من بعده ملى ما نذكره إن شاءالله تعالى والله أعلم .

* (الخبر عن حصار تلمسان الكبير وما تخلل ذلك من الاحداث) *

كان عثمان بن يغمراسن بعد إفراج السلطان سنة تسع وثمانين وستمائة وانتقاض الطاغية

(١) وفي نسخة ثانية : إلى الله .
(٢) كذا في النسخة الباريسية وفي نسخة أخرى : وردان .
(٣) وفي نسخة ثانية : الزليخي .
(٤) كذا في النسخة الباريسية وفي نسخة أخرى : أغرابهم من مثوى انتزائه .

وابن الأحمر عليه كما قلناه ، صرف إلى ولايتها وجه تدبيره وأوفد على الطاغية ابن بريدي من صنائع دولته سنة إثنتين وتسعين وستمائة ووجّهه الطاغية مع الريك ريكسن رسول من كبار قومه . ثم عاد إليه الحاج مسعود من حاشيته ، ووصل يده بيده يظنّ ذلك دافعاً عنه . واعتدّها السلطان عليه وطوى له على النثّ . حتى اذا فرغ من شأن الأندلس وهلك الطاغية شانجة سنة ثلاث وتسعين وستمائة لإحدى عشرة من سني ملكه ، وارتحل السلطان إلى طنجة لمشارفة أحوال الأندلس سنة أربع وتسعين وستمائة فأجاز إليه السلطان ابن الأحمر ولقيه بطنجة ، وأحكم معه المؤاخاة . ولما استيقن سكون أحوالها ، نزل لابن الأحمر عن جميع الثغور التي بها الطاغية ، وأجمع غزو تلمسان ، ولحق به بين يدي ذلك ثابت بن منديل المغراوي صريخاً على ابن يغمراسن ومستجيشاً بقومه فتقبله وأجاره .

وكان أصاب الناس أعوام إثنتين وتسعين وستمائة قحط ، ونالتهم سنة وهنوا لها . ثم أنّ الله رحم خلقه وأدرّ نعمته ، وأعاد الناس إلى ما عهدوه من سبوغ نعمهم وخصب عيشهم . ووفد عليه سنة أربع وتسعين وستمائة ثابت بن منديل أمير مغراوة مستصرخاً به من عثمان بن يغمراسن ، فبعث من كبار قومه موسى بن أبي حمّو إلى تلمسان شفيعاً في ثابت بن منديل فردّه عثمان أقبح ردّ وأساء في إجابته ، فعاود الرسالة إليهم في شأنه ، فلم يزدهم إلاّ إصراراً[1] فاعتزم على غزو بلادهم واستعدّ لذلك ، ونهض سنة أربع وتسعين وستمائة حتى انتهى إلى بلاد تاوريرت ، وكانت تخماً لعمل بني مرين وبني عبد الواد في جانبها عامل السلطان أبي يعقوب ، وفي جانبها الآخر عامل عثمان بن يغمراسن . فطرد السلطان عامل ابن يغمراسن وتميز بها ، واختطّ الحصن الذي هنالك لهذا العهد . تولاه بنفسه يغادي الفعلة ويراوحهم ، وأكمل بناءه في شهر رمضان من سنته . واتخذه ثغراً لملكه ، وأنزل بني عسكر لحياطته وسدّ فروجه . وعقد عليهم لأخيه أبي يحيى بن يعقوب ، وانكفأ راجعاً إلى الحضرة .

ثم خرج من فاس سنة خمس وتسعين وستمائة غازياً إلى تلمسان ، ومرّ بوجدة ، فهدم أسوارها وتغلّب على مسيفة والزغاوة[2] . وانتهى إلى ندرومة ، ونازلها أربعين يوماً ورماها بالمنجنيق . وضيّق عليها وامتنعت عليه فأفرج عنها ثاني الفطر . ثم أغزى

(١) وفي نسخة ثانية : فلم تزدهم إلا ضراراً .

(٢) وفي نسخة ثانية : الزغارة .

تلمسان سنة ست وتسعين وستمائة وبرز لمدافعته عثمان بن يغمراسن ، فهزمه وحجزه بتلمسان ، ونزل بساحتها وقتل خلقاً من أهلها ، ونازلها أياماً . ثم أقلع عنها وقفل إلى المغرب وقضى منسك الأضحى من سنته بتازى . فأعرس هنالك لحافدة أبي ثابت ابن منديل ، كان أصهر فيها إلى جدّها قبل مهلكه سنة ست وتسعين وستمائة قتيلاً ببحيرة الزيتون من ظاهر فاس . قتله بعض بني ورتاجن في دم كان لهم في قومه ، فثأر السلطان به من قاتله وأعرس بحافدته . وأوعز ببناء القصر بتازى ، وقفل إلى فاس فاتح سنة سبع وتسعين وستمائة . ثم ارتحل إلى مكناسة وانكفأ إلى فاس . ثم نهض جمادى غازياً تلمسان ومرّ بوجدة فأوعز ببنائها وتحصين أسوارها ، واتخذ بها قصبة وداراً لسكناه ومسجداً وأغزى إلى تلمسان ، ونزل بساحتها ، وأحاطت عساكره إحاطة الهالة بها ، ونصب عليها القوس البعيدة النزع العظيمة الهيكل المسمّاة بقوس الزيار ازدلف إليه الصنّاع والمهندسون بعملها ، وكانت توقر على أحد عشر بغلاً . ثم لما امتنعت عليه تلمسان أفرج عنها فاتح سنة ثمان وتسعين وستمائة ومرّ بوَجْدَة ، فأنزل بها الكتائب من بني عسكر لنظر أخيه أبي يحيى بن يعقوب كما كانوا بتاوريرت ، وأوعز إليهم بترديد الغزاة على أعمال ابن يغمراسن وإفساد سابلتها.وضاقت أحوالهم ويئسوا من صريخ صاحبهم ، فأوفدوا على الأمير أبي يحيى وفداً منهم يسألون الأمان بمن وراءهم من قومهم ، على أن يمكّنوه من قياد بلدهم ، ويدينوا بطاعة السلطان ، فبذل لهم من ذلك ما أرضاهم ، ودخل البلد بعساكره ، واتبعهم أهل تاوونت وأوفد مشيختهم جميعاً على السلطان آخر جمادى ، فقدموا عليه لحضرته وأدّوا طاعتهم ، فقبلها . ورغبوا إليه في الحركة إلى بلادهم ليريحهم من ملكة عدوّه وعدوّهم ابن يغمراسن ، ووصفوا من عسفه وجوره وضعفه عن الحماية ، ما استنهض السلطان لذلك على ما يذكر إن شاءالله تعالى ، والله أعلم .

* (الخبر عن الحصار الكبير لتلمسان وما تخلل ذلك من الأحداث) *

لما توفّرت عزائم السلطان عن النهوض إلى تلمسان ، ومطاولة حصارها إلى أن يظفر بها وبقومها ، واستيقن أنه لا مدافع له عن ذلك ، نهض من فاس شهر رجب من سنة

ثمان وتسعين وستمائة بعد أن استكمل حشده . ونادى في قومه ، واعترض عساكره وأجزل أعطياتهم وأزاح عللهم . وارتحل في التعبية واحتل بساحة تلمسان ثاني شعبان وأناخ عليها وضرب معسكره بفنائها . وحجز عثمان بن يغمراسن وحاميتها من قومه ، وأدار الأسوار سياجاً على عمرانها كلّه ، ومن ورائها نطاق الحفير البعيد المهوى . ورتّب المسالح على أبوابها وفُرَجِهَا ، وسرّح عساكره لمحاصرتها فاقتحموها[1] وآتوا طاعتهم ، وأوفد مشيختهم وسط شعبان . ثم سرّح عساكره لمحاصرة وَهْرَان وتقرّى البسائط ومنازلة الأمصار ، فأخِذَت مازونة في جمادى الآخرة من سنة تسع وتسعين وستمائة وتنس في شعبان بعده ، وتالموت[2] والقصبات وتامزردكت في رمضان منه ، وفيه كان فتح مدينة وَهْرَان . وسارت عساكره في الجهات إلى أن بلغت بجاية كما نذكره . وأخذ الرعب بقلوب الأمم بالنواحي ، وتغلّب على ضواحي مغراوة وتوجين ، وسارت فيها عساكره ودوّختها كتائبه ، واقتحمت أمصارها مثل مليانة ومستغانم وشرشال والبطحاء ووانشريش والمرية[3] وتافركينت ، وأطاعه زيري المنتزي ببرشك . وأتى بيعته ، وابن علان المنتزي بالجزائر . وأزعج الناكثين منهم عن طاعته ، واستألف أهل الطاعة[4] كما نذكره . وحذره الموحدون من ورائهم بأفريقية ملوك بجاية وملوك تونس ، فمدّوا إليه يد المواصلة ولاطفوه بالمتاحفة والمهاداة كما نذكره ، وخاطب صاحب الديار المصرية ملك الترك وهاداه وراجعه كما نذكره ، ووفد عليه شرفاء مكة بني أبي نمى كما نذكر . وهو في خلال ذلك مستجمع للمطاولة بالحصار والتضييق ، متجافٍ عن القتال إلاّ في بعض الأيام ، ولم تبلغ أربعة أو خمسة ينزل شديد العقاب والسطوة بمن يميرها ويأخذ بالمرصاد على من يتسلّل بالأقوات اليها . قد جعل سرداق الأسوار المحيطة ملاكاً لأمره في ذلك ، فلا يخلص إليهم الطيف ولا يكاد يصل إليهم العيث مدّة مقامه عليها ، إلى أن هلك بعد مائة شهر كما نذكره . واختطّ بمكان فسطاط المعسكر قصراً لسكناه ، واتّخذ به مسجداً لمصلاّه وأدار عليها السور ، وأمر الناس بالبناء فبنوا الدور الواسعة والمنازل الرحيبة

(١) وفي نسخة ثانية : وسرّح عساكره الى هنين فافتتحها .
(٢) وفي نسخة ثانية : تاللوت .
(٣) وفي نسخة ثانية : المدية .
(٤) كذا في النسخة الباريسية وفي نسخ أخرى : أهل الظاعنة . وأهل الصاغية وأهل الطاغية .

والقصور الأنيقة ، واتخذوا البساتين وأجروا المياه . ثم أمر بادارة السور سياجاً على ذلك سنة إثنتين وسبعمائة ، وصيّرها مصراً ، فكانت من أعظم الأمصار والمدن وأحفلها اتساع خطة وكثرة عمران ونفاق أسواق ، واحتفال بناء وتشييد منعة . وأمر باتخاذ الحمامات والمارستان ، وابتنى مسجداً جامعاً ، وشيّد له مأذنة رفيعة ، فكان من أحفل مساجد الأمصار وأعظمها ، وسمّاها المنصورة ، واستبحر عمرانها ونفقت أسواقها(١) ، ورحل إليها التجار بالبضائع من الآفاق فكانت إحدى مدائن المغرب . وخرّبها آل يغمراسن عند مهلكه ، وارتحال كتائبه عنها ، بعد أن كان بنو عبد الواد أشرفوا على الهلاك ، وأذنوا بالانفراض كما نذكره ، فتداركهم من لطف الله ما شأنه أن يتدارك المتورطين في المهالك ، والله غالب على أمره .

* (الخبر عن افتتاح بلاد مغراوة وما تخلل ذلك من الأحداث) *

لما أناخ السلطان على تلمسان وتغلّب على ضواحي بني عبد الواد ، وافتتح أمصارهم ، سما إلى التغلّب على ممالك مغراوة وبني توجين . وكان ثابت بن منديل قد وفد على السلطان بمقرّ ملكه من فاس سنة أربع وتسعين وستمائة وأصهر إليه في حافدته ، فعقد له عليها . وهلك ثابت بمكان وفادته من دولتهم ، وأعرس السلطان بحافدته سنة ست وتسعين وستمائة كما ذكرنا ذلك من قبل ، فلمّا تغلّب السلطان على مال بني عبد الواد جهّز عساكره إلى بلاد مغراوة ، وعقد عليها لعلي بن محمد من عظماء بني ورتاجن ، فتغلّبوا على الضواحي وشرّدوا مغراوة إلى رؤوس المعاقل . واعتصم راشد بن محمد بن ثابت بن منديل صهر السلطان بمليانة فنازلوه بها . ثم استنزلوه على الأمان تسع وتسعين وستمائة فأوفدوه على السلطان ، فلقاه مبرّةً وتكرمةً ، وخلطه بجملته (لمكان) صهره معه . ثم افتتحوا مدينة تدلس(٢) ومازونة وشرشال . وأعطى زيري بن حمّاد المنتزي على برشك من بلادهم يد الطاعة . وأوفد على السلطان للبيعة ، واستولوا على ضواحي شلف كلّها . ولاذت مغراوة بطاعة السلطان .

---

(١) وفي نسخة ثانية : وهالت اسواقها .

(٢) وفي نسخة ثانية : تنس .

وعقد عليهم وعلى جميع بلادهم لعمر بن ويفرن بن منديل فآسف ذلك راشد بن محمد لِمَا كان يراه لنفسه من الاختصاص . ولِمَا كانت أُخته حظيّة السلطان وكريمته ، ونافس عمر بن ويفرن في إمارة قومه ، فلحق بجبال متيجة ، وأجلب على من هنالك من عمّال السلطان وعساكره وانحاش إليه مرضى القلوب من قومه ، فاعصوصبوا عليه . وداخلوا أهل مازونة فانتقضوا على السلطان وملّكوه أمرهم في ربيع من المائة السابعة . ثم بيّت عمر بن ويفرن بمعسكره من أزمور ، فقتله واستباح المعسكر . وبلغ الخبر إلى السلطان ، فسرّح العساكر من بني مرين وعقد لعليّ بن الحسن بن أبي الطلاق على قومه من بني عسكر ، ولعليّ بن محمد الخيري على قومه من بني ورتاجن ، وجعل الأمر شورى بينهما ، وأشرك معهما علياً الحسّاني من صنائع دولته ، وأبا بكر بن ابراهيم بن عبد القوي من أعياص بني توجين . وعقد على مغراوة محمد بن عمر بن منديل ، وأشركه معهم ، وزحفوا إلى راشد . ولمّا أحس بالعساكر لجأ إلى معقل بني بو سعيد فيمن معه من شيعة مغراوة . وأنزل بما زونة علياً وحمّو إبني عمه يحيى بن ثابت ، واستوصاهم بضبط البلد ، وأنه مشرف عليهم من الجبل . وجاءت عساكر السلطان إلى بلاد مغراوة فتغلّبوا على البسائط وأناخوا بمازونة ، وضربوا معسكرهم بساحتها ، وأخذوا بمخنقها ، واهتبل عليّ وقومه غرّة في معسكر بني مرين فبيّتهم سنة إحدى وسبعمائة . وانفضّ المعسكر وتقبّض على علي بن محمد الخيري ، ثم امتنعوا عليه وعاد المعسكر إلى مكانهم من حصارهم ، وجهدهم حالهم فنزل إليهم حمّو بن يحيى على حكم السلطان . وأنفذوه إليه فتقبّض عليه . ثم نزل عليّ ثانية من غير عهد ، فأشخصوه إلى السلطان فلقاه مبرّةً وتكريماً ، تأنيساً الراشد المنتزي بمعقله . واقتحمت على أهلها عنوة سنة ثلاث وسبعمائة فمات منهم عالم واحتملت رؤوسهم إلى سدّة السلطان ، رؤسهم إلى سدّة السلطان ، فرميت في حفائر البلد المحصور إرهاباً لهم وتخذيلاً ، ولما عقد السلطان لأخيه أبي يحيى على بلاد الشرق وسرّحه لتدويخ التخوم ، نازل راشد بمعقله من بني بو سعيد ، فبيّت راشد معسكرهم إحدى لياليه ، فانفضّوا وقتل طائفة من بني مرين . ووجد السلطان لها فأمر بقتل عليّ وحمّو إبني عمه يحيى ، ومن كان معتقلاً معهما من قومهما . ورفعوا على الجذوع وأثبتوهم بالسهام ، ونزل راشد بعدها عن معقله ولحق بمتيجة ، وانحاش إليه منيف بن ثابت ، وأوشاب من مغراوة وتحيّز الآخرون إلى أميرهم محمد بن عمر بن منديل الذي عقد له السلطان

عليهم . ثم تأشبت على راشد ومنيف خوارج الثعالبة ومليكش ، وصمد إليهم الأمير ابو يحيى في عساكره ثانية ، ونازلهم بمعاقلهم ورغبوا في السلم ، فبذله السلطان لهم ، وأجاز منيف بن ثابت إلى الأندلس فيمن إليه من بنيه وعشيره ، فاستقرّوا بها آخر الأيام . ولحق راشد ببلاد الموحّدين ووفد محمد بن منديل سنة خمس وسبعمائة على السلطان ، فأوسعه حبًّا وتكريماً . وتمهّدت بلاد مغراوة واستبدّ بملكها السلطان ، وصرف إليها العمّال ، ولم يزل كذلك إلى أن هلك سنة ست وسبعمائة والله تعالى أعلم .

* (الخبر عن افتتاح بلاد توجين وما تخلل ذلك) *

لما نازل يوسف بن يعقوب تلمسان وأحاط بها ، وتغلّب على بني عبد الواد ، وسما إلى تملك بلاد توجين . وكان عثمان بن يغمراسن قد غلبهم على مواطنهم ، وملك جبل وانشريش وتصرّف في بني عبد القوي بالولاية والعزل وأخذ الأتاوة سنة إحدى وسبعمائة ، وأوعز إليه السلطان ببناء البطحاء التي هدمها محمد بن عبد القويّ ، فبناها وتوغّل في قاصية المشرق ، ثم انكفأ راجعاً إلى حضرة أخيه وعطف على بلاد بني توجين سنة إثنتين وسبعمائة وفرّ بنو عبد القوي إلى ضواحيهم بالقفر ، ودخل إلى جبل وانشريش وهدم حصونهم به ، ورجع إلى الحضرة . ثم بادر أهل تافركينت سنة ثلاث وسبعمائة بإيتاء طاعتهم[1] . وانتقضوا طاعتهم بعدها . ثم بعث أهل المرية بطاعتهم السلطان ، فتقبّلها وأوعز ببناء قصبتها . وراجع بنو عبد القوي بعد ذلك بصائرهم فدخلوا في طاعة السلطان ، ووفدوا عليه بمكانه من المنصورة مدينته المحيطة على تلمسان سنة ثلاث وسبعمائة فتقبّل طاعتهم ورعى سابقتهم ، وأعادهم إلى بلادهم وأقطعهم ، وولّى عليهم عليّ بن الناصر بن عبد القوي ، وأوعز ببناء قصبة المريّة سنة أربع وكملت سنة خمس وسبعمائة وهلك عليّ بن الناصر خلال ذلك ، فعقد عليهم لمحمد بن عطية الأصمّ كما ذكرناه . فاستمرّ على الطاعة ، ثم انتقض سنة ست وسبعمائة وحمل قومه على الخلاف ، وانتبذوا عن الوطن إلى أن هلك يوسف بن يعقوب كما نذكره إن شاءالله تعالى ، والله تعالى أعلم .

(١) وفي نسخة ثانية : باتيان الطاعة .

* (الخبر عن مراسلة الموحدين ملوك افريقية بتونس وبجاية لزناتة وأحوالهم معهم) *

كان لبني أبي حفص ملوك أفريقية مع زناتة هؤلاء أهل المغرب من بني مرين وبني عبد الواد سوابق مذكورة ، فكان لهم على يغمراسن وبنيه طاعة معروفة يؤدّون بيعتها ويخطبون على منابرهم بدعوتها مذ تغلّب الأمير أبي زكريا بن عبد الواحد على تلمسان . وعقده عليها ليغمراسن ، واستمرّ حالهم على ذلك . وكانت لهم أيضاً مع بني مرين ولاية وسابقة بما كان بنو مرين مذ أول أمرهم يخاطبون الأمير أبا زكريا ، ويبعثون له بيعة البلاد التي يتغلّبون عليها ، مثل مكناسة والقصر ومراكش آخراً . ثم صارت مخالصته من لدن عهد المستنصر ويعقوب بن عبد الحق . وكانوا يتحفونهم بالمال والهدايا في سبيل المدد على صاحب مراكش ، وقد ذكرنا السفارة التي وقعت بينهما سنة خمس وستين وستمائة وأن يعقوب أوفد عامر بن إدريس وعبدالله بن كندوز ومحمد الكناني ، وأوفد عليه المستنصر سنة سبع وستين وستمائة بعدها كبير الموحّدين يحيى بن صالح الهنتاتي في وفد من مشيخة الموحّدين ، ومعهم هدية سنيّة . ثم أوفد الواثق ابنه سنة تسع وسبعين قاضي بجاية المذكور أبا العبّاس أحمد الغماري ، وأسنى الهديّة معه . ولم يزل الشأن بينهم هذا إلى أن افترق أمر آل أبي حفص . وطار الأمير أبو زكريا بابن الأمير أبي اسحق بن يحيى بن عبد الواحد من عشه بتلمسان في وكر عثمان بن يغمراسن ، وأسف إلى بجاية فاستولى عليها سنة ثلاث وثمانين وستمائة ، واستضاف إليها قُسَنْطِينَة وبونة ، وصيّرهما عملاً لملكه ، ونصب لهما كرسياً لأمره ، وأسف عثمان بن يغمراسن لفراره من بلده لما كان عليه من التمسّك بدعوة عمّه أبي حَفْص صاحب تونس ، فشقّ ذلك عليه ونكره ، واستمرّت الحال على ذلك . ولما نزل السلطان يوسف بن يعقوب بمخنق تلمسان وأرسى قواعد ملكه بساحتها ، وسرّح عساكره لالتهام الأمصار والجهات ، وتوجّس الموحّدون الخيفة منه على أوطانهم . وكان الأمير أبو زكريا في جهات تدلس محامياً عن حوزته وعمله . ووصله هنالك راشد بن محمد نازعاً عن السلطان أبي يعقوب . ثم طلعت العساكر على تلك الجهات في اتباعه ، فزحف إليه عسكر الموحّدين سنة تسع وتسعين وستمائة بناحية

جبل الزاب ، ففضّوا جمعه وأوقعوا به واستلحموا جنوده ، واستمرّ القتل فيهم ، وبقيت عظامهم ماثلة بمصارعهم سنين .

ورجع الأمير أبو زكريا إلى بجاية فانحصر بها وهلك على تفيئة ذلك على رأس المائة السابعة . وقارن ذلك مغاضبة بينه وبين أمير الزواودة لعهده عثمان بن سبّاع بن يحيى ابن دُرَيْد بن مسعود البلط ، فوفد على السلطان أخريات إحدى وسبعمائة ، ورغّبه في ملك بجاية . واستمدّه للسير إليها ، فأوعز إلى أخيه الأمير أبي يحيى بمكانه من منازلة مغراوة ومليكش والثعالبة ، بأن ينهض إلى أعمال الموحّدين . وسار عثمان بن سبّاع وقومه بين يدي العساكر يتقصّون الطريق إلى أن تجاوز الامير أبو يحيى بعساكره بجاية ، واحتل بتاكرارت من أوطان سدويكش من أعمال بجاية . وأطلّ على بلاد سدويكش وانكفأ راجعاً ، فأوطأ عساكره ساحة بجاية وبها الأمير خالد بن يحيى ، وناشبهم القتال بعض أيام ، جلا فيها أولياء السلطان أبي البقاء عن أنفسهم وسلطانهم . وأمر بروض السلطان المسمّى بالبديع فخرّبه ، وكان من آنق الرياض وأحفلها . وقفل إلى مكانه من تدويخ البلاد ، وأعرض عن أعمال الموحّدين . وكان صاحب تونس لذلك العهد محمد بن المستنصر الملقّب بأبي عصيدة بن يحيى الواثق ، فأوفد على السلطان شيخ الموحدين بدولته محمد بن أكمازير عاقداً أسباب الولاية ، ومحكماً مذاهب الوصلة ، ومقرّراً سوابق السلف . فوفد في مشيخة من قومه لشعبان سنة ثلاث وسبعمائة . وناغاه الأمير أبو البقاء خالد صاحب بجاية ، وأوفد مشيخة من أهل دولته كذلك . وبرّ السلطان وفادتهم وأحسن منقلبهم .

ثم عاد ابن أكمازير سنة أربع وسبعمائة ، ومعه شيخ الموحدين وصاحب السلطان أبو عبدالله بن يزريكن في وفد من عظماء الموحدين ، وأوفد صاحب بجابة حاجبه أبا محمد الرخامي ، وشيخ الموحّدين بدولته عيّاد بن سعيد بن عثيمن . ووفدوا جميعاً على السلطان ثالث جمادى ، فأحسن السلطان في تكرمتهم ما شاء ، ووصلهم إلى نفسه بمساكن داره واراهم أريكة[1] ملكه وأطافهم قصوره ورياضه بعد أن فرشت ونمّقت ، فملأ قلوبهم جلالاً وعظمةً ، ثم بعثهم إلى المغرب ليطوفوا على قصور الملك بفاس ومراكش ، ويشاهدوا آثار سلفهم ، وأوعز إلى عمّال المغرب بالاستبلاغ في

---

(١) وفي نسخة ثانية : أبهة .

تكرمتهم واتحافهم ، فانتهوا من ذلك إلى الغاية ، وانقلبوا إلى حضرته آخر جمادى ، وانصرفوا إلى ملكهم[1] بالحديث عن شأن رسالتهم وكرامة وفدهم .

ثم أعاد ملوكهم مراسلة السلطان سنة خمس وسبعمائة بعدها ، فوفد أبو عبدالله بن أكمازير من تونس وعيّاد بن سعيد من بجاية . وأوفد السلطان على صاحب تونس مع رسوله صاحب الفتيا بحضرته الفقية أبا الحسن التونسي[2] وعليّ بن يحيى البركشي رسولين يسألان المدد بأسطوله ، فقضوا رسالتهم وانقلبوا سنة خمس وسبعمائة . ووصل بخبرها أبو عبدالله المزدوري من مشيخة الموحدين ، واقترن بذلك وصول حسّون بن محمد بن حسّون المكناسي من صنائع السلطان . كما أوفده مع ابن عثيمن على مراسلة الأمير أبي البقاء خالد صاحب بجاية في طلب الأسطول أيضاً ، فرجعوه بالمعاذير . وأوفدوا معه عبدالله بن عبد الحق بن سليمان فتلقّاهم السلطان بالمبرّة ، وأوعز إلى عامله بوَهْرَان أن يستبلغ في تكريم عمرة الأسطول ، فجرى في ذلك على مذهبه وانقلبوا جميعاً أحسن منقلب . وغنى السلطان عن أسطولهم لفوات وقت الحاجة إليه من منازلة بلاد السواحل إذ كان قد تملّكها أيام مما طلتهم ببيعته . واتصل الخبر بصاحب تلمسان الأمير أبي زيان بن عثمان المبايع أيام الحصار عند مهلك أبيه عثمان بن يغمراسن آخر سنة ثلاث وسبعمائة فبلغه صنيع الموحدين في موالاة عدوه السلطان يوسف بن يعقوب ومظاهرته بأساطيلهم عليه ، فأسفهم ذلك وأخرسوا منابرهم عما كانت تنطق به من الدعاء من عهد يغمراسن ، فلم يراجعوا دعوتهم من بعد ، وهلك السلطان على نفيئة ذلك ، والبقاء لله وحده .

الخبر عن مراسلة ملوك المشرق الاقصى ومهاداتهم ووفادة أمراء الترك على السلطان وما تخلل ذلك

لما استولى السلطان على المغرب الأوسط بممالكه وأعماله ، وهنأته ملوك الأقطار وأعراب الضواحي والقفار ، وصلحت السابلة ومشت الرفاق إلى الآفاق ، واستجد أهل المغرب عزما في قضاء فرضهم ، ورغبوا من السلطان إذنه لركب الحاج في السفر إلى

(١) وفي نسخة ثانية : ملوكهم .
(٢) وفي نسخة ثانية : التنسي .

مكة ، فقد كان عهدهم بمثلها الفساد السابلة واستهجان الدول . فبينما السلطان في ذلك آمل اذ داخله لحرم الله وروضة نبيّه صلى الله عليه وسلّم شوق ، فأمر بانتساخ مصحف رائق الصنعة ، كتبه ونمقه أحمد ين الحسن الكاتب المحسن ، واستوسع في جرمه وعمل غشاءه من بديع الصنعة ، واستكثر فيه من معالق الذهب المنظّم بخرزات الدرّ والياقوت ، وجعلت منها حصاة وسط المعلق تفوق الحصيات مقداراً وشكلاً وحسناً ، واستكثر من الأصونة عليه ووقفه على الحرم الشريف ، وبعث به مع الحاج سنة ثلاث وسبعمائة وعني بشأن هذا الركب ، فسرّح معهم حامية من زناتة تناهز خمسمائة من الأبطال ، وقلّد القضاء عليهم محمد بن رغبوش من أعلام أهل المغرب ، وخاطب صاحب الديار المصريّة واستوصاه بحاج المغرب من أهل مملكته ، وأتحفه بهدية من طرف بلاده استكثر فيها من الخيل العراب والمطايا الفارهة ، يقال إنّ المطايا كانت منها أربعمائة حدّثني بذلك من لقيته إلى ما يناسب ذلك من طرف المغرب وما عونه . ونهج بها السبيل للحاج من أهل المغرب ، فأجمعوا الحج سنة أربع وسبعمائة بعدها وعقد السلطان على دلالتهم لأبي زيد الغفاريّ ، وفصلوا من تلمسان لشهر ربيع الأوّل .

وفي شهر ربيع الآخر بعده كان مقدم الحاج الأولين حملة المصحف ووفد معهم على السلطان الشريف لبيدة بن أبي نمي نازعا عن سلطان الترك لما كان تقبض على اخويه حميضة ورميثة اثر مهلك أبيهم أبي نمي صاحب مكة سنة إحدى وسبعمائة ، فاستبلغ السلطان في تكريمه وسرّحه إلى المغرب ليجول في أقطاره ، ويطوف على معالم الملك وقصوره ، وأوعز إلى العمّال بتكريمه واتحافه على شاكلته . ورجع إلى حضرة السلطان سنة خمس وسبعمائة وفصل منها إلى المشرق ، وصحبه من أعلام المغرب أبو عبدالله موري[1] حاجاً ، ولشعبان من سنة خمس وسبعمائة وصل أبو زيد الغفاري دليل ركب الحاج الآخرين ، ومعه بيعة الشرفاء أهل مكّة للسلطان ، لما اسفهم صاحب مصر بالتقبّض على إخوانهم ، وكان شأنهم ذلك متى غاظهم السلطان . فقد سبق في أخبار المستنصر بن أبي حفص مثلها ، وأهدوا إلى السلطان ثوباً من كسوة البيت شغف به ، واتخذ منه ثوباً للباسه في الجمع والأعياد يستبطنه بين ثيابه تبركاً

(١) وفي نسخة ثانية : أبو عبدالله فوزي .

به ، ولما وصلت هدية السلطان إلى صاحب مصر لعهده الملك الناصر محمد بن قلاوون الصالحي حسن موقعها لديه ، وذهب إلى المكافأة ، فجمع من طرف بلاده من الثياب والحيوان ما يستغرب جنسه وشكله ، من نوع الفيل والزرافة ، وأوفد بها من عظماء دولته الأمير اليليلي[1] وفصل من القاهرة أخريات سنة خمس وسبعمائة ووصلت إلى تونس في ربيع من سنة ست وسبعمائة بعدها . ثم كان وصولها إلى سدّة السلطان بالمنصورة من البلد الجديد في جمادي الآخرة ، واهتز السلطان لقدومها وأركب الناس إلى لقائها ، واحتفل للقاء هذا الأمير اليليلي ومن معه من أمراء الترك ، وبرّ وفادتهم ، واستبلغ في تكريمهم نزلاً وقرى ، وبعثهم إلى المغرب على العادة في مبرّة أمثالهم ، وهلك السلطان خلال ذلك وتقبّل أبو ثابت سنة من بعده في تكريمهم ، فأحسن منقلبهم وملاء حقائبهم صلة ، وفصلوا من المغرب لذي الحجة سنة سبع وسبعمائة ولما انتهوا إلى بلاد بني حسن في ربيع من سنة ثمان وسبعمائة اعترضهم الأعراب بالقفر فانتهبوهم وخلصوا إلى مصر بجريعة الزمن[2] . فلم يعاودوا بعدها إلى المغرب سفراً ولا لفتوا إليه وجهاً . وطالما أوفد عليهم ملوك المغرب بعدها من رجال دولتهم من يؤبه له ، ويهادونهم ويكافئون ولا يزيدون في ذلك كله على الخطاب شيئاً ، وكان الناس لعهدهم ذلك يتهمون أنّ الذين نهبوهم أعراب حصين بدسيسة من صاحب تلمسان أبي حمو لعهدهم ، منافسة لصاحب المغرب لما بينهم من العداوات والأحن القديمة .

(أخبرني) شيخنا محمد بن ابراهيم الأبلّي قال : حضرت بين يدي السلطان وقد وصله بعض الحاج من أهل بلده مستصحباً كتاب الملك الناصر بالعتاب عن شأن هؤلاء الأمراء ، وما أصابهم في طريقهم من بلاده ، وأهدى له مع ذلك كوبين من دهن البلسان المختص ببلدهم ، وخمسة مماليك من الترك رماة بخمسة أقواس من قسي الغزّ المؤنّقة الصنعة من العرى والعقب ، فاستقل السلطان هديته تلك بالنسبة إلى ما أهدوا إلى ملك المغرب ، ثم استدعى القاضي محمد بن هدية ، وكان يكتب عنه فقال له : اكتب الآن إلى الملك الناصر كما أقول لك ، ولا تحرّف كلمة عن موضعها إلاّ ما تقتضية صناعة الإعراب ، وقل له : أمّا عتابك عن شأن الرسل وما أصابهم

(١) وفي نسخة اخرى : التليلي .

(٢) وفي نسخة اخرى : بجريعة الذقن .

في طريقهم فقد حضروا عندي وأبنت لهم الاستعجال حذراً مما أصابهم ، وأريتهم مخاوف بلادنا وما فيها من غوائل الأعراب ، فكان جوابهم أنّا جئنا من عند ملك المغرب فكيف نخاف مغترّين بشأنهم يحسبون أنّ أمره نافذ في أعراب قلاتنا[1] . وأمّا الهدية فتردّ عليك ، أمّا دهن البلسان فنحن قوم بادية لا نعرف إلاّ الزيت وحسبنا به دهناً . وأمّا المماليك الرماة فقد افتتحنا بهم إشبيلية وصرفناهم إليك لتستفتح بهم بغداد والسلام . قال لي شيخنا وكان الناس إذ ذاك لا يشكّون أنّ انتهابهم كان باذن منه . وكان هذا الكتاب دليلاً على ما في نفسه . وربّك يعلم ما تكنّ صدورُهُم وما يعلنون .

الخبر عن انتقاض ابن الاحمر واستيلاء الرئيس سعيد على سبتة وخروج عثمان بن العلاء في غمارة

لما أحكم السلطان عقد المهادنة والولاية مع السلطان ابن الأحمر المعروف بالفقيه ، عند إجازته إليه بطنجة سنة إثنتين وتسعين وستمائة كما ذكرناه ، وفرغ لعدوّه تمسّك ابن الأحمر بولايته تلك إلى أن هلك سنة إحدى وسبعمائة في شهر شعبان منه . وقام بالأمر الأندلسي من بعده ابنه محمدٌ المعروف بالمخلوع . واستبدّ عليه كاتبه أبو عبدالله بن الحكيم من مشايخ رنْدَةَ ، كان اصطفاه لكتابته أيام أبيه . فاصطلع بأموره وغلب عليه . وكان هذا السلطان المخلوع ضرير البصر ويقال إنه ابن الحكيم ، فغلب عليه واستبدّ إلى أن قتلها أخوه أبو الجيوش نصر سنة ثمان وسبعمائة كما نذكره ، وكان من أوّل آرائه عند استيلائه على الأمر من بعد أبيه المبادرة إلى إحكام ولاية السلطان ، واتصال يده بيده ، فأوفد إليه لحين ولايته وزير أبيه السلطان أبي عزيز الداني ، ووزيره الكاتب أبا عبدالله بن الحكيم ، فوصلا الى[2] السلطان بمعسكره من حصار تلمسان وتلقّاهما بالقبول والمبرّة ، وجُدِّدَت له أحكام الودّ والولاية ، وانقلبا إلى مرسلها خير منقلب. وتقدّم السلطان إليهم في المدد برجل الأندلس وناشبتهم المعوّدين منازلة الحصون والمناغرة بالرباط ، فتبادروا إلى إسعافه ، وبعثوا حصّتهم لحين مرجعهم إلى سلطانهم ، فوصلت سنة إثنتين وسبعمائة . وكانت لهم نكاية في العدو وأثر

(١) وفي نسخة اخرى : في اعراب قبائلنا .

(٢) وفي نسخة ثانية : فوفدوا على السلطان .

البلد المخروب. ثم بدا لمحمد بن الأحمر المخلوع في ولاية السلطان لمنافسات جرت إلى ذلك. وبعث إلى أدفونش هرَانْدَة بن شَانجَة، وأحكم له عقد السلم ولاطفة في الولاية، فانعقد ذلك بينهما سنة ثلاث وسبعمائة واتصل خبره بالسلطان فسخطه ورجّع إليهم حصتهم آخر سنة ثلاث وسبعمائة، واتصل خبره بالسلطان لسنة من مقدمهم بعد أن أبلوا وأثخنوا، وطوى لهم على إلنث واعتمل ابن الأحمر وشيعته في الاستعداد لمدافعة السلطان والارصاد لسطوته بهم. وأوعز إلى صاحب مالقة ابن عمّه الرئيس أبي سعيد فرج بن اسمعيل بن محمد بن نصر، وليه من دون القرابة بما كان له من الصهر على أخته، والمصطلع له بثغر الغربيّة، فأوعز إليه بمداخلة أهل سبتة في خلع طاعة السلطان والقبض على ابن العزفي، والرجوع إلى ولاية ابن الأحمر. وكان أهل سبتة منذ هلك ابراهيم الفقية أبو القاسم العزفي سنة سبع وسبعين وستمائة قام بأمرهم ولده أبو حاتم. وكان أبو طالب رديفاً له في الأمر إلا أنه استبدّ عليه بصاغيته إلى الرياسة، وايثار أبي حاتم للخمول مع إيجابه حق أخيه الأكبر، واجابته الداعي من دون دفع [1] إليه فاستقام أمرهما مدّة. وكان من سياستهما من أوّل أمرهما، الأخذ بدعوة السلطان فيما لنظرهما، والعمل بطاعته والتجافي عن السكني بقصور الملك والتحرّج من أبّهة السلطان لمكانهم، فأنزلوا بالقصبة عبدالله بن مخلص قائداً من البيوتات اصطنعوه وجعلوا إليه أحكام البلد، وضبط الحامية له فاضطلع بذلك سنين. ثم اسفه يحيى بن أبي طالب ببعض النزغات الرياسيّة وحجر عليه الأحكام في ذويه. ثم أغرى به أباه وطالبه، بحساب الخرج لعطاء الحامية وغفلوا عما وراءها من التظنن فيه والريبة به ثقة بمكانه واستنامة إليه. وهم مع ذلك على أوّلهم في موالاة السلطان والأخذ بدعوته والوفود عليه في أوقاته. ولما فسدت ولاية ابن الأحمر للسلطان وعقد على محاولة سبتة وجدّ السبيل إلى ذلك بما طوى صاحب الأحكام بالقصبة على النثّ، فداخله الرئيس أبو سعيد صاحب الثغر بمالقة جاره بسبتة، ووعده الغدر ببني العزفي وأن يصحبهم في أساطيله، فشرّع الرئيس أبو سعيد في إنشاء الأساطيل البحرية، واستنفار الناس للمثاغرة، وأنّ العدو لمالقة بالمرصاد، وشحنها بالفرسان والرجل والناشبة والأقوات، وأخفى وجه قصده عن الناس، حتى إذا

---

(١) وفي نسخة ثانية: متى روفع إليه.

فلعت أساطيله بيّت سبتة لسبع وعشرين من شوّال سنة خمس وسبعمائة وأرسى بساحتها الموعد صاحب القصبة ، فأدخله إلى حصنه فملكه ، ونشر راياته بأسوارها ، وسرّب جيوشه إلى البلد فتسايلوا وركب إلى دور بني العزفي فتقبّض عليهم ، وعلى والدهم وحاشيتهم . وطيّر الخبر إلى السلطان بغرناطة ، فوصل الوزير أبو عبدالله بن الحكيم ، ونادى في الناس بالأمان ، وبسط المعدلة ، وأركب ابن العزفي السفن إلى مالقة . ثم أجازوا غرناطة وقدموا على ابن الأحمر ، فأجل قدومهم وأركب الناس إلى لقائهم ، وجلس لهم جلوساً فخماً حتى أدّوا بيعتهم وقضوا وفادتهم ، وأنزلوا بالقصور وأجريت عليهم سنية الأرزاق . واستقروا بالأندلس إلى أن صاروا بعد إلى المغرب كما نذكر واستبدّ الرئيس أبو سعيد بأمر سبتة وثقف أطرافها وسدّ ثغورها ، وأقام دعوة ابن عمه صاحب الأندلس بأنحائها . وكان عثمان بن أبي العلاء بن عبدالله بن عبد الحق من أعياص الملك المريني أجاز معه البحر إليها أميراً على الغزاة بمالقة ، وقائداً لعصبتهم تحت لوائه . فموّه بنصبه للملك بالمغرب . وخاطب قبائل غمارة في ذلك ، فوقفوا بين الإقدام والإحجام واتصل ذلك كله بالسلطان وهو بمعسكره من حصار تلمسان ، فاستشاط لها غيظا وحمي أنفه نفرةً ، واستنفره الصريخ ، فبعث ابنه الأمير أبا سالم لسدّ تلك الفرجة ، وجمع إليه العساكر وتقدّم إليه باحتشاد قبائل الريف وبلاد تازى ، فأغذّ السير إليها وأحاطت عساكره بها ، فحاصرها مدّة . ثم بيتّه عثمان بن أبي العلاء فاختلّ معسكره ، وأفرج عنها منهزماً ، فسخطه السلطان وذوى عنه وجه رضاه ، وسار عثمان بن أبي العلاء في نواحي سبتة ، وبلاد غمارة ، وتغلّب على تكيسَاس ، وانتهى إلى قصر ابن عبد الكريم في آخر سنة ست وسبعمائة لسنة من استيلائهم على سبتة ، مقيماً رسم السلطان منادياً بالدعاء لنفسه ، فاعتزم السلطان على النهوض إليه من أمر تلمسان ، لما كانت على شفا هلَكة ومحابينة انفضاض ، لولا عوائق الأقدار بمهلكه ، كما نذكره إن شاء الله تعالى .

* (الخبر عن انتقاض بني كمي من بني عبد الواد وخروجهم بأرض السوس) *

كان هؤلاء الرهط من بني عبد الواد من بطون بني علي من شعب أبي القاسم ،

وكانوا يرجعون في رياستهم إلى كندوز بن[1]   بن كمي ولما استقل زيان برياسة أولاد علي بن ثابت بن محمد من أولاد طاع الله ، ونفس عليه كندوز هذا ما آتاه الله من الرياسة ، وجاذبه حبلها ، واحتقر زيّان شأنه فلم يحفل به . ثم تأشب عليه أخلاط من قومه وواضعه الحرب[2] . وهلك زيّان بيد كندوز ، وقام بأمر أولاد علي جابر بن يوسف بن محمد . ثم تناقلت الرياسة فيهم إلى أن عادت لولد ثابت بن محمد ، واستقل بها أبو عزة زكرار[3] بن زيّان ولم تطل أيامه . والتحم بين أولاد كمي وبين أولاد طاع الله ، وتناسوا الإحن ، وصارت رياسة طاع الله لولد يغمراسن بن زيّان ، واستتبعوا قبائل عبد الواد كافة ، واعتمل يغمراسن في الثأر بأبيه زيّان من قاتله كندوز ، فاغتاله ببيته ، دعاه لمأدبة جميع لها بني أبيه ، حتى اذا اطمأنّ المجلس تعاوروه بأسيافهم واحتزّوا رأسه ، وبعثوا به إلى أمّهم ، فنصبت عليه القدر ثالث أثافيها تشفّياً منه وحفيظة . وطالب يغمراسن بقيّة بني كندوز ففرّوا أمام مطالبته ، وأبعدوا المذهب ولحقوا بالأمير أبي زكريا بن عبد الواحد بن أبي حفص ، فأقاموا بسدّته أحوالاً ، وكانوا يرجعون في رياستهم لعبدالله بن كندوز ، ثم تذكروا عهد البداوة وحنّوا إلى عشير زناتة ، فراجعوا المغرب ولحقوا ببني مرين أقتالهم . ونزل عبدالله بن كندوز على يعقوب بن عبد الحق خير نزل ، فلقاه من البرّ والترحيب بماملاء صدره وأكد اغتباطه ، وأقطعه بناحية مراكش الكفاية له ولقومه ، وأنزلهم هنالك . وجعل انتجاع إبله وراحلته لحسّان بن أبي سعيد الصبيحي وأخيه موسى من ذويهم وحاشيتهم ، وألطف منزلة عبدالله ورفع مكانه بمجلسه ، واكتفى به في كثير من أموره ، وأوفده على المستنصر صاحب أفريقية سنة خمس وستين وستمائة مع عامر ابن أخيه إدريس كما قدّمناه . واستقرّ بنو كندوز هؤلاء بالمغرب الأقصى ، واستمرّت الأيام على ذلك ، وصاروا من جملة قبائل بني مرين وفي عدادهم . وهلك عبدالله بن كندوز وصارت رياستهم لعمر ابنه من بعده .

ولما لفت السلطان يوسف بن يعقوب عزائمه إلى بني عبد الواد ونازل تلمسان ، وطاول حصارها ، واستطال بنو مرين وذووهم على بني عبد الواد ، وأحسّوا بهم أخذتهم

(١) بياض بالأصل ولم نجد في المراجع التي بين ايدينا اي ذكر لوالد كندوز هذا .
(٢) وفي نسخة ثانية : ناشب عليه اخلاط من قومهم . وواضعهم الحرب .
(٣) وفي نسخة ثانية : زكدان .

العزّة بالإثم ، وأدركتهم النعرة ، فأجمع بنو كندوز هؤلاء الخلاف والخروج على السلطان ولحقوا بحاجة سنة ثلاث وسبعمائة . واحتفل الأمير بمراكش يعيش بن يعقوب لغزوهم سنة أربع وسبعمائة ، فناجزوه الحرب بتادرت ، واستمروا على خلافهم . ثم قاتلهم يعيش وعساكره ثانية بتامطريت سنة أربع وسبعمائة فهزمهم الهزيمة الكبرى التي قصّت جناحهم وأوهت من رياستهم(١) . وقتل جماعة من بني عبد الواد بأزعار وتاكما(٢) ، وأثخن يعيش بن يعقوب في بلاد السوس ، وهدم تارودانت قاعدة أرضها وأمّ قراها ، كان بها عبد الرحمن بن الحسن بن يدّر من بقية الأمراء على السوس من قبل بني عبد المؤمن ، وقد مرّ ذكرهم . وكانت بينه وبين عرب المعقل من الشبانات وبني حسّان منذ انقرضت دولة الموحّدين حرب سجال هلك في بعضها عمه عليّ بن يدّر سنة ثمان وستين وستمائة وصارت إمارته بعد حين إلى عبد الرحمن هذا ، ولم يزالوا في حربه إلى أن تملّك السوس يعيش بن يعقوب ، وهدم تارودانت قاعدة أرضها . ثم راجع عبد الرحمن أمره وبنى بلده تارودانت هذه سنة ست بعدها . ويزعم بنو يدر هؤلاء أنهم مستقرّون بذلك القصر من لدن عهد الطوالع من العرب ، وأنهم لم يزالوا أمراء به تعقد لهم ولايته كابراً عن كابر ، ولقد أدركت على عهد السلطان أبي عنّان وأخيه أبي سالم من بعده شيخاً كبيراً من ولد عبد الرحمن ، فحدّثني بمثل ذلك ، وأنهم من ولد أبي بكر الصدّيق رضي الله عنه ، والله أعلم . ولم يزل بنو كندوز مشرّدين بصحراء السوس إلى أن هلك السلطان ، وراجعوا طاعة الملوك من بني مرين من بعده وعفوا لهم عما سلف من هذه الجريمة ، وأعادوهم إلى مكانهم من الولاية ، فأمحضوا النصيحة والمخالصة إلى هذا العهد كما سنذكره إن شاءالله تعالى .

* (الخبر عن مهلك المشيخة من المصامدة بتلبيس أبي الملياني) *

قد ذكرنا شأن أبي علي الملياني وأوليته في أخبار مغراوة الثانية ، وما كان من ثورته

(١) وفي نسخة ثانية : وأوهنت بأسهم
(٢) كذا في النسخة الباريسية وفي نسخة ثانية : بارعارن بامكا .

بمليانة وانتزائه عليها . ثم إزعاج العسكر إيّاه منها ولحاقه بيعقوب بن عبد الحق سلطان بني مرين ، وما أحلّه من مراتب التكرمة والمبرّة . وأقطعه بلد أغمات طعمة ، فاستقرّ بها ، وما كان منه في العبث بأشلاء الموحّدين ونبش أجداثهم ، وموجدة السلطان والناس عليه لذلك . وأرصد له المصامدة الغوائل لما كان منه في ذلك ، ولمّا هلك يعقوب بن عبد الحق استعمله يوسف بن يعقوب على جبايه المصامدة ، فلم يضطلع بها وسعى به مشيختهم عند السلطان أنه احتجز المال لنفسه ، وحاسبوه فصدقوه السعاية ، فاعتقله السلطان وأقصاه ، وهلك سنة ست وثمانين وستمائة واصطنع السلطان أحمد ابن أخيه واستعمله في كتابته ، وأقام على ذلك ببابه وفي جملته . وكان السلطان سخط على مشيخة المصامدة عليّ بن محمد كبير هنتاتة ، وعبد الكريم بن عيسى كبير كدميوة ، وأوعز إلى ابنه الأمير علي بمراكش باعتقالها ، فاعتقلها فيمن لهما من الولد والحاشية . وأحسن بذلك أحمد بن الملياني فاستعجل الثأر . وكانت العلامة السلطانية على الكتاب في الدولة لم تختص بكاتب واحد ، بل كل منهم يضع العلامة بخطّه على كتابه اذا أكمله ، لِمَا كانوا كلّهم ثقاتاً أمناء ، وكانوا عند السلطان كأسنان المشط . فكتب أحمد بن الملياني إلى ابن السلطان الأمير بمراكش سنة سبع وتسعين وستمائة كتاباً عن أمر أبيه ، يأمره فيه بقتل مشيخة المصامدة ولا يمهلهم طرفة عين . ووضع عليها العلامة التي تنفّذ بها الأوامر ، وختم الكتاب . وبعث به مع البريد ونجا بنفسه إلى البلد الجديد . وعجب الناس بشأنه . ولما وصل الكتاب إلى ابن السلطان بمراكش أخرج أولئك الرهط المعتقلين من المصامدة إلى مصارعهم ، وقتل علي بن محمد وولده ، وعبد الكريم بن عيسى وولده عيسى ، وعلي ومنصور وابن أخيه عبد العزيز . وطيّر الأمير وزيره إلى أبيه بالخبر فقتله لحينه حنقاً عليه ، وأنفذ البريد باعتقال إبنه ، وجرّد على ابن الملياني ففقد ولحق بتلمسان . ونزل على آل زيّان . ثم لحق من بعدها بالأندلس عند إفراج السلطان عنها في تلك السنة كما ذكرناه . وبها هلك . واقتصر السلطان من يومئذ في علامته على من يختاره من صنائعه ويثق بأمانته . وجعلها لذلك العهد لعبدالله بن أبي مدين خالصته المضطلع بأمور مملكته ، فاختصّت من بعده لهذا العهد ، والله تعالى أعلم .

---

* (الخبر عن رياسة اليهود بني رقاصة ومقتلهم) *

كان السلطان يعقوب[1] في صباه مؤثراً للذاته ومستتراً بها عن أبيه يعقوب بن عبد الحق لمكانه من الدين والوقار. وكان يشرب الخمر ويعاقر بها الندمان. وكان خليفة بن رقاصة من اليهود المعاهدين بفاس قهرماناً لداره على عادة الأمراء في مثله من المعاهدين، فكان يزدلف إليه بوجوه الخدم ومذاهبها، فاستعمله هذا الأمير في اعتصارها والقيام على شؤنها، فكانت له بذلك خلوة منه أوجبت له الحظّ عنده، حتى إذا هلك يعقوب بن عبد الحق واستقلّ ابنه يوسف بأعباء ملكه، واتصلت خلواته في معاقرة الندمان، وانفرد ابن وقاصة بخلوته ذلك مع ما كان من القهرمة، عظمت رياسته وعلا كعبه في الدولة. وتلقى الخاصة الأوامر منه، فصار له الوجه بينهم وعظم قدره بعظم الدولة.

(أخبرني) شيخي الأُبُلِّي قال: وكان لخليفة هذا أخ يسمى ابراهيم، وابن عم يسمى خليفة، لقّبوه بالصغيرة لمكانه هو من هذا الإسم. وكان له صهر يعرفون ببني السبتي، كبيرهم موسى، وكان رديفه في قهرمته، فلم يفق السلطان من نشوة صباه وملهاه حتى وجدهم على حال استتبعوا فيها العلية من القبيل والوزراء والشرفاء والعلماء. وأوجده السبيل عليهم، فسطا بهم سطوة واحدة واعتقلوا في شعبان من سنة إحدى وسبعمائة بمعسكره من حصار تلمسان. وقتل خليفة الكبير وأخوه ابراهيم وموسى بن السبتي وإخوته بعد أن امتحنوا ومثّل بهم، وأتت النكبة على حاشيتهم وذويهم وأقاربهم، فلم تبق منهم باقية. واستبقى منهم خليفة الأصغر احتقاراً لشأنه، حتى كان من قتله بعدما نذكر، وعبث بسائرهم، وطهّرت الدولة من رجسهم، وأزيل منها معرّة رياستهم، والأمور بيدالله سبحانه.

* (الخبر عن مهلك السلطان أبي يعقوب) *

كان في جملة السلطان وحاشيته مولى من العبيد الخصيان من موالي ابن الملياني يسمى

(١) حسب مقتضى السياق السلطان يوسف.

سعادة ، صار إلى السلطان من لدن استعماله إيّاه بمراكش ، وكان على ثبج من الجهل والغباوة . بمكان ، وكان السلطان يخلط الخصيان بأهله ويكشف لهم الحجاب عن ذوات محارمه ، ولما كانت واقعة العزّ مولاه ، واتهم بمداخلة بعض الحرم ، وقتل بالظنّة ، واستراب السلطان بكثير من حاشيته الملابسين لداره ، اعتقل جملة من الخصيان كان فيهم عنبر الكبير عريفهم . وحجب سائرهم فارتاعوا لذلك وسوّلت لهذا الخصيّ الخبيث نفسه الشيطانية الفتك بالسلطان ، فعمد إليه وهو في بعض الحجر من قصره ، وآذنه فأذن له فألفاه مستلقياً على فراشه مختضباً بالحنّاء ، فوثب عليه وطعنه طعنات قطع بها أمعاءه وخرج هارباً . وانطلق بعض الأولياء في أثره ، فأدرك من العشيّ بناحية تاسالة فتقبّض عليه ، وسيق إلى القصر فقتله العبيد والحاشية . وصابر السلطان ميتته إلى آخر النهار ، ثم قضى رحمه الله يوم الأربعاء سابع ذي القعدة من سنة ست وسبعمائة وقبر هنالك . ثم نقل بعدما سكنت الهيعة إلى مقبرتهم بشالة ، فدفن بها مع سلفه والبقاءلله وحده .

* (الخبر عن ولاية السلطان أبي ثابت) * واستلحامه المرشحين وما تخلل ذلك من الاحداث

كان الأمير أبو عامر ابن السلطان أبي يعقوب وولي عهده لما هلك طريداً ببلاد بني سعيد بغمارة والريف سنة ثمان وتسعين وستمائة كما ذكرنا ، خلّف ولديه عامراً وسليمان في كفالة السلطان جدّهما ، فكان لهما بعينه حلاوة وفي قلبه لو ْة ، لمكان حبه لأبيهما واغترابه عنه ، فحدب عليهما وآثرهما من نفسه بمكان . وكان الأمير أبو ثابت عامر أصغر قومه ، إقداماً وشجاعةً وجراءةً ، وكانت له في بني ورتاجن خؤلة . فلحين مهلك السلطان عرضوا له ودعوه للبيعة فبايعوه ، وحضر لها الأمير أبو يحيى بن يعقوب عمّ أبيه ، عز بمجتمعهم [1] اتفاقاً ، وحملوه على الطاعة ، وكان أقرب للأمر منه لو حضره رجال ، فأعطى القياد في المساعدة ، وطوى على النث . وبادر الحاشية والوزراء بالبلد الجديد عند مهلك السلطان ، فبايعوا ابنه الأمير أبا سالم . وكاد أمر بني

(١) وفي نسخة ثانية : عثر بمجمعهم .

مرين أن يفترق وكلمتهم أن تفسد ، فبعث الأمير أبو ثابت لحينه إلى تلمسان للأمير أبي زيان وأبي حمو إبني عثمان بن يغمراسن . وعقد لهما حلفاً على الإفراج عنهم . ثم أمره أن يمدّه بالآلة ويرفعا له كسر البيت إن كان غير ما أمل . وحضر للعقد أبو حمو فأحكمه ومال أكثر بني مرين وأهل الحل والعقد إلى الأمير أبي ثابت . وتفرّد ببيعة أبي سالم البطانة والوزراء والحاشية والأجناد ومن إليهم ، وكان بالبلد الجديد مسكنه ، وأشاروا عليه بالمناجزة فخرج وقد عبّى كتائبه ، فوقف وتهيّب[1] وخام عن اللقاء ووعدهم الإقدام بالغداة ، وكرّ راجعاً إلى قصره ، فيئسوا منه ، وتسلّلوا اذاً إلى الأمير أبي ثابت ، وهو بمرقب من الجبل مطل عليهم حتى اذا انحجر أبو سالم بالبلد ، انحاش إليه الجملة دفعة واحدة . فلما استوفت القبائل والعساكر لديه ، زحف إلى البلد الجديد مثوى السلطان وسياج قصوره ومختط عزمه ، وانتهى إلى ساحتها مغتنماً الفرصة . وخرج إليه أبو زيد[2] يخلف بن عمران الفودودي ، فأرجل عن فرسه بأمر أبي يحيى ، وقتل بين يديه قعصاً بالرماح . وكان قريب عهد بالوزارة ، استوزره السلطان قبيل مهلكه في شعبان من سنة ست وسبعمائة .

وفرّ أبو سالم إلى جهة المغرب وصحبه من عشيره من أولاد رحّو بن عبدالله بن عبد الحق العبّاسي وعيسى وعلي إبنا رحّو وابن أخيهم جمال الدين بن موسى . وأتبعهم الأمير أبو ثابت شرذمة من عسكره أدركوهم بندرومة ، فتقبّضوا عليهم ونفذ أمر السلطان بقتل أبي سالم وجمال الدين ، واستبقى الآخرين . وأمر باحراق باب البلد ليفتحها العسكر ، فأطلّ عليهم قهرمان دارهم عبدالله بن أبي مَدْيَن الكاتب ، وأخبره بفرار أبي سالم ، وباتفاق الناس على طاعته . ورغب إليه في المسالمة ليلتهم حتى ينفجر الصباح خشية على دارهم من معرّة العساكر وهجومها ففعل . وأمره الأمير أبو يحيى باعتقال أبي الحجّاج بن اشقيلولة، فاعتقله لقديم من العداوة كانت بينهما ، ثم أمر بقتله ، وانفاذ رأسه فقتل . وأمر السلطان ليلتئذ بإضرام النيران حتى اذا أضاء الظلام وبات راكباً ، ودخل القصر لصبحه فوارى جده بعد أن صلّى عليه . وغصّ بمكان الأمير أبي يحيى لما تعدّد فيه الترشيح وفاوض في شأنه كبير القرابة يومئذ

---

(١) وفي نسخة ثانية : وبهت .

(٢) وفي نسخة ثانية : الوزير .

عبد الحق بن عثمان ابن الأمير أبي يفرن[1] ، محمد بن عبد الحق ومن حضره من الوزراء مثل ابراهيم بن عبد الجليل الونكاسي وابراهيم بن عيسى اليرنياني وغيرهما من الخاصة ، فأشاروا بقتله ، ونميت عنه كلمات في معنى التربّص بالسلطان ودولته ، وابتغاء العصابة لأمره . وركب الأمير أبو يحيى إلى القصر ثالث البيعة ، فأخذ السلطان بيده ودخل معه إلى الحرم لعزائهنّ عن أخيه السلطان . ثم خرج على الخاصّة وتخلّف عنه السلطان وقد دسّ إلى عبد الحق بن عثمان أن يتقبّض عليه ففعل . ثم برز السلطان إليهم وهو موثق فأمر بالإجهاز عليه ، ولم يمهله ، وألحق به يومئذ وزيره عيسى بن موسى الفودودي ، وفشا الخبر بمهلك هؤلاء الرهط ، فرهب منه القرابة ، وفرّ يعيش بن يعقوب أخو السلطان وابنه عثمان المعروف بأمّه قضينت[2] ومسعود بن الأمير أبي مالك ، والعبّاس بن رحو بن عبدالله بن عبد الحق ولحقوا جميعاً بعثمان بن أبي العلاء بمكانه من غمارة ، وخلا الجو من المرشحين ، واستبدّ السلطان بملك قومه ، وأمن غوائل المنازعين .

ولما تمّ له الأمر واستوسق أمر الملك ، وفيّ لبني عثمان بن يغمراسن بالإفراج عنهم ، ونزل لهم عن جميع البلاد التي صارت إلى طاعته من بلاد المغرب الأوسط من أعمالهم ، وأعمال بني توجين ومغراوة . ودعاه إلى بدار المغرب ، ما كان من اختلال عثمان بن أبي العلاء بن عبدالله بن عبد الحق بسبتة ، ودعائه لنفسه بين يدي مهلك السلطان ، وخروجه إلى بلاد غمارة ، واستيلائه على قصر كتامة ، فاعتزم على الرحلة إلى المغرب وفوّض الأمر في الرحلة بأهل المدينة الجديدة للوزير ابراهيم بن عبد السلام لما كانت حينئذ غاصّة بالساكن مستبحرة في الاعتمار ، ممتلئة من الخرثي[3] والآلة ، فأحسن السياسة في أمرهم وضرب لهم الآجال والمواعيد إلى أن استوقوا الرحلة ، وتركوها قواء ، خرّبها بنو عثمان بن يغمراسن عند رحلة بني مرين إلى المغرب ، وتحيّنوا لذلك فترات الفتن ، فطمسوا معالمها طمساً ونسفوها نسفاً . وقُدّم السلطان بين يديه من قرابته الحسن بن عامر بن عبد الحق انعجون[4] في العساكر

(١) وفي نسخة ثانية : ابي معرّف .
(٢) وفي نسخة ثانية : قضيب .
(٣) وفي نسخة بولاق المصرية : من الخزائن .
(٤) وفي نسخة بولاق المصرية : اتعجوب .

والجنود ، وعقد له على حرب ابن أبي العلاء . وتلوّم بالبلد الجديد لموافاة المسالح التي كانت بثغور المشرق ، ولما نزل عنها جميعاً لبني عثمان بن يغمراسن ارتحل غرّة ذي الحجة ، ودخل فاس فاتح سبع وسبعمائة والله أعلم .

* (الخبر عن انتزاء يوسف بن أبي عياد بمراكش وتغلّب السلطان عليه) *

لما فصل أبو ثابت عن معسكرهم بتلمسان إلى المغرب ، قدّم بين يديه من قرابته الحسن بن عامر بن عبد الحق انعجون ابن السلطان أبي يوسف في العساكر والجنود ، وعقد له على حرب عثمان بن أبي العلاء كما ذكرناه . وعقد على بلاد مراكش ونواحيها لابن عمه الآخر يوسف بن محمد بن أبي عيّاد بن عبد الحق ، وعهد له بالنظر في أحوالها ، فسار إليها واحتل بها . ثم حدّثته نفسه بالانتزاء ، فقتل الوالي بمراكش ، واستركب واستلحق ، واتخذ الآلة ، وجاهر بالخلعان . وتقبّض على والي البلد فقتله بالسوط في جمادى سنة سبع وسبعمائة ، ودعا لنفسه . واتصل الخبر بالسلطان لأوّل قدومه ، فسرّح إليه وزيره يوسف بن عيسى بن السعود الجَشْمِيّ ، ويعقوب بن أصناك ، في خمسة آلاف من عساكره ، ودفعهم إلى حربه . وخرج في أثرهم بكتائبه . وبرز يوسف بن أبي عيّاد ، وأجازوا أم الربيع فانهزم أمام الوزير وعساكره واتبعه الوزير ففرّ إلى أغمات . ثم فرّ إلى جبال هسكورة ، ولحق به موسى بن سعيد الصبيحي من أغمات ، تدلّيّ من سورها ، ودخل الوزير يوسف إلى مراكش . ثم خرج إِثْره ولحقه ، فكانت بينهما جولة ، وقتل منهم خلق ، ولحق بهسكورة . ودخل السلطان أبو ثابت مراكش منتصف رجب من سنة سبع وسبعمائة وأمر بقتل أَوْرَبَة المداخلة كانوا له في انتزائه فاستلحموا . ولما لحق يوسف بن أبي عياد بجبال هسكورة ، ونزل على مخلوف بن عبّو ، وتذمّم بجواره ، فلم يجره على السلطان . وتقبّض عليه ، واقتاده إلى مراكش مع ثمانية من أصحابه تولوا كبر ذلك الأمر ، فقتلوا في مصرع واحد بعد أن مثّل بهم السلطان بالسياط . وبعث برأس يوسف إلى فاس ، فنصب بسورها وأثخن القتل فيمن سواهم ممن داخله في الانتزاء ، فاستلحم منهم أمم بمراكش وأغمات . وسخط خلال ذلك وزيره ابراهيم بن عبد الجليل

فاعتقله واعتقل عشيره من بني دولين ومن بني ونكاسن ، وقتل الحسن بن دوير منهم ، ثم عفا عنهم . وخرج منتصف شعبان إلى منازلة السكسيوي وتدويخ جهات مراكش ، فتلقّاه السكسيوي بطاعته المعروفة . وأسنى الهديّة فتقبّل طاعته وخدمته . ثم سرّح قائده يعقوب بن آصناد في اتباع زكنة حتى توغّل في بلاد السوس ففرّوا أمامه إلى الرمال . وانقطع أثرهم ورجع إلى معسكر السلطان . وانكفأ السلطان بعساكره إلى مراكش ، فاحتل بها غرّة رمضان . ثم قفل إلى فاس بعد أن قتل جماعة من شيوخ بني ورا . وجعل طريقه في بلاد صنهاجة ، وسار في بلاد تامسنا ، وتلقّاه عرب جَشْم من قبائل الخلط وسفيان وبني جابر والعاصم ، فاستصحبهم إلى آنفى وتقبّض على ستين من أشياخهم ، فاستلحم منهم عشرين ممن نمي عنهم افساد السابلة . ودخل رباط الفتح أخريات رمضان فقتل هنالك من الأعراب أمّة ممن يؤثر عنه الحرابة . ثم ارتحل منتصف شوّال الغز ورياح أهل آزغار والهبط . واثار بالإحن القديمة ، فأثخن فيهم بالقتل والسبي وقفل إلى فاس ، فاحتلّ بها منتصف ذي القعدة . وفجأه الخبر بهزيمة عبد الحق بن عثمان ، واستلحام الروم من عساكره ، ومهلك عبد الواحد الفودودي من رجالات دولته . وأن عثمان بن أبي العلاء قد استفحل أمره بجهات غمارة ، فأجمع لغزوه ، والله أعلم

* (الخبر عن غزاة السلطان لمدافعة عثمان بن أبي العلاء ببلاد الهبط ومهلكه بطنجة بعد ظهوره) *

لما ملك الرئيس أبو سعيد فرج بن اسمعيل بن يوسف بن نصر سبتة سنة خمس وسبعمائة ، وأقام بها الدعوة لابن عمّه المخلوع محمد بن محمد الفقيه ابن محمد الشيخ ابن يوسف بن نصر كما ذكرناه ، وأجاز معه رئيس الغزاة المجاهدين بمحل إمارته من مالقة عثمان بن أبي العلاء إدريس بن عبدالله بن عبد الحق من أعياص هذا البيت ، كان مرشّحاً للملك فيهم . واستقدمه معه ليفرّق به الكلمة في المغرب بفتنة الدولة مدافعة عن سبتة لِمَا كان هاج السلطان قومه فأخذها[1] واستقام ملكها . وطمع

---

(١) وفي نسخة بولاق المصرية : لما كانوا اهاجوا السلطان وقدمه بأخذها .

عثمان في ملك المغرب بامدادهم ومظاهرتهم ، وسوّلت له نفسه ذلك ، فخرج سبتة وولّى على جيش الغزاة بعده عمر ابن عمّه رحّو بن عبدالله . ونجم هو ببلاد غمارة ، فدعا لنفسه وإجابته القبائل منهم . واحتلّ بحصن علودان من أمنع معاقلهم ، وبايعوه على الموت . ثم نهض إلى أصيلا والعريش فغلب عليها . واتصل ذلك كلّه بالسلطان الهالك أبي يعقوب فلم يحرّكه استهانة بأمرهم . وبعث ابنه أبا سالم بالعساكر ، فنازل سبتة أياماً . ثم أقلع عنها . وبعث بعده أخاه يعيش بن يعقوب وأنزله طنجة ، وجمّر معه الكتائب وجعلها ثغراً . وزحف إليه عثمان بن أبي العلاء فتأخّر عن طنجة إلى القصر . ثم اتبعه فخرج إليه أهل القصر فرساناً ورجالاً ورماةً مع يعيش ، فوصلوا إلى وادي وراء ، ثم انهزموا إلى البلد . ومات عمر بن ياسين ، ونزل عثمان عليهم القصر يوماً ، ثم دخله من غده . ثم كان مهلك السلطان ، وفرّ يعيش بن يعقوب خيفة من أبي ثابت ، فلحق بعثمان بن أبي العلاء واستقام أمره بتلك الجهات برهة . وكان السلطان أبو ثابت لمّا احتل بالمغرب شغله ما كان من انتزاء يوسف بن أبي عياد بمراكش كما قدّمناه ، فعقد على حرب عثمان بن أبي العلاء مكان عمّه يعيش بن يعقوب لعبد الحق بن عثمان بن محمد بن عبد الحق من رجال بيته ، فزحف إليه . ونهض عثمان إلى لقائه منتصف ذي الحجّة سنة سبع وسبعمائة فهزمه واستلحم من كان معه من جند الروم . وهلك في تلك الوقعة عبد الواحد الفودودي من رجالات السلطان المرشّحين ردفاء الوزارة . وسار عثمان إلى قصر كتامة فنزله ، واستولى على جهاته . وعلى تفيئة ذلك كان رجوع السلطان من غزاة مراكش وقد حسم الداء ومحا أثر النفاق ، فاعتزم على الحركة إلى بلاد غمارة يمحو منها أثر دعوة ابن أبي العلاء التي كادت تلج عليه ممالكه بالمغرب ، ويردّه على عقبه ويستخلص سبتة من يد ابن الأحمر لما صارت ركاباً لمن يروم الانتزاء والخروج من القرابة والأعياص المستنفرين وراء البحر غزاة في سبيل الله ، فنهض من فاس منتصف ذي الحجة من سنة سبع وسبعمائة ولما انتهى إلى قصر كتامة تلوم به ثلاثاً حتى توافت عساكره وحشوده ، وكمل اعتراضها وفرّ عثمان بن أبي العلاء أمامه ، وارتحل السلطان في اتباعه فنازل حصن علودان واقتحمه عنوة . واستلحم به زهاء أربعمائة . ثم نازل بلد الدمنة ، واقتحمها وأثخن فيها قتلاً وسبياً لتمسّكهم بطاعة ابن أبي العلاء ومظاهرتهم له . ثم كبس القصر واستباحه . ثم ارتحل إلى طنجة واحتلّ بها غرّة ثمان

وسبعمائة وانحجر ابن أبي العلاء بسبتة مع أوليائه وسرّح السلطان عساكره ، فتفرّقت نواحي سبتة بالاكتساح والغارة . وأمر باختطاط بلد تيطاوين لنزول معسكره والأخذ بمخنق سبتة . وأوفد كبير الفقهاء بمجلسه أبا يحيى بن أبي الصبر إليهم في شأن النزول عن البلد . وفي خلال ذلك اعتلّ السلطان فمرض وقضى أياماً قلائل وهلك في ثامن صفر من سنته ، ودفن بظاهر طنجة . ثم حمل شلوه بعد أيام إلى مدفن آبائه بشالة فووري هنالك . رحمة الله عليه وعليهم .

* (الخبر عن دولة السلطان أبي الربيع وما كان فيها من الاحداث) *

لما ملك السلطان أبو ثابت تصدّى للقيام بالأمر عمّه علي ابن السلطان أبي يعقوب المعروف بأمّه رزيكة ، وخلص الملأ من بني مرين أهل الحلّ والعقد إلى أخيه أبي الربيع فبايعوه . وتقبّض على عمه عليّ بن رزيكة المستام للإمرة ، فاعتقله بطنجة إلى أن هلك بها سنة عشر وسبعمائة لجمادى . وبثّ العطاء في الناس وأجزل وارتحل نحو فاس . واتبعه عثمان بن أبي العلاء في جيش كثيف ، وبيّته وقد نذر به العسكر فأيقظوا ليلتهم ووافاهم على الظهر بساحة علودان ، فناجزهم الحرب . وكانت الدائرة على عثمان وقومه . وتقبّض على ولده وكثير من عساكره . وأثخن أولياء السلطان فيهم بالقتل والسبي ، وكان الظهور الذي لا كفاء له . ووصل أبو يحيى بن أبي الصبر إلى الأندلس ، وقد أحكم عقدة الصلح . وقد كان ابن الأحمر جاء للقاء السلطان أبي ثابت ، ووصل إلى الجزيرة الخضراء فأدركه خبر مهلكه ، فتوقّف عن الجواز ، وأجاز ابن أبي الصبر باحكام المؤاخاة . واجتاز عثمان بن أبي العلاء إلى العدوة فيمن معه من القرابة . فلحق بغرناطة . وأغذّ السلطان السير إلى حضرته ، فدخل فاس آخر ربيع من سنة ثمان وسبعمائة واستقامت الأمور وتمهّد الملك ، وعقد السلم مع صاحب تلمسان موسى بن عثمان بن يغمراسن ، وأقام وادعاً بحضرته . وكانت أيامه خير أيام ، هدنةً وسكوناً وترفاً لأهل الدولة . وفي أيامه تغالى الناس في أثمان العقار ، فبلغت قيمتها فوق المعتاد . حتى لقد بيع كثير من الدور بفاس بألف دينار من الذهب العين . تنافس الناس في البناء فعالوا الصروح ، واتخذوا القصور المشيّدة بالصخر والرخام

وزخرفوها بالزليج والنقوش . وتناغوا في لبس الحرير وركوب الفاره . وأكل الطيب واقتناء الحلى من الذهب والفضة . واستبحر العمران ، وظهرت الزينة والترف ، والسلطان وادع بداره متملّي أريكته إلى أن هلك كما نذكره إن شاءالله تعالى والله أعلم .

* (الخبر عن مقتل عبدالله بن أبي مدين) *

كان أبو شعيب بن مخلوف من بني أبي عثمان من قبائل كتامة المجاورين للقصر الكبير ، وكان منتحلاً للدين ومشتهراً به . ولما أجلب بنو مرين على المغرب وجالوا في بسائطه ، وتغلّبوا على ضواحيه ، صحب البرّ منهم البرّ والفاجر من أهله مثله . وكان بنو عبد الحق قد تحيّزوا لأبي شعيب هذا فيمن تحيّزوه للصحابة من أهل الدين ، فكان إمام صلاتهم . وكان يعقوب بن عبد الحق أشدّهم صحابة له ، وأوفاهم به ذماماً فاتصل به حبله ، واتصلت[1] صحابته ، وعظم في الدولة قدره وانبسط بين الناس جاه ولده وأقاربه وحاشيته . وربى بنو شعيب هذا عبدالله ومحمد المعروف بالحاج ، وأبو القاسم ومن بعدهم من إخوتهم بقصر كتامة في جو ذلك الجاه . وهلك السلطان يعقوب بن عبد الحق فاستخلصهم يوسف بن عبد الحق لخدمته ، واستعملهم على مختصاته . ثم ترقى بهم في رتب خدمته وأخصّائه ، درجة بعد أخرى إلى أن هلك أبوهم أبو مَدْيَن شُعَيْب سنة سبع وتسعين وستمائة وكان المقدّم منهم عند السلطان عبدالله ، فاربى[2] على ثنيات العزّ والوزارة والخلّة والولاية . وتقدّم لحظوته في مجلسه كل حظوة ، واختصه بوضع علامته على الرسائل والأوامر الصادرة عنه ، وجعل إليه حسبان الخراج والضرب على أيدي العمّال ، وتنفيذ الاوامر بالقبض والبسط فيهم . واستخلصه لمناجاة الخلوات والافضاء بذات الصدور ، فوقف ببابه الإشراف من الخاصة والقبيل والقرابة والولد ، وسوّدوه وخطبوا نائله . وكان عبدالله قد استعمل مع ذلك أخاه محمداً على جباية المصامدة بمراكش ، وهنّأ أبا القاسم

---

(١) وفي نسخة ثانية : استمرت .

(٢) وفي نسخة ثانية : فأوفى .

الدعة بفاس ، فأقام بها متملياً راحته عريضاً جاهه ، طاعماً كاسياً ، تتسرّب إليه أموال العمّال في سبيل الاتحاف ، وتقف ببابه صدور الركائب إلى أن هلك السلطان أبو يوسف . ويقال إنّ له خائنة في دمه مع سعاية الملياني . ولما وَلِيَ من بعده أخوه أبو الربيع فتقبّل فيه مذاهب سلفه . وكان بنو وقاصة اليهود حين نكبوا ، باشر نكبتهم لمكانه من إصدار الأوامر . ويزعمون أنّ له فيهم سعاية . وكان خليفة الأصغر منهم قد استبقى كما ذكرناه ، فلما أفضى الأمر إلى السلطان أبي الربيع استعمل خليفة بداره في بعض المهن ، وباشر[1] الخدم حتى اتصل بمباشرة السلطان ، فجعل غايته السعاية بعبدالله بن أبي مَدْيَن . وكان يؤثر عن السلطان أبي الربيع بأنه لا تؤمن بوائقه مع حرم ذويه ، وتعرف خليفة ذلك من مقالات الناس ، فدسّ إلى السلطان أنّ عبدالله بن أبي مدين يعرض باتهام السلطان في ابنته ، وأن صدره وغر بذلك ، وأنه مترصد بالدولة . وكان يخشى العائلة بما كان عليه من مداخلة القبيل ، ولما كان داعيته من دواعي آل يعقوب ، فتعجّل السلطان دفع غائلته واستدعاه صبيحة زفاف ابنته ، زعموا عن زوجها فاستحثّه قائد الروم من داره بفاس . ونذر بالشر ، فلم يغنه النذر ، ومرّ في طريقه إلى دار السلطان بمقبرة أبي يحيى بن العربي ، فطعنه القائد هنالك من ورائه طعنة أكبته على ذقنه . واحتزّ رأسه وألقاه بين يدي السلطان . ودخل الوزير سليمان بن يرزيكن فوجده بين يديه ، فذهبت نفسه عليه وعلى مكانه من الدولة حسرةً واسفاً ، وأيقظ السلطان لمكر اليهودي ، فوقفه على براءة كان ابن أبي مَدْيَن بعثها للسلطان معه بالتنصّل والحلف ، فتيقّظ وعلم مكر اليهودي به ، فندم وفتك لحينه بخليفة بن وقاصة وذويه من اليهود المتصدّين للخدمة ، وسطا بهم سطوة الهلكة ، فأصبحوا مثلا للآخرين ، والله أعلم .

* (الخبر عن ثورة أهل سبتة بالأندلسيين ومراجعتهم طاعة السلطان) *

لما قفل السلطان أبو الربيع من غزاة سبتة بعد أن شرّد عثمان بن أبي العلاء وأحجره

(١) وفي نسخة ثانية : ولابس .

بسبتة ، وأجاز منها إلى العدوة ومن كان معه من القرابة كما قلناه ، بلغه الخبر بضجر أهل سبتة ، ومرض قلوبهم من ولاية الأندلسيين وسوء ملكتهم . ودسّ إليه بعض أشياعه بالبلد بمثل ذلك ، فأغزى صنيعته تاشفين بن يعقوب الوطاسي أخا وزيره في عساكر ضخمة من بني مرين . وسائر الطبقات من الجند . وأوعز إليه بالتقدّم إلى سبتة ومنازلتها ، فأغذّ إليها السير ونزل بساحتها ، ولما أحسّ به أهل البلد تمشت رجالاتهم(١) وتنادوا بشعارهم ، وثاروا على من كان بينهم من قوّاد ابن الأحمر وعمّاله وأخرجوا منها حاميته وجنوده . واقتحمها العساكر واحتل بقصبتها تاشفين بن يعقوب عاشر صفر من سنة تسع وسبعمائة . وطير الفوائق بالخبر إلى السلطان فعمّ السرور وعظم شأن الفرح . وتقبّض على قائد القصبة أبي زكريا يحيى بن مليلة ، وعلى قائد البحر أبي الحسن بن كماشة ، وعلى قائد الحروب بها من الأعياص عمر بن رحّو بن عبدالله بن عبد الحق . كان صاحب الأندلس عقد له مكان ابن عمّه عثمان بن أبي العلاء عند إجازته البحر إلى الجهاد كما ذكرناه . وكتب إلى السلطان بالفتح ، وأوفد عليه الملأ من مشيخة أهل سبتة وأهل الشورى . وبلغ الخبر إلى ابن الأحمر فارتاع لذلك وخشي عادية السلطان ، وجيوش المغرب حين انتهوا إلى الفرضة . وقد كان الطاغية في تلك الأيام نازل الجزيرة الخضراء ، وأقلع عنها على الصلح بعد أن أذاقها من الحصار شدّة ، وبعد أن نازل جبل الفتح ، فتغلّب عليه وملكه . وانهزم زعيم من زعمائه يعرف بألْفُنْش بيرس ، هزمه أبو يحيى بن عبدالله بن أبي العلاء صاحب الجيش بمالقة ، لقيه وهو يجوس خلال البلاد بعد تملّك الجبل ، فهزم النصارى وقتلوا أبرح قتل . وأهم المسلمين شأن الجبل فبادر السلطان أبو الجيوش . بانفاذ رسله راغبين في السلم خاطبين للولاية . وتبرّع بالنزول عن الجزيرة ورندة وحصونها ، ترغيباً للسلطان في الجهاد ، فتقبّل منه السلطان وعقد له الصلح على ما رغب ، وأصهر إليه في أخته ، فأنكحه إياها . وبعث بالمدد للجهاد ، أموالاً وخيولاً وجنائب مع عثمان بن عيسى اليرنياني . واتصلت بينهما الولاية إلى مهلك السلطان والبقاء لله وحده .

---

(١) وفي نسخة أخرى : بهشت . وتبهّش القوم : اجتمعوا (قاموس) .

* (الخبر عن بيعة عبد الحق بن عثمان بممالأة الوزير والمشيخة وظهور السلطان عليهم ثم مهلكه باثر ذلك) *

كانت رسل ابن الأحمر خلال هذه المهادنة والمكاتبات تختلف إلى باب السلطان ، ووصل منهم في بعض أحيانها خلف من مترفيهم ، فجاهر بالكبائر ، فكشف صفحة وجهه في معاقرة الخمر والإدمان عليه . وكان السلطان منذ شهر جمادى الأولى سنة تسع وسبعمائة قد عزل القاضي بفاس أبا غالب المغيلي ، وعهد باحكام القضاء لشيخ الفتيا المذكور بها أبي الحسن الملقّب بالصغير . وكان على نهج[1] من تغيير المنكرات والتعسّف فيها ، حتى لقد كان مطاوعاً في ذلك وسواس النسك الأعجمي ، ومتجاوزاً به الحدود المتعارفة بين أهل الشريعة في سائر الأمصار . وأحضر عنده ذات يوم هذا الرسول ثملاً ، وحضر العدول فاستروحوه ، ثم أمضى حكم الله فيه ، وأقام عليه الحدّ . وأضرمته هذه الموجدة ، فاضطرم غيظاً وتعرّض للوزير رحّو بن يعقوب الوطاسي منصرفه من دار السلطان في موكبه ، وكشف عن ظهر يريه السياط وينعي عليهم سوء هذا المرتكب مع الرسل . فتبرّم لذلك الوزير وأدركته الحفيظة ، وسرّح وزعته[2] وحشمه في إحضار القاضي على أسوا الحالات من التنكيل والتلّ لذقنه ، فمضوا لتلك الوجهة ، واعتصم القاضي بالمسجد الجامع ، ونادى المسلمين ، فثارت العامّة فيهم ، ومرج أمر الناس . واتصل الخبر بالسلطان فتلافاه بالبعث في أولئك النفر من وزعة الوزير ، وضرب أعناقهم ، وجعلهم عظة لمن وراءهم ، فأسرّها الوزير في نفسه ، وداخل الحسن بن عليّ بن أبي الطلاق من بني عسكر بن محمد شيخ بني مرين ، والمسلم له في شوارهم . وقائد الروم غنصالة المنفرد برياسة العسكر وشوكته ، وكان لهم بالوزير اختصاص آثروه له على سلطانه ، فدعا لهم لبيعة[3] عبد الحق بن عثمان بن محمد بن عبد الحق كبير القرابة وأسد الأعياص ، وخلع طاعة السلطان فأجابوه وبايعوا له ، وتمّ أمرهم نجيًّا . ثم خرج عاشر جمادى من سنة عشر

(١) وفي نسخة أخرى : ثبج .

(٢) الوزعة : ج وازع وهو الذي يدير أمر الجيوش (قاموس) .

(٣) وفي نسخة ثانية : فدعاهم إلى بيعة .

وسبعمائة إلى ظاهر البلد الجديد بمكان الرمكة ، وجاهروا بالخلعان وأقاموا الآلة وبايعوا سلطانهم عبد الحق على عيون الملأ . وعسكروا بالعدوة القصوى من سبّو تخم بلاد العسكر ، وأزاء نبدورة من معاقل الحسن بن علي زعيم تلك الثورة . ثم ارتحلوا من الغد الى تازى وخرج السلطان في أثرهم فعسكر بسبّو وتلوّم لاعتراض العساكر ، وإزاحة العلل ، واحتل القوم برباط تازي ، وأوفدوا على موسى بن عثمان بن يغمراسن سلطان بني عبد الواد يدعونه إلى المظاهرة واتصال اليد ، والمدد بالعساكر والأموال جنوحاً إلى التي هي آثر لديه من تفريق كلمة عدوّه ، فتثاقل عن ذلك لمكان السلم الذي عقد له السلطان مذ أوّل الدولة ، وليستبين سبيل القوم . وقدّم السلطان بين يديه يوسف بن عيسى الجشمِيّ ، وعمر بن موسى الفودودي في جموع كتيبة من بني مرين . وسار في ساقتهم ، فانكشف القوم عن تازى ولحقوا بتلمسان صرخاً . وحمد السلطان مغبّة تثاقله عن نصرهم ووجد بها الحجة عليهم ، إذ غاية مظاهرته إياهم أن يملكّهم تازى ، وقد انكشفوا عنها فيئسوا من صريخه . وأجاز عبد الحق بن عثمان ورحّو بن يعقوب إلى الأندلس ، فأقام رحّو بها إلى أن قتله أولاد ابن أبي العلاء ، ورجع الحسن بن علي إلى مكانه من قبيله ومحلّه من مجلس السلطان بعد أن اقتضى عهده بالأمان على ذلك . ولما احتلّ السلطان بتازى حسم الداء ومحا أثر الشقاق ، وأثخن في حاشية الخوارج وذويهم بالقتل والسبي . ثم اعتلّ أثناء ذلك وهلك لليال من اعتلاله سلخ جمادى الأخيرة من سنة عشر وسبعمائة ووري بصحن الجامع الأعظم من تازى ، وبويع السلطان أبو سعيد ، كما نذكره إن شاءالله .

* (الخبر عن دولة السلطان أبي سعيد وما كان فيها من الأحداث) *

لما هلك السلطان أبو الربيع بتازى تطاول للأمر عمّه عثمان ابن السلطان أبي يعقوب المعروف بأمّه قضنيت[1] . واستام المنصب وأسدى في ذلك وألحم . وحضر الوزراء والمشيخة بالقصر بعد هدء من الليل ، واثاروا شيخ القرابة يومئذ وكبير الأعياص

(١) كذا في النسخة الباريسية وفي النسخة المصرية : قضيب .

المرشحين ، وسرّبت إليهم الأموال . وجاءهم عثمان ابن السلطان أبي يعقوب مستاماً ، فزجروه واستدعوا السلطان أبا سعيد ، فحضر وبايعوه ليلتئذٍ وأنفذ كتبه إلى النواحي والجهات باقتضاء البيعة . وسرّح ابنه الأكبر الأمير أبا الحسن إلى فاس ، فدخلها غرّة رجب من سنة عشر وسبعمائة . ودخل القصر واطلع على أمواله وذخيرته ، وفي غد ليلته أخذت البيعة للسلطان بظاهر تازى على بني مرين ، وسائر زناتة والعرب والقبائل والعساكر والحاشية والموالي والصنائع والعلماء والصلحاء ونقباء الناس وعرفائهم والخاصة والدهماء . فقام بالأمر واستوسق له الملك . وفرّق الأعطيات وأسنى الجوائز ، وتفقّد الدواوين ورفع الظلامات ، وحطّ المغارم والمكوس . وسرّح أهل السجون ، ورفع عن أهل فاس وظيفة الرباع[1] وارتحل لعشرين من رجب إلى حضرته ، فاحتلّ بفاس . وقدم عليه وفود التهنئة من جميع بلاد المغرب . ثم خرج لذي القعدة بعدها إلى رباط الفتح لتفقّد الأحوال والنظر في أحوال الرعايا ، واهتمّ بالجهاد ، وأنشأ الأساطيل للغزو في سبيل الله . ولما قضى منسك الأضحى بعده ، رجع إلى حضرته بفاس . ثم عقد سنة إحدى عشرة وسبعمائة لأخيه الأمير أبي البقاء يعيش على ثغور الأندلس : الجزيرة ورندة وما إليها من الحصون . ثم نهض من الحصون سنة ثلاث عشرة وسبعمائة إلى مراكش لما كان بها من اختلال الأحوال ، وخروج عدي بن هنّو الهسكوري ، ونقضه للطاعة ، فنازله وحاصره مدّة ، واقتحم حصنه عنوة عليه ، وحمله إلى دار ملكه عنوة ، فأودعه المطبق . ثم رجع إلى غزو تلمسان ، والله أعلم .

---

* (الخبر عن حركة السلطان أبي سعيد الى تلمسان أولى حركاته اليها) *

لما خرج عبد الحق بن عثمان على السلطان أبي الربيع ، وتغلّب على تازى، بمظاهرة الحسن بن عليّ بن أبي الطلاق كبير بني عسكر ، واختلف رسلهم إلى أبي حمّو موسى بن عثمان سلطان بني عبد الواد ، اسف ذلك بني مرين وحرّك من

---

(١) يعني أنه رفع عنهم ضريبة الربع التي كانوا يدفعونها للحاكم .

إحنهم[1] ، ولما لحق الخارجون على الدولة بالسلطان أبي حمّو وأقبل عليهم أضرم ذلك حقد بني مرين . وولّى السلطان أبو سعيد الأمر وفي أنفسهم من بني عبد الواد غصّة . فلما استوسق أمر السلطان ، ودوّخ الجهات المراكشية ، وعقد على البلاد الأندلسية وفرغ من شأن المغرب ، اعتزم على غزو تلمسان فنهض إليه سنة أربع عشرة وسبعمائة ولما انتهى إلى وادي ملويّة قدّم إبنيه أبا الحسن وأبا عليّ في عسكرين عظيمين في الجناحين ، وسار في ساقتهما ، ودخل بلاد بني عبد الواد على هذه التعبية ، فاكتسح نواحيها واصطلم نعمها . ونازل وجدة ، فقاتلها قتالاً شديداً وامتنعت عليه ثم نهض إلى تلمسان فنزل بالملعب من ساحتها . وانحجر موسى بن عثمان من وراء أسوارها ، وغلب على معاقلها ورعاياها وسائر ضواحيها ، فحطّمها حطماً ، ونسف جهاتها نسفاً ، ودوّخ جبال بني يرناسن وفتح معاقلها وأثخن فيها وانتهى إلى وجدة . وكان معه في معسكره أخوه يعيش بن يعقوب ، وقد أدركته بعض استرابة بأمره ففرّ إلى تلمسان ، ونزل على أبي حمّو ورجع السلطان على تعبيته إلى تازى ، فأقام بها . وبعث ابنه الأمير أبا عليّ إلى فاس فكان من خروجه على أبيه ما نذكر إن شاءالله تعالى .

* (الخبر عن انتقاض الامير أبي علي وما كان بينه وبين أبيه من الواقعات) *

كان للسلطان أبي سعيد إثنان من الولد أكبرهما لأمته الحبشية ، وهو عليّ ، والأصغر لمملوكة من سبي النصارى وهو عمر . وكان هذا الأصغر آثرهما لديه ، وأعلقهما بقلبه منذ نشأ ، فكان عليه حدباً وبه مشغوفاً . ولما استولى على ملك المغرب ، رشّحه بولاية عهده ، وهو شاب لم يطرّ شاربه . ووضع له ألقاب الإمارة ، وصيّر معه الجلساء والخاصّة والكتّاب وأمره باتخاذ العلامة في كتبه . وعقد على وزارته لابراهيم بن عيسى اليرنياني من صنائع دولتهم وكبار المرشحين بها . ولما رآه أخوه الأكبر أبو الحسن صاغية أبيه إليه ، وكان شديد البرور بوالديه ، انحاش إليه وصار في جملته ، وخلط نفسه بحاشيته طاعة لأبيه واستمرّت حال الأمير أبي عليّ على هذا ، وخاطبه الملوك من

(١) كذا في النسخة الباريسية وفي النسخة المصرية : وحرّك مزاجهم .

النواحي وخاطبهم ، وهادوه وعقد الرايات ، واثبت في الديوان ومحا وزاد في العطه ونقص ، وكاد أن يستبدّ . ولما قفل السلطان أبو سعيد من غزاته إلى تلمسان سنة أربع عشرة وسبعمائة أقام بتازى وبعث ولديه إلى فاس ، فلما استقرّ الأمير أبو عليّ بفاس حدّثته نفسه بالاستبداد على أبيه ، وخلعه وراوضه المداخلون له في المكر بالسلطان حتى يتقبّض عليه ، فأبي وركب الخلاف وجاهر بالخلعان ودعا لنفسه ، فأطاعه الناس لما كان السلطان جعل إليه من أمرهم . وعسكر بساحة البلد الجديد يريد غزو السلطان ، فبرز من تازى بعسكره يقدّم رجلاً ويؤخر أخرى .

ثم بدا للأمير أبي عليّ في شأن وزيره ، وحدّثته نفسه بالتقبّض عليه استرابة به لما كان بلغه من المكاتبة بينه وبين السلطان ، فبعث لذلك عمر بن يخلف الفردودي ، وتفطّن الوزير لما حاوله من المكر ، فتقبّض عليه ونزع إلى السلطان أبي سعيد فتقبّله ورضي عنه . وارتحل إلى لقاء ابنه ، ولما تراءى الجمعان بالقرمدة ما بين فاس وتازى ، واختل مصاف السلطان وانهزم عسكره وأفلت بعد أن أصابته جراحه في يده وهن لها ، ولحق بتازى فليلاً جريحاً . ولحق به ابنه الأمير أبو الحسن نازعاً إليه من جملة أخيه أبي علي بعد المحنة وفاء لحق أبيه ، فاستبشر السلطان بالظهور والفتح ، وحمد المغبة ، وأناخ الأمير أبو علي بعساكره على تازى ، وسعى الخواص بين السلطان وابنه في الصلح على أن يخرج له السلطان عن الأمر ويقتصر على تازى وجهاتها ، فتمّ ذلك بينهما وانعقد . وشهد الملأ من مشيخة العرب وزناتة وأهل الأمصار ، واستحكم عقده وانكفأ الأمير أبو عليّ إلى حضرة فاس مملّكاً . وتوافت إليه بيعات الأمصار بالمغرب ووفودهم ، واستوسق أمره .

ثم اعتلّ على أثر ذلك واشتدّ وجعه ، وصار إلى حال الموت وخشي الناس على أنفسهم تلاشى الأمر بمهلكه ، فسايلوا إلى السلطان بتازى ، ثم نزع على الأمير أبي عليّ وزيره أبو بكر بن النوار[1] وكاتبه منديل بن محمد الكتاني ، وسائر خواصه ، ولحقوا بالسلطان وحملوه على تلافي الأمر ، فنهض من تازى واجتمع إليه كافة بني مرين والجند . وعسكر على البلد الجديد وأقام محاصراً لها ، وابتنى داراً لسكناه وجعل لابنه الأمير أبي الحسن ما كان لأخيه أبي علي من ولاية العهد وتفويض الأمر .

---

(١) وفي النسخة المصرية : أبو بكر بن النوان .

وتفرد أبو عليّ بطائفة من النصارى المستخدمين بدولتهم ، كان قائدهم يمتّ إليه بخؤولة ، وضبط البلد مدّة مرضه حتى اذا أفاق وتبين اختلال أمره ، بعث إلى أبيه في الصفح والرضى ، وان ينزل له عما انتزى عليه من الأمر على أن يقطعه سجلماسة وما إليها ، ويسوغه ما احتمل من المال والذخيرة من دراهم ، فأجابه لذلك ، وانعقد بينهما سنة خمس عشرة وسبعمائة وخرج الأمير أبو علي بخاصّته وحشمه ، وعسكر بالزيتون من ظاهر البلد . ووفى له السلطان بما اشترط وارتحل إلى سجلماسة ، ودخل السلطان إلى البلد الجديد ونزل بقصره ، وأصلح شؤون ملكه ، وأنزل ابنه الأمير أبا الحسن بالدار البيضاء من قصوره ، وفوّض إليه في سلطانه تفويض الاستقلال . وأذن له في اتخاذ الوزراء والكتّاب ، ووضع العلامة على كتبه وسائر ما كان لأخيه . ووفدت إليه بيعات الأمصار بالمغرب ، ورجعوا إلى طاعته .

ونزل الأمير أبو علي بسجلماسة فأقام بها ملكاً ، ودوّن الدواوين ، واستلحق واستركب ، وفرض العطاء واستخدم ظواعن العرب من المعقل ، وافتتح معاقل الصحراء وقصور تاورت[1] وتيكورارين وتمنطيت ، وغزا بلاد السوس فافتتحها وتغلب على ضواحيها ، وأثخن في أعرابها من ذوي حسّان والشبانات وزكنة ، حتى استقاموا على طاعته .

وبيّت عبد الرحمن بن يدر أمير الأنصار بالسوس في تارودانت مقرّه ، فافتتحها عليه عنوة وقتله ، واصطلم نعمته وأباد سلطانه . وأقام لبني مرين في بلاد القبلة ملكاً وسلطاناً ، وانتقض على السلطان سنة عشرين وسبعمائة وتغلّب على درعة ، وسما إلى طلب مراكش ، فعقد السلطان على حربه لأخيه الأمير أبي الحسن ، وجعله إليه ، وأغزاه ونهض على أثره ، واعتلّ[2] بمراكش ، وثقف أطرافها وحسم عللها . وعقد عليها لكندوز بن عثمان من صنائع دولتهم ، وقفل بعساكره إلى الحضرة . ثم نهض الأمير أبو علي سنة إثنتين وعشرين وسبعمائة بجموعه من سجلماسة وأغذّ السير إلى مراكش ، فاختلفت عساكره بها قبل أن يجتمع لكندوز أمره . فتقبّض عليه وضرب عنقه ورفعه على القناة وملك مراكش وسائر ضواحيها . وبلغ الخبر إلى السلطان ، فخرج من حضرته في عساكره بعد أن احتشد . وأزاح العلل ، واستوفى

---

(١) وفي النسخة المصرية : توات .

(٢) وفي النسخة المصرية : فاحتلوا .

الأعطيات ، وقدّم بين يديه ابنه الأمير أبا الحسن ولي عهده الغالب على أمره في عساكره وجموعه . وجاء في ساقته ، وسار على هذه التعبية . ولما انتهى إلى بويو[(١)] من وادي ملويّـة نذروا بالبيات من أبي علي وجنوده ، فحذروهم وأيقظوا ليلتهم . وبيّتهم بمعسكرهم ذلك ، فكانت الدبرة عليه . وفلّ عسكره . وارتحلوا من الغد في أثره . وسلك على جبال درن ، وافترقت جنوده في أوعاره ، ولحقهم من معراتها شناعات ، حتى ترجّل الأمير أبو عليّ عن فرسه ، وسعى على قدميه ، وخلص من ورطة ذلك الجبل بعد عصب الريق ، ولحق بسجلماسة ، ومهّد السلطان نواحي مراكش ، وعقد عليها لموسى بن علي بن محمد الهنتاتي ، فعظم غناؤه في ذلك واضطلاعه وامتدّت أيام ولايته وارتحل السلطان إلى سجلماسة ، فدافعه الأمير أبو علي بالخضوع في الصفح والرضا والعودة إلى السلم ، فأجابه السلطان لما كان شغفه من حبّه ، فقد كان يؤثر عنه من ذلك غرائب . ورجع إلى الحضرة وأقام الأمير أبو علي بمكانه من ملك القبلة إلى أن هلك السلطان ، وتغلّب عليه أخوه السلطان أبو الحسن كما نذكره إن شاءالله تعالى .

* (الخبر عن نكبة منديل الكتاني ومقتله) *

كان أبوه محمد بن محمد الكتاني[(٢)] من علية الكتاب بدولة الموحّدين ، ونزع من مراكش عندما انحل نظام بني عبد المؤمن وانفض جمعهم إلى مكناسة ، فأوطنها في إيالة بني مرين . واتصل بالسلطان يعقوب بن عبد الحق فصحبه فيمن كان يثاثر على صحابته من أعلام المغرب . وسفر عنه إلى الملوك كما ذكرناه في سفارته إلى المستنصر سنة خمس وستين وستمائة وهلك السلطان يعقوب بن عبد الحق فازداد الكتاني عند إبنه يوسف بن يعقوب حظوة ومكانه إلى أن سخطه ونكبه سنة سبع وستين وستمائة وأقصاه من يومئذ وهلك في حال سخطته . وبقي من بعده ابنه منديل هذا في جملة السلطان أبي يعقوب متبرماً بمقام عبدالله بن أبي مدين المستولي على قهرمة دار

(١) كذا في النسخة الباريسية وفي النسخة المصرية توتو وفي نسخة أخرى نونو .
(٢) وفي النسخة المصرية : الكتاني .

السلطان ومخالصته في خلواته مغضياً لذلك . متوقعاً النكبة في أكثر أيامه مضطرمة له بالحسد جوانحه ، مع ما كان عليه من القيام على حسبان الديوان عرف فيه بسبقه وتشابه صديقه وعدوه . ولما تغلّب السلطان على ضواحي شلف ومغراوة واستعمل على حسبان الجباية ، وجعل إليه ديوان العسكر هنالك ، وإلى نظره اعتراضهم وتمحيصهم ، فنزل على مليانة مع من كان هنالك من الأمراء مثل علي بن محمد الخيري والحسن بن علي بن أبي الطلاق العسكري إلى أن هلك السلطان أبو يعقوب ، ورجّع أبو ثابت البلاد إلى أبي زيّان وأخيه أبي حمّو فخفّ عليهما ، وحلا بعيونهما ، واستبلغا في تكريمه وانصرف إلى مغربه . وكان معسكر السلطان يوسف بن يعقوب على تلمسان قد صحب أخاه أبا سعيد عثمان بن يعقوب في حال خموله ، وتأكّدت بينهما الخِلّة التي رعاها له السلطان أبو سعيد . فلمّا وَلِيَ أمر المغرب متّ بذلك إليه ، فعرفه له واختصّه وخالصه ، وجعل إليه وضع علامته وحسبان جبايته ، ومستخلص أحواله ، والمفاوضة بذات صدره . ورفع مجلسه في بسائطه ، وقدّمه على خاصته . وكان كثير الطاعة للأمير أبي علي ابنه المتغلّب على أبيه قبل أوّل أمره[1] . ولما استبدّ وخلع أباه انحاش منديل هذا إليه . ثم نزع عنه حين تبيّن اختلال أمره ، وكان الأمير أبو الحسن يحقد عليه ولاية أخيه أبي عليّ لما كان بينهما من المنافسة . وكان كثيراً مايوغر صدره بإيجاب حق عمر عليه ، وامتهانه في خدمته . وطوى له على النث حتى اذا انفرد بمجلس أبيه وفصل عمر إلى سجلماسة أحكم السعاية فيه والحاح[2] في الهلكة التي أحكم[3] السلطان عليها أذناً واعية ، حتى تأذّن الله بإهلاكه . وكان منديل هذا كثيراً ما يغضب السلطان في المحاورة والخطاب دالة عليه وكبراً ، فاعتدّ عليه من ذلك كلمات وأحوالاً ، وسخطه سنة ثمان عشرة وسبعمائة واذن لإبنه الأمير أبي الحسن في نكبته ، فاعتقله واستصفى أمواله ، وطوى ديوانه وامتحنه أياماً ، ثم قتله بمحبسه خنقاً ، ويقال جوعاً . وذهب مثلاً في الغابرين ، والله خير الوارثين .

---

(١) وفي النسخة المصرية : المتغلب على أبيه أول مرّة .

(٢) وفي النسخة المصرية : الآلاء .

(٣) وفي النسخة المصرية : صرّ .

* (الخبر عن انتقاض العزفي بسبتة ومنازلته ثم مصيرها الى طاعة السلطان بعد مهلكه) *

كان بنو العزفي لما تغلب عليهم الرئيس أبو سعيد ونقلهم إلى غرناطة سنة خمس وسبعمائة استقرّوا بها في إيالة المخلوع ثالث ملوك بني الأحمر ، حتى اذا استولى السلطان أبو الربيع على سبتة سنة تسع وسبعمائة أذنوه في الإجازة إلى المغرب ، فأجازوا إلى فاس ، فاستقروا بها . وكان يحيى وعبد الرحمن إبنا أبي طالب من سراتهم وكبارهم ، وكانوا يغشون مجالس أهل العلم ، لِمَا كانوا عليه من انتحال الطلب[1] . وكان أبوسعيد أيام إمارة بني أبيه يجالس بالمسجد الجامع القرويين شيخ الفتيا أبا الحسن الصغير . وكان يحيى بن أبي طالب يلازمه ، فاتصل به وصارت له وسيلة يحتسبها عنده . فلمّا وَلِيَ الأمر واستقلّ به ، رعى لهم زمام صحابتهم ، ووفّى لهم مقاصدهم . وعقد ليحيى على سبتة ، ورجّعهم إلى مقرّ إمارتهم منها ومحل رياستهم ، فارتحلوا إليها سنة عشر وسبعمائة وأقاموا دعوة السلطان أبي سعيد والتزموا طاعته . ثم تغلّب الأمير أبو علي على أمر أبيه ، واستبدّ عليه فعقد على سبتة لأبي زكريا حيّون بن أبي العلاء القرشي ، وعزل يحيى بن أبي طالب عنها . واستقدمه إلى فاس فقدمها هو وأبوه أبو طالب وعمّه حاتم ، واستقرّوا في جملة السلطان. وهلك أبو طالب بفاس خلال ذلك حتى إذا كان من خروج الأمير أبي علي على أبيه ما قدّمناه ، لحق يحيى بن أبي طالب وأخوه بالسلطان نازعين من جملة الأمير أبي علي . فلما اعتلّ بالبلد الجديد ونازله السلطان بها فحينئذ عقد السلطان ليحيى بن أبي طالب على سبتة ، وبعثه إليها ليقيم دعوته بتلك الجهات . وتمسّك بابنه محمد رهناً على طاعته ، فاستقلّ بإمارتها ، وأقام دعوة السلطان وطاعته بها . وأخذ بيعته على الناس ، واتصل ذلك سنتين[2] . وهلك عمّه أبو حاتم هنالك بعد مرجعه معه من المغرب سنة ست عشرة وسبعمائة . ثم انتقض على طاعة السلطان ونبذ طاعة الأمراء ، ورجع إلى حال سلفه من أمر الشورى في البلد. واستقدم من الأندلس عبد الحق بن

---

(١) وفي النسخة المصرية : الطب .

(٢) وفي نسخة ثانية : سنين .

عثمان فقدم عليه وعقد له على الحرب ليفرّق الكلمة به ، ويوهن بيأسه عزائم السلطان في مطالبته . وجهّز السلطان إليه العساكر من بني مرين وعقد على حربه للوزير ابراهيم بن عيسى ، فزحف إليه وحاصره ، وتعلّل عليهم بطلب إبنه ، فبعث به السلطان إلى وزيره ابراهيم ليعطي طاعته ، فيسلمه ، وجاءه الخبر من عيون كانت بالعسكر وأن ابنه كائن بفسطاط الوزير بساحة البحر ، بحيث تتأتى الفرصة في أخذه ، فبيّت المعسكر ، وهجم عبد الحق بن عثمان بحشمه وذويه على فسطاط الوزير ، فاحتمله إلى أبيه وركبت العساكر للهيعة ، فلم يقفوا على خبر حتى تفقّد الوزير ابن العزفي . واتهموا قائدهم ابراهيم بن عيسى الوزير بممالأة العدوّ على ذلك ، فاجتمعت مشيختهم وتقبّضوا عليه ، وحملوه إلى السلطان ابتلاءً للطاعة واستبصاراً في نصح السلطان ، فشكر لهم وأطلق وزيره لابتلاء نصيحته . ورغب يحيى بن العزفي بعدها في رضى السلطان وولايته . ونهض السلطان سنة تسع عشرة وسبعمائة إلى طنجة لاختبار طاعته ، فعقد له على سبتة واشترط هو على نفسه الوفاء لجباية السلطان ، وأسنى هديته في كل سنة . واستمرّت الحال على ذلك إلى أن هلك يحيى العزفي سنة عشرين وسبعمائة . وقام بالأمر بعده ابنه محمد إلى نظر عمّه محمد بن عليّ بن الفقيه أبي القاسم شيخ قرابتهم . وكان قائد الأساطيل بسبتة ووَلِيّ النظر فيها بعد أن نزع القائد يحيى الرنداحي إلى الأندلس ، واختلف الغوغاء بسبتة ، وانتهز السلطان الفرصة فأجمع على النهوض إليها سنة ثمان وعشرين وسبعمائة وبادروا بايتاء طاعتهم . وعجز محمد ابن يحيى عن المناهضة ، وظنّها محمد بن عيسى من نفسه ، فتعرّض للأمر في أوغاد من اللفيف ، فاجتمعوا إليه ودافعهم الملأ عن ذلك ، وحملوهم على الطاعة ، واقتادوا بني العزفي إلى السلطان فانقادوا ، واحتل السلطان بقصبة سبتة ، وثقف جهاتها ورمّ منثلمها وأصلح خللها . واستعمل كبار رجالاته وخواصّ مجلسه في أعمالها ، فعقد لحاجبه عامر بن فتح الله الصدراتي على حاميتها ، وعقد لأبي القاسم بن أبي مَديَن على جبايتها والنظر في مبانيها ، وإخراج الأموال للنفقات فيها . وأسنى جوائز الملأ من مشيختها ، ووفّر أقطاعاتهم وجراياتهم . وأوعز ببناء البلد المسمّى أفراك على سبتة ، فشرعوا في بنائها سنة تسع وعشرين وسبعمائة وانكفأ راجعاً إلى حضرته ، والله تعالى أعلم .

* (الخبر عن استقدام عبد المهيمن للكتابة والعلامة) *

كان بنو عبد المهيمن من بيوتات سَبْتَة ، ونسبهم في حضرموت . وكانوا أهل تَجِلّة ووقار ، منتحلين للعلم . وكان أبو محمد قاضياً بسبتة أيام أبي طالب وأبي حاتم ، وكان له معهم صهر . ونشأ ابنه عبد المهيمن هذا في حجر الطلب والجلالة ، وقرأ صناعة العربيّة على الاستاذ الغافقي وحذق فيها . ولما نزلت بهم نكبة الرئيس أبي سعيد سنة خمس وسبعمائة واحتملوا إلى غرناطة ، احتمل فيهم القاضي محمد بن عبد المهيمن وابنه . وقرأ عبد المهيمن بغرناطة على مشيختها ، وازداد علماً وبصراً باللسان والحديث . واستكتب بدار السلطان محمد المخلوع ، واختصّ بوزيره المتغلّب على دولته محمد بن الحكيم الرُنْدِيّ فيمن اختص به من رؤساء بني العزفي . ثم رجع بعد نكبة ابن الحكيم إلى سبتة ، وكتب عن قائدها ابن مسلمة مدّة . ولما استخلص بنو مرين سبتة سنة تسع وسبعمائة اقتصر على الكتابة ، وأقام منتحلاً مذاهب سلفه في انتحال العلم ونزول المرؤة . ولما استولى السلطان أبو سعيد على المغرب واستقل بولاية العهد ، وتغلّب على الأمر ابنه أبو علي ، وكان محبًّا للعلم مولعاً بأهله منتحلاً لفنونه . وكانت دولته خلواً من صناعة التراسل مذ عهد الموحدين للبداوة الموجودة في أوّلهم [1] . وحصل للأمير أبي عليّ بعض البصر بالبلاغة واللسان تفطّن به لشأن ذلك ، وخلو دولتهم من الكتّاب المرسلين ، وأنهم إنما يحكمون الخطّ الذي حذقوا فيه . ورأى الأصابع تشير إلى عبد المهيمن في رياسة تلك الصناعة ، فولع به . وكان كثير الوفادة مع أهل بلده أوقات وفادتهم ، فيختصه الأمير أبو علي بمزيد برّه وكرامته ، ويرفع مجلسه ، ويخطبه للكتابة وهو يمتنع عليه . حتى اذا أمضى عزيمته في ذلك أوعز إلى عامله بسبتة سنة إثنتي عشرة وسبعمائة أن يشخصه إلى بابهم فقلده كتابته وعلامته حتى اذا خرج أبو علي على أبيه تحيز عبد المهيمن الى الامير أبي الحسن ، فلما صولح أبو علي على النزول عن البلد الجديد وكتب شرطه على السلطان كان من جملتها كون عبد المهيمن معه ، وأمضى له السلطان ذلك وأنف الأمير أبو

---

(١) وفي طبعة بولاق : الموجدة في دولتهم .

الحسن منها ، فأقسم ليقتلنّه إن عمل بذلك ، فرفع عبد المُهَيْمن أمره إلى السلطان ولاذبه ، وألقى نفسه بين يديه ، فرقّ لشكواه وأمره باعتزالهما معاً والرجوع إلى خدمته . وأنزله بمعسكره وأقام على ذلك ، واختصه منديل الكتاني كبير الدولة وزعيم الخاصة ، وأنكحه ابنته ، ولما نكب منديل جعل السلطان علامته لأبي القاسم بن أبي مَدْيَن ، وكان غفلاً خلواً من الآداب ، فكان يرجع إلى عبد السلطان علامته لأبي القاسم بن أبي مَدْيَن ، وكان غفلاً خلواً من الآداب ، فكان يرجع إلى عبد المهيمن في قراءة الكتب وإصلاحها ، وإنشائها حتى عرف السلطان له ذلك ، فاقتصر عليه وجعل وضع العلامة إليه سنة ثمان عشرة وسبعمائة فاضطلع بها ورسخت قدمه في مجلس السلطان ، وارتفع صيته . واستمرّ على ذلك أيام السلطان وابنه أبي الحسن من بعده إلى أن هلك بتونس في الطاعون الجارف سنة تسع وأربعين وسبعمائة والله سبحانه وتعالى خير الوارثين .

* (الخبر عن صريخ أهل الاندلس ومهلك بطرة على غرناطة) *

كان الطاغية شانجة بن أدفونش قد تكالب على أهل الاندلس من بعد أبيه هراندة الهالك سنة إثنتين وثمانين وستمائة . ومنذ غلب على طريف شغل السلطان يوسف بن يعقوب بعده ببني يغمراسن ، ثم تشاغل حفدته من بعده بأمرهم وتقاصرت مددهم ، وهلك شانجة سنة ثلاث وسبعين[1] وولى ابنه هراندة ونازل الجزيرة الخضراء فرضة الجهاد لبني مرين حولاً كاملاً ، ونازلت أساطيله جبل الفتح واشتدّ الحصار على المسلمين . وراسل هراندة بن أدفونش صاحب برشلونة أن يشغل أهل الأندلس من ورائهم ، ويأخذ بحجزتهم ، فنازل ألمرية وحاصرها الحصار المشهور سنة تسع وسبعمائة ونصب عليها الآلات . وكان منها برج العود المشهور بطول الأسوار بمقدار ثلاث قامات ، وتحيّل المسلمون على إحراقه فأحرق . وحفر العدوّ تحت الأرض مسرباً مقدار ما يسير فيه عشرون راكباً . وتفطّن المسلمون واحتفر قبالتهم مثله إلى أن نفذ بعضهم

(١) الصحيح ثلاث وتسعين وستمائة .

لبعض ، واقتتلوا من تحت الأرض وعقد ابن الأحمر لعثمان بن أبي العلاء زعيم الأعياص على عسكر بعثه مدداً لأهل المريّة ، فلقيه جمع من النصارى كان الطاغية بعثهم لحصار مَرْشَانة[1] ، فهزمهم عثمان واستلحمهم ، ونزل قريباً من معسكر الطاغية وألحّ بمغاداتهم ومراوحتهم الى أن رغبوا إليه في السلم وأفرج عن البلد. وتغلّب الطاغيـة ، خلال ذلك على جبـل الفتـح ، وأقامت عساكره على سماتة[2] واسطبونة[3] ، وزحف العبّاس بن رحّو بن عبدالله وعثمان بن أبي العلاء في العساكر لاغاثة البلدين ، فأوقع عثمان بعسكر اسطبونة ، وقتل قائدهم ألفُنْش بيرش[4] في نحو ثلاثة آلاف فارس واستلحموا . ثم زحف عثمان لاغاثة العبّاس وكان دخل عوجين فحاصرته جموع النصارى به ، فانفضوا الخبر زحفه ، وبلغ الخبر إلى الطاغية بمكانه من ظاهر الجزيرة بفتكة عثمان في قومه ، فسرّح جموع النصرانية ، ولقيهم عثمان فأوقع بهم ، وقتل زعماءهم . وارتحل الطاغية يريد لقاءهم فخالف أهل البلد إلى معسكره ، وانتهبوا محلاته وفساطيطه ، وأتيحت للمسلمين عليهم الكرّة ، وامتلأت الأيدي من غنائمهم وأسراهم . ثم هلك الطاغية أثر هذه الهزائم سنة اثنتي عشرة وسبعمائة وهو هراندة بن شانجة . وولي بعده إبنه الهنشة طفلاً صغيراً ، جعلوه لنظر عمّه دون بطرة ابـن شانجة ،وزعيم النصرانيـة جوان فكفلاه . واستقام أمرهم على ذلك ، وشغل السلطان أبو سعيد ملك المغرب بشأن ابنه وخروجه ، فاهتبل النصرانية الغرّة في الأندلس وزحفوا إلى غرناطة سنة ثمان عشرة وسبعمائة وأناخوا عليها بعسكرهم وأممهم . وبعث أهل الأندلس صريخهم إلى السلطان واعتذر لهم بمكان أبي العلاء من دولتهم ، ومحله من رياستهم ، وأنه مرشّح للأمر في قومه بني مرين ، يخشى معه تفريق الكلمة . وشرط عليهم أن يدفعوه إليه برمّته حتى يتم أمرّ الجهاد ، ويعيده إليهم حوطة على المسلمين . ولم يمكنهم ذلك لمكان عثمان بن أبي العلاء لصرامته وعصابته

---

(١) مرشانة : مدينة من أعمال قرمونة بالاندلس (معجم البلدان) .

(٢) كذا في النسخة الباريسية وفي طبعة بولاق شمانة وفي نسخة أخرى : سماية وفي معجم البلدان ذكر سمّانة وهو اسم موضع ولم يزد على ذلك .

(٣) اسطبونة : لم يذكرها صاحب معجم البلدان ولعلها اسطبة المذكورة في نفح الطيب ج ١ ص ١٦٥ وتبعد عن قرطبة ٣٦ ميلاً .

(٤) وفي نسخة ثانية : ألفنس بترس .

من قومه ، فأخفق سعيهم واستلحموا . وأطالت أمم النصرانية بغرناطة ، وطمعوا في التهامها . ثم إنّ الله نفّس مخنقهم ، ودافع قدرته عنهم ، وكيّف لعثمان بن أبي العلاء وعصبته واقعة فيهم كانت أغرب الوقائع . صمدوا إلى موقف الطاغية بجملتهم ، وكانوا زهاء مائتين أو أكثر ، وصابروهم حتى خالطوهم في مراكزهم ، فصرعوا بِطْرَة وجوان ، وولوهم الأدبار . واعترضتهم من ورائهم مسارب الماء للشرب من شقيل[1] فتطارحوا فيها . وهلك أكثرهم ، واكتسحت أموالهم ، وأعزّ الله دينه ، وأهلك عدوّه . ونصب رأس بِطْرَة بسور البلد عبرةً لمن يذكر ، وهو باق هنالك لهذا العهد . والله تعالى أعلم .

* (الخبر عن صهر الموحدين والحركة الى تلمسان على اثره وما تخلل ذلك من الاحداث) *

لما انفرج الحصار عن ولد يغمراسن بن زيّان أحد ملوك بني عبد الواد سنة ست وسبعمائة وتجافى أبو ثابت عن بلادهم ، ونزل لهم عما كان بنو مرين ملكوه منها بسيوفهم . واستقل أبو حمّو بملك بني عبد الواد على رأس الحول منها ، صرف نظره واهتمامه إلى بلاد المشرق ، فتغلّب على بلاد مغراوة ، ثم على بلاد بني توجين ، ومحا منها أثر سلطانهم . ولحق أعياصهم من ولد عبد القوي بن عطيّة ولد منديل بن عبد الرحمن بالموحّدين بني أبي حفص مع من تبعهم من رؤوس قبائلهم ، وصاروا في جملة عساكرهم . واستلحق مولانا السلطان أبو يحيى وحاجبه يعقوب بن عمر منهم جنداً كثيفاً أثبتهم في الديوان ، وغالب بهم الخوارج والمنازعين للدولة . ثم زحف أبو حمّو إلى الجزائر وغلب ابن علاّن عليها سنة[2] ونقله إلى تلمسان ووفى له . وفرّ بنو منصور أمراء ملكيش أهل بسيط متيجة من صنهاجة ، فلحقوا بالموحّدين واصطنعوهم . وتملّك قاصية المغرب الأوسط وتاخم عمل الموحدين بعمله . ثم تغلّب على تدلس سنة إثنتي عشرة وسبعمائة وتجنى على مولانا السلطان أبي يحيى بما وقع بينهم من المراسلة أيام انتزى ابن مخلوف ببجاية كما ذكرناه في أخباره . فحثّ عزائمه

(١) وفي نسخة ثانية : شنيل .

(٢) بياض بالأصل ولم نستطع تحديد هذه السنة في المراجع التي بين أيدينا .

لمنزلتها وطلب بلاد الموحّدين ، وأوطأ عساكره أرضهم ، ونازل أمصارهم بجاية وقُسَنْطِينَة . واختصّ بجاية بشوكته من ذلك ، وجهّز العساكر مع مسعود ابن عمّه أبي عامر ابراهيم لمضايقتها . وكان خلال ذلك ما قدّمناه من خروج محمد بن يوسف ابن يغمراسن عليه سنة[1] وقيام بني توجين بأمره ، واقتطاع جبل وانشريس من عمالة ملكه .

واستمرّت الحال على ذلك حتى هلك السلطان أبو حمّو سنة ثمان عشرة وسبعمائة وقام بأمرهم ابنه أبو تاشفين عبد الرحمن فصنع له في ابن عمه محمد بن يوسف . ونهض إليه بعساكر بني عبد الواد حتى نازله بمعتصمه من جبل وانشريش وداخله عمر بن عثمان كبير بني تيغرين في المكربه ، فتقبّض عليه وقتله سنة تسع عشرة وسبعمائة وارتحل إلى بجاية حتى احتل بساحتها ، وامتنع عليه الحاجب ابن عمر فأقام يوماً أو بعضه . ثم انكفأ راجعاً إلى تلمسان ، وردّد البعوث إلى أوطان بجاية ، وابتنى الحصون لتجمير الكتائب ، فابتنى بوادي بجاية من أعلاه حصن بكر ، ثم حصن تامز يزدكت . ثم اختط بتيكلات على مرحلة منها بلداً سمّاها تامز يزدكت على اسم المعقل الذي كان لأوليهم بالجبل قبالة وَجْدَة . وامتنع يغمراسن به على السعيد كما قدّمناه ، فاختطّ بلد تيكلات هذه ، وشحنها بالأقوات والعساكر ، وصيّرها ثغراً لملكه ، وأنزل بها جنده . وعقد عليها لموسى بن علي الكردي كبير دولته ، ودولة أبيه[2] . واستحثّه أمراء الكعوب من بني سُلَيْم لملك أفريقية حين مغاضبتهم لمولانا السلطان أبي يحيى اللحياني ، وأبي عبدالله محمد بن أبي بكر بن أبي عمران ، وأبي اسحق بن أبي يحيى الشهيد ، مرّة بعد أخرى كما ذكرناه في أخبارهم جميعاً . وكانت حروبهم سجالاً إلى أن كان بين جيوش زناتة والموحدين الزحف المشهور بالرياش من نواحي مرماجنّة سنة تسع وعشرين وسبعمائة زحفت فيه إلى السلطان أبي يحيى عساكر زناتة مع حمزة بن عمر أمير بني كعب . ومن إليه من البدو ، وعليهم يحيى بن موسى من صنائع دولة آل يغمراسن . وقد نصبوا للملك محمد بن أبي عمران بن أبي حفص ، ومعهم عبد الحق بن عثمان من أعياص بني عبد الحق في بنيه وذويه . وكان نزع إليهم من عند الموحّدين كما ذكرناه ، فاختلّ مصاف مولانا السلطان أبي يحيى

(١) بياض بالأصل ولم نستطع تحديد هذه السنة في المراجع التي بين أيدينا .
(٢) وفي نسخة ثانية : لموسى بن علي العزفي كبير دولته ودولة إبنه .

وانهزم ، واستولوا على فساطيطه بما فيها من الذخيرة والحرم ، وانتهبوا معسكره وتقبّضوا على ولديه المولين أحمد وعمر ، وأشخصوهما إلى تلمسان . وأصيب السلطان في بدنه بجراحات أوهنته ، وخلص إلى بونة ناجياً برمقه . وركب السفين منها إلى بجاية ، فأقام بها يـد مل جراحه ، واستولت زناتة على تونس . ودخلها محمد بن أبي عمران وسمّوه باسم السلطان ومقادته في يد يحيى بن موسى أمير زناتة . واعتزم مولانا السلطان أبو يحيى على الوفادة على ملك المغرب السلطان أبي سعيد صريخاً على آل يغمراسن . وأشار حاجبه محمد بن سيّد الناس بإنفاذ ابنه الأمير أبي زكريا صاحب الثغر استنكافاً له عن مثلها ، فتقبّل إشارته وأركب ابنه البحر لذلك . وبعث إليه معه أبا محمد عبدالله بن تاشفين من مشيخة الموحّدين نافضاً أمامه طرف المقاصد والمحاورات ، ونزلوا بغسّاسة من سواحل المغرب ، وقدموا على السلطان أبي سعيد بحضرته ، وأبلغوه صريخ مولانا السلطان أبي يحيى ، فأهتزّ لذلك هو وإبنه الأمير أبو الحسن ، وقال لابنه الأمير في ذلك المحفل : يا بني لقد قصدك أكبر أقوامنا وموصلك ، ووالله لأبـذلنّ في مظاهرتـكم مالي وقومي ونفسي ، ولأسيرنّ بعساكري إلى تلمسان فأنزلها مع أبيك ، فانصرفوا إلى منازلهم مسرورين . وكان فيما شرطه عليهم السلطان أبو سعيد مسير مولانا السلطان أبي يحيى بعساكره إلى منازلة تلمسان معه فقبلوا . ونهض السلطان أبو سعيد إلى تلمسان سنة ثلاثين وسبعمائة ولما انتهوا إلى وادي ملويّة وعسكر بصَره ، جاءهم الخبر اليقين باستيلاء السلطان أبي يحيى على حضرة تونس وإجهاضه زناتة وسلطانهم عنها . فاستدعى مولانا السلطان الأمير أبا زكريا يحيى ابنه ووزيره أبا محمد عبدالله بن تافراكين وأمرهم بالإنصراف إلى صاحبهم وأسنى جوائزهم وحاجاتهم[١] . وركبوا أساطيلهم من غسّاسة وأرسل معهم للخطبة الصهر ابراهيم بن أبي حاتم العزفي والقاضي بحضرته أبي عبدالله بن عبد الرزاق ، وانكفأ على عقبه راجعاً إلى حضرته . ولما انعقد الصهر بين الأمير أبي الحسن ، والسلطان أبي يحيى في ابنته شقيقة الأمير يحيى ، زفّها إليهم في أساطيله مع مشيخة من الموحدين ، كبيرهم أبو القاسم بن عبّو[٢] . ووصلوا بها إلى مرسى غسّاسة سنة إحدى وثلاثين بين يدي مهلك السلطان أبي سعيد ، فقاموا لها على أقدام البرّ

(١) وفي النسخة المصرية : وحباءهم .

(٢) وفي النسخة المصرية : بن عقّور .

والتكرمة ، وبعثوا الظهر إلى غسّاسة لركوبها وحمل أثقالها ، وصيفت حكمات الذهب والفضّة ومدّت ولايا الحرير المغشّاة بالذهب ، واحتفل لوافدها وأعراسها غاية الاحتفال بما لم يسمع مثله في دولتهم . وتولت قهارمة الدار من عجز النساء ما يتولاّه مثلهم من ذلك فطم الصنيع ، وتحدّث الناس به . وهلك السلطان أبو سعيد بين يدي موصلها ، والبقاء لله وحده .

* (الخبر عن مهلك السلطان أبي سعيد عفا الله عنه وولاية السلطان أبي الحسن وما تخلل ذلك من الاحداث) *

كان السلطان لما بلغه وصول العروس بنت مولانا السلطان أبي يحيى سنة إحدى وثلاثين وسبعمائة واهتزّت الدولة لقدومها عليهم تعظيماً لحق أبيها وقومها واحتفاء بها ، ارتحل السلطان أبو سعيد إلى تازى ليشارف أحوالها بنفسه احتفاء[1] في تكرمتها وسروراً بعرس ابنه . واعتلّ هنالك ومرض حتى اذا أشفى على الهلكة ، ارتحل به وليّ العهد الأمير أبو الحسن إلى الحضرة ، وحمله في فراشه على أكتاف الحاشية والخول ، حتى نزل بسبو ، ثم أدخله كذلك ليلاً إلى داره . وأدركته المنية في طريقه ، فقضى رحمة الله عليه ، فوضعوه بمكانه من البيت . واستدعى الصالحين لمواراته ، فووري لشهر ذي الحجة سنة إحدى وثلاثين وسبمائة والبقاءلله وحده ، وكل شيء هالك إلاّ وجهه .

ولما هلك السلطان أبو سعيد اجتمع الخاصّة من المشيخة ورجالات الدولة لوليّ عهده الأمير أبي الحسن ، وعقدوا له على أنفسهم ، وآتوه طاعتهم وبيعتهم . وأمر بنقل معسكره من سبو ، وأضرب بالزيتون من ساحة فاس . ولما ووري السلطان ، خرج إلى معسكره بالتعبية ، واجتمع إليه الناس على طبقاتهم لاداء البيعة ، وجلس بفسطاطه ، وتولى أخذ البيعة له يومئذ على الناس المزوار عبّو بن قاسم رئيس الوزعة[2] ، والمتصرّفين وحاجب الباب القديم الولاية بذلك في دارهم منذ عهد السلطان يوسف بن يعقوب . وزفّت إليه يومئذ عروسه بنت السلطان أبي يحيى ،

(١) وفي النسخة المصرية : استبلاغاً .

(٢) ج وازع وهو الذي يتولى أمر الجيوش . (قاموس) .

فأعرس بها بمكانه من المعسكر ، وأجمع أمره علي الانتقام لأبيها من عدوّه . وبدأ باستكشاف حال أخيه أبي علي ، وكان السلطان أبوهما يستوصيه به لما كان له بقلبه من العلاقة . وكان ولي العهد هذا يؤثر لرضاه جهده ، فاعتزم على الحركة إلى سجلماسة لمشارفة أحواله ، والله تعالى أعلم .

* (الخبر عن حركة السلطان أبي الحسن الى سجلماسة وانكفائه عنها الى تلمسان بعد الصلح مع أخيه والاتفاق) *

لما هلك السلطان أبو سعيد وكملت بيعة السلطان أبي الحسن ، وكان كثيراً ما يستوصيه بأخيه أبي علي لما كان كلفاً به شفوقاً عليه ، فأراد مشارفة أحواله قبل النهوض إلى تلمسان ، فارتحل من معسكره بالزيتون قاصداً سجلماسة ، وتلقته في طريقه وفود الأمير أبي علي أخيه مؤدّياً حقه ، موجباً مبرّته ، مهنئاً له بما آتاه الله من الملك ، متجافياً عن المنازعة فيه ، قانعاً من تراث أبيه بما حصل في يده ، طالباً العقد له بذلك من أخيه . فأجابه السلطان أبو الحسن إلى ما سأل ، وعقد له على سجلماسة وما إليها من بلاد القبلة كما كان لعهد أبيهما . وشهد الملأ من القبيل وسائر زناتة والعرب ، وانكفأ راجعاً إلى تلمسان لإجابة صريخ الموحّدين ، وأغذّ السير إليها . ولما انتهى إلى تلمسان تنكّب عنها متجاوزاً إلى جهة المشرق لوعد مولانا السلطان أبي يحيى بالنزول معه على تلمسان ، كما كان عليه وفاقهم ومشارطتهم مع الأمير أبي زكريا الرسول إليهم . فاحتل بتاسالت في شعبان من سنة إثنتين وثلاثين وسبعمائة وتلوّم بها وأوعز إلى أساطيله بمراسي المغرب فأغزاها إلى سواحل تلمسان . وجهّز لمولانا السلطان أبي يحيى مدداً من عسكره أركبهم الأساطيل من سواحل وَهْرَان ، وعقد عليهم لمحمد البطوي من صنائع دولته . ونزلوا بجاية ، ووافوا بها مولانا السلطان أبا يحيى فصاروا في جملته . ونهضوا معه إلى تيكلات ثغر بني عبد الواد المجمّرة بها الكتائب لحصار بجاية ، وبها يومئذ ابن هزرع من قوّادهم ، وأجفل من كان بها من العسكر قبل وصوله إليهم ، فلحقوا بآخر عملهم من المغرب الأوسط . وأناخ مولانا السلطان أبو يحيى عليها بعساكر من الموحّدين والعرب والبربر وسائر الحشود ، فخرّبوا عمرانها وانتهبوا ما كان من الأقوات مختزناً بها ، وكان بحراً لا يدرك ساحله ، لِمَا كان

السلطان أبو حمو من لدن اختطها قد أوعز إلى العمّال بسائر البلاد الشرقيّة ، من عمل البطحاء أن ينقلوا أعشار الحبوب إليها وسائر الأقوات . وتقبّل ابنه السلطان أبو تاشفين مذهبه في ذلك . ولم يزل دأبهم إلى حين حلّت بها هذه الفاقرة فانتهب الناس من تلك الأقوات ما لا كفاء له . وأضرعوا مختطّها بالأرض فنسفوها نسفاً ، وذروها قاعاً صفصفاً . والسلطان أبو الحسن خلال ذلك متشوّفٌ لأحوالهم منتظرٌ قدوم مولانا السلطان أبي يحيى عليه لمنازلة تلمسان ، حتى وافاه الخبر بانتقاض أخيه كما نذكره ، فانكفأ راجعاً ، واتصل الخبر بمولانا السلطان أبي يحيى فقفل إلى حضرته . وحمل البطوي معه وأسنى جائزته وجوائز عسكره ، وانصرفوا إلى السلطان مرسلهم في سفنهم من ساعتها . وانقبض عنان السلطان أبي تاشفين عن غزو بلاد الموحّدين إلى أن انقرض أمره ، والبقاء لله وحده .

* (الخبر عن انتقاض الامير أبي علي ونهوض السلطان أبي الحسن اليه وظفره به) *

لما توغّل السلطان أبو الحسن في غزاة تلمسان وتجاوزها إلى تاسالت لوعد مولانا السلطان أبي يحيى ، دسّ أبو تاشفين إلى الأمير أبي علي في اتصال اليد والاتفاق على السلطان أبي الحسن ، وأن يأخذ كل واحد منهما بحجزته عن صاحبه متى همّ به ، وانعقد بينهما على ذلك . وانتقض الأمير أبو علي على أخيه السلطان أبي الحسن ، ونهض من سجلماسة إلى دَرْعَة فقتل بها عامل السلطان ، واستعمل عليه من ذويه ، وسرّح العسكر إلى بلاد مراكش . واتصل الخبر بالسلطان وهو بمعسكره بتاسالت ، فأحفظه شأنه ، وأجمع على الانتقام منه ، فانكفأ راجعاً إلى الحضرة . وأنزل بثغرتا وريرت تخم عمله معسكراً ، وعقد عليه لابنه تاشفين ، وجعله إلى نظر وزيره منديل بن حمامة بن تيربيغين ، وأغذّ السير إلى سجلماسة ، فنزل عليها وأحاطت عساكره بها ، وأخذ بمخنقها وحشد الفعلة والصنّاع لعمل الآلات لحصارها ، والبناء ساحتها . وأقام يغاديها القتال ويراوحها حولاً كريتاً . ونهض أبو تاشفين في عساكره وقومه إلى ثغر المغرب ليوطئه عساكره ، وبعث في نواحيه يجاذب السلطان عن مكانه من حصاره . ولما انتهى إلى تاوريرت برز إليه ابن السلطان في وزرائه وعساكره ،

وزحفوا إليه في التعبية ، فاختلّ مصافه وانهزم ولم يلق أحداً ، وعاد إلى منحجره وبادر إلى إمداد الأمير أبي علي بعسكره ، فعقد على حصة من جنده وبعث بهم إليه ، فتسرّبوا إلى البلد زرافات ووحدانا حتى استكملوا عنده ، وطاولهم السلطان الحصار وأنزل بهم أنواع الحرب والنكال حتى تغلّب عليهم ، واقتحم البلد عنوة ، وتقبّض على الأمير أبي علي عند باب قصره . وسيق إلى السلطان فأمهله واعتقله ، واستولى على ملكه . وعقد على سجلماسة واستعمل عليها ، ورحل منكفئاً إلى الحضرة ، فاحتل بها سنة ثلاث وثلاثين وسبعمائة واعتقل أخاه في إحدى حجر القصر إلى أن قتله لأشهر من اعتقاله خنقاً بمحبسه . وعدد له هذا الفتح بفتح الجبل واسترجاعه من يد العدّ ودمره الله بأيدي عسكره ، وتحت راية ابنه أبي مالك ، كما نذكره إن شاءالله تعالى .

* (الخبر عن منازلة جبل الفتح واستئثار الامير أبي مالك والمسلمين به) *

لما هلك السلطان أبو الوليد ابن الرئيس أبي سعيد المتغلّب على ملك الأندلس من يد ابن عمه أبي الجيوش ، قام بالأمر بعده إبنه محمد طفلاً صغيراً لنظر وزيره محمد بن المحروق من بيوت الأندلس وصنائع الدولة. واستبدّ عليه. فلمّا شب وناهز أنف من الاستبداد عليه ، وأغراه المعلوجي من حشمه بالوزير ، فاغتاله وقتله سنة تسع وعشرين وسبعمائة وشمّر للاستبداد وشدّ أواخي الملك . وكان الطاغية قد أخذ جبل الفتح سنة تسع ، وجاورت النصرانية به ثغور الفرضة ، وكان شجى في صدرها ، وأهمّ المسلمين شأنه . وشغل عنهم صاحب المغرب بما كان فيه من فتنة ابنه ، فرجّعوا الجزيرة وحصونها إلى ابن الأحمر منذ سنة إثنتي عشرة وسبعمائة لأوّل المائة الثامنة . واستغلظ الطاغية عليهم بعد ذلك فرجّعوا الجزيرة إلى صاحب المغرب سنة تسع وعشرين وسبعمائة وولّى عليها السلطان أبو سعيد من أهل دولته سلطان بن مهلهل من عرب الخلط أخواله . وأسفّ الطاغية إلى حصونها عند مهلك السلطان أبي سعيد فملك أكثرها ، ومنع البحر من الإجازة . وقارن ذلك استبداد صاحب الأندلس ، وقتله لوزيره ابن المحروق . وأهمّه شأن الطاغية ، فبادر لإجازة البحر . ووفد على

السلطان أبي الحسن بدار ملكه من فاس سنة إثنتين وثلاثين وسبعمائة فأكبر موصله وأركب الناس للقائه ، وأنزله بروْض المصارّة لصق داره ، واستبلغ في تكريمه . وفاوضه ابن الأحمر في شأن المسلمين وراء البحر ، وما أهمّهم من عدوّهم ، وشكا إليه حال الجبل واعتراضه شجىً في صدر الثغور ، فأشكاه السلطان . وعامل الله في أسباب الجهاد ، وكان مشغوفاً به متقبّلاً مذهب جدّه يعقوب فيه . وعقد لابنه الأمير أبي مالك على خمسة آلاف من بني مرين ، وأنفذه مع السلطان محمد بن إسمعيل لمنازلة الجبل ، فاحتل بالجزيرة ، وتتابع إليه الأسطول بالمدد . وأرسل ابن الأحمر حاشرين في الأندلس ، فتسايلوا إليه ، وأضربوا معسكرهم جميعاً بساحة الجبل . وأبلوا في حربه ومنازلته البلاء الحسن ، إلى أن تغلّبوا عليه سنة ثلاث وثلاثين وسبعمائة واقتحمه المسلمون عنوة ، ونفلهم الله من كان به من النصرانيّة بما معهم ، ووافاه الطاغية بأمم الكفر لثالثة فتحه ، وقد شحنه المسلمون بالأقوات ، نقلوها من الجزيرة على خيولهم . وباشر نقلها الأمير أبو مالك وابن الأحمر ، فنقلها الناس عامّة . وتحيّز الأمير أبو مالك إلى الجزيرة وترك بالجبل يحيى بن طلحة بن محلى من وزراء أبيه . ووصل الطاغية بعد ثلاث فأناخ عليه . وبرز أبو مالك بعساكره ، فنزل بحذائه[1] وبعث إلى الأمير أبي عبدالله صاحب الأندلس . فوصل بحشد المسلمين بعد أن دوّخ أرض النصرانيّة . وخرج فنزل بازاء عسكر الطاغية ، وتحصّن العدوّ في محلّتهم . وقاموا كذلك عادية لقرب العهد بارتجاعه ، وخفّة ما به من الحامية والسلاح ، فبادر السلطان ابن الأحمر إلى لقاء الطاغية . وسبق الناس إلى فسطاطه عجلاً بائعاً نفسه من الله في رضى المسلمين ، وسدّ فرجتهم ، فتلقاه الطاغية راجلاً حاسراً إعظاماً لموصله ، وأجابه إلى ما سأل من الإفراج عن هذا المعقل ، وأتحفه بذخائر مما لديه ، وارتحل لفوره . وأخذ الأمير أبو مالك في تثقيف أطراف الثغر ، وسدّ فروجه ، وأنزل الحامية به ، ونقل الأقوات إليه ، وكان فتحاً طوّق دولة السلطان أبي الحسن قلادة الفخر إلى آخر الأيام . ثم رجع بعدها إلى شأنه من منازلة تلمسان ، والله تعالى أعلم .

---

(1) وفي النسخة المصرية : قبالته .

* (الخبر عن حصار تلمسان وتغلب السلطان أبي الحسن عليها وانقراض أمر بني عبد الواد بمهلك أبي تاشفين) *

لما تغلّب السلطان على أخيه وحسم علّة انتزائه ومنازعته وسدّ ثغور المغرب ، وعظمت لديه نعمة الله بظهور عسكره على النصرانية ، وارتجاع جبل الفتح من أيديهم بعد أن أقام في ملكة الطاغية نحواً من عشرين سنة . فرغ لعدوه وأجمع على غزو تلمسان . ووفد عليه رسل السلطان أبي يحيى في سبيل التهنئة بالفتح والأخذ بحجزة أبي تاشفين على الثغور . وأوفد السلطان إلى أبي تاشفين شفعاء في أن يتخلى عن عمل الموحّدين جملة ، ويتراجع لهم عن تدلس ، ويرجع إلى تخوم عمله منذ أوّل الأمر ، ولو عامئذٍ ليعلم الناس جاه السلطان عند الملوك ، ويقدّروه حقّ قدره ، واستنكف أبو تاشفين مع ذلك وأغلظ للرسل في القول ، وأفحش بمجلسه بعض السفهاء من العبيد في الردّ عليهم والنيل من مرسلهم ، فانقلبوا إليه بما أحفظه ، فانبعثت عزائم السلطان للصمود إليهم . وعسكر بساحة البلد الجديد ، وبعث وزراءه إلى قاصية البلاد المراكشيّة لحشد القبائل والعساكر . ثم تعجّل فاعترض جنوده وأزاح عللهم وعبّى مواكبه ، وسار في التعبية . وفصل بمعسكره من فاس أواسط خمس وثلاثين وسبعمائة وسار يجرّ الشوك والمدر من أمم المغرب وجنوده . ومرّ بوَجْدَة ، فجمّر الكتائب لحصارها . ثم مرّ بندرومة فقاتلها بعض يوم واقتحمها ، فقتل حاميتها واستولى عليها آخر سنة خمس وثلاثين وسبعمائة ثم سار على تعبيته حتى أناخ على تلمسان ، وبلغه الخبر بتغلّب عساكره على وَجْدَة سنة ست وثلاثين وسبعمائة فأوعز إليه بتخريب أسوارها ، فأضرعوها بالأرض .

وتوافت إليه إمداد النواحي وجهاتها وحشودها ، وربض على فريسته . ووفدت إليه قبائل مغراوة وبني توجين فآتوه طاعتهم . ثم سرّح عساكره إلى الجهات فتغلّب على وَهْرَان وهُنَيْن ، ثم على مليانة وتَنَس والجزائر كذلك سنة ست وثلاثين وسبعمائة ونزع إليه يحيى بن موسى صاحب القاصية الشرقية من عمله ، والمتاخم كان لعمل الموحّدين ، والقائم بحصار بجاية بعد نكبة موسى بن علي فلقاه مبرّة وتكريماً ، ورفع بساطه ونظمه في طبقات وزرائه وجلسائه . وعقد على فتح البلاد الشرقيّة ليحيى

ابن سليمان العسكري كبير بني عسكر بن محمد وشيخ بني مرين ، وصاحب شوراهم بمجلس السلطان ، والمخصوص بصهر من السلطان . عقد له على ابنته فسار في الألوية والجنود وطوّع ضاحية الشرق وقبائله ، وافتتح أمصاره حتى انتهى إلى المريـة[1] . ونظّم البلاد في طاعة السلطان ، وأحشد مقاتلتها إلى معسكره فلحقوا له وكاثروا جنوده . واستعمل السلطان على وانشريش وعمل الحشم من بني توجين . وعقد لسعد بن سلامة بن علي على بني يدللتن . وجعل الوالي بالقلعة إلى نظره . وكان خلص إليه بالمغرب قبل فصوله نازعاً عن أبي تاشفين لمكان أخيه قريعه محمد من الدولة .

واستعمل السلطان أيضاً على شلف وسائر أعمال المغرب الأوسط . واختطّ السلطان بغربي[2] تلمسان البلد الجديد لسكناه ، ونزل عساكره وسماه المنصورية[3] . وأدار على البلد المخروب سياجاً من السور ونطاقاً من الخندق . ونصب المجانيق والآلات من وراء خندقه وشيّد قبالة كل برج من أبراج البلد برجاً على ساقة خندقه ينضح رماته بالنبل رماتهم ، ويشغلونهم بأنفسهم حتى شيّد برجاً آخر أقرب منه ، وترتفع شرفاته فوق خندقهم . ولم يزل يتقرّب بوضع الأبراج من حدّ الى ما بعده ، حتى اختطها من قرب على ساقه خندقهم . وتماصع المقاتلة بالسيوف من أعيالها ، ورتّب المجانيق إلى رجمها ودكّها ، فنالت من ذلك فوق الغاية . واشتدّ الحرب وضاق نطاق الحصار . وكان السلطان يصحبهم كل يوم بالبكور والتطواف على البلد من جميع جهاته لتفقّد المقاتلة في مراكزهم ، وربما ينفرد في طوافه بعض الأيام عن حاشيته ، فاهتبلوا الأمر يحسبونه غرّة . وصفّوا جيوشهم من وراء السور مما يلي الجبل المطلّ على البلد ، حتى اذا حاذاه السلطان في تطوافه فتحوا أبوابهم ، وأرسلوا عليه عقبان جنودهم ، واضطرّوه إلى سفح الجبل حتى لحق بأوعاره ، وكاد أن ينزل عن فرسه هو ووليّه عريف بن يحيى أمير سويد . ووصل الصائح إلى المعسكر فركب الأميران إبناه : ابو عبد الرحمن وأبو مالك ، في جموع بني مرين ، وتهاوت فرسان المعسكر من كلّ جانب ، فشمّر جنود بني عبد الواد إلى مراكزهم . ثم دفعوهم عنها ، وحملوهم على

---

(١) وفي نسخة ثانية : المدية .

(٢) وفي نسخة ثانية : بقرب تلمسان .

(٣) كذا في النسخة الباريسية وفي نسخة ثانية المنصورة .

هوّة الخندق فتطارحوا فيه وترادفوا وهلك بالكظيظ أكثر ممن هلك بالقتل . واستلحم في ذلك اليوم زعماء ملئهم [1] مثل عمر بن عثمان كبير الحشم من بني توجين ، ومحمد بن سلامة بن عليّ كبير بني يدللتن منهم أيضاً وغيرهم . وكان يوماً له ما بعده . واعتز بنو مرين عليهم من يومئذ . ونذر بنو عبد الواد بالتغلّب عليهم ، واتصلت الحرب مدّة عامين . ثم اقتحمها السلطان غلابا لسبع وعشرين من رمضان سنة سبع وثلاثين وسبعمائة . ووقف أبو تاشفين بساحة قصره مع خاصّته ، وقاتل هنالك حتى قتل إبناه عثمان ومسعود ووزيره موسى بن عليّ ووليّه عبد الحق بن عثمان من أعياص عبد الحق . نزع إليه من جملة الموحّدين كما أشرنا إليه ونستوفي خبره . فهلك هو وإبنه وابن أخيه ، وأثخنت السلطان أبا تاشفين الجراحة ووهن لها ، فتقبّض عليه . واختبنه [2] بعض الفرسان إلى السلطان فلقيه الأمير أبو عبد الرحمن صالي تلك الحروب وأورد غمرتها بنفسه ، فاعترضه وقد غضّ الطرف بموكبه ، فأمر به في الحين فقتل ، واحتزّ رأسه ، وسخط ذلك السلطان من فعله لحرصه على توبيخه وتقريعه ، وذهب مثلاً في الغابرين . واقتحم السلطان بكافّة عساكره ، وتواقع الناس بباب كشوط [3] لجنوبهم من كظيظ الزحام ، فهلك منهم أمم .

وانطلقت أيدي النهب على البلد فلحقت الكثير من أهله معرّات في أموالهم وحرمهم . وخلص السلطان إلى المسجد الجامع مع لمّة من خواصه وحاشيته . واستدعى شيوخ الفتيا بالبلد أبو زيد وأبو موسى إبنا الإمام ، وفاء بحق العلم وأهله ، فخلصوا إليه بعد الجهد ووعظوه وذكروه بما نال الناس من النهب ، فركب لذلك بنفسه وسكن وأوزع جنوده وأشياعه من الرعيّة ، وقبض أيديهم عن الفساد وعاد إلى معسكره بالبلد الجديد . وقد كمل الفتح وعزّ النصر ، وشهد ذلك اليوم أبو محمد بن تافراكين ، وافاه رسولاً عن مولانا السلطان أبي يحيى مجدّداً للعهد ، فأعجله السلطان إلى مرسله بالخبر وسابق السابقين . ودخل تونس لسبع عشرة ليلة من نوبة الفتح ، فعظم السرور عند السلطان أبي يحيى بمهلك عدوّه والانتقام منه بشارة ، واعتدّها بمساعيه . ورفع السلطان أبو الحسن القتل عن بني عبد الواد أعدائهم ، وشفى نفسه

---

(١) وفي نسخة ثانية : ملاحمهم .

(٢) اختبن الشيء : اخذه في خبنة ثيابه (قاموس) .

(٣) وفي نسخة ثانية : كشوك .

بقتل سلطانهم ، وعفا عنهم وأثبتهم في الديوان ، وفرض لهم العطاء ، واستتبعهم على راياتهم ومراكزهم ،. وجمع كلمة بني واسين من بني مَرِين وبني عبد الواد وتوجين ، وسائر زناتة وأنزلهم ببلاد المغرب وسدّ بكل طائفة منهم ثغراً من أعماله ، وساروا عصباً تحت لوائه ، فأنزل منهم بقاصية السوس وبلاد غمارة ، وأجاز منهم إلى ثغور عمله بالأندلس حامية ومرابطين ، واندرجوا في جملته ، واتسع نطاق ملكه . وأصبح ملك زناتة بعد أن كان ملك بني مرين وسلطان العدوتين بعد أن كان سلطان المغرب . والأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين .

* (الخبر عن نكبة الأمير عبد الرحمن بمتيجة وتقبض السلطان عليه ثم مهلكه آخرا) *

قد قدّمنا ما كان من اشتراط السلطان أبي سعيد على الموحّدين منازلتهم تلمسان مع عساكره ، وتلوّم السلطان أبي الحسن بتاسالت لانتظار مولانا السلطان أبي يحيى . ولما نازل تلمسان بعساكره المرّة الثانية ، لم يطالبهم بذلك . وكان أبو محمد بن تافراكين يتردّد إليه وهو بمعسكره من حصار تلمسان مؤدّياً حقه مستخبراً مآل عدوّهم . فلمّا تغلّب على تلمسان أسرّ إليه سفيره أبو محمد بن تافراكين بأنّ سلطانه قادم عليه للقائه وتهنئته بالظفر بعدوّه . وتشوّف السلطان أبو الحسن إليها لما كان يحب الفخر ويعنى به ، وارتحل من تلمسان سنة ثلاث وثلاثين وسبعمائة ، وعسكر ببسيط بمتيجة منتظراً وفادة مولانا السلطان أبي يحيى عليه . وتكاسل السلطان عنها لما أراه سيفه المتحكّم في دولته محمد بن الحكيم من حذر مغبتها ، وقال له : إنّ لقاء سلطانين لا يتّفق إلاّ في يوم على أحدهما ، فكره ذلك السلطان وتقاعد عنه : وطال مقام السلطان أبي الحسن في انتظار الموعد الذي ألقى إليه أبو محمد بن تافراكين ، واعتل لأشهر من مقامه ومرض بفسطاطه . وتحدّث أهل المعسكر بمهلكه . وكان إبنا الأمير أبو عبد الرحمن وأبو مالك متناغيين في ولاية عهده منذ أيام جدّهما أبي سعيد . وكان السلطان قد جعل لهما من أوّل دولته ألقاب الإمارة وأحوالها من اتخاذ الوزراء والكتّاب ووضع العلامة وتدوين الدواوين وإثبات العطاء . واستلحاق الفرسان والإنفراد بالعساكر ، فكانا من ذلك على ثبج . وجعل لهما مع ذلك الجلوس لمقعد فصله ،

مناوبة لتنفيذ الأوامر السلطانيّة ، فكانا لذلك رديفين له في سلطانه .
ولما اشتدّ وجع السلطان تمشّت سماسرة الفتن بين هذين الأميرين وحزّب أهل المعسكر لهما أحزاباً ، وبثّ كل واحد منهما المال وحمل على المقربات . وصارت شِيَعاً وانقسموا فرقاً . وهمّ الأمير أبو عبد الرحمن بالتوثّب على الأمر قبل أن يتبيّن حال السلطان باغراء وزرائه وبطانته بذلك. وتفطّن خاصّة السلطان لها ، فأخبروه الخبر وحضّوه على الخروج إلى الناس قبل أن يتفاقم الأمر ويتّسع الخرق ، فبرز إلى فسطاط جلوسه وتسامع أهل المعسكر به ، فازدحموا على مجلسه وتقبيل يده . وتقبّض على أهل الظنّة من العساكر ، فأودعهم السجن وسخط على الأميرين . ورحل الناس من معسكرهما ، فردّهما إلى معسكره . ثم رجع إلى فسطاطه فارتاب الأميران لذلك ووجما ، وطفئت نار فتنتهما وسكن سعي المفسدين عندهما وانتبذ الناس عنهما . فاشتدّت روعة الأمير أبي عبد الرحمن ، وركب من فساطيطه وخاض الليل ، وأصبح بحلّة أولاد علي[1] أمراء زغبة الموطّنين بأرض حمزة ، فتقبّض عليه أميرهم موسى بن أبي الفضل . وردّه إلى أبيه ، فاعتقله بوَجْدَة ، ورتّب العيون لحراسته من حشمه إلى أن قتل بعد ذلك سنة إثنتين وأربعين وسبعمائة . وثب بالسجّان فقتله . وأنفذ السلطان حاجبه علاّن بن محمد فقضى عليه . ولحق وزيره زيّان بن عمر الوطاسي بالموحدين فأجاروه . ورضي السلطان صبيحة نزوع أبي عبد الرحمن عن أخيه أبي مالك ، وعقد له على ثغور عمله بالأندلس ، وصرفه إليها ، وانكفأ إلى تلمسان . والله أعلم .

* (الخبر عن خروج ابن هيدور وتلبسيه بأبي عبد الرحمن) *

لما تقبّض السلطان على ابنه عبد الرحمن وأودعه السجن ، تفرّق خدمة وحشمه واندعروا في الجهات . وهمل جازر من مطبخه ، كان يعرف بابن هيدور ، كان شبيهاً له في الصورة ، فلحق ببني عامر من زغبة ، وكانوا لذلك العهد منحرفين عن

(١) وفي نسخة ثانية : اولاد زغلى .

الطاعة ، خوارج على الدولة لِـمَا كان السلطان وأبوه اختصا عريف بن يحيى أمير بني سويد أقتالهم ، منذ نزع إليهم عن أبي تاشفين . فركبوا سنن الخلاف ولبسوا جلدة النفاق ، وانتبذوا بالقفار . ورياستهم لذلك العهد لصغير بن عامر وإخوته . وعقد السلطان على حربهم لوَنْزَمار ابن وليّه عريف . وكان سيّد البدو يومئذ ، فجمع لهم وشمّر لطلبهم ، وأبعدوا أمامه في المذاهب ، وأوقع بهم مراراً . ولحق بهم هذا الجازر ، وانتسب لهم إلى السلطان أبي الحسن وأنه أبو عبد الرحمن ابنه النازع عنه ، فشبّه لهم وبايعوه وأجلبوا به على نواحي المرية[1] . وبرز إليهم قائدها مجاهد بن[2] من صنائع الدولة ، ففضّوا جمعه وانهزم أمامهم . ثم جمع لهم ونزمار وفرّوا عن تلك النواحي وافترق جمعهم . ونبذوا لذلك الجازر عهده ، فلحق ببني يرناتن من زواوة ، ونزل على سيّدتهم شمسي فقامت بأمره . وحمل بنوها من بني عبد الصمد قومهم على طاعته . وشاع في الناس خبره فمن مصدّق ومن مكذّب حتى تبيّنت ووقفوا على كذبه في انتسابه ، فنبذوا عهده ولحق بالزواودة أمراء رياح ، ونزل على سيّدهم يعقوب بن علي ، وانتسب له في مثل ذلك ، فأجاره إن صدق نسبه . وأوعز السلطان إلى السلطان أبي يحيى صاحب أفريقية في شأنه ، فبعث إلى يعقوب وأشخصه إلى السلطان مع ذويه ، فلحق به بمكانه من سبتة فامتحنه السلطان وقطعه من خلاف وانحسم داؤه . وبقي بالمغرب تحت جراية من الدولة إلى أن هلك سنة ثمان وثمانين وسبعمائة[3] والله تعالى أعلم .

* (الخبر عن شأن الجهاد واغزاء السلطان إبنه الأمير ابا مالك واستشهاده) *

لما فرغ السلطان من أمر عدوّه وما تبع من ذلك من الأحوال ، صرف اعتزامه إلى الجهاد لما كان كلفاً به . وكان الطاغية منذ شغل بني مرين عن الجهاد منذ عهد يعقوب بن عبد الحق قد اعتزوا على المسلمين بالعدوة . ونازلوا معاقلهم ،

(١) وفي نسخة ثانية المدية .

(٢) بياض بالأصل ولم نستطع معرفة والد مجاهد هذا في المراجع التي بين أيدينا .

(٣) كذا في النسخة الباريسية وفي نسخة أخرى : ثمان وستين .

وتغلّبوا على الكثير منها ، وارتجعوا الجبل ونازلوا السلطان أبا الوليد في عقر داره بغرناطة . ووضعوا عليه الجزية فتقبّلها وأسفّوا إلى التهام المسلمين بالأندلس . فلما فرغ السلطان أبو الحسن من شأن عدوّه وعلت على الأيدي يده ، وانفسح نطاق ملكه ، دعته نفسه إلى الجهاد . وأوعز إلى إبنه الأمير أبي مالك أمير الثغور من عمله بالعدوة سنة أربعين وسبعمائة بالدخول إلى دار الحرب . وجهّز إليه العساكر من حضرته وأنفذ إليه الوزراء ، فشخص غازياً في الحفل ، وتوغّل في بلاد الطاغية واكتسحها ، وخرج بالسبي والغنائم إلى أدنى صدره من أرضهم وأناخ بها . واتصل به الخبر بأنّ النصارى جمعوا له ، وأغذّوا السير في اتباعه . وأشار عليه الملأ بالخروج من أرضهم وإجازة الوادي الذي كان تخماً بين أرض الإسلام ودار الحرب . وأن يصير إلى مدن المسلمين فيمتنع بها ، فلج في إبايته وصمّم على التعريس . وكان قرماً ثبتاً إلا أنه غير بصير بالحروب لمكان سنه ، فصبحهم عساكر النصرانيّة في مضاجعهم قبل أن يركبوا وخاطبوهم في اباتهم . وأدرك الأمير أبو مالك بالأرض قبل أن يستوي على فرسه فجدلوه واستلحموا الكثير من قومه ، واحتووا على المعسكر بما فيه من أموال المسلمين وأموالهم ، ورجعوا على أعقابهم . واتصل الخبر بالسلطان فتفجّع لهلاك ابنه ، واسترحم له ، واحتسب عند الله أجره وفي سبيله قتله . وشرع في إجازة العساكر للجهاد وتجهيز الأساطيل .

* (الخبر عن واقعة الملند والظفر به وظهور اساطيل المسلمين على اسطول النصارى) *

لما بلغ الخبر إلى السلطان باستشهاد ابنه ، أخرج وزاره إلى السواحل لتجهيز الأساطيل . وفتح ديوان العطاء ، واعترض الجنود وأزاح عللهم . واستنفر أهل المغرب وارتحل إلى سبتة ليباشر أحوال الجهاد . وتسامعت أمم النصرانية بذلك ، فاستعدّوا للدفاع . وأخرج الطاغية أسطوله إلى الزقاق ليمنع السلطان من الإجازة . واستحثّ السلطان أساطيل المسلمين من مراسي العدوة . وبعث إلى الموحدين بتجهيز أسطولهم إليه ، فعقدوا عليه لزيد بن فرحون قائد أسطول بجاية من صنائع دولتهم ، ووافى سنة

في ستة عشر من أساطيل أفريقية ، كان من طرابلس وقابِس وجَرْبَة وتونس وبُونَة وبَجّايَة . وتوافت أساطيل المغربَيْن بمرسى سَبْتَة تناهز المائة . وعقد السلطان عليها لمحمد بن عليّ العزفي الذي كان صاحب سبتة يوم فتحها ، وأمره بمناجزة أسطول النصارى بالزقاق . وقد اكتمل عديدهم وعدّتهم ، فاستلأموا وتظاهروا في السلاح . وزحفوا إلى أسطول النصارى وتواقفوا ملياً . ثم قرّبوا الأساطيل بعضها إلى بعض وقرنوها للمصاف ، فلم يمض إلا كلا ولا[1] حتى هبّت ريح النصر ، وأظفر الله المسلمين بعدوّهم ، وخالطوهم في أساطيلهم واستلحموهم هبراً بالسيوف ، وطعناً بالرماح ، وألقوا أشلاءهم في اليم وقتلوا قائدهم المَلَنْد واستاقوا أساطيلهم مجنوبة إلى مرسى سبتة ، فبرز الناس لمشاهدتها وطيف بكثير من رؤسهم في جوانب البلد . ونظمت أصفاد الأسرى بدار الانشاء . وعظم الفتح وجلس السلطان للتهنئة ، وأنشدت الشعراء بين يديه ، وكان يوماً من أعز الأيام ، والمنّة لله .

* (الخبر عن واقعة طريف وتمحيص المسلمين) *

لما ظفر المسلمون باسطول النصارى وخضّدوا شوكتهم عن ممانعة الجواز ، شرع السلطان في إجازة العساكر الغزاة من المطوّعة والمرتزقة ، وانتظمت الأساطيل سلسلة واحدة من العدوة إلى العدوة . ولما استكمل إجازة العساكر أجاز هو في أسطوله مع خاصّته وحشمه آخر سنة أربعين وسبعمائة ونزل بساحة طريف وأناخ بعساكره عليها ، واضطرب معسكره بفنائها ، وبدأ بمنازلتها . ووافاه سلطان الأندلس أبو الحجّاج ابن السلطان أبي الوليد بعسكر الأندلس من غزاة زناتة وحامية الثغور ورجل البدو ، فعسكروا حذاء معسكره وأحاطوا بطريف نطاقاً واحداً ، وأنزلوا بهم أنواع القتال ، ونصبوا عليها الآلات . وجهّز الطاغية أسطولاً آخر اعترض به الزقاق لقطع المرافق عن المعسكر ، وطال ثواؤهم[2] بمكانهم منْ حصار البلد ، ففنيت أزودتهم وافتقدوا العلوفات ، فوهن الظهر واختلّت أحوال المعسكر . واحتشد الطاغية أمم النصرانية

(١) وفي نسخة ثانية : ولم يكن إلا كلا ولا .
(٢) بمعنى مقامهم .

وظاهره البرتقال صاحب أشبونة ، وغَرْب الأندلس ، فجاء معه في قومه . وزحف إليهم لستة أشهر من نزولهم . ولما قرب معسكرهم سرّب إلى طريف جيشاً من النصارى أكمنه بها ، فدخلوه ليلاً على حين غفلة من العسس الذي أرصد لهم . وأحسّوا بهم آخر ليلتهم ، فثاروا بهم من مراصدهم وأدركوا أعقابهم قبل دخول البلد ، فقتلوا منهم عدداً ولبسوا على السلطان بأنه لم يدخل البلد سواهم حذراً من سطوته . وزحف الطاغية من الغد في جموعه ، وعبّى السلطان مواكب المسلمين صفوفاً ، وتزاحفوا ولما نشب الحرب برز الجيش الكمين من البلد وخالفوهم إلى المعسكر ، وعمدوا إلى فسطاط السلطان ودافعهم عنه الناشبة الذين أعدّوا لحراسته فاستلحموهم . ثم دافعهم النساء عن أنفسهنّ فقتلوهنّ وخلصوا إلى حظايا السلطان : عائشة بنت عمه أبي يحيى بن يعقوب ، وفاطمة بنت مولانا السلطان أبي يحيى ملك أفريقية ، وغيرهما من حظاياه فقتلوهنّ واستلبوهنّ . وانتهبوا سائر الفساطيط وأضرموا المعسكر ناراً وأحس المسلمون بما وراءهم في معسكرهم فاختلّ مصافهم وارتدّوا على أعقابهم بعد أن كان ابن السلطان صمم في طائفة من قومه وذويه حتى خالطهم في صفوفهم ، فأحاطوا به وتقبّضوا عليه ، وولّى السلطان متحيزاً إلى فئة المسلمين ، واستشهد كثير من الغزاة ووصل الطاغية إلى فسطاط السلطان من المحلّة وأنكر قتل النساء والولدان ، ووقف منه لمنتهى أثره ، وانكفأ راجعاً إلى بلاده ، ولحق ابن الأحمر بغرناطة ، وخلص السلطان إلى الجزيرة ، ثم إلى الجبل . ثم ركب السفين إلى سبتة في ليله ومحّص الله المسلمين وأجزل ثوابهم . وأرجأ لهم الكرّة على عدوّهم .

* (الخبر عن منازلة الطاغية الجزيرة ، ثم تغلبه عليها بعد أن غلب على القلعة من ثغور ابن الأحمر) *

لما رجع الطاغية من طريف استأسد على المسلمين بالاندلس ، وطمع في التهامهم ، وجمع عساكر النصرانية ، ونازل قلعة بني سعيد ثغر غرناطة . وعلى مرحلة منها وجمع الآلات والأيدي على حصارها ، واشتدّ مخنقها وأصابهم الجهد من العطش ، فنزلوا على حكمه سنة إثنتين وأربعين وسبعمائة وأدال الله الطيب منها بالخبيث ، وانصرف إلى بلده . وكان السلطان أبو الحسن لما أجاز إلى سبتة أخذ نفسه بالعودة إلى الجهاد لرجع

الكرّة وبعث في الأمصار للاستنفار ، وأخرج قوّاده إلى سواحل البحر لتجهيز الأساطيل حتى اكتمل له منها عدد . ثم ارتحل إلى سبتة لمشارفتها ، وقدّم عساكره إلى العدوة مع وزيره عسكر بن تاحضريت . وبعث على الجزيرة محمد بن العبّاس بن تاحضريت من قرابة الوزير ، وبعث إليها مدداً من العسكر مع موسى بن ابراهيم اليرنياني من المرشحين للوازرة ببابه ، وبلغ الطاغية خبره فجهّز أسطوله وأجراه إلى بحر الزقاق لمدافعته . وتلاقت الأساطيل ومحّص الله المسلمين واستشهد منهم أعاد وتغلب أسطول الطاغية على بحر الزقاق وملكوه دون المسلمين وأقبل الطاغية من إشبيلية في عساكر النصرانية حتى أناخ بها على الجزيرة الخضراء مرفا أساطيل المسلمين وفرضة المجاز . وأمّل أن ينظمها في مملكته مع جارتها طريف ، وحشد الفعلة والصنّاع للآلات ، وجمع الأيدي عليها وطاولها الحصار . واتخذ أهل المعسكر بيوتاً من الخشب للمطاولة . وجاء السلطان أبو الحجّاج بعساكر الأندلس فنزل قبالة الطاغية بظاهر جبل الفتح في سبيل المانعة . وأقام السلطان أبو الحسن بمكانه من سبتة ليسرّب عليها المدد من الفرسان والمال والزرع في أحايين الفعلة من أساطيلهم ، وتحت جناح الليل ، فلم يغنهم ذلك ، واشتدّ عليهم الحصار وأصابهم الجهد . وأجاز إليه السلطان أبو الحجّاج يفاوضه في شأن السلم مع الطاغية ، بعد إذن الطاغية له في الإجازة مكراً به . وترصّد له بعض الأساطيل في طريقه فصدقهم المسلمون القتال وخلصوا إلى الساحل بعد غصّ الريق ، وضاقت أحوال الجزيرة ومن كان بها من عساكر السلطان . وسألوا من الطاغية الأمان على أن ينزلوا عن البلد فبذله وخرجوا فوفّى لهم . وأجازوا إلى المغرب سنة ثلاث وأربعين وسبعمائة فأنزلهم السلطان ببلاده على خير نزل ، ولقّاهم من المبرّة والكرامة ما أعاضهم ممّا فاتهم ، وخلع عليهم وحملهم وأجازهم بما تحدّث به الناس . وتقبّض على وزيره عسكر بن تاحضريت عقوبة على تقصيره في المدافعة ، مع تمكّنه منها بما كان لديه من العساكر . وانكفأ السلطان إلى حضرته موقناً بظهور أمر الله ، وإنجاز وعده في رجوع الكرّة وعلوّ الدين . والله متمّ نوره ولو كَرِه الكافرون .

* (الخبر عن شفاعة صاحب تونس في اولاد أبي العلاء ووصولهم الى السلطان) *

كان عثمان بن أبي العلاء من أعياص آل عبد الحق ، شيخ الغزاة المجاهدين من زناتة والبربر بالأندلس . وكان له فيها مقام معلوم في حماية الثغور ومدافعة العدوّ ، وغزو دار الحرب ، ومساهمة صاحب الأندلس الجهاد كما نستوفي أخباره . وكان السلطان أبو سعيد لما استصرخ بأهل الأندلس اعتذر بمكانه بينهم . واشترط عليهم أن يمكّنوه من قياده حتى يقضي نوبة الجهاد ، فلم يسعفوه بذلك . ولمّا هلك عثمان بن أبي العلاء ، قام بالأمر من بعده في مراسم الجهاد بنوه وكانوا يرجعون في رياستهم إلى كبيرهم أبي ثابت عامر . وقويت عصابتهم بالموالي والأبناء ، وغلبت على يد السلطان يَدُهُم ، واستبدّوا عليه في أكثر الأحوال ، واستنكف لها ، وكان ذلك مما دعاه إلى القدوم على السلطان أبي الحسن . وارتاب بنو أبي العلاء في إجازته إليه ، واتهموه على أنفسهم ، وأسعدهم إلى منازلة جبل الفتح على كره. فلمّا تغلّب المسلمون عليه ، وقضى ابن الاحمر من مدافعة الطاغية عنه بالرغبة ما قضى كما ذكرناه ، واعتزم على القفول إلى حضرته ، أجمعوا الفتك به في طريقه . وداخلوا في ذلك مولاه ابن المعلوجي لما أسفهم به من إرهاف حدّه والتضييق عليهم في جاههم ، فبرموا وطووا على البث[1] ، حتى اذا وجدوا من أبي العلاء صاغية إلى ذلك ، خفّوا إلى إجابتها. ونذر بهم محمد بن الأحمر فبعث عن السفن تعرضه في طريقه[2] وساحل إليهم ، وتسابقوا لشأنهم قبل فوته ، فأدركوه دون حصن أصطبونة . وعتبوه فاستعتب ، وأغلظوا له في القول ، وقتلوا مولاه عاصماً صاحب ديوان العطاء تَجَنِّياً عليه . ونكر ذلك السلطان فتناولوه بالرماح قعصاً وطعناً حتى أقعصوه . ورجعو إلى المعسكر فاستدعوا من كان داخلهم من الموالي . وجاؤا بأخيه أبي الحجّاج يوسف بن أبي الوليد ، فبايعوا له وأصفقوا على تقديمه . وسرّح لحينه قائده ابن عزّون ، فاستولى له على دار ملكه ، وتمّ أمره وحجبه رضوان مولى أبيهم ، واستبدّ عليه ، وسكن بين

(١) وفي نسخة ثانية : على النث .

(٢) وفي نسخة ثانية : فبعث على السفين يعترضه في طريقه .

جنبيه من بني أبي العلاء وقتلهم لأخيه داء دخيل ، حتى إذا سما السلطان أبو الحسن إلى الجهاد ، وأجاز المدد إلى ثغور عمله بالأندلس ، وعقد لابنه الأمير أبي مالك ، أسرّ إليهم في شأن بني أبي العلاء بما كان أبوه السلطان أبو سعيد اشترط عليهم في مثلها . ووافق منه داعية لذلك فتقبّض عليهم أبو الحجّاج وأودعهم المطبق أجمع . ثم أشخصهم في السفين إلى مراسي أفريقية ، فنزلوا بتونس على مولانا السلطان أبي يحيى . وبعث فيهم السلطان أبو الحسن إليه فاعتقلهم ، ثم أوعز إليه مع عريف الوزعة ببابه ميمون بن بكرون في إشخاصهم إلى حضرته ، فتوقّف عنها . وأبى من إخفار ذمّتهم ووسوس إليه وزيره أبو محمد بن تافراكين بأن مقصد السلطان فيهم غير ما ظنّوا به من الشرّ . ورغب ببعثهم إليه والمبالغة في الشفاعة فيهم ، علماً بأنّ شفاعته لا تردّ فأجابه لذلك ، وجنبوهم إليه مع ابن بكرون . واتبعهم أبو محمد بن تافراكين بكتاب الشفاعة فيهم من السلطان . وقدموا على السلطان أبي الحسن مرجعه من الجهاد سنة إثنتين وأربعين وسبعمائة فتلقّاهم بالبرّ والترحيب إكراماً لشفيعهم . وأنزلهم بمعسكره وجنّب لهم المقرّبات بالمراكب الثقيلة ، وضرب لهم الفساطيط ، وأسنى لهم الخلع والجوائز وفرض لهم أعلى رتب العطاء وصاروا في جملته . ولمّا احتل بسبتة لمشارفة أحوال الجزيرة ، سعى عنده فيهم بأنّ كثيراً من المفسدين يداخلونهم في الخروج والتوثّب على الملك ، فتقبّض عليهم وأودعهم في السجن بمكناسة ، إلى أن كان من خبرهم مع ابنه أبي عنّان ما نذكره إن شاءالله تعالى ، والله أعلم .

* (الخبر عن هدية السلطان الى المشرق وبعثه بنسخ المصحف من خطه الى الحرمين والقدس) *

كان للسلطان أبي الحسن مذهب في ولاية ملوك المشرق ، والكلف بالمعاهد الشريفة تقبّله من سلفه . وضاعفه لديه متن ديانته . ولمّا قضى من أمر تلمسان ما قضى ، وتغلّب على المغرب الأوسط ، وصار أهل النواحي تحت ربقة منه ، واستطال بجناح سلطانه ، خاطب لحينه صاحب مصر والشام محمد بن قلاوون الملك الناصر ، وعرّفه بالفتح وارتفاع العوائق عن الحاج في سابلتهم . وكان فُرانِقُه[1] في ذلك

(١) الفرانق : البريد وربما سموا دليل الجيش فرانقا ، فارسي معرب (قاموس) .

فارس بن ميمون بن وردار . وعاد بجواب الكتاب وتقرير المودّة بين السلف . وأجمع السلطان على كتب نسخة عتيقة من المصحف الكريم بخط يده ليوقفها بالحرم الشريف قربة إلى الله تعالى ، وابتغاء للمثوبة ، فانتسخها وجمع الورّاقين لمعاناة تذهيبها وتنميقها ، والقرّاء لضبطها وتهذيبها حتى اكتمل شأنها . وصنع لها وعاءً مؤلفاً من خشب الأبنُوس والعاج والصندل فائق الصنعة وغشى بصفائح الذهب ونظم الجوهر والياقوت واتخذ له اصونه الجلد المحكمة الصنعة وغشّي بصفائح الذهب ، ونظم بالجوهر والياقوت ، واتخذت له أصْوِنَة الجلد المحكمة الصناعة ، المرقوم أديمها بخطوط الذهب من فوقها غلاف الحرير والديباج وأغشية الكتّان . وأخرج من خزائنه أموالاً عينها لشراء الضياع بالمشرق لتكون وقفاً على القرّاء فيها ، وأوفد على الملك الناصر محمد بن قلاوون صاحب مصر والشام ، خواص مجلسه وكبار أهل دولته ، مثل عريف بن يحيى أمير زغبة ، والسابق المقدّم في بساطه على كل خالصة عطيّة بن مهلهل بن يحيى كبير الخولة . وبعث كاتبه أبا الفضل بن محمد بن أبي مَدْيَن وعريف الوزعة ببابه وصاحب دولته عبو بن قاسم المزوار[1] ، واحتفل في الهدية للمزوار للسلطان صاحب مصر احتفالا تحدّث الناس به دهراً . ووقفت على برنامج الهديـة بخط أبـي الفضل بـن أبـي مَـدْيَـن هـذا الرسول ووعيته وأنسيته وذكر لي بعض قهـارمـة الـدار أنـه كـان فيهـا خمسمائـة مـن عتـاق الخيل المقرّبات ، بسروج الذهب والفضة ولجمها ، خالصاً ومغشيّ ومموهاً ، وخمسمائـة حمـل من متـاع المغرب ومـا عونـه وأسلحتـه ، ومـن نسج الصوف المحكّم ثيـابـاً وأكسيـة وبرانس وعمائم ، وأُزُراً مُعْلَمَـة وغير معلمة . ومن نسج الحرير الفائق المعلم بالذهب ملوّناً وغير ملوّن ، وساذجاً ومنمّقاً . ومن الدّرق المجلوبة من بلاد الصحراء المحكمة بالدباغ المتعارف ، وتنسب إلى اللمط . ومن خرثيّ المغرب وما عونه وما يستظرف صناعته بالمشرق ، حتى لقد كان فيها مكيل من حصى الجوهر والياقوت . واعتزمت حظية من حظايا أبيه على الحج في ركابه ذلك ، فأذن لها واستبلغ في تكريمها . واستوصى بها وافده وسلطان مصر في كتابه . وفصلوا من تلمسان سنة[2] وأدّوا رسالتهم إلى الملك الناصر وهديتهم ،

---

(١) وفي نسخة ثانية : وعريف الوزعة بدولته ، وصاحب الباب عبّو بن قاسم المزوار.

(٢) بياض بالأصل ولم نستطع تحديد هذه السنة في المراجع التي بين أيدينا .

فتقبّلها وحسن لديه موقعها . وكان يوم وفادتهم عليه بمصر يوماً مشهوداً ، تحدّث به الناس دهراً ، ولقاهم في طريقهم أنواع البرّ والتكرمة حتى قضوا فرضهم ، ووضعوا المصحف الكريم حيث أمرهم صاحبهم . وأسنى هدية السلطان من فساطيطهم الغريبة الشكل والصنعة بالمغرب ، ومن ثياب الإسكندرية البديعة النسج المرقومة بالذهب ، ورجّعهم بها إلى مرسلهم وقد استبلغ في تكريمهم ووصلتهم . وبقي حديث هذه الهديّة مذكوراً بين الناس لهذا العهد .
ثم انتسخ السلطان نسخة أخرى من المصحف الكريم على القانون الأوّل ، ووقفها على القرّاءة بالمدينة ، وبعث بها من تخيّره لذلك العهد من أهل دولته . سنة[1]

واتصلت الولاية بينه وبين الملك الناصر إلى أن هلك سنة إحدى وأربعين وسبعمائة وولي الأمر من بعده ابنه أبو الفداء إسمعيل ، فخاطبه السلطان وأتحفه وعزّاه عن أبيه ، وأوفد عليه كاتبه وصاحب ديوان الخراج أبا الفضل بن عبدالله بن أبي مَدْيَن فقضى من وفادته ما حمل . وكان شأنه عجباً في إظهار أُبّهة سلطانه ، والانفاق على المستضعفين من الحاج في طريقه ، واتحاف رجال الدولة التركيّة بذات يده والتعفّف عمّا في أيديهم . ثم شرع بعد استيلائه على أفريقية كما نذكره في كتاب نسخة أخرى من المصحف الكريم ليوقفها ببيت المقدس ، فلم يقدر اتمامها ، وهلك قبل فراغه من نسخها ، كما نذكره إن شاءالله تعالى .

* (الخبر عن هدية السلطان الى ملك مالي من السودان المجاورين للمغرب) *

كان للسلطان أبي الحسن مذهب في الفخر يتطاول به إلى مناغات الملوك الأعاظم واقتفاء سننهم في مهاداة الأقتال والأمصار[2] ، وإيفاد الرسل على ملوك النواحي القاصية والتخوم البعيدة . وكان ملك مالي أعظم ملوك السودان لعهده مجاوراً لملكه بالمغرب على مائة مرحلة في القفر من ثغور ممالكه القبليّة . ولمّا غلب بني عبد الواد على تلمسان وابتزّهم ملكهم ، واستولى على ممالك المغرب الأوسط ، وتحدّث الناس

(١) بياض بالأصل ولم نستطع تحديد هذه السنة في المراجع التي بين ايدينا .

(٢) وفي نسخة ثانية : الانظار .

بشأن أبي تاشفين وحصاره ومقتله ، وما كان للسلطان في ذلك من سورة التغلّب وآية العزّ وإهانة العدو وشاعت أخبار ذلك في الآفاق . وسما سلطان مالي منسا موسى المتقدّم ذكره في أخبارهم إلى مخاطبته. فأوفد عليه فرانقين من أهل مملكته مع ترجمان من الملثّمين المجاورين لممالكهم من صنهاجة ، فوفدوا على السلطان في التهنئة بالغلب والظفر بالعدو ، فأكرم وفادتهم وأحسن مثواهم ومنقلبهم . ونزع إلى طريقته في الفخر ، فأتحف طرفاً من متاع المغرب وماعونه من ذخيرة داره وأسناها ، وعيّن رجالاً من أهل دولته ، كان فيهم كاتب الديوان أبو طالب بن محمد بن أبي مَـدْيَن ومولاه عنبر الخصيّ . وأوفدهم بها على ملك مالي منسا سليمان بن منسا موسى ، لمهلك أبيه قبل مرجع وفده . وأوعز إلى أعراب الفلاة من المعقل بالسير معهم ذاهبين وجاءين ، فشمّر لذلك علي بن غانم أمير أولاد جار الله من المعقل ، وصحبهم في طريقهم امتثالاً لأمر السلطان . وتوغّل ذلك الركاب في القفر إلى بلد مالي بعد الجهد وطول المشقة ، فأحسن مبرّتهم وأعظم موصلهم وأكرم وفادتهم ومنقلبهم . وعادوا إلى مرسلهم في وفد من كبار مالي يعظّمون سلطانه ، ويوجبون حقّه ، ويؤدّون طاعته من خضوع مرسلهم وقيامه بحق السلطان واعتماله في مرضاته ما استوصاهم به ، فأدّوا رسالتهم وبلغ السلطان أربا من اعتزازه على الملوك وخضوعهم لسلطانه ، وقضاء حقّ الشكر لله في صنعه .

* (الخبر عن اصهار السلطان الى صاحب تونس) *

لما هلكت إبنة السلطان أبي يحيى بطريف فيمن هلك من حظايا السلطان أبي الحسن بفساطيطه ، بقي في نفسه منها شيء حنيناً إلى ما شغفته به من خلالها وعزة سلطانها ، وقيامها على بيتها ، وظفرها في تصريفها[1] ، والاستمتاع بأصول الترف ولذاذة العيش في عشيرتها ، فسما أمله إلى الاعتياض عنها ببعض أخواتها . وأوفد في خطبتها وليّه عريف بن يحيى أمير زغبة ، وكاتب الجباية والعساكر بدولته أبا الفضل ابن عبدالله بن أبي مَـدْيَن ، وفقيه الفتوى بمجلسه أبا عبدالله محمد بن سليمان

(١) وفي نسخة ثانية : تصرفاتها .

السطي ، ومولاه عنبر الخصّي ، فوفدوا يوم مثنى من سنة ست وأربعين وسبعمائة وأنزلوا منزل البرّ ، واستبلغ في تكريمهم ودسّ الحاجب أبو عبدالله بن تافراكين إلى سلطانه غرض وفادتهم ، فأبى من ذلك صوناً لحرمه عن جولة الأقطار وتحكّم الرجال ، واستعظاماً لمثل هذا العرس . ولم يزل حاجبه ابن تافراكين يخفض عليه الشأن ويعظّم عليه حقّ السلطان أبي الحسن في ردّ خطبته مع الأذمّة السابقة بينهما من الصهر والمخالصة إلى أن أجاب وأسعف . وجعل ذلك إليه فانعقد الصهر بينهما وأخذ الحاجب في شوار العروس ، وتأنق فيه واحتفل واستكثر وطال ثواء الرسل إلى أن استكمل وارتحلوا من تونس لربيع من سنة تسع[1] وأربعين وسبعمائة وأوعز مولانا السلطان أبو يحيى إلى ابنه الفضل صاحب بونة وشقيق هذا العروس أن يزفّها على السلطان أبي الحسن قياماً بحقّه ، وبعث من بابه مشيخة من الموحدين مقدّمهم عبد الواحد بن محمد بن أكمازير ، صحبوا ركابها إليه . ووفدوا جميعاً على السلطان واتصل الخبر أثناء طريقهم بمهلك مولانا السلطان أبي يحيى عفا الله عنه ، فعزاهم السلطان أبو الحسن عنه عندما وصلوا إليه ، واستبلغ في تكريمهم وأجمل موعد أخيها الفضل بسلطانه ومظاهرته على تراث أبيه فأطمأنت به الدار الى أن سار في جملة السلطان وتحت ألويته إلى أفريقية كما نذكر إن شاءالله تعالى .

* (الخبر عن حركة السلطان الى أفريقية واستيلائه عليها) *

كان السلطان أبو الحسن قد امتدّت عينه إلى ملك أفريقية لولا مكان السلطان أبي يحيى من ولايته وصهره ، وأقام يتحيّن لها الأوقات ، ولمّا بعث إليه في الصهر وأشيع بتلمسان أن الموحدين ردّوا خطبته ، نهض من المنصورة بتلمسان وأغذّ السير إلى فاس ففتح ديوان العطاء ، وأزاح علل العسكر ، وعقد على المغرب الأقصى لحافده منصور ابن الأمير أبي مالك ، وفوّض إلى الحسن بن سليمان بن يرزيكن في أحكام الشرطة ، وعقد له على الضاحية ، وارتحل إلى تلمسان مضمراً الحركة إلى أفريقية حتى إذا جاء الخبر اليقين بالإسعاف والزفاف سكن عزمه[2] وهدأ طائره . فلمّا هلك السلطان أبو

(١) وفي نسخة ثانية : سنة سبع .

(٢) وفي نسخة ثانية : سكن غربه .

يحيى في رجب من سنة سبع وأربعين وسبعمائة ، وكان من قيام ابنه عمر بالأمر ، ونزوع الحاجب أبي محمد بن تافراكين في رمضان منها ما ذكرناه ، تحركت عزائم السلطان لذلك . ورغبه ابن تافراكين في ملك الموحّدين ، فرغب وجاء على أثره الخبر بما كان من قتل عمر لأخيه أحمد وليّ العهد ، وكان يستظهر على عهده بكتاب أبيه ، وما أودعه السلطان بحاشيته من الوفاق على ذلك بخطه ، واقتضاه منه حاجبه أبو القاسم بن عتّو في سفارته إليه ، فامتعض السلطان لما أضاع عمر من عهد أبيه ، وهدر من دم أخيه . وارتكب مذاهب العقوق فيهم ، وخرق السياج الذي فرضه بخطّه عليهم ، فأجمع الحركة إلى أفريقية ولحق به خالد بن حمزة بن عمر نازعاً إليه ومستغذّاً مسيره ، ففتح ديوان العطاء ونادى في الناس بالمسير إلى أفريقية ، وأزاح عللهم . وكان صاحب بجاية المولى أبو عبدالله حافد مولانا الأمير أبي يحيى ، وفد على السلطان أبي الحسن إثر مهلك جدّه بقرب المآب[1] بسفارة أبيه إليه ، ويطلب الإقرار على عمله . فلما استيأس منه واستيقن حركته بنفسه إلى أفريقية ، طلب الرجوع إلى مكانه فأسعف وفصل إلى بجاية .

ولما قضى السلطان منسك الأضحى من سنة تسع وأربعين وسبعمائة عقد لابنه الأمير أبي عنّان على المغرب الأوسط ، وعهد إليه بالنظر في أموره كافة ، وجعل إليه جبايته ، وارتحل يريد أفريقية . وسار في جملته هو وخالد بن حمزة أمير البدو . ولما احتلّ بوَهْرَان ووافاه هنالك وفد قسطيلة وبلاد الجريد ، يقدمهم أحمد بن مكي أمير حربه[2] ورديف أخيه عبد الملك في إمارته ، ويحيى بن محمد بن يملول أمير توزر سقط إليها بعد خروج الأمير أبي عمر العبّاس ولي العهد عنها ، ومهلكه بتونس ، وأحمد بن عامر بن العابد رئيس نفطة ، رجعاً إليهما كذلك بعد مهلك وليّ العهد ، فلقيه هؤلاء الرؤساء بوَهْرَان في ملأٍ من وجوه بلادهم ، فآتوه بيعتهم وقضوا حق طاعته . وتثاقل محمد بن ثابت أمير طرابلس عن اللحاق به ، فبعث بيعته معهم ، فأكرم وفدهم وعقد لهم على أمصارهم ، وصرفهم إلى أعمالهم . وتمسّك بأحمد بن مكي لصحابة ركابه ، وفي جملته ، وأغذّ السير . ولما احتل ببني حسن من أعمال بجاية ، وافاه بها منصور بن فضل بن مزني أمير بسكرة وبلاد الزاب في وفد من أهل

---

(١) كذا في النسخة الباريسية وفي النسخة المصرية : المتات وفي نسخة ثانية : المتاب وفي أخرى المناب .
(٢) وفي نسخة أخرى : أمير جربة .

وطنه ، ويعقوب بن علي بن أحمد سيّد الزواودة وأمير البدو بضاحية بجاية وقسنطينة ، فتلقّاهم بالمبرّة والاحتفاء وألزمهم ساقته . وسرّح بين يديه قائده حمو بن يحيى العسكري[1] من صنائع أبيه ، فلمّا عسكر بساحة بجاية أبو عبدالله وأبى عليه أهل البلد رهبة من السلطان ورغبة فيه ، وانفضّوا من حوله ، ولحقت مشيختهم من القضاة وأهل الفتيا والشورى بمجلس السلطان . وسابقهم إليه حاجبه فارح مولى ابن سيد الناس ، فأدّى طاعته ورجّعه إليه للخروج للقاء ركابه . وارتحل حتى اذا أطلّت راياته على البلد ، بادر المولى أبو عبدالله ولقيه بساحة البلد ، واعتذر من تخلّفه فتقبّل عذره وأحله من البرّ والتكرمة محل الولد العزيز . وأقطعه عمل كومية من نواحي هُنَين ، وأسنى جرايته بتلمسان وأصحبه إلى ابنه أبي عنّان صاحب المغرب الأوسط واستوصاه به . ودخل بجاية فرفع عنهم الظلامات وحطّ عنهم الربع من المغارم . ونظر في أحوال ثغورها فثقفها وسدّ فروجها . وعقد عليها لمحمد بن النوار[2] من طبقة الوزراء والمرشحين لها ، وأنزل معه حامية من بني مرين . وكاتب الخراج ببابه بركات بن حسّون بن البوّاق ، وارتحل مغِذًّا لسيره حتى احتل بقسطينة . وتلقّاه أميرها أبو زيد حافد مولانا السلطان أبي يحيى وأخواه أبو العبّاس أحمد وأبو يحيى زكريا وسائر إخوتهم ، فأتوه ببيعتهم ونزلوا له عن عملهم . وأدالهم السلطان منه بندرومة من عمل تلمسان ، عقد للمولى أبي زيد على إمارتها ، وجعل له إسوة إخوته في أقطاع جبايتها ، ودخل البلد وعقد عليها لمحمد بن العبّاس ، وانزل معه العبّاس بن عمر في قومه من بني عسكر . وأمضى أقطاعات الزواودة ووافاه هنالك عمر بن حمزة سيّد الكعوب لعهده وأمير البدو مستحثاً لركابه . وأخبره برحيل السلطان عمر ابن مولانا السلطان أبي يحيى من تونس فيمن اجتمع إليه من أولاد مهلهل أقتالهم من الكعوب موجهاً إلى ناحية قابس . وأشار على السلطان بتسريح العساكر لاعتراضه قبل أن يخلص إلى طرابلس ، فسرّح معه حمّو بن يحيى العسكري قائده في عسكر من بني مرين والجند . وارتحلوا في اتباع السلطان أبي حفص ، وتلوّم السلطان أبو الحسن بقسنطينة ، واعترض عساكره بسطح الجعاب منها . وصرف يوسف بن مزني إلى عمله بالزاب ، بعد أن خلع عليه وحمله .

---

(١) وفي نسخة أخرى : العشري .
(٢) وفي نسخة ثانية : بن الثوار .

ثم عقد للمولى الفضل ابن مولانا السلطان أبي يحيى على مكان عمله ببونة ، وملأ حقائبه جائزةً وخلعاً نفيسةً وسرّحه ، ثم ارتحل على أثرهم وأوعز حمّو بن يحيى مع الناجعة من أولاد أبي الليل ، ولحقوا بالأمير أبي حفص بمباركة من ناحية قابس ، فأوقعوا به وتردّى عن فرسه في حومة القتال هو ومولاه ظافر السنان القائم بدولته من المعلوجي ، فتقبّض عليهما وسيقا إلى أبي حمّو فاعتقلهما إلى الليل ، ثم ذبحهما وأنفذ برؤسهما إلى السلطان . ولحق الفلّ بقابس ، فتقبّض عبد الملك بن مكي على أبي القاسم بن عتو صاحب الأمير أبي حفص وشيخ الموحدين ، وعلى صخر بن موسى شيخ بني سكين من سدويكش فيمن تقبّض عليه من ذلك الفلّ ، وأشخصهم مقرنين في الأصفاد إلى السلطان . وسرّح السلطان عساكره إلى تونس ، وعقد عليهم ليحيى بن سليمان صهره من بني عسكر على إبنته ، وأنفذ معه أحمد بن مكي فاحتلوا بتونس ، واستولوا عليها . وانطلق ابن مكي إلى مكان عمله من هنالك لما عقد له السلطان عليه وسرّحه إليه بعد أن خلع عليه وعلى حاشيته وحمّلهم . ونزل السلطان بناحية باجة ، فوافاه هنالك البريد برأس الأمير أبي حفص . وعظم الفتح .

ثم ارتحل إلى تونس واحتلّ بها يوم الأربعاء الثامن لجمادى الآخرة من سنة ثمان . وتلقّاه وفد تونس وملؤها من شيوخ الشورى وأرباب الفتيا ، فآتوا طاعتهم وانقلبوا مسرورين بملكتهم . ثم عبّى يوم السبت إلى دخولها مواكبه ، وصفّ جنوده سماطين من معسكره بسيجوم إلى باب البلد يناهز ثلاثة أميال أو أربعة . وركب بنو مرين إلى مراكزهم في جموعهم وتحت راياتهم . وركب السلطان من فسطاطه وراكبه من على يمينه وليّه عريف بن يحيى أمير زغبة ، ويليه أبو محمد عبدالله بن تافراكين ومن على يساره الأمير أبو عبدالله محمد أخو مولانا السلطان أبي يحيى ، ويليه الأمير أبو عبدالله ابن أخيه خالد ، كانا معتقلين بقسنطينة مع ولدهما منذ خروج أخيه الأمير أبي فارس فأطلقهم السلطان أبو الحسن وصحبوه إلى تونس ، فكانوا طرازاً في ذلك الموكب فيمن لا يحصى من أعياص بني مرين وكبرائهم . وهدرت طبوله ، وخفقت راياته ، وكانت يومئذ مائة . وجاء والمواكب تجتمع عليه صفًّا صفًّا إلى أن وصل إلى البلد ، وقد ماجت الأرض بالجيوش ، وكان يوماً لم يُرَ مثله فيما عقلناه . ودخل السلطان إلى القصر وخلع على أبي محمد بن تافراكين كسوته وقرّب إليه فرسه بسرجه ولجامه . وطعم الناس بين يديه وانتشروا . ودخل السلطان مع أبي محمد بن تافراكين إلى حُجَر

القصر ومساكن الخلفاء ، فطاف عليها ودخل منه إلى الرياض المتصلة به المدعوّة برأس الطابية ، فطاف على بساتينه وجوائزه ، وأفضى منه إلى معسكره وأنزل يحيى ابن سليمان بقصبة تونس في عسكر لحمايتها . ووصل إليه فلّ الأمير أبي حفص والأسرى بقابس مقرنين في أصفادهم ، فأودعهم السجن بعد أن قطع أبا القاسم بن عتّو وصخر بن موسى من خلاف ، لفتيا الفقهاء بحرابتهم[1] . وارتحل من الغد إلى القيروان فجال في نواحيها . ووقف على آثار الأوّلين ومصانع الأقدمين والطلول الماثلة لصنهاجة والعبيديين ، وزار أجداث العلماء والصالحين .

ثم سار إلى المهديّة ووقف على ساحل البحر ، ونظر في عاقبة الذين كانوا من قبل أشدّ قوّةً وآثاراً في الأرض ، واعتبر بأحوالهم . ومرّ في طريقه بقصر الأجم ورباط المنستير ، وانكفأ راجعاً إلى تونس ، واحتل بها غرّة رمضان وأنزل المسالح على ثغور أفريقية ، وأقطع بني مرين البلاد والضواحي ، وأمضى أقطاعات الموحّدين للعرب . واستعمل على الجهات وسكن القصر وقد عظم الفتح وعظمت في الاستيلاء على الممالك والدول المنّة . واتصلت ممالكه ما بين مسراته والسوس الأقصى من هذه العدوة ، وإلى رُنْدَة من عدوة الأندلس . والملك لله يؤتيه من يشاء من عباده ، والعاقبة للمتقين * ودفع إليه الشعراء بتونس يهنّؤنه بالفتح ، وكان سابقهم في تلك النوبة أبو القاسم الرحوي من ناشئة أهل الأدب فرفع إليه قوله :

أجـابَكَ شرقٌ إذ دَعَـوْتَ ومَـغْرِبُ ... فَـمَـكَّـةُ هَشَّتْ لِلِّقـاءِ ويَثْرِبُ
ونـادَاكَ مِصْرٌ والعراقُ وشامُـهُ ... بِداراً ، فصدعُ الدين عِنْدَكَ يُشْعَبُ
وحيَّتْكَ أوْ كـادَتْ تُحَيِّي مَنَابِرٌ ... عليهـا دُعَـاةُ الحقِّ باسمِكَ تَخْطِبُ
فَسَارَعَ مِنَّـا كُـلُّ دانٍ وشَاسِعٍ ... إلى طـاعَـةٍ من طَاعَةِ اللهِ تُحْسَبُ
وتـاقَتْ لَكَ الأَرْواحُ حُبًّـا ورَغْبَـةً ... وأنتَ على الآمالِ تَنْأى وتَقْرُبُ
في البَلْـدَةِ البَيْضَاءِ مَعْشَرٌ ... وأَنْتَ بـأُفْقِ النـاصِرِيَّـةِ تَرْقُبُ
ووافَتْكَ من ذاتِ النَخِيـلِ وفودُها ... فَلَقَـاهُم أهـلٌ لـديكَ ومَرْحَبُ
ولَمَ تتلكَّـأ عن إبـاء بَجَـايَـةَ ... ولكنّ تُرَاضِ الصعبَ حيناً وتركبُ
تـأبَّتْ فلمّـا أنْ أطَلّت عسَاكِرٌ ... ترى الشُهُبَ منها تُسْتَباحُ وتُنْهَبُ

(١) وفي نسخة ثانية : بجرايتهم .

تَبَــادَرَ مِنْهُمْ مُــذْعِنٌ ومُسَلِمٌ ... وأذْعَنَ مِنْهُم شَاغِبٌ ومُـؤَلِّبُ
ومــا تونسَ إلاَّ بمصْرٍ مروَعٌ ... وفي حَرَم أمْسَتْ لــديكَ تسرَّبُ
ومـا أهلُهــا إلا بُغـاث لِصائِـدٍ ... وبـالعزِّ منهـا استَنْصَروا وتعَقّبُوا
وقَدْ كُنْتَ قبلَ اليوم كهفَ زعيمِهِم ... فها أنت كهفٌ للجميع ومَـهْـرَبُ
فكُـلٌ يرى أنَّ الزمــانَ أدالَــهُ ... بكُم فأجاب العيشُ والعَيْشُ مخصبُ
وكـذّلكَ إبنُ طائـعٌ وإن اعتلَت ... بـه السنّ أحوالاً وأنتَ لـه أبُ
ومـا ذاك إلا أن عـدلك يَنْتَمي ... إلى الخلفـاءِ الراشدينَ ويُنْسَبُ
تسامَيْتَ في مُلْكٍ ونسكٍ بحُظْـوَةٍ ... حَـذيّـاكَ مِحْرابٌ لـديها ومركبُ
إذا لـذّ لِلأمْلاك خمرٌ مـدامـةٌ ... فلــذّلكَ القُرآن يُتْلَى ويُكْتَبُ
وإنْ أذْ مَنَ القـومُ الصبوحَ فـإنّما ... على ركَعاتٍ بالضُحَى أنتَ تدْأبَ
وإن حَمَـدوا الشرْبَ الغَبوقِ فـإنّما ... شرابُكَ بـالإمْسَاءِ ذِكْرٌ مُرَتّبُ
وإنْ خَشُنَتْ أخلاقُهُمْ وتحجّبوا ... فما أنْت فظّ بل ، ولا مُتَحَجّبُ(١)
لقد كَرُمَتْ مِنْكَ السجايا فأصْبَحَتْ ... إذا مـا أمرّ الـدهرُ تحلو وتَعْـذُبُ
كما شيّـدْتَ بيتـاً في ذؤابَـةِ مَعْشَرٍ ... يزيـدُهم قَحْطـانُ فخراً ويَعْرُبُ
هُمُ التـاركو قلبَ القَسَاور خضّعاً ... وعـن شأوهِمْ كُفَّتْ عبيـدٌ وأغلَبُ
هم الناسُ والأملاكُ تحت جوارِهِم ... همُ العُظَمُ الأرضُ العظيمةُ مغربُ(٢)
هم المالكو الملكَ العظيم فبيتهم(٣) ... على كـاهِـل السبع الشِدادِ مُطَنَّبُ
لقد أصْبَحَتْ بَغْدَادُ تَحْسِدُ بأسَهُم ... وحلـة ودّت أن تكونَ مناسب(٤)
تجلّت ببيت(٥) المجد منهم كواكبٌ ... لقـد حـلّ منهـا شارقٌ ومُغَرّبُ
فـالله مِنْهُم ثَلّـةٌ بغريبـة(٦) ... يروم بِنـاهـا الأعجميُّ فَيَعْرُبُ
لقـد قـام عبدُ الحقّ للحقِّ طالبَاً ... فمافـاتـه منـه الـذي قـام يطلَبُ
وأعقَبَ يعقوبـاً يـؤمُ سبيلَـهُ ... فلم يُخْطِهِ وَهْوَ السبيـلُ المنجبُ(٧)

---

(١) وفي نسخة ثانية : فما انت فظ لا ولا متحجب .
(٢) وفي نسخة ثانية : تغرب .
(٣) وفي نسخة ثانية : ودستهم .
(٤) وفي نسخة ثانية : ودجلة ودّت ان يكون بها سب .
(٥) وفي نسخة ثانية : تحلت سماء .
(٦) وفي نسخة ثانية : «ثلّة يعربية يروم ثباهاً» .
(٧) وفي نسخة ثانية : المُلَحّبُ .

وخلّفَ عثمانـــــــــاً فلله صارمٌ به بَـانَ للإسلام شَرْعٌ ومـذهبُ
فكَمْ في سبيـــل اللهِ شنَّ إغــارةً لِمَا شادَ أهلُ الكفر أمْسَتْ تُخرَّبُ
ولمّــــا أرادَ اللهُ إتمامَ مِنَّـــةٍ تقلّـدهـا منّـا مطيـعٌ ومُـذْنِبُ
أتى بك للـــدين الحنيفيّ آيــةً تعرَّى بها عن لامعِ الحقِّ غَيْـهَبُ
فجئتَ بما يَرضى بـه اللهُ سالكـاً سبيلاً إلى رضوانـــه بك يَـذْهَبُ
وقُمْتَ بـأمرِ اللهِ حَقّ قِيَـامِـه ينـاضل عنـه منك نصلٍ مـدرّب
وأصبحَ أهـلُ اللهِ أهلاً وشيعــةً لكُمْ ولهمْ مِنْكُم مكـــانٌ ومنصِبُ
وحلَّ بأهلِ الفتكِ ما حلّ عزمهمْ وقــامَ لــديهمْ واعظٌ مترقِّبُ(١)
وجاهدتَ في الرحمن حقّ جهَادِهِ فراهبُ أهلِ الكُفْرِ بأسَكَ يَرْهَبُ
وأنقـذتَ من أيـدي الإغارة أمّـةً وأَوْلى جهـادٍ كَان بَـلْ هو أوْجَبُ
فـأصبحتِ الـدنيـا عروساً يزفُّهـا لامرك من جاري المقادير(٢) مغربُ
فلا مِصْرُ إلا قــد تمنَّـاكَ أهلـهُ ولا أرضٌ إلاّ بـاذّكـارك تُخصِبُ
ومـا الأرض إلاّ منزلٌ أنتَ رَبُّـهُ ومـا حلّهـا إلاّ الودود المُرَجّبُ
تملكّتَ شطرَ الأرضِ كسباً وشَطْرَها وراثا(٣) فطاب الكلّ إرثاً ومكسب(٣)
بجيشٍ على الألـواح والماء يمتطي وجيشٍ على الضُمر السوابقِ يركبُ
وجيش من الإحسان والعدلِ والتُقى وذلك لَعَمْـرُ الله أغلى وأغلبُ
فلا مركبُ إلا يزيّن راكبــــاً ولا راكبٌ إلاّ بـــه ازدانَ مَركبُ
ولا رمحٌ إلاّ وهو أهيفُ خـاطرٌ ولا سَيْفُ إلاّ وهو أبْيَض فأضبُ(٤)
فكم كـاتبٍ خِطّيّـــهُ ودواتُـــهُ ولم يقْرَ خطاً يغتدى وهو يكتبُ(٥)
يمرُّ على الأبطـالِ وهو كـأنّــه هِزَبْرٌ وأبطـــالُ الفوارسِ رَبْرَبُ
وكم كاتبٍ لا يُنْكِرُ الطَعْنَ رُمْحُهُ خَبيرٌ بـأيـامِ الأعـارِيب مَعْرَبُ
له من عجيبِ السحّر بالقولِ أَضْرُبٌ وفي هامَةِ القَومِ المضاربِ مَضْرَبُ
فهـــا هو في الأقوالِ واشٍ محبّرٌ وهـا هو في الأَمثـالِ ثـاوٍ مُجَرّبُ

---

(١) وفي نسخة ثانية : ومثوّب .
(٢) وفي نسخة ثانية : التقادير .
(٣) وفي نسخة ثانية : تراثا فطاب الملك إرثا ومكسب .
(٤) وفي نسخة ثانية : مقضب .
(٥) ولم يقر خطاً لا ، ولا هو يكتب .

ومن ساحبِ بُرداً من العلمِ والتُقى		عليه ذيولُ الداوديّة تَسْحَبُ
له صبغةٌ في العلمِ جاءَتْ بأصبغٍ		وشهبانَ فهم لم يَشِمْهُنّ أَشْهبُ
فيا عسكراً قد ضمَّ أعلامَ عالَمٍ		به طاب في الدنيا لنا مُتقلّبُ
هم الفِئةُ العَلْيَاءُ والمعشرُ الذي		اذا حَلَّ شعباً[1] فهو للحقِ مشعِبُ
لكَ الفضلُ في الدنيا على كل قاطنٍ		ومرّتحِلٍ أنّى يجيءُ ويذهبُ
ويا مالكا[2] عدلاً رضىً متورّعاً		مناقِبُه العَلَياءُ تُتْلَى وتُكْتَبُ
شرَعْتَ من الإحسان فينا شريعةً		تَساوى بهاناءِ ومَنْ يَتَقَرَّبُ
وأَسمَيْتَ أهلَ النُسْكِ إذْ كُنتَ منهُمُ		فَمِنْكَ أخو التقْوى قَريبٌ مُقَرّبُ
وأَعْلَيْتَ قَدْرَ العلم إِذْ كُنْتَ عالِماً		فقيهاً وفي طلاّبِهِ لَكَ مَأْرَبُ
فَمَدْحُكَ محتومٌ على كلِّ قائلٍ		وَمَن ذا الذي يُحْصِي الرمَالَ وَيحْسِبُ
فَلِلّهِ كَمْ تُعْطِي وتَمطِي وتَجْتَبي		فَلِلْبَحْرِ مِنْ كفيْكَ قَدْ صحّ مَنْسَبُ
فلا بَرِحَتْ كفّاكَ في الأرضِ مزْنَةً		يَطيبُ بِها للخلْقِ مرْعىً ومَشْرَبُ
ولا زلْتَ في علياءِ مَجْدِكَ راقياً		وشانِئكَ المَدْحُوضُ يَنكِي ويَنكَبُ
توافَى على أَقْصَى أمانيكَ آمناً		فلا بِرٌّ يُسْتَعْصَى ولا يَتعَصَّبُ

الخبر عن واقعة العرب مع السلطان أبي الحسن بالقيروان وما تخللها من الأحداث

كان هؤلاء الكعوب من بني سُلَيْم رؤساء البدو بأفريقية ، وكان لهم اعتزاز على الدولة لا يعرفون غيره مذ أوّلها بَلْ وما قبله ، إذ كان سُلَيْم هؤلاء منذ تغلّب العرب من مُضَر على الدول والممالك أوّل الإسلام انتبذوا إلى الضواحي والقفار ، وأعطوا من صدقاتهم عن عزّة ، وارتاب الخلفاء بهم لذلك حتى لقد أوصى المنصور ابنه المهدي أن لا يستعين بأحد منهم كما ذكر الطبري . فلما انثالت الدولة العبّاسية واستبدّ الموالي من العجم عليهم ، اعتز بنو سُلَيْم هؤلاء بالقفر من أرض نجد ، وأجلبوا على الحاج بالحرمين ، ونالتهم منهم معرّات ، ولما انقسم ملك الإسلام بين العبّاسية والشيعة

(١) وفي نسخة ثانية : صعباً .
(٢) وفي نسخة ثانية : يا ملكاً .

واختطّوا القاهرة ، نفقت لهم أسواق الفتنة والتعزز ، وساموا الدولتين بالهضيمة وقطع السابلة . ثم أغراهم العُبَيْدِيّون بالمغرب وأجازوا إلى بَرْقة على أثر الهلاليّين فخرّبوا عمرانها وأجروا في خلائها ، حتى إذا خرج ابن غانية على الموحّدين وانتزى بالثغور الشرقيّة طرابلس وقابس ، واجتمع معه قراقش الغزيّ مولى بني أيوب ملوك مصر والشام ، وانضاف إليهم أفاريق العرب من بني سُلَيْم هؤلاء وغيرهم ، أجلبوا معه على الضواحي والأمصار ، وصاروا في جملتهم من ناعق فتنتهم . ولمّا هلك قراقش وابن غانية واستبدّ آل أبي حفص بأفريقية وأعزّ الزواودة على الأمير أبي زكريا يحيى ابن عبد الواحد بن أبي حفص ، استظهر عليهم ببني سُلَيْم هؤلاء ، وزاحمهم بظواعنهم وأقطعهم بأفريقية ونقلهم عن مجالاتهم بطرابلس وأنزلهم بالقيروان ، فكان لهم من الدولة مكان وعليها اعتزاز ، ولما افترق سلطان بني أبي حَفْص ، واستبدّ الكعوب برياسة البدو ، وضربوا بين أعياصها وسعوا في شقاقها ، وأصابت منهم وأصابوا منها ، وكان بين مولانا الأمير أبي يحيى وبين حمزة بن عمر أخي الأمير منازعة وفتن وحرب سجال أعانه عليها ما كان من زحف بني عبد الواد إلى أفريقية وطمعهم في تملّك ثغورها ، فكان يستجرّ جيوشهم لذلك ، وينصب الأعياص من بني أبي حفص يزاحم بهم ، ثم غلبه مولانا السلطان أبو بكر آخراً واستجرّه إلى الطاعة ما كان من قطع كلمة الزبون[1] عن مولانا السلطان أبي يحيى ، وهلاك عدّوه من آل يغمراسن ، بسيف وليّه وظهيره السلطان أبي الحسن ، فأذعن وسكن غرب اعتزازه . وحمل بني سُلَيْم على إعطاء صدقاتهم ، فأعطوها بالكراهة . ثم هلك باغتيال الدولة له فيما يزعمون ، وقام بالأمر بنوه ولم يعرفوا عواقب الأمور ولا أبلوا باعتساف الدولة ، ولم يعهدوا ولا سمعوا لسلفهم غير الاعتزاز فحدّثتهم أنفسهم بالفتنة والاعتزاز على قائد الدولة . وحاربوه فغلبوه ، وأجلبوا على السلطان في ملكه ، ونازلوه بعقر داره سنة اثنتين وأربعين وسبعمائة ولما سامهم الأمير ابن مولانا السلطان أبي يحيى الهضيمة بعد مهلك أبيه ، نزعوا إلى أخيه وليّ العهد ، فجاء إلى تونس وملكها سبعاً . ثم اقتحم عليه أخوه الأمير أبو حفص فقتله . وتقبّض يوم اقتحامه البلد

---

(١) الزبن : دفع الشيء عن الشيء ، وحرب زبون . تزين الناس ، أي تصدعهم وتدفعهم ، على التشبيه بالناقة التي تزبن ولدها عن ضرعها وتزبن الحالب أي تدفعه بثفناتها وقال الجوهري : أما الزبون للغبي والحريف فليس من كلام أهل البادية (لسان العرب) .

على أبي الهول بن حمزة أخيهم ، فقتله صبراً بباب داره بالقصبة ، فأسفهم بها . ونزعوا الى السلطان أبي الحسن ورغّبوه في ملك أفريقية واستعدّوه إليها .

ولما تغلب السلطان على الوطن وكانت حاله في الاعتزاز على من في طاعته غير حال الموحدين وملكته للبدو غير ملكتهم ، وحين رأى اعتزازهم على الدولة وكثرة ما أقطعتهم من الضواحي والأمصار ، نكره وأدالهم من الأمصار التي أقطعهم الموحدون بأعطيات فرضها لهم في الديوان . واستكثر جبايتهم ، فنقصهم الكثير منها وشكا إليه الرعيّة من البدو وما ينالونهم به من الظلامات والجور بفرض الاتاوة التي يسمونها الخفارة ، فقبض أيديهم عنها وأوعز إلى الرعايا بمنعهم منها ، فارتابوا لذلك ، وفسدت نياتهم وثقلت وطأة الدولة عليهم فترصّدوا لها . وتسامع ذؤبانهم وبواديهم بذلك ، فأغاروا على قياطين[1] بني مرين ومسالحهم بثغور أفريقية وفروجها ، واستاقوا أموالهم ، وكثر شاكيهم[2] وأظلم الجو منهم بينهم وبين السلطان والدولة . ووفد عليه بتونس بعد مرجعه من المهديّة وفد من مشيختهم ، كان فيهم خالد بن حمزة مستحبة[3] إلى أفريقية ، وأخوه أحمد وخليفة بن عبدالله بن مسكين ، وابن عمه خليفة بن بو زيد من أولاد القوس ، فأنزلهم السلطان وأكرمهم .

ثم رفع إليه الأمير عبد الرحمن ابن السلطان أبي يحيى زكريا بن اللحياني كان في جملته ، وكان من خبره أنه رجع من المشرق بعد مهلك أبيه بمصر كما قدّمناه سنة إثنتين وثلاثين وسبعمائة فدعا لنفسه بجهات طرابلس . وتابعه أعراب ذباب ، وبايع له عبد الملك بن مكي صاحب قابس . ونهض معه إلى تونس في غيبة السلطان لتخريب تامزيزدكت كما ذكرناه ، فملكها أياما وأحس بمرجع السلطان فأجفل عنها . ولحق عبد الواحد بن اللحياني إلى تلمسان ، إلى أن دلف إليها السلطان أبو الحسن بعساكره ، ففارقهم وخرج إليه ، فأحلّه محل التكرّمة والمبرة واستقرّ في جملته إلى أن ملك تونس . ورفع إليه عند مقدم هذا الوفد أنّهم دسّوا إليه مع بعض حشمه ، وطلبوه في الخروج معهم لينصّبوه للأمر بأفريقية وتبرّأ إلى السلطان من

---

(١) القيطون : المخدع ، أعجمي ، وقيل : بلغة أهل مصر وبربر : قال ابن بري : القيطون بيت في بيت (لسان العرب) .

(٢) وفي نسخة ثانية : كثر شكاتهم .

(٣) كذا في النسخة الباريسية ولا معنى لها هنا وفي نسخة ثانية : مستحثه .

ذلك ، فأحضروا بالقصر ووبخهم الحاجب علال بن محمد بن المصمود ، وأمر بهم ، فسحبوا إلى السجن .

وفتح السلطان ديوان العطاء وعسكر بسيجوم من ساحة البلد بعد قضائه منسك الفطر من سنته . وبعث في المسالح والعساكر فتوافت إليه واتصل الخبر بأولاد أبي الليل وأولاد القوس باعتقال وفدهم وعسكرة السلطان لهم ، فضاقت عليهم الأرض بما رحبت وتعاقدوا على الموت ، وبعثوا إلى أقتالهم أولاد مهلهل بن قاسم بن أحمد . وكانوا بعد مهلك سلطانهم أبي حفص قد لحقوا بالقفر وانتبذوا عن أفريقية فراراً من مطالبة السلطان بما كانوا شيعة لعدوّهم . فأغذّ السير إليهم أبو الليل بن حمزة متطارحاً عليهم بنفسه في الاجتماع على الخروج على السلطان ، فأجابوه وارتحلوا معه . وتوافت أحياء بني كعب وحكيم جميعاً بتوزر من بلاد الجريد ، فهدروا الدماء بينهم وتدامروا وتبايعوا على الموت ، والتمسوا من أعياص الملك من ينصبونه للأمر ، فدلّهم بعض سماسرة الفتن على رجل من أعقاب أبي دبّوس فريسة بني مرين من خلفاء بني عبد المؤمن بمراكش ، عندما استولى عليها . وكان من خبره أنّ أباه عثمان بن ادريس بن أبي دبّوس لحق بمهلك أبيه بالأندلس ، وصحب هنالك مرغم بن صابر شيخ بني ذباب وهو أسير ببرشلونة . فلما انطلق من أسره صحبه إلى وطن ذباب بعد أن عقد قمص برشلونة بينهما حلفاً ، وأمدّهما باسطول على مال التزماه له . ونزل بضواحي طرابلس وجبال البربر بها ، ودعا لنفسه هنالك وقام بدعوته كافة العرب من ذباب ، وقاتل طرابلس ، فامتنعت عليه . ثم بايعه أحمد بن أبي الليل شيخ الكعوب بأفريقية ، وأجلب به على تونس ، فلم يتم أمره لرسوخ دعوة الحفصيّين بأفريقية وانقطاع أمر بني عبد المؤمن منها ، وآثارهم منذ الأحوال العديدة والآماد المتقادمة فنسي أمرهم .

وهلك عثمان بن إدريس هذا بجربة ، ثم ابنه عبد السلام بعده ، وترك من الولد ثلاثة : أصغرهم أحمد ، وكان صناع اليدين . ولحقوا بتونس بعدما طوّحت بهم طوائح الاغتراب ، وظنّوا أن قد تنوسي شأن أبيهم ، فتقبّض عليهم مولانا السلطان أبو يحيى وأودعهم السجن إلى أن غرّبهم إلى الاسكندرية سنة أربع وأربعين وسبعمائة ورجع أحمد إلى أفريقية ، واحتل بتوزر محترفاً بالخياطة يتعيّش منها ، فاستدعاه بنو كعب هؤلاء حين اتفقت أهواؤهم ومن اتبعهم من أحلافهم أولاد القوس ، وسائر

شعوب علاق . وخرج إليهم من توزر فنصبّوه للأمر وجمعوا له شيئاً . من الفساطيط والآلة والكسوة الفاخرة والمقربات . وأقاموا له رسم السلطان ، وعسكروا عليه بـحلّلهم وقياطينهم ، وارتحلوا لمناجزة السلطان ، ولما قضى منسك الأضحى من سنة ثمان وأربعين وسبعمائة ارتحل من ساحة تونس يريدهم ، فوافاهم في الفرح بين بسيط تونس وبسيط القيروان المسمى بالثنيّة ، فأجفلوا أمامه وصدقوه القتال منهزمين ، وهو في اتباعهم إلى أن احتلّ بالقيروان ، ورأوا أن لا ملجأ منه ، فتذامروا واتفقوا على الاستماتة ، ودسّ إليهم من عسكر السلطان بنو عبد الواد ومغراوة وبنو توجين فغلبوا بني مرين ، ووعدوهم بالمناجزة صبيحة يومهم ليتحيّزوا إليهم براياتهم ، وصبحوا معسكر السلطان ، وركب إليهم في الآلة والتعبية ، فاختلّ المصاف ، وتحيّز إليهم الكثير ، ونجا السلطان إلى القيروان فدخلها في الفلّ من عساكره ثامن المحرم سنة تسع وأربعين وسبعمائة ، وتدافعت ساقات العرب في أثره وتسابقوا إلى المعسكر ، فانتهبوه ودخلوا فسطاط السلطان ، فاستولوا على ذخيرته والكثير من حرمه ، وأحاطوا بالقيروان ، وأحاطت[1] حللهم بها سياجاً ، وتعاوت ذئابهم بأطراف البقاع ، وأجلب ناعق الفتنة من كل مكان . وبلغ الخبر إلى تونس فاستحصن بالقصبة أولياء السلطان وحرمه ، ونزع ابن تافراكين من جملة السلطان بالقيروان إليهم ، فعقدوا له على حجابة سلطانهم أحمد بن أبي دبّوس ودفعوه إلى محاربة من كان بالقصبة بتونس ، وأغذّ إليها السير واجتمع إليه أشياخ الموحّدين وزعانف الغوغاء والجند ، وأحاطوا بالقصبة ، وعاودها[2] القتال ، ونصب المنجنيق لحصارها . ووصل سلطانه أحمد على أثره ، فامتنعت عليهم ، ولم يغنوا فيها غناء ، وافترق أمر الكعوب وخالف بعضهم بعضاً إلى السلطان ، وتساقطوا إليه ، فتنفّس مخنق الحصار عن القيروان ، واختلفت إليه رسل أولاد مهلهل ، وأحسن بهم أولاد أبي الليل بن حمزة بنفسه ، وعاهد السلطان على الإفراج ، ولم يفوا بعهده . وداخل السلطان أولاد مهلهل في الخروج إلى سوسة ، فعاهدوه على ذلك . وأوعز أسطوله بـمرساها وخرج معهم ليلاً على تعبية ، فلحق بسوسة وبلغ الخبر إلى ابن تافراكين بـمكانه من حصار القصبة ، فركب السفين ليلاً إلى الإسكندرية . وارتاب سلطانهم ابن أبي دبّوس ، لما وقف

---

(١) وفي نسخة ثانية : وأحدقت .

(٢) وفي نسخة ثانية : وغاداها .

على خبره فانفضّ جمعهم وأفرجوا عن القصبة . وركب السلطان أسطوله من سوسة ، ونزل بتونس آخر جمادى واعتمل في اصلاح أسوارها وإدارة الخندق عليها ، وأقام لها من الامتناع والتحصين رسماً ثبت له من بعده ، ودفع به في نحر عدوّه . واستقلّ من نكبة القيروان وعثرتها ، وخلص من هوّتها والله يفعل ما يشاء .
ولحق أولاد أبي الليل وسلطانهم أحمد بن أبي دبّوس بتونس ، فأحاطوا بالسلطان واستبلغوا في حصاره ، وخلصت ولاية أولاد مهلهل للسلطان ، فعوّل عليهم ثم راجع بنو حمزة رأيهم في طاعة السلطان فدخل كبيرهم عمر إليه في شعبان ، وتقبّضوا على سلطانهم أحمد بن أبي دبّوس وقادوه إلى السلطان استبلاغاً في الطاعة ، وامحاضاً للولاية فتقبّل فيئتهم ، وأودع ابن أبي دبّوس السجن ، وأصهر إلى عمر بابنه أبي الفضل ، فعقد له على بنته ، واختلفت أحوالهم في الطاعة والانحراف إلى أن كان ما نذكر . والله غالب على أمره .

* (الخبر عن انتقاض الثغور الغربية ورجوعها إلى دعوة الموحدين) *

كان المولى الفضل ابن مولانا السلطان أبي يحيى ، لمّا قدم على السلطان أبي الحسن بتلمسان في زفاف شقيقته سنة سبع وأربعين وسبعمائة بعدما اتصل به في طريقه مهلك أبيه ، أوسع له السلطان كنفه ، ومهّد له جانب كرامته وبرّه ، وغمز له بوعد في المظاهرة على ملك أبيه تعزى به عن فقده . وارتحل السلطان إلى أفريقية . والمولى الفضل يرجو أن يجعل سلطانها إليه ، حتى إذا استولى السلطان على الثغرين بجاية وقسنطينة ، وارتحل إلى تونس ، عقد له على مكان إمارته أيام أبيه ببونة ، فصرفه إليه ، فانقطع أمله وفسد ضميره وطوى على البث[1] حتى اذا كانت نكبة السلطان بالقيروان ، سما إلى التوثّب على ملك سلفه . وكان أهل قسنطينة وبجاية قد برموا من الدولة ، واستنقلوا وطأة الإيالة لما اعتادوا من الملك الرفيق[2] ، فأشرأبّوا إلى الثورة

(١) كذا في النسخة البارسية وفي نسخة أخرى النث . ونثّ الخبر أفشاه . وبثّ الخبر اذاعه ونشره . والأصح البث بمعنى أشدّ الحزن أو الحزن الشديد (قاموس) وقد مرّت معنا هذه الكلمة في مواضع كثيرة من هذا الكتاب .
(٢) وفي نسخة ثانية : لما اعتادوا من الملكة الرقيقة

عندما بلغهم خبر النكبة . وقد كان توافى بقسنطينة ركاب من المغرب في طوائف من الوفود والعساكر ، وكان فيهم ابن صغير من أبناء السلطان ، عقد له على عسكر من أهل المغرب ، وأوعز إليه باللحاق بتونس ، وفيهم عمّال المغرب قدموا عند رأس الحول بجبايتهم وحسبانهم ، وفيهم أيضاً وفد من زعماء النصارى بعثهم الطاغية ابن أدفونش مع تاشفين ابن السلطان لما أطلقه من الأسر بعدما عقد السلم والمهادنة ، وكان أسيراً عندهم من لدن واقعة طريف كما ذكرناه . وكان أصابه مسّ من الجنون . فلمّا خلصت الولاية بين السلطان والطاغية ، وعظم عنه الاتحاف والمهاداة ، وبلغه خبر السلطان وتملّكه أفريقية ، أطلق ابنه تاشفين وبعث معه هؤلاء الزعماء للتهنئة ، وفيهم أيضاً وفد من أهل مالي ملوك السودان بالمغرب ، أوفدهم ملكهم منسا سليمان للتهنئة بسلطان أفريقية . وكان معهم أيضاً يوسف بن مزني عامل الزاب وأميره ، قدم بجباية عمله . واتصل به خبر الركّاب بقسنطينة فلحق بهم مؤثراً صحابتهم إلى سدّة السلطان . وتوافت هؤلاء الوفود جميعاً بقسنطينة ، واعصوصبوا على ولد السلطان . فلما وصل خبر النكبة اشرأبّ الغوغاء من أهل البلد إلى الثورة ، وتحلّبت شفاههم إلى ما بأيديهم من أموال الجباية وأحوال الثورة ، فنقموا عليهم سوء الملكة ، ودسّ مشيختهم إلى المولى الفضل ابن مولانا السلطان أبي يحيى بمكانه من بونة ، وقد كشف القناع في الانتزاء على عمله والدعاء لنفسه ، فخطبوه للأمر ، واستحثّوه للقدوم ، فأغذّ السير . وتسامع بخبره أولياء السلطان ، فخشي ابن مزني على نفسه ، وخرج إلى معسكره بحلّة أولاد يعقوب ابن علي أمير الزواودة ، ولجأ ابن السلطان وأولياؤه إلى القصبة . ومكر بهم أهل البلد في الدفاع دونهم حتى إذا أطلت رايات المولى الفضل وثبوا بهم ، وحجزوهم إلى القصبة وأحاطوا بها حتى استنزلوهم على أمان عقدوه لهم . ولحقوا بحلة يعقوب ، فعسكروا بها بعد أن نقض أهل البلاد عهدهم في ذات يدهم ، فاستصفوه وأشار عليهم ابن مزني باللحاق ببسكرة لتكون ركابهم إلى السلطان ، فارتحلوا جميعاً في جوار يعقوب لما له في تلك الضواحي ، حتى لحقوا ببسكرة ، ونزلوا منها على ابن مزني خير نزل ، وكفاهم كل شيء يهمهم على طبقاتهم ومقاماتهم ، وعناية السلطان بمن كان وافداً منهم ، حتى سار بهم يعقوب بن علي إلى السلطان وأوفدهم عليه في رجب من سنته. واتصل الخبر بأهل بجاية بالفعلة التي فعل أهل قسنطينة ، فساجلوهم في الثورة . وكنسوا منازل أولياء السلطان وعمّاله ،

فاستباحوها واستلبوهم وأخرجوهم من بين ظهرانيهم عراة ، فلحقوا بالمغرب وطيّروا الخبر إلى المولى الفضل ، واستحثّوه للقدوم ، فقدم عليهم وعقد على قسنطينة وبونة لمن استكفى به من خاصّته ورجالات دولته ، واحتل بـجاية لشهر ربيع من سنته . وأعاد ملك سلفه . واستوسـق أمره بهذه الثغور إلى أن كان من خبره مع السلطان بعد خروجه من بـجاية ما نذكره ان شاء الله .

الخبر عن انتزاء أولاد السلطان بالمغرب الأوسط والأقصى ثم استقلال أبي عنان بـملك المغرب

لما اتصل خبر النكبة بالقيروان بالأمير أبي عنان ابن السلطان ، وكان صاحب تلمسان والمغرب الأوسط ، وتساقط إليه الفلّ من عسكر أبيه عراة زرافات ووحداناً ، وأرجف الناس بـمهلك السلطان بالقيروان ، فتطاول الأمير أبو عنّان للاستئثار بسلطان أبيه دون الأبناء ، لما كان له من الإيثار عند أبيه لصيانته وعفافه ، واستظهاره القرآن ، فكان محلاً بعين أبيه لأمثالها . وكان عثمان بن يحيى بن جرار من مشيخة بني عبد الواد وأولاد يندوكسن[1] بن طاع الله منهم ، وكان له محل من الدولة كما ذكرناه عند أخباره ، وكان السلطان أذن له في الرجوع إلى المغرب ، فرجع من معسكره بالمهدية ، ونزل بزاوية العبّاد من تلمسان ، وكان مسمتاً وقوراً ، جُهَيْنَة خبر ممتعاً في حديثه ، وكان مرجماً فيه الوقوف على الحدثان . وكان الأمير أبو عنّان متشوّقاً إلى خبر أبيه ، ففزع إلى عثمان بن جرار في تعرفها . واستدعاه وأنس به ، وكان في قلبه مرض من السلطان ، فأودع إذن الأمير أبي عنّان ما أراد من الأماني بتورّط السلطان في المهلكة ، وبشّره بـمصير الأمر إليه ، فصادف منه إذناً واعيةً . واشتمل عليه ابن جرار من بعدها . وردّ الخبر بنكبة السلطان فأغراه ابن جرار بالتوثّب على الملك ، وسوّل له الاستئثار به من دون إخوانه يقيناً بـمهلك السلطان . ثم أوهمه الصدق بارجاف الناس بـموت السلطان ، فاعتزم وشحذ عزيمته في ذلك ما اتصل به من حافد السلطان منصور ابن الأمير أبي مالك صاحب فاس وأعمال المغرب من الانتزاء على عمله ، وأنه فتح ديوان العطاء واستلحق واستركب لغيبة بني مرين عن

(١) وفي نسخة ثانية : تيدوكسن .

بلادهم ، وخلاء جوّه من عساكرهم ، وأظهر العسكر والحشد لاستنقاذ السلطان من هوّة القيروان يسدّ منها حسواً في ارتقاء ، وتفطّن لشأنه الحسن بن سليمان بن يرزيكن عامل القصبة بفاس ، وصاحب الشرطة بالضواحي ، فاستأذنه باللحاق بالسلطان ، فأذن له راحة من مكانه . وأصحبه عمال المصامدة ونواحي مراكش ليستقدمهم على السلطان بجباياتهم ، فلحق بالأمير أبي عنّان على حين أمضى عزيمته على التوثّب والدعاء لنفسه ، فقبض أموالهم وأخرج ما كان بموضع السلطان بالمنصورة من المال والذخيرة ، وجاهر بالدعاء لنفسه ، وجلس للبيعة بمجلس السلطان من قصره في ربيع سنة تسع وأربعين وسبعمائة فبايعه الملأ . وقرأ كتاب بيعتهم على الإشهاد ، ثم بايعه العامّة ، وانفض المجلس وقد عقد سلطانه ورست قواعد ملكه . وركب في التعبية والآلة حتى نزل بقبة الملعب . وطعم الناس وانتشروا وعقد على وزارته للحسن بن يرزيكن ، ثم لفارس بن ميمون بن ورداد وجعله رديفاً له وتبعاً . ورفع مكان ابن جرار عليهم . واختصّ لولايته ومناجاة خلوته كاتبه أبا عبدالله محمد بن محمد بن أبي عمر[1] وسنذكر خبره . ثم فتح الديوان واستركب من تساقط إليه من فلّ أبيه ، وخلع عليهم ودفع إليهم أعطياتهم وأزاح عللهم . وبينما هو يريد الرحلة إلى المغرب بلغه أن ونزمار بن عريف وليّ السلطان ، وخالصته عريف بن يحيى ، وكان أمير زغبة لعهده ومقدّماً على سائر البدو ، وبلغه أنه قد جمع له يريد حربه ، وغلبه على ما صار إليه من الانتزاء والثورة على أبيه . وأنه قصد تلمسان بجموعه من العرب وزناتة المغرب الأوسط ، فعقد للحسن بن سليمان وزيره على حربه وأعطاه الآلة وسرّحه للقائه ، وسرّح معه من حضر من بني عامر أقتال سويد ، وارتحل في عسكره حتى احتلّ تسالة ، وناجزه ونزمار الحرب ، ففلّت جموعه ومنحوا أكتافهم ، واتبع الوزير عسكرهم[2] ، واكتسح أموالهم وحللهم ، وعاد إلى سلطانه بالفتح والغنائم . وارتحل الأمير أبو عنّان إلى المغرب ، وعقد على تلمسان لعثمان بن جرّار وأنزله بالقصر القديم منها ، حتى كان من أمره مع عثمان بن عبد الرحمن ما ذكرناه في أخبارهم . ولما انتهى إلى وادي الزيتون وشى إليه بالوزير الحسن بن سليمان أنه مضمرٌ الفتك به بتازى تزلفاً إلى السلطان ووفاء بطاعته ، وأنه داخل في ذلك الحافد منصوراً صاحب

(١) وفي نسخة ثانية : ابا عبدالله بن محمد ابن القاضي عبدالله بن أبي عمر .
(٢) وفي نسخة ثانية : وابتع الوزير وعسكره آثارهم .

أعمال المغرب ، بما كان يظهر من طاعة جدّه ، فارتاب الأمير أبو عنّان به واستظهر واشيه على ذلك بكتابه . فلما قرأه تقبّض عليه ، وقتله بالمساء خنقاً ، وأغذ السير إلى المغرب . وبلغ الخبر منصور بن أبي مالك صاحب فاس فزحف للقائه ، والتقى الجمعان بناحية تازى وبوادي أبي الاجراف ، فاختلّ مصاف منصور وانهزمت جموعه ولحق بفاس . وانحجر بالبلد الجديد وارتحل الأمير أبو عنّان في أثره ، وتسايل الناس على طبقاتهم إليه ، وآتوه الطاعة وأناخ بعساكره على البلد الجديد في ربيع الآخر سنة تسع وأربعين ، وأخذ بمخنقها وجمع الأيدي والفعلة على الآلات لحصارها ، ولحين نزوله على البلد الجديد أوعز إلى الوالي بمكانه ، أن يطلق أولاد أبي العلاء المعتقلين بالقصبة ، فأطلقهم ولحقوا به فأقاموا معه على حصار البلد الجديد ، وطال تمرّسه بها إلى أن ضاقت أحوالهم واختلفت أهواؤهم ، ونزع إليه أهل الشوكة منهم . ونزع إليهم عثمان بن إدريس بن أبي العلاء فيمن إليه من الحاشية بإذنه له في ذلك سراً ليمكن إليه[1] ، فدسّ إليه وواعدوه الثورة بالبلد ، فثار بها واقتحمها الأمير أبو عنّان عليهم ، ونزل منصور بن أبي مالك على حكمه ، فاعتقله إلى أن قتله بمحبسه ، واستولى على دار الملك وسائر أعمال المغرب وتسابقت إليه وفود الأمصار للتهنئة بالبيعة . وتمسّك أهل سبتة بطاعة السلطان والانقياد لقائدهم عبدالله بن علي بن سعيد من طبقة الوزراء حيناً ، ثم توثّبوا به وعقدوا على أنفسهم للأمير أبي عنّان ، وقادوا عاملهم إليه . وتولى كِبَر الثورة فيهم زعيمهم الشريف أبو العبّاس أحمد بن محمد بن رافع من بيت أبي الشريف من آل الحسين[2] ، كانوا انتقلوا إليها من صقلية ، واستوسق للأمير أبي عنان ملك المغرب ، واجتمع إليه قومه من بني مرين للأمر ، وأقام مع السلطان بتونس وفاءً بحقّه ، وحصّ جناح أبيه عن الكرّة على الكعوب الناكثين لعهده ، الناكبين عن طاعته ، فأقام بتونس يرجو الأيام ، ويؤمّل الكرّة . والأطراف تنتقض والخوارج تتجدّد إلى أن ارتحل إلى المغرب بعد اليأس ، كما نذكره إن شاء الله تعالى .

---

(١) وفي نسخة ثانية : ليمكنه منهم .
(٢) كذا في النسخة الباريسية وفي نسخة أخرى : آل الحسن .

الخبر عن انتقاض النواحي وانتزاء بني عبد الواد بتلمسان ومغراوة بشلف وتوجين بالمرية

لما كانت نكبة السلطان بالقيروان وانتثر ملك زناتة ، وانتقضت قواعد سلطانهم ، اجتمع كل قوم منهم لابرام أمرهم والنظر في شأن جماعتهم ، وكانوا جميعاً نزعوا إلى الكعوب الخارجين على السلطان ، وبنزوعهم تمت الدبرة عليه . ولحقوا بتونس مع الحاجب أبي محمد بن تافراكين ليلحقوا منها بأعمالهم . وكان في جملة السلطان جماعة من أعياصهم منهم عثمان وإخوته الزعيم و يوسف وابراهيم أبناء عبد الرحمن بن يحيى ابن يغمراسن بن زيّان سلطان بني عبد الواد ، صار في إيالة السلطان منذ فتح تلمسان وإنزالهم بالجزيرة للرباط . ثم رجعوا بعد استئثار الطاغية بها من مكانهم من دولته ، وساروا إلى القيروان تحت لوائه ومنهم علي بن راشد بن محمد بن منديل . وقد ذكرنا أخبار أبيه وأنه ربي في إيالة السلطان وجوّ الدولة يتيماً ، وكَفلته نعمتها منذ نشأته حتى كأنه لا يعرف سواها ، فاجتمع بنو عبد الواد بتونس وعقدوا على أنفسهم لعثمان ابن عبد الرحمن لما كان كبير إخوته ، وأتوه ببيعتهم شرقي المصلى العتيق المطلّ على سيجوم من ساحة البلد ، لعهده بهم يومئذ . وقد وضعوا له درقة بالأرض من اللمط أجلسوه عليها ، ثم ازدحموا مكبين على يده يقبّلونها للبيعة . ثم اجتمع من بعدهم مغراوة إلى علي بن راشد وبايعوه وحفوا به . وتعاهد بنو عبد الواد ومغراوة على الألفة وانتظام الكلمة وهدر الدماء . وارتحلوا إلى أعمالهم بالمغرب الأوسط ، فنزل علي بن راشد قومه بموضع عملهم من ضواحي شلف ، وتغلّبوا على أمصاره وافتتحوا تدلس [1] وأخرجوا منها أولياء السلطان وعسكره ، وقتلوا القاضي بمازونة سرحان ، كان مقيماً بها لدعوة السلطان ، ثم سولت له نفسه التوثّب والانتزاء ، فدعا لنفسه ، وقتله علي بن راشد وقومه .

وأجاز عبد الرحمن وقومه من بني عبد الواد إلى محل ملكهم بتلمسان ، فألفوا عثمان ابن جرار قد انتزى بها بعد منصرف الأمير أبي عنّان ودعا لنفسه ، فتجهّم له الناس لتوثّبه على المنصب الذي ليس لأبيه ، واستمسك بالبلد أياماً يؤمّل نزوع قومه إليه . ثم

(١) وفي نسخة ثانية : تنس

زحف إليه بنو عبد الواد وسلطانهم فصدقوه الزحف ، وثارت به الغوغاء ، وكسروا أبواب البلد ، وخرجوا إلى السلطان فأدخلوه القصر ، واحتلّ به في جمادى من سنة تسع وأربعين وسبعمائة وتسابق الناس إلى مجلسه مثنى وفرادى ، وبايعوه البيعة العامّة . ثم تفقد ابن جرار ، ثم أغرى به البحث ، فعثر عليه ببعض زوايا القصر ، واحتمل إلى المطبق فأودع به إلى أن سرّب إليه الماء فمات غريقاً في هوته . وساهم السلطان أبو سعيد عثمان أخاه أبا ثابت الزعيم في سلطانه ، وأشركه في أمره ، وأردفه في ملكه ، وجعل إليه أمر الحرب والضواحي والبدو كلها . واستوزر قريبه يحيى بن داود بن مكن ، من ولد محمد بن يندوكس بن طاع الله ، واستوسق ملكهم ، وأوفدوا مشيختهم على الأمير أبي عنّان صاحب المغرب ، وسلطان بني مرين ، فعقدوا معه السلم والمهادنة ، واشترطوا له عن أنفسهم دفاع السلطان إليه . وزحفوا إلى وَهْرَان من ثغور أعمالهم ، ونازلوا بها أولياء السلطان وعساكره ، وعاملها يومئذ عبدالله بن أجانا[1] من صنائع السلطان أبي الحسن إلى أن غلبوه عليها ، واستنزلوه صلحاً لأشهر من حصارها .

واستمسك أهل الجزائر بطاعة السلطان ، واعتصموا بها ، وعقد عليها لقائده محمد ابن يحيى بن العسكري[2] من صنائع أبيه ، بعثه إليهم من تونس بعد نكبة القيروان . ونجم بالمدية علي[3] بن يوسف بن زيّان بن محمد بن عبد القوي داعياً لنفسه ، وطالباً سلطان سلفه ، وامتنع عليه معقل ملكهم بجبل وانشريش لمكان ولد عمر بن عثمان وقومهم من بني تيغرين في رياسته ، وانحاش إليه أولاد عزيز من بني توجين أهل ضاحية المدية فقاموا بأمره ، واعصوصبوا عليه ، وكانت بينه وبين أبناء عمر بن عثمان بوانشريش حرب سجال إلى أن هلك ، وخلص أمر بني توجين لابناء عمر بن عثمان ، وهم على مذهبهم من طاعة السلطان وتمسّكهم بدعوته ، وهو مقيم خلال هذا بتونس إلى أن أزمع الرحلة ، واحتل بالجزائر كما نذكره إن شاء الله تعالى .

---

(١) وفي نسخة ثانية : عبّو بن جانا .

(٢) وفي نسخة ثانية : محمد بن يحيى العشري .

(٣) وفي نسخة ثانية : عدي .

* (الخبر عن رجوع الثغور الغربية لأمراء الموحدين ببجاية وقسنطينة) *

لما توثّب الأمير أبو عنان على ملك أبيه وبويع بتلمسان ، وكانت للأمير أبي عبدالله محمد ابن الأمير أبي زكريا صاحب بجاية لديه خلّة ومصافاة ، من لدن بعثه إليه السلطان أبوه من بجاية . وأنزله بتلمسان فدعا له السابقة وآثره بالإمارة ، وعقد له على محل إمارته من بجاية ، وأمدّه بما يرضيه من المال والسلاح . ودفعه إليها ليكون حجراً دون السلطان بتونس ، وضمن له هذا الأمير صدّه عن الخلوص إليه ، وسدّ المذاهب دونه . وأوعز أبو عنّان إلى أساطيله بوَهْرَان ، فركبها الأمير إلى تدلس ودخلها . ونزل إليه صنهاجة أهل ضاحية بجاية ، عن عمّه الأمير أبي العبّاس الفضل . واعصوصبوا عليه ، وقاموا بأمره لقديم نعمته وسالف إمارة أبيه . ولما ارتحل الأمير أبو عنّان إلى المغرب ، رحل في جملته الأمير أبو زيد عبد الرحمن ابن الأمير أبي عبدالله صاحب قسنطينة ومعه إخوته ، فاختصّهم يومئذ بتغريبه وخلطهم بنفسه . فلما غلب الأمير أبو عنان منصور ابن أخيه أبي مالك على البلد الجديد ، واستولى على المغرب . رأى أن يبعث ملوك الموحّدين إلى بلادهم ، ويدفع في صدر أبيه بمكانهم . فسرّح الأمير أبا زيد وإخوته ، وكان منهم السلطان أبو العبّاس الذي جبر الله به الصدع . ونظم الشمل . فوصلوا إلى موطن ملكهم ومحل إمارتهم . وكان مولاهم نبيل حاجب أبيهم قد تقدّم إلى بجاية ، ولحق بالأمير أبي عبدالله من حصارها . ثم تقدّم إلى قُسَنْطِينَة وبها مولى من موالي السلطان المتغلّب عليها ، وهو الأمير أبو العبّاس الفضل . فلحين إطلاله على جهاتها وشعور أهلها بمكانه . لفحت منهم عزائز المودّة . وذكروا جميع الإيالة . وأجمعوا التوثّب بواليهم . واحتلّ نبيل بظاهر قسنطينة . فشرهت العامّة إلى إمارته . والقيام بدعوة مواليه . وتوثّب أشياعهم على أولياء عمّهم . فأخرجوهم . واستولى القائد نبيل على قُسَنْطِينَة وأعمالها ، وأقام دعوة الأمير أبي زيد وإخوته كما كانت أوّل مرّة بها : وجاؤا من المغرب إلى مراكز إمارتهم . ودعوتهم بها قائمة . ورايتهم على أنحائها خافقة . فاحتلوا بها حلول الآساد

بعرانينها[1] والكواكب بآفاقها ، ونهض الأمير أبو عبدالله محمد فيمن اجتمع إليه من البطانة والأولياء، إلى محاصرة بلد بجاية ، فأحجر عمّه بالبلد ، وأخذ بمخنقها أياماً ، ثم أفرج عنها ، ثم رجع إلى مكانه من حصارها . ودسّ إليه بعض أشياعه بالبلد ، وسرّب إليه المال في الغوغاء ، فواعدوه فتح أبواب الربض في إحدى ليالي رمضان سنة تسع وأربعين وسبعمائة واقتحم البلد وملاء الفضاء بهدير طبوله ، فهبّ الناس من مراقدهم فزعين وقد ولج الأمير وقومه البلد . ونجا الأمير الفضل إلى شعاب الجبل وكواريه المطلّ على القصبة راجلاً حافياً ، فاختفى به إلى أن عثر عليه ضحى النهار ، وسيق إلى ابن أخيه ، فحنّ عليه وأركبه السفين إلى محل إمارته من بونة . وخلص ملك بجاية للأمير أبي عبدالله هذا واقتعد سرير آبائه بها ، وكتبوا للأمير أبي عنان بالفتح ، وتجديد المخالصة والموالاة ، والعمل عن مدافعة أبيه من جهاته ، والله تعالى أعلم .

الخبر عن نهوض الناصر ابن السلطان ووليه عريف بن يحيى من تونس الى المغرب الأوسط

لما بلغ السلطان خبر ما وقع بالمغرب من انتقاض أطرافه ، وتغلّب الأعياص من قومه وسواهم على أعماله ، ووصل إليه يعقوب بن علي أمير الزواودة بولده وعماله ووفده ، نظر في تلافي أمره بتسريح ولده الناصر إلى المغرب الأوسط لارتجاع ملكه ، ومحو آثار الخوارج من أعمالهم . فنهض مع يعقوب بن علي وأصحبه وليه عريف بن يحيى أمير زغبة ليستظهر به على ملك المغرب ، وقدّمهما طليعة بين يديه ، وسار الناصر إلى بسكرة ، واضطرب معسكره بها ، ثم فصل من بلاد رياح إلى بلاد زغبة ، واجتمع إليه أولياؤهم من العرب ومن زناتة من بني توجين أهل وانشريش وغيرهم . وزحف إليهم الزعيم أبو ثابت من تلمسان في قومه من بني عبد الواد وغيرهم للمدافعة . والتقى الجمعان بوادي وَرَكْ فانفضّت جموع الناصر واندعروا ، ورجع على عقبه إلى بسكرة وخلص عريف بن يحيى إلى قومه سويد ، ثم قطع القفر إلى المغرب الأقصى . ولحق

(١) العرانين ج عرنين وهو السيد الشريف والصحيح ان يقول عرائنها : جمع عرين وهو مأوى الاسد (قاموس) .

بالأمير أبي عنان فنزل منه بألطف محل ، ورجع الناصر إلى بسكرة ، وارتحل مع أوليائهم أولاد مهلهل لمدافعة أولاد أبي الليل وسلطانهم المولى الفضل عن تونس كما ذكرناه . وأحسّوا به ، فنهض إليهم ، وفرّوا أمامه ، إلى أن خلص الناصر إلى بسكرة ثانية ، واتخذها مثوى إلى أن لحق بأبيه بالجزائر عند رحلته من تونس إليها كما نذكره إن شاء الله تعالى .

الخبر عن رحلة السلطان أبي الحسن الى المغرب وتغلب المولى الفضل على تونس وما دعا إلى ذلك من الأحوال

لما خلص المولى الفضل ابن مولانا السلطان أبي يحيى من نكبة بجاية ، وامتنّ عليه ابن أخيه ، فلحق بمحل إمارته من بونة . ووافته بها مشيخة أولاد أبي الليل ، أوفدهم عليه بنو حمزة بن عمر يستحثّونه لملك أفريقية ، يرغّبونه فيه ، فأجاب داعيتهم ونهض إليهم بعد قضاء نسك الفطر من سنة تسع وأربعين ، ونزل بمحللهم وأوجفوا بخيلهم وركابهم على ضواحي أفريقية ، وجبوها ، وصمدوا إلى تونس فنازلوها وأخذوا بمخنقها أياماً ، ثم أخذ بحجزتهم عنها شيعة السلطان وأولياؤه من أولاد مهلهل وابنه الناصر عند قفوله من المغرب الأوسط مفلولاً فرحلوهم وشرّدوهم . ثم رجعوا إلى مكانهم من حصارها ، ثم انفضوا عنها . وتحيّز خالد بن حمزة إلى شيعة السلطان أبي الحسن مع أولاد مهلهل وقومه ، فاعتزّوا به وذهب عمر بن حمزة إلى المشرق لقضاء فرضه ، وأجفل أبو الليل أخوه مع المولى الفضل إلى القفر حتى كان من دخول أهل الجريد في طاعته ما نذكره إن شاء الله تعالى . وكان السلطان لمّا خلص من القيروان إلى تونس ، وفد إليه أحمد بن مكي مهنياً ومفاوضاً في شأن الثغر وما مني به من انتقاض الأطراف وفساد الرعية . وتدارك السلطان أمره عند فواته بالتولية على أهل القطر من جنسهم استئلافاً للكافة . واستبقاءً لطاعتهم . فعقد على عمل قابس وجَرْبَة والحامة[1] ، وما إليها لعبد الواحد ابن السلطان زكريا بن أحمد اللحياني ، وأنفذه مع أحمد بن مكي إلى عمله ، فهلك بجربة لليال من مقدمه في الطاعون

(١) وفي نسخة أخرى : الحمة وهي أصح ، وهي مدينة بافريقية من عمل قسطيلية من نواحي بلاد الجريد (معجم البلدان) .

الجارف عامئذ .

وعقد لأبي القاسم بن عتّو شيخ الموحدين على توزر ونفطة وسائر بلاد الجريد ، بعد أن كان استخلصه بعد مفرّ أبي محمد بن تافراكين قريبه ، وما أضمر[1] من سوء دخلته ، فنزل بتوزر وجمع أهل الجريد على الولاية والمخالصة ، ولما نازل المولى أبو العبّاس الفضل تونس مرتين ، وشرّد أولاد مهلهل وامتنعت عليه ، عمد إلى الجريد سنة خمس وأربعين وسبعمائة يحاول فيه ملكاً ، وخاطب أبا القاسم بن عتّو يذكّره عهده وعهد سلفه وحقوقهم ، فتذكّر وحنّ ، ونظر إلى ما ناله به السلطان من المثلّة في أطرافه . واستثار كامن حقده ، فانحرف وحمل الناس على طاعة المولى الفضل ابن مولانا السلطان أبي يحيى ، فسارعوا إلى الإجابة وبايعه أهل تَوْزَر وقَفْصَة ونَفْطَة والحامة ، ثم دعا ابن مكين إلى طاعته فأجاب إليها وبايعه أهل قابس وجَرْبَة أيضاً . وانتهى الخبر إلى السلطان باستيلاء المولى الفضل على أمصار أفريقية ، وأنه ناهض إلى تونس ، فأهمّه الشأن وخشي على أمره ، وكانت بطانته يوسوسون إليه بالرحلة إلى المغرب لاسترجاع نعمتهم باسترجاع ملكه ، فأجابهم إليها وشحن أساطيله بالأقوات ، وأزاح علل المسافرين . ولما قضى منسك الفطر من سنة خمسين وسبعمائة ركب البحر أيام استفحال فصل الشتاء ، وعقد لابنه أبي الفضل على تونس ثقة بما بينه وبين أولاد حمزة من الصهر ، وتفادياً بمكانه من معرّة الغوغاء وثورتهم . وأقلع من مرسى تونس ، ولخمس دخل مرسى بجاية ، وقد احتاجوا إلى الماء فمنعهم صاحب بجاية من الورود ، وأوعز إلى سائر سواحله بمنعهم ، فزحفوا إلى الساحل وقاتلوا من صدّهم عن الماء إلى أن غلبوهم واستقوا وأقلعوا ، وعصفت بهم الريح ليلتئذٍ وجاءهم الموج من كل مكان ، وألقاهم اليمّ بالساحل بعد أن تكسّرت الأجفان ، وغرق الكثير من بطانته وعامّة الناس ، وقذف الموج بالسلطان فألقاه إلى الجزيرة قرب الساحل من بلاد زواوة مع بعض حشمه عراة ، فمكثوا ليلتهم وصبحهم جفن من الأساطيل كان قد سلم من ذلك العاصف ، فقرّبوا إليه حين رأوه وقد تصايح به البربر من الجبال وتواثبوا إليه فاختطفه أولياؤه من أهل الجفن قبل أن يصل إليه البربر ،

(١) وفي نسخة أخرى : وما ظهر .

وقذفوا به إلى الجزائر فنزل بها ، ولأم صدعه . وخلع على من وصل من فلّ الأساطيل ومن خرج إليه من أوليائه ، ولحق به ابنه الناصر من بَسْكَرَة ، واتصل بالمولى الفضل خبر رحيله من تونس وهو ببلاد الجريد ، فأغذَ السير إلى تونس ، ونزل بها على ابنه ومن كان بها من مخلف أوليائه ، فغلبوهم عليها . واتصل أهل البلد بهم وأحاطوا يوم منى بالقصبة . واستنزلوا ابن السلطان أبا الفضل الأمير بالقصبة على الأمان ، فخرج إلى بيت أبي الليل بن حمزة ، وأنفذ معه من أبلغه إلى مأمنه ، فلحق بأبيه بالجزائر وبادر إلى السلطان عليّ بن يوسف المنتزى بالمدية من بني عبد القوي ، فصار في جملته ، وخرج له عن الأمر ، وزعم أنه إنما كان قائماً بدعوته ، فتقبّل منه وأقرّه على عمله .

ووفد عليه أولياؤه من العرب سُوَيْد والحرث والحُصَيْن ومن إليهم ممن اجتمع إلى وليه ونزمار بن عريف المتمسّك بطاعته . ووفد عليه أيضاً علي بن راشد أمير مغراوة ، وأغزاه بني عبد الواد[1] ، واشترط عليه إقراره بوطنه وعمله إذا تمَّ أمره ، فأبى من قبول الاشتراط ظنًّا بعهده عن النكث ، فنزع عنه وصار إلى مظاهرة بني عبد الواد عليه . وبعث أبو سعيد عثمان صاحب تلمسان إلى الأمير أبي عنان في المدد ، فبعث إليه بعسكر من بني مرين عقد عليهم ليحيى بن رحّو بن تاشفين بن معطي من تيربيغن ، وزحف الزعيم أبو ثابت إلى حرب السلطان أبي الحسن فيمن اجتمع له من عسكر بني مرين ومغراوة . وخرج السلطان من الجزائر وعسكر بمتيجة ، واحتشد ونزمار سائر العرب بحللهم ، ووافاه بهم ، وارتحلوا إلى شلف ، ولما التقى الجمعان بشدبونة صدقه مغراوة الحملة وصابرهم ابنه الناصر وطعن في الجولة فهلك واختلّ مصاف السلطان واستبيح معسكره ، وانتهب فساطيطه ، وخلص مع وليّه ونزمار بن عريف وقومه بعد أن استبيحت حللهم ، فخرجوا إلى جبل وانشريش ، ثم لحقوا بجبل راشد ، ورجع القوم عن اتباعهم ، وانكفؤا إلى الجزائر فتغلّبوا عليها ، وأخرجوا من كان بها من أولياء السلطان ومحوا آثار دعوته من المغرب الأوسط جملة . والأمر بيد الله يؤتيه من يشاء .

---

(١) وفي نسخة ثانية : وأغراه ببني عبد الواد .

الخبر عن استيلاء السلطان على سجلماسة ثم فراره عنها امام ابنه إلى مراكش واستيلائه عليها وما تخلل ذلك

لما انفضت جموع السلطان بشدبونة وقلّ عساكره . وهلك الناصر ابنه ، خلص إلى الصحراء مع وليّه ونزمار ولحق بحلل قومه سويد وأوطانهم قبلة جبل وانشريش ، وأجمع أمره على قصد المغرب موطن قومه ومنبت عزّه ودار ملكه . وارتحل معه وليّه ونزمار بالنازعة[1] من قومه ، وخرجوا إلى جبل راشد . ثم أبعدوا المذاهب وقطعوا المفاوز إلى سجلماسة في القفر . فلما أطلوا عليها وعاين أهلها السلطان تهافتوا عليه تهافت الفَرَاش ، وخرج إليه العذارى من وراء ستورهنّ صاغية إليه ، وإيثاراً لإيالته . وفرّ العامل بسجلماسة إلى منجاته . وكان الأمير أبو عنان لما بلغه الخبر بقصد سجلماسة ، ارتحل إليها في قومه وكافة عساكره بعد أن أزاح عللهم وأفاض عطاءه فيهم ، وكان ببني مرين نفرة عن السلطان وحذر من غائلته لجنايتهم بالتخاذل في المواقف ، والفرار عنه في الشدائد ، ولما كان يبعد بهم في الأسفار ويتجشم بهم المهالك ، فكانوا لذلك مجتمعين على منابذته ، ومخلصين في مناصحة ابنه منازعة ، فما لبث السلطان أن جاءه الخبر بوصولهم إليه في العساكر الضخمة ، مغذّين السير إلى دفاعه ، وعلم من حاله أنه لا يطيق دفاعهم ، وأجفل عنه ونزمار وليّه في قومه سويد . وكان من خبره أنّ عريف بن يحيى كان نزع إلى الأمير أبي عنان وأحلّه بمحله المعهود من تشريفهم وولايتهم ، حتى إذا بلغه الخبر بمناصحة ونزمار للسلطان ومظاهرته وقصده المغرب معه بناجعته ، زوى عنه وجه رضاه بعض الشيء ، وأقسم له لئن لم تفارق السلطان لأوقعنّ بك وبابنك عشر[2] وكان معه في جملة الأمير أبي عنان ، وأمره بأن يكتب له بذلك ، فآثر ونزمار رضى أبيه . وعلم أنّ غناءه عن السلطان في وطن المغرب قليل ، فأجفل عنه ولحق بالزاب وانتبذ عن قومه ، وألقى عصاه ببسكرة ، فكان ثواؤه بها إلى أن لحق بالأمير أبي عنان على ما نذكره .

ولما أجفل السلطان عن سجلماسة ، دخل الأمير أبو عنان إليها وثقف أطرافها وسدّ

(١) وفي نسخة ثانية : بالناجعة .

(٢) وفي نسخة ثانية : عنتر

فروجها ، وعقد عليها ليحياتن بن عمر بن عبد المؤمن كبير بني ونكاسن ، وبلغه قصد السلطان إلى مراكش ، فاعتزم على الرحلة إليها وأبى عليه قومه ، فرجع بهم إلى فاس إلى أن كان من خبرهم مع السلطان ما نذكره إن شاء الله تعالى .

الخبر عن استيلاء السلطان على مراكش ثم انهزامه أمام الأمير أبي عنان ومهلكه بجبل هنتاتة عفا الله عنه

لما أجفل السلطان عن سجلماسة سنة إحدى وخمسين وسبعمائة بين يدي الأمير أبي عنان وعسكر بني مرين ، قصد مراكش ، وركب إليها الأوعار من جبال المصامدة . ولما شارفها تسارع إليه أهل جهاتها بالطاعة من كل أوب ، ونسلوا من كل حدب . ولحق عامل مراكش بالأمير أبي عنان ونزع إلى السلطان صاحب ديوان الجباية أبو محمد[1] بن محمد بن أبي مَدْيَن بما كان في المودع من مال الجباية ، فاختصّه واستكتبه وجعل إليه علامته ، واستركب واستلحق وجبى الأموال ، وبثّ العطاء ، ودخل في طاعته قبائل العرب من جَشْم وسائر المصامدة . وثاب له بمراكش ملك أمّل معه أن يستولي على سلطانه ، ويرتجع فارط أمره من يد مبتزّه . وكان الأمير أبو عنان لما رجع إلى فاس عسكر بساحتها ، وشرع في العطاء وإزاحة العلل ، وتقبّض على كاتب الجباية يحيى بن حمزة بن شعيب بن محمد بن أبي مَدْيَن ، اتّهمه بممالأة بني مرين في الإمالة عليه عن اللحاق بمرّاكش من سجلماسة . وأثار حقده في ذلك ما كان من نزوع عمّه أبي المجد إلى السلطان بأموال الجباية ، ووسوس إليه في السعاية به كاتبه وخالصته أبو عبدالله محمد بن أبي محمد بن أبي عمر[2] لما بينهما من المنافسة ، فتقبّض عليه وامتحنه ، ثم قطع لسانه وهلك في ذلك الامتحان ، وارتحل الأمير أبو عنان وجموع بني مرين إلى مراكش ، وبرز السلطان إلى لقائهم ومدافعتهم ، وانتهى كل واحد من الفريقين إلى وادي أم ربيع ، وتربّص كلٌّ بصاحبه إجازة الوادي . ثم أجازه السلطان أبو الحسن وأصبحوا جميعاً في التعبية ،

(١) وفي نسخة ثانية : ابو المجد .

(٢) وفي نسخة ثانية : ابو عبدالله محمد بن محمد بن أبي عمرو.

والتقى الجمعان بتامرغوست[1] في آخر صفر من سنة إحدى وخمسين وسبعمائة فاختلّ مصاف السلطان وانهزم عسكره ، ولحق به أبطال بني مرين فرجعوا عنه حياءً وهيبةً . وكبا به فرسه يومئذ في مفرّه ، فسقط إلى الأرض والفرسان تحوم حوله . واعترضهم دونه أبو دينار سليمان بن علي بن أحمد أمير الزواودة ، ورديف أخيه يعقوب ، كان هاجر مع السلطان من الجزائر ، ولم يزل في جملته إلى يومئذ . فدافع عنه حتى ركب وسار من ورائه ردءاً له . وتقبّض على حاجبه علال بن محمد ، فصار في يد الأمير أبي عنان وأودعه السجن إلى أن امتن عليه بعد مهلك أبيه .

وخلص السلطان إلى جبل هنتاتة ومعه كبيرهم عبد العزيز بن محمد بن علي ، فنزل عليه وأجاره واجتمع إليه الملأ من قومه هنتاتة ومن انضاف إليهم من المصامدة ، وتدامروا وتعاهدوا على الدفاع عنه ، وبايعوه على الموت ، وجاء أبو عنان على أثره حتى احتل بمرّاكش ، وأنزل عساكره على جبل هنتاتة ، ورتّب المسالح لحصاره وحربه ، وطال عليه ثواؤه ، وطلب السلطان من ابنه الإبقاء ، وبعث في حاجبه محمد بن أبي عمر فحضر عنده ، وأحسن العذر عن الأمير أبي عنان والتمس له الرضى منه ، فرضي عنه ، وكتب له بولاية عهده . وأوعز إليه بأن يبعث له مالا وكسى ، فسرّح الحاجب ابن أبي عمر باخراجها من المودع بدار ملكهم ، واعتلّ السلطان خلال ذلك ، فمرّضه أولياؤه وخاصّته ، وافتصد لإخراج الدم ، ثم باشر الماء لفصده للطهارة ، فورم وهلك لليال قريبة عفا الله عنه ، لثلاث وعشرين من ربيع الثاني سنة إثنتين وخمسين وسبعمائة وبعث أولياؤه الخبر إلى ابنه بمعسكره من ساحة مراكش ، ورفعوه على أعواده إليه فتلقّاه حافياً حاسراً ، وقبّل أعواده وبكى ، واسترجع ورضي عن أوليائه وخاصّته ، وأنزلهم بالمحل الذي رضوه من دولته ، ووارى أباه بمراكش إلى أن نقله إلى مقبرة سلفهم بشالة في طريقه إلى فاس وتلقى أبا دينار ابن علي بن أحمد بالقبول والكرامة ، وأحلّه محل الرحب والسعة ، وأسنى جائزته ، وخلع عليه وحمّله . وانصرف من فاس إلى قومه يستحثّهم للقاء السلطان أبي عنان بتلمسان لما كان أجمع على الحركة إليها بعد مهلك أبيه ، ورعى لعبد العزيز بن محمد أمير هنتاتة إجارته للسلطان واستماتته دونه ، فعقد له على قومه وأحلّه بالمحل الرفيع من دولته ومجلسه ، واستبلغ في تكريمه ، والله تعالى أعلم .

(١) وفي نسخة ثانية · تامدغرست .

الخبر عن حركة السلطان أبي عنان إلى تلمسان وايقاعه ببني عبد الواد بانكاد ومهلك سلطانهم سعيد

لما هلك السلطان أبو الحسن وانقضى شأن الحصار إرتحل السلطان أبو عنان إلى فاس ونقل شلو أبيه إلى مقبرتهم بشالة فدفنه مع من هنالك من سلفه . وأغذّ السير إلى فاس وقد استبدّ بالأمر ، وخلت الدولة عن المنازع ، فاحتل بفاس وأجمع أمره على غزو بني عبد الواد لارتجاع ما بأيديهم من الملك الذي سموا لاستخلاصه. ولما كان فاتح سنة ثلاث وخمسين وسبعمائة نادى بالعطاء وأزاح العلل ، وعسكر بساحة البلد الجديد ، واعترض العساكر وارتحل يريد تلمسان ، واتصل الخبر بأبي سعيد وأخيه ، فجمعوا قومهم ومن إليهم من الأشياع والأحزاب من زناتة والعرب ، وارتحلوا إلى لقائه ، ونزل السلطان بعساكره وادي ملوّية ، وتلوّم به أياماً لاعتراض الحشود والعرب . ثم رحل على التعبية حتى اذا احتل ببسيط أنكاد وتراءى الجمعان ، انفضّ سرعان المعسكر ولحقوا بالعرب[1] وركب السلطان في التعبية وخاض بحر القتال ، وقد أظلم الجوّ به حتى اذا خلص إليهم من غمره ، وخالطهم في صفوفهم ، ولّوا الأدبار ، ومنحوهم الأكتاف ، واتبع بنو مرين آثارهم فاستولوا على معسكرهم واستباحوه واستباحوهم قتلاً وسبياً ، وصفدوهم أسرى ، وغشيهم الليل وهم متسايلون في أثرهم ، وتقبّض على أبي سعيد سلطانهم ، فسيق إلى السلطان فأمر باعتقاله ، وأطلق أيدي بني مرين من الغد على حلل العرب من المعقل ، فاستباحوهم واكتسحوا أموالهم جزاءً بما شرهوا إليه من النهب في المحلّة في هيعة ذلك المجال . ثم ارتحل على تعبيته إلى تلمسان فاحتلّ بها لربيع من سنته ، واستوت في ملكها قدمه ، وأحضر أبا سعيد فقرّعه ووبّخه وأراه أعماله حسرة عليها ، وأحضر الفقهاء وأرباب الفتيا ، فأفتوا بحرابته وقتله . فأمضى حكم الله فيه ، فذبح في محبسه لتاسعة من اعتقاله ، وجعله مثلاً للآخرين . وخلص أخوه الزعيم أبو ثابت إلى قاصية الشرق ، فكان من خبره ما نذكره إن شاء الله تعالى والله أعلم .

---

(١) وفي نسخة ثانية : بالمغرب .

الخبر عن شأن أبي ثابت وايقاع بني مرين به بوادي شلف وتقبض الموحدين عليه بجاية

لما أوقع السلطان ببني عبد الواد بأنكاد ، وتقبّض على أبي سعيد سلطانهم ، خلص أبو ثابت أخوه في فلّ منهم ، ومرّ بتلمسان ، فاحتمل حرمهم ومخلفهم ، وأجفل إلى الشرق ، فاحتل بشلف من بلاد مغراوة وعسكر هنالك . واجتمع إليه أوشاب من زناتة ، وحدّث نفسه باللقاء ، ووعدها بالصبر والثبات ، وسرّح السلطان وزيره فارس بن ميمون بن ودرار في عساكر بني مرين والجند ، فأغذ السير إليهم وارتحل من تلمسان على أثره ، ولما تراءى الجمعان صدق الفريقان المحاولة ، وخاضوا النهر بالقراع . ثم صدق بنو مرين الحملة واجتازوا النهر إليهم ، فانكشفوا واتبعوا آثارهم واستلحموهم ، واستباحوا معسكرهم واستاقوا أموالهم ودوابهم ونساءهم ، وارتحلوا في اتباعهم ، وكتب الوزير بالفتح إلى السلطان ، ومرّ أبو ثابت بالجزائر طارقاً ، وأجاز إلى قاصية المشرق ، فاعترضهم قبائل زواوة وأرجلوهم عن خيلهم ، وانتهبوا أسلابهم ، ومرّوا حفاة عراة ، واحتل الوزير بالجزائر ، واستولى عليها واقتضى بيعة السلطان منهم فآتوها ، واحتل الوزير بالمدية وأوعز إلى أمير بجاية المولى أبي عبدالله حافد مولانا الأمير أبي يحيى مع وليّه ونزمار وخالصته يعقوب بن علي بالتقبّض على أبي ثابت وأشياعه فأذكوا العيون عليهم وقعدوا لهم بالمرصاد ، وعثر بعض الحشم على أبي ثابت وأبي زيّان ابن أخيه أبي سعيد ووزيرهم يحيى بن داود ، فرفعوهم إلى الأمير ببجاية ، فاعتقلهم وارتحل للقاء السلطان بالمدية وبعثهم مع مقدّمته ، وجاء على أثرهم ونزل على السلطان بمعسكره من المدية خير نزل ، بعد أن تلقّاه بالمبرّة والاحتفاء ، وركب للقائه ، ونزل عن فرسه للسلطان ، فنزل السلطان برًّا له ، وأودع أبا ثابت السجن . وتوافت إليه وفود الزواودة بمكانه من المدية ، فأكرم وفدهم وأسنى أعطياتهم من الخلع والحملان والذهب ، وانقلبوا خير منقلب ، ووافته بمكانه ذلك بيعة ابن مزني عامل الزاب ووفدهم ، فأكرمهم ووصلهم . وفرغ السلطان من شأن المغرب الأوسط ، وبثّ العمّال في نواحيه ، وثقف أطرافه ، وسما إلى ملك أفريقية كما نذكره إن شاء الله تعالى .

* (الخبر عن تملك السلطان أبي عنان بجاية وانتقال صاحبها الى المغرب) *

لما وصل السلطان أبو عبدالله محمد ابن الأمير أبي زكريا يحيى صاحب بجاية إلى السلطان بمكانه من المدية في شعبان من سنته ، وأقبل السلطان عليه ، وبوّأه كنف ترحيبه وكرامته ، خلص الأمير به نجيًّا ، وشكا إليه ما يلقاه من أهل عمله من الامتناع من الجباية والسعي في الفساد ، وما يتبع ذلك من زبون الحامية واستبداد البطانة . وكان السلطان متشوّقاً لمثلها ، فأشار عليه بالنزول عنها ، وأن يديله عنها بما شاء من بلاده ، فسارع إلى قبول إشارته ، ودسّ إليه مع حاجبه محمد بن أبي عمرو أن يشهد بذلك على رؤوس الملاء ، ففعل ، ونقم عليه بطانته ذلك ، وفرّ بعضهم من معسكره ، فلحق بافريقية ، ومنهم علي ابن القائد محمد بن الحكيم . وأمره السلطان أن يكتب بخطّه إلى عامله على البلد بالنزول عنها وتمكين عمّال السلطان منها ففعل وعقد السلطان عليها لعمر بن علي الوطاسي من أولاد الوزير الذي ذكرنا خبر انتزائهم بتازوطا من قبل ، ولما قضى السلطان حاجته من المغرب الأوسط واستولى على بجاية ، انكفأ راجعاً إلى تلمسان لشهود الفطر بها ، ودخلها في يوم مشهود ، وحمل أبا ثابت ووزيره يحيى بن داود على جملين يخطوان بهما في ذلك المحفل بين السماطين ، فكانا عبرة لمن حضر وسيقا من الغد إلى مصارعهما ، فقتلا قعصاً بالرماح ، وأنزل السلطان المولى الأمير أبا عبدالله صاحب بجاية خير نزل ، وفرش له في مجلسه تكرمة له إلى أن كان من توثّب صنهاجة وأهل بجاية بعمر بن علي ما نحن ذاكروه إن شاء الله تعالى .

* (الخبر عن ثورة أهل بجاية ونهوض الحاجب اليها في العساكر) *

كان صنهاجة هؤلاء من أعقاب ملكانة[1] ملوك القلعة وبجاية ، نزل أولوهم بوادي

(١) وفي نسخة ثانية : تكلاته .

بجاية بين القبائل من برابرتها الكتاميين في مواطن بني وريا كل منذ أوّل دولة الموحدين ، وأقطعوهم على العسكرة معهم ، ولما ضعفت جنود الموحّدين وقلّ عددهم انفردوا بالعسكرة مع السلطان ، وصار لهم بذلك اعتزاز وزبون على الدولة . وكان الأمير أبو عبدالله هذا قد أصاب منهم لأوّل أمره ، وقتل محمد بن تميم من أكابر مشيختهم ، وكان صاحبه فارح مولى ابن سيّد الناس عريفا عليه من عهد أبيه الأمير أبي زكريا ، وكان مستبدًّا على المولى أبي عبدالله ، فلما نزل عن إمارته للسلطان أبي عنان سخط ذلك ونقمه عليه ، وأسرّها في نفسه ولم يبدها لكماله ، وسرّحه أميره مع عمر بن علي الوطاسي لينقل حرمه ومتاعه وماعون داره ، فوصل إليها وشكا إليه الصنهاجيون مغبّة أمرهم في ثقل الوطأة وسوء الملكة فأشكاهم ودعاهم إلى الثوّرة ببني مرين ، والقيام بدعوة الموحّدين للمولى أبي زيّان صاحب قُسنطينَة ، فأجابوه وتواعدوا بالفتك بعمر بن علي بمجلسه من القصبة . وتولى كبرها منصور بن الحاج من مشيختهم ، وباكره بداره على عادة الأمراء ، ولما أكبّ عليه ليلثم أطرافه طعنه بخنجره ، وفرّ إلى بيته جريحاً فولجوا عليه واستلحموه . وثارت الغوغاء من أهل البلد في ذي الحجة من سنة ثلاث وخمسين وسبعمائة .

وركب الحاجب فارح وهتف الهاتف بدعوة المولى أبي زيد صاحب قُسنطِينَة ، وطيروا بالخبر واستدعوه ، فتثاقل عن إجابتهم ، وبعث مولى ابن المعلوجي للقيام بأمرهم . وبلغ الخبر إلى السلطان فاتّهم المولى أبا عبدالله بمداخلة حاجبة ، فاعتقله بداره . واعتقل وفداً من ملاء بجاية كان ببابه ، وثبتت آراء المشيخة من أهل بجاية ، وتمشّت رجلاتهم وأولو الرأي والشورى منهم في الفتك بصنهاجة والعلج ، وداخلهم القائد هلال مولى ابن سيّد الناس من المعلوجي ، وعلي بن محمد بن ألميت حاجب الأمير أبي زكريا يحيى ، ومحمد ابن الحاجب أبي عبدالله بن سيّد الناس وتواعدوا للفتك بفارح يوم وصول النائب من قبل صاحب قسنطينة ، فجهروا بالنكير على الحاجب ، ودعوه إلى المسجد ليؤامروه . ونذر بأمرهم فاعتدّ دار شيخ الفتيا أحمد بن إدريس فاقتحموا عليه الدار ، وباشره مولاه محمد بن سيّد الناس ، فطعنه وأشواه ، ورمي بشلوه من سقف الدار ، وقطع رأسه ، فبعثوا به إلى السلطان ، وفرّ منصور بن الحاج وقومه صنهاجة من البلد ، وكان بالمرسي أحمد بن سعيد القرموني من خاصّة السلطان ، جاء في السفن لبعض حاجاته من تونس ، ووافى مرسي بجاية يومئذ فأنزلوه

واعصو صبوا عليه ، وتنادوا بدعوة السلطان وطاعته ، فأشار عليهم أحمد القرموني أن يبعثوا إلى قائد تدلس من مشيخة بني مرين يحياتن[1] بن عمر بن عبد المؤمن الونكاسي ، فاستدعوه ووصل إليهم في جملة[2] من العسكر ، وبعثوا بأخبارهم إلى السلطان وانتظروا . فلمّا بلغ الخبر إلى السلطان أمر حاجبه محمد بن أبي عمر بالنهوض إلى بجاية ، فعسكر بساحة تلمسان . وانتقى له السلطان من قومه وجنوده خمسة آلاف فارس أزاح عللهم ، واستوفى أعطياتهم وسرّحه فنهض من تلمسان بعد قضاء منسك الأضحى ، وأغذ السير إلى بجاية ، ولما نزل ببني حسن جمع له بمعسكرهم من تيكلات ، وخرج إليه المشيخة والوزراء ، فتقبّض على القائد هلال وأشخصه إلى السلطان ودخل البلد على التعبية ، واحتلّ بقصبتها لمحرّم فاتح أربع وخمسين وسبعمائة وسكن الناس وخلع على المشيخة ، واختص علي بن ألميت[3] ومحمد بن سيّد الناس ، واستظهر بهم على أمره ، وتقبّض على جماعة من الغوغاء وعلى من تحت أيديهم ممن يتهم بالمداخلة في الثورة[4] يناهزون مائتين ، واعتقلهم وأركبهم السفن إلى المغرب ، فودّع الناس وسكنوا وتوافت وفود الزواودة من كل جهة ، فأجزل صلاتهم واقتضى الطاعة منهم[5] . ووصل عامل الزاب يوسف ، وسدّ فروجه وارتحل إلى تلمسان أوّل جمادى لشهرين من مدخله ؛ وأغذّ السير بمن معه من العرب والوفود ، وكنت يومئذ في جملتهم ، وقد خلع عليّ وحملني وأجزل صلتي ، وضرب لي الفساطيط ، فوفدت في ركابه ، وقدم تلمسان لأوّل جمادى الأخيرة ، فجلس السلطان للوفد واعترض ما جنب له من الجياد والهديّة ، وكان يوماً مشهودا . ثم أسنى السلطان جوائز الوفد ، واختصّ يوسف بن مزني ويعقوب بن علي بمزيد من البرّ والصلة ، وخصوا بجاه من الكرامة ، وآمرهم في شأن أفريقية ومنازلة قسنطينة . ورجع معهم الحاجب ابن أبي عمر على كره منه لما نذكره من أخباره ، وانصرفوا إلى مواطنهم لأوّل شعبان من سنة أربع وخمسين وسبعمائة وانقلبت معه بعد

---

(١) وفي نسخة ثانية : يحيى .

(٢) وفي نسخة ثانية : في لمّة .

(٣) وفي نسخة ثانية : المنت .

(٤) وفي نسخة ثانية : التوثب .

(٥) وفي نسخة ثانية : واقتضى على الطاعة رهنهم .

إسناء الجائزة والخلع والحملان من السلطان ، والوعد الجميل بتجديد ما إلى قوم ببلده من الأقطاع والله أعلم .

الخبر عن الحاجب ابن أبي عمرو وما عقد له السلطان على ثغر بجاية وعلى منازلة قسنطينة ونهوضه لذلك

سلف هذا الرجل من أهل المهديّة من أجواد العرب من بني تميم بأفريقية ، وانتقل جدّه عليّ إلى تونس باستدعاء السلطان المستنصر ، وكان فقيهاً عارفاً بالفتيا والأحكام ، وقلّده القضاء بالحضرة واستعمله على كتب علامته في الرسائل والأوامر الكبرى والصغرى ، فاظطلع بذلك ، وهلك على حالة من التجلّة والمنصب ، وقلّد ابنه عبدالله من بعده العلامتين أيام أبي حفص عمر ابن الأمير أبي زكريا كما كان لأبيه ، فاضطلع لذلك وكان أخوه أحمد بن علي مستنا[1] وقوراً منتحلاً للعلم. ونشأ ابنه محمد وقرأ بتونس، وتفقّه على مشيختها. ولما التاثت أمورهم وتلاشت أحوالهم، خرج محمد بن أحمد بن على مبتغياً للرزق والمعاش، وطوّحت به الطوائح إلى بلد القلّ. وكان منتحلاً للطلب[2] والكتابة، فاستعمل شاهداً بمرسى القلّ أيام رياسة الحاجب ابن أبي عمرو[3] ، وكانت له صحبة مع حسن بن محمد السبتي المنتحل بنسب الشرف . وكانا رفيقين في مطارح اغترابهما ، فسعى له في مرافقة الشهرة ، فأسعفا واتصلا بابن أبي عمرو فحمد مذاهبهما ، ولما نزع الشريف عبد الوهاب زعيم تدلس إلى طاعة الموحّدين أيام التياث أبي حمّو بخروج محمد بن يوسف عليه ، واعتلال الدولة ، ودخل في أمر ابن أبي عمرو وجملته ، فبعث محمد ابن أبي عمرو هذا وصاحبه إلى تدلس ، واستعمل حسن الشريف في القضاء ، ومحمد بن أبي عمرو في شهادة الديوان . فلما برئت الدولة من مرضها ، واستفحل أمر أبي حمّو وتغلّب على تدلس ، وصار رئيس الفتيا من الإمام لاقتضاء طاعتها ، وانفاذ أهلها على السلطان في الوفد ، واستقرّا بتلمسان يومئذ واستعملا في خطة

(١) وفي نسخة ثانية : مسمتاً ، واستعملت هنا بمعنى مُرْضِعاً .

(٢) أي لطلب العلم . وربّما تكون محرفة عن (الطب) .

(٣) وفي نسخة ثانية : الحاجب ابن غمر .

حصاء متعاقبين أيام بني عبد الواد وأيام السلطان أبي الحسن . وتعصّب علي بن أبي عمرو أيام قضائه جماعة من مشيخة البلد ، وسعوا به إلى السلطان أبي الحسن ، وتظلّموا فأشكاهم على علم ببراءته ، واختصّه بتأديب ولده فارس هذا وتعليمه ، فأفرغ وسعه في ذلك وربّى ولده محمداً هذا الحاجب مع السلطان أبي عنان توأماً وخليلاً وألقى عليه محبته حتى اذا خلص له الملك رفع رتبة محمد بن أبي عمرو هذا ، ورقاه من منزلة إلى أخرى حتى اذا أربى به على سائر المراتب ، وجعل إليه العلامة والقيادة والحجابة والسفارة وديوان الجند والحساب والقهرمة وسائر ألقاب دولته ، وخصوصيات داره ، فانصرفت إليه الوجوه ، ووقفت ببابه الأشراف من الأعياص والقبائل والشرفاء والعلماء ، وسرّب إليه العمّال أموال الجباية تزلفاً ، وطال أمره واستيلاؤه على السلطان ونفس عليه رجال الدولة ووزراؤها ما آتاه الله من الحظ ، حتى اذا خلا لهم وجه السلطان منه عند نهوضه إلى بجاية ، حامت أغراض السعاية على مكانه فقرطست وألقى السلطان أذنه إلى استماعها . فلمّا رجع من بجاية ، وكانت له الدالّة على السلطان ، وجدّ عليه في قبول الألاقي . ولقيه مغاضباً فتنكّر له السلطان ، ثم تجنّى بطلب الغيبة عن الدولة ، ويعقد له على بجاية متوهّما أنّ السلطان ضنين به ، فبادر السلطان إلى إسعافه ، وبداله ما لم يحتسب من الأعراض عنه . ورجع إلى الرغبة في الإقالة فلم يسعف . وعقد له على حرب قسنطينة وحكّمه في المال والجيش ، وارتحل في شعبان من سنة أربع وخمسين وسبعمائة واحتل ببجاية آخرها وأشتى بها .

ونصب الموحدون تاشفين ابن السلطان أبي الحسن المعتقل عندهم من لدن عهد المولى الفضل واعتقاله إيّاه ، فنصّبوه للأمر لتفريق كلمة بني مرين وجمعوا له الآلة والفساطيط ، وقام بأمره ميمون بن علي لمنافسته مع أخيه يعقوب ، وسمع بخبره يعقوب ، فأغذّ السير بحاله من بلاد الزاب ، وفرّق جمعهم وردّهم على أعقابهم ، وأحجزهم بالبلد . ولمّا انصرم الشتاء وقضى منسك الأضحى ، عسكر بساحة البلد ، واعترض العساكر وأزاح عللهم ، وفرّق أعطياتهم ، وارتحل إلى منازلة قُسنطينة ، واجتمع إليه الزواودة بحللهم ، وجمع المولى أبو زيد صاحب قسنطينة من كان على دعوته من أحياء بونة وميمون بن علي بن أحمد وشيعته من الزواودة ، وعقد عليهم لحاجبه نبيل وسرّحه للقاء ابن أبي عمرو وعساكره ، فأوقع بهم الحاجب

لجمادي من سنة خمس وخمسين وسبعمائة واكتسح أموالهم ونازل قسنطينة حتى تفادوا منه بتمكينه من تاشفين ابن السلطان أبي الحسن المنصوب للأمر ، فاقتادوه إليه وأشخصه إلى أخيه السلطان . وأوفد المولى أبو زيد إبنه على السلطان أبي عنان ، فتقبّل وفادته وشكر مراجعته ، وانكفأ الحاجب ابن أبي عمرو إلى بجاية ، وأقام بها إلى أن هلك في المحرم سنة ست وخمسين وسبعمائة فذهب حميد السيرة عند أهل البلد ، وتفجّعوا لمهلكه ، وبعث السلطان دوابه لارتحال عياله وولده ، ونقل شلوه إلى مقبرة أبيه بتلمسان . وسرّح ابنه أبا زيّان في عساكر بني مرين لمواراته بها . وعقد على بجاية لعبدالله بن علي بن سعيد وزيره ، فنهض إليها في شهر ربيع من سنة ست وخمسين وسبعمائة واستقرّ بها وتقبّل ما حمده الناس من مذاهب الحاجب وسيرته فيها على ما نذكره ، وجهّز العساكر إلى حصار قسنطينة إلى أن كان من فتحها ما نذكره بعد إن شاء الله تعالى .

الخبر عن خروج أبي الفضل ابن السلطان أبي الحسن بجبل السكسيوي ومكر عامل درعة به ومهلكه

كان السلطان أبو عنان بعد مهلك أبيه لحق به في جملته أخواه أبو الفضل محمد وأبو سالم ابراهيم ، وتدّبر في ترشيحهما وحذر عليهما مغبته ، فأشخصهما إلى الأندلس ، واستقرّا بها في إيالة أبي الحجّاج ابن السلطان أبي الوليد ابن الرئيس أبي سعيد . ثم ندم على ما أتاه من ذلك ، فلما استولى على تلمسان والمغرب الأوسط ، ورأى أن قد استفحل أمره واعتزّ بسلطانه ، أوعز إلى أبي الحجّاج أن يشخصهما إليه ليكون مقامهما لديه أحوط للكلمة من أن يعتمد على تفريقهما سماسرة الفتن . وخشي أبو الحجّاج عليهما غائلته فأبى من إسلامهما إليه ، وأجاب الرسل بأنه لا يخفر ذمّته وجوار المسلمين المجاهدين ، فأحفظ السلطان كلمته ، وأوعز إلى حاجبه محمد بن أبي عمرو بأن يخاطبه في ذلك بالتوبيخ واللائمة ، فكتب له كتاباً قرّعه فيه وقفني عليه الحاجب ببجاية أيام كوني معه ، فقضيت عجباً من فصوله وأغراضه ، ولما قرأه أبو الحجّاج دسّ إلى كبيرهما أبي الفضل باللحاق بالطاغية ، وكانت بينهما ولاية ومخالصة منذ مهلك أبيه الهنشة على جبل الفتح سنة إحدى وخمسين وسبعمائة ، فنزع إليه أبو

الفضل وأجاره ، وجهز به أسطولاً إلى مراسي المغرب . وأنزله بساحة السوس ، فلحق بالسكسيوي عبدالله ودعا لنفسه . وبلغ الخبر إلى السلطان بين مقدم حاجبه ابن أبي عمرو من فتح بجاية سنة أربع وخمسين وسبعمائة فجهّز عساكره إلى المغرب ، وعقد على حرب السكسيوي لوزيره فارس بن ميمون بن وردار وسرّحه إليه ، فنهض من تلمسان لربيع سنة أربع وخمسين وسبعمائة وأغذّ السير إلى السكسيوي ونزل بمخنقه ، وأحاط به ، واختطّ مدينة لمعسكره وتجهيز كتائبه بسفح جبله ، سماها القاهرة . واستبدّ الحصار على السكسيوي وأرسل إلى الوزير في الرجوع إلى طاعته المعروفة ، وأن ينبذ العهد إلى أبي الفضل ، ففارقه وانتقل إلى جبال المصامدة .

ودخل الوزير فارس إلى أرض السوس فدوّخ أقطارها ، ومهّد الحال[1] ، وسارت الألوية والجيوش في جهاته ، ورتّب المسالح في ثغوره وأمصاره مثل ايغري وفوريان وتارودانت ، وثقف أطرافه وسدّ فروجه . وسار أبو الفضل في جبال المصامدة إلى أن انتهى إلى صناكة ، وألقى بنفسه على ابن حميدي منهم مما يلي بلاد درعة ، فأجاره وقام بأمره . ونازله عامل درعة يومئذ عبدالله بن مسلم الزردالي من مشيخة دولة بني عبد الواد ، كان اصطنعه السلطان أبو الحسن منذ تغلّبه عليهم ، وفتحه لتلمسان سنة سبع وثلاثين وسبعمائة فاستقرّ في دولتهم ، ومن جملة صنائعهم ، فأخذ بمخنق ابن حميدي وأرهبه بوصول العساكر والوزراء إليه ، وداخله في التقبّض على أبي الفضل ، وأن يبذل له في ذلك ما أحبّ من المال ، فأجاب ولاطف عبدالله بن مسلم الأمير أبا الفضل ووعده من نفسه الدخول في الأمر ، وطلب لقاءه ، فركب إليه أبو الفضل . ولما استمكن منه عبدالله بن مسلم تقبّض عليه ، ودفع لابن الحميدي ما اشترط له من المال ، وأشخصه معتقلاً إلى أخيه السلطان أبي عنان سنة خمس وخمسين وسبعمائة فأودعه السجن ، وكتب بالفتح إلى القاصية . ثم قتله لليال من اعتقاله خنقاً بمحبسه . وانقضى أمر الخوارج ، وتمهّدت الدولة إلى أن كان ما نذكره إن شاء الله تعالى .

---

(١) وفي نسخة ثانية : ومهّد انحاءه .

* (الخبر عن انتقاض عيسى بن الحسن بجبل الفتح ومهلكه) *

كان عيسى بن الحسن بن علي بن أبي الطلاق هذا من مشيخة بني مرين ، وكان صاحب شوراهم لعهده ، وقد كنا قصصنا من أخبار أبيه الحسن عند ذكر دولة أبي الربيع . وكان السلطان أبو الحسن قد عقد له على ثغور عمله بالاندلس ، وأنزله بجبل الفتح عندما أكمل بناءه وجعل إليه النظر في مسالح الثغور وتفريق العطاء على مسالحها ، فطال عهد ولايته ورسخ فيها قدمه ، وكان السلطان أبو الحسن يبعث عنه في الشورى متى عنت . وحضره عند سفره إلى افريقية وأشار عليه بالاقتصار عنها ، وأراه ان قبائل بني مرين لاتني اعدادهم بمسالح الثغور إذا رتبت شرقاً وغرباً وعدوة البحر وأنّ أفريقية تحتاج من ذلك إلى أوفر الأعداد وأشدّ الشوكة ، لتغلّب العرب عليها ،وبعد عهدهم بالانقياد ، فأعرض السلطان عن نصيحته لما كان شره إلى تملكها ، وصرفه إلى مكان عمله بالثغور الأندلسية . ولما كانت نكبة القَيْرَوان وانتزى الأبناء بفاس وتلمسان ، أجاز البحر لحسم الداء ونزل بغسّاسة ثم انتقل إلى وطنه بتازى وجمع قومه بني عسكر ، وألقى السلطان أبا عنان قد هزم عساكر ابن أخيه وأخذ بمخنقه ، فأجاب عليه وبيته بمعسكره من ساحة البلد الجديد وعقد السلطان أبو عنان على حربه لصنيعته سعيد بن موسى العجيسي ، وأنزله بثغر بلاد بني عسكر على وادي بوحلّوا . وتواقفا كذلك أياماً حتى تغلّب السلطان أبو عنان على البلد الجديد ، ثم أرسل عيسى بن الحسن في الرجوع إلى طاعته وأبطأ عنه صريخ السلطان أبي الحسن بأفريقية فراجعه واشترط عليه ، فتقبل وسار إليه فتلقاه السلطان وامتلاء سروراً بمقدمه ، وأنزله بصدوره(١) وجعل الشورى إليه في مجلسه ، واستمرّت على ذلك حاله .

ولما تمكّنت حال ابن أبي عمرو بعد مهلك السلطان أبي الحسن انفرد بخلة السلطان ومناجاته ، وحجبه عن الخاصة والبطانة ، أحفظه ذلك ولم يبدها . واستأذن السلطان في الحجّ ، فأذن له وقضى فرضه ، ورجع إلى محله من بساط السلطان سنة

(١) وفي نسخة ثانية : وانزله قصوره .

ست وخمسين وسبعمائة ولقي ابن أبي عمرو بجباية ، وتطارح عليه في ان يصلح حاله عند سلطانه ، فوعده في ذلك ، ولما وفد على السلطان وجده قد استبدّ في الشورى ، وتنكّر للخاصةِ والجلساء ، فاستأذنه في الرجوع إلى محلّه من الثغر لإقامة رسم الجهاد فأذن له . وأجاز البحر إلى جبل الفتح من سنته ، وكان صاحب ديوان العطاء بالجبل يحيى الفرقاجي ، وكان مستظهراً على العمّال ، وكان ابنه أبو يحيى قدم برم بمكانه . فلمّا وصل عيسى إلى الجبل اتبعه السلطان بأعطيات المسالح مع مسعود بن كندوس[1] من صنائع دولته ، فسرّب الفرقاجي إلى الضرب على يده شأنه مع ابنه أيام مغيبه ، وأنف عيسى من ذلك فتقبّض عليه ، وأودعه المطبق ، وردّ ابن كندوس على عقبه ، وأركبه السفين من ليلته إلى سبتة ، وجاهر بالخلعان ، وبلغ الخبر إلى السلطان أبي عنان فقلق لذلك ، وقام في ركائبه وقعد ، وأوعز بتجهيز الأساطيل ، وظنّ أنه قد تدبّر من الطاغية وابن الأحمر . وبعث أحمد بن الخطيب قائد البحر بطنجة عيناً على شأنهم ، فوصل إلى مرسى الجبل . وكان عيسى بن الحسن لما جاهر بالخلعان تمشّت رجالات الثغر وعرفاء الرجل من غمارة الغزاة الموطنون بالجبل ، وتحدّثوا في شأنه ، وامتنعوا من الخروج على السلطان ، وتآمروا في اسلامه برمته . وخلابه سليمان بن داود من عرفاء العسكر[2] ، كان من خواصه وأهل شوراه ، وكان عيسى قد مكن قومه عند السلطان واستعمله على رنده ، فلما جاهر عيسى بالخلعان ، وركب ظهر الغدر ، خالفه سليمان هذا إلى طاعة السلطان ، وأنفذ كتبه وطاعته ، واشتبه عليه الأمر فندم اذ لم يكن بني أمره على أساس من الرأي ، فلما احتلّ أسطول أحمد بن الخطيب بمرسى الجبل ، خرج إليه وناشده الله والعهد أن يبلغ السلطان طاعته ، والبراءة مما صنع أهل الجبل ، ونسبها إليهم . فعند ذلك خشي غمارة على أنفسهم ، فثاروا به ، ولجأ إلى الحصن فاقتحموه عليه وشدّوه وابنه وثاقاً ، وألقوه في أسطول ابن الخطيب ، وأنزله بسبتة وطيّر للسلطان بالخبر ، فخلع عليه وأمر خاصّته فخلعوا عليه . وبعث عمر ابن وزيره عبدالله بن علي وعمر بن العجوز قائد جند النصاري ، فأحضروهما بدار السلطان يوم منى من سنة ست وخمسين وسبعمائة وجلس لهما السلطان ووقفا بين يديه وتنصّلا واعتذرا ، فلم يقبل منهما وأودعهما السجن وشدد

---

(١) كذا في النسخة الباريسية وفي نسخة ثانية : ابن كندوز

(٢) وفي نسخة ثانية : سليمان بن داود بن اعراب العسكري .

وثاقها ، حتى قضي منسك الأضحى . ولما كان ختم سنته أمر بهما فجنبا إلى مصارعهما وقتل عيسى قعصاً بالرماح ، وقطع ابنه أبو يحيى من خلاف ، وأبى من مداواة قطعه ، فلم يزل يتخبّط في دمه إلى أن هلك لثالثة[1] قطعه ، وأصبحا مثلاً في الآخرين ، وعقد على جبل الفتح وسائر ثغور الأندلس لسليمان بن داود إلى أن كان من أمره ما نذكره إن شاء الله تعالى .

* (الخبر عن نهوض السلطان الى فتح قسنطينة وفتحها ثم فتح تونس عقبها) *

لما هلك الحاجب محمد بن أبي عمرو ، عقد السلطان على ثغور بجاية وما وراءها من بلاد أفريقية لوزيره عبدالله بن علي بن سعيد ، وسرّحه إليها وأطلق يده في الجباية والعطاء . وكانت جبال ضواحي قسنطينة قد تملكها السلطان لما كانت الزواودة متغلّبة عليها . وكان عامّة أهل ذلك الوطن قبائل سدويكش ، وعقد السلطان عليهم لموسى ابن ابراهيم بن عيسى ، وأنزله بتاوريرت آخر عمل بجاية في أقاربه وولده وصنائعه . ولما نزل ابن أبي عمرو بجاية وأخذ بمخنق قسنطينة ، ثم ارتحل عنها على ما عقد من السلم مع المولى الأمير أبي زيد ، أنزل موسى بن ابراهيم بميلة ، فاستقرّ بها . ولمّا ولي الوزير عبدالله بن علي أمر أفريقية ، أوعز إليه السلطان بمنازلة قسنطينة ، فنزلها سنة سبع وخمسين وسبعمائة وأخذ بمخنقها ، ونصب المنجنيق عليها ، واشتدّ الحصار بأهلها ، وكادوا أن يلقوا باليد لولا ما بلغ العسكر من الإرجاف بمهلك السلطان فأفرجوا عنها ، ولحق المولى أبو زيد ببونة ، وأسلم البلد إلى أخيه مولانا الأمير أبي العبّاس أيّده الله تعالى ، عندما وصل إليه من أفريقية ، كان بها مع العرب طالباً ملكهم بتونس ، ومجلباً بهم على ابن تافراكين منذ نازلوا تونس سنة ثلاث وخمسين وسبعمائة كما مرّ ، فلمّا رجع الآن إلى قسنطينة مع خالد بن حمزة ، داخل المولى أبا زيد في خروجه إلى حصار تونس ، وإقامة مولانا أبي العبّاس بقسنطينة ، فأجاب لذلك وخرج معه ، ودخل مولانا أبو العبّاس إلى قسنطينة ، ودعا لنفسه ، وضبط قسنطينة وكان مدلاً ببأسه وإقدامه ؛ وداخله بعض المنحرفين من بني مرين من أولاد

(١) وفي نسخة ثانية : لثانية

بو سعيد وسدويكش في تبييت موسى بن ابراهيم بمعسكره من ميلة ، فبيّتوه وانتهبوا معسكره وقتلوا أولاده وخلص إلى تاوريرت ، ثم إلى بجاية ، ولحق بمولانا السلطان مفلولاً. ونكر السلطان على وزيره عبدالله بن علي ما وقع بموسى بن ابراهيم ، وأنه قصرّ في إمداده ، فسرّح شعيب بن ميمون وتقبّض عليه ، وأشخصه إلى السلطان معتقلاً ، وعقد على بجاية مكانه ليحيى بن ميمون بن مصمود من صنائع دولته ، وفي خلال ذلك راسل المولى أبو زيد الحاجب أبا محمد عبدالله بن تافراكين المتغلّب على عمّه ابراهيم في النزول لهم عن بونه ، والقدوم عليهم بتونس ، فقبلوه وأحلّوه محل وليّ العهد ، واستعملوا على بونة من صنائعهم ، ولما بلغ خبر موسى بن ابراهيم إلى السلطان أيام التشريق من سنة سبع وخمسين وسبعمائة اعتزم على الحركة إلى أفريقية ، واضطرب معسكره بساحة البلد الجديد ، وبعث في الحشد إلى مراكش . وأوعز إلى بني مرين بأخذ الأهبة للسفر ، وجلس للعطاء والاعتراض من لدن وصول الخبر إليه إلى شهر ربيع من سنة ثمان وخمسين وسبعمائة . ثم ارتحل من فاس وسرّح في مقدمته وزيره فارس بن ميمون في العساكر ، وسار في ساقته على التعبية إلى أن احتل ببجاية ، وتلوّم لإزاحة العلل . ونازل الوزير قُسنطِينَة . ثم جاء السلطان على أثره ولما أطلّت راياته ، وماجت الأرض بعساكره ، ذعر أهل الْبلد ، وألقوا بأيديهم إلى الإذعان ، وانفضّوا من حول سلطانهم مهطعين إلى السلطان ، وتحيّز صاحب البلد في خاصّته إلى القصبة . ووصل أخوه المولى الفضل فطلب الأمان ، فبذله السلطان لهم وخرجوا ، وأنزلهم بمعسكره أياماً ، ثم بعث بالسلطان في الاسطول إلى سبتة فاعتقله بها إلى أن كان من أمره ما نذكره بعد .

وعقد على قسنطينة لمنصور ابن الحاج خلوف الباباني[1] من مشيخة بني مرين وأهل الشورى منهم ، وأنزله بالقصبة في شعبان من سنته ، ووصل إليه بمعسكره من ساحة قسنطينة بيعة يحيى بن يملول صاحب توزر ، وبيعة علي بن الخلف صاحب نفطة . ووفد ابن مكي مجدّداً طاعته . ووصل إليه أولاد مهلهل أمراء الكعوب وأقتال بني أبي الليل يستحثّونه لملك تونس ، فسرّح معهم العساكر وعقد عليهم ليحيى بن رحّو بن تاشفين ، وبعث أسطوله في البحر مدداً لهم ، وعقد عليه للرّئيس محمد بن يوسف

(١) وفي نسخة ثانية : الياباني

الأبكم ، وساروا إلى تونس وأخرج الحاجب أبا محمد بن تافراكين سلطانه أبو اسحق ابن مولانا السلطان أبي يحيى مع أولاد أبي الليل ، وجهّز معه العساكر لما أحسّ بقدوم عساكر السلطان . ووصل الأسطول إلى مرسى تونس فقاتلهم يوماً أو بعض يوم ، وركب الليل إلى المهديّة فتحصّن بها . ودخل أولياء السلطان إلى تونس في رمضان من سنة ثمان وخمسين وسبعمائة وأقاموا بها دعوته . واحتل يحيى بن رحّو بالقصبة ، وأنفذ الأوامر ، وكتبوا إلى السلطان بالفتح . ونظر السلطان بعد ذلك في أحوال ذلك ، وقبض أيدي العرب من رياح عن الأتاوة التي يسمونها الخفارة فارتابوا ، وطالبهم بالرهن فأجمعوا على الخلاف . فأرهف لهم حدّه ، وتبيّن يعقوب ابن علي أميرهم مكره ، فخرج معهم ولحقوا جميعاً بالزاب ، وارتحل في أثرهم . وسار يوسف بن مزني عامل الزاب ببعض الطريق أمامه حتى نزل ببسكرة . ثم ارتحل إلى طولقة[1] فتقبّض على مقدّمها عبد الرحمن بن أحمد بإشارة ابن مزني ، وخرّب حصون يعقوب بن علي ، وأجفلوا إلى القفر أمامه . ورجع عنهم . وحمل له ابن مزني جباية الزاب بعد أن ردّ عامّة معسكره بالقرى من الأدم والحنطة والحملان والعلوفة ثلاث ليال نفذت في ذلك ، وكافأه السلطان على صنيعه ، فخلع عليه وعلى أهله وولده وأسنى جوائزهم ورجع إلى قسنطينة ، واعتزم على الرحلة إلى تونس . وضاق ذرع العساكر بشأن النفقات والأبعاد في المذهب ، وارتكاب الخطر في دخول افريقية ، فتمشّت رجالاتهم في الانفضاض عن السلطان . وداخلوا الوزير فارس بن ميمون فوافقهم على ذلك وأذن المشيخة والنقباء لمن تحت أيديهم من القبائل في اللحاق بالمغرب حتى تفردوا ، وأنهى إلى السلطان أنّهم تآمروا في قتله . ونصب إدريس بن أبي عثمان بن أبي العلاء للأمر ، فأسرّها في نفسه ولم يبدها لهم . ورأى قلّة من معه من العساكر ، وعلم بانفضاضهم ، فكرّ راجعاً إلى المغرب بعد أن ارتحل عن قسنطينة مرحلتين إلى الشرق ، وأغذ السير إلى فاس ، واحتل بها غرّة ذي الحجة من سنته . وتقبّض يوم دخوله على وزيره فارس بن ميمون ، اتهمه بمداخلة بني مرين في شأنه ، وقتله رابع أيام التشريق قعصاً بالرماح ، وتقبّض على مشيخة بني مرين فاستلحمهم وأودع منهم السجن ، وبلغ إلى الجهات خبر رجوعه من قسنطينة إلى

(١) مدينة بالمغرب من ناحية الزاب الكبير من صقع الجريد (معجم البلدان) .

المغرب فارتحل أبو محمد بن تافراكين من المهديّة إلى تونس ، ولما أطلّ عليها ثار شيعته بالبلد على من كان بها من عساكر السلطان ، وخلصوا إلى السفين ، فنجوا إلى المغرب ، وجاء على أثرهم يحيى بن رحّو بمن معه من العساكر من أولاد مهلهل ، كان بناحية الجريد لاقتضاء جبايته ، واجتمعوا جميعاً بباب السلطان ، وأرجأ حركته إلى العام[1] القابل ، فكان ما نذكره إن شاء الله تعالى .

* (الخبر عن وزارة سليمان بن داود ونهوضه بالعساكر إلى أفريقية) *

لما رجع السلطان من أفريقية ولم يستتم فتحها ، بقي في نفسه منها شيء . وخشي على ضواحي قسنطينة من يعقوب بن علي ومن معه من الزواودة المخالفين ، فأهمّه شأنهم ، واستدعى سليمان بن داود من مكانه بثغور الأندلس ، وعقد له على وزارته ، وسرّحه في العساكر إلى أفريقية ، فارتحل إليها في ربيع من سنة تسع وخمسين وسبعمائة وكان يعقوب بن علي لمّا كشف وجهه في الخلاف ، أقام السلطان مكانه أخاه ميمون بن علي منازعه ، وقدّمه على أولاد محمد من الزواودة ، وأحله بمكانه من رياسة البدو والضواحي ، ونزع إليه عن أخيه يعقوب الكثير من قومهم ، وتمسّك بطاعة السلطان طوائف من أولاد سبّاع بن يحيى وكبيرهم يومئذ عثمان بن يوسف بن سليمان ، فانحاشوا جميعاً للوزير ونزلوا على معسكره بحللهم . وارتحل السلطان في أثره حتى احتل بتلمسان فأقام بها لمشارفة أحواله منها ، واحتل الوزير سليمان بوطن قُسُنطِينَة . وأغذّ السير إلى عمال الزاب يوسف بن مزني بأن تكون يده معه ، وأن يؤامره في أحوال الزواودة لرسوخه في معرفتها ، فارتحل إليه من بسكرة ، ونازلوا جبل أوراس واقتضوا جبايته ومغارمه . وشرّدوا المخالفين من الزواودة عن العيث في الوطن ، فتمّ غرضهم من ذلك . وانتهى الوزير وعساكر السلطان إلى أوّل أوطان أفريقية من آخر مجالات رياح ، وانكفأ راجعاً إلى المغرب . ووافى السلطان بتلمسان ، ووصلت معه وفود العرب الذين أبلوا في الخدمة ، فوصلهم السلطان

(١) وفي نسخة ثانية : الى اليوم القابل .

وخلع عليهم وحملهم ، وفرض لهم العطاء بالزاب وكتب لهم به ، وانقلبوا إلى أهلهم ، ووفد على أثرهم أحمد بن يوسف بن مزني ، أوفده أبوه بهديّة السلطان من الخيل والرقيق والرزق[1] فتقبّلها السلطان وأكرم وفادته وأنزله ، واستصحبه إلى فاس ليريه أحوال كرامته ، وليستبلغ في الاحتفاء به ، واحتل بدار ملكه منتصف ذي القعدة من سنة تسع وخمسين وسبعمائة والله أعلم .

الخبر عن مهلك السلطان أبي عنان ونصب السعيد للأمر باستبداد الوزير حسن بن عمر في ذلك

لما وصل السلطان إلى دار ملكه بفاس ، احتل بها بين يدي العيد الأكبر حتى اذا قضى الصلاة من يوم الأضحى أدركه المرض ، وأعجله طائف الوجع عن الجلوس يوم العيد على العادة ، فدخل إلى قصره ولزم فراشه ، واستبدّ به وجعه ، وأطاف به النساء يمرّضنه . وكان ابنه أبو زيان ولي عهده ، وكان وزيره يحيى بن موسى القفولي[2] من صنائع دولتهم وأبناء وزرائهم ، قد عقد له السلطان على وزارته واستوصاه به ، فتعجّل الأمر ، وداخل رؤوس بني مرين في الانحياش إلى أميرهم والفتك بالوزير الحسن بن عمر وداخله في ذلك عمر بن ميمون لعداوة بينهما وبين الوزير فخشيهما الحسن بن عمر على نفسه . وفاوض عليه أهل المجلس بذات صدره ، وكانت نفرتهم عن وليّ العهد مستحكمة لما أبلوا من سوء خلته وشرّ ملكته ، فاتفقوا على تحويل الأمر عنه . ثم نمي إليهم أنّ السلطان مشرف على الهلكة لا محالة ، وأنه موقع بهم من قبل مهلكه ، فأجمعوا أمرهم على الفتك به والبيعة لأخيه السعيد طفلاً خماسياً ، وباكروا دار السلطان فتقبّضوا على وزيره موسى بن عيسى وعمر بن ميمون فقتلوهما ، وأجلسوا السعيد للبيعة . وأوعز وزيره مسعود بن رحو بن ماسى بالتقبّض على أبي زيّان من نواحي القصر ، فدخل إليه وتلطّف في إخراجه من بين الحرم . وقاده إلى أخيه فبايع وتلّ إلى بعض حجر القصر ، فأتلف فيها مهجته . واستقلّ الحسن بن عمر بالأمر يوم الاربعاء الرابع والعشرين لذي الحجة من سنة تسع

---

(١) وفي نسخة ثانية : الدرق .

(٢) وفي نسخة ثانية : العقولي .

وخمسين وسبعمائة والسلطان أثناء ذلك على فراشه يجود بنفسه . وارتقب الناس دفنه يوم الأربعاء والخميس بعده ، فلم يدفن فارتابوا ، وفشا الكلام وارتاب الجماعة ، فأدخل الوزير زعموا إليه بمكانه من بيته من غطه حتى أتلفه . ودفن يوم السبت ، وحجب الحسن بن عمر الولد المنصوب للأمر ، وأغلق عليه بابه ، وتفرّد بالأمر والنهي دونه . ولحق عبد الرحمن ابن السلطان أبي عنان بجبل الكاي يوم بيعة أخيه ، وكان أسنّ منه وإنما آثروه لمكان ابن عمّه مسعود بن ماسي من وزارته ، فبعثوا إليه من لاطفه واستنزله على الأمان ، وجاء به إلى أخيه فاعتقله الحسن بالقصبة من فاس . وبعث على أبناء السلطان الأصاغر الأمراء بالثغور ، فجاء المعتصم من سجلماسة ، وامتنع المعتمد بمراكش ، وكان بها في كفالة عامر بن محمد الهنتاتي استوصاه به السلطان وجعله هنالك لنظره ، فمنعه من الوصول ، وخرج به من مراكش إلى معقله من جبل هنتاتة ، وجهزّ الوزير العساكر لمحاربته ، ولم يزل هنالك إلى أن استنزله عمّه السلطان أبو سالم عند استيلائه على ملك المغرب ، كما نذكره إن شاء الله تعالى والله أعلم .

الخبر عن تجهيز العساكر الى مراكش ونهوض الوزير سليمان بن داود لمحاربة عامر بن محمد

كان عامر بن محمد بن علي شيخ هنتاتة من قبائل المصامدة . وكان السلطان يعقوب قد استعمل أباه محمد بن علي على جبايتهم ، والسلطان أبو سعيد استعمل عمّه موسى بن علي وربّي عامر هذا في كفالة الدولة ، وسار في جملة السلطان إلى أفريقية ، وولاّه السلطان أحكام الشرطة بتونس . ولمّا ركب البحر إلى المغرب أركب حرمه وحظاياه في السفن ، وجعلهم إلى نظر عامر بن محمد . وأجازوا البحر إلى الأندلس فنزلوا ألمرية وبلغهم غرق السلطان أبي الحسن وعسكره ، فأقام بهم بمكانه من ألمرية ، ودعى للسلطان أبي عنان ، فلم يجب داعية وفاء ببيعة أبيه ، حتى اذا هلك السلطان أبو الحسن بدارهم بالجبل ، ورعى لهم السلطان أبو عنان إجارتهم لأبيه ، حين لفظته البلاد وتحاماه الناس ، أجمع أمره على الوفادة عليه ، فوفد بمن معه من الحرم . وأكرم السلطان أبو عنان وفادته وأحسن نزله ، ثم عقد له على جباية المصامدة سنة أربع وخمسين وسبعمائة وبعثه لها من تلمسان ، فاضطلع بهذه الولاية وأحسن

الغناء فيها ، والكفاية عليها ، حتى كان السلطان أبو عنان يقول : وددت لو أصبت رجلاً يكفيني ناحية المشرق من سلطاني كما كفاني عامر بن محمد ناحية المغرب ، وأتورع ، ونافسه الوزراء في مقامه ذلك عند السلطان ورتبته . وانفرد الحسن بن عمر آخر الأمر بوزارة السلطان ، واشتدّت منافسته وانتهت إلى العداوة والسعاية .

وكان السلطان بين يدي مهلكه ولّى أبناءه الأصاغر على أعمال ملكه ، فعقد لابنه محمد المعتمد على مراكش ، واستوزر له ، وجعله إلى نظر عامر واستوصاه به . فلمّا هلك السلطان واستقل الحسن بن عمر بالأمر ونصّب السعيد للملك ، استقدم الأبناء من الجهات ، فبعث عن المعتمد من مراكش فأبى عليه عامر من الوفادة عليهم ، وصعد به إلى معقله من جبل هنتاتة ، وبلغ الحسن بن عمر خبره ، فجهّز إليه العساكر وأزاح عللهم ، وعقد على حربه للوزير سليمان بن داود مساهمه في القيام بالأمر ، وسرّحه في المحرم سنة ستين وسبعمائة ، فأغذ السير إلى مراكش واستولى عليها ، وصعد إلى الجبل فأحاط به ، وضيّق على عامر وطاول منازلته . وأشرف على اقتحام معقله إلى أن بلغه خبر افتراق بني مرين ، وخروج منصور بن سليمان من أعياص الملك على الدولة ، وأنه منازل للبلد الجديد ، فانفضّ العسكر من حوله وتسابقوا إلى منصور بن سليمان ، فلحق به الوزير سليمان بن داود وتنفّس الحصار عن عامر ، إلى أن استولى السلطان أبو سالم على ملك المغرب في شعبان من سنة ستين وسبعمائة واستقدم عامراً والمعتمد ابن أخيه من مكانهم بالجبل ، فقدم عليه وأسلمه إليه كما نذكره إن شاء الله تعالى .

الخبر عن ظهور أبي حمو بنواحي تلمسان وتجهيز العساكر لمدافعته ، ثم تغلبه وما تخلل ذلك من الأحداث

كان ولد عبد الرحمن بن يحيى بن يغمراسن هؤلاء أربعة كما ذكرناه في أخبارهم ، وكان يوسف كبيرهم ، وكان سكوتاً منتحلاً لطرق الخير لا يريد علواً في الأرض ، ولما هلك أخوه عثمان بتلمسان ، عقد له على هُنَيْن[1] ، وكان ابنه يوسف بن موسى[2]

(١) وفي نسخة ثانية : تنس .

(٢) وفي نسخة ثانية : وكان ابنه موسى .

متقبّلاً مذهبه في السكوت والدَعة ومجانبة أهل الشرّ ، ولما تغلّب السلطان أبو عنان عليهم سنة ثلاث وخمسين وسبعمائة وفرّ أبو ثابت إلى قاصية المشرق ، واستلبهم[1] قبائل زواوة وأرجلوهم عن خيلهم سعوا على أقدامهم ، وانتبذ أبو ثابت وأبو زيّان ابن أخيه أبي سعيد وموسى ابن أخيه يوسف ووزيرهم يحيى بن داود ناحية عن قومهم ، وسلكوا غير طريقهم ، وتقبّض على أبي ثابت ويحيى بن داود محمد بن عثمان ، وخلص موسى إلى تونس ، فنزل على الحاجب محمد بن تافراكين وسلطانه خير نزل ، وأجارهم مع فلّ من قومه خلصوا إليهم وأسنوا جرايتهم . وبعث السلطان أبو عنان فيهم إلى ابن تافراكين فأبى من إسلامهم وجاهر بإجارتهم على السلطان .

ولما استولت عساكر السلطان على تونس ، وأجفل عنها سلطانها أبو اسحق ابراهيم ابن مولانا السلطان أبي يحيى ، خرج موسى بن يوسف هذا في جملته ، ولما رجع السلطان إلى المغرب صمد المولى أبو اسحق ابراهيم ابن مولانا السلطان أبي يحيى ، وابن أخيه المولى أبي زيد صاحب قسنطينة مع يعقوب بن علي وقومه من الزواودة إلى منازلة قسنطينة وارتجاعها ، وسار في جملتهم موسى بن يوسف هذا فيمن كان عنده من زناتة قومه . وكان بنو عامر من زغبة خارجين على السلطان أبي عنان منذ غلبه بنو عبد الواد على تلمسان . وكانت رياستهم إلى صغير بن عامر بن ابراهيم ، لحق بأفريقية في قومه ونزلوا على يعقوب بن علي ، وجاوروه بحللهم وظعنهم ، فلما أفرجوا عن قُسنطِينَة بعد امتناعها ، واعتزم صغير على الرحلة بقومه إلى وطنهم من صحراء المغرب الأوسط ، دعوا موسى بن يوسف هذا إلى الرحلة معهم لينصبّوه للأمر ، ويجلبوا به على تلمسان ، فخلّى الموحْدون سبيله ، وأعانوه بما اقتدروا عليه لوقتهم ، وعلى حال سفرهم من آلة وفسطاط . وارتحل مع بني عامر ، وارتحل مع صولة بن يعقوب بن علي ، وزيّان بن عثمان بن سبّاع من أمراء الزواودة ، وصغار[2] بن عيسى في حلل من بني سعيد إحدى بطون رياح . وأغذّوا السير إلى المغرب للعيث في نواحيه . وجمع لهم أقتالهم من سويد أولياء السلطان والدولة ، والتقوا بقبلة تلمسان ، فانهزمت سويد وهلك عثمان بن ونزمار كبيرهم ، وكان مهلك السلطان في خلال ذلك .

وكان السلطان حين استعمل الابناء على الجهات ، عقد لمحمد المهدي من اولاده على

---

(١) وفي نسخة ثانية : واهتبلتهم .

(٢) وفي نسخة ثانية : دغار .

تلمسان . ولما اتصل الخبر بوفاة السلطان بالمغرب ، أغذوا السير إلى تلمسان ، وملكوا ضواحيها ، وجهّز الحسن بن عمر لها عسكراً عقد عليه وعلى الحامية الذين بها لسعيد ابن موسى العجيسي من صنائع السلطان . وسرّحه إليها ، وسار في جملته أحمد بن مزني فاصلاً إلى عمله بعد أن وصله وخلع عليه وحمله ، وسار سعيد بن موسى في العساكر إلى تلمسان ، واحتل بها في صفر من سنة ستين وسبعمائة وزحف إليه جموع بني عامر وسلطانهم أبو حمّو موسى بن يوسف ، فغلبوهم على الضاحية وأحجزوهم بالبلد . ثم ناجزوهم الحرب أياماً ، واقتحموها عليهم لليال خلوْن من ربيع ، واستباحوا من كان بها من العسكر ، وامتلاءت أيديهم من أسلابهم ونهابهم . وخلص سعيد بن موسى بابن السلطان إلى حلّة صغير بن عامر فأجاره ومن جاء على أثره من قومه ، وأوفد برجالات من بني عامر ينصبون[1] له الطريق أمامه إلى أن أبلغوه مأمنه من دار ملكهم ، واستولى أبو حمّو على ملك تلمسان ، واستأثر بالهدية التي ألفى بمودعها ، كان السلطان انتقاها وبعث بها إلى صاحب برشلونة بطرة بن أَلْقَنْط وبعث إليه فيه بفرس أدهم من مقرباته بمركب ولجام مذهبين ثقيلين . فاتخذ أبو حمّو ذلك الفرس لركوبه ، وصرف الهديّة في مصارفه ووجوه مذاهبه . والله غالب على أمره .

الخبر عن نهوض الوزير مسعود بن ماسي إلى تلمسان وتغلبه عليها ثم انتقاضه ونصبه سليمان بن منصور للامر

لما بلغ الوزير الحسن بن عمر خبر تلمسان واستيلاء أبي حمو عليها ، جمع مشيخة بني مرين وأمرهم بالنهوض إليها ، فأبوا عليه من النهوض بنفسه ، وأشاروا بتجهيز العساكر ووعدوه مسيرهم كافة ، ففتح ديوان العطاء وفرّق الأموال وأسنى الصلات وأزاح العلل ، وعسكر بساحة البلد الجديد . ثم عقد عليهم لمسعود بن رحّو بن ماسي وحمل معه المال وأعطاه الآلة وسار في الألوية والعساكر . وكان في جملته منصور بن سليمان بن منصور بن أبي مالك بن يعقوب بن عبد الحق ، وكان الناس يرجفون بأنّ

(١) وفي نسخة ثانية : ينفضون : نفض المكان واستنقضه اذا نظر جميع ما فيه حتى يعرفه . وعن الليث : النفضة ، بالتحريك ، الجماعة يبعثون في الأرضْ متجسسين لينظروا هل فيها عدو أو خوف (لسان العرب) .

سلطان المغرب صائر إليه بعد مهلك أبي عنان . وشاع ذلك على ألسنة الناس وذاع وتحدّث به السُمَّر والندمان ، وخشي منصور على نفسه لذلك ، فجاء إلى الوزير الحسن وشكا إليه ذلك ، فانتهره أن يختلج بفكره هذا الوسواس انتهاراً خلا من وجه السياسة ، فانزجر واقتصر . ولقد شهدتُ هذا الموطن ، ورحمت ذلّة انكساره وخضوعه في موقفه . ورحل الوزير مسعود في التعبية وأفرج أبو حمّو عن تلمسان ، ودخلها مسعود في ربيع الثاني واستولى عليها . وخرج أبو حمّو إلى الصحراء ، وقد اجتمعت عليه جموع العرب من زغبة والمعقل . ثم خالفوا بني مرين إلى المغرب واحتلوا بانكاد بحللهم وظواعنهم ، وجهز إليهم مسعود بن رحّو عسكراً من جنوده انتقى فيه مشيخة بني مرين وأمراءهم ، وعقد عليهم لعامر ابن عمّه عبّو بن ماسي[1] ، وسرّحهم فزحفوا إليه بساحة وَجْدَة ، وصدقهم العرب الحملة ، فانكشفوا واستبيح معسكرهم ، واستلبت مشيختهم ، وأرجلوا عن خيلهم ، ودخلوا إلى وَجْدَة عراة . وبلغ الخبر إلى بني مرين بتلمسان ، وكان في قلوبهم مرض من استبداد الوزير عليهم وحجره لسلطانهم ، فكانوا يتربّصون بالدولة . فلما بلغ الخبر وحاص الناس لها حيصة الحمر ، خلص بعضهم نجياً بساحة البلد ، واتفقوا على البيعة ليعيش بن علي بن أبي زيّان ابن السلطان أبي يعقوب فبايعوه .

وانتهى الخبر إلى الوزير مسعود بن رحّو ، وكان متحيّناً السلطان منصور بن سليمان فاستدعاه وأكرهه على البيعة ، وبايعه معه الرئيس الأكبر من بني الأحمر ، وقائد جند النصارى القهردور[2] ، وتسايل إليه الناس ، وتسامع الملأ من بني مرين بالخبر ، فتهاووا إليه من كل جانب . وذهب يعيش بن أبي زيّان لوجهه ، فركب البحر وخلص إلى الأندلس ، وانعقد الأمر لمنصور بن سليمان . واحتمل بني مرين على كلمته ، وارتحل بهم من تلمسان يريد المغرب . واعترضهم جموع العرب في طريقهم فأوقعوا بهم ، وامتلأت أيديهم من أسلابهم وظعنهم . وأغذّوا السير إلى المغرب ، واحتلوا بسبّوا في منتصف جمادى الأخيرة ، وبلغ الخبر إلى الحسن بن عمر فاضطرب معسكره بساحة البلد . وأخرج السلطان في الآلة والتعبية إلى أن أنزله بفسطاطه . ولما غشيهم الليل انفضّ عنه الملأ إلى السلطان منصور بن سليمان ، فأوقد

---

(١) وفي نسخة ثانية : ماساي .

(٢) وفي نسخة ثانية : القمندوز .

الشموع وأذكى النيران حوالي الفسطاط ، وجمع الموالي والجند وأركب السلطان ودخل إلى قصره ، وانحجز بالبلد الجديد ، وأصبح منصور بن سليمان فارتحل في التعبية حتى نزل بكدية العرائس في الثاني والعشرين لجمادى الأخيرة ، واضطرب معسكره بها ، وغدا عليها بالقتال وشدّ عليها الحملات ، وامتنعت يومها . ثم جمع الأيدي على اتخاذ الآلات للحصار . واجتمعت إليه وفود الأمصار بالمغرب للبيعة ، ولحقت به كتائب بني مرين التي كانت مُحجّرة بمراكش لحصار عامر مع الوزير سليمان بن داود فاستوزره ، وأطلق عبدالله بن علي وزير السلطان أبي عنان من معتقله بسبتة ، فخلص منه خلوص الأبريز بعد السبك . وأمر منصور بن سليمان بتسريح السجون ، فخرج من كان بها من دعّار بجاية وقسنطينة ، وكانوا معتقلين من لدن استيلاء السلطان أبي عنان على بلادهم . وانطلقوا إلى مواطنهم ، وأقام على البلد الجديد يغاديها القتال ويراوحها ونزع عنه إلى الوزير الحسن بن عمر طائفة من بني مرين . ولحق آخرون ببلادهم ، وانتقضوا عليه ينتظرون مآل أمره . ولبث على هذه الحال إلى غرّة شعبان ، فكان من قدوم السلطان أبي سالم لملك سلفه بالمغرب ، واستيلائه عليه ، ما نذكره إن شاء الله تعالى .

الخبر عن نزول المولى أبي سالم بجبال غمارة واستيلائه على ملك المغرب ومقتل منصور بن سليمان

كان السلطان أبو سالم بعد مهلك أبيه واستقراره بالأندلس ، وخروج أبي الفضل بالسوس لطلب الأمر ، ثم ظفر السلطان أبي عنان به ومهلكه كما ذكرناه ، قد تورّع وسكن وسالمه السلطان . ثم لما هلك سلطان الأندلس أبو الحجاج سنة خمس وخمسين وسبعمائة يوم الفطر بمصلى العيد طعنه أسود مدسوس كان ينسب إلى أخيه محمد من بعض إماء قصرهم . ونصّبوا للأمر ابنه محمداً وحجبه مولاه رضوان(١) . واستبدّ عليه . وكان للسلطان أبي عنان اعتزاز كما ذكرناه ، وكان يؤمّل ملك الأندلس . وأوعز إليهم عندما طرقه طائف المرض سنة سبع وخمسين وسبعمائة أن

(١) وفي نسخة ثانية : روضان .

يبعثوا إليه طبيب دارهم ابراهيم بن زرور الذمّي ، وامتنع من ذلك اليهودي ، واعتذر وردّوه فتنكّر لهم السلطان ، ولما وصل إلى فاس من فتح قسنطينة وأفريقية تقبّض على وزيره والمشيخة من قبله ، تجنياً عليهم إذ لم يبادروا السلطان بنفسه أو حاجبه للتهنئة[1] . وأظلم الجوّ بينهم ، واعتزم على النهوض إليهم وكانوا منحاشين بالجملة إلى الطاغية بِطْرَة بن أدفونش صاحب قَشْتَالة ، منذ مهلك أبيه الْـهُـنْشَة على جبل الفتح سنة إحدى وخمسين وسبعمائة ثم استبدّ رضوان على الدولة بعد مهلك أبي الحجّاج ، فكانت له صاغية إليه ، ظاهرها النظر للمسلمين بمسالمة عدوّهم . وكان السلطان أبو عنان يعتدّ ذلك عليهم ، وعلم أنه لا بدّ أن يمدّهم بأساطيله ويدافعوه عن الإجازة إليهم . وكان بين الطاغية بِطْرَة وبين قمص برشلونة فتنة هلك فيها أهل ملّتهم ، فصرف السلطان قصده إلى قمص برشلونة وخاطبه في اتصال اليد على ابن أدفونش ، واجتمع أسطول المسلمين وأسطول النصارى القمص بالزقاق ، وضربوا لذلك الموعد وأتحفه السلطان بهديّة سنيّة من متاع المغرب وماعونه ، ومركب ذهبيّ صنيع ، ومقرب من جياده وأنفذها إليه ، فبلغت تلمسان ، وهلك قبل وصولها إلى محلها ، ولما هلك السلطان أبو عنان أمّل أخوه المولى أبو سالم ملك أخيه ، وطمع في مظاهرة أهل الأندلس له على ذلك لما كان بينهم وبين أخيه ، واستدعاه أشياع من أهل المغرب ، ووصل البعض منهم إليه بمكانه من غرناطة ، وطلب الاذن من رضوان في الإجازة ، فأبى عليه ، فأحفظه ذلك . ونزع إلى ملك قشتالة متطارحاً بنفسه عليه أن يجهّز له الأسطول للإجازة إلى المغرب ، فاشترط عليه وتقبّل شرطه. وأجازه في أسطوله إلى مراكش ، فامتنع عامر من قبوله لما كان فيه من التضييق والحصار بحضرة سليمان بن داود كما ذكرناه . فانكفأ راجعاً على عقبه . فلما حاذى طنجة وبلاد غمارة وألقى بنفسه إليهم ، ونزل من الصفيحة من بلادهم . واشتملت عليه قبائلهم ، وتسايلوا إليه من كل جانب وبايعوه على الموت .

وملك سبتة وطنجة ، وبها يومئذ السلطان أبو العبّاس بن أبي حفص صاحب قسنطينة لحق بها بعد الخروج من اعتقاله بسبتة كما ذكرناه ، فاختصّه المولى أبو سالم

---

(١) وفي نسخة ثانية : ابراهيم بن زرزر الذمي ، وامتنع من ذلك اليهودي ، واعتذر واعذره ، فنكر لهم السلطان قبله ، ولما وصل الى فاس من فتح قسنطينة وافريقية وتقبّض على وزيره والمشيخة من قبله ، تجنياً عليهم ، إن لم يبادر السلطان بنفسه وحاجبه للتهنئة .

بالصحبة والخلّة ، والبواء[1] في اغترابه ذلك ، إلى أن استولى على ملكه ، وألفى بطنجة الحسن بن يوسف الورتاجني ، وكاتب ديوان الجند أبا الحسن بن علي بن السعود ، والشريف أبا القاسم التلمساني . فكان منصور بن سليمان ارتاب بهم واتهمهم بمداخلة الوزير الحسن بن عمر بمكانه من البلد الجديد ، فصرفهم من معسكره إلى الأندلس ، فوافوا الأمير[2] أبا سالم عند استيلائه على طنجة ، فصاروا إلى إيالته ، واستوزر الحسن بن يوسف ، واستكتب لعلامته أبا الحسن علي بن السعود ، واختص الشريف بالمجالسة والمراكبة . ثم قام أهل الثغور الأندلسية بدعوته ، وأجاز يحيى بن عمر صاحب جبل الفتح بمن كان معه من العسكر ، وطالت حصاة المولى أبي سالم واتسع معسكره ، وبلغ الخبر إلى الثائر على البلد الجديد منصور بن سليمان ، فجهّز عسكراً لدفاعه وعقد عليه لأخويه عيسى وطلحة ، وأنزلها قصر كتامة ، وقاتلوه فهزموه ، واعتصم بالجبل وبادر الحسن بن عمر من وراء الجدران فبعث طاعته إليه ، ووعده بالتمكين من دار ملكه . وداخل بعض أشياع المولى أبي سالم مسعود بن رحّو بن ماسي وزير منصور في النزوع إلى السلطان ، وكان قد ارتاب بمنصور وابنه عليّ ، فنزع وانفضّ الناس من حول منصور ، وتخاذل أشياعه من بني مرين ، ولحق بباديس من سواحل المغرب . ومشى أهل العسكر بأجمعهم في ساقاتهم ومواكبهم على التعبية ، فلحقوا بالسلطان أبي سالم واستعدوه إلى دار ملكه ، فأغذّ السير وخلع الحسن بن عمر سلطانه السعيد من الأمر لتسعة أشهر من خلافته ، وأسلمه عمّه وخرج إليه فبايعه .

ودخل السلطان إلى البلد الجديد يوم الجمعة منتصف شعبان من سنة ستين وسبعمائة واستولى على ملك المغرب ، وتوافت وفود النواحي بالبيعات ، وعقد للحسن بن عمر على مراكش ، وجهّزه إليها بالعساكر ريبة بمكانه . واستوزر مسعود بن رحّو بن ماسي والحسن بن يوسف الورتاجني ، واصطفى من خواصّه خطيب أبيه الفقيه أبا عبدالله محمد بن أحمد بن مرزوق ، وجعل إلى مؤلف هذا الكتاب توقيعه وكتابة سرّه . وكنتُ نزعتُ إليه من معسكر منصور بن سليمان بكدية العرايس لما رأيت من اختلال أحواله ، ومصير الأمر إلى السلطان ، فأقبل عليّ وأنزلني بمحل التنويه ،

(١) وفي نسخة ثانية : وألفه .

(٢) وفي نسخة ثانية : المولى .

واستخلصني لكتابته . واستوسق أمره بالمغرب وتقبّض شيعة السلطان باديس على منصور بن سليمان وابنه عليّ وقادوهم مصفّدين إلى سدّته ، وأحضرهم ووبّخهم ، وجنبوا إلى مصارعهم ، فقتلوا قعصاً بالرماح آخر شعبان من سنته . وجمع الأبناء والقرابة المرشّحين من ولد أبيه ، وأشخصهم إلى رندة من ثغورهم بالأندلس ، ووكّل بهم من يحرسهم ، ونزع محمد ابن أخيه أبو عبد الرحمن منهم إلى غرناطة . ثم لحق منها بالطاغية ، واستقرّ لديه حتى كان من تملّكه المغرب ما نقصّه إن شاء الله تعالى . وهلك الباقون غرقاً بالبحر بإيعاز السلطان بذلك بعد مدّة من سلطانه ، أركبهم السفن إلى المشرق ، ثم غرّقهم . وخلص الملك من الخوارج والمنازعين ، واستوسق له الأمر ، والله غالب على أمره . واحتفل السلطان في كرامة مولانا السلطان أبي العبّاس ، وأشاد ببره وأوعز باتخاذ دار عامر بن فتح الله وزير أبيه لنزله ، ومهّد له المجلس لضيق أريكته ، ووعده بالمظاهرة على ملكه إلى أن بعثه من تلمسان عند استيلائه عليها ، كما نذكره إن شاء الله تعالى .

* (الخبر عن خلع ابن الأحمر صاحب غرناطة ومقتل رضوان ومقدمه على السلطان) *

لما هلك السلطان أبو الحجّاج سنة خمس وخمسين وسبعمائة ونَصّبَ ابنه محمد للأمر ، واستبدّ عليه رضوان مولى أبيه ، وكان قد رشّح ابنه الأصغر اسمعيل بما ألقي عليه وعلى أمه من محبته . فلما عدلوا بالأمر عنه حجبوه ببعض قصورهم ، وقد كان له صهر من ابن عمّه محمد بن اسمعيل ابن الرئيس أبي سعيد في شقيقته فكان يدعوه سرًّا إلى القيام بأمره متى أمكنته فرصة في الدولة ، فخرج السلطان إلى بعض منتزهاته برياضه ، فصعد سور الحمراء ليلة سبع وعشرين من رمضان من سنة ستين وسبعمائة في بعض أوشاب ، جمعهم من الطّغَام لثورته . وعمد إلى دار الحاجب رضوان فاقتحم عليه الدار وقتله بين حرمه وبناته ، وقربوا إلى اسمعيل فرسه فركب فأدخلوه القصر وأعلنوا بيعته ، وقرعوا طبولهم بسور الحمراء ، وفرّ السلطان من مكانه بمنتزهه إلى وادي آش بعد مقتل حاجبه رضوان ، واتصل الخبر بالسلطان المولى أبي سالم ، فامتعض لمهلك رضوان ، وخلع السلطان رعياً لِمَا سلف له في جوارهم ، وأزعج

لحينه أبا القاسم الشريف من أهل مجلسه لاستقلاله ، فوصل إلى الأندلس وعقد مع أهل الدولة على إجازة المخلوع من وادي آش إلى المغرب ، وأطلق اعتقالهم الوزير الكاتب أبا عبدالله بن الخطيب ، كانوا اعتقلوه لأوّل أمرهم لما كان رديفاً للحاجب رضوان وركناً لدولة المخلوع . فأوصى المولى أبو سالم إليهم بإطلاقه ، فأطلقوه . ولحق الرسول أبو القاسم الشريف بسلطانه المخلوع بوادي آش للإجازة إلى المغرب ، وأجاز لذي القعدة من سنته . وقدم على السلطان بفاس وأجلّ قدومه ، وركب للقائه ، ودخل به إلى مجلس ملكه وقد احتفل ترتيبه[1] ، وغصّ بالمشيخة والعلية . ووقف وزيره ابن الخطيب فأنشد السلطان قصيدته الرائقة يستصرخه لسلطانه ، ويستحثّه لمظاهرته على أمره . واستعطف واسترحم بما أبكى الناس شفقة له ورحمة ، ونصّ القصيدة :

سلاَ هــل لـديها مِن مُـخبّرةٍ ذِكْرُ ... وَهَلْ أَعْشَبَ الوادي ونمَّ به الزَهْرُ
وهل باكر الوَسمِيُّ داراً على اللوى ... عَفَتْ آيَهَـا إلاّ التَوَهُّمُ والــذِكْرُ
بلادي التي عاطَيْتُ مَشْمُولَةَ الهوى ... بأَكْنَافِهَا والعيشُ فَيْنَانُ مُخْضَرُّ
وَجَوِّي الذي ربّى جَنَاحي وكُرُهُ ... فهَـا أَنَاذا مـالي جَنَاحٌ ولا وكْرُ
نَبَتْ بي لا عن جَفْـوَةٍ وقِلاَلَـةٍ ... ولا نَسَخَ الوصلَ الهنِيِّ لها هَجْرُ
ولكنّهـا الـدنيـا قليـلٌ مَتَـاعُهـا ... ولَــذَّاتُهـا دأْبـاً تَزُورُ وتَزْوَرُّ
فَمَنْ لي بنَيْل القُرْبِ مِنْهَا ودوننا ... مَدىً طَالَ حتّى يَوْمُهُ عِنْدَنَا شَهْرُ
ولله عَيْنَـا مِنْ رآنـا وللأسى ... ضِرَامٌ لـه في كُلِّ جانِحَـةٍ جَمْرُ
وقـد بَدَّدَتْ دُرَّ الدموع يـدُ النَوَى ... وَلِلْبَيْنِ أَشْجَانٌ يَضِيقُ لها الصَدْرُ
بَكينـا على النَهْرِ السرورَ عَشِيّـةً ... فعَادَ أُجاجاً بَعْدَنا ذَلِكَ النَهْرُ
أقولُ لأظْعَـاني وَقَـدْ غَـالها السُرى ... وآنَسَهـا الحادي وأَوْحَشَهـا الزَجْرُ
رُوَيْـدُكَ بَعْـدَ العُسْرِ يُسْرٌ فـأَبْشِري ... بِـإنْجَـاز وَعْـدِ الله قَدْ ذَهَبَ العُسْرُ
وإنْ تَجْبُنِ الأيامُ لم تَجْبُنِ النُهَى ... وإنْ يُخْذَلُ الأقْوامُ لم يُخْذَلِ الصَبْرُ
وإنْ عَرَكَتْ منّي الخطوبُ مُجَرّباً ... نقـابـا تسوّى عنـده الحُلو والمرُّ[2]

---

(١) وفي نسخة ثانية : بزينته .

(٢) وفي نسخة ثانية : نفاقاً تساوي عنده الحلو والمرّ .

فَقَدْ عَجَمْتَ عوداً صليباً مقوّما(١) ... وعزماً كما تمضي المُهَنَّدةُ البُتْرُ
إذا أَنْتَ بالبَيْضاء قَدْ زُرْتَ مَنْزِلي ... فلا اللّحْمُ حِلٌّ ما جنيت(٢) ولا الظهْرُ
زَجَرْنا بإبراهيمَ مَلء(٣) هومنا ... فلمّا رَأَيْنا وَجْهَهُ صَدَقَ الزَجْرُ
بمنتخبٍ من آل يعقوبَ كلّما ... دجا الخَطْبُ لم يكذب لِعَزْمَتِه فَخْرُ
تَناقَلَتِ الرُكْبانُ طيبَ حَديثِهِ ... فلمّا رَأَتْهُ صَدّقَ الخَبَرَ الخُبْرُ
نَدى لَوْ حَوَاه البَحْرُ لَذَّ مَذاقُهُ ... وَلَمْ يَتَعَقَّبْ مَدَّهُ أبداً جَزْرُ
وَبَأْسٌ غَدا يرتاعُ من خوفِهِ الرَدى ... وتَرْفُلُ في أذيالِهِ الفِتْيَةُ(٤) البِكْرُ
أطاعَتْهُ حتى العُصْمُ في قِنَنِ الرُبا ... وهَشّتْ إلى تَأْميلِهِ الأَنْجمُ الزُّهْرُ
قَصَدْناكَ يا مولى الملوكِ على النوى ... لِتُنْصِفَنا ممّا جنى عَبْدُكَ الدَهْرُ
كَفَفْنا بكَ الأيامَ عن غُلَوائِها ... وَقَدْ رابَنا مِنْها التَعَسُّفُ والكِبْرُ
وَعُذْنا بذاكَ المَجْدِ فانصرفَ الردى ... وَلُذْنا بذاكَ العِزّ فانهزمَ الشرُّ
ولما أَتَيْنا البحرَ نَرْهَبُ مَوْجَهُ ... ذَكَرْنا بذاكَ العزّ الغَمرِ فاحتُقِرَ البَحرُ(٥)
خِلافَتُكَ العُظْمى وَمَنْ لَمْ يَدِنْ بها ... فإيمانُهُ لَغْوٌ وعِرْفانُهُ نُكْرُ
وَوَصْفُكَ يُهْدي المَدْحَ قَصْدَ صَوابه ... إذا ضلّ في أوصافِ مِنْ دُونِكَ الشِعْرُ
دَعَتْكَ قلوبُ المسلمينَ وأَخلَصَتْ ... وَقَدْ طابَ مِنْها السرُّ لله والجَهْرُ
وَمُدَّتْ إلى اللهِ الأكُفُّ ضَراعَةً ... فقالَ لَهُنَّ اللهُ قَدْ قُضِيَ الأمْرُ
وأَلْبَسَها النُعْمى بِبَيْعَتِكَ التي ... لها الطائِرُ الميمونُ والمُحْتِدُ الحُرُّ
فَأَصْبَحَ ثَغْرُ الثغرِ يَبْسِمُ ضاحِكاً ... وقد كان ممّا نابَهُ ليس يَفْتَرُّ
وأَمّنْتَ بالسّلمِ البلادَ وأَهْلَها ... فلا ضَيْمَةٌ تعدو ولا روعةٌ تَعْرو
وقد كان مولانا أبوكَ مُصَرِّحاً ... بأنّكَ في أولادِهِ الوَلَدُ البَرُّ
وقد كنتَ حقاً بالخلافةِ بَعْدَه(٦) ... على الفَوْرِ لكن كلُّ شيءٍ له قَدْرُ

---

(١) وفي نسخة ثانية : فقد عجمت عدداً صلّيباً على النوى .
(٢) وفي نسخة ثانية : ما حييت .
(٣) وفي نسخة ثانية : بُرْءَ .
(٤) وفي نسخة ثانية : البتكة .
(٥) وفي نسخة ثانية : ولما اتينا البحر يرهب موجه ... ذكرنا بذاك الغمر ماحتقر البحر
(٦) وفي نسخة ثانية : وكنت حقيقاً بالخلافة بعده .

فأوحشتَ من دار الخلافة أهلَها(١) أقامتْ زماناً لا يلوح بها البدرُ
وردَّ عليكَ اللهُ حقَّكَ إذْ قضى بأنْ تشمُلَ النُّعمى وينسدِلُ السِّترُ
وقادَ إليك المُلْكَ رِفقاً بخلْقِهِ وقد عدِموا رُكْنَ الأمانةِ واضطُرُّوا
وزادَك بالتمحيص عزًّا ورفعةً وأجْراً ولولا السبْكُ ما عُرِفَ التِّبرُ
وأنت الذي تُدْعى إذا دَهَم الرَّدَى وأنتَ الذي تُرْجَى إذا أخلفَ القَطْرُ
وأنتَ إذا جارَ الزمانُ بحكْمِهِ لكَ النَّقْضُ والإبْرامُ والنَّهْيُ والأَمْرُ
وهذا ابنُ نَصْرٍ قد أَتَى وجَناحُهُ كسيرٌ ومِنْ عُلْيَاكَ يلتمسُ النصْرُ
غريبٌ يُرَجّي مِنْكَ ما أنتَ أهْلُه فإن كُنْتَ تبغي الفَخْرَ قد جاءَكَ الفَخْرُ
فَعُدْ يا أميرَ المؤمنين(٢) لبيعةٍ مُوثَّقَةٍ قد حلّ عُقْدَتَها الغَدْرُ
ومِثْلُكَ مَنْ يرعى الدخيلَ ومَنْ دَعَا بآل مَرِين جاءَه العِزُّ والنَصْرُ
وخُذْ يا إمامَ الحقِّ للحَقِّ ثأْرَهُ ففي ضِمْنِ ما تأتي به العِزّ والأَجْرُ
وأنتَ لها يا ناصِرَ الحَقِّ فلْتَقُمْ بحقٍ فما زَيْدٌ يُرجى ولا عَمْرو
فإنْ قيلَ مالٌ مالُكَ الدثْرُ وافِرٌ وإنْ قيلَ جيشٌ عِنْدَكَ العَسْكَرُ الجرّ(٣)
يَكُفُّ بكَ العادي ويَحْيَا بكَ الهُدَى ويَبْني بكَ الإسلامُ ما هَدَمَ الكُفْرُ
أعِدْهُ إلى أوطانه عَنْكَ ثانياً وقلِّدْهُ نُعْمَاكَ التي مالها حَصْرُ
وعاجِلْ قلوبَ الناسِ فيه بجَبْرِهَا فَقَدْ صدَّهُم عنه التَغلُّبُ والقَهْرُ
وهم يرقبونَ الفِعْلَ مِنْكَ وصَفْقَةً تحاولها يُمْنَاكَ ما بَعْدَها خُسْرُ
مَرَامُكَ سَهْلٌ لا يؤُدُكَ كَفْلُه سوى أنّه عَرَضٌ له في العُلى خطرُ(٤)
وما العمر إلا زينةٌ مُسْتَعَارَةٌ تَرُدُّ ولكنَّ الثناءَ هُوَ العُمْرُ
ومَنْ باعَ ما يفنى بباقٍ مُخَلَّدٍ فقد أُنْجِحَ المَسْعَى وقد رُبِحَ التَجْرُ
ومِنْ دونِ ما تبقيه يا مالكَ العلى جيادُ المذاكي والمحجَّلةُ الغُرُّ
ورادٌ وشقرٌ واضحاتٌ شِياتُها فأجْسَامُها تِبْرٌ وأرجُلُها دُرُّ
وشُهْبٌ إذا ما ضُمِّرتْ يومَ غارة مُطَّهَمَةٍ غارَتْ بها الأنجُمُ الزُهْرُ

(١) وفي نسخة ثانية : هالة .
(٢) وفي نسخة ثانية : المسلمين .
(٣) وفي نسخة ثانية : المجر .
(٤) وفي نسخة ثانية : سوى عرض ما ان له في العلى خطر .

وأسدٌ رجـــالٌ من مَرينَ أعِزّةٌ   عَمَائِمُها بيضٌ وآمـالُهَا سُمْرُ
عليهم من الماذِيّ كـلُّ مفـاضَةٍ   تُدافِعُ في أعْطافِها اللُّجَجُ الخُضْرُ
همُ القَوْمُ إن هبّوا لكشفِ مُمِلّـةٍ   فلا المُلْتَقى صَعْبٌ ولا المُرْتَقى وَعْرُ
اذا سُئِلوا أعْطوا ، وإن نُوزِعوا سَطوا   وإن وعدوا أوْفوا وإن عاهدوا بَرُّوا
وإن سمعوا العواءَ وافوا بـأنْفُسٍ   كِرَامٌ على هاماتِها في الورى البرُّ[1]
وإن مُدِحوا هزّوا ارتياحاً كأنّهُمْ   نَشاوى تَمشَّتْ في معاطفهم خمْرُ
وَتَبْسِمُ مـا بينَ الوشيجِ ثغورهم   وما بينَ قُضْبِ الدَّوْحِ يبتسم الزهر
أمولاي غـاضَتْ فكْرَتي وتبـدّلت   طباعي ، فلا طبعٌ يقيني[2] ولا فِكْرُ
ولـولا حنـانٌ مِنْكَ داركْتَني بـه   وأَحْيَيْتَني لم يَبْقَ عينٌ ولا أَثَرُ
فـأوْجَدْتَ مني فـائتـاً أي فـائتٍ   وأنشرْتَ ميتـاً ضمَّ أشلاءَهُ قَبْرُ
بـدأتَ بفضل لم أكُن لِعظَمِـهِ   بأهلٍ فحلّ اللّطْفُ وانشرَحَ الصَدْرُ
وطوّقتني النُعْمَى المضعّفـة[3] التي   يَقِلُّ عليهـا مِنّي الحَمْـدُ والشُكْرُ
وأنتَ بِتَتْمِيم الصنائِع كـافِلٌ   إلى أنْ يعودَ العزُّ والجاهُ والوفْرُ
جزاكَ الـذي أسنى مقـامَكَ رحمةً   تَفُكُّ بهَا العاني ويُنْفَس[4] مُضْطَرُّ
إذا نحنُ أثنينـا عليكَ بمَـدْحَـةٍ   فهيْهاتَ يُحصَى الرملُ أو يُحصَرُ القَطْرُ
ولكنّنـا نـأتي بما نستطيعُـه   ومَنْ بَذَلَ المجهودَ حَقّ له العُذْرُ

ثم انقضى المجلس وانصرف ابن الأحمر إلى نزله ، وقد فرشت له القصور وقرّبت له الجياد بالمراكب المذهبّة ، وبعث إليه بالكسا الفاخرة ، ورتّب الجرايات له ولمواليه من المعلوجي وبطانته من الصنائع ، وانحفظ عليه رسم سلطانه في الركب والرجل ، ولم يفقد من ألقاب ملكه إلا الأداة أدباً مع السلطان ، واستقرّ في حملته إلى أن كان من لحاقه بالأندلس ، وارتجاع ملكه سنة ثلاث وستين وسبعمائة ما نذكره إن شاء الله تعالى .

---

(١) وفي نسخة ثانية : وان سمعوا العوراء فروا بانفس   حرام على هماتها في الوغي الفرّ
(٢) وفي نسخة ثانية : يعين .
(٣) وفي نسخة ثانية : المضاعفة .
(٤) وفي نسخة ثانية : وينعش .

* (الخبر عن انتقاض الحسن بن عمر وخروجه بتادلا وتغلب السلطان عليه ومهلكه) *

لما فصل الوزير الحسن بن عمر إلى مراكش واستقرّ بها ، تأثّل له بها سلطان ورياسة ، نفسها أهل مجلس السلطان[1] وسعوا في تنكّر السلطان له ، حتى أظلم الجوّ بينهما ، وشعر الوزير بذلك فارتاب بمكانه ، وخشي بادرة السلطان على نفسه ، وخرج من مراكش في شهر صفر من سنة إحدى وستين وسبعمائة فلحق بتادِلاّ منحرفاً عن الطاعة ، مرتبكاً أمره ، وتلقاه بنو جابر من جشم ، واعصوصبوا عليه وأجاروه . وجهّز السلطان عساكره إلى حربه ، وعقد عليها لوزيره الحسن بن يوسف وسرّحه إليه فاحتل بتادلا ، ولحق الحسن بن عمر بالجبل ، واعتصم به مع الحسين بن علي الورديغي كبيرهم . وأحاطت بهم العساكر وأخذوا بمخنقهم ، وداخل الوزير بعض أهل الجبل من صناكة في الثورة بهم ، وسرّب إليهم المال فثاروا بهم ، وانفض جمعهم ، وتقبّض على الحسن بن عمر ، وقاده برمّته إلى عسكر السلطان فاعتقله الوزير ، وانكفأ راجعاً إلى الحضرة . وقدم بها على السلطان في يوم مشهود ، واستركب السلطان فيه العسكر وجلس ببرج الذهب مقعده في ساحة البلد لاعتراض عساكره . وحمل السلطان الحسن بن عمر على جمل طيف به بين أهل ذلك المحشر ، وقرّب إلى مجلس السلطان فأَوْمَأَ إلى تقبيل الأرض فوق جمله ، وركب السلطان إلى قصره ، وانفضّ الجمع وقد شهروا وصاروا عبرة من عبر الدنيا . ودخل السلطان قصره فاقتعد أريكته واستدعى خاصّته وجلساءه ، وأحضره فوبّخه وقرّر عليه مرتكبه ، فتلوّى بالمعاذير وفزع إلى الإنكار. وحضرتُ هذا المجلس يومئذ فيمن حضره من العليّة والخاصّة ، فكان مقاماً تسيل فيه العيون رحمة وعبرة . ثم أمر به السلطان فسحب على وجهه ، ونتفت لحيته وضرب بالعصي ، وتلّ إلى محبسه ، وقتل لليال من اعتقاله قعصاً بالرماح بساحة البلد ، ونصب شلوه بسور البلد عن باب المحروق ، وأصبح مثلاً في الآخرين .

---

(١) وفي نسخة ثانية : نفسها عليه الوزراء بمجلس السلطان .

* (الخبر عن وفد السودان وهديتهم وأغرابهم فيها بالزرافة) *

كان السلطان أبو الحسن لما أهدى إلى ملك السودان منسا سليمان بن منسا موسى هدّيته المذكورة في خبره ، اعتمل في مكافأته وجمع لمهادات من طرف أرضه وغرائب بلاده ، وهلك السلطان أبو الحسن خلال ذلك ، ووصلت الهديّة إلى أقصى ثغورهم من الأرس[1] . وهلك منسا سليمان قبل وصولها . واختلف أهل مالي وافترق أمرهم[2] . وتواثب ملوكهم على الأمر وقتل بعضهم بعضاً ، وشغلوا بالفتنة حتى قام فيهم منسا زاطة[3] واستوسق له أمرهم ونظر في أعطاف ملكه ، وأخبر بشأن الهديّة وأخبر أنّها بوالاتن فأمر بإنفاذها إلى ملك المغرب ، وضمّ إليها حيوان الزرافة الغريب الشكل ، العظيم الهيكل ، المختلف الشبه بالحيوانات . وفصلوا بها من بلادهم فوصلوا إلى فاس في صفر من سنة إثنتين وستين وسبعمائة وكان يوم وفادتهم يوماً مشهوداً جلس لهم السلطان ببرج الذهب بمجلس العرض . ونودي في الناس بالبروز إلى الصحراء ، فبرزوا ينسلون من كل حدب حتى غصّ بهم الفضاء وركب بعضهم بعضا في الإزدحام على الزرافة إعجابا بخلقتها وأنشد الشعراء في معرض المدح والتهنئة ، ووصف الحال . وحضر الوفد بين يدي السلطان وأدّوا رسالتهم بتأكيد الودّ والمخالصة ، والعذر عن إبطاء الهدّية بما كان من اختلاف أهل مالي وتواثبهم على الأمر ، وتعظيم سلطانهم وما صار إليه . والترجمان يترجم عنهم وهم يصدّقونه بالنزع في أوتار قسيّهم عادةً معروفة لهم . وحيّوا السلطان يحثون التراب على رؤوسهم على سُنّة ملوك العجم . ثم ركب السلطان وانفضّ ذلك الجمع وقد طار به الذكر . واستقرّ ذلك الوفد في إيالة السلطان وتحت جرايته ، وهلك السلطان قبل انصرافهم ، فوصلهم القائم بالأمر من بعده ، وانصرفوا إلى مراكش وأجازوا منها إلى ذوي حسّان عرب المَعْقِل من السوس المتّصلين ببلادهم . ولحقوا من هنالك بسلطانهم ، والأمر لله وحده .

(١) وفي نسخة ثانية : إلى أقصى تخومهم من والاتن .
(٢) وفي نسخة ثانية : ملكهم .
(٣) وفي نسخة ثانية : منساجاطه .

الخبر عن حركة السلطان الى تلمسان واستيلائه عليها وايثار أبي زيان حافد أبي تاشفين بملكها وما كان من ذلك من صرف أمراء الموحدين إلى بلادهم

لما استقلّ السلطان بملك المغرب سنة ستين وسبعمائة كما ذكرناه ، وكان العامل على درعة عبدالله بن مسلم الزردالي من أخلاف بني عبد الواد وشيعة أبي زيان[1] ، اصطنعه السلطان أبو الحسن عند تغلّبه على تلمسان . واستعمله أبو عنان بعد ذلك على بلاد دَرَعَة كما ذكرناه . وتأتى له[2] المكر بأبي الفضل ابن السلطان أبي الحسن حين خروجه على أخيه السلطان أبي عنان بجبل ابن حميدي ، فارتاب عند استقلال المولى أبي سالم بالأمر . وخشي بادرته لما رآه من حقده عليه بسبب أخيه أبي الفضل ، لِمَا كان بينهما من لحمة الاغتراب ، فداخل بطانة له من عرب المعقل ، واحتمل ذخائره وأمواله وأهله وقطع القفر إلى تلمسان ، ولحق بالسلطان أبي حمّو آخر سنة ستين وسبعمائة فنزل منه خير نزل ، وعقد له حين وصوله على وزارته ، وباهى به وبمكانه ، وفوّض إليه في التدبير والحلّ والعقد ، فشمر عن ساعده في الخدمة ، وجأجأ بعرب المعقل من مواطنهم رغبة في ولايته وايثاراً لمكانته من الدولة ، ورهبة من سلطان المغرب لما كانوا ارتكبوه من موافقة بني مرين مرّة بعد أخرى ، فاستقرّوا بتلسمان وانحاشوا جميعاً إلى بني عبد الواد ، وبعث السلطان أبو سالم إلى أبي حمّو في شأن عاملهم عبدالله بن مسلم ، فلم يرجع له جواباً عنه ، وحضر عليه ولاية المعقل أهل وطنه ، فلجّ في شأنهم فأجمع السلطان أمره على النهوض إليهم . واضطرب معسكره بساحة البلد وفتح ديوان العطاء ونادى في الناس بالنفير إلى تلمسان . وأزاح العلل .

وبعث الحاشدين من وزرائه إلى مراكش فتوافت حشود الجهات ببابه ، وفصل من فاس في جمادى من سنة إحدى وستين وسبعمائة وجمع أبو حمّو مَن في إيالته وعلى التشييع لدولته من زناتة والعرب من بني عامر والمعقل كافة ، ما عدا العمارنة ، كان

---

(١) وفي نسخة ثانية : آل زيّان .

(٢) وفي نسخة ثانية : وتولى .

أميرهم الزُبَيْر بن طلحة متحيّزاً إلى السلطان . وأجفلوا عن تلمسان وخرجوا إلى الصحراء . ودخل السلطان إلى تلمسان ثالث رجب ، وخالفه أبو حمّو وأشياعه إلى المغرب ، فنزلوا كرسيف بلد ونزمار بن عريف ، وخرّبوه واكتسحوا ما وجدوا فيه حقداً على ونزمار وقومه بولاية بني مرين . وتخطوا إلى وطاط ، فعاثوا في نواحيه ، وانقلبوا إلى أنكاد ، وبلغ السلطان خبرهم فتلافى أمر المغرب . وعقد على تلمسان لحافدٍ من حفدة السلطان أبي تاشفين ، كان ربّي في حجرهم وتحت كفالة نعمتهم ، وهو أبو زيّان محمد بن عثمان ، وشهرته بالفتى ، وأنزله بالقصر القديم من تلمسان وعسكر عليه زناتة الشرق كلّهم ، واستوزر له ابن عمّه عمر بن محمد بن ابراهيم بن مكي[1] ومن أبناء وزرائهم سعيد بن موسى بن علي ، وأعطاه عشرة أحمال من المال دنانير ودراهم ، ودفع إليه الآلة . وذكر حينئذ لمولانا السلطان أبي العبّاس سوابقه وإيلافه في المنزل الخشن ، فنزل له عن محل إمارته قُسَنْطِينَة . وصرف أيضاً المولى أبا عبدالله صاحب بجاية لاسترجاع بلده بجاية ، فعقد لهما بذلك وحملها . وخلع عليهما وأعطاهما حملين من المال .

وكانت بجاية لذلك العهد قد تغلّب عليها عمّهم المولى أبو اسحق ابراهيم صاحب تونس ، فكتب إلى عاملهم على قُسَنْطِينَة منصور بن الحاج خلوف أن ينزل عن بلدة مولانا السلطان أبي العبّاس أحمد ، ويمكّنه منها ، وودّع هؤلاء الأمراء وانكفأ راجعاً إلى حضرته لسدّ ثغور المغرب ، وحسم داء العدوّ ، فدخل فاس في شعبان من سنته . ولم يلبث أن رجع أبو زيّان على أثره بعد أن أجفل عن تلمسان ولحق بوانشريش . وتغلّب عليه أبو حمّو وفضّ جموعه ، فلحق بالسلطان واستقلّ أبو حمّو بملك تلمسان ، وبعث في السلم إلى السلطان فعقد له من ذلك ما رضيه كما ذكرناه .

الخبر عن مهلك السلطان أبي سالم واستيلاء عمر بن عبدالله على ملك المغرب ونصبه للملوك واحدا بعد واحد إلى أن هلك

كان السلطان قد غلب على هواه الخطيب أبو عبدالله بن مرزوق وكان من خبره أ

(١) وفي نسخة : بن مكن .

سلفه من أهل رباط الشيخ أبي مَدْيَن كان جدّه قيِّماً على خدمة قبره ومسجده واتصل القيام على هذا الرباط في عقبه ، وكان جدّه الثالث محمد معروفاً بالولاية ، ولما مات دفنه يغمراسن بالقصر القديم ليجاوره بـجدثه تبرّكاً به ، وكان ابنه أحمد أبو محمد هذا قد ارتحل إلى المشرق ، وجاور الحرمين إلى أن هلك وربّى ابنه محمد بالمشرق ما بين الحجاز ومصر . وقفل إلى المغرب بعد أن أسرّ أشياء[1] في الطلب وتفقّه على أولاد الإمام ، ولما ابتنى السلطان أبو الحسن مسجد العباد ولاّه الخطابة به ، وسمعه يخطب على المنبر وقد أحسن في ذكره والدعاء له ، فحلا بعينه واستخلصه لنفسه وأحله محل القرب من نفسه[2] ، وجعله خطيباً حيث يصلي من مساجد المغرب ، وسفر عنه إلى الملوك ، ولمّا كانت نكبة القيروان خلص إلى المغرب واستقرّ برباط العباد بـجبل سلفه ، بعد أحوال أضربنا عن ذكرها اختصاراً .

ولما خلص السلطان إلى الجزائر داخله أبو سعيد صاحب تلمسان في السفارة عنه إلى السلطان أبي الحسن وصلاح ما بينهما فسار لذلك ونقمه أبو ثابت وبنو عبد الواد ونكروه على سلطانهم . وسرّحوا صغير بن عامر في اتباعه ، فتقبّض عليه وأودعوه المطبق . ثم اشخصوه بعد حين إلى الأندلس فاتصل بأبي الحجّاج صاحب غرناطة . وولاّه خطابته لما اشتهر به من إجادة الخطبة للملوك بزعمهم . وألف السلطان أبا سالم في مثوى اغترابهما من غرناطة ، وشاركه عند أبي الحجّاج في مهمّاته . ولما نزل بـجبال غمارة داخل بني مرين والوزراء في القيام بدعوته . وكان له في ذلك مقام محمود . فرعى السلطان وسائله وبوآته[3] القديمة والحادثة إلى مقامه عند أبيه ، فلما استوسق له ملك المغرب استخصّه بولايته وألقى عليه محبّته وعنايته ، وكان مؤامره ونجيّ خلوته والغالب على هواه ، فانصرفت إليه الوجوه وخضعت له الرقاب ووطىء عقبه[4] الأشراف والوزراء ، وعطف على بابه القوّاد والأمراء وصار زمام الدولة بيده . وكان يتجافى عن ذلك أكثر أوقاته حذراً من سوء المغبّة ، ويزجر من يتعرّض

(١) وفي نسخة أخرى : بعدان شدا شيئاً .
(٢) وفي نسخة أخرى : من مجلسه .
(٣) وفي نسخة ثانية : ووالاته .
(٤) وفي نسخة ثانية : عتبته .

له في الشكاية ويردهم إلى أصحاب المراتب والخطط بباب السلطان ، وهم يعلمون أنه قد ضرب على أيديهم ، فنقموا ذلك وسخطوا الدولة من أجله . ومرضت قلوب أهل الحل والعقد من تقدّمه : ونَفَسَ عليه الوزراء ما ثبت له عند السلطان من الحظ ، فتربّصوا بالدولة ، وشمل هذا الداء الخاصّة والعامة . وكان عمر بن عبدالله ابن علي لما هلك أبوه الوزير عبدالله بن علي في جمادى سنة ستين وسبعمائة عند استيلاء السلطان على ملكه ، تحلّبت شفاه أهل الدولة على تراثه . وكان مثرياً فاستجار منهم بابن مرزوق ، وساهمه في تراث أبيه بعد أن حملوا السلطان على النيل منه ، والإهانة له ، فأجاره منهم . ورفع عند السلطان رتبته وحمله على الإصهار إليه في أخته ، وقلّده السلطان أمانة البلد الجديد دار ملكه متى عنت له الرحلة عنها . وأصهر عمر إلى وزير الدولة مسعود بن ماسي تسكيناً لروعته[1] واستخلاصا لمودّته ، وسفر عن السلطان إلى صاحب تلمسان في شعبان من سنة إثنين وستين وسبعمائة ونمي عنه أنه داخل صاحب تلمسان في بعض المكر فهمّ بنكبته وقتله ، ودافع عنه ابن مرزوق وخلص من عقابه ، وطوى على البثّ وتربّص بالدولة . وأعيد إلى مكانه من الأمانة على دار الملك أوّل ذي القعدة مرجعه من تلمسان لما كان السلطان قد تحوّل عنها إلى القصبة بفاس ، واختطّ إيواناً فخماً لجلوسه بها ، لضيق قصوره بها[2] . فلما استولى عمر على دار الملك حدّثته نفسه بالتوثّب وسوّل له ذلك ما اطلع عليه من مرض القلوب والنكير على الدولة ، لمكان ابن مرزوق من السلطان فداخل قائد الجند غريسة ابن انطول[3] وتعدوا لذلك ليلة الثلاثاء السابع عشر من ذي القعدة سنة إثنين وستين وسبعمائة وخلصوا إلى تاشفين الموسوس ابن السلطان أبي الحسن بمكانه من البلد الجديد ، فخلعوا عليه وألبسوه شارة الملك ، وقرّبوا له مركبه وأخرجوه إلى أريكة السلطان فأقعدوه عليها . وأكرهوا شيخ الحامية والناشبة محمد بن الزرقاء على البيعة له ، وجاهروا بالخلعان وقرعوا الطبول ودخلوا إلى مودع المال ، ففرضوا العطاء من غير تقدير ولا حسبان ، وماج أهل البلد الجديد من الجند بعضهم في بعض ،

---

(١) وفي نسخة ثانية : لغربه .
(٢) وفي النسخة الجزائرية كلمتان زائدتان (متغنياً الابردين) وفي نسخة أخرى : لصق قصوره . وفي النسخة الباريسية الكلمتان غير واضحتين وهما محرفتان .
(٣) وفي نسخة ثانية : انطون .

واختطفوا ما وصلوا إليه من العطاء ، وانتهبوا ما كان بالمخازن الخارجية من السلع والعدّة . وأضرموا النار في بيوتها ستراً على ما ضاع منها ، وأصبح السلطان بمكانه من القصبة ، فركب واجتمع إليه من حضر من الأولياء والقبائل ، وغدا على البلد الجديد وطاف بها يروم منها منفذاً ، فاستعصب واضطرب معسكره بكدية العرائس لحصارها ، ونادى في الناس بالاجتماع إليه . ونزل عند قائلة الهاجرة بفسطاطة ، فتسايل الناس عنه إلى البلد الجديد فوجاً بعد فوج بمرأى منه إلى أن سار إليها أهل مجلسه وخاصته ، فطلب النجاة بنفسه وركب في لمّة من الفرسان مع وزرائه : مسعود بن رحّو وسليمان بن داود ومقدّم الموالي والجند ببابه سليمان بن نصار[1] ، وأذن لابن مرزوق في الدخول إلى داره ، ومضى على وجهه . ولما غشيهم الليل انفضّوا عنه ، ورجع الوزير إلى دار الملك فتقبّض عليهما عمر بن عبدالله ومساهمه غريسة بن أنطول واعتقلاهما متفرقين ، وأشخص علي بن مهدي بن يرزيجن في طلب السلطان ، فعثر عليه نائماً في بعض المحاشر[2] بوادي ورغة ، وقد نزع عنه لباسه اختفاء بشخصه ، وتوارى على العيون بمكانه ، فتقبّض عليه وحمله على بغل ، وطيّر الخبر إلى عمر بن عبدالله فأزعج لتلقيه شعيب بن ميمون بن وردار[3] ، وفتح الله بن عامر ابن فتح الله . وأمرهما بقتله وإنفاذ رأسه ، فلقياه بخندق القصب إزاء كدية العرائس ، فأمر بعض جنود النصارى أن يتولى ذبحه وحمل رأسه في مخلاة ، فوضعه بين يدي الوزير والمشيخة . واستقلّ عمر بالأمر ونصب الموسوس تاشفين يموه به على الناس ، وذوات الأمور إلى غاياتها ولكل أجل كتاب .

الخبر عن الفتك بابن أنطول قائد العسكر من النصارى ثم خروج يحيى بن رحو وبني مرين عن الطاعة

لما تقبّض عمر بن عبدالله على الوزير ، كان معتقل سليمان بن داود بدار غريسة قائد

---

(١) وفي نسخة ثانية : سليمان بن ونصار.

(٢) وفي نسخة ثانية : المحاشر : «قال الاصمعي : بنو فلان جشر إذا كانوا يبيتون مكانهم لا يأوون إلى بيوتهم . وابل جشر : تذهب حيث شاءت وكذلك الحمر . واصبحوا جشراً إذا كانوا يبيتون وكأنهم لا يرجعون إلى أهليهم» وكلمة محاشر عامية بمعنى المراعي ، مأخوذة من معنى جشر (لسان العرب) .

(٣) وفي نسخة ثانية : بن داود .

النصارى . ومعتقل ابن ماسي بداره ضناً به عن الامتهان لمكان صهره . ولما كان يؤمّل منه من الاستظهار على أمره بعصابته من الأبناء والأخوة والقرابة . وكان غريسة بن أنطول صديقاً لسليمان بن ونصار . فلما رجع عن السلطان ليلة انفضاضهم . نزل عليه وكان يعاقره الخمر . فأتاه سحراً وتفاوضا في اعتقال عمرو[1] وإقامة معتقله سليمان بن داود في الوزارة لما هو عليه من السنّ ورسوخ القدم في الأمر . ونمي إلى عمر الخبر . فارتاب وكان خلواً من العصابة ففزع إلى قائد المركب السلطاني من الرجل الأندلسيّين يومئذ ابراهيم البطروجي[2] . فباثّه أمره وبايعه على الاستماتة دونه . ثم استقل عصابتهم ففزع إلى يحيى بن رحّو شيخ بني مرين وصاحب شوراهم فشكا إليه . فأشكاه ووعده الفتك بابن أنطول وأصحابه . وانبرم عقد ابن أنطول وسليمان ابن ونصار على شأنهم وغدوا إلى القصر . وداخل ابن أنطول طائفة من النصارى للاستظهار بهم . ولمّا توافت بنو مرين بمجلس السلطان على عادتهم وطعموا . دعا عمر بن عبدالله القائد ابن أنطول بين يدي يحيى بن رحّو وقد أحضر البطروجي رجل الأندلسيّين . فسأله تحويل سليمان بن داود من داره إلى السجن فأبى وضنّ به عن الإهانة حتى سأل مثلها من ابن ماسي صاحبه . فأمر عمر بالتقبّض عليه . فكشّر في وجوه الرجال واخترط سكينه للمدافعة . فتواثبت بنو مرين وقتلوه لحينه . واستلحموا من وجد بالدار من جند النصارى عند دخولهم[3] . وفرّوا إلى معسكرهم ويعرف بالملاح جوار البلد الجديد .

وأرجف الغوغاء بالمدينة أنّ ابن أنطول غدر بالوزير فقتل جند النصارى حيث وجدوا من سكك المدينة . وتزاحفوا إلى الملاح لاستلحام من به من الجند . وركب بنو مرين لحماية جندهم من معرّة الغوغاء . وانتهب يومئذ الكثير من أموالهم وآنيتهم وأمتعتهم . وقتل النصارى كثيراً من المجّان كانوا يعاقرون الخمر بالملاح . واستبدّ عمر بالدار واعتقل سليمان بن ونصار إلى الليل . وبعث من قتله بمحبسه . وحول سليمان بن داود إلى بعض الدور بدار الملك واعتقله بها . واستولى على أمره ورجع في الشورى إلى

---

(١) وفي نسخة ثانية : فباثه شجوه وتفاوض في اغتيال عمر .

(٢) وفي نسخة ثانية : البطروحي .

(٣) وفي نسخة ثانية : بعد جولة .

يحيى بن رحّو ، واعصوصب بنو مرين عليه ، واعتز على الأمراء والدولة ، وكان عدو الخاصة السلطان أبي سالم حريصاً على قتلهم ، وكان عمر يريد استبقاءهم لِمَا أمّله في ابن ماسي ، فخشنت صدورهم عليه ، ودبّروا في شأنه . وخاطب هو عامر بن محمد في اتصال اليد واقتسام ملك المغرب ، وبعث إليه بأبي الفضل ابن السلطان أبي سالم ، اعتدّه عنده وليجة لخلاصه من ربقة الحصار الذي هم به مشيخة بني مرين . وكان أبو الفضل هذا بالقصبة تحت الرقبة والأرصاد ، فتفقّد من مكانه . وأغلظ المشيخة في العتب لعمر في ذلك ، فلم يستعتب ، ونبذ إليهم العهد وامتنع بالبلد الجديد ، ومنعهم من الدخول إليه فاعصوصبوا على كبيرهم يحيى بن رحّو وعسكروا بباب الفتوح ، وجأجؤا[1] بعبد الحليم ابن السلطان أبي علي وكان من خبرهم معه ما نذكره . وأطلق عمر بن عبد الله مسعود بن ماسي من محبسه وسرّحه إلى مراكش ، وأوعده في الاجلاب عليهم إن حاصروه كما نذكره إن شاء الله تعالى .

* (الخبر عن وصول عبد الحليم ابن السلطان من تلمسان وحصار البلد الجديد) *

كان السلطان أبو الحسن لما قتل أخاه السلطان أبا علي وقضى الحق الذي له في ذمته[2] عمل بالحق الذي عليه في ولده وحرمه ، فكفلهم وغذاهم بنعمته ، وساواهم بولده في كافة شؤونهم ، وأنكح ابنته تاحضريت العزيزة عليه علياً منهم المكنّى بأبي سلوس[3] ونزع عنه وهو بالقيروان أيام النكبة ولحق بالعرب . وأجلب معهم على السلطان بالقيروان وتونس . ثم انصرف من أفريقية ولحق بتلمسان ونزل على سلطانها أبي سعيد عثمان بن عبد الرحمن فبوّأه كرامته . ثم شرع في الإجازة إلى الأندلس ، وبعث فيه السلطان أبو عنان قبل فصوله ، فاشخصوه إليه فاعتقله . ثم أحضره ووبّخه على مرتكبه مع السلطان أبي الحسن وجحده حقه . ثم قتله لليلتين من شهور إحدى وخمسين وسبعمائة ، ولما هلك السلطان أبو الحسن ولحقت جملته من

(١) وفي نسخة ثانية : وجاؤوا .
(٢) وفي نسخة ثانية : في دمه .
(٣) وفي نسخة ثانية : بأبي يفلوسن .

الخاصّة والأبناء بالسلطان أبي عنان ، وأشخص إخوته إلى الأندلس ، وأشخص معهم ولد الأمير أبي علي هؤلاء عبد الحليم وعبد المؤمن والمنصور والناصر وسعيد ابن أخيهم أبي زيّان ، فاستقرّوا بالأندلس في جوار ابن الأحمر . ثم طلب أبو عنان إشخاصهم بعد ، كما طلب إشخاص أخيه ، فأجارهم ابن الأحمر جميعاً وامتنع من إسلامهم إليه . وكان من المغاضبة لذلك ما قدّمناه .

ولما اعتقل السلطان أبو سالم الأبناء المرشّحين برندة ، كما قدّمناه ، نزع منهم عبد الرحمن بن علي بن أبي يفلوسن إلى غرناطة فلحق بأعماله . وكان السلطان أبو سالم بمكانهم مستريباً بشأنهم حتى لقد قتل محمد بن أبي يفلوسن ابن أخته تاحضريت وهو في حجرها وحجره ، استرابه بما نمي عنه . ولما أجاز أبو عبدالله المخلوع ابن أبي الحجّاج ، إلى المغرب ونزل عليه وصار إلى إيالته ، ورأى أن قد ملك أمره في هؤلاء المرشحين بغرناطة ، وأرسل الرئيس محمد بن اسمعيل عند توثّبه على الأمراء واستلحامه أبناء السلطان أبي الحجّاج ، فراسله في اعتقالهم ثم فسد ما بين الرئيس والطاغية ، وأخذ منه كثيراً من حصون المسلمين . وبعث إلى السلطان أبي سالم في أن يخلي سبيل المخلوع إليه ، فامتنع وفاء للرئيس . ثم دافع الطاغية عن ثغوره بإسعاف طلبته ، فجهّز المخلوع وملأ حقائبه صلة وأعطاه الآلة ، وأوعز إلى أسطوله بسبتة فجهّز وبعث علال بن محمد ثقة أبيه[1] فأركبه الأسطول وركب معه إلى الطاغية . وخلص الخبر إلى الرئيس بمكانه من ملك غرناطة ، وكان أبو حمّو صاحب تلمسان يراسله في أولاد أبي علي ، وأن يجيزهم إليه ليجدهم زبوناً على السلطان أبي سالم ، فبادر لحينه وأطلقهم من مكان اعتقالهم ، وأركب عبد الحليم وعبد المؤمن وعبد الرحمن ابن أخيهما علي أبي يفلوسن. في الأسطول ، وأجازهم إلى مرسى هُنَيْن بين يدي مهلك السلطان أبي سالم ، فنزلوا من صاحب تلمسان بأعزّ جوار . ونصّب عبد الحليم منهم لملك المغرب .

وكان محمد السبيع بن موسى بن ابراهيم نزع عن عمر ولحق بتلمسان ، فتوافى معهم وأخبرهم بمهلك السلطان وبايع له وأغراه بالرحلة[2] إلى المغرب ثم تتابعت وفود بني مرين بمثلها ، فسرّحه أبو حمّو وأعطاه الآلة ، واستوزر له محمد السبيع وارتحل معه

---

(١) وفي نسخة ثانية : ثقة إليه .

(٢) وفي نسخة ثانية : وأغراه بالدخلة .

يغذّ السير . ولقي في طريقه محمد بن زكراز من أولاد علي من شيوخ بني ونكاس أهل دبدوا وثغر المغرب منذ دخول بني مرين إليه ، فبايعه وحمل قومه على طاعته ، وأغذّ السير وكان يحيى بن رحّو والمشيخة لما نبذ عمر بن عبدالله إليهم العهد ، وعسكروا بباب الفتوح ، أوفدوا مشيخة منهم على تلمسان لاستقدام السلطان عبد الحليم ، فوافوه بتازي ورجعوا معه ، وتلقته جماعة بني مرين بسبّوا ، ونزلوا على البلد الجديد يوم السبت سابع محرّم من سنة ثلاث وستين وسبعمائة واضطرب معسكرهم بكدية العرائس ، وغادوا البلد القتال وراوحوها سبعة أيام ، وتتابعت وفودهم وبيعات الأمصار توافيهم والحشود تتسايل إليهم ثم إنّ عمر بن عبدالله برز من السبت القابل في مقدّمة السلطان أبي عمر بـمن معه من جند المسلمين والنصارى ، رامحة وناشبة . ووكّل بالسلطان من جاء به في الساقة على التعبية المحكمة . وناشبهم الحرب فدلفوا إليه فاستطرد لهم ليتمكّن الناشبة من عقرهم من الأسوار حتى فشت فيهم الجراحات . ثم صمّم نحوهم وانفرج القلب وانفضت الجموع وزحف السلطان في الساقة فانذعروا في الجهات . وافترق بنو مرين إلى مواطنهم ولحق يحيى بن رحّو بـمراكش مع مبارك بن ابراهيم شيخ الخلط ، ولحق عبد الحليم وإخوته بتازي بعد أن شهد لهم أهل المقام بصدق الجلاد وحسن البلاء في ذلك المجال وصابر عمر بن عبدالله قدوم محمد بن أبي عبد الرحمن كما نذكره إن شاء الله تعالى .

الخبر عن قدوم الأمير محمد ابن الأمير عبد الرحمن وبيعته بالبلد الجديد في كفالة عمر بن عبدالله

لما نبذ بنو مرين عهدهم واعصوصبوا عليه ، ونكروا ما جاء به من البيعة لأبي عمر مع فقده العقل الذي هو شرط الخلافة شرعاً وعادة ، ونقموا عليه ، اتّهم نفسه في نظره ، وفرع إلى التماس المرشحين ، فوقع نظره على حافد السلطان أبي الحسن محمد ابن الأمير أبي عبدالله النازع لأوّل دولة السلطان أبي سالم من رندة إلى الطاغية . وكان قد نزل منه بـخير مثوى ، فبعث إليه مولاه عتيقاً الخصيّ ، ثم تلاه بعثمان بن الياسمين ، ثم تلاهما بالرئيس الأبكم من بني الأحمر في كل ذلك يستحثّ قدومه ، وخاطب المخلوع ابن الأحمر وهو في جوار الطاغية كما قدّمناه قريب عهد بـجواره ،

فخاطبه في استحثاثه واستخلاصه من يد الطاغية . وكان المخلوع يرتاد لنفسه منزلاً من ثغور المسلمين لما فسد بينه وبين الطاغية ورام النزوع عن إيالته ، فاشترط على الوزير عمر النزول له عن رندة فتقبّل شرطه ، وبعث إليه الكتاب بالنزول عنها بعد أن وضع الملأ عليه خطوطهم من بني مرين والخاصة والشرفاء والفقهاء ، فسار ابن الأحمر إلى الطاغية . وسأله تسريح محمد هذا إلى ملكه ، وأن قبيله دعوه إلى ذلك ، فسرّحه بعد أن شرط عليه ، وكتب الكتاب بقبوله وفصل من إشبيلية في شهر المحرّم فاتح ثلاث وستين وسبعمائة ونزل بسبتة وبها سعيد بن عثمان من قرابة عمر بن عبدالله . أرصده لقدومه فطير بالخبر إليه فخلع أبا عمر من الملك لعام من بيعته ، وأنزله بداره مع حرمه . وبعث الى السلطان أبي زيّان محمد بالبيعة والآلة والفساطيط . ثم جهّز عسكراً للقائه فتلقّوه بطنجة . وأغذّ السير إلى الحضرة فنزل منتصف شهر صفر بكدية العرائس . واضطرب معسكره بها ، وتلقّاه الوزير يومئذ وبايعه وأخرج فسطاطه ، فاضطربه بمعسكره وتلوّم السلطان هنالك ثلاثا . ثم دخل في الرابع إلى قصره واقتعد أريكته وتودّع ملكه وعمر مستبدّ عليه لا يكل إليه أمراً ولا نهياً . واستطال عند ذلك المنازعون أولاد أبي علي كما نذكره إن شاء الله تعالى .

الخبر عن تجهيز السلطان عبد الحليم واخوته الى سجلماسة بعد الواقعة عليهم بمكناسة

لما سمع عبد الحليم بقدوم محمد بن أبي عبد الرحمن من سبتة إلى فاس وهو بمكانه من تازى ، سرّح أخاه عبد المؤمن وعبد الرحمن ابن أخيه إلى اعتراضه ، فانتهوا إلى مكناسة وخاموا عن لقائه ، فلما دخل إلى البلد الجديد أجلبوا بالغارة على النواحي وكثر العيث . وأجمع الوزير عمر على الخروج إليهم بالعساكر ، فبرز بالتعبية والآلة ، وبات بوادي النجاء . ثم أصبح على تعبيته وأغذّ السير إلى مكناسة ، فزحف إليه عبد المؤمن وابن أخيه عبد الرحمن في جموعهما فجاولها القتال ساعة ، ثم صمم إليهم فدفعهم عن مكناسة . وانكشفوا فلحقوا بأخيهم السلطان عبد الحليم بتازي ، ونزل الوزير عمر بساحة مكناسة ، وأوفد بالفتح على السلطان ، وكنتُ وافده إليه يومئذ ، فعمّت البشرى واتصل السرور . وتهنّأ السلطان بملكه وتودّع من يومئذ سلطانه . ولمّا

وصل عبد المؤمن إلى أخيه عبد الحليم بتازى مفلولاً انتقض معسكره ونزعوا عنه إلى فاس ، وذهب لوجهه هو وإخوته مع وزيرهم السبيع بن محمد ومن كان معهم من عرب المَعْقِل ، فلحقوا بسجلماسة . وكان أهلها قد دخلوا في بيعتهم ودانوا بطاعتهم فاستعزّوا بها . وجدّدوا رسم الملك والسلطان إلى أن كان من خروجهم ما نذكره إن شاء الله تعالى .

الخبر عن قدوم عامر بن محمد ومسعود بن ماسي من مراكش وما كان من وزارة ابن ماسي واستبداد عامر بمراكش

كان السلطان أبو سالم لما استقلّ بملك المغرب ، استعمل على جباية المصامدة وولاية مراكش محمد بن أبي العلاء بن أبي طلحة من أبناء العمّال ، وكان مطلعاً بها . وناقش الكبير من ذوي عامر فأحفظه ذلك وربما تكرّرت سعايته في عامر عند السلطان ولم يقبل . ولما بلغ إلى عامر مهلك السلطان أبي سالم وقيام عمر بالأمر ، وكانت بينهما خلة بيت محمد ابن أبي العلاء فتقبّض عليه وامتحنه وقتله ، واستقلّ بأمر مراكش وبعث إليه الوزير عمر بأبي الفضل بن السلطان أبي سالم يعتدّه لما يقع من حصار بني مرين إياه أن يجلب به عامر عليهم ويستنقضه كما ذكرناه . ثم سرّح مسعود بن ماسي كما ذكرناه ، ولما أحاط بنو مرين بالبلد الجديد جمع عامر من إليه من الجند والحشود وزحف بأبي الفضل بن السلطان أبي سالم إلى أنفى ، ونزل بوادي أم ربيع ، ولما انفضّ جمعهم من على البلد الجديد ، لحق به يحيى بن رحّو ، وكان له صديقاً ملاطفاً ، فتنكّر له توفية لعمر بن عبدالله وصاحبه مسعود ، وبعثه إلى الجبل ولم يشهد الجمع ، فذهب مغاضباً . ولحق بسجلماسة بالسلطان عبد الحليم وهلك في بعض حروبه مع العرب . ولما انفضّ عبد المؤمن وأجفل عبد الحليم من تازي ولحقوا بسجلماسة ، واستوسق الأمر لعمر بن عبدالله وفرغ من شأن المنازعين ومضايقتهم له ، رجع إلى ما كان يؤمّله من الاستظهار على أمره بمسعود بن ماسي وإخوته وأقاربه لمكان الصهر الذي بينهما ، فاستقدمه للوزارة مرضاة لبني مرين لما كانوا عليه من استمالتهم لجميع المذاهب والاغضاء عمّا نالوه به من النكاية . وكان عامر بن محمد مجمعاً القدوم على السلطان فقدم في صحابته ونزلا من الدولة بخير

منزل ، وعقد السلطان لمسعود بن رحّو على وزارته بإشارة الوزير عمر فاضطلع بها ، ودفعه عمر إليها استمالة إليه وثقة بمكانه واستظهاراً بعصابته . وعقد مع عامر بن محمد الحلف على مقاسمة المغرب من لحم وأدم رفيع [1] وجعل إمارة مراكش لأبي الفضل ابن السلطان أبي سالم اسعافاً بغرض عامر بن محمد في ذلك وأصهر عامر إليهم في بنت مولانا السلطان أبي يحيى المتوفي عنها السلطان أبو عنان [2] ، فحملوا أولياءها على العقد عليها وانكفأ راجعا إلى مكان عمله بمراكش يجرّ الدنيا وراءه عزا وثروة وتابعا لجمادى من سنة ثلاث وستين وسبعمائة وصرف عمر عزيمته إلى تشريد عبد الحليم وأخيه من سجلماسة ، كما نذكره إن شاء الله تعالى .

* (الخبر عن زحف الوزير عمر بن عبدالله الى سجلماسة) *

لما احتلّ عبد الحليم وإخوته بسجلماسة ، اجتمع إليهم عرب المَعْقِل كافة بحللهم . واقتضوا خراج البلد فوزّعوه فيهم ، وانتضوا على الطاعة رهنهم . وأقطعهم جنات المختص [3] بأسرها واعصوصبوا عليه . واستحثه يحيى بن رحّو ومن هنالك من مشيخة بني مرين إلى النهوض للمغرب ، فأجمع أمره على ذلك . وتدبّر الوزير عمر أمره وخشي أن يضطرم جمره ، فأجمع إليه الحركة . ونادى في الناس بالعطاء والرحلة فاجتمعوا إليه وبثّ العطاء فيهم . واعترض العساكر وأزاح العلل وارتحل من ظاهر فاس في شعبان من سنة ثلاث وستين وسبعمائة وارتحل معه ظهيره مسعود بن ماسي وبرز السلطان عبد الحليم إلى لقائهم . ولما تراءت الفئتان بتاغزوطت عند فرج الجبل المفضي من تلول المغرب الى الصحراء ، هموا باللقاء . ثم تواقفوا أياماً وتمشّت بينهم رجالات العرب في الصلح والتجافي لعبد الحليم عن سجلماسة تراث أبيه ، فعقد بينهما وافترقا . ورجع كل واحد منهما إلى عمله ومكانه من سلطانه . ودخل عمر والوزير مسعود إلى البلد الجديد في رمضان من سنته ، وتلقّاهما سلطانهما بأنواع المبرّة والكرامة . ونزع الوزير محمد بن السبيع عن السلطان عبد الحليم

(١) وفي نسخة أخرى : تخم وادي أم ربيع وهذا أصح حسب مقتضى السياق .
(٢) كذا في النسخة الباريسية وفي نسخة ثانية : ابو الحسن .
(٣) كذا في النسخة الباريسية وفي نسخة ثانية : جهات المختص .

إلى الوزير عمر وسلطانه فتقبّل وحل محل التكرمة والردافة للوزارة واستقرّ كل بمكانه . وتوادعوا أمرهم إلى ما كان من خلع عبد المؤمن لأخيه عبد الحليم ، ما نذكره إن شاءالله تعالى .

* (الخبر عن بيعة العرب لعبد المؤمن وخروج عبد الحليم الى المشرق) *

لما رجع عبد الحليم بعد عقد السلم مع الوزير عمر إلى سجلماسة واستقرّ بها وكان عرب المعقل من ذوي منصور فريقين : الأحلاف وأولاد حسين . وكانت سجلماسة وطناً للأحلاف وفي مجالاتهم منذ أوّل أمرهم ودخولهم المغرب . وكان من أولاد حسين في ممالأة الوزير عمر ما قدّمناه ، فكانت صاغية السلطان عبد الحليم إلى الأحلاف بسبب ذلك أكثر ، فأسفّ ذلك أولاد حسين على الأحلاف وتجدّدت لذلك الفتنة وتزاحفوا . وأخرج السلطان عبد الحليم أخاه عبد المؤمن لرقع ما بينهما من الخرق ولأمته ، فلما قدم على أولاد حسين دعوه إلى البيعة والقيام بأمره فأبى فأكرهوه عليها وبايعوه . وزحفوا إلى سجلماسة في صفر من سنة أربع وستين وستمائة وبرز عبد الحليم إليهم في أوليائه من الأحلاف وتواقفوا ملياً وعقلوا رواحلهم وانكشف الأحلاف وانهزموا . وهلك يحيى بن رحّو كبير المشيخة من بني مرين يومئذ في حربهم . وتغلّبوا على سجلماسة ، ودخل إليها عبد المؤمن وتخلّى له أخوه عبد الحليم عن الأمر وخرج إلى المشرق لقضاء فرضه ، فودّعه وزوّده بما أرادوا وارتحل إلى الحج وقطع المفازة إلى بلد مالي من السودان . وصحب منها ركّاب الحج إلى مصر ، ونزل على أميرها المتغلّب على سلطانها يومئذ ، وهو مليغا الحاصكي[1] وأنهى خبره إليه وعرف بمكانه ، فاستبلغ في تكريمه بما يناسب بيته وسلطانه . وقضى حجه وانصرف إلى المغرب ، فهلك بقرب الإسكندرية سنة ست وستين وسبعمائة واستقل عبد المؤمن ، بأمر سجلماسة حتى كان من نهوض العسكر إليه ما نذكره إن شاءالله تعالى .

---

(١) وفي نسخة أخرى : يُلْبُغَا الخاصكيّ .

* (الخبر عن نهوض ابن ماسي بالعساكر الى سجلماسة واستيلائه عليها ولحاق عبد المؤمن بمراكش) *

لما افترقت كلمة أولاد السلطان أبي عنان وخلع عبد المؤمن أخاه تطاول الوزير عمر إلى التغلّب عليهم . ونزع إليه الأحلاف عدوّ أولاد حسين وشيعة عبد الحليم المخلوع ، فجهّز العساكر وبثّ العطاء وأزاح العلل ، وسرّح ظهيره مسعود بن ماسي إلى سجلماسة ، فنهض إليها في ربيع من سنة أربع وستين وسبعمائة . وتلقّاه الأحلاف بحللهم وناجعتهم ، وأغذّ السير ونزع الكثير من أولاد حسين للوزير مسعود . وبعث عامر بن محمد عن عبد المؤمن من سجلماسة ، فتركها ولحق بعامر فتقبّض عليه واعتقله بداره من جبل هنتاتة . ودخل الوزير مسعود إلى سجلماسة واستولى عليها . واقتلع منها جرثومة الشقاق بافتراق دعوة أولاد أبي علي منها . وكرّ راجعاً إلى المغرب لشهرين من حركته ، فاحتل بفاس إلى أن كان من خبر انتقاضه على عمر وفساد ذات بينهما ما نذكره إن شاءالله تعالى .

* (الخبر عن انتقاض عامر ثم انتقاض الوزير ابن ماسي على أثره) *

لما استقل عامر بالناحية الغربيّة من جبال المصامدة ومراكش وما إلى ذلك من الأعمال واستبد بها ، ونصب لأمره أبا الفضل ابن السلطان أبي سالم واستوزر له واستكفأ لامره[1] ، وصارت كأنها دولة مستقلة ، فصرف إليه النازعون من بني مرين على الدولة وجوه مفرّهم ولجوا إليه ، فأجارهم عن الدولة واجتمع إليه منهم ملأ . وأشاروا إليه باستقدام عبد المؤمن وأنه أبلغ ترشيحاً من أبي الفضل بنسبه وقيامه على أمره وصاغية بني مرين إليه ، فاستدعاه وأظهر لعمر أنّه يروم بذلك مصلحته والمكر بعبد المؤمن . ونمي ذلك كله إلى عمر فارتاب به ونزع إليه آخراً السبيع بن موسى بن

(١) وفي نسخة أخرى : واستكتب .

ابراهيم الوزير. كان لعبد الحليم فكشف القناع في بطانته[1] وتجهيز العساكر إليه. واستراب بأهل ولايته، وعثر على كتاب من الوزير مسعود بن ماسي إليه يخالصه ويبذل له النصيحة، فتقبّض على حامله وأودعه السجن، فتنكّر مسعود وأغراه صحابته الملاشون[2] له من بني مرين بالخروج ومنازعة عمر في الأمر. ووعدوه النصر منه، فاضطرب معسكره بالزيتون من خارج فاس مورياً بالنزهة أبّان الربيع. وزخرف الأرض في شهر رجب من سنة خمس وستين وسبعمائة. وبني أصحابه الفساطيط في معسكره حتى اذا استوفى جمعهم واعتزم على الخروج، ارتحل مجاهراً بالخلاف، وعسكر بوادي النجا بمن كان يعده الخروج معه من بني مرين. ثم ارتحل إلى مكناسة، وكتب إلى عبد الرحمن بن علي بن يفلوسن. يستقدمه للبيعة، وكان بجهات تادلاً قد خرج بها بعد انصرافهم من سجلماسة، وتخلف عن أخيه عبد المؤمن. وبعث عامر إليهم بعثاً فهزموه ثم لحق ببني ونكاسن، فبعث إليه ابن ماسي وأصحابه، فقدم عليهم وبايعوه. وأخرج عمر سلطانه محمد بن أبي عبد الرحمن وعسكر بكدية العرائس. وبثّ العطاء وأزاح العلل. ثم ارتحل إلى وادي النجا، فبيّته مسعود وقومه فثبت هو وعسكره في مراكزهم حتى إنجاب الظلام وفرّوا أمامهم، فاتبعوا آثارهم وانفضّ جمعهم وبدا لهم ما لم يحتسبوه من اصفاق الناس على السلطان ووزيره عمر واعتصامهم بطاعته، فانذعروا.

ولحق مسعود بن ماسي بن رحّو بتادلاً، ولحق الأمير عبد الرحمن ببلاد بني ونكاسن. ورجع عمر والسلطان إلى مكانهما من الحضرة. واستمال مشيخة بني مرين فرجعوا إليه وعفا لهم عنها واستصلحهم. وتمسّك أبو بكر بن حمامة بدعوة عبد الرحمن بن أبي يفلوسن وأقامها في نواحيه، وبايعه عليها موسى بن سيّد الناس من بني علي أهل جبل دبدو من بني ونكاسن بما كان صهراً له. وخالفه قومه إلى الوزير عمرو واعدوه بالنهوض إلى أبي بكر بن حمامة، فنهض وغلبه على بلاده. واقتحم حصنه انكاوان[3] وفرّ هو وصهره موسى وفارقوا سلطانهم عبد الرحمن ونبذوا إليه عهده. ورجعوا إلى طاعة صاحب فاس، فلحق هو بتلمسان ونزل على السلطان أبي حمّو

(١) وفي نسخة أخرى: مطالبته.
(٢) وفي نسخة أخرى: الملابسون.
(٣) وفي نسخة أخرى: ايكلوان.

فاستبلغ في تكريمه ولحق وزيره مسعود بن ماسي بدبدة ونزل على أميره محمد بن زكراز[1] صاحب ذلك الثغر. وبعث إلى الأمير عبد الرحمن من تلمسان ليطارد به لفرصة ظنّها في المغرب ينتهزها. وأبي عليه أبو حمّو من ذلك، فركب مطيّة الفرار ولحق بابن ماسي وأصحابه، فنصّبوه للأمر وأجلبوا على تازى. ونهض الوزير إليهم في العساكر واحتلّ بتازى وتعرّضوا للقائه، ففضّ جموعهم وردّهم على أعقابهم إلى جبل دبدو وسعى بينهم ونزمار بن عريف ولي الدولة في قبض عنانهم عن المنازعة والتجافي عن طلب الأمر، وأن يجيزوا إلى الأندلس للجهاد فأجاز عبد الرحمن بن أبي يفلوسن ووزيره ابن ماسي من غسّاسة فاتح سبع وستين وسبعمائة وخلا الجو من أجلابهم وعنادهم ورجع الوزير إلى فاس واحتشد إلى مراكش كما نذكره إن شاءالله تعالى.

* (الخبر عن نهوض الوزير عمر وسلطانه الى مراكش) *

لما فرغ عمر من شأن مسعود وعبد الرحمن بن أبي يفلوسن صرف نظره إلى ناحية مراكش وانتزى عامر بن محمد بها. وأجمع أمره على الحركة إليه فأفاض العطاء ونادى بالسفر إلى حرب عامر وأزاح العلل، وارتحل إليه لرجب من سنة سبع وستين وسبعمائة وصعد عامر وسلطانه أبو الفضل إلى الجبل. فاعتصم به وأطلق عبد المؤمن من معتقله، ونصب له الآلة وأجلسه على سرير حذاء سرير أبي الفضل يوهم أنه قد بايع له، وانه أحكم أمره بمجاجيء بذلك لبني مرين لما يعلم من صاغيتهم إليه. وخشي مغبّة ذلك، فألان له القول ولاطفه في الخطاب، وسعى بينهما في الصلح حسّون بن علي الصُبَيْحي فعقد له عمر من ذلك ما أرضاه وانقلب إلى فاس. ورجّع عامر عبد المؤمن إلى معتقله وأمر الأحوال على ما كانت من قبل إلى أن بلغهم قتل الوزير لسلطانه، كما نذكره إن شاءالله تعالى.

(١) وفي نسخة ثانية : محمد بن زكدان وقد مر معنا في السابق.

* (الخبر عن مهلك السلطان محمد بن أبي عبد الرحمن وبيعة عبد العزيز ابن السلطان أبي الحسن) *

كان شأن هذا الوزير عمر في الاستبداد على سلطانه هذا عجباً حتى بلغ مبلغ الحجر من الصبيان . وكان جعل عليه العيون والرقباء حتى من حرمه وأهل قصره . وكان السلطان كثيراً ما يتنفّس الصعداء مع ندمائه ومن يختصّه بذلك من حرمه إلى أن حدّث نفسه باغتيال الوزير ، وأمر بذلك طائفة من العبيد كانوا يختصّون به ، فنمى القول ، وأرسل به إلى الوزير بعض الحرم كانت عيناً له عليه ، فخشي على نفسه ، وكان من الاستبداد والدولة أن الحجاب مرفوع له عن خلوات السلطان وحرمه ، ومكاشفة رتبه ، فخلص إليه في حشمه وهو معاقر لندمائه ، فطردهم عنه وتناوله غطا حتى فاض وألقوه في بئر في روض الغزلان . واستدعى الخاصّة فأراهم مكانه وأنه سقط عن دابته وهو ثمل في تلك البئر ، وذلك في المحرم فاتح ثمان وستين وسبعمائة لست سنين من خلافته . واستدعى من حينئذ عبد العزيز ابن السلطان أبي الحسن وكان في بعض الدور من القصبة بفاس تحت الرقباء والحراسة من الوزير لما كان السلطان محمد يروم الفتك به غيرة منه على الملك ، لمكان ترشيحه ، فحضر بالقصر وجلس على سرير الملك . وفتحت الأبواب لبني مرين والخاصّة والعامّة فازدحموا على تقبيل يده معطين الصفقة بطاعته . وكمل أمره وبادر الوزير من حينه إلى تجهيز العساكر إلى مراكش ونادى بالعطاء وفتح الديوان وكمل الأعراض وارتحل بسلطانه من فاس في شهر شعبان ، وأغذّ السير إلى مراكش ونازل عامر بن محمد بمعقله من جبل هنتاتة ومعه الأمير أبو الفضل ابن السلطان أبي سالم وعبد المؤمن ابن السلطان أبي عليّ ، أطلقه من الاعتقال أيضاً وأجلسه موازي ابن عمه ، واتخذ له الآلة يموّه به في شأنه الأوّل ، ثم سعى بينه وبين عمر في الصلح ، فانعقد بينهما وانكفأ راجعاً بسلطانه إلى فاس في شهر شوّال ، فكان حتفه إثر ذلك ، كما نذكره إن شاءالله تعالى والله أعلم .

* (الخبر عن مقتل الوزير عمر بن عبدالله واستبداد السلطان عبد العزيز بأمره) *

كان عمر قد عظم استبداده على السلطان عبد العزيز فحجره ومنعه من التصرّف في شيء من أمره . ومنع الناس من النهوض له في شيء من أمورهم . وكانت أمّه حذرة عليه إشفاقاً وحبًّا . وكان عمر لما ملك أمره واستبدّ عليه ، سما إلى الإصهار إليهم في بنت السلطان ابي عنان ، واشترط لها زعموا تولية أخيها الأمير ونمي ذلك إلى السلطان ، وأن عمر مغتاله لا محالة . وقارن ذلك أنّ عمر أوعز إلى السلطان بالتحوّل عن قصره إلى القصبة ، فركب أسِنّة الغدر لاضطراره واعتزم على الفتك به ، وأكمن بزوايا داره جماعة من الرجال وأعدّهم بالتوثّب به . ثم استدعاه إلى بيته للمؤامرة معه على سنّته ، فدخل معه وأغلق الموالي من الخصيان باب القصر من ورائه . ثم أغلظ له السلطان بالقول وعتبه . ودلف الرجال إليه من زوايا الدار فتناولوه بالسيوف هبراً . وصرخ ببطانته بحيث أسمعهم فحملوا على الباب وكسروا أغلاقه فألفوه مضرّجاً بدمائه ، فولّوا الأدبار وانفضّوا من القصر واندعروا وخرج السلطان إلى مجلسه فاقتعد أريكته واستدعى خاصته . وعقد لعمر بن مسعود بن منديل بن حمامة من بني مرين وشُعَيْب بن ميمون بن وَرْدَان من الحشم ويحيى بن ميمون بن المصمود من الموالي ، وكملت بيعته منتصف ذي القعدة سنة ثمان وستين وسبعمائة وتقبّض على عليّ بن الوزير عمر وأخيه وعمّه وحاشيتهم ، وسرّ بهم واعتقلهم حتى أتى القتل عليهم لليال . واستأصل المكان شأفتهم وسكن وأمن ورد النافرين بأمانه وبسط بشره ثم تقبّض لأيام على سليمان بن داود ومحمد السبيع ، وكانا في مخالصة عمر بمكان فاعتقلهما استرابة بهما ولشيء نمى له عنهما . وأودعهما السجن إلى أن هلكا واعتقل معهما علال بن محمد والشريف أبا القاسم ريبة بصحابتهما . ثم امتنّ عليهما بشفاعة ابن الخطيب وزير ابن الأحمر وأقصاه . ثم أطلق عنانه في الاستبداد وقبض أيدي الخاصّة والبطانة عن التصرّف في شيء من سلطانه إلاّ بإذنه وعن أمره . وهلك لأشهر من استبداد الوزير شعيب بن ميمون . ثم هلك يحيى بن ميمون على ما نذكره إن شاءالله تعالى .

* (الخبر عن انتزاء أبي الفضل بن المولى أبي سالم ثم نهوض السلطان اليه ومهلكه) *

لما فتك السلطان عبد العزيز بعمر بن عبدالله المتغلّب عليه ، سوّلت لأبي الفضل ابن السلطان أبي سالم نفسه مثلها في عامر بن محمد ، لمكان استبداده عليه ، وأغراه بذلك البطانة . وتوجس لها عامر فتمارض بداره . واستأذنه في الصعود إلى معتصمه بالجبل ليمرّضه هنالك أقاربه وحرمه ، وارتحل بجملته . ويئس أبو الفضل من الاستمكان منه وأغراه حشمه بالراحة من عبد المؤمن . ولليال من منصرف عامر ثمل أبو الفضل ذات ليلة ، وبعث عن قائد الجند من النصارى ، فأمر بقتل عبد المؤمن بمكان معتقله من قصبة مراكش فجاء برأسه إليه . وطار الخبر إلى عامر فارتاع وحمدالله إذ خلص من غائلته . وبعث ببيعته الى السلطان عبد العزيز وأغراه بأبي الفضل ورغّبه في ملك مراكش . ووعده بالمظاهرة فأجمع السلطان أمره على النهوض إلى مراكش . ونادى في الناس بالعطاء ، وقضى أسباب حركته وارتحل من فاس سنة تسع وستين وسبعمائة واستبدّ أبو الفضل من بعد مهلك عبد المؤمن واستوزر طلحة النوري[1] وجعل علامته لمحمد بن محمد بن منديل الكناني ، وجعل شوراه لمبارك بن ابراهيم بن عطية الخلطي . ثم أشخص طلحة النوري بسعاية الكناني ، فقتله واعتمد منازلة عامر بعساكره . ولما فصل لذلك من مراكش جاءه الخبر بحركة السلطان عبد العزيز إليه ، فانفضّ معسكره ولحق بتادلاّ ليعتصم بها في معقل بني جابر . وعاج السلطان بعساكره عن مراكش إليها ، فنازله وأخذ بمخنقه وقاتله ، ففلّ عسكره وداخله بعض بني جابر في الاخلال بمصافه يوم الحرب على مال يعطيه لهم ، ففعلوا ، وانهزمت عساكر أبي الفضل وجموعه ، وتقبّض على أشياعه . وسيق مبارك بن ابراهيم الى السلطان فاعتقله إلى أن قتله مع عامر عند مهلكه كما نذكره وفرّ الكناني إلى حيث لم يعلم مسقطه . ثم لحق بعامر بن محمد ولحق أبو الفضل بقبائل صناكة من ورائهم . وداخلهم أشياع السلطان من بني جابر وبذلوا لهم المال الدثر في إسلامه . فأسلموه وبعث السلطان إليهم وزيره يحيى بن ميمون ، فجاء به أسيراً

(١) وفي نسخة أخرى : السنوري .

وأحضره السلطان فوبّخه وقرّعه واعتقله بفسطاط في جواره ، ثم غطّ من الليل . وكان مهلكه في رمضان من سنة تسع وستين وسبعمائة سنين من إمارته على مراكش ، وبعث السلطان إلى عامر يختبر طاعته بذلك فأبى عليه وجاهر بالخلاف إلى أن كان من شأنهما ما نذكره إن شاء الله تعالى .

* (الخبر عن نكبة الوزير يحيى بن ميمون بن مصمود ومقتله) *

كان يحيى بن ميمون هذا من رجالات دولتهم وربى في دولة السلطان أبي الحسن ، وكان عمّه علال عدوّاً له بعداوة أبيه . ولما انتزى السلطان أبو عنان على ملك أبيه ، استخلص يحيى هذا سائر أيامه ، وهلك عمر يوم مهلكه كما ذكرناه . واستعمل يحيى هذا ببجاية، فلم يزل بها إلى أن تقبّض عليه الموحدون ، لما استخلصوا بجاية من يده . وسار إلى تونس واعتقل بها مدّة . ثم صرفوه إلى المغرب أيام عمر ، فاختصّ به . ولما عقد له السلطان عبد العزيز على وزارته وكان قوي الشكيمة شديد الحزم صعب العداوة مرهف الحدّ ، وكان عمّه علال بعد أن أطلقه السلطان من الاعتقال نكبه عن إذنه[1] وأقامه متصرّفاً بين يديه ، فألقى إلى السلطان استبداد يحيى عليه وحذّره من شأنه ، ورفع إليه أنه يروم تحويل الدعوة لبعض القرابة من آل عبد الحق ، وأنه داخل في ذلك قوّاد الجند من النصارى . وأصاب الوزير وجع قعد به عن مجلس السلطان ، فاختلف الناس إلى زيارته وعكف ببابه قوّاد النصارى ، فاستريب بأمرهم وتيقّن الأمر بعكوفهم ، فأرسل السلطان من حشمه من تقبّض عليه وأودعه السجن . ثم جنب إلى مصرعه من الغد وقتل قعصاً بالرماح ، وقتل المتّهمون من القرابة وقوّاد الجند ، واستلحموا جميعاً وصاروا مثلاً في الآخرين ، والأمر لله .

* (الخبر عن حركة السلطان الى عامر بن محمد ومنازلته بجبله ثم الظفر به) *

لما فرغ السلطان من شأن أبي الفضل عقد على مراكش لعليّ بن محمد بن أجّانا من

(١) وفي نسخة ثانية : مكّنه من اذنه .

صنائع دولتهم . وأوعز إليه بالتضييق على عامر والأخذ بمخنقه وإلجائه إلى الطاعة . وانقلب إلى فاس ، واعتزم على الحركة إلى تلمسان . وبينما هو في الاستنفار لذلك إذ جاءه الخبر بأنّ علي بن أجّانا نهض إلى عامر وحاصره أياماً . وأن عامراً زحف إليه . ففضّ معسكره وتقبّض على ابن أجّانا والكثير من العسكر ، فاعتقلهم ، فقام السلطان في ركائبه وقعد ، وأجمع أمره على النهوض إليه بكافة بني مرين وأهل المغرب ، فبعث في الحشود وبثّ العطاء ، وعسكر بظاهر البلد حتى استوفى الغرض وعقد على وزارته لأبي بكر بن الغازي بن يحيى بن الكاس ، لمكان فيه من مخايل الرياسة والكفاية ، وارتفع محله . وارتحل سنة سبعين وسبعمائة فاحتلّ بمراكش ، ثم خرج إلى منازلة الجبل ونازله[1] ، وكان عامر بن محمد قد نصب بعض الأعياص من آل عبد الحق من ولد أبي ثابت بن يعقوب إسمه تاشفين ، ولحق به علي بن عمر ويعلان من شيوخ بني ورتاجن كبير بني مرين ، وصاحب الشورى فيهم لعهده ، فاشتدّ أزره به . وتوافى به كثير من الجند النازعين عن السلطان رهبة من بأسه أو سخطة لحاله ، أو رغبة فيما عند عامر فرتبهم[2] . وأمسك الله يده عن العطاء ، فلم تنس[3] بقطرة . وطال مثوى السلطان بساحته وعلى حصاره . ورتّب المقاعد للمقاتلة وغاداه للقتال وراوحه . وتغلّب على حصونه شيئاً فشيئاً إلى أن تعلّق بأعلى جبل تامسكروط ، وكان لأبي بكر بن غازي غناء مذكور ، ويئس أصحاب عامر وأشياعه من عطائه . وفسد ما بينه وبين علي بن عمر هذا ، فدس إلى السلطان يطلب الأمان ، وتوثّق لنفسه ثم نزع إليه . وداخله فارس بن عبد العزيز أخي عامر في القيام بدعوة السلطان والخلاف على عمّه ، لما كان يوسق به من إرهاف الحدّ وتفضيل ابنه أبي بكر عليه فبلغ خبره الى السلطان واقتضى له وثيقة من الأمان والعهد بعث به إليه فثار بعمّه . واستدعى القبائل من الجبل فأجابوه واستحث السلطان للزحف إليهم ، فزحفت العساكر والجنود واستولت على معتصم الجبل . ولما استيقن عامر أن قد أحيط به أوعز إلى ابنه أن يلحق بالسلطان مموّهاً بالنزوع ، فألقى بنفسه إليه وبذل له

(۱) وفي نسخة ثانية : ثم خرج الى منازلته .

(۲) وفي نسخة ثانية : قربهم .

(۳) وفي نسخة ثانية : لم يسل .

الأمان وألحقه بجملته . وانتبذ عامر عن الناس وذهب لوجهه ليخلص إلى السوس فردّه الثلج . وقد كانت السماء أرسلت به منذ أيام برداً وثلجاً حتى تراكم بالجبل بعضه على بعض . وسدّ المسالك فاقتحمه عامر وهلك فيه بعض حرمه ونفق مركوبه . وعاين الهلكة العاجلة فرجع مخفيا أثره إلى غارٍ أَوَى إليه مع أدلاّء بذل لهم المال يسلكون به ظهر الجبل إلى الصحراء بالسوس . وأقاموا ينتظرون إمساك الثلج . وأقام وأغرى السلطان بالبحث عنه فدلّهم عليه بعض البربر عثروا عليه فسيق إلى السلطان وأحضره بين يديه ووبّخه فاعتذر ونجع بالطاعة . ورغب في الإقالة واعترف بالذنب ، فحمل إلى مضرب بني له بازاء فسطاط السلطان ، واعتقل هنالك . وتقبّض يومئذ على محمد الكناني فاعتقل وانطلقت الأيدي على معاقل عامر ودياره ، فانتهب من الأموال والسلاح والذخيرة والزرع والأقوات والخرق ما لا عين رأت ولا خطر على قلب أحد منهم . واستولى السلطان على الجبل ومعاقله في رمضان من سنة إحدى وسبعين وسبعمائة لحول من يوم حصاره . وعقد على هنتاتة لفارس بن عبد العزيز بن محمد ابن علي وارتحل إلى فاس واحتل بها آخر رمضان ودخلها في يوم مشهود برزفيه الناس . وحمل عامر وسلطانه تاشفين على جملين وقد أفرغ عليهما الرث وعبثت بهما أيدي الإهانة فكان ذلك عبرة لمن راه ولما قضى منسك الفطر أحضر عامر فقرعه بذنوبه وأوتي بكتابه بخطه يخاطب فيه أبا حمو ويستنجدَه على السلطان فشهد عليه وأمر به السلطان فامتحن ولم يزل يجلد حتى انتنّ لحمه ، وضرب بالعصيّ حتى ورمت أعضاؤه ، وهلك بين يدي الوَزَعَة ، وأحضر الكناني ففعل به مثله . وجنّب تاشفين سلطانه إلى مصرعه فقتل قعصاً بالرماح وجنب مبارك بن ابراهيم من محبسه بعد الاعتقال ، فألحق بهم ولكل أجل كتاب وصفا الجوّ للسلطان من المنازعين . وفرغ لغزو تلمسان كما نذكره إن شاءالله تعالى .

* (الخبر عن ارتجاع الجزيرة الخضراء) *

قد تقدّم لنا ذكر تغلّب الطاغية ابن ألهنشة على الجزيرة سنة ثلاث وأربعين وسبعمائة وأنه نازل بعدها جبل الفتح سنة إحدى وخمسين وسبعمائة وهلك بالطاعون وهو محاصر له عندما استفحل أمره واشتدّت شوكته . وكفى الله شأنه وولّى أمر الجلالقة بعده ابنه

بطرة ، وعدا على سائر إخوته . وفرّ أخوه القمط ابن حظية أبيه المسمّاة بلغتهم ألْرِيق (بهمزة) إلى قمط برشلونة فأجاره وأنزله خير نزل . ولحق به من الزعماء المريكس[1] ابن خالته وغيره من اقماطهم[2] وبعث إليه بطرة ملك قشتالة في إسلام أخيه فأبى من إخفار جواره . وحدثت بينهما بذلك الفتنة الطويلة افتتح بطرة فيها كثيراً من معاقل صاحب برشلونة وأوطأ عساكره نواحي أرضه ، وحاصر بلنسية قاعدة شرق الأندلس مراراً أرجف عليها بعساكره ، وملأ البحر إليها بأساطيله إلى أن ثقلت على النصرانية وطأته وساءت فيها ملكته ، فانتقضوا عليه ودعوا القمط أخاه فزحف إلى قرطبة . وثار على بطرة أهل إشبيلية وتيقّن صاغية النصارى إليه ، ففرّ عن ممالكه ولحق بملك الافرنج وراء جليقية وفي الجوف عنها وهو صاحب انكلطرة ، وإسمه ألفنس غالس . ووفد عليه صريخاً سنة سبع وستين وسبعمائة فجمع قومه وخرج في صريخه إلى أن استولى على ممالكه . ورجع ملك الأفرنج فعاد النصارى إلى شأنهم مع بطرة . وغلب القمط على سائر الممالك فتحيّز بطرة إلى ثغوره مما يلي بلاد المسلمين . ونادى صريخاً بابن الأحمر فانتهز فيها الفرصة . ودخل بعساكر المسلمين فأثخن في أرض النصرانية ، وخرّب معاقلهم ومدنهم مثل أبدة وجيان وغيرهما من أمهات أمصارهم . ثم رجع إلى غرناطة ، ولم تزل الفتنة قائمة بين بطرة وأخيه القمط إلى أن غلب عليه القمط وقتله . وفي خلال هذه الفتن بقيت ثغورهم مما يلي أرض المسلمين عورة . وتشوّف المسلمون إلى ارتجاع الجزيرة التي قرب عهدهم بانتظامها في ملكة المسلمين . وكان صاحب المغرب في شغل عن ذلك بما كان فيه من انتقاض أبي الفضل ابن أخيه وعامر بن محمد ، فراسل صاحب الأندلس أن يزحف إليه بعساكره على أنّ عليه عطاءهم وامداده بالمال والأساطيل على أن يكون مثوبة جهاده خالصة له ، فأجاب إلى ذلك وبعث إليه أحمال المال . وأوعز إلى أساطيله بسبتة فعمرت واقلعت من مرسى الجزيرة لحصارها وزحف ابن الأحمر بعساكر المسلمين على أثرها بعد أن قسم فيهم العطاء وأزاح العلل ، واستعدّ الآلات للحصار ، فنازلها أياماً قلائل . ثم أيقن النصارى بالهلك لبعدهم عن الصريخ ويأسهم عن مدد ملوكهم ، وألقوا باليد وسألوا النزول على حكم السلم فأجابهم السلطان إليه ، ونزلوا عن البلد وأقيمت فيها شعائر الإسلام

(١) وفي نسخة ثانية : المركش .

(٢) وفي نسخة ثانية : اقماصهم .

ومراسمه ، ومحيت منها كلمة الكفر وطواغيته . وكتب الله أجرها لمن أخلص في معاملته وكان ذلك سنة سبعين وسبعمائة وولّى ابن الأحمر عليها من قبله . ولم تزل لنظره إلى أن تمحّض النظر عن هدمها خشية استيلاء النصرانية عليها ، فهدمت أعوام ثمانين وسبعمائة وأصبحت خاوية كأن لم تغن بالأمس . والبقاء لله وحده .

* (الخبر عن حركة السلطان الى تلمسان واستيلائه عليها وعلى سائر بلادها وفرار أبي حمو عنها) *

كان عرب المعقل موطنين بصحراء المغرب من لدن السوس ودرعة وتافيلالت وملويّة وصا[1] . وكان بنو منصور منهم أولاد حسين والأحلاف مختصين بطاعة بني مرين وفي وطنهم . وكانوا مغلوبين للدولة تحت قهر من سلطانها . ولما ارتجع بنو عبد الواد ملكهم بتلمسان على يد أبي حمّو ، وكان الاحلاف بالمغرب ، عاث هؤلاء المعقل وأكثروا في الوطن الفساد. ولما استقالت الدولة من عثارها تحيّزوا إلى بني عبد الواد وأقطعوهم في أوطانهم . واستقرّوا هنالك من لدن نزوع عبدالله بن مسلم العامل بدرعة إلى أبي حمّو ووزارته له . وفسد ما بين سلطان المغرب وأبي حمّو من جرّاء ذلك . ونهض أبو حمّو سنة ست وستين وسبعمائة إلى المغرب ، وعاث في نواحي دبدو ثغر المغرب فنشأت[2] لذلك نار العداوة بينه وبين صاحب الثغر محمد بن زكراز[3] فكان داعية لعداء صاحب المغرب على الأيام . ولما استبدّ السلطان عبد العزيز وهلك صاحبهم عبدالله بن مسلم ، وتردّدت الرسل بين أبي حمّو وبين السلطان عبد العزيز ، كان فيما اشترط عليه التجافي عن قبول عرب المعقل عرب وطنه ، لما فيه من الاستكثار بهم عليه . وأبى عليهم أبو حمّو منها لاستظهاره بهم على زغبة من أهل وطنه وغيرهم . وكثر التلاحي في ذلك وأحفظ السلطان وهمّ بالنهوض إليه سنة سبعين وسبعمائة وأقصر لما أخذ بحجزته من خلاف عامر . وصاحب الثغر محمد بن زكراز أثناء ذلك يحرّضه على الحركة إلى أبي حمّو ويرغّبه في ملك تلمسان . ولما قضى السلطان حركة مراكش

---

(١) هي قلعة (زا) والـ (ز) تلفظ (صاد) عند البربر ، لذلك كتبها ابن خلدون بالصاد .

(٢) وفي نسخة ثانية : نشبت .

(٣) وفي نسخة ثانية : زكدان .

وفرغ من شأن عامر ورجع إلى فاس ، ولقى[1] بها أبو بكر بن عريف أمير سويد في قومه من بني مالك بحللهم وناجعتهم ، صريخاً على أبي حمّو لما نال منهم . وتقبّض على أخيهم محمد ورؤساء بني مالك جزاء بما يعرف لهم ولسلفهم من ولاية صاحب المغرب . ووفد عليه رسل أهل الجزائر ببيعتهم يستحثّون السلطان لاستنقاذهم من لهواته . وأمر السلطان بذلك وليه ونزمار ومحمد بن زكراز صاحب دبدو فزعموا له بالغناء في ذلك واعتزم على النهوض إلى تلمسان وبعث الحاشدين إلى مراكش للاحتشاد ، وتوافى الناس ببابه على طبقاتهم أيام منى من سنة إحدى وسبعين وسبعمائة وأفاض العطاء وأزاح العلل ، ولما قضى منسك الأضحى اعترض العساكر ورحل إلى تلمسان ، واحتل بتازى . وبلغ خبر نهوضه إلى أبي حمّو ، فجمع من إليه من زنانة الشرق وبني عامر من عرب المعقل وزغبة . وتوافت جموعه بساحة تلمسان واضطرب هنالك معسكره واعترض جنوده واعتزم على الزحف للقاء بني مرين ثقة بمكان المعقل . وتحيّز من كان معه من عرب المعقل الأحلاف وعبيدالله إلى السلطان عبد العزيز بمداخلة وليّهم ونزمار . واجتمعوا إليه وسرّح معهم صنائعه فارتحلوا بين يديه وسلكوا طريق الصحراء . وبلغ خبر تحيّزهم وإقبالهم إلى أبي حمّو فأجفل هو وجنوده وأشياعه من بني عامر وسلكوا على البطحاء . ثم ارتحلوا عنها وعاجوا على منداس ، وخرجوا إلى بلاد الديالم . ثم لحقوا بوطن رياح فنزلوا على أولاد سبّاع بن علي بن يحيى .

وارتحل السلطان عبد العزيز من تازي وقدّم بين يديه وزيره أبا بكر بن غازي ، فدخل تلمسان وملكها . ورحل السلطان على أثره واحتل بتلمسان يوم عاشوراء من سنة إثنتين وسبعين وسبعمائة ، فدخلها في يوم مشهود واستولى عليها وعقد لوزيره أبي بكر ابن غازي على العساكر من بني مرين والجنود والعرب من المعقل وسويد ، وسرّحه في اتباعه وجعل شوراه إلى وليّه ونزمار وفوّض إليه في ذلك . فارتحلوا من تلمسان آخر المحرّم وكنت وافداً على أبي حمّو ، فلما أجفل عن تلمسان ودّعته وانصرفتُ إلى هُنَيْن للإجازة إلى الأندلس . ووشى بعض المفسدين إلى السلطان بأني احتملت مالاً للأندلس ، فبعث جريدة من معسكره للقبض عليّ ، ووافوني بوادي الزيتون قبل

(١) وفي نسخة ثانية : وافاه .

مدخلي إلى تلمسان فأحضرني وسألني ، وتبين كذب الواشي فأطلقني وخلع عليّ وحملني . ولما ارتحل الوزير في اتباع أبي حمّو استدعاني وأمرني بالنهوض إلى رياح والقيام فيهم بدعوته وطاعته ، وصرفهم عن طاعة أبي حمّو وصريخه ، فنهضت لذلك ، ولحقتُ بالوزير بالبطحاء ، وارتحلتُ معه إلى وادي ورك من بلاد العطاف ، فودّعته وذهبت لوجهي وجمعت رياح على طاعة السلطان ونكبت بهم عن طاعة أبي حمّو فنكبوا عنها . وخرج أبو زيان من محل نزوله بحُصَيْن ، فلحق بأولاد محمد ابن علي بن سبّاع من الزواودة . وارتحل أبو حمّو من المسيلة فنزل بالدوسن وتلوّم بها . وأوفدت من الزواودة على الوزير ونزمار فكانوا أدلاّءهم في النهوض إليه . ووافوه بمكانه من الدوسن في معسكره من زناتة وحلل بني عامر ، والوزير في التعبية ، وأمم زناتة والعرب من المعقل وزغبة ورياح محيفة[1] به . فأجهضوه عن ماله ومعسكره ، فانتهب بأسره . واكتسحت أموال العرب الذين معه ، ونجا بدمائه إلى مصاب . وتلاحق به ولده وقومه متفرّقين على كل مفازة ، وتلوّم الوزير بالدوسن أياماً . ووافاه بذلك لحاق بني مرين[2] وانقلب إلى المغرب . ومرّ على قصور بني عامر بالصحراء فاستباحها ، وشرّدهم عنها إلى قاصية القفر ومفازة العطش . ولحق بتلمسان في ربيع الثاني .

ووفدتُ أنا بالزواودة على السلطان ورئيسهم أبو دينار بن علي بن أحمد ، فبرّ السلطان مقدمه ورعى له سوابقه عند أخيه[3] ، وخلع عليه وحمله وخلع على الوفد كافة وانصرفوا إلى مواطنهم . وبعث السلطان عمّاله على الأمصار ، وعقد لصنائعه على النواحي ، وجهّز الكتائب مع وزيره عمر بن مسعود بن منديل بن حمامة ، لحصار حمزة بن علي بن راشد من آل ثابت بن منديل ، كان ربّي في حجر الدولة ونشأ في جوّ نعمتها وسخط حاله لديهم . فنزع إلى وطن سلفه من مغراوة . ونزل بجبل بني بو سعيد فأجاروه وبايعوه على الموت دونه . وسرّح السلطان وزيره إلى الأخذ بمخنقهم ، فنزل عليهم وقاتلهم وامتنعوا في رأس شاهقهم ، فأوطن الوزير بالخميس من وادي شلف وأحجرهم بمعتصمهم . وتوافت لديه الأمداد من تلمسان ، فجهّزها

---

(١) وفي نسخة ثانية : محدقة به .

(٢) وفي نسخة ثانية : ووافاه هنالك اتحاف ابن مزني .

(٣) وفي نسخة ثانية : عند أبيه .

كتائب وبوأهم المقاعد للحصار ، وأقام هنالك واستولى السلطان على سائر الوطن من الأمصار والأعمال ، وعقد عليها واستوسق له ملك المغرب الأوسط كما كان لسلفه . والله تعالى أعلم .

* (الخبر عن اضطراب المغرب الأوسط ورجوع أبي زيان الى تيطرا واجلاب العرب بأبي حمو على تلمسان الى أن غلبهم السلطان جميعا على الأمر واستوسق له الملك) *

لما خلص أبو حمّو من وقعة الدوسن هو وأحياء بني عامر أشياعه ، لحقوا بالصحراء وأبعدوا فيها عن قصورهم قبلة جبل راشد . وجمع الوزير ونزمار بن عريف بأحياء العرب كافة من زغبة والمعقل . وكان السلطان لما احتل بتلمسان طلب العرب منه إطلاق أيديهم على ما أقطعهم أبو حمّو إيّاه من الوطن على الزبون والاعتزاز عليه ، فاستنكف من ذلك لعظم سلطانه واستبداد ملكه ، فسخطوا أحوالهم ورجوا أن يكون لأبي حمّو ظهور ينالون به من ذلك ما أمّلوه . فلمّا انهزم وقلّت عساكره ، وظهر السلطان ظهوراً لا كفاء له فيئسوا ، أجمع رحّو بن منصور أمير الخراج من عبيدالله إحدى بطون المعقل الخروج على السلطان ، ولما خرج العرب إلى مشاتيهم لحق بأبي حمّو وأحياء بني عامر وكاثروهم وقادوهم إلى العيث في الأوطان . فأجلبوا على ممالك السلطان ونازلوا وجدة في رجب من سنة إثنتين وسبعين وسبعمائة وصمدت نحوهم العساكر من تلمسان ، فأجفلوا وعاجوا إلى البطحاء فاكتسحوا أوطانها . ونهض إليهم الوزير في العساكر ففرّوا أمامه ، واتبع آثارهم إلى أن أصحروا . واستنسر خلال ذلك حمزة بن علي بن راشد ، فبيّت معسكر الوزير بمكانه من حصار شلف ، ففضّ جموعه ولحق مفلولاً بالبطحاء وبلغ الخبر إلى حصين وكانوا راهبين من السلطان ، لما اشتهر عنهم من الأجلاب على الدول والقيام بأمر الخوارج ، فجأجؤا بأبي زيان الثائر كان عندهم من مكانه بأحياء أولاد يحيى بن عليّ بن سبّاع من الزواودة ، فلحق بهم وأجلبوا على ضواحي المدية ونازلوا عسكر السلطان بها . ‌اضطرم المغرب الأوسط نازلاً ، واتصل ذلك به مدة . ولمّا كان سنة ثلاث وسبعين

وسبعمائة استمال السلطان رحّو بن منصور عن أبي حمّو وبذل له مالاً وأقطعه ما أحبّ من الضواحي ، وفعل ذلك بسائرهم وملأ صدورهم ترغيباً . واعتزم على تجهيز العساكر معهم لحسم أدواء الفساد وإخراج الثوّار من النواحي . واتهم وزيره عمر بن مسعود بالمداهنة في أمر المغراوي ، فسرّح من دولته من تقبّض عليه وأشخصه إلى حضرته مقيّداً . واعتقله بفاس وجهّز عساكره واعترض جنوده ، وعقد لوزيره أبي بكر بن غازي على حرب الثوّار والخوارج ، فنهض من تلمسان في رجب سنة ثلاث وسبعين وسبعمائة واعتمد حمزة على ابن راشد في معتصمه بجبل بني بو سعيد ، وألح عليه بالقتال فعضتهم الحرب بنابها ، وداخلهم الرعب ، وأوفدوا مشيختهم على الوزير بالطاعة . ونبذ العهد إلى حمزة فعقد لهم ما ابتغوه . ولحق حمزة بأبي زيان بمكانه من حُصَيْن . ثم أثنى عزمه عن ذلك ورجع إلى ضواحي شلف . وبيّته بعض الحامية فثبتوا في مراكزهم وانفضّ جمعه ، وتقبّض عليه وسيق إلى الوزير فاعتقله وبعث إلى السلطان في شأنه ، فأمر بقتله ، فاحتزّ رأسه ورؤوس أشياعه وبعث بهم الى السلطان وعلّق أشلاءهم بسور مليانة . ثم زحف إلى حُصَيْن فأحجرهم بمعقلهم بتيطرا ، واجتمعت إليه أحياء زغبة كافة . فأحاط بهم من كل جانب وطاولهم الحصار وعاودوهم الحرب ، وخاطبني السلطان بمكاني من الزاب ، وأوعز إليّ بنفير رياح كافّة إلى معسكر الوزير فاستنزلهم[1] بأحيائهم وناجعتهم ، ونازلنا الجبل من ناحية الصحراء مما يلي ضواحي رياح ، فأصابهم الجهد وداخلهم الرعب ، وانفضّوا من المعقل واندعروا في الجهات في المحرم فاتح أربع وسبعين وسبعمائة ولحق أبو زيّان بواركلي ، واستولى الوزير على المعقل وانتهب ما فيه ، واقتضى رهن حُصَين على الطاعة وقرّر عليهم الوضائع والمغارم ، فأعطوها عن يد . وكان أبو حمّو في خلال ذلك قد أجلب على تلمسان ينتهز الفرصة في انتباذ العسكر عن السلطان . وكان وليّه خالد بن عامر أمير بني عامر من زغبة مريد الطاعة ، لما اتهم أبو حمّو به من ولاية رديفه عبدالله بن عسكر بن معروف دونه ، فأسخطه ذلك ، وداخل السلطان عبد العزيز في الانحراف إليه عن أبي حمّو على مال حمله إليه ، فنزع عنه . وجهّز له السلطان عسكر الحرب أبي حمّو في ذي القعدة من سنة ثلاث وسبعين وسبعمائة من

---

(١) وفي نسخة ثانية : فاستنفرتهم .

بني عامر وأولاد يغمور من المعقل ، وعقد عليهم لمحمد بن عثمان من قرابة أبي بكر بن غازي وتعرّضوا للقائهم ، ففضّ جمعهم ومنحوا أكتافهم وأحيط بمعسكر أبي حمو وحلل العرب فاكتسح ما فيها واستولى بنو مرين على أمواله وحرمه وولده ، فاستاقوهم إلى السلطان وأشخصهم إلى فاس فأنزلهم بقصوره . وتقبّض على مولاه عطيّة بن موسى صاحب شلف ، فامتنّ عليه وألحقه بجملته . ونجا ابو حمّو وألقى بنفسه إلى عبدالله بن صغير مستميتاً ، فامتنّ عليه وبعث معه الادلاّء إلى تيكورارين من بلاد القبلة ، فنزلها وكان ذلك بين يدي فتح تيطرا بلبال . واستوت قدم السلطان في ملكه واستولى على المغرب الأوسط ، ودفع الثوّار والخوارج عنه . واستمال كافة العرب إلى طاعته فأتوها راغبين راهبين . ووفد عليه للوزير أبو بكر بن غازي من قاصية الشرق ومعه مشيخة العرب من كل حيّ من أحيائهم فوصلهم واحتفى بقدومهم ، وركب للقاء الوزير وطلب المشيخة في الرهن على الطاعة والاستحثاث لتشريد أبي حمّو من تيكورارين ، وأوسع حفايتهم وبرّهم وانصرفوا إلى مشاتيهم معتملين في أسباب الحركة إلى تيكورارين إلى أن كان ما نذكره إن شاءالله تعالى .

* (الخبر عن قدوم ابن الخطيب على السلطان بتلمسان نازعا اليه عن سلطانه ابن الأحمر صاحب الاندلس) *

أصل هذا الرجل من لوشة على مرحلة من غرناطة في الشمال من البسيط الذي فيه ساحتها المسمّى بالمرج على وادي سنجيل ، ويقال شنبيل المنحرف في ذلك البسيط من الجنوب إلى الشمال ، كان له بها سلف معروفون في وزارتها . وانتقل أبو عبدالله إلى غرناطة واستخدم لملوك بني الأحمر ، واستعمل على مخازن الطعام ، ونشأ ابنه محمد هذا بغرناطة وقرأ وتأدّب على مشيختها واختص بصحبة الحكيم المشهور يحيى بن هذيل ، وأخذ عنه العلوم الفلسفية وبرز في الطب وانتحل الأدب . وأخذ عن أشياخه وامتلأ حوض السلطان من نظمه ونثره مع انتقاء الجيّد منه . وبلغ في الشعر والترسيل حيث لا يجاري فيهما . وامتدح السلطان أبا الحجّاج من ملوك بني الأحمر وملأ الدولة بمدايحه وانتشرت في الآفاق قدماه ، فرقّاه السلطان إلى خدمته وأثبته في

ديوان الكتّاب ببابه مرؤساً بأبي الحسن بن الحباب[1] شيخ العدوتين في النظم والنثر وسائر العلوم الأدبية . وكاتب السلطان بغرناطة من لدن أيام محمد المخلوع من سلفه ، عندما قتل وزيره محمد بن الحكيم المستبدّ عليه كما مرّ في أخبارهم . فاستبدّ ابن الحباب برياسة الكتّاب من يومئذ إلى أن هلك في الطاعون الجارف سنة تسع وأربعين وسبعمائة ، فولّى السلطان أبو الحجّاج يومئذ محمد بن الخطيب هذا رياسة الكتاب ببابه مثنّاة بالوزارة . ولقبه بها فاستقلّ بذلك . وصدرت عنه غرائب من الترسيل في مكاتبات جيرانهم من ملوك العدوة . ثم داخله السلطان في تولية العمّال على يديه بالمشارطات ، فجمع له بها أموالاً . وبلغ به المخالصة إلى حيث لم يبلغ بأحد من قبله . وسفر عنه إلى السلطان أبي عنان ملك بني مرين بالعدوة مغرياً بأبيه السلطان أبي الحسن فجلّى في اغراض سفارته .

ثم هلك السلطان أبو الحجّاج سنة خمس وخمسين وسبعمائة عدا عليه بعض الزعانف يوم الفطر بالمسجد في سجوده للصلاة ، وطعنه فأشواه وفاض لوقته ، وتعاورت سيوف الموالي المعلوجي هذا القاتل فمزقوه أشلاء . وبويع ابنه محمد بالأمر لوقته ، وقام بأمره مولاهم رضوان الراسخ القدم في قيادة عساكرهم وكفالة الأصاغر من ملوكهم . واستبدّ بالدولة ، وأفراد ابن الخطيب بوزارته كما كان لأبيه ، واتخذ لكتابته غيره ، وجعل ابن الخطيب رديفاً له في أمره وتشاركافي الاستبداد معاً ، فجرت الدولة على أحسن حال وأقوم طريقة . ثم بعثوا الوزير ابن الخطيب سفيراً إلى السلطان أبي عنان مستمدّين له على عدوّهم الطاغية على عادتهم مع سلفه . فلمّا قدم على السلطان ومثل بين يديه ، تقدّم الوفد الذين معه من وزراء الأندلس وفقهائها استأذنه في إنشاد شيء من الشعر يقدّمه بين يدي نجواه ، فأذن له ، وأنشد وهو قائم :

خليفـــةَ اللهِ ساعَـــدَ القَـــدَرُ ... عُلاك مـا لاحَ في الـدُجى قَمَرُ
ودافَعَتْ عنكَ كـفّ قُـدْرَتــهِ ... مـا ليس يستطيعُ دَفْعَـهُ البَشَرُ
وَجْـهُكَ في النائباتِ بَدْرُدُجى ... لنـا وفي المُحْـلِ كفّكَ المَطَرُ
والنـاسُ طرّاً بـأرضِ أنْـدَلُسٍ ... لـولاك مـا أوطِنوا ولا عَمَرُوا

---

(١) وفي نسخة ثانية : الجياب .

وَجُمْلَـــةُ الأَمرِ أَنَّـــهُ وَطَنٌ		في غيرِ عَلْيَـــاكَ مـالَـــه وَطَرُ
ومن بِـــهِ مـذ وَصَلْتَ حَبْلَهُمْ		مـا جحـدوا نعمـةً ولا كَفَـرُوا
وقـــــد أَهَمَّتْهُم نُفوسُهُـم		فَوَجَّهُوني إليكَ وانتظروا .

فاهتزّ السلطان لهذه الأبيات وأذن له في الجلوس . وقال له قبل أن يجلس : ما ترجع إليهم إلاّ بجميع عطائهم[1] . ثم أثقل كاهلهم بالإحسان ، وردّهم بجميع ما طلبوه . وقال شيخنا القاضي أبو القاسم الشريف وكان معه في ذلك الوفد : لم يسمع بسفير قضى سفارته قبل أن يسلّم على السلطان إلاّ هذا . ومكثت دولتهم هذه بالأندلس خمس سنين . ثم نازلهم[2] محمد الرئيس ابن عمّ السلطان يشاركه في جدّه الرئيس أبي سعيد . وتحيّن خروج السلطان إلى منتزهه خارج الحمراء . وتسوّر دارالملك المعروفة بالحمراء وكبس رضواناً في بيته ، فقتله . وذهب للملك اسماعيل ابن السلطان أبي الحجّاج ، لما كان صهره على شقيقته . وكان معتقلاً بالحمراء ، فأخرجه وبايع له وقام بأمره مستبدّاً عليه . وأحسّ السلطان محمد بقرع الطبول وهو بالبستان ، فركب بادياً إلى وادي آش وضبطها . وبعث بالخبر إلى السلطان أبي سالم إثر ما استولى على ملك آبائه بالمغرب . وقد كان مثواه أيام أخيه أبي عنان عندهم بالأندلس . واعتقل الرئيس القائم بالدولة هذا الوزير ابن الخطيب وضيّق عليه في محبسه . وكانت بينه وبين الخطيب ابن مرزوق مودّة استحكمت أيام مقامه بالأندلس كما مرّ . وكان غالباً على هوى السلطان أبي سالم ، فزيّن له استدعاء هذا السلطان المخلوع من وادي آش يعده زبوناً على أهل الأندلس ، ويكفّ به عادية القرابة المرشّحين هنالك متى طمحوا إلى ملك المغرب . فقبل ذلك منه . وخاطب أهل الأندلس في تسهيل طريقه من وادي آش إليه . وبعث من أهل مجلسه الشريف أبا القاسم التلمساني ، وحمله مع ذلك الشفاعة في ابن الخطيب . وحل معتقله . فأطلق ، وصحب الشريف أبا القاسم إلى وادي آش . وسار في ركاب السلطان . وقدموا على السلطان أبي سالم فاهتزّ لقدوم ابن الأحمر . وركب في المواكب لتلقّيه . وأجلسه أزاء كرسيّه ، وأنشد ابن الخطيب قصيدته كما مرّ يستصرخ السلطان لنصره ، فوعده وقد

(١) وفي نسخة ثانية : طلباتهم .
(٢) وفي نسخة ثانية : ثم ثار بهم .

كان يوماً مشهوداً وقد مرّ ذكره . ثم أكرم مثواه وأرغد نُزُله ، ووفر أرزاق القادمين في ركابه وانتصر به . وأرغد عيش ابن الخطيب في الجراية والأقطاع . ثم استأنس واستأذن السلطان في التحوّل إلى جهات مراكش والوقوف على آثار الملك بها ، فأذن له وكتب إلى العمّال باتحافه ، فتبادروا في ذلك وحصل منه على حظّ وعندما مرّ بسلا في قفوله من سفره ، دخل مقبرة الملوك بشالة ووقف على قبر السلطان أبي الحسن وأنشد قصيدته على رويّ الراء الموصولة يريثه ويستثير به استرجاع ضياعه بغرناطة مطلعها :

إنْ بــانَ مَنْزِلُــهُ وَشَطَّتْ دَارُهُ ... قــامَتْ مَقَــامَ عَيَــانِـهِ أَخْبَــارُهُ
قَسِّمْ زَمَـــانَكَ عِبْرَةً أو غيرةً[1] ... هـــذا ثَـراه وهــذه آثــارُهُ

فكتب السلطان أبو سالم في ذلك إلى أهل الأندلس بالشفاعة ، فشفعوه . واستقرّ هو بسلا منتبذاً عن سلطانه طول مقامه بالعدوة . ثم عاد السلطان محمد المخلوع إلى ملكه بالأندلس سنة ثلاث وستين وسبعمائة كما مرّ في أخباره . وبعث عن مخلّفه بفاس من الأهل والولد والقائم بالدولة يومئذ عمر بن عبدالله بن علي فاستقدم ابن الخطيب من سلا وبعثهم لنظره . فسرّ السلطان بمقدمه وردّه إلى منزلته كما كان مع رضوان كافله .
وكان عثمان بن يحيى عمر شيخ الغزاة وابن أشياخهم قد لحق بالطاغية في ركاب أبيه عندما أحسّ بالشرّ من الرئيس صاحب غرناطة . وأجاز يحيى من هنالك إلى العدوة وأقام عثمان بدار الحرب ، فصحب السلطان في مثوى اغترابه هنالك ، وتغلب في مذاهب خدمته . وانحرفوا عن الطاغية بعد ما يئسوا من الفتح على يديه ، فتحوّلوا عنه إلى ثغور بلاده . وخاطبوا عمر بن عبدالله في أن يمكّنهم من بعض الثغور الغربية التي أطاعتهم بالأندلس ، يرتقبون منها الفتح . وخاطبني السلطان المخلوع في ذلك ، وكانت بيني وبين عمر بن عبدالله ذمّة مرعيّة ومخالصة متأكدة ، فوفيت للسلطان بذلك من عمر بن عبدالله . وحملته على أن يردّ عليه مدينة رندة إذ هي من تراث سلفه ، فقبل إشارتي في ذلك . وتسوّرها السلطان المخلوع ، ونزل بها وعثمان بن يحيى في جملته . وهو مقدّم في بطانته .
ثم غزوا منها مالقة ، فكانت ركاباً للفتح . وملكها السلطان واستولى بعدها على دار

---

[1] وفي نسخة ثانية : غيرة أو عبرة .

ملكها بغرناطة ، وعثمان بن يحيى مقدّم القوم في الدولة عريق في المخالصة ، وله على السلطان دالة واستبداد على هواه . فلما فصل ابن الخطيب بأهل السلطان وولده ، وأعاده السلطان إلى مكانه من الدولة من علوّ يده وقبول إشارته ، فأدركته الغيرة من عثمان ، ونكر على السلطان الاستكفاء به ، والتخوّف من هؤلاء الأعياص على ملكه ، فحذره السلطان وأخذ في التدبير عليه حتى نكبه وأباه وإخوته في رمضان سنة أربع وستين وسبعمائة وأودعهم المطبق . ثم غرّبهم بعد ذلك ، وخلا لابن الخطيب الجوّ وغلب على هوى السلطان ودفع إليه تدبير المملكة ، وخلط بينه بندمائه وأهل خلوته ، وانفرد ابن الخطيب بالحلّ والعقد وانصرفت إليه الوجوه وعلقت عليه الآمال ، وغشي بابه الخاصّة والكافّة . وغصّت به بطانة السلطان وحاشيته ، فتوافقوا على السعاية فيه(١) وقد صُمَّ السلطان عن قبولها . ونمي الخبر بذلك الى ابن الخطيب ، فشمّر عن ساعده في التقويض عنهم . واستخدم للسلطان عبد العزيز ابن السلطان أبي الحسن ملك العدوة يومئذ في التقبّض على ابن عمّه عبد الرحمن بن أبي يفلوسن ابن السلطان أبي علي . كانوا قد نصّبوه شيخاً على الغزاة في الأندلس لما أجاز من العدوة بعدما جاس خلالها لطلب الملك ، وأضرم بها نار الفتنة في كل ناحية وأحسن دفاعه الوزير عمر بن عبدالله القائم حينئذ بدولة بني مرين ، فاضطرّ إلى الإجازة إلى الأندلس ، فأجاز هو ووزيره مسعود بن ماسي ونزلوا على السلطان على المخلوع أعوام سبع وستين وسبعمائة فأكرم نزلهم ، وتوفي علي بن بدر الدين شيخ الغزاة ، فقدم عبد الرحمن مكانه . وكان السلطان عبد العزيز قد استبدّ بملكه بعد قتله الوزير عمر بن عبدالله ، فغصّ بما فعله السلطان المخلوع من ذلك . وتوقّع انتقاض أمره منهم . ووقف على مخاطبات ابن عبد الرحمن يسرّبها في بني مرين ، فجزع لذلك . وداخله ابن الخطيب في اعتقال ابن أبي يفلوسن وابن ماساي واراحة نفسه من شغبهم ، على أن يكون له المكان من دولته متى نزع إليه ، فأجابه إلى ذلك وكتب له العهد بخطه ، على يد سفيره إلى الأندلس ، وكاتبه أبي يحيى بن أبي مَدْيَن . بني مرين وأغرى ابن الخطيب سلطانه بالقبض على ابن أبي يفلوسن وابن ماسي فتقبّض عليهما. واعتقلها وفي خلال ذلك استحكمت نفرة ابن الخطيب لما بلغه عن البطانة من القدح فيه والسعاية . وربّما خيّل أنّ السلطان مال إلى قبولها وأنّهم قد

(١) وفي نسخة ثانية : فتفننوا في السعايات فيه .

أحفظوه عليه ، فأجمع التحوّل عن الأندلس إلى المغرب . واستأذن السلطان في تفقّد الثغور الغربيّة . وسار إليها في لمّة من فرسانه ، ومعه ابنه عليّ الذي كان خالصة السلطان وذهب لطبنه . فلما حاذى جبل الفتح فرضة المجاز إلى العدوة ، مال إليه وسرّح إذنه بين يديه ، فخرج قائد الخيل لتلقّيه . وقد كان السلطان عبد العزيز قد أوعز إليه بذلك ، وجهّز إليه الأسطول من حينه ، فأجاز إلى سبتة وتلقّاه بها بأنواع التكرمة وامتثال الأوامر[1] . ثم سار لقصد السلطان ، فقدم عليه سنة ثلاث وسبعين وسبعمائة بمقامته من تلمسان ، فاهتزّت له الدولة . وأركب السلطان خاصّته لتلقّيه ، وأحلّه بمجلسه بمحل الأمن والغبطة ، ومن دولته بمكان الشرف[2] والعزّة . وأخرج لوقته كاتبه أبا يحيى بن أبي مَدْيَن سفيراً إلى الأندلس في طلب أهله وولده ، فجاء بهم على أكمل الحالات من الأمن والتكرمة . ثم لغط المنافسون له في شأنه وأغروا سلطانه بتتبع عثراته ، وأبدى ما كان كامناً في نفسه من سقطات دالته وإحصاء عصابته[3] . وشاع على ألسنة أعدائه كلمات منسوبة إلى الزندقة أحصوها عليه ونسبوها إليه . ورفعت إلى قاضي الحضرة الحسن بن الحسن ، فاسترعاها[4] وسجّل عليه بالزندقة . وراجع صاحب الأندلس رأيه فيه . وبعث القاضي أبو الحسن إلى السلطان عبد العزيز في الانتقام منه بتلك السجلات ، وامضاء حكم الله فيه ، فصمّ لذلك وأنف لذمّته أن تخفر ولجواره أن يردى[5] وقال لهم : هلا انتقمتم وهو عندكم وأنتم عالمون بما كان عليه ؟ وأما أنا فلا يخلص إليه بذلك أحد ما كان في جواري . ثم وفّر الجراية والاقطاع له ولبنيه ولمن جاء من فرسان الأندلس في جملته . فلمّا هلك السلطان عبد العزيز سنة أربع وسبعين وسبعمائة ورجع بنو مرين إلى المغرب وتركوا تلمسان ، سار هو في ركاب الوزير أبي بكر بن غازي القائم بالدولة ، فنزل بفاس واستكثر من شراء الضياع وتأنّق في بناء المساكن واغتراس الجنات ، وحفظ عليه القائم بالدولة الرسوم التي رسمها له السلطان المتوفي . واتصلت حاله على ذلك إلى أن كان ما نذكره إن شاءالله تعالى .

---

(١) وفي نسخة ثانية : المراسيم .

(٢) وفي نسخة ثانية : البنوّة .

(٣) وفي نسخة ثانية : مغائبه .

(٤) وفي نسخة ثانية : فاستر داها .

(٥) وفي نسخة ثانية : أن يرد .

الخبر عن مهلك السلطان عبد العزيز وبيعة ابنه السعيد واستبداد أبي بكر بن غازي عليه ورجوع بني مرين إلى المغرب

كان السلطان منذ أوّل نشأته قد أزمنت به الحمى بما أصابه من مرض النحول ، ولأجل ذلك تجافى السلطان أبو سالم على احتماله مع الأبناء إلى رندة . ولما شبّ أفاق من مرضه وصلح بدنه . ثم عاوده وجعه في مثواه بتلمسان وتزايد نحوله . ولما كمل الفتح واستفحل سلطانه واشتدّ به الوجع وصابر المرض وكتمه عن الناس خشية الأرجاف ، واضطرب معسكره خارج تلمسان للحاق بالمغرب ، ولما كان ليلة الثاني والعشرين من ربيع الآخر سنة أربع وسبعين وسبعمائة قضى متودّعاً بين أهله وولده ودسّ الخدم بالخبر إلى الوزير ، فخرج على الناس وقد احتمل محمد السعيد ابن السلطان على كنفه فعزّى الناس عن خليفتهم لسبع سنين من خلافته ، وألقى ابنه بين أيديهم فازدحموا عليه باكين متفجّعين ، يعطونه الصفقة ويقبّلون يديه للبيعة ، وأخرجوه للمعسكر . ثم أخرج الوزير شلو السلطان على أعواده وأنزله بفساطيطه ، وأيقظ بالليل بحراسة المعسكر . وأذن للناس بالرحيل ، فخرجوا أفواجاً إلى المحلّة . ثم ارتحلوا لثلاث ، وأغذّوا السير إلى المغرب واحتلوا بتازى ثم أغذّوا السير إلى فاس ، واحتلّ ابن السلطان بدار ملكه وجلس للبيعة العامّة بقصره . وتوافت وفود الأمصار ببيعتهم على العادة . واستبدّ عليه الوزير أبو بكر بن غازي ، وحجبه بقصره وحجره عن التصرّف في شيء من سلطانه ، ولم يكن في سنّ التصرّف ، واستعمل على الجهات وجلس بمجلس الفضل ، واشتغل بأمر المغرب إبراماً ونقضاً إلى أن كان ما نذكره إن شاء الله تعالى

* (الخبر عن استيلاء أبي حمو على تلمسان والمغرب الأوسط) *

لما فصل بنو مرين من تلمسان إثر مهلك السلطان عبد العزيز واحتلوا بتازي اجتمع المشيخة وعقدوا على تلمسان لابراهيم ابن السلطان أبي تاشفين كان ربيّ في كفالة

دولتهم منذ مهلك أبيه ، فآثروه بذلك لخلوصته . وبعثوه مع رحّو بن منصور أمير عبيدالله من المعقل ، وسرّحوا معهما من كان بالمغرب من مغراوة إلى وطن ملكهم بشلف . وعقدوا عليهم لعليّ بن هرون بن منديل بن عبد الرحمن وأخيه رحمون وانصرفوا إلى بلادهم . وكان عطية بن موسى مولى أبي حمّو قد صار إلى السلطان عبد العزيز وألحقه بجملته وبطانته ، فلمّا هلك السلطان خرج من القصر واختفى بالبلد حتى إذا فصل بنو مرين من معسكرهم ظاهر البلد ، خرج من مكان اختفائه ، وقام بدعوة مولاه أبي حمّو ، واجتمع إليه شيعة من أهل البلد مع من تأشّب إليه من الغوغاء ، وحملوا الخاصة على البيعة لأبي حمّو ، ووصلهم ابراهيم بن أبي تاشفين مع رحّو بن منصور وقومه من عبيدالله ، فنبذوه وامتنعوا عليه ، فرجع عنهم إلى المغرب ، وطيّر أولاد يعمور أولياء أبي حمو من عبيدالله بالخبر إليه وهو بمثواه من تيكورارين . واتصل بابنه أبي تاشفين وهو عند يحيى بن عامر[1] فدخل إلى تلمسان ومن معه من بني عبد الواد ، وتساقط إليه فلّهم من كل جانب ، ووصل السلطان على أثرهم بعد اليأس منه ، فدخلها في جمادى من سنة أربع وسبعين وسبعمائة واستقل بملكه ، وتقبّض على بطانته الذين آسفوه في اغترابه ، ونمي له عنهم السعي عليه ، فقتلهم ، ورجع ملك بني عبد الواد وسلطانهم ، ونهض إلى مغراوة أولياء بني مرين بمكانهم من شلف ، فغلبهم عليه بعد مطاولة وحروب سجال هلك فيها رحمون بن هرون ، ومحا دعوة بني مرين من ضواحي المغرب الأوسط وأمصاره ، واستقلّ بالأمر حسبما ذكرناه في أخباره . واتصل الخبر بالوزير أبي بكر بن غازي فهمّ بالنهوض إليه . ثم ثنى عزمه ما كان من خروج الأمير عبد الرحمن بناحية بطوية فشغله شأنه عن ذلك .

الخبر عن إجازة الأمير عبد الرحمن بن أبي يفلوسن الى المغرب واجتماع بطوية إليه وقيامهم بشأنه

كان محمد المخلوع ابن الأحمر قد رجع من رندة إلى ملكه بغرناطة في جمادى من سنة

(١) وفي نسخة ثانية : وهو بحي بني عامر .

ثلاث وستين وسبعمائة وقتل له الطاغية عدوّه الرئيس المنتزي على ملكهم حين هرب من غرناطة إليه وفاء بعهد المخلوع ، واستوى على كرسيّه واستقلّ بملكه ، ولحق به كاتبه وكاتب أبيه محمد بن الخطيب واستخلصه وعقد له على وزارته ، وفوّض إليه في القيام بملكه فاستولى عليه وملك هواه . وكانت عينه ممتدّة إلى المغرب وسكناه إلى أن نزلت به آفة في رياسته ، فكان لذلك يقدم السوابق والوسائل عند ملوكه ، وكان لابناء السلطان أبي الحسن كلّهم غيرة على ولد عمّهم السلطان أبي عليّ ويخشونهم على أمرهم . ولمّا لحق الأمير عبد الرحمن بالأندلس اصطفاه ابن الخطيب واستخلصه لنجواه ، ورفع في الدولة رتبته وأعلى منزلته ، وحمل السلطان على أن عقد له على الغزاة والمجاهدين من زناتة مكان بني عمّه من الأعياص ، فكانت له آثار في الاضطلاع بها ، ولما استبدّ السلطان عبد العزيز بأمره واستقل بملكه ، وكان ابن الخطيب ساعياً في مرضاته عند سلطانه ، فدسّ إليه باعتقال عبد الرحمن بن أبي يفلوسن ووزيره المطارد به مسعود بن ماسي ، وأدار ابن الخطيب في ذلك مكره وحمل السلطان عليهما إلى أن سطا بهما ابن الأحمر واعتقلهما سائر أيام السلطان عبد العزيز سلطان المغرب سنة إثنتين وسبعين وسبعمائة لما قدّم من الوسائل ومهّد من السوابق فقدمه السلطان وأحلّه من مجلسه محل الاصطفاء والقرب . وخاطب ابن الأحمر في أهله وولده ، فبعثهم إليه واستقرّ في جملة السلطان . ثم تأكدت العداوة بينه وبين ابن الأحمر فرغب السلطان في ملك الأندلس وحمله عليه وتواعدوا لذلك عند مرجعه من تلمسان إلى المغرب . ونمي ذلك إلى ابن الأحمر فبعث إلى السلطان بهديّة لم يسمع بمثلها ، انتقى فيها من متاع الأندلس وماعونها وبغالها الفارهة ومعلوجي السبي وجواريه ، وأوفد بها رسله يطلب إسلام وزيره ابن الخطيب إليه ، فأبى السلطان من ذلك ونكره ، ولمّا هلك واستبدّ الوزير ابن غازي بالأمر تحيّز إليه ابن الخطيب وداخله وخاطبه ابن الأحمر فيه بمثل ما خاطب السلطان ، فلم يؤب[1] واستنكف ذلك وأقبح الردّ ، وانصرف رسله إليه ، وقد رهب سطوته ، فأطلق ابن الأحمر لحينه عبد الرحمن بن أبي يفلوسن وأركبه الأسطول وقذف به إلى ساحل بطوية ومعه الوزير مسعود بن ماسي ونهض إلى جبل الفتح فنازله بعساكره

(١) وفي نسخة ثانية : فلجّ .

ونزل عبد الرحمن ببطوية في ذي القعدة من سنة أربع وسبعين وسبعمائة ، ومعه وزيره مسعود بن ماسي ، فاجتمع قبائل بطوية إليه وبايعوه على القيام بدعوته والموت دونه ، واتصل الخبر بالوزير أبي بكر بن غازي فعقد لابن عمه محمد بن عثمان على سبتة وبعثه لسدّ ثغورها لما خشي عليها من ابن الأحمر ، ونهض من فاس بالآلة والعساكر ونازل عبد الرحمن ببطوية ، فقاتله أياماً ثم رجع إلى تازى ثم إلى فاس ، ودخل الأمير عبد الرحمن تازي واستولى عليها ، ودخل الوزير إلى فاس وقعد بمجلس الفصل ، وهو مجمع العودة إلى تازي لتشريد عدوّه إلى أن جاء الخبر ببيعة السلطان أبي العباس أحمد بن أبي سالم كما نذكره إن شاء الله تعالى .

الخبر عن بيعة السلطان أبي العباس أحمد بن أبي سالم واستقلاله بالملك وما كان خلال ذلك من الأحداث

لما نزل محمد بن عثمان بالثغر من سبتة لسدّ فروجها ، ومدافعة ما يخشى من عادية ابن الأحمر عليها ، وكان قد طاول حصار جبل الفتح وأخذ بمخنّقه ، وتكرّرت المراسلة بينه وبين محمد بن عثمان بالعتاب ، فاستعتب له وقبّح ما جاء به ابن عمّه من الاستغلاظ له ، فوجد ابن الأحمر بذلك السبيل إلى غرضه ، وداخله في البيعة للسلطان أبي سالم من الأبناء الذين كانوا بطنجة تحت الرقبة والحوطة ، وأن يقيمه للمسلمين سلطاناً يحوط سياجهم[1] ويدافع عنهم ولا يتركهم فوضى وهملاً . ويجب[2] بيعة الصبيّ الذي لم تنعقد بيعته شرعاً ، واختصّ هذا بالسلطان من بين أولئك الأبناء وفاء بحقوق أبيه ، ووعده بالمظاهرة على ذلك ، واشترط عليه أن ينزلوا له عن الجبل اذا انعقد أمرهم ، ويشخصوا إليه بيعة الأبناء والقرابة من طنجة ليكونوا في إيالته وتحت حوطته ، وأن يبعثوا إليه ابن الخطيب متى قدروا عليه ، ويبعثوا إليه بقية الأبناء والقرابة فقبل محمد بن عثمان شرطه كان سفيره في ذلك أحمد المَرْغَنِي[3] من طبقات كتّاب الأشغال بسبتة ، كان السلطان أبو الحسن تزوّج أمّه

(١) وفي نسخة ثانية : يحول بسياجهم .
(٢) جبّه : قطعه ، وهنا تعني يمنع .
(٣) وفي نسخة ثانية : الرعيني .

ليلة إجازته من واقعة طريف وافتقاد حظاياه ، حتى لحق به الحرم من فاس ، فردّها إلى أهلها ونشأ المرغني في توهّم هذه الكفالة ، فانتفخ نحره لذلك ويحسبها وصلة إلى أبناء السلطان أبي الحسن ، وكان سفيراً بين محمد بن عثمان وابن الأحمر ، فأمّل الرياسة في هذه الدولة ، وركب محمد بن عثمان من سبتة إلى طنجة ، وقصد مكان اعتقالهم . واستدعى أبا العبّاس أحمد ابن السلطان أبي سالم من مكانه مع الأبناء فبايع له ، وحمل الناس على طاعته ، واستقدم أهل سبتة بكتاب للبيعة ، فقدموا وخاطب أهل الجبل فبايعوا ، وأفرج ابن الأحمر عنهم . وبعث إليه محمد بن عثمان بالنزول عن جبل الفتح ، وخاطبوا أهله بالرجوع إلى طاعته ، فارتحل من مالقة إليه ودخله واستولى عليه ، ومحا دعوة بني مرين مما وراء البحر ، وأهدى للسلطان أبي العبّاس وأمدّه بعسكر من غزاة الأندلس وحمل إليه مالاً للإعانة على أمره .

وكان محمد بن عثمان عند فصوله من فاس ، وودّعه الوزير ابن عمّه فاوضه في شأن السلطان ، وأن يقدّم للناس إماماً يرجعون إليه ويترك له أمرهم ، وآمره في ذلك ، ولم يفترقا على مبرم من أمرهم . فلمّا ارتكب هذا المرتكب وجاء بهذا الأمر ، خاطب الوزير يموّه عليه بأنه فعل بمقتضى المؤامرة ، وأنّه عن إذنه والله أعلم بما دار بينهما ، ولجّ الوزير في تكذيبه والبراءة للناس مما رمى به ولاطفه في نقض ذلك الأمر ، وردّ أبا العباس إلى مكانه مع الأبناء تحت الحوطة ، وأبى محمد بن عثمان من ذلك ودافعه باجتماع الناس عليه وانعقاد الأمر . وبينما الوزير يروم ذلك جاءه الخبر بأنّ محمد بن عثمان أشخص الأبناء المعتقلين كلّهم إلى الأندلس ، وأنهم حصلوا في كفالة ابن الأحمر ، فوجم وأعرض عن ابن عمّه وسلطانه ، ونهض إلى تازى ليفرغ من عدوّه إليهم ، فنازل الأمير عبد الرحمن وأخذ بمخنقه ، واهتبل محمد بن عثمان الغرّة في ملك المغرب ، فوصله مدد السلطان ابن الأحمر وعسكره تحت رايته ، عقدها عليهم ليوسف بن سليمان بن عثمان بن أبي العلاء من مشيخة الغزاة المجاهدين ، وعسكر آخر من رجل الأندلس الناشبة يناهزون سبعمائة . وبعث ابن الأحمر رسله إلى الأمير عبد الرحمن باتصال اليد بابن عمّه السلطان أبي العبّاس أحمد ، ومظاهرته على ملك سلفه بفاس واجتماعهما لمنازلتها ، وعقد بينهما الاتفاق والمواصلة وأن يختصّ عبد الرحمن بملك سلفه فتراضيا ، وزحف محمد بن عثمان وسلطانه إلى فاس خالفوا إليه

الوزير وانتهوا إلى قصر ابن عبد الحليم[1] ، وبلغ الخبر إلى الوزير بمكانه من حصار تازى فانفضّ معسكره ورجع إلى فاس ونزل بكدية العرائس .

وانتهى السلطان أبو العباس أحمد إلى زرهون ، فصمد إليه الوزير بعساكره ، وصمّم نحوه بمكانه من قنّة الجبل ، فاختل مصافه وانهزمت ساقة العسكر من ورائه ، ورجع على عقبه مفلولاً وانتهب المعسكر ودخل إلى البلد الجديد . وجأجأ بالعرب أولاد حسين أن يعسكروا له بالزيتون ظاهر فاس ، ويخرج بجموعه إلى حللهم ، فنهض إليهم الأمير عبد الرحمن من تازى بمن كان معه من العرب الأحلاف وشرّدهم إلى الصحراء ، وشارف السلطان أبا العبّاس أحمد بجموعه العرب وزناتة ، وبعثوا إلى وليّ سلفهم ونزمار بن عريف بمكانه من قصر مرادة الذي اختطّه بملوية فجاءهم وأطلعوه على كامن أسرارهم ، فأشار عليهم بالاجتماع والاتفاق فاجتمعوا بوادي النجا . وحضر لعقدهم واتفاقهم وحلفهم على اتصال اليد على عدوّهم ومنازلته بالبلد الجديد حتى يمكن الله منه وارتحلوا بجمعهم إلى كدية العرائس في ذي القعدة من سنة خمس وسبعين وسبعمائة وبرز إليهم الوزير بعساكره فدارت الحرب وحمي الوطيس واشتدّ القتال ملياً . ثم زحف إليه العسكران بساقتهما وآلتهما فاختلّ مصافه وانهزمت جيوشه وجموعه وأحيط به ، وخلص إلى البلد الجديد بعد غصّ الريق . وأضرب السلطان أبو العبّاس معسكره بكدية العرائس ، ونزل الأمير عبد الرحمن بأزائه ، وضربوا على البلد الجديد سياجاً بالبناء للحصار وأنزلوا بها أنواع القتال والأرهاف .

ووصلهم مدد السلطان ابن الأحمر من رجال الناشبة ، واحتكموا في ضياع ابن الخطيب بفاس ، فهدموها وعاثوا فيها . ولمّا كان فاتح سنة ست وسبعين وسبعمائة داخل محمد بن عثمان ابن عمه أبا بكر في النزول عن البلد الجديد والبيعة للسلطان ، لما كان الحصار قد اشتدّ ويئس من الصريخ ، وأعجزه المال فأجاب واشترط عليهم الأمير عبد الرحمن التجافي له في أعمال مراكش ، وأن يديلوه بها من سجلماسة فعقدوا له على كره ، وطووا على المكر . وخرج الوزير أبو بكر للسلطان أبي العبّاس أحمد ، وبايعه واقتضى عهده بالأمان وتخلية سبيله من الوزارة فبذله . ودخل السلطان أبو

---

(١) وفي نسخة ثانية : عبد الكريم .

العباس أحمد إلى البلد الجديد سابع المحرم . وارتحل الأمير عبد الرحمن يومئذ إلى مراكش واستولى عليها ، وارتحل معه علي بنْ عمر بن ويغلان شيخ بني مرين والوزير ابن ماسي ، ثم نزع عنه ابن ماسي إلى فاس لعهد كان قد اقتضاه من السلطان أبي العبّاس ، وأجاز البحر إلى الأندلس فاستقرّ بها في إيالة ابن الأحمر ، واستقلّ السلطان أبو العبّاس ابن السلطان أبي سالم بـملك المغرب ووزيره محمد بن عثمان ، وفوض إليه شؤونه وغلب على هواه . وصار أمر الشورى إلى سليمان بن داود ، كان نزع إليه من البلد الجديد من جملة أبي بكر بن غازي بعد أن كان أطلقه من محبسه ، واستخلصه . وجعل إليه مرجع أمره فتركه أحوج ما كان إليه ، ولحق بالسلطان أبي العباس بـمكانه من حصار البلد الجديد . فلمّا استوسق ملكه ألقى الوزير محمد بن عثمان مقاد الدولة له ، وصار إليه أمر الشورى ورياسة المشيخة . واستحكمت المودّة بينه وبين ابن الأحمر وتأكّدت المداخلة . وجعلوا إليه المرجع في نقضهم وابرامهم لمكان الأبناء المرشحين من إيالته . ولمّا ارتحل الأمير عبد الرحمن إلى مراكش نبذوا إليه العهد وتعللوا عليه بأنّ العقد الأوّل له ، إنّما كان على ملك سلفه ومراكش إنما ألجأهم إلى العقد عليها إلجاء ، واعتزموا على النهوض إليه ثم أقصروا وانعقدت بينهما السلم سنة ست وسبعين وسبعمائة وجعلوا التخم بينهما أزمور وعقدوا على ثغرها لحسّان الصبيحي فلم يزل عليها إلى أن هلك كما نذكره إن شاء الله تعالى .

* (الخبر عن مقتل ابن الخطيب) *

ولما استولى السلطان أبو العباس على البلد الجديد دار ملكه فاتح ست وسبعين وسبعمائة واستقلّ بسلطانه والوزير محمد بن عثمان مستبدٌ عليه ، وسليمان بن داود رديف له ، وقد كان الشرط وقع بينه وبين السلطان ابن الأحمر عندما بويع بطنجة على نكبة ابن الخطيب وإسلامه إليه لِمَا نمي إليه عنه أنه كان يغري السلطان عبد العزيز لملك الأندلس . فلما زحف السلطان أبو العباس من طنجة ولقي الوزير أبا بكر بن غازي بساحة البلد الجديد ، فهزمه السلطان ولاذ منه بالحصار ، آوى معه ابن الخطيب إلى البلد الجديد خوفاً على نفسه ، فلما استولى السلطان على البلد الجديد أقام أياماً ، ثم أغراه سليمان بن داود بالقبض عليه فقبضوا عليه وأودعوه السجن ، وطيّروا بالخبر إلى

السلطان ابن الأحمر وكان سليمان بن داود شديد العداوة لابن الخطيب لما كان سليمان قد تابع السلطان ابن الأحمر على مشيخة الغزاة بالأندلس ، حتى أعاده الله إلى ملكه . فلما استقرّ له سلطانه أجاز إليه سليمان سفيراً عن عمر بن عبدالله ومقتضياً عهده من السلطان . فصدّه ابن الخطيب عن ذلك بأنّ تلك الرياسة إنّما هي لأعياص الملك من آل عبد الحق ، لأنهم يعسوب زناتة . فرجع سليمان آيساً[1] وحقد ذلك لابن الخطيب . ثم جاور الأندلس بمحل إمارته من جبل الفتح ، فكانت تقع بينه وبين ابن الخطيب مكاتبات ينفّس كل منهما لصاحبه بما يحفظه لما كمن في صدورهما . وحين بلغ الخبر بالقبض على ابن الخطيب إلى السلطان بعث كاتبه ووزيره بعد ابن الخطيب ، وهو أبو عبدالله بن زمرك ، فقدم على السلطان أبي العبّاس وأحضر ابن الخطيب بالشورى في مجلس الخاصّة وأهل الشورى ، وعرض عليه بعض كلمات وقعت له في كتابه ، فعظم عليه النكرير فيها ، فوبّخ ونكل وامتحن بالعذاب بمشهد ذلك الملائم تل إلى محبسه. واشتوروا في قتله بمقتضى تلك المقالات المسجّلة عليه ، وأفتى بعض الفقهاء فيه ودسّ سليمان بن داود إليه لبعض الأوغاد من حاشيته بقتله ، فطرقوا السجن ليلاً ومعهم زعانفة جاؤوا في لفيف الخدم مع سفراء السلطان ابن الأحمر ، وقتلوه خنقاً في محبسه ، وأخرجوا شلوه من الغد فدفن في مقبرة باب المحروق ، ثم أصبح من الغد على شافة قبرّه طريحاً وقد جمعت له أعواد واضرمت عليه ناراً ، فاحترق شعره واسودّ بشره ، وأعيد إلى حفرته ، وكان في ذلك انتهاء محنته وعجب الناس من هذه السفاهة التي جاء بها سليمان واعتدّوها من هناته ، وعظم النكير فيها عليه وعلى قومه وأهل دولته ، والله الفعال لما يريد وكان عفى الله عنه أيام امتحانه بالسجن يتوقع مصيبة الموت ، فيتجيش هو أتقه بالشعر يبكي نفسه (ومما قال في ذلك) :

بَعُدْنا وإنْ جَاوَرَتْنا البيوتُ ... وجئْنا بوَعْظٍ[2] ونحنُ صمُوتْ
وأَنْفَاسُنا سَكَنَتْ دَفْعَةً ... كَجَهْرِ الصَّلاتِ تَلاهُ القُنوتْ

---

(١) وفي نسخة ثانية : يائساً .
(٢) وفي نسخة ثانية : لوعد .

وكُنّـا عظـامـاً فَصِرْنَـا عِظَـامـاً وكُنّـا نَقوتُ فهـا نحنُ قوتْ
وكُنّـا شُموسَ سَماءِ العُلا عزين فناحت عليها البيوت[1]
فكَمْ جَزَلَتْ ذا الحُسامَ الظُّبَـا وذو البحث كم جدّلته التحوت[2]
وكم سيقَ للقَبْرِ في خِرْقَـةٍ فتىً مُلِئَتْ من كِساهُ التُخُوتْ
فقل لِلْعِدا ذَهَبَ ابنِ الخطيب وفاتَ ومَنْ ذا الذي لا يفوتْ
فَمَنْ كـان يفرحُ منكُمْ لـه فَقُلْ يفرح اليومَ من لا يموتْ

* (الخبر عن اجازة سليمان بن داود الأندلس ومقامه إلى أن هلك بها) *

كان سليمان بن داود هذا منذ عضّته الخطوب واختلفت عليه النكبات[3] يروم الفرار بنفسه إلى الأندلس للمقامة مع غزاة المجاهدين من قومه. ولما استقرّ السلطان ابن الأحمر بفاس عند خلعه ووفادته على السلطان أبي سالم سنة إحدى وستين وسبعمائة وداخله سليمان بن داود في تأميل الكون عنده، فعاهده على ذلك وأن يقدّمه على الغزاة المجاهدين من قومه. ولما عاد إلى ملكه وفد عليه سليمان بن داود بغرناطة في سبيل السفارة عن عمر بن عبدالله سنة ست وستين وسبعمائة وأن يؤكد عقده من السلطان، فحال دون ذلك ابن الخطيب ومارى[4] السلطان عن ذلك بأنّ شياخة الغزاة مخصوصة بأعياص الملك من بني عبد الحق لمكان عصابتهم بالأندلس، فأخفق أمل سليمان حينئذ وحقدها على ابن الخطيب ورجع إلى مرسله، ثم كانت نكبته أيام السلطان عبد العزيز فلم يخلص منها إلا بعد مهلكه، أطلقه أبو بكر بن غازي المستبدّ بالأمر من بعده، ليعتضد بمكانه على شأنه. فلما استبدّ الحصار على ابن غازي خرج عنه سليمان ولحق بالسلطان أبي العباس ابن المولى أبي سالم بمكانه من ظاهر البلد

---

(١) وفي نسخة ثانية : زغر بن فباحت علينا السموت .
(٢) وفي نسخة ثانية :
فكم جدلس ذا الحسام الظبا وذو البخت لم خذلته البخوت
(٣) وفي نسخة ثانية : النكايات .
(٤) وفي نسخة أخرى : وثنى رأي السلطان .

الجديد ، فكان ذلك من أسباب الفتح ، ولما دخل السلطان إلى دار ملكه من البلد الجديد فاتح سنة ست وستين وسبعمائة واستوسق أمره ، رفع مجلس سليمان وأحلّه محل الشورى ، واعتضد به وزيره محمد بن عثمان واستخلصه كما ذكرناه . وكان يرجع إلى رأيه وهو في خلال ذلك يحاول اللحاق بالأندلس ، فكان من أوّل عمله التقرّب إلى السلطان ابن الأحمر باغراء الوزير محمد بن عثمان بقتل ابن الوزير مسنويه[1] ، فتمّ ذلك لأوّل الدولة . وجرت الأمور بعدها على الاعتمال في مرضاته إلى أن حاول السفارة إليه في أغراض سلطانه ، سنة ثمان وستين وسبعمائة في صحابة ونزمار بن عريف ، فتلقّاهما السلطان ابن الأحمر بما يتلقى به أمثالها وأغرب في تكرمتهما . وأما ونزمار فأنقلب راجعاً لأوّل تأدية الرسالة ، يتقضى من السلطان حظّه لقواد أسطوله بتسهيل الإجازة إليه متى رامها . وخرج يتصيّد فلحق بمرسى مالقة ودفع أمر السلطان بخطه ، إلى قائد الأسطول ، فأجازه إلى سبتة ولحق بمكانه . وأمّا سليمان فاعتزم على المقام عند ابن الأحمر وأقام هنالك خالصةً ونجياً ومشاوراً ، الى أن هلك سنة إحدى وثمانين وسبعمائة .

الخبر عن شأن الوزير أبي بكر بن غازي وما كان من تغريبه الى مايرقة ثم رجوعه وانتقاضه بعد ذلك

لما اشتدّ الحصار بالوزير أبي بكر بن غازي وفنيت أمواله وأموال السلطان ، وظنّ أنه أحيط به ، داخله الوزير محمد بن عثمان من مكانهم بحصاره في النزول عن البلد على الأمان والابقاء فأجاب وخرج إلى السلطان أبي العبّاس بن أبي سالم ، فعقد له أماناً بخطّه ، وتحوّل إلى داره بفاس وأسلم سلطانه المنصوب للأمر ، فتسلّمه منه الوزير محمد بن عثمان ، واشتدّ في الاحتياط عليه إلى أن بعثه إلى السلطان ابن الأحمر ، فكان في جملة الأبناء عنده ، ودخل السلطان أبو العباس إلى دار ملكه واقتعد سريره ونفذت في الممالك أوامره . وأقام أبو بكر بن غازي على حاله بداره والخاصّة يباكرونه والنفوس منطوية على تأميله ، فغصّ به أهل الدولة وتردّدت فيه

(١) وفي نسخة ثانية : بقتل ابن الخطيب مشنوئه .

السعاية ، وتقبّض عليه السلطان وأشخصه إلى غسّاسة ، وركب منها السفين إلى ميورقة آخر ست وسبعين وسبعمائة فأقام بها شهراً ومخاطباته مترددة إلى الوزير محمد بن عثمان . ثم عطفته عليه رحم ، فأذن له في القدوم ، إلى المغرب والمقامة بغسّاسة فقدمها أوائل سنة سبع وسبعين وسبعمائة واستبدّ بامارتها . وبدا له رأي في تأميل الوثبة[1] وظهر ما كان يخفيه لابن عمّه من المنافسة ، فخاطب ابن الأحمر وراء البحر ولاطفه بالتحف والهدايا ، فكتب إلى ابن عمّه محمد بن عثمان يحضّه على إعادته إلى مكانه دفعاً لغوائله ، فأبى من ذلك ، وداخله ونزمار بن عريف في بعضها كذلك ، فلح في الامتناع وحمل سلطانه على نبذ العهد لأبي بكر بن غازي ، فتنكّر له وأجمع المسير إليه بعساكر العرب ، فخرج من فاس سنة تسع وسبعين وسبعمائة وبلغ الخبر إلى أبي بكر بن غازي فاستجاش بالعرب وأحثّهم للوصول ، فوصل إليه الأحلاف من المعقل ، وسرّب فيهم أمواله ، وخرج من غسّاسة فألقى بينهم نفسه ، وعمد إلى بعض العرب الطارئين فنصّبه للأمر مشبّهاً ببعض أبناء السلطان أبي الحسن . وزحف إليه السلطان حتى نزل بتازى ، فأجفلت أحياء العرب أمام العساكر من بني مرين والجند ، ونجا ابن غازي معهم بدمائه . ثم داخله ونزمار بن عريف في الاذعان للسلطان عن شق الخلاف ، فأجاب ووصل به إلى سدّة الملك ، فبعث به السلطان محتاطاً عليه إلى فاس فاعتقل بها . ونزلت مقدّمات العساكر بوادي ملويّة ، وداخل صاحب تلمسان منها رعب ، فأوفد على السلطان من قومه وكبار مجلسه ملاطفاً مدارياً ، فتقبّل منه وعقد السلم ، وأصدر به كتابه وعهده بخطّه ، وانكفأ راجعاً إلى حضرته بعد أن بثّ العمّال في تلك النواحي على جبايتها ، فجمعوا له منها ما رضي . ولما احتلّ بدار ملكه ، أنفذ أمره بقتل أبي بكر بن غازي فقتل بمحبسه طعناً بالرماح[2] وذهب مثلاً في الأيام ، واستوسق للسلطان أمره . وأحكم العقد مع الأمير عبد الرحمن بن أبي يفلوسن صاحب مراكش ، وتردّدت المهاداة بينهما بعض إلى بعض ، وإلى صاحب الأندلس وإليه منها فامتلأت المغرب هدنةً وأمناً ، وانبعثت الآمال بساطاً وغبطةً والحال متصلة على ذلك لهذا العهد آخر سنة إحدى وثمانين وسبعمائة أيام إشرافنا على هذا التأليف ، والله مقدر الليل والنهار .

---

(١) وفي نسخة ثانية : الرتبة .

(٢) وفي نسخة ثانية : طعنا بالخناجر .

الخبر عن انتقاض الصلح بين الأمير عبد الرحمن صاحب مراكش والسلطان أبي العباس صاحب فاس واستيلاء عبد الرحمن على أزمور ومقتل عاملها حسون بن على

كان علي بن عمر كبير بني ورتاجن وشيخ بني ويغلان منهم ، قد تحيّز إلى الأمير عبد الرحمن منذ إجازته إلى الأندلس واستيلائه على تازى ثم زحفه إلى حصار البلد الجديد مع السلطان أبي العباس كما مرّ. فوصل في جملته إلى مراكش ، وكان صاحب شواره وكبير دولته . وكان يظعن على خالد بن ابراهيم الهربرحى شيخ جاجة[1] من قبائل المصامدة ما بين مراكش وبلاد السوس ، وقد كان علي بن عمر انتقض على ابن غازي الوزير المستبدّ بعد السلطان عبد العزيز ، ولحق بالسوس . ومرّ بخالد بن ابراهيم هذا فاعترضه في طريقه وأخذ الكثير من أثقاله ورواحله . وخلص هو إلى منجاته بالسوس ، وقد حقد ذلك لخالد . ثم حثّ[2] شيوخ المعقل عندما أجاز الأمير عبد الرحمن من الأندلس إلى نواحي تازى يروم اللحاق بهم ، فوفدوا عليه . وسار معهم إلى أحيائهم وأقام معهم وهو في طاعة الأمير عبد الرحمن ودعوته إلى أن اتصل به بين يدي حصاره البلد الجديد مع السلطان أبي العباس . فلمّا فتح السلطان البلد الجديد أوّل سنة ست وسبعين وسبعمائة واستولى على ملكهم بها ، وفصل عبد الرحمن إلى مراكش كما كان الوفاق بينهم ، وسار علي بن عمر في جملة السلطان عبد الرحمن إلى مراكش ، واستأذنه في قتل خالد صاحبه ، فلم يأذن له ، فأحفظه ذلك وطوى عليه ، وبعد أيام صعد جبل وريكة في غرض من أغراض الدولة ، وتقدّم إلى حافده عامر ابن ابنه محمد بقتل خالد ، فقتله بظاهر مراكش ، ولحق بجدّه عليّ بن عمر بوريكة ، فتلطّف له الأمير عبد الرحمن وراسله بالملاينة والاستعطاف . ثم ركب إليه بنفسه واستصلحه ونزل به إلى مراكش فأقام معه أياماً . ثم ارتاب ولحق بأزمور وعاملها يومئذ حسّون بن علي الصبيحي فأغراه بالإجلاب على عمل مراكش ، وزحفوا جميعاً إلى عمل صنهاجة .

(١) وفي نسخة ثانية : المبرازي شيخ حاحه . وفي نسخة أخرى المبرازي .

(٢) وفي نسخة ثانية : ثم بعث . .

وسرّح الأمير عبد الرحمن لمدافعتهم كبير دولته يومئذ وابن عمّه عبد الكريم بن عيسى ابن سليمان بن منصور بن أبي مالك ، وهو عبد الواحد بن يعقوب بن عبد الحق ، فخرج في العساكر ومعه منصور مولى الأمير عبد الرحمن ، فلقوا عليّ بن عمر فهزموه وأخذوا سواده ، ولجأ إلى أزمور . ثم وفد هو وحسّون بن علي إلى السلطان بفاس . ووقعت أثناء ذلك المراسلة بين السلطانين ، وانعقد بينهما الصلح . فأقام علي بن عمر بفاس ورجع حسّون بن علي إلى مكان عمله بأزمور ، ثم انتقض ما بين السلطانين ثانياً . وكان عند الأمير عبد الرحمن أخوان من ولد محمد بن يعقوب بن حسّان الصبيحي وهما علي وأحمد ، جرثومتا بغي وفساد ، وعدا على كبيرهما علي بن يعقوب ابن علي بن حسّان فقتله ، واستعدى أخوه موسى عليه السلطان فأعداه . وأذن له في أن يثأر منه بأخيه فيقتله فخرج لذلك أحمد أخو عليّ ، وهمّ بقتل موسى ، فاستجار موسى بيعقوب بن موسى بن سيّد الناس كبير بني ونكاسن ، وصهر الأمير عبد الرحمن . وأقام أياماً في جواره ، ثم هرب إلى أزمور فلحقه نار الفتنة . ونهض الأمير عبد الرحمن إلى أزمور فلم يطق حسّان بن علي دفاعه فملكها عليه وقتله واستباحها .
وبلغ الخبر إلى السلطان بفاس فنهض في عساكره وانتهى إلى سلا . ورجع الأمير عبد الرحمن إلى مراكش ، وسار السلطان في اتباعه حتى نزل بحصن أكمليم من مراكش ، وأقام هنالك نحواً من ثلاثة أشهر والقتال يتردّد بينهم . ثم سعى بين السلطانين في الصلح ، فاصطلحوا على حدود العمالات أولاً ، وانكفأ صاحب فاس إلى عمله وبلده . وبعث الحسن بن يحيى بن حسّون الصنهاجيّ عاملاً على الثغر بأزمور ، فأقام بها ، وكان أصله من صنهاجة أهل وطن أزمور ، وله سلف في خدمة بني مرين منذ أوّل دولتهم ، وكان أبوه يحيى في دولة السلطان أبي الحسن عاملاً في الجباية بأزمور وغيرها . وهلك في خدمته بتونس أيام مقام السلطان بها ، وترك ولده يستعمل في مثل ذلك ، ونزع الحسن هذا منهم إلى الجندية فلبس شارتها وتصرّف في الولاية المناسبة لها . واتصل بخدمة السلطان أبي العبّاس لأوّل بيعته بطنجة . وكان يومئذ عاملاً بالقصر الكبير فدخل في دعوته وصار في جملته ، وشهد معه الفتح واستعمله في خطط السيف ، حتى ولاّه أزمور هذه الولاية فقام بها كما نذكره .
(وأمّا الصُبَيْحيّون) فالخبر عن أوليتهم أنّ جدّهم حسّان من قبيلة صبيح من أفاريق سويد ، جاء مع عبدالله بن كندوز الكمي من بني عبد الواد حين جاء من تونس ،

وأوفد على السلطان ابن عبد الحق ولقيه كما مرّ . وكان حسّان من رعاة إبله . فلما استقرّ عبدالله بن كندوز بناحية مراكش وأقطعه السلطان يعقوب في أعمالها ، وكان الظهر الذي يحمل عليه السلطان متفرّقاً في سارية المغرب ، فجمعه وجعله لنظر عبدالله بن كندوز ، فجمع له الرعاة وكبيرهم يومئذ حسّان الصُبَيْحِيّ ، فكان يباشر السلطان في شأن ذلك الظهر ويطالعه في مهمّاته ، فحصلت له مداخلة أجلبت إليه الحظ ، حتى ارتفع وكبر . ونشئوا في ظلّ الدولة وعزّها وتصرفوا في الولايات فيها ، وانفردوا بالشاوية فلم تزل ولايتها متوارثة فيهم منقسمة بينهم لهذا العهد إلى ما كانوا يتصرفون فيه من غير ذلك من الولايات ، وكان لحسّان من الولد علي ويعقوب وطلحة وغيرهم ، ومن حسّان هذا تفرّعت شعوبهم في ولده ، وهم لهذا العهد متصرفون في الدولة على ما كان سلفهم من ولاية الشاوية والنظر في رواحل السلطان والظهر الذي يحمل من الإبل ، ولهم عدد وكثرة ونباهة في الدولة ، والله أعلم .

الانتقاض الثاني بين صاحب فاس وصاحب مراكش ونهوض صاحب فاس إليه وحصاره ثم عودهما إلى الصلح

لما رجع السلطان إلى فاس على ما استقرّ من الصلح ، طلب الأمير عبد الرحمن أن يدخل عمالة صنهاجة ودكالة في أعماله ، وكتب السلطان إلى الحسن بن يحيى عامل أزمور وتلك العمالة بأن يتوجّه إليه ويسدّ المذاهب في ذلك دونه . وكان الحسن بن يحيى مضطغناً على الدولة ، فلما وصل إليه داخله في الخلاف وأن يملّكه تلك العمالة ، فازداد الأمير عبد الرحمن بذلك قوّة على أمره ، وتعلّل على صاحب فاس بأن يكون حدّاً بين الدولتين ووادي أم ربيع . واستمرّ صاحب فاس على الاباية من ذلك ، فنهض الأمير عبد الرحمن من مراكش ، ودخل الحسن بن يحيى في طاعته فملكها ، وبعث مولاه منصورا في العساكر إلى أنفاه[1] فاستولى عليها وصادر أعيانها وقاضيها وواليها وبلغ الخبر إلى السلطان ، فنهض من فاس في عساكره ، وانتهى إلى

(١) وفي نسخة ثانية : أنف . وفي أخرى : أنفى . ذكرها ياقوت في شعر هذيل (لأُنف بلد) ولم يحدد موقعها .

سلا ، فهرب منصور من أنفاء وتركها . ولحق بمولاه عبد الرحمن فأجفل من أزمور إلى مراكش ، والسلطان في أثره حتى أنتهى إلى قنطرة الوادي ، على غلوة من البلد ، وأقام خمسة أشهر يحاصرها ، واتصل الخبر بالسلطان ابن الأحمر صاحب الأندلس ، فبعث خالصته الوزير أبا القاسم الحكيم الرُنْدِيّ ليعقد الصلح بينهما ، فعقده على أن يسترهن السلطان أولاد الأمير عبد الرحمن وحافد أبي الحسن . وانكفأ السلطان راجعاً إلى سلا . ولحق به جماعة من جملة الأمير عبد الرحمن من بني مرين وغيرهم ، نزعوا عنه ، وكان محمد بن يعقوب الصبحي لقي في طريقه مولى الأمير عبد الرحمن ، جاء به مكرهاً إلى السلطان . وكان من النازعين أيضاً يعقوب بن موسى بن سيّد الناس كبير بني ونكاسن ، وأبو بكر بن رحّو بن الحسن بن علي بن أبي الطلاق ، ومحمد بن مسعود الإدريسي وزيّان بن عمر بن علي الوطاسي وغيرهم من المشاهير . وقدموا على السلطان بسلا فتقبلّهم وأحسن كرامتهم ، ورحل راجعاً إلى فاس والله أعلم .

انتقاض علي بن زكريا شيخ الهساكرة على الأمير عبد الرحمن وفتكه بمولاه منصور ومقتل الأمير عبد الرحمن

لما رجع السلطان إلى فاس وبدا من الخلل في دولة الأمير عبد الرحمن وانتقاض الناس عليه ما قدّمناه ، نزع يده من التعويل على العساكر ، وشرع في تحصين البلد . وضرب الأسوار على القصبة وحفر الخنادق وتبيّن بذلك اختلال أمره . وكان علي بن زكريا شيخ هسكورة وكبير المصامدة وكان في دعوته منذ دخل مراكش فتلافى أمره مع صاحب فاس ، ومدّ إليه يداً من طاعته . ثم انتقض على الأمير عبد الرحمن ودخل في دعوة السلطان ، وبعث إليه الأمير عبد الرحمن مولاه منصوراً يستألفه ، فأرصد إليه في طريقه من حاشيته مَنْ قتله ، وبعث برأسه إلى فاس ، فنهض السلطان في عساكره إلى مراكش . واعتصم الأمير عبد الرحمن بالقصبة وقد كان أفردها عن المدينة بالأسوار . وخندق عليها فملك السلطان المدينة ورتّب على القصبة المقاتلة من كل جهة ، ونصب الآلة وأدار عليها من جهة المدينة حائطاً وأقام يحاصرها تسعة[1]

(١) وفي نسخة ثانية : سبعة أشهر .

أشهر يغاديها القتال ويراوحها . وكان أحمد بن محمد الصُبَيْحي من الذين بوؤا المقاعد لقتالها ، فهمّ بالانتقاض وحدّثته نفسه بغدرة السلطان والتوثّب به . وسعى بذلك إلى السلطان ، فتقبّض عليه وحبسه . وبعث السلطان بالنفير إلى أعماله ، فتوافت الأمداد من كل ناحية ، وبعث إليه صاحب الأندلس مدداً من العسكر . فلما اشتدّ القتال والحصار بالأمير عبد الرحمن ونفذت الأقوات ، وأيقن أصحابه بالهلكة ، وأهمّتهم أنفسهم . وهرب عنه وزيره محمد بن عمر[1] شيخ الهساكرة والمصامدة لعهد السلطان أبي الحسن وابنه ، وقد مرّ ذكره . فلمّا لحق هذا بالسلطان وعلم أنه إنّما جاء مضطراً قبض عليه وحبسه . ثم انفضّ الناس عن الأمير عبد الرحمن ونزلوا من الأسوار ناجين إلى السلطان . وأصبح في قصبته منفرداً ، وقد بات ليلته يراوض ولديه على الاستماتة وهما : أبو عامر وسليم . وركب السلطان من الغد في التعبية وجاء إلى القصبة فاقتحمها بمقدّمته ، ولقيهم الأمير عبد الرحمن وولداه مباشراً إلى الميدان بين أبواب دورهم ، فجالوا معهم جولة قتل فيها ولداه ، تولّى قتلهم علي بن إدريس وزيّان بن عمر الوطاسي وطال ما كان زيّان يمتري يدي نعمهم[2] ويجر ذيله خيلاء في جاههم ، فذهب مثلاً في كفران النعمة وسوء الجزاء . والله لا يظلم مثقال ذرّة . وكان ذلك خاتم جمادى الأخيرة سنة أربع وثمانين وسبعمائة لعشر سنين من إمارته على مراكش . ثم رحل السلطان منقلباً إلى فاس ، وقد استولى على سائر أعمال المغرب ، وظفر بعدوّه ودفع النازعين عن ملكه . والله أعلم .

* (اجلاب العرب على المغرب في مغيب السلطان بغرية من ولد أبي علي وأبي تاشفين بن أبي حمو صاحب تلمسان ومجيء أبي حمو على أثرهم) *

كان أولاد حسين من عرب المعقل مخالفين على السلطان من قبل مسيره إلى مراكش . وكان شيخهم يوسف بن علي بن غانم قد حدثت بينه وبين الوزير القائم على الدولة

---

(٢) وفي نسخة ثانية : فهرب عنه وزيره نجوّبن العلم من بقية بيت محمد بن عمر . وفي نسخة أخرى يجو.

(٣) وفي نسخة ثانية : كان يمتري ثدي نعمتهم .

محمد بن عثمان منافرة وفتنة . وبعث العساكر إلى سجلماسة ، فخرّب ما كان له بها من العقار والأملاك . وأقام منتقضاً بالقفر . فلما حاصر السلطان الأمير عبد الرحمن بمراكش وأخذ بمخنقه أرسل أبا العشائر ابن عمّه منصور إلى يوسف بن علي وقومه ، ليجلبوا به على المغرب ويأخذوا بحجزة السلطان عن حصاره ، فسار لذلك . ولما قدم على يوسف سار به إلى تلمسان مستجيشاً بالسلطان أبي حمّو لذلك القصد ، لما كان بينه وبين الأمير عبد الرحمن من العهد على ذلك . فبعث أبو حمّو معهم ابنه أبا تاشفين في بعض عساكره ، وسار في الباقين على أثرهم . وسار أبو تاشفين وأبو العشائر إلى أحياء العرب ، فدخلوا إلى أحواز مكناسة وعاثوا فيها . وكان السلطان عند سفره إلى مراكش استخلف على دار ملكه بفاس علي بن مهدي العسكري في جماعة من الجند . واستنجد بونزمار بن عريف شيخ سويد وولي الدولة المقيم بأحياء ملويّة ، فحالف بين عرب المعقل واستألف منهم العمارنة والمنبات وهم الأحلاف . واجتمع مع علي بن مهدي ، وساروا لمدافعة العدوّ بنواحي مكناسة ، فصدّوهم عن مرامهم ومنعوهم من دخول البلاد فأقاموا متواقفين أيّاماً . وقصد أبو حمّو في عسكره مدينة تازى وحاصرها سبعاً ، وخرّب قصر الملك هنالك ومسجده المعروف بقصر تازورت . وبينما هم على ذلك بلغ الخبر اليقين بفتح مراكش وقتل الأمير عبد الرحمن ، فأجفلوا من كل ناحية . وخرج أولاد حسين وأبو العشائر وأبو تاشفين والعرب الأحلاف في اتباعهم ، وأجفل أبو حمّو عن تازى راجعاً إلى تلمسان ومرّ بقصر ونزمار في نواحي بطوية المسمى بمرادة ، هدمه ووصل السلطان إلى فاس وقد تمّ له الظهور والفتح إلى أن كان ما نذكره إن شاءالله تعالى .

* (نهوض السلطان الى تلمسان وفتحها وتخريبها) *

كان السلطان لما بلغه ما فعل العرب وأبو حمّو بالمغرب لم يشغله ذلك عن شأنه ، ونقم على أبي حمّو ما أتاه من ذلك ، وأنه نقض عهده من غير داع إلى النقض . فلمّا احتلّ بدار ملكه بفاس أراح أياماً ، ثم أجمع النهوض إلى تلمسان . وخرج في عساكره على عادتهم وانتهى إلى تاوريرت . وبلغ الخبر إلى أبي حمّو ، فاضطرب أمره واعتزم على الحصار ، وجمع أهل البلد عليه واستعدّوا له . ثم خرج في بعض

تلك الليالي بولده وأهله وخاصته ، وأصبح مخيّماً بالصفصف[1] وانفض أهل البلد إليه بعضهم بعياله وولده مستمسكين به ، متفادين من معرّة هجوم العساكر فلم يرعه ذلك عن قصده ، وارتحل ذاهباً إلى البطحاء . ثم قصد بلاد مغراوة فنزل في بني بو سعيد قريباً من شلف ، وأنزل أولاده الأصاغر وأهله بحصن تاحجمومت . وجاء السلطان إلى تلمسان فملكها واستقرّ فيها أياماً . ثم هدم أسوارها وقصور الملك بها ، بإغراء وليّه ونزمار جزاءً بما فعله أبو حمّو في تخريب قصر تازروت وحصن مرادة . ثم خرج من تلمسان في اتباع أبي حمّو ، ونزل على مرحلة منها . وبلغه الخبر هنالك بإجازة السلطان موسى ابن عمّه أبي عنّان من الأندلس إلى المغرب وأنه خالفه إلى دار الملك ، فانكفأ راجعاً وأغذّ السير إلى المغرب كما نذكر . ورجع أبو حمّو إلى تلمسان واستقرّ في ملكه بها ، كما ذكرناه في أخباره .

اجازة السلطان موسى ابن السلطان أبي عنان من الأندلس الى المغرب واستيلاؤه على الملك وظفره بابن عمه السلطان أبي العباس وازعاجه الى الأندلس) *

قد تقدم أنّ السلطان محمد بن الأحمر المخلوع ، كان له تحكّم في دولة السلطان أبي العبّاس بن أبي سالم صاحب المغرب بما كان من إشارته على محمد بن عثمان ببيعته وهو معتقل بطنجة ، ثم بما أمدّه من مدد العساكر والأموال ، حتى أمره واستولى على البلد الجديد كما قدّمناه في أوّل خبره . ثم بما كان له من الزبون عليهم بالقرابة المرشّحين الذين كانوا معتقلين بطنجة مع السلطان أبي العبّاس من أسباط السلطان أبي الحسن من ولد أبي عنان وأبي سالم والفضل وأبي عامر وأبي عبد الرحمن وغيرهم . وكانوا متعاهدين في معتقلهم أنّ من أتاح الله له الملك منهم يخرجهم من الاعتقال ويجيزهم إلى الأندلس . فلما بويع السلطان أبو العبّاس وفّى لهم بهذا العهد وأجازهم إلى الأندلس ، فنزلوا على السلطان ابن الأحمر أكرم نزل ، أنزلهم بقصور ملكه بالحمراء وقرّب لهم المراكب ، وأفاض عليهم العطاء ووسّع لهم الجرايات والأرزاق . وأقاموا

(١) وفي نسخة ثانية : بالصفصيف .

هنالك في ظلّ ظليل من كنفه فكان لهم به وثوب على ملك المغرب وكان الوزير القائم بها محمد بن عثمان يقدر له قدر ذلك كله فيجري في أغراضه وقصوده ويحكمه في الدولة ما شاء أن يحكمه ، حتى توجّهت الوجوه إلى ابن الأحمر وراء البحر من أشياخ بني مرين والعرب ، وأصبح المغرب كأنّه من بعض أعمال الأندلس . ولما نهض السلطان إلى تلمسان خاطبوه وأوصوه بالمغرب ، وترك محمد بن عثمان بدار الملك كاتبه محمد بن الحسن ، كان مصطنعاً عنده من بقيّة شيع الموحّدين ببجاية ، فاختصّه ورقّاه واستخلفه في سفره هذا على دار الملك . فلمّا انتهوا إلى تلمسان وحصل له من الفتح ما حصل ، كتبوا بالخبر إلى السلطان ابن الأحمر مع شيطان من ذرّية عبّو بن قاسم المرواني[1] كان بدارهم وهو عبد الواحد بن محمد بن عبّو كان يسمو بنفسه إلى العظائم التي ليس لها بأهل ويتربّص لذلك بالدولة . وكان ابن الأحمر مع كثرة تحكّمه فيهم يتنحّى لهم بعض الأوقات بما يأتونه من تقصير في شفاعة أو مخالفة في الأمر لا يجدون عنها وليجة ، فيصطنع[2] لهم ذلك . فلمّا قدم عليه عبد الواحد هذا بخبر الفتح وقصّ عليه القصص ، دسّ له أنّ أهل الدولة مضطربون على سلطانهم ومستبدلون به لو وجدوا ، وبلغ من ذلك ما حمل وما لم يحمل . وأشار له بجلاء المغرب من الحامية جملة وأنّ دار الملك ليس بها إلاّ كاتب حضريّ لا يحسن المدافعة ، وهو أعرف به ، فانتهز الفرصة ابن الأحمر وجهّز موسى ابن السلطان أبي عنان من الأسباط المقيمين عنده . واستوزر له مسعود بن رحّو بن ماسي من طبقات الوزراء من بني مرين ومن بني قودر من أحلافهم . وله في ذلك سلف وقد كان بعثه من قبل وزيراً للأمير عبد الرحمن بن أبي يفلوسن حين أجاز إلى المغرب أيام استبداد أبي بكر بن غازي . فلم يزل معه حتى كان حصار البلد الجديد واستيلاء السلطان أبي العبّاس عليها . وذهب عبد الرحمن إلى مراكش فاستأذنه مسعود في الإنصراف إلى الأندلس ، فأذن له ورجع عنه إلى فاس . ثم فارقها وأجاز إلى الأندلس متودّعاً ومتودّداً للكل ومعوّلاً على ابن الأحمر ، فتلقّاه بالقبول وأوسع له النزول والجراية وخلطه بنفسه وأحضره مع ندمائه . ولم يزل كذلك إلى أن جهّزه وزيراً إلى المغرب مع السلطان أبي عنان وبعث معها عسكراً . ثم ركب السفين إلى سَبْتَة وكانت بينه وبين

(١) وفي نسخة ثانية : المزوار.
(٢) فيضطغن : كذا في النسخة المصرية .

شرفائها ورؤساء الشورى بها مداخلة ، فقاموا بدعوة السلطان موسى وأدخلوه وقبضوا على عاملها رحّو بن الزعيم المكدوني[1] وجاؤا به إلى السلطان فملكها غرّة صفر من سنة ست وثمانين وسبعمائة وسلّمها إلى ابن الأحمر ، فدخلت في طاعته . وسار هو إلى فاس ، فوصلها لأيام قريبة ، وأحاط بدار الملك ، واجتمع عليه الغوغاء ، ونزل الدهش بمحمد بن الحسن فبادر بطاعته . ودخل السلطان إلى دار الملك ، وقبض عليه لوقته ، وذلك في عشر ربيع الأوّل من السنة . وجاء الناس بطاعته من كل جانب ، وبلغ الخبر إلى السلطان أبي العبّاس بمكانه من نواحي تلمسان بأنّ السلطان موسى قد نزل بسبتة ، فجهّز عليّ بن منصور وترجمان الجند وجند النصارى ببابه مع طائفة منهم . وبعثهم حامية لدار الملك فانتهوا إلى تازى وبلغهم خبر فتحها فأقاموا هنالك . وأغذّ السلطان أبو العباس السير إلى فاس ، فلقيهم خبر فتحها بتاوريرت ، فتقدّم إلى ملوية وتردّد في رأيه بين المسير إلى سجلماسة مع العرب أو قصد المغرب . ثم استمرّ عزمه ، ونزل بتازى وأقام فيها أربعاً ، وتقدّم إلى الركن ، وأهل دولته خلال ذلك يخوضون في الانتقاض عليه تسلّلا إلى ابن عمّه السلطان موسى المتولي على فاس ، ويوم أصبح من الركن أرجفوا به . ثم انتقضوا عليه طوائف قاصدين فاس ، ورجع هو إلى تازى بعد أن انتهب معسكره وأضرمت النار في خيامه وخزائنه . ثم أصبح بتازى من ليلته فدخلها ، وعاملها يومئذ الخيّر من موالي السلطان أبي الحسن . وذهب محمد بن عثمان إلى وليّ الدولة ونزمار بن عريف وأمراء المغرب من المعقل . ولما دخل السلطان أبو العباس إلى تازى كتب إلى ابن عمّه السلطان موسى يذكره العهد بينهما ، وقد كان السلطان ابن الأحمر عهد إليه أن يبعث به إليه إن ظفر به ، فبادر السلطان موسى باستدعائه مع جماعة من وجوه بني عسكر ، أهل تلك الناحية ، وهم زكريا بن يحيى بن سليمان ومحمد بن داود بن أعراب[2] ، ومعهم العبّاس بن عمر الوسناني فجاؤا به وأنزلوه بالزاوية بغدير الحمص بظاهر فاس ، فقيّد هنالك ثم بعثه إلى الأندلس موكلاً به مع عمر بن رحّو أخي الوزير مسعود بن ماسي . واستصحب ابنه أبا فارس وترك سائرهم بفاس واجاز البحر من سبتة فأنزله السلطان ابن الأحمر بقلعة ملكه الحمراء ، وفكّ قيوده ووكّل به ، ووسّع له في الجراية فأقام هنالك

---

(١) وفي نسخة أخرى : المكدودي .

(٢) وفي النسخة المصرية : بن عراب .

محتاطا به الى أن كان ما نذكره ان شاء الله تعالى .

* (نكبة الوزير محمد بن عثمان ومقتله) *

أصل هذا الوزير محمد بن الكاس[1] إحدى بطون بني ورتاجن ، وكان بنو عبد الحق عندما تأثلوا ملكهم بالمغرب يستعملون منهم في الوزارة . وربّما وقعت بينهم هنالك وبين بني إدريس وبني عبدالله منافسة ، قتلوا فيها بعض بني الكاس منهم في دولة السلطان أبي سعيد وابنه أبي الحسن . ثم استوزره السلطان أبو الحسن بعد مهلك وزيره يحيى بن طلحة ابن محلى بمكانه من حصار تلمسان ، وقام بوزارته أياماً[2] ، وحضر معه وقعة طريف سنة إحدى وأربعين وسبعمائة من هذه المائة ، واستشهد فيها ، ونشأ ابنه أبو بكر في ظلّ الدولة ممتعاً بحسن الكفالة وسعة الرزق ، وكانت أمّه أمّ ولد ، وخلفه عليها ابن عمه محمد بن عثمان هذا الوزير ، فنشأ أبو بكر في حجره . وكان أعلى رتبة منه بأولية أبيه وسلفه ، حتى اذا بلغ أشدّه واستوى سمت به الحال[3] ، وجال أمصار[4] الملوك في اختياره وترشيحه ، حتى استوزره السلطان عبد العزيز كما قلناه . وقام بوزارته أحسن قيام ، وأصبح محد بن عثمان هذا رديفه . وهلك السلطان عبد العزيز فنصّب أبو بكر ابنه السعيد للملك صبياً لم يثغر ، وكان من انتقاض أمره وحصاره بالبلد الجديد واستيلاء السلطان أبي العبّاس عليه ما قدّمناه ، قام محمد بن عثمان بوزارة السلطان أبي العبّاس مستبدّاً عليه . ودفع إليه أمور ملكه ، وشغل بلذّاته ، فقام محمد بن عثمان بوزارة السلطان أبي العبّاس من أمور الدولة ما عاناه حتى كان من استيلاء السلطان موسى على دار ملكهم ما مرّ . وانفضّ بنو مرين عنه للسلطان أبي العبّاس كما ذكرناه ، ورجع إلى تازى ، فدخلها السلطان أبو العبّاس وفارقهم محمد بن عثمان إلى وليّ الدولة ونزمار بن عريف وهو مقيم بتازى ، وتذمّم له فتجهّم له ونزمار وأعرض عنه ، فسار معدّاً إلى أحياء المنيات من

(١) وفي النسخة المصرية : أصل هذا الوزير من بني الكاس.
(٢) وفي النسخة المصرية : أعواماً .
(٣) وفي النسخة المصرية : الخلال .
(٤) وفي النسخة المصرية : وجالت ابصار.

عرب المعقل . كانوا هنالك قبلة تازى لذمّة صحابة كانت بينه وبين شيخهم أحمد ابن عبّو فنزل عليه متذمّماً به ، فخادعه وبعث بخبره إلى السلطان ، فجهّز إليه عسكراً مع المزوار عبد الواحد بن محمد بن عبّو بن قاسم بن ورزوق بن بومريطت والحسن العوفي [1] من الموالي فتبرّأ منه العرب وأسلموه إليه ، فجاؤا به وأشهروه يوم دخوله إلى فاس . واعتقل أياماً وامتحن في سبيل المصادرة ثم استصفى . ثم قتل ذبحاً بمحبسه ، والله وارث الأرض ومن عليها .

الخبر عن خروج الحسن بن الناصر بغمارة ونهوض الوزير ابن ماسي اليه بالعساكر

لما استقل السلطان موسى بملك المغرب وقام مسعود بن ماسي بوزارته مستبدّاً عليه ، وكان من تغريبهم السلطان أبا العبّاس إلى الأندلس وقتلهم [2] وزيره محمد بن عثمان وافتراق أشياع الوزير محمد بن عثمان وقرابته وبطانته ، فطلبوا بطن الأرض ولحق منهم ابن أخيه العبّاس بن المقداد بتونس ، فوجد هنالك الحسن بن الناصر ابن السلطان أبي علي قد لحق بها من مقرّه بالأندلس في سبيل طلب الملك فثاب له رأي في الرجوع به إلى المغرب لطلب الأمر هنالك ، فخرج به من تونس وقطع المفاوز والمشاق إلى أن انتهى إلى جبل غمارة ، ونزل على أهل الصفيحة منهم ، فأكرموا مثواه وتلقّيه ، وأعلنوا بالقيام بدعوته . واستوزر العبّاس بن المقداد . وبلغ الخبر إلى مسعود ابن ماسي فجهّز العساكر مع أخيه مهدي بن ماسي ، فحاصره بجبل الصفيحة أياماً ، وامتنع عليهم ، فتجهّز الوزير مسعود بن ماسي بالعساكر من دار الملك وسار لحصاره . ثم رجع من طريقه لِـمَا بلغه من وفاة السلطان بعده ، والله أعلم .

* (وفاة السلطان موسى والبيعة للمنتصر ابن السلطان أبي العباس) *

كان السلطان موسى لما استقل بملك المغرب استنكف من استبداد ابن ماسي عليه

(١) وفي النسخة المصرية : بن وزروق بن توقريطت والحسن اوافو من الموالي .
(٢) وفي النسخة المصرية : وتكبتهم .

وداخل بطانته في الفتك به . وأكثر ما كان يفاوض في ذلك كاتبه وخالصته محمد ابن كاتب أبيه ، وخالصته محمد بن أبي عمر . وكان للسلطان موسى ندمان يطلعهم على الكثير من أموره منهم العبّاس بن عمر بن عثمان الوسناقي ، وكان الوزير مسعود بن ماسي قد خلّف أبا عمر على أمّه وربي في حجره ، فكان يدلي إليه بذلك ، وينهي إليه ما يدور في مجلس السلطان في شأنه . فحصلت للوزير بذلك نفرة طلب لأجلها البعد عن السلطان . وبادر للخروج لمدافعة الحسن القائم بغمارة . واستخلف على دار الملك أخاه يعيش بن رحّو بن ماسي . فلما انتهى إلى القصر الكبير لحقه الخبر بوفاة السلطان موسى ، وكانت وفاته في جمادي الآخرة طرقه المرض فهلك ليوم وليلة لثلاث سنين من خلافته . وكان الناس يرمون يعيش أخا الوزير بأنّه سمّه ، وبادر يعيش فنصب ابن عمّه للملك ، وهو المنتصر ابن السلطان أبي العبّاس ، وانكفأ راجعاً لوزير مسعود من القصر ، وقتل السبيع محمد بن موسى من طبقة الوزراء ، وقد مرّ ذكره وذكر قومه ، وكان اعتقله أيام السلطان موسى فقتله بعد وفاته . واستمرّت أمور الدولة في استقلاله والله أعلم .

* (إجازة الواثق محمد بن أبي الفضل ابن السلطان أبي الحسن من الأندلس والبيعة له) *

كان الوزير مسعود بن ماسي لما استوحش من السلطان موسى بعث ابنه يحيى وعبد الواحد المزوار إلى السلطان ابن الأحمر يسأل منه إعادة السلطان أبي العبّاس إلى ملكه فأخرجه ابن الأحمر من الاعتقال وجاء به إلى جبل الفتح يروم إجازته إلى العدوة . فلما توفي السلطان موسى بدا للوزير مسعود في أمره ، ودسّ للسلطان ابن الأحمر في ردّه ، وأن يبعث إليه بالواثق محمد بن أبي الفضل ابن السلطان أبي الحسن من القرابة المقيمين عنده . ورآه أليق بالاستبداد والحجر ، فأسعفه ابن الأحمر في ذلك ، وردّ السلطان أحمد إلى مكانه بالحمراء ، وجاء بالواثق فحضر بجبل الفتح عنده ، وفي خلال ذلك وصل جماعة من أهل الدولة وانتقضوا على الوزير مسعود ، ولحقوا بسبتة ، وأجازوا إلى السلطان ابن الأحمر وهم يعيش بن علي بن فارس الياباني

وسيّور بن يحيى بن عمر الونكاسني وأحمد بن محمد الصُبيحيّ ، فوفد[1] إليهم الواثق ، ورجعوا به إلى المغرب على أنّهم في خدمة الوزير ، حتى اذا انتهوا إلى جبل زرهون المطل على مكناسة أظهروا الخلاف على الوزير وصعدوا الى قبائل زرهون واعتصموا بجبلهم . ولحق بهم من كان على مثل دينهم من الخلاف على ابن ماسي وصاروا معهم يداً مثل طلحة بن الزُبَيْر الورتاجني وسيّور بن يحياتن بن عمر الونكاسني ومحمد التونسي من بني أبي الطلاق وفارح بن مهدي من معلوجي السلطان ، وأصله من موالي بني زيان ملوك تلمسان .

وكان أحمد بن محمد الصبيحي حين جاء مع الواثق قد استطال على أصحابه وأصهر الاستبداد بما كان من طائفة الجند المستخدمين ، ففصّ به أهل الدولة وتبرؤا منه للسلطان الواثق ، فأظهر لهم البراءة منه ، فوثبوا به وقتلوه عند خيمة السلطان ، وتولّى كبر ذلك يعيش بن علي بن فارس الياباني كبير بني مرين ، فذهب مثلاً في الغابرين ، ولم تبك عليه سماء ولا أرض . وكان رزوق بن بوفريطت من موالي بني علي بن زيّان من شيوخ بني ونكاسن من أعيان الدولة ومقدّمي الجند ، قد انتقض على الدولة أيام السلطان موسى ولحق بأحياء أولاد حسين من عرب المعقل المخالفين منذ أيام السلطان موسى . ونزل على شيخهم يوسف بن علي بن غانم لذمّة صحابة بينهما من جوارهم في المواطن . وكان معه في ذلك محمد بن يوسف بن علاّل ، كان أبوه يوسف من صنائع السلطان أبي الحسن ، ونشأة دولته استوحشا من الوزير ، فلحقا بالعرب[2] فلمّا جاء هذا السلطان الواثق قدما عليه ، فلقيهما بالتكرمة وأحلّهما في مقامهما من الدولة ، وخرج الوزير مسعود بن ماسي في العساكر ، ونزل قبائلهم بجبل مغيلة وقاتلهم هنالك أياماً وداخل الذين مع الواثق واستمالهم . وبعث عسكراً إلى مكناسة فحاصروها ، وكان بها يومئذ عبد الحق بن الحسن بن يوسف الورتاجني ، فاستنفر له منها وملكها ، وتردّدت المراسلات بينه وبين الواثق وأصحابه على أن ينصبّوه للأمر . ويبعث بالمنتصر المنصوب عنده إلى أبيه السلطان أبي العبّاس بالأندلس وانعقد الأمر بينهم على ذلك . وسار الواثق في أصحابه إلى الوزير ابن ماساي فنزل عليه . ومضى يعيش بن علي بن فارس عنهم ذاهباً لوجهه . وسار الوزير بالواثق إلى دار الملك ،

(١) وفي نسخة ثانية : فدفع .

(٢) وفي النسخة المصرية : بالمغرب .

فبايعه في شوال سنة ثمان وثمانين وسبعمائة بعد أن اشترط عليه لنفسه وأصحابه ما شاء . وأجاز سلطانه المنتصر إلى أبيه السلطان أبي العباس بالأندلس وقبض على جماعة ممن كان مع الواثق مثل المزوار عبد الواحد ، وقتله ، وعلى فارح بن مهدي وحبسه ، وعلى الخيّر مولى الأمير عبد الرحمن وامتحنه ، وعلى آخرين سواهم . ثم قبض على جماعة من بطانة السلطان موسى كانوا يداخلونه في القبض والفتك به ، فحبسهم وقتل بعضهم . وعلى جند الأندلس الذين جاؤا مدداً للواثق ، وعلى قوّادهم من معلوجي ابن الأحمر فأودعهم السجن . ثم تقبّض على كاتب السلطان موسى بن أبي الفضل بن أبي عمر مرجعه من السفارة عن سلطانه إلى الأندلس ، فاعتقله وصادره . ثم خلّى سبيله . ثم بعث إلى الحسن بن الناصر الثائر بجبل الصفيحة من غمارة مع إدريس بن موسى بن يوسف الياباني ، فخادعه باستدعائه للملك والبيعة له ، فخدعه واستنزله وجاء به فاعتقله أياماً . ثم أجازه للأندلس ، واستقرّ الأمر على ذلك ، والله أعلم .

الفتنة بين الوزير ابن ماسي وبين السلطان ابن الاحمر واجازة السلطان أبي العباس الى سبتة لطلب ملكه واستيلاؤه عليها

لما بلغ الوزير ابن ماسي للواثق ورأى أنه قد استقلّ بالدولة ودفع عنها الشواغب ، وصرف نظره إلى ما فرّط من أعمال الدولة ، وافتتح أمره بسبتة . وقد كان السلطان موسى لأول إجازته أعطاها لابن الأحمر كما مرّ . فبعث إليه الآن الوزير ابن ماسي في ارتجاعها منه على سبيل الملاطفة ، فاستشاط لها ابن الأحمر ولجّ في الردّ ، فنشأت الفتنة لذلك ، وجهّز ابن ماسي العساكر لحصار سبتة مع العبّاس بن عمر بن عثمان الوسناني ويحيى بن علاّل بن أَمْصَمُود ، والرئيس محمد بن أحمد الأبكم من بني الأحمر . ثم من بيت السلطان الشيخ فاتح أمرهم وممهّد دولتهم ، وراسل السلطان إشبيلية والجلالقة من بني أدفونش وراء البحر ، بأن يبعث إليهم ابن عمّ السلطان ابن الأحمر محمد بن اسمعيل مع الرئيس الأبكم ليجلبا من ناحيته على الأندلس . وجاءت عساكر الوزير إلى سبتة فحاصروها ودخلوها عنوة . واعتصم حامية الأندلس الذين كانوا بها بالقصبة ، واتصلت الجولة بين الفريقين وسط البلد ، وأوفد

أهل القصبة النيران بالجبل علامة على أمرهم ليراها ابن الأحمر. وكان مقيماً بمالقة، فبادر بتجهيز الأسطول مشحوناً بالمقاتلة مدداً لهم. ثم استدعى السلطان أبو العباس من مكانه بالحمراء، وأركبه السفين إلى القصبة في غرّة صفر سنة تسع وثمانين وسبعمائة وأشرف عليهم من الغد وناداهم من السور يدعوهم إلى طاعته. فلمّا رأوه اضطربوا وافترقوا وخرج إليهم، فنهب سوادهم ودخلوا في طاعته متسايلين، ورجع جمهور العسكر ومقدّموهم إلى طنجة واستولى السلطان على مدينة سبتة. وبعث إليه ابن الأحمر بالنزول عنها، وردّها إليه فاستقرت في ملكه وكملت بها بيعته، وكان يوليه أمر الأضياف الواردين والله تعالى أعلم.

مسير السلطان أبي العباس من سبتة لطلب ملكه بفاس ونهوض ابن ماسي لدفاعه ورجوعه منهزما

ولما استولى السلطان أبو العباس على سبتة وتمّ له ملكها، واعتزم على المسير لطلب ملكه بفاس، وأغراه ابن الأحمر بذلك ووعده بالمدد لما كان من مداخلة ابن ماسي لجماعة من بطانته في أن يقتلوه ويملّكوا الرئيس الأبكم يقال: إنّ الذي داخله في ذلك من بطانة ابن الأحمر يوسف بن مسعود البَلَنْسِيّ، ومحمد ابن الوزير أبي القاسم بن الحكيم الرُّنْدِيّ وشعر بهم السلطان ابن الأحمر وهو يومئذ على جبل الفتح يطالع أمور السلطان أبي العبّاس، فقتلهم جميعاً وإخوانهم. ويقال: إنّ ذلك كان بسعاية القائم على دولته مولاه خالد، كان يغصّ بهم ويعاديهم، فأخفى عليهم هذه[1]. وتمت سعايته بهم، فاستشاط ابن الأحمر غضباً على ابن ماسي، وبعث إلى السلطان أبي العبّاس يستنفره للرحلة إلى طلب ملكه، فاستخلف على سبتة رحّو ابن الزعيم المكرودي عاملها من قبل كما مرّ وسار إلى طَنْجَة وعاملها من قبل الواثق صالح بن رحّو الياباني ومعه بها الرئيس الأبكم من قبل العساكر، فحاصرها أياماً وامتنعت عليه فجمّر عنهم الكتائب وسار عنها إلى أصيلا، فدخلت في دعوته وملكها. ونهض الوزير من فاس في العساكر بعد أن استخلف أخاه يعيش على دار

(١) وفي نسخة ثانية: فاحتال عليهم بهذه.

الملك وسار. ولحقت مقدّمته بأصيلا ففارقها السلطان أبو العبّاس، وصعد إلى جبل الصفيحة، فاعتصم به وجاء الوزير ابن ماسي فتقدّم الى حصاره بالجبل، وجمع عليه رماة الرجل من الأندلسيّين الذين كانوا بطنجة، وأقام يحاصره بالصفيحة شهرين. وكان يوسف بن علي بن غانم شيخ أولاد حسين من عرب المعقل، مخالفاً على الوزير مسعود وداعية إلى السلطان أبي العبّاس وشيعة له. وكان يراسل ابن الأحمر في شأنه. فلما سمع باستيلائه على سبتة وإقباله إلى فاس، جمع أشياعه من العرب، ودخل في طاعته إلى بلاد المغرب ما بين فاس ومكناسة. وشنّ الغارات على البسائط واكتسحها، وأرجف الرعايا وأجفلوا إلى الحصون، وكان ونزمار بن عريف وليّ الدولة شيعة للسلطان، وكان يكاتبه وهو بالأندلس ويكاتب ابن الأحمر بشأنه. فلمّا اشتدّ الحصار بالسلطان في الصفيحة، بعث ابنه أبا فارس إلى ونزمار بمكانه من نواحي تازى. وبعث معه سيّور بن يحيى بن عمر، فقام ونزمار بدعوته، وسار به إلى مدينة تازى، وعاملها سليمان الغودودي من قرابة الوزير ابن مَاسَي. فلمّا نزل بها أبو فارس ابن السلطان بادر إلى طاعته وأمكنه من البلد، فاستولى عليها واستوزر سليمان هذا. وسار إلى صفيروا(1) ومعه ونزمار للاجتماع بعرب المعقل وأسفّ بهم إلى حصار فاس. وكان محمد بن الدمغة عاملاً على ورغة، فبعث إليه السلطان عسكراً مع العبّاس بن المقداد ابن أخت الوزير محمد بن عثمان فقتلوه وجاؤا برأسه، ونجم الخلاف على يعيش بالبلد الجديد من كل جهة، وطيّر الخبر بذلك كلّه إلى أخيه بمكانه من حصار السلطان بالصفيحة، فانفضّت عنه العساكر وأجفل راجعاً إلى فاس. وسار السلطان في اتباعه ودخل في طاعته عامل مكناسة، وجاء الخيّر مولى الأمير عبد الرحمن ولقيه يوسف بن علي بن غانم ومن معه من أحياء العرب، وساروا جميعاً إلى فاس. وكان أبو فارس ابن السلطان قد رحل من تازى إلى صفيروا للقاء أبيه، فاعترضه ابن مَاسَي في العساكر رجاء أن يفلّه. ولقيه ببني بهلول فنزع أهل المعسكر إلى أبي فارس ابن السلطان وهو بمكناسة، فارتحل يغذّ السير إلى فاس. وسار ابنه أبو فارس للقائه على وادي النجا. وصبحوا البلد الجديد فنزلوا عليه بجموعهم وقد اعتصم به الوزير في أوليائه وبطانته، ومعه يغمراسن بن محمد

(1) وفي النسخة المصرية: صفروي وفي نسخة أخرى: صفرون.

السالني[1] ومراهن بني مرين الذين استرهنهم عند مسيره للقاء السلطان بأصيلا ، والله أعلم .

* (ظهور دعوة السلطان أبي العباس في مراكش واستيلاء أوليائه عليها) *

كان الوزير مسعود بن مَاسَي قد ولّى على مراكش وأعمال المصامدة أخاه عمر بن رحّو وكانت منتظمة في طاعته . فلما بلغ الخبر بوصول السلطان إلى سبتة واستيلائه عليها قامت[2] رؤوس أوليائه إلى إظهار دعوته بتلك النواحي ، فقام بدعوته بجبل الهساكرة عليّ بن زكريا . وبعث الوزير مسعود من مكانه في حصار السلطان بالصفيحة في أمداده بالعساكر من مراكش ، فزحف إليه مخلوف بن سليمان الوارتيبي[3] صاحب الأعمال ما بين مراكش والسوس ، وقعد الباقون عن نصره وتفرّقوا . وصعد أبو ثابت حافد عليّ بن عمر إلى جبل الهساكرة ومعه يوسف بن يعقوب بن علي الصبيحي . فاستمدّ علي بن زكريا ورجع إلى مراكش مجلباً على عليّ ابن رحّو مناوشة القتال ساعة . ثم غلبه على البلد وملكها من يده ونزل بقصبة الملك . وحبس عمر بن رحّو بها . وكتب للسلطان بذلك . وهو بمكناسة متوجهاً إلى فاس ، فكتب إليه بأن يصله بعساكر مراكش لحصار دار الملك فجمع العساكر واستخلف على قصبة مراكش بعض بني عمّه . ولحق بالسلطان . وأقام معه في حصار البلد الجديد . والله أعلم .

* (ولاية المنتصر ابن السلطان أبي علي على مراكش واستقلاله بها) *

كان السلطان أبو العباس حين ملك المغرب بعث ابنه المنتصر في البحر إلى سلا .

(۱) وفي النسخة المصرية : التنالقتي .

(۲) وفي النسخة المصرية : تطاولت .

(۳) وفي النسخة المصرية : الوارتني وفي نسخة أخرى : الواريني .

واستوزر له عبد الحق بن يوسف الورتاجني[1] فوصل الى سلا وأقام بها ، ومرّ به رزوق بن توفريطت راجعاً من دكالة ، حين نزول السلطان على البلد الجديد ، فتلطّف في استدعائه ، ثم قبض عليه وبعث به لأبيه مقيّداً فأودعه السجن وقتل بعد ذلك بـمحبسه . ثم بعث السلطان إلى ابنه المنتصر بولاية مراكش وأن يسير إليها . فلما وصل إلى مراكش امتنع النائب بالقصبة ، فدسّ لعبد الحق وزير المنتصر أنّ النائب قد همّ بقتله ، وحينئذ يمكّن المنتصر من القصبة . فأجفل بالمنتصر وصعد إلى جبل هنتاتة ، وطيّر بالخبر إلى السلطان ، فتغيّر لأبي ثابت وأمره أن يكاتب نائبه بتمكين ابنه من القصبة . واستوزر له سعيد بن عبدون وبعثه بالكتاب ، وعزل عبد الحق عن وزارة ابنه ، واستدعاه لفاس ، فوصل سعيد بن عبدون إلى مراكش ، ودفع إلى النائب بالقصبة كتاب مستخلفه إلى الامتثال ، وأمكنه من القصبة واعتزل عنها فدخلها . وبعث عن المنتصر ابن السلطان ، واستولوا عليها ، وقبضوا على نائب عامر الذي كان بها وسائر شيعته وبطانته ، وامتحنوهم واستصفوهم إلى أن كان ما نذكره إن شاء الله تعالى .

* (حصار البلد الجديد وفتحها ونكبة الوزير ابن ماسي ومقتله) *

لما نزل السلطان على البلد الجديد واجتمع إليه سائر قبيلته وأوليائه وبطانته ، داخل الوزير مسعوداً الحنق على بني مرين لانتباذهم عنه . فأمر بقتل أبنائهم الذين استرهنوهم على الوفاء له ، فلاطفه يغمراسن السالني في المنع من ذلك ، فأقصر عنه ، وضيّق السلطان مخنقه بالحصار ثلاثة أشهر حتى دعا الى النزول والطاعة ، فبعث إليه ولي الدولة ونزمار بن عريف وخالصته محمد بن علاّل فعقد لهم الأمان لنفسه ولمن معه على أن يستمرّ على الوزارة ويبعث بسلطانه الواثق إلى الأندلس ، واستحلفهم على ذلك وخرج معهم للسلطان فدخل السلطان البلد الجديد خامس رمضان سنة تسع وثمانين وسبعمائة لثلاثة أعوام وأربعة اشهر من خلعه . ولحين دخوله قبض على الواثق

(١) وفي النسخة المصرية : عبد الحق بن الحسن بن يوسف .

وبعث به معتقلاً إلى طنجة وقتل بها بعد ذلك . ولما استولى على أمره قبض على الوزير ابن ماسي ليومين من دخوله . وإخوته وحاشيته . وامتحنهم جميعاً فهلكوا في العذاب . ثم سلّط على مسعود من العذاب والانتقام ما لا يعبّر عنه . ونقم عليه ما فعله في دور بني مرين النازعين إلى السلطان . فإنه كان متى هرب عند أحد منهم يعمد إلى بيوته فينهبها ويخرّبها فأمر السلطان بعقابه في أطلالها . فكان يؤتى به إلى كل بيت منها . فيضرب عشرين سوطاً إلى أن قتله العذاب[1] وتجاوز الحدّ. ثم أمر به فقطعت أربعته . فهلك عند قطع الثانية . فذهب مثلاً في الآخرين .

* (وزارة محمد بن علال[2]) *

كان أبوه يوسف بن علاّل من رؤساء الدولة[3] وصانعة السلطان أبي الحسن . وربّي في داره . ولمّا ضخم أمره سما به إلى ولاية الأعمال . فولاّه على درعة فانتزى وانتخب أولياء الدولة . ثم ولاّه السلطان أبو عنان أمر طنجة ومائدته وضيوفه واستكفى به في ذلك . وولاّه أخوه أبو سالم بعده كذلك . ثم بعثه إلى سجلماسة فعانى بها من أمور العرب مشقّة . وعزلها عنها ، وهلك بفاس . وكان له جماعة من الولد قد نشؤا في ظلّ هذه النعمة ، وحدبت النجابة بمحمد المذكور منهم . فلما استولى السلطان أبو العبّاس استعمله في أمور الضيوف والمائدة كما كانت لأبيه . ثم رقّاه إلى المخالصة وخلطه بنفسه ، فلمّا خلع السلطان واستولى الوزير ابن ماسي على المغرب . وكانت بينه وبين أخيه يعيش بن ماسي إحن قديمة ، فسكن لصولتهم حتى إذا اضطرمت نار الفتنة بالمغرب وأجلبت عرب المعقل الخلاف ، فاستوحش محمد هذا . فلحق بأحيائهم مع رزوق بن توفريطت كما مرّ ذكره ونزل على يوسف بن علي بن غانم شيخ أولاد حسين ، وأقاما معه في خلافه . حتى إذا أجاز السلطان الواثق إلى الأندلس . ووصل مع أصحابه إلى جبل رزهون ، وأظهروا الخلاف على ابن ماسي بادر محمد هذا ورزوق إلى السلطان ، ودخلا في طاعته متبرّئين من النفاق الذي حملهم عليه

(١) وفي النسخة المصرية : إلى أن أفحش فيه العذاب .

(٢) وفي النسخة المصرية : هلال .

(٣) وفي النسخة المصرية : من نشأة الدولة .

عداوة الوزير ابن ماسي . فما كان إلاّ أن انعقد الصلح بين الواثق وابن ماسي وسار به وأصحابه إلى فاس ، وحصلوا في قبضة ابن ماسي فعفا لهم عمّا كان منهم ، واستعملهم في مهود ولايتهم . ثم جاء الخبر باجازة السلطان أبي العباس إلى سبتة ، فاضطرب محمد بن يوسف وذكر مخالصة السلطان ومنافرة ابن ماسي ، فأجمع أمره ولحق بسبتة ، فتلقّاه السلطان بالكرامة ، وسرّ بـمقدمه ودفعه إلى القيام بأمر دولته ، فلم يزل متصرّفاً بين يديه إلى أن نزل إلى البلد الجديد . ولأيام من حصارها خلع عليه الوزارة ودفعه إليها ، فقام بها أحسن قيام . ثم كان الفتح وانتظم أمر الدولة ، ومحمد هذا يصرّف الوزارة على أحسن أحوالها إلى أن كان ما نذكره إن شاء الله تعالى .

* (ظهور محمد بن السلطان عبد الحليم بسجلماسة) *

قد تقدّم لنا ذكر السلطان عبد الحليم ابن السلطان أبي علي ، وكان يدعى بحلى كيف ، بايع له بنو مرين وأجلبوا به على عمر بن عبدالله سنة ثلاث وستين وسبعمائة أيام مبعثه للسلطان أبي عمر ابن السلطان أبي الحسن . وحاصروا معه البلد الجديد حتى خرج لدفاعهم وقاتلهم ، فانهزموا وافترقوا . ولحق السلطان عبد الحليم بتازى وأخوه عبد المؤمن بـمكناسة ، ومعه ابن أخيهما عبد الرحمن بن أبي يفلوسن . ثم بايع الوزير عمر بن عبدالله لمحمد بن أبي عبد الرحمن ابن السلطان أبي الحسن واستبدل به من أبي عمر لِمَا كان بنو مرين يرمونه بالجنون والوسوسة ، فاستدعى محمد بن أبي عبد الرحمن من مطرح اغترابه بإشبيلية وبايعه وخرج في العساكر لمدافعة عبد المؤمن وعبد الرحمن عن مكناسة ، فلقيهما وهزمهما ولحقا بالسلطان عبد الحليم بتازى وساروا جميعاً إلى سجلماسة ، فاستقرّوا فيها والسلطان عبد الحليم ، وقد تقدّم خبر ذلك كله في أماكنه . ثم كان الخلاف بين عرب المعقل أولاد حسين والأحلاف . وخرج عبد المؤمن للإصلاح بينهم ، فبايع له أولاد حسين ونصّبوه كرهاً للملك . وخرج السلطان عبد الحق إليهم في جموع الأحلاف فقاتلوه وهزموه ، وقتلوا كبار قومه ، كان منهم يحيى بن رحّو بن تاشفين بن معطي شيخ بني تيربيغن وكبير دولة بني مرين ، أجلت المعركة عن قتله . ودخل عبد المؤمن البلد منفرداً بالملك .

وصرف السلطان أخاه عبد الحليم إلى المشرق لقضاء فرضه برغبته في ذلك ، فسار على

طريق القفر مسلك الحاج من التكرور إلى أن وصل القاهرة ، والمستبدّ بها يومئذ يلبغا الخاصكي ، على الأشرف شعبان بن حسين من أسباط الملك الناصر محمد بن قلاوون ، فأكرم وفادته ووسّع نزله وجرايته ، وأدرّ لحاشيته الأرزاق ، ثم أعانه على طريقه للحج بالأزواد والأبنية والظهر من الكراع والخفّ . ولما انصرف من حجّه زوّده لسفر المغرب . وهلك بضروجة سنة سبع وستين وسبعمائة ورجعت حاشيته إلى المغرب بحرمه وولده . وكان ترك محمداً هذا رضيعاً ، فشبّ متقلّباً من الدولة من ملك إلى آخر ، منتبذاً عن قومه بغيرة السلطان أبي الحسن من بني عمّهم السلطان أبي عليّ . وكان أكثر ما يكون مقامه عند أبي حمّو سلطان بني عبد الواد بتلمسان لما يروم به من الأجلاب على المغرب ، ودفع عادية بني مرين عنه . فلمّا وقع بالمغرب من انتقاض عرب المعقل على الوزير مسعود بن ماسي سنة تسع وثمانين وسبعمائة واستمرّوا على الخلاف ، انتهز أبو حمّو الفرصة ، وبعث محمد بن عبد الحليم هذا إلى المعقل ليجلب بهم على المغرب ، ويمزّقوا من الملك ما قدروا عليه ، فلحق بأحيائهم ونزل على الأحلاف الذين هم أمس رحماً بسجلماسة وأقرب موطناً إليها . وكان الوزير ابن ماسي قد ولّى عليها من أقاربه عليّ بن ابراهيم بن عبّو بن ماسَي ، فلما ظهر عليه السلطان أبو العبّاس وضيّق مخنقه بالبلد الجديد ، دسّ إلى الأحلاف وإلى قريبه عليّ ابن ابراهيم أن ينصّب محمد ابن السلطان أبي العباس عنه ، وينفّسوا من حصاره ، ففعلوا ذلك . ودخل محمد إلى سجلماسة فملكها ، وقام عليّ بن ابراهيم بوزارته حتى إذا استولى السلطان أبو العباس على البلد الجديد ، وفتك بالوزير مسعود بن ماسي وبإخوته وسائر قرابته ، اضطرب علي بن ابراهيم وفسد ما بينه وبين سلطانه محمد ، فخرج عن سجلماسة ودعا إلى أبي حمو سلطان تلمسان كما كان .

ثم زادت هواجس علي بن ابراهيم وارتيابه فخرج عن سجلماسة وتركها ، ولحق بأحياء العرب . وسارت طائفة منهم معه إلى أن أبلغوه مأمنه . ونزل على السلطان أبي حمّو إلى أن هلك ، فسار إلى تونس وحضر وفاة السلطان أبي العبّاس بها سنة تسع وتسعين وسبعمائة ولحق محمد ابن السلطان عبد الحليم بعد مهلك أبي حمّو بتونس . ثم ارتحل بعد وفاة السلطان أبي العبّاس الى المشرق لحجة فرضه[٢] ، والله تعالى أعلم .

---

(١) وفي النسخة المصرية : بتروجه وفي نسخة أخرى : بيروجة .

(٢) وفي النسخة المصرية : الى المشرق في سبيل جولة ووطاوعة واغتراب .

* (نكبة ابن أبي عمر ومهلكه وحركات ابن حسون) *

لما استقل السلطان بملكه واقتعد سريره ، صرف نظره إلى أولياء تلك الدولة ومن يرتاب منه . وكان محمد بن أبي عمر قد تقدّم ذكره وأوّليته ، من جملة خواصه وأوليائه وندمائه . وكان السلطان يقسم له من عنايته وجميل نظره ويرفعه عن نظرائه . فلمّا ولي السلطان موسى نزعت إليه نوازع المخالصة لأبيه من السلطان أبي عنان فقد كان أبوه أعزّ بطانته كما مرّ ، فاستخلصه السلطان موسى للشورى ورفعه على منابر أهل الدولة . وجعل إليه كتاب علامته على المراسم السلطانية ، كما كان لأبيه . وكان يفاوضه في مهمّاته ويرجع إليه في أموره حتى غصّ به أهل الدولة ونمي عنه للوزير مسعود بن ماسي أنه يداخل السلطان في نكبته . وربما سعى عند سلطانه في جماعة من بطانة السلطان أحمد ، فأتى عليهم النكال والقتل لكلمات[1] كانت تجري بينهم وبينه في مجالسة المنادمة عند السلطان حقدها لهم . فلما ظفر بالحظ من سلطانه ، سعى بهم فقتلهم . وكان القاضي أبو اسحق اليزناسني من بطانة السلطان أحمد وكان يحضر مع ندمانه فحقد له ابن أبي عامر ، وأغرى به سلطانه فضربه وأطافه ، وجاء بها شنعاء غريبة في القبح . وسفر عن سلطانه إلى الأندلس ، وكان يمرّ بمجلس السلطان أحمد ومكان اعتقاله . وربّما يلقاه فلا يلمّ إليه ولا يجيبه[2] ، ولا يوجب له حقاً ، فأحفظ ذلك السلطان . ولما فرغ من ابن ماسي قبض على ابن أبي عمر هذا وأودعه السجن ، ثم امتحنه بعد ذلك إلى أن هلك بالسياط ، عفا الله عنه . وحمل إلى داره ، وبينما أهله يحضّرونه إلى قبره واذا بالسلطان قد أمر بأن يسحب بنواحي البلد إبلاغاً في التنكيل ، فحمل من نعشه وقد ربط حبل برجله ، وسحب في سائر أنحاء المدينة . ثم ألقي في بعض المزابل[3] . ثم قبض على حركات ابن حسّون وكان مجلباً في الفتنة ، وكان العرب المخالفون من المعقل ، لما أجاز السلطان إلى سبتة ، وحركات هذا بتدلاّ ، راودوه على طاعة السلطان فامتنع أوّلاً . ثم أكرهوه وجاؤا به

(١) وفي النسخة المصرية : لفلتات .

(٢) وفي النسخة المصرية : فلم يلم بتحيه .

(٣) وفي النسخة المصرية : ثم ألقي على بعض الكثبان من أطرافها وأصبح مثلاً في الآخرين .

إلى السلطان فطوى على ذلك حتى استقام أمره . وملك البلد الجديد فتقبّض عليه وامتحنه ، إلى أن هلك ، والله وارث الأرض ومن عليها .

* (خلاف علي بن زكريا بجبل الهساكرة ونكبته) *

لما ملك السلطان البلد الجديد واستولى على ملكه ، وفد عليه علي بن زكريا شيخ هسكورة مستصفياً[1] بما قدم من سوابقه . وقد كان حضر معه حصار البلد الجديد واستدعاه ، فجاء بقومه وعساكر المصامدة وأبلى في حصارها ، فرعى السلطان سوابقه وولاّه الولاية الكبرى على المصامدة على عادة الدولة في ذلك . ثم وفد معه محمد بن ابراهيم الميراري[2] من شيوخ المصامدة وكانت له ذمّة صهر مع الوزير محمد ابن يوسف بن علاّل على أخته ، فولاّه السلطان مكان علي بن زكريا فغضب لها واستشاط وبادر إلى الانتقاض والخلاف . ونصب بعض القرابة من بني عبد الحق ، فجهّز إليه السلطان العساكر مع محمد بن يوسف بن علاّل وصالح بن حمّو الياباني وأمر صاحب درعة وهو يومئذ عمر بن عبد المؤمن بن عمر أن ينهض إليه بعساكر درعة من جهة القبلة ، فساروا إليه وحاصروه في جبله . وجاولوه مرّات ينهزم في جميعها حتى غلبوه على جبله . وسار إلى ابراهيم بن عمران الصناكي المجاور له في جبله فاستذمّ به . وخشي ابراهيم معرّة الخلاف والغلب ، ورغّبه الوزير محمد بن يوسف بما بذل له ، فأمكنه منه ، وقبض على الوزير وجاء به إلى فاس ، فأدخله في يوم مشهود وشهّره ، واعتقل فلم يزل في الاعتقال إلى أن هلك السلطان أبو العبّاس . وارتاب به أهل الدولة بعده فقتلوه ، كما نذكره إن شاء الله تعالى .

وفادة أبي تاشفين على السلطان أبي العباس صريخا على أبيه ومسيره بالعساكر ومقتل أبيه السلطان أبي حمو

كان أبو تاشفين ابن السلطان أبي حمو قد وثب على أبيه آخر ثمان وثمانين وسبعمائة

(١) وفي النسخة المصرية : مستصباً

(٢) وفي نسخة ثانية : المبرازي .

بمالئته لغيره من إخوته واعتقله بوهران. وخرج بالعساكر لطلب إخوته المنتصر وأبي زيّان وعمر[1] فامتنعوا عند حُصَيْن بجبل تيطرى فحاصرهم أياماً. ثم تذكر غائلة أبيه، فبعث ابنه أبا زيّان في جماعة من بطانته منهم ابن الوزير عمران بن موسى وعبدالله بن جابر الخراساني، فقتلوا بعض ولده بتلمسان، ومضوا إليه وهو بمحبسه في وَهْرَان. فلمّا شعر بهم أشرف من الحصن ونادى في أهل المدينة متذمّماً بهم، فهرعوا إليه. وتدلّى إليهم في عمامته وقد احتزم بها فأنزلوه وأحدقوا به وأجلسوه على سريره. وتولّى كبر ذلك خطيب البلد ابن جذورة[2] ولحق أبو زيّان بن أبي تاشفين ناجياً إلى تلمسان. واتبعه السلطان أبو حمّو ففرّ منها إلى أبيه. ودخل أبو حمّو تلمسان وهي طلل وأسوارها خراب، فأقام فيها رسم دولته. وبلغ الخبر إلى أبي تاشفين فأجفل من تيطرى وأغذّ السير فدخلها. واعتصم أبوه بمئذنة المسجد، فاستنزله منها وتجافى عن قتله. ورغب إليه أبوه في رحلة المشرق لقضاء فرضه، فاسعفه وأركبه السفين مع بعض تجّار النصارى إلى الإسكندرية موكلاً به. فلمّا حاذى مرسى بجاية لاطف النصراني في تخلية سبيله فأسعفه وملك أمره. وبعث إلى صاحب الأمر ببجاية يستأذنه في النزول، فأذن له. وسار منها إلى الجزائر، واستخدم العرب، واستصعب عليه أمر تلمسان، فخرج إلى الصحراء. وجاء إلى تلمسان من جهة المغرب فهزم عساكر ابنه أبي تاشفين وملكها. وخرج أبو تاشفين هارباً منها، فلحق بأحياء سويد في مشاتيهم. ودخل أبو حمّو تلمسان في رجب سنة تسعين وسبعمائة. وقد تقدّم شرح هذه الأخبار كلّها مستوعبة. ثم وفد أبو تاشفين مع محمد بن عريف شيخ سويد على السلطان أبي العبّاس صريخاً على أبيه، ومؤمّلاً الكرّة بإمداده. فبعث له السلطان وأجمل عليه المواعيد. وقام أبو تاشفين في انتظارها والوزير محمد بن يوسف بن علاّل يعده ويمنّيه ويحلف له على الوفاء. وبعث السلطان أبو حمّو إلى ابن الأحمر لما يعلم من استطالته على دولة بني مرين كما مرّ، يتوسّل إليه في أن يصدّهم عن صريخ أبي تاشفين وإمداده عليه فجلا ابن الأحمر في ذلك وجعلها من أهمّ حاجاته. وخاطب السلطان أبا العباس في أن يجيز إليه أبا تاشفين، فتعلّل عليه في ذلك بأنه استجار بابنه أبي فارس، واستذمّ به. ولم يزل الوزير ابن علاّل يفتل لسلطانه ولابن الأحمر في

(١) وفي النسخة المصرية: وعمير (وهي الأصح).
(٢) وفي النسخة المصرية: خزروت وفي نسخة أخرى: حرزورة.

الذروة والغارب ، حتى تمّ أمره وأنجز له السلطان بالنظر موعده . وبعث ابنه الأمير أبا فارس والوزير ابن علاّل في العساكر صريخين له ، وانتهوا إلى تازى . وبلغ الخبر إلى أبي حمّو فخرج من تلمسان في عساكره ، واستألف أولياءه من عبيدالله . ونزل بالغيران من وراء جبل بني راشد المطلّ على تلمسان ، وأقام هنالك متحصّناً بالجبل ، وجاءت العيون إلى عساكر بني مرين بتازى بمكانه هو وأعرابه من الغيران ، فأجمعوا غزوه . وسار الوزير علاّل وأبو تاشفين وسلكوا القفر ودليلهم سليمان بن ناجي من الأحلاف . حتى صبّحوا أبا حمّو ومن معه من أحياء الجرّاح[1] في مكانهم بالغيران . فجاولوهم ساعة ، ثم ولّوا منهزمين ، وكبا بالسلطان أبي حمّو فرسه فسقط ، وأدركه بعض أصحاب أبي تاشفين فقتلوه قعصاً بالرماح ، وجاؤا برأسه إلى ابنه أبي تاشفين والوزير ابن علاّل ، فبعثوا به إلى السلطان ، وجيء بابنه عمير أسيراً ، فهمّ أخوه أبو تاشفين بقتله ، فمنعه بنو مرين أياماً . ثم أمكنوه منه فقتله ، ودخل تلمسان آخر إحدى وتسعين وسبعمائة وخيّم الوزير وعساكر بني مرين بظاهر البلد ، حتى دفع إليهم ما شارطهم عليه من المال . ثم قفلوا إلى المغرب وأقام أبو تاشفين بتلمسان يقيم دعوة السلطان أبي العبّاس صاحب المغرب ويخطب له على منابر تلمسان وأعمالها ، ويبعث إليه بالضريبة كل سنة ، كما اشترط على نفسه . وكان أبو حمّو لما ملك تلمسان ولّى ابنه أبا زيّان على الجزائر ، فلمّا بلغه مقتل أبيه امتعض ولحق بأحياء حُصَيْن ناجياً وصريخاً . وجاءه وفد بني عامر من زغبة يدعونه للملك . فسار إليهم . وقام بدعوته شيخهم المسعود بن صغير ، ونهضوا جميعاً إلى تلمسان في رجب سنة إثنتين وتسعين وسبعمائة فحاصرها أياماً . ثم سرّب أبو تاشفين المال في العرب فافترقوا عن أبي زيّان ، وخرج إليه أبو تاشفين فهزمه في شعبان من السنة . ولحق بالصحراء واستألف أحياء المعقل ، وعاود حصار تلمسان في شوّال . وبعث أبو تاشفين ابنه صريخاً إلى المغرب ، فجاءه بمدد من العساكر . ولما انتهى إلى تاوريرت ، أفرج أبو زيّان عن تلمسان وأجفل إلى الصحراء . ثم أجمع رأيه على الوفادة إلى صاحب المغرب ، فوفد عليه صريخاً فتلقّاه وبرّ مقدمه ووعده النصر من عدوّه . وأقام هنالك إلى حين مهلك أبي تاشفين ، والله أعلم .

---

(١) وفي نسخة ثانية : الخراج .

* (وفـــاة أبـــي تـــاشفين واستيلاء صاحب المغرب على تلمسان) *

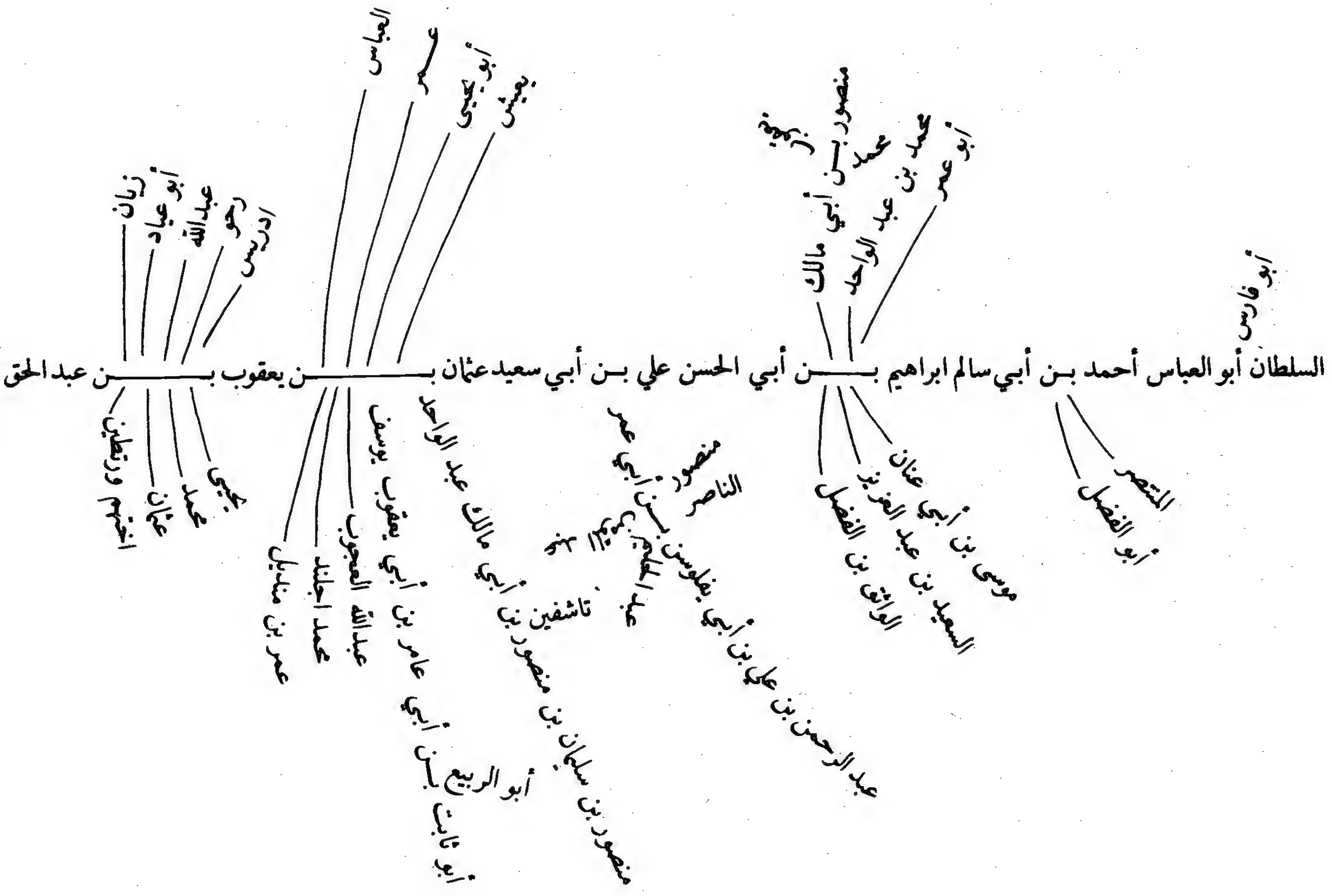
لم يزل هذا الأمير أبو تاشفين مملكاً على تلمسان ومقيماً فيها لدعوة صاحب المغرب أبي العبّاس ابن السلطان أبي سالم ، ومؤدّياً الضريبة التي فرضها عليه منذ ملك ، وأخوه الأمير زيّان عند صاحب المغرب ينتظر وعده بالنصر عليه ، حتى تغيّر السلطان أبو العباس على أبي تاشفين في بعض النزعات الملوكية ، فأجاب داعي أبي زيّان وجهّزه بالعساكر لملك تلمسان . فسار لذلك منتصف سنة خمس وتسعين وسبعمائة وانتهى إلى تازى ، وكان أبو تاشفين قد طرقه مرض أزمن به ، ثم هلك منه في رمضان من السنة . وكان القائم بدولته أحمد بن العزّ من صنائعهم وكان يمت إليه بخؤلة ، فولّى بعده مكانه صبياً من أبنائه ، وأقام بكفالته . وكان يوسف بن أبي حمّو وهو ابن الزابية والياً على الجزائر من قبل أبي تاشفين ، فلمّا بلغه الخبر أغذّ السير مع العرب فدخل تلمسان ، وقتل أحمد بن العزّ والصبي المكفول ابن أخيه أبي تاشفين ، فلمّا بلغ الخبر إلى السلطان أبي العبّاس صاحب المغرب خرج إلى تازى ، وبعث من هنالك ابنه أبا فارس في العساكر وردّ أبا زيّان بن أبي حمّو إلى فاس ، ووكّل به . وسار ابنه أبو فارس إلى تلمسان فملكها واقام فيها دعوة أبيه . وتقدّم وزير أبيه صالح بن أبي حمّو إلى مليانة ، فملكها ومابعدها من الجزائر وتدلس إلى حدود بجاية . واعتصم يوسف بن الزابية بحصن تاجمعومت وأقام الوزير صالح يحاصره . وانقرضت دعوة بني عبد الواد من المغرب الأوسط ، والله غالب على أمره .

وفاة أبي العباس صاحب المغرب واستيلاء أبي زيان بن أبي حمو على تلمسان والمغرب الأوسط

كان السلطان أبو العبّاس بن أبي سالم لما وصل إلى تازى وبعث ابنه أبا فارس إلى تلمسان فملكها ، وأقام هو بتازى يشارف أحوال ابنه ووزيره صالح الذي تقدّم لفتح البلاد الشرقية . وكان يوسف بن علي بن غانم أمير أولاد حسين من المعقل قد حجّ

سنة ثلاث وتسعين وسبعمائة واتصل بملك مصر من الترك الملك الظاهر برقوق . وتقدّمت إلى السلطان فيه وأخبرته بمحله من قومه ، فأكرم تلقّيه وحمله بعد قضاء حجّه هدية إلى صاحب المغرب ، يطرفه فيها بتحف من بضائع بلده على عادة الملوك . فلمّا قدم يوسف بها على السلطان أبي العبّاس أعظم موقعها وجلس في مجلس حفل لعرضها والمباهاة بها . وشرع في المكافأة عليها بمتخير الجياد والبضائع والثياب ، حتى استكمل من ذلك ما رضيه . واعتزم على إنفاذها مع يوسف بن علي حاملها الأول . وأنه يرسله من تازى أيام مقامته تلك ، فطرقه هنالك مرض كان فيه حتفه في محرم سنة ست وتسعين وسبعمائة واستدعوا ابنه أبا فارس من تلمسان فبايعوه بتازى وولّوه مكانه ، ورجعوا به إلى فاس . وأطلقوا أبا زيّان بن أبي حمّو من الاعتقال ، وبعثوا به إلى تلمسان أميراً عليها ، وقائماً بدعوة السلطان أبي فارس فيها ، فسار إليها وملكها ، وكان أخوه يوسف بن الزابية قد اتصل بأحياء بني عامر يروم ملك تلمسان والاجلاب عليها ، فبعث إليهم أبو زيان عندما بلغه ذلك وبذل لهم عطاءً جزيلاً على أن يبعثوا به إليه ، فأجابوه إلى ذلك ، وأسلموه إلى ثقات أبي زيّان . وساروا به فاعترضهم بعض أحياء العرب ليستنقذوه منهم ، فبادروا بقتله ، وحملوا رأسه إلى أخيه أبي زيّان فسكنت أحواله وذهبت الفتنة بذهابه ، واستقامت أمور دولته . وهم على ذلك لهذا العهد ، والله غالب على أمره ، وهو على كل شيء قدير .

وقد انتهى بنا القول في دولة بني عبد الواد من زناتة الثانية ، وبقي علينا خبر الرهط الذين تحيّزوا منهم إلى بني مرين من أول الدولة . وهم بنو كمي من فصائل علي بن القاسم إخوة طاع الله بن علي ، وخبر بني كندوز أمرائهم بمراكش . فلنرجع إلى ذكر أخبارهم ، وبها نستوفي الكلام في أخبار بني عبد الواد . والله وارث الارض ومن عليها وهو خير الوارثين .



السلطان أبو العباس أحمد بن أبي سالم ابراهيم بن أبي الحسن علي بن أبي سعيد عثمان بن يعقوب بن عبد الحق
أبو فارس
المنتصر
أبو الفضل
منصور بن أبي مالك
محمد
محمد بن عبد الواحد
أبو عمر
موسى بن أبي عنان
السعيد بن عبد العزيز
الواثق بن الفضل
عبد الرحمن بن علي بن أبي يفلوسن
منصور بن أبي عمر
الناصر
عبد الحليم
تاشفين
منصور بن سليمان بن منصور بن أبي مالك عبد الواحد
أبو الربيع
أبو ثابت بن أبي عامر بن أبي يعقوب يوسف
عبدالله العجوب
محمد اجلند
عمر بن منديل
العباس
عمر
أبو يحيى
يعيش
زيان
أبو عباد
عبدالله
رحو
ادريس
يحيى
محمد
عثمان
اختهم ورتطين

الخبر عن القرابة المرشحين من آل عبد الحق من الغزاة المجاهدين بالأندلس الذين قاسموا ابن الأحمر في ملكه وانفردوا برياسة جهاده

كانت الجزيرة الأندلسية وراء البحر منذ انقراض[1] أمر بني عبد المؤمن وقيام ابن الأحمر بأمرها، قليلة الحامية، ضعيفة الأحوال إلاّ من يلهمه الله لعمل الجهاد من قبائل زناتة المؤمّلين كرّة الملك والمقتسمين ممالك المغرب، وخصوصاً بني مرين أهل المغرب الأقصى لاتّصال عدوة الأندلس ببسائطه ولتعدّد الفراض ببحر الزقاق القريب العدوتين. وما زال أهل الزقاق على قديم الزمان لأجل ذلك فرضة دون سواحل المغرب.

(ولما استولى) بنو مرين على ممالكه، وضاقت أحوال المسلمين بالأندلس، وأخذ بمخنقهم الطاغية حتى ألجأهم إلى سيف البحر واستأثر بالقوسرة[2] وما وراءها. واستأثر بنو القمص أهل برشلونة وقطلوسة بشرق الأندلس. وانتشر في الأقطار ما كان من أمر قرطبة وأضنيها إشبيلية وبلنسية، وامتعض لذلك المسلمون وتنافسوا في الجهاد وإمداد الأندلس بأموالهم وأنفسهم، وسابق الناس إلى ذلك الأمير ابو زكريا بن أبي حفص بما كان صاحب الوقت والمؤمّل للكرّة، فاستنفذ الكثير من أمواله ومقرّباته في إمدادهم بعد أن كانوا آثروا القيام بدعوته، وأوفدوا عليه المشيخة ببيعتهم. وكان ليعقوب بن عبد الحق أمل في الجهاد وحرص عليه. فاعتزم في سلطان أخيه أبي يحيى على الإجازة لذلك، فمنعه ضنّة به عن الاغتراب عنه. وأوعز إلى صاحب سبتة يومئذ أبي علي بن خلاص بمنعه منها، فوعّر له السبيل وسدّ عليه المذاهب. ولم ينشب يعقوب بن عبد الحق أن قام بسلطان المغرب بعد أخيه أبي يحيى وشغل بشأنه. وأهمّه شأن ابن أخيه إدريس منهم في الجهاد بعد العدوة، فاغتنمها منه وعقد له من مطوعة زناتة على ثلاثة آلاف أو يزيدون. وأجاز معه رحّو ابن عمه عبدالله بن عبد الحق. وفصلوا إلى الأندلس سنة إحدى وستين وستمائة فحسنت

(١) وفي النسخة المصرية: انقضاء.

(٢) وفي الطبعة المصرية: الفرنتيرة.

آثارهم في الجهاد وكرمت مقاماتهم . ثم رجع عامر بن إدريس إلى المغرب وكثر انتقاض القرابة . ونافسهم أقيال زناتة في مثلها ، فاجتمع أبناء الملوك بالمغرب الأوسط مثل عبد الملك ويغمراسن بن زيان وعامر بن منديل بن عبد الرحمن وزيان بن محمد ابن عبد القوي فتعاقدوا على الإجازة إلى الأندلس إلى الجهاد ، وأجازوا فيمن خفّ معهم من قومهم سنة ست وسبعين وستمائة ، فامتلأت الأندلس بأقيال زناتة وأعياص الملك منهم . وكان فيمن أجاز من أعياصهم بنو عيسى بن يحيى بن وسناف بن عبّو ابن أبي بكر بن حمامة . ومنهم سليمان وابراهيم[1] وكانت لهما آثار في الجهاد ومقامات محمودة ، وكان موسى بن رحّو لما نازله السلطان وبني أبيه عبدالله بن عبد الحق بحصن علودان ونزلوا على عهده لحق بتلمسان . وكان بنو عبدالله بن عبد الحق وإدريس بن عبد الحق عصبة من بين سائرهم ، لأنّ عبدالله وإدريس كانا شقيقين لسوط النساء بنت عبد الحق ، فاقتفى أثر يعقوب بن عبد الحق بن عبدالله محمداً ابن عمّه إدريس ، وخرج على السلطان بقصر كتامة سنة ثلاث وستين وستمائة ، ثم استرضاه عمّه واستنزله . وبقي يعقوب بن عبدالله في انتقاضه يتنقل في الجهات إلى أن قتله طلحة بن محلي من أولياء السلطان سنة ثلاث وستين وستمائة بجهات سلا ، فكفى السلطان شأنه . ولما كان من عهد السلطان لابنه أبي مالك ما قدّمناه نفّس عليه هؤلاء القرابة هذا الشأن ، فانتفضوا ولحق ابن ادريس بحصن علودان . ولحق موسى بن رحّو بن عبدالله بجبال غمارة ومعه أولاد عمه أبي عياد بن عبد الحق ، ونازلهم السلطان حتى نزلوا على عهده ، وأجازهم إلى الأندلس سنة سبعين وستمائة ، فأقاموا بها للجهاد سوقاً ونافسهم أقيال زناتة في مثلها بتلمسان ، وأجاز منها إلى الأندلس سنة سبعين وستمائة ، فولاه السلطان ابن الأحمر على جميع الغزاة المجاهدين هنالك ، لِمَا كان كبيرهم ومحلّ سؤلهم[2] . ولم يلبث أن عاد إلى المغرب ، فولّى السلطان مكانه أخاه عبد الحق . ثم رجع عنه مغاضباً إلى تلمسان ، فوَلِيَ مكانه على الغزاة المجاهدين ابراهيم بن عيسى بن يحيى بن وسناف إلى أن كان ما نذكره إن شاء الله تعالى .

---

(١) وفي الطبعة المصرية : ومنهم سليمان بن ابراهيم .

(٢) وفي نسخة ثانية : فحل شولهم .

الخبر عن موسى بن رحو فاتح هذه الرياسة بالأندلس وخبر أخيه عبد الحق من بعده وابنه حمو بن عبد الحق بعدهما

لما هلك السلطان الشيخ بن الأحمر وولي ابنه السلطان الفقيه ، ووفد على السلطان يعقوب بن عبد الحق صريخاً للمسلمين ، فأجاز إليه أوّل إجازته سنة ثلاث وسبعين وستمائة وأوقع بجيوش النصرانية . وقتل الزعيم دُنَّنه واستولى له الغلب على الأندلس ، وبدا لابن الأحمر في أمره وخشي مغبته ، وتوقع أن يكون شأنه معه شأن يوسف بن تاشفين والمرابطين مع ابن عياد . وكان بالأندلس قرابته بنو أشقيلولة قد قاسموه في ممالكها ، وانفردوا بوادي آش ومالقة وقمارش ، حسبما ذكرناه في أخباره مع السلطان ، وانتقض عليه أيضاً من رؤساء الأندلس ابن عبدريل[1] وابن الدليل ، فكانوا يجلبون على بلاد المسلمين . وكانوا قد استنجدوا جيوش النصرانية ونازلوا غرناطة ، وعاثوا في الجهات ، فلما استوت قدم السلطان يعقوب بن عبد الحق بالأندلس ، وصل هؤلاء الثوّار به أيديهم ، فخشيهم ابن الأحمر جميعاً على نفسه . وقلب السلطان ليوسف ظهر المجن ، واستظهر عليه بالأعياص من قرابته . وكان هؤلاء القرابة من أولاد رحّو بن عبدالله بن عبد الحق وإدريس بن عبد الحق ، وينسبون جميعاً إلى سوط النساء كما ذكرناه ، ومن أولاد أبي عياد بن عبد الحق لما أوجسوا الخيفة من السلطان واستشعروا النكير منه ، لحقوا بالأندلس ثورية بالجهاد ، وانتبذوا عن الهول[2] فراراً من محله . وقد كان السلطان أبو يوسف حين انتقضوا عليه أشخصهم إلى الأندلس ، فاجتمع منهم عند ابن الأحمر عصابة من أولاد عبد الحق كما قلناه ، وأولاد وسناف وأولاد نزّول وتاشفين بن معطي كبير بني تيربيغِن من بني محمد . وتبعهم أولاد محلي أخوال السلطان أبي يوسف ، وكان ابن الأحمر كثيراً ما يعقد لهم على الغزاة المجاهدين من زناتة لدار الحرب ، فعقد أولاً لموسى بن رحّو سنة ثلاث وسبعين وستمائة ولأخيه عبد الحق بعد انصرافه إلى المغرب ، ثم لابراهيم بن عيسى بعد انصرافهما معا كما قلناه . ثم رجعا فعقد لموسى بن رحّو ثانية على أشياخه ،

(١) وفي نسخة ثانية : ابن عبدويل .

(٢) وفي نسخة ثانية : وانتباذا عن الشول .

أثبت له قدماً في الرياسة ليحسن به دفاع السلطان أبي يوسف عنهم . ثم تداولت لامارة فيهم ما بينهم وبين عمومتهم . وربما عقد قبل ذلك أزمان الفترة ليعلى بن أبي عيّاد بن عبد الحق في بعض الغزوات ، ولتاشفين بن معطي في أخرى سنة تسع وسبعين وستمائة ومعه طلحة بن محلى ، فاعترضوا الطاغية دون حصر المسلمين وربّما كان لهم الظهور . ثم حدثت الفتنة بينه وبين السلطان أبي تاشفين وعقد ابن الأحمر في بعض حروبه معه ليعلى بن أبي عياد على زناتة جميعاً ، وحاشهم إلى رايته ، فانفضّت جموع أبي يوسف ، وظهروا عليه ، وتقبّضوا في المعركة على ابنه منديل ، واستاقوه أسيراً إلى أن أطلقه السلطان ابن الأحمر في سلم عقده بعد مهلكه ، مع أبيه يوسف بن يعقوب . واستبدّ موسى بن رحّو من بعدها بإمارة الغزاة بالأندلس إلى أن هلك ، فوليها من بعده أخوه عبد الحق إلى أن هلك سنة تسع وسبعين وستمائة وكان مظفّر الراية على عدوّ المسلمين . ولمّا هلك ولي من بعده ابنه حمّو بن عبد الحق فكانت هذه الامارة متّصلة في بني رحّو إلى أن انتقلت منهم إلى إخوانهم من بني أبي العلاء وغيرهم . واندرج حمّو في جملة عثمان بن أبي العلاء من بعد حسبما نذكر . وأمّا ابراهيم بن عيسى الوسنافي فإنه رجع إلى المغرب ، ونزل على يوسف بن يعقوب وقتله بمكانه من حصار تلمسان بعد حين من الدهر ، وبعد أن كبر وعمي . والله مالك الأمور لا ربّ غيره ، وكان مهلك ابن أبي عيّاد سنة سبع وثمانين وستمائة ومعطي بن أبي تاشفين سنة تسع وثمانين وستمائة وطلحة بن محلى سنة ست وثمانين وستمائة والله أعلم .

* (الخبر عن عبد الحق بن عثمان شيخ الغزاة بالأندلس) *

كان عبد الحق هذا من أعياص الملك المريني ويعاسيبهم وهو من ولد محمد بن عبد الحق ثاني الأمراء على بني مرين بعد أبيهم عبد الحق . وهلك أبوه عثمان بن محمد بالأندلس إحدى أيام الجهاد سنة تسع وسبعين وستمائة وربّي عبد الحق هذا في حجر السلطان يوسف بن يعقوب إلى أن كان من أمر خروجه مع الوزير رحّو بن يعقوب على السلطان أبي الربيع ما ذكرناه في أخباره . ولحق بتلمسان وأجاز منها إلى الأندلس ،

وسلطانه يومئذ أبو الجيوش ابن السلطان الفقيه . وشيخ زناتة حمّو بن عبد الحق بن رحّو . وخاطبهم السلطان أبو سعيد ملك المغرب في اعتقاله ، فأجابوه وفرّ من محبسه ، ولحق بدار الحرب . ولما انتقض أبو الوليد ابن الرئيس أبي سعيد وبايع لنفسه بمالقة ، وزحف إلى غرناطة فنازلها ، ووقعت الحرب بظاهرها بين الفريقين وأخذ في بعض حروبها[1] حمّو بن عبد الحق أسيراً ، وسيق إلى السلطان أبي الوليد . وكان معه عمّه أبو العبّاس بن رحّو فأبى من اسار ابن أخيه وخلّى عنه ، فرجع إلى سلطانه فارتاب به لذلك . وعقد على الغزاة مكانه لعبد الحق بن عثمان استدعاه من مكانه بدار الحرب . ثم غلبهم أبو الوليد على غرناطة . وتحوّل أبو الجيوش على وادي آش على سلم انعقد بينهم ، وسار معه عبد الحق بن عثمان على شأنه . ثم وقعت بينه وبين أبي الجيوش مغاضبة ، لحق لأجلها بالطاغية وأجاز إلى سبتة ، فاستظهر به أبو يحيى بن أبي طالب العزفي أيام حصار السلطان أبي سعيد إياه ، فكان له في حماية ثغره والدفاع عنه آثار مذكورة . ثم عقد السلطان أبو سعيد السلم ليحيى العزفي ، وأفرج عنه ، فارتحل عبد الحق بن عثمان إلى أفريقية . ونزل ببجاية سنة تسع عشرة وسبعمائة على أبي عبد الرحمن بن عمر صاحب السلطان أبي يحيى المستبدّ بالثغور الغربيّة ، فأكرم نزله ، وأوسع قراره ، وضرب له الفساطيط بالزينة[2] من ساحة البلد استبلاغاً في تكريمه وحمله وأصحابه على مائة وخمسين من الخيل ، ثم أقدمهم على السلطان بتونس فبرّ مقدمهم ، وخلط عبد الحق بنفسه وآثره بالخلّة والصحابة ، وأجلّه بمكان الاستظهار به وبعصابته . ولما عقد السلطان لمحمد بن سيّد الناس على حجابته سنة سبع وعشرين وسبعمائة واستقدمه لذلك من ثغر بجاية كما ذكرناه ، عظمت رياسته واستغلظ حجّابه ، وحجب عبد الحق ذات يوم عن بابه ، فسخطها وذهب مغاضباً ، وداخل أبا فارس في الخروج على أخيه ، فأجابه وخرج به من تونس ، فكان من خبرهم ومقتل أبي فارس وخلوص عبد الحق إلى تلمسان ونزوله على أبي تاشفين ، وغزوه إلى أفريقية مع عساكر بني عبد الواد سنة سبع وعشرين وسبعمائة ما ذكرناه في أخبار الدولة الحفصيّة .

ثم لما رجع بنو عبد الواد إلى تلمسان صمد مولانا السلطان أبو يحيى إلى تونس في

---

(١) وفي نسخة ثانية : في بعض أيامها .

(٢) وفي نسخة ثانية : بالرشة .

أخريات سنته . وفرّ ابن أبي عمران السلطان المنصوب بتونس من بني أبي حفص إلى أحياء العرب ، وتقبّض على أبي رزين[1] ابن أخي عبد الحق بن عثمان في جملة من أصحابه ، فقتله قعصاً بالرماح . ورجع عبد الحق بن عثمان إلى مكانه من تلمسان ، فأقام بـمثواه عند أبي تاشفين متبوّئاً من الكرامة والاعتزاز ما شاء إلى أن هلك بـمهلك أبي تاشفين يوم اقتحم السلطان أبو الحسن تلمسان عليهم سنة سبع وثلاثين وسبعمائة وقتلوا جميعاً عند قصر الملك أبو تاشفين وأبناء عثمان ومسعود وحاجبه موسى بن علي ، ونزيله عبد الحق هذا ، وأبو ثابت ابن أخيه ، فقطعت رؤوسهم وتركت أشلاؤهم بساحة القصر عبرةً للمعتبرين حسبما ذكرناه في أخبار أبي تاشفين ، والله أعلم .

* (الخبر عن عثمان بن أبي العلاء من أمراء الغزاة المجاهدين بالأندلس) *

كان أولاد سوط النساء من ولد عبد الحق ، أهل عصابة واعتزاز على قومهم ، وهم أولاد إدريس وعبدالله ابنيها والشقيقين كما ذكرناه . وكان مهلك إدريس الأكبر يوم مهلك أبيه بتافريطت[2] ومهلك عبدالله قبله. وخلف عبدالله ثلاثة من الولد تشعّب فيهم نسله ، وهم : يعقوب ورحّو وإدريس . واستعمل أبو يحيى بن عبد الحق يعقوباً منهم على سلا عند افتتاحه إياها سنة تسع وأربعين وستمائة ثم انتزى بها بعد ذلك على عمّه يعقوب سنة ثمان وخمسين وستمائة ، وكان من شأن ثورة النصارى به ما ذكرناه ، واستخلصها يعقوب بن عبد الحق ولحق يعقوب بن عبدالله بعلودان من بلاد غمارة ، وامتنع بها ، وخرج على أثره ابنا عمّه إدريس وهما : عامر ومحمد ، وانتزوا بالقصر الكبير ، ولحق بهم كافة.أولاد سوط النساء . وطالبهم السلطان فلحقوا بـجبال غمارة ونازلهم ، ثم استنزلهم بعد ذلك على الأمان ، وعقد لعامر على الغزو إلى الأندلس سنة ستين وستمائة كما ذكرناه ، وأجاز معه رحّو بن عبدالله . ورجع محمد بن عامر ومرّ إلى تلمسان سنة ثمانين وستمائة وأجاز منها إلى الأندلس .

---

(١) وفي نسخة ثانية : أبي زيان ، وفي نسخة ثانية : ابن رزين .
(٢) وفي نسخة ثانية : بتافرطنيت .

ثم خرجوا على السلطان يعقوب بن عبد الحق سنة تسع وثمانين وستمائة[1] ومعهم ولد أبي عياد بن عبد الحق واعتصموا بعلودان ، واستنزلهم السلطان على اللحاق بتلمسان فلحقوا بها . وأجاز أولاد سوط النساء وأولاد أبي عياد كافة إلى الأندلس واستقرّوا بها يومئذ ، ورجع عامر منهم ومحمد وكان من خبره ما نذكر . وهلك يعقوب بن عبدالله سنة ثمان وستين وستمائة في اغترابه بقفوله من رباط الفتح ، قتله طلحة بن محلى . واستقرّ بنوه من أولاد سوط النساء بالمغرب ، وكان ابنه أبو ثابت أميراً على بلاد السوس أيام السلطان يوسف بن يعقوب وأوقع بالركبة[2] سنة تسع وتسعين وستمائة ولم يزل بنوه بالمغرب من يومئذ . وكان من إخواته أبي العلاء ورحّو إبنا عبدالله بن عبد الحق تشعّب نسله فيهما ، وأجاز رحّو إلى الأندلس مع عامر ومحمد ابن عمّه إدريس . ثم أجاز موسى ابنه سنة تسع وتسعين وستمائة[3] مع أولاد أبي عيّاد وأولاد سوط النساء . ثم رجع إلى محلّه من الدولة وفرّ ثانياً سنة خمس وسبعين وستمائة إلى تلمسان ، وأجاز منها إلى الأندلس واستقرّ بها . وأجاز أولاد أبي العلاء سنة خمس وثمانين وستمائة مع أولاد أبي يحيى بن عبد الحق وأولاد عثمان بن عبد الحق واستقرّوا بالأندلس ، وكانوا يرجعون في رياستهم لكبيرهم عبدالله بن أبي العلاء . وعقد له ابن الأحمر على الغزاة من زناتة فيمن كان يعقد لهم من زناتة قبل استقرار المنصب ، إلى أن هلك شهيداً في إحدى غزوات سنه ثلاث وتسعين وستمائة وعقد المخلوع ابن الأحمر لأخيه عثمان بن أبي العلاء ، على حامية مالقة وغربيِّها من الغزاة لنظر ابن عمّه الرئيس أبي سعيد فرج بن اسمعيل بن يوسف بن نصر . ولما غدر الرئيس أبو سعيد بسبتة سنة خمس وسبعمائة وتمّت له في مثلها الحيلة ، واضطرمت نار العداوة بينه وبين صاحب المغرب ، فنصبوا عثمان هذا للأمر ، وأجازوه إلى غمارة ، فثار بها ودعا لنفسه ، وتغلّب على أصيلا والعرائش ، وكان ما ذكرنا إلى أن غلبه أبو الربيع سنة ثمانين وستمائة ، ورجع إلى مكانه بالأندلس ولما اعتزم أبو الوليد ابن الرئيس أبي سعيد على الخروج على أبي الجيوش صاحب غرناطة ، داخل في ذلك شيخ الغزاة بمالقة عثمان بن أبي العلاء ، فساعده عليه ، واعتقل أباه الرئيس أبا سعيد ، وزحف

---

(١) وفي نسخة ثانية : تسع وستين .

(٢) وفي نسخة ثانية : يزكنة .

(٣) وفي نسخة ثانية : تسع وستين .

إلى غرناطة سنة أربع عشرة وسبعمائة فلما استولى عليها عقد لعثمان هذا على إمارة الغزاة المجاهدين من زناتة ، وصرف عنها عثمان بن عبد الحق : بن عثمان ، فلحق بوادي آش مع أبي الجيوش . وصار حمّو بن عبد الحق بن رحّو في جملته بعد أن كان شيخاً على الغزاة كما قلناه . واستمرّت أيام ولاية عثمان هذا ، وبَعُد فيها صيته ، وغصّ صاحب المغرب أبو سعيد بمكانه ، ولما استصرخه المسلمون للجهاد سنة ثمان عشرة وسبعمائة اعتذر بمكان عثمان هذا ، واشترط عليهم القبض عليه حتى يرجع عنهم فلم يكن ذلك ، ونازل الطاغية غرناطة وحاصرها ، .وكان لعثمان وبنيه في ذلك آثار مذكورة .

وأتاح الله للمسلمين في النصرانية على يد عثمان هذا وبنيه ما لم يخطر على قلب أحد منهم ، فتأكّد اغتباط الدولة والمسلمين بمكانهم إلى أن هلك أبو الوليد سنة خمس وعشرين وسبعمائة ، باغتيال بعض الرؤساء من قرابته بمداخلة عثمان هذا ، زعموا في غدره ، ونصّب للأمر ابنه محمد صبياً لم يبلغ الحلم . وأقام بأمره وزيره محمد بن المحروق من صنائع دولتهم ، فاستبدّ عليه وألقى زمام الدولة بيد عثمان في النقض والإبرام ، فاعتزّ عليهم وقاسمهم في الأمر ، واستأثر في أعطيات الغزاة بكثير من أموال الجباية ، حتى خشي الوزير على الدولة . وأدار الرأي في كبره[1] على التغلّب ، فجمح وفسد ما بينه وبين الوزير ابن المحروق ، فانتقض عليه وخرج مغاضباً ، فاضطربت فساطيطه بمرج غرناطة . واعصوصب جماعة الغزاة من قبائل زناتة عليه ، واعتصم الوزير وأهل الدولة بالحمراء وسعى الناس بينهما أياماً ، وأدار الوزير الرأي في أن ينصب له كفؤاً من قرابته ، يجاذبه الحبل ويشغله بشأنه عن الدولة ، فجأجأ بيحيى بن عمر بن رحّو بن عبدالله بن عبد الحق وكان في جملة عثمان وأصهر إليه في ابنته . وعقد له على الغزاة وتسايلوا إليه . وبرز[2] عثمان بمعسكره في عشيره وولده ، وعقد معه السلم في أن يجيز إلى المغرب . وأوفد بطانته على السلطان أبي سعيد سنة ثمان وعشرين وسبعمائة وارتحل من ساحة غرناطة في ألف فارس من ذويه وأقاربه وحشمه . وقصد تدرش[3] ليجعلها فرصة لمجازه ، حتى إذا حاذى تدرش[4]

---

(١) وفي نسخة ثانية : في كبحه .

(٢) وفي نسخة ثانية : وتفرّد .

(٣) وفي نسخة ثانية : وقصد المرية .

(٤) وفي نسخة ثانية : اندوس وفي نسخة أخرى : اندوجر .

وكان بينه وبين رؤسائها مداخلة ، فخرجوا إليه مؤدّين حق مبرّته ، فغدر بهم وأركب إليها فملكها وضبطها ، وأنزل بها حرمه وأثقاله . ودعا محمد ابن الرئيس أبي سعيد من شلوبانية كان منزلاً بها ، فجاء إليه ونصّبه للأمر ، وشنّ الغارات على غرناطة صباحاً ومساءً ، واضطرمت نار الفتنة . واستركب يحيى بن رحّو من قدر عليه من زناتة . وطالت الحرب سنين حتى إذا فتك السلطان محمد بْن الأحمر بوزيره ابن المحروق ، استدعى عثمان بن أبي العلاء ، وعقد له السلم على أن يجيز عمّه إلى المغرب ويلحق بغرناطة لشأنه من رياسة الغزاة ، فتمّ ذلك سنة تسع وعشرين وسبعمائة ورجع إلى مكانه من الدولة . وهلك إثر ذلك لسبع وثلاثين سنة من إمارته على الغزاة . والبقاء لله وحده .

* (الخبر عن رياسة ابنه أبي ثابت من بعده ومصير أمرهم) *

لما هلك شيخ الغزاة ويعسوب زناتة عثمان بن أبي العلاء ، قام بأمره وقومه ابنه أبو ثابت عامر ، وعقد السلطان أبو عبدالله بن أبي الوليد له على الغزاة المجاهدين كما كان أبوه ، فعظم شأنه قوّة وشكيمة وكثرة عصابة ونفوذ رأي وبسالة . وكان لقومه اعتزاز على الدولة ، بما عجموا من عودها ، وكانوا أولي بأس وقوّة فيها واستبداد عليها ، وكان السلطان محمد بن أبي الوليد مستنكفاً عن الاستبداد عليه في القلّة والكثرة ، فكان كثيراً ما يخرّقهم[1] بتسفيه آرائهم والتضييق عليهم في جاههم . ولما وفد على السلطان أبي الحسن سنة إثنتين وثلاثين وسبعمائة صريخاً على الطاغية ، واستغذّ ابنه الأمير أبا مالك لمنازلة جبل الفتح ، اتهموه بمداخلة السلطان أبي الحسن في شأنهم ، فتنكّروا وأجمعوا الفتك به ، وداخلوا في ذلك بعض صنائعه ممن كان متربصاً بالدولة فساعدهم . ولمّا افتتح الجبل وكان من شأنه ما قدّمنا ذكره ، وزحف الطاغية فأناخ عليه ، وقصد ابن الأحمر الطاغية في بنيه راغباً أن يرجع إلى الحصن ، فرجع

---

(١) وفي نسخة ثانية : يحقدهم .

وافترقت عساكر المسلمين ، ارتحل السلطان ابن الأحمر إلى غرناطة سنة ثلاث وثلاثين وسبعمائة وقد قعدوا له بمرصد من طريقه . ونمي الخبر إليه ، فدعا بأسطوله لركوب البحر إلى مالقة ، واستبق إليهم الخبر بذلك ، فتبادروا إليه ولقوه بطريقه من ساحل اصطبونة ، فلاحوه وعاتبوه في شأن صنيعته عاصم من معلوجيه ، وحاجّهم عنه ، فاعتوروا عاصماً بالرماح فنكر ذلك عليهم ، فألحقوه به ، وخرّ صريعاً عن مركوبه ، وبعثوا إلى أخيه يوسف فأعطوه بيعتهم ، وصفقة أيمانهم ، ورجعوا به إلى غرناطة وهو حذر منهم لفعلتهم التي فعلوا . واستمرّت الحال على ذلك . ولما استكمل السلطان أبو الحسن فتح تلمسان وصرف عزائمه إلى الجهاد داخل ابن الأحمر في إزاحتهم عن الأندلس مكان جهاده ، فصادف منه إسعافاً وقبولاً وحرصاً على ذلك ، وتقبّض على أبي ثابت وإخوته إدريس ومنصور وسلطان . وفرّ أخوهم سليمان فلحق بالطاغية ، وكان له في يوم طريف أثر في الإيقام بالمسلمين ، ولما تقبّض ابن الأحمر على أبي ثابت وإخوته ، أودعهم جميعاً المطبق أياماً ، ثم غرّبهم إلى أفريقية ، فنزلوا بتونس على مولانا السلطان أبي يحيى . وأوعز إليه السلطان أبو الحسن بالتوثق منهم أن يتصلوا بنواحي المغرب ، ويخالفوه إليها أيام شغله بالجهاد في الأندلس ، فاعتقلهم وأوفد أبا محمد بن تافراكين إلى سدّة السلطان أبي الحسن إليه شفيعاً فيهم ، فتقبّل شفاعته وأحسن نزلهم وكرامتهم ، حتى اذا احتلّ بسبتة أيام حصار الجزيرة في سنة ثلاث وأربعين وسبعمائة سعى بهم عنده ، فتقبّض عليهم واعتقلهم بمكناسة . ولما انتزى ابنه الأمير أبو عنان على الأمر . وهزم منصور ابن أخيه أبي مالك صاحب فاس ، ونازله بالبلد الجديد ، بعث فيّهم إلى مكناسة ، فأطلقهم من الاعتقال وأفاض فيهم الإحسان ، واستظهر على شأنه . وأحلّ ابا ثابت محل الشورى من مجلسه ، وداخل إدريس أخاه في المكر بالبلد الجديد ، فنزع إليها ومكر بهم ، وثار عليهم إلى أن نزلوا على حكم السلطان أبي عنان ، فعقد لأبي ثابت على سبتة وبلاد الريف ليشارف منها الأندلس محل إمارته . وأطلق يده في المال والجيش ، وفصل لذلك ، فهلك بالطاعون يومئذ سنة تسع وأربعين وسبعمائة بمعسكره أزاء معسكر السلطان من حصار البلد الجديد . واستقرّ إخوانه في إيالة السلطان أبي عنان بالمغرب الأقصى إلى أن كان من مفرّ أخيه إدريس وولايته على الغزاة بالأندلس ، ما نذكره إن شاء الله تعالى .

الخبر عن يحيى بن عمر بن رحو وامارته على الغزاة بالأندلس أوّلا وثانيا ومبدأ ذلك وتصاريفه

كان رحّو بن عبدالله كبير ولد عبدالله بن عبد الحق ، وكان له بنون كثيرون ، وتشعّب نسله فيهم ، منهم : موسى وعبد الحق والعبّاس وعمر ومحمد وعلي و يوسف . أجازوا كلهم إلى الأندلس مع أولاد سوط النساء من تلمسان كما قدّمناه . وأقام عمر بعدهم بتلمسان مدّة واتخذ بها الأهل والولد . ثم لحقهم وولّى موسى إمارة الغزاة بعد ابراهيم ابن عيسى الوسنافي ، وبعده أخوه عبد الحق على الغزاة أقام بها مدّة وأجاز إلى سبتة مع الرئيس أبي سعيد وعثمان بن أبي العلاء سنة خمس وسبعمائة وولي بعدها على الغزاة المجاهدين . ثم رجع إلى الأندلس ، ولم يلبث بها أن أجاز إلى المغرب . ونزل على السلطان أبي سعيد ، فأكرم نزله ، ثم رجع إلى الأندلس . ولما ولي إمارة الغزاة عثمان بن أبي العلاء ، وكان بينهم من المنافسة ما يكون بين فحول الشول ، أشخص بني رحّو جميعاً إلى أفريقية ، فنزلوا على مولانا السلطان أبي يحيى خير نزل ، اصطفاهم واستخلصهم واستظهر جمعهم في حروبه . وهلك عمر بن رحّو ببلاد الجريد وقبره ببشرى من نفزاوة معروف ، ونزع ابنه يحيى من بين إخوته عن مولانا السلطان أبي يحيى ، وصار في جملة ابن أبي عمران ، ثم لحق بزواوة وأقام في بني يتراتن[1] سنين ، ثم أجاز إلى الأندلس واستقرّ بمكانه من قومه . واصطفاه عثمان بن أبي العلاء وأصهر إليه بإبنته ، وخلطه بنفسه . ولما فسد ما بينه وبين ابن المحروق وزير السلطان بغرناطة سنة سبع وعشرين وسبعمائة واعصوصب عليه الغزاة بمعسكره من مرج غرناطة دسّ إليه يومئذ ابن المحروق إلى يحيى بن عمر هذا . ودعاه إلى مكان عمله ليضبطه[2] بذلك ، فأجاب ونزع عن عثمان وقومه إلى ابن المحروق وسلطانه . وعقد له على الغزاة فتسايلوا إليه عن عثمان شيخهم ، وانصرف إلى المدية وكان من شأنه ما قصصناه في أخباره ، وأقام يحيى بن عمر في رياسته إلى أن هلك ابن المحروق بفتكة سلطانه . واستدعى عثمان بن أبي العلاء للرياسة فرجع إليها .

(١) وفي نسخة ثانية : يراتن .

(٢) وفي نسخة ثانية : إلى مكان عثمان ليغيظه .

وصرف يحيى بن عمر إلى وادي آش ، وعقد له على الغزاة بها فأقام حينا ، ثم رجع إلى مكانه بين قومه . واصطفاه عثمان بن أبي العلاء وابنه أبا ثابت لما كانت أمه بنت موسى بن رحّو ، فكان يتعصّب لخؤلته فيهم ثم هلك عثمان وكان ما قدّمناه من شأن ولده وفتكهم بالسلطان المخلوع . وتقبّض أخوهم أبو الحجاج عليهم ، وأشخصهم إلى أفريقية وقوّض مباني رياستهم . وعقد على الغزاة مكانهم ليحيى بن عمر هذا ، فاضطلع بها أحسن اضطلاع . واستمرّت حاله وحضر مشاهد أبي الحجاج مع السلطان أبي الحسن ، فظهرت كفايته وغناؤه . ولما هلك أبو الحجّاج سنة خمس وخمسين وسبعمائة طعيناً بمصلّى العيد ، في آخر سجدة من صلاته ، بيد عبد من عبيد اصطبله مصاب في عقله ، أغري زعموا به ، وقتل لحينه هبراً بالسيوف . وبويع لابنه محمد ، أخذ له البيعة على الناس يومئذ مولاه رضوان من معلوجاتهم ، حاجب أبيه وعمّه . وقام بأمره واستبدّ عليه وحجره ، فقاسم يحيى بن عمر هذا في شأنه وشاركه في أمره وشدّ أزر سلطانه به ، حتى إذا ثار بالحمراء الرئيس ابن عمّهم محمد ابن اسمعيل بن محمد ابن الرئيس أبي سعيد قائماً بدعوة اسمعيل بن أبي الحجاج أخي السلطان محمد كان ساكناً بالحمراء . وتحيّنوا لذلك مغيب السلطان في متنزهه بروضة خارج الحمراء ، فخالفوه إليها وكبسوها ليلاً فقتلوا الحاجب المستبد رضوان . وأجلس السلطان على سرير ملكه ونادوا بالناس إلى بيعته . ولما أصبح غدا عليهم يحيى بن عمر بعد أن يئسوا منه وخشوا عاديته ، فأتاهم ببيعته وأعطى عليها صفقته وانصرف إلى منزله . وبعد استيلائهم استخلصوا إدريس بن عثمان بن أبي العلاء ، كان وصل إليهم من دار الحرب بأرض برشلونة كما نذكر . وولّوه إمارة الغزاة وائتمروا في التقبّض على يحيى بن عمر . ونذر بذلك فركب في حاشيته يؤمّ دار الحرب من أرض الجلالقة ، واتبعه إدريس فيمن إليه من قومه ، فقاتلهم صدر نهاره وفضّ جموعهم . ثم خلص إلى تخوم النصرانية ولحق منها بسدّة ملك المغرب أثر سلطانه المخلوع محمد بن أبي الحجّاج ، وخلّف إبنه أبا سعيد عثمان بدار الحرب . ونزل يومئذ على السلطان أبي سالم سنة إحدى وستين وسبعمائة فأكرم مثواه وأحله من مجلسه محل الشورى والمؤامرة ، واستقرّ في جملته إلى أن بعث ملك قشتالة في السلطان المخلوع ، باشارة ابنه أبي سعيد وسعايته في ذلك ، ليجلب به على أهل الأندلس بما نقضوا من عهده . وجهّزه السلطان أبو سالم سنة ثلاث وستين وسبعمائة فصحبه

يحيى بن عمر هذا . ولقيهم ابنه أبو سعيد عثمان وقاموا بأمر سلطانهم ، واستولى على الأندلس بمظاهرتهم ، وكان لهم آثار في ذلك . ولما استولى على غرناطة سنة ثلاث وستين وسبعمائة عقد ليحيى بن عمر على إمارة الغزاة كما كان وأعلى يده. واستخلص عثمان لشوراه وخلطه ببطانته . ونافسه الوزير يومئذ محمد بن الخطيب فسعى فيهم ، وأغرى السلطان بهم ، فتقبّض عليهم سنة أربع وستين وسبعمائة وأودعهم المطبق . ثم أشخص يحيى سنة ست وستين وسبعمائة إلى المشرق وركب السفن من المدية[1] فنزل بالاسكندرية ، ورجع منها إلى المغرب ، ونزل على عمر بن عبدالله أيام استبداده واستقرّ في كرامة وخير مقامة ، ولم يزل بالمغرب على أعز الأحوال إلى أن هلك سنة إثنتين وثمانين وسبعمائة ثم استخلص ابنه أبا سعيد عثمان من الاعتقال سنة تسع وستين[2] وسبعمائة إلى أفريقية ونزل ببجاية على مولانا السلطان أبي العبّاس حافد مولانا السلطان أبي يحيى واستقرّ في جملته . وحضر معه فتح تونس وأبلى فيه . وأقطع له السلطان وأسنى له الجراية ، وخلطه بنفسه واصطفاه لشوراه وخلّته ، وهو لهذا العهد من عظماء مجلسه وظهرائه في مقامات حروبه ، وإخوته بالأندلس على مراكز عزّهم وفي ظلال عصبيتهم مع قومهم ، وقد ذهب مواجد السلطان بالأندلس عليهم وصار إلى جميل رأيه فيهم . والله مالك الملك ومقلّب القلوب لا ربّ غيره .

* (الخبر عن ادريس بن عثمان بن أبي العلاء وإمارته بالأندلس ومصاير أمره) *

لما هلك أبو ثابت بن عثمان بن أبي العلاء سنة خمسين وسبعمائة ، واستمرّ إخوته في جملة السلطان أبي عنان ملك المغرب وأقطعهم وأسنى جراياتهم ، وكان في إدريس منهم بقية الترشيح يراه الناس به . فلمّا نهض السلطان إلى فتح قسنطينة سنة ثمان وخمسين وسبعمائة توغّل في ديار أفريقية وحام قومه عن مواقعها ، تحيّلوا عليه في الرجوع به عن قصده منها . وأذنت المشيخة لمن معهم من قومهم في الانطلاق إلى المغرب حتى خفّ المعسكر من أهله وتآمروا ، زعموا في اغتيال السلطان والإدالة منه

(١) وفي نسخة ثانية : المرية .

(٢) وفي نسخة ثانية : سبع وستين .

بإدريس هذا ، ونذر بذلك فكرّ راجعاً كما ذكرناه في أخباره . ولما أشيع ذلك ركب إدريس ظهر الغدر وفرّ من العسكر ليلاً ، ولحق بتونس ، ونزل على القائم بالدولة يومئذ الحاجب أبي محمد بن تافراكين خير نُزل وأبرّه . وركب السفين من تونس إلى العدوة ، فنزل على ابن القمص صاحب برشلونة في حشمه وذويه . وأقام هنالك إلى أن كان من مهلك رضوان الحاجب المستبدّ بالأندلس سنة ستين وسبعمائة ما قدّمناه فنزع إلى منبته من غرناطة . ونزل على اسمعيل ابن السلطان أبي الحجّاج والقائم بدولته يومئذ الرئيس محمد ابن عمّه اسمعيل بن محمد الرئيس أبي سعيد فلقوه مبرّة وتكريماً ورجوه بالإدالة به من يحيى بن عمر أمير الغزاة يومئذ ، لما كانوا يتّهمونه به من ممالأة المخلوع صاحب الأمر عليهم . ولما نزع يحيى بن عمر إلى الطاغية ، ولحق بدار الحرب سنة إحدى وستين وسبعمائة عقدوا لإدريس بن عثمان هذا على الغزاة مكانه . وولّوه خطة أبيه وأخيه بدولتهم ، فاضطلع بها . ومالأ الرئيس محمداً على قتل سلطانه اسمعيل بن الحجّاج واستبدّ بالأمر ، ولسنتين من ولايته غلبه المخلوع أبو عبدالله على الأمر ، وزحف إليه من رَنْدَة ، كان نزل بها بعد خروجه من دار الحرب مغاضباً للطاغية . وأذن له وزير المغرب عمر بن عبدالله في نزولها فنزلها ، ثم زحف إلى الثائر بغرناطة على ملكهم الرئيس وحاشيته فأجفلوا . ولحق الرئيس محمد بن إدريس هذا بقشتالة ، ونزلوا في جملتهم وحاشيتهم على الطاغية ، فتقبّض عليهم . وقتل الرئيس محمد وحاشيته جزاءً بما أتوه من غدر رضوان . ثم غدر السلطان إسمعيل من بعده وأودع إدريس ومن معه من الغزاة السجن بإشبيلية ، فلم يزل في أسره إلى أن تحيّل في الفرار بمداخلة مسلم من الأسرى(١) أعدّ له فرساً أزاء معتقله ، ففكّ قيده ، ونقب البيت ، وامتطى فرسه ولحق بأرض المسلمين سنة ست وستين وسبعمائة واتبعوه فأعجزهم ، وجاء إلى السلطان أبي عبدالله محمد المخلوع فأكرم نزله وأحسن مبرّته ، ثم استأذنه في اللحاق بالمغرب فأذن له وأجاز إلى سبتة ، وبلغ شأنه إلى صاحب الأمر بالمغرب يومئذ عمر بن عبدالله ، فأوعز إلى صاحب سبتة بالتقبّض عليه لمكان ما يؤنس من ترشيحه . وأودعه السجن بمكناسة ، ثم نقله السلطان عبد العزيز إلى سجن الغدر(٢) بفاس ، ثم قتلوه خنقاً سنة سبعين وسبعمائة

---

(١) وفي طبعة بولاق المصرية : الدجن .
(٢) وفي طبعة بولاق المصرية : الغور .

والله وارث الأرض ومن عليها ـ

* (الخبر عن إمارة علي بن بدر الدين على الغزاة بالأندلس ومصاير أمره) *

قد ذكرنا أنّ موسى بن رحّو بن عبدالله بن عبد الحق ، كان أجاز إلى الأندلس مع محمد وعامر إبني إدريس بن عبد الحق وقومهم ، أولاد سوط النساء سنة تسع وستين وسبعمائة ثم رجع إلى المغرب وفرّ إلى تلمسان وأجاز منها إلى الأندلس . وولي إمارة الغزاة بها إلى أن هلك بعد أن أصهر إليه السلطان يوسف بن يعقوب في إبنته ، فعقد له عليها وزفّها إليه سنة تسع وسبعين وسبعمائة مع وفد من قومهم . وكان لموسى بن رحّو من الولد جماعة أكبرهم المحمدان جمال الدين وبدر الدين ، وضع عليهما هذين اللقبين على طريقة أهل المشرق الشريف المكي الوافد على المغرب لذلك العهد من شرفاء مكة . وكان هؤلاء الأعياص من ملوكهم وأقيالهم يعظمون أهل البيت النبوي ويلتمسون الدعاء والبركة منهم فيما تيسّر من أحوالهم ، فحمل موسى بن رحّو ولديه هذين عند وضعهما إلى الشريف يحنّكهما ويدعولهما ، فقال له الشريف خذ إليك جمال الدين ، وقال في الآخر خذ إليك بدر الدين ، فاستحب موسى دعاءهما بهذين اللقبين تبركاً بتسمية الشريف بهما ، فاشتهرا بهذين الاسمين . ولما بلغا الأشد وشاركا أباهما في حمل الرياسة وكان من مهلكه ما ذكرناه ، وانحرفت رياسة الغزاة عنهما إلى عمّهما عبد الحق وابنه ، فلحق جمال الدين منهما بالطاغية سنة ثلاث ثم أجاز البحر من قرطاجنّة الى السلطان يوسف بن يعقوب من معسكره من حصار تلمسان ، واستقرّ في جملته حتى إذا هلك السلطان تصدّى ابنه ابو سالم للقيام بأمره ، وكان مغلّباً مضعّفاً فلم يتمّ أمره ، وتناول الملك أبو ثابت حافد السلطان واستولى عليه . وفرّ أبو سالم عشيّ مهلكه ومعه من القرابة جمال الدين هذا وأعمامه العباس وعيسى وعلي بنو رحّو بن عبدالله ، فتقبّض عليهم في طريقهم بمديونة وسيقوا إلى السلطان أبي ثابت ، فقتل عمّه أبا سالم وجمال الدين بن موسى بن رحّو ، وامتنّ على الباقين واستحياهم ، وانصرف السلطان بعدها إلى الأندلس ، فكانت له في الجهاد آثار كما ذكرناه قبل . وأما بدر الدين فلم يزل بالأندلس مع قومه ، ومحله من الرياسة والتجلّة

محلّه من النسب إلى أن هلك ، فقام بأمره من بعده ابنه علي بن بدر الدين مزاحماً لقومه في الرياسة ، مباهياً في الترشيح . وكان كثيراً ما يعقد له ملوك بني الأحمر على الغزاة من زناتة المرابطين بالثغور فيما بعد عن الحضرة من قواعد الأندلس ، مثل مالِقَة والمريّة ووادي آش ، سبيل المرشحين من أهل بيته ، وكانت إمارة الغزاة بالأندلس مستأثرة بأمر السيف والحرب ، مقاسمة للسلطان أكثر الجباية في الأعطية والأرزاق لما كانت الحاجة إليهم في مدافعة العدوّ ومقارعة ملك المغرب إلى ملك الأندلس ، يغضّون لهم عن استطالتهم عليهم لمكان حاجتهم إلى دفاع العدوّين ، حتى إذا سكن ريح الطاغية بما كان من شغله بفتنة أهل دينه منذ منتصف هذه المائة ، وشغل بنو مرين أيضاً بعد مهلك السلطان أبي الحسن وتناسوا عهد الغَلَب على أقتالهم وجيرانهم ، وتناسوا عهد ذلك أجمع . فاعتزم صاحب الأندلس على محو هذه الخطّة من دولته . وأغراه بذلك وزيره ابن الخطيب كما ذكرناه حرصاً على خلاء الجوّله ، فتقبّض على يحيى بن عمر وبنيه سنة أربع وستين وسبعمائة كما ذكرناه ، وعقد على الغزاة المجاهدين لابنه وليّ عهده الأمير يوسف ، ومحا رسم الخطة لبني مرين بالجملة إلى أن توسّم فناء الحامية منهم بفناء بيوت العصبيّة الكبرى ، فراجع رأيه في ذلك . وكان علي بن بدر الدين خالصة له وكان مقدّماً على الغزاة بوادي آش . ولما لحق السلطان به ناجياً من النكبة ليلة مهلك رضوان ، مانع دونه وظاهره على أمره حتى إذا ارتحل إلى المغرب ارتحل معه . ونزلوا جميعاً على السلطان أبي سالم سنة إحدى وستين وسبعمائة كما ذكرناه . ولما رجع إلى الأندلس رجع في جملته فكان له بذلك عهد وذمّة رعاهما السلطان له ، وكان يستخلصه ويناجيه . فلمّا تفقّد مكان الأمير على الغزاة ونظر من يولّيه عثر اختياره على هذا لسابقته ووسائله وما تولّاه من نصحه ووقوفه عند حدّه ، فعقد له سنة سبع وستين وسبعمائة على الغزاة كما كان أولوه ، فقام بها واضطلع بأمورها ، واستمرّت حاله إلى أن هلك حتف أنفه سنة ثمان وستين وسبعمائة ، ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام .

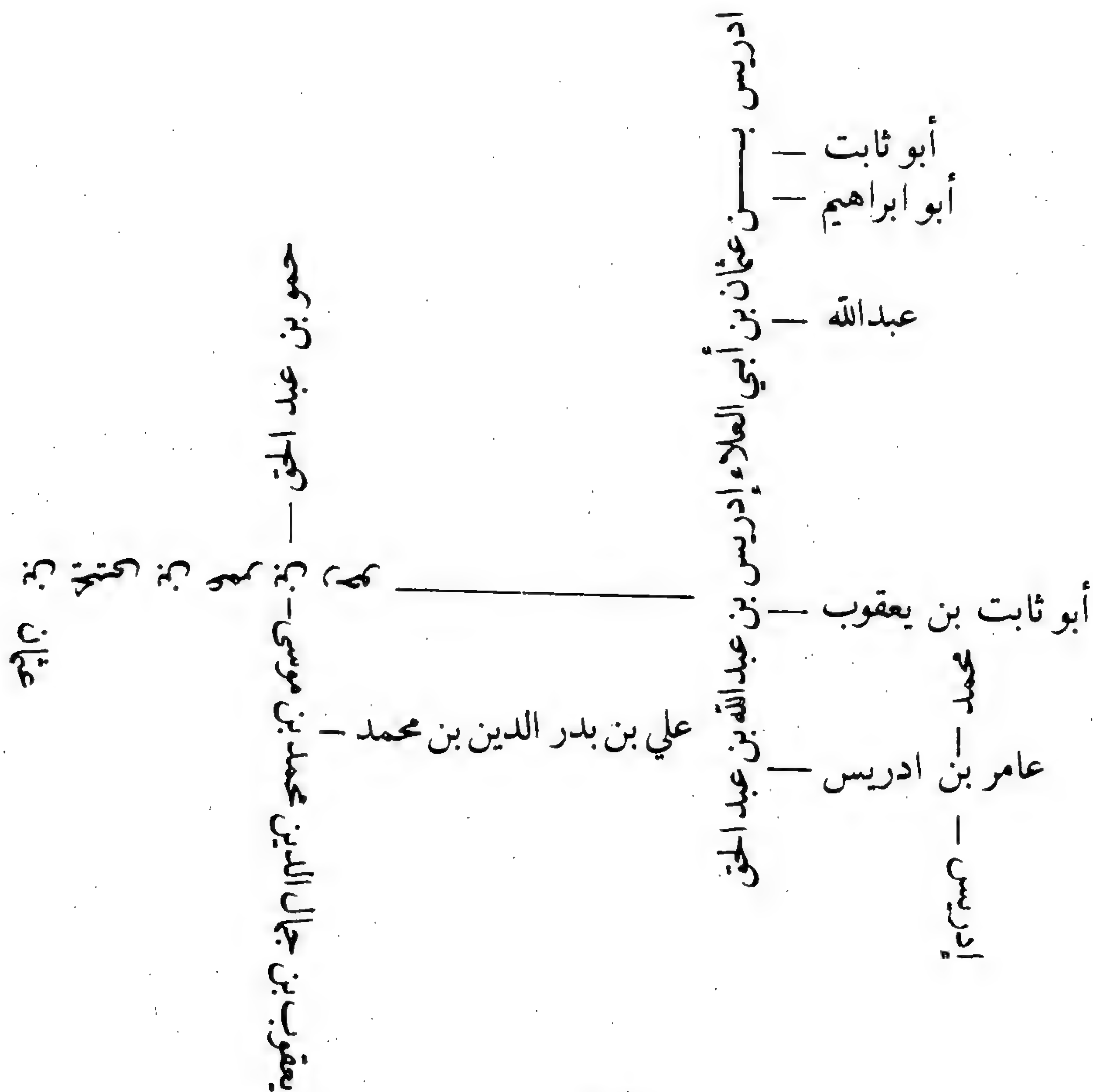
الخبر عن إمارة عبد الرحمن بن علي أبي يفلوسن ابن السلطان أبي علي على الغزاة بالأندلس ومصاير أمره

كان أولاد السلطان أبي علي قد استوقروا بالأندلس وأجازوا إلى طلب الأمر بالمغرب .

وكان من أمرهم ما شرحناه ، إلى أن أجاز عبد الرحمن هذا مع وزيره المصادر[1] به مسعود بن رحّو بن ماسَي سنة ست وستين وسبعمائة من غساسة على سلم عقده لهم وزير المغرب المستبدّ بأمره يومئذ عمر بن عبدالله . ونزل عبد الرحمن هذا بالمنكب ، وكان السلطان يومئذ معسكراً بها فتلقّاه من البرّ بما يناسبه . وأكْرم مثواه وأسنى الجراية له ولوزيره ولحاشيته . واستقرّوا في جملة الغزاة المجاهدين حتى إذا هلك علي بن بدر الدين سنة ثمان وستين وسبعمائة نظر السلطان فيمن يوليه أمرهم ، فعثر اختياره على عبد الرحمن هذا لما عرف به من البسالة والإقدام ولقرب الشرائح[2] بينه وبين ملك المغرب يومئذ ، التي هي ملاك الترشيح لهذه الخطة بالأندلس كما قدّمناه ، لِمَا كانت رشائح ولد عبدالله بن عبد الحق قد بعدت باتصال الملك في عمود نسب صاحب المغرب دون نسبهم ، فآثره صاحب الأندلس بها ، وعقد له على الغزاة المجاهدين سنة ثمان وستين وسبعمائة وأضفى عليه لبوس الكرامة والتجلّة وأقعده بمجلس المؤازرة[3] كما كان الأمراء قبله ، واتصل الخبر بسلطان المغرب يومئذ عبد العزيز ابن السلطان أبي الحسن ، فغصّ بمكانه ، وتوهّم أنّ هذه الإمارة زيادة في ترشيحه ووسيلة لملكه ، وكانت لوزير الأندلس محمد بن الخطيب مداخلة مع صاحب المغرب ، بما أمّل أن يجعله فيئة لاعتصامه ، فأوعز إليه بالتحيّل على إفساد ما بينه وبين صاحب الأندلس ، فجهد في ذلك جهده . ونسب عليه وعلى وزيره مسعود بن ماسي إلى عظماء القبيل وبعض البطانة من أهل الدولة التحسّب[4] والدعوة إلى الخروج على صاحب المغرب ، فأحضرهم السلطان ابن الأحمر وأعطاهم كتابهم ، فشهد عليهم وأمر بهم المغرب ، فأحضرهم السلطان ابن الأحمر وأعطاهم كتابهم ، فشهد عليهم وأمر بهم فاعتقلوا في المطبق سنة سبعين وسبعمائة واسترضى صاحب المغرب بفعلته فيهم ، ونزع الوزير ابن الخطيب بعد ذلك إلى السلطان عبد العزيز ، وتبيّن للسلطان مكره واحتياله عليه في شأنهم . ولما هلك عبد العزيز وأظلم الجوّ بين صاحب الأندلس وبين

(١) وفي طبعة بولاق المصرية : المطارد به .
(٢) وفي طبعة بولاق المصرية : الوشائج .
(٣) وفي طبعة بولاق المصرية : الوزارة .
(٤) وفي طبعة بولاق المصرية : بالتحبيب .

القائم بالدولة أبي بكر بن غازي كما قدّمناه ، وامتعض ابن الأحمر للمسلمين من الفوضى ، أطلق عبد الرحمن بن أبي يفلوسن ووزيره مسعود بن ماسَي من الاعتقال وجهّز لهما الأسطول ، فأجازوا فيه إلى المغرب ونزلوا بمرسى غساسة على بطوية داعياً لنفسه ، فقاموا بأمره وكان من شأنه مع الوزير أبي بكر بن غازي ما قصصناه ، واستقرّ آخراً بمراكش وتقاسم ممالك المغرب وأعماله مع السلطان أبي العبّاس أحمد ابن أبي سالم صاحب المغرب لهذا العهد . وصار التخم بينهما وادي ملويّة . ووقف كلّ واحد منهما عند حدّه ، وأغفل صاحب الأندلس هذه الخطة من دولته ومحا رسمها من ملكه . وصار أمر الغزاة المجاهدين إليه ، وباشر أحوالهم بنفسه ، وعَمَّهُم بنظره ، وخصّ القرابة المرشّحين منهم بمزيد تكرمته وعنايته . والأمر على ذلك لهذا العهد ، وهو سنة ثلاث وثمانين وسبعمائة والله مالك الملك يؤتي الملك من يشاء وينزع الملك ممن يشاء لا ربّ غيره ولا معبود سواه .



تمّ كتاب أخبار الدول الإسلامية بالمغرب لولي الدين أبي زيد عبد الرحمن بن خلدون الحضرمي الإشبيلي المالكي .

والحمد لله رب العالمين[1] .

* (التعريف بابن خلدون مؤلف هذا الكتاب)[2] *

أصل هذا البيت من إشبيلية انتقل عند الجلاء وغلب ملك الجلالقة ابن أدفونش عليها إلى تونس في أواسط المائة السابعة * (نسبه) * عبد الرحمن بن محمد بن محمد بن محمد بن الحسن بن محمد بن جابر بن محمد بن ابراهيم بن عبد الرحمن بن خَلدون[3] هذا لا أذكر من نسبي إلى خلدون غير هذه العشرة ، ويغلب على الظنّ أنّهم أكثر ، وأنه سقط مثلهم عدداً ، لأنّ خلدون هذا هو الداخل إلى الأندلس ، فإنْ كان أوّل الفتح فالمدّة لهذا العهد سبعمائة سنة ، فيكونون زهاء العشرين ، ثلاثة لكل مائة ، كما تقدّم في أوّل الكتاب الأوّل . ونَسَبُنَا في حضرموت من عرب اليمن إلى وائل بن حُجْر من أقيال العرب ، معروف وله صحبة . قال أبو محمد بن حزم في كتاب الجمهرة : هو وائل بن حُجْر بن سَعْد بن مَسْروق بن وائل ، ابن النُعْمَان بن ربيعة بن الحرث بن عَوْف بن سعد بن عوف بن عَدِيّ بن مالك بن شُرَحْبيل بن الحرث بن مالك بن مُرَّة بن حِمْيَر بن زيد بن الحَضْرَمِيّ بن عمر بن عبدالله بن

(١) هكذا في النسخة الجزائرية تحقيق البارون دي سلان وفي طبعة بولاق المصرية وغيرها فقد اضيف الى هذا الكتاب فصل التعريف بابن خلدون .

(٢) هكذا ختم ابن خلدون الجزء الأخير من كتابه بالتعريف عن نفسه واضاف بخطه في بعض النسخ « ورحلته غربا وشرقاً » .

(٣) بفتح الخاء هكذا اضبطه بخط يده وكما نص عليه السخاوي في الضوء اللامع ج ٤ ص ١٤٥ .

عَوْف بن جُرْدُم بن جُرْسُم بن عبد شمس بن زيد بن لؤيّ بن ثَبْت[1] بن قُدامة ابن أَعْجَب بن مالك بن مالك بن لؤيّ بن قحطان . وابنُه عَلْقَمَة بن وائل وعبدُ الجبّار بن علقمة بن وائل .

وذكره أبو عمر بن عبد البرّ في حرف الواو من الاستيعاب . وأنه وفد على النبيّ صلى الله عليه وسلّم ، فبسط له رداءه وأجلسه عليه ، وقال : « اللهمّ بارك في وائل بن حُجْر وولده وولد ولده إلى يوم القيامة » . وبعث معاوية بن أبي سفيان إلى قومه يعلّمهم الإسلام والقرآن ، فكان له بذلك صحابة مع معاوية . ووفد عليه لأوّل خلافته فأجازه ، فردّ عليه جائزته ولم يقبلها .

ولما كانت وقعة حجر بن عديّ الكندي بالكوفة ، اجتمع رؤوس أهل اليمن ، فيهم وائل هذا فكانوا مع زياد بن أبي سفيان[2] عليه ، حتى أوثقوه وجاؤا به إلى معاوية فقتله كما هو معروف .

وقال ابن حزم : ويُذْكَر بنو خلدون الإشبيليّون من ولده ، جدّهم الداخل من المشرق خالد المعروف بخَلدون بن عثمان بن هانيء بن الخَطاب بن كُرَيت[3] بن مَعْدِ يَكْرِب بن الحرث بن وائِل بن حُجْر قال : ومن عقبه كُرَيْت بن عثمان بن خلدون وأخوه خالد ، وكانا من أعظم ثوار الأندلس .

قال ابن حزم : وأخوه محمد ، كان من عقبه أبو العاصي عمرو بن محمد بن خالد بن محمد بن خلدون . وترك أبو العاصي محمداً وأحمد وعبدالله . قال : وأخوهم عثمان ، له عقب ومنهم الحكيم المشهور بالأندلس تلميذ مَسْلَمَة المَجْرِيطي[4] . وهو أبو مسلم عمر بن محمد[5] بن تقي بن عبدالله بن أبي بكر بن خالد بن عثمان بن خلدون الداخل . وابن عمّه أحمد بن محمد بن عبدالله . قال : ولم يبق من ولد كُرَيت

---

(١) قيّدها بخطه بفتح الشين وسكون الباء الموحدة بعدها مثناة فوقية .

(٢) هو زياد بن أبيه وهو الذي اعترف به معاوية بانه أخوه .

(٣) وفي نسخة ثانية : كريب وقد قيّده بخطه بضم الكاف وفتح الراء .

(٤) المجريطي وهو مسلمة بن أحمد بن قاسم بن عبدالله المجريطي : فيلسوف ، رياض ، فلكي ، كان أمام الرياضيين بالأندلس وأوسعهم احاطة بعلم الأفلاك وحركات النجوم مولده ووفاته بمجريط (مدريد) الاعلام للزركلي/ج ٧ ص ٢٢٤ .

(٥) وفي عيون الانباء ج ٢ ص ٤١ : عمر بن أحمد بن خلدون بن بقي ، وابن خلدون هذا من اشراف إشبيلية ، وكان فيلسوفاً مهندساً طبيباً توفي سنة ٤٤٩ هـ .

الرئيس المذكور إلاّ أبو الفضل بن محمد بن خلف بن أحمد بن عبدالله بن كريت انتهى . كلام ابن حزم .

(سلفه بالأندلس) ولما دخل خلدون بن عثمان جدّنا إلى الأندلس ، نزل بقرمونة في رهط من قومه حضرموت ، ونشأ بيت بنيه بها ، ثم انتقل إلى إشبيلية . وكانوا في جند اليمن ، وكان الكُرَيْت من عقبه وأخيه خالد ، الثورة المعروفة بإشبيلية أيام الأمير عبدالله المرواني ، ثار على أبي عَبْدَة وملكها من يده أعواماً . ثم ثار عليه عبدالله بن حجّاج بإملاء الأمير عبدالله وقتله ، وذلك في أواخر المائة الثالثة .

(وتلخيص الخبر عن ثورته[1]) ما نقله ابن سعيد[2] عن الحجازي[3] وابن حيان[4] وغيرهما ، وينقلونه عن ابن الأشعث مؤرّخ إشبيلية أنّ الأندلس لما اضطرمت بالفتن أيام الأمير عبدالله ، تطاول رؤساء إشبيلية إلى الثورة والاستبداد ، وكان رؤساؤها المتطاولون إلى ذلك في ثلاثة بيوت : بيت أبي عَبْدَة وبرئيسهم يومئذ ابن عبد الغافر بن أبي عُبَيْدَة ، وكان عبد الرحمن الداخل ولّى إشبيلية وأعمالها أبا عبدة ، وكان حافده أميّة من أعلام الدولة بقرطبة ، ويولّونه الممالك الضخمة . وبيت بني خلدون ورئيسهم كُرَيت المذكور ، ويردفه خالد أخوه .

قال ابن حيّان : وبيت بني خلدون إلى الآن في إشبيلية ، نهاية في النباهة ، ولم تزل أعلامه بين رياسة سلطانيّة ورياسة علمية . ثم بيت بني حجّاج ورئيسهم يومئذ عبدالله . قال ابن حيّان : هو من لَخْم وبيتهم إلى الآن في إشبيلية ثابت الأصل نابت الفرع موسوم بالرياسة السلطانية والعلمية . فلمّا عظمت الفتنة بالأندلس أعوام الثمانين ومائتين ، وكان الأمير عبدالله قد ولّى على إشبيلية أمية بن عبد الغافر ، وبعث معه ابنه محمداً وجعله في كفالته ، فاجتمع هؤلاء النفر وثاروا بمحمد بن الأمير

---

(١) راجع أخبار هذه الثورة في المجلد الرابع من هذا الكتاب .

(٢) هو علي بن موسى بن سعيد العَنْسي الغرناطي (٦١٠ — ٦٧٣) صاحب كتاب « المغرب » و « المشرق » وغيرهما . يعتمد عليه ابن خلدون كثير في النسب والتاريخ .

(٣) هو صاحب كتاب « المسهب في غرائب المغرب ، وهو أبو محمد عبدالله ابراهيم الحجاري نسبة الى وادي الحجارة وهو من أهل القرن السابع .

(٤) ابن حيان : هو مؤرخ الأندلس واسمه أبو مروان حيان بن خلف بن حسين بن حيان القرطبي (٣٧٧ — ٤٦٩) له كتاب المتين في التاريخ ، والمقتبس في تاريخ الأندلس وكتاب معرفة الصحابة . (وفيات الأعيان ١ ص ٢١٠) .

عبدالله ، وبأميّة صاحبهم ، وهو يمالئهم على ذلك ، ويكيد بابن الأمير عبدالله . وحاصروه حتى طلب منهم اللحاق بأبيه فأخرجوه ، واستبدّ أمية بإشبيلية ، ودسّ على عبدالله بن حجّاج من قتله ، وأقام أخاه ابراهيم مكانه . وضبط إشبيلية واسترهن أولاد بني خَلدون وبني حجّاج ثم ثاروا به ، وهمّ بقتل أبنائهم فراجعوا طاعته ، وحلفوا له ، فأطلق أبناءهم فانتقضوا ثانية . وحاربوه فاستمات وقَتَل حُرَمَهَ وعقر خيوله ، وأحرق موجوده . وقاتلهم حتى قتلوه مقبلاً غير مدبر ، وعاثت العامة في رأسه . وكتبوا إلى الأمير عبدالله بأنه خَلَع فقتلوه ، فقبل منهم مداراة ، وبعث عليهم هشام بن عبد الرحمن من قرابته ، فاستبدّوا عليه وفتكوا بابنه ، وتولّى كبر ذلك كريت بن خلدون . واستقل بإمارتها .

وكان ابراهيم بن حجّاج بعدما قتل أخوه عبدالله على ما ذكره ابن سعيد عن الحجاري سمَت نفسه إلى التفرّد ، فظاهر ابن حفصون[1] أعظم ثوّار الأندلس يومئذ ، وكان بمالقة وأعمالها إلى رُنْدَة ، فكان له منه ردءَ . ثم انصرف إلى مداراة كُرَيت بن خَلدون وملابسته ، فردفه في أمره ، وأشركه في سلطانه ، وكان في كريت تحامل على الرعيّة وتعصّب ، فكان يتجهّم لهم ويغلظ عليهم ، وابن حجّاج يسلك بهم الرفق والتلطّف في الشفقة[2] بهم عنده ، فانحرفوا عن كريت إلى ابراهيم . ثم دسّ إلى الأمير عبدالله يطلب منه الكتاب بولاية إشبيلية ، لتسكن إليه العامّة ، فكتب إليه العهد بذلك . وأطلع عليه عرفاء البلد مع ما أشربوا من حبّه ، والنفرة عن كُرَيت ، ثم أجمع الثورة . وهاجت العامّة بكُرَيْت فقتلوه ، وبعث برأسه إلى الأمير عبدالله ، واستقرّ بإمارة إشبيلية .

قال ابن حيّان : وحصّن مدينة قَرْمُونَة من أعظم معاقل الأندلس ، وجعلها مرتبطاً لخيله ، وكان ينتقل بينها وبين إشبيلية . واتخذ الجند ورتّبهم طبقات ، وكان يصانع الأمير عبدالله بالأموال والهدايا ، وبعث إليه المدد في الصوائف[3] . وكان مقصوداً

---

(١) هو عمر بن حفصون بن عمر بن جعفر بن دميان بن فرغلوش بن ادفونش القس . وهو أول ثائر بالأندلس وهو الذي افتتح الخلاف بها ، وفارق الجماعة أيام محمد بن عبد الرحمن سنة ٢٧٠ وتوفي سنة ٣٠٦ (راجع أخبار ثورته في المجلد الرابع من هذا الكتاب .

(٢) وفي نسخة ثانية : في الشفاعة .

(٣) الصوائف : جمع صائفة : « وهي غزوات المسلمين الى بلاد الروم . سميت صوائف لأنهم كانوا يَغْزُونَ صيفاً تفادياً من شدة البرد (تاج العروس) .

مُـمَـدّحاً ، قصده أهل البيوتات فوصلهم ، ومدحه الشعراء ومدحه أبو عمر بن عبد ربّـه صاحب العقد[1] وقصده من بين سائر الثوّار فعرف حقه وأعظم جائزته .

ولم يزل بين بني خلدون بإشبيلية كما ذكره ابن حيّان وابن حزم وغيرهما ، سائر أيام بني أمية إلى زمان الطوائف[2] ، وانمحت عنهم الإمارة بما ذهب لهم من الشوكة .

ولما غلب كعب بن عبّاد[3] على إشبيلية ، واستبدّ على أهلها استوزر من بني خَلدون هؤلاء واستعملهم في رتب دولته ، وحضروا معه وقعة الجلالقة[4] كانت لابن عبّاد وليوسف بن تاشفين على ملوك الجلالقة ، فاستشهد فيها طائفة كبيرة من بني خَلدون هؤلاء ثبتوا في الجولة مع ابن عبّاد فاستلحموا في ذلك الموقف . بما كان الظهور للمسلمين ، ونصرهم الله على عدوّهم . ثم تغلّب يوسف بن تاشفين والمرابطون على الأندلس ، واضمحلّت دولة العرب وفنيت قبائلهم .

* (سلفه بأفريقية) * ولما استولى الموحدون[5] على الأندلس وملكوها من يد المرابطين ، وكان ملوكهم عبد المؤمن وبنيه . وكان الشيخ أبو حفص[6] كبير هنتاتة زعيم دولتهم . وولّوه على إشبيلية وغرب الأندلس مراراً ، ثم ولّوا ابنه عبد الواحد عليها في بعض أيامهم ، ثم ابنه أبا زكرياء كذلك ، فكان لسلفنا بإشبيلية اتصال بهم ، وأهدى بعض أجدادنا من قبل الأمّهات ، ويعرف بالمحتسب للأمير أبي زكريا[7]

---

(١) هو أحمد بن محمد بن عبد ربه بن حبيب بن حدير بن سالم أبو عمر (٢٤٦ — ٣٢٨) الأديب الإمام صاحب العقد الفريد من أهل قرطبة (الاعلام ١/٢٠٧) وله ترجمة في وفيات الأعيان ١/٣٩ .

(٢) يبتدأ عصر ملوك الطوائف بالأندلس بنهاية الخلافة الاموية ، وينتهي بغلبة يوسف ابن تاشفين المرابطي عليهم جميعاً ، واستيلائه على الأندلس (راجع المجلد الرابع من هذا الكتاب) .

(٣) هو أبو القاسم المعتمد محمد بن المعتضد بن عباد (٤٣١ — ٤٨٨) أكبر ملوك الطوائف بالأندلس (راجع ترجمته في المجلد الرابع من هذا الكتاب) و (وفيات الاعيان) .

(٤) وفي نسخة ثانية : الزلاقة : وهي من المعارك المشهورة في تاريخ الأندلس بل في التاريخ الإسلامي ، وكان لها الأثر البعيد في الحياة الإسلامية في الأندلس وقد أسهب المؤرخون في ذكرها وذكر تفاصيلها .

(٥) نشأت دولة الموحدين على يد محمد بن تومرت وهو المهدي . وقد ابتدأت دولتهم بالغرب سنة ٥١٤ وانتهت سنة ٦٨٨ هـ ، وامتد سلطانها الى الأندلس من سنة ٥٤٠ — ٦٠٩ هـ . راجع تاريخ أبي الفداء ٢/٢٤٣ .

(٦) هو أول التابعين لدعوة مهدي الموحدين وكان يسمى بالشيخ واسمه عمر بن يحيى بن محمد الهنتاتي ولقبه أبو حفص ، واليه تنسب الدولة الحفصية بأفريقية ومنهم من يردهم الى ذرية عمر بن الخطاب وليس هذا بصحيح .

(٧) « هو الأمير أبو زكريا يحيى بن عبد الواحد الحفصي ، ملك جل أفريقية . بايعه أهل الأندلس وامّله أهل =

يحيى بن عبد الواحد بن أبي حفص أيام ولايته عليهم ، جاريةً من سبي الجلالقة ، اتخذها أم ولد ، وكان له منها ابنه أبو زكريا يحيى وليّ عهده الهالك في أيامه ، وأخواه عمر وأبو بكر ، وكانت تلقّب أمّ الخلفاء . ثم انتقل الأمير أبو زكريا إلى ولاية أفريقية سنة عشرين وستمائة . ودعا لنفسه بها وخلع دعوة بني عبد المؤمن سنة خمس وعشرين وستمائة واستبدّ بأفريقية ، وانتقضت دولة الموحدين بالأندلس ، وثار عليهم ابن هود[1] . ثم هلك واضطربت الاندلس وتكالب الطاغية عليها ، وتردّد الغزو إلى الفرنتيرة بسيط قرطبة وإشبيلية إلى جيّان . وثار ابن الأحمر من غرب الأندلس من حصن أرجُونَة يرجو التماسك بما بقي من رمق الأندلسّ . وفاوض أهل الشورى يومئذ بإشبيلية . وهم بنو الباجي ، وبنو الجدّ ، وبنو الوزير ، وبنو سيّد الناس ، وبنو خلدون . وداخلهم في الثورة على ابن هود ، وأن يتجافوا للطاغية عن الفرنتيرة ، ويتمسّكوا بالجبال الساحلية وأمصارها المتوعّرة ، من مالقة إلى غرناطة إلى المريّة ، فلم يوافقوه على بلادهم . وكان مقدّمهم أبو مروان الباجي ، فنابذهم ابن الأحمر وخلع طاعة الباجي وبايع مرّة لابن هُود ومرّة لصاحب مراكش من بني عبد المؤمن ، ومرّة للأمير أبي زكريا صاحب أفريقية . ونزل غرناطة واتخذها دار ملكه ، وبقيت الفرنتيرة وأمصارها ضاحية من ظل المُلْك ، فخشي بنو خَلدون سوء العاقبة من الطاغية ، وارتحلوا من إشبيلية إلى العدوة ، ونزلوا سبتة ، وأجلب الطاغية على تلك الثغور فملك قرطبة وإشبيلية وقرمونة وجيّان وما إليها في مدّة عشرين سنة . ولما نزل بنو خَلدون بسبتة أصهر إليهم العزفيّ بأبنائه وبناته ، فاختلط بهم ، وكان له معهم صِهْرٌ مذكور . وكان جدّنا الحسن بن محمد ، وهو سبط ابن المحتسب قد أجاز فيمن أجاز إليهم ، فذكروا سوابق سلفه عند الأمير أبي زكريا ، فقصده ، وقدم عليه فأكرم قدومه ، وارتحل إلى المشرق فقضى فرضه . ثم رجع ولحق بالأمير أبي زكريا على بونة ، فأكرمه واستقرّ في ظل دولته ومرعى نعمته ، وفرض له الأرزاق وأُقْطِع الأقطاع . وهلك هنالك فدفن ببونة سنة سبع وأربعين وستمائة وولي ابنه المستنصر

شرق الاندلس لصد هجوم ملكي ارغون وقشتالة ، فأوفدوا إليه كاتب ابن مردنيش ابا عبدالله بن الابار فانشده القصيدة السينية المشهورة :

ادرك بخيلك خيـل الله انـدلساً ان السبيـل الى منجـاتها درسا»

(١) هو محمد بن يوسف بن محمد بن عبد العظيم بن هو الجذامي . راجع أخبار ثورته في المجلد الرابع من هذا الكتاب .

محمد ، فأجرى جدّنا أبا بكر على ما كان لأبيه . ثم ضرب الدهر ضرباته ، وهلك المستنصر سنة خمس وسبعين وستمائة ، وولي ابنه يحيى ، وجاء أخوه الأمير أبو اسحق من الأندلس بعد أن كان فرّ إليها أمام أخيه المستنصر . فخلع يحيى ، واستقلّ هو بملك أفريقية ، ودفع جدّنا أبا بكر محمداً على عمل الأشغال في الدولة على سنن عظماء الدولة الموحدين فيها قبله ، من الانفراد بولاية العمّال وعزلهم وحسبانهم على الجباية ، فاضطلع بتلك الرتبة . ثم عقد السلطان أبو اسحق لابنه محمد ، وهو جدّنا الأقرب على حجابة وليّ عهده ابنه أبي فارس أيام أن اقصاه إلى بجاية[1] . ثم استعفى جدّنا من ذلك فأعفاه ورجع إلى الحضرة ، ولما غلب الدعي ابن أبي عمارة[2] على ملكهم بتونس ، اعتقل جدّنا أبا بكر محمداً ، وصادره على الأموال ثم قتله خنقاً في محبسه . وذهب ابنه محمد جدّنا الأقرب مع السلطان أبي اسحق وأبنائه إلى بجاية فتقبّض عليه ابنه أبو فارس ، وخرج مع العساكر هو وإخوته لمدافعة الدعي ابن أبي عمارة ، وهو يشبه بالفضل بن المخلوع حتى اذا استلحموا بمرما جنّة خلص جدّنا محمد مع أبي حفص ابن الأمير أبي زكريا من الملحمة ، ومعهما الفازازي وأبو الحسين بن سيّد الناس فلحقوا بمنجاتهم من قلعة سنان . وكان الفازازي من صنائع المولى أبي حفص ، وكان يؤثره عليهم . فأما أبو الحسين بن سيّد الناس ، فاستنكف من إيثار الفازازي عليه ، بما كان أعلى رتبة منه ببلده إشبيلية ، ولحق بالمولى أبي زكريا الأوسط بتلمسان ، وكان من شأنه ما ذكرناه . وأما محمد بن خلدون فأقام مع الأمير أبي حفص وسكن لايثار الفازازي . ولما استولى أبو حفص على الأمور رعى له سابقته وأقطعه ، ونظّمه في جملة القوّاد ومراتب أهل الحروب ، واستكفى به في الكثير من أمر ملكه ، ورشّحه لحجابته من بعد الفازازي . وهلك فكان من بعده حافد أخيه المستنصر أبو عصيدة ، واصطفى لحجابته محمد بن ابراهيم الدبّاغ كاتب الفازازي وجعل محمد بن خلدون رديفاً له في حجابته . فكان كذلك إلى أن هلك السلطان ، وجاءت دولة الأمير خالد ، فأبقاه على حاله من التجلّة والكرامة ، ولم

---

(١) بجاية : وتسمى الناصرية نسبة الى بانيها الناصر بن علناس بن حماد بن زيري الصنهاجي ، بناها في حدود سنة ٤٥٧ : — تقع اليوم — على ساحل البحر الأبيض من الجزائر وكانت قاعدة المغرب الاوسط (معجم البلدان) .

(٢) هو أحمد بن روق بن أبي عمارة من بيوتات بجاية الطارئين عليها من المسيلة (الاحاطة في تاريخ غرناطة ١ ١٧٤) .

يستعمله ولا عقدله ، إلى أن كانت دولة أبي يحيى بن اللحياني فاصطنعه ، واستكفى به عندما تنبّضت عروق التغلّب من العرب ، ودفعه إلى حماية الجزيرة من لاج[1] إحدى بطون سُلَيْم الموطنين بنواحيها ، فكانت له في ذلك آثار مذكورة . ولما انقرضت دولة ابن اللحياني خرج إلى الشرق وقضى سنة ثمان عشرة وأظهر التوبة والإقلاع ، وعاود الحج متنقلا سنة ثلاث وعشرين وسبعمائة ولزم كسر بيته . وأبقى السلطان أبو يحيى عليه نعمته في كثير مما كان بيده من الاقطاع والجراية ، ودعاه إلى حجابته مراراً فامتنع .

(أخبرني) محمد بن منصور بن مَزني قال : لما هلك الحاجب بن محمد بن عبد العزيز الكردي المعروف بالمزوار سنة سبع وعشرين وسبعمائة ، استدعى السلطان جدّك محمد بن خلدون وأراده على الحجابة ، وأن يفوّض إليه أمره ، فأبى واستعفى فأعفاه وآمره فيمن يوليه حجابته ، فأثار عليه بصاحب ثغر بجاية محمد بن أبي الحسين بن سيّد الناس لاستحقاقه ذلك بكفايته واضطلاعه ، ولقديم صحابة بين سلفهما بتونس ، وإشبيلية من قبل . وقال له : هو أقدر على ذلك بما هو عليه من الحاشية والدين[2] فعمل السلطان على إشارته واستدعى ابن سيّد الناس وولاّه حجابته . وكان السلطان أبو يحيى إذا خرج من تونس يستعمل جدّنا محمداً عليها وثوقاً بنظره واستنامة إليه إلى أن هلك سنة سبع وثلاثين وسبعمائة ونزع ابنه ، وهو والدي محمد بن أبي بكر عن طريقة السيف والخدمة إلى طريقة العلم والرباط ، لَما نشأ عليه في حِجْر أبي عبدالله الرُنْدِي[3] الشهير بالفقيه ، كان كبير تونس لعهده في العلم والفتيا ، وانتحال طرق الولاية التي ورثها عن أبي حسين وعمّه حسن ، الوليّين الشهيرين . وكان جدّنا رحمه الله قد لازمه من يوم نزوعه عن طريقه ، وألزمه ابنه وهو والدي رحمه الله فقرأ وتفقّه ، وكان مقدّما في صناعة العربية ، وله بصر بالشعر وفنونه ، عهدي بأهل البلد يتحاكمون إليه فيه ، ويعرضون حَوْكَهُم عليه ، وهلك في الطاعون الجارف سنة تسع وأربعين وسبعمائة .

---

(١) وفي نسخة ثانية : دلاج .

(٢) وفي نسخة ثانية : الذوين .

(٣) وفي نسخة ثانية : الزُبَيْدِيّ . نسبة الى قرية بساحل المهدية توفي عام ٧٤٠ هـ وهو أبو عبدالله محمد بن الحسن بن عبدالله القرشي الزبيدي . والرُندي نسبة الى (رُنْدَة) .

* (أمّا نشأتي) * فإني ولدت بتونس في غرّة رمضان سنة اثنتين وثلاثين وسبعمائة ، وربّيت في حجر والدي رحمه الله إلى أن أَيْفَعْتُ وقرأتُ القرآن العظيم على الاستاذ أبي عبدالله محمد بن سعد بن نزال[1] الأنصاري ، أصله من جالبة الأندلس من أعمال بلنسية ، أخذ عن مشيخة بلنسية وأعمالها ، وكان إماما في القرآت لا يلحق شأوه ، وكان من أشهر شيوخه في القرآت السبع أبو العباس أحمد بن محمد البطوي[2] ومشيخته فيها ، وأسانيده معروفة . وبعد أن استظهرت القرآن العظيم عن حفظي ، قرأته عليه بالقرآت السبع المشهورة إفراداً وجمعاً[3] في إحدى وعشرين ختمة ، ثم جمعتها في ختمة واحدة أخرى ثم قرأت برواية يعقوب[4] ختمة واحدة جمعاً بين الروايتين عنه ، وعرضت عليه رحمه الله قصيدة الشاطبي[5] اللامية في القرآت والرائية في الرسم . وأخبرني بهما عن الاستاذ أبي عبدالله البطوي وغيره من شيوخه ، وعرضت عليه كتاب التفسير لاحاديث الموطأ لابن عبد البرّ حذا به حذو كتابه التمهيد على الموطأ ، مقتصراً على الأحاديث فقط .

ودرست عليه كتباً جمّة مثل كتاب التسهيل لابن مالك[6] ومختصر ابن الخطيب في الفقه[7] ولم أكملها بالحفظ ، وفي خلال ذلك تعلّمت صناعة العربية على والدي

---

(١) وفي نسخة ثانية برال : بضم الباء الموحدة ، وفتح الراء المشددة ، هكذا قيّده ابن خلدون بخط يده .

(٢) وفي نسخة ثانية : البطرني : نسبة الى بطرنة من إقليم بلنسية بشرق الأندلس . وقد ضبطها ابن خلدون بخط يده : بفتح الباء والطاء المهملة وراء ساكنة بعدها نون .

(٣) «الإفراد ان يتلى القرآن كله أو جزء منه برواية واحدة لأحد القراء السبع أو العشرة المشهورين ، والجمع أن يجمع القارىء عند قراءته للقرآن كله أو جزء منه بين روايتين فأكثر من الروايات السبع أو العشر المتواترة . ويسمى بالجمع الكبير ان استوفى القارىء سبع قرآت فأكثر . وإلاّ سموه بالجمع الصغير .

(٤) هو يعقوب بن اسحق بن زيد بن عبدالله الحضرمي البصري (١١٧ — ٢٠٥) أحد القراء العشرة ، وله قراءة مشهورة عنه ، وهي احدى القرآت العشر . راجع طبقات القراء (١/٢٨٥) و (٢/٢٣٤) .

(٥) هو أبو القاسم بن خلف بن أحمد الشاطبي الرعيني ، رحل الى الشرق ودخل القاهرة ، حيث مدرسة القاضي الفاضل ، وقد نظم قصيدته اللامية المعروفة بالشاطبية أو حرز الأماني ، والرائية وتعرف بالعقيلة (طبقات القراء ٢/٢٠) .

(٦) هو أبو عبدالله محمد بن عبدالله بن مالك الأندلسي الجياني النحوي المشهور (٦٠٠ — ٦٧٢) وكتابه تسهيل الفوائد جمع قواعد النحو بإيجاز .

(٧) وفي نسخة ثانية : ابن الحاجب وهو عثمان بن عمر بن يونس المعروف بابن الحاجب جمال الدين المصري (٥٧٠ — ٦٤٦) له مختصر في الفقه ذكره ابن خلدون في مقدمته راجع (وفيات الاعيان ١/٣٩٥) .

وعلى أستاذي تونس : منهم الشيخ أبو عبدالله محمد العربي الحَصَايري ، وكان إماماً في النحو وله شرح مستوفى على كتاب التسهيل . ومنهم أبو عبدالله محمد بن الشواش المزازي [١] . ومنهم أبو العبّاس أحمد بن القصّار ، كان ممتعاً في صناعة النحو ، وله شرح على قصيدة البُرْدَة المشهورة في مدح الجناب النبوي وهو حيّ لهذا العهد بتونس .

ومنهم إمام العربية والأدب بتونس أبو عبدالله محمد بن بَحْر ، لازمتُ مجلسه وأفدت عليه ، وكان بحراً زاخراً في علوم اللسان . وأشار عليّ بحفظ الشعر فحفظت كتب الأشعار الستة ، والحماسة للأعلم [٢] وشعر حبيب [٣] وطائفة من شعر المتنبي ، ومن أشعار كتاب الأغاني . ولازمت أيضاً مجلس إمام المحدّثين بتونس ، شمس الدين أبي عبدالله محمد بن جابر بن سلطان القَيْسيّ الواد ياشي صاحب الرحلتين ، وسمعت عليه كتاب مسلم بن الحجّاج إلاّ فوتايسيراً من كتاب الصَّيد ، وسمعت عليه كتاب الموطأ من أوّله إلى آخره ، وبعضاً من الأمّهات الخمس ، وناولني [٤] كتباً كثيرة في العربية والفقه وأجازني إجازة عامّة ، وأخبرني عن مشايخه المذكورين أشهرهم بتونس قاضي الجماعة أبو العبّاس أحمد بن الغمّاز الخزرجي .

وأخذت الفقه بتونس من جماعة ، منهم أبو عبدالله محمد بن عبدالله الحيّاني ، وأبو القاسم محمد القصير ، وقرأت عليه كتاب التهذيب لأبي سعيد البرادعي ، مختصر المدوّنة ، وكتاب المالكيّة ، وتفقّهت عليه . وكنت في خلال ذلك انتاب مجلس شيخنا الإمام قاضي الجماعة أبي عبدالله محمد بن عبد السلام مع أخي عمر رحمة الله عليهما ، وأفدت منه وسمعت عليه أثناء ذلك كتاب الموطأ للإمام مالك ، وكانت له طرق عالية عن أبي محمد بن هرون الطائي قبل اختلاطه إلى غير هؤلاء من مشيخة تونس ، وكلّهم سمعت عليه ، وكتب لي وأجازني ، ثم درجوا كلهم في الطاعون الجارف .

---

(١) وفي نسخة ثانية : الزرزالي .

(٢) هو يوسف بن سليمان بن عيسى النحوي الشنتمري — نسبة الى شنتمرية — المعروف بالأعلم (وفيات الاعيان) ج ٢ ص ٤٦٥ .

(٣) المشاعر المشهور وهو حبيب بن اوس الحارث الطائي أبو تمام (١٩٠ — ٢٢٦) (وفيات الأعيان) .

(٤) المناولة حسب مصطلح الحديث تعني الإجازة لشخص بالرواية عن شخص آخر .

وكان قدم علينا في جملة السلطان أبي الحسن عندما ملك أفريقية سنة ثمان وأربعين جماعة من أهل العلم كان يُلْزِمهم شهود مَجْلِسِه ، ويتجمّل بمكانهم فيه ، فمنهم شيخ الفُتيا بالمغرب وإمام مذهب مالك أبو عبدالله محمد بن سليمان السطّي ، فكنت انتاب مجلسه وأفدت عليه . ومنهم كاتب السلطان أبي الحسن وصاحب علامته التي توضع أسفل مكتوباته ، إمام المحدّثين أبو محمد عبد المهيمن الحضرمي ، لازمته وأخذت عنه سماعاً وإجازة ، الأمّهات الست . وكتاب الموطأ ، والسير لابن اسحق ، وكتاب ابن الصلاح في الحديث ، وكتباً كثيرة سرت[1] عن حفظي . وكانت بضاعته في الحديث وافرة ، ونحلته في التقييد والحفظ كاملة ، كانت له خزانة من الكتب تزيد على ثلاثة الاف سفر في الحديث والفقه والعربية والأدب والمعقول وسائر الفنون ، مضبوطة كلها مقابلة . ولا يخلو ديوان منها عن ضبط بخط بعض شيوخه المعروفين في سنده إلى مؤلفة ، حتى الفقه والعربية الغريبة الإسناد إلى مؤلفها في هذه العصور . ومنهم الشيخ أبو العباس أحمد الزواوي إمام المقرئين بالمغرب . قرأت عليه القرآن العظيم بالجمع الكبير بين القرآآت السبع ، من طريق أبي عمر والداني وابن شُرَيْح[2] لم أكملها ، وسمعت عليه عدّة كتب ، وأجازني بالاجازة العامّة .

ومنهم شيخ العلوم العقلية أبو عبدالله محمد بن ابراهيم الأَيْلّي أصله من تلمسان وبها نشأ ، وقرأ كتب التعليم وحذق فيها ، وأظلّه الحصار الكبير بتلمسان أعوام المائة السابعة ، فخرج منها وحجّ ولقي أعلام المشرق يومئذ ، فلم يأخذ عنهم لأنه كان مختلطاً بعارض عرض في عقله . ثم رجع من المشرق وأفاق وقرأ المنطق والأصلين على الشيخ أبي موسى عيسى ابن الإمام ، وكان قرأ بتونس مع أخيه أبي زيد عبد الرحمن على تلميذ أبي زيتون الشهير الذكر[3] وجاءا إلى تلمسان بعلم كثير من المنقول والمعقول ، فقرأ الأَيْلّي على أبي موسى منهما كما قلناه ، ثم خرج من تلمسان هارباً إلى المغرب لأنّ سلطانها أبا حمّو يومئذ من ولد يغمراسن بن زيّان ، كان يكرهه على التصرّف في أعماله ، وضبط الجباية بحسبانه ، ففرّ إلى المغرب ، ولحق

(١) وفي نسخة ثانية : شذت .

(٢) هو المقرىء محمد بن شريح بن أحمد بن محمد ابو عبدالله الإشبيلي (٣٨٨ — ٤٧٦) .

(٣) هو ابن زيتون أبو القاسم ، القاسم بن أبي بكر بن مسافر (٦٢١ — ٦٩١) قام برحلة الى الشرق واخذ عن علمائه ، ثم رجع بعدها الى تونس ما سند إليه مهمة القضاء والافتاء ، وهو أول من أظهر تآليف فخر الدين الرازي في تونس .

بمراكش ، ولازم العالِم الشهير الذكر أبا العبّاس بن البناء ، فحصّل عنه سائر العلوم العقلية ، وورِث مقامه فيها وأرفع ، ثم صعد إلى جبل الهساكرة بعد وفاة الشيخ باستدعاء علي بن محمد بن تُرُوميت ليقرأ عليه ، فأفاده وبعد أعوام استنزله ملك المغرب ، السلطان أبو سعيد ، وأسكنه بالبلد الجديد والأُبُلّي معه .

ثم اختصّه السلطان أبو الحسن ونظّمه في جملة العلماء بمجلسه ، وهو في خلال ذلك يعلّم العلوم العقلية ، ويبثّها بين أهل المغرب حتى حذق فيها الكثير منهم من سائر أمصاره . وألحق الأصاغر بالأكابر في تعليمه . ولما قدم على تونس في جملة السلطان أبي الحسن ، لزمته ، وأخذتُ عنه العلوم العقلية[1] ، والمنطق ، وسائر الفنون الحكمية ، والتعليمية ، وكان رحمه الله تعالى يشهد لي بالتبريز في ذلك .

وممن قدم في جملة السلطان أبي الحسن ، صاحبنا أبو القاسم عبدالله بن يوسف بن رضوان المالقي ، كان يكتب عن السلطان ويلازم خدمة أبي محمد عبد المهيمن رئيس الكتّاب يومئذ ، وصاحب العلامة التي توضع عن السلطان أسفل المراسيم والمخاطبات ، وبعضها يضعه السلطان بخطّه . وكان ابن رضوان هذا من مفاخر المغرب في براعة خطّه ، وكثرة علمه ، وحسن سَمْته ، وإجادته في فقه الوثائق ، والبلاغة في الترسيل عن السلطان ، وحوك الشعر والخطابة على المنابر ، لأنه كان كثيراً ما يُصَلّي بالسلطان . فلمّا قدم علينا بتونس صحبته ، واغتبطت به ، وإن لم أتخذه شيخاً ، لمقاربة السن ، فقد أفدت منه كما أفدت منهم . وقد مدحه صاحبنا أبو القاسم الرحويّ شاعر تونس في قصيدة على رويّ النون يرغب منه أن يذكره[2] لشيخه أبي محمد عبد المهيمن في إيصال مدحه للسلطان أبي الحسن في قصيدة[3] على روي الياء ، وقد تقدّم ذكرها في أخبار السلطان . وذكر في مدح ابن رضوان أعلام العلماء القادمين مع السلطان وهي هذه :

عرفتُ زمــاني حين أَفْكَرْتُ عِرْفَـاني وأيقنتُ أن لا حظَّ في كفِّ كيوانِ[4]
وأن لا اختيــارٌ في اختيــارِ مقوّم وأن لا قِراعٌ بـــــــالقِرَانِ لأقْرَانِ

(١) وفي نسخة ثانية : واخذت عنه الاصلين .
(٢) وفي نسخة ثانية : يرغب منه تذكرة .
(٣) وفي نسخة ثانية : في قصيدته .
(٤) اسم لأحد الكواكب السيارة ويدعى زُحَلْ .

وأن نظـام الشكـلِ أكمـل نَظمـهِ لأضعافُ قاضٍ في الدليلِ برُجْحَانِ
وأنّ افتقـارَ المرءِ من فَقَراتِـه ومن ثقلـه يُغْني اللبيبَ بـأوزانِ

إلى آخرها ، ثم يقول في ذكر العلماء القادمين :

همُ القومُ كلّ القومِ أمّا حُلومُهم فـأرسخُ من طَوْدَي ثبير وثهلان[1]
فلا طيشَ يعلوهم[2] وأمّا علُومهم فـأعلامهـا تهديك من غير نيرانِ

ثم يقول في آخرها

وهامت على عبدِ المُهَيْمنِ تُونسُ وقـد ظفِرَت منـه بوصلٍ وقُرْبَـان
ومـا علِقَت مني الضمائرُ غَيْرَهُ وإنْ هَويت كلاً بحب ابن رَضْوَانِ

وكتب هذا الشاعر صاحبنا الرحوي يذكّر عبد المهيمن بذلك .

لهيَ النفسُ في اكتساب وسَعْي وهو العمر في انتهـاب وفيِّ
وأرى النـاس بين ساعٍ لرُشْدٍ يتوخّى الهُـدَى وساع لِغَيِّ
وأرى العلمَ للبريّـة زينـاً فتَزَيَّ منـه بـأحسن زيِّ
وأرى الفضلَ قـد تجمّـع كلاًّ في ابن عبد المُهَيْمِنِ الحَضْرَمِيِّ

ثم يقول في آخرها

ينبغي القربَ من مراقي الأمـاني والتَّرَقّي للجـانبِ العَلَوِيِّ
فـأَنِلْهـا مَرَامَهـا مستهلاً[3] كـلَّ دانٍ يسعى وكـلَّ قصيِّ

ثم كانت واقعة العرب على السلطان بالقيروان فاتح تسع وأربعين وسبعمائة فشغلوا عن ذلك ولم يظفر هذا الرحوي بطلبته . ثم جاء الطاعون الجارف فطوى البساط بما فيه ، وهلك عبد المهيمن فيمن هلك ، ودفن بمقبرة سلفنا بتونس ، لخلّة كانت بينه وبين والدي رحمه الله أيام قدومهم علينا .

فلما كانت وقعة القيروان ثار أهل تونس بمن كان عندهم من أشياع السلطان أبي الحسن ، فاعتصموا بالقصبة دار الملك ، حيث كان ولد السلطان وأهله ، وانتقض عليه ابن تافراكين ، وخرج من القيروان إلى العرب ، وهم يحاصرون السلطان ، وقد

---

(١) ثبير : جبل بظاهر مكة . ثهلان : جبل في بلاد بني نمير (تاج العروس) .
(٢) وفي نسخة ثانية : يعروهم .
(٣) وفي نسخة ثانية :
فـأنلهـا مرامهـا نلت سهلا كـل دان بُغي وكـل قصيّ

اجتمعوا على أبي دبّوس وبايعوا له كما مرّ في أخبار السلطان ، فبعثوا ابن تافراكين إلى تونس ، فحاصر القصبة وامتنعت عليه . وكان عبد المهيمن يوم ثورة أهل تونس ، وقد سمع الهيعة[1] خرج من بيته إلى دارنا فاختفى عند أبي رحمه الله ، وأقام متخفياً عندنا نحواً من ثلاثة أشهر . ثم نجا السلطان من القيروان إلى سوسة ، وركب البحر إلى تونس ، وفرّ ابن تافراكين إلى المشرق ، وخرج عبد المهيمن من الاختفاء ، وأعاده السلطان إلى ما كان عليه من وظيفة الولاية والكتابة[2] وكان كثيراً ما يخاطب والدي رحمه الله ويشكره على موالاته ، ومما كتب إليه وحفظته من خطّه :

محمد ذو المكارم قد ثناني[3] ... فَعَالٌ شُكْرُهُ أبداً عَنَاني
جزَى اللهُ ابنَ خلدونٍ حياةً ... مُنعَّمَةً وخُلْداً في الجِنانِ
فكَمْ أَوْلى ووَالى من جَميلٍ ... وبِرٍّ بالفعالِ وباللِّسَانِ
وراعى الحَضْرَمِيَّةَ في الذي قَدْ ... جَنى من ودِّه وَرْدُ الحَنَانِ[4]
أبا بكرٍ ثَنَاؤُك طولَ دَهْري ... أُرَدِّدُ باللسانِ وبالجَنَانِ
وعن عَلْيَاكَ ما امتدَّتْ حَيَاتي ... أُكَافِحُ بالحُسَامِ وباللِّسَانِ
فَمِنْكَ أَفَدْتُ خِلاًّ لستُ دَهْري ... أرى عن حبِّهِ أثْني عِنَاني

وهؤلاء الأعلام الذين ذكرهم الرحوي في شعره ، هم سُبّاق الحلبة في مجلس السلطان أبي الحسن ، اصطفاهم لصحابته من بين أهل المغرب ، فأمّا ابنا الإمام منهم ، فكانا أخوين من أهل بَرْشِك من أعمال تلمسان ، واسم أكبرهم أبو زيد عبد الرحمن ، والأصغر أبو موسى عيسى . وكان أبوهما إماماً ببعض مساجد برشك ، واتهمه المتغلّب يومئذ على البلد زيرم بن حمّاد[5] بأنّ عنده وديعة من المال لبعض أعدائه ، فطالبه بها ، ولاذ بالامتناع ، وبيّته زيرم لينتزع المال من يده ، فدافعه وقتل ، وارتحل ابناه هذان الأخوان إلى تونس في آخر المائة

(١) وفي نسخة ثانية : ووقوع الهيعة .
(٢) وفي نسخة ثانية : وظيفة العلامة والكتابة .
(٣) وفي نسخة ثانية : لمحمد ذوي المكارم قد ثناني .
(٤) وفي نسخة ثانية :
وراعى الحضرمية في الذي قد ... حبا من ودّه ومن الحنان
(٥) زيري بن حمّاد : وقد ورد في مكان سابق من هذا الكتاب .

السابعة ، وأخذا العلم بها عن تلميذ ابن زيتون ، وتفقّها على أصحاب أبي عبدالله بن شعيب الدُّكّالي ، وانقلبا إلى المغرب بحظّ وافر من العلم ، وأقاما بالجزائر يبثّان العلم بها لامتناع برشك عليهما من أجل زيرم المتغلّب عليها ، والسلطان أبو يعقوب يومئذ صاحب المغرب الأقصى من بني مرين جاثم على تلمسان يحاصرها الحصار الطويل المشهور[١] ، وبث بها جيوشه في نواحيها ، وغلب على الكثير من أعمالها وأمصارها ، وملك عمر مغراوة بشلف ، وحصر مليانة ، بعث إليها الحسن بن أبي الطلاق من بني عسكر ، وعليّ بن محمد ابن الخيّر من بني ورتاجن ، ومعهما لضبط الجباية واستخلاص الأموال الكاتب منديل بن محمد الكِناني ، فارتحل هذان الأخوان من الجزائر ، وأخذا عليه[٢] ، فحليا بعين منديل الكناني[٣] ، فقرّبهما واصطفاهما ، واتّخذهما لتعليم ولده محمد . فلما هلك يوسف بن يعقوب سلطان المغرب بمكانه من حصار تلمسان سنة خمس وسبعمائة[٤] على يد خصيّ من خصيانه طعنه فأشواه ، وهلك . وأقام بالملك بعده حافده أبو ثابت بعد أمور ذكرناها في أخباره ، ووقع بينه وبين صاحب تلمسان من بعده يومئذ ، أبي زيّان محمد بن عثمان بن يغمراسن وأخيه أبي حمّو العهد المتأكد على الإفراج عن تلمسان ، وردّ أعمالها عليه ، فوفّى لهم بذلك وعاد إلى المغرب . وارتحل ابن أبي الطلاق من شلف ، والكناني من مليانة راجعين إلى المغرب . ومرّوا بتلمسان فأوصى لهما أبو حمّو وأثنى عليهما حلّة بمقامهما في العلم ، واغتبط بهما أبو حمّو وبنى لهما المدرسة المعروفة بهما بتلمسان . وأقاما عنده على مجرى أهل العلم . وسننهم . وهلك أبو حمّو ، وكانا كذلك مع ابنه أبي تاشفين إلى أن زحف السلطان أبو الحسن المريني الى تلمسان ، وملكها عنوة سنة سبع وثلاثين وسبعمائة وكانت لهما شهرة في أقطار المغرب ، أسست لهما عقيدة صالحة ، فاستدعاهما لحين دخوله ، وأدنى مجلسهما وشاد بمكرمتهما ، ورفع جاههما على أهل طبقتهما . وصار يجمّل بهما مجلسه متى مرّ بتلمسان ووفدا عليه في الأولى التي نفر فيها أعيان بلادهما . ثم استنفرهما

---

(١) دام هذا الحصار حوالي ثمان سنوات وثلاث أشهر .

(٢) وفي نسخة ثانية : واحتلاّ بمليانة .

(٣) وفي نسخة ثانية : الكناني .

(٤) وفي كتاب العبر والإحاطة انه قتل سنة ٧٠٦ راجع الدرر الكامنة ج ٤ ص ٤٨٠ .

إلى الغزو وحضرا معه واقعة طريف ، وعادا إلى بلدهما . وتوفي أبو زيد منهما إثر ذلك ، وبقي أخوه موسى متبوّئاً ما شاء من ظلال تلك الكرامة .

ولما سار السلطان أبو الحسن إلى أفريقية سنة ثمان وأربعين وسبعمائة كما مرّ في أخباره استصحب أبا موسى ابـن الإمام معه مكرّماً موقّراً ، عالي المحل ، قريب المجلس منه . فلما استولى على أفريقية سرّحه إلى بلده ، فأقام بها يسيراً وهلك في الطاعون الجارف سنة تسع وأربعين وسبعمائة وبقي أعقابهما بتلمسان دارجين في مسالك تلك الكرامة موقرين فيها طبقاً على طبق إلى هذا العهد . وأمّا السطِّي ، واسمه محمد بن سليمان من قبيلة سطّة ، من بطون أَوْرَبَة بنواحي فاس ، فنزل أبوه سليمان مدينة فاس . ونشأ محمد فيها وأخذ العلم عن الشيخ أبي الحسن الصغير إمام المالكيّة بالمغرب ، والطائر الذكر وقاضي الجماعة بفاس ، وتفقّه وقرأ عليه ، وكان أحفظ الناس لمذهب مالك ، وأفقههم فيه . وكان السلطان أبو الحسن لعظم همته[1] وبعد شأوه في الفضل يتشوّف إلى تزيين مجلسه . بالعلماء ، واختار منهم جماعة لصحابته ومجالسته ، كان منهم هذا الإمام محمد بن سليمان . وقدم علينا بتونس في جملته ، وشهدنا وفور فضله[2] ، وكان في الفقه من بينهم لا يجارى حفظاً وفهماً ، عهدي به رحمه الله تعالى ، وأخي موسى[3] يقرأ عليه كتاب التبصرة لأبي الحسن اللخميّ ، وهو يصحّحه عليه من إملائه وحفظه في مجالس عديدة ، وكان هذا حاله في أكثر ما يعاني في جملة من الكتب[4] . وحضر مع السلطان أبي الحسن واقعة القيروان وخلص معه إلى تونس ، وأقام بها نحواً من سنتين ، وانتقض المغرب على السلطان واستقلّ به ابنه أبو عنان . ثم ركب السلطان أبو الحسن في أساطيله من تونس آخر سنة خمسين وسبعمائة ومرّ ببجاية فأدركه الغرق في سواحلها ، فغرقت أساطيله وغرق أهله ، وأكثر من كان معه من هؤلاء الفضلاء وغيرهم ، ورمى به البحر ببعض الجزر هنالك حتى استنقذه منها بعض أساطيله ، ونجا إلى الجزائر بعد أن تلف موجوده ، وهلك الكثير من عياله وأصحابه ، وكان من أمره ما مرّ في أخباره .

---

(١) وفي نسخة أخرى : وكان السلطان أبو الحسن لدينه وسرواته .

(٢) وفي نسخة أخرى : فضائله .

(٣) وفي نسخة أخرى : أخي محمد .

(٤) وفي نسخة أخرى : وكذا كان حاله في أكثر ما يعاني حمله من الكتب .

وأمّا الأَبُلّي واسمه محمد بن ابراهيم فمنشؤه بتلمسان ، وأصله من جالية الأندلس من أهل أُبَلّة من بلد الجوف[1] منها ، أجاز بأبيه وعمه أحمد ، فاستخدمهم يغمراسن ابن زيّان وولده في جندهم ، وأصهر ابراهيم منهما إلى القاضي بتلمسان محمد بن غَلبون في ابنته ، فولدت له محمداً هذا . ونشأ بتلمسان في كفالة جدّه القاضي ، فنشأ له بذلك ميل إلى انتحال العلم عن الجنديّة التي كانت منتحل أبيه وعمّه . فلما أيفع وأدرك سبق إلى ذهنه محبّة التعاليم ، فبرز بها واشتهر وعكف الناس عليه في تعلّمها ، وهذا في سنّ البلوغ . ثم أظل السلطان يوسف بن يعقوب وخيّم عليها يحاصرها ، وسيّر العساكر إلى الأعمال ، فافتتح أكثرها . وكان ابراهيم الأَبُلّي قائداً بهُنَيْن مرسى تلمسان في لجّة من الجند ، فلمّا ملكها يوسف بن يعقوب اعتقل من وجد بها من أشياع بني عبد الواد[2] واعتقل ابراهيم الأَبُلّي ، وشاع الخبر في تلمسان بأنّ يوسف ابن يعقوب يسترهن أبناءهم ويطلقهم ، فتشوّف ابنه محمد إلى اللحاق بهم من أجل ذلك . وأغراه أهله بالعزم عليه ، فتسوّر الأسوار وخرج إلى أبيه فلم يجد خبر الاسترهان صحيحاً . واستخدمه يوسف بن يعقوب قائداً على الجند الأندلسيين بتاوريرت ، فكره المقام على ذلك ، ونزع عن طوره ، ولبس المسوح ، وسار قاصداً إلى الحجّ . وانتهى إلى رباط العبّاد[3] مختفياً في صحبة الفقراء ، فوجد هنالك رئيساً من أهل كربلا[4] من بني الحسين جاء إلى المغرب يروم إقامة دعوته فيه ، وكان مغفلاً[5] ، فلما رأى عساكر يوسف بن يعقوب وشدّة غلبه أيس من مرامه ونزع عن ذلك ، واعتزم على الرجوع إلى بلده ، فسار شيخنا محمد بن ابراهيم في جملته . قال رحمه الله : وبعد حين انكشف لي حاله وما جاء له ، واندرجت في جملته

---

(١) المراد بالجوف ، الشمال في لغة المغاربة والاندلسيين .

(٢) وفي نسخة ثانية : من شيع ابن زيان .

(٣) رباط العبّاد : (مرتفع جميل خارج مدينة تلمسان ، كان مدفن الأولياء والصلحاء والعلماء . وهناك موضعان عرفا باسم « العبارة » أحدهما يسمى (العباد الفوقي والعباد السفلي) وكان بباب الجياد من أبواب تلمسان) .

(٤) كربلاء : بالمدّ : وهو الموضع الذي قتل فيه الحسين بن علي رضي الله عنه ، في طرف البرية عند الكوفة ، فاشتقاقه فالكربلة رخاوة في القدمين ، يقال جاء يمشي مكربلا ، فيجوز على هذا أن تكون أرض هذا الموضع رخوة فسميت بذلك . (معجم البلدان) ويطلق هذا الاسم اليوم على لواء كامل من ألوية العراق .

(٥) وفي نسخة ثانية : وكان معقلاً .

وأصحابه وتابعيه . قال : وكان يتلقّاه في كل بلد من أصحابه وأشياعه وخدمه من يأتيه بالأزواد والنفقات من بلده ، إلى أن ركبنا البحر من تونس إلى الاسكندرية . قال : واشتدّت عليّ الغَلْمَة في البحر واستحييت من كثرة الاغتسال لمكان هذا الرئيس ، فأشار عليّ بعض بطانته بشرب الكافور ، فاغترفت منه غرفة فشربتها فاختلطت . وقدم الديار المصرية على تلك الحال ، وبها يومئذ تقيّ الدين بن دقيق العيد وابن الرِفْعَة وصفيّ الدين الهندي ، والتبريزي وغيرهم من فرسان المعقول والمنقول . فلم يكن قُصَارَاه إلاّ تمييز أشخاصهم إذا ذكرهم لنا ، لما كان به من الاختلاط . ثم حجّ مع ذلك الرئيس وسار في جملته إلى كربلاء فبعث به من أصحابه من أوصله إلى مأمنه ببلاد زواوة من أطراف المغرب . وقال لي شيخنا رحمه الله : كان معي دنانير كثيرة تزودتها من المغرب واستبطنتها في جبّة كنت ألبسها ، فلمّا نزل بي ما نزل انتزعها مني ، حتى إذا بعث أصحابه يشيّعوني إلى المغرب دفعها إليهم ، حتى إذا أوصلوني إلى المأمن أعطوني إياها ، وأشهدوا عليّ في كتاب حملوه معهم إليه كما أمرهم . ثم قارن وصول شيخنا إلى المغرب مهلك يوسف بن يعقوب وخلاص أهل تلمسان من الحصار ، فعاد إلى تلمسان وقد أفاق من اختلاطه ، وانبعثت همّته إلى تعلّم العلم . وكان مائلاً إلى العقليات فقرأ المنطق على أبي موسى ابن الإمام ، وجملة من الأصلين ، وكان أبو حمّو صاحب تلمسان قد استفحل ملكه ، وكان ضابطاً للأمور ، وبلغه عن شيخنا تقدّمه في علم الحساب ، فدفعه إلى ضبط أمواله ومشارفة أحواله[1] . وتفادى شيخنا من ذلك فأكرهه عليه ، فأعمل الحيلة في الخلاص منه ، ولحق بفاس أيام السلطان أبي الربيع[2] ، وبعث فيه أبو حمّو ، فاختفى بفاس للتعاليم من اليهودي خليفة المغيلي[3] ، فاستوفى عليه فنونها ، وحذق وخرج متوارياً من فاس ، فلحق بمراكش أعوام عشر وسبعمائة . ونزل على الإمام أبي العبّاس بن البنّاء شيخ المعقول والمنقول ، والمبرّز في التصوّف علماً وحالاً ، فلزمه ، وأخذ عنه وتضلّع في علم المعقول

(١) وفي نسخة ثانية : مشارفة عمّا له .
(٢) ابو الربيع : وهو سليمان بن عبدالله بن أبي يعقوب بن يوسف بن عبد الحق المريني المتوفي سنة ٧١٠ هـ .
(٣) وفي نسخة ثانية : واختفى بفاس عند شيخ التعاليم من اليهود ، خلوف المغيلي .

والتعاليم والحكمة. ثم استدعاه شيخ الهساكرة علي بن محمد بن ترويميت ليقرأ عليه، وكان في طاعة السلطان، فدخل[1] إليه شيخنا وأقام عنده مدّة، قرأ عليه فيها وحصّل. واجتمع طلبة العلم هنالك على الشيخ، فكثرت إفادته، واستفادته، وعلي ابن محمد في ذلك على محبته وتعظيمه، وامتثال إشارته، فغلب على هواه، وعظمت رياسته في تلك القبائل. ولما استنزل السلطان أبو سعيد علي بن ترويميت من جبله، نزل الشيخ معه، وسكن بفاس. وانثال عليه طلبة العلم من كلّ ناحية، فانتشر علمه، واشتهر ذكره، فلمّا فتح السلطان أبو الحسن تلمسان ولقي أبا موسى ابن الإمام، ذكره له بأطيب الذكر، ووصفه بالتقدّم في العلوم، وكان السلطان معتنياً بجمع العلماء بمجلسه كما ذكرناه. فاستدعاه من مكانه بفاس ونظمه في طبقة العلماء بمجلسه، وعكف على التدريس والتعليم، ولزم صحابة السلطان، وحضر معه واقعة طريف، وواقعة القيروان بأفريقية. وكانت قد حصلت بينه وبين والدي رحمه الله خلّة[2]، كانت وسيلتي إليه في القراءة عليه، فلزمت مجلسه وأخذت عنه العلوم العقليّة بالتعاليم. ثم قرأت المنطق وما بعده من الأصليْن، وعلوم الحكمة. وعرض أثناء ذلك ركوب السلطان أساطيله من تونس إلى المغرب. وكان الشيخ في نزلنا وكفالتنا، فأشرنا عليه بالمقام وثبّطناه عن السفر، فقبل وأقام. وطالبنا به السلطان أبو الحسن فأحسنّا له العذر، فتجافى عنه. وكان من حديث غرقه في البحر ما قدّمناه. وأقام الشيخ بتونس، ونحن وأهل بلدنا جميعاً نتساجل في غشيان مجلسه، والأخذ عنه، فلمّا هلك السلطان أبو الحسن بجبل هِنْتَاتَة وفرغ ابنه أبو عنان من شواغله، وملك تلمسان من بني عبد الواد، كتب فيه يطلبه من صاحب تونس وسلطانها يومئذ أبو اسحق ابراهيم ابن السلطان أبي يحيى في كفالة شيخ الموحّدين أبي محمد بن تافراكين، فأسلمه إلى سفيره. وركب معه البحر في أسطول أبي عنان الذي جاء فيه السفير، ومرّ ببجاية ودخلها، وأقام بها شهراً، حتى قرأ عليه طلبة العلم بها مختصر ابن الحاجب في أصول الفقه برغبتهم في ذلك منه ومن صاحب الأسطول. ثم ارتحل ونزل بمرسى هُنَيْن وقدم على أبي عنان بتلمسان، وأحلّه محل التكرمة، ونظمه في طبقة أشياخه من العلماء. وكان يقرأ عليه ويأخذ عنه إلى أن هلك بفاس سنة سبع

---

(١) وفي نسخة ثانية: فصعد إليه شيخنا.

(٢) وفي نسخة ثانية: صحابة.

وخمسين وسبعمائة . وأخبرني رحمه الله أن مولده بتلمسان سنة إحدى وثمانين وستمائة .

(وأمّا عبد المهيمن) كاتب السلطان أبي الحسن ، فأصله من سبتة ، وبيتهم بها قديم ، ويعرفون ببني عبد المُهَيْمِن وكان أبوه محمد قاضيها أيام بني العُزَفي . ونشأ ابنه عبد المهيمن في كفالته وأخذ عن مشيختها واختصّ بالأستاذ أبي اسحق الغافقي [1] ، ولما ملك عليهم الرئيس أبو سعيد صاحب الأندلس سبتة ، ونقل بني العزفي مع جملة أعيانها إلى غرناطة ، ونقل معهم القاضي محمد بن عبد المهيمن وابنه عبد المهيمن ، فاستكمل قراءة العلم هنالك وقرأ على مشيختها ابن الزبير ونظرائه [2] ، وتقدّم في معرفة كتاب سيبويه ، وبرز في علوّ الإسناد ، وكثرة المشيخة . وكتب له أهل المغرب والأندلس والمشرق ، واستكتبه رئيس الأندلس يومئذ الوزير أبو عبدالله ابن الحكيم الرُنْدِي ، المستبد على السلطان المخلوع ابن الأحمر [3] فكتب عنه ونظمه في طبقة الفضلاء الذين كانوا بمجلسه ، مثل المحدّث أبي عبدالله بن سيد الفِهْرِي [4] وأبي العبّاس أحمد العزفي ، والعالم الصوفيّ المتجرّد أبي عبدالله محمد بن خميس التلمساني ، وكانا لايجاريان في البلاغة والشعر إلى غير هؤلاء ممن كان مختصًّا به ، وقد ذكرهم ابن الخطيب في تاريخ غرناطة . فلما انكب الوزير الحكيم [5] ، وعادت سبتة إلى طاعة بني مرين ، عاد عبد المهيمن إليها واستقر بها . ثم وَلِيَ الأمر أبو سعيد وغلب عليه ابنه أبو علي ، واستبدّ بحمل الدولة . تشوّف إلى استدعاء الفضلاء ، وتجمّل بمكانهم ، فاستقدم عبد المهيمن من سبتة واستكتبه سنة اثنتي عشرة وسبعمائة . ثم خالف على أبيه سنة أربع عشرة وسبعمائة ، وامتنع بالبلد الجديد ، وخرج منها إلى سجلماسة لصلح عقده مع أبيه ، فتمسّك السلطان أبو سعيد بعبد المهيمن واتخذه كاتباً إلى أن دفعه إلى رياسة الكتّاب ، ورسم علامته في الرسائل

---

(١) هو ابراهيم بن أحمد بن عيسى الاشبيلي ابو إسحق ، عرف بالغافقي ، دخل سبته وولي القضاء بها . توفي سنة ٧١٦ هـ (الدرر الكامنة ١٣/١) .

(٢) وفي نسخة ثانية : وأخذ عن أبي جعفر بن الزبير ونظرائه .

(٣) وفي نسخة ثانية : السلطان المخلوع من بني الأحمر وهو محمد بن محمد بن محمد بن نصر ، يكنى (أبا عبدالله) ثالث ملوك بني الأحمر (٦٥٥ — ٧١٣) وهو الذي بنى مسجد الحمراء الأعظم بغرناطة .

(٤) وفي نسخة ثانية : المحدّث أبي عبدالله بن رُشَيْد الفهري وهو أبو عبدالله محمد بن عمر بن محمد بن رشيد الفهري السبتي ، محدّث ورحالة مشهور .

(٥) الوزير ابن الحكيم أو الوزير الشاعر أبو عبدالله الرندي محمد بن عبد الرحمن بن ابراهيم وشهرته ابن الحكيم . راجع : الاحاطة في تاريخ غرناطة ج ٣٧٨/٢ .

والأوامر ، فتقدّم لذلك سنة ثمان عشرة وسبعمائة ، ولم يزل عليها سائر أيام السلطان أبي سعيد وابنه أبي الحسن . وسار مع أبي الحسن إلى أفريقية ، وتخلّف عن واقعة القيروان بتونس ، لما كان به من علّة النقرس . فلمّا كانت الهيعة بتونس ، ووصل خبر الواقعة ، وتحيّز أولياء السلطان إلى القصبة مع حُرَمِهِ ، تسرّب عبد المهيمن في المدينة منتبذاً عنهم ، وتوارى في بيتنا خشية أن يصاب معهم بمكروه . فلمّا انجلت تلك الغيابة ، ورجع السلطان من القيروان إلى سوسة وركب منها البحر إلى تونس ، أعرض عن عبد المهيمن لما سخط غيبته عن قومه بالقصبة ، وجعل العلامة لأبي الفضل ابن الرئيس عبدالله بن أبي مَدْيَن[1] وقد كانت من قبل مقصورة على هذا البيت ، وأقام عبد المهيمن عطْلاً من العمل شهراً[2] . ثم اعتبه السلطان ورضي عنه ، وردّ إليه العلامة كما كان ، ثم توفي لأيام قلائل بتونس بالطاعون الجارف سنة تسع وأربعين وسبعمائة ومولده سنة خمس وسبعين وستمائة من المائة قبلها ، وقد استوعب ابن الخطيب التعريف به في تاريخ غرناطة ، فليُطَالَع هناك من أحبّ الوقوف عليه .

(وأمّا ابن رضوان) الذي ذكره الرّحويّ في قصيدته ، فهو أبو القاسم عبدالله بن يوسف بن رضوان البحاري[3] أصله من الأندلس ، نشأ بمالقة ، وأخذ عن مشيختها ، وحذق في العربية والأدب ، وتفنّن في العلوم ونظم ونثر ، وكان مجيداً في الترسيل ، ومحسناً في كتابة الوثائق . وارتحل بعد واقعة طريف ونزل سبتة ، ولقي بها السلطان أبا الحسن[4] ومدحه وأجازه ، واختصّ بالقاضي ابراهيم بن يحيى[5] وهو يومئذ قاضي العساكر وخطيب السلطان ، وكان يستنيبه في القضاء والخطابة ، ثم نظمه في جملة الكتّاب بباب السلطان . واختصّ بخدمة عبد المهيمن رئيس الكتّاب

---

(١) هو عبدالله بن أبي مدين شعيب العثماني كان في خدمة بني مرين فاشتهر ، فقلّدوه الحجابة ورياسة الكتّاب . ولد بقصر كتامة ونشأ بمكناسة وتعلم بها .

(٢) وفي نسخة ثانية : مدة أشهر .

(٣) او البخاري كما في نسخة أخرى .

(٤) هو السلطان أبو الحسن علي بن أبي سعيد بن يعقوب المريني المتوفي سنة ٧٥٢ هـ (شذرات الذهب) ١٧٢/٦ .

(٥) هو ابراهيم بن عبد الرحمن بن أبي بكر التسولي التازي أبو إسحق ، ويعرف بابن أبي يحيى المتوفي بعد سنة ٧٤٨ (الإحاطة في تاريخ غرناطة ٢١٧/١) .

والأخذ عنه ، إلى أن رحل السلطان إلى أفريقية ، وكانت واقعة القيروان ، وانحصر بالقصبة بتونس مع من انحصر بها من أشياعه مع أهله وحرمه . وكان السلطان قد خلّف ابن رضوان في بعض خدمته ، فجلا عند الحصار فيما عرض لهم من المكاتبات . وتولّى كبر ذلك ، فقام فيه أحسن قيام إلى أن وصل السلطان من القيروان ، فرعى له حق خدمته تأنيساً وقرباً ، وكثرة استعمال إلى أن رحل من تونس في الأسطول إلى المغرب سنة خمسين وسبعمائة كما مرّ . واستخلف بتونس ابنه أبا الفضل ، وخلّف أبا القاسم بن رضوان كاتباً له ، فأقاما كذلك أياماً . ثم غلبهم على تونس سلطان الموحّدين الفضل ابن السلطان أبي يحيى . ونجا أبو الفضل إلى أبيه ، ولم يُطِق ابن رضوان الرحلة معه ، فأقام بتونس حولاً ، ثم ركب البحر إلى الأندلس ، وأقام بالمَرِيّـة مع جملة من هنالك من أشياع السلطان أبي الحسن ، كان فيهم عامر ابن محمد بن علي شيخ هِنْتَاتَـة كافلاً لحرم السلطان أبي الحسن وابنه . أركبهم السفين معه من تونس عندما ارتحل ، فخلص إلى الأندلس ، ونزلوا بالمريّـة وأقاموا بها تحت جراية سلطان الأندلس ، فلحق بهم ابن رضوان وأقام معهم . ودعاه أبو الحجّاج سلطان الأندلس[1] الى أن يستكتبه فامتنع ، ثم هلك السلطان أبو الحسن وارتحل مخلّفه الذين كانوا بالمريّـة ، ووفدوا على السلطان أبي عنان ، ووفد معهم ابن رضوان ، فرعى له وسائله في خدمة أبيه ، واستكتبه واختصّه بشهود مجلسه مع طلبة العلم بحضرته . وكان محمد بن أبي عمرو يومئذ رئيس الدولة ، ونجيّ الخلوة وصاحب العلامة ، وحسبان الجباية والعساكر ، قد غلب على هوى السلطان ، واختص به ، فاستخدم له ابن رضوان حتى علق منه بذمّـة[2] ، ولايةً وصحبةً وانتظام في السَـمَر ، وغشيان المجالس الخاصة ، وهو مع ذلك يدنيه من السلطان . وينفق سوقه عنده ، ويستكفي به في مواقف خدمته إذا غاب عنها لما هو أهمّ ، فحلا بعين السلطان ونفقت عنده فضائله . فلما سار أبو عمرو في العساكر إلى بجاية سنة أربع وخمسين وسبعمائة انفرد ابن رضوان بعلامة الكتاب عن السلطان ، ثم رجع ابن أبي عمرو وقد سخطه السلطان ، فأقصاه إلى بجاية وولاّه

(١) ابو الحجاج هذا ، هو يوسف بن اسماعيل ابن الأحمر (٧١٨ — ٧٥٥) هو سابع ملوك بني الأحمر تولى الحكم سنة ٧٣٤ .

(٢) وفي نسخة ثانية : بذمه .

عليها ، وعلى سائر أعمالها ، وعلى حرب الموحّدين بقسنطينة . وأفرد ابن رضوان بالكتابة ، وجعل إليه العلامة كما كانت لابن أبي عمرو ، فاستقلّ بها موفَّرَ الاقطاع والإسهام والجاه . ثم سخطه آخر سبع وخمسين وسبعمائة وجعل العلامة لمحمد بن أبي القاسم بن أبي مَـدْيَـن والإنشاء والتوقيع لأبـي اسحق ابراهيم بن الحاج الغرناطي [١] ، فلما كانت دولة السلطان أبي سالم [٢] جعل العلامة لعلي بن محمد بن مسعود [٣] صاحب ديوان العساكر والإنشاء والتوقيع والسرّ لمؤلف الكتاب عبد الرحمن ابن خلدون . ثم هلك أبو سالم سنة اثنتين وستين وسبعمائة واستبدّ الوزير عمر بن عبدالله على من كفله من أبنائه ، فجعل العلامة لابن رضوان سائر أيامه ، وقتله عبد العزيز ابن السلطان أبي الحسن ، واستبدّ بملكه ، فلم يزل ابن رضوان على العلامة ، وهلك عبد العزيز ووَلِـيَ ابنه السعيد في كفالة الوزير أبي بكر بن غازي بن الكاس وابن رضوان على حاله ، ثم غلب السلطان أحمد على الملك وانتزعه من السعيد ، وأبي بكر بن غازي ، وقام بتدبير دولته محمد بن عثمان بن الكاس ، مستبدّاً عليه ، والعَلاَمَة لابن رضوان كما كانت إلى أن هلك بأزمور [٤] في حركة السلطان أحمد إلى مراكش ، لحصار عبد الرحمن بن أبي يفلوسن ابن السلطان أبي علي .

* وكان في جملة السلطان أبي الحسن جماعة كثيرة من فضلاء المغرب وأعيانه ، هلك كثير منهم في الطاعون الجارف بتونس ، وغرق جماعة منهم في أسطوله لمّا غرق ، وتخطّت النكبة منهم آخرين إلى أن استوفوا ما قُـدِّرَ من آجالهم .

(فمن حضر معه بأفريقية) الفقيه أبو عبدالله محمد بن أحمد الزَوَاويّ شيخ القرّاء بالمغرب ، أخذ العلم والعربية عن مشيخة فاس ، وروى عن الرحّالة أبي عبدالله بن رشيد ، وكان إماماً في فن القراءات وصاحب مَلَكَة فيها لا يجاري . وله مع ذلك

(١) النميري أبو إسحق يعرف بابن الحاج ولد سنة ٧١٣ وهو ابراهيم بن عبدالله بن ابراهيم ... راجع (الإحاطة ١٩٣/١) .

(٢) أبو سالم هو ابراهيم ابن السلطان أبي الحسن وشقيق السلطان أبي عنان فارس .

(٣) كنيته أبو الحسن من الأندلس نشأ في بيت علم وكان فقيهاً أديباً لغوياً ، قدم مع أبيه الى تلمسان واسمه علي بن محمد بن أحمد بن موسى بن سعود الخزاعي .

(٤) ذكرها ياقوت تحت اسم : أزمورة : ثلاث ضمات متواليات وتشديد الميم والواو ساكنة وراء مهملة : بلد بالمغرب في جبال البربر (معجم البلدان) .

صوت من مزامير آل داود[1] وكان يصلّي بالسلطان التراويح ويقرأ عليه بعض الأحيان حزبه .

(وممن حضر معه) بأفريقية الفقيه أبو عبدالله محمد بن محمد بن الصبّاغ من أهل مكناسة ، كان مبرّزاً في المعقول والمنقول ، وعارفاً بالحديث وبرجاله ، وإماماً في معرفة كتّاب الموطّأ وإقرائه ، أخذ العلوم عن مشيخة فاس ومِكْنَاسَة ، ولقي شيخنا أبا عبدالله الأيلّي ، ولازمه وأخذ عنه العلوم العقلية ، فاستنفد بقيّة طلبه عليه ، فبرز آخراً ، واختاره السلطان لمجلسه واستدعاه ، ولم يزل معه إلى أن هلك غريقاً في ذلك الأسطول .

(ومنهم القاضي أبو عبدالله) محمد بن عبدالله بن عبد النور من أعمال نَدْرُومَة ونسبه في صنهاجة كان مبرّزاً في الفقه على مذهب الإمام مالك بن أنس ، تفقّه فيه على الأخوين أبي زيد وأبي موسى ابني الإمام ، وكان من جملة[2] أصحابهما .
ولما استولى السلطان أبو الحسن على تلمسان رفع من منزلة ابني الإمام واختصهما بالشورى في بلدهما . وكان يستكثر من أهل العلم في دولته ، ويجري لهم الأرزاق ويَعْمُرُ بهم مجلسَه ، فطلب يومئذ من ابن الإمام أن يختار له من أصحابه من ينظمه في فقهاء المجالس ، فأشار عليه بابن عبد النور هذا ، فأدناه وقرّب مجلسه ، وولاّه قضاء عسكره ، ولم يزل في جملته إلى أن هلك بالطاعون بتونس سنة تسع وأربعين وسبعمائة وكان قد خلف أخاه عليًّا رفيقه في تدريس ابن الإمام إلاّ أنه أقصر باعاً منه في الفقه . فلمّا خلع السلطان أبو عنان طاعة أبيه السلطان أبي الحسن ، ونهض إلى فاس ، استنفره في جملته وولاّه قضاء مكناسة ، فلم يزل بها حتى تغلّب عمر بن عبدالله على الدولة كما مرّ ، فنزع إلى قضاء فرضه فسرّحه . فخرج حاجًّا سنة أربع وستين وسبعمائة فلمّا قدم على مكة وكان به بقية مرض ، هلك في طواف القدوم .
وأوصى أمير الحاج على ابنه محمد ، وأن يبلغ وصيته به للأمير المتغلّب على الديار المصرية يومئذ يلبغا الخاصكي[3] فأحسن خلافته فيه وولاّه من وظائف الفقهاء ما

---

(١) يروى ابن أبي موسى الاشعري أنه كان يقرأ القرآن ، فسمعه النبي (صلعم) فقال : اعطيت مزماراً من مزامير آل داود يعني بذلك حسن صوته (تاج العروس ٣٤٠/٣) .
(٢) وفي نسخة ثانية : جلّة .
(٣) هو يلبغا بن عبدالله الخاصكي الناصري الأمير الكبير الشهير . أول ما أمّره الناصر حسن مقدم الف بعد موت تنكره ثم كان يلبغا راس من قام على استاذه الناصر حسن حتى قتل وتسلطن المنصور محمد بن

سدّ به خلّته ، وصان عن سؤال الناس وجهه ، وكان له عفا الله عنه كلف بعلم الكيمياء ، طالباً لمن غلط في ذلك وأمثاله[1] . فلم يزل يعاني من ذلك ما يورّطه مع الناس في دينه وعرْضه إلى أن دعته الضرورة للترحّل عن مصر، ولحق ببغداد وناله مثل ذلك . فلحق بماردين[2] واستقرّ عند صاحبها ، فأحسن جواره إلى أن بلغنا بعد التسعين أنه هلك هنالك حتف أنفه والبقاءلله وحده .

(ومنهم شيخ التعاليم) أبو عبدالله محمد بن النجّار من أهل تلمسان ، أخذ العلم ببلده عن مشيختها ، وعن شيخنا الأبُلّي وبرّز عليه . ثم ارتحل إلى المغرب فلقي بسبتة إمام التعاليم أبا عبدالله محمد بن هلال شارح المِجَسْطِيّ في الهيئة ، وأخذ بمراكش عن الإمام أبي العبّاس بن البنّاء ، وكان إماماً في علم النجامة وأحكامها ، وما يتعلّق بها ، ورجع إلى تلمسان بعلم كثير ، واستخلصته الدولة . فلمّا هلك أبو تاشفين وملك السلطان أبو الحسن نظمه في جملته وأجرى له رزقه ، فحضر معه بأفريقية وهلك في الطاعون .

(ومنهم) أبو العبّاس أحمد بن شُعَيْب[3] من أهل فاس ، برع في الأدب واللسان والعلوم العقلية ، من الفلسفة والتعاليم والطب وغيرها . ونظمه السلطان أبو سعيد في جملة الكتّاب وأجرى عليه رزق الأطبّاء لتقدّمه فيه ، فكان كاتبه وطبيبه ، وكذا مع السلطان أبي الحسن بعده ، فحضر بأفريقية وهلك بها في ذلك الطاعون . وكان له شعر سابَقَ بِهِ الفحول من المتقدّمين والمتأخّرين ، وكانت له إمامة في نقد الشعر وبصره ، وما حضرني الآن من شعره إلا قوله :

حاجي ... وعندما تسلطن الاشرف شعبان تناهت الى يلبغا الرياسة ولقب نظام الملك وصار إليه الأمر والفهي وهو السلطان في الباطن ... (شذرات الذهب ٢١٢/٦) .

(١) وفي نسخة ثانية : كلف بعمل الكيمياء ، تابعاً لمن غلط في ذلك من أمثاله .

(٢) ماردين : قلعة مشهورة على قنّة جبل الجزيرة مشرفة على دنيسر ووراء ونصيبين وذلك الفضاء الواسع مشهورة بمدارسها وخاناتها ودورها وهي كالدرج ، كل دار فوق الأخرى وكل درب منها يشرف على ما تحته من الدور ، ذكرها جرير في قوله :

يــــا خزر تغلب إن اللؤم حـــالفكم ... ما دام في ماردين الزيت يعتصر. (معجم البلدان)

ويطلق هذا الاسم اليوم على اقليم واسع من تركيا .

(٣) هو احمد بن شعيب الجزنائي التازي نزيل فاس . كتب للسلطان أبي الحسن المريني وتوفي بتونس سنة ٧٥٠ هـ .

دارُ الهوى نَجْدٌ وساكنُها أقصى أمانيّ النفس من نَجْدِ
هل باكَرَ الوسميُّ ساحتَها واستَنَّ في قِيعانها الجُرْدِ
أو باتَ معتلُّ النسيم بها مُسْتَشْفِياً بالبَانِ والرَّنْدِ
يتلو أحاديث الذين هُمْ قَصْدي وإن جاروا عن القصدِ
أيامَ سُمْرُ ظلالِها وطني مِنْها وزُرْقُ مِياهِهَا وِردي
ومطارِحُ النظراتِ في رَشَاءِ أحْوَى المدامع أهيفُ القَدِّ
يرنو إليكَ بعين جارِيَةٍ قُتِلَ المُحِبُّ بها على عَمْدِ
حتى أجدّ بهم على عَجَلٍ رَيْبَ الخطوب وعاثِرِ الجدِّ
فقِدوا فما وأبيك بعدَهم عيشي شفى إلاَّ على الفقد[1]
وغدوا دفيناً قد تضمّنَه بطنُ الثري وقرارة اللّحدِ
ومشرّداً من دون رؤيتِه قُذُفُ النَّوَى وتَنُوفة البُعْد
أجرى عليّ العيش بعدَهُم أني جرعت حميمهم وَحْدِي[2]
لا تَلْحِنِي يا صاح في شَجَنٍ أخفيتُ مِنْهُ فوقَ ما أُبْدِي
بالقرب لي سكنٌ يؤوّ بني من ذكره سُهْدٌ على سُهْدِ
فَرْخَانِ قد تُرِكا بمَضْيَعَةٍ رزئت[3] عن الرّفداء والرُّفْدِ

(ومنهم) صاحبنا الخطيب أبو عبدالله محمد بن أحمد بن مرزوق من أهل تلمسان ، كان سلفه نزلاء الشيخ أبي مَدْيَن بالعُبّاد ، ومتوارثين خدمة تربته من لدن جدّهم خادمه في حياته . وكان جدّه الخامس أو السادس واسمه أبو بكر بن مرزوق معروفاً بالولاية فيهم . ولما هلك دفنه يغمراسن[4] بنِ زيّان السلطان بتلمسان من بني عبد الواد في التربة بقصره ، ليُدفن بإزائه متى قُدِّرَ بوفاته . ونشأ محمد هذا بتلمسان ، ومولده فيما أخبرني سنة عشر وسبعمائة[5] ، وارتحل مع أبيه إلى المشرق سنة ثمان عشرة

---

(١) وفي نسخة ثانية : فقدوا فلا وابيك بعدهم   ما عشت لا آسي على الفقد .
(٢) وفي نسخة ثانية : اني فقدت جميعهم وحدي .
(٣) وفي نسخة ثانية : زويت .
(٤) يغمراسن بن زيان بن ثابت بن محمد السلطان من بني عبد الواد ، كان من اشد بني عبد الواد بأساً ، وكانت له في النفوس مهابة ، ولي الملك سنة ٧٣٣ ، ودان له المغرب الأوسط وتلمسان .
(٥) ما ذكره ابن خلدون عن مولد تاريخ ابن مرزوق يختلف عما ذكره ابن الخطيب في الإحاطة حيث يقول أنه ولد سنة ٧١١ هـ بدل ٧١٠ هـ .

وسبعمائة ومرّ ببجاية فسمع بها على الشيخ أبي علي ناصر الدين ودخل الشرق . وجاور أبوه بالحرمين الشريفين ، ورجع هو إلى القاهرة وأقام بها . وقرأ على برهان الدين الصّفاقُصِيّ المالكيّ وأخيه . وبرع في الطلب والرواية ، وكان يجيد الخطّين . ثم رجع سنة ثلاث وثلاثين وسبعمائة الى المغرب ولقي السلطان أبا الحسن بمكانه من حصار تلمسان ، وقد شيد بالعبّاد مسجداً عظيماً ، وكان عمّهُ ابن مرزوق خطيباً به على عادتهم في العبّاد . وتوفي فولاّه السلطان خطابة ذلك المسجد مكان عمّه . وسمعه يخطب على المنبر ويشيد بذكره والثناء عليه ، فحلا بعينه واختصّه وقرّبه ، وهو مع ذلك يلازم مجلس الشيخين ابني الإمام ، ويأخذ نفسه بلقاء الفضلاء والأكابر والأخذ عنهم ، والسلطان كل يوم يزيد ترقّيه[1] ، وحضر معه واقعة طريف التي كان فيها تمحيصُ المسلمين ، فكان يستعمله في السفارة عنه إلى صاحب الأندلس . ثم سفر عنه بعد أن ملك أفريقية إلى ابن أدفونش ملك قشتالة في تقرير الصلح ، واستنقاذ ابنه أبي عمر تاشفين . كان أسر يوم طريف فغاب في تلك السفارة عن واقعة القيروان . ورجع بتاشفين مع طائفة من زعماء النصرانيّة جاؤا في السفارة عن مَلِكِهِم ، ولقيهم خبر واقعة القيروان بقسنطينة من بلاد أفريقية ، وبها عامل السلطان وحاميته ، فثار أهل قسنطينة بهم جميعاً ونهبوهم ، وخطبوا للفضل ابن السلطان أبي يحيى ، وراجعوا الموحّدين ، واستدعوه فجاء إليهم وملك البلد . وانطلق ابن مرزوق عائداً إلى المغرب مع جماعة من الأعيان ، والعمّال والسفراء عن الملوك . ووفد على السلطان أبي عنان مع أمة حظية أبي الحسن وأثيرته . كانت راحلة إليه ، فأدركها الخبر بقسنطينة ، وحضرت الهيعة . فوثب ابنها أبو عنان على ملك أبيه واستيلائه على فاس ، فرجعت إليه وابن مرزوق في خدمتها . ثم طلب اللحاق بتلمسان فسرّحوه إليها ، وأقام بالعبّاد مكان سلفه . وعلى تلمسان يومئذ أبو سعيد عثمان بن عبد الرحمن بن يغمراسن بن زيّان قد بايع له قبيلة بني عبد الواد بعد واقعة القيروان بتونس ، وابن تافراكين يومئذ محاصر للقصبة كما مرّ في أخبارهم . وانصرفوا إلى تلمسان فوجدا بها أبا سعيد عثمان بن جرّار اقد استعمله عليها السلطان أبو عنان عند انتقاضه على أبيه ، ومسيره إلى فاس ، وانتقض ابن جرّار من بعده ، ودعا لنفسه ، وصمد إليه عثمان بن

(١) وفي نسخة ثانية : والسلطان في كل يوم يزيده رتبة .

عبد الرحمن ومعه أخوه أبو ثابت وقومهما ، فملكوا تلمسان من يد ابن جرّار وحبسوه ثم قتلوه . واستبدّ أبو سعيد بملك تلمسان وأخوه أبو ثابت يردفه ، وركب السلطان أبو الحسن البحر من تونس وغرق أسطوله ونجا هو إلى الجزائر فاحتل بها ، وأخذ في الحشد إلى تلمسان ، فرأى أبو سعيد أن يكفّ غربه عنهم ، بمواصلة تقع بينهما ، واختار لذلك الخطيب ابن مرزوق(١) فاستدعاه وأسرّ إليه بما يلقيه عند السلطان أبي الحسن ، وذهب لذلك على طريق الصحراء . وأطلّ أبو ثابت وقومه على الخبر فنكروه على أبي سعيد وعاتبوه فأنكر ، فبعثوا صغير بن عامر في اعتراض ابن مرزوق فجاء به وحبسوه أياماً . ثم أجازوه البحر إلى الأندلس فنزل على السلطان أبي الحجّاج بغرناطة ، وله إليه وسيلة منذ اجتماعه به بمجلس السلطان أبي الحسن بسبتة إثر واقعة طريف ، فرعى له أبو الحجّاج ذمّة تلك المعرفة ، وأدناه واستعمله في الخطابة بجامعة بالحمراء . فلم يزل خطيبه إلى أن استدعاه السلطان أبو عنان سنة أربع وخمسين وسبعمائة بعد مهلك أبيه ، واستيلائه على تلمسان وأعمالها ، فقدم عليه ورعى له وسائله ، ونظمه في أكابر أهل مجلسه . وكان يقرأ الكتب بين يديه في مجلسه العليّ(٢) ويدرّس في نوبته مع من يدرّس في مجلسه منهم . ثم بعثه إلى تونس عام ملكها سنة ثمان وخمسين وسبعمائة ليخطب له ابنه السلطان أبي يحيى ، فردّت تلك الخطبة واختفت بتونس . ووُشِيَ إلى السلطان أبي عنان أنه كان مطلعاً على مكانها ، فسخطه لذلك ورجع السلطان من قسنطينة ، فثار أهل تونس بمن كان بها من عمّاله وحاميته . واستقدموا أبا محمد بن تافراكين من المهديّة ، فجاء وملك البلد . وركب القوم الأسطول ونزلوا بمراسي تلمسان . وأوعز السلطان باعتقال ابن مرزوق ، وخرج لذلك يحيى بن شعيب من مقدّمي الحجّاب(٣) ببابه ، فلقيه بتاسالت فقيّده هنالك . وجاء به فأحضره السلطان وقرّعه ، ثم حبسه مدّة وأطلقه بين يدي مهلكه .

واضطربت الدولة بعد موت السلطان أبي عنان ، وبايع بعض بني مرين لبعض الأعياص من بني يعقوب بن عبد الحق . وحاصروا البلد الجديد ، وبها ابنه السعيد ووزيره المستبدّ عليه الحسن بن عمر ، وكان السلطان أبو سالم بالأندلس غرّبه إليها

(١) وفي نسخة ثانية : ابن مرزوي .
(٢) وفي نسخة ثانية : العلمي .
(٣) وفي نسخة ثانية : الجنادرة وهو تحريف .

اخوه السلطان أبو عنان مع بني عمّهم ولد السلطان أبي علي بعد وفاة السلطان أبي الحسن ، وحصولهم جميعاً في قبضته . فلما توفي أراد أبو سالم النهوض لملكه بالمغرب ، فمنعه رضوان القائم يومئذ بملك الأندلس مستبدّاً على ابن السلطان أبي الحجّاج ، فلحق هو بإشبيلية من دار الحرب ، ونزل على بِطْرَة[1] ملكهم يومئذ ، فهيّأ له السفن وأجازه إلى العدوة فنزل ، بجبل الصفيحة من بلاد غمارة ، وقام بدعوته بنو مسير[2] وبنو منير أهل ذلك الجبل منهم ، ثم أمدّوه واستولى على ملكه في خبر طويل ذكرناه في أخبار دولته . وكان ابن مرزوق يداخله وهو بالأندلس ويستخدم له ، ويفاوضه في أموره وربما كان يكاتبه ، وهو بجبل الصفيحة ، ويداخل زعماء قومه في الأخذ بدعوته . فلمّا ملك السلطان أبو سالم رعى له تلك الوسائل أجمع ، ورفعه على الناس ، وألقى عليه محبّته وجعل زمام الأمور بيده ، فوطىء الناس عَقِبه وغشى أشراف الدولة بابَه ، وصُرِفَت الوجوه إليه ، فَمَرِضَت لذلك قلوب أهل الدولة ونقموه على السلطان ، وتربّصوا به حتى وثب عبدالله بن عمر بالبلد الجديد ، وافترق الناس عن السلطان . وقتله عمر بن عبدالله آخر إثنتين وستين وسبعمائة وحبس ابن مرزوق وأغرى به سلطانه الذي نصبه ، محمد بن أبي عبد الرحمن بن أبي الحسن فامتحنه واستصفاه ، ثم أطلقه بعد أن رام كثير من أهل الدولة قَتْلَه فمنعه منهم . ولحق بتونس سنة أربع وستين وسبعمائة ونزل على السلطان أبي اسحق وصاحب دولته المستبدّ عليه أبي محمد بن تافراكين ، فأكرموا نزله وولّوه الخطابة بجامع الموحّدين بتونس . وأقام بها إلى أن هلك السلطان أبو اسحق سنة سبعين وسبعمائة وولي ابنه خالد . وزحف السلطان أبو العبّاس حافد السلطان أبي يحيى من مقرّه بقسنطينة إلى تونس فملكها ، وقتل خالداً سنة إثنتين وسبعين وسبعمائة .

وكان ابن مرزوق يستريب منه لما كان يميل وهو بفاس مع ابن عمّه محمد صاحب بجاية ، ويؤثره عند السلطان أبي سالم عليه ، فعزله السلطان أبو العبّاس عن الخطبة بتونس ، فوَجَمَ لها وأجمع الرحلة إلى المشرق . وسرّحه السلطان فركب السفن ونزل بالإسكندريّة ، ثم رحل إلى القاهرة ولقي أهل العلم وأمراء الدولة ، ونفقت بضائعه

---

(١) بطرة بطاء فوقها نقطتان : اشارة الى أن نطقها بين الطاء والتاء وهذا ما أشار اليه ابن خلدون في مقدمته .
(٢) وفي نسخة ثانية : بنو مثنى .

عندهم ، وأوصلوه إلى السلطان وهو يومئذ الأشرف[1] . فكان يحضر يومئذ مجلسه وولّاه الوظائف العلمية ، فكان ينتجع منها معاشه . وكان الذي وصل حبله بالسلطان أستاذ داره محمد بن آقبغا آص[2] لقيه أوّل قدومه فحلا بعينه ، واستظرف جملته ، فسعى له وأنجح سعايته ، ولم يزل مقيماً بالقاهرة موقّر الرتبة معروف الفضيلة ، مرشّحا لقضاء المالكية ملازماً للتدريس في وظائفه إلى أن هلك سنة إحدى وثمانين وسبعمائة هكذا ذكر من حضره من جملة السلطان أبي الحسن من أشياخنا وأصحابنا ، وليس موضوع الكتاب الإطالة ، فلنقتصر على هذا القدر ، ونرجع إلى ماكنّا فيه من أخبار المؤلف .

* (ولاية العلامة بتونس ثم الرحلة بعدها الى المغرب والكتابة على السلطان أبي عنان) *

ولم أزل منذ نشأت وناهزت مكبّاً على تحصيل العلم ، حريصاً على اقتناء الفضائل ، متنقّلاً بين دروس العلم وحلقاته ، إلى أن كان الطاعون الجارف ، وذهب الأعيان والصدور وجميع المشيخة ، وهلك أبواي رحمهما الله . ولزمت مجلس شيخنا أبي عبدالله الأبـلّي ، وعكفتُ على القراءة عليه ثلاث سنين إلى أن شَدَوْتُ بعضَ الشيء ، واستدعاه السلطان أبو عنان فارتحل إليه ، واستدعاني أبو محمد بن تافراكين المستبدّ على الدولة يومئذ بتونس إلى كتابة العلامة عن السلطان أبي اسحق . مذ نهض إليه من قسنطينة صاحبها أبو زيد حافد السلطان أبي يحيى في عساكره ، ومعه العرب أولاد مهلهل الذين استنجدوه لذلك ، فخرج ابن تافراكين وسلطانه أبو اسحق مع العرب أولاد أبي الليل ، وبثّ العطاء في عسكره ، وعمّر له المراتب والوظائف . وتعلّل عليه صاحب العالمة أبو عبدالله محمد بن علي بن عمر بالاستزادة من العطاء ، فعزله وأداني منه ، فكتبت العلامة عن السلطان ، وهي «الحمدلله والشكر لله» بالقلم الغليظ ما بين البسملة وما بعدها من مخاطبة أو مرسوم . وخرجت

---

(١) السلطان الاشرف هو ابو المفاخر شعبان بن حسين بن محمد بن قلاوون (٧٥٤ — ٧٧٨) تولى الملك سنة ٧٦٤ هـ .

(٢) هو الأمير ناصر الدين محمد بن آقبغا آص المتوفي سنة ٧٩٥ هـ .

معهم أوّل سنة ثلاث وخمسين وسبعمائة وقد كنت منطوياً على الرحلة من أفريقية لما أصابني من الاستيحاش لذهاب أشياخي وعطلاني[1] عن طلب العلم. فلما رجع بنو مرين إلى مراكزهم بالمغرب وانحسر تيّارهم عن أفريقية، وأكثر من كان معهم من الفضلاء صحابة وأشياخ، فاعترمت على اللحاق بهم. وصدّني عن ذلك أخي وكبيري محمد رحمه الله، فلما دُعيتُ إلى هذه الوظيفة سارعت إلى الإجابة لتحصيل غرضي من اللحاق بالمغرب، وكان كذلك، فإنّا لمّا خرجنا من تونس نزلنا بلاد هوّارة، وزحفت العساكر بعضها إلى بعض بفحص مَرْمَا جَنَّة وانهزم صفُّنا ونجوت أنا إلى أُبّة، فأقمت بها عند الشيخ عبد الرحمن الوسناني[2] من كبراء المرابطين، ثم تحوّلت إلى سبتة ونزلت بها على محمد بن عبدون صاحبها، فأقمت عنده ليالي حتى هيّأ لي الطريق مع رفيق من المغرب[3]، وسافرت إلى قَفْصَة، وأقمت بها أياماً حتى قدم علينا بها الفقيه محمد ابن الرئيس منصور بن مزني، وأخوه يوسف يومئذ صاحب الزاب وكان هو بتونس، فلمّا حاصرها الأمير أبو زيد خرج إليه فكان معه. فلمّا بلغهم الخبر بأنّ السلطان أبا عنان ملك المغرب، نهض إلى تلمسان فملكها، وقتل سلطانها عثمان بن عبد الرحمن، وأخاه أبا ثابت وأنه انتهى الى المدية وملك بجاية من يد صاحبها الأمير أبي عبدالله من حفدة السلطان أبي يحيى، وراسله عندما أطلّ على بلده، فسار إليه، ونزل له عنها. وصار في جملته، وولي أبو عنان على بجاية عمر ابن علي شيخ بني وطّاس من بني الوزير شيوخهم. فلمّا بلغهم هذا الخبر أجفل الأمير عبد الرحمن من مكانه عن حصار تونس، ومرّ بقَفْصَة فدخل إلينا محمد بن مزني ذاهباً إلى الزاب، فرافقته إلى بسكرة، ودخلت إلى أخيه هنالك، ونزل هو بعض قرى الزاب تحت جراية أخيه إلى أن انصرم الشتاء.

وكان أبو عنان لما ملك بجاية ولّى عليها عمر بن علي بن الوزير من شيوخ بني وطّاس فجاء فارح مولى الأمير أبي عبدالله لنقل حرمه وولده، فداخل بعض السفهاء من صنهاجة في قتل عمر بن علي فقتله في مجلسه ووثب هو على البلد وأرسل إلى الأمير أبي زيد يستدعيه من قسنطينة، فتمشّت رجالات البلد بينهم خشية من سطوة السلطان.

---

(١) وفي نسخة ثانية: عطلتي.

(٢) وفي نسخة ثانية: الوشتاتي.

(٣) وفي نسخة ثانية: وبذرق لي مع رفيق من العرب، والبذرقة كلمة معرّبه معناها الخفارة او العصمة.

ثم ثاروا بفارح فقتلوه وأعادوا دعوة السلطان كما كانت . وبعثوا عن عامل السلطان بتدلس يَحْيَاتِنْ بن عمر بن عبد المؤمن من شيوخ بني ونكاسن من بني مرين ، فملكوه قيادهم وبعثوا إلى السلطان بطاعتهم ، فأخرج لوقته حاجبه محمد بن أبي عمرو ، واكتنف[1] له الجند وصرف معه وجوه دولته وأعيان بطانته . وارتحلتُ من بسكرة وافداً على السلطان أبي عنان بتلمسان ، فلقيت ابن أبي عمرو بالبطحاء ، وتلقّاني من الكرامة بما لم أحتسبه ، وردّني معه إلى بجاية فشهدت الفتح ، وتسايلت وفود أفريقية إليه . فلمّا رجع إلى السلطان وفدتُ معهم فنالني من كرامته وإحسانه ما لم أحتسبه ، إذ كنت شاباً لم يطرّ شاربي . ثم انصرفتُ مع الوفود ورجع ابن أبي عمرو إلى بجاية ، فأقمت عنده حتى انصرم الشتاء أواخر أربع وخمسين وسبعمائة وعاد السلطان أبو عنان إلى فاس وجمع أهل العلم للتحليق بمجلسه ، وجرى ذِكري عنده وهو ينتقي طلبة العلم للمذاكرة في ذلك المجلس ، فأخبره الذين لقيتهم بتونس عني ووصفوني له ، فكتب إليّ الحاجب يستقدمني ، فقدمت عليه سنة خمس وخمسين وسبعمائة ونظمني في أهل مجلسه العلمي ، وألزمني شهود الصلوات معه ، ثم استعملني في كتابته والتوقيع بين يديه على كره مني ، إذ كنت لم أعهد مثله لسلفي . وعكفت على النظر والقراءة ولقاء المشيخة من أهل المغرب ومن أهل الأندلس الوافدين في غرض السفارة ، وحصلت من الإفادة منهم على البُغْيَة .

وكان في جملته يومئذ الأستاذ أبو عبدالله محمد بن الصفّار من أهل مراكش إمام القرآت لوقته ، أخذ عن جماعة من مشيخة المغرب وكبيرهم شيخ المحدّثين الرحّالة أبو عبدالله محمد بن رشيد الفِهريّ سيّد أهل المغرب ، وكان يعارض السلطان القرآن برواياته السبع إلى أن توفي .

(ومنهم) قاضي الجماعة بفاس أبو عبدالله محمد المغربي[2] صاحبنا ، من أهل تلمسان ، أخذ العلم بها عن أبي عبدالله محمد السَلَويّ[3] وَرَدَ عليها من المغرب خلواً من المعارف . ثم دعته همّته إلى التحلي بالعلم ، فعكف في بيته على مُدارسة القرآن

---

(١) وفي نسخة ثانية : واكتنف .

(٢) وفي نسخة ثانية : المـَقّريّ وهو ابو عبدالله محمد بن محمد بن أحمد بن أبي بكر المقري بتشديد القاف المفتوحة نسبة الى مقرة . او سكون الكاف والميم في الحالتين مفتوحة . (الإحاطة ٢/١٣٦) .

(٣) وفي نسخة ثانية : السلاوي نسبة الى سلاّ .

فحفظه ، وقرأه بالسبع . ثم عكف على كتاب التسهيل في العربية فحفظه ، ثم على مختصر ابن الحاجب في الفقه والأصول فحفظها . ثم لزم الفقيه عمران المشَدَّالي من تلاميذ أبي علي ناصر الدين ، وتفقّه عليه ، وبرز في العلوم إلى حيث لم تلحق غايته . وبنى السلطان أبو تاشفين مدرسة بتلمسان ، فقدّمه للتدريس بها ، يضاهي به أولاد الإمام ، وتفقّه عليه بتلمسان جماعة كان من أوفرهم سهماً في العلوم أبوعبدالله المغربي هذا .

ولما جاء شيخنا أبو عبدالله الأُيُلّي إلى تلمسان عند استيلاء السلطان أبي الحسن عليها ، وكان أبو عبدالله السلوي قد قتل يوم فتح تلمسان ، قتله بعض أشياع السلطان لذنب أسلفه في خدمة أخيه أبي علي بسجلماسة قبل انتحاله العلم ، كان السلطان توعّده عليه ، فقتل بباب المدرسة ، فلزم أبو عبدالله المغربي بعده مجلس شيخنا الأُيلي ومجالس إبني الإمام . واستبْحر في العلم وتفنّن . ولما انتقض السلطان أبو عنان سنة تسع وأربعين وسبعمائة وخلع أباه ، ندبه إلى كتب البيعة فكتبها وقرأها على الناس في يوم مشهود . وارتحل مع السلطان إلى فاس ، فلمّا ملكها عزل قاضيها الشيخ المعمّر أبا عبدالله بن عبد الرزاق وولاّه مكانه ، فلم يزل قاضياً بها إلى أن أسخطه لبعض النزعات الملوكيّة ، فعَزَلَه وأدال منه بالفقيه أبي عبدالله الفشتالي[1] آخر سنة ست وخمسين وسبعمائة ، ثم بعثه في سفارة إلى الأندلس فامتنع من الرجوع . وقام السلطان لها في ركابه ، ونقم[2] على صاحب الأندلس تمسّكه به ، وبعث إليه فيه يستقدمه ، فلاذ ابن الأحمر بالشفاعة فيه ، واقتضى له كتاب أمان بخط السلطان أبي عنان ، وأوفده في جماعة من شيوخ العلم بغرناطة القاطنين بها[3] منهم : شيخنا أبو القاسم الشريف السبتي شيخ الدنيا جلالة وعلماً ووقاراً ورياسةً وإمام اللسان فصاحةً وبياناً[4] وتقدّماً في نظمه ونثره . وترسّلاته . وشيخنا الآخر أبو البركات محمد بن محمد بن الحاج البلقيني[5] من أهل المرية شيخ المحدّثين والفقهاء والأدباء والصوفية والخطباء

---

(١) القشتالي : هو أبو عبدالله محمد بن أحمد القشتالي القاضي بفاس ، كان بيته معموراً بالجود والخير والصلاح ، وكان أبو عبدالله هذا احد اعلام المغرب (الإحاطة ٢/١٣٣) .

(٢) وفي نسخة ثانية : ونكر .

(٣) وفي نسخة ثانية : واوفده مع الجماعة من شيوخ العلم بغرناطة ومنهم القاضيان بغرناطة .

(٤) وفي نسخة ثانية : وامام اللسان حَوْكاً ونقداً .

(٥) وفي نسخة ثانية : البلّفيقي : وهو محمد بن محمد بن ابراهيم ابن الحاج البلفيقي (٧٠٨ — ٧٧٠) طبقات القراء ٢/٢٣٥ .

بالأندلس ، وسيّد أهل العلم باطلاق ، والمتفنّن في أساليب المعارف ، وآداب الصحابة للملوك فمن دونهم ، فوفدوا به على السلطان شفيعين على عظيم تشوّفه للقائهما ، فقُبِلَت الشفاعة وأُنجحت الوسيلة .

حضرتُ بمجلس السلطان يوم وفادتهما سنة سبع وخمسين وسبعمائة وكان يوماً مشهوداً . واستقرّ القاضي المغربي في مكان بباب السلطان عُطْلاً من الولاية والجراية . وجرت عليه بعد ذلك محنة من السلطان وقعت بينه وبين أقاربه ، امتنع من الحضور معهم عند القاضي الفشتالي ، فتقدّم السلطان إلى بعض أكابر الوزعة ببابه أن يَسْحَبَه إلى مجلس القاضي حتى ينفذ فيه حكمه ، فكان الناس يعدّونها محنة ، ثم ولاّه السلطان بعد ذلك قضاء العساكر في دولته ، عند ما ارتحل إلى قُسَنْطِينَة . فلما افتتحها وعاد إلى دار ملكه بفاس آخر ثمان وخمسين وسبعمائة اعتلّ القاضي المغربي في طريقه ، وهلك عند قدومه بفاس .

* (ومنهم صاحبنا) * الإمام العالم القدوة[1] ، فارس المعقول والمنقول ، وصاحب الفروع والأصول ، أبو عبدالله محمد بن أحمد الشريف الحسني ، ويعرف بالعَلْوِي نسبة إلى قرية من أعمال تلمسان ، تُسَمّى العَلْوِين ، فكان أهل بلده لا يُدافعون في نسبهم . وربّما يغمز فيه بعض الفجرة ممن لا يروعه دينه ولا معرفته بالأنساب ببعض من اللغو ، لا يلتفت إليه ، نشأهذا الرجل بتلمسان وأخذ العلم عن مشيختها ، واختص بأولاد الإمام وتفقّه عليهما في الفقه والأصول والكلام ، ثم لزم شيخنا أبا عبدالله الأبلي وتضلّع من معارفه ، فاستبحر وتفجّرت ينابيع العلوم من مداركه . ثم ارتحل إلى تونس في بعض مذاهبه سنة أربعين وسبعمائة ولقي شيخنا القاضي أبا عبدالله ابن عبد السلام وحضر مجلسه وأفاد منه ، واستعظم رتبته في العلم . وكان ابن عبد السلام يصغي إليه ويؤثر محله ويعرف حقّه حتى لقد زعموا أنه كان يخلو به في بيته ، فيقرأ عليه فصل التصوّف من كتاب الإشارات لابن سينا ، لما كان هو أحكم ذلك الكتاب على شيخنا الأبُلّي وقرأ عليه كثيراً من كتاب الشفاء لابن سينا ، ومن تلاخيص كتب أرسطو لابن رشد ، ومن الحساب والهندسة والفرائض علاوة على ما كان يحمله من الفقه والعربية وسائر علوم الشريعة ، وكانت له في كتب الخلافيات يدٌ

---

(١) وفي نسخة ثانية : العالم الفذّ .

طولى ، وقَدَمٌ عالية ، فعرف له ابن عبد السلام ذلك كلّه وأوجب حقّه ، وانقلب إلى تلمسان ، وانتصب لتدريس العلم وبثّه فملأ المغرب معارف وتلاميذ ، إلى أن اضطرب المغرب بعد واقعة القيروان . ثم هلك السلطان أبو الحسن ، وزحف أبو عنان إلى تلمسان فملكها سنة ثلاث وخمسين وسبعمائة فاستخلص الشريف أبا عبدالله واختاره لمجلسه العليّ مع من اختاره من المشيخة ، وزحف به إلى فاس فتبرّم الشريف من الاغتراب وردّد الشكوى وعرف السلطان ذلك[1] وارتاب به . ثم بلغه أثناء ذلك أنّ عثمان بن عبد الرحمن سلطان تلمسان أوصاه على ولده ، وأودع له مالاً عند بعض الأعيان من أهل تلمسان ، وأنّ الشريف مطلع على ذلك ، فانتزع الوديعة وسخط الشريف بذلك ونكبه ، وأقام في اعتقاله أشهراً ، ثم أطلقه أوّل ست وخمسين وسبعمائة وأقصاه ، ثم أعتبه بعد فتح قسنطينة وأعاده إلى مجلسه إلى أن هلك السلطان آخر تسع وخمسين وسبعمائة .

وملك أبو حمّو بن يوسف بن عبد الرحمن تلمسان من يد بني مرين ، واستدعى الشريف من فاس فسرّحه القائم بالأمر يومئذ الوزير عمر بن عبدالله فانطلق إلى تلمسان . وأطلقه[2] أبو حمو براحتيه ، وأصهر له في ابنته ، فزوّجها إياه ، وبنى له مدرسة جعل في بعض جوانبها مدفن أبيه وعمّه ، وأقام الشريف يدرس العلم إلى أن هلك سنة إحدى وسبعين وسبعمائة وأخبرني رحمه الله أنّ مولده سنة عشر وسبعمائة .

* (ومنهم صاحبنا) * الكاتب القاضي أبو القاسم محمد بن يحيى البرجي من برجة[3] الأندلس . كان كاتب السلطان أبي عنان وصاحب الإنشاء والسرّ في دولته ، وكان مختصًّا به ، وأثيراً لديه . وأصله من برجة الأندلس نشأ بها واجتهد في العلم والتحصيل ، وقرأ وسمع وتفقّه على مشيخة الأندلس . واستبحر في الأدب وبرز في النظم والنثر ، وكان لا يجاري في كرم الطباع وحُسْن المعاشرة ، ولين الجانب وبذل البِشْر والمعروف . وارتحل إلى بجاية في عشر الأربعين وسبعمائة ، وبها الأمير أبو زكريا ابن السلطان أبي يحيى منفرداً بملكها على حين أقفر من رسم الكتابة والبلاغة ،

---

(١) وفي نسخة ثانية : فاحفظ السلطان بذلك .

(٢) وفي نسخة ثانية : وتلقّاه أبو حمو براحَتَيْهِ .

(٣) بَرْجَة : مدينة بالأندلس من أعمال البيرة ، ينسب إليها أبو الحسن علي بن محمد بن عبدالله الجذامي المقري ، هو منسوب إلى برجة بلدة من أعمال المرية (معجم البلدان) .

بادرت أهل الدولة إلى اصطفائه وإيثاره بخطة الإنشاء والكتاب عن السلطان إلى أن هلك الأمير أبو زكريا ، ونصب ابنه محمّد مكانه ، فكتب عنه على رسمه ثم هلك السلطان أبو يحيى ، وزحف السلطان أبو الحسن إلى أفريقية واستولى على بجاية ، ونقل الأمير محمداً بأهله وحاشيته إلى تلمسان كما تقدّم في أخباره ، فنزل أبو القاسم البرجي تلمسان ، وأقام بها واتصل خبره بأبي عنان ابن السلطان أبي الحسن وهو يومئذ أميرها ، ولقيه ، فوقع من قلبه بمكان إلى أن كانت واقعة القيروان .

وخلع أبو عنان واستبدّ بالأمر فاستكتبه وحمله إلى المغرب ، ولم يَسْمُ به إلى العلامة لأنه آثر بها محمد بن أبي عمر بما كان أبوه يعلّمه القرآن والعلم . وربّي محمد بداره ، فولاّه العلامة ، والبرجي مرادف له في رياسته إلى أن انقرضوا جميعاً . وهلك السلطان أبو عنان واستولى أخوه أبو سالم على ملك المغرب ، وغلب ابن مرزوق على هواه كما قدّمناه ، فنقل البَرْجِيّ من الكتابة واستعمله في قضاء العساكر ، فلم يزل على القضاء إلى أن هلك سنة ست وثمانين وسبعمائة وأخبرني رحمه الله ان مولده سنة عشر وسبعمائة .

* (ومنهم شيخنا المعمّر الرحالة) * أبو عبدالله محمد بن عبد الرزاق شيخ وقته جلالة وتربية وعلماً وخبرةً بأهل بلده ، وعظمة فيهم . نشأ بفاس وأخذ عن مشيختها ، وارتحل إلى تونس فلقي القاضي أبا اسحق بن عبد الرفيع ، والقاضي أبا عبدالله النَفْزَاوِيّ . وأهل طبقتها ، وأخذ عنهم وتفقّه عليهم ، ورجع إلى المغرب ولازم سنن الأكابر والمشايخ إلى أن ولاّه السلطان أبو الحسن القضاء بمدينة فاس ، فأقام على ذلك إلى أن جاء السلطان أبو عنان من تلمسان بعد واقعة القيروان ، وخَلْعِه أباه فعزله بالفقيه أبي عبدالله المغربي ، وأقام عطلا في بيته .

ولما جمع السلطان مشيخة العلم للتحليق بمجلسه ، والإفادة منهم ، واستدعى شيخنا أبا عبدالله بن عبد الرزاق ، فكان يأخذ عنه الحديث ، ويقرأ عليه القرآن برواياته في مجلس خاص إلى أن هلك رحمه الله بين يدي مهلك السلطان أبي عنان ، إلى آخرين وآخرين من أهل المغرب والأندلس ، كلّهم لقيت وذاكرتُ وأفدتُ منه ، وأجازني بالإجازة العامّة .

* (حديث النكبة من السلطان أبي عنان) *

كان اتصالي بالسلطان أبي عنان آخر سنة ست وخمسين وسبعمائة وقرّبني وأدناني ، واستعملني في كتابته ، واختصّني بمجلسه للمناظرة والتوقيع عنه فكثر المنافسون وارتفعت السعايات حتى قويت عنده بعد أن كان لا يغير عن صفائه[1] . ثم اعتلّ السلطان آخر سبع وخمسين وسبعمائة وكان قد حصلت بيني وبين الأمير محمد صاحب بجاية من الموحّدين مداخلة ، أحكمها ما كان لسلفي في دولتهم . وغفلت عن التحفّظ من مثل ذلك ، من غَيْرة السلطان ، فما هو إلا أن شغل بوجعه ، حتى نمي إليه بعض الغواة أنّ صاحب بجاية معتمل في الفرار ليسترجع بلده ، وبها يومئذ وزيره الكبير عبدالله بني عليّ ، فانبعث السلطان لذلك ، وبادر بالقبض عليه . وكان فيما نمي إليه أني داخلته في ذلك ، فقبض عليّ وامتحنني وحبسني . ثم أطلق الأمير محمداً وما زلت أنا في اعتقاله إلى أن هلك ، وخاطبتُه بين يدي مَهْلكه مستوطفاً بقصيدة أولها :

على أيّ حـالٍ لليـالي أعـاتِبُ ... وأيَّ صُروف للزمـانِ أُغـالِبُ
كفى حزناً أنـي على القربِ نازحٌ ... وأني على دعوى شهُودي غَـائِبُ
وأني على حكم الحوادثِ نـازلٌ ... تسالمني طَـوْراً وطوراً تُحَـارِبُ

ومنها في التشوّق :

سَلَوْتُهم إلا ادِكـارَ معـاهـدِ ... لها في اللَّيـالي الغـابراتِ غرائبُ
وإنّ نسيمَ الريح منهم يشوقني ... إليهم وتصبيني البُروق اللواعبُ

وهي طويلة ، نحو مائتين بيتاً ، ذهبت عن حفظي ، فكان لها منه موّقع ، وهَشَّ لها . وكان بتلمسان ، فوعَد بالإفراج عني عند حلوله بفاس ، ولخمس ليالٍ من حُلوله طرقَه الوجع ، وهلك لخمسَ عشرة ليلة ، في رابع وعشرين ذي الحجّة ، خاتم تسع وخمسين وسبعمائة . وبادرِ القائم بالدولة ، الوزير الحسن بن عُمَر الى إطلاق جماعة من المعتقلين ، كنت فيهم ، فخلع عليَّ ، وحملني ، وأعادني إلى ماكنتُ

(١) وفي نسخة ثانية : واستعملني في كتابته ، حتى تكدّر جوي عنده ، بعد ان كان لا يعبّر عن صفائه .

عليه ، وطلبتُ منه الإنصراف إلى بلدي ، فأبىَ عليَّ ، وعاملني بوجوه كرامته ، ومذاهب إحسانه ، إلى أن اضطرب أمرُه ، وانتقض عليه بنو مرين ، وكان ما قدَّمناه في أخبارهم .

* (الكتابة عن السلطان أبي سالم في السر والانشاء) *

ولما أجاز السلطان أبو سالم من الأندلُس لطلب مُلكه ، ونزَل بجَبَل الصَّفيحَة من بلاد غُماره . وكان الخطيب ابن مَرْزوق بفاس ، فبثَّ دعوته سراً ، واستعان بي على أمره ، بما كان بيني وبين أشياخ بني مرين من المحبَّة وائتلاف ، فحملتُ الكثير منهم على ذلك ، وأجابوني إليه ، وأنا يومئذ أكتب عن القائم بأمر بني مرين ، منصور بن سليمان بن منصور بن عبد الواحد بن يعقوب بن عبد الحق ، وقد نصَّبوه للمُلك ، وحاصروا الوزير الحسن بن عُمر ، وسلطانه السَّعيد ابن أبي عِنَان ، بالبلد الجديد . فقصدني ابنُ مرزوق في ذلك ، وأوصل إليَّ كتاب السلطان أبي سالم . بالحضّ على ذلك ، وإجمال الوعد فيه . وألقى عليَّ حمله ؛ فنهَضت به ، وتقدّمتُ إلى شيوخ بني مرين ، وأمراء الدولة بالتحريض على ذلك ، حتى أجابوا ، وبعث ابنُ مرزوق إلى الحسن بن عُمَر ، يدعو إلى طاعة السلطان أبي سالم ، وقد ضجِر من الحصار ؛ فبادر إلى الإجابة ، واتفق رأي بَني مرين على الانفضاض عن منصور بن سُليمان ، والدخول إلى البلد الجديد ؛ فلما تمّ عقدُهم على ذلك نزعتُ إلى السلطان أبي سالم في طائفة من وجوه أهل الدولة ، كان منهم محمد بن عثمان بن الكاس ، المستبدّ بعد ذلك بمُلك المغرب على سلطانه ، وكان ذلك النُّزوع مبدأ حظّه ، وفاتحة رياسته ، بسِعايتي له عند السلطان ، فلما قدمتُ على السلطان بالصَّفِيحة ، بما عِندي من أخبار الدولة ، وما أجمعوا عليه من خَلْع منصور بن سليمان ، وبالموعد الذي ضربوه لذلك ، واستحثثته . فارتحل ، ولقِيَنا البشيرُ بإجفال منصور بن سليمان ، وفراره إلى نواحي بادِس ، ودخول بني مرين إلى البلد الجديد ، وإظهار الحسن بن عُمر دَعوةَ السلطان أبي سالم . ثم لقِيَتنا ، بالقصر الكبير ، قبائلُ السلطان ، وعساكرُه ، على راياتهم ، ووزيرُ منصور بن سليمان ، وهو مسعود بن رَحّو بن مَاسَايْ ؛ فتلقّاه السلطان

بالكرامة كما يجب له ، واستوزره عوضا نائباً للحسن بن يوسف بن عليّ بن محمد الورتاجني السابق إلى وزارته ، لِقِيَه بسبتة ، وقد غرّ به منصور بن سليمان إلى الأندلس فاستوزره واستكفاه .

ولما اجتمعت العساكر عنده بالقصر صَعِد إلى فاس ولقيه الحسن بن عمر بظاهرها ، فأعطاه طاعته ، ودخل إلى دار ملكه وانا في ركابه ، لخمس عشرة ليلة من نزوعي إليه ، منتصف شعبان سنة ستين وسبعمائة ، فرعى لي السابقة واستعملني في كتابة سرّه ، والترسيل عنه ، والإنشاء لمخاطباته ، وكان اكثرها يصدر عني بالكلام المرسل بدون أن يشاركني أحد ممن ينتحل الكتابة في الأسجاع ، لضعف انتحالها ، وخفاء المعاني منها على أكثر الناس ، بخلاف غير المرسل[1] ، فانفردت به يومئذ ، وكان مستغرباً عند من هم من أهل هذه الصناعة .

ثم أخذت نفسي بالشعر ، وانثال عليّ منه بحور ، توسطت بين الإجادة والقصور ، وكان مما أنشدته إيّاه ليلة المولد النبوي من سنة ثلاث وستين وسبعمائة[2] .

أسرَفْنَ في هَجْري وفي تَعْــذيبـي ... وأطَلْنَ مَوْقِفَ عَبْرَتي ونَحِيبي
وأبَيْـن يوم البيْن موقِف[3] ساعـة ... لعـوّادٍ[4] مشغـوف الفـؤادِ كئيب
لله عهـدُ الظـاعنين وقـد غـدا[5] ... قلبـي رَهِيـنَ صبـابــةٍ ووجيبِ
غَرَبَت ركــائِبُهم ودمعيَ سافِحٌ ... فشربتُ[6] بعــدهم بماءِ غُروبِ
يـا نـاقِعـاً بـالعَتْب غُلّـة شوقهم ... رُحْمَـاكَ في عَـذْلي وفي تـأنيبـي
يَسْتَعْــذِبُ الصَّبُّ المَلاَمَ وإنّني ... مـاءُ المَدُ ام[7] لـديّ غير شَرُوبِ
مـاهـاجني طربٌ ولا اعتـاد الجوى ... لـولا تــــذكّر منزلٍ وحبيبِ
أصبـوا إلى أطلالٍ[8] كـانت مَطْلَعاً ... للبــدر منهم أوكنــاس ربيبِ

---

(١) وفي نسخة ثانية : بخلاف المرسل .
(٢) وفي نسخة ثانية : سنة اثنتين وستين وسبعمائة .
(٣) وفي نسخة ثانية : وقفة ساعة .
(٤) وفي نسخة ثانية : لوداع .
(٥) وفي نسخة ثانية : وغادروا .
(٦) وفي نسخة ثانية : فشرقت . وماء الغروب : الدموع حين تخرج من العين .
(٧) وفي نسخة ثانية : ماء الملام .
(٨) وفي نسخة ثانية : الاطلال .

عَبثَتْ بــه أيــدي البلى وتردَّدَتْ   في عطفِهــا للــدّهرِ أيُّ خطوبِ
تَبلى معــاهِــدُهــا وإنّ عهودهــا   ليجرّهــا[1] وصفي وحُسنُ نسيبي
واذا الــديــار تعرّضتْ لِمُتَيَّمٍ   هزّت لــذكراهــا أولى التشبيبِ[2]
إيــهِ على الصَّبْرِ الجميــلِ فــإنّــه   أَلْــوَى بــــدَيْن فؤاديَ المنهوبِ
لم أَنْسهَــا والــدهرُ يَثْني صَرْفَــهُ   ويَغُضُّ طرفي حــــاسدٍ ورقيبِ
والــدارُ مُونقَــةٌ بما لبست من الأ   يــام تجلوهــا بكــلّ قشيب[3]
يــا سائقَ الأظعــان يعْتَسِفُ الفلاَ   بتواصلِ الأسنــاد والتــأويب[4]
مُتَهَــافِتــاً عن رَحْــلِ كــلّ مدلّــلٍ   نشوانَ من آنٍ ومسٍ لُغُوبِ[5]
تَتَجَــاذَبُ النفحــات فَضلَ رِدائِــهِ   في مُلتَقَــاهَــا من صَبــاً وجَنُوبِ
إن هام من ظمأٍ الصَّبابَة صَحْبُهُ   نَهلوا بِمَــوْرِدِ دَمْعِـــهِ المَسْكُوبِ
إن تعترض مَسْرَاهُم سُدَفُ الدُّجَى   صدَعوا الــدُّجَى بغرامِــهِ المشبوبِ
في كـــلّ شعبٍ مُنْيَــةٌ .من دُونهــا   هَجْر الأمــــاني أو لقـــاء شعوبِ
هُلاّ عَطَفتَ صدورهنّ إلى التي   فيهــا لغــانيــة[6] أعينٍ وقلوبِ
فتؤمَّ من أكنــافِ يثرِبَ مــأمنــاً   يَكفيك مـــا تخشاه من تثريبِ
حيثُ النبوَّةُ آيهـــــا مجلوّةٌ   تتلومن الآثـــار كـــل غريبِ
سرٌّ عجيبٌ ليس يحجبــه الثرى[7]   مــا كــان سرُّ الله بــالمحجوبِ

ومنها بعد تعديد معجزاته صلى الله عليه وسلم والأطناب في مدحه :

إني دعوتُك واثقــاً بإجــابتي   يــا خيرَ مــدعوّ وخيرَ مُجيبِ
قصّرتُ في مــدحي فــإنْ يكُ طَيِّباً   فبما لــــذِكرك من أريج الطِّيب
ماذا عسَى يبغي المُطيلُ وقد حوى   في مـــدحك القرآن كـــلَّ مطيبِ[8]

---

(١) وفي نسخة ثانية : ليجدّها .
(٢) وفي نسخة ثانية : هزته ذكراها إلى التشبيب .
(٣) وفي نسخة ثانية : والدار مونقة محاسها بما لبست من الايام كل قشيب
(٤) وفي نسخة ثانية : ويواصل الإسآد بالتأويب . والإسآد : سير الليل كله لا تعريس فيه . والتأويب : سير النهار لاتعريج فيه (لسان العرب) .
(٥) وفي نسخة ثانية : نشوان من اين ومسر لغوب . والأين : الاعياء واللغوب التعب .
(٦) وفي نسخة ثانية : لبانة .
(٧) وفي نسخة ثانية. : سرّ عجيب لم يحجّبه الثري .
(٨) هنا إشارة الى مدح القرآن للنبي (صلعم) « وانك لعلى خلق يحظم » آية ٦٨ من سورة الانعام .

يـا هَـل تُبَلِّغني الليـالي زورةً تُـدني إليّ الفوز بـالمَرْغوبِ
أمحو خطيـآتي بـإخلاصي بها وأَحُطُّ أوزاري وإصر ذنوبـي
في فتيـة هجروا المُنى وتعوّدوا إنضاءَ كـلِّ نجيبـةٍ ونجيبِ
يطوي صحـائفَ ليلهم نوق الفلا مـا شئتَ من خَبَبٍ ومن تقريبِ
إنْ رنّم الحادي بـذكرك ردّدوا أنفـاسَ مشتـاقٍ إليك طَرُوبـِ
أوْ غرَّد الركبُ الخليُّ بطَيْبَـةٍ حنّوا لملقـاهـا حنينَ النيبِ
ورثوا اعتساف البيـد عن آبـائهم إرث الخلافـة في بني يعقوبِ
الطـاعنون الخيـل وهي عوابسٌ يغشى مُثـارُ النقـع كـلّ سبيبِ
والواهبون المُقْرَبَـاتِ صوافنـاً مِنْ كـلِّ خـوَّار العِنَـانِ لعوبِ
والمانعون الجار حتى عرضُه في منتـدى الأعـداءِ غير معيبِ
تخشى بوادرُهم ويُرجى حلمُهُم والعزّ شيمـةُ مرتجىً ومهيبِ

ومنها في ذكر إجازته البحر واستيلائه على ملكه :

سائل بني طامي العُباب وقد سرى تُزجيـه ريحُ العَزْم ذاتُ هبوبِ
تهديـه شُهْب أسِنّـة وعزائم يصد عنْ ليـل الحادثِ المرْهوبِ
حتّى انجلت ظلل الظلام[1] بسعيه وسطـا الهدى بفريقـه المغلوبِ
أَبَني الأولى شادوا الخلافـة بـالتّقى واستـأثروا بتَـاجهـا المَغْصُوبِ[2]
جمعوا لحفظ الـدين أيَّ مَنَاقِبٍ كَرُموا بها في مَشهـدٍ ومغيبِ
لله مجدُك طـارفـاً أو تـالـداً فلقـد شهـدنا منـه كـل عجيبِ
كم رهبـةٍ أو رغبـةٍ لك في العُلا تقتـاد بـالترغيبِ والترهيبِ
لا زلتَ مَسروراً بـأشرفِ دَوْلَـةٍ يبـدو الهُـدى من أُفْقِهـا المرغوبِ
تُحْيـي المعـالي غـاديـاً أو رائحـاً وجـديـدُ سَعـدِك ضَامنُ المطلوبِ

ومن قصيدة خاطبته بها عند وصول هديّة ملك السودان إليه ، وفيها الحيوان الغريب المسمى بالزرافة :

قَـدَحَتْ يـد الأشواقِ من زَنـدي وهَفَتْ بقلبـي زَفْرَةُ الوَجْـدِ

(١) وفي نسخة أخرى : حتى انجلت ظلم الضلال بسعيه .
(٢) وفي نسخة أخرى : يا بن الألى شادوا الخلافة بالتقى واستأثروك بتاجها المغصوب .

رببـــذتُ سُلْواني على ثقـــةٍ ... بـالقربِ فـاستبـدلتُ بـالبُعْـدِ
ولرُبّ وَصْلٍ كنتُ آمُلُـــــه ... فـاعتَضْتُ مِنْـهُ بِمُؤْلِمِ الصدِّ
لا عَهْـدَ عنـدَ الصبرِ أطلبُـه ... إنّ الغرام أضاعَ من عَهْـدِي
يَلْحَى العـذُولُ فما أُعَنِّفُـه ... وأقولُ ضلّ فـأبتغي رُشْدِي
وأعـارِضُ النفحـاتِ أسْأَلُهـا ... بَرد الجَوَى فتزيـدُ في الوَقْـدِ
يَهْـدِي الغرامُ إلى مسالِكِهـا ... لِتَعَلُّلِي بضعيف مـا تُهـدي
يـا سائقَ الأظعـانِ مُعْتَسِفـاً ... طيَّ الفَلاة لطيَّـةِ الوَجْـدِ
أرِحْ الركّـاب ففي الصَّبَـا نبـأٌ ... يُغني عن المُسْتَنِّـةِ الجُرْدِ
وسل الرّبوع برامـــةٍ خبَراً ... عن ساكِنِي نَجْـدٍ وعن نَجْـدِ
مـالي يلامُ على الهوى خُلُقِـي ... وهي التي تـأبَى سِوَى الحَمْـدِ
لأبَيْتُ إلاّ الرُشْدِ مُـذْ وَضَحَتْ ... بـالمستعين مَعَـالِمُ الرُشْدِ
نِعْمَ الخليفـةُ في هـدىً وتُقىً ... وبنـاءِ عزٍّ شامخ الطّود
نَجْـلُ السراة الغرِّ شأْنُهُـمُ ... كَسْبُ العُلا بمواهبِ الوَجْـدِ

ومنها في ذكر خلوصي إليه وما ارتكبته فيه :

لله مني إذ تـأوّبَني ... ذِكْراه وهو بشَاهِقٍ فَرْدِ
شَهْمٌ يَفُـلُّ بَوَاتِراً قُضُبـاً ... وجموعَ أقيـالٍ أُولي الَيـدِّ
أو رَيْتُ زَنْـدَ العَزْمِ في طَلَبِـي ... وقضيتُ حقَّ المجدِ من قصدِي
ووَرَدْتُ عَنْ ظَمَـأٍ مناهِلَـه ... فَرَوِيْتُ عن عزٍّ ومن رِفْـدي
هي جنّـةُ المأوى لِمَنْ كَـانَتْ ... آمـالُـه بمطـالبِ المَجْـدِ
لو لم أُعَـلّ بَرْدِ[1] كوثرِهـا ... مـا قلتُ هـذي جنّـةُ الْخُلْـدِ
مَنْ مُبلِـغٌ قومي ودونَهُـمُ ... قُـذُفُ النوى وتنوفَـةُ البُعْـدِ
أني أنِفْتُ على رجـائِهِم ... ومَلَكْتُ عِزِّ جميعِهم وحـدي
ورَقيمَـةِ الأعطـافِ حـالِيَـةٍ ... مَـوْشِيَّـــةِ بوشائح البُرْدِ
وَحْشِيَّـةِ الأنْسَابِ مـا أنِسَتْ ... في مُوحِشِ البَيْـدَاءِ بـالغردِ[2]

---

(١) وفي نسخة ثانية : بورد .

(٢) وفي نسخة ثانية : بالقود .

تسمو بجيدٍ بالغٍ صُعُداً شرفَ الصُّروحِ بغيرِ ما جُهْدِ
طالَتْ رؤوسُ الشامخاتِ به ولرُبّما قَصُرَتْ عن الوَهْدِ
قَطَعَتْ إليكَ تنائِفاً وَصَلَتْ آسارها بالقَهْدِ والوَخْدِ[(١)]
تحدي على استصعابِها ذُلُلاً وتَبِيت طوع القِنِّ والقِدِّ[(٢)]
بسعودك اللاّتي ضَمِنّ لها طولَ الحياةِ بعيشةٍ رَغْدِ
جاءتك في وَفْدِ الأحابشِ لا يَرْجُون غَيرك مُكْرِمَ الوَفْدِ
وافوْك انضاءً تُقَلِّبُهُم أيدي السُّرى بالغَوْرِ والنَجْدِ
كالطيفِ يَسْتَقْري مَضاجِعَهُ أو كالحُسَامِ يُسَلُّ من غِمْدِ
يثنون بالحُسْنَى التي سَبَقَت من غير إنْكارٍ ولا جَحْدِ
ويرَوْنَ لَحْظَكَ من وِفادَتِهِم فخراً على الأَتْرَاكِ والهِنْدِ
يا مستعيناً جَلّ في شرفٍ عن رُتْبَةِ المَنْصُورِ والمَهْدِي
جازاك ربُّكَ عن خليقَتِهِ خيرَ الجَزاءِ فنِعْمَ مَن يُسْدِي
وبَقِيتَ للدُّنْيَا وساكِنِها في عِزّةٍ أبداً وفي سَعْدِ

وأنشدته في سائر أيامه غير هاتين القصيدتين كثيراً لم يحضرني الآن شيء منه .

ثم غلب ابن مرزوق على هواه وأفرد بخالصته وكبح الشكائم عن قربه ، فانقبضت وقصّرت الخطو ، مع البقاء على ما كنت فيه من كتابة سرّه وإنشاء مخاطباته ومراسمه . ولاّني آخر الدولة « خطّة المظالم » فوفّيتها حقّها ودفعت للكثير مما أرجو ثوابه . ولم يزل ابن مرزوق آخذاً في سعايته بي وبأمثالي من أهل الدولة ، غَيْرَةً ومنافسةَ إلى أن انتقض الأمر على السلطان بسببه ، وثار الوزير عمر بن عبدالله بدار الملك فصار إليه الناس ، ونبذوا السلطان وبيعته ، وكان في ذلك هلاكه على ما ذكرناه في أخبارهم .

ولما قام الوزير عمر بالأمر أقرّني على ما كنت عليه ، ووفّر أقطاعي وزاد في جرايتي وكنت أسمو بطغيان الشباب إلى أرفع مما كنت فيه وأدلّ في ذلك بسابق مودّة معه ،

(١) وفي نسخة ثانية : إسادها بالنص والوخد . والنص : التحريك حتى تستخرج من الناقة اقصى سيرها . والوخد : ضرب من سير الابل ، وهو سعه المخطوفي المشي (لسان العرب) .
(٢) وفي نسخة ثانية : تخدي على استصعابها ذللاً ، تخدي : تسرع ، والقن : العبد . والقِدّ : سير يصنع من جلد غير مدبوغ .

منذ أيام السلطان أبي عِنَان ، وصحابة استحكم عَقْدُها بيني وبين الأمير أبي عبدالله صاحب بجاية ، فكان ثالث آثافينا ، ومصقلة فكاهتنا ، واشتدّت غيرة السلطان لذلك كما مرّ ، وسطا بنا ، وتغافل عن عمر بن عبدالله لمكان أبيه من ثغر بجاية ، ثم حملني الإدْلال عليه أيام سلطانه ، وما ارتكبه في حقي من القصور بي عمّا أسمو إليه إلى أن هجرته ، وقعدت عن دار السلطان مغاضباً له ، فتنكّر لي وأقطعني جانباً من الإعراض ، فطلبت الرحلة إلى بلدي بأفريقية . وكان بنو عبد الواد قد راجعوا ملكهم بتلمسان والمغرب الأوسط فمنعني من ذلك أن يغتبط أبو حمّو صاحب تلمسان بمكاني ، فأقيم عنده ، وألَحَّ في المنع من ذلك ، وأبيت أنا إلاّ الرحّلة ، واستجرت في ذلك برديفه وصهره الوزير مسعود بن رحّو بن ماسي ، ودخلت عليه يوم الفطر سنة ثلاث وستين وسبعمائة فأنشدته :

هنيئــــاً لصوم لا عــــداه قَبُولُ ... وبُشْرَى لعيــدٍ أنتَ فيــه مُنيــلُ
وهُنِّئْتُهـــا من عِزَّةٍ وسعـــادةٍ ... تَتَـــابُــــعُ أعوامْ بها وفصولُ
سقى الله دهراً أنتَ إنسانُ عَيْنِـــهِ ... ولامسّ رَبْعـــاً في حِماك مُحُولُ
فعصرُك مـــا بين الليـــالي مواسِمٌ ... لــــه غُرَرٌ وضّاحـــةٌ وحُجُولُ
وجــــانِبُكَ المأمولُ للجودِ مشرّعٌ ... يحومُ عليــــه عـــالمٌ وجَهُولُ
عساكَ وإن ضنّ الزمـــانُ منوّلي ... فَرَسْمُ الأمـــاني من سواك مُحيــلُ
أَجْرني فليسَ الـــدهرُ لي بمُسَالِمٍ ... إذا لم يكنْ لي في ذُرَاكَ مَقِيــلُ
وأوْلِيْتَنِـي الحُسْنَى بما أنـــا آمِـلٌ ... فَمِثْلُكَ يؤلي راجيـــاً ويُنيــلُ
ووالله مـــا رُمْتُ الترحّـل عن قِلىً ... ولا سخْطَــةً للعيشِ فهو جَزِيــلُ
ولا رَغْبَــةً عن هــذه الــدار إنّهــا ... لَظِــلٌّ على هــذا الأنــام ظَليــلُ
ولكن نــأى بــالشعب عنّا حَبَائِبٌ ... شَجَــاهُنَّ خطبٌ والفراقُ طويــلُ
يهيجُ بهنَّ الوجـــدُ إني نــــازحٌ ... وأنّ فؤادي حيث هـنّ حلول
عزيزٌ عليهنَّ الـــذي قــد لقيتُــهُ ... وأنَّ اغترابـي في البلادِ يطولُ
تــوارتْ بــابنيّ[1] البقــاعُ كــأنني ... تُخطِّفْتُ أو غــالتْ ركـابـي غُولُ
ذكرتُك يــا مَغْنَى الأحِبَّــةِ والهوَى ... فطــارت لقلبـي أَنَّــةٌ وعَويــلُ

---

(١) وفي نسخة ثانية : بأنبائي .

وحَيَّيْتُ عن شوقٍ رُبـاكَ كـأنّما · يُمثَّـلُ لي فيءٌ[1] بها وطلولُ
أأحبـابَنـا والعهـدُ بيني وبينَكُم · كريمٌ ومـا عهـدُ الكريم يحولُ
إذا أنا لم تُرْضِ الحمولَ مَدامِعِي · فلا قَرَّبَتْني للقـاءِ حُمُولُ
إلامَ مَقَـامي حيثُ لم تَرِدِ العُلاْ · مُرَادي ولم تُعْطِ. القيـادَ ذَلولُ
أُجَـاذِبُ فضلَ العُمْرِ يومـاً وليلـةً · وساءَ صبـاحٌ بينهـا وأصيـلُ
ويذهبُ بي ما بين يأسٍ ومَطْمَعٍ · زمـانٌ بنيـلِ المعلُوَاتِ بخيـلُ
تُعَلِّلُني منـه أمـانٍ خوادعٌ · ويؤنسُني منـه أمـان مطولُ[2]
أمَـا لليـالي لا تردُّ خطوبَهـا · في كَبـدي من وَقْعِهِنَّ فُلُولُ
يروِّعُني عن صرفِهـا كـلُّ حادثٍ · تكـاد لـه صُمُّ البلاد تزولُ
أداري على رغم العـداة بريبـةٍ[3] · يصانـعُ واشٍ خوفهـا وعَـذُولُ
وأغـدو بـأشجـاني عليلاً كـأنّما · تجود بنفسي زفرةٌ وغليـلُ
وإنّي وإنْ أصبحتُ في دارِ غربـةٍ · تُحيـلُ الليـالي سلوتي وتُـديـلُ
وصدّتني الأيـامُ عن خيرِ منزلٍ · عَهِـدْتُ بـهِ أنْ لا يُضامُ نزيـلُ
لأعلمُ أنّ الخيرَ والشرَّ ينتهي · مـداه وأنَّ اللهَ سوف يـديـلُ
وإني عزيزٌ بـابم مـاساي مكثرٌ · وإنَ هـان أنصارٌ وبـانَ خليـلُ

فأعانني الوزير مسعود عليه حتى أذن لي في الانطلاق على شريطة العدول عن تلمسان في أيّ مذهب أردت ، فاخترت الأندلس وصرفت ولدي وأمّهم إلى أخوالهم ، أولاد القائد محمد بن الحكيم بقُسَنْطِينَة فاتح أربع وستين وسبعمائة وجعلتُ أنا طريقي على الأندلس ، وكان سلطانها أبو عبدالله المخلوع ، وحين وفد على السلطان أبي سالم بفاس ، وأقام عنده ، حصلت لي معه سابقة وصلة ووسيلة خدمة ، من جهَة الوزير أبي عبدالله بن الخطيب ، لما كان بيني وبينه من الصحابة ، فكنت أقوم بخدمته واعتمل في قضاء حاجاته في الدولة ، ولمّا أجاز باستدعاء الطاغية لاسترجاع ملكه حين فسد ما بين الطاغية وبين الرئيس المتوثّب عليه بالأندلس من قرابته ، خَلَفْتُهُ فيما

---

(١) وفي نسخة ثانية : يمثل لي نؤي
(٢) وفي نسخة ثانية :
تعللني عنـه أمـان خوادع · ويؤنسني ليّـان منـه مطول
(٣) وفي نسخة ثانية : اداري على الرغم العدي لا لريبة .

ترك من عياله وولده بفاس ، خير خلف في قضاء حاجاتهم وإدرار أرزاقهم ، من المتولّين لها ، والاستخدام لهم . ثم فسد ما بين الطاغية وبينه ، قبل ظفره بملكه ، برجوعه عما اشترط له من التجافي عن حصون المسلمين التي تملّكها بالإجلاب ، ففارقه إلى بلاد المسلمين باستجة[1] وكتب إلى عمر بن عبدالله يطلب مَصْراً ينزله من أمصار الأندلس الغربيّة التي كانت رِكاباً لملوك المغرب في جهادهم . وخاطبني أنا في ذلك ، فكنت له نِعْمَ الوسيلة عند عمر ، حتى تمّ قصده من ذلك ، وتجافى له عن رُنْدَة وأعمالها ، فنزلها وتملّكها ، وكانت دار هجرته ، وركاب فتحه ، وملك منها الأندلس أواسط ثلاث وستين وسبعمائة واستوحشت أنا من عمر إثر ذلك كما مرّ ، وارتحلت إليه معوّلاً على سوابقي عنده ، فقرّب في المكافآت كما نذكره إن شاء الله تعالى .

* (الرحلة الى الأندلس) *

ولما أجمعت الرحلة إلى الأندلس بعثت بأهلي وولدي إلى أخوالهم بقُسَنْطِينَة ، وكتبتُ لهم إلى صاحبها السلطان أبي العبّاس من حفدة السلطان أبي يحيى ، وبأني أمرّ على الأندلس وأجيز عليه من هنالك . وسِرتُ إلى سبتة فُرْضَة المَجاز ، وكبيرها يومئذ الشريف أبو العبّاس أحمد بن الشريف الحسني ، ذو النسب الواضح السالم من الريبة عند كافة أهل المغرب ، انتقل سلفه إلى سبتة من صقلية . وأكرمهم بنو العزفي أوّلاً وصاهروهم . ثم عظم صيتهم في البلد فتنكّروا لهم وغرّبهم يحيى العزفي آخرهم إلى الجزيرة ، فاعترضتهم مراكب النصارى في الزقاق[2] فأسروهم . وانتدب السلطان أبو سعيد إلى فديتهم رعاية لشرفهم ، فبعث إلى النصارى في ذلك فأجابوه . وفادى هذا الرجل وأباه على ثلاثة آلاف دينار ، ورجعوا إلى سبتة ، وانقرض بنو العزفي

(١) وفي نسخة أخرى اسجه . وقد سجّلها ابن خلدون بخط يده بفتح الهمزة وكسر السين المخففة . وفي معجم البلدان إسْتِيجَة : بالكسر ثم السكون وكسر الثاء وجيم وهاء ، إسم لكورة بالأندلس متصلة بأعمال ريّة بين القبلة والمغرب من قرطبة . وهي كورة قديمة واسعة الرساتيق والأراضي على نهر سنجل . وهو نهر غرناطة بينها وبين قرطبة عشرة فراسخ وأعمالها متصلة باعمال قرطبة (معجم البلدان) .

(٢) هو مضيق يقع بين طنجة وجبل طارق .

ردولتهم ، وهلك والد الشريف وصدر هو إلى رياسة الشورى . لما كانت واقعة القيروان ، وخلع أبو عنان أباه واستولى على المغرب ، وكان بسبتة عبدالله بن علي الوزير والياً من قبل السلطان أبي الحسن ، فتمسّك بدعوته ، ومال أهل البلد إلى السلطان أبي عنان وبثّ فيهم الشريف دعوته ، فثاروا بالوزير وأخرجوه ، ووفدوا على أبي عنان وأمكنوه من بلدهم ، فولّى عليها من عظماء دولته سعيد بن موسى العجيسي ، كان كافل تربيته في صغره . وأفرد هذا الشريف برياسة الشورى في سبتة ، فلم يكن يقطع أمراً دونه ، ووفد على السلطان بعض الأيام فتلقّاه من المبرة بما لا يشاركه فيه أحد من وفود الملوك والعظماء . ولم يزل على ذلك سائر أيام السلطان وبعد وفاته ، وكان معظّماً وقورَ المجلس ، هشّ اللقاء ، كريم الوفادة ، متحليًّا بالعلم والأدب ، منتحِلاً للشعر غاية في الكرم وحسن العهد ، وسذاجة النفس ، ولمّا مررت به سنة أربع وستين وسبعمائة أنزلني ببيته أزاء المسجد الجامع ، ورأيت منه ما لا يقدّر مثله من الملوك ، وأركبني الحرّاقة[1] ليلة سفري يباشر دحرجتها إلى الماء بيده ، إغراباً في الفضل والمساهمة ، وحططت بجبل الفتح وهو يومئذ لصاحب المغرب ، ثم خرجت منه إلى غرناطة وكتبت للسلطان ابن الأحمر ووزيره ابن الخطيب بشأني ، وليلة بُتُّ بقرب غرناطة على بريدٍ منها ، لقيني كتاب ابن الخطيب يهنيني بالقدوم ، ويؤنسني ونصّه :

حللتَ حلولَ الغيثِ في البلدِ المُحْلِ ... على الطائرِ الميمونِ والرّحبِ والسَهْلِ
يميناً بمن تَعْنُو الوجوه لوجْهِهِ ... من الشيخِ والطفلِ المعصبِ[2]
لقد نَشأَتْ عندي للقياك غبطةٌ ... تُنَسّي اغتباطي بالشبيبةِ والأهلِ
ووُدّي لا يُحتاجُ فيه لشاهدٍ ... وتقريري المعلوم ضربٌ من الجهلِ

أقسمتُ بمن حجّت قريش لبيته ، وقبرٍ صُرِفَت أزِمّة الأحياء لميته ونور ضُربت الأمثال بمشكاته وزيته . لو خيّرت أيها المحبّ الحبيب الذي زيارته الأمنيّة السنيّة ، والعارفة الوارفة ، واللطيفة المطيفة بين رجع الشباب يقطر ماؤه ، ويرف نماؤه ، ويغازل عيون الكواكب ، فضلا عن الكواعب ، إشارةً وإيماءً ، بحيث لا آلو في

(١) الحراقة : نوع من السفن الصغيرة فيها مرامي نيران يُرمى بها العدو ، ومنهم من كان يستعملها للنزهة .
(٢) وفي نسخة ثانية : المهدّاء .

حظ يُلَمُّ بسياج لمّته ، أو يقدح ذباله في ظلمته ، أو يقدّم حواريه في ملمته[1] . من الأحابش وأمّته . وزمانه روح وراح ، ومغدىً في النعيم مراح ، وخصب صراح ، ورنى وجراح[2] ، وانتخاب واقتراح ، وصدرٌ ما به إلا انشراح ، ومسرّات يردفها أفراح ، وبين قدومك خليع الرسن ممتّعاً ، والحمد لله باليقظة والوسن ، محكماً في نسك الجُنَيْد أو فتك الحسن ، ممتّعاً بظرف المعارف ، مالئاً آلف الصيارف ، ماحياً بأنوار البراهين شبه الزخارف ، لما اخترت الشباب وإن شاقني زمنه ، وأعياني ثمنه ، وأجرت سحاب دمعي دمنه . فالحمد لله الذي رفأ حنوّه اغترابي[3] وملّكني أزمّة آرابي ، وغبّطني بمالي وترابي ، ومألف أترابي ، وقد أغصّني بلذيذ شرابي ، ووقع على سطوره المعتبرة إضرابي . وعجّلت هذه مُغَبِطَّة بمناخ المطيّة ، وملتقى للسعود غير البطيّة ، وتهنّي الآمال الوثيرة الوطية ، فما شئت من نفوس عاطشة إلى ريّك ، متجمّلة بزيّك ، عاقلة خطيّ سمهريك[4] ، ومولى مكارمه ، مشيدة لأمثالك ، ومضان منالك ، وسيصدق الخبر ما هنالك ، ويسع فضل مجدك في التخلّف عن الإصحار لا بل اللقاء من وراء البحار والسلام .

ثم أصبحت من الغد قادماً على البلد وذلك ثامن ربيع الأول عام أربعة وستين وسبعمائة وقد اهتز السلطان لقدومي ، وهيّأ لي المنزل من قصوره بفرشه وما عونه ، وأركب خاصّته للقائي تحفّياً وبرًّا ومجازاة بالحسنى . ثم دخلت عليه فقابلني بما يناسب ذلك ، وخلع عليّ وانصرفت . وخرج الوزير ابن الخطيب فشيّعني إلى مكان نزلي ، ثم نظمني في علية أهل مجلسه ، واختصّني بالنجاء في خلوته ، والمواكبة في ركوبه والمواكلة والمُطايبة والمفاكهة في خلوات أُنسه ، وأقمتُ عنده ، وسفرت عنه سنة خمس وستين وسبعمائة إلى الطاغية ملك قشتالة يومئذ ، بِطْرَة بن الهُنْشَة بن أدفونش لإتمام عقد الصلح ما بينه وبين ملوك العدوة بهديّة فاخرة من ثياب الحرير والجياد والمقرّبات بمراكب الذهب الثقيلة ، فلقِيتُ الطاغية بإشبيلية وعاينت آثار سلفي بها ، وعاملني من الكرامة بما لا مزيد عليه ، وأظهر الاغتباط بمكاني ، وعلم أوليّة

---

(١) وفي نسخة ثانية : ملّته .

(٢) وفي نسخة ثانية : وفصف وصراح ، ودُقىً وجراح .

(٣) وفي نسخة ثانية : الذي رقى جنون اغترابي .

٤) وفي نسخة ثانية : عامُله خطا مهريك .

سلفنا بإشبيلية وأثنى عليّ عنده طبيبه إبراهيم ابن زرزر[1] اليهودي المقدَّم في الطب والنجامة ، وكان لقيني بمجلس السلطان أبي عنان وقد استدعاه يستطبُّه ، وهو يومئذ بدار ابن الأحمر بالأندلس . ثم نزع بعد مهلك رضوان بن القائم بدولتهم إلى الطاغية ، فأقام عنده ونظّمه في أطبائه ، فلمّا قدمتُ أنا عليه أثنى عليّ عنده ، فطلب الطاغية حينئذ المقام عنده ، وأن يردَّ عليّ تراث سلفي بإشبيلية ، وكان بيد زعماء دولته ، فتفاديت من ذلك بما قبله . ولم يزل على اغتباطه إلى أن انصرفتُ عنه ، فزوّدني وحملني[2] واختصّني ببغلة فارهة ، بمركب ثقيل ولجام ذهبيّين ، أهديتهما إلى السلطان فأقطعني قرية البيرة من أراضي السقي بمرج غرناطة ، وكتب لي بها منشوراً كان نصّه[3]

ثم حضرتُ ليلةَ المولد النبويّ لخامسةِ قدومي ، وكان يحتفل في الصنيع فيها والدعوة وإنشاد الشعر اقتداء بملوك المغرب ، فأنشدته ليلتئذ :

حيِّ المعاهدَ كانت قبلُ تحييني ... بواكفِ الدمعِ يُرويها ويظميني
إنّ الأُلى نزحت داري ودارُهُمُ ... تحمَّلوا القلبَ في آثارهم دوني
وقفتُ أنشدُ صبراً ضاعَ بعدَهُمُ ... فيهم وأسألُ رسماً لا يناجيني
أُمَثِّلُ الرَّبْعَ من شوقي فألثمُهُ ... وكيفَ والفكرُ يدْنيهِ ويُقصيني
وينهبُ الوجدُ مني كلَّ لؤلؤةٍ ... ما زال قلبي عليها غيرُ مأمونِ
سقَتْ جفوني مغاني الرَّبْعَ بَعْدَهُمُ ... بالدَّمْعِ وقفٌ على أطلالهِ الجوني[4]

---

(١) وفي نسخة ثانية : زرزر .
(٢) بمعنى اعطاني ظهراً لأركبه .
(٣) بياض بالأصل في جميع النسخ لعلّ ابن خلدون ترك هذا الفراغ عن قصد ليثبت نصّ هذا المنشور ولكن الموت عاجله قبل إتمام عمله هذا .
(٤) الجون : السود .

قد كان للقلب عن داعي الهوى شغلٌ / لو أنَّ قلبي إلى السلوانِ يدعوني
أحْبابنا هل لعَهْدِ الوصلِ مُدَّكَرٌ / منكُمْ وهَلْ نسْمةٌ عنكم تُحييني
مالي وللطَّيفِ لا يَعتادُ زائرُهُ / وللنَّسيمِ عليلاً لا يُداويني
يا أهلَ نجدٍ وما نَجْدٌ وساكنُها / حُسْناً سِوَى جَنَّةِ الفِرْدَوسِ والعِينِ
أعندكم أنّني ما مرَّ ذكركُمُ / إلاّ انثنيتُ كأنّ الرّاحَ تَثنيني
أصبُو إلى البرقِ من أنحاءِ أرْضِكُمُ / شوقاً ولولاكُم ما كان يُصبيني
يا نازحاً والمُنَى تُدْنيهِ من خَلَدي[1] / حتى لأحسِبُه قُرباً يُناجيني
أسلى هواكَ فؤادي عن سِواك وما / سِواك يوماً بحالٍ عنك يُسْليني
ترى الليالِيَ أنْسَتْك ادّكاريَ يا / من لَمْ تكُنْ ذِكرَه الأيامُ تُنْسيني

ومنها في وصف الإيوان الذي بناه لجلوسه بين قُصوره :

يا مصْنعاً شيَّدَتَ منه السُّعود حمىً / لا يَطرُقُ الدَّهْرُ مَبْناه بتَوهينِ
صَرحٌ يحَار لديه الطرفُ مُفْتَتِناً / فما يروقُكَ مِنْ شكْلٍ وتلوينِ
بُعْداً لإيوانِ كِسْرَى إنّ مَشْورَكَ[2] / السامي لأعظمُ مِنْ تلْكَ الأَوَاوينِ
ودَع دِمَشقَ ومغناها فقصْرُكَ ذا / «أشهى إلى القلبِ من أبوابِ جَيْرونِ» [3]

ومنها في التَّعريض بمُنصَرَفي من العُدْوَة :

مَنْ مُبلغٌ عنّي الصَّحبَ الأُلى تركوا / ودّي وضاع حماهم إذْ أضاعوني
أني أوَيْتُ من العَليا إلى حَرَمٍ / كادَتْ مغانيه بالبُشرى تُحيّيني
وأنني ظاعِناً لَمْ ألْقَ بعدَهُمُ / دَهْراً أُشاكي ولا خَصْماً يُشاكيني
لا كالتي أخفرَتْ عَهْدي ليالي إذ / أُقلِّبُ الطَّرْفَ بين الخوفِ والهُون
سَقْياً ورَعْياً لأيامي التي ظَفِرتْ / يَدَايَ منها بحظٍّ غير مغبونِ
أرْتادُ منها مليّاً لايما طِلُني / وعداً وأرجو كريماً لا يُعنّيني
وهاكَ منها قَوافٍ طيّها حِكَمٌ / مثلَ الأزاهِرِ في طيّ الرياحينِ

(١) الخلد : البال .
(٢) مشورك : كلمة مغربية تعني مكان جلوس السلطان ومن دونه الحكام ولا تزال تستعمل في مثل هذا المعنى بالمغرب .
(٣) جيرون : عند باب دمشق من بناء سليمان بن داود عليه السلام. يقال إن الشياطين بنته وهي سقيفة مستطيلة على عمد وسقائف وحولها مدينة تطيف بها . يقال واسم الشيطان الذي بناه جيرون فسمّي به ... (معجم البلدان) .

تلوحُ إنْ جُلِيَت دراً وإنْ تِلِيَتْ		تثني عليك بــأنفــاسِ البَسَاتِينِ
عــانيتُ منهــا بجهُــدي كــلَّ شَارِدَةٍ		لولا سعودكَ مــا كــانت تواتيني
يُمانــع الفكرَ عنهــا مــا تقسَّمَــه		من كلِّ حزنٍ بطيِّ الصدرِ مكنونِ
لكــن بسَعْــدِكَ ذلّتْ لي شَوَارِدُهَــا		فَرُضتُ منهـــــا بتحبيرٍ وتزيين
بقيتَ دهركَ في أمنٍ وفي دِعَــــةٍ		ودامَ مُلْكك في نصرٍ وتمكينِ

وأنشدته سنة خمس وستين وسبعمائة في إعذار ولدهِ ، والصّنيع الذي احتفلَ لهم فيه ، ودعا إليه الجفلى[1] من نواحي الاندلس ولم يحضرني منها إلاّ ما أذكره :

صحـــا الشوقُ لولا عبرةٌ ونحيبُ		وذِكْرَى تجدُّ الوَجْدَ حين تثوب[2]
وقلبٌ أَبَـى إلاّ الوفــاءَ بعَهْــدِهِ		وإنْ نَزَحَتْ دارٌ وبَــانَ حبيبُ
ولله مني بعــد حــادثــةِ النَّوى		فؤادٌ لتــذكير[3] العهودِ طَروبُ
يؤرِّقُــه طيفُ الخيــالِ إذا سَرَى		وتُــذكي حَشاه نفحــةٌ وهبوبُ
خليليّ لا تستعديا قد دعا الأسى[4]		فــإني لما يــدعو الأسى لمُجيبُ
أَلِمّــا على الأطلالِ نقضِ حقوقَهــا		من الدمْعِ فيّاضُ الشؤنِ سَكُوبُ
ولا تعــذُ لاني في البكــاءِ فــإنّها		حشاشةُ نفسي في الــدموعِ تــذوبُ

ومنها في تقدّم ولده للاعذار من غير نكول :

فيّمم منــه الحفــلَ لا متقــاعِسٌ		ولا نِكْسٌ[5] عنــد اللقــاء هيوبُ
وراح كما راح الحسام من الوغى		تروقُ حلاهِ والفِرَنْـــــدُ خضيبُ
شواهر[6] أهــدتهنَّ منك شمائِــلٌ		وخلقٌ بصفوفِ المجدِ منك مشوبُ

ومنها في الثناء على ولديه :

هما النَّيِّرانِ الطالعـان على الهُـدى		بــآيــاتِ فتحٍ شأنهنَّ عجيبُ

(١) الجفلي : هي أن تدعو الناس الى طعامك دعوة عامة من غير اختصاص . يقال « دعي فلان في النقرى لا في الجفلى » أي في الدعوة الخاصة لا العامة (قاموس) .
(٢) النحيب : البكاء وفي النسخة الباريسية تثوب وكذلك تثوب يجمعان نفس المعنى أي ترجع وتعود .
(٣) وفي نسخة ثانية : لتذكار .
(٤) وفي نسخة ثانية : خليلي إلا تسعدا فدعا الأسى ...
(٥) وفي نسخة ثانية : لخطب ولا نكس ، والنكس : الرجل الضعيف والمقصّر عن غاية النجدة والكرم .
(٦) وفي نسخة ثانية : شواهد .

شِهابان في الهَيجَا نعامان في الثوى[1] تسُحّ المعـــالي منهما وتصوبُ
يـــدان لبسطِ المكرّمـــات نماهما إلى المجدِ فيّـــاضُ اليـــدين وهوبُ

وأنشدته ليلة المولد الكريم من هذه السنة :

أبى الطيفُ أن يعتــادَ إلا تـوهُّمـاً فَمَن لي ألقى الخيـــالَ المُسلَّما
وقد كنتُ أستهديه لـو كـان نافعي واستمطرُ الأجفانَ لو تمطر الظَما[2]
ولكـن خيـــال كـــاذب وطماعـــة تُـعَلِّـــلُ قلبـــاً بـــالأمـــاني متيّما
أَيَا صَاحبي نَجوَايَ والحبُّ لوعةٌ يبيحُ بشكواهـــــا الضميرُ المكتما
خُذَا لِفُؤَادي العهدَ من نفس الصّبا وطيّ النَّقا[3] والبان من أجرع الحمى
الأصّنَـع الشوق الـذي هـو صانـعٌ فحبّـي مقيم أقصّر الشوق أوسما
وإني ليــــد عوني السلوُّ تَعلُّلاً وتنهـــاني الأشجـــانُ أن أتقــدَّمـا
لمن دمن أقفرْنَ إلاّ هواتف تردّد في أطلالهنّ الترنّما
عرفتُ بها سمّا الهوى وتنكّرتُ فعُجْتُ على آيـــــاتها متوسّما
وذو الشّوق يعتـــادُ الربوع دوارِساً ويَعْرِفُ آثـــارَ الـــديـــارِ توهّما
تــؤوّبني والليـــلُ بيني وبينـــــه وميضٌ بـــأطرافِ الثنايـــا تَضرُّمـــا
أجَـدّلي العهـدَ القـديمَ كـأنّـه أشار بتـــذكـــار العهود فـــأفهما
عجبتُ لمرتـــاعِ الجوانحِ خـــافقٌ بكيتُ لـــه خلف الـــدُّجـــا وتبسّما
وبتُّ أروّيـــه كـؤوس مـــدامعي وبات يعاطيني الحديث عن الحِمى
وصافحته عن رسمِ دار بذي الغَضي لَبستُ بها ثوبَ الشبيبـــــة مُعْلما
لعهـدي بها تـدني الظّبـاءَ أوَانِساً وتُطْلِـعُ في آفـاقِهـا الغيـدُ أنجُما
أحنُّ إليهـا حيث سار بـي الهـوَى وأَنْجَـــدَ رَحْلي في البلادِ وأتْهَما

ولما استقرّ القرار ، واطمأنّت الدار ، وكان من السلطان الاغتباط والاستبشار ، وكثر الحنين إلى الأهل والتذكار ، أمرَ لاستقدام[4] أهلي من مطرح اغترابهم من

(١) وفي نسخة ثانية : شهابان في الهيجا غمامان في الندى .
(٢) وفي نسخة ثانية : لو تنقع الظما أي لو تروي العطشان .
(٣) وفي نسخة ثانية : ظبي النقا ، والنقا : الكثيب من الرمل .
(٤) وفي نسخة ثانية : استقدام .

سَنْطِينَة ، بعث إليهم من جاء بهم إلى تلمسان . وأمر قائد الأسطول بالمريّة ، فسارُ في إجازتهم في أسطوله ، واحتلّوا بالمريّة . واستأذنتُ السلطان في تلقّيهم ، وقدمتُ بهم على الحضرة بعد أن هيّأتُ لهم المنزل والبستان ودِمْنَة الفَلْح ، وسائر ضروريات المعاش .

وكتبتُ الى الوزير ابن الخطيب عندما قاربتُ الحضرة ، وقد كتبتُ إليه أستأذنه في القدوم ، وما اعتَمده في أحواله .

سيّدي ، قدمت بالطّير اليمانين ، على البلد الأمين ، واستضفتُ الرفاء إلى البنين ، ومُتِعْتُ بطول السنين . وصلتني البراءة المعرّبة عن كتب اللقاء ، ودنوّ المزار ، وذهاب البُعد ، وقرب الديار ، وأسْتَفْهِمُ سيدي عمّا عندي في القدوم على المخدوم ، وَأُحِبُّ أن يستقدمَني سيدي إلى الباب الكريم[1] في الوقت الذي يجد المجلس الجمهوري لم يقضِ حجيجه ، ولم يُصخ[2] بهيجه ، ويصل الأهل بعده إلى المحل الذي هيأته السعادة لاستقرارهم ، واختاره اليُمن قبل اختيارهم والسلام .

ثم لم يلبث الأعداء وأهل السعايات أن حملوا الوزير ابن الخطيب من ملابستي للسلطان ، واشتماله عَلَيّ ، وحركوا له جواد الغَيْرَة فتنكّر . وشممت منه رائحة الانقباض مع استبداده بالدولة ، وتحكمّه في سائر أحوالها ، وجاءتني كتب السلطان أبي عبدالله صاحب بجاية بأنه استولى عليها في رمضان سنة خمس وستين وسبعمائة واستدعاني إليه ، فاستأذنت السلطان ابن الأحمر في الارتحال إليه . وعميت عليه شأن ابن الخطيب إبقاءً للمودّة ، فارتمض[3] لذلك ، ولم يسعه إلاّ الاسعاف ، فودّع وزوّد وكتب لي مرسوماً بالتشييع من إملاء الوزير ابن الخطيب نصّه :

هذا ظهيرٌ كريم ، تضمّن تشييعاً وترفيعاً وإكراماً وإعظاماً ، وكان لعمل الصنيع ختاماً ، وعلى الذي أحسن تماماً ، وأشاد به للمعتمد به بالاغتباط الذي راق قساماً[4] ، وتوفر إقساماً ، وأعلق بالقبول أن نوى بعد القوى رجوعاً وآثر على الظعن المزمع مقاماً .

---

(١) وفي نسخة ثانية : والحق ان يتقدّم سيدي الى الباب الكريم .
(٢) وفي نسخة ثانية : ولا صوّح بهيجه .
(٣) بمعنى اشتدّ قلقه .
(٤) القسام : الجمال والحسن .

أمر به ، وأمضى العمل بمقتضاه ، وحبسه الأمير أبو عبدالله ابن مولانا أمير المسلمين أبي الحجّاج ابن مولانا أمير المسلمين أبي الوليد بن نصر أيّد الله أمره ، وأعزّ نصره ، وأعلى ذكره ، للوليّ الجليس ، الحظيّ المكين ، المقرب الأودّ الابن الفقيه الجليل الصدر الأوحد ، الرئيس العالم الفاضل الكامل ، الموقع الأمين الأظهر الأرْضَى ، الأخلص الأصفى ، أبي زيد عبد الرحمن ابن الشيخ الجليل ، الحسيب الأصيل ، المرفّع المعظّم ، الصدر الأوحد ، الأسمى الأفضل الموقّر المبرور أبي يحيى ابن الشيخ الجليل الكبير ، الرفيع الماجد ، القائد الحظيّ ، المعظّم الموقّر ، المبرور المرحوم أبي عبدالله بن خلدون . وصله الله أسباب السعادة ، وبلّغه من فضله أقصى الإرادة ، أعلن بما عنده ، أيّده الله من الاعتقاد الجميل في جانبه المرفّع ، وإنْ كان غنياً عن الإعلان ، وأعرب عن معرفة مقداره في الحسبان ، العلماء الرؤساء الأعيان ، وأشاد باتّصال رضاه عن مقاصده البرّة وشِيَمِهِ الحِسان ، من لَدُنَ وَفَد على بابه ، وفادة العزّ الراسخ البنيان ، وأقام المقام الذي عيّن له رِفْعَةَ المكان ، وإجلال الشان ، إلى أن عزم على قصد وطنه ، أبلغه الله في ظل الأمن(١) والأمان ، وكفالة الرحمن بعد الاغتباط المُرْبي على الخير بالعِيَان ، والتمسّك بجواره بجهد الإمكان ، ثم قبول عُذره بما جبلت الأنفس عليه من الحنين إلى المعاهد والأوطان . بعد أن لم يدّخِر عنه كرامة رفيعة ، ولم يحجب عنه وجه صنيعه ، فولاّه القيادة والسيادة(٢) وأحلّه جليساً معتمداً بالإستشارة ، ثم أصحبه تشييعاً يشهد بالضنانة بفراقه ، ويجمع له برَّ الوجاهة من جميع آفاقه ، ويجعله بيده رثيمة خنصر(٣) ووثيقة سامع أو مُبْصِر ، فمهما لوى أخدعه إلى هذه البلاد بعد قضاء وطره ، وتملّيه من نهمة سفره ، أو نزع به حسن العهد وحنين الودّ ، فصَدْرُ العناية به مشروح ، وبابُ الرضا والقبول مفتوح ، وما عَهِده من الحظوة والبرّ ممنوح . فما كان القصد في مثله من أمجاد الأولياء التحوّل ، ولا الاعتقاد الكريم التبدّل ، ولا الزمن الأخير أن ينسخ الأوّل . على هذا فليطو ضميره ، ولْيَرِدْ ما شاء نميرَه ، ومن وقف عليه من القوّاد والأشياخ والخدّام براً وبحراً على اختلاف الخطط والرتب ، وتباين الأحوال والنسب ، أن يعرفوا حق

---

(١) وفي نسخة ثانية : اليمن .

(٢) وفي نسخة ثانية : السفارة .

(٣) رتيمة خنصر : الخيط الذي يشد في الاصبع لتستذكر به الحاجة .

هذا الاعتقال في كلّ ما يحتاج إليه من تشييع ونزول ، وإعانة وقبول ، واعتناء موصول إلى أن يكمل الغرض ، ويؤدّي من امتثال هذا الأمر الواجب المفترض بحول الله وقوّته .

وكتب في التاسع عشر من جمادي الأولى عام ست وستين وسبعمائة .

وبعد التاريخ العلامة بخطّ السلطان ، ونصّها «صح هذا» .

* (الرحلة من الأندلس الى بجاية وولاية الحجابة بها على الاستبداد) *

كانت بجاية ثغراً لأفريقية في دولة بني أبي حفص من الموحدين . ولما صار أمرهم للسلطان أبي يحيى منهم ، واستقلّ بملك أفريقية ، ولّى في ثغر بجاية إبنه الأمير أبو زكريا ، وفي ثغر قسنطينة ابنه الأمير أبا عبدالله . وكان بنو عبد الواد ملوك تلمسان والمغرب الأوسط ينازعونه في أعماله ، ويحجرون الكتائب على بجاية[1] ، ويجلبون على قُسَنْطينة إلى أن تمسّك السلطان أبو بكر بذمّة من السلطان أبي الحسن ملك المغرب الأوسط والأقصى من بني مرين ، وله الشّفوف على سائر ملوكهم . وزحف السلطان أبو الحسن إلى تلمسان فأخذ بمخنقها سنتين أو أزيد ، وملكها عنوة وقتل سلطانها أبا تاشفين وذلك سنة سبع وثلاثين وسبعمائة . وخفّ ما كان على الموحّدين من أمر بني عبد الواد ، واستقامت دولتهم . ثم هلك أبو عبدالله ابن السلطان أبي يحيى بقسنطينة سنة أربعين وسبعمائة ، وخلّف سبعةً من الأولاد ، كبيرهم أبو زيد عبد الرحمن ، ثم أبو العبّاس أحمد ، فولّى الأمير أبو زيد مكان أبيه في كفالة نبيل مولاهم . ثم توفّي الأمير أبو زكريا ببجاية سنة ست وأربعين وسبعمائة ، وخلّف ثلاثة من الأولاد ، كبيرهم أبو عبدالله محمد ، وبعث السلطان أبو بكر ابنه الأمير أبا حَفْص عليها ، فمال أهل بجاية إلى الأمير أبي عبدالله بن زكريا ، وانحرفوا عن الأمير عُمَر وأخرجوه . وبادر السلطان فرقع هذا الخرق بولاية أبي عبدالله عليهم كما طلبوه . ثم توفي السلطان أبو بكر منتصفّ سبع وأربعين وسبعمائة وزحف أبو الحسن إلى أفريقية

(١) وفي نسخة ثانية : ويجمّرون العساكر على بجاية .

فملكها ، ونقل الأمراء من بجاية وقسنطينة إلى المغرب . وأقطع لهم هنالك إلى أن كانت حادثة القيروان ، وخلع السلطان أبو عنان أباه . وارتحل من تلمسان إلى فاس ، فنقل معه هؤلاء الأمراء أهل بجاية وقسنطينة ، وخلطهم بنفسه ، وبالغ في تكرمتهم . ثم صرفهم إلى ثغورهم الأمير أبا عبدالله أولاً ، وإخوته من تلمسان ، وأبا زيد وإخوته من فاس ليستبدّوا بثغورهم ، ويُخذِلوا الناس عن السلطان أبي الحسن ، فوصلوا إلى بلادهم وملكوها بعد أن كان الفضل ابن السلطان أبي بكر قد استولى عليها من يد بني مرين ، فانتزعوها منه . واستقرّ أبو عبدالله ببجاية حتى إذا هلك السلطان أبو الحسن بجبال المصامدة ، وزحف أبو عنان إلى تلمسان سنة ثلاث وخمسين وسبعمائة فهزم ملوكها من بني عبد الواد وأبادهم ، ونزل المدية وأطلّ على بجاية ، وبادر الأمير أبو عبدالله للقائه ، وشكا إليه ما يلقاه من زبون[1] الجند والعرب ، وقلّة الجباية . وخرج له عن ثغر بجاية فملكها ، وأنزل عمّاله بها ، ونقل الأمير أبا عبدالله معه إلى المغرب ، فلم يزل عنده في كفاية[2] وكرامة . ولما قدمتُ على السلطان أبي عنان سنة خمس وخمسين وسبعمائة واستخلصني منه ، نَبَضَتْ عروقُ السابق بين سلفي وسلف الأمير أبي عبدالله ، واستدعاني لصحابته ، فأسرعت وكان السلطان أبو عنان شديد الغيرة من مثل ذلك . ثم كثر المنافسون ورفعوا إلى السلطان وقد طرقه مرض أرجف له الناس ، فرفعوا له أنّ الأمير أبا عبدالله اعتزم على الفرار إلى بجاية ، وأني عاقدته على ذلك ، على أن يولّيني حجابته ، فانبعث له السلطان وسطا بنا واعتقلني نحواً من سنتين إلى أن هلك . وجاء السلطان أبو سالم واستولى على المغرب ، ووُلِّيتُ كتابة سرّه ، ثم نهض إلى تلمسان وملكها من يد بني عبد الواد ، وأخرج منها أبا حمّو موسى بن يوسف بن عبد الرحمن بن يغمراسن ، ثم اعتزم على الرجوع إلى فاس ، وولّى على تلمسان أبا زيّان محمد بن أبي سعيد عثمان ابن السلطان أبي تاشفين وأمدّه بالأموال والعساكر من أهل وطنه ليدافع أبا حمّو عن تلمسان ويكون خالصة له ، وكان الأمير أبو عبدالله صاحب بجاية كما ذكرناه ، والأمير أبو العبّاس صاحب قسنطينة بعد أن كان بنو مرين حاصروا أخاه أبا زيد بقسنطينة أعواماً تباعاً .

(١) زبون : بمعنى الحرب .

(٢) وفي نسخة ثانية : حفاية والحفاية المبالغة في الإكرام .

ثم خرج لبعض مذاهبه إلى بونة ، وترك أخاه أبا العبّاس بها فخلعه ، واستبدّ بالأمر وخرج إلى العساكر المجمّرة عليها من بني مرين ، فهزمهم وأثخن فيهم . ونهض السلطان إليه من فاس سنة ثمان وخمسين وسبعمائة فتبرّأ منه أهل البلد وأسلموه ، فبعثه إلى سبتة في البحر ، واعتقله بها حتى إذا ملك السلطان أبو سالم سبتة عند إجازته من الأندلس سنة ستين وسبعمائة أطلقه من الاعتقال وصحبه إلى دار ملكه ووعده بردّ بلده عليه .

فلمّا ولّى أبو زيّان على تلمسان أشار عليه خاصّته ونصحاؤه بأن يبعث هؤلاء الموحّدين إلى ثغورهم ، فبعث أبا عبدالله إلى بـجاية وقد كان ملكها عمّه أبو اسحق صاحب تلمسان[1] ، ومكفول بن تافراكين من يد بني مرين . وبعث أبا العبّاس إلى قُسَنْطِينَة وبها زعيم من زعماء بني مرين . وكتب إليه السلطان أبو سالم أن يفرج له عنها فملكها لوقته ، وسار الأمير أبو عبدالله إلى بـجاية فطال إجلابه عليها ، ومعاودته حصارها . وألحّ أهلها في الامتناع منه مع السلطان أبي اسحق . وقد كان لي المقام المحمود في بعث هؤلاء الأمراء إلى بلادهم . وتولّيتُ كبر ذلك مع خاصّة السلطان أبي سالم وكتاب أهل مجلسه ، حتى تمّ القصد من ذلك ، وكتب لي الأمير أبو عبدالله بـخطّه عهداً بولاية الحجابة متى حصل على سلطانه ، ومعنى الحجابة في دولنا بالمغرب الاستقلال بالدولة ، والوساطة بين السلطان وبين أهل دولته ، لا يشاركه في ذلك أحد . وكان لي أخ صغير إسمه يحيى[2] ، أصغر مني ، فبعثه مع الأمير أبي عبدالله حافظاً للرسم ، ورجعتُ مع السلطان إلى فاس . ثم كان ما قدّمته من إنصرافي إلى الأندلس والمقام بها إلى أن تنكّر الوزير ابن الخطيب وأظلم الجوّ بيني وبينه .

وبينما نحن في ذلك ، وصل الخبر باستيلاء الأمير أبي عبدالله على بـجاية من يدعمه في رمضان سنة خمس وستين وسبعمائة وكتب لي الأمير أبو عبدالله يستقدمني ، فاعتزمت على ذلك ، ونكر السلطان أبو عبدالله ابن الأحمر ذلك مني ، لا لظنّه سوى ذلك[3] ، إذ لم يطّلع على ما كان بيني وبين الوزير ابن الخطيب ، فأمضيتُ

---

(١) وفي نسخة ثنية : صاحب تونس وهي أصح لأنه كان على تلمسان يومئذٍ أبو زيان محمد بن أبي سعيد .

(٢) هو يحيى بن خلدون وقد قتل سنة ٧٨٠ بأمر من أبي تاشفين بن أبي زيان . كان مؤرخاً وأديباً ، له كتاب « بغية الرواد في أخبار بني عبد الواد » .

(٣) وفي نسخة ثانية : لا يظنه لسوى ذلك .

حرم ، ووقع منه الإسعاف والبرّ والألطاف . وركبتُ البحر من مرسى المريّة منتصف ست وستين وسبعمائة ونزلت بجاية لخامسة من الإقلاع ، فاحتفل السلطان صاحب بجاية لقدومي ، وأركب للقائي ، وتهافت أهل البلد عليّ من كل أوب يمسحون أعطافي ، ويقبّلون يديّ ، وكان يوماً مشهوداً .

ثم وصلتُ إلى السلطان فحيّا وفدّى ، وخلع وحمل ، وأصبحتُ من الغد ، وقد أمر السلطان أهل الدولة بمباكرة بابي ، واستقللت بحمل ملكه ، واستفرغت جهدي في سياسة أموره وتدبير سلطانه ، وقدّمني للخطابة بجامع القصبة وأنا مع ذلك ، عاكفٌ بعد انصرافي من تدبير الملك غدوةً ، إلى تدريس العلم أثناء النهار بجامع القصبة ، لا أنفكّ عن ذلك .

ووجدتُ بينه وبين ابن عمّه السلطان أبي العبّاس صاحب قُسَنْطِينَة فتنة ، أحدثتها المشاحّة في حدود الأعمال من الرعايا والعمّال ، وشبّت نار هذه الفتنة بعرب أوطانهم من الزواودة من رياح ، تنفيقاً لسوق الزبون يميرون[1] به أموالهم ، فكانوا في أهمّ شقة بجمع بعضهم لبعض فالتقو سنة ست وستين وسبعمائة بفدحيوه[2] ، وانقسم العرب عليهما ، وكان يعقوب بن علي مع السلطان أبي العبّاس ، فانهزم السلطان أبو عبدالله ورجع إلى بجاية مفلولاً بعد أن كنتُ جمعت له أموالاً كثيرة أنفق جميعها في العرب ، ولمّا رجع وأعوزته النفقة ، خرجت بنفسي إلى قبائل البربر بالجبال[3] الممتنعين من المغارم منذ سنين ، فدخلت بلادهم واستبحتُ حماهم ، وأخذت رهنهم على الطاعة ، حتى استوفيت منهم الجباية ، وكان لنا في ذلك مددٌ وإعانةٌ . ثم بعث صاحب تلمسان إلى السلطان يطلب منه الصِّهر ، فأسعفه بذلك ليصل يده به على ابن عمّه ، وزوّجه إبنته ، ثم نهض السلطان أبو العبّاس سنة سبع وستين وسبعمائة وجاس أوطان بجاية ، وكاتب أهل البلد ، وكانوا وجلين من السلطان أبي عبدالله لما كان يرهف الحدّ لهم ، ويشدّ وطأته عليهم ، فأجابوه إلى الإنحراف عنه . وخرج الشيخ أبو عبدالله يروم مدافعته ، ونزل جبل إيزو معتصماً به ، فبيّته السلطان أبو العبّاس في عساكره وجموع الأعراب من أولاد محمد من رياح بمكانه ذلك ،

---

(١) وفي نسخة ثانية : يمترون به اموالهم : أي يستخرجونها .

(٢) وفي نسخة ثانية : بفرجيوة .

(٣) وفي نسخة ثانية : الى قبائل البربر بجبال بجاية .

بإغراء ابن صخر وقبائل سدويكش ، وكبسه في مخيّمه وركض هارباً ، فلحقه وقتله ، وسار إلى البلد بمواعدة أهلها . وجاءني الخبر بذلك ، وأنا مقيم بقصبة السلطان بقصوره ، وطلب مني جماعة من أهل البلد القيام بالأمر والبيعة لبعض أبناء السلطان ، فتفاديتُ من ذلك ، وخرجت إلى السلطان أبي العبّاس فأكرمني وحيّاني[1] ، وأمكنته من بلده ، وأجرى أحوالها[2] كلها على معهودها . وكثرت السعاية عنده فيّ والتحذير من مكاني ، وشعرت بذلك ، فطلبت الإذن في الإنصراف بعهد كان منه في ذلك ، فأذن لي بعدما أبى ، وخرجتُ إلى العرب ، ونزلت على يعقوب بن عليّ . ثم بدا له الشأن في أمري ، وقبض على أخي واعتقله ببونة . وكبس بيوتنا ، فظنّ بها ذخيرة وأموالاً فأخفق ظنُّه . ثم ارتحلت من أحياء يعقوب بن عليّ وقصدت بَسْكَرَة[3] لصحابة بيني وبين شيخها أحمد بن يوسف بن مَزْنى ، وبين أبيه ، فأكرم وبرّ وساهم في الحادث بمالِهِ وجاهِهِ والله أعلم .

* (مشايعة أبي حمو صاحب تلمسان) *

كان السلطان أبو حمو قد التحم ما بينه وبين السلطان أبي عبدالله صاحب بـجاية بالصِّهر في إبنته ، وكانت عنده بتلمسان . فلما بلغه مقتل أبيها واستيلاء السلطان أبي العبّاس ابن عمّه صاحب قُسَنْطِينَة على بـجاية ، أظهر الامتعاض لذلك ، وكان أهل بـجاية قد توجّسوا الخيفة من سلطانهم بإرهاف حدّه ، وشدّة بطشه . وسطوته فانحرفوا عنه باطناً وكاتبوا ابن عمّه بقسنطينة كما ذكرناه .

ودسّوا للسلطان أبي حمّو بـمثلها يرجون الخلاص من صاحبهم بأحدهما . فلمّا استولى السلطان أبو العباس وقتل ابن عمّه رأوا أن جرحَهم قد اندمل ، وحاجتهم قد قضيت ، فاعصوصبوا عليه ، وأظهر السلطان أبو حمّو الامتعاض للواقعة يسرّ منها

(١) وفي نسخة ثانية : حباني .

(٢) وفي نسخة ثانية : احوالي .

(٣) بَسْكَرَة : بلد بالجزائر كانت قاعدة بلاد الزاب (معجم البلدان) .

حسواً في ارتقاء[١] ، ويجعله ذريعة للاستيلاء على بجاية ، لِمَا كان يرى نفسه كفؤها بعدده وعديده ، وما سلف من قومه في حصارها ، فسار من تلمسان يجرّ الشوك والمدر[٢] ، خيّم بالرشّة من ساحتها ، ومعه أحياء زغبة بجموعهم وظعائنهم من لدن تلمسان إلى بلاد حُصَيْن من بني عامر وبني يعقوب وسُوَيْد والديالم والعطاف وحُصَيْن.

وانحجر أبو العباس بالبلد في شرذمة من الجند أعجله السلطان أبو حمّو عن استكمال الحشد ، ودافع أهل البلد أحسن الدفاع ، وبعث السلطان أبو العبّاس عن أبي زيّان ابن السلطان أبي سعيد عمّ أبي حمّو من قُسَنْطِينَة ، كان معتقلاً بها ، وأمر مولاه وقائد عسكره بشيراً أن يخرج معه في العساكر ، وساروا حتى نزلوا بني عبد الجبار قبالة معسكر أبي حمو ، وكانت رجالات زغبة قد وجموا من السلطان ، وأبلغهم النذير أنّه إنّ مَلَكَ بجاية اعتقلهم بها ، فراسلوا أبا زيّان وركبوا إليه ، واعتقدوا معه وخرج رجل البلد بعض الأيام من أعلى الحصن ، ودفعوا شرذمة كانت مجمّرة بإزائهم ، فاقتلعوا خِبَاءَهم ، وأسهلوا من تلك العقبة إلى بسيط الرشّة ، وعاينهم العرب بأقصى مكانهم من المعسكر فأجفلوا ، وتتابع الناس في الإنجفال حتى أفردوا السلطان في مخيّمه فحمل رواحله وسار ، وغصّت الطرق بزحامهم ، وتراكم بعضهم على بعض ، فهلك منهم عوالم . وأخذهم سكّان الجبال من البربر بالنهب من كل ناحية ، وقد غشيهم الليل ، فتركوا أزوادهم ورِحَالهم . وخلص السلطان ومن خلص منهم بعد غصّ الريق ، وأصبحوا على منجاة . وقذفت بهم الطرق من كل ناحية إلى تلمسان ، وكان السلطان أبو حمّو قد بلغه خبر خروجي من بجاية ، وما أُحدثه السلطان بعدي في أهلي ومخلفي ، فكتب إليّ يستقدمني قبل هذه الواقعة ، وكانت الأمور قد اشتبهت ، فتفاديت بالأعذار ، وأقمت بأحياء يعقوب بن عليّ . ثم ارتحلت إلى بسْكَرَة فأقمت بها عند أميرها أحمد بن يوسف بن مَزْنَي . فلمّا وصل السلطان أبو حمّو إلى تلمسان وقد جزع للواقعة ، أخذ في استئلاف قبائل رياح ليجلب بهم مع عساكره على أوطان بجاية ، وخاطبني في ذلك لقرب عهدي باستتباعهم ، ومُلْك

---

(١) الأصح حسواً في ارتغاء : أي يشرب اللبن خفية ، ويتظاهر بأنه يأخذ الرغوة ، وهو مثل يضرب بمن يظهر أمراً وهو يريد غيره .

(٢) مثل عام ويعني به كثرة جيشه .

زِمامهم ، ورأى أن يعوّل عليّ في ذلك ، واستدعاني لحجابته وعلامته ، وكتب بخطّه مدرجة في الكتاب نصّها :

الحمد لله على ما أنعم ، والشكر لله على ما وهب ، ليعلم الفقيه المكرّم أبو زيد عبد الرحمن بن خلدون ، حفظه الله ، انك تصل إلى مقامنا الكريم بما خصصناكم به من الرتبة المنيعة ، والمنزلة المنيفة ، وهو قلم خلافتنا ، والانتظام في سلك أوليائنا ، وقد أعلمناكم بذلك ، وكتب بخطّ يده عبدالله المتوكل على الله ، موسى بن يوسف لطفَ الله به وخار له .

وبعده بخطّ الكاتب ما نصّه : بتاريخ السابع عشر من شهر رجب الفرد الذي من عام تسع وستين وسبعمائة ، عرّفنا الله خيره . ونصّ الكتاب الذي هذه مُدْرَجَتُه ، وهو بخطّ الكاتب : «أكرمكم الله يا فقيه أبا زيد ووالى رعايتكم ، إنّا قد ثبتَ عندنَا ، وصحّ لدينا ما انطويتم عليه من المحبّة في مقامِنا ، والانقطاع إلى جنابنا ، والتشييع قديماً وحديثاً لنا ، مع ما نعلمه من محاسن اشتملت عليها أوصافكُم ، ومعارفَ فُقْتُم فيها نظراءكم ، ورسوخ القَدَم في الفنون العلميّة والآداب العربيّة .

وكانت خطّة الحجابة ببابنا العليّ أسماه الله إلى درجات أمثالكم ، وأرفع الخطط لنظرائكم ، قُرباً منّا ، واختصاصاً بمقامنا ، واطّلاعا على خفايا أسرارنا ، آثرناكم بها إيثاراً ، وقدّمناكم لها اصطفاءً واختياراً ، فاعملوا على الوصول إلى بابنا العليّ أسماه الله لما لكم فيه من التنويه ، والقدر النبيه ، حاجباً لعليّ بابنا ، ومستودعاً لأسرارنا ، وصاحباً لكريم علامتنا ، إلى ماشاكل ذلك من الانعام العميم ، والخير الجسيم ، والاعتناء والتكريم . لا يشارككُم مشاركٌ في ذلك ، ولا يزاحمكُم أحد ، وإن وجد من أمثالكم فأعملوه وعوّلوا عليه ، والله تعالى يتولاّكم ، ويصل سرّاءَكم ، ويوالي احتفاءكم . والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته» .

وتأدّت إليّ هذه الكتب السلطانيّة على يد سفير من وزرائه جاء إلى أشياخ الزواودة في هذا الغرض ، فقمت له في ذلك أحسن قيام وشايعته أحسن مشايعة ، وحملتهم على إجابة داعي السلطان والبدار إلى خدمته . وانحرف كبراؤهم عن السلطان أبي العبّاس إلى خدمته ، والاعتمال في مذاهبه ، واستقام غرضه من ذلك ، وكان أخي يحيى قد خلص من اعتقاله ، وقَدِم عليّ ببِسْكَرَة ، فبعثته إلى السلطان أبي حمّو كالنائب عنيّ في الوظيفة ، متفادياً عن تَجَشُّم أهوالها بما كنت

نزعت عن غواية الرتب . وطالَ عليّ إغفال العلم ، فأعرضتُ عن الخوض في أحوال الملوك ، وبعثتُ الهمّة على المطالعة والتدريس ، فوصل إليه الأخ فاستكفى به في ذلك ، ودفعه إليه .

ووصلني مع هذه الكتب السلطانيّة كتاب رسالة من الوزير أبي عبدالله بن الخطيب من غرناطة يتشوّق إليّ ، وتأدّى إلى تلمسان على يد سفراء السلطان ابن الأحمر ، فبعث إليّ من هنالك ونصّه :

بنفسي وما نفسي عليّ رخيصة[1] ... فيُنْزِلَني عنها المِكاس بأثمانِ
حبيبٌ نأى عنّي وصمّ لا أنثني ... وراشَ سهام البَيْن عمداً فأصناني[2]
وقد كان همُّ الشَّيب لا كان كائناً[3] ... فقد آدني لما ترحّل همّان
شرعتُ له من دمع عينيّ مورداً ... فكدّر شربي بالفِراق وأظْمَاني
وأرعيْتُه من حُسْنِ عَهدي حمية[4] ... فأجدب آمالي وأوحش أزماني
حلفتُ على ما عنده لي من رضى ... قياساً بما عندي فأحنثَ أيماني
وإني على ما نالني منه من قلى ... لأشتاقُ مِنْ لُقْياه نُعبةَ ظمآنِ
سألت جنوني فيه تقريبَ عرسه ... فَقِسْتُ بجرّ الشوقِ جنَّ سُلَيْمانِ
إذا ما دعا داعٍ من القوم باسمه ... وثبتُ وما استثبت شيمةَ هَيْمانِ
وتالله ما أصغيتُ فيه لعاذلٍ ... تحاميتُه حتى ارعَوَى وتحاماني
ولا استشعرتْ نفسي برحمةِ عابدٍ ... تَظَلّلُ يوماً مِثْلَه عبدُ رحمنِ
ولا شعَرَتْ من قبله بتشوّقٍ ... تخلّل منها بين روحٍ وجُثمانِ

أمّا الشوق فحدّث عن البحر ولا حرج ، وأمّا الصبر فسل به أيّة درج ، بعد أن تجاوز اللوى[5] والمنعرج ، لكن الشدّة تعشق الفرج ، والمؤمن ينشق من روح الله الأرَج ، وأني بالصبر على إبَر الزبر[6] لا بل الضّرب الهبر ، ومطاولة اليوم والشهر ، تحت حكم

---

(١) وفي نسخة ثانية : بهيّنة .

(٢) وفي نسخة ثانية : فأحماني وأحمى الصيد : رماه فقتله في مكانه .

(٣) وفي نسخة ثانية : كافيا .

(٤) وفي نسخة ثانية : جميمه .

(٥) اللوى : ما التوى من الرمل .

(٦) وفي نسخة ثانية : الدبر أي الزنانير .

القهر ، ومَنْ للعين أن تسلو سُلوَّ القصر عن إنسانها المُبْصِر ، أو تذهل ذهول الزاهد عن سرِّها الرائي والمشاهد ، وفي الجسد مضغة يصلح إذا صَلُحَت ، فكيف حاله إن رَحلَتْ عنه أو تَرحَتْ ، وإذا كان الفراق هو الحِمَام الأوّل ، فعلام المعوَّل أعيتْ مُراوضَة الفراق على الرواق[1] ، وكادت لوعة الاشتياق أن تفضي إلى السياق[2] .

تركتموني بعـــــــد تشييعكم أوسِعُ أمرَ الصبر عِصيـــانـــا
أَقْرَعُ سِنّــي نــدمــاً تــارةً وأستميحُ الــدَّمْــعَ أحيــانــا

وربما تعللت بغشيان المعاهد الخالية ، وجدّدت رسوم الأسى بمُباكرة الرسوم البالية ، أسائِل نون النؤى[3] عن أهليه ، وهيامُ المرقد المهجور عن مصطليه ، وثاء الأثافي المثلَّثة من منازل الموحّدين ، وأحارُ بين تلك الأطلال حيرة الملحدين . لقد ضللتُ إذاً وما أنا من المهتدين ، كَلِفْتُ لعمر الله بسائل عن جفوني المؤرقة ، ونائم عن شجوني[4] المجتمّعة المتفرّقة ، ظَعَن عن ملال ، لا متبرماً بشرّحال[5] وكدر الوصل بعد صفائه ، وضرّح النّصْل بعد عهدِ وفائِه .

أقِــل اشتيـــاقــاً أيها القلبُ إنّما رأيتُك تُصْفي الوُدَّ من ليس جازيا

فها أنا أبكي عليه بدم أَساله ، وأندُبُ في ربع الفراق آسى له ، وأشكو إليه حال قلبٍ صَدَعَهُ ، وأودعه من الوجد ما أودعه ، لما خدعه ، ثم قلاه وودّعه ، وأُنْشِقُ رَيّاه أنف ارتياح قد جدعه ، واستعديه على ظلم ابتدَعَهُ .

«خليليّ فيما عِشْتُما هَـــــلْ رأيتُما قتيلاً بكى من حبِّ قاتِله قبلي»[6]

فلولا عسى الرجاءِ ولعلّه ، لا بل شفاعة المحلِّ الذي حَلّه ، لنشرت ألوية العتب ، وبثثتُ كتائبها كميناً في شعاب الكتب ، تهزّ من الألفات رِماحاً هزّ الأسِنّة[7] وتُوتّر من النونات أمثال القسيّ المرِنّة ، وتقود من مجموع الطِّرس والنِقس بُلْقاً تُردِي في

---

(١) وفي نسخة ثانية : عمل الرّاق .
(٢) السياق : بداية مفارقة الروح .
(٣) النؤى : الحفير حول الخيمة يمنع عنها المسيل .
(٤) وفي نسخة ثانية : عن همومي .
(٥) وفي نسخة ثانية : لا متبرّماً منا بشرّ خلال .
(٦) هذا البيت «لجميل بثينة» وهو جميل بن عبدالله بن معمر العُذْري .
(٧) وفي نسخة ثانية خزر الأسِنّة .

الأعنّة ، ولكنه أوى إلى الحرم الأمين ، وتفيأ ظلال الجوار المُؤَمّن من معرّة الغِوار عن الشمال واليمين ، حرم الخلال المَزْنية ، والظلال اليَزْنيّة ، والهِمَم السنيّة ، والشيم التي لا ترضى بالدون ولا بالدَّنية ، حيث الرِّفدُ الممنوح ، والطير الميامن يزجر لها السنوح والمثوى الذي إليه مهما تقارع الكرام على الضيفان ، حَولَ جوابي الجِفَان ، فهو الجنوح .

نسب كـأنّ عليه من شمس الضُّحى ... نوراً ومن فَلَقَ الصّبـــاح عمودا

ومن حلّ بتلك المثابة فقد اطمأنّ جنبه ، وتغمّد بالعفو ذنبه ، (ولله در القائل) :

فوحقِّـه لقـد انْتُـدِبْتُ لِوَصْفِـهِ ... بـالبُخْـلِ لولا أنّ حِمْصاً دَارُهُ

بلـدٌ متى أذكرُهُ هَيْجُ[1] لوعتي ... وإذا قـدحت الزّنـد طـار شرارُهُ

اللهم غفراً ، وأين قرارِه النخيل ، من مثوى الألف البخيل ، ومكذبة المُخيل ، وأين نائية هجر ، من متبرىء ممن ألّحد وفَجَرَ[2]

من أنكر غيثُ مُسْوَدّةٍ[3] ... في الأرض ينوء بمُخْلِفِهَـــا

فبنـــانُ بني مَـزْنَى مُزنٌ ... تَنْهَـــلُّ بلطفِ مُصرِّفهَـــا

مُزنٌ مُـــذْحــلّ بِسْكَرَةَ ... يومـــاً نطقَتِ بِمُصْحَفِهَـــا

شَكَرَتْ حـتى بعَبَـــارَتِهـــا ... وبمعنـــاهـــا وبـــأحْرُفِهـــا

ضحكت بـأبـي العبـاس من الأ ... يـــام ثنـــايـــا زُخْرُفُهـــا

وشكرت الـــدنيـــا متى عرفت ... مزن فيهـــا بمعرّفهـــا[4]

بل نقول لا محل للولد[5] ، لا أقسم بهذا البلد ، وأنت حِلٌّ بهذا البلد ، لقد حلّ بينك عُرى الجَلَد ، وخَلَدَ الشوق بعدك يا ابن خلدون في الصميم من الخَلَد ، فحيّا الله زمانا شفيت في قربك زمانته[6] ، واحتُليت في ذروة مجدك جمانته ، ويا من لمشوق لم يقض من طول خلّتك لبانته[7] ، وأهلاً بروض أضلّت شباب معارفك

---

(١) وفي نسخة ثانية : تهتج .

(٢) وفي نسخة ثانية : وابن ثانية هجر ، من متبوأ من ألحد وفجر .

(٣) وفي نسخة ثانية : من أنكر غيثاً منشؤه .

(٤) وفي نسخة ثانية : وتنكّرت الدنيا حتى ... عرفت منه بمعرّفها .

(٥) وفي نسخة ثانية : يا محلّ الولد .

(٦) بمعنى العامة .

(٧) وفي نسخة ثانية : وقُضِيَتْ في مرعى خلّتك لبناته .

بانته ، فحمائمه بعدك تندبُ فيساعدها الجُنْدُب ، ونواسمه ترقّ فتتغاشى ، وعشبانه تتهافت وتتلاشى ، وأدواحه في ارتباك ، وحمائمه في مأتم ذي اشتباك ، كأن لم تكن قمرهالات قبابه ، ولم يكن أنسك شارع بابه ، إلى صفوة الظرف ولبابه ، ولم يسبح إنسانُ عينك(١) في ماء شبابه ، فلهفاً عليك من درّة اختلسَتْها يدُ النوى ، ومطل بردّها الدّهر ولَـوَى ، ونعق غراب بينها في ربوع الهوى ، ونطق بالزَّجْر فما نطق عن الهوى ، وبأيّ شيء يُعتاض منك أيتُها الرِّياض ، بعد أن طما نهرك الفيّاض ، وفهقت(٢) الحياض ، ولا كان الشانيء المشنوء والحرب المهنوء من قطيع ليلٍ أغار على الصبح فاحتمل ، وشارك في الأمر الناقة والجمل ، واستأثر جنحه ببدر النادي لمّا كمل ، فشرّع(٣) الشراع فراع ، وواصل الإسراع ، فكأنّما هو تمساح النِّيل ضَايَقَ الأحباب في البرهة ، واختطف بهم من الشطْ نُزْهَة العين ، وعين النزهة ، ولَـجّـجَ بها ، والعيون تنظر ، والعبر عن الاتباع(٤) تحظر ، فلم يقدر إلاّ على الأسف ، والتماح الأثر المنتسف ، والرجوع بملء العيبة من الخيبة ، ووفر الحبرة(٥) من الحسرة ، إنّما نشكو إلى الله البثّ والحزن ، ونستمطر منه المُزْن(٦) ، وبسيف الرجاء نصول ، اذا شرّعت لليأس أَسِنّةٌ ونُصُول .

مـا أقـدرَ الله أن يدني على شَحَطٍ   مَنْ دَارَهُ الحزنُ مِمّن دارُهُ صُـوَلُ

فإن كان كلام(٧) الفراق رغيباً ، لمّا نَـوَيْتَ مغيباً ، وجلّلت الوقت الهنيّ تشغيباً ، فلعلّ الملتقى يكون قريباً ، وحديثه يروى صحيحاً غريباً . إيهٍ سيدي كيف حالُ تلك الشمايل المزهرة المخايل ، والشيم الهامية الديم ؟ هل يمرّ ببالها من راعت بالبعد باله ، وأخمدت بعاصف البين ذُبالَه ؟ أو تَرْثي لمُـؤَق(٨) شأنها سَكْب لا يَـفْـتَـرُ ، وشوق

(١) بؤبؤ العين .
(٢) امتلأت .
(٣) وفي نسخة ثانية : نشر الشراع فراع .
(٤) وفي نسخة ثانية : الغمر عن الاتباع يحظر . والغمر : الماء الكثير .
(٥) وفي نسخة ثانية : الجسرة أي الناقة .
(٦) المزن : السحاب .
(٧) وفي نسخة ثانية : كَلْم وهو الجرح .
(٨) وفي نسخة ثانية : لشئون .

يُبَتُّ حبال المشوّق[1] ويبْتُرُ وضَنىً تقصُر عن حلله الفائقة صَنْعاءَ وتَسْتَرُ[2] والأمر أعظم والله يَسْتُرُ ، وما الذي يضيرُكَ صير من بلفح السموم يضيرك[3] ، بعد أن أَضْرَمْتَ وأشْعَلْتَ وأَوْقَدْتَ ، وجعَلْتَ ، وفعَلْتَ فِعْلَتَكَ التي فعَلْتَ ، إنْ تترفق بذماء ، أو تَرُدَّ بنُغْبة ماء ، أرماقَ ظِماء ، وتتعاهد المعاهد بتحيّة عليها شذ أنفاسك ، أو تنظر إلينا من البعد بمُقْلَةِ حَوْرَاءَ من بَيَاضِ قِرْطَاسِك وسواد أنفاسك ، فربّما قنعت الأنفس المحبّة بخيال يزور ، وتعلّلت بنوالٍ منذور ، ورضيت لما لم تَصِدْ العنقاءَ بزَرْزُور .

يـا مَنْ تَرَحَّـلَ والريـاحُ لأجْلِـهِ ... تشتـاقُ أنْ يعبقَ شَذَارَيّـاهـا[4]
تحيـا النفوسُ إذا بَعَثْتَ تَحِيّـةً ... وإذا قَرأْتَ تَرَى ومَنْ أَحْيَـاهـا[5]

ولئن أحييت بها فما سَلَف نفوسنا تَفْدِيك ، واللهُ إلى الخير يهديك ، فنحن نقولُ مَعْشَرَ مُودِّيك «ثنّ ولا تجعلها بيضة الدِّيك[6] وعذراً فإني لم أجترئ على خطابك بالفِقْرَةِ الفقيرة ، وأدللتُ لديّ محرابك برفع العقِيرَة ، عن نشاطٍ بعث مرسومه[7] ولا اغتباط بالأدب إلاّ بسياسة تسوسه ، أو في على الفترة ناموسه وانما هو نفاق نفثة المصدور[8] ، وهناء الجرب المجدور ، وإن تعلّل به مُخارق ، فثمّ قِيَاسٍ فارق ، والذي هيّأ هذا القدر وسبّبه ، وسهّل المكروه إليّ منه وحبّبه ، ما اقتضاه الصِّنو يحيى ، أمدّ الله حياته ، وحرس من الحوادث جهاته[9] ، من خطاب ارتُشِفَ لهذه القريحة العديمة بلالتها ، بعد أن رَضِي غلالتها ، ورسخ إلى الصهر الحضرميّ سلالتها ، فلم يسع إلاّ إسعافه ، بما أعافه ، فأمليت مجيباً ما لا يعدّفي يوم الرهان

---

(١) وفي نسخة ثانية : حبال الصبر .

(٢) صنعاء : اليمن وتستر مدينة بخوزستا وقد ضبطها ابن خلدون تَسْتُر وقد ضبطها ياقوت الحموي تُسْتَر (معجم البلدان) .

(٣) وفي نسخة ثانية : صين من لَفْح السموم نَضِيرك .

(٤) وفي نسخة ثانية : يشتاق إن هبت شذا رياها .

(٥) وفي نسخة ثانية : وإذا عزمت اقرأ «ومن أحياها» (الآية ٣٢ من سورته المائدة) .

(٦) وفي نسخة ثانية : «ثنّي ولا تجعليها بيضه لَدِيك» وهو عجز بيت لبشار بن بر وهو : قد زرتنا زوره في النوم واحدة ثني ولا تجعليها بيضه لدّيك .

(٧) وفي نسخة ثانية : مرموسة والمرموس : المدفون .

(٨) وفي نسخة ثانية : (ولا اعتباط بالأدب تغري بسياسته سوسة ، وانبساط أوحى إليّ على الفترة ناموسه ، وإنما هو اتفاق جرّته نفثه المصدور» .

(٩) وفي نسخة ثانية : ذاته .

بياً ، وأسمعته وجيباً لمّا ساجلت بهذه التّرّهات سحراً عجيباً ، حتى إذا ألف القلم العريان فسحه(1) ، وجمح بِرْذَونُ الغزارة فلم أُطِقْ كَبْحه ، لم أفق من غمرة غُلُوِّهِ وموقف شلوّه(2) ، إلا وقد تحيّز إلى فئتك مغترّاً بل معترّا ، واستقبلها ضاحكاً مفترّاً ، وهشّ لها برّاً ، وإن كان من الخجل مُصْفَرّاً ، وليس بأوّل من هَجَر ، في التماس الوصل ممن هَجَر ، أو بعث التمر إلى هَجَر(3) ، وأيّ نسب بيني اليوم وبين زخرف الكلام ، وإجالة جياد الأقلام ، في محاورة الأعلام ، بعد أن حَالَ الجريض دون القريض(4) ، وشغل المريض عن التعريض ، وغلب الشوق الكسل ، ونشرت(5) الشعرات البيض كأنها الأَسَل ، تروع بِرُقْطِ الحيّات ، سِرْب الحياة ، وتطرُق بذوات الغُرر ، والشباب(6) عند البيات ، والشيبُ الموت العاجل ، وإذا ابيضّ زرع صَبَّحَتَهُ المناجل ، والمعتبر الآجل ، واذا اشتغل الشيخ بغير مَعَادِهِ ، حكم في الظاهر بإبعاده ، وأسره في ملكة عاده ، فأغض أَبْقَاكَ الله ، وأسمح لمن قصّر عن المَطْمَح ، وبالعين الكليلة فالمحْ ، واغْتَنِم لباس ثوب الثَّواب ، واشفِ بعض الجوى بالجواب .

تولاّك الله فيما استضفت وملكت ، ولا بَعُدَتَ ولا هلكتَ ، وكان لك أية سلكْتَ ، ووسمك من السعادة بأوضح السمات ، وأتاح لقاءك من قبل الممات ، والسلام الكريم يعتمد حِلال(7) ولدي وساكن خلدي ، بل أخي وإن اتّقيت عُتَبَهُ وسيّدي ، ورحمة الله وبركاته ، من محبّة المشتاق إليه محمد بن عبدالله بن الخطيب في الرابع عشر من شهر ربيع الثاني من عام سبعين وسبعمائة .

وكان تقدّم منه قبل هذه الرسالة كتاب آخر إليّ ، بعث به إلى تلمسان فتأخّر وصوله ، حتى بعث به أخي يحيى عند وفادته على السلطان ، ونصّ الكتاب .

يا سيدي إجلالاً واعتداداً ، وأخي وُدّاً واعتقاداً ، ومحلّ ولدي شفقةً حلت مني

---

(1) وفي نسخة ثانية : سَبْحه والسبح : الجري .
(2) وفي نسخة ثانية : مثلوّه .
(3) الهجز : الهندي في الكلام والهجر الثانية الفراق ، والحجر الثالثة : بلد بالهجرين .
(4) الجريص : الغصّة بالريق ، والقريض : الشعر .
(5) وفي نسخة ثانية : ونصلت .
(6) وفي نسخة ثانية : الشيات والشيات ج . شية ، وهي سواد في بياض أو بياض في سواد .
(7) حلال : ج حلة : بيت .

فؤاداً . طال عليّ انقطاع أنبائك ، واختفاء أخبارك ، فرجوت أن أبلغ المُنْيَة بهذا المكتوب إليك ، وتخترق الموانع دونك ، وإن كنت في موالاتك كالعاطش الذي لا يَرْوَى ، والآكل الذي لا يشبع ، شأن من تجاوز الحدود الطبيعية ، والعوائد المألوفة ، فأنا بعد إنهاء التحيّة المطلولة الروض بماء الدموع ، وتقرير الشوق القديم اللّزيم ، وشكوى البُعَاد الأليم ، والابتهال في إتاحة القرب[1] قبل الفَوْت من الله ميسّر العسير ، ومقرّب البعيد ، أَسْأَلُ عن أحوالِك سؤال أبعد الناس مجالاً[2] في مجال الخلوص لك ، وأشدّهم حِرْصاً على اتّصال سعادتك ، وقد اتصل بي في هذه الأيام ما جرى به القَدَر من تنويع الحال لديك ، واستقرارك ببَسْكَرَة على الغِبْطَةِ بك باللجَا إلى تلك الرياسة الزكيّة ، الكريمة الأب ، الشهيرة الفضل ، المعروفة القَدْر على البُعْدِ ، حَرَسَهَا الله ملجأً للفضلاء ، ومخيّماً لرجال العلياء ، ومهبًّا لطيب الثناء ، بحوله وقوّته ، وقاربت كلّ ساح السلامة[3] فاحمدوا الله على الخلاص ، وقاربوا في معاملة الآمال ، وضَنّوا بتلك الذات الفاضلة عن المشاقّ ، وأبخَلوا بها عن المتالف ، فمطلوب الحريص على الدّنيا خسيس ، والموانع الحافّة جمّة ، والحاصل حسرة ، وما قلّ سعيٌ يحمد حاله العاقبة[4] ، والعاقل لا يستنكِحه الاستغراق فيما آخِره الموت ، إنّما ينال منه الضروريّ ، ومثلك لا يعجزه مع الناس[5] العافية ، إضعاف ما يُرجى به العمر من المأكل والمشرب ، وحسبنا الله .

وإن تَشَوَّفَتْ لحال المحبّ تِلك السيادة الفذّة والبنوّة البرّة ، فالحال حال من جعل الزِّمام بيد القدر ، والسير في مهيع الغفلة ، والسبح في تيار الشواغل ، ومن وراء الأمور غيبٌ محجوبٌ ، وأجلٌ مكتوبٌ ، يؤمّل فيه عادة الستر من الله ، إلاّ أنّ الضجر الذي تعلمونه حفظه الناس لما عجزت الحيلة ، وأعوز الناصر[6] وسدّت المذاهب ، والشأن اليوم شأن الناس فيما يقرب من الاعتدال .

---

(١) وفي نسخة ثانية : وسؤال إناحة القرب .

(٢) وفي نسخة ثانية : وفي نسخة ثانية مِحالاً والمِحَال : التدبير . وال «مجال الاولى تكون مصدرا والمجال الثانية : مكان الجولان .

(٣) وفي نسخة ثانية : وما كل وقت تتاح فيه السلامة .

(٤) وفي نسخة ثانية : وبأقل السعي تحصل حالة العاقية .

(٥) وفي نسخة ثانية : مع التماس العاقية .

(٦) وفي نسخة ثانية : المناص : الملجأ .

وفيما يرجع إلى السلطان تولاّه الله على إضعاف ما باشر سيّدي من الأغياء في البرّ ، ووصل سبب الالتحام والاشتمال مع الإقبال[١] وما يُنْتِجُه متعوّد الظهور ، والحمدلله .

وفيما يرجع إلى الأحباب والأولاد فعلي ما علمت الآن الشوق يخامر القلوب ، وتصوّر اللِّقاء مما يزهد في الوطن ، وحاضر النِّعَمَ سنّى الله ذلك على أفضل حال ، وييسّره قبل الارتحال من دار المِحَال .

وفيما يرجع إلى الوطن فأحوال النائم خِصْباً ، وهدنة وظهوراً على العدوّ ، وحسبك فافتتاح حصن آش وبُرْغَة[٢] القاطعة بين بلاد الإسلام ، وويرة[٣] والعارين وبيغة[٤] وحصن السّهلة في عام . ثم دخل بلد إطريرة بنت إشبيلية عنوة ، والاستيلاء على ما يناهز خمسة آلاف من السبي من فتح دار الملك ، وبلدة قُرْطُبَة ، ومدينة جيّان عنوة في اليوم الأغرّ المحجّل ، وقتل المقاتلة ، وسبي الذرّية ، وتعْفِية الآثار حتى لا يُلِمّ بها العمران ، ثم افتتاح مدينة رُنْدَة التي تلف جيّان في ملاءتها ، دار التّجْر ، والرفاهية والبنآت الحافلة ، والنعم الثّرّة ، نسأل الله جلّ وعلا أن يصل عوائد نصره ، ولا يقطع عنا سيب رحمته ، وأن ينفع بما أعان عليه من السعي في ذلك والإعانة عليه .

ولم يتريد من الحوادث إلاّ ما علمتم من أخذ الله لنسب[٥] السوء ، وخبث الأرض ، المسلوب من أثر الخير ، عمر بن عبدالله ، وتحكّم شرّ الميتة في نفسه ، وإتيان النِكَال على حاشيته ، والاستئصال على نفيسه[٦] ، والاضطراب مُسْتَوْلٍ على الوطن بعدَه ، إلا أنّ القرب على علالته[٧] لا يَرْجَحُه غيره .

---

(١) وفي نسخة ثانية : الاستقلال .

(٢) وفي نسخة ثانية حض آشر وبُرْغه وهو أصحّ وحصص آشر (Iznajar) في الجنوب الشرقي لحص روطة (Rute) على ضفة رافد من روافد شنيل ، وقد حرّف فكتب في بعض النسخ (أشب) اما برغه (Burgo) فتقع بين مالقة ورندة (نفح الطيب ٣٦٧/٦ — ٣٦٨) .

(٣) وفي نسخة ثانية : وَبـذَة وهي الأصح لأن وبرة من قرى اليمامة وهي بعيدة عن بحثنا هذا أما وبذة فهي مدينة من أعمال شَنْتَ برية بالأندلس (معجم البلدان) .

(٤) يجمع التلمساني في نفح الطيب بيغة وباغة باسم واحد ، « وباغة مدينة بالأندلس من كورة البيرة بين المغرب والقبلة منها » . وربما تكون بيغو : « بلد بالأندلس من أعمال جيّان » (معجم البلدان) .

(٥) وفي نسخة ثانية : لنَسَمَة .

(٦) وفي نسخة ثانية : على ذاته .

(٧) وفي نسخة ثانية : إلا أن الغرب على علاّته .

والأندلس اليوم شيخ غزاتها عبد الرحمن بن علي ابن السلطان أبي عليّ ، بعد وفاة الشيخ أبي الحسن علي بن بدر الدين رحمه الله . وقد استقرّ بها بعد انصراف سيّدي الأمير المذكور ، والوزير مسعود بن رحّو ، وعمر بن عثمان بن سليمان .

والسلطان ملك النصارى بِطْرَة قد عاد إلى مُلْكِهِ بإشبيلية ، وأخوه مُجْلِبٌ عليه بقشتالة وقرطبة مخالفة عليه ، قائمة بطائفة من كبار النصارى الخائفين على أنفسهم ، داعين لأخيه ، والمسلمون قد اغتنموا هبوب هذه الريح . وخَرَقَ الله لهم عوائد في باب الظهور والخير ، لم تكن تخطر في الآمال . وقد تلقّب السلطان أيّده الله بعقب هذه المكنّفات بالغنيّ بالله وصدرت عنه مخاطبات بمجمل الفتوح ومفصلها يعظُمُ الحرص على إيصالها إلى تلك الفضائل لو أمكن .

وأمّا ما يرجع إلى ما يتشوّف إليه ذلك الكمال من شغل الوقت ، فصدرت تقاييده ، وتفاصيل[1] يقال فيها بعد ما اعتملت تلك السيادة بالانصراف يا ابراهيم ولا ابراهيمَ اليوم .

منها أنّ كتاباً رفع إلى السلطان في المحبّة[2] من تصنيف ابن أبي حجلة من المشارقة فعارضته ، وجعلت الموضوع أشرف ، وهو محبّة الله[3] ، فجاء كتاباً ادّعى الأصحاب غرابته . وقد وُجّه إلى الشرق وصحبته كتاب « تاريخ غرناطة » وغيره من تأليفي . وتعرّف تحبيسه بخانقاه سعيد السعداء من مصر ، وانثال الناس عليه ، وهو في لطافة الإعراض ، متكلّف أغراض المشارقة من مُلَحِهِ :

سلّمت لمصر في الهوى من بَلَدِ ... يهديه هَواؤها لدى استنشاقه
من يُنكِرُ دعوتي فقُلْ عني لهُ ... تكفي امرأةُ العزيز من عُشّاقِه

والله يرزق الإعانة في انتساخه وتوجيهه . وصدر عني جزء سمّيته « الغَيْرَة على أهل الحَيْرَة » وجزء سمّيته « حمد الجمهور على السنن المشهور » . والإكباب على اختصار كتاب « التاج[4] » للجوهري وردّ حجمه إلى مقدار الخمس ، مع حفظ ترتيبه

(١) وفي نسخة ثانية : تصانيف .
(٢) هو ديوان الصبابة . طبع بمصر سنة ١٣٠٢ هـ .
(٣) يعني كتابه « روضة التعريف بالحب الشريف وهو من كتب التصوف قلّ ان نجد مثله في المكتبة الإسلامية . راجع نفح الطيب ج ١١٧/٥ وما بعدها .
(٤) هو كتاب « تاج اللغة وصحاح العربية . وفي مخطوط قديم كتب سنة ٨٥١ ذكر اسمه تاج اللغة وسرّ العربية ويعرف بالصحاح أو كتاب الصحيح في اللغة (معجم المطبوعات العربية ٧٢٣/١) .

السّهل ، والله المعين على مشغلةٍ نقطعُ بها هذه البرهة القريبة البِداءَة من التتمة ، ولا حَوْل ولا قوّة إلاّ بالله .

والمطلوب المثابرة على تعريف يصل من تلك السِّيادَة والبنوّة ، إذ لا يتعذّر وجود قافل من حَجٍّ ، أَوْ لاحقٍ بتلمسان يُبعثها السيْد الشريف منها ، فالنفس شديدة التعطّش ، والقلوب قد بلغت من الشوق والاستطلاع الحناجر . والله أسألُ أن يصونَ في البُعْد وديعتي مِنْكَ لَدَيْه ، ويُلْبِسَك العافية ، ويخلّصك وإياي من الورطة ، ويحْملنا أجمعين على الجادّة . ويختم لنا بالسعادة . والسلام الكريم عَوْداً على بدءٍ ، ورحمة الله وبركاته من المحبّ المشوّق الذاكر الداعي ابن الخطيب ، في الثاني من جمادي الأولى من عام تسعة وستين وسبعمائة انتهى .

(فأجبته) عن هذه المخاطبات ، وتفاديت من السجع خشية القصور عن مساجلته فلم يكن شأوه يُلحقُ . ونصّ الجواب : سيّدي مجداً وعلوّاً ، وواحدي ذُخراً مَرْجُوًّا ومَحَلّ والدي برّاً وحنوًّا . ما زال الشوق مذنَأَتْ بي وبك الدار ، واستَحْكَم بيننا البُعَاد ، يُرْعِي سمعي أنباءَك ، ويُخيّل إليّ من أيدي الرياح تناول رسائلك ، حتى ورد كتابك العزيز على استطلاع ، وعهدٍ غيرُ مُضَاع وودّ ذي أجناس وأنواع ، فنشر بقلبي ميت السلوّ وحشر أنواع المسرّات ، وقَدَحَ للقائك زنادُ الأمل ، والله أسأل الامتناع[١] بك قبل الفوت على ما يرضيك ، ويسني أمانيّ وأمانيك . وحيّيته تحيّة الهائم ، لِمَواقع الغمائم ، والمُدْلجُ للصّباح المتبلّج ، وأملى على معترج الأولياء[٢] خصوصاً فيك ، من اطمئنان الحال ، وحسن القرار ، وذهاب الهواجس ، وسكون النفرة ، وعموماً في الدولة من رسوخ القدم ، وهبوب ريح النصر ، والظهور على عدوّ الله باسترجاع الحصون التي استنقذوها في اعتلال الدولة ، وتخريب المعاقل التي هي قواعد النصرانيّة ، غريبةٌ لا تثبت إلاّ في الحلم وآية من آيات الله . وإن خبيئة هذا الفتح في طيء العصور السالفة إلى هذه المدّة الكريمة ، لدليلٌ على عناية الله بتلك الذات الشريفة ، حيث أظهر على يدها خوارق العادة ، وما تجد آخر الأيام من معجزات

---

(١) وفي نسخة ثانية : الإمتاع .

(٢) وفي نسخة ثانية : وأَمِلّ على مقترح الأولياء .

المِلّة ، وكمل فيها والحمدلله بحُسْنِ التدبير ويُمْن التعبية[1] ، من حميد الأثر ، وخَالِدِ الذِّكر ، طراز في حُلّة الخلافة النَّصْرِيّة ، وتاجٌ في مفرق الوزارة . كتبه الله لك فيما يرضاه الله من عباده .

ووقفتَ عليه الأشراف من أهل هذا العصر المحروس ، وأذعته في الملأ سروراً لعزّ الإسلام وإظهاراً للنعمة ، واستطراداً لذكر الدولة المَوْلَوِيّة بما تستحقّه من طيب الثناء والتماس الدعاء ، والتحديث بنعمتها ، والإشادة بفضلها على الدول السالفة والخالفة وتقدّمها ، فانشرَحَتِ الصدورُ حباءً ، وامتلأت القلوب إجلالاً وتعظيماً ، وحَسُنَت الآثار اعتقاداً ودعاءً .

وكان كتاب سيدي لشرف تلك الدولة عنواناً ، ولمَا عساه يستعجم من نعتي في مناقبها ترجماناً ، زاده الله من فضله، وأمتع المسلمين سكون الغريب من الشوق المزعج[2] ، والحيرة التي تكاد تذهب بالنفس أسفاً لتجافي عُرَمِها عن الأمن[3] والتقويض عن دار العزيز المولى المنعم ، والسيّد الكريم ، والبلد الطيّب ، والإخوان البَرَرَة ، «ولو كنتُ أعلمُ الغيب لاستكثرتُ من الخير» وإن تشوّفت السيادة الكريمة إلىْ الحال ، فعلى ما علمتم سيراً مع الأمل ، ومغالبةً للأيام على الحظّ ، وإقطاعاً للغَفْلة جانب العمر .

هــل نــافعي والجَــدُّ في صَبَبٍ   مــدىً مــع الآمــال في صُعُـدِ

رجع الله بنا إليه ، ولعلّ في عظتكُم النافعة شفاء من هذا الداء ، العَيَاء إن شاء الله ، وأنّ لطْفَ الله مصاحِب من هذه الرياسة المُزْنية ، وحسبُك بها عليه عصمة وافية[4] ، صرفت وجه القصد إلى ذخيرتي التي كنت أعتدّها منهم كما علمتم ، حين تفاقم الخطب ، وتلوّن الدهر ، والإفلات من مظانّ النكبة ، وقد رنّقت[5] حولها بعدما جرّته الحادثة بمهلك السلطان المرحوم على يد ابن عمّه ، قريعة في الملك وقسيمه في النسب ، والتياث الجاه ، وتغيّر السلطان ، واعتقال الأخ المُخلّف ،

(١) وفي نسخة ثانية : ويمن النقيبة . ويقال رجل ميمون النقيبة أي مظفر المطالب ناجح الفعال .

(٢) وفي نسخة ثانية : وأمتع المسلمين ببقائه ، وبثثته شكوى الغريب من السوق المزعج .

(٣) وفي نسخة ثانية : للتجافي عن مهاد الأمن .

(٤) وفي نسخة ثانية : وحسبك بها علمته عصمة وافية .

(٥) رنقت حولها : أي توقفت . وفي نسخة ثانية : رتعت .

واليأس منه لو لا تكييف الله في نجاته ، والعيث بعده في المنزل والولد ، واغتصاب الضياع المقتناة من بقايا ما متّعت به الدولة النّصرية أبقاها الله من النعمة ، فآوى إلى الوكر ، وساهم في الحادث وأشرك في الجاه والمال ، وأعان على نوائب الدهر وطلب الوِتْر[1] حين رأى الدهر قلاني وأمّل الملوك استخلاصي ، وتجاوزوا في إتحافي والله المخلص من عِقال الآمال ، والمرشد إلى نبذ هذه الحظوظ المورّطة .

وأنبأني سيّدي بما صدر عنه من التصانيف الغريبة في هذه الفتوحات الجليلة ، وبودّي لو وقع الإتحاف بها أو بعضها ، فلقد عاودني الندم على ما فرّطت .

وأمّا أخبار هذا القطر فلا زيادة على ما علمتم من استقرار السلطان أبي اسحق ابن السلطان أبي يحيى بتونس مستبدًّا بأمره بالحضرة بعد مهلك شيخ الموحّدين أبي محمد بن تافراكين القائم بأمره ، رحمة الله عليه مضايقاً في حياته الوطن واحكامه بالعرب ، المستظهرين بدعوته ، مُصَانِعاً لهم بوفرة على أمان الرعايا والسابلة . لو أمكن حسن السياسة جهد الوقت ، ومن انتظام بجاية محل دولتنا في أمر صاحب قسنطينة وبونة خلافاً كما علمتم ، محمّلا الدولة بصرامته وقوّة شكيمته فوق طوقها ، من الاستبداد والضرب على أيدي المستقلين من الأعراب ، منتقض الطاعة أكثر أوقاته لذلك إلاّ ما شمل البلاد من تغلّب العرب ونقص الأرض من الأطراف والوسط ، وخمود ذُبال[2] الدول في كل جهة وكل بداية إلى تمام .

وأمّا أخبار المغرب الأقصى والأدنى فلديكم طلْعُهُ[3] . وأمّا المشرق فأخبار الحاجّ هذه السنة من اختلا له ، وانتقاض سلطانه ، وانتزاء الجُفَاة على كرسيّة ، وفساد المصانع والسقايات المعدّة لوفد الله وحاجّ بيته ، ما يسخن العين ويطيل البثّ ، حتى زعموا أنّ الهيعة اتصلت بالقاهرة أياماً . وكثر الهرج في أزقّتها وأسواقها لما وقع بين سندمر[4] المتغلّب بعد يلبغا الخاصكي ، وبين سلطانه ظاهر القلعة ، من الجولة التي كانت دائرتها عليه ، أجلت عن زهاء الخمسمائة قتلى ، من حاشيته ، ومَوَالي يلبغا ،

---

(١) الوِتْر : الثوب الذي تجلّل به الثياب فيعلوها . وفي نسخة ثانية طلب الوتر : أي الثأر .
(٢) ذبَال ج ذبيلة : الفتيلة .
(٣) سرّه .
(٤) وفي نسخة ثانية : أسندَمر وهو الأمير الداوادار الكبير في دولة الاشرف وكان دويداراً عن يلبغا الناصري ثم ثار عليه . مات بالاسكندرية سنة ٧٦٩ هـ .

وتقبّض على الباقين ، فأودع منهم السجون ، وصلب الكثير ، وقتل سندمر في محبسه ، وألقى زمام الدولة بيد كبير من موالي السلطان فقام بها مستبدًّا وقادها مستقلاً ، وبيد الله تصاريف الأمور ومظاهر الغيوب جلَّ وعلا .

ورغبتي من سيّدي أبقاه الله أن لا يُغِبَّ خطابه عني متى أمكن ، أن يصلَ منّته الجمة ، وأن يقبّل عني أقدام تلك الذات المولويّة ، ويعرّفه بما عندي من التشيع لسلطانه ، والشكر لنعمته ، وأن ينهي عني لحاشيته وأهل اختصاصه التحيّة المختلسة من أنفاس الرياض ، كبيرهم وصغيرهم .

وقد تأدّى مني إلى حضرته الكريمة خطاب على يد الحاجّ نافع سلّمه الله تناوله من الأخ يحيى عند لقائه إيّاه بتلمسان بحضرة السلطان أبي حمّو أيّده الله ، فربمّا يصل وسيّدي يوضح من ثنائي ودعائي ما عجز عنه الكتاب ، والله يبقيكم ذُخراً للمسلمين ومَلاَذاً للآملين بفضله ، والسلام الكريم عليكم ، وعلى من لاذبكم من السادة الأولاد المناجيب ، والأهل والحاشية والأصحاب ، من المحبّ فيكم المعتدِ بكم شيعة فضلكم ابن خلدون ورحمة الله وبركاته .

عنوانه سيدي وعمادي وربّ الصائع والأيادي والفضائل الكريمة الخواتم والمبادي إمام الأمّة ، علم الأئمّة ، تاجَ الملّة فخر العلماء عمادَ الإسلام ، مصطفى الملوك الكرام ، كافلَ الإمامة ، تاجَ الدول أثير الله ، ولي أمير المؤمنين ، الغنيّ بالله أيّده الله ، الوزير أبو عبدالله بن الخطيب أبقاه الله ، وتولّى عن المسلمين جزاه .

(وكتب) إليّ من غرناطة : يا سيدي ووليّ وأخي ومحلّ ولدي ، كان الله لكم حيث كنتم ولا أعدمكم لطفه وعنايته ، لوكان مستقرّكم بحيث يتأتى إليه ترديد رسول ، وإنفاذ مقتطع (١) أو توجيه نائب ، لرجعتُ على نفسي باللائمة في إغفال حقّكم ، ولكن العذر ما علمتم ، واحمدوا الله على الاستقرار في كنفِ ذلك الفاضل الذي وسعكم كنْفَه ، وشملكم فضله ، شكراً لله حسبه الذي لم يُخلِف وشهرته التي لم تكدّر .

وإني اغتنمت سَفر هذا الشيخ وَافِدِ الحرمين بمجموع الفتوح (٢) في إيصال كتابي

---

(١) وفي نسخة ثانية : أو ايفاد متّطلع .

(٢) كانت العادة عندهم ان يبعثوا باخبار فتوحهم وتوسعاتهم التي تحصل كل سنة ، يرسلونها الى الملوك والسلاطين والى الحرم النبوي بوجه خاص ، وهذا ما اشار إليه ابن الخطيب .

هذا ، وبودّي لو وقفتم على ما لديه من البضاعة التي أنتم رَأسُها وصدرها ، فيكون لكُم في ذلك بعض أنس ، وربّما تأدّى ذلك في بعضه ممّا لم يُختم عليه وظواهر الأمور نُحيلُ عليه في تعريفكم بها ، وأما البواطن فمّما لا تتأتى كثرة وجمامةً ، وأَخَصَ ما أظنّ تشوّفكم إليه حالي ، فاعلموا أني قد بلغ بي الماء الزبى [1] واستولى عليّ سوء المزاج المنحرف ، وتوالت الأمراض ، وأعوز الشفاء [2] لبقاء السبب ، والعجز عن دفعه ، وهي هذه المداخلة جعل الله عاقبتها إلى خير ، ولم أترك وجهاً من وجوه الحيلة إلاّ بذلته ، فما أغنى عني شيئاً ، ولولا أني بعدكم شغلت الفكر بهذا التأليف مع الزهد ، وبُعْد العهد ، وعدم الإلماع بمطالعة الكتب ، لم تتمشّ من طريق فساد الفكر إلى هذا الحدّ ، وأخر ما صدر عني كناش [3] سميته باستنزال اللطف الموجود في أسر الوجود . أمليته في هذه الأيام التي أقيم فيها رسم النيابة عن السلطان في سفره إلى الجهاد بودّي لو وقفتم عليه ، وعلى كتابي في المحبّة ، وعسى الله أن ييسر ذلك .

ومع هذا كله والله ما قصّرت في الحِرْص على ايصال مكتوب إليكم إمّا من جهة أخيكم أو من جهة السيد الشريف أبي عبدالله ، حتى من المغرب إذا سمعت الركب متوجهاً منه ، فلا أدري هل بلغكم شيء من ذلك أم لا ؟ والأحوال كلها على ما تركتموها عليه ، وأحبابكم بخير على ما علمتم من الشوق والتشوّف . والارتماض على مفارقتكم ، ولا حول ولا قوّة إلا بالله .

والله يحفظكم ، ويتولّى أموركم ، والسلام عليكم ورحمة الله . من المحبّ الواحشِ ابن الخطيب في ربيع الثاني من عام إحدى وسبعين وسبعمائة .

وبباطنه مدرجة نصّها :

سيّدي رضي الله عنكم إستقرّ بتلمسان في سبيل تقلّب ومسارعة مزاج تعرفونه . صاحبنا المقدّم في الطب أبو عبدالله الشقُوري . فإذا اتصل بكم فأعينوه على ما يقف عليه اختياره ، وهذا لا يحتاج معه إلى مثلكم .

عنوانه سيدي ومحلّ أخي الفقيه الجليل الصدر الكبير المعظّم الرئيس الحاجب العالم

---

(١) مثل يضرب للشيء الذي تجاوز الحد .

(٢) وفي نسخة ثانية : اعوز العلاج .

(٣) كناش : دفتر تقيد فيه الفوائد والشوارد للضبط ، يستعمله المغاربة كثيراً الى اليوم . وقد ذكره التلمساني في نفح الطيب باسم «استنزال اللطف الموجود في سر الوجود» . تاج العروس ٣٤٧/٤ .

الفاضل الوزير ابن خلدون . وصل الله سعده وحرس مجده بمنّه .

وإنما طوّلت بذكر هذه المخاطبات ، وإن كانت فيما يظهر خارجة عن غرض الكتاب لأنّ فيها كثيراً من أخباري وشرح حالي فيستوفي ذلك منها ما يتشوّف إليه من المطالعين للكتاب .

ثم إنّ السلطان أبا حمّو لم يزل معتملاً في الإجلاب على بجاية واستئلاف قبائل رياح لذلك ، ومعولا علي مشايعتي فيه ، ووصل يده مع ذلك بالسلطان أبي اسحق ابن السلطان أبي بكر صاحب تونس من بني أبي حفص ، لما كان بينه وبين أخيه صاحب بجاية وقسنطينة من العداوة التي تقتضيها مقاسمة النسب والملك ، فكان يوفد رسله عليه في كل وقت ، ويمرّون بي وأنا ببسْكرة.فأكّد الوصلة بمخاطبة كل منهما ، وكان أبو زيان ابن عمّ السلطان أبي حمّو بعد إجفاله عن بجاية واختلال معسكره قد سار في أثره إلى تلمسان ، وأجلب على نواحيها فلم يظفر بشيء ، وعاد إلى حُصيْن فأقام بينهم ، واشتملوا عليه ، ونجمَ النفاق في سائر أعمال المغرب الأوسط . ولم يزل يستألفهم حتى اجتمع له الكثير منهم ، فخرج في عساكره منتصف تسع وستين وسبعمائة إلى حصين وأبي زيان ، واعتصموا بجبل تيطري ، وبعث إليّ في استنفار الزواودة للأخذ بحجزتهم من جهة الصحراء ، وكتب يستدعي أشياخهم يعقوب بن علي كبير أولاد محمد ، وعثمان بن يوسف كبير أولاد سبّاع بن يحيى . وكتب إلى ابن مَزنى قعيدة وطنهم بامدادهم في ذلك ، فأمدّهم ، وسرنا مغرّبين إليه حتى نزلنا القَطفا بتل تيطَري ، وقد أحاط السلطان به من جهة التل ، على أنه اذا افرغ من شأنهم سار معنا إلى بجاية ، وبلغ الخبر إلى صاحب بجاية أبي العبّاس فعسكر بمن استألف من بقايا قبائل رياح ، وعسكر بطرف ثنيّة القطفا المفضية إلى المسيلة . وبينما نحن على ذلك اجتمع المخالفون من زغبة ، وهم خالد بن عامر كبير بني عامر ، وأولاد عريف كبراء سويد ، ونهضوا إلينا بمكاننا من القطفا ، فأجفلت أحياء الزواودة ، وتأخرّنا إلى المسيلة . ثم إلى الزاب ، وسارت زغبة إلى تيطري واجتمعوا مع أبي زيان وحصين وهجموا على معسكر أبي حمّوففلّوه ورجع منهزماً إلى تلمسان .

ولم يزل من بعد ذلك على استئلاف زغبة ورياح يؤمّل الظفر بوطنه وابن عمّه ، والكرّة على بجاية عاماً فعاماً ، وأنا على حالي في مشايعته ، وايلاف ما بينه وبين الزواودة ، والسلطان أبي اسحق صاحب تونس وابنه خالد من بعده . ثم دخلت

زغبة في طاعته واجتمعوا على خدمته ونهض من تلمسان لشفاء نفسه من حصين وبجاية ، وذلك في أخريات إحدى وسبعين وسبعمائة فوفدت عليه بطائفة من الزواودة أولاد عثمان بن يوسف بن سليمان لنشارف أحواله ، ونطالعه بما يرسم له في خدمته ، فلقيناه بالبطحاء ، وضرب لنا موعداً بالجزائر ، انصرف به العرب إلى أهليهم ، وتخلّفت بعدهم لقضاء بعض الأغراض واللحاق بهم ، وصلّيت به عيد الفطر على البطحاء ، وخطبت به وأنشدته عند انصرافه من المصلى تهنئة بالعيد وغرضه[1] :

هـذي الـديـار فحيّهنَّ صباحـا ... وقفِ المطـايـا بينهنَّ طلاحـا

لا تسأل الأطلالَ إن لم تروِهـا ... عبراتُ عينك واكفـاً ممتـاحـا

فلقـد أخـذنَ على جفونك موثقـا ... أن لا يُريـنَ مـع البعـادِ شحـاحـا

إيـه على الحيّ الجميـع وربّما ... طرب الفؤاد لـذكرهم فـارتـاحـا

ومنـازل للظـاعنين استَعْجَمتْ ... حزنـاً وكـانت بالسرور فصاحـا

وهي طويلة ، ولم يبق في حفظي منها إلاّ هذا .

وبينما نحن في ذلك إذ بلغ الخبر بأنّ السلطان عبد العزيز صاحب المغرب الأقصى من بني مرين قد استولى على جبل عامر بن محمد الهنتاتي بمراكش ، وكان أخذ بمخنقه منذ حوْل ، وساقه إلى فاس ، فقتله بالعذاب ، وأنّه عازم على النهوض إلى تلمسان لما سلف من السلطان أبي حمو إثناء حصار السلطان عبد العزيز لعامر في جبله ، من الإجلاب على ثغور المغرب ، ولحين وصول هذا الخبر ، أضرب السلطان أبو حمّو على ذلك الذي كان فيه ، وكرّ راجعاً إلى تلمسان . وأخذ في أسباب الخروج إلى الصحراء مع شيعة بني عامر من أحياء زغبة ، فاستألف وجمع وسدّد الرجال وقضى عيد الأضحى ، وطلبت منه الإذن في الانصراف إلى الأندلس لتعذّر الوجهة إلى بلاد رياح ، وقد أظلم الجوّ بالفتنة ، وانقطعت السبل ، فأذن لي وحمّلني رسالة إلى السلطان ابن الأحمر . وانصرفت إلى المرمى بهُنَيْن ، وجاءه الخبر بنزول صاحب المغرب تازا في عساكره ، فأجفل بعدي من تلمسان ذاهباً إلى الصحراء على طريق البطحاء . وتعذّر عليّ ركوب البحر من هُنَيْن فأقصرت ، وتأدّى الخبر إلى السلطان عبد العزيز بأني مقيم بهُنَيْن ، وأنّ معي وديعة احتملتها إلى صاحب

(١) وفي نسخة ثانية : أهنيه بالعيد ، وأحرّضه .

الأندلس ، تخيّل ذلك بعض الغواة ، وكتب به إلى السلطان عبد العزيز فأنفذ من وقته سرية من تازا تعترضني لاسترجاع تلك الوديعة ، واستمرّ هو إلى تلمسان ، ووافتني السرّية بهُنَيْن وكشفوا الخبر ، فلم يقفوا على صحّته ، وحملوني إلى السلطان فلقيته قريباً من تلمسان ، واستكشفني عن ذلك الخبر فأعلمته بنفيه ، وعنّفني على مفارقة دارهم ، فاعتذرت له لِمَا كان من عمر بن عبدالله المستبدّ عليهم ، وشهد لي كبير مجلسه ، ووليّ أبيه وابن وليه ونزمار بن عريف ، ووزيره عمر بن مسعود بن منديل بن حمامة ، واحتفّت الألطاف ، وسألني في ذلك المجلس عن أمر بجاية ، وأفهمني أنه يروم تملّكها ، فهوّنت عليه السبيل في ذلك فسرّ به ، وأقمتُ تلك الليلة في الاعتقال . ثم أطلقني من الغد فعمدت إلى رباط الشيخ الوليّ أبي مَدْيَن ونزلت بجواره مؤثراً للتخلي والانقطاع للعلم ، لو تركت له .

* (مشايعة السلطان عبد العزيز صاحب المغرب على بني عبد الواد) *

ولما دخل السلطان عبد العزيز إلى تلمسان واستولى عليها ، وبلغ خبره إلى أبي حمّو وهو بالبطحاء ، فأجفل من هنالك ، وخرج في قومه وشيعته من بني عامر ذاهباً ، إلى بلاد رياح ، فسرّح السلطان وزيره أبا بكر بن غازي في العساكر لاتباعه . وجمع عليه أحياء زغبة والمعقل باستئلاف وليّه ونزمار وتدبيره . ثم أعمل السلطان نظره ورأى أن يقدّمني أمامه إلى بلاد رياح لأوَطِيءَ[1] أمرَه ، وأحملهم على مناصرته وشفاء نفسه من عدوّه بما كان السلطان أيس[2] من استتباع رياح وتصريفهم فيما يريده من مذاهب الطاعة . فاستدعاني من خلوتي بالعبادة عند رباط الوليّ أبي مَدْيَن . وأنا قد أخذت في تدريس العلم واعتزمت على الانقطاع ، فآنسني وقرّبني ، ودعاني لما ذهب إليه من ذلك ، فلم يسعني إلاّ إجابته ، وخلع عليّ وحملني ، وكتب إلى شيوخ الزواودة بامتثال أمري وما ألقيه إليهم من أوامره ، وكتب إلى يعقوب بن علي وابن

(١) وفي نسخة ثانية : لأوطد .
(٢) وفي نسخة ثانية : آنس .

مَزْنَى بمساعدتي على ذلك . وأن يحاولوا على استخلاص أبي حمّو من بين أحياء بني عامر ، ويحوّلوه إلى حيّ يعقوب بن علي ، فودّعته وانصرفت في عاشوراء سنة إثنتين وسبعين وسبعمائة فلحقت الوزير في عساكره وأحياء العرب من المعقل وزغبة على البطحاء ، ولقيته ودفعت إليه كتاب السلطان ، وتقدّمت أمامه وشيّعني ونزمار يومئذ وأوصاني بأخيه محمد ، وقد كان أبو حمّو قبض عليه عندما أحس منهم بالخلاف ، وأنهم يرومون الرحلة إلى المغرب . وأخرجه معه من تلمسان مقيّداً واحتمله في معسكره ، فأكّد على ونزمار في المحاولة على استخلاصه بما أمكن ، وبعث معي ابن أخيه عيسى في جماعة من سويد يبذرقوني[1] وتقدّم إلى أحياء حُصَين بإخراج أبي زيّان من بينهم ، فسرنا جميعاً وانتهينا إلى أحياء حصين وأخبرهم فرج بن عيسى بوصيّة عمه ونزمار إليهم فنبذوا إلى أبي زيّان عهده ، وبعثوا معه من أوصله إلى بلاد رياح . ونزل على أولاد يحيى بن علي بن سبّاع ، وتوغّلوا به في القفر ، واستمرّيت ذاهباً إلى بلاد رياح ، فلمّا انتهيت إلى المسيلة ألفيت السلطان أبا حمّو وأحياء رياح مسعكرين قريباً منها في وطن أولاد سبّاع بن يحيى من الزواودة ، وقد تسايلوا[2] إليه ، وبذل فيهم العطاء ليجتمعوا إليه ، فلما سمعوا بمكاني من المسيلة ، جاؤا إليّ فحملتهم على طاعة السلطان عبد العزيز ، وأوفدت أعيانهم وأشياخهم على الوزير أبي بكر بن غازي ، فلقوه ببلاد الديالم عند نهر واصل ، فأتوه طاعتهم ، ودعوه إلى دخول بلادهم في اتباع عدوّه . ونهض معهم وتقدّمت أنا من المسيلة إلى بسكرة ، فلقيت بها يعقوب بن علي ، واتفق هو وابن مَزْنَى على طاعة السلطان ، وبعث ابنه محمداً للقاء أبي حمّو ، وأمر بني عامر خالد بن عامر يدعوهم إلى نزول وطنه ، والبعد به عن بلاد السلطان عبد العزيز ، فوجده متدلياً من المسيلة إلى الصحراء . ولقيه على الدَّوْسَن وبات ليلتهم يعرض عليهم التحوّل من وطن أولاد بني سبّاع إلى وطنهم بشرقي الزاب . وأصبح يومه كذلك ، فما راعهم آخر النهار إلاّ انتشار العجاج خارجاً إليهم من أفواه الثنيّة ، فركبوا يستشرفون ، وإذا بهوادي الخيل طالعة من الثنيّة ، وعساكر بني مرين والمعقل وزغبة منثالة أمام الوزير أبي بكر بن غازي قد دلّ بهم الطريق

---

(١) البذرقة الخفارة . والمبذرق : الخفير .

(٢) تسايل القوم : توافدوا من جهة وفي نسخة ثانية تساتلوا وتساتل القوم أي خرجوا متتابعين الواحد تلو الآخر .

وفد أولاد سباع الذين بعثهم من المسيلة ، فلما أشرفوا على المخيّم أغاروا عليه مع غروب الشمس . فأجفل بنو عامر وانتهب مخيم السلطان أبي حمّو ورحاله وأمواله . ونجا بنفسه تحت الليل ، وتمزّق شمل ولده وحرمه حتى خلصوا إليه بعد أيام ، واجتمعوا بقصور مصاف من بلاد الصحراء وامتلأت أيدي العساكر والعرب من نهابهم ، وانطلق محمد بن عريف في تلك الهيعة وأطلق الموكّلون به وجاء إلى الوزير وأخيه ونزمار وتلقّوه بما يجب له ، وأقام الوزير أبو بكر بن غازي بالدوسن أياماً أراح فيها . وبعث إليه ابن مَزْنَى بطاعته وأرغد له من الزاد والعلوفة ، وارتحل راجعاً إلى المغرب ، وتخلّفت بعده أياماً عند أهلي ببسكرة ، ثم ارتحلت إلى السلطان في وفد عظيم من الزواودة ، يقدّمُهم أبو دينار أخو يعقوب بن علي وجماعة من أعيانهم . فسابقنا الوزير إلى تلمسان وقدمنا على السلطان فوسعنا من حبائه وتكرمته ، ونزله ما بعد العهد بمثله . ثم جاء من بعدنا الوزير أبو بكر بن غازي على الصحراء بعد أن مرّ بقصور بني عامر هنالك ، فخرّبها وكان يوم قدومه على السلطان يوماً مشهوداً ، وأذِن بعدها لوفود الزواودة في الانصراف إلى بلادهم . وقد كان ينتظر بهم قدوم الوزير ووليّه ونزمار بن عريف ، فودّعوه وبالغ في الإحسان وانصرفوا إلى بلادهم . ثم أعمل نظره في إخراج أبي زيان من بين أحياء الزواودة لما خشي من رجوعه إلى حُصَيْن ، فآمرني في ذلك ، وأطلقني إليهم في محاولة انصرافه عنهم ، فانطلقتُ لذلك . وكان أحياء حُصَيْن قد توجّسوا الخيفة من السلطان ، وتنكّروا له ، وانصرفوا إلى أهليهم بعد مرجعهم من غزاتهم مع الوزير ، وبادروا باستدعاء أبي زيّان من مكانه عند أولاد يحيى بن علي ، وأنزلوه بينهم ، واشتملوا عليه ، وعادوا إلى الخلاف الذي كانوا عليه أيام أبي حمّو واشتعل المغرب الأوسط ناراً . ونَجَمَ[1] صبي من بيت الملك في مغراوة وهو حمزة بن علي بن راشد ، فرّ من معسكر الوزير ابن غازي أيام مقامه عليها ، فاستولى على شَلَف وبلاد قومه ، وبعث السلطان وزيره عمر بن مسعود في العساكر لمنازلته ، وأعيا داؤه وانقطعتُ أنا ببَسْكَرَة ، وحال ذلك ما بيني وبين السلطان إلاّ بالكتاب والرسالة . وبلغني في تلك الأيام وأنا ببسكرة مفرّ الوزير ابن الخطيب من الأندلس وقدومه على السلطان بتلمسان حين توجّس الخيفة من

---

(١) نجم : ظهر

سلطانه ، بما كان له من الاستبداد عليه ، وكثرة السعاية من البطانة فيه ، فأعمل الرحلة إلى الثغور الغربيّة لمطالعتها بإذن سلطانه ، فلمّا حاذى جبل الفتح قبل الفُرْضَة دخل إلى الجبل وبيده عهد السلطان عبد العزيز إلى القائد بقبوله . وأجاز البحر من حينه إلى سبتة ، وسار إلى السلطان بتلمسان ، وقَدِم عليه بها في يوم مشهود ، وتلقّاه السلطان من الحظوة والتقريب وإدرار النِّعم بما لا يعهد بمثله . وكتب إليّ من تلمسان يعرّفني بخبره ، ويلمّ ببعض العتاب على ما بلغه من حديثي الأول بالأندلس ، ولم يحضرني الآن كتابه فكان جوابي عنه ما نصّه :

الحمد لله ولا قوّة إلاّ بالله ، ولا رادّ لما قضى الله .

يا سيدي ونعْم الذّخر الأبدي ، والعروة الوُثْقى التي أعلقتها[1] يدي أسلّم عليك سلام القدوم على المخدوم ، والخضوع للملك المتبوع ، لا بل أحيّيكم تحيّة المشوّق للمعشوق ، والمدلج للصباح المتبلّج ، وأقرّر ما أنتم أعلم بصحيح عقدي فيه من حبي لكم ، ومعرفتي بمقداركم ، وذهابي إلى أبعد الغايات في تعظيمكم ، والثناء عليكم ، والإشادة في الآفاق بمناقبكم ديدنا[2] معروفاً ، وسجيةً راسخةً يعلم الله وكفى بالله شهيداً . وهذا كما في علمكم أسنى ما اختلف أوّلاً ولا آخراً ، ولا شاهداً ولا غائباً ، وأنتم أعلم بما تعني نفسه وأكبر شهادة بما في خفايا ضميري ، ولوكنت ذلك فقد سلف من حقوقكم ، وجميل أخذكم ، واجتلاب الحظّ لو هيّأه القدر ، لمساعيكم وإيثاري بالمكان من سلطانكم ودولتكم ، ما يستلين معاطف القلوب ، ويستل سخائم الهواجس ، فأنا أحاشيكم من استشعار نَبْوة[3] أو إخفار وطن[4] ، ولو تعلّق بقلب ساق حرزرزور[5] فحاش لله أن يقدح في الخلوص لكم ، أو يرجح سوائبكم[6] ، إنما هي خبيثة الفؤاد إلى الحشر أو اللقاء . ووالله وجميع ما يُقْسَم به ، ما اطّلع على مستكنّه مني غير صديقي ، وصديقكم الملابس ، كان لي ولكم ، الحكيم الفاضل أبي عبدالله الشَّقُوري أعزّه الله . نفثة مصدور ، ومباثة خلوص ، إذ

(١) وفي نسخة ثانية : اعتقلتها .

(٢) الديدن : العادة .

(٣) بمعنى الجفوة .

(٤) وفي نسخة ثانية : أو إحقاق ظن .

(٥) وفي نسخة ثانية : ولو تعلّق بقلب ساق حُرّ ذرءٌ وذرءٌ . وبلغني ذرء من خير أي قليل منه .

(٦) وفي نسخة ثانية : سوابقكم : ج سابقة ويعني : اياديكم البيضاء التي اسديتموها إليّ .

أنا أعلم الناس بمكانه منكم ، وقد علم ما كان مني حين مفارقة صاحب تلمسان واضمحلال أمره من إجماع الأمر على الرحلة إليكم ، والخفوق إلى حاضرة البحر للإجازة إلى عدوتكم تعرّضت فيهم للتهم ، ووقفت بمجال الظنون ، حتى تورّطت في الهلكة بما ارتفع عنّي مما لم آته ، ولا طويت العقْد عليه ، لولا حلم مولانا الخليفة ولولا حسن رأيه فيّ وثبات بصيرته ، لكنت في الهالكين الأوّلين ، كل ذلك شوقاً إلى لقائكم ، وتمثّلاً لأنسكم ، فلا تظنّوا بي الظنون ، ولا تصدّقوا التوهّمات ، فأنا مَنْ قَدْ علمتم صداقة وسذاجة وخلوصا ، واتفاق ظاهر وباطن ، أثبت الناس عهداً وأحفظهم غيباً ، وأعرفهم بوزان الإخوان ، ومزايا الفضلاء ، ولأمر ما تأخر كتابي من تلمسان ، فأني كنت استشعر ممن استضافني ريباً بخطاب سواه ، خصوصاً جهتكم ، لقديم ما بين الدولتين من الاتحاد والمظاهرة ، واتصال اليد مع أنّ الرسول تردّد إليّ وأعلمني اهتمامكم واهتمام السلطان تولاه الله باستكشاف ما أبهم[1] من حالي ، فلم أترك شيئاً مما أعلم تشوّقكم إليه إلاّ وكشفت له قناعة ، وآمنته على إبلاغه ، ولم أزل بعد إيناس المولى الخليفة لدمائي وجذبه بضبعي ، سابحا في تيار الشواغل كما علمتم القاطعة حتى عن الفكر .

وسَقَطَتْ إلي محل مجد خدمتي من هذه القاصية ، أخبار خلوصكم إلى المغرب قبل فصول راحلتي إلى الحضرة ، غير خلية[2] ولا ملتئمة ، ولم يتعيّن مُلقي العصا ، ولا مستقر النَّوى ، فأرجأت الخطاب إلى استجلائها ، وأفدت من كتابكم العزيز الجاري على سنن الفضل ، ومذاهب المجد ، غريب ما كيّفه القدر من بديع[3] الحال لديكم ، وعجيب تأتّي أملكم الشارد فيه كما كنّا نستبعده عند المفاوضة ، فحمدت الله لكم على الخلاص من وَرْطَة الدول على أحسن الوجوه ، وأجمل المخارج الحميدة العواقب في الدنيا والدين ، العائدة بحسن المآل في المخلّف ، من أهل وولد ومتاع وأثر بعد أن رضتم جموح الأيام وتوقلّتم قُلَل العز[4] وقدتم الدنيا بحذافيرها وأخذتم بآفاق السماء على أهلها . وهنيئاً فقد نالت نفسُكم التوّاقة أبعد أمانيها ، ثم

(١) وفي نسخة ثانية : انبهم والأصح استبهم .

(٢) وفي نسخة ثانية : غير جلية .

(٣) وفي نسخة ثانية : من تنويع .

(٤) أي صعدتم قمم العز .

تاقت إلى ما عند الله ، وأشهد لما أُلهِمْتُم للإعراض عن الدنيا ، ونزع اليد من حطامها عند الأصحاب والأقيال ، ونُهَى الآمال إلاّ جَذْبا وعناية من الله وحبّاً ، واذا اراد الله أمراً يَسَّرَ أسبابه .

واتصل بي ما كان من تحفّي السيادة المولويّة بكم واهتزاز الدولة لقدومكم ، ومثل هذه الخلافة ، أيدها الله مَنْ يثابر على المفاخر ، ويستأثر بالأخاير ، وليتَ ذلك عند إقبالكم على الحظّ ، وأنسكم باجتلاء الآمال ، حتى يُحْسُنَ المتاع ، ويتجمّل السرير الملوكي بمكانكم ، فالظنّ أنّ هذا الباعث الذي هزم الآمال ونبذ الحظوظ ، وهوّن المُفارِق العزيز سوّمكم الله حتى يأخذ بيدكم إلى قضاء المجاهدة ، ويستوي بكم على جدد[1] الرياضة ، «والله يهدي للتي هي أقوم» . كأنيّ بالأقدام نُقِلَت والبصائر بإلهام الحق صُقِلَتْ والمقامات خَلَفَت ، بعد أن استُقْبِلت ، والعرفانُ شيمة[2] أنواره وبوارقه ، والوصول انكشفت حقائقه لما ارتفعت عوائقه . وأمّا حالي والظنّ بكم الاهتمام بها ، والبحث عنها فغير خَفِيّة بالباب المَوْلويّ أعلاه الله ، ومَـظْهَرُها في طاعته ، ومَصْدَرُها عن أمره ، وتصاريفها في خدمته ، والزعم أني قمت المقام المحمود في التشيّع والإنحياش ، واستمالة الكافّة إلى المناصحة ، ومخالصة القلوب للولاية ، وما يتشوّقه مجدكم ، ويتطلع إليه فضلكم ، وأما اهتمامكم في خاصتها من النفس والولد ، فجُـهَـيْـنَة خبره مؤدي كتابي إليكم ، ناشيء تأديبي وثمرة ترتيبي ، فسهّلوا له الإذن ، وألينوا له جانب النّجوى حتى يؤدّي ما عندكم وما عندي ، وخذوه بأعقاب الأحاديث إنْ يقف عند مباديها ، وائتمنوه على ما تُحَدِثون ، فليس بضنين[3] على السرّ .

وتشوّقي بما يرجع به إليكم سيدي وصديقي وصديقكم المقرّب في المجد والفضل ، المساهم في الشدائد ، كبير المغرب ، وظهير الدولة ، أبو يحيى بن أبي مَدْيَن ، كان

---

(١) وفي نسخة ثانية : على جودي : والجودي : جبل مطل على جزيرة ابن عمر ، ولعلّ ابن خلدون توصد قوله تعالى «واستوت على الجودي» اي رسوّ سفينة نوح عليه السلام على جبل الجودي عند الطوفان (معجم البلدان) .

(٢) شيمة : ج شيم : الخلق والطبيعة ، العادة . وفي نسخة ثانية : شيمت ، من شام ، شيماً السيف : استلّه . وشيما وشيوما الرجل : حقق الحملة في الحرب .

(٣) وفي نسخة ثانية : بظنين : ورجل ظنين : متهم . وهو ينظر الى قوله تعالى : «وما هو على الغيب بضنين» الآية ٢٤ من سورة التكوير .

الله له في شأن الولد والمخلف تشوّق الصديق لكم ، الضنين على الأيام بقلامة الظفر من ذات يديكم ، فأطلعوه[1] طِلْع ذلك ، ولا يَهُمّكُم بالفراق الواقع حسنَ ، فالسلطان كبير ، والأثر جميل ، والعدوّ الساعي قليل حقير ، والنيّة صالحة ، والعمل خالص ، ومن كان لله كان الله له .

واستطلاع الرياسة المرتبة[2] الكافلة كافأ الله يده البيضاء عني وعنكم إلى مثله من أحوالكم استطلاع من يسترجح وزانكم ، ويشكر الزمان على ولائه بمثلكم[3] .

وقد قرّرت من علو[4] مناقبكم ، وبُعْد شأْوِكُم وغريب منحاكم ، ما شَهِدَتْ به آثاركم الشائعة الخالدة في الرياسة ، المتأدية على ألْسِنَة الصادر والوارد من الكافة ، من حمل الدولة ، واستقامة السياسة ، ووقفته على سلامكم ، وهو يراجعكم بالتحيّة ، ويساهمكم بالدعاء .

وسلامي على سيّدي ، وفِلْذَة كبدي ومحلّ ولدي ، الفقيه الزكي الصدر أبي الحسن نجلكم ، أعزّه الله وقد وقع مني موقع البشرى حلوله من الدّولة بالمكان العزيز والرتبة النابهة ، والله يلحفكم جميعاً رداء العافية ، والستر ويمهّد لكم محل الغبطة والأمن ، ويحفظ عليكم ما أسبغ من نعمته ، ويجريكم على عوائد لطفه وعنايته ، والسلام الكريم يخصّكم من المحبّ الشاكر الداعي الشائق شيعة فضلكم ، عبد الرحمن بن خلدون ورحمة الله وبركاته . في يوم الفطر عام إثنين وسبعين وسبعمائة .

وكان بعث إليّ مع كتابه نسخة كتابه إلى سلطانه ابن الأحمر صاحب الأندلس عندما دخل جبل الفتح ، وصار إلى إيالة بني مرين ، فخاطبه من هنالك بهذا الكتاب ، فرأيت أن أثبته هنا ، وإن لم يكن من غرض التأليف لغرابته ، ونهايته في الجودة ، وأنّ مِثْلَه لا يهمل من مثل هذا الكتاب ، مع ما فيه من زيادة الاطّلاع على أخبار الدول في تفاصيل أحوالها ونصّ الكتاب .

بانوا فمن كان باكياً يبكي   هذي ركابُ السُّرى بِلاَ شَكِّ
فمِن ظهور الرّكاب مُعمَلَةً   إلى بطونِ الرُّبى إلى الفُلْكِ

(١) وفي نسخة ثانية : فأطلعوني .
(٢) وفي نسخة ثانية : الرياسة المزنية .
(٣) وفي نسخة ثانية : على ولادة لمثلكم .
(٤) وفي نسخة ثانية : وقد قررت لعلومه من مناقبكم .

تصدّع الشَّمْلُ مثل ما انحدَرَتْ إلى صُبوب جواهرُ السِلْكِ
من النّوى قبلُ لم أزَلْ حذراً هذا النّوى جلّ مالك المُلْكِ

مولاي كان الله لكم ، وتولّى أمركم . أسلّم عليكم سلام الوداع ، وأدعو الله في تيسير اللقاء والاجتماع ، من بعد التفرّق والانصداع ، وأقرّر لديكم أنّ الإنسان أسير الأقدار ، مسلوب الاختيار ، متقلّب في حكم الخواطر والأفكار ، وأن لا بدّ لكل أوّل من آخر ، وأن التفرّق لمّا لزم كلّ إثنين بموتٍ أو حياة ، ولم يكن منه بدّ ، كان خير أنواعه الواقعة بين الأحباب ، ما وقع على الوجوه الجميلة البريئة من الشرور.
ويعلم مولاي حال عبده منذ وصل إليكم من المغرب بولدكم ، ومقَامُه لديكم بحال قلق ، ولولا تعليلكم ووعدكم وارتقاب اللطائف في تقليب قلبكم ، وقطع نواحل الأيام حريصاً على استكمال سنّكُم . ونهوض ولدكم واضطلاعكم بأمركم ، وتمكن هدنة وطنكم ، وما تحمّل في ذلك من ترك غرضه لغرضكم ، وما استقرّ بيده من عهودكم ، وأنّ العبد الآن تسبّب لكم في الهدنة من بعد الظهور والعزّ ، ونجح السعي وتأتّي لسنين ، كثيرة الصلح ، ومن بعد أن لم يبق لكم بالأندلس مُشغّبَ من القرابة ، وتحرّكٌ لمطالعة الثغور الغربيّة ، وقربٌ من فرضة المجاز واتصال الأرض ببلاد المشرق ، لطرقته الأفكار وزعزعت صبره رياح الخواطر ، وتذكّر أشراف العمر على التمام ، وعواقب الاستغراق ، وسيرة الفضلاء عند شمول البياض ، فَغَلبتْه حالٌ شديدةٌ هَزَمتْ التعشّق بالشمل الجميع ، والوطن المليح ، والجاه الكبير ، والسلطان القليل النظير ، وعمل بمقتضى قوله «موتوا قبل أن تموتوا[1]» فإن صحّت الحال المرجوة من إمداد الله ، تنقّلت الأقدام إلى أمام ، وقوى التعلّق بعروة الله الوثقي ، وإنْ وقع العجز ، أو افتضح العزم ، فالله يعاملنا بلطفه ، وهذا المرتكب مُرَامٌ صعبٌ ، لكن سهّله عليّ أمور : منها أنّ الإنصراف لما لم يكن منه بدٌ ، لم يتعيّن على غير هذه الصورة ، إذ كان عندكم من باب المُحَال ، ومنها أنّ مولاي لو سمح لي بغرض الإنصراف لم تكن لي قدرة على موقف وداعه ، لا والله ! ولكان الموت أسبق إليّ ، وكفى بهذه الوسيلة الحسنة التي يعرفها وسيلة . ومنها حرصي على أن يظهر صدق دعواي فيما كنت أهتف به ، وأظنّ أني لا أُصدِّقُ ، ومنها اغتنام المفارقة في زمن

---

(١) يعني : موتوا اختياراً قبل ان تموتوا اضطراراً ، وذلك بترك الشهوات .

الأمان والهدنة الطويلة والاستغناء إذا كان الإنصراف المفروض ضرورياً قبيحاً في غير هذه الحال. ومنها وهو أقوى الأعذار أني مهما لم أطق تمام هذا الأمر أو ضاق ذرعي به، لعجزٍ أو مرض أو خوف طريقٍ، أو نفاد زادٍ أو شوقٍ غالب، رجعت رجوع الأب الشفيق إلى الولد البرّ الرضيّ، إذ لم أخلّف ورائي مانعاً من الرجوع من قول قبيح ولا فعل، بل خلّفتُ الوسائلَ المرعيّة، والآثار الخالدة، والسير الجميلة، وانصرفت بقصد شريف فقت به أشياخي وكبار وطني وأهل طَوْرِي، وتركتكم على أتمّ ما أرضاه، مُثنياً عليكم داعياً لكم، وإن فسح الله في الأمد، وقضي الحاجة، فأملي العودة إلى ولدي وتربتي، وإن قطع الأجل فأرجو أن أكون ممّن وقع أجره على الله.

فإن كان تصرّفي صواباً وجارياً على السَّداد، فلا يلام من أصابَ، وإن كان عن حمق، وفساد عقل، فلا يَلام من اختلّ عقله، وفسد مزاجه، بل يُعذَرُ ويشفقُ عليه، ويرحمُ، وإن لم يعطِ مولاي أمري حقه من العدل، وجُليت الذنوب، ونشرت[1] بعدي العيوب، فحياؤه وتناصفه يُنكرُ ذلك، ويستحضر الحساب[2] من التربية والتعليم وخدمة السّلف، وتخليد الآثار وتسمية الولد وتلقيب السلطان، والإرشاد إلى الأعمال الصالحة، والمداخلة والملابسة، لم يتخلّل ذلك قط خيانة في مال ولا سرّ، ولا غش في تدبير ولا تعلّق به محار[3]، ولا كدره نقص، ولا حمل عليه خوف منكم، ولا طمع فيما بيدكم، وإن لم تكن هذه دواعي الرّعي والوصلة والإبقاء، ففيم تكون بين بني آدم؟

وأنا قد رحلت فلا أوصيتكم بمال، فهو عندي أهون متروك، ولا بولد فهم رجالكم، وخدّامكم، ومن يحرص مثلكم على الاستكثار منهم، ولا بعيال، فهي من مزيّات بيتكم، وخواصّ داركم، إنمّا أُوصيكم بحظّي العزيز، كان علي بوطنكم، وهو أنتم، فأنا أوصيكم بكم، فارعوني فيكم خاصّة. أوصيكم بتقوى الله والعمل لغدٍ، وقبض عنَان اللهو في موطن الجدّ، والحياء من الله الذي محّص وأقال، وأعاد النعمة بعد زوالها لينظر كيف تعملون، وأطلب منكم عوض ما وفرّته

---

(١) وفي نسخة ثانية: حشرت.

(٢) وفي نسخة ثانية: الحسنات.

(٣) وفي نسخة ثانية: ولا تعلّق به عار.

عليكم من زاد طريق ومكافاةُ وإعانة، زاداً سهلاً عليكم، وهو أن تقولوا لي: غفر الله لك ما ضيّعت من حقّي خطأً أو عمداً، وإذا فعلتم ذلك فقد رضيت.

واعلموا أيضاً على جهة النصيحة أنّ ابن الخطيب مشهور في كل قطر، وعند كل ملك، واعتقاده وبرّه والسؤال عنه وذكره بالجميل، والاذن في زيارته حنانة منكم[1] وسعه ذرع، ودها، فإنمّا كان ابن الخطيب بوطنكم سحابة رحمة نزلت، ثم أقشعت وترك الأزاهر تفوح والمحاسن تلوح، ومثاله معكم مثل المرضعة، أرضعت السياسة، والتدبير الميمون، ثم رفدتكم في مهد الصلح والأمان، وغطّتكم بقناع العافية، وانصرفت إلى الحمّام تغسل اللبن والوضر، وتعود فإن وجدت الرّضيع نائماً فحسن، أو قد انتبه فلم تتركه إلاّ في حدّ الانفطام. ونختم هذه العزارة بالحلف الأكيد أني ما تركت لكم وجه نصيحة في دين ولا في دنيا إلاّ وقد وفيّت لكم، ولا فارقتكم إلاّ عن عجز، ومن ظنّ خلاف هذا فقد ظلمني وظلمكم، والله يرشدكم ويتولّى أمركم. ويعول[2] خاطركم في ركوب البحر.

انتهت نسخة الكتاب وفي طيّها هذه الأبيات:

صَاب مزنُ الدموع من جفن صَبّكْ ... عنـدمـا استرْوَحَ الصبَـا من مهبِّكْ
كَيفَ يسلو يا جنّتَي عنك وقد[3] ... كـانَ قبـلِ الوجود جُنّ بحُبِّكْ
ثم قُـلْ كيف كـان قبل انتشاء الر ... وح من أُنسِك الشّهيّ وقرْبَكْ
لم يَـدَعَ بيتَك المنيـعَ حمَـاهُ ... لسِواهُ إلاّ بيت رَبّكْ
أوْل عُذرِي الرّضى فما جئت بُدْعاً ... دُمتُ والفضلُ والرّضى من دَابكْ
وَإذا مـا ادّعيت كَرْبـاً لفقـدِي ... أيـن كرْبِـي ووحشتي من كرْبكْ
وَلـــدي في ذُرَاك وكري في دو ... حِك لحدِي وتُربتي في تُربكْ
يـا زمـانـا أغرى الفراق بشمْلِـي ... لَيْتني أهبتي أخــذت لحرْبكْ
أرْكبتني صُرُوفُك الصَّعبَ حتى ... جئت بـالبَيْن وهو أصعبُ صَعْبكْ

وكتب آخر النسخة يخاطبني.

---

(١) وفي نسخة ثانية: نجاية منكم.

(٢) وفي نسخة ثانية: ونقول.

(٣) وفي نسخة ثانية: كيف يسلو يا جنّتي عنك، وقد.

هذا ما تيسّر ، والله وليّ الخَيرة لي ولكم من هذا الخُبَاط[1] الذي لا نسبَة بينه وبين أولى الكمال ، ردّنا الله إليه ، وأخلص توكّلنا عليه ، وصرف الرغبة على ما لديه .
وفي طيّ النسخة مدرجة نصُّها .
رضي الله عن سيادتكم ، أونسُكُم بما صدر مني أثناء هذا الواقع ، مما استحضره الولد في الوقت ، وهو يسلّم عليكم بما يجب لكم ، وقد حصل من حظوة هذا المقام الكريم على حظّ وافر ، وأجزل إحسانه ونوّه بجرايته ، وأثبت الفرسان خلفه ، والحمد لله .
ثم اتّصل مقامي ببسكرة والمغرب الأوسط ، مضطربٌ بالفتنة المانعة من الاتصال بالسلطان عبد العزيز وحمزة بن راشد ببلاد مغراوة والوزير عمر بن مسعود في العساكر يحاصرُه بحصن تاجَحْمُومِتْ وأبو زيان العبد الوادي ببلاد حُصَين وهم مشتملون عليه وقائمون بدعوته .
ثم سخط السلطان وزيره عمر بن مسعود ونكر منه تقصيره في أمر حمزة وأصحابه ، فاستدعاه إلى تلمسان وقبض عليه ، وبعث به إلى فاس معتقلاً ، فحبس هنالك ، وجهّز العساكر مع الوزير ابن غازي ، فنهض إليه ، وحاصره ففرّ من الحصن ولحق بمليانة مجتازاً عليها ، فأنذر به عاملُها فتقبّض عليه ، وسيق إلى الوزير في جماعة من أصحابه ، فضربت أعناقهم ، وصلبهم عظةً ومزدجر الأهل الفتنة .
ثم أوعز السلطان بالمسير إلى حصين وأبي زيّان ، فسار في العساكر واستنفر أحياء العرب من زُغْبَة فأوعبهُم ونهض إلى حُصَين فامتنعوا بجبل تيطري ، ونزل الوزير بعساكره ومن معه من أحياء زغبة على جبل تيطري من جهة التل ، فأخذ بمخنقهم ، وكاتب السلطان أشياخ الزواودة من رياح بالمسير إلى حصار تيطري من جهة القبلة . وكاتب أحمد بن مَزْني صاحب بسكَرَة بإمدادهم بأعطياتهم ، وكتب إليّ يأمرني بالمسير بهم لذلك ، فاجتمعوا عليّ ، وسرت بهم أوّل سنة أربع وسبعين وسبعمائة حتى نزلنا بالقطفة[2] ، في جماعة منهم على الوزير بمكانه من حصار تيطري ، فحدَّلهم حدود الخدمة ، وشارطهم على الجزاء . ورجعت إلى أحيائهم بالقطفة ، فاشتدوا في

---

(١) الخباط : داء كالجنون .
(٢) القطفة : تقع شرقي مدينة مليانة .

حصار الجبل وألجؤهم بسوامّهم وظهرهم إلى قُنّته ، فهلك لهم الخفّ والحافر[1] ، وضاق ذرعهم بالحصار من كل جانب ، وراسل بعضهم في الطاعة خفيَةً فارتاب بعضهم من بعض وانفضّوا ليلاً من الجبل ، وأبو زيان معهم ذاهبين إلى الصحراء ، واستولى الوزير على الجبل بما فيه من مخلّفهم ، ولما بلغوا مأمنهم من القفر نبذوا إلى أبي زيّان عهده ، فلحق بجبال غَـمرَة ، ووفد أعيانهم على السلطان عبد العزيز بتلمسان ، وفاؤا إلى طاعته فتقبّل طاعتهم ، وأعادهم إلى أوطانهم ، وتقدّم الوزير عن أمر السلطان بالمسير مع أولاد يحيى بن علي بن سبّاع للقبض على أبي زيّان في جبل غمرة ، وفاء بحق الطاعة لأنّ غمرة من رعاياهم ، فضينا لذلك ، فلم نجده عندهم ، وأخبرونا أنه ارتحل عنهم إلى بلد واركلا من مدن الصحراء ، فنزل على صاحبها أبي بكر بن سليمان ، فانصرفنا من هنالك ، ومضى أولاد يحيى بن علي إلى أحيائهم ، ورجعت أنا إلى أهلي ببسكرَة ، وخاطبت السلطان بما وقع في ذلك ، وأقمت منتظراً أوامره حتى جاءني استدعاؤه إلى حضرته فرحلت إليه .

* (فضل الوزير ابن الخطيب[2]) *

وكان الوزير ابن الخطيب آيةً من ايات الله في النَّظم والنَّثر ، والمعارف والأدب ؛ لا يُسَاجَل مَدَاه[3] ، ولا يُهتَدى فيها بمثل هُـدَاه .

فمِمَّا كَتَب عن سلطانه إلى سلطان تُونس جواباً عن كتابٍ وصَل إليه مصْحوباً بهدِيَّـة من الخيل والرَّقِيق ، فراجعهم عنه بما نصُّه إلى آخره :

الخلافة التي ارتفع في عقائد فَضْلها الأصيل القواعد الخلاف ، واستَقلَّتَ مَباني فخرِها الشائع ، وعزها الذائع ، على ما أَسّسَه الأسلاف ووجب لحقِّها الجازم ، وفرضها اللازم الاعتراف ، ووسِعت الآملين لها الجوانبُ الرحيبة والأكناف ؛ فامتزاجُنا بعلائها[4] المُنيف ، وولائها الشريف ، كما امتزج الماء والسُّلاف ، وثناؤنا

(١) يعني : الجمال والخيول .

(٢) هذا الفصل غير موجود في نسختنا وقد أضفناه من نسخة بولاق المصرية ، طبعة دار الكتاب اللبناني حتى لا يفوت شيء عن القارىء من هذا الكتاب النفيس .

(٣) المَدّ : مصدر المدى ، يقال بيني وبينه قدر مَدّ البصر «أي مداه» .

(٤) العلاء والعلى : الرفعة والشرف .

على مجدها الكريم ، وفضلها العميم ، كما تأرجت الرياض الافواف[1] ، لما زارها الغَمام الوكاف[2] ؛ ودعاؤنا بطول بقائها ، واتصال علائها ، يَسْمو به إلى قرع أبواب السموات العُلا الاستشراف[3] ، وحرصُنا على توفية حقوقها العَظيمة ، وفواضلها[4] العَميمة ، لا تَحصره الحدود ، ولا تُدركه الأوصاف ، وإن عذر في التقصير عن نَيْل ذلك المرام الكبير الحقُّ والإنصاف . خلافةُ وجْهةِ تعظيمنا إذ توجَّهت الوجوه ومن نُؤْثره إذا أَهمّنا ما نرجوه ، ونُفَدِيّه ونُبَدِيّه[5] اذا استُمنِح المحقوب واستُدفع المكروه السلطان الكذَا[6] بن أبي إسحق بن السلطان الكذَا ، أبي يحيى بن أبي بكر بن السلطان الكذَا ، أبي زكرياء بن السلطَان الكذَا ، أبي اسحق ابن الأمير الكذَا ، أبي زكرياء ابن الشيخ الكذَا ، أبي محمَّد بن عبد الواحد بن أبي حَفص ، أبقاه الله ومقامُه مقام إبراهيم رزقاً وأَمانا . لا يخُص جَلبُ الثمرات إليه وقتاً ولا يعيِّن زماناً ؛ وكان على من يتخطَّفُ الناسَ من حولِهِ[7] مؤيداً بالله مُعانا .

معظِّمُ قدره العالي على الاقدار ، ومُقابِلُ داعي حقّه بالابتدار ، المُثنى على معاليه المخلدة الآثار ، في اصونَة[8] النِّظام والنِّثار[9] ، ثناء الروضة المِعطار ، على الامطار ، الداعي الى الله بطول بقائه في عِصمةٍ مُنسَدلة الاستار ، وعزة ثابتة المركز مستقيمة المدار ، وان يختم له بعد بلوغ غايات الحال ، ونهاية الاعمال ، بالزلفي وعقبي الدار .

عبدالله الغنيُّ بالله امير المسلمين ، محمَّد بن مولانا أَمير المسلمين ، أبي الوليد اسماعيل ابن فرج بن نصر .

---

(١) كذا بالاصول ؛ ولعل أصل الكلام : «الرياض بالافواف» ؛ والفوف ، بالضم : الزهر والجمع أفواف .

(٢) وكف الماء : سال .

(٣) الاستشراف : التطلع الى الشيء .

(٤) الفواضل : الايادي الجميلة .

(٥) فداه : قال له فداك ؛ ونبديه : نبرزه . ولعل المعنى : نضعه في مكان ممتاز .

(٦) ادخل ابن الخطيب «ل» على «كذا» الموضوعة للكناية عما لم يرد المتكلم ذكره وقد شاع في رسائله هذا الاستعمال .

(٧) اشارته الى الايات ٣٥ — ٣٧ من سورة ابراهيم واضحة .

(٨) جمع صوان ، وهو ما صنت به الشيء .

(٩) النثار : النثر .

سلام كريم كما حملت احاديث الازهار نسمات الاسحار ، وروت ثغور الاقاحي والبَهار ، عن مُسَلْسلات الانهار ، وتجلى على منصة الاشتِهار ، وجهُ عَروس النَّهار ؛ يَخُص خلافتكم الكريمة النِّجار ، العزيزة الجار ورحمة الله وبركاته .

أما بعد حمد الله الذي أَخفى حكمته البالغة عن اذهان البَشر ، فعجزت عن قياسها ، وجعل الارواح «اجناداً مجنَّدة» — كما ورد في الخبر(١) — تَحِنُّ الى أَجناسِها ، مُنجدُ هذه المِلّة من أوليائه الجِلّة بمَن يروض الآمال بعدَ شِماسِها(٢) ، ويُيَسِّر الأغراض قبل التِماسها ، ويُعنَى بتجديد المودَّات في ذاته وابتغاءَ مرضاته على حين أخلاف لباسِها ؛ الملكُ الحقُّ ، وأَصلُ الأسباب بحوله بعد انتكاث امراسِها(٢) ومغني النفوس بطولـه ، بعـد إفلاسها — حمداً يُدِرُّ أَخلاف(٤) النِّعم بعد إبساسِها(٥) ، وينشُر رِممَ الأموال من أَرماسها(٦) ، ويقَدِسُ النُّفُوس بصفات ملائكة السموات بعد إبلاسها(٧) .

والصلاةُ والسَّلام على سيِّدنا ومولانا محمدٍ رسولهِ سِراجِ الهداية ونبْراسها(٨) عند اقتناء الأنوار واقتباسها ، مُطهرِ الأرضِ من أوضارها(٩) وأَدناسها ، ومُصطَفَى اللهِ من بين ناسِها ، وسيِّد الرُّسُل الكرام ما بين شِيثِها وإلياسها ، الآتي مُـهيـمِناً على آثارها ، في حين فَترتها(١٠) ومن بعد نُصْرتها واستيئاسها(١١) ، مُرغِمُ الضَّراغم في أَخياسها(١٢) ، بعد افترارها وافتراسها(١٣) ، ومُعفِّر أَجرام الأصنام ومُصَمِتُ أَجْراسها .

---

(١) يشير الى الحديث : «الارواح جنود مجندة ، ما تعارف منها ائتلف ، وما تناكر منها اختلف» .

(٢) شمست الدابة شماسا . شردت وجمحت .

(٢) جمع مرس ؛ وهو الحبل . وانتكث الحبل . انتقض بعد ان كان مبرما .

(٤) الاخلاف ، جمع خِلف (بالكسر) ؛ وهو الضرع .

(٥) ابس بالناقة . دعا ولدها لتدر على حالبها .

(٦) جمع رمس ؛ وهو القبر .

(٧) الإبلاس : القنوط ، وقطع الرجاء .

(٨) النبراس (بالكسر) : المصباح .

(٩) او ضارها : ج وضر : وسخ .

(١٠) الفترة : ما بين كل نبيين ، أو رسولين من زمان انقطعت فيه الرسالة .

(١١) استيأس : يئس ؛ وابن الخطيب ينظر الى الآية : «حتى اذا استيأس الرسل وظنوا أنهم قد كذبوا جاءهم نصرنا ... الخ» .

(١٢) جمع خيس ؛ وهو موضع الأسد .

(١٣) افتر الأسد : أبدى أسنانه ؛ يريد بعد أن كانت تفتر عن أسنانها وتفترس .

والرِّضا عن آله وأَصحابه وعِترته وأحزابه ، حَماةِ شِرْعَتِه البَيضَاء وحُرَّاسِها ، ومُلْقِحي غِراسِها ، ليوثُ الْوغَى عند احتدام[1] مِراسِها[2] ، ورُهبان الدُّجَى تَتكفَّل مُناجاة السَّميع العليم ، في وَحْشَة الليل البَهيم بإِيناسها ، وتُفاوِحُ نسيمَ الأسحار ، عند الاستغفار ، بطيب أنفاسها .

والدُّعاءُ لخلافتكم العليّة المُسْتنصريّة بالصَّنائع التي تُشعشِع أيدي العِزَّة القَعْساء[3] من أَكواسها ، ولا زالت العصمةُ الالهية كفيلةً باحترامها واحتراسها ، وأَنباءُ الفتوح ، المُؤيَّدَة بالملائكة والرُّوح ، ريحانَ جُلاّسها وآيات المفاخر التي ترَكَ الأولُ للآخِرِ ، مُكْتَتَبَةَ الأسْطار بأطراسها ، وميادينُ الوجود مَجالا لجيادُ جُودها وبأسها ، والعزُ والعَدلُ منسُوبَين لفُسطاطها[4] وقُسْطاسِها ، وصفيحة[5] النَّصر العزيز تَقْبِضُ كفُّها ، المُؤيّدة بالله ، على رياسها[6] ، عند اهتياج أضدادها ، وشَرَه[7] أنكاسها[8] ، لانتِهاب البلاد وانتهاسِها[9] وهبوبُ رياحِ رياحها وتَمرُّد مِرْداسها[10] .

فإنا كتبناه إِليكم — كتب الله لكم من كَتَائِبِ نصره أَمداداً تُذعن أعناقَ الأنام ، لطاعة مَلِكِكِم المنصور الأعلام ، عند إِحساسها[11] ، وآتاكم من آيات العنايات ، آيةً تضربُ الصَّخرةَ الصَّماء ، ممَّن عَصاها بعَصاها ، فتُبادر بانْبِجاسها[12] ، — من

---

(١) الاحتدام : شدة الحر ، واحتدمت النار : التهبت .

(٢) المراس : الممارس .

(٣) عزة قعساء : ثابتة .

(٤) الفسطاط : المدينة ، ومجتمع أهل المصر حول جامعهم .

(٥) الصفيحة : السيف العريض .

(٦) رئاس السيف ، ورياسه : مقبضه ، وقائمه .

(٧) الشرة : شدة الحرص ، وأسوؤه .

(٨) الأنكاس : جمع نكس ؛ وهو الرجل الضعيف .

(٩) انتهس اللحم : أخذه بمقدم أسنانه . والمراد الاستيلاء على الأراضي وانتقاصها من الأطراف ، فعل من ينتقص قطعة اللحم بالأكل .

(١٠) رياح من أكثر القبائل الهلالية جمعاً ، وأوفرهم عدداً . وأبوهم : رياح بن أبي ربيعة بن نهيك بن هلال بن عامر . والرياسة على رياح في عهد ابن خلدون لأبناء داود بن مرداس بن رياح ؛ والى داود هذا تنتسب « الدواودة » .

(١١) الإحساس : الرؤية والعلم .

(١٢) انبجس الماء : تفجر ؛ وفي الكلام معنى الآية :
« ... وأوحينا الى موسى اذ استسقاه قومه أن اضرب بعصاك الحجر ، فانبجست منه اثنتا عشرة عينا الخ »
آية ١٦٠ من سورة الأعراف .

حمراءِ غَرناطة ، حرسَها اللهُ ، وأيامُ الإسلام ، بعناية الملك العلاّمِ تَحتفِل وُفود الملائكة الكِرام ، لولائمها وأَعراسها ، وطّاعين الطِّعان ، في عُدوِّ الدين المُعَان ، تُجدِّد عَهْدَها بعام عَمْواسها[1] .

والحمدُلله حمداً مُعاداً يُقَيِّدُ شواردَ النِّعَم ، ويَستَدِرُّ مواهبَ الجُودِ والكَرَم ويُؤَمِّنُ من انتكاث الجُدود[2] وانتكاسها[3] ، وَليِّ الآمال ومِكاسها[4] ؛ وخلافَتُكُم هي المَثابة التي يُزْهَى الوجود بمحاسنِ مَجْدِها ، زَهْوَ الرياض بوَرْدِها وآسِها ، وتَستمدُّ أضواءُ الفضائل من مِقْباسها[5] ، وَتَرْوِي رُواة الإفادة ، والإجادة غَريبَ الوِجادة[6] ، عن ضَحَّاكها وعبَّاسها[7] . والى هذا أَعلى الله معارج قَدرِكم ، وقد فَعَل ، وأنطق بحُجَجِ فَخركم مَن احْتفَى وانتَعَل ، فإنَّهُ وصلَنا كتابكم الذي حسبناه ، على صنائع الله لنَا ، تَميمةً[8] لا تَلقع[9] بعدَها عَيْن ، وجعلناه — على حُلَلِ مواهبه — قِلادةً لا يُحتَاج معها زَيْن ، ودعوناه من جَيْبِ الكِنانة[10] آيةً بيضاءَ الكِتابة ، لم يَبقَ معها شَكٌّ ولا مَيْن ، وقرأْنَا مِنه وثيقَة وُدٌّ هُضِم فيهَا عن غَريم الزَّمان دَيْن ، ورأينَا منه إنشاءً ، خَدَم اليَراعُ بينَ يديه وَشَّاءً ، واحْتَزم بِهِمْيانِ[11] عُقْدَتِه مَشَّاءً ، وسُئِلَ عن معانيه الاختراعَ فقالَ : « إِنَّا أَنشأْنَاهُنَّ

---

(١) عمواس ، بفتح العين والميم ، وبسكون الميم مع فتح العين أو كسرها : قرية بفلسطين بين الرملة وبيت المقدس . وفيها وقع الطاعون الذي كان في سنة ١٨ هـ ، مات فيه كثير من الناس ، ويقال انه أول طاعون كان في الإسلام . تاريخ الطبري ٤/٢٠١ — ٢٠٣ ، معجم البلدان ، تاج العروس (عمس) .

(٢) انتكث : انصرف . والجد : الحظ والبخت ، والجمع : الجدود .

(٣) انتكس : انقلب على رأسه ، وخاب وخسر .

(٤) المكاس : المشاحة ، والمشاكسة .

(٥) أقبس فلان : أعطى ناراً ، والمقباس : ما قبست به النار .

(٦) الوجادة (بالكسر) : أن تجد بخط غيرك شيئاً ، فتقول عند الرواية : وجدت بخط فلان كذا ؛ وحينذاك يقال : « هذه رواية بالوجادة » .

وللمحدثين في كيفية التحديث عن طريق الوجادة ، ودرجة الثقة بها ، وشروطها ؛ تفصيل تجده في « فتح المغيث » للعراقي ١٥/٣ وما بعدها .

(٧) المسمون بـ « الضحاك » ، و« عباس » من المحدثين كثير ، وليس يريد ابن الخطيب أحداً منهم بعينه ، وانما يقصد الى « الطباق » بين ضحاك ، وعباس .

(٨) التميمة : عوذة تعلق على الانسان يتعوذ بها .

(٩) لقعه بعينه : أصابه بها ، ويقول أبو عبيدة : ان اللقع لم يسمع الا في الإصابة بالعين .

(١٠) الكنانة : جعبة الشهام تتخذ من جلود لا خشب فيها .

(١١) الهميان (بالكسر) : المنطقة ؛ والكلام على تشبيه القلم المتخذ من القصب ، وفي وسطه عقدة ، بالرجل قد اتخذ منطقة في وسطه .

إنشاءً» ؛ فأهلاً به من عَرَبيّ أَبيّ يَصِفُ السَّانح والبانَة[1] ، ويُبِينُ فيُحسِن الإبانة ، أدّى الأمانة ، وسُئِل عن حَيِّه فانتَمَى إلى كِنانة[2] ، وأفصَح وهو لا يَنبِسُ[3] ، وتهلَّلَتْ قَسَماتُه وليلُ حِبْرِه يَعْبِسُ ؛ وكأنَّ خاتَمه المُقفَلَ على صِوَانه[4] ، المتحِفَ بباكِرِ الوَرد في غير أَوانه ، رَعَفَ من مِسْكُ عُنوانه ؛ ولله من قَلَم دَبَّجَ تلك الحُلَلَ ، ونقَعَ بمُجَاج[5] الدوَّاة المُسْتَمَدَّة من عين الحياة الغُلَلَ[6] ؛ فلقد تَخارق في الجُود ، مُقتدياً بالخلافة التي خلَد فَخرُها في الوجود ، فجاد بسِرِّ البيَانِ ولُبَابه ، وسمَح في سَبِيل الكَرَم حتَّى بماءِ شَبَابِهِ ، وجمَع لفَرطْ بَشاشَتِه وفَهامَته ، بعدَ شَهادة السَّيف بشَهامته ، فمَشَى من التَّرحيب ، في الطِّرْس الرَّحيب ، على أُم هامتِه .

وأَكْرِم به من حكيم ، أفصَح بمَلغُوز[7] الإكسير[8] ، في اللَّفظ اليَسير ، وشَرَح بلسان الخَبير ، سِرَّ صِناعة التَّدبير[9] ، كأنما خدَم المَلِكة السَّاحرةَ[10] بتلك البلاد ، قَبْلَ اشتِجار الجلاد[11] ، فآثَرتْه بالطَّارف من سِحْرِها والتِّلاد ، أو عَثَر بالمُعَلَّقة ، وتِيك القَديمة المُطَلَّقة ، بدَفية دار ، أو كَنْزٍ تحتَ جِدار ، أو ظفِر لِبَاني

---

(١) السانح : ما أتاك من عن يمينك من ظبي أو طير ؛ وهو مما يتيمنون به . والبانة واحدة البان ؛ وهو شجر يسمو ويطول في استواء مثل نبات الأثل ، ويتخذ منه دهن .

(٢) كنانة بن خزيمة بن مدركة بن الياس بن مضر ، أبو القبيلة ؛ وهو الجد الرابع للرسول صلى الله عليه وسلم .

(٣) النبس : أقل الكلام ؛ وما نبس بكلمة : أي ما تكلم .

(٤) الصوان : ما تصون به الشيء .

(٥) مجاج الدواة : ما تمجه .

(٦) نقع الماء غلته : أروى عطشه .

(٧) كذا في الأصول . والصواب «ملغز» ، لأن فعله رباعي .

(٨) الإكسير : الكيمياء وهي كلمة مولدة . ولأهل الصنعة في الإكسير كلام مغلق طويل فيه العجب . ويطلقون الاكسير أيضا على «الحجر المكرم» ؛ وهو المادة التي تلقى على المواد حال ذوبانها ، فتحولها الى ذهب أو فضة بزعمهم . وانظر تاج العروس (كسر) .

(٩) صناعة التدبير : يعني بها تحويل المعادن الى الذهب أو الفضة ؛ وتلك كانت ، ولا تزال ، مشكلة المشتغلين بعلم الكيمياء القديم .

(١٠) يعني بالملكة الساحرة الكاهنة البربرية ، من قبيلة جراوة إحدى قبائل زناتة .

(١١) اشتجر القوم : تشابكوا ، وتشاجروا بالرماح : تطاعنوا . والجلاد : الضرب بالسيف .

الحَنَايا[١] ، قبلَ أن تَقطَع به عن أَمانِيه المَنَايا ، ببديعَة ، أو خَلَف جرجيرَ[٢] الرُّوم ، قبلَ مُنازَلة القُروم ، على وَديعة ، أو أَسْلَمه ابنُ أَبي سَرْح[٣] ، في نشَبٍ للفَتْح وسَرْح[٤] ، أو حَتَم له رَوْح بن حاتم[٥] ببلوغ المَطْلَب ، أو غلَبَ الحظوظَ بخِدمَة آل الأغلَب[٦] ، أو خَصّه زيادةُ الله بمَزيد[٧] ، أو شارَك الشِّيعةَ في أَمرِ أبي يَزيد[٨] ، أو سَار على مِنهاج ، في مُناصحة بَني صِنْهَاج ، وفَضَحَ بتخليد أَمداحِهم كلَّ هاج .

وأعْجِب به ، وقد عُزِّز منه مَثْنَى البيانِ بثالث ، فجَلَب سحِرَ الأسماع ، واسترقاقَ الطِّباع ، بين مَثانٍ للإبداع ومَثالث ، كيف اقتدَر على هذا المَحيد ، وناصَحَ مع التثليثَ مَقامَ التوحيد ؛ نستغفر اللهَ وَلِيَّ العَوْن ، على الصَّمتِ والصَّوْن ، فالقَلَم هو المُوحِّد قبل الكَوْن ، والمتَّصِفُ من صِفات السَّادة ، أُولي العبادة ، بضُمور الجسم

---

(١) الحنايا : جمع حنية ، وهي القوس . ويريد بها : مجرى الماء الذي اجتلب الى «قرطاجنة» ووضع على أعمدة عالية ، عقدت بأقواس وصلت بين عدة جبال منحازة من بعض ، ثم أجرى الماء فوق هذه «الحنايا» العالية . وكانت المسافة بين قرطاجنة ، وبين منبع الماء ثلاثة أيام ؛ ولا تزال بقايا هذه موضع العبرة من مشاهديها . انظر ياقوت — (معجم البلدان) .

(٢) هو الطريق الذي كانت له الولاية على المغرب من قبل الإمبراطور البيزنطي . وقد انفصل عن بيزنطة ، واستقل بالمغرب عند الفتح الاسلامي ؛ والعرب يسمونه جرجير . وابن الخطيب يشير اليّ ما كان من الحوادث بين الجيش الاسلامي ، وبين جرجير أيام الفتح .

(٣) هو عبدالله بن سعد بن أبي سرح ؛ كان كتاب الوحي للرسول صلى الله عليه وسلم ، ثم ارتد ، وأهدر دمه يوم فتح مكة ؛ وكان محمد بن أبي بكر الصديق يقول عنه حين ولي مصر : انه لم يعد الى الاسلام بعد ردته . ابن الأثير ٣/٥٧ ، ٨٢ .

(٤) النشب : المال والعقار ؛ والسرح : المال يسام في المرعى ، يغدى به ويراح . وقد صالح أهل افريقية عبدالله بن أبي سرح على مليونين وخمسمائة ألف دينارا ، وبلغ سهم الفارس ثلاثة آلاف دينار ، وسهم الراجل ألفاً ، وقد أصبح هذا المبلغ مضرب المثل ، والى ذلك ينظر ابن الخطيب . انظر العبر م ٢ .

(٥) هو روح بن حاتم بن قبيصة بن المهلب بن أبي صفرة ؛ كان من الكرماء الأجواد . ولي الكوفة ، ثم السند ، ثم البصرة أيام المهدي ؛ وولي أفريقية أيام الرشيد ، وبها توفي سنة ١٧٤ . وفيات الأعيان ١/٢٣٥ .

(٦) هو الأغلب بن سالم ، أحد الذين قاموا مع أبي مسلم الخراساني بالدعوة العباسية ، وتولى الأغلب أيام المنصور ولاية القيروان ؛ وابنه ابراهيم بن الأغلب ، هو رأس دولة الأغالبة بتونس ، التي تبتدىء سنة ١٨٤ هـ ، وتنتهي سنة ٢٩٦ هـ .

(٧) زيادة الله هو ثاني ملوك بني الأغلب ، (٢٠١ — ٢٢٣) قلده الخليفة المأمون العباسي .

(٨) هو أبو يزيد : مخلد بن كيداد (أو كتداد) بن سعدالله بن مغيث اليفرني ، وقد عرف أيضا بصاحب الحمار .

وصُفْرة اللَّوْن ؛ إنّما هي كرامةٌ فارُوقيَّة ، وأَثارةٌ[1] من حَديث سَارِيَةَ[2] وبقيَّةٌ ؛ سفَر وجهُها في الأعقاب ، بعدَ طول الانتقاب ، وتَداوُل الأحقاب ؛ ولسانٌ مُناب ، عن كريمَ جَناب ؛ وإِصابةُ السَّهم لسواه مَحسُوبة ، وإلى الرَّامي الذي سَدَّده مَنسُوبة ؛ ولا تُنكِرْ على الغَمام بارِقَة ، ولا على المُتحقِّقين بمَقام التَّوحيد كرامةً خارقة . فما شاءه الفضلُ من غرائبِ برٍّ وَجَدَ ، ومَحاريبِ خُلُق كَريم ركَع الشُّكْرُ فيها وسَجَد ؛ حديقةُ بيانٍ استثَارت نواسمَ الإبْداعِ من مَهَبِّها ، واستزارت غمائم الطباع من مَصَبِّها ، فآتَت أُكلَها مَرَّتين بإذن رَبِّها ؛ لاَ . بَل كَتيبةُ عِزٍّ طاعَنَت بقَنَا[3] الأُلِفاتِ سُطورُها ، فلا يرونُها النَّقدُ ولا يَطورُها[4] ، ونَزَعتِ عن قِسِيّ النُّونات خطوطُها ، واصْطفَّت من بياض الطِّرس[5] ، وسواد النِّفس ، بُلْقٌ[5] تَحوطُها .

فما كأسُ المُدير ، على الغَدير[6] ، بينَ الخوَرْنَق[7] والسَّدير[8] ، تقامِر بنَرْد[9] الحَباب ، عُقُولَ ذوي الألباب ، وتُغْرِقُ كِسْرَى في العُباب[10] ، وتُهدِي ، ــ وهي الشَّمْطاءُ[11] ــ نَشاطَ الشَّباب ؛ وقد أَسرجَ ابنُ سُرَيْج[12] وأَلجَمَ ، وأَفْصَحَ

---

(١) الأثارة البقية .

(٢) يشير الى قصة سارية بن زنيم بن عمر بن عبدالله بن جابر الكناني أمير الجيش الاسلامي في وقعة «نهاوند» ؛ فقد كمن له العدو في جبل ، ولم يكن قد علم به ، فناداه عمر رضي الله عنه من فوق المنبر بالمدينة يحذره «يا سارية ! الجبل !» فسمع سارية صوت عمر . وهي كرامة ذكروها للفاروق رضي الله عنه . تاج العروس (سري) .

(٣) جمع قناة ؛ وهي الرمح .

(٤) لا يطورها : لا يقرب اليها .

(٥) الطرس : الصحيفة التي محيت ثم كتبت . والنقس : الحبر . وبلق : جمع أبلق ، أو بلقاء ؛ وهي الخيول التي في لونها سواد وبياض .

(٦) يشير إلى قصة امرىء القيس يوم الغدير ، وهو يوم دارة جلجل .

(٧) الخورنق : قصر النعمان بن المنذر بظاهر الحيرة .

(٨) السدير قصر للنعمان أيضاً بالحيرة ، قريب من الخورنق .

(٩) النرد : أعجمي معرب ، وورد في الحديث : «نردشير» ؛ وهو نوع مما يقامر به .

(١٠) بنى كسرى أبرويز ــ فوق دجلة ــ بناء اتخذه لمجالس أنسه ، ففاضت دجلة وأغرقته مرات ، أنقذ كسرى فيها من الغرق ــ والى ذلك يشير ابن الخطيب . انظر الطبري ١٤٤/٢ ــ ١٤٥ .

(١١) امرأة شمطاء : بيضاء الشعر ؛ ويكنى بذلك عن قدم الخمر .

(١٢) أبو يحيى عبيدالله بن سريج المغني المعروف .

الغَرِيضُ[1] بعدَ ما جَمجَم ، وأعربَ التّايُ[2] الأعجَم ، ووقَّع مَعْبَد[3] بالقضيب ، وشرَعت في حساب العَقْد[4] بَنانُ الكفِّ الخَضِيب ، وكأنَّ الأنامل فَوق مَثالث العُود ومَثانيه ، وعند إغراء الثَّقِيل بثانية[5] ، وإجابة صَدَى الغِناءِ بين مَغانيه ، المراودُ تَشرَع في الوَشْي ، أو العَناكب تُسرِع في المَشْي ؛ وَمَا المُخْبِرُ بنَيْل الرَّغائب ، أو قُدومِ الحَبيب الغائب ؛ لاَ . بل إشارةُ البَشير ، بكُمِّ المُشِير ، على العَشير ، بأَجلبَ للسُّرور ، من زائره المتَلقَّى بالبُرور ، وأَدْعَى للحُبور ، من سفيره المُبهج السفور ؛ فلم نَرَ مثلَه من كَتِيبةِ كتاب تَجْنُب[6] الجُرْدَ ، تَمرَحُ في الأَرْسَانِ[7] ، وتَتشَوَّف مَجالي ظهورها إلى عرائس الفُرسان ، وتهُزُّ معاطفَ[8] الارتياح ، من صَهيلها الصراح ، بالنَّغمات الحِسَان ؛ إذا أوجَسَت الصَّريخَ نازَعت أَفْناءَ الأعِنَّة ، وكاثَرت بأَسِنَّة آذانها مُشْرَعَة الأسِنَّة ؛ فإن ادَّعَى الظليمُ[9] أشكالَها فهو ظالم ، أو نازَعها الظَّبْيُ هَوادِيَها[10] وأَكفَالها فهُو هاذٍ أو حالِم ، وإن سُئل الأصْمَعي[11] عن عيوب الغُرَرِ والأَوْضَاح[12] ، قَال مشيراً إلى وجوهِها الصِّباح[13]:

---

(١) أبو يزيد ، وأبو مروان : عبد الملك . ولقب بالغريض لأنه كان طري الوجه غض الشباب ؛ وهو من مولدي البربر . أخذ الغناء عن ابن سريج ، وعارضه في كل أصواته .

(٢) الناي : المزمار .

(٣) هو معبد بن وهب المغني المعروف . غنى في دولة بني أمية ، ومات في أيام الوليد بن يزيد بدمشق .

(٤) حساب العقد ، ويسمى حساب العقود أيضا : نوع من الحساب يكون بأصابع اليدين ، ويقال له حساب اليد ؛ وفي الحديث : «وعقد عقد تسعين» . وقد ألفوا فيه رسائل وأراجيز ، منها أرجوزة أبي الحسن علي الشهير بابن المغربي ، وشرحها عبد القادر بن علي بن شعبان العوفي .

(٥) كذا في الأصول ؛ ومقتضى السياق : «الثقيل الأول بثانيه» .

(٦) من الجنب : وهو أن تجنب فرساً عريا عند الرهان الى الفرس الذي تسابق عليه ، فاذا فتر المركوب ، تحولت الى المجنوب . ويريد أن هذه الرسالة بمنزلة خيول احتياطية .

(٧) جمع رسن ؛ وهو الحبل يتخذ زماماً للدابة وغيرها .

(٨) المعاطف : الأردية ؛ والعرب تضع الرداء موضع البهجة ، والحسن ، والبهاء ، والنعمة .

(٩) الظليم : فرس فضالة بن هند بن شريك الأسدي . والظليم ذكر النعام .

(١٠) هوادي الخيل : أعناقها .

(١١) عبد الملك بن قريب ، اللغوي المشهور (١٢٢ — ٢١٦) ، على خلاف في المولد والوفاة . وابن الخطيب يشير الى ما عرف عن الأصمعي من خبرته الواسعة بالخيل ؛ وله في ذلك مع أبي عبيدة معمر بن المثنى قصة طريفة . انظرها في ترجمة الأصمعي في وفيات ابن خلكان ٣٦٢/١ .

(١٢) جمع غرة : وهي البياض ؛ والوضح : البياض أيضاً . ويكنى به في الفرس عن البرص ، والجمع أوضاح .

(١٣) وجه صبيح : جميل ، والجمع صباح .

«جَلْدَةُ بَيْنَ العَيْنِ والأَنْفِ سَالم»[١]

من كلِّ عَبْلِ الشَّوَى[٢]، مُسابقٌ للنَّجْم إذا هَوَى، سامِي التَّلِيل[٣]، عريضٌ ما تحتَ الشّليل[٤]، مَمْسوحةٌ أَعطافُه بمنديلِ النَّسيم البَليل.

من أحمرَ كالمُدام، تُجْلَى على النِّدَام[٥]، عَقِبَ الفِدَام[٦]، أتحفَ لونُه بالوَرْد، في زمن البَرْد، وحُيِّي أُفق مُحيَّاه بكوكَب السَّعْد، وتشوَّف الواصفون إلى عَدِّ مَحاسنه فأَعيَتْ على العَدْ؛ بَحرٌ يُساجلُ البَحر عند المَدّ، وريحٌ تُباري الرِّيح عندَ الشَّدّ[٧]، بالذِّراع الأشَدّ[٨]؛ حكَم له مُدير فَلَك الكفَل باعتِدال فَصْل القدِّ، وميَّزه قَدرُه المميِّز عندَ الاستباق، بقَصب السِّباق[٩]، عند اعتبار الحَدّ، ووَلَّد مُختَطُّ غُرَّته أَشكالَ الجمال، على الكمال، بين البَيَاض والحُمرَة ونَقاء الخَد؛ وحِفظ روايةَ الخلق الوَجِيه[١٠]، عن جَدِّه الوَجِيه[١١]، ولا تُنكرَ الرواية على الحافظِ ابن الجَدّ[١٢].

---

(١) شطر بيت قاله عبدالله بن عمر لما لامه الناس في حب إبنه سالم، وأوله:

يديرونني عن سالم وأريغهم * وجلدة الخ

وجعله لمحبته بمنزلة جلدة بين عينه وأنفه. وفي الحديث: «لا تؤذوا عمارا، فانما عمار جلدة ما بين عيني».

وسالم هذا، يكنى أبا عمر، وأبا المذر، من خيار الناس، وفقهائهم. مات بالمدينة سنة ١٠٦. لسان العرب (سلم).

(٢) شوى الفرس: قوائمه؛ وعبل الشوى: غليظ القوائم.

(٣) التليل العنق.

(٤) الشليل الحلس، والكساء الذي يجعل تحت الرحل.

(٥) جمع نديم وهو الشريب الذي ينادمك..

(٦) الفدام الخرقة التي يضعها الساقي من الأعاجم، والمجوس على فمه عند السقي. وكانت عادتهم، اذا سقوا، ان يفدموا افواههم. وفدام الابريق، والكوز: المصفاة التي توضع عليه.

(٧) الشد: العدو.

(٨) الأشد الأقوى؛ يقال حلبتها بالساعد الاشد، أي حين لم اقدر على الرفق، أخذت الأمر بالشدة والقوة.

(٩) كانت الغاية التي يحددونها للسباق تذرع بالقصب، ثم تركز القصبة في منتهى الغاية؛ فمن سبق اقتلعها وأخذها، ليعلم الناس أنه السابق من غير نزاع، ويقال حاز أو أحرز قصبة السبق. تاج (قصب).

(١٠) الوجيه: ذو الجاه.

(١١) الوجيه: فرس من خيل العرب نجيب.

(١٢) يومي ابن الخطيب الى أبي بكر محمد بن عبدالله بن فرج الفهري المعروف بابن الجد (٤٩٦ — ٥٨٦). اصله من «لبلة»، واستوطن إشبيلية، وعاصر ابن رشد الفقيه، وابا بكر بن العربي.

وأشقَرَ ، أَبي الخَلْقُ ، والوَجْهُ الطَّلقُ أَنْ يُحفَرَ ، كأنّما صِيغَ من العَسجَدِ ، وطُرِفَ بالدُّر وأُنعِل بالزَبرْ جَد ، ووُسِم في الحديث بسِمة اليُمْن والبركة[1] ، واختصَّ بفُلْج[2] الخِصام ، عند اشتجار المعْركة ، وانفرَد بمُضاعَفِ السِّهام ، المُنكسِرة على الهَام ، في الفَرائضِ المشْترَكة[3] ؛ واتَّصفَ فَلَكُ كَفلِه بحركتَي الإرادَة والطَّبْع من أَصناف الحرَكة ، أَصغَى إلى السَّماءِ بأُذْن مُلهَم ؛ وأَغرَى لسانَ الصَّهيل — عند التباس معَاني الهمْز والتَّسْهيل — ببيَان المُبْهَم ؛ وفُتِنَت العُيون من ذَهَب جِسمه ، ولُجَيْن نَجْمه ، بالدينار والدِّرْهَم ؛ فإن انْقَضَّ فرَجْم ، أو ريح لها حَجْم ، وإن اعترَض فَشفَقٌ لاحَ به للنَّجم نَجم .

وأصفرَ قَيَّد الأوابدَ الحُرَّة ، وأمسَك المَحاسن وأطلق الغُرَّة ، وسُئِلَ من أنتَ في قُوَّادِ الكتائب ، وأُولي الأخبار العَجَائب ؟ فقَال : أنَا المُهَلَّب بنُ أبي صُفْرَة[4] ؛ نرْجِسُ هذه الألوان ، في رياض الأكْوان ، تُحثَى به وُجُوه الحَرْبِ العَوان[5] ؛ أغَارَ بنَخوة الصَّائل[6] ، على مُعَصْفَرات الأصائل[7] ، فارتَداهَا ، وعَمِد إليَ خُيُوط شُعاع الشَّمس ، عند جانِحَة الأمس ، فألحَم مِنها حُلَّته واسْداها ، واستَعدَت عليه تِلك المَحاسِن فما أعدَاها ؛ فهو أصيلٌ تمسَّك بذَيْل اللَّيل عَرْفُه وذيْلُه ، وكوكب يُطْلِعهُ من الفَتَام ليلُه ، فيَحْسُده فَرْقَدُ[8] الأفق وسُهَيْلُه[9] .

---

(١) يشير الى حديث : «ان يمن الخيل في شقرتها» ، رواه الإمام أحمد في المسند ٢٧٢/٢ .

(٢) الفلج : الظفر والفوز .

(٣) يومىء الى المعاني التي تعارفها الفقهاء بينهم في باب «التوارث» من الفقة الإسلامي ؛ فالسهم : النصيب الذي فرضه الشارع للوارث ، وانكسار السهام يكون حيث تضيق التركة عن استيفاء الفرائض كاملة ، وبتقرر العول .

(٤) أبو سعيد المهلب بن أبي صفرة الأزدي . له مع الخوارج حروب ومواقع ظهرت فيها شجاعته . وفيات الأعيان ١٩١/٢ — ١٩٥ .

(٥) الحرب العوان : الحرب التي سبقتها حرب أخرى .

(٦) النخوة : العظمة ، والكبر ؛ والصائل : المستطيل المتوثب .

(٧) الأصيل : العشي ، والجمع الأصائل .

(٨) الفرقد : واحد الفرقدين ؛ وهما كوكبان من صورة بنات نعش الصغرى ؛ ويقال الفرقد على الكوكبين معا .

(٩) سهيل : كوكب من الكواكب الجنوبية ؛ ولذلك لا يراه سكان البلدان الشمالية مثل خراسان ، وأرمينية .

وأشهبَ تَغَشَّى من لونه مُفاضَة ، وتسربل منه لأمةً فضفاضة ، قد احتفل زَيْنُه ، لمَّا رُقِم بالنبّال لجبينه ، فهو الأشمط ، الذي حقه لا يُغْمَط ، والدَّارِع[1] المسارِع ، والأعزَل الذَّارع[2] ، وراقي الهِضاب الفارع ، ومكتوبُ الكتيبة البارع[3] . وأكْرِم به من مُرتاض سَالِك ، ومُجتَهِد على غايات السَّابقين الأولين مُتهالك ، وأشهَبَ[4] يَروي من الخليفة ، ذي الشِّيَم المُنِيفة ، عن مالك .

وحُبارِي[5] كلَّما سَابَقَ وبَارىَ ، استعار جَناح الحُبَارَى ؛ فإذا أُعمِلَت الحِسْبَة ، قيل مِن هُنا جاءت النِّسْبَة ، طرَدَ النَّمِر ، لما عظم أمره وأَمِر[6] ، فنَسَخ وجُودَه بعدَمه ، وابتزَّه الفَرْوَةَ مُلَطَّخةً بدَمِه ؛ وكأَنّ مُضاعفَ الوَرْد نُثِر عليه من طَبَقِه ، أو الفلَك ، لمّا ذهَب الحلك ، مُزِجَ فيه بياضُ صبحِه بحُمرة شفَقِه ....

وقِرْطاسيٍ حَقُّه لا يُجهَل ، «مَتَى ما تَرَقَّى العَينُ فيه تَسفَّل»[7] ؛ إن نُزِع عنه جُلُّه[8] ، فهو نَجمٌ كلُّه ؛ انفردَ بِمادَّة الألوان ، قبل أَن تَشُوبَها يَدُ الأكوان ، أو تَمْزجَها أقْلاَم المَلَوان[9] ؛ يتَقَدَّم الكتيبة منهُ لِواءٌ ناصعُ ، أو أبيضٌ مناصِعٌ[10] ؛ لبِسَ وقَار المَشيب ، في رَيْعان العُمُر القَشيب ، وأنصتَتْ الآذان من صَهيلة المُطيل المطِيب ، لمَّا ارتدَى بالبياض إلى نَغْمة الخَطيب ؛ وإن تَعتَّب منه للتأخير مُتَعتّب ، قُلنا : الواوُ لا تُرتِب[11] ، ما بين فَحْل وحُرَّة ، وبهرمانةٍ[12] ودُرَّة ؛ ويا للهِ

---

(١) رجل دارع : ذو درع .

(٢) ذرع : اسرع ؛ كأنه لسرعته يقيس المسافات بالذراع .

(٣) الفارع : المرتفع ، الحسن . والبارع : التام في كل فضيلة .

(٤) يوري بأشهب بن عبد العزيز المالكي أبو عمر المصري . وقد تقدم ذكره .

(٥) الحباري : لونه لون الحباري . والحباري بضم الحاء ، وفتح الباء المخففة ، وراء مفتوحة بعد ألف : طائر رماضي اللون ؛ وهو أشد الطير طيراناً ، وأبعدها شوطا . ولذلك يقول : ان سرعة هذا الفرس تأتي من شبهه بالحباري الذي له هذه الصفة . حياة الحيوان للدميري ١٩٦/١ .

(٦) أمر : كثر .

(٧) عجز بيت لأمرىء القيس وصدره :

ورحنا يكاد الطرف بقشر دونه   متى الخ .

وفي الأصول : «..... فيه تسهل» . والمثبت رواية الديوان ، وشرحه للبطيوسي ص ٣٤ طبع التقدم سنة ١٢٢٣ هـ .

(٨) جل الفرس ، وجاله : الغطاء الذي تلبسه إياه لتصونه .

(٩) الملوان : الليل والنهار .

(١٠) الناصع : الخالص من كل شيء ؛ والمناصع : المجالس . جمع منصع .

(١١) يشير الى قول النحاة : ان العطف بالواو لا يفيد ترتيبا بين معطوفاتها .

(١٢) البهرمان : نبات بأرض العرب يصبغ به ، يقال له العصفر ، ولونه دون الارجوان في الحمرة .

من ابتسام غُرَّة ، ووُضوح يُمْنٍ في طُرَّة[1] ، وبَهْجَةٍ للعَين وقُرَّة ؛ وإن وَلِعَ الناسُ بامتداح القَديم ، وخَصُّوا الحديثَ بفَرْيِ الأديم[2] ، وأَوجَفَ المُتَعصِّب ، وإن أَبَى المَنْصِب ، مرتَبَةَ التَّقديم ، وطَمَحَ الى رتبة المَخدوم طَرْفُ الخَديم ، وقُورِنَ المُثْرِي بالعَديم ، وبُخِسَ في سُوق الكَسَد الكَيْل ، ودَجَا الليل ، وظَهره في فَلَكِ الأنصافِ المَيْل ، لَمَّا تُذُوكرت الخَيْل ؛ فَجِيءَ بالوَجيه[3] والخَطَّار[4] ، والـــذائـــد[5] وذي الخِمار[6] ودَاحِس[7] والسَّكْب[8] ، والأبْجَر[9] وزاد الرَّكْب[10] ، والجمُوح[11] واليَحْمُوم[12] ، والكُمَيْت[13] ومَكْتُوم[14] ، والأعْوَج[15] وحلوان ، ولاَحق والغَضْبَان ، وعَفْزَر ، والزَّعفران والمُحَبَّر واللَّعَّاب ، والأغَرّ والغُراب ، وشُعْلَة والعُقَاب ، والفَيَاض واليَعْبُوب ، والمُذْهَب واليَعْسوب ، والصَّمُوت والقُطَيْب ، وهَيْدَبَ والصُّبَيْب ، وأهْلُوب وهَدَّاج ،

---

(١) الطرة : الناصية ، اشارة الى الحديث : «الخيل معقود في نواصيها الخير الى يوم القيامة» .

(٢) الاديم : الجلد ؛ وفريه : قطعه . وهو يشير إلى قول ابن شرف القيرواني :

أغرى النـــاس بـــامتـــداح القـــديم وبـــذم الحديث غير الـــذميم
ليس إلا لأنهم حسدوا الحي ورقوا على العظـــــــــــام الرميم

(٣) الوجيه : فرس لغني بن أعصر بن سعد بن قيس بن عيلان . وهو مما سمي من جياد الفحول ، والاناث المنجبات . تاج العروس (وجه) ، مخصص ١٩٥/٦ .

(٤) الخطار : فرس حذيفة بن بدر الفزاري . وله ذكر في حرب داحس والغبراء . المخصص ١٩٦/٦ ، تاج (خطر ، دحس) .

(٥) الذائد : فرس نجيب من نسل الحرون ، ومن أبنائه اشقر مروان . تاج (ذاد) .

(٦) ذو الخمار : فرس للزبير بن العوام ، ولمالك بن نويرة الشاعر . المخصص ١٩٤/٦ تاج (خمر) .

(٧) داحس : فرس قيس بن زهير بن جذيمة العبسي . له ذكر في حرب داحس والغبراء المخصص ١٩٦/٦ ، تاج (دحس) ، وانظر مجمع الأمثال : «أشأم من داحس» ٢٥٦/١ .

(٨) السكب : من أفراس النبي صلى الله عليه وسلم ، وهو أول فرس ملكه . المخصص ١٩٣/٦ ، تاج (سكب) .

(٩) الأبجر : من خيل غطفان بن سعد ، وهو فرس عنترة بن شداد العبسي . تاج (بجر) .

(١٠) زاد الركب : فرس للأزد ، وهو من أقدم فرسان العرب .

(١١) الجموح (كصبور) : فرس مسلم بن عمرو الباهلي ، وفرس للحكم بن عرعرة النميري تاج (جمع) .

(١٢) اليحموم : فرس النعمان بن المنذر ، ولذلك كان يقال للنعمان فارس اليحموم . وسمي باليحموم عدة أفراس . تاج ٢٦١/٨ .

(١٣) الكميت : ذكر في تاج العروس في (كمت) عشرة أفراس باسم الكميت ، مع أسماء أصحابها .

(١٤) مكتوم : فرس لغني بن أعصر ، من جياد الفحول . تاج (كتم) .

(١٥) أعوج (بلا لام) : فرس لبني هلال ؛ تنسب إليه الأعوجيات ، كان لكندة فأخذته سليم ، ثم صار إلى بني هلال ، بعد أن كان لبني آكل المرار . تاج (عوج) .

والحَرُون وخَراج ، وعَلْوَى والجَنَاح ، والأحْوَى ومِجَاح ، والعصَا والنَّعامَة ، والبَلْقاءِ والحَمامة ، وسَكاب والجَرَادة ، وخَوْصاء والعَرادة[١] ؛ فكَم بين الشَّاهِد والغائب ، والفُروش والرَّغَائب[٢] ، وفرقٌ ما بينَ الأثر والعِيَان ، غَنِيٌّ عن البَيان ؛ وشتَّان بيْن الصَّريح والمشتبة ؛ ولله دَرُّ القائل :

«خذ ما تراه ودَعْ شيئاً سَمِعْتَ به[٣] »

والنَّاسخ[٤] يختَلف به الحُكم ، وشرُّ الدوابِ عند التفضيلِ بين هذه الدَّوابِّ الصُّمُّ البُكْم[٥] إلاّ ما ركبه نبيٌّ، أوكان له يوم الافتخار وبرهانٌ خَفِي[٦] ومُفَضِّلُ ما سَمِع على ما رأى غَبيٌّ ؛ فلو أُنصِفَتْ محاسنُها التي وُصِفتْ ، لأُقضِمت[٧] حَبَّ القلوب علفا ، وأوردت ماءَ الشَّبيبَة نُطَفاً[٨] ؛ واتخذت لها من عُذَر[٩] الخدود المِلاح عُذَر موْشِيَّة[١٠] ، وعلّلت بصفير الحان القِيان كلَّ عشيَّة ؛ وأُنعلت بالأهِلَّة ، وغُطيت بالرياض بَدَلَ الأجلّة[١١] .

إلى الرقيق[١٢] ، الخليق بالحُسْن الحقيق ، يَسوقه إلى مثْوى الرعايةُ رُوقَة[١٣] الفتيان رُعاته ، ويُهدي عقيقُها من سَبَحه[١٤] أشكالاً تشهد للمخترع سُبحانه بإحكام مخترعاته ، وقَفتْ ناظر الاستحسان لا يَرِيم[١٥] ، لِمَا بهره منظرُها الوسيم ، وتَخامل

---

(١) العرادة وما قبلها : اسماء أفراس لرجال مشهورين من رؤساء قبائل العرب القدامى .

(٢) الرغائب : جمع رغيبة ، وهي الأمر المرغوب فيه . تاج (رغب) .

(٣) صدر بيت للمتنبي من قصيدة يمدح بها سيف الدولة ؛ وعجزة عن شرح العكبري ٦٨/٢ طبع الشرفية : « .... * في طلعة البدر ما يغنيك عن زحل » .

(٤) النسخ في مصطلح أهل أصول الفقه : انهاء حكم شرعي ثبت بنص شرعي ، واحلال حكم آخر بدله بنص شرعي جاء دليلا على انتهاء الحكم الأول والناسخ : هو النص الأخير الذي بمقتضاه يرتفع الحكم الأول ، ويلغي النص السابق .

(٥) الاشارة الى الآية ٢٢ من سورة الأنفال .

(٦) خفي : خاف ، مستور .

(٧) القضم : أكل القضيم ، وهو شعير الدابة ، وأقضم الدابة : قدم لها القضيم .

(٨) النطفة : الماء الصافي ؛ والجمع نطف .

(٩) العذار : خط لحية الغلام ؛ والجمع عذر .

العذار من اللجام : السيران اللذان يجتمعان عند قفا الفرس ؛ والجمع عذر .

(١١) جل الدابة : ما تغطى به ، والجمع جلال ؛ وجمع جلال : أجلة .

(١٢) الرقيق : الضعيف لا صبر له على شدة البرد ، ونحوه .

(١٣) الروقة من الغلمان الملاح منهم ؛ يقال غلمان روقة : أي حسان ، والمفرد رائق .

(١٤) السبج : خرز أسود .

(١٥) لا يريم : لا يبرح .

الظَّليم[١] ، وتضاؤل الرِّيم[٢] وأُخرِسَ مُفوَّه[٣] اللسان ، وهو بملكات البيان ، الحفيظ العليم ؛ وناب لسانُ الحال ، عن لسان المقال ، عند الاعتِقال[٤] ، فقال يُخاطب المقام الذي أَطلعتْ أزهارها غمائم جُوده ، واقتَضَت اختيارها بركات وجوده : لو علمنا أيّها المَلِك الأصيل ، الذي كُرم منه الاجمال والتفصيل ، أنّ الثناء يوازيها ، لَكِلْنا لك بكَيْلِكَ ، أو الشُّكر يعادلها ويُجازيها ، لتعرّضنا بالوشل[٥] إلى نِيل نَيلك[٦] ، أو قلنا هي التي أشار إليها مستصرخ سَلفك المستنصر بقوله : «ادرك بخيلك» ، حين شَرِق بدمعه الشَّرق[٧] ، وانهزم الجمْع واستولى الفرْق ، واتسع فيه — والحكم لله — الخَرْق[٨] ورأى أن مقام التَّوحيد بالمظاهرة على التَّثليث ، وحزبه الخبيث ، الأَوْلى والأحق .

والآن قد أغنى الله بتلك النِيّة ، عن اتخاذ الطوال الرُّدينيَّة[٩] ، وبالدُّعاء من تلك المثابة الدينيَّة إلى ربّ المَنِيَّة[١٠] ، وعن الجُردِ العَرَبيَّة ، في مَقاود اللُّيوث الأبية ؛ وجدَّد برَسم هذه الهَديَّة ، مراسيم العهُود الوُدِيّة ، والذِّمِم المُوحّديَّة ، لتكونَ علامة على الأصل ، ومكذِبّةً لدعوَى الوقْفِ والفَصْل ، وإشعاراً بالأُلفة التي لا تزال أَلِفُها أَلِفَ الوصْل ، ولأمُها حراماً على النَّصْل[١١] .

وحَضَر بين يدَيْنا رسولُكم ، فقرّر من فَضلكم ما لا يُنكِره مَن عَرفَ عُلُوّ مقداركم ، وأَصالةَ داركم ، وفلَكَ إبْدارِكم ، وقُطْبَ مَدَاركم ؛ وأَجَبناه عنه بجهْدٍ[١٢] ما كنّا

---

(١) الظليم : ذكر النعام ؛ وفرس فضالة بن شريك الأسدي .

(٢) الريم : الظبي الخالص البياض .

(٣) رجل مفوه : يجيد القول .

(٤) اعتقل لسانه : حبس ، ولم يقدر على الكلام .

(٥) الوشل : الماء القليل .

(٦) النيل : نهر مصر . والنيل (بالفتح) : العطاء .

(٧) يريد شرق الأندلس .

(٨) يشير الى المثل : «اتسع الخرق على الرافع » الذي يقال عند استفحال الأمر ، والعجز عن اصلاحه . تاج (خرق) .

(٩) الردينية : منسوبة إلى ردينة ، وهي امرأة السمهري ؛ وكانا يقومان الرماح والقنا بخط هجر ؛ فيقال : الرماح الردينية ، والخطية ؛ نسبة الى الشخص تارة ، والى الموضع أخرى .

(١٠) البنية : الكعبة ، وكانت تسمى بنية ابراهيم ؛ وكثر قسمهم بها فيقولون : «لا ورب هذه البنية» .

(١١) اللام : جمع لأمة ؛ وهي الدرع . والنصل : حديدة السهم والرمح . اللسان (نصل) .

(١٢) الجهد (بالفتح) المشقة .

لنَقنَعَ مِن جَناه[١] المُهتَصَر[٢] ، بالمقتضَب المختَصَر ، ولا لِنُقابِلَ طُولَ طوْله[٣] بالقِصَر ، لولا طُرُوُّ الحَصر[٤] .

وقد كان بين الأسْلاف — رحمةُ الله عليهم ورضوانُه — وُدّ أُبرِمَت من أجل الله مَعاقدُه[٥] ، ووُثِرَت للخُلوص[٦] ، الجَليُّ النُّصوص ، مَضاجعُه القارَّة ومَراقِدُه ، وتَعاهُدٌ بالجميل يُوجَع لفَقْده فاقِدُهُ ، أَبى الله إلا أن يكونَ لكم الفضل في تجديده ، والعَطْف بتوكيده ؛ فنحن الآن لا ندري أيَّ مَكارمكم نذكُر ، أو أيَّ فَواضلكم نَشرَح أو نَشْكُر ، أَمُفَاتَحتُكم التي هي في الحقيقة عندَنا فَتح ، أم هَدِيَّتُكم ، وفي وصْفِها للأقلام سَبْح[٧] ، ولِعدُوّ الإسلام بِحكمة حكمتها كَبْح[٨] ، إنّما نكِل الشُّكر لمن يُوفِّي في جزاءَ الأعمال البرَّة ، ولا يَبْخَس مِثْقالَ الذَّرَّة ولا أدنى من مِثْقال الذَّرَّة ، ذِي الرَّحمة الثَّرَّة[٩] ، والألطافِ المتَّصِلَة المُستَمِرَّة ، لاَ إلهَ إلاّ هو .

وإِن تشَوَّفتم إلى الأحوال الرَّاهنة ، وأسبابِ الكُفْر الوَاهِيَة بقُدرة الله — الوَاهِنَة[١٠] ، فنحن نُطرِفُكم بطُرَفها[١١] ، ونُطْلِعُكم على سبيل الإجمال بطَرَفِها ؛ وهو أَننا لمّا أَعادَنا الله من التَّمْحيص ، إلى مَثَابة التَّخْصيص ، من بَعْدِ المَرَام العَويص ، كَحَلْنا بتَوفيق الله بَصَر البَصِيرة ، ووقفْنا على سبيله مَساعِي الحياة القَصِيرة ، ورأينا كما نُقِلَ إلينا ، وكُرِّر على من قَبْلَنا وعَلَينا — أَن الدُّنيا — وإِن غرَّ الغَرُور[١٢] وأَنام على سُرُر الغَفْلَة السُّرور ، فلم ينفَع الخُطور[١٣] على أَجدَاث[١٤] الأحبَاب والمُرور ، —

---

(١) الجنى : ما يجتنى من الشجر وغيره .
(٢) المهتصرة المال ؛ يقال هصرت الغصن : اذا أملته إليك .
(٣) الطول (بالضم) : خلاف العرض . والطول (بالفتح) : المن ؛ يقال طال عليه : اذا امتن .
(٤) الحصر : العي ، وعدم القدرة على الابانة .
(٥) المعاقد : العقد .
(٧) وثر الفراش (بالضم) : وطؤ ولان .
(٨) السبح : الجري .
(٩) كبح الفرس : جذبه إليه باللجام يمنعه عن الجري .
(١٠) الرحمة الثرة : الغزيرة الكثيرة .
(١١) وهي ، وهن : ضعف .
(١٢) جمع طرفة (بالضم) : الشيطان ؛ وفي القرآن : «ولا يغرنكم بالله الغرور» .
(١٣) الخطور : التبختر في المشي .
(١٤) جمع جدث : وهو القبر .

جِسْرٌ يُعْبَر ، ومَتَاع لا يُغبط من حُبِي ولا يُحْبَر[١] ، إنّما هو خَبَر يُخْبَر ؛ وأن الحسرة بِمِقدار ما على تركه يُجْبر ، وأنّ الأعمار أحْلاَم ، وأنّ النَّاسَ نِيَام ؛ وربما رَحَل الرَّاحِلُ عن الخَان[٢] ، وقد جَلَّله بالأذَى والدُّخَان ، أو تركَ به طِيباً ، وثَناء يقوم بَعْدُ لِلآتي خطيباً ؛ فَجعلنا العَدْلَ في الأمور مِلاكا[٣] ، والتفقُّد للثُّغور مِسْواكا ، وضجيعَ المِهَاد ، حديثَ الجهاد ، وأحكامه مناطَ الاجتهاد ، وقوله : «يَا أيُّهَا الذين آمنوا هل أَدُلُّكم على تِجارة»[٤] من حُجَج الاستشهاد ؛ وبادرنا رَمَقَ[٥] الحصُون المُضاعة وَجُنْحُ[٦] التَّقِيَّة[٧] دَامس[٨] ، وعِوَاريها[٩] لا تَردُّ يدَ لامِس[١٠] ، وساكنُها بائس ، والأعْصَمُ[١١] في شَعَفَاتِها[١٢] من العِصْمة يائس ؛ فَزَيَّنَّا بِبيض الشُّرُفات ثَنَاياها ، وأَفعمْنا بالعَذْب الفُرات رَكَاياها[١٣] وغشَّينا بالصَّفِيح المضَاعف أَبوابَها ، واحْتَسَبْنَا عِنْد مُوفِي الأجور ثوابَها ، وبَيَّضْنا بناصِع الكِلْسِ أثوابَها ؛ فهي اليَومَ تُوهِمُ حسَّ العِيَان ، أَنها قِطَع من بِيض العَنَان[١٤] ، وتكاد تَنَاوَلُ قُرْص البَدْر بالبَنَان ، متكَفِّلَةً للمؤمنينَ من فَزَع الدُّنيا والآخِرة بالأمان ؛ وأَقرَضْنا الله قَرْضاً ، وأَوسعْنا مُدَوَّنَة الجَيْش[١٥] عَرْضاً ، وفَرَضْنا إنصَافه مع الاهِلَّة فَرْضاً ؛ واستَنَدنا من التَّوكل على الله الغَنِيِّ الحميد إلى ظِلِّ لَوَاء ، ونَبَذنا إلى الطَّاغية

---

(١) يخبر ينعم ويسر ويكرم .

(٢) الخان المكان الذي ينزله المسافرون ، وهو الفندق .

(٣) ملاك الأمر : ما يقوم به ذلك الأمر .

(٤) يشير الى الآيات (١٠ — ١٣) من سورة الصف .

(٥) الرمق : بقية الحياة والروح . وفي الكلام تجوز .

(٦) جنح الطريق : جانبه ، وجنح القوم : ناحيتهم .

(٧) التقية : التحفظ .

(٨) ليل دامس : مظلم .

(٩) جمع عارية ؛ وهي المتجردة من الثياب . والعورات : الخلل في الثغر وغيره ، يتخوف منه في الحروب .

(١٠) يقال للمرأة التي تزني : لا ترد يد لامس ؛ أي لا ترد من يريدها عن نفسها .

(١١) الأعصم : الوعل ، وعصمته : بياض في رجله .

(١٢) الشعفات ، جمع شعفة ، وهي رؤوس الجبال .

(١٣) جمع ركية وهي البئر .

(١٤) العنان : السحاب .

(١٥) يريد الجيش الرسمي الذي كان مدونا في سجلات الدولة . وفي مقدمة الإحاطة ١/١٩ ، ٣٦ وصف للجيش الأندلسي ، وسلاحه ، وأقسامه ، وذكر لمقدار ما كان يأخذه كل شهر .

عهْده على سَواء[1] وقلنا : رَبَّنا أَنت العزيز ، وكُلُّ جَبَّار لعزّك ذَليل ، وحِزبُك هو الكَثير ، وما سِواه قليل ؛ أنتَ الكافي ، ووعْدُك الوَعْدُ الوافي ، فأَفِضْ[2] علينا مَدارِع[3] الصَّابرين ، واكتُبْنا مِن الفائزين بحظُوظ رِضاك الظَّافرين ، وثبِّت أقدامنا وانصُرْنا على القَوْم الكافِرين .

فتحرّكنا أول الحركات ، وفاتحةَ مُصْحَف البَرَكات ، في خِفّ من الحشُود ، واقتصارٍ على ما بِحَضرتنا من العَساكر المظفَّرة والجُنود ، إلى حصْن آشَر[4] البَازي المُطِلّ ، وركاب العَدوّ الضالّ المُضِلّ ، ومُهْدِي نَفَثات[5] الصِّلّ[6] ، على امتِنَاعه وارْتِفاعه ، وسُمُو يَفَاعه[7] ، وما بَذَل العدُوُّ فيه من استِعدادِه ، وتوفير أسلِحته وأزوادِه ، وانتخاب أنْجاده ؛ فصَلَيْنا بنَفسِنا نارَه ، وزاحَمْنا عليه الشهداء نُصابِرُ أُوارَه[8] ونَلْقَى بالجوارح العزيزة سِهامَه المَسْمُومة ، وجلاَ مِدَه المَلْمُومَة[9] وأحجاره ، حتى فَرَعنا[10] بحَول من لا حَول ولا قُوة إلا به — أبراجَه المَنيعة وأسوارَه ، وكفَفْنا عن البلادِ والعِباد أضراره ، بَعْد أن استَضَفْنا إليه حِصْنَ السَّهْلَة جارَه ؛ ورَحَلنَا عنه بَعد أن شَحنَّاه رابطةً وحامية ، وأزواداً نامِية ، وعَمِلْنا بيدنا في رَمِّ ما ثَلَم القِتال ، وبقَر من بُطُون مُسَابقَةِ الرِّجال ، واقْتدَيْنا بنَبِيِّنا — صلوات الله عليه وسلامه — في الخَندق[11] لمَّا حَمَى ذلك المَجال ، ووقع الارتجاز المَنقُول حديثه والارتجال[12] ؛ وما كان ليقرَّ للإسلام مع تركه القرار ، وقد كثُبَ الجِوار ،

---

(١) نبذ العهد : نقضه ، وألقاه الى من كان بينه وبينه . والتعبير مقتبس من الآية ٥٨ من سورة الأنفال .

(٢) أفض : أفرغ .

(٣) جمع مدرع : وهو ضرب من الثياب .

(٤) حصن آشر : يقع الى الجنوب الشرقي لحصن ورطة ، على ضفة رافد من روافد نهر شنيل .

(٥) نفثت الحية السم : اذا لسعت بأنفها ، فاذا عضت بابها قيل : نشطت .

(٦) الصل (بالكسر) : الحية التي لا تنفع فيها الرقية .

(٧) اليفاع : ما ارتفع من الأرض .

(٨) الأوار (بالضم) : حرارة النار ، والشمس ، والعطش .

(٩) جلامدة ، جمع جلمد ؛ وهو الصخر . والململومة : المستديرة الصلبة .

(١٠) فرعنا : علونا .

(١١) كانت غزوة الخندق في السنة الخامسة من الهجرة . الطبري ٤٣/٣ .

(١٢) نقل السهيلي في الروض الأنف عن أبي عثمان عبد الرحمن بن مل الهدي : أن النّبي صلى الله عليه وسلم كان يرتجز يوم الخندق فيقول :

بسم الإله وبه بدنيا =

وتَداعَى الدَّعَرَةُ[1] وتَعاوى الشِّرار[2] .

وقد كنا أغرينا من بالجهة الغربية من المسلمين بمدينة بُرْغُهْ التي سدت بين القاعدتين رُنْدَةَ ومالقة الطريق ، وألبست ذُلَّ الفراق ذلك الفريق ، ومنعتهما أن يُسيغا الريق ؛ فلا سبيل الى الإلمام ، لطيف المنام ، إلا في الأحلام ، ولا رسالة إلا في أجنحةَ هُدُلِ[3] الحَمام ؛ فَيَسَّر اللهُ فتْحَها ، وعجَّل مَنْحَها ، بعد حَرْب انبَتَّت فيها النُّحُور ، وتَزَيَّنت الحُوْر . وتَبِعَ هَذه الأمَّ بَنَاتٌ شهَيرة ، وبُقَعٌ للزَّرع والضَّرع خِيَرة[4] ، فشُفِيَ الثَّغْرُ من بُوسِه ، وتهلَّل وجهُ الإسلام بِتِلْك النَّاحية النَّاجِية بَعد عَبُوسِة .

ثم أَعْملنَا الحَرَكة إلى مَدينة إِطْريرة[5] ، على بُعد المدى ، وتغلغلها في بلاد العدا ، واقتحام هَول الفلا وغُول الرَّدى ؛ مدينةٌ تَبَنَّتْها حِمْصُ[6] فأَوسعَت الدَّار ، وأَغْلَت الشَّوار[7] ، ورَاعت الاستِكثَار ، وبسَطت الاعتِمار[8] ؛ رجَّح لدَينا قصْدها على البُعد ، والطَّريق الجَعْد ، ما أَسْفَتْ[9] به المُسْلِمِين من استِئْصال طائفة من أَسراهم ، مَرُّوا بها آمنين ، وبطائرها المشْئُوم متَيَمِنِين ، قد أنهَكَهم[10]

= ولو عبدنا غيره شقينا

فحبذا ربا وحب دينا

سيرة ابن هشام ٣/٢٢٧ ، ٢٢٨ .

(١) رجل داعر (بالمهملة) : يسرق ، يزني ، ويؤذي الناس ؛ والجمع دعرة .

(٢) تعاوت الشرار : تجمعت للفتنة ، وتعاووا عليه : تعاونوا وتساعدوا .

(٣) الهديل : ذكر الحمام . والجمع هدل ، كسرير وسرر .

(٤) الخيرة : المختار من كل شيء ؛ يريد : بقاع مختارة للزرع والضرع .

(٥) اطريرة : (Ultrera) تقع الجنوب الشرقي من إشبيلية على بعد ٣٩ كلم ، وقد ضبطت بكسر الهمزة وسكون الطاء .

(٦) يريد إشبيلية ؛ سماها حمص جند بني أمية الذي نزل بها حين جاء من حمص الشام . وقد فعلوا ذلك في كثير من مدن الأندلس . ياقوت (معجم البلدان) .

(٧) الشوار : متاع البيت ؛ ويريد به ما تعارف عليه الفقهاء ، مما يشترى من الصداق الذي يدفعه الزوج ؛ وتجهز به الزوجة من حلى ، وغطاء ، ووطاء الخ ، ذلك لأنه جعل «حمص» أماً لاطريرة قد زوجتها وجهزتها ، فتغالت — لما في الأم من حب لابنتها — في هذا الجهاز الخ . فجاء بالألفاظ الفقهية بمعانيها التي اصطلحوا عليها .

(٨) يريد بالاعتمار : الاستعمار ، والاستغلال .

(٩) أسفاه : أطاشه حلمه ، وحمله على الطيش .

(١٠) انهكهم : أجهدهم ، وأضناهم .

الاعتِقال ، والقُيودُ الثِقال ، وأضرعهم الأسار وجلّلهم الإنكسار ، فجدّلوهم[1] في مَصْرع واحِد ، وتركوهم عِبْرة للرّائي والمشاهد ، وأهدوا بوقيعتِهم إلى الإسلام ثُكْل الواجِد[2] ، وترَة الماجد[3] ؛ فكبَسْناها كبْساً ، وفجأناها بإلهام مَن لا يضِلّ ولا ينْسى وصبّحتها الخيل ، ثم تلاحق الرَّجْلُ لمَّا جنَّ الليْل ، وحاق بها الويل ؛ فأُبيح منها الذّمار[4] ، وأخذها الدّمار ، ومُحِقتْ[5] من مصانعها البيضُ الأهِلّة وَخسفت الأقمار ، وشُفيَتْ من دماءِ أهلها الضُّلوع الحرار[6] ، وسلّطت على هيا كلها النّار ، واستولى على الآلاف العديدة من سَبْيها ، وانتهى إلى إشبِيلية الثّكلى المُغار[7] فجلّل وجوهَ مَن بها من كبار النّصرانية الصّغار[8] ، واستولت الأيدي على ما لا يسعه الوصف ولا تُقلّه[9] الأوقار[10] .

وَعُدْنا والأرضُ تَموج سَبْياً ، لم نَتْرُكْ بعِفرِيْنَ شِبْلاً[11] ولا بَوَجْرَةَ ظبْياً[12] ، والعَقائلُ[13] حَسْرَى ، والعُيون يَبْهرَها الصُّنْعُ الأسْرَى[14] وصُبْحُ السُّرى قد حُمِدَ من بَعْدِ المَسْرَى[15] ، فسُبْحان الذي أَسْرَى[16] ؛ ولِسَانُ الحَمِيَّة يُنادِي ، في تِلك الكَنائِس المُخرَّبة والنَّوادي : يا لَثارات الأَسرَى !

---

(١) فجدلوهم : صرعوهم .
(٢) الثكل : فقد المرأة ولدها ، وفقد الرجل ولده ايضا ، والواجد : الغضبان .
(٣) الترة : الذحل والثأر . والماجد : الكريم ، ومن له آباء متقدمون في الشرف .
(٤) الذمار : ما وراء الرجل مما يحق له ان يحميه . والدمار (بالمهملة) : الهلاك .
(٥) المحق : النقصان وذهاب البركة . لسان العرب (محق) .
(٦) الضلوع الحرار : العطشى .
(٧) المغار : مصدر ميمي بمعنى الإغارة .
(٨) جلل وجوههم : عم وجوههم . والصغار : الذل .
(٩) أقل الشيء : أطاق حمله .
(١٠) الأوقار : جمع وقر ، وهو الحمل . وأكثر ما يستعمل في حمل البغل والحمار .
(١١) عفرين بلد تكثر فيه الأسود . والشبل : ولد الاسود .
(١٢) وجرة : فلاة بوسط نجد ، لا تخلو من شجر ، ومياه ، ومرعى . والوحش فيها كثير . (تاج — وجر) .
(١٣) جمع عقيلة ؛ وهي المرأة الكريمة ، النفيسة .
(١٤) الصنع الأسرى : الأشراف ، والأرفع .
(١٥) ينظر الى المثل : «عند الصباح يحمد القوم السرى » ، الذي يضرب للرجل يحتمل الشقة رجاء الراحة . أنظر الميدان ٣٠٤/٢ .
(١٦) اقتباس من الآية ١ من سورة الإسراء . وأسرى : سار ليلا .

ولم يَكن إلا أن نُفِلَت الأنفال(1) ، ووُسِمَتْ بالأوضَاح الأغفَال(2) ، وتميَّزت الهوادِي والأكْفَال(3) ، وكانَ إلى غَزْو مَدينَةَ جَيَّانَ الاحْتِفَال ، قُدنا إليْها الجُرْدَ(4) تُلاعِب الظِّلال نَشَاطا ، والأبطالُ تَقْتَحِم الأخطار رضى بها عندَ الله واغْتِباطاً ، والمُهَنَّدَةُ الدُّلْق(5) تَسبِق إلى الرقاب استلالا واختراطاً ، واستكثَرْنا من عُدَد القتال احتياطاً ، وأزَحْنا العِلَل عمَّن أراد جِهاداً مُنجياً غُبَارهُ من دُخانَ جهنَّم ورباطاً ، ونادَيْنا الجِهَادَ ! الجهادَ ! يا أُمّة الجهاد ! رايَةَ النَّبِيِّ الهَادِي ! الجَنَّةُ تَحْتَ ظِلال السُّيوف الحِداد ! ؛ فَهزَّ النداءُ إلى الله تعالى كلَّ عارم وغامر(6) ، وائتمرَ الجمُّ من دَعوى الحَق إلى أَمْرِ آمِرِ ، وأَتى النَّاسُ من الفُجُوج(7) العميقَة رِجالاً وعلى كُلْ ضامِرٍ(8) ، وكاثَرتِ الرَّاياتُ أزهار البطاح لوناً وعَداً ، وَسَدّت الحُشود مسالكَ الطَّريق العَريضَة سَدّاً ، ومُدَّ بحرُها الزَّاخِرَ مَدًّا ، فَلاَ يجد لها النَّاظِر ولا المُناظِرَ حَدًّا .

وهذه المَدينة هي الأمُّ الوَلُود ، والجَنَّة التي في النَّار لِسُكَّانِها من الكُفَّار الخُلود ؛ وكُرْسِيُّ المُلك ، ومُجَنَّبَةُ(9) الوُسْطَى من السِّلْك ؛ باءَت بالمَزَايا العديدَة ونجَحَتْ ، وعِندَ الوِزان بغَيرها من أُمَّات(10) البُلْدَان ، رَجَحَت ، غابُ الأسود ، وجُحْرُ الحَيَّات السُّود ، ومُنَصَّب(11) التَّماثيل الهَائِلة ، ومُعَلَّقُ النَّواقِيس المصلصلة .

---

(1) الأنفال : جمع نفل ؛ وهو الغنيمة : ونفلت : أعطيت .

(2) الأوضاح ، جمع وضح ؛ وهو البياض . والاغفال : الاراضي الموات ؛ يقال ارض عفل : لا علم بها ، ولا سمه .

(3) هو ادى كل شيء : أوائله . يريد : تميز الشجعان الذين كانوا يتصدرون المعركة ، من الاكفال (جمع كفل) : وهم الذين يكونون في مؤخر الموقعة همتهم التأخر ، والفرار .

(4) جمع أجرد ؛ وهو الفرس القصير الشعر ، وذلك في علامات العتق والكرم .

(5) سيف دلق : سهل الخروج من غمده ؛ والجمع : دلق .

(6) العامر من الأرض : المستغل . والغامر : الذي يغمره الماء ؛ ويراد به الارض التي لم تستثمر . يريد : أقبل الناس من كل جانب .

(7) جمع فج ؛ وهو الطريق البعيد ، والواسع ، والذي بين جبلين .

(8) الجمل الضامر : الخفيف الجسم .

(9) المجنبة : التي تأخذ مكانها جانب الجوهرة الوسطى من العقد . يريد ان مدينة جيان تحتل المرتبة الثانية بالقياس الى حضرة الملك .

(10) أمات ، جمع أم ؛ ويغلب أن تأتي جمعاً لام ما لا يعقل . وانظر اللسان «أم» ، «أمه» .

(11) منصب اسم مكان ، بمعنى الموضع الذي أقيمت فيه هذه التماثيل .

فأَدْنينا إليها المَراحِل ، وعنَيْنا ببحار المُحِلاّت المُسْتَقِلاّت منها السّاحِل[1] ، ولما أَكْثَبْنا[2] جوارَها ، وكِدْنا نَلتَمِح[3] نارَها ، تَحرَّكنا إليها ووشاحُ[4] الأُفق المَرقُوم ، بزُهْرِ النُّجوم ، قَدْ دار دائرُه ، واللَّيلُ من خَوف الصَّباح ، على سطْحِه المُسْتَباح ، قَدْ شابَتْ غدائرُه ، والنّسْرُ[5] يُزفرف باليُمْن طائرُهُ ، والسِّماكُ الرّامح[6] يَثّأَر بعِزِ الاسلام ثائرُه ، والنَّعائمُ راعِدَةٌ[7] فرائِصَ[8] الجَسَد ، من خَوْف الأسد[9] ، والقَوْسُ[10] يُرْسِلُ سَهمَ السَّعادَة[11] ، بوَتَر العادة ، إلى أَهْدافِ النِعَم المُعادَة ، والجَوْزاءُ[12] عابرَةٌ نَهرَ المَجَرَّة[1] ، والزُهَرَةُ[2] تَغارُ من الشِّعْري العبُور[3]

---

(١) أحل فلان أهله بمكان كذا : جعلهم يحلونه . واستقل القوم : ذهبوا وارتحلوا .

(٢) اكثب : قارب ، ودنا من الشيء .

(٣) التمحه : ابصره بنظر خفيف .

(٤) الوشاح : شيء ينسج عريضاً من أديم ، ويرصع بالجواهر ، وتشده المرأة بين عاتقها وكشحها .

(٥) النسران : كوكبان شآميان ؛ أحدهما واقع ، والاخر طائر . فالواقع كوكب نير ، خلفه كوكبان اصغر منه ، يكونان معه صورة الاثافي ؛ ويقولون : هما جناحاه وقد ضمهما إليه حين وقع . أما الطائر ؛ فهو ازاء النسر الواقع في ناحية الشمال ، وتفصل بينهما المجرة ؛ وهو كوكب منير بين كوكبين تخيلوهما جناحيه قد نشرهما . وانظر كتاب «الانواء» لابن قتيبة ص ١٣٣ لسان (نسر) .

(٦) السماء الرامح : نجم نير شمالي ، خلفه كوكبان بمنزلة الرمح له . وهو نجم لا نوء له ويقابله السماك الأعزل ؛ وهو من منازل القمر .

(٧) النعائم : منزلة من منازل القمر ؛ وهي أربعة كواكب مربعة على طرف المجرة . وهناك نعائم واردة ، ونعائم صادرة ؛ فالواردة منها هي التي ترد في نهر المجرة ، والصادرة قد وردت وصدرت ، أي رجعت عنها . لسان العرب (نعم) .

(٨) راعدة الفرائص : فزعة ، مرتجفة ، والفرائص ، جمع فريصة ، وهي مرجع الكتف الى الخاصرة في وسط الجنب .

(٩) الأسد : أحد البروج الشمالية الاثني عشر . وكواكبه ٣٤ كوكبا .

(١٠) القوس ، ويسمى الرامي : أحد البروج الاثني عشر من البروج الجنوبية ؛ وهو كوكبة على صورة شخص نصفه الأعلى انسان ، بيده قوس يرمي به ، والنصف الأسفل منه على صورة فرس . وكواكبه ٣١ كوكباً ، ويقع خلف كوكبة العقرب .

(١١) السهم — في مصطلح المنجمين : عبارة عن موضع في دائرة فلك البروج ، يقع بين طولي كوكبين من الكواكب السيارة . ولهم في استخراجه طرق حسابية معروفة ؛ ولهذا الموضع المعين دلالة خاصة . وأقوى السهام : سهم السعادة ، وسهم الغيب .

(١٢) الجوزاء ، وتسمى التوأمين : برج من بروج الشمس الشمالية ؛ وهي صورة انسانين رأسهما ، وسائر كواكبها في الشمال والمشرق عن ابجرة ، وأرجلهما الى الجنوب والمغرب في نفس المجرة ؛ وهما كالمتعانقين . كواكبها ٢٥ كوكبا .

(١) المجرة : البياض الذي يرى في السماء ، وتسمى عند العوام بسبيل التبانين ؛ وهي كواكب صغار ، متقاربة ، متشابكة لا تتمايز حسا ، بل هي لشدة تكاثفها وصغرها صارت كأنها لطخات سحابية ؛ والعرب تسميها أم النجوم لاجتماع النجوم فيها . عجائب المخلوقات للقزويني ٣٢/١ وما بعدها .

بالضَّرَّة ؛ وعُطارِد[٤] يسْدِي في حَبْل الحروب ، على البَلَد المَحْرُوب[٥] ويُلْحِمُه ، ويُناظِر على أشكالها الهَندَسيَّةِ فيفحِمُه ، والأحْمَر[٦] يَبْهَر ، وبعَلَمِهِ الأبيض يُغرِي ويَنْهَر ، والمُشتَرِي يُبْدِيءُ في فضْل الجِهاد ويُعيد ، ويُزاحِم في الحَلَقات ، على ما للسَّعادة من الصَّفَقات ، ويَزيد[٧] ؛ وزُحَل[٨] عن الطَّالع[٩] مُتزَحِل[١٠] ، وعَنِ العاشِر[١١] مُرتَحِل ، وفي زَلَق السُّعُودِ وَحِل ؛ والبَدر يطالع حَجَر المِنْجَنِيق[١٢] ، كيفَ يَهْوِي إلى النِّيق[١٣] ، ومَطْلِعُ الشَّمْس يُرْقَب ، وجِدارُ الأفقِ يَكادُ بالعُيُون عَنْها يُنْقَب .

ولما فشا سِرُّ الصباح ، واهتزت أعطاف الرَّايات بتحيّاتِ مُبشِّرات الرِّياح أطللْنا[١٤] عليها إطلال الأسود على الفرائس ، والفحول على العرائس ؛ فنظرنا منْظراً يروع بأساً ومنْعَة[١٥] ، ويروق وضعاً وصنْعَةً ، تلفَّعَتْ[١٦] معاقِلُه الشُّم للسَّحاب ببرود ،

---

(٢) الزهرة ، كتؤدة : نجم أبيض مضيء من الكواكب السبعة السيارة ، ويسميها المنجمون السعد الأصغر ، لأنها في السعادة دون المشتري . تاج العروس (زهر) .

(٣) الشعري العبور (بكسر الشين) : كوكب نير من كوكبة الجوزاء ، في حجم الزهرة ونورها تقريباً ؛ يقال لها الشعرى العبور ، ومرزم الشعرى ، ذكرت في القرآن : «وأنه هو رب الشعرى» (٤٩ من سورة النجم) . وقد عبدها قوم من العرب في الجاهلية . وسميت العبور لأنها — فيما يزعمون — عبرت السماء عرضاً ، ولم يعبرها غيرها ، فلذلك عبدوها . تاج العروس (شعر) .

(٤) عطارد ، ويسمى — في عرف أهل المغرب — الكاتب : كوكب من السبعة السيارة . واقترانه بزحل يدل على الخسف والزلزال ، وبالمريخ يدل على الشدائد .

(٥) المحروب : المسلوب المال ، المنهوب .

(٦) الأحمر وهو المريخ : دليل على الحروب وأصحابها ؛ فاذا كان في البرج الرابع من الطالع ، دل ذلك على كثرة القتل في الحروب ، وشدة الهول .

(٧) زحل ، والمشتري ، والمريخ ، اذا اقترنت بعضها ببعض ، أو تناظرت ؛ بأن كانت ناظرة بعضها إلى بعض نظر عداوة ، وذلك عند التربيع والمقابلة — اذا حصل ذلك عند حلول الشمس برأس الحمل ، فان ذلك يدل على وقوع حرب .

(٨) زحل ، وهو كيوان : إذا اتصل به القمر اتصال عداوة ، فان ذلك يدل على البلايا والرزايا .

(٩) الطالع : هو البرج الذي على الافق الشرقي .

(١٠) زحل عن مكانه : زل ، وحاد .

(١١) العاشر : هو البرج الذي يقع فوق سمت الرأس .

(١٢) المنجنيق (بفتح الميم وكسرها) : آلة لرمي الحجارة على العدو في الحرب . شفاء الغليل ص ١٣٣ .

(١٣) النيق : أرفع موضع في الجبل .

(١٤) أطللنا عليها : أشرفنا عليها .

(١٥) منعة : قوة تمنع من يريده بسوء .

(١٦) تلفع : تلحق .

ووردت من غُدر المُزْن في بُرود[1]، وأَشرعت لاقتطاف أزهار النجوم والذراع بين النطاق معَاصمَ رُود[2]، وبلداً يحيي الماسح والذارع[3]، وينَظمُ المحاني والأجارع[4]؛ فقلنا: اللهم نفِّله أَيدي عبادك، وأرنا فيه آيةً من آيات جهادِك، وانزلنا بساحَتِها العريضة المتُون، نُزُول الغيْث الهتُون، وتيَمَّنّا من فحصها بسورة «التين والزيتون»، متبرئَةً من أمـانِ الرحمان للبلد المفتون؛ وأَعجلنا الناس بحميَّة نفُوسهم النفيسة، وسجيّة شجاعتهم البئيسة[5]، عن أن تبوَّأ[6] للقِتَال المقَاعد[7]، وتُدني بأسماع شهير النفير منهم الأباعد، وقبل أن يَلتقيَ الخديم بالمخدوم، ويركع المنجنيق ركعتي القدوم؛ فدفعوا من أَصْحَرَ إليهم من الفرسان. وسبق إلى حومة المَيْدان[8]، حتى أَحجروهم في البلد، وسلبوهم لباسَ الجَلد[9]، في موقفٍ يُذهِل الوالدَ عن الولد، صابت السِّهام فيه غماما[10]، وطارت كأَسراب الحمام تَهْدى حِماما[11]، واضحتَ القَنا قصدا[12]، بعد أن كانت شِهاباً رَصداً؛ وماج بحرُ القتَام[13] بأمواج النُّصول، وأخذ الأرض الرَجفَانُ لِزلزال الصِّياح الموصول؛ فلا ترى إلاّ شهيداً تُظلّل مَصرعَه الحُور[14]، وصريعاً تقذِف به الى الساحل تلك البحور، ونواشِبَ[15] تبْأى[16] بها الوجوهُ الوجيهة عند الله والنُّحور؛

---

(١) البرود من الشراب: ما يبرد الغلة.
(٢) رخصة ناعمة.
(٣) مسح الارض: قاس مساحتها. وذرعها: قاسها بالذراع.
(٤) المحاني، جمع محنية؛ وهي منعرج الوادي، وما انحنى من الارض. والاجارع، جمع أجرع؛ وهي الارض الطيبة المنبت، والأرض فيها حزونة.
(٥) الشديدة البأس.
(٦) تبوأ: تهيأ.
(٧) المقاعد: مواقف للقتال تعين لكل واحد من المقاتلين؛ يعني عجلنا بالهجوم قبل ان يتخذ كل مقاتل مكاناً معينا، اشارة الى الآية «واذ غدوت من أهلك تبويء المؤمنين مقاعد للقتال» (١٢١ من سورة آل عمران).
(٨) حومة الميدان: أسد موضع فيه وقت القتال.
(٩) الجلد: القوة، والصبر.
(١٠) صابت السهام غماما: نزلت كالغمام لكثرتها.
(١١) الحمام (بالكسر): قضاء الموت وقدره.
(١٢) قصدا: قطعا؛ يقال: القنا قصد أي مكسورة.
(١٣) القتام: الغبار.
(١٤) جمع حوراء؛ وهي التي اشتد بياض عينها، وسواد سوادها.
(١٥) نواشب: سهام ناشبة في وجوه المحاربين، أو في أعناقهم.
(١٦) تبأى بها: تنشق.

فالمِقْضَب[1] ، فَوْده[2] يُخْضَب ، والأسمَر ، غُصنه يُستَثمَر ، والمِغْفَر[3] ، حِماهُ يخْفَر ، وظُهورُ القِسِيّ تُقْصَم[4] ، وعِصَمُ الجُنْد الكوافِر تُفْصَم[5] ، وورقُ اليلب[6] في المُنْقلب يَسقُط ، والبِيض تكتُب والسُّمْر تَنقُط[7] ، فاقتحِمَ الربضُ الأعظم لحينه ، وأظهر اللهُ لعيونِ المُبْصرين والمُسْتَبْصِرين عِزَّة دينه ، وتبرّأ الشيطان من خدينه[8] ، ونهب الكفّار وخُذلوا ، وبكلِّ مرصد جُدِّلوا ؛ ثمَّ دُخِل البَلَدُ بعدَهُ غِلاَبا ، وجُلِّل[9] قَتْلاً واستلابا ؛ فلا تَسَل إلا الظُّبا[10] والأسَل[11] عن قِيام ساعتِه ، وهَوْلَ يومها وشَناعَته ، وتخْريب المَباثت[12] والمَباني ، وغِنَى الأيْدِي من خزائن تلك المَغَاني ، ونَقْل الوجود الأول الى الوُجُود الثّاني[13] ؛ وتَخارق السَّيفُ فجاء بغَير المُعْتاد ، ونَهِلَت القَنا الرُّدَيْنيَّة من الدِّماء ، حتى كادت تُورِق كالأغصان المُغْتَرَسة والأوتاد ، وهَمَت أفلاكُ القِسِيّ وسَحَّت ، وأَرَنَّت حتى بُحَّتْ ، ونَفدت موادُّها فشحَّت ، مما أَلَحَّت ، وسَدَّت المَسالكَ جثثُ القَتْلَى فمَنَعت العابر ، واستأصل الله من عدوه الشَّأْفَةَ وقطَع الدَّابر[14] ، وأزلَف الشَّهيدَ وأحسَب الصَّابر[15] ، وسبَقت رُسلُ الفتح الذي لم يُسمَع بمثله في

---

(١) سيف مقضب : قطاع .

(٢) الفود : معظم شعر اللمة مما يلي الاذن . واسناد ذلك للسيف على جهة التوسع .

(٣) المغفر : ما يلبسه الدارع على رأسه من الزرد ونحوه .

(٤) تقصم : تكسر .

(٥) عصم الكوافر : جمع عصمة ، وأصل العصمة الحبل ، وكل ما أمسك شيئاً فقد عصمه . والكوافر جمع كافرة وهو يريد هنا أن الجند جماعات ، فصح له جمع فاعل على فواعل . تفصم : تقطع وتنفصل . مقتبس من الآية : «ولا تمسكوا بعصم الكوافر» .

(٦) اليلب : الدروع ، والدرق .

(٧) البيض : السيوف . والسمر : الرماح .

(٨) الخدين : الصديق .

(٩) جلل قتلا : عمه القتل .

(١٠) الظبا ، جمع ظبة ؛ وهي حد السيف ، والسنان ، والنصل ، والخنجر ، ونحوها .

(١١) الأسل : عيدان طوال دقاق مستوية لا ورق لها ؛ وتسمى الرماح والقنا أسلا ، على التشبيه بها في الطول ، والاستواء ، والدقة .

(١٢) المباثت ، جمع مبيت ، مكان البيتوتة .

(١٣) يعني بالوجود الأول : الوجود الخارجي ، وهو المرئي بالعين الملموس . أما الوجود الثاني فهو الوجود الذهني ؛ والمعنى أن هذه المدينة قد أصبحت موجودة في الأذهان صورتها بعد أن كانت موجودة العين . وانظر معيار العلم للغزالي ص ٣٧ . وشرح المقاصد للسعد ١/٥٧ (طبع استانبول سنة ١٢٧٧ هـ) .

(١٤) الشأفة : الأصل ، واستأصل شأفته أي أصله . وقطع الدابر : استأصل آخرهم .

(١٥) أزلف الشهيد : قربه اليه . وأحسب الصابر : اعطاه ما يرضي ، أو اعطاه حتى قال حسبي .

الزَّمن الغَابر. تَنقُل البُشرَى من أفْواه المحابر، إلى آذان المَنابر.
أقمنا بها أياماً نعْقِر الأشجار[١]، ونستأْصل بالتَّخريب الوِجار[٢]، ولسانُ الانتقام من عَبدَةِ الأصنام، يُنادي: يا لثارات الإسْكَنْدَريّة[٣] تَشفِياً من الفِجار[٤]، ورعْياً لحق الجَار؛ وقفلنا وأجنحةُ الرَّايات، برياح العِنَايات، خافقة وأوْفاقُ[٥]، التَّوفيق، النّاشئة من خُطوط الطَّريق، مُوافِقَةٌ، وأسْواقُ العزِّ بالله نافقةٌ، وحُملاءُ الرِفق مَصاحِبَةٌ — والحَمدُ لله مُرافقةٌ؛ وقد ضاقت ذُرُوع الجبال، عن أعناق الصُّهْب السِّبال[٦]، ورُفعت على الأكفال، رُدَفاء كرائم الأنفال، وقُلْقِلَت من النَواقيس أجْرام الجبال، بالْهِندام[٧] والأحتيال؛ وهلَك بمَهْلِك هذه الأمِّ هذه الأمِّ بناتٌ كنَّ يرتضِعْنَ ثُدِّيها الحوافل[٨]، ويستوثِرْن حِجْرها الكافل؛ شمل التَّخريبُ أسوارها، وعجَّلت النَّار بَوارها.

---

(١) نعقر الأشجار: نقطع رؤوسها، فتيبس.
(٢) الوجار (بالكسر ويفتح): جحر الضبع، والاسد، والثعلب، والذئب ونحوها.
(٣) يشير ابن الخطيب الى «الواقعة» التي حدثت بالاسكندرية سنة ٧٦٧ هـ، ومحملها ان حاكم قبرص انتهز غيبة حاكم الاسكندرية في الحجاز للحج، فهاجم البلد في اسطول بلغت قطعه نحو ٧٠ فيما قالوا، وقد خرج أهل الاسكندرية للنزهة غير مقدرين للخطر، وكانت الحامية الموجودة قليلة، والأسوار والحصون خالية من المدافعين، فهاجم العدو الأهالي العزل الآمنين، ففروا الى المدينة، وأغلقوا عليهم الأبواب، فأحرقها العدو واقتحم البلد عليهم.. فكانت مذابح هتكت فيها حرمات. وانظر تفصيلها في العبر م ٥.
(٤) شبّه مهاجمة الاسكندرية الآمنة بحرب «الفجّار»، التي سميت بذلك لما استحل فيها من حرمات، حيث كانت في الاشهر الحرم.
(٥) أوفاق، جمع وفق؛ وهي مربعات تحتوي على بيوت مربعة صغيرة، وتوضع في تلك البيوت أرقام، أو حروف، على نظام بحيث لا يتكرر عدد في بيتين، وبحيث يكون مجموع أضلاع المربع، ومجموع أقطارها متساوياً؛ ويسمى الوفق — بعد ذلك — بما في أحد اضلاعه من بيوت؛ فيقال: المثلث، والمربع، والمخمس الخ؛ وقد يحتوي على مئة من البيوت فيقال: الوفق المئيني. ويقول أصحاب الأفق: ان للاعداد — في هذا الوضع — خواص روحانية، وآثاراً عجيبة، اذا اختير للعمل بها وقت مناسب، وساعة شريفة. وكلام ابن الخطيب على التشبيه والتجوز.
(٦) الصهب: جمع أصهب، وهو الابيض تخالطه حمرة. والسبال: جمع سبلة؛ وهي اللحية، أو ما على الشارب من شعر؛ ويقال للاعداء عامة هم صهب السبال؛ ذلك لأن الصهوبة في الروم، وقد كانوا اعداء العرب؛ ثم قالوا لكل الاعداء: هم صهب السبال.
(٧) الهندام آلة يحتال بها على رفع أو تحريك الأشياء الثقيلة التي لا تستطيع قوى الانسان المجردة ان ترفعها، او تحركها. وقد وصف هذه الآلة ابن خلدون في آخر فصل البناء من مقدمته.
(٨) الحوافل: جمع حافلة، الضرع الممتلىء لبناً.

ثُم تحرَّكْنا بعدها حركةَ الفتْح ، وأرسلنا دلاءَ الأدِلاءِ[١] قبل المَتْح[٢] ، فبشَّرت بالمَنْح ؛ وقصَدْنا مدينةَ أُبَّدَة ، وهي ثانيَة الجناحيْن ، وكُبْرى الأختين ، ومُساهمةُ جيَّان في حين الحين[٣] ؛ مدينةٌ أخذت عرضَ الفضَاء الأخرق[٤] ، وتمشَّت فيه أرباضها تمشّي الكِتابة الجامِحة في الـمُـهْرق[٥] ؛ المُشْتملة على المَتاجر والمكاسب ، والوضْع المتناسب ، والفلْح المغْيي ريْعُه[٦] عمل الحاسب وكوارة[٧] الدَّبْر[٨] اللاَّسب[٩] المُتعدِّدة اليَعاسب[١٠] ؛ فأناخ العَفاءُ[١١] برُبُوعها العامرة ، ودارت كُؤوس عُقار[١٢] الحُتُوف[١٣] ، ببنان السُّيوف ، على مُتدِّيريها المُعاقرة[١٤] ، وصبَّحتْها طلائعُ الفاقرة[١٥] ، وأُغْريت ببطُون أسوارها عُوجُ المعاول[١٦] الباقرة[١٧] ؛ ودخلَت مدينتها عُنوةُ السّيف ، في أَسرَعَ من خَطرَة الطَّيف ، ولا تَسأَل عن الكَيف ، فلم يَبْلُغ العَفاء من مَدينةٍ حافِلة ، وعقِيلَة في حُلَل المَحاسِن رافلة[١٨] ، ما بَلَغ من هذه البائسة[١٩] التي سَجَدت لآلهة النِّيران أبراجُها ،

---

(١) جمع دلو ؛ وهي ما يستقى به . والأدلاء : جمع دليل ، وهو المرشد . ويريد : قدمنا قبل بدء القتال — طلائع لنكشف ما عند العدو من استعداد .
(٢) المتح : الاستقاء .
(٣) الحين : الهلاك .
(٤) الأخرق : البعيد الواسع .
(٥) المهرق : الصحيفة البيضاء يكتب فيها .
(٦) الريع : النماء ، والزيادة ، وارض مربعة : مخصبة ، وهذا هو المراد هنا .
(٧) الكوار ، والكوارة : شيء يتخذ للنحل من القضبان .
(٨) الدبر : النحل .
(٩) لسبته النحلة ؛ لسعته .
(١٠) اليعسوب : أمير النحل . والجمع الصحيح يعاسيب .
(١١) أناخ الجمل : برك . والعفاء : المحو ، والازالة .
(١٢) العقار : الخمر .
(١٣) الحتوف : جمع حتف ؛ وهو الموت .
(١٤) معاقر الخمر : مدمنها ، والجمع : معاقرة : ولعله يريد بـمتديريها ، ديارِيها .
(١٥) الفاقرة : الداهية الكاسرة .
(١٦) جمع معول ؛ وهو الحديدة تنقر بها الجبال . أو هو الفأس .
(١٧) بقر الشيء بقراً : فتحه ، ووسعه ، وشقه .
(١٨) امرأة رافلة : تجر ذيلها جراً حسناً إذا مشت .
(١٩) البائسة : الفقيرة . والتي نزلت بها بلية ترحم من أجلها .

وتَضاءَلَ[1] بالرَّغام[2] مِعْراجُها ؛ وضَفَت[3] على أَعطافِها[4] ملابِسُ الخِذْلان ، وأَقفر من كنائِسها كناسِ[5] الغِزلان .

ثم تأَهّبنا لغزو أُمّ القُرى الكافرَة ، وخزائن المزاين[6] الوَافرَة ، ورَبّة الشُّهرَة السَافِرَة[7] ، والأنباء المسافِرَة ؛ قُرطُبة ، وما أَدْراك ماهِيَةْ ! ذات الأَرْجاء الحالية[8] الكاسِيَة[9] ، والأطْوادِ الرَّاسِخة الرَّاسِيَة ، والمَباني المباهِيَة ، والزَّهْراء[10] الزَّاهِيَة ، والمَحاسن غير المتَناهِية ؛ حيثُ هالةُ بَدر السَّماءِ قد استدارت من السُّور المَشيد البناءِ داراً ، ونهر المجرَّة من نَهْرِها الفَياض ، المسلول حُسامُه من غمود الغِياض[11] ، قد لَصِق بها جاراً ، وفلَكُ الدُّولاب ، المُعتَدل الانقِلاب ، قَد استَقام مداراً ، ورجَّع الحَنينَ اشتِياقاً إلى الحبيب الأول وادِكاراً[12] حيثُ الطَّودُ كالتّاج ، يَزدان بلُجَيْن العَذب المُجاج[13] ، فيُزْري بتاجِ كِسْرَى ودارا ؛ حيْثُ قِسِيُّ الجُسُور[14] المَدِيدَة ، كأنّها عُوجُ[15] المَطِيِّ العديدَة ، تعْبُر النَّهْر قِطاراً ؛

---

(١) تضاءل : تصاغر وذل .

(٢) الرغام (بالفتح) : التراب .

(٣) ثوب ضاف : سابغ طويل .

(٤) عطفا كل شيء : جانباه ، والجمع اعطاف .

(٥) الكناس : موضع في الشجر يستكن فيه الظبي ويستقر ، اذا اشتد الحر .

(٦) المزاين : ما يتزين به .

(٧) السافرة : الذاهبة كل مذهب .

(٨) الحالية : التي لبست حليا .

(٩) الكاسية : المكتسية .

(١٠) الزهراء : مدينة في شمال قرطبة على بعد ثلاثة اميال منها ، تحت جبل العروس ؛ بنها الناصر المرواني أبو المظفر عبد الرحمن بن محمد بن عبدالله أول سنة ٣٢٥ هـ ، وسماها باسم جارية كان يحبها ، اشتهت أن يبني لها مدينة في جبل العروس ، ويسميها باسمها . وقد وصفها المقري في نفح الطيب ٣٤٤/١ ــ ٣٧٤ صنع ليدن .

(١١) الغيضة : مغيض ماء يجتمع ، فينبت فيه الشجر ؛ وجمعها غياض .

(١٢) يريد ان قرطبة دائمة الحنين الى الحكم الاسلامي الذي انتظمها منذ الفتح حتى سنة ٦٣٣ هـ ، حيث سقطت في أيدي الاسبان .

(١٣) المجاج : العسل ، ومجاج المزن : مطرها .

(١٤) الذي نعرف ان على نهر قرطبة جسرين ، بني الاعظم منهما ــ بأمر عمر بن عبد العزيز ــ السمح بن مالك الخولاني . او عبد الرحمن بن عبيدالله الغافقي ؛ وكانوا يسمونه قنطرة الوادي ، وكانت اقواسه سبع عشرة قوساً ، سعة الواحدة منها خمسون شبراً . نفح الطيب ٢٢٦/١ ، ٢٤٦ بولاق .

(١٥) جمع عوجاء ؛ وهي الضامرة من الابل . والمطي : جمع مطية ؛ وهي البعير يمتطى ظهره .

حيث آثارُ[1] العَامِرِي[2] المُجاهِد[3] ، تَعْبَق[4] بين تلك المَعَاهِد ، شَذِيّ مِعطاراً ؛ حيثُ كرائمُ السَّحائِب ، تَزُور عَرائسَ الرِيَاض الحبائب ، فتحْمِل لها منَ الدُّرِ نِثاراً ؛ حَيْث شَمُول الشّمال[5] تُدار على الأدْوَاح[6] ، بالغُدُوّ والرَّواح ، فتَرَى الغُصون سُكارَى ، وما هي بسُكارَى ؛ حيثُ أيدي الافتتاح ، تَفْتَضُّ من شَقائق[7] البِطاح ، أبكاراً ؛ حيثُ ثُغورُ الأقاح[8] الباسم ، تقبّلها بالسّحَر زُوارُ النَّواسم ، فتَخْفق قلوبُ النُّجوم الغَيارَى ، حيثُ المُصلَّى[9] العَتيق ، قَد رَحُبَ مجالاً وطالَ مَناراً[10] ، وأزرَى ببَلاَط الوَليد[11] احتِقَاراً ؛ حيثُ الظُّهور[1] المُثارة

(١) من آثاره : المنية المعروفة بالعامرية ، والمدينة «الزاهرة» التي اتخذها مقراً لحكمه ، والزيادة التي اضافها لمسجد قرطبة في الناحية الشرقية منه . نفح الطيب ١ ٢٦٠ — ٢٧٤ — ٢٧٧ بولاق .

(٢) هو محمد بن عبدالله بن أبي عامر بن محمد بن عبدالله بن عامر المعافري ، دخل جده الاندلس مع طارق بن زياد . واستوزره الحكم المستنصر لابنه هشام ، فلما مات حجبه ابن أبي عامر ، واستولى على الدولة ، وأمر بأن يحي بتحية الملوك ، وتسمى بالحاجب المنصور . توفي مبطوناً بمدينة سالم ، بأقصى ثغور المسلمين سنة ٣٩٣ أو ٣٩٤ . العبر لابن خلدون م ٤ .

(٣) كان المنصور بن أبي عامر محباً للجهاد ؛ غزا بنفسه — مدة ملكه — نيفاً وخمسين غزوة ، لم تنتكس له فيها راية ، ولا فل له فيها جيش . ومن شعره في ذلك .

ألم ترني بعت المقامة بالسرى ... ولين الحشايا بالخيول الضوامر
وبدلت بعد الزعفران وطيبه ... صدى الدرع من مستحكمات المسامر
فلا تحسبوا أني شغلت بلذة ... ولكن أطعت الله في كل كافر

وكان يأمر ان ينفض غبار ثيابه التي حضر فيها القتال ، وان يجمع ويحتفظ به ؛ فلما حضرته الوفاة أمر أن ينشر على كفنه اذا وضع في قبره . رحمه الله . العبر م ٤ .

(٤) عبق الطيب : فاح وانتشر : (تاج) .

(٥) الشمول : الخمر . والشمال : الريح تهب من القطب ؛ ويقال ؛ خمر مشمولة اذا ضربتها ريح الشمال فأصبحت باردة الطعم .

(٦) جمع دوحة : وهي الشجرة العظيمة المتسعة .

(٧) يريد شقائق النعمان ، وتسمى الشقر ايضا ، وهي نور أحمر ، والنعمان اسم الدم ، فشبهت حمرتها بحمرة الدم ، وسميت شقائق النعمان ، وغلب عليها الشقائق .

(٨) جمع اقحوان ، وهو نبت طيب الريح ، له نور أصفر ، وحواليه ورق أبيض ، كأنه ثغر جارية حدثة السن ، وانظر مفردات ابن البيطار ٤٨/١ . والصواب : «الاقاح البواسم» .

(٩) يريد جامع قرطبة ، وقد وصفه الحميري في الروض المعطار وصفاً مفصلاً ص ١٥٣ — ١٥٥ ، وانظر نفح الطيب ٣٥٨/١ — ٣٦٠ طبع ليدن .

(١٠) وصف منارة جامع قرطبة وصفاً دقيقاً ، وقاسها كذلك ، الحميري في الروض المعطار ص ١٥٥ — ١٥٦ .

(١١) كان الوليد بن عبد الملك من أفضل خلفاء بني أمية ؛ أعطى المجذمين ، وقال لهم لا تسألوا الناس ،

بسلاحِ[٢] الفَلاَحِ ، تُجَبُّ عن مثلِ أَسْنِمة[٣] المَهَارِي[٤] ، والبُطونُ[٥] كأنها لتَدمِيثِ[٦] الغَمائم ، بُطونُ العَذارَى ، والأدْواح العالية ، تَخْتَرِقَ أعلامُها الهادية ، بالجداول الحَيارَى[٧] . فما شئتَ من جو بَقيل[٨] ، ومُعرِّسٍ للحُسن ومَقِيل ، ومالك للعقْل وعَقِيل[٩] ؛ وخمائل ، كم فيها للبَلابل ، مِن قال وقيل ، وخَفيفٍ يجاوَرُ بثَقيل ؛ وسَنَابِلَ تَكِي من فوق سُوقها ، وقَصَب بسُوقها ، الهمزاتِ على الألِفات ، والعَصافِيرَ البَدِيعة الصِّفات ، فَوْق القُصب المُؤْتَلِفات ، تميل لِهُبوب الصَّبا والجَنوب ، مالِئَة الجُيوب ، بدُرِّ الحُبوب ؛ وبِطَاحٍ لا تعرِفَ عَيْن المَحْل[١٠] ، فَتَطْلُبَه بالذَّحْل[١١] ، ولا تَصْرِفُ في خِدمة بيضِ قِبَاب الأزهار ، عند افتِتاح السَّوسَن والبَهار[١٢] ، غير العُبْدان من سُودان النَّحْل ؛ وبَحرِ الفِلاحة

وأعطى كل مقعد خادماً ، وكل ضرير قائداً ؛ وكان صاحب بناء واتخذ المصانع والضياع ؛ وكان الناس في زمانه ، يسأل بعضهم بعضاً عن البناء والمصانع ؛ وبنى المساجد : مسجد المدينة ، ومسجد دمشق ، الذي أنفق عليه أموالا عظيمة ، وأحضر له الصناع من بلاد الروم ومن سائر بلاد الاسلام ، وكانت العرب تسميه بلاط الوليد . وانظر تاريخ الطبري ٥٨/٨ — ٩٧ وتاريخ أبي الفداء ٢١٠/١ ، مقدمة ابن خلدون ص ٦٤٠ طبع دار الكتاب اللبناني — بيروت .

(١) الظهر من الارض : ما غَلظ وارتفع .

(٢) أثار الارض بالسن — وهي الحديدة التي تحرث بها الارض — اذا قلبها على الحب بعدما فتحت مرة ، وفي القرآن : «وأثاروا الأرض» : حرثوها وزرعوها ، واستخرجوا منها بركاتها .

(٣) جب السنام : قطعه . وسنام الناقة : أعلى ظهرها ؛ والجمع أسنمة .

(٤) ابل مهرية : منسوبة الى مهرة بن حيدان أبي قبيلة ، وهم جي عظيم ؛ والجمع مهارى .

(٥) جمع بطن ؛ والبطن من الارض : ما لان وسهل واطمأن .

(٦) دمث الشيء : مرسه حتى لان .

(٧) الحيارى : جمع حيران ؛ وهو المتردد في الامر ، لا يدري وجهة يهتدي إليها . ويريد ان الجداول لالتوائها ، وكثرة منعطفاتها ، تشبه في سيرها شخصاً حيران قد التبست عليه السبل .

(٨) الجو : المنخفض من الارض . والبقيل : المكان ذو البقل ؛ وكل نبات أخضرت به الأرض فهو بقل .

(٩) يوري بمالك وعقيل ابني فارج بن مالك ، نديمي جذيمة الأبرش ، ولها مع عمرو بن عدي خبر تجد تفصيله في تاريخ الطبري ٣٠/٢ — ٣١ .

(١٠) المحل : الجدب ؛ وهو انقطاع المطر .

(١١) الذحل : الثأر .

(١٢) البهار — عند أهل المغرب — : نبات طيب الريح ، له قضبان خضر ، في رؤوسها أقماع يخرج منها نور ينبسط منه ورق أبيض ، وفي وسط البياض دائرة صفراء من ورق صغير . وهذه هي الصفة التي اثبتها أهل المشرق للنرجس ، حيث قالوا : هو ياقوت أصفر بين در أبيض على زمرد اخضر ، فالبهار عند أهل المغرب هو النرجس عند أهل المشرق .

الذي لا يُدْرَك ساحلُه ، ولا يَبْلغُ الطِّيَةَ[1] البعيدة راحلُه ؛ إلى الوَادي ، وسَمَر النَّوادي[2] ، وقرارِ دُموع الغَوادِي[3] ؛ للتَّجاسُر على تَخطِّيه ، عِندَ تمطِّيه[4] ، الجسْرُ العادِي ؛ والوَطنِ الذي ليسَ من عَمْرو ولا زيد ، والفرَا الذي في جَوْفِهِ كلُّ صَيْد[5] ؛ أَقلَّ كرسيُّه خلافة الإسْلَام ، وأغار بالرُّصافةِ[6] والجسْر دارَ السَّلام[7] ؛ وما عَسَى أن تُطْنِبَ في وصفِه أَلْسِنَةُ الأقْلام أو تُعبِّر به عن ذلك الكَمال فنونُ الكَلام .

فأعمَلْنا إليها السُّرى والسَّيْر ، وقُدنا إليها الخَيلَ قَد عقَد الله في نواصيها الخَير[8] . ولما وقفْنا بظاهرها المُبْهت المُعْجب ، واصطَففْنا بخارجها المُنبتِ المُنْجب ؛ والقُلوبُ تَلتمس الإعانةَ مِن مُنعمٍ مُجزِل ، وتستنزل مَدَد المَلائكة مِن مُنجِد مُنزِل ، والرَّكائبُ واقِفةٌ مِن خَلفنا بمَعْزِل ، تتناشد في مَعاهِد الإسلام :

«قِفا نَبْكِ من ذِكرَى حَبيب ومَنزِل[9]»

بَرَزَ مِن حاميتها المُحامِيه ، ووَقُودِ النَّار الحَامِيه ، وبَقِية السَّيف الوَافِرة على الحِصاد النَّامية ، قِطَعُ الغَمائم الهَامية ، وأَمواجُ البُحور الطَّامِيَة ؛ واستجَنَّت[10] بظلال أَبطال المَجال ، أَعدادُ الرجال ، النَّاشِبة[11] والرامية ، وتَصدَّى للنِّزال ، من

---

(١) الطية : الناحية .

(٢) السمر : الحديث بالليل . والنادي : المجلس ، والجمع الصحيح : أندية .

(٣) الغاد : السحابة تنشأ فتمطر غدوة . والجمع غواد .

(٤) تمطية : امتداده . كنى به عن امتلاء النهر بالمياه أيام الشتاء .

(٥) الفرا : الحمار الوحشي ؛ وهو من اعظم ما يصطاده الناس . وفي الكلام إشارة إلى المثل : «كل الصيد في جوف الفرا» الذي يضرب لما يفضل على غيره . ميداني ٢/٥٥ .

(٦) الرصافة : قصر بناه عبد الرحمن الداخل . في الشمال الغربي لقرطبة ، واتخذه لسكناه ، نقل اليه من الشام كثيراً من أشجار الفاكهة والأزهار . وسماه باسم رصافة جده هشام بن عبد الملك . معجم البلدان ٤/٢٥٧ .

(٧) يريد بغداد . وسماها مدينة السلام أبو جعفر المنصور ، وكان ذلك سنة ١٤٦ هـ . أنظر تاريخ بغداد ١/٦٦ — ٦٧ .

(٨) اشارة الى حديث البخاري : «الخيل معقود في نواصيها الخير الى يوم القيامة» . الجامع الصحيح ٤/١٨٧ طبع الاستانة .

(٩) مطلع المعقة المشهورة لامرىء القيس .

(١٠) استجنت : استترت .

(١١) الناشبة : قوم يرمون بالنشاب ؛ وهي السهام .

صناديدها[(١)] الصُّهْبِ السِّبال ، أَمثالُ الهضاب الراسية ، تُجِنُّها[(٢)] جُنَنُ[(٣)] السوابغ الكاسية ، وقواميسُها[(٤)] المُفادِيةُ للصُّلبان يومَ بُوسِها بنُفوسها المُواسِيَة[(٥)] ، وخنازيرُها التي عَدَتْها[(٦)] عن قبول حُجج الله ورسوله ، سُتُور الظُّلم الغاشية ، وصخور القلوب القاسية ؛ فكان بين الفريقين أَمامَ جِسرها الذي فرَق البحر ، وحَلَّى بلجَينه ، ولآلِيء زَيْنه ، منها النَّحر ، حربٌ لم تنسُج الأزمان على مِنوالها[(٧)] ، ولا أَتت الأيامُ الحَبالي بمثل أَجنَّة[(٨)] أَهوالها ؛ مَن قاسها بالفجار[(٩)] أَفَكَ وفجرَ[(١٠)] ؛ أو مَثَّلَها بجَفْر الهَباءَة[(١١)] خرِفَ وهجرَ[(١٢)] ؛ ومَن شبَّهها بحرب داحِس والغبراء[(١٣)] ، فما عرف الخبر ، فليسأل مَن جرَّبَ وخبَر ؛ ومن نظَّرها بيوم شِعْبِ جَبلَة[(١٤)] فهو ذو بَلَه[(١٥)] ؛ أو عادَلها ببطن عاقِل[(١٦)] ، فغيرُ عاقل ؛ أو احتجَّ بيوم ذي قار[(١٧)] ، فهو إلى

---

(١) الصنديد : السيد الشجاع . والجمع صناديد .

(٢) تجنها : تسترها .

(٣) الجنن : جمع جنة ، وهي السترة .

(٤) القواميس ، جمع قومس (بوزن جوهر) ؛ وهو مرافق الملك ، ونديمه ، والامير .

(٥) المواسي : المعين .

(٦) عديته فتعدى : أي تجاوز الحد الذي حد له .

(٧) المنوال : المنسج تنسج عليه الثياب . يريد لم تأت الايام بمثل هذه الحروب .

(٨) حبالي : جمع حبلى . والاجنة جمع جنين .

(٩) حروب الفجار عدة ؛ واشهرها — وهي آخرها — تلك التي كانت بين قريش وكنانة ، وبين هوازن . وقد شهدها النبي صلى الله عليه وسلم ، وقال : كنت أنبل على أعمامي يوم الفجار ، وسميت فجاراً لما استحلوا فيها من حرمة الاشهر الحرم . العقد الفريد ٣/٣٦٨ — ٣٧١ .

(١٠) أفك : كذب . وفجر : مال عن الحق .

(١١) جفر الهباءة : يوم كان لعبس على ذبيان ، سمي بالموضع الذي كانت فيه موقعتهم ؛ وهو مستنقع في ارض غطفان . العقد الفريد ٣/٣١٦ — ٣١٧ ، ياقوت (معجم البلدان) . الميداني ٢/٢٦٩ .

(١٢) خرف : فسد عقله . هجر : خلط في كلامه وهذي .

(١٣) داحس والغبراء : يوم من اشهر ايامهم ، بلغ من بعد اثره ان اتخذوه مبدءاً من مبادىء تواريخهم في الجاهلية ؛ ويقال انه دام اربعين سنة . وكان بين عبس وذبيان . وداحس والغبراء : فرسان ، وسمي اليوم بهما لما انه كان بسببهما ، انظر العقد الفريد ٣/٣١٣ — ٣١٤ .

(١٤) كان يوم شعب جبلة لعامر وعبس على دبيان ، وكان — فيما يقول أبو عبيدة — قبل الاسلام بأربعين سنة(وشعب جبلة : هضبة حمراء بنجد) . العقد الفريد ٣/٣٠٧ — ٣١٠ ، ياقوت (معجم البلدان) .

(١٥) البله : الغفلة .

(١٦) بطن عاقل : يوم كان لذبيان على بني عامر ، (أوكان بين بني خثعم ، وبني حنظلة) ، ذكر سببه في العقد الفريد ٣/٣٠٥ — ٣٠٦ ، وانظر مجمع الامثال ٢/٢٦٤ .

(١٧) يوم ذي طار : يوم مشهور كان ايام النبي صلى الله عليه وسلم ، وأثر عنه انه قال : «انه أول يو

المعرفة ذو افتقار ؛ أو ناضل بيوم الكَدِيد[1] ، فسهمه غير السديد ؛ انما كان مقاماً غيرَ معتاد ، ومرعى نفوس لم يفِ بوصفه لسانُ مُرتاد[2] وزلزال جبال اوتاد[3] ، ومَتْلَف[4] مذخور لسلطان الشيطان وَعَتاد[5] ؛ أَعلَم[6] فيه البَطَلُ الباسل[7] ، وتورَّد الأبيضُ الباتر[8] ، وتأوَّد الأسمر[9] العاسل[10] ، ودوَّم الجلمَد[11] المتكاسِل ، وانبعث من حَدَب[12] الحَنِيَّة[13] ، إلى هدف الرَّمِيَّة[14] ، الناشرُ الناسِل[15] ، ورُوِيَتْ لمُرسلات السِّهام المَراسِل ؛ ثم أَفضى أمر الرِّماح إلى التَّشاجُر والارتباك ، ونشبت الأسنَّةُ في الدُّروع نَشَبَ السمَك في الشِّباك ؛ ثم اختلطَ المَرْعيُّ بالهَمَل[16] ، وعَزَل الرُّدينيُّ عن العَمَل ؛ وعادت السُّيوف من فوق المفارق تيجانا ، بعدَ أن شقَّت غُدَرَ السَّوابغ خلجانا ؛ واتَّحدَت جداولُ الدُّروع ، فصارت بحراً ، وكان التَّعانق ، فلا ترى إلاّ نحراً يُلازم نَحْراً ، عِناقَ وَداع ، وموقف شمل ذِي انصداع ، وإجابة مُنادٍ إلى فِراق الأبد وَدَاع ؛ واستَكْشَفَتْ مآل الصَّبر الأنفسُ الشَّفافة[17] ، وهبَّت بريح النَّصر الطَّلائعُ المبشِّرة الهَفَّافة[18] ؛ ثم أَمدَّ السَّيل ذلك

انتصفت فيه العرب من العجم » . وتفصيل اخباره ، وأسبابه ، مذكورة في العقد ٣/٣٧٤ ــ ٣٧٨ .

(١) كان يوم الكديد لسليم على كنانة ، وفيه قتل ربيعة بن مكدم ، فارس كنانة . وانظر العقد الفريد ٣/٣٢٦ .

(٢) المرتاد والرائد : الذي يتقدم القوم في التماس النجعة واختيار المرعى الحسن .

(٣) أوتاد الارض : جبالها .

(٤) المتلف : المفازة ، والقفر ؛ سمي بذلك لانه يتلف سالكه .

(٥) العتاد : العدة تعدها لأمر ما .

(٦) أعلم الفارس : جعل لنفسه علامة الشجعان ، وأعلم نفسه : وسمها بسيا الحرب .

(٧) الباسل : الشجاع .

(٨) تورد : احمر . الابيض الباتر : السيف القاطع .

(٩) تأود : اعوج وانثنى . الاسمر : الرمح .

(١٠) عسل الرمح : اضطرب واحتز ، ورمح عاسل : مضطرب لدن .

(١١) دوم : تحرك ودار . والجلد : الصخر .

(١٢) حدب الحنية : تقوسها وانعطافها .

(١٣) الحنية : القوس ؛ فعيلة بمعنى مفعولة ؛ واكثر ما تكون حنية عند توتيرها ، والرمي بها .

(١٤) الرمية : الطريدة التي يرميها الصائد .

(١٥) الناشر : المهتز . والناسل : المسرع .

(١٦) هو مثل والمرعى : الابل التي لها راع ، والهمل : الضوال من النعم لا راعي لها .

(١٧) أنفس شفافة : فاضلة .

(١٨) الهفافة : السريعة المرور في هبوبها .

العباب ، وصَقَلَ الاستِبصارُ الألباب ، واستَخلص العزمُ صفوةَ اللُّباب ، وقال لِسان النَّصر : « ادخلوا عليهم الباب » ؛ فأصبحت طوائفُ الكفَّار ، حَصائدَ مناجل الشِّفار ، فمغافِرُهم قد رضيَت حُرُمَاتُها بالإخفار[1] ، ورؤوسُهم محطُوطةٌ في غير مقام الاستِغْفار ، وعلت الرَّايات من فوق تلك الأبراج المستَطرَقة والأسوار ، ورَفرف على المدينة جَناحُ البوار ، لولا الانتهاءُ إلى الحدِّ والمِقدار ، والوقُوفُ عِند اختفاءِ سِرّ الأقدار.

ثم عبرنا نهرَها ، وشدَدنا بأيدي الله قهرَها ، وضيَّقنا حَصرها ، وأدرنا بلآلِيء القِباب البيض خَصرها ؛ وأقمْنا بها أياماً تحوم عقْبانُ البُنود على فريستها حِياما[2] ، وترمي الأدواح بِبوارها ، وتُسلِّطُ النِّيرانَ على أقطارها ؛ فلولا عائقُ المَطر ، لحصلنا من فتح ذلك الوَطنِ على الوَطَر ، فرأينا أن نروضَها بالاجتِثاث[3] والانتِساف[4] ، ونُوالي على زُرُوعها ورُبُوعها كرَّاتِ رياح الاعتِساف ؛ حتَّى يتهيأ للاسلام لوكُ طَعمتِها ، ويتهنَّا بفضل الله إرث نعمتَها ؛ ثم كانت من موَقفها الإفاضة مِن[5] بعدِ نَحْرِ النُّحور ، وقَذف جِمار الدَّمار على العدوِّ المَدْحور ، وتَدافَعتْ خلفَنا السَّيِّقَاتُ[6] المتَسِقَات تَدافُعَ أمواج البُحور.

وبعد أن ألححنا علَى جنَّاتِها المُصحِرةِ[7] ، وكرُومِها المستَبْحرة إلحاح الغريم[8] ، وعوَّضناها المنْظرَ الكَريه من المنظر الكريم ، وطافَ عليها طائفٌ من ربِّنا فأصبحَت كالصَّريم[9] ، وأغريْنَا حِلاَقَ[10] النَّارِ بجُمّم الجَمِيم[11] ، وراكمنا في أحواف

---

(١) اخفرت الرجل : اذا نقضت عهده ، وذمامه ، والهمزة فيه للازالة ؛ أي أزلت خفارته .

(٢) حام الطائر حول الماء حياما : دوم ودار .

(٣) الاجتثاث : انتزاع الشجر من أصوله .

(٤) انتساف الزرع : اقتلاعه .

(٥) الافاضة : الدفع في السير بكثرة ؛ ولا يكون الا عن تفرق جمع . وفي « الافاضة » و « البحر » ، و « رمي الجمار » ثورية واضحة بالمعاني الاسلامية المتعارفة في باب « الحج » .

(٦) السيقات : ما استاقة العدو من الدواب ، ويقال لما سيق من النهب فطرد ، سيقة .

(٧) المتسعة ، يقال أصحر المكان : أي اتسع .

(٨) الغريم : الذي له الدين .

(٩) الصريم : الليل ، وأصبحت كالصريم : احترقت وصارت في مثل سواده ؛ والاشارة إلى الآية : « فطاف عليها طائف من ربك وهم نائمون فأصبحت كالصريم » .

(١٠) حلاق الشعر : ازالته بالموسى . والكلام على تشبيه احراق النبات بحلق شعر الرأس .

(١١) الجمم : جمع جمة ، وهي الشعر الكثير . والجميم نبت يطول حتى يصير مثل جمة الشعر .

أجرافها[1] غمائم الدُّخان ؛ يُذكِّر طيبةُ البانَ بيوم الغميم[2] ، وأرسلنا رياح الغارات «لا تَذَرَ مِنْ شيء أتت عليه إلاَّ جعلته كالرَّميم»[3] ؛ واستقبلنا الوادي يهول مدًّا ، ويروع سيفُه الصَّقيلُ حداً ؛ فيسَّره الله من بعد الأعواز ، وانطلقت على الفرصة بتلك الفرصة أيدي الانتهاز ، وسألنا مِن سائله أسَد بنَ الفُراتِ[4] فأفتى برجْحَان الجواز ، فعمَّ الاكتِساحُ والاستباحُ جميع الأحوازِ[5] فأديل[6] المصون ، وانتهبت القُرى ، وهُدِّت الحُصُون ، واجتثت الأصول ، وحُطِّمت الغُصون ؛ ولم نرفع عنها إلى اليوم غارةً تصَابحُها بالبُوس ، وتُطلعُ عليها غُررهَا الضَّاحكة باليوم العَبوس ؛ فهي الآن مجرى السوابق ومجرُّ العوالي[7] ، على التَوالي ، والحسرات تتجدّد في أطلالها البوالي ؛ وكأَنْ بها قد ضَرعَت ، وإلى الدعوة المُحمَّدية أسرعت ، بقدرةِ مَن لو انزل القرآن على الجبال لخشعَت من خشية الله وتصدعت[8] ، وعِزة من أذعنت الجبابِرةُ لعزِّه وخضعَت ، وعُدنا والبُنود لا يَعرف اللفُّ نشرَها ، والوجوهُ المُجاهِدة لا يُخالِط التَّقطِيبُ بِشْرَها ؛ والأيدي بالعُروة الوُثقَى متعلِّقة ، والألسنُ بشُكر نِعَم الله منطلِقَة ، والسُّيوفُ في مضَاجِع الغُمود قَلِقَه ، وسَرَابيلُ الدُّروع[9] خلقَه[10] ، والجياد مِن ردِّها إلى المَرابط والأواري[11] ، رَدَّ العَوارِي ، حَنِيقة ، وبعَبَرات الغَيظِ المَكْظُوم مُختنِقَة ؛ تَنظُر إلينا نظَرَ العاتِب ، وتعودُ من مَيادين الاختِيَال والمَرَاح ،

---

(١) الأحواف ، جمع حوف وهو الناحية . والأجراف جمع جرف ؛ وهو ما أكل السيل من أسفل شق الوادي ، وعرض الجبل . ويريد الأمكنة الغائرة ، والمطمئنة .

(٢) الغميم : موضع بين مكة والمدينة . ويوم الغميم : من الأيام التي كانت بين كنانة وخزاعة سيرة ابن هشام ٣٤/٤ — ٣٥ .

(٣) الرميم : البالي .

(٤) يوري بأسد بن الفرات بن سنان : أبي عبدالله الفقيه المالكي المشهور (١٤٥ — ٢١٣) على خلاف في المولد والوفاة . وانظر ترتيب المدارك . مخطوطة دار الكتب ١١٨/١ ، معالم الإيمان ٢/٢ — ١٧ ، ديباج ٩٨ .

(٥) الأحواز : ضواحي المدينة وأطرافها .

(٦) أديل : أهين .

(٧) أجره الرمح : طعنه به وتركه فيه يجره والعالية : أعلى القناة ، والجمع : العوالي . ومجر العوالي : المكان الذي يقع فيه الإجرار والطعن .

(٨) اقتباس من الآية ٢١ من سورة الحشر .

(٩) السرابيل : الدروع ، وكل ما لبس فهو سربال .

(١٠) الخلق : البالي ، يقال ثوب خلق ، وجبة خلق بالتذكير فيهما . لسان العرب .

(١١) الأواري : جمع آري ؛ وهو مربط الدابة ومحبسها .

تحتَ ظُلل السِّلاح ، عَوْد الصِّبيان إلى المكاتب ، والطَّبلُ بلسان العِزِّ هادِر[1] والعَزْمُ إلى مُنَادي العَوْدِ الحَميد مُبَادِر[2] ، ووجُودُ نوع الرِّماح ، من بعدِ ذلكَ الكِفاح نادر ، والقاسم يُرتِّب بين يدَيه من السَّبي النَّوادِر ، ووارِد مناهل الأجور ، غير المُحلاّءِ[3] ، ولا المهْجُور ، غيرُ صادر[4] ، ومُناظِر الفصْل الاتي ، عَقِبَ أَخيه الشَّاتِي ، على المَطْلوب المُواتي مُصَادر[5] والله على تَيسير الصِّعَاب ، وتَخويل المِنَن الرِّغاب[6] ، قادِر ، لا إله إلاّ هُو . فما أجملَ لنا صُنعه الحفِيّ[7] ، وأَكرَمَ بِنا لُطفه الخفِيّ ، اللَّهُم لا نَحصِي ثَناءً عليك ، ولا نلجأ مِنكَ إلاَّ إليْك ، ولا نَلتمِس خَيرَ الدُّنيا والاخرة إلاَّ لديك ، فأَعِدْ علينا عوائدَ نَصرك ، يا مُبدِيءُ يا مُعيد ، وأَعِنَّا من وسائل شُكرك ، على ما يَنثالُ به المَزيد ، يا حَيُّ يا قَيُّوم يا فَعَّال لِما يُريد[8] .

وقارنت رسالتُكم الميمونةُ لَدينا حَذَقَ فتْح[9] بَعيد صِيتُه[10] مُشْرَئبٌ لِيتُه[11] ، وفَخر من فوق النُّجوم العَواتِم[12] مَبيتُه ، عَجبناً من تأْتِي أَمله الشَّارد ، وقُلنا : البركةُ في قَدَم الوَارد ، وهُو أنَّ مَلِك النَّصارَى لاَطفَنا بجُملةٍ من الحصُون كانَت من مَمْلكة الاسلام قد غُصِبت ، والتَّماثِيلُ[13] فيها بِبُيوت الله قد نُصِبت أَدالَها[14] الله ـــ بِمُحاولَتِنا ـــ الطيِّبَ من الخَبيث ، والتَّوحيدَ من التَّثليث ، وعاد إليها الاسلامُ عَودَ الأبِ الغَائب ، الى البَنَات الحَبائب ، يسأل عن شُؤونها ، ويمسَحُ دُموعَ الرِّقَّة مِن

---

(١) هادر : يردد صوته .
(٢) بادره الأمر : عاجله .
(٣) حلأ الماشية عن الماء : صدها وحبسها عن الورود .
(٤) الوارد الذي يرد الماء . والصادر : الذي رجع من الماء بعد الورود .
(٥) مصادر : مراجع ؛ صادرة على كذا : راجعة .
(٦) الرغيبة : العطاء الكثير ، والأمر مرغوب فيه ، والجمع رغاب .
(٧) الصنع الحفي : اللطيف .
(٨) كذا في الأصل : «يا فعال لما يريد» . والمنادي هنا مما يجب فيه النصب . فلذلك الأصح : يا فعالا .
(٩) حذق الغلام القرآن حذقاً : مهر فيه ؛ ويقال لليوم الذي يختم فيه القرآن : هذا يوم حذاق ، والعادة أن يحتفل بهذا اليوم .
(١٠) بعيد الصيت ، مشتهر الذكر بين الناس .
(١١) اشرأب : ارتفع وعلا . والليت بالكسر : صفحة العنق .
(١٢) النجوم العواتم : التي تظلم من الغبرة التي في السماء ؛ ويكون ذلك في زمن الجدب ؛ لأن نجوم الشتاء أشد اضاءة لبقاء السماء .
(١٣) التماثيل : الأصنام .
(١٤) أدالها الله : أبدلها .

جفونها ؛ وهي للرُّوم خُطَّةُ خَسْفٍ[1] قَلَّمَا ارتكبُوها فيما نَعْلَم من العُهود ، ونادرةٌ من نَوادرِ الوُجود . والى الله علينا وعليكم عَوارِفَ[2] الجُود ، وجَعَلَنا في مَحاريب الشُّكر من الرُّكَّع السُّجود .

عرَّفناكم بمُجملات أمورٍ تحتَها تَفْسير، ويُمنٌ منَ الله وتَيسير، إذِ استيفَاء الجزئيات عَسير لنسرَّكم بما منَح الله دينكم ، ونَتَوِّجَ بِعزِّ المِلَّة الحَنيفِيَّة جَبينكم ، ونَخْطب بَعْدَه دُعاءَكم وتأمينكم ؛ فإنَّ دعاء المُؤمن لأخيه بظَهْر الغَيْب سِلاحٌ ماض ، وكفيلٌ بالمواهب المسئُولة من المُنعِم الوَّهاب مُتَقَاض[3] ؛ أولى مَن ساهَم في بِرّ ، وعامَلَ الله بُخُلوص سِرّ ؛ وأين يَذهَب الفضلُ عن بيتكم ، وهو صِفة حَيِّكم ، وتُراثُ مَيْتِكم ؛ ولَكم مَزِيَّةُ القِدَم ، ورُسوخُ القَدَم ؛ والخِلافةُ مَقَرُّها إيوانُكم ، وأصحابُ الامام مالك — رضي الله عنه — مُستَقَرُّها قَيْرَوانُكم ، وهِجِّيرُ المَنابر[4] ذِكرُ إمامِكُم ، والتوحيدُ إعْلامكم ، والوقائعُ الشَّهيرةُ في الكُفْر منسُوبةٌ الى أيامِكم ، والصَّحابةُ الكِرَام فَتَحةُ أوطانِكم ، وسُلالَة الفاروق عليه السَّلام وشَائجُ سُلطانِكم[5] ؛ ونحن نَسْتكثِر من بركة خِطابكم ، ووُصْلَةِ جَنابكم ؛ ولَولاَ الأعذار لوالينا بالمتزيِّدات تَعْرِيفَ أبوابكم .

والله — عزَّ وجلَّ — يتولَّى عنا من شُكركم المحتُوم ، ما قَصَّر المكتُوبُ مِنه عَنِ المَكْتُوم ، ويُبْقيكم لإقامة الرُّسوم ، ويُحِلُّ مَحبَّتكم من القُلوبِ محلَّ الأرواح من الجُسُوم ؛ وهو سُبحانَه يَصِل سَعْدَكم ، ويحرُسُ مَجْدَكم ، ويُوالي نِعَمه عِندكم .

والسَّلاَم الكَريم ، الطِّيب الزكي المُبارك البَرُّ العَميم ، يَخُصُّكم كَثيراً أثيراً ، ما أطلَعَ الصُّبحُ وجهاً مُنيراً ، بعدَ أن أرسَل النَّسيم سفيراً ، وكان الوَميضُ[6] الباسِم لأكواسِ الغمائم[7] ، على أزهار الكمائم[8] ، مُديراً ؛ ورحمةُ الله وبركاته .

---

(١) الخطة : الطريقة . والخسف : الذل ، وتحميل الإنسان ما يكره .

(٢) العوارف : جمع عارفة ، وهي العطية .

(٣) تقاضاه الدين : قبضه منه .

(٤) هجير المنابر : شأنها ودأبها .

(٥) يريد أن الحفصيين من سلالة الفاروق عمر بن الخطاب رضي الله عنه ؛ وقد رأى بعض المؤرخين ذلك .

(٦) الوميض : اللامع من البرق لمعاً خفيا .

(٧) شبه القطرات من الماء تنثرها الغمائم على الزهور ، بكؤوس الخمر تدار على الشاربين .

(٨) الكمائم : جمع كمامة ، وهي غطاء النور وبرعومته .

وكتب إليَّ يهنّئني بمَولود ، ويُعاتِبُ على تأْخِير الخَبَرَ بوِلادِه عنه[1] :

هنيئاً أبـا الفضل الرضا وأبـا زيد وأُمِّنْتَ من بغي يخاف ومن كيد
بطالع يُمْنٍ طال في السعد شأوُه[2] فما هـو مـن عمره الرجـال ولا زيـد
وقيّــد بشكر الله أنعمــه التي أوابدها[3] تأبى سوى الشكر من قيد

أهلاً بدرِّي المَكاتب[4] ، وصَدْرِيَ المراتب ، وعُتْبَى الزَّمن[5] العاتِب[6] وبكْرِ المُشْتَري والكاتب[7] ؛ ومرحباً بالطالع ، في أسْعَد المَطالع ، والثّاقِب[8] ، في أَجْلَى المَراقِب ؛ وسَهْلاً بِغَنِـي البشير ، وعِزَّةِ الأهــــل والعشِير ، وتــــاج الفَخْر الــــذي يَقْصُرُ عنــــه كِسْرَى وأَرْدَشِير[9] ؛ الآن اعتَضَدت الْحِلّــة الحَضرَميــة[10] بـــالفــارس ، وأَمِنَ السّارِح[11] في حِمَى الحارس ، وسَعِدَت بالمُنِير الكَبِير ، أفلاكُ التَّدوير[12] ، مِن حَلَقَاتِ المدارِس ، وقَرّت بالجَنَى الكريم عَينُ الغارس ، واحْتُقِرَتْ أَنظارُ الآبِلي وأبحاث ابن الدَّارِس ؛

---

(١) قدم لها ابن الخطيب في ريحانة الكتاب بقوله : ومن ذلك في مخاطبة صاحب قلم الإنشاء أبي زيد بن خلدون .
(٢) الشأو : الشوط والغاية .
(٣) جمع آبدة ، وهي في الأصل البهيمة توحشت ، ونفرت من الانس .
(٤) كوكب دري : ثاقب شديد الإنارة ، عظيم المقدار .
(٥) أعتبه : أزال عتبه ؛ والعتبى : اسم من الإعتاب . وفي المثل : «لك العتبى ولا أعود» . أي لك مني أن أرضيك ؛ بقوله التائب المعتذر مجمع الأمثال ١٠٢/٢ .
(٦) الزمن العاتب : الغاضب .
(٧) كان ابن الخطيب شغوفا بأن يوري في كتابته بمصطلحات العلوم ؛ وهو هنا ناظر الى ما اصطلح عليه المنجمون من أن القمر اذا اتصل — وهو في البروج الصاعدة — بالمشتري ، وهو كوكب سعد ، وبالكاتب — وهو عطارد في عرف أهل المغرب — دل ذلك على أن المولود ذكر ، وأن حظه من العلوم العقلية ، والنقلية كبير .
(٨) الثاقب : المرتفع .
(٩) هو أردشير بن بابك ؛ أول ملوك الدولة السلسانية (٢٢٦ — ٢٤١ م) . وقد ورد في بعض النسخ ، وتاريخ أبي الفداء : «أزدشير» بالزاي . وهو تصحيف قديم ؛ فقد قال ابن حجر : «وسمعت من يذكره بالزاي» . تاج العروس ٢٨٨/٢ ، الطبري ٥٦/٢ .
(١٠) الحلة : البيت ؛ والجمع الحلال . والحضرمية نسبة الى حضرموت ؛ حيث ينتهي نسب ابن خلدون .
(١١) السارح : الذي يغدو عليك ويروح .
(١٢) فلك التدوير — لكل كوكب — هو فلك صغير لا يحيط بالأرض ، وفيه يكون مسير الكوكب .

وقيل لِلْمُشكلات : طالما أَلِفتِ الْخِمرَة[١] ، وأمضيْتِ على الأذْهانِ الاِمْرة[٢] ، فتأَهَّبي للغارة المُبيحة لِحماك ، وتحيَّزي إلى فِئة البَطَل المُسْتأثر بَرشْف لَماكِ . ولله من نَصْبَة[٣] احْتَفى فِيها المُشْتري واحْتَفَلْ ، وكفَى سِنِيَّ تَربيتِها وكَفَل ، واختال عُطارد في حُلَل الجَذَل لها وَرَفَل ، واتَّضحَت الحُدُود[٤] ، وتَهلَّلت الوجُوه[٥] ، وتنافست المُثلَّثات[٦] تؤمِّلُ الحظَّ وتَرْجوه ، ونَبَّه البيتُ على[٧] واجبه ، وأشار لَحْظُ الشَّرَف[٨] بحاجبه ، وأسرَعَ نَيِّرُ النَّوْبة[٩] في الأوْبَة[١٠] ، قائما في الاعتِذار مَقَام التَّوبَة ، واستأثر بالبرُوج المُوَلِّدَة بَيتُ البَنين[١١] ، وتَخَطَّت خُطا القَمر رأس الجَوْ زَهِرِ[١٢] وَذَنَبَ التِّنِّين ؛ وساوَق منها حُكمَ الأصل ، حَذْوَكَ النّعلَ بالنَّعل ،

---

(١) الخمرة : الاستتار ، والاختفاء .

(٢) الإمرة : الإمارة .

(٣) النصبة الفلكية : هي الهيئة التي يكون عليها الفلك حين طلب دلالته على الحوادث .

(٤) قسم المنجمون درجات كل برج من البروج الاثني عشر ، بين الكواكب الخمسة المتحيرة ، قسمة غير متساوية ، وجعلوا كل قسم منها يخص كوكباً من الكواكب الخمسة ، وسموه حد ذلك الكوكب .

(٥) وقسموا كذلك كل برج الى ثلاثة أقسام متساوية ، وسموا كل قسم منها وجها ، ثم فرقوها على الكواكب المتحيرة ، وابتدأوا من برج الحمل ، وجعلوا لكل وجه منها كوكبا من السبعة السيارة ، سموه صاحب ذلك الوجه .

(٦) البروج الاثنا عشر تنقسم الى أربعة أقسام — بعدد الطبائع الأربع ، وكل ثلاثة بروج منها تتفق في طبعة واحدة من الطبائع الأربع تسمى مثلثة ، فيقال : مثلثة نارية ، أو ترابية ، أو هوائية ، أو مائية ؛ ويختص بكل مثلثة ثلاثة كواكب من السيارة تسمى أربابها ؛ يكون أحدها صاحب المثلث المقدم بالنهار ، والثاني المقنم بالليل ، والثالث شريكهما في الليل والنهار . ومعنى ذلك أن الكواكب اذا كان في واحد من هذه البروج التي تكون مثلثة ، قيل أنه في امثلثه ، أي أنه في وضع له فيه حظ وقوة .

(٧) بيت الكوكب : محل أمنه ، وصحته ، وسلامته ؛ ولكل من النيرين : الشمس والقمر ، بيت واحد . أما بقية الكواكب الخمسة المتحيرة ، فكل واحد منها له بيتان .

(٨) شرف الكوكب : محل عزه ، وعلوه ، وسعادته ؛ ولكل من الكواكب السبعة برج فيه شرفه ، والبرج كله شرف لذلك الكوكب ، الا أن أقوى شرفه درجات معينة من ذلك البرج تنسب الى ذلك الكوكب وتختص به ، فيقال حين يحل بها : انه في شرفه .

(٩) نير النوبة يكون في الغالب الهيلاج (دليل العمر) ، وهو بالنهار الشمس ، وبالليل القمر .

(١٠) الأوبة : الرجوع والعودة .

(١١) البيت الذي له دلالة على الأولاد : هو البرج الخامس من البيوت الاثني عشر والابتداء في العد من البرج الطالع ، وهو الواقع على الأفق الشرقي ؛ ويزعمون أنه كلما كان الخامس أحد البروج الشمالية ، دل ذلك على كثرة النسل .

(١٢) النقطتان اللتان يتقاطع عليهما فلك البروج مع فلك أي كوكب ، تسميان العقدتين ، ونقطة التقاطع الشمالية منهما ، يسمونها الجوزهر ، ونقطة الرأس ، والتي نقابلها تسمى النوبهر ، ونقطة الذنب . والجوزهر الذي يقصدونه ، والذي دونوا حركته في التقاويم والأزياج ، هو جوزهر القمر خاصة .

تَحويلُ السِّنين[1] ، وحقّق هذا المولود بينَ المواليد نِسبةَ عُمُرِ الوالد ، فتجاوزَ درجة المِئين ؛ واقترنَ بعاشِره[2] السَّعْدان[3] اقترانَ الجسَد ، وثَبتَ بدقيقةِ مركزه قلبُ الأسَد ، وسرَقَ من بيت أعدائه[4] خُرْثيَّ[5] الغلِّ والحسَد ؛ ونُظِّفت طُرُقُ التَّسْيير[6] ، كما نفعلُ بينَ يدَي السادة عندَ المَسير ، وسَقَطَ الشيخ الهرِم من الدَّرج في البير ، ودُفع المُقاتل إلى الوبال[7] الكبير.

لِم لا يَنـالُ العُلا أو يُعْقَـدُ التّـاجُ والمُشْتري طَالِعٌ والشَّمْسُ هِيلاجُ[8]
والسَّعْـدُ يَـرْكُضُ في ميـدانِهـا مَرِحَـاً جَـذْلانَ والفلَكُ الـدَّوَّارُ هِمْلاجُ[9]

كأَنْ به ــ واللهُ يَهديه ــ قد انتقل من مَهْد التنويم ، الى النَّهْج القَويم ؛ ومن أريكةِ الذِّراع ، الى تصريف اليَرَاع[10] ، ومن كَتَد[11] الدَّاية[12] ، الى مَقَام الْهِدَاية ، والغايةِ المُخْتَطَفَةِ[13] البِدَاية ؛ جعَلَ الله وقايته عليه عُوذَة[14] ، وقَسم حَسَدَتَـه قسمـةَ مُحَـرَّم اللَّحم ، بين مُنْخَنِقَـةٍ[15] ونَطِيحَـةٍ[16] ومُتَرَدِّيَـةٍ[17]

---

(١) هو تحصيل الحركة الوسطى للشمس عند حلولها برأس أحد الفصول الأربعة . ولهم في ذلك طرق حسابية معروفة .

(٢) العاشر : هو بين السلطان .

(٣) السعدان : المشتري والزهرة ، واكبرهما المشتري .

(٤) بيت الاعداء : هو البيت الثاني عشر .

(٥) الخرثي (بالضم) : أثاث البيت ، او ارذأ المتاع .

(٦) التسيير : ان ينظركم بين الهلاج (دليل العمر) ، وبين السعد أو النحس ، فيؤخذ لكل درجة سنة ؛ ويقال تصيبه السعادة أو النحس الى كذا وكذا سنة .

(٧) الوبال : هو البرج المقابل لبيت الكوكب ؛ وهو البرج السابع من كل بيت ، ويسمى نظيره ، ومقابله ؛ وذلك أن يكون بينهما ستة بروج ، وهي نصف الفلك .

(٨) الهيلاج : دليل العمر ؛ والهياليج خمسة : الشمس ، والقمر ، والطالع ، وسهم السعادة ، وجزء الاجتماع والاستقبال . وانما كانت ادلة العمر لأنها تسير الى السعود والنحوس .

(٩) الهملاج : المركب الحسن السير ، والمسرع . يقول : لم لا ينال العلا ، وقد اتخذ الفلك مركباً له .

(١٠) يعني بأريكة الذراع عهد الطفولة . واليراع : القصب ؛ ويريد الاقلام .

(١١) الكتد : مجمع الكتفين من الانسان ، وكاهله .

(١٢) الداية : القابلة .

(١٣) يريد أنه سيبلغ الغاية في الفضل في الزمن القصير .

(١٤) العوذة : ما يعلق على الانسان ليقيه من العين ونحوها .

(١٥) المنخنقة : الشاة ، وغيرها ؛ تخنق بحبل أو غيره .

(١٦) النطيحة : الشاة تنطحها الأخرى بقرونها ، فعيلة بمعنى مفعولة .

(١٧) المتردية . الساقطة من جبل ، أو في بئر .

ومَوْقوذة[1] ؛ وحفِظَ هِلاله في البِدَار[2] الى تِمِّه وبعد تِمِّه ، وأقرّ به عينَ أبيه وأمِّه . غير أنّي — والله يَغفر لسيدي — بيدَ أنّي راكعٌ في سبيلِ الشُّكر وساجد ، فأنا عاتبٌ وواجد ، إذ كان ظنّي أنَّ البريد بهذا الخبَرِ إليَّ يُعْمَل ، وأنَّ إتحافي به لا يُهمَل ، فانعَكست القَضِيَّة ، ورابَت الحالُ المرضيَّة ، وفَضَلَت الأمورَ الذَّاتيةَ الامورُ العَرَضيَّة ، والحُكْم جازِم ، وأَحَدُ الْفَرْضَيْنِ لازم ؛ إما عَدَم السَّوية[3] ، ويُعارِضه اعتناءٌ حَبْلُه مُغَار[4] ، وعُهْدَةُ سَلْمٍ لم يَدْخُلها جِزْيةٌ ولا صَغَار ؛ أو جَهْلٌ بمِقْدار الهِبَة ، ويُعارِضُه عِلمٌ بمِقْدار الحُقُوقِ ، ورضًى مُنافٍ للعُقُوق ، فوقع الأشكال ؛ وربّما لطُف عُذر كان عليه الاتّكال . وإذا لم يُبَشَّر مِثلي بمِنْحة الله قِبَلَ تلك الذّات السرية ، الخَليقَة بالنِّعمَ الحَرية ؛ فمَن الذي يُبَشَّر ، وعلى من يُعرضُ بَزُّها[5] أو يُنْشَر ، وهي التي واصَلت التَّفَقُّد[6] ، وبُهْرَجَت[7] المُعامَلَةَ وأبَت أن تنقُد ، وأنَّست الغُرْبَةَ وجُرحها غيرُ مُنْدَمِلٍ[8] ، ونَفَّست الكُرْبَةَ وجُنحُها[9] على الجوانِح[10] مُشتَمِل ؛ فمتَى فُرِضَ نِسيانُ الحُقوق لم يَنَلْني فَرْض ، ولا شَهِدَ به عليَّ سماءٌ ولا أرْض ؛ وإن قصَّر فما يجب لسَيدي عمَل ، لم يُقَصِّر رَجاءٌ ولا أَمَل ، ولِي في شَرح حَمْدِهِ ناقة وجَمل[11] . ومنه جلَّ وعلاَ نسألُ أن يُريَه قُرَّة العَيْنِ في نفْسِه ومالِهِ وبَنِيه ، ويجْعَلَ أكبرَ عطَايا الهَيَالِج أصغَر سِنِيه ، ويُقلّدَ عواتِق[12]

---

(١) الموقوذة . المقتولة ضرباً بالخشب او بالحجر . وكل هذه الاصناف قد حرم اكله القرآن على المسلم . وانظر الآية رقم ٣ من سورة المائدة ، واحكام القرآن لابن العربي ١/٢٢٢ ، ٢٢٣ .

(٢) يدعو له بأن يصاحبه الحفظ في سائر أطوار نموه الى أن يكتمل .

(٣) السوية . العدل ، والنصفة .

(٤) حبل مغار : محكم الفتل .

(٥) البز : الثياب .

(٦) التفقد : التعرف لاحوال الناس ، وتعهدها .

(٧) بهرج : عدل عن الطريق المسلوك .

(٨) اندمل الجرح . برىء .

(٩) الجنح : الظلمة .

(١٠) الجوانح : الضلوع تحت الترائب مما يلي الصدر .

(١١) هو عكس لمعنى المثل : «لا ناقتي في هذا ، ولا جملي» ، الذي يضرب للتبري من الشيء ، الميداني ٢/١١٣ ، ١١٤ .

(١٢) العواتق : جمع عاتق ؛ وهو ما بين المنكب والعنق .

الكَواكب البَابانية[1] حَمائلَ أمانيه . وإن تَشوّف سَيدي لِحال وليِّه ، فخَلْوَةٌ طيبةٌ ، ورحمةٌ من جانب الله صَيِّبة ، وبَرق يُشام[2] ، فيقالُ : حدِّث ما وراءَك يا هِشام . ولله دَرُّ شيخِنا إذْ يقُول :

لا بـــــارك اللهُ فيَّ إنْ لَمْ أُصَرِّفِ النَّفسَ في الأهمِّ
وكثَّرَ اللهُ في هُمومي إن كــــانَ غَيْرُ الخَلاَصِ همِّي

وإن أنعم سَيِّدي بالإلماع بحاله ، وحال الولد المُبارك ، فذَلِك من غُرَر إحسَانه ، ومَنزلتُه في لَحْظِ لَحظِبي بمَنْزلَة إنسَانه ؛ والسَّلام .

❊ (العودة الى المغرب الأقصى) ❊

ولما كنتُ في الاعتمال في مُشايَعة السلطان عبد العزيز مِلك المغرب[3] ، كما ذكرتُ تفاصيله ، وأنا مقيم ببَسْكَرة في جِوار صاحبها أحمد بن يوسف بن مَزْنَى ، وهو صاحب زِمام رِياح ، وأكثر عطائهم من السلطان مُفْتَرضٌ عليه في جبايَـة الزَّاب[4] ، وهم يَرجعون اليه في الكثير من أمورهم ؛ فلم أشعر إلاّ وقد حَدَثَت المُنافسة منه في استتْباع العرب ، ووَغَر صدرُه[5] ، وصَدَّق فيَّ ظنُونه وتوهُّماته ، وطاوع الوُشاة فيما يُوردون على سمْعِه من التَّقوّل والاختلاق ، وجاش صدرُه بذلك ؛ فكتب إلى وَنَزْمار بن عَريف ، ولِيِّ السلطان ، وصاحب شِواره ، يتنفَّس الصُّعَداء من ذلك ، فأنهاه إلى السلطان ؛ فاستدعاني لِوَقته ، وارتحلتُ من بَسْكَرة

(١) الكواكب البيانيات (او البابانية) : هي التي لا تنزل الشمس بها ، ولا القمر .
(٢) شام البرق : نظر الى سحابته اين تمطر .
(٣) هو أبو فارس ؛ عبد العزيز بن أبي الحسن بن أبي سعيد بن يعقوب بن عبد الحق المريني ، بويع سنة ٧٦٧ ، وتوفي سنة ٧٧٤ . من ألمع ملوك بني مرين ؛ أعاد الدولة قوتها وشبابها ، وأزال عنها حجر المستبدين ؛ والى أبي فارس هذا أهدى ابن خلدون مقدمته ، ولا تزال صيغة الإهداء محفوظة بديباجة النسخة المطبوعة ببولاق .
(٤) بلاد الزاب : منطقة واسعة كانت تشغل المساحة الواقعة في جنوب جبال أوراس ، وتشمل بسكرة ، وما حولها . ياقوت (معجم البلدان) .
(٥) وغر صدره : امتلأ غيظاً وحقداً .

بالأهل والوَلد ، في يوم المولد الكريم سنة أربع وسبعين وسبعمائة متوجها الى السلطان وكان قد طرقه المرض فما هو إلا أن وصلت مليانة من أعمال المغرب الأوسط ، لقيني هنالك خبر وفاته ، وأنّ ابنه أبا بكر السعيد نصّب بعده للأمر في كفالة الوزير أبي بكر بن غازي وأنه ارتحل إلى المغرب الأقصى مغذًّا السير إلى فاس ، وكان على مليانة يومئذ عليّ بن حسون بن أبي علي الهساطي (١) من قواد السلطان وموالي بيته ، فارتحلت معه إلى أحياء العطاف ونزلنا على أولاد يعقوب بن موسى من أمرائهم ، وبدرني بعضهم إلى حلّة أولاد عريف أمراء سويد ، ثم لحق بنا بعد أيام عليّ بن حسّون في عساكره وارتحلنا جميعاً إلى المغرب على طريق الصحراء ، وكان أبو حمّو قد رجع بعد مهلك السلطان من مكان انتباذه بالقفر في تيكورارين إلى تلمسان فاستولى عليها وعلى سائر أعماله ، وأوعز إلى بني يغمور من شيوخ عبيدالله في المعقل أن يعترضونا بحدود بلادهم من رأس العين(٢) مخرج وادي صا(٣) ، فاعترضونا هنالك فنجا من نجا منّا على خيولهم إلى جبل دبدو وانتهبوا جميع ما كان معنا وأرجلوا الكثير من الفرسان ، وكنت فيهم ، وبقيت يومئذ في قفره ضاحياً عارياً إلى أن حصلتُ إلى العمران ولحقتُ بأصحابي بجبل دبدو ووقع في خلال ذلك من الألطاف ما لا يعبّر عنه ، ولا يسع الوفاء بشكره . ثم سرنا إلى فاس ووفدت على الوزير أبي بكر وابن عمّه محمد بن عثمان بفاس في جمادي من السنة ، وكان لي معه قديم صحبة واختصاص منذ نزع معي إلى السلطان أبي سالم بجبل الصفيحة ، عند إجازته من الأندلس لطلب ملكه كما مرّ في غير موضع من الكتاب ، فلقيني من برّ الوزير وكرامته وتوفير جرايته وإقطاعه ، فوق ما احتسب وأقمت بمكاني من دولتهم أثيرَ المحل ، ثابت(٤) الرتبة عظيم الجاه ، منوّة المجلس عند السلطان . ثم انصرم فصلُ الشتاء وحدث بين الوزير أبي بكر بن غازي وبين السلطان ابن الأحمر منافرة بسبب ابن الخطيب ، وما دعا إليه ابن الأحمر من إبعاده عنهم ، وأنف الوزير من ذلك فأظلم الجو بينهما ، وأخذ الوزير في تجهيز بعض القرابة من بني الأحمر ليشغله به ونزع ابن

---

(١) وفي نسخة ثانية : اليناطي .

(٢) رأس العين يعرف بعين بني مطهر ، وهي منابع تقع في شرق مدينة دبدو .

(٣) وادي صا ، أو زا يقع في جنوب عين البرديل عن يمين وادي ملوية حوالي ٥١ كلم .

(٤) وفي نسخة ثانية : نابه الرتبة .

الاحمر[1] إلى إطلاق عبد الرحمن بن أبي يفلوسن من ولد السلطان أبي علي ، والوزير مسعود بن رحّو[2] بن ماسَي كان حبسهما أيام السلطان عبد العزيز وأشار بذلك ابن الخطيب حين كان في وزارتهما بالأندلس ، فأطلقهما الآن وبعثهما لطلب المُلْك بالمغرب ، وأجازهما في الأسطول إلى سواحل غساسة[3] فنزلوا بها ولحقوا بقبائل بطوية هنالك ، فاشتملوا عليهم ، وقاموا بدعوة الأمير عبد الرحمن . ونهض ابن الأحمر من غرناطة في عساكر الأندلس فنزل على جبل الفتح فحاصره ، وبلغت الأخبار بذلك إلى الوزير أبي بكر بن غازي القائم بدعوة بني مرين ، فوجّه لحينه ابن عمه محمد بن عثمان بن الكاس إلى سبتة لإمداد الحامية الذين لهم بالجبل ، ونهض هو في العساكر إلى بطوية لقتال الأمير عبد الرحمن ، فوجده قد ملك ملك تازي ، فأقام عليها يحاصره ، وكان السلطان عبد العزيز قد جمع شباباً من بني أبيه المرشّحين ، فحبسهم بطنجة . صاحبه على ما كان منه ، واشتدّ عذل ابن الأحمر على إخلائهم الكرسّي من كُفئِهِ ، ونصبهم السعيد بن عبد العزيز صبيّاً لم يثغر ، فاستعتب له محمد ، واستقال من ذلك ، فحمله ابن الأحمر على أن يبايع لأحد الأبناء المحبوسين بطنجة ، وقد كان الوزير أبو بكر أوصاه أيضاً بأنه إن تضايق عليه الأمر من الأمير عبد الرحمن ، يفرّج عنه بالبيعة لأحد أولئك الأبناء .

وكان محمد بن الكاس قد استوزره السلطان أبو سالم لابنه أحمد أيام ملكه ، فبادر من وقته إلى طنجة وأخرج السلطان أحمد ابن السلطان أبي سالم من محبسه ، وبايع له وسار به إلى سبتة ، وكتب لابن الأحمر يعرّفه بذلك ، ويطلب منه المدد على أن ينزل له عن جبل الفتح ، فأمدّه بما شاء من المال والعسكر واستولى على جبل الفتح وشحنه بحاميته ، وكان أحمد ابن السلطان أبي سالم قد تعاهد مع بني أبيه في محبسهم ، على أنّ مَنْ صار له المُلك إليه منهم ، يجيز الباقين إلى الاندلس ، فلما بويع له ذهب إلى الوفاء لهم بعهدهم ، وأجازهم جميعاً ، فنزلوا على السلطان ابن الأحمر ، فأكرم نزلهم ووفّر جراياتهم . وبلغ الخبر بذلك كلّه إلى الوزير أبي بكر بمكانه من حصار الأمير عبد الرحمن بتازى ، فأخذه المقيم المقعد من فعلة ابن عمّه ،

---

(١) وفي نسخة ثانية : للإجلاب على الأندلس ، فبادر ابن الأحمر .

(٢) رحو في اللغة البربرية تعني تصغير عبد الرحمن .

(٣) غساسة تقع عند مصب وادي ملوية حيث تقطن قبائل بطوية .

وكرّ[1] راجعاً إلى دار الملك ، وعسكر بكُدْيَة العرائس من فاس[2] وتوعّد ابن عمّه محمد بن عثمان فاعتذر بأنه امتثل وصيّته ، فاستشاط وتهدّده واتسع الخرق بينهما ، وارتحل محمد بن عثمان بسلطانه ومدده من عسكر الأندلس إلى أن احتل بجبل زَرْهون[3] المطل على مكناسة ، فعسكر به ، واشتملوا عليه ، وزحف إليهم الوزير أبو بكر وصعد الجبل فقاتلوه وهزموه ، ورجع إلى مكانه بظاهر دار الملك ، وكان السلطان ابن الأحمر قد أوصى محمد بن عثمان بالاستعانة بالأمير عبد الرحمن والاعتضاد به ، ومساهمته في جانب من أعمال المغرب يستبدّ به لنفسه ، فراسله محمد ابن عثمان في ذلك ، واستدعاه واستمدّه وكان ونزمار بن عريف وليّ سلفهم قد أظلم الجوّ بينه وبين الوزير أبي بكر ، لأنّه سأله وهو يحاصر تازى في الصلح مع الأمير عبد الرحمن فامتنع ، واتهمه بمداخلته والميل له ، فاعتزم على التقبّض عليه ، ودسّ إليه بعض عيونه ، فركب الليل ولحق بأحياء الأحلاف من المعقل ، وكانوا شيعة للأمير عبد الرحمن ، ومعهم علي بن عمر الويغلاني كبير بني ورتاجن ، كان انتقض على الوزير ابن غازي ولحق بالسوس[4] . ثم خاض القفر إلى هؤلاء الأحلاف فنزل بينهم مقيماً لدعوة الأمير عبد الرحمن ، فجاءهم ونزمار مفلتاً من حبالة الوزير أبي بكر وحرّضهم على ما هم فيه ، ثم بلغهم خبر السلطان أحمد بن أبي سالم ووزيره محمد ابن عثمان ، وجاءهم وافد الأمير عبد الرحمن يستدعيهم . وخرج من تازي فلقيهم ، ونزل بين أحيائهم ، ورحلوا جميعاً إلى إمداد السلطان أبي العبّاس حتى انتهوا إلى صفروي[5] . ثم اجتمعوا جميعاً على وادي النجا ، وتعاقدوا على شأنهم ، وأصبحوا غداً على التعبية ، كلٌّ من ناحيته .

---

(١) وفي نسخة ثانية : وفوّض راجعاً ولا معنى لها هنا حسب مقتضى السياق .

(٢) وفي نسخة ثانية : بكدية العرائس من ظاهرها .

(٣) جبل زرهون : بقرب فاس فيه أمّة لا يحصون ويقع على بعد ٣٠ كلم من مدينة مكناسة الزيتون ، وبه مدفن المولى ادريس الاكبر مؤسس الدولة الإدريسية بالمغرب ، وبالجبل تقع مدينة وليلى التاريخية .

(٤) السوس : اقليم واسع . يقع في جنوب مدينة مراكش وراء جبال أطلس ، ويتخلله واد عظيم يسمى وادي سوس ، تتفرع منه عدة اودية ، وحول الوادي وفروعه مزارع واسعة ، بها اشجار ونخيل ، وباقليم السوس مدن كبيرة . منها : تارودانت وتزنيت ، وعلى ساحلي البحر المحيط حيث مصب وادي سوس تقع مدينة اغادير .

(٥) وفي نسخة ثانية : صفووى .

وركب الوزير أبو بكر لقتالهم فلم يطق ، وولّى منهزماً فانحجر بالبلد الجديد[1] ، وخيّم القوم بكدية العرائس محاصرين له ، وذلك أيام عيد الفطر من سنة خمس وسبعين وسبعمائة فحاصروها ثلاثة أشهر وأخذوا بمخنقها إلى أن جهد الحصار الوزير ومن معه ، فأذعن للصلح على خلع الصبيّ المنصوب السعيد ابن السلطان عبد العزيز ، وخروجه إلى السلطان أبي العباس ابن عمّه ، والبيعة له ، وكان السلطان أبو العبّاس والأمير عبد الرحمن قد تعاهدوا عند الاجتماع بوادي النجا على التعاون والتناصر ، على أنّ الملك للسلطان أبي العبّاس بسائر أعمال المغرب ، وأنّ للأمير عبد الرحمن بلد سجلماسة ودَرعَة[2] والأعمال التي كانت لجدّه السلطان أبي علي أخي السلطان أبي الحسن . ثم بدا للأمير عبد الرحمن في ذلك أيام الحصار ، واشتطّ بطلب مراكش وأعمالها فأغضوا له في ذلك ، وشارطوه على ذلك حتى يتمّ لهم الفتح ، فلما انعقد ما بين السلطان أبي العبّاس والوزير أبي بكر ، وخرج إليه من البلد الجديد ، وخلع سلطانه الصبيّ المنصوب ، ودخل السلطان أبو العبّاس إلى دار المُلْك فاتح ست وسبعين وسبعمائة وارتحل الأمير عبد الرحمن يغذّ السير إلى مراكش ، وبدا للسلطان أبي العبّاس ووزيره محمد بن عثمان في شأنه ، فسرّحوا العساكر في اتباعه ، وانتهوا خلفه إلى وادي بَهْت فواقفوه ساعة من نهار ، ثم أحجموا عنه ، وولّوا على راياتهم ، وسار هو إلى مراكش ، ورجع عنه وزيره مسعود بن ماسي بعد أن طلب منه الإجازة إلى الاندلس يتودّع بها ، فسرّحه لذلك ، وسار إلى مراكش فملكها .

وأمّا أنا فكنتُ مقيماً بفاس في ظلّ الدولة وعنايتها ، منذ قدمت على الوزير سنة أربع وسبعين وسبعمائة كما مرّ ، عاكفاً على قراءة العلم وتدريسه ، فلمّا جاء السلطان أبو العبّاس والأمير عبد الرحمن وعسكروا بكدية العرائس ، وخرج أهل الدولة إليهم من الفقهاء والكتاب والجند ، وأذن للناس جميعاً في مباكرة أبواب السلطانين من غير نكير في ذلك ، فكنت أباكرهما معا ، وكان بيني وبين الوزير محمد بن عثمان ما مرّ

---

(١) البلد الجديد : تسمّى ايضاً المدينة البيضاء ، وفاس الجديد ، بناها يعقوب بن عبد الحق المريني على وادي فاس سنة ٦٧٤ .

(٢) درعة : وتنطق درا وكذلك تكتب على الخرائط ، وهي مقاطعة كبيرة وراء جبال أطلس شرقي اقليم السوس ، تصل حدودها الى البحر المحيط من مدن هذا الاقليم : ورزازت في السفح الجنوبي لجبال أطلس وسكانها مختلطين من العرب وبربر صنهاجة . وهذا الأقليم هو الموطن الاصلي لدولة السعديين بالمغرب .

ذكره قبل هذا ، فكان يُظْهِر لي رعاية ذلك ، ويكثر من المواعيد ، وكان الأمير عبد الرحمن يميل إليّ ويستدعيني أكثر أوقاته ، ويشاورني في أحواله ، فغصّ بذلك الوزير محمد بن عثمان وأغرى سلطانه فتقبّض عليّ . وسمع الأمير عبد الرحمن بذلك ، وعلم أنّي إنمّا أتيت من جرّاه ، فحلف ليقوّضن خيامه ، وبعث وزيره مسعود بن ماسي لذلك ، فأطلقني من الغد ، ثم كان افتراقها لثالثة . ودخل الأمير أبو العبّاس دار الملك ، وسار الأمير عبد الرحمن إلى مراكش ، وكنت أنا يومئذٍ مستوحشاً ، فصحبت الأمير عبد الرحمن معتزماً على الإجازة إلى الأندلس من ساحل آسفي ، معوّلاً في ذلك على صحابة الوزير مسعود بن ماسي لهواي فيه ، فلمّا رجع مسعود ثني عزمي في ذلك ، ولحقنا بو نزمار بن عريف بمكانه من نواحي كَرْسيف ، لتقدّمه وسيلة إلى السلطان أبي العبّاس صاحب فاس في الجواز إلى الأندلس ، ووافينا عنده داعي السلطان فصحبناه إلى فاس ، واستأذنه في شأني ، فأذن لي بعد مطاولة وعلى كره من الوزير محمد بن عثمان بن داود بن أعْراب ، ورجال الدولة .

وكان الأخ يحيى لمّا رحل السلطان أبو حمّو من تلمسان ، رجع عنه من بلاد زغبة إلى السلطان عبد العزيز ، فاستقرّ في خدمته ، وبَعدَه في خدمة ابنه السعيد المنصوب مكانه . ولمّا استولى السلطان أبو العبّاس على البلد الجديد استأذن الأخ في اللحاق بتلمسان ، فأذن له وقدم على السلطان أبي حمّو ، فأعاده لكتابة سرّه كما كان أوّل أمره ، وأذن لي أنا بعده فانطلقت إلى الأندلس بقصد القرار والدّعَة إلى أن كان ما نذكره إن شاء الله تعالى .

الاجازة الثانية إلى الأندلس ثم إلى تلمسان واللحاق بأحياء العرب والمقامة عند أولاد عريف

ولما كان ما قصصته من تنكّر السلطان أبي العبّاس صاحب فاس والذهاب مع الأمير عبد الرحمن ، ثم الرجوع عنه إلى ونزمار بن عريف طلباً للوسيلة في انصرافي إلى الأندلس بقصد الفرار والانقباض ، والعكوف على قراءة العلم ، فتمّ ذلك ووقع الإسعاف به بعد الامتناع ، وأجزت إلى الأندلس في ربيع سنة ست وسبعين وسبعمائة ولقيني السلطان بالكرامة وأحسن النزل على عادته ، وكنت لقيتُ بجبل الفتح كاتب

السلطان ابن الأحمر من بعد ابن الخطيب الفقيه أبا عبدالله بن زَمْرَك ، ذاهباً إلى فاس في غَرَض التهنئة ، وأجاز إلى سبتة في أسطوله ، وأوصيته بإجازة أهلي وولدي إلى غرناطة ، فلمّا وصل إلى فاس ، وتحدّث مع أهلي في إجازتهم ، تنكّروا لذلك ، وساءهم استقراري بالأندلس ، واتّهموا أنّي ربّما أحمل السلطان ابن الأحمر على الميل إلى الأمير عبد الرحمن الذي اتّهموني بملابسته ، ومنعوا أهلي من اللحاق بي . وخاطبوا ابن الأحمر في أن يرجّعني إليهم ، فأبى من ذلك ، فطلبوا منه أن يجيزني إلى عدوة تلمسان ، وكان مسعود بن ماسَي قد أذنوا له في اللحاق بالأندلس ، فحملوه مشافهة السلطان بذلك ، وأبدوا له انّي كنت ساعياً في خلاص ابن الخطيب ، وكانوا قد اعتقلوه لأوّل استيلائهم على البلد الجديد وظفرهم به . وبعث إليه[1] ابن الخطيب مستصرخاً به ، ومتوسّلاً ، فخاطبت في شأنه أهل الدولة ، وعوّلت فيه منهم على ونزمار وابن ماسَي ، فلم تنجح تلك السعاية ، وقتل ابن الخطيب بمحبسه ، فلمّا قدم ابن ماسَي على السلطان ابن الأحمر وقد أغروه بي فألقى إلى السلطان ما كان منّي في شأن ابن الخطيب ، فاستوحش من ذلك ، وأسعفهم بإجازتي إلى العدوة ، ونزلت بهُنَيْن والجوّ بيني وبين السلطان أبي حمّو مظلم بما كان مني في إجلاب العرب عليه بالزاب كما مرّ . فأوْعَز بمقامي بهُنَين ، ثم وَفَد عليه محمد بن عريف فعذله في شأني فبعث عني إلى تلمسان ، واستقررت بها بالعُبّاد ، ولحق بي أهلي وولدي من فاس ، وأقاموا معي وذلك في عيد الفطر سنة ست وسبعين وسبعمائة وأخذت في بثّ العلم ، وعرض للسلطان أبي حمّو رأي في الزواودة ، وحاجةٌ إلى استئلافهم ، فاستدعاني وكلّفني السفارة إليهم في هذا الغرض ، فاستوحشت منه ونكرته على نفسي لِمَا آثرته من التخلّي والإنقطاع ، وأجبته إلى ذلك ظاهراً ، وخرجت مسافراً من تلمسان حتى انتهيت إلى البطحاء ، فعدلت ذات اليمين إلى مِنْدَاس ولحقت بأحياء أولاد عريف قبلة جبل كزول[2] فلقوني بالتحف والكرامة ، وأقمتُ بينهم أياماً حتى بعثوا عن أهلي وولدي بتلمسان . وأحسنوا العذر إلى السلطان عنّي في العجز عن قضاء خدمته ، وأنزلوني بأهلي في قلعة أولاد سلامة[3] من بلاد بني توجين التي صارت لهم بأقطاع السلطان . فأقمت بها أربعة

(١) الضمير يعود الى ابن خلدون .
(٢) جبل كزول : يقع في الجنوب الغربي لمدينة تيارت على بعد ١٠ كلم .
(٣) تسمى هذه القلعة قلعة تاوغزوت في مقاطعة وهران من بلاد الجزائر .

أعوام متخلياً عن الشواغل كلّها ، وشرعت في تأليف هذا الكتاب ، وأنا مقيمٌ بها ، وأكملت المقدّمة على ذلك النحو الغريب الذي اهتديت إليه في تلك الخلوة ، فسألت فيها شآبيب الكلام والمعاني على الفكر حتى امتخَضَتْ زُبْدَتَها ، وتآلّفت نتائجها ، وكانت من بعد ذلك الفيئة إلى تونس كما نذكره إن شاء الله تعالى .

* (الفيئة الى السلطان أبي العباس بتونس) *

ولما نزلت بقلعة ابن سلامة من أحياء أولاد عريف ، وسكنتُ بقصر أبي بكر بن عريف الذي اختطّه بها ، وكان من أحفل المساكن وأوثقها . ثم طال مقامي هنالك وأنا مستوحشٌ من دولة المغرب وتلمسان ، وعاكفٌ على تأليف هذا الكتاب ، وقد فرغتُ من مقدّمته إلى أخبار العرب والبربر وزناتة ، وتشوّفتُ إلى مطالعة الكتب والدواوين التي لا توجد إلا بالأمصار ، بعد أن أمليتُ النكير من حفظي ، وأردتُ التنقيح والتصحيح ، ثم طرقني مرضٌ أربى على البنية لولا ما تداركَ من لطف الله ، فحدث عندي ميلٌ إلى مراجعة السلطان أبي العبّاس والرحلة إلى تونس ، حيث قرار آبائي ومساكنهم ، وآثارُهم وقبورُهم ، فبادرتُ إلى خطاب السلطان بالفيئة إلى طاعته ، والمراجعة ، فما كان غير بعيد ، واذا بـخطابه وعهوده بالإذن والاستحثاث للقدوم ، فكان الخفوق للرحلة فظعنت عن أولاد عريف مع عرب الاجص[1] من بادية رياح ، كانوا هنالك ينتجعون الميرة بـمنداس ، وارتحلنا في رجب سنة ثمانين وسبعمائة وسلكنا القفر إلى الدَوْسَن من أطراف الزاب . ثم صعدت إلى التل مع حاشية يعقوب بن علي وجدتهم بفرفار[2] الضيعة التي اختطّها بالزاب ، فرحلت معهم[3] إلى أن نزلنا عليه بضاحية قسنطينة ، ومعه صاحبها الأمير ابراهيم ابن السلطان أبي العبّاس بـمخيّمه ومعسكره ، فحضرتُ عنده وقَسَم لي من برّه وكرامته فوق الرضى وأذن لي في الدخول إلى قُسَنْطِينَة وإقامة أهلي في كفالة إحسانه ، ريثما أصل إلى حضرة أبيه ، وبعث يعقوب بن علي معي ابن أخيه أبي دينار في جماعة من قومه ،

(١) وفي نسخة ثانية : عرب الأخضر .

(٢) فرفار : واحة صغيرة تبعد ٣٣ كلم عن مدينة بسكرة إلى الجنوب الغربي .

(٣) وفي نسخة ثانية : فرحلتهم معي .

وسرتُ إلى السلطان أبي العبّاس وهو يومئذ قد خرج من تونس في العساكر إلى بلاد الجريد لاستنزال شيوخها عن كراسي الفتنة التي كانوا عليها ، فوافيته بظاهر سوسة ، فحيّا وفادتي برّ مقدمي وبالغ في تأنيسي ، وشاورني في مهمّات أموره ، ثم ردّني إلى تونس وأوعز إلى نائبه بها مولاه فارح بتهيئه المنزل ، والكفاية من الجراية والعلوفة ، وجزيل الإحسان ، فرجعت إلى تونس في شعبان من السنة ، وآويت إلى ظلٍّ ظليل من عناية السلطان وحرمته ، وبعثت إلى الأهل والولد وجمعت شملهم في مرعى تلك النعمة ، وألقيت عصا التسيار ، وطالت غيبة السلطان إلى أن افتتح أمصار الجريد ، وذهب فلّهم في النواحي ، ولحق زعيمهم يحيى بن يملول ببَسْكَرَة ، ونزل على صهره ابن مَزْني ، وقَسَم السلطان بلاد الجريد بين ولده ، فأنزل ابنه محمداً المنتصر بتوزر[1] وجعل نفطة ونفزاوة من أعماله ، وأنزل ابنه أبا بكر بقَفْصَة ، وعاد إلى تونس مظفّراً مزهراً ، فأقبل عليّ واستدناني لمجالسته ، والنجاء في خلوته ، فغصّ بطانته من ذلك ، وأفاضوا في السعايات عند السلطان فلم تنجح ، وكانوا يعكفون على إمام الجامع ، وشيخ الفُتيا محمد بن عرفة ، وكان في قلبه نكتة من الغيرة من لدن اجتماعنا في المرسى بمجالسة الشيوخ ، فكثيراً ما كان يظهر شفوفي[2] عليه ، وإن كان أسنّ مني فاسودّت تلك النكتة في قلبه ، ولم تفارقه ، ولما قدمتُ تونس انثال عليّ طلبةُ العلم من أصحابه وسواهم يطلبون الإفادة والاشتغال ، وأسعفتهم بذلك ، فعظم عليه ، وكان يُسِرُّ التنفير إلى الكثير منهم ، فلم يقبلوا ، واشتدّت غيرته ووافق ذلك اجتماع البطانة إليه ، فاتفقوا على شأنهم في التأنيب والسعاية بي ، والسلطان خلال ذلك مُعرِضٌ عنهم في ذلك ، وقد كلّفني بالأكباب على تأليف هذا الكتاب لتشوّقه إلى المعارف والأخبار ، واقتناء الفضائل فأكملت منه أخبار البربر وزناتة ، وكتبتُ من أخبار الدولتين وما قبل الإسلام ما وصل اليّ منها ، وأكملت منها نسخة رفعتها إلىِ خزانته . وكان مما يغرون به السلطان قعودي على امتداحه ، فإني كنتُ قد أهملتُ الشعر وانتحاله جملة ، وتفرّغت للعلم فقط ، فكانوا يقولون له إنّما ترك ذلك استهانة بسلطانِك لكثرة امتداحه للملوك قبلك ، وتنسّمت ذلك عنهم من جهة بعض الصديق من بطانتهم ، فلمّا رفعت له الكتاب وتوجّته باسمه أنشدت في

(١) توزر : مدينة واقعة على الحافة الشمالية لشط الجريد بينها وبين نقطة عشرة فراسخ (معجم البلدان) .
(٢) شف عليه شفوفا إذا زاد أو نقص (لسان العرب) وهنا يعني الزيادة .

ذلك اليوم هذه القصيدة امتدحه ، وأذكّر سيره وفتوحاته ، واعتذر عن انتحال الشعر واستعطفه بهدية الكتاب إليه فقلت :

هــلْ غيرُ بـابك للغريبِ مؤمّـلُ ... أوعـن جنَـابك للاماني مَعْـدلُ
هي همّـةٌ بَعثَتْ إليك على النّوى ... عزمـا كما شَحـذَا لحُسَام الصَّيقَـلُ
متبوّأُ الـدنيـا ومنتجـع المُنَى ... والغيثُ حيث العَـارضُ المتهلـلَ
حيث القصورُ الزاهرات منِيفَـةٌ ... تعنو لها زهرُ النجوم وتحفِـلُ(١)
حيث الخيـامُ البيض ترفـع للقرى ... قـد فـاح في أرجـائهنّ المندل(٢)
حيث الحِمَى للعزّ في ساحـاتـه ... ظـلٌّ أفـاءتـه الوشيجُ الـذُبَّـلُ
حيث الرمـاحُ يكـادُ يورقُ عُودَها ... مما تعـلَّ من الـدمـاء وتنْهَـلُ
حيثُ الكرامُ ينوب عن نارِ القِرى ... عُرْفُ الكبـاء بحيّهم والمنـدلُ
حيثُ الجيادُ أملْنَ شجعانَ الوغى ... مما أطـالوا في المنـارِ وأوغلوا(٣)
حيثُ الوجوه الغرٌّ قنعَهـا الحَيَـا ... والبشرُ في صفحَـاتها يتهلّـلُ
حيثُ الملوكُ الصيـدُ والنَّفرُ الألى ... عَزَّ الجوارُ لـديهم والمنزلُ
من شيعـة المهـديّ بل من شيعة ... التوحيد جاءَ بهِ الكتابُ مفصَّلُ(٤)
شادوا على التقوى مبـاني عزّهم ... لله مـا شادوا بـذاك وأثّلوا
بـل شيعـة الرحمن ألقى حبّهم ... في خلقـهِ فسموا بـذاك وفُضّلوا
قوم أبو حفصٍ أبٌ لهُمُ ومـا ... أدراك والفـاروق جـدٌّ أوّلُ(٥)
نَسَبٌ كما اضطرَدت أنابيب القَنَا ... وأتى على تقويمهنّ مُعـدِّلُ
سام على هـام الزَّمـانَ كـأنّـه ... للفَجر تـاجٌ بـالبـدور مكلّـلُ

---

(١) وفي نسخة ثانية : تعنى بها زهر النجوم وتحفل .
(٢) وفي نسخة ثانية :
حيث الخيـام البيض يرفـع للعلى ... والمكرمـات طرافهـا المتهدل
(٣) وفي نسخة ثانية :
حيث الجيـاد أَمَلَهُن بنو الوغى ... ممّـا أطـالوا في المغـار وأوغلوا

(٤) وفي نسخة ثانية : يفصّل .
(٥) ابو حفص هو عمر بن عبدالله الصنهاجي ويعرف بأزناج وعمر ومزال ، ويذكر ابن خلدون ان نسب الحفصيين ينتهي إلى ثاني الخلفاء الراشدين عمر بن الخطاب ونقل ذلك عن ابن نخيل وغيره من الموحدين (راجع المجلد السادس من هذا الكتاب) .

فَضْلُ الأنـام حـديثُهم وقـد يُمهم ... ولأنْتَ إنْ نَصَّبوا أعزُّوا أفْضَلُ

وبَنوا على قُلَـلِ التخوم ووطّـدوا ... وبنـاؤكَ العـالي أشدُّ وأطـوَلُ

ولقـد أقول لخـائض بحر الغلا ... والليـلُ مُـدَّثِرُ الجوانب أليَـلُ(١)

مـاضٍ على غَول الـدّجى لايتّقي ... منهـا وذا بلـه ذُبـالٌ مُشعَـلُ

متقلّبٌ فوقَ الرمـاح(٢) كـأنّـه ... طيفٌ بـأطراف المهَـادِ مُوكّـلُ

يبغي منالَ الفوزِ من طُرُق الغنَى ... ويُرودُ مخصِبَهـا الـذي لا يمحـلُ

أرح الرّكـابُ فقدْ ظفرتَ بـواهبٍ ... يعطي عطـاءَ المنعِمينَ فيجزِلُ

لله من خُلق كريمٍ في النّـدى ... كـالروضِ حيّـاهُ نـديّ مخضوْضِلُ

هـذا أميرُ المؤمنين إمـامَنـا ... في الـديـن والـدنيـا إليه المؤْئـلُ

هـذا أبـو العبّـاس خيرُ خليفـة ... شهـدَتْ لـه الشّيمُ التي لا تُجهَـلُ

مستنصرٌ بـالله في قَهْرِ العِـداً ... وعلى إعـانـة ربّـه متوكّـلُ

سَبقَ الملوك إلى العُلا متمهّلاً ... لله منكَ السابقُ المتمهّـلُ

فَلأنتَ أعلى المالكينَ وإن غَـدوْا ... يتسابقونَ إلى العَلاءِ وأكمـلُ

قـايِسْ قـديماً منهمُ بقـديمكُم(٣) ... فـالأمرُ فيـه واضحٌ لا يُجهَـلُ

دانوا لقومكُم بـأقْوَم طـاعـةٍ ... هي عُروَة الـديـن التي لا تُفصَلُ

سائِـل تلمسانـاً بها وزنـاتـةً ... ومرين قَبلَهُمُ كما قـد ينقَـلُ

وأسأل بـأنـدلسٍ مـدائنَ مُلكِهـا ... تخبركَ حينَ استأنسُوا واستـأهلوا

وأسأل بـذامرًّا كشاً وقُصورَهـا ... فلقـد تجيبُ رُسومُهَـا مَنْ يَسألُ

يـا أيُّهـا المَلكُ الوفـيُّ يـاذا الـذي ... ملاء القلوبَ وفوقَ مـا يتمثّـلُ(٤)

لله منْك مؤيّـدٌ عَزمَـاتـه ... تمضي كما يمضي القضاءُ المُرسَلُ

حيثُ الزمـانُ يحثُّ أعظمَ حتّـه(٥) ... فـافترّ عنـه وهو أكلحُ أعضَلُ

والشّمـلُ من أنبـائـه مُتصدّعٌ ... وعُلا خلافتهم(٦) مضاعٌ مُهمَـلُ

---

(١) وفي نسخة ثانية : والليل مزيدّ الجوانب أليل

(٢) وفي نسخة ثانية : الرّحال .

(٣) وفي نسخة ثانية : قايس قديما منكم بقديمهم .

(٤) وفي نسخة ثانية : يا أيها الملك الذي في نعته ملء القلوب وفوق ما يتمثّل

(٥) وفي نسخة ثانية : جثت الزمان بحيث أعضل خطبه ، وأعصل مكان أعضل في الشطر الثاني والأعصل : المعوج والشديد الالتواء . والأعضل : الاشد قبحاً .

(٦) وفي نسخة ثانية : وحِمَى خلافته .

والخلقُ قــد صَرَفوا إليكَ قلوبَهم ... ورَجَوا اصلاحَ الحالِ منْكَ وأمَّلوا
فعجلتَــــــه لما انتـــدبتَ لأمرهِ ... بـالبـأس والعَزْمِ الـذي لا يُمهـلُ
ذلّلتَ منــــه جـــامحاً لا ينثني ... سهَّلتَ وعراً كــادَ لا يتسهّــلُ
وألنتَ من سوس العتـــاةِ وذُدتهُم ... عـن ذلك الحرم الـذي قـد حلّلوا
كـــانَتْ لصَوْلَـةَ صولـةٌ ولقومِـهِ ... يعـدو ذويبُ بها وتسطو المعْقِـلُ
ومُهَلْهِـــلُ تُسْدي وتُلْحمُ في التي ... مـا أحكموهـا فهي بعدُ مُهَلْهَـلٌ

والمراد بصولة هنا صولة بن خالد بن حمزة أولاد أبي الليل . وذؤيب هو ابن عمّه أحمد بن حمزة . والمعقل فريق من العرب من أحلافهم ، ومهلهل هم بنو مهلهل بن قاسم أنظارهم وأقتالهم . ثم رجع إلى وصف العرب وأحيائهم :

عَجبَ الأنـامُ لشأنهم بـادُون قـد ... قــذَفتْ بحيّهم المطيُّ الـذلّــلُ
رفعوا القِبـاب على العمادَ وعنْـدَهـا ... الجردُ السّلاهِبُ والرِّماحُ العُسّلُ[1]
في كلّ طامي الرب منعقد الحصا[2] ... تهدي للجتّـــه الظماء فتنهــلُ
حيٌّ شرابهُم السرابٌ ورزقُهُمْ ... ريحٌ يروحُ بـــه الكميّ ومنصَلُ[3]
حي حلولٌ بـــالعراءِ ودونهَم ... قُــذفُ النَّوى إن يَظعنوا أو يُقبلوا
كـــانوا يروعونَ الملوكَ بما بـدوا ... وغَــدتْ ترفّــه بـالنعيم وتخْضَلُ
فَبـدَوْتَ لا تلوي على دعــةٍ ولا ... تــأوي إلى ظِـلّ القصورِ وتهزلُ[4]
طوراً يصافحُكَ الهجيرُ وتــارةً ... فيــه بخفّــاقِ البنودِ تُظلّــلُ
وإذا تعاطى الضمر في يوم الوغى[5] ... كـأس النجيـعِ فبـالصّهيـل تُعلّـل
مخشَوْشنـــاً في العزّ مُعتملاً لــه ... في مثـل هـذا يحسُنُ المُستَعْمَـلُ
تَفري حَشَى البيــداء لا يسري بها ... ركبٌ ولا يهوي إليـــه جحْفَـلُ
وتجرّ أذيــالَ الكتــائبِ فوقهــا ... تختـالُ في السّمر الطِوَالِ وتَرْفُـلُ

---

(١) السلاهب : ج سلهب . وسلاهبة : الطويل . والعسّلُ : ذو العمل الصالح يستحلى الثناء عليه وهي جمع عاسل .
(٢) وفي نسخة ثانية : في كل ظامي الترب متّقد الحصى .
(٣) وفي نسخة ثانية : جنّ شرابهم السراب ورزقهم ... رمح يروح به الكميّ ومنصل
(٤) وفي نسخة ثانية : تأوي الى ظلل القصور تهدّل .
(٥) وفي نسخة ثانية : واذا تعاطي خمراً يوم الوغى .

ترميهم منهـا بكـلّ مُـدَجَّج شاكي السلاحِ إذا استعار الأعزَلُ
وبكـل أسمر غُصنُـهُ مُتَـأَوِّدٌ وبكـل أبيضَ شطُّـه مُتهـدِّلُ
حتى تفرَّق ذلك الجمـعُ الأُلى عصَفت بهم ريحُ الجلاء فزلزلوا
ثم استملتَهُمْ بنعمتلك[1] التي خضعوا لعزّك بعـدهـا وتـذلّلوا
ونزعت من أهـل الجريـد غوايـةً وقطعت من أسبـابها مـا أوصلوا
خرَّبْتَ من بُنيَـانِهـا مـا شيّدوا وقطعْتَ من أسبـابها مـا أصّلوا
ونظمتَ من أمصاره وثغوره للمُلكِ عقْـداً بـالفتوح يُفَصّلُ
فسَدَدْت مطلَـع النِفـاقَ وأنتَ لاَ تنبو ظُبَـاك ولا العزيمة تنكُـلُ
بشكيمـةٍ مرهوبـةٍ وسيـاسةٍ تَجري كما يجري فراتٌ سلسَلُ
عَـذُب الزمـانُ لها ولـذَّ مَـذاقُـه من بعـدِ ما قَـدْ مرّ منه الحَنظَلُ
فضوى الأنـامُ لعزّ أروع مـالكٍ سهـلِ الخليقـة مَا جِـدٌ متفضّلُ
وتطـابقَتْ فيـه القلوبُ على الرضا سيّـان منهـا الطفـلُ والمُتكهّـلُ
يـا مـالكـاً وسعَ الزمـان وأهْلَـهُ عـدلاً وأمنـاً فوقَ مـا قَـدْ أمَّلوا
فـالأرضُ لا يُخشى بها غُولَ ولا يعـدو بساحتهـا الهِزبْرُ المُشبَـلُ
والسِّربُ يجتـابون كـل تنوفَـة سِرْبَ القطـاما راعهُنَّ الأجْدَلُ[2]
سبحـان من بعلاك قد أحيا المنَى وأعـاد حليّ الجيـدِ وهو معطَّـلُ
سبحـان من بهداكَ أوضح للوَرَى قَصْدَ السبيـلِ فـأبصَرَ المتـأمِّـلُ
فكـأنَّما الـدنيـا عروسٌ تجتَلَى فتميسُ في حُلَـلِ الجمالِ وترفُـلُ
وكـأنَّ مُطبقَـةَ البلاد بعَـدْلـهِ عـادَتْ فسيحـاً ليسَ فيهـا مَجْهَـلُ
وكـأنّ أنوار الكواكبِ ضوعفَتْ من نورِ غرّتـهِ التي هي أجمَـلُ
وكـأنَّما رُفـعَ الحجـابُ لنـاظرٍ فرأى الحقيقـة في الـذي يتخيَّـلُ

ومنها في العذر عن مدحه :

مـولاي غـاضتْ فكرتي وتبلّـدتْ مني الطّبـاعُ فكـلُّ شيء مُشكـلُ
تسمُـو إلى دَرْك الحقـائقِ همّتي فـأُصَد عن إدراكهنّ وأعزَلُ

---

(١) وفي نسخة ثانية : بأنعمك التي .
(٢) وفي نسخة ثانية : والسَّفر ، وتنوفة : القفر من الارض دون ماء . والأجدل : الأشقر .

وأجـــدُّ ليلى في امتراء قريحتي[1] ... فتعود غوراً بعـــدمـــا تسترسلُ
فـأبيتُ يختلج[2] الكلام بخاطري ... والنَّظمُ يَشْرُدُ والقوافي تجْفِـــلُ
وإذا امتريت العَفو منه جـاهـداً ... عـابَ الجهـابـذُ صنْعَـه واسترذلـوا
من بعْـــد حول انتقيـه ولم يكن ... في الشّعر لي قولٌ يعابُ ويُمهَلُ[3]
فــأصونُـه عن أهلـهِ متواريـاً ... أنْ لا يضُمَّهُمُ وشعري محفِـــلُ
وهي البضاعـةُ في القبول نَفاقُها ... سيّــان فيــه الفَحـلُ والمتطفِّـلُ
وبنـــات فكري إن أتَتكَ كليلـةً ... زهراء[4] تخطِرُ في القصور وتخطِلُ
فَلهــا الفخــارُ إذا منحتَ قبولَهـا ... وأنــا على ذاك البليـــغُ المقوَلُ

ومنها في ذكر الكتاب المؤلف بخزانته :

وإليك من سير الزَّمـــان وأهلــهِ ... عبراً يـدين بفضْلهـا مَنْ يَعـدِلُ
صحفا تترجَـمُ عن أحاديثِ الاولى ... دَرَجوا[5] فتجمـــلُ عنهم وتفصّلُ
تبـدي التبــابـعُ والعمالقُ سرَّهـا ... وثمودُ قبلهُمُ وعـــــادُ الأوّلُ
والقـــائمون بملّـــة الإسلام مِنْ ... مُضرو بربرهِمْ إذا مــــا حُصّلوا
لخصْتُ كتبَ الأوّلين بجمعهـــا ... وأتيت أوّلها بما قـــــد أغفلوا
وألنتُ حَوشيّ الكلام كـــأنّما ... سَردُ للغـــاتِ بها لنطقي ذُلّـــلُ
وجعلتـــــه لسوار مُلكك مفخَراً ... يبهي النديّ بـه ويزهو المحفِـلُ[6]
والله مـــا أسرفتُ فيما قلتُـــهُ ... شيئـــاً ولا الاسراف مني يَجمُـلُ
ولأنْتَ أرسخُ في المعـــالي رُتبـــةً ... من أنْ يموّهَ عنـــدَه مُتطفّـــلُ
فلكَ كُـــلّ فضيلـــة وحقيقـــةٍ ... النـاسُ تَعرفُ فَضلَهـا[7] ان بدّلوا
والحقّ عنـدَكَ في الأمور مقـدّمٌ ... أبـداً فماذا يـدّعيــه المبطـلُ

---

(١) امتراء القريحة : استدرارها .
(٢) وفي نسخة ثانية : يعتلج .
(٣) وفي نسخة ثانية : في الشعر حوليّ يعاب ويهمل .
(٤) وفي نسخة ثانية : مرهاء ، وامرأة مرهاء أي غير مكتحلة .
(٥) وفي نسخة ثانية : غبروا .
(٦) وفي نسخة ثانية : وجعلته لصوان ملك مفخراً ... يبأي النديّ به ويزهو المحفل
ويبأي : يفخر .
(٧) وفي نسخة ثانية : تعرف وضعها .

والله أعطــــاكَ التي لافوقهـــا فـاحكُم بما تَرضَى فـأنتَ الأعـدَلُ
أبقـــاكَ ربُّكَ للعبـــادِ تَرُبُّهم فـــالله يخلُقهُم ورعيُكَ يكفُـلُ

وكنت انصرفتُ من معسكره على سوسة إلى تونس ، بلغني وأنا مقيم بها أنّه أصابه في طريقه مرض ، وعقبه برء فخاطبته بهذه القصيدة :

ضحكَتْ وجوهُ الدهرِ بعدَ عبوسِ وتخلّلتنـــا رحمـــةٌ من بوسِ
وتـوضّحَتْ غُرَرُ البشائِرِ بعـــدمـــا انبهمَتْ فأطْلَعَهَا حُداةُ العيسِ [1]
صَدَعُوا بها ليـلَ الهموم كـأنّما صدعوا الظّلامَ بجذوةِ المَقْبُوس
فكأنّهم جناتُ عدنٍ في الورى [2] نُشِرَت لها الآمـــالُ من مرموس
قرَّت عيونُ الخلق منهـــا بـــالتي شرِبـوا النّعيم لها بغيرِ كـؤوسِ
يتمايلون من المسرّة والرضا ويقـــابلون أهِلّـــةً بشموسِ
من راكبٍ وافى يحيّي راكبـــاً وجليسِ أنسٍ قـــادَهُ لجليسِ
ومشفّــــع لله يؤنِسُ عِنْـــدَهُ أثر الهُـــدى في المَعْهَـدِ المأنوسِ
يعتــدّ منهـــا رحمـــةً قُـدْسِيَّـــةً فيبوُّ للرحمنِ بـــالتَقْـديسِ
طبٌّ بـــإخلاصِ الـدُّعـاءِ وإنّـــه يَشْفي من الـداءِ العيـا والبوسِ [3]

والمعنيّ به إمام الجامع الأعظم ، جامع الزيتونة بتونس .

يا ابن الخِلافَةِ [4] والذين بنورِهِمْ نُهِجَتْ سبيـلُ الحقّ بعـد دُروس
والنـــاصرُ الـدينِ القويمِ بعزمِـهِ طَردتَ إمـــامَتَهـــا بغيرِ عُكوس [5]
هَجْرُ المنى فيهـــا ولـذّاتِ المنى في لـــذّةِ التهجيرِ والتَّغْليسِ [6]
حاط الرياضَةَ بالسياسة فانطوت [7] منـــه لا كَرمِ مـــالكٍ وسيوسِ

---

(١) العيس : الواحد : اعيس ، والواحدة : عيساء : الإبل البيض يخالط بياضها سوادٌ خفيف — كرام الإبل .
(٢) وفي نسخة ثانية : فكأنهم بثوا حياةً في الورى .
(٣) البؤس : أي البؤس الشقاء وفي نسخة ثانية : يشفي من الداء العياء ويوسي .
(٤) وفي نسخة ثانية : يا ابن الخلائف .
(٥) وفي نسخة ثانية : طرد استقامتها بغير عكوس .
(٦) التهجير : التكبير الى الصلاة وفي الحديث : لو يعلم الناس ما في التهجير لاستبقوا إليه . والتغليس : السير الى صلاة الصبح عند ظلمة آخر الليل .
(٧) وفي نسخة ثانية : حاط الرعية بالسياسة فانضوت .

أسدٌ يحامي عن حمى أشبالِهِ ... حتى ضووا منه لأمنع خِيَسِ[١]
قَسَماً بمَوْشِيِّ البطاحِ وقد غدَتْ ... تختالُ زهواً في ثيابِ عروسِ
والماثلاتِ من الحنايا جُثَّماً ... بالبيدِ من طَسْمٍ وفلِ جديسِ
وخَزَ البلى منها الغواربُ والذُّرى ... فلفتْنَ حذراً بالعيونِ الشوسِ
لبَقَاك حِرزٌ للأنامِ وعصمةٌ ... وحياةُ أرواحٍ لنا ونُفُوسِ
ولأَنْتَ كافلُ دينِنا بحمايةٍ ... لولاكَ ضُيِّعَ عهدُها وتُنوسي
اللهُ أعطاك التي لا فوقَها ... وحباك حظًّا بالموكوس[٢]
تعنو القلوبُ إليك قبلَ وجوهِنا ... سيّان من رأسٍ ومن مرؤسِ
فإذا أقمتَ فإنّ رُعبَك راحلٌ ... يُحْمِي على الأعداءِ كلَّ وطيسِ
وإذا رحلتَ فالسعادةِ آيةٌ ... تقتادُها في موكبٍ وخميسِ
وإذا الأدِلَّةُ في الكمالِ تطابقَتْ ... جاءَتْ بمسموعٍ لها ومقِيسِ
فانْعَمْ بملكِكَ دولةً عاديَّةً ... تُشْقي الأعادي بالعذابِ البيسِ[٣]
وإلَيْكَهَا مِنّي على خجلٍ بها ... عذراءَ قد حَلِيَتْ بكلِّ نفيسِ
عُذْرَاك قَدْ طمسَ الشبابُ ونورُهُ ... وأضاءَ صبحُ الشَّيْبِ عند طَموسِ
لولا عنايتُك التي أوليتني ... ما كنتُ أُعني بعدها بطُروسِ[٤]
واللهِ ما أبقَتْ ممارسةُ النّوى ... منّي سوى رسمٍ أمرّ دريسِ[٥]
أَخنى الزمانُ عليَّ في الأدبِ الذي ... دارستُه بمجامعٍ ودروسِ
فسطا على فرعي[٦] وروّع مأمني ... واجتثَّ من دوحِ النشاطِ غُروسي
ورِضاكَ رحمتي التي أعتدُّها ... تحيي مُنى نفسي وتُذْهِبُ بوسي

ثم كثرت سعاية البطانة بكل نوع من أنواع السعايات ، وابن عَرَفَة يزيد في إغرائهم متى اجتمعوا إليه ، إلى أن أغروا السلطان بسفري معه ، ولقّنوا النائب بتونس القائد

(١) الخيس : ج الخيسة : موضع الأسد .
(٢) الموكوس : (مص) مكس . المنقوص .
(٣) أي بالعذاب القوي .
(٤) الطروس : الصحيفة عموماً . الصحيفة التي محيت ثم كتبت (وهنا يعني الكتب) .
(٥) وفي نسخة ثانية : سوى حرس أحمّ وريس . والمرس : الحبل والأحم : الاسود والدريس : الخلق .
(٦) وفي نسخة ثانية : فسطا على وفري .

فارح من موالي السلطان أن يتفادى من مقامي معه خشية على أمره مني بزعمه ، وتواطؤا على أن يشهد ابن عَرَفَة بذلك للسلطان حتى شهد به في غيلة مني ونكر السلطان عليهم ذلك ، ثم بعث إليّ وأمرني بالسفر معه ، فسارعت إلى الامتثال ، وقد شق ذلك عليّ ، إلاّ أني لم أجد مَحِيصاً ، فخرجت معه وانتهيت إلى تبسة ، وسط وطن تلول أفريقية ، وكان منحدراً في عسكره وتوابعه من العرب إلى تَوْزَر لأنّ ابن يملول أجلب عليها سنة ثلاث وثمانين وسبعمائة واستنقذها من يد إبنه ، فسار السلطان إليه ، وشرّده عنها ، وأعاد إليها ابنه وأولياءه . ولما نهض من تبسة رجّعني إلى تونس فأقمت بضيعة الرياحين من نواحيها لضمّ زراعتي[1] بها الى أن قفل السلطان ظافراً منصوراً فصحبته إلى تونس .

ولما كان شهرُ شعبان من سنة أربع وثمانين وسبعمائة أجمع السلطان الحركة إلى الزاب بما كان صاحبه ابن مَزْني قد آوى ابن يملول إليه ومهّد له في جواره ، فخشيت أن يعود في شأني ما كان في السنة قبلها ، وكان بالمرسى سفينة لتجّار الإسكندرية قد شحنها التجّار بأمتعتهم وعروضهم ، وهي مقلعة إلى الإسكندرية فتطارحت على السلطان ، وتوسّلت إليه في تخلية سبيلي لقضاء فرضي ، فأذِنَ لي في ذلك ، وخرجت إلى المرسى والناس متسايلون على أثري من أعيان الدولة والبلد وطلبة العلم . فودّعتهم وركبت البحر منتصف شعبان من السنة ، وقوّضت عنهم بحيث كانت الخيرة من الله سبحانه ، وتفرّغت لتجديد ما كان عندي من آثار العلم ، والله وليّ الأمور سبحانه .

* (الرحلة الى المشرق وولاية القضاء بمصر) *

ولما رحلت من تونس منتصف شعبان من سنة أربع وثمانين وسبعمائة أقمنا في البحر نحواً من أربعين ليلة ، ثم وافينا مرسى الإسكندرية يوم الفطر ، ولعشر ليالٍ من جلوس الملك الظاهر على التخت ، واقتعاد كرسي الملك دون أهله بني قلاوون ، وكنا على ترقّب ذلك ، لما كان يؤثر بقاصية البلاد من سموّه لذلك ، وتمهيده له . وأقمت بالإسكندرية شهراً لتهيئة أسباب الحج ولم يقدّر عامئذٍ ، فانتقلت إلى القاهرة أوّل ذي

(١) وفي نسخة ثانية : لضم زروعي .

العقدة فرأيت حاضرة الدنيا وبستان العالم ، ومحشر الأمم ، ومدرج الذر من البشر ، وإيوان الإسلام وكرسي المُلْك ، تلوح القصور والأواوين في جوّه ، وتزهر الخوانق والمدارس والكواكب بآفاقه ، وتضيء البدور والكواكب من علمائه ، قد مَثَلَ بشاطيء النيل نهر الجنّة ومدفع مياه السماء . يسقيهم العَلَلَ والنّهلَ سيحُه ، ويجني إليهم الثمرات والخيرات ثجّه[1] ومررتُ في سكك المدينة تغصّ بزحام المارة ، وأسواقها تزخر بالنعم . وما زلنا نتحدّث بهذا البلد وبُعْدِ مداه في العمران ، واتساع الأحوال ، ولقد اختلفت عباراتُ من لقيناه من شيوخِنا وأصحابِنا حاجّهم وتاجرهم في الحديث عنه ، سألت صاحبنا كبير الجماعة بفاس وكبير العلماء بالمغرب أبا عبدالله المَقْري مقدمه من الحج سنة أربعين وسبعمائة فقلت له : كيف هذه القاهرة ؟ فقال : من لم يرها لم يعرف عزّ الإسلام .

وسألت شيخنا أبا العباس بن إدريس كبير العلماء ببجاية مثل ذلك فقال : كأنما انطلق أهله من السحاب[2] يشير إلى كثرة أممه وأمنهم العواقب .

وحضر صاحبنا قاضي العسكر بفاس الفقيه الكاتب أبو القاسم البُرْجِي بمجلس السلطان أبي عنان ، منصرفه من السفارة عنه إلى ملوك مصر وتأدية رسالته النبويّة[3] إلى الضريح الكريم سنة ست وخمسين وسبعمائة فسألته عن القاهرة فقال .

أقول في العبارة عنها على سبيل الاختصار : إنّ الذي يتخيّله الإنسان فإنّما يراه دون الصورة التي تخيّلها الاتساع الخيال عن كل محسوس ، إلا القاهرة ، فإنها أوسع من كل ما يتخيّل فيها . فأعجب السلطان والحاضرون لذلك .

ولما دخلتها أقمت أياماً وانثال عليّ طلبة العلم بها يلتمسون الإفادة مع قلّة البضاعة ، ولم يوسعوني عُذْراً ، فجلست للتدريس بالجامع الأزهر منها .

ثم كان الاتصال بالسلطان فأبرّ مقامي وآنس الغربة ، ووفّر الجراية من صدقاته شأنه

---

(١) الثج : الصب الكثير .

(٢) وفي نسخة ثانية الحساب وهي الأصح وبذلك يقول المقريزي في خططه : «قال شيخنا الاستاذ أبو زيد عبد الرحمن بن خلدون رحمه الله تعالى : أهل مصر كأنما فرغوا من الحساب» الخطط ٧٩/١ طبع مصر ١٣٢٤ هـ .

(٣) الرسالة النبوية اعتادوا كتابتها في مناسبات عديدة . كان يبعثون بها الى قبر الرسول (صلعم) بواسطة رسول خاص الى الروضة الشريفة حيث تقرأ قرب القبر النبوي الكريم وفي نفح الطيب أمثلة عديدة لهذه الرسائل .

مع أهل العلم ، وانتظرت لحاق أهلي وولدي من تونس ، وقد صدّهم السلطان هنالك عن السفر اغتباطاً بعودي إليه فطلبت من السلطان صاحب مصر الشفاعة إليه لتخلية سبيلهم ، فخاطبه في ذلك بمانصّه(١) .

بسم الله الرحمن الرحيم(٢) .
عبدالله ووليُّه أخوه برقوق(٣) [......](٤) .
السلطان الأعظم ، المالك الملك الظاهر ، السَّيد الأجلّ ، العالم العادل ، المؤيَّد المجاهد ، المُرابط المُثاغِر ، المظفَّر ، الشَّاهِنشاه ، سيف الدُّنيا والدين ، سُلطان الإسلام والمسْلمين ، مُحْـيي العدل في العالمين ، مُنصف المظلومين من الظالمين ، وارث المُلك ، سلطان العرب والعجم والترك ، اسْكَندَر الزّمان ، مولي الإحسان ، مُـمَـلِّك أصحاب التخوت والأَسِرَّة والتِّيجان ، واهب الأقاليم والأقطار ، مبيد الطُّغاة والبُغاة والكفَّار ، مَلك البَحْـرَين ، مُسْلِك سبيل القبْلتَين ، خادم الحَرمين الشَّريفين ، ظلّ الله في أَرضه ، القائم بسُنَّته وفَرضه ، سلطان البَسيطة مُؤَمِّن الأرض المُحيطَة ، سيِّد المُلوك والسلاطين ، قَسِيمُ(٥) أَمير المؤمنين(٦) ، أبو سعيد بَـرْقُوق ابن الشَّهيد شرف الدنيا والدين أبي المعالي أنس(٧) . خلّـدَ الله سلطانَه ، ونصر

---

(١) سقط نص هذه الرسالة في أكثر النسخ . وقد اضفنا من نسخة بولاق المصرية طبعة دار الكتاب اللبناني حتى لا يفوتنا شيء من هذا الكتاب .
(٢) حافظت في هذه الرسالة على الطريقة الرسمية التي كانت متبعة في ذلك العهد ، والتي يقول عنها القلقشندي في صبح الاعشى (٣٧٨/٧) ، في رسم المكاتبة الى صاحب فاس ، وغيره من ملوك المغرب :
« ... وهو أن يكتب بعد البسملة ، بحيث يكون تحتها سواء ، في الجانب الايمن من غير أول السطر مسامتا للبسملة ، وهي : السلطان الاعظم الخ » .
(٣) في خطط المقريزي ٢١١/٢ بولاق : « واما البريد ، وخلاص الحقوق والظلامات ، فانه (السلطان) يكتب ايضا اسمه ، وربما كرم المكتوب اليه ، فكتب اليه : « أخوه فلان ، او والده فلان ، وأخوه » .
(٤) هذا البياض هو بيت العلامة ، وكانت علامة الناصر محمد بن قلاوون : « الله أملي » ، وعمل ذلك الملوك بعده . خطط المقريزي ٢١١/٢ بولاق ، والاستقصا ٧٢/٢ ، صبح الاعشى ٣٧٨/٧ .
(٥) القسيم بمعنى القاسم ؛ والمراد أنه قاسم أمير المؤمنين الملك ، وساهمه في الأمر ، فصارا فيه مشتركين . صبح الأعشى ٦٥/٧ ، ١١٣ .
(٦) هو المتوكل على الله ، ابو عبدالله محمد بن المعصد الخليفة العباسي . ولي سنة ٧٦٣ هـ وامتدت ايامه ٤٥ سنة ، حبس فيها وخلع ؛ ومات سنة ٨٠٨هـ . « تاريخ الخلفاء » ص ٢٠٢ ، ٢٠٣ .
(٧) كذا ، وهو سيف الدين انز الجركسي العثماني سنة ٧٨٣ هـ .

جيوشَه وأعوانه ــ يخص الحَضْرة السَّنِية السَّرية ، المظفَّرة الميَمونة ، المنصورة المصونة ، حضرة السلطان العالم ، العادل المؤيَّد ، المُجاهد الأوحد ، أبي العبَّاس ، ذُخر الإسلام والمسلمين ، عُدَّة الدنيا والدين ، قُدوة المُوحِّدين ، ناصر الغُزاة والمُجاهدين ، سيف جماعة الشاكرين ، صلاحُ الدُّول . لا زالت مملكته بقُوَّته عامرة ، ومهابتُه لنفوس الجبابرة قاهرة ، ومَعْدَلَته تُبَوِّئه غُرُفات العز في الدنيا والاخرة . سلامٌ صفا وِردُه وضفا بردُه ، وثناءٌ فاح نَدُّه ، ولاح سعده ، وَوِداد زاد وَجده ، وجاد جَدُّه .

امَّا بعدِ حمد الله الذي جعل القلوب أجناداً مجنَّدة ، وأسباب الوداد على البِعاد مؤكّدة ، ووسائل المحبّة بين الملوك في كلّ يوم مجدّدة ؛ والصلاة والسلام على سيّدنا ومولانا محمدٍ عبدِه ورسوله ، الذي نصره الله بالرُّعب مسيرة شهر وأيَّده[1] وأعلى به منار الدين وشيَّده ؛ وعلى آله وأصحابه الذين اقتفَوا طريقه وسؤدُدَه ، صلاة دائمة مؤبدَّة . فإننا نوضِّحُ لعِلمه الكريم ، أَن الله ــ وله الحمد ــ جعل جبِلَّتنا الشريفة مجبولة على تعظيم العِلم الشريف وأهله ، ورفعة شأنه ، ونشر إعلامه ، ومحبَّة أهله وخُدَّامه ، وتيسير مقاصدهم ، وتحقيق أملهم ، والإحسان إليهم ، والتقرّب إلى الله بذلك في السِّر والعَلانية ؛ فإن العلماء رضي الله عنهم وَرَثَة الأنبياء وَقُرَّة عين الأولياء ، وهُداة خَلْق الله في أرضه ؛ لا سيّما من رزَقه الله الدّراية فيما عَلِمه من ذلك ، وهداه للدخول إليه من أحسن المسالك ، مثلُ مَن سطَّرنا هذه المكاتبة بسببه : المجلس[2] السامي ، الشَّيخي ، الأَجلّي ، الكبيري ، العالمي ، الفاضلي ، الأثيلي ، الأثيري ، الإمامي ، العلاَّمي القُدوة ، المُقتدي ، الفريدي ، المحقِّقي ، الأصيلي ، الأوحدي ، الماجدي ، الوَلَوي[3] ، جمال الإسلام والمسلمين ، جمال العلماء في العالَمين ، أوحد الفضلاء ، قدْوَة البُلغاء ، علاَمة الأمّة ، إمام الأئـمّة ، مُفيد

(١) يشير الى حديث الصحيحين : « نصرت بالرعب مسيرة شهر » . (كنوز الحقائق) للمناوي .

(٢) هذا النوع من الحلى والألقاب الخاصة بأرباب الوظائف الدينية ، يأتي في المرتبة الثالثة ، فالأولى : درجة « المقر » ؛ والثانية : درجة « الجناب » ، والثالثة : درجة « المجلس » ؛ ولكل من الدرجات فروع ؛ و « المجلس السامي » احد فروع درجة « المجلس » . وانظر تفصيل القول عن هذه الاستعمالات في صبح الاعشى ١٥/٧ ، ١٥٤ ــ ١٥٩ .

(٣) هذه النسبة الى « ولي الدين » .

الطالبين ، خالِصه الملوك والسلاطين[1] عبد الرحمن بن خلدون المالكي . أَدام الله نعمته ؛ فانه أَولى بالاكرام ، وأَحرى ، وأَحقُّ بالرعاية وأَجلُّ قدراً ؛ وقد هاجر إلى ممالكنا الشريفة ، وآثر الإقامة عندنا بالديار المصرية ، لا رَغبة عن بلاده ، بل تحبباً إلينا ، وتقرُّباً إلى خواطرنا ، بالجواهر النفيسة ، من ذاته الحسنة ، وصِفاته الجميلة ؛ ووجدنا منه فوق ما في النفوس ، مما يَجِلُّ عن الوصف ويُربي على التعداد . يا له من غريبِ وَصْفٍ ودار ، قد أتى عنكم بكل غريب ؛ وما برح — من حين ورد علينا — يُبالغ في شكرِ الحَضرة العَليَّة ، ومدح صفاتها الجميلة ، إلى أن استمال خواطرنا الشريفة إلى حُبِّها ، وآثرنا المُكاتبة إليها .

« والعين تعشق قبل الأذن أحياناً »[2]

وذكر لنا في أثناء ذلك ، أهله وأولاده ، في مملكة تونس تحت نظر الحضرة العليّة ، وقصد إحضارهم إليه ليقيموا عنده ، ويجتمع شمله بهم مدةَ إقامته عندنا ، فاقتضت آراؤنا الشريفة ، الكتابة إلى الحضرة العليّة لهذين السببين الجميلين ؛ وقد آثرنا إعلام الحضرة العليّة بذلك ، ليكون على خاطره الكريم ، والقصد من محبته ، يُقدِّمُ أمرَه العالي بطلب أهل الشيخ وَليٍّ الدين المشار إليه ، وإزاحة أعذارهم ، وإزالةَ عوائقهم ، والوصيَّة بهم ، وتجهيزهم إليه مُكرَّمين ، محترمين ، على أجمل الوجوه صُحبة قاصِده الشيخ الصالح ، العارف السالك الأوحد ، سعد الدين مسعود المكْناسي ، الواصل بهذه المكاتبة اعزه الله ؛ ويكون تجهيزُهم على مركب من مراكب الحضرة للعلية ، مع تَوصيةَ من بها من البحرية بمضاعفة إكرام المشار إليهم وَرعايتهم ، والتَّأكيدِ عليهم في هذا المعنى ، وإذا وصَل مَن بها من البحرية ، كان لهم الأمنُ والإحسان فوق ما في أنفُسهم ، ويُرْبي على أملِهم ؛ بحيثُ يَهتَمُّ بذلك على ما عُهِد من محبَّتِه ، وجميل اعتمادِه ، مع ما يُتحفُ به من مراسلاته ، ومقاصده ومكاتَباتِه . والله تعالى يَحرُسُه بملائكته وآياته ، بِمَنّـِه ويُمْنِه إن شاء الله .

---

(١) اصطلحوا على أن يلحقوا ياء النسب بآخر الالقاب المفردة للمبالغة في التعظيم ، ثم جعلوا النسبة الى نفس صاحب اللقب أرفع رتبة من النسبة الى شيء خارج عنه . ومن هنا كان « الاجلي » و « القاضوي » ارفع رتبة من « الجلالي » ، و « القضائي » . صبح الاعشى ٧٨/٦ ، ١٠٠ . ثم ان لهذه الالقاب دلالات متعارفة خاصة . تولى تحديدها القلقشندي في صبح الاعشى ٢٠/٧ ، ٧٣ .

(٢) عجز بيت لبشار بن برد ؛ وصدره — كما في الأغاني ١٩/٣ بولاق :
يا قوم أذني لبعض الحي عاشقة   والاذن ...... »

كُتِب خامسَ عشر صَفر المبارك من سنة ستّ وثمانين وسَبعمائة حَسب المرسوم الشريف . الحمد لله وصلواته على سيّدنا محمَّد وآله وصَحبه وسلّم .

ثم هلك بعضُ المدرِّسين بمدرسة القَمْحية[1] بمصر ، من وَقْف صلاح الدِّين بن أيُّوب ، فولاَّني تدريسها مكانَه[2] ، وبَينا أنا في ذلك ، إذ سَخِط السلطانُ قاضي المالكية[3] في دولته ، لبَعض النَّزَعات فعزله ، وهو رابعُ أربعة بعدد المذاهب ، يُدعى كلُّ منهم قاضي القُضاة ، تمييزاً عن الحُكَّام بالنِّيابة عنهم ، لاتِّساع خُطَّة هذا المعْمور ، وكَثرة عوالمه ، وما يرتفعُ من الخصومات في جوانبه ؛ وكبيرُ جماعتهم قاضي الشَّافعية ، لِعُموم ولايته في الأعمال شرقاً وغربا ، وبالصَّعيد[4] والفيوم[5] ، واستقلالِه بالنَّظر في أموال اليتامى والوصايا ، ولقد يقال بأنّ مباشرة السلطان قديماً بالولاية إنّما كانت تكون له .

فلما عزل هذا القاضي المالكيّ سنة ست وثمانين وسبعمائة اختصّني السلطان بهذه الولاية تأهيلاً لمكاني وتنويهاً بذكري وشافهته بالتفادي من ذلك ، فأبى إلاّ إمضاءَه وخلع عليّ بإيوانه وبعث من كبار الخاصّة من أقعدني بمجلس الحكم بالمدرسة الصالحية بين القصرين ، فقمت بما دفع إليّ من ذلك المقام المحمود ووفّيت جهدي بما آمنني عليه من أحكام الله ، لا تأخذني في الله لومة ، ولا يرغبني عنه جاه ولا سطوة مسوّياً بين الخصمين ، آخذاً بحقِّ الضعيف من الحكمين ، مُعْرِضا عن الشفاعات والوسائل من الجانبين جانحاً إلى التثبّت في سماع البينات ، والنظر في عدالة المنتصبين لتحمّل

(١) كان موقع القمحية بجوار العتيق (جامع عمرو) بمصر ، وكان موضعها يعرف بدار الغزل ؛ وهو قيسارية كان يباع فيها الغزل ، فهدمها صلاح الدين ، وأنشأ موضعها مدرسة للفقهاء المالكية ، ورتب فيها مدرسين ، وجعل لها أوقافاً كانت ضيعة بالفيوم تغل قمحاً كان مدرسوها يتقاسمونه ، ولذلك صارت لا تعرف الا بالمدرسة القمحية . خطط المقريزي ٣٦٤/٢ بولاق .

(٢) في السلوك في حوادث سنة ٧٨٦ :

« وفي ٢٥ محرم ، درّس شيخنا أبو زيد عبد الرحمن بن خلدون ، بالمدرسة القمحية بمصر ، عوضاً عن علم الدين سليمان البساطي بعد موته ، وحضر معه الأمير الطنبغا الجوباني ، والأمير يونس الدوادار ، وقضاة القضاة والأعيان » .

(٣) هو جمال الدين عبد الرحمن بن سليمان بن خير المالكي (٧٢١ — ٧٩١) .

(٤) كان القدماء يعتبرون مبدأ الصعيد الشمالي من قرب القاهرة ، ويمتد على ضفتي الوادي جنوباً حتى يصل الى أسوان الذي كان عندهم نهاية الصعيد الجنوبية ؛ وفيما بين أسوان ، واخميم ، كان الصعيد الأعلى ؛ ومن اخميم الى مدينة البهنسا الواقعة على الضفة الغربية لوادي النيل ، كان يسمى الصعيد الأوسط ؛ أما الصعيد الأدنى فكانت بدايته البهنسا ، ونهايته في الشمال ، قرب الفسطاط . ياقوت معجم البلدان .

(٥) تقع الفيوم المدينة المعروفة ، في الجنوب الشرقي لبحيرة قارون ، في الغرب من وادي النيل .

الشهادات ، فقد كان البرّ منهم مختلطاً بالفاجر ، والطيّب ملتبساً بالخبيث ، والحكّام ممسكون عن انتقادهم ، متجاوزون عما يظهر عليهم من هناتهم ، لما يموّهون به من الاعتصام بأهل الشوكة فإن غالبهم مختلطون بالأمراء ، معلمون للقرآن ، وأئمة في الصلوات ، يلبسون عليهم بالعدالة ، فيظنّون بهم الخير ويقسمون الحظ من الجاه في تزكيتهم عند القضاء ، والتوسّل لهم ، فأعضل داؤهم ، وفشت المفاسد بالتزوير والتدليس بين الناس منهم ، ووقفتُ على بعضِها فعاقبت فيه بموجع العِقَاب ، ومؤلم النِكال وتأدّى لعلمي الجرح في طائفة منهم ، فمنعتهم من تحمّل الشهادة ، وكان منهم كتاب الدواوين للقضاة والتوقيع في مجالسهم ، وتدرّبوا على إملاء الدعاوي وتسجيل الحكومات[١] ، واستخدموا للأمراء فيما يعرض لهم من العقود بإحكام كتابتها ، وتوثيق شروطها ، فصار لهم بذلك شفوف[٢] على أهل طبقتهم ، وتمويهٌ على القضاة بجاههم يدّرعون[٣] به مما يتوقعونه من مغبتهم ، لتعرّضهم لذلك بفعلاتهم ، وقد يسلّط بعضُ قَلَمَهُ ، على العقود المُحْكَمَة فيُوجِدُ السبيلَ إلى حلّها بوجه فِقْهِيّ أو كتابيّ ، ويبادر إلى ذلك متى دعا إليه داعي جاه أو منحة ، وخصوصاً في الأوقاف التي جاوزت حدود النهاية في هذا المصر لكثرة عوالمه ، فأصبحت خافية الشهرة مجهولة الأعيان ، عرضةً للبُطلان ، باختلاف المذاهب المنصوبة للأحكام بالبلد ، فمن اختار فيها بيعاً أو تمليكاً ، شارطوه وأجابوه مفتاتين فيه على الحكّام الذين ضربوا فيه سدّ الحظر والمنع حمايةً عن التّلاعب ، وفشا من ذلك الضرر في الأوقاف ، وطرق الغرر[٤] في العقود والأملاك .

فعاملتُ الله في حسم ذلك بما آسفهم عليّ وأحقدهم ، ثم التفت إلى أهل الفتيا بالمذهب ، وكان الحكّام منهم على جانب الحيرة لكثرة معارضتهم ، وتلقينهم الخصوم وفتياهم بعد نفوذ الحكم ، وإذا فيهم أصاغر ، فبينما هم يتشبثون بأذيال الطلب والعدالة ، ولا يكادون إذا بهم ظهروا إلى مراتب الفتيا والتدريس ، فاقتعدوها وتناولوها بالجزاف ، وأجازوها من غير مرتّب[٥] ولا مستند للأهلية ، ولا مرشح ، اذ

(١) اي الأحكام .

(٢) الشفوف : الفضل .

(٣) أي يحتمون به .

(٤) هنا بمعنى الخداع .

(٥) وفي نسخة ثانية : فاحتازوها من غير مترّب . والمترّب : اللائم .

الكثرة فيهم بالغة ، ومن كثرة الساكن مشتقّة ، وقلم الفتيا في هذا المصر طلق ، وعنانها مُرْسَلَ ، يتجاذب كل الخصوم منها رَسَناً ، ويتناول من حافته شِقّاً ، يروم به الفتح (١) على خصمه ، ويستظهر به لإرغامه ، فيعطيه المُفتي من ذلك ملءَ رضاه ، وكَفاءَ أمنيته متتبعاً إيّاه في شغب الخلاف ، فتتعارض الفتاوى وتتناقض ، ويَعْظَمُ الشغبُ إن وقعت بعد نفوذ الحكم ، والخلاف في المذاهب كثير ، والإنصاف متعذّر وأهلية المفتي وشهرة الإفتاء عندنا (٢) ، فلا يكاد هذا المدى ينحسم (٣) ولا الشغب ينقطع .

فصدعتُ في ذلك بالحق وكبحتُ أعنّة أهل الهوى والجَهْل ، ورددتهم على أعقابهم . وكان فيهم ملتقطون سقطوا من المغرب يشعوذون بمفترقٍ من اصطلاحات العلوم هنا وهناك ، ولا ينتمون إلى شيخ معروف مشهود ، ولا يعرف لهم كتاب في فنّ اتخذوا الناس هُزُواً وعقدوا المجالس مثلبةً للأعراض ومثابة (٤) للحرم ، فأرغمهم ذلك مني وملأهم حسداً ، وحقدوا عليّ ، وخلوا إلى أهل جلدتهم من سكان الزوايا المنتحلين للعبادة ، ليشترون بها الجاه ، ويجترؤا به على الله ، وربّما اضطرّ أهل الحقوق إلى تحكيمهم ، فيحكمون بما يُلقي الشيطان على ألسنتهم ، يترخّصون به الإصلاح ، لا يَزَعُهم الدين عن التعرّض لأحكام الله بالجهل ، فقطعت الحبل في أيديهم ، وأمضيتُ حكم الله فيمن أجازوه ، فلم يغنوا عن الله شيئاً وأصبحت زواياهم مهجورة ، وبئرهم التي يمتاحون منها معطّلة ، وانطلقوا يواطئون السفهاء من النيل في عرضي ، وسوء الاحدوثة عني بمختلق الافك وقول الزور ، ويبثّونه في الناس ويدسّون إلى السلطان التظلّم مني ، فلا يصغي إليهم ، وأَنا في ذلك مُحْتَسِبٌ على الله ، ما منيت به في هذا الأمر ، ومُعْرِضٌ فيه عن الجاهلين ، وماضٍ على سبيل سويّ من الصرامة وقوّة الشكيمة ، وتحرّي العدَالة ، وخلاص الحقوق ، والتنكب عن خطة الباطل متى دُعِيتُ إليها ، وصلابةِ العود عن الجاه والإعراض متى غمزني لامِسُها ولم يكن ذلك شأن من رافقته من القضاة فنكروه مني ودعوني إلى متابعتهم فيما

(١) وفي نسخة ثانية : الفُلج ومعناه الظفر والفوز.

(٢) بياض بالأصل وفي طبعة بولاق : وشهرة الفتيا ليس تمييزها للعاميّ .

(٣) وفي نسخة ثانية : فلا يكاد هذا المدد ينحسر.

(٤) وفي نسخة ثانية : مأبنه : وهو مكان الاتهام بالشر.

يصطلحون عليه من مرضاة الأكابر ومراعاة الأعيان ، والقضاء للجاه بالصور الظاهرة ، أو دفع الخصوم إذا تعذّرت ، بناءً على أن الحاكم لا يتعيّن عليه الحكم مع وجود غيره ، وهم يعلمون أن قد تمالؤوا عليه .
وليتَ شعري ما عذرهم في الصور الظاهرة إذا علموا خلافها ، والنبيُّ صلّى الله عليه وسلم يقول : «من قضيتُ له من حقِّ أخيه شيئاً فإنَّما أقضي له من النار» .

فأبيتُ من ذلك كلّه إلا إعطاء العهدة حقّها ، والوفاء لها ، ولمن قلّدنيها ، فأصبح الجميع عليّ ألبا[1] ولمن ينادي بالتأفّف مني عوناً ، وفي النكير عليّ أمّة ، وأسمعوا الشهود الممنوعين أن قد قضيت فيهم بغير وجه الحق ، لاعتمادي على عِلْمي في الجَرْح ، وهي قضية إجماع . وانطلقَتِ الألسنُ ، وارتفع الصخبُ وأرادني بعضٌ على الحكم بغرضهم ، فتوقفت وأغروا بي الخصوم ، فتنادوا بالتظلّم عند السلطان ، فجمع القضاة وأهل الفتياء في مجلس جُعِلَ للنظرِ في ذلك ، فخلصت تلك الحكومة من الباطل خلوص الإبريز ، وتبيّن أمرهم للسلطان ، وأمضيت فيها حكم الله تعالى إرغاماً لهم ، فغدوا على حَرَد قادرين ، ودسّوا الأولياء السلطان وعظماء الدولة ، يقبحون لهم إهمال جاههم وردّ شفاعاتهم ، مموّهين بأنّ الحامل على ذلك جهل المصطلح ، وينفقون هذا الباطل بعظائم ينسبونها إليّ ، تبعث الحليم وتغري الرشيد ، يستثيرون حفائظهم عليّ ويشربونهم البغضاء إليّ ، والله يجازيهم وسائلهم .
فكثر الشغب عليّ من كل جانب ، وأظلم الجوّ بيني وبين أهل الدولة ، ووافق ذلك مصابي بالأهل والولد ، وصلوا من المغرب في السفين فأصابها قاصف من الريح فغرقت ، وذهب الموجود والسكن والمولود ، فعظم المصاب والجزع ، ورجح الزُهْدُ ، واعتزمتُ على الخروج عن المنصب ، فلم يوافقني عليه النصيح ممن استشرته خشية من نكير السلطان وسخطه ، فتوقّفت بين الوِرْدَ والصَدْر على صراط الرجاء واليأس ، وعن قريب تداركني اللطف الربّاني وشملتني نعمة السلطان أيّده الله في النظر بعين الرحمة ، وتخلية سبيلي من هذه العهدة التي لم أطق حملها ، ولا عرفت كما زعموا مصطلحها ، فردّها إلى صاحبها الأوّل ، وأنشطني من عقالها ، فانطلقت حميد

(١) اي يحيكون المكائد له دون علمه .

الأثر مشيّعاً من الكافة بالأسد والدّعاء، وحميد الثّناء. تلحظني العيون بالرحمة وتتناجى الآمال فيّ بالعودة. ورَتَعْتُ فيما كنت راتعاً فيه قبل من مراعي نعمته وظلّ رضاه وعنايته بالعافية التي سألها رسول الله صلى الله عليه وسلم من ربّه. عاكفاً على تدريس علم أو قراءة كتاب أو إعمال قلم في تدوين أو تأليف. مؤمّلاً من الله قطع صبابة العمر[1] في العبادة. ومحو عائق السعادة. بفضل الله ونعمته.

* (السفر لقضاء الحج) *

ثم مكثت بعد العزل ثلاث سنين. واعتزمت على قضاء الفريضة. فودّعت السلطان والأمراء وزودوا وأعانوا فوق الكفاية. وخرجت من القاهرة منتصف رمضان سنة تسع وثمانين وسبعمائة إلى مرسي الطور[2] بالجانب الغربي من بحر السويس، وركبت البحر من هنالك عاشر الفطر، ووصلنا إلى اليَنْبُع[3] لشهر فوافينا المحمل، ورافقتهم من هنالك إلى مكة، ودخلتها ثاني ذي الحِجّة. فقضيت الفريضة في هذه السنة. ثم عدت إلى الينبع فأقمت بها خمسين ليلة حتى تهيّأ لنا ركوب البحر، ثم سافرنا إلى أن قاربنا مرسى الطور. فاعترضتنا الرياح فما وسعنا إلاّ قطع البحر إلى جانبه الشرقي، ونزلنا بساحل القصير[4] ثم بَذْرَقْنا، ثم سرنا مع أعراب تلك الناحية إلى مدينة قوص[5] قاعدة الصعيد. فأرحنا بها أياماً. ثم ركبنا في بحر النيل إلى مصر، فوصلنا إليها لشهر من سفرنا. ودخلتها في جمادي سنة تسعين وسبعمائة وقضيت حقّ السلطان في لقائه. وإعلامه بما اجتهدت فيه من الدعاء له، فتقبّل ذلك بقبول حسن. وأقمت فيما عهدت من رعايته وظلّ إحسانه.

---

(١) أي بغية العمر.

(٢) الطور: مدينة على الساحل الغربي لشبه جزيرة سيناء (معجم البلدان).

(٣) الينبع: من مدن الجزيرة العربية. تقع على الساحل الشرقي من البحر الأحمر (وما تزال تحتفظ باسمها إلى هذا اليوم) (معجم البلدان).

(٤) القصير: تصغير قصر. وهو مرفأ على الساحل الغربي للبحر الأحمر. تؤمه السفن التجارية من الجزيرة العربية واليمن بينه وبين قصبة الصعيد خمسة أيام (معجم البلدان).

(٥) قوص: مدينة واسعة: كانت قصبة صعيد مصر. وكان أهلها ارباب غنى وثروة واسعة لأنها كانت محط التجار القادمين من عدن. وأكثر تجار عدن من مدينة قوص (معجم البلدان).

وكنت لما نزلت باليَنْبُع لقيت بها الفقيه الأديب المتفنّن أبا القاسم بن محمد بن شيخ الجماعة ، وفارس الأدباء ، ومنفّق سوق البلاغة ، أبي اسحق ابراهيم الساحليّ المعروف جدّه بالطُّوَيْجن وقد قدم حاجاً وفي صحبته كتاب رسالة من صاحبنا الوزير الكبير العالم كاتب سرّ السلطان ابن الأحمر صاحب غرناطة ، الحظيّ لديه أبي عبدالله بن زَمْرَك ، خاطبني فيه بنظم ونثر يتشوّف ويذكّر بعهود الصحبة نصّه :

سلوا البارق النجديَّ على عمل نجدي ... تَبَسَّم فاستبكى جفوني من الوَجْد
أجادَ ربوعي باللّوى ، درك[2] اللّوى ... وسحّ بـه صوبُ الغمائم من بعـدي
ويـا زاجر الأظعـان وهي ضوامرٌ ... دعوها تردْ هيماً عطاشاً على نَجْدِ
ولا تَنَشَّقوا الأنفاسَ منها مع الصّبا ... فإنّ زفيرَ الشوق من مثلها يُعْدِي
براهـا الهوى بَرْيَ القداح وخطَّهـا ... حزون[3] على صفح من القفر ممتدّ
عجبتُ لها أني تُجـاذِبُني الهَوَى ... وما شَوقُها شوقي ولا وجدُها وجدي
لئِنْ شاقَهـا بين العُـذَيْبِ وبـارقٍ ... ميـاهٌ بفيءِ الظـلّ للّبـان والرَّنـد[4]
فما شاقني إلاّ بُـدُورُ خُـدورهـاً ... وقد لُحْنَ يومَ النُّفرِ في قُضُبٍ مُلْد[5]
فكم في قبابِ الحيّ من شمس كلّة ... وفي فَلَكِ الأزْرَار من قَمَر سَعْـدِ
وكم صارمٍ قد سُلَّ من لَحْظِ أحْوَرٍ ... وكمْ ذابل قد هُزّ من ناعمِ القَدِّ
خذوا الحِذْرَ من سكّان رامَةَ إنّها ... ضعيفات كرّ اللحظ تفتك بالأسدِ
سهـامُ جفونٍ من قِسِيّ حواجب ... يصابُ بها قلبُ البريّ على عَمْـد
ورَوْض جمالٍ ضاعَ عَرْفُ نسيمـه ... وما ضاعَ غيرُ الوَرْدِ في صفحة الخدّ
ونرجس لحظ أرسل الدمـع لؤلؤاً ... فرشّ بماءِ الوَرْدِ روضاً من الوَرْدِ
وكم غصنٍ قد عانق الغُصْنَ مثلَهُ ... وكلٌّ على كلٍّ من الشوق يَسْتَعْدي
قبيحٌ وداع قـد جلا لعيوننـا ... محاسِنَ من روضِ الجمال بلا عَـدِّ

---

(١) وفي نسخة ثانية : سلوا البارق النجديّ من علمي نجد .

(٢) وفي نسخة ثانية : بورك .

(٣) وفي نسخة ثانية : حروفا .

(٤) وفي نسخة ثانية : العذيب : ماء لبني تميم . وكذلك بارق . والبان : شجر يسمو ويطول باستقام ، ومنه يستخرج دهن البان . والرند : شجر الغار له رائحة طيبة ويستخرج منه الدهن ايضاً .

(٥) الملد : اللين .

رعى الله ليلى لو عَلِمْتُ طريقَهــــا ... فَرَشْتُ لأخفــاف المطيّ بها خَــدِّي
ومــا شاقني والطيفُ يُرْهِبُ أدْمُعي ... ويَسْبَحُ في بحرٍ من الليــل مُزْبَــدِ
وقــد سُلَّ خفّــاقُ الــذوائِبِ بــارقٌ ... كما سُلّ لمَّــاعُ الصِّقــالِ مــن الغِمْـدِ
وهُزَّت مُحَلاةً يُد الشَّوقِ في الدُّجى ... فحلّ الذي أبرمتُ للصبرِ من عَقْدي
وأقلق خفّـــاقُ الجو انِحِ نَسْمَـــة ... تنمُّ مــعِ الأصبــاح خــافِقَــة البُرْدِ
وهبّ عَليــــلٌ لفَّ طيَّ بُرْودِهِ ... أحاديثَ أهداها إلى الغَورِ من نجد[1]
سِوى صادحٍ في الأيْكِ لم يدر ما الهوى ... ولكن دعا مِنّي الشُجُونَ على وَعْدِ
فهــلْ عنــدَ ليلى نَعَّم الله ليلَهــا ... بــأنَّ جُفُوني مــا تَمَلُّ من السُّهْدِ
وليلةُ إذ وافى الحجيجُ إلى مِنىً[2] ... وَفَت لي المُنَى منها بما شئت من قَصْدِ
فقضيتُ منها فوق ما أحسبُ المُنَى ... وبُرْدُ عفــافٍ صانَــه اللهُ من بُرْدِ
وليس سوى لحظٍ خفيّ نُجيلُــــهُ ... وشكْوى كما أرفضّ الجُمانُ من العقْدِ
غفرتُ لِدَهْري بعدها كُلّ ما جَنَى ... سوى ما جشى[3] وفدُ المشيبِ على فَـوْدي
عَرَفْتُ بهذا الشيبِ فضلَ شبيبتي ... وما زالَ فَضْلُ الضّدّ يُعْرَفُ بالضّدِ
ومــن نــام في ليــلِ الشبابِ ضلالةً ... سيوقظُــهُ صُبْحُ المشيبِ إلى الرُّشْدِ
أما والهَوى ما حُدتُ عن سُنَنِ الهُدَى[4] ... ولا جُرْتُ في طُرُقِ الصَّبابَةِ عن قَصْدِ
تجاوزتُ حدّ العاشقين الأولى مضوا[5] ... وأصبحتُ في دينِ الهوى أمّة وَحْدِي
نسيت ومــا أنسى وفــائي لخلّتي ... وأقفرَ رَبْــع القلب إلاّ من الوجــد
إليك أبــا زَيْــد شكــاةً رفعتُهــا ... وما أنتَ من عمرٍ ولدَيّ ولا زَيْدِ
بعيشك خبّرني ومـــا زلتَ مُفْضِلاً ... أعنْدَكَ من شوقٍ كمثلِ الذي عِنْدي
فكم ثـــارَ بـي شوقٌ إليك مبرِّحٌ ... فظلّت يدُ الأشواقِ تَقْدَحُ من زِنْدي
وصفّق حتى الريحُ في لُمَمِ الرُّبى ... وأشفق حتى الطِّفْلُ في كبد المَـهْدِ
يقــابلني منكَ الصّبَــاحُ بوَجْنَــةٍ ... حكى شفقاً فيه الحياءُ الذي تُبْدِي

(١) هو غور تهامة ما بين ذات عرق في البحر ، وكل ما انحدر سيله مغرّبا عن تهامة فهو غور (معجم البلدان) .
(٢) الحجيج : قاصدين بيت الله للحجّ ، ومنى : موضع في جبل عرفة بجانب مكة .
(٣) وفي نسخة ثانية : ما حنى .
(٤) وفي نسخة ثانية : أما والهوى ما حلت عن سنن الهوى .
(٥) وفي نسخة ثانية :
تجاوزت حـــدَّ العــــاشقين الأُلى قضوا ... والعمـــة في البصيرة كـــالعمى في البصر

وتوهمني الشمسَ المنيرة غُرّةٌ بوَجْهكَ صان اللهَ وجْهَك عن ردِّ
مُحَيَّاكَ أجلى في العيونِ من الضُّحى وذكْرُكَ أحلى في الشِّفاه من الشُّهْدِ
وما أنتَ إلاّ الشمسُ في عُلوِ أُفْقها نفدّيك من قُرْبٍ وتُلْحَظُ من بُعْدِ
وفي غمّةٍ[1] من لا ترى الشّمسَ عينُه وما نفعُ نورِ الشمسِ في الأعينِ الرُّمْدِ
من القوم صانوا المجد صَوْنَ عُيُونهم كما قد أباحُوا المالَ يُنْهَبُ للرُّفْدِ
إذا ازدحموا يوماً على الماء أُسْرَةٌ فما ازدحموا إلاّ على مَوْرِدِ المَجْدِ
ومهما أغاروا منجدينَ صريخَهُم يشبُّون نارَ الحربِ في الغَوْرِ والنَّجْدِ
ولم يقتنوا بَعْدَ الثناءِ[2] ذخيرة سوى الصَّارِمِ المصقولِ والصافنِ النَّهْدِ
ومـا اقتسم الأنفالَ إلاّ مُمَدَّحٌ بلاها بأعرافِ المُطَهَّمةِ الجُرْدِ[3]
أتَنْسى ولا تَنْسَى ليالينا التي خَلَسْنَا بها العينين من جنّة الخلْدِ[4]
ركبنا إلى اللّذات في طَلَقِ الصّبا مطايا الليالي وادِعين إلى حدِّ
فإن لم ندر فيها الكؤوسَ فإنّنا وَرَدْنا بها للأنْسِ مُسْتَعْذَبَ الوِرْدِ
لقيتك[5] في غَرْبٍ وأنت رئيسُهُ وبابُكَ للأعلامِ مجتمعُ الوفْدِ
فآنسْتَ حتى ما شكوتُ بغربةٍ وَوَالَيْتَ حتى لم أجِدْ مضضَ الفقْدِ
وعدتُ لقُطْري شاكراً ما بَلَوْتَهُ من الخُلُقِ المحمودِ والحَسَبِ العِدِّ[6]
إلى أن أجزتَ البَحْرَ يا بحرُ نَحْوَنا وزُرْتَ مزارَ الغيثِ في عقبِ الجَهْدِ
ألذُّ من النُّعمى على حالِ فاقةٍ وأشهى من الوَصْلِ الهنيّ على صَدِّ
ولو ساء أن قوّضتْ رحلك بالنوى وعوِّضتَ منها بالزّميلِ وبالوَخْدِ[7]
لقد سرّني أنْ لُحْتَ في أفقِ العُلا على الطائرِ الميمونِ والطالعِ السَّعْدِ
طَلَعْتَ بأُفُقِ الشّرْقِ نجمَ هدايةٍ فجئتَ مع الأنوارِ فيه على وَعْدِ

(١) وفي نسخة ثانية : وفي عَمَه .
(٢) وفي نسخة ثانية : بعد البناء .
(٣) المطهمة : البارعة الجمال والجرد : القصيرة الشعر .
(٤) وفي نسخة ثانية : خلسن بهنّ العيش في جنة الخلد .
(٥) آتيتك .
(٦) الحسب العدّ : القديم .
(٧) وإن ساءني ان قوّضت رحلك النوى وعوّضت
عنّا بالذّميل وبالوخد
والذميل : السير اللين ، والوخد الإسراع في المشي أو سعة الخطو .

يمينـــاً بمن تَسْري المطيّ سُرَاهُم[1] عليها سهامٌ قد رَمَتْ هدفَ القَصْدِ
إلى بيتــــه كما تزورَ معــــاهــــداً بـأنَّ بها جبريـلُ عن كَرَم العَهْـدِ
لأَنْتَ لنـا مهما دجـاليـلُ مُشْكِـلٍ قـدَحَتْ بـه للنورِ واريـةَ الزُّنْـدِ
وحيث استقلّت في ركـاب لِطيَّــةٍ فأنت تحيي النفس في القُرْبِ والبُعْدِ
وإني ببـاب المُلْك حيث عَهِـدْتني مذيل[2] ظِلال الجاهِ مُسْتحْصَفَ العقْدِ
أُجهِّزُ بـالإنشاءِ كـلّ كتيبـةٍ من الكُتْبِ والكتّابِ في عرضها جُنْدِي
نلوذُ من المولى الإمـام محمّـدٍ بظـلٍ على نهرِ المبرّة مُمْتَـدِّ
إذا فـاضَ من يمينـاه بحرُ سماحـةٍ وعمَّ به الطوفانُ في النَّجْدِ والوَهْدِ
ركبنا إلى الإحسان في سُفُنِ الرَّجَا بُحُورَ عطاءٍ ليس تزجرُّ عن صَدِّ[3]
فَمَنْ مُبْلِـغُ الأنصارَ عني ألوكـةً مُغَلْغَلَةً في الصّدْقِ مُنْجَزَةَ الوَعْدِ
بـآيـةِ مـا أعطى الخليفـة رَبُّـه مفـاتيحُ فتحٍ ساقها سائقُ السَّعْدِ
ودونك من روضِ المحامـدِ نَفْحَـةً تفوقُ إذا اصطفَّ النديّ من النَدِّ
ثنـاءً يقولُ المِسْكُ إن ذاعَ عرفُـه أيـالك من نَـدٍّ أيالك من نِـدِّ[4]
ومـا الماءُ في جوّ السّحـاب مروّقـاً بـأظهرِ ذاتٍ منك في كُنُفِ المَهْدِ
فكيفَ وقد حلَّتْك أسرابَها الجلا[5] وبـاهَتْ بك الأعلامَ بـالعَلم الفَرْدِ
وما الطَلّ[6] في ثغرِ من الزَّهر باسمٍ بأصفى وأذكى من ثنائي ومن وُدّي
ولا البَـدْرُ معصومـاً بتـاجِ تمامِـهِ بأبْـهَرَ من وُدّي وأسْيَرَ من حَمْدِي
بقيتَ ابن خلـدونٍ إمـامَ هـدايـةٍ ولا زِلْتَ من دُنْيَاكَ في جنّةِ الخُلْدِ

ووصلها بقوله : سيّدي شيخ الأعلام ، كنز رؤساء الإسلام ، مشرّف حَمَلَة السّيوف والأقلام ، جمال الخواصّ والظهراء ، أثير الدول ، خالصة الملوك ، مجتبى الخلفاء ، سرّ العلاء[7] أوحَد الفُضَلاَء ، قدوة العلماء ، حجّة البلغاء ، أبقاكم الله

(١) وفي نسخة ثانية : سواهماً : وهي ج ساهمة وهي الناقة الضامرة .
(٢) وفي نسخة ثانية : مديد ، والمستصحف : المستحكمْ .
(٣) وفي نسخة ثانية : تجزر عن قدِّ .
(٤) الند الاولى : الطيب والند الثانية : القرين ، المثل .
(٥) وفي نسخة ثانية : الحُلى .
(٦) الطلّ : الندى .
(٧) وفي نسخة ثانية : نيّر أفق العَلاَء .

بقاءً جميلاً ، يعقِدُ لواءَ الفخر ، ويعلي منار الفضل ، ويرفع عماد المجد ، ويوضح معالم السيادة[١] ، ويرسل أشعّة السعادة ، ويفيض أنوار الهداية ، ويطلق ألسنة المحامد ، وينير[٢] أفق المعارف ، ويُعْذِبُ موردَ العناية ، ويُمْتِعُ بعمر النهاية ولا نهاية .

بآي التحيات أفاتحك وقدرك أعلى ، ومَطْلعَ فضلك أوضح وأجلى ، إن قلتُ تحية كسرى في الثناء وتبّع ، فأثرك لا يقتفى ولا يتبع ، تلك تحية عجماء لا تبينُ ولا تُبين ، وزمزمةٌ نافرَها اللسانُ العربيُّ المبين ، وهذه جهالةُ جهلاء ، لا ينطبق على حروفها الاستعلاء ، قد محا رسومها الخفاء ، وعلى آثار دمنتها العفاء ، وإن كانت التحيّتان طالما أوجف بهما الركاب وقعقع البريد ، ولكن أين يقعان مما أريد .

تحيّة الإسلام أصلُ في الفخر نسباً . وأوْصَلُ بالشرع سبباً ، فالأولى أن نحيّيك بما حيّا الله في كتابه رسله وأنبياءه ، وحيّت به ملائكته في جواره أولياءه ، فأقول :

السلام عليكم يُرْسِلُ من رحمة الله غماماً ويفتق من الطُّروس عن أزهار المحامد كماماً ، ويستصحب من البركات ما يكون على التي هي أحسن من ذلك مقاماً ، وأجدّد السؤال عن الحال الحالية بالعلم والدين المستمدّة من أنوارها سرج المهتدين . زادها الله صلاحاً وعرفها نجاحاً يتبع فلاحاً ، وأقرّر ما عندي من تعظيم ارتقي كل آونة شُرَفَه ، واعتقادٍ جميلٍ يرفع عن وجه البدر كُلَفَه ، وثناء ، أنشرُ بيدك البيضاء صُحُفَه ، وعلى ذلك أيّها السيّد المالك ، فقد تشعَبَتْ عليّ في مخاطبتك المسالك ، إن أخذتُ في تقرير فضلك العميم ، ونسبك الصّميم ، فوالله ما أدري بأيّ بيعة لفخرك تدفع الظلم ، وفي أيّ بحر من ثنائك يسبح القلم ، الأمْرُ جَلَل ، والشَّمْسُ تكْبُرُ على حَلْي وحُلَل ، وإن أخذت في شكاةِ الفراق ، والاستعداءِ على الأشواق اتّسع المجال ، وحصرت الرويّة والارتجال ، فالأولى أن أترك عذبة اللسان تلعب بها رياحُ الأشواق وأسلة اليراع ، تخضبُ مفارق الطُّروس بصبيغ الحبر المُرَاق ، وغيرُك من تركض في مخاطبته جياد اليَراع ، في مجال الرقاع ، مستولية على أمد الإبداع والاختراع ، فإنما هو بثٌّ يُبْكي ، وفراقٌ يُشْكي ، فيعلم الله مرضي[٣] عن أن أشافه

---

(١) وفي نسخة ثانية : السؤدد .

(٢) وفي نسخة ثانية : وينشر أفق المعارف .

(٣) وفي نسخة ثانية : جرحي .

من أنبائك ثغور البروق البواسم ، وأن أحملك الرّسائل حتى مع سفراء النواسم ، وأن أجْتَلي غُرر ذلك الجبين في مُحيّا الشارق[1] ، ولمح البارق .

ولقد وجّهت إليك جملةً من الكتب والقصائد ، ولا كالقصيدة الفريدة في تأبين الجواهر اللائي استأثر بهنَّ البحر ، قدّس الله أرواحهم ، وأعظم الله أجرك فيهمّ ، فإنها أنافت على مائة وخمسين بيتاً ، ولا أدري هل بلغكم ذلك أم غاله الضياع ، وغَدَر وصوله بُعْد المسافة ، والذي يطرق في سوء الظنّ بذلك ما صدر في مقابلته منكم . فإني على علم من كرم قصدكم ، ومن حين استغربناكم بذلك الأفق الشرقي[2] لم يصلني منكم كتاب ، مع علمي بضياع إثنين منهما بهذا الأفق الغربي (اهـ.) .

وفي الكتاب إشارة إلى أنّه بعث قصيدة في مدح الملك الظاهر صاحب مِصْرَ ، ويطلب مني رفعَها إلى السلطان ، وعرضَها عليه بحسب الإمكان ، وهي على روي الهمزة ومطلعها :

أَمَـدَامِـعٌ مُنْهَلّـةٌ أمْ لؤلؤٌ   لَمّا استهلَّ العارضُ المُتلأْلِيء

وبعث في طيّ الكتاب ، واعتذر بأنه استناب في نسخها ، فكتبت همزة رويها ألفاً ، قال وحقها أن تكتب بالواو لأنها تبدل بالواو وتسهل بين الهمزة والواو ، وحرب الإطلاق أيضاً يسوقها ، واواً ، هذا مقتضى الصناعة ، وإن قال بعض الشيوخ تكتب ألفاً على كل حال على لغة من لا يسهل لكنّه ليس بشيء .

وأذن لي في نسخ القصيدة المذكورة بالخط المشرقيّ لتسهل قراءتها عليهم ففعلت ذلك ، ورفعت النسخة والأصل للسلطان ، وقرأها كاتب سرّه ولم يرجع إليّ منها شيء ، ولم أستجز أن أنسخها قبل رفعها إلى السلطان ، فضاعت من يدي .

وكان في الكتاب فصل عرّفني فيه بشأن الوزير مسعود بن رحّو المستبدّ بأمر المغرب لذلك العهد ، وما جاء به من الانتقاض عليهم ، والكفران لصنيعهم ، يقول فيه : كان مسعود بن رحّو الذي أقام بالأندلس عشرين عاماً يَتَبنَّك النعيم[3] ويقود الدنيا ويتحيّز العيش والجاه ، قد أجيز صحبة وُلدَ عثمان كما تعرفتم من نسخة كتب انشائه

(١) الشارق : الشمس .

(٢) وفي نسخة ثانية : من كرم قصدكم وحسن عهدكم ، ومن حين استقل نيّركم بذلك الأفق الشرقي .

(٣) تبنّك بالنعيم : أقام به .

بجبل الفتح لأهل الحضرة ، فاستولى على المملكة ، وحصل على الدنيا ، وانفرد برياسة دار المغرب لضعف السلطان رحمه الله . ولم يكن إلاّ أن كُفِرَت الحقوق ، وحُنْظِلَت نخلته السحوق ، وشف على سواد جلدته سواد العقوق ، وداخل من سبتة ، فانتقضت طاعة أهلها ، وظنّوا أنّ القصبة لا تثبت لهم ، وكان قائدها الشيخ الأبهة[1] فلّ الحصار وجلّى القتال ، ومحشّ الحرب أبو زكريا بْن شعَيَب ، فثبت للصدمة ونوّر للأندلس ، فبادره المدد من الجبل ومن مالقة ، وتوالت الأمداد وخاف أهل البلد ، ورجع شرفاؤه ودخلوا القصبة . واستغاث أهل البلد بمن جاورهم ، وجاءهم المدد أيضاً ، ثم دخل الصالحون في رغبة هذا المقام ، ورَفْع القتال ، وفي أثناء ذلك غدروا ثانية ، فاستدعى الحال إجازة السلطان المخلوع أبي العبّاس لتبادر القصبة به ويتوّجه منها إلى المغرب لرغبة بني مرين وغيرهم فيه ، وهو ولد السلطان المرحوم أبي سالم الذي قلّدكم رياسة داره ، وأوجب لكم المزية على أوليائه وأنصاره .

وبعده فصل آخر يطلب فيه كتباً من مصر يقول فيه :

والمرغوب من سيدي أن يبعث لي ما أمكن من كلام فضلاء الوقت وأشياخهم على الفاتحة ، إذ لا يمكن بعث تفسير كامل لأني أثبت في تفسيرها ما أرجو به النفع عند الله ، وقد علمتم أنّ عندي التفسير الذي أوصله عثمان النجاني من تأليف الطيبي[2] والسفر الأوّل من تفسير أبي حيّان ، وملخّص إعرابه وكتاب المغني لابن هشام ، وسمعت عن براءة تفسير للإمام بهاء الدين ابن عُقَيل ووصلت إليّ براءة من كلام أكمل الدين الأشيري رضي الله عن جميعهم ، ولكني لم أصل إلاّ للبسملة ، وذكر أبو حيّان في صدر تفسيره أنّ شيخه سليمان النقيب أو أبا سليمان لا أدري الآن صنّف كتاباً في البيان في سفرين جعله مقدّمة لكتاب تفسيره الكبير . فإن أمكن سيّدي توجيهه لا بأس انتهى .

وفي الكتاب فصول أخرى في أغراض متعدّدة لا حاجة إلى ذكرها ههنا . ثم ختم الكتاب بالسلام ، وكتب إسمه محمد بن يوسف بن زَمْرَك الصّريحي ، وتاريخه

---

(١) وفي نسخة ثانية : الشيخ البهمة .

(٢) هو الحسين بن محمد بن عبدالله شرف الدين الطيبي (توفي ٧٤٣) له حاشية قيمة على «الكشاف» في أربع مجلدات ضخمة . وشرع بعدها في جمع كتاب في التفسير .

العشرون من محرّم سنة تسع وثمانين وسبعمائة (وكتب إليّ) قاضي الجماعة بغرناطة أبو الحسن علي بن الحسن البنّي[1] :

الحمد لله والصلاة والسلام على سيّدنا ومولانا محمد رسول الله يا سيّدي وواحدي وُدّاً وحبًّا ، ونجيّ الروح بُعْداً وقرباً أبقاكم الله وثوبُ سيادتكم سابغ ، وقمرُ سعادتكم كلما أفلت الأقمار بازغ ، أسلّم بأتمِّ عليكم ، وأقرّر بعض ما لديّ من الأشواق إليكم ، من حضرة غرناطة مهّدها الله عن ذلك لكم يتضوّع طيبُه وشكر لا يذوى وإن طال الزمان طيبُه قد كان بلغ ما جرى من تأخيركم عن الولاية التي تقلّدتم أمرها ، وتحملتّم مرّها ، فتمثلّت بما قاله شيخنا أبو الحسن بن الجيّاب[2] عند انفصال صاحبه الشريف أبي القاسم[3] عن خطّة القضاء .

لا مرحبــاً بــالنــاس أنفــارك[4] اذْ جهلت رفعــــة مقــــدارك
لَوْ أنها قـــد أوتيتْ رشدهــــا مــــا برَحت تعشو إلى نــــارك

ثم تعرّفت كيفيّة انفصالكم وأنه كان عن رغبة من السلطان المؤيّد هنا لكم فرددتُ وقد توهّمت مشاهدتكم هذه الأبيات .

لك الله يــا بــدرَ السماحــة والبشْر لقد حزت في الاحكام منزلة الفخر
ولكنّك استعفيت عنهــا تورّعــاً وتلك سبيــل الصالحين كما تــدري
جريت على نهج السلامة في الذي تخيّرتـــه للنشر منك وللحشر[5]
وحقٌ بــأنّ العلم ولاّك خطّــة من العزّ لا تنفك عنها مدى العُمرِ
تزيــدُ على مرّ الجديــدَيْن جــدَّةً وتَسري النجوم الزاهرات ولا تسري
ومن لاحظ الأحوال وازنَ بينهــا وكم لذوي الدنيا الدنيّة من خَطَرْ[6]

(١) نسبة إلى بنة (معجم البلدان) وقد ضبطها ابن خلدون بضم الباء وبكسرها .

(٢) الجيّاب : هو ابو الحسن علي بن محمد بن سليمان الغرناطي الشهير بابن الجياب (٦٧٣ — ٧٤٩) .

(٣) هو ابو القاسم محمد بن أحمد بن محمد بن عبدالله الحسني السبتي المعروف بالشريف الغرناطي (٦٩٨ — ٧٦٠) .

(٤) وفي نسخة ثانية : لا مرحباً بالناشز الفارك .

(٥) وفي نسخة ثانية : تخيّرته أبشر بأمنك في الحشر .

(٦) وفي نسخة ثانية : ولم يرَ للدنيا الدنية من خطر .

وأمسى لأنواع الولايات نابذاً فغيرُ نكير أنْ يواجه بالنُكْر
فَهَنِّيئك يهنيك الذي أنتَ أَهْلُهُ من الزُّهْدِ فيها والتوقّي من الوِزْرِ
ولا تكترِثْ من حاسديك فإنَّهم حصىً والحصى لا يَرْتقي مُرْتقى الدرِّ[1]
ومَنْ عامل الأقوامَ باللهِ مُخْلِصاً له فيهم نال الجزيلَ من الأُجْرِ
بقيتَ لرفعِ المَجْدِ تحمي ذَمَارَهُ وخارَ لك الرحمن في كلّ ما يَجْري[2]

إيهٍ سيّدي رضي الله عنكم وأرضاكم ، أطنبتم في كتابكم في الثناء على السّلطان الذي أنعم بالاعفاء ، والمساعدة على الانفصال عن خطّة القضاء ، واستوهبتم الدعاء له من الأولياء ولله دركم في التنبيه على الإرشاد إلى ذلكم ، فالدعاء له من الواجب فيه استقامة الأمور وصلاح الخاصّة والجمهور ، وعند ذلك ارتفعت أصوات العلماء والصلحاء بهذا القطر له ولكم بجميل الدعاء . أجاب الله فيكم أحسَنه وأجمَله ، وبلغ كل واحد منكم ما قصده وأمّله . وأنتم أيضاً من أهل العلم والجلالة ، والفضل والأصالة ، وقد بلغتم بهذه البلاد الغاية من التنويه ، والحظّ الشريف النبيه ، لكن أراد الله سبحانه أن يكون لمحاسنكم في تلك البلاد العظيمة ظهور ، وتحدث بعد الأمور أمور ، وبكل اعتبار ، فالزمان بكم حيث كنتم مباه ، والمحامدُ مجموعةٌ لكم جمعُ ثناه . ولما وَقَفَ على مكتوبكم إليّ مولانا السلطان أبو عبدالله ، أطال الله الثناء على مقاصدكم ، وتحقَّقَ جميل[3] ودادكم ، وصحيح اعتقادكم ، وعمّر مجلسه يومئذ بالثناء عليكم ، والشكر لما لديكم .

ثم ختم الكتاب بالسّلام من كاتبه عليّ بن عبدالله بن الحسن مؤرّخاً بصفر سنة تسعين وسبعمائة وفي طيّه مدرجة بخطّه وقد قصّر فيها عن الإجادة نصّها :

سيّدي رضي الله عنكم وأرضاكم ، وأظفركم يُمْنَاكُم بذوائب مناكم أعتذر لكم عن الكتاب المدرج به هذا غير خطّي فإني في ذلك الوقت بحال مرض في عينيّ ، ولكم العافية الوافية ، فيسعُني سَمْحُكُمْ وربّما كان لديكم تشوّفٌ بما نزل في هذه المدّة بالمغرب من الهرج أماطه الله ، وأمّن بلاد المسلمين .

والموجب أنّ الحصّة الموجّهة في خدمة أميرهم الواثق ظهر له ولوزيره ومن ساعده على

---

(١) وفي نسخة ثانية : البدرُ.

(٢) وفي نسخة ثانية : ما تجزي .

(٣) وفي نسخة ثانية : صحيح ودادكم وجميل اعتقادكم .

رأيه إمساكها رهينة ، وجعله في القيود إلى أن يقع الخروج لهم على مدينة سبتة ، وكان القائد على هذه الحصّة العِلج المدعو المُهَنّد ، وصاحبه الفتى المدعو نصرالله . وكثر التردّد في القضية إلى أن أبرز القدر توجيه السلطان أبي العبّاس تولاه الله ، صحبة فَرَجَ بن رضوان بحصّة ثانية ، وكان ما كان حسبما تلقيتم من الركبان ، هذا ما وسع الوقت من الكلام ثم دعَا وختم الكتاب .

وإنما كتبت هذه الأخبار وإن كانت خارجة عن غرض هذا الكتاب المؤلّف لأنّ فيها تحقيقاً لهذه الواقعات ، وهي مذكورة في أماكنها ، فربّما يحتاج الناظر إلى تحقيقها من هذا الموضع .

وبعد قضاء الفريضة رجعت إلى القاهرة محفوفاً بستر الله ولطفه ، ولقيت السلطان ، فتلقّاني أيّده الله بمعهود مبرّته وعنايته وكانت فتنة الناصريّ بعدها سنة إحدى وتسعين وسبعمائة . والله يعرّفنا عوارف لطفه ، ويمدّ علينا ظلّ ستره ، ويختم لنا بصالح الأعمال ، وهذا آخر ما انتهيت إليه ، وقد نجز الغرض مما أردت إيراده في هذا الكتاب ، والله الموفّق برحمته للصواب ، والهادي إلى حسن المآرب ، والصلاة والسلام على سيّدنا ومولانا محمد وعلى آله والأصحاب والحمد لله رب العالمين .

* (ولاية الدروس والخوانق [1])

أهل هذه الدّولة التركية بمصر والشام مَعنِيُّون — على القِدَم مُنذُ عَهدِ مَواليهم مُلوكِ بَني أَيُّوب — بإنشاءِ المدارس لتدريس العلم ، والخَوانق لإقامة رُسُوم الفُقراء في التّخلُّق بآداب الصُّوفيَّة السُّنِّية في مُطارحة الأذكار ، ونوافِل الصّلوات . أَخَذُوا ذلك عمَّن قَبْلَهم من الدُّول الخِلافِية ؛ فيَختَطُّون مَبانِيها ويَقِفُون الأراضِي المُغِلَّة للإنفاق مِنها على طَلَبَة العِلْم ، ومُتَدَرِّبي الفقراء . وإن استفضَل الرَّيْعُ شيئاً عن ذلك ، جعلوه في أعقابهم خوفاً على الذُّرِّية الضِّعاف من العَيْلة [2] . واقتَدَى بِسُنَّتِهم في ذلك مَن تَحتَ أَيديهم من أهل الرِّياسَة والثَّرْوة ، فكثُرت لذلك المدارِس والخَوانقُ بمدينة

(١) هذا القسم وما يليه اضفناه إلى طبعتنا هذه من نسخة طبعة بولاق المصرية دار الكتاب اللبناني .

(٢) العيلة (بفتح العين) : الفقر والفاقة .

القاهرة ، وأصبحت مَعاشاً للفُقراء من الفُقهاء والصوفية ، وكان ذلك مِن محاسِن هذه الدَّولة التُّركية ، وآثارها الجَميلة الخالِدة .

وكنتُ لأوَّل قُدُومي على القاهرة ، وحُصولي في كفالَة السلطان ، شَغَرَتْ مَدرَسَةٌ بِمصْر من إنشاء صلاح الدين بن أَيّوب ، وقَفها على المالكيَّة يتدارَسون بها الفِقه ، ووقف عليها أَراضي من الفَيُّوم تُغِلُّ القمح ، فسُمِّيت لذلك القَمْحِيَّة ؛ كما وقَف أُخرَى على الشَّافعية هنالك ؛ وتُوفي مُدَرِّسُها حينئذ ، فولاّني السلطانُ تَدْرِيسَها ، وأَعقَبه بولاية قضاء المالكية سنةَ سِتٍ وثمانين وسبعمائة ، كما ذكرت ذلك من قَبْل ؛ وحضَرني يومَ جُلوسي للتَّدريس فيها جماعةٌ من أكابر الأمراء تنويهاً بذكري ، وعِنايةً من السلطان ومنهم بجانبي ؛ وخطبتُ يومَ جلوسي في ذلك الحَفل بخُطبة أَلممتُ فيها بذكر القوم بما يُناسِبهم ، ويُوفي حقَّهم ، ووَصَفْتُ المَقَامَ ، وكان نَصُّها :

الحمدُ للهِ الذي بدأ بالنِّعَم قبل سُؤالها ، ووفَّق مَن هَداه للشُّكر على منالِها ، وجعَل جَزاءَ المُحْسِنين في مَحبَّته ، ففازوا بعَظيم نَوالها . وعَلَّمَ الإنسانَ الأسماءَ والبَيان ، وما لَم يَعْلَمْ من أَمثالِها ، وميَّزه بالعقْل الذي فَضَّله على أَصناف الموجُودات وأَجْيالها ، وهَدَاه لقَبول أَمانةِ التَّكليف ، وحَمْل أَثقالِها . وخلَق الجنَّ والإنس للعِبادة ، ففازَ مِنهُم بالسَّعادة مَنْ جَدَّ في امتثالها ، ويَسَّر كلاً لما خُلِق له[1] ، من هِدَايَةِ نَفْسِه أو إِضلالها ؛ وفرَغَ ربُّك من خَلْقِها وخُلُقِها وأَرْزاقها وآجالها . والصَّلاةُ على سيِّدنا ومولانا محمد نُكتَةِ الأكوان وجَمالها ، والحُجَّة البالغة لله على كمالِها ، الذي رقَّاه في أطوار الاصْطفاء ، وآدمُ بينَ الطِّين والماء ؛ فجاءَ خاتِمَ أَنبيائها وأَرْسَلها[2] ؛ ونَسَخَ المِلَل بشَريعته البَيْضاء فتَميَّز حَرامُها من حلاَلها ؛ ورَضِيَ لنا الإسلامَ دِيناً ، فأَتَمَّ علينا النِّعْمَةَ بإِكمالها[3] .

والرِّضى عن آلِه وأَصحابه غُيوثِ رَحمته المُنْسَجِمة وطِلالها[4] ، ولُيوثِ مَلاَحِمِه[5]

---

(١) يشير الى الحديث : «كل ميسر لما خلق له» ، والذي رواه الإمام أحمد في مسنده .

(٢) ورد في كلام كثير من علماء المغرب والأندلس ، جمع رسول على أرسال . ولم يرد في معاجم اللغة هذا الجمع . والأصح أن يقول ورسلها .

(٣) يشير الى الآية ٣ من سورة المائدة : «اليوم اكملت لكم دينكم ، وأتممت عليكم نعمتي ، ورضيت لكم الإسلام ديناً» .

(٤) الطلال جمع طلل ؛ وهو أخف المطر .

(٥) الملاحم جمع ملحمة ؛ وهي الوقعة العظيمة القتل ، وموضع القتال ، والحرب .

المشتَهرة وأبطالها . وخيرِ أُمةٍ أُخرجَت للنَّاس ، في توسُّطِها واعتِدالها ، وظُهُور الهِداية وَالاستقامة في أَحوالها ، صَلَّى الله عليه وعليهم صلاةً تتَّصل الخيراتُ باتِّصالها ، وتُنال البركاتُ من خِلالها .

أمَّا بعدُ فإنَّ الله سبحانَه لما أقرَّ هذه المِلَّةَ الإسلاَمية في نِصابها ، وشَفَاها مِن أَدْوَائها وأَوصَابِها[١] ، وأورثَ الأرضَ عبادَه الصَّالحين من أَيدي غُصَّابِهَا ، بَعْدَ أَن بَاهَلَت فارسُ بتَاجها ، وعِصابِها[٢] ، وخلَت الرُّومُ إلى تَماثِيلِها وأَنْصَابها وجَعَلَ لها مِن العُلَماءِ حَفَظَةً وقوَّاما ، ونُجوماً يَهْتَدِي بها التَّابعُ وأَعْلاما ، يقربونها لِلدِّراية تِبْيَاناً وإِفهاماً ، ويُوسِعُونها بالتَّدْوين تَرْتيباً وإِحكاماً ، وتَهْذيباً لأصولها وفُروعها ونِظَاماً . ثُمَّ اختَار لها المُلوك يرْفعون عمدَها ، ويُقِيمُون صَغَاها[٣] بإقامة السِّياسَةِ وأَودَها ، ويَدْفَعُون بعَزائمهم الماضِية في صَدْرِ من أَرادَهَا بكَيادٍ أو قَصدَها ؛ فكان لهَا بالعُلَماء الظُّهورُ والانتِشار ، والذِّكْرِ السَّيَّار ، والبَرَكَاتُ المخلَّدَة والآثار ؛ ولهَا بالمُلوك العِزُّ والفَخَار ، والصَّوْلَة التي يَلينُ لهَا الجبَّار ، وَيَذِلُّ لِعِزّة المؤمنينَ بِها الكُفَّار ، وتُجَلِّل وُجوهَ الشِّرك مَعَها الصِّغَار ؛ ولَم تَزَل الأجيالُ تَتَداول على ذَلك والأَعْصار ، والدُّولُ تَحْتفل والأَمْصَار ، واللَّيل يخْتلِف والنَّهار ، حتى أظَلَّت الإسلاَمَ دُوَلُ هذه العصابة المنْصُورة من التُّرْك ، المَاحِين بأَنوار أسِنَّتِهم ظُلَم الضَّلاَلة والشَّكِّ ، القَاطعين بنِصَالهم المرْهفَة عَلائقَ المَيْنَ والإفْك[٤] ، المُصِيبين بِسهَامهم النَّافِذة ثَغر الجهالَة والشِّرْك ، المُظْهِرين سِرَّ قَوله : « لا تَزَالُ طائفةٌ من أُمَّتي »[٥] فِيما يَتَناوَلُونَه من الأَخْذِ والتَّرْك ؛ ففَسحَوا خِطَّة الاسلام ، وقاموا بالدَّعوة الخِلافيَّة أحسَنَ القِيام ، وبثُّوها في أقصى التُّخوم من الحِجاز والشَّام ، واعتمَدُوا في خدمة الحرَمَين الشَّريفَيْنِ ما فَضِلوا به مُلوكَ الأنام . واقتَعَدوا كُرسِيِّ مِصْرَ الذي أَلقَتْ له الأَقاليمُ يَدَ الاستِسلاَمَ ، على قِدَم الأَيَّام ؛ فزخَر بها منذ دولتهم بحرُ العُمران ، وتجاوَبت فيها المدارسُ بِترْجيع

---

(١) الوصب : الوجع ، والمرض ؛ والجمع أوصاب .

(٢) العصاب : العمامة .

(٣) الصغا : من الإصغاء : اي مال إليه بسمعه .

(٤) علائق المين والإفك : أي علائق الكذب .

(٥) حديث رواه البخاري في آخر باب « علامة النبوة في الاسلام » ومسلم في بابي « الامارة ، » و« الايمان » . شرح العيني على « صحيح » البخاري ٥٧٩/٧ ، وشرح النووي على « صحيح » ملم ٥٥/١ ، ٢٠٦/٢ .

المثاني والقُرآن وعُمِّرت المسَاجدُ بالصَّلوات والأذان ، تُكاثِرُ عَدَدَ الحصَى والشُّهْبان . وقامت المآذِن على قَدم الاستغْفار والسُّبْحَان[١] مُعلِنَة بشِعار الإيمان ، وازدَانَ جوُّها بالقَصر فالقصر والإيوَان فالإيوان . ونُظِّم دَسْتُها بالعَزيز ، والظَّاهِر ، والأمِير ، والسُّلطان . فما شِئتَ مِنْ مَلِكٍ يخفُقُ العِزُّ في إعلامه ، وتتوقَّد في لَيْلِ المَوَاكب نيرانُ الكوَاكِب من أسنَّتِه وسِهامِه ؛ ومن أسرةٍ للعُلَماء تتَناوَلُ العِلمَ بوعدِ الصَّادق ولو تعلّق بأعنان السَّماء[٢] ، وتُنير سراجَه في جَوانب الشُّبَه المُدلهِمَّة الظَّلماء ؛ ومن قُضاةٍ يُباهون بالعِلم والسُّؤدَدِ عند الانتماء ، ويشْتملون الفَضَائل وَالمَناقبَ اشتمالَ الصَّماء[٣] ، ويَفْصِلون الخصُوماتِ برأي يفرّق بين اللَّبن والماء .

ولاَ كَدَولة السُّلطان الظَّاهِر ، والعزيز القاهِر ، يَعسوب[٤] العَصَائب والجماهِر ، ومُطلِع أنواعِ العزِّ الباهر ، ومُصَرِّف الكتائب تُزْري بالبَحْر الزَّاخِر ، وتَقُومُ بالحُجة للقِسِيِّ على الأهِلَّة في المفاخِر ؛ سَيفِ الله المُنْتَضَى على العَدوّ الكافر ، ورحْمته المتكفِّلة للعِباد باللُّطفِ السَّاتِر ؛ رَبِّ التِّيجان والأسِرَّة والمَنابر ، والأواوين العالِية والقُصُور الأزاهر ، والمُلْكِ المؤيَّد بالبِيضِ البَواتِر ، والرِّماح الشَّواجر[٥] ، والأقلام المرتَضِعة أخْلافَ[٦] العِزِّ في مُهُودِ المحابر ، والفَيْض الرَّباني الذي فاقَ قُدرةَ القادر ، وسبقَت به العِنايةُ للأواخر . سيِّدُ الملوك والسْلاطين ، كافِلُ أَمير المؤمنين ، أبو سَعيد أمدَّه الله بالنَّصْر المُصاحِب ، والسَّعْد المؤازر ، وعَرَّفَهُ آثارَ عِنايَتِه في المَوارد والمَصادر ، وأراهُ حُسْنَ العاقِبة في الأولى وسُرُورَ المُنْقَلَب في الآخِر ؛ فإنه لما تناول الأمرَ بعزائمه وعزْمِه ، وآوى المُلْكَ إلى كنَفِه العزيز وحزْمِه ، أصاب شاكِلة الرَّأي عندما سدَّد من سَهْمِه ، وأوْقع الرَّعايا في ظِلٍّ من أَمْنِه ، وعَدْلٍ من حُكْمِه ، وقَسم البأسَ والجُودَ بَيْنَ حَرْبه وسِلْمِه ؛ ثم أقام دولَته بالأمَراءِ الذين اختارَهم باختيار الله لأرْكانها ، وشدَّ

---

(١) السبحان : التسبيح .

(٢) اعنان السماء : نواحيها ، وما اعترض من اقطارها .

(٣) اشتمال الصماء ان تجلل جسدك بثوبك نحو شملة الأعراب بأكسيتهم ؛ وهي ان يرد الكساء من قبل يمينه على يده اليسرى ، وعاتقه الأيسر ، ثم يرده ثانية من خلفه على يده اليمنى ، وعاتقه الأيمن فيغطيهما جميعاً .

(٤) اليعسوب أمير النحل .

(٥) رماح شواجر : مختلفة الطعن .

(٦) أخلاف الضرع : أطرافه . والكلام على التشبيه .

بهم أزْرَهُ في رَفع القَواعِدِ من بُنْيانها ؛ من بين مُصَرِّفٍ لِعنانِها ، متقَدِّم القَدم على أعْيانها ، في بِساط إيوانها ؛ وربِّ مَشورة تُضيءُ جوانبُ الملكِ بلَمعانِها ، ولا يَذهَبُ الصَّوابُ عن مكانها ؛ ومنفِّذ أحكامٍ يُشْرق الحقُّ في بَيانها ، ويَضُوع العدل من أردانها[1] ونَجيٍّ[2] خلْوَةٍ في المهم الأَعظَم من شانها ؛ وصاحب قلم يُفْضي بالأسرار إلى الأَسل[3] الجرّار ، فيَشْفي الغَليلَ بإعلانها . حفظ الله جميعَهم وشَمل بالسَّعادة والخيرات المبدَأة المُعادة تابعَهم وَمَتْبُوعَهم .

ولمّا سَبَحْتُ في اللُّجِّ الأزرَقِ ، وخطَوْتُ من أُفُق المغرِب إلى أفق المشرق ، حيث نَهْرُ النَّهار يَنصَبُّ من صَفحِهِ المُشرق ، وشَجرةُ الملك التي اعزَّ بها الإسلامُ تهتَزُّ في دَوحِهِ المُعرق ، وأزهارُ الفنون تسقطُ علينا من غُصْنِهِ المُورق ، وينابيعُ العُلوم والفضائل تُمِدّو شَلّنا[4] من فُراتِه المُغْدِق ؛ أو لَوْني عِنايةً وتَشْريفاً ، وغمَروني إحساناً ومَعروفا ، وأوسَعُوا بُـهْـمَتي[5] إيضاحاً ، ونكرَتي تعريفاً ؛ ثمَّ أهَّلُوني للقيام بوظيفة السَّادة المالكيّة بهذا الوقف الشريف ، من حَسَنات السلطان صَلاح الدّين أيّوب مَلِك الجلاد والجِهاد ، وماحي آثار التَّثليث والرَّفْض الخبيث من البلاد ، ومُطهِّر القُدس الشَّريف من رِجْس الكُفر بعدَ أن كانت النَّواقيسُ والصُّلبانُ فيه بمكان العُقُود من الأجْياد . وصاحِب الأعمال المتقبَّلة يَسْعَى نُورُها بين يديه في يوم التَّناد[6] ؛ فأقامَني السلطان ــ أيده الله ــ لتدريس العلم بهذا المكان ، لا تقدُّماً على الأعيان ، ولا رغبةً عن الفُضلاء من أهل الشّان ؛ وإني مُوقِنٌ بالقُصور ، بين أهل العُصُور ، مُعتَرف بالعجز عن المَضاء في هذا القضاء ؛ وأنا أرغَبُ من أهل اليد البيضاء ، والمعارف المتَّسِعة الفضاء ، أن يَلْـمَحوا بعين الارتِضاء ، ويَتَغـمَّدوا بالصَّفح والإغضاء ، والبضاعةُ بينهم مُزْجاة[7] ، والاعترافُ من اللَّوم ــ إن شاء الله ــ مَنْجاةٍ ؛ والحُسْنَى من الإخوان مُرتَجاة . والله تعالى يَرفع لمولانا السلطان في

(١) الأردان : الأكمام . وفي الكلام تجوز .

(٢) النجي : الشخص الذي تساره ، وفلان نجى فلان ، أي يناجيه دون سواه .

(٣) الأسل : الرماح وكل حديد رهيف من سيف وسكين .

(٤) الوشل : الماء القليل .

(٥) البهمة : بُـهَم : الخطة الشديدة .

(٦) يوم التناد : يوم ينادي «أصحاب الجنة أن أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله» . لسان العرب .

(٧) بضاعة مزجاة : قليلة .

مَدارج القَبول أعمالَه ، ويبلّغه في الدّارَين آمالَه ، ويجعلُ للحُسنَى والمَقرّ الأسْنى ، منقَلبه ومآله ؛ ويُديمُ على السّادة الأمراء نِعْمَتَه ، ويحفَظُ على المسلمين بانتظام الشّمل دَولتهم ودولته ، ويُمدُّ قُضاةَ المسلمينَ وحُكّامَهم بالعَون والتّسديد ، ويُمتّعُنا بانفساح آجالهم إلى الأمد البَعيد ، ويشْمَلُ الحاضِرين برضوانه في هذا اليَوم السّعيد ، بمنّه وكرمه .

وانفضّ ذلك المجلس ، وقد شيّعتني العُيون بالتّجلّة والوَقار ، وتناجت النّفوس بالأهلية للمَناصب ؛ وأقَمتُ على الاشتغال بالعلم وتدريسه إلى أن سَخِط السلطانُ قاضي المالكية يومئذ في نَزْعة من النّزَعات الملوكية ، فعزَله ، واستَدعاني للولاية في مَجلسه ، وبين أمرائه ؛ فتفاديتُ من ذلك ، وأَبى إلاّ إمضاءَه . وخلَع عليّ ، وبَعث معي من أجلَسَني بمقْعَد الحكم في المدرسة الصّالحية[1] في رَجَبِ ستٍّ وثمانين وسبعمائة ؛ فقُمت في ذلك المقامَ المحمُود ، ووَفّيتُ عَهدَ الله في إقامة رُسُوم الحقّ ، وتحرّي المَعْدَلَة ، حتّى سَخِطَني من لم تُرْضِه أحكامُ الله ، ووقَع من شَغَبِ أهل الباطل والمِراء ما تَقدّم ذكرُه .

وكنتُ عند وصولي إلى مصر بَعثتُ عن وَلدي من تُونس ؛ فمَنَعَهُم سلطان تُونس من اللّحاقِ بي اغتِباطاً بمكاني ؛ فرغِبتُ من السّلطان أن يشفعَ عِندَه في شأنِـهِـمْ ، فأَجاب ، وكتب إليه بالشّفاعة ؛ فركِبوا البحر من تُونس في السّفين ؛ فما هو إلاّ أن وَصَلوا إلى مَرْسَى الإسْكَنْدَريّة ؛ فعصفت بهِم الرِّياح وغرِق المركَب بمَن فيه ، وما فيه ، وذهب الموجُود والمولُود ؛ فعظُم الأسَف ، واختَلَط الفِكر ، وأَعفاني السلطان من هذه الوظيفة وأراحني ، وفرغتُ لشأني من الاشتغال بالعلم تَدْريساً وتأليفا .

ثم فرغ السلطان من اختطاط مَدْرستِهِ[2] بين القَصْرَين ، وجعل فيها مدافن أَهله ، وعَيّن لي فيها تدريسَ المالكيَّة ؛ فأَنشأتُ خُطبةً أقوم بها في يوم مُفْتَتَح التّدريس على عادتهم في ذلك ونصُّها :

« الحمد لله الذي مَنّ على عِباده ، بنعْمَة خَلقِه وإيجاده ، وصَرَّفَهم في أطوار استعبادِه بين قَدَرِه ومُراده ، وعَرّفهم أَسْرار توحيده ، في مَظاهِر وُجوده ، وآثارَ لُطفِه في وقائع

---

(١) نسبة الى بانيها الملك الصالح نجم الدين أيوب .

(٢) هي المدرسة الظاهرية ، وتسمى البرقوقية أيضاً . عهد في بنائها الى الأمير جهركس الخليلي ، فشرع في بنائها سنة ٨٨٦ ، وأنهاها سنة ٨٨٨ .

عباده ، وعَرَضهم على أَمانَة التَّكاليف ليَبْلُوهَم بصادق وعْده وإِبعاده[1] ، ويَسّر كُلاً لِما خُلِق لَه ، من هدايته أو إِضلالِه ، وغَيِّه أو رَشادِه ، واسْتَخلَفَ الإِنسانَ في الأرض بعد أن هداهُ النَّجْدَيْن[2] لصَلاحِه أو فَسادِه ، وعَلّمه ما لم يكن يَعلم ، من مدارك سَمْعه وبَصَرِه والبيان عَمَّا في فُؤاده ؛ وجَعَل منهم أنبياءَ وملوكاً يجاهدون في الله حَقَّ جهاده ، ويُثابرون على مَرضاته في اعتمال العَدْلِ واعتمادِه ؛ ورفَع البُيُوتَ المقدَّسَة بسُبُحاتِ[3] الذِّكر وأورادِه .

والصَّلاةُ والسَّلامُ على سَيِّدنا ومولانا محمَّدٍ سيِّد البشر من نَسْل آدَم وأَولادِه ، لا . بل سيِّد الثَّقَلَين[4] في العالَم من إِنسِه وجِنّه وأَرواحِه وأَجسادِه ، لا . بل سيِّد الملائكة والنَّبيئين ، الذي ختَم [الله] كمالَهم بكماله وآمادهم بآمادِه ، الذي شرَّف به الأكوانَ فأَضاءت أرجاءُ العالَم لنور ولادِه ؛ وفَصَّل له الذِّكر الحكيمَ تَفْصيلاً ، كذلك ليُثَبِّتَ من فؤادِه[5] وأَلقَى على قَلبه الروحُ الأمينُ بتنزيل رَبِّ العالَمين ، ليكونَ من المُنذِرين لعبادِه[6] ؛ فدعا إلى الله على بصيرةٍ بصادِقِ جِداله وجِلادِه[7] وأَنْزَلَ عليه النَّصرَ العزيز ، وكانت ملائكةُ السَّماء من إِمدادِه ، حتَّى ظَهَر نورُ الله على رَغْمِ مَن رَغِمَ[8] . بإِطفائه وإِخماده ، وكمُل الدينُ الحَنيفُ فَلا تُخشَى والحمدُ لله غائلةُ انقِطاعِه ولا نفاذه ؛ ثمَّ أَعَدَّ له من الكرامات ما لُعَدَّ في مَعادِه ، وفضَّله بالمَقام المحمود في عرصات القِيامة بين أَشهادِهِ ، وجعل له الشَّفاعةَ فيمَن انتظَم في امَّته ، واعتَصَم بمَقادِه .

والرِّضَى عن آله وأَصحابه ، غُيوث رحْمتِه ، ولُيوث إِنجاده ، من ذوِي رحمِه

(١) ينظر الى الآية ٧٢ من سورة الأحزاب : «انا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها ، وحملها الانسان» .

(٢) النجدان : طريق الخير ، وطريق الشر .

(٣) السبحات جمع سبحة ؛ وهي التطوع في الذكر ، والصلاة .

(٤) الثقلان : الجن والإنس .

(٥) يشير الى الآية ٣٢ من سورة الفرقان : «وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة ، كذلك لنثبت به فؤادك» .

(٦) يشير كذلك الى الآيتين ١٩٣ ، ١٩٤ من سورة الشعراء : «نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين» .

(٧) الجلاد : الجهاد .

(٨) على رغم من رغم : من أساء ؛ والاشارة الى الآية ٣٢ من سورة التوبة : «يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ، ويأبى الله الا ان يتم نوره» .

الطَّاهرة وأهل ودادِه المتزوِّدين بالتَّقْوى من خَيْرِ أَزوادِه ، والمُراغمين بسُيُوفهم من جاهرَ بمُكابرة الحقّ وعنادِه ، وأَرادَ في الدين بظُلمه وإلحادِه ، حتّى استقام المِيسَمُ[1] في دين الله وبِلادِه ، وانتَظَمت دعوةُ الإسلام أقطارَ العالَم ، وشُعوبَ الأنام ، من عربِه وعَجمِه وفارسه ورُومِه وتُركِهِ وأَكْرادِه . صلّى الله عليه وعليهم صلاةً تُؤْذن باتِّصال الخير واعْتياده ، وتُؤهِّلُ لاقتناءِ الثَّواب وزيادِه ، وسلَّم كثيراً ؛ وعن الأئمَّة الأربعة[2] ، عُلماء السنَّة المتَّبعة ، والفئةِ المجتباة المصْطَنَعة ؛ وعن إمامِنا من بينِهم الذي حمل الشريعَةَ وبيَّنها ، وحرَّر مقاصدَها الشريفَةَ وعيَّنها ، وتعرَّض في الآفاق منها والمَطالع ، بين شُهُبها اللَّوامه ؛ فزيَّنها . نُكْتَةُ الهِداية إذا حُقِّق مناطُها ، وشرْطُ التَّحصيل والدِّراية إذا رُوعِيت أَشراطُها ، وقَصْدُ الرِّكابِ إذا ضُربت في طلَبِ العلم آباطُها[3] ؛ عالم المدينة وإمامُ هذه الأمة الأمِينَة ، ومُقبِس أَنوارِ النُّبُوَّة من مِشْكاتِها المُبينة ، الإمامُ مالك بنُ أَنَس . ألْحقَهُ الله برضوانه ، وعرَّفَنا بَركَةَ الاقتِداء بهَدْيِهِ وعِرْفَانِهِ ؛ وعن سَلَف المؤمنين والمهْتَدين ، وتابعِيهم بإحسان إلى يَوم الدِّين .

أما بعد فإن الخلْقَ عيالُ الله يكنُفُهم بلُطْفه ورحمته ، ويكفُلُهم بفضله ونِعْمَته ، ويُيَسِّرهم لأسباب السَّعادة بآداب دينه وشِرْعَته ، ويحملهم في العِناية بأُمورهم ، وَالرِّعاية لجُمهُورهم ؛ على مَناهِج سُنَّتِه ولَطائف حِكمته . ولذلك اختار لهم الملوكَ الذين جبَلهم على العَدْل وفِطرته ، وهَدَاهم إلى التَّمسُّك بِكلِمَتِه . ثم فَضَّلهم بما خوَّلهم من سعَة الرزق وَبسْطَتِه واشتِقاق التَّمكين في الأرض من قُدرته ، فَتسابقُوا بالخيْرات إلى جزائه ومَثُوبته ، وَذَهبوا بالدَّرجات العُلى في وُفور الأجر ومزيّته .

وإنّ مولانا السُّلطان المَلِك الظّاهر ، العزيز القاهر ، العادل الطّاهر ، القائم بأمور الإسلام عندما أعيا حَملُها الاكتاد[4] ، وقُطْب دائرة المُلْك الذي أَطلع الله من

---

(١) الميسم : الجمال .

(٢) هم المجتهدون أصحاب المذاهب الفقهية المشهورة : (مالك ، والشافعي ، وأبو حنيفة ، وأحمد بن حنبل) .

(٣) يشير الى الحديث : « تضرب أكباد الابل في طلب العلم ، فلا يوجد عالم أعلم من عالم المدينة » ، وسيأتي له بعد .

(٤) جمع كتد ؛ وهو مجتمع الكتفين من الانسان . ويقال : خرجوا علينا اكتاداً وأكداداً أي فرقاً وأرسالاً .

حاشيته الأبدالَ[1] وأَنبتَ الأوتاد[2] ، ومُنفِق أسواقِ العزِّ بما بَذَلَ فيها من جميل نَظَره المدْخُور والعَتاد ؛ رحمةُ الله الكافلةُ للخلق ، ويَداه المبسوطتَان بالأجَل والرِّزق ، وظِلُّه الوَاقي للعباد بما اكتَنَفهم من العَدْل والحقِّ ، قَاصِمُ الجبَابرة ، والمعفِّي على آثار الأعاظِم من القَياصِرة ، وذَوي التِّيجان من التبَابعَة والأكاسرَة ، أُولي الأقيال[3] والأساورة[4] ؛ وحائز قَصَب السَّبق في المُلوك عند المنَاضَلة والمفاخرة ، ومُفوِّض الأمور بإخلاصه إلى وَليِّ الدنيا والآخرة ؛ مُؤيِّد كلمة الموحِّدين ، ورَافع دعائم الدِّين ، وظهير خلافَة المؤمنين ، سُلطان المسْلمين أبو سعيد . صَدَّق الله فيما يقتَنِي من الله ظُنونَه ، وجعَل النَّصْرَ ظهيرَه ، كما جعَل السّعدَ قَرينَه ، والعِزَّ خَدِينه[5] ، وكان وليّه على القيام بأمور المسلمين ومُعينَه ، وبلَّغ الأمَّة في اتِّصال أيامه ، ودَوام سُلطانه ، ما يرجَونه من الله ويَؤمّلونه . لمَّا قلّده الله هذا الأمرَ الذي استوَى له على كرسيّ المُلْك ، وانتَظَمَت عُقود الدُّول في لَبَّاتِ[6] الأيام ، وكانت دَولتُه واسطةَ السِّلك ، وجمع له الدين بولاية الحَرَمين ، والدنيا بسلطان التُّرك . وأَجرَى له أنهارَ مِصرَ من الماء والمال ؛ فكان مَجَازه فيها بالعَدل في الأخذ والتَّرك . وجمعَ عليه قلوب العِبَاد . فشَهِد سرُّها بمحبّه الله [له] شهادةً خالصةً من الرِّيْب ، بريئةً من الشَّكّ . حتى استوَلَى من العزّ والمُلك على المَقام الذي رَضيَه وَحَمِدَه . ثم تَاقَت نَفْسُ إلى ما عندالله ، فصرف قصدَه إليه واعتَمدَه ، وسَارَع إلى فعل الخيرات بنفسٍ مطمئنة ، لا يَسْأَل عليها أَجْراً ولا يُكدّرها بالمنَّة ، وأَحسَنَ رعايةَ الدين والمُلك تَشهَد بها الأُنْسُ والجِنَّة ، لا ؛ بل النَّسَم[7] والأجِنَّة[8] . ثم آوَى الخلق إلى عَدلِه

---

(1) يوري بالابدال في مصطلح الصوفية ، وهم أشخاصٍ سبعة : يسافرون بأرواحهم من مكان الى اخر ، ويتركون جسدهم في موضعهم الأول ، بحيث لا يَحِسّ احد بسفرهم . عن « تعريفات » الجرجاني ص ٢٧ ، و « تعريفات » ابن العربي ص ٢ .

(2) والاوتاد عند الصوفية ايضاً : عبارة عن أربعة رجال ، منازلهم على منازل الأربعة الأركان من العالم : الشرق ، والغرب ، والشمال ، والجنوب ؛ كل واحد منهم مقامه في تلك الجهة . عن الجرجاني في « التعريفات » ص ٢٧ ، وابن العربي ص ٢ . ويريد ان الدولة غنية بالرجال .

(3) جمع قَيْل وهو ، في مملكة حمير ، بمنزلة الوزير بالنسبة للملك .

(4) جمع أُسوار ، وهو الرامي أو الفارس . وعند الفرس القائد وهنا تعني القوّاد .

(5) الخدين : الحبيب والصاحب للمذكر والمؤنث .

(6) من لَبَثَ : لَبْثاً يده : اي لواها . وهنا بمعنى اضطراب الأيام .

(7) النسم : نفس الروح .

(8) الأجنة : ج جنين : المستور من كل شيء . والولد ما دام في الرحم قبل أن يرى النور .

تَصديقاً بأن الله يُؤْوه يومَ القيامة إلى ظلالِهِ المسْتجنَّة ، ونَافس في اتخاذِ المدَارس والرُّبُط لتعليم الكتاب والسنَّة ، وبناء المساجد المقدَّسة يَبني له بها الله البيوتَ في الجنَّة ، والله لا يضيِّعُ عمَل عاملٍ فيما أظهره أو أَكَنَّه .

وإنّ ما أنتجَتْه قرائح هِمَّته وعنايتِهِ ، وأطلعته آفاق عَدله وهِدايته ، وَوَضَحت شواهدُه على بُعد مداه في الفخْر وغايتِه ، ونُجحَ مقاصده في الدين وسِعايتِه ؛ هذا المَصنَعَ الشَّريف ، والهيْكل الهِمَم البشَرية ترتيبُه وَرصفه ، لا ! بل الكلمَ السِّحرية تمثيله ووَصْفُه وشمخ بِمطاولة السُّحب ومناولة الشُهب مارِنُه[1] العزيز وأَنفُه ، وازْدهي بلَبُوس السَّعادة والقَبول من الله عِطْفُه ؛ إن فَاخرَ بَلاَطَ الوليد ، كان له الفَخار ؛ أو باهَى القصْرَ والإيوان ، شهِد له المحْرابُ والمَنار ؛ أو ناظرَ صَنْعَاءَ وغمْدان ، قامت بحجَّتِه الآثار. إنما هو بهوٌ مِلؤه دينٌ وَإسلام ، وقصرٌ عليه تحيةٌ وسَلام ، وفضَاء ربّاني يَنشأُ في جوّه للرَّحمة والسَّكينة ظُلَّةٌ وَغمام ، وكوكَبُ شرْقٍ يُضَاحِكُ وجهَ الشَّمس منه ثَغْرٌ بسَّام ؛ دَفع إلى تَشْييد أركانه ، ورَفْع القواعد من بُنيانِه ، سَيْفَ دَولته الذي استلَّه من قِراب مُلْكه وانتَضاه ، وسَهمَه الذي عَجَمَ عيدان كِنانَته فارتضاه ، وحُسامَ أمره الذي صَقَل فِرندَه[2] بالعز والعَزم وأَمضاه ، وحاكمَه المؤيَّدَ الذي طالب غَريم الأيام ، بالأمل العزيز المرَام ؛ فاستوفى دَيْنَه واقْتَضاه ، الأمير الأعزَّ الأعلى جهركس[3] الخليلي أمير الماخورية باسطبله المنيع . حرسه الله من خطوب الأيام ، وقسَم له من عِناية السلطان أوفر الحُظوظ والسهام ؛ فقام بالخَطْو الوَساع ، لأمره المُطاع ، وأغْرَى بها أَيْدي الاتقان والإبداع . واختصَّها من أَصناف الفعَلة بالماهر الصَّناع ، يتناظرون في إجادة الأشكال منها والأوضاع ، ويتَناولون الأعمالَ بالهِنْدام إذا توارت عن قُدْرتهم بالامتناع ؛ فكأنَّ العَبْقَرِيَّ[4] ، يَفْري — الفَرِيَّ[5] ، أو

(١) المارن : طرف الأنف أو ما لان من طرفه .

(٢) فرنده : السيف ، جوهر السيف ووشيه وهو ما يرى فيه شبه مدبّ النمل أو شبه الغبار.

(٣) هو الأمير سيف الدين جهركس (ويكتب : جهاركس ، وجاركس) بن عبدالله اليلبغاوي الحليلي ، الذي ينسب اليه «خان الخليلي» المعروف اليوم بالقاهرة . قتل بظاهر دمشق سنة ٨٩١ هـ في الوقعة بين منطاش ، والظاهر برقوق. خطط المقريزي ١٥٢/٣ — ١٥٣ ، طبع مصر. وقد ضبط في « المنهل » : « جاركس » وهو لفظ أعجمي معناه أربعة أنفس .

(٤) العبقري نسبة الى « عبقر » . وهي قرية تسكنها الجن فيما زعموا . ويقولون اذا تعجبوا من جودة شيء أو غرابته . او دقة صنعه : هو عبقري . ثم توسعوا فسموا الرجل ، والسيد ، والكبير— عبقرياً . (لسان العرب) .

(٥) يقال هو يفري الفري : اذا عمل عملا فأجاده .

العَفاريت ، قَدِمَت من أَماريت[1] . وكأنما حُشِرَت الجنُّ والشَّياطين ، أو نُشِرَت القَهارِمَة[2] من الحُكماء الأُوَل والأساطين ، جابوا لها الصّخر بالأذْواد[3] لا بالواد ، واستنزلوا صُمّ الأطوادِ على مَطايا الأعْواد ، ورفعوا سَمكها إلى أقصَى الآماد ، على بعيد المَهْوَى من العِماد . وغَشُّوها من الوَشْيِ الأزهرِ ، المُضاعَف الصَّدَف والمَرْمَر ، ومائع اللُّجَيْن الأبيض والذَّهب الأحمر ، بكُلّ مُسَهَّم الحواشي حالي الأبراد ؛ وقدَّروه مساجدَ للصّلوات والأذكار ، ومقاعدَ للسُّبُحات[4] بالعَشِيِّ والإبكار ، ومجالسَ للتِّلاوة والاستغفار ، في الآصال والأسْحار ، وزَوايا للتَّخَلِّي عن ملاحظة الأسماع والأبصار ، والتَّعَرُّضِ للفتوح الرَّبَّانية والأنوار ؛ ومدارسَ لقَدْح زِناد الأفكار ، ونِتاج المَعارف الأبكار ، وصَوغ اللُّجَيْن والنُّضار ، في مَحَكِّ القرائح والأبْصار . تَتَفَجَّر ينابيعُ الحكمة في رياضه وبُستانه ، وتَتَفَتَّح أبواب الجنَّة من غُرَفه وإيوانه ، وتُقْتادُ غُرُّ السَّوابق من العُلوم والحَقائق ، في طَلَق[5] مَيْدانه ، ويَصْعَدُ الكَلِم الطَّيِّبُ والعملُ الصَّالحُ إلى الله من نواحي أركانِه ؛ وتُوَفَّرُ الأجور لغاشيته مُحتَسَبةً عندالله في ديوانه ، راجِحَةً في ميزانه .

ثم اختارَ لها من أَئمة المذاهب الأربعة أعياناً ، ومن شيوخ الحقائق الصُّوفية فُرساناً ؛ تَصفَّح لهم أهلَ مَملكتِه إنساناً إنسَاناً ، وأشد بقَدرهم عِنايةً وإحساناً ، وَدَفعهم إلى وظائفه توسُّعاً في مذاهب الخير وافتناناً . وعهِد إليهم برياضة المريدين ، وإفادة المستفيدين ، احتساباً لله وقربانا ، وتقيُّلاً[6] لمذاهب الملوك من قومِهِ واستناناً ؛ ثمَّ نظمني معهم تطولا وامتِناناً ، ونعمةً عظُمت موقِعاً وجَلَّت شاناً ؛ وأَنا وإِن كُنْت لقصور البضاعَة ، متأخراً عن الجماعة ، ولقُعود الهمَّة ، عيالا على هؤلاء الأئمة ، فسَمْحُهم يغَطِّي ويُلْحف ، وبمواهب العَفْو والتَّجاوز يَمْنَح ويُتْحف . وإنما هي رحمة من مولانا السلطان ــــ أيّده الله ــــ خَصّت كما عَمَّت ، ووسَمت أَغفال النَّكِرَة والإهمال وسَمَّت ؛ وكمَلَت بها مواهب عَطْفه وجَبْره وتمَّت ؛ وقد ينتظِم الدرُّ

---

(١) أماريت : جمع الجمع لمرت : وهي المفازة والقفر لا نبات فيه .

(٢) القهارمة : جمع قهرمان ، الوكيل أو أمين الدخل والخرج (قاموس) .

(٣) الأذواد جمع ذود ؛ وهو الجماعة من الابل . لا يتجاوز عددها الثلاثين ولا يقلّ عن الثلاث .

(٤) جمع سبحة : وهي التطوع في الدعاء والصلاة .

(٥) الطلق : الشوط الواحد في جري الخيل ، والغاية التي يجري اليها الفرس في السباق .

(٦) بمعنى من تقيل أباه : أشبهه ، وعمل عمله .

مع المرْجان ، وتُلْتَبَسُ العصَائب بالتّيجان ؛ وتُراض المسومّة[1] العِرابُ[2] على مُسابقة الهِجان[3] ؛ والكلُّ في نظر مَولانا السلطان وتصريفه ، والأهليةُ بتأهيله والمعرفةُ بتعريفه ، وقِوام الحياة والآمالِ بلطائف إحسانه وصُنوفِه ؛ واللهُ يُوزِعُنا شُكرَ مَعرُوفه ، ويوفّقُنا للوفاء بشَرطه في هذا الوقْف وتكْليفه ، ويَحْمي حِماه من غيَر الدَّهر وصُروفِه ، ويُفِيءُ على مَمالك الإسلام ظِلالَ أَعلامه ورماحِهِ وسُيوفِه ، ويُريه قُرَّة العَينِ في نَفْسِهِ وبَنِيه ، وحاشِيَتِهِ وذَوِيه ، وخاصَّتِه ولفِيفه ، عنِ اللهِ وفضله .

ثم تعاون العِداةُ عند أَمير الماخُورِية[4] ، القائم للسلطان بأُمور مدرستِه ، وأغرَوه بصَدّي عنها ،وقَطْع أَسبابي من ولايتها ، ولم يُمكِنِ السلطانَ إلاَّ إسعافُه فأَعرَضتُ عن ذلك ، وشُغِلتُ بما أنا عليه من التَّدريس والتَّأليف .

ثمَّ خرجتُ عام تسعةً وثمانين وسبعمائة للحجّ ،واقتضَيتُ إذنَ السلطان في ذلك فأسعَف ، وزودّ هو وأمراؤه بما أوسَع الحالَ وأرْغدَه ؛ وركِبتُ بحرَ السويس من الطُّور الى اليَنْبُع ؛ ثم صَعِدتُ مع المَحْمِلِ إلى مَكَّة ؛ فقَضيتُ الفرَض عامَئذٍ وعُدتُ في البَحْر ؛ فنزلتُ بساحل القُصَيْر ؛ ثم سافرتُ منه إلى مدينة قُوص في آخر الصعيد ، وركبت منها بحرَ النيل إلى مِصر ، ولقيتُ السلطان ، وأخبرتُه بدُعائي له في أماكن الإجابة ، وأعادَني إلى ما عَهِدتُ من كرامته ، وتفيُّء ظِلّه .

ثم شَغرت وظيفةُ الحديث بمدرسة صلغتمش[5] فولاّني إياها بدلاً من مدرسته وجسلتُ للتدريس فيها في مُحَرَّمِ أحدٍ وتسعين وسبعمائة ، وقمتُ ذلك اليومَ — على العادة — بخطبةٍ نَصُّها :

«الحمد لله إجلالاً وإعظاماً ، واعترافاً بحقوق النِّعم والتزاماً ، واقتباساً للمَزيد منها

---

(١) المسومة من الخيل : المرعية ، والمعلمة .

(٢) العراب من الإبل ، والخيل : التي ليس فيها عرق هجين .

(٣) الهجان : جمع هجين ؛ وهو الفرس الذي ليس بعتيق .

(٤) الماخورية : من الماخور : ج مواخر ومواخير : مجلس الفسّاق بيت الريبة والدعارة . وقيل ان هذه الكلمة فارسية الأصل من (خور) وقيل هي عربية من (مخرت السفينة) لتردّد الناس الى المكان المسمى بها .

(٥) كذا في الأصل : «صلغتمش» ، ولعلها كانت تنطق باللام فسجلها ابن خلدون كما سمعها . والمدرسة الصرغتمشية هذه التي تقع بجوار جامع أحمد بن طولون ، تنسب إلى بانيها الأمير سيف الدين صرغتمش الناصري أمير رأس نوبة ، المتوفى سجيناً في الاسكندرية سنة ٧٥٩ . خطط المقريزي ٢٥٦/٤ — ٢٥٨ طبع مصر .

واغتناماً ، وشكراً على الذي أحسَن وتماما ، وسع كلّ شيء رحمةً وإنعاماً ، وأقام على توحيده من أكوانه ووُجوده آياتٍ واضحةً وأعلاماً ، وصَرَّف الكائناتِ في قَبضَة قُدرته ظهوراً وَخفاءً وإيجاداً وإعْداماً ، وأعطَى كلّ شيء خَلْقَه ثم هداه إلى مصالحه إلهاماً ، وأودَع مَقدورَ قضائه في مسطور كتابه ، فلا يَجدُ مَحيصاً عنه ولا مَراماً .

والصلاةُ والسّلام على سيّدنا ومولانا محمَّدٍ نبيِّ الرّحمة الهامية غماماً[1] والملحَمة التي أراقت من الكُفْر نجيعاً وحطَّمت أصْناماً ، والعُروة الوُثْقى ، فازَ من اتخذها عِصاماً[2] ، أول النَّبيِّين رُتْبةً وآخرهم ختاما ، وسيّدهم ليلةَ قاب قوسَين إذ بات للملائكة والرُّسلِ إماماً ؛ وعلى آله وأصحابه الذين كانوا رُكْناً لدعوته وسَناماً[3] وحرباً على عدوّه وسِماماً[4] ، وصَلوا في مُظاهرته جداً واعتزاما ، وقطَعوا في ذات الله وابتغاء مرضاتِه أنساباً وأرحاما ، حتى مَلأُوا الأَرض إيماناً واسْلاما ، وأوسعوا الجاحد والمُعاند تبكيتاً وإرغاماً[5] ، فأَصبحَ ثَغر الدين بَسَّاما ووجهُ الكُفر والبَاطل عَبوساً جَهاماً . صلّى الله عليه وعليهم ما عاقبَ ضِياءٌ ظَلاَماً ، صلاةً ترجّح القَبول ميزاناً ، وتُبوِّىءُ عندَ الله مَقاماً .

والرضى عن الأئمة الأربعة ، الهداة المتَّبَعَة ، مصَابيح الأمان ومَفاتيح السُّنَّة الذين أحسَنوا بالعلم قياماً وكانوا للمتَّقِين إماماً .

أمّا بعد فإن الله سبحانه تكفل لهذا الدين بالعَلاء والظُّهور ، والعز الخالد على الظُّهور ، وانفِسَاح خُطَّته في آفاق المَعْمور ، فلم يَزَل دولة عظيمة الآثار ، غزيرةَ الأنصار ، بعيدَة لصِّيت عالية المقدار ، جامعةً ــ بمحاسنِ آدابهِ وعزّةَ جَنابه ــ معانيَ الفَخار ، مُنَفِّقَةً بضائعَ علومه في الأقطار ، مفجرةً ينابيعها كالبحار ، مُطْلعةً كواكبَها المنيرة في الآفاق أضوأً من النهار ؛ ولا كالدولة التي استأثرت بقبلة الإسلام ومنابره ، وفاخرت بحرُمات الله وشعائره واعتَمدَت بَركَةَ الإيمان وأَواصره ، واعتَملَت في إقامة رُسُوم العلم ليكون من مفاخره ، وشاهداً بالكمال لأَوّله وآخره .

وإن مولانا السلطانَ الملِك الظّاهر ، العزيز القاهِر ، شَرف الأوائل والأواخر ، ورَافع

---

(١) همت السماء : امطرت ؛ والغمام : القطر نفسه .

(٢) العصام : رباط كل شيء . من حبل ونحوه .

(٣) السنام : المرتفع من الرمل ، والجبل ، والمراد انه ملجأ .

(٤) السمام : جمع سم ؛ وفي حديث عن علي رضي الله عنه : (الدنيا غذاؤها سمام) .

(٥) الجهام : السحاب لا ماء فيه ، ويريد : كريهاً لا خير فيه .

لواء المعالي والمفاخر ، ربّ التّيجانِ والأسرَّة والمنَابر ، والمُـجلّي في مَيْدان السَّابقين من الملوك الأكابر ، في الزمن الغابر ، حاملُ الأمَّة بنظره الرشيد ورأيه الظافر ، وكافلُ الرعايا في ظلّه المَديد وعَدْله الوافِر ، ومُطْلِع أنوار العزّ والسَّعادة من أُفْقِه السَّافِر ؛ واسطة السِّلك من هذا النِّظام ، والتَّاج المحلّى في مفارق الدول والأيام ، سيّد الملوك والسلاطين ، بركةُ الإسلام والمسلمين ، كافل أمير المؤمنين ، أبو سعيد . أعلى الله مقَامه ، وكافأً عن الأمَّة إحسانه الجزيلَ وأنعامَه ، وأطال في السَّعادة والخيرات المبْدأة المُعادة لياليَه وأيامه ؛ لما أوسع الدين والمُلك نظراً جميلاً من عنايته ، وأنام الخلق في حُجْر كفالته ، ومهاد كفايته ، وأيقظ لتَفقُّد الأمور ، وصلاح الخاصَّة والجمهور ، عينَ كلاءتِه ، كما قلَّده الله رعايته[1] وأقامَ حكامَ الشريعة والسياسة يُوسِعون نِطاقَ الحق إلى غايته ، ويُطْلِعون وجه العدل سافراً عن آيته . ونَصَب في دست النيابة من وثق بعدله وسياسته ، ورضِي الدينُ بحُسن إيالته ، وأمَّنَه على سُلطانه ودولته ، وهو الوفيُّ — والحمد لله — بأمانته ؛ ثم صَرفَ نظره إلى بيوت الله يُعْنى بإنشائها وتأسيسها ، ويعمل النَّظرَ الجميلَ في إشادتها وتَقديسها ، ويقرضُ الله القَرْضَ الحسَن في وقْفها وتحبيسها وَينصِب فيها لبَثّ العلم من يُؤَهِّله لوظائفها ودُروسها ؛ فيُضْفي عليْه بذلك من العناية أفخر لبوسَها ، حتى زهت الدولةُ بمِلكها ومصرِها ، وفاخرت الأنامَ بزمانها الزاهر وعَصرِها . وخضَعت الأواوين لإيوانها العَالي وقصرِها ؛ فابتَهج العالمُ سروراً بمكانها ، واهتزّت الأكوانُ للمُفاخرة بشأنها ، وتكَفَّلَ الرّحمن ، لمن اعتزّ به الإيمان ، وصلُح على يَده الزمان ، بوفور المثُوبة ورُجحانها .

وكان مما قد من به الآن تدريسُ الحديث بهذه المدرَسة وقْف الأمير صرغتمش من سَلَف أُمراءِ التُّرك ، خفَّفَ الله حسابه وثقَّل في الميزان — يوم يُعْرَض على الرحمن — كتابه ، وأَعْظَم جزاءَه في هذه الصّدقَة الجارية وثوابه ، عنايةً جدّد لي لباسها ، وإيثاراً بالنِّعمة التي صحَّحتُ قياسَها ، وعرفتُ منه أنواعها وأجناسها ، فامتثلتُ المَرْسوم ، وانطلقْت أقيمُ الرُّسُوم ، وأشكرُ من الله وسُلطانه الحظّ المقسوم . وَأنا مع هذا مُعْترِفٌ بالقُصُور ، بين أهل العُصور ، مُستعيذٌ بالله وبركةِ هؤلاءَ الحُضور ،

---

(١) كذا في الأصل ؛ ولعلها : «قلده الله حق رعايته» ، أو «واجب رعايته» ، أو نحو هذا .

السَّادة الصُّدور ، أن يجْمَحَ بي مَركبُ الغُرور ، أو يَلِجَ شيطانُ الدَّعوى والزُّور ، في شيءٍ من الأمور . والله تعالى ينفع مولاَنا السلطان بصَالح أعماله ، ويُعرِّفه الحُسْنى وزيادة الحظّ الأسْنى في عاقبته ومآله ، ويُريه في سُلطانِه وبَنيه وَحاشيته وذويه قُرَّة عينه ورضى آمالِه ، ويديم على السَّادة الأمراءِ ما خوَّلهم من رضَاه وإقبالِه ، ويحفظ المسلمين في هذا الأمر السَّعيد بدوامِه واتِصاله ، ويسدِدُ قُضاتَهم وحُكامَهم لاعتماد الحقِ واعتمالِه بمنِ الله وإفضَاله .

وقد رأيتُ أَن أُقرّر للقراءة في هذا الدَّرس ، كتاب الموطأ للإمامَ مَالك بن أنس ، رضي الله عنه ، فإنه من أُصول السُّنن ، وأُمَّهات الحديث ، وهو معَ ذلك أَصلُ مَذهبنا الذي عليه مَدار مَسائله ، وَمناطُ أحكامه ، وإلى آثاره يرجع الكثير من فِقهه .

فلنَفتَتِح الكلامَ بالتَّعريف بمؤلفه — رضي الله عنه ، ومكانه من الأمانة والديانة ، ومنزلة كتابه «المَوطَّأ» من كُتُبِ الحَديث . ثم نذكُر الرواياتِ والطُّرقَ التي وَقعت في هذا الكتاب ، وكيفَ اقتصرَ الناسُ منها على رواية يَحْيي بن يَحْيي ، ونَذكرُ أَساندي فيها ، ثم نرجعُ إلى الكلامَ على متن الكتاب .

أما الإمام مالك — رَضي الله عنه ، فهو إمام دار الهجرة ، وشَيْخ أَهل الحجاز في الحديث والفِقه غير مُنازَع ، والمقلَّدُ المَتْبُوع لأَهْل الأَمْصَار وخصوصاً أهلَ المغرب .

قال البُخاري : مالك بن أنس بن أبي عَامر الأصبَحي . كُنيتُه أبو عبدالله ، حَليف عبد الرحمن بن عثمان بن عُبَيد الله القُرشي التَّيْمي ابن أخي طلحةَ بن عُبَيد الله . كانَ إماما ، رَوَى عَنه يَحيَى بنُ سَعِيد . انتهى كلام البخاري .

وجدُّه أبو عامر بن عَمرو بن الحرث بن عثمان ويقال : غَيمان بغين معجمة مفتوحة ، وياءٍ تحتانية ساكنة ، ابنُ جُثَيل بجيم مضمومة وثاء مثلَّثة مفتوحة ، وياء تحتانية ساكنة ؛ ويقال حُثيل أو خُثيل بحاء مضمومة مهملة أو مُعجمة ، عوضَ الجيم ؛ ويقال حِسْل بحاء مهملة مكسورة ، وسين مهملة ساكنة ، ابن عَمرو بن الحرث ؛ وهو ذو أَصبَح . وذُو أَصبَح بطنٌ من حِميَر ، وهمْ إخوةُ يَحْصُب ، ونَسَبُهم معروف ؛ فهو حِميَريّ صَلِيبة ، وقُرَشيٌّ حِلْفا . وُلد سنة إحدى وتسعين[1] — فيما

(١) في مولد مالك اقوال اخر غير ما ذكر ابن خلدون تجدها في «الانساب» للسمعاني ، و«وفيات» ابن خلكان ؛ و«الانتقاء» لابن عبد البر ص ١٠ .

قال ابن بُكير[1] . واربع وتسعين — فيما قال محمد بن عبدالله بن عبد الحَكَم[2] ؛ ونشأ بالمدينة ، وتفقَّه بها . أخذ عن رَبيعةِ الرأي[3] ، وابن شِهاب[4] وعن عمِّه أبي سُهَيل[5] ، وعن جماعة ممَّن عاصَرهم من التَّابعين وتابعي التَّابعين ؛ وجلَس للفُتيا والحديث في مَسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم شاباً يُناهز العشرين ، وأقام مُفتياً بالمدينة ستين سنة . وأخَذَ عنه الجَمُّ الغَفير من العُلَماءِ الأعلام ، وارتحل إليه من الأمْصار من لا يُحصَى كَثرة ؛ وأعظمُ من أخذَ عنه الإمام محمَّد بن إدريس الشَّافعي[6] ، وابنُ وَهْب[7] ، والأوزاعي[8] ، وسفيانُ الثَّوري[9] ، وابنُ المُبارك[10] — في أمثال لهُم وأَنظار . وتوّفي سنة تسع وسبْعين ومائة باتفاق من الناقلين لِوفاته ، وقال الواقدي[11] : عاشَ مالكٌ تسعين سنة ، وقال سحْنُون[12] عن ابن

(١) هو يحيى بن عبدالله بن بكير القرشي المخزومي بالولاء المصري [١٥٤ — ٢٣١] احد رواة «الموطأ» عن مالك .

(٢) ابو عبدالله محمد بن عبد الحكيم الفقيه الشافعي المصري المشهور[١٨٢ — ٢٦٨] . «وفيات» ٥٧٨/١ .

(٣) هو ابو عثمان ربيعة بن أبي عبد الرحمن فروخ مولى آل المنكدر.. المعروف بربيعة الرأي . فقيه مدني جليل . أدرك جماعة من الصحابة . توفي بالأنبار بمدينة «الهاشمية» سنة ١٣٦ على خلاف . «المعارف» لابن قتيبة ص ٢١٧ (وفيات) ٢٢٨/١ .

(٤) أبو بكر محمد بن مسلم بن عبيدالله بن شهاب الزهري القرشي . من أجل فقهاء التابعين بالمدينة . أدرك جماعة من الصحابة [٥١ — ١٤٢] على خلاف في المولد والوفاة . (وفيات) ابن خلكان ٥٧١/١ — ٥٧٢ .

(٥) نافع بن مالك بن أبي عامر الأصبحي أبو سهيل التيمي . مات في إمارة أبي العباس . تهذيب التهذيب ٤٠٩/١٠ .

(٦) الإمام المجتهد أبو عبدالله محمد بن ادريس بن العباس بن عثمان بن شافع ينتهي نسبه إلى عبد مناف بن قصيّ ، حيث يجتمع مع رسول الله صلى الله عليه وسلم [١٥٠ — ٢٠٤] «الانتقاء» لابن عبد البرص ٦٦ — ١٢٢ .

(٧) أبو محمد عبدالله بن وهب بن مسلم القرشي المصري (١٢٥ — ١٩٧) ، لازم مالكا مدة طويلة .

(٨) ابو عمرو عبد الرحمن بن عمرو بن يحمد الأوزاعي ، ونسبته اما إلى «الأوزاع» بطن من همدان ، أو من ذي كلاع من اليمن ، أو الى «الأوزاع» قرية بدمشق نزل بها فنسب إليها أدخلته أمه «بيروت» فسكنها ، وبها مات سنة ١٥٧ ، ومولده ببعلبك سنة ٨٨ ، أو ٩٣ . «المعارف» لابن قتيبة ص ٢١٧ ، «وفيات» ٣٤٥/١ .

(٩) أبو عبدالله سفيان بن سعيد المعروف بالثوري ، أحد الأئمة المجتهدين ، ولاه المهدي قضاء الكوفة فامتنع ، ورمى بصك الولاية في دجلة . «وفيات الاعيان» ٢٦٣/١ .

(١٠) أبو عبد الرحمن عبدالله بن المبارك بن واضح المروزي مولى بني حنظلة ، أحد رواة «الموطأ» عن مالك . «وفيات» ٣١١/١ .

(١١) أبو عبدالله محمد بن عمر بن واقد المدني صاحب «المغازي» ؛ تولى القضاء ببغداد في أيام المأمون . ضعفوه في الحديث [١٣٠ — ٢٠٧] . «وفيات» ٦٤٠/١ .

(١٢) أبو سعيد عبد السلام بن سعيد بن حبيب التنوخي الفقيه المالكي المشهور. [١٦٠ — ٢٤٠] .

نافع[1] : توفي مالك ابن سبع وثمانين سَنة ، ولم يختلِف أهلُ زمانه في أمانته ، وإتقانه ، وحفظه وتَثَبُّته وورَعه ، حتى لقد قال سُفيان بن عُيَيْنَة[2] : كُنَّا نَرَى في الحديث الوَارِد عن رَسُول الله صلى الله عليه وسلَّم : «تُضْرب أكباد الإبل في طلب العلم فلا يُوجد عَالم أَعلم من عالِم المدينة» إنَّه مالك بن أنس .

وقال الشافعي : إذا جاء الأثر فمالك النّجم ، وقالَ : إذا جاءك الحديث عن مالك ، فشُدّ به يدَيْك ، وقَال أحمد بن حَنبل[3] : إذا ذُكر الحَديث فمالك أمير المؤمنين .

وقد ألّف الناس في فَضائله كتباً ، وشأْنه مشهور .

وأما الذي بعثه على تصنيف «المُوَطّأ» — فيما نقل أبو عُمَر بنُ عبد البرّ — فهو أن عبدَ العزيز بن عبدالله بن أبي سلَمة الماجشون[4] ، عَمِل كتاباً على مثال «الموطأ» ، ذَكَر فيه ما اجتَمع عليه أهلُ المدينة ، ولم يَذكر فيه شيئاً من الحديث ، فأُتِيَ به مالك ، ووقف عليه وأعجبه ، وقال : ما أحسنَ ما عمِل هذا ! ولو كنتُ أنا الذي عمِلتُ لبدأت بالآثار ، ثم شددت ذلك بالكلام . وقال غيره : حجّ أبو جعفر المنصور[5] ، ولقِيه مالك بالمدينة ، فأكرَمه وفاوضه . وكان فيما فاوَضه : يَا أبا عبدالله لم يبقَ على وجه الأرض أعلم مني ومنك ، وقد شغلتني الخلافة ، فضع أنت للناس كتاباً ينتفعون به ، تَجنَّبْ فيه رُخصَ ابنِ عبَّاس[6] وشَدَائدَ ابنِ عُمر[7] وَوَطّئه للناس

(1) أبو محمد عبدالله بن نافع بن أبي نافع الصائغ المخزومي ، يروي عن مالك كثيراً ، ولهم في الثقة به كلام .

(2) سفيان بن عيينة بن أبي عمران أبو محمد المحدث المشهور (١٠٧ — ١٩٨) «وفيات» ١/٢٦٤ .

(3) أبو عبدالله أحمد بن حنبل الإمام المجتهد المعروف ، ينتهي نسبه إلى بني شيبان (١٦٤ — ٢٤١) . «وفيات» ١/٢٠ .

(4) عبد العزيز بن عبدالله بن أبي سلمة الماجشون المتوفى سنة ١٦٤ ببغداد في خلافة المهدي . «المعارف» ص ٢٠٣ ، «تهذيب التهذيب» ٦/٣٤٣ .

(5) أبو جعفر المنصور عبدالله بن محمد بن علي بن عبدالله بن العباس الخليفة العباسي الثاني تولى الخلافة سنة ١٣٦ ، وتوفي سنة ١٥٨ . له ترجمة واسعة في «تاريخ الطبري» ٩/٢٥٤ — ٣٢٣ .

(6) أبو العباس عبدالله بن العباس بن عبد المطلب بن هاشم ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وصاحبه ولد قبل الهجرة بثلاث سنين ، وتوفي سنة ٦٨ على خلاف في سنة الوفاة . تاريخ الإسلام للذهبي ٣/٣٠ — ٣٧ .

(7) أبو عبد الرحمن عبدالله بن عمر بن الخطاب القرشي العدوي صاحب رسول الله ، وابن صاحبه . وفي سنة ٧٣ ، وكان عمره يوم الخندق ٢٥ سنة . تاريخ الإسلام للذهبي ٣/٢٧٧ — ٢٨٤ .

توطئة . قال مالك : فلقد علَّمني التأليف ؛ فكانت هذه وأمثالُها من البواعث لمَالك على تَصنيف هذا الكتاب ، فصنَّفه وسمّاه «الموطأ» أي المُسهَّل[1] . قال الجوهري وَطُؤ يوطُؤُ وَطَاءَةً ، أي صَار وطيئا ؛ ووطَّأته تَوطِئة ؛ ولا يُقَال وطَّيْتُه[2] . ولما شُغِل بتَصنيفه أخذَ النَّاسُ بالمدينة يومئذٍ في تَصْنيف مُوطّآت ، فقال لمَالكٍ أصحابُه : نَراكَ شَغَلت نفسِك بأمرٍ قد شركَك فيه النَّاسُ ؛ وأتِي ببَعْضِها فنظرَ فيه ، ثم طرحه من يده وقال : ليُعلمَنَّ أن هذا لا يرتفِعُ منه إلا ما أُريد به وجهُ الله ؛ فكأنما أُلقيت تلك الكُتُب في الآبار ، وما سُمِع لشيءٍ منها بعدَ ذلك ذِكر ، وأقبل مالك على تهذيب كتابه وتوطئته ؛ فيُقال إنه أكمله في أربعين سنة . وتلقَّت الأمة هذا الكتاب بالقبول في مشارق الأرض ومغاربها ، ومن لدُن صُنِّف إلى هلم[3] . وطالَ ثَناء العُلماء في كلّ عصْر عليه ، ولم يَختلف في ذلك إثنان . قال الشَّافعيّ ، وعبدُ الرحمن بن مَهْدي[4] : ما في الأرضِ كتابٌ بعد كتابِ الله أنفعَ ، وفي رواية أصحَّ ، وفي رواية أكثر صواباً ، من «مُوَّطأ» مالك[5] . وقال يُونُس بن عَبْد الأعلى[6] : ما رأيتُ كتاباً ألّف في العلم أكثر صواباً من «مُوَطّأ» مالك .

وأما الطرقُ والرواياتُ التي وقعت في هذا الكتاب ، فإنه كَتَبَه عن مالك جماعة نُسِبَ الموطأ إليهم بتلك الرواية ، وقيل موطأ فلان لراويه عنه[7] فمنها موطأ الإمام محمد بن

---

(١) ذكر الزرقاني في شرحه للموطأ ١/٨ ، نقلا عن ابن فهد ، وجهاً آخر لتسمية بالموطأ ، قال : «.... قال مالك : عرضت كتابي هذا على سبعين فقيهاً من فقهاء المدينة ، فكلهم واطأني عليه ، فسميته بالموطأ» .

(٢) انظر لسان العرب (وطأ) .

(٣) كذا في الأصلين ، وهو استعمال غريب . وقد استعمله في «مقدمته» في فصل الكيمياء ص . وانظر شرح الشريشي على مقامات الحريري ١/٨٤ ، تاج العروس (جر) .

(٤) ابو سعيد عبد الرحمن بن مهدي بن حسان بن عبد الرحمن العنبري البصري المتوفي سنة ١٩٨ . «تهذيب التهذيب» ٦/٢٨١ ، «المعارف» ص ٢٢٤ .

(٥) بعد أن ألف البخاري ، ومسلم صحيحيهما ، لم تبق للموطأ هذه المكانة ، ومن هنا أولوا قول الشافعي هذا بأنه كان قبل وجود الصحيحين . وانظر مقدمة ابن الصلاح ص ١٤ ، تدريب الراوي ص ٢٥ ، مقدمة شرح الزرقاني على الموطأ ١/٩ ، مقدمة موطأ محمد بن الحسن اللكنوي ص ٢٦ طبع الهند سنة ١٣٠٦ .

(٦) أبو موسى يونس بن عبد الأعلى بن موسى بن ميسرة المحدث المقريء المصري (١٧٠ — ٢٦٤) . تهذيب التهذيب ١١/٤٤٠ ، طبقات القراء ٢/٤٠٦ .

(٧) في «ترتيب المدارك» ١/٣٤ ظ (نسخة خاصة) ، وشرح الزرقاني على الموطأ ١/٦ — كلمة جامعة عن الذين رووا الموطأ عن مالك ، وفي مقدمة عبد الحي اللكنوي لموطأ محمد بن الحسن : ان احد علماء =

إدريس الشافعي [١] ، ومنها موطأ عبدالله بن وهب ، ومنها موطأ عبدالله بن مَسْلَمة القَعْنَبي [٢] ، ومنها مُوطأ مطرِّف بن عبدالله اليَساري [٣] نسبة إلى سُليمان بن يَسَار ، ومنها موطَّأ عبد الرَّحمن بن القاسم [٤] رَواه عنه سُحْنون بن سَعيد ؛ ومنها موطأ يحيى بن يحيى الأندلسي [٥] . رحل إلى مالك بن أنس من الأندلس وأخذ عنْه الفقهَ والحديث ، وَرَجَع بعلم كثير وحديث جَمّ ؛ وكان فيما أخَذَ عنه «الموطأ» ، وأدخله الأندلسَ والمَغرب ؛ فأكبَّ الناسُ عليه ، واقتَصَروا على روايته دونَ ما سواها [٦] ، وعوَّلوا على نَسَقِها وترتيبها في شرحهم لكتاب «الموطأ» وتفاسيرهم ، ويشيرون إلى الروايات الأخرى إذا عرضت في أمكنتها ، فهُجِرت الرّوايات الأخرى ، وسائرُ تلك الطُّرق ، ودَرَست تلك الموطآت إلاّ موطأ يحيى بن يحيى ، فبروايته أخذ الناس في هذا الكتَاب لهذا العهد شرقاً وغرباً .

وأما سندي في هذا الكتاب المتَّصل بيحيى بن يحيى فعَلى ما أصِفه :

حدثني به جماعةٌ من شيوخنا رحمة الله عليهم . منهم إمام المالكية ، قاضي

= «دهلي» ، أورد في كتاب له بالفارسية سماه «بستان المحدثين» القول المستفيض عن الموطأ ، ومؤلفه ، ونسخه ؛ ويتبين من الخلاصة التي عربها عن الفارسية عبد الحي اللكنوي ان صاحب «البستان» كاد ان يستقصي الموضوع .

(١) قال أحمد بن حنبل : كنت سمعت الموطأ من بضعة عشر رجلا من حفاظ اصحاب مالك ، فأعدته على الشافعي لأنه أقومهم . زرقاني ١/٧ .

(٢) أبو عبد الرحمن عبدالله بن مسلمة بن قعنب القعني الحارثي المدني المتوفي سنة ٢٢١ أو ٢٢٠ . سمع من الإمام مالك نصف الموطأ بقراءة الإمام ، وقرأ هو الصف الباقي على الإمام .

(٣) مطرف بن عبدالله بن مطرف بن سليمان اليساري الهلالي أبو مصعب المدني ابن اخت الإمام مالك (١٣٧ — ٢١٤) ، على خلاف في وفاته . تهذيب التهذيب ١٠/١٧٥ الانتقاء ص ٥٨ .

(٤) أبو عبدالله عبد الرحمن بن القاسم بن جنادة العتقي المصري المالكي (١٢٨ — ١٩١) ، أول من نقل الموطأ إلى مصر . وكان ابو الحسن القابسي يقدم روايته للموطأ على غيره : ويقول في ذلك انه — مع ما يتصف به من الفهم والورع — قد اختص بمالك ، ولم يكثر من النقل عن غيره ، فخلص بذلك من ان تختلط عليه الفاظ الرواة ، او تتبدل الأسانيد ، وانما نقل كتاباً مصنفاً ، فهو وافر الحظ من السلامة في النقل .

(٥) هو ابو محمد يحيى بن يحيى بن كثير بن وسلاسن المصمودي البربري الليثي بالولاء . (١٥٢ — ٢٣٤) وفيات ٢/٢٨٥ — ٢٨٧ .

(٦) كان بقي بن مخلد المحدث الأندلسي يقدم على رواية يحيى هذه ، رواية أبي المصعب الزهري ، ورواية يحيى بن بكير ، وعاتبه في ذلك عبيدالله بن يحيى ، وأخوه اسحق بن يحيى ، فاحتج لفعله بأن أبا المصعب قرشي فاستحق التقديم ، وبأن يحيى بن بكير أكبر من أبيهما في السن ، وبأنه سمع الموطأ من مالك سبع عشرة مرة ، ويحيى أبوهما لم يسمعه إلا مرة واحدة .

الجَماعة بتُونس وشَيْخ الفُتْيَا بها ، أبو عَبْدالله محمد بن عبد السَّلام بن يوسف الهوَّاري ، سَمِعْتُه عليه بمنزله بتُونس ، من أوله إلى آخره . ومنهم شيخ المُسْنِدِين بتُونس ، الرَّحالة أبو عبَد الله محمد بن جابر بن سُلطان القَيْسي الوادي آشي ، سمعتُ عليه بَعضَه ، وأجازَني بِسائره . ومنهمُ شَيْخ المحَدثين بالأندلس ، وكبيرُ القُضَاة بها ، أبو البركات محمد بن محمد بن محمد ـــ ثلاثة من المحَدّثين ـــ ابن ابراهيم بن الحاجّ البَلَّفِيقي ، لقيتُه بفاس سنة ست وخمسين وسبعمائة من هذه المائة السابعة ، مَقْدَمَهُ من السَّفارة بين مَلك الأندلُس وملك المغرب . وحضرت مجلسَه بجامع القَروِيّين من فاس ؛ فسَمعتُ عليه بعضاً من هذا الكتاب ، وأجازني بسائره . ثم لقيتُه لقاءةً أخرى سنة إثنتين وستّين وسبعمائة ، اسْتَقْدَمَه ملك المغرب ، السلطانُ أبو سالم ابن السلطان أبي الحسَن للأخذ عنه ؛ وكنت أنا القَارىء فيما يأخذُه عنه ، فقرأت عليه صَدراً من كتاب «الموَطَّأ» ، وأجازني بسَائره إجازةً أُخرى .

ومنهم شيخ أهل المغرب لعصره في العلوم العقْلية ، ومُفيدُ جماعتهم ، أبو عبدالله محمد ابن إبراهيم الآبلي ، قرأتُ عليه بَعضَه ، وأجازني بسائره ، قالوا كلُّهم : حدثنا الشيخ المُعَمَّر ، أبو محمد عبدالله بن محمد بن هارون الطّائي[1] ، عن القاضي أبي القاسم أحمد بن يزيد بن بَقِيّ[2] ، عن الشيخ أبي عبدالله محمد بن عبد الحق الخزرَجي[3] .

وحدَّثني به أيضاً شيخُنا أبو البركات ، عن إمام المالكيّة ببجاية ، ناصر الدين أبي علي ، مَنْصُور بن أحمد بن عبد الحق المَشَدَّالي[4] ، عن الإمام شَرَف الدين

---

(١) أبو محمد عبدالله بن محمد بن هرون بن محمد بن عبد العزيز الطائي القرطبي ثم التونسي الإمام المسند. أخذ عنه الوادي آشي وغيره من مشايخ العلم والحديث (٦٠٣ ـــ ٧٠٢) . ديباج ص ١٤٣ الدرر الكامنة ٣٠٣/٢ .

(٢) أبو القاسم أحمد بن يزيد بن عبد الرحمن ... بن بقي بن مخلد (٥٣٣ ـــ ٦٢٥) . «التكملة لكتاب الصلة» ص ١٤١ طبع الجزائر سنة ١٣٣٧ هـ ، «تكميل الديباج» ص ٧٣ .

(٣) أبو عبدالله محمد بن عبد الحق بن أحمد بن عبد الرحمن بن محمد بن عبد الحق الخزرجي القرطبي . سمع من ابن الطلاع . ذكره ابن الأبار في «التكملة» ٢١٤/١ طبع مدريد سنة ١٨٨٩ م ؛ وقال انه لم يقف على وفاته .

(٤) منصور بن محمد بن أحمد بن عبد الحق الزوّاوي المشدّ الي ناصر الدين . وهو لقب لزمه من المشرق ، حيث انه رحل اليه ، وأخذ عن علمائه ؛ ويقول العبدري في «رحلته» : انه لم تكن له عناية والرواية ؛ ومشدّالة قبيلة من زواوة .

مُحمد بن أبي الفَضْل المُرسِي ، عن أبي الحسن علي بن موسى بن النَّقرات[١] عن أبي الحسن علي بن أحمد الكِنَاني[٢] . قال الخزرجي والكناني : حدثنا أبو عبدالله مُحمَّد بن فرج[٣] مولى ابن الطَّلاع ، عن القاضي أبي الوليد يونس بن عبدالله بن مُغِيث بن الصَّفَّار قاضي الجماعة بقرطبة .

وحدّثني به أيضا شيخُنا أبو عبدالله بن جابر عن القاضي أبي العباس أحمد بن محمد ابن الغمَّاز ، عن شيخه أبي الرَّبِيع سُليمان بن موسى بن سالم[٤] الكِلاعيّ ، عن القَاضي أبي القاسم عبد الرحمن بن حُبَيْش ، وأبي عبدالله محمد بن سَعيد بن زَرْقُون[٥] ، شارح كتاب «الموطأ» ، قال ابن زَرْقون : حدثنا به أبو عَبدالله الخوْلاني[٦] ، عن أبي عمرو عثمان بن أحمد القَيْجَاطِي[٧] ، وقال ابن حُبَيْش : حدَّثنا به القاضي أبو عبدالله بن أَصْبغ[٨] ويونس بن محمد بن مُغيث ، قالا : قرأناه على أَبي عبدالله مُحمد بن الطَّلاَّع[٩] . وقال ابن حُبَيش أيضاً : حدَّثَنا به أبو

(١) علي بن موسى بن علي (ويقال ابن القاسم) بن علي الأنصاري الجياني يعرف بابن النقرات يكنى أبا الحسن ، ويعرف ايضاً بابن أرفع رأسه (٥١٥ — ٥٩٣) ، ويقول ابن القاضي في جذوة الاقتباس انه كان حيا في سنة ٥٩٣ . طبقات القراء ٥٨١/١ ، الجذوة ص ٣٠٥ ، فوات الوفيات ٩٢/٢ ، تكملة الصلة ٦٧٤/٢ .

(٢) علي بن أحمد بن أبي بكر الكناني ، يعرف بابن حنين ، ويكنى أبا الحسن (٤٧٦ — ٥٦٩) سمع من ابن الطلاع موطأ مالك . جذوة الاقتباس ص ٣٠٤ .

(٣) هو الحافظ أبو عبدالله محمد بن فرج بن الطلاء بالهمزة ، وكان أبو مروان بن سراج يقول : كان فرج يطلي مع سيده اللجم في الربض الشرقي عند الباب الجديد من قرطبة ، قال : ومن قال الطلاع بالعين فقد اخطأ ، وكذلك قال أبو الوليد بن خيرة ، وقالا ايضاً : ان الطلاع بالعين هو والد مولاه محمد بن يحيى البكري المعروف بابن الطلاع . اما ابو بكر ابن برنجال الداني فيقول : هو بالعين لأن اباه كان يطلع النخل في قرطبة لاجتنائها فعرف بذلك . وقد رحل الناس الى ابن فرج من كل قطر لسماع الموطأ والمدنة ، وكان يحفظ الموطأ ، وله فيه سند عال . ديباج ص ٢٥٧ .

(٤) ابو الربيع سليمان بن موسى بن سالم بن حسان بن سليمان يعرف بابن سالم الكلاعي (٥٦٥ — ٦٣٤) .

(٥) محمد بن سعيد بن أحمد بن سعيد بن عبد العزير زرقون (٥٠٢ — ٥٨٦) ، آخر من حدث بالإجازة عن الخولاني ، وكان عالي الرواية . ديباج ص ٢٨٥ .

(٦) ابو عبدالله احمد بن محمد بن عبد الرحمن بن غلبون الخولاني (٤١٨ — ٥٠٨) روى عن جماعة ، منهم ابو عمرو عثمان بن احمد القيشطالي (القيجاطي) . صلة ٧٦/١ .

(٧) عثمان بن احمد بن محمد بن يوسف المعافري القرطبي يكني ابا عمرو ، ويعرف بالقيشيطيالي (القيشطالي ، القيجاطي ، توفي سنة ٤٣١ عن ٨٠ سنة) . صلة ٣٩٧/١ .

(٨) محمد بن اصبغ بن محمد بن اصبغ الأزدي ابو عبدالله ، سمع من ابي عبدالله محمد بن فرج ، توفي سنة ٥٣٦ ، وهو من ابناء الستين . صلة ٥٢٨/٢ .

(٩) محمد بن يحيى البكري المتوفي سنة ٤٩٧ . الاستقصا ١٢٩/١ .

القاسم أحمد بن مُحمد ورْد[1] ، عن القاضي أبي عبدالله محمد بن خَلَف ابن المُرابِط[2] ، عن المقريء أبي عُمَر أحمد بن محمد بن عبدالله المُعافِري الطّلَمَنْكِي[3] ؛ قال القاضي أبو الوليد بن مُغيث ، والقَيْجاطي ، والطّلَمَنْكي : حدّثنا أبو عيسَى يحيى بن عبدالله بن يحيى عن عم أبيه أبي مروان عبيدالله بن يحيى عن أبيه يحيى بن يحيى . وقال الطّلمنْكي : حدَّثنا أبو جعفر أحمد بن محمد بن حُدَيْر البَزَّاز ، قال حدثنا أبو محمد قاسم بن أَصْبَغ[4] ، قال حدثنا أبو عبدالله محمد ابن وضّاح[5] ، قال حدثنا يحيى بن يحيى عن مالك ، إلاّ ثلاثةَ أبواب من آخر كتاب الاعتكاف ، أولُها خروج المعْتكف إلى العيد فإنّ يحيى شَكّ في سماعها عن مالك ، فسمعها من زياد بن عبد الرحمن الملقَّب شَبْطون[6] عن مالك .

ولي في هذا الكتاب طرق أخرى لم يَحْضرني الآن اتّصالُ سنَدي فيها .

فمنها عن شَيخنا أبي محمد عبد المُهيمِن بن محمد الحَضرميّ كاتب السلطان أبي الحسَن ، لقيتُه بتُونس عند استيلاء السلطان عليها ، وهو في جملتِه سنَة ثمان وأربعين وسبعمائة ، وحضرتُ مجلسَه ، وأَخذتُ عنه كثيراً ، وسمعتُ عليه بعضَ « الموطأ » ، وأجازني بالاجازة العامَّة ، وهو يَرويه عن الأستاذ أبي جعفر بن الزُّبَير ، وعن شيخه الأستاذ أبي إسحق الغافقي ، وعن أبي القاسِم القَبْتُوري ، وجماعةٍ من مَشْيَخَة أهل سَبْتَة ؛ ويتّصل سنَدهُ فيه بالقاضي عِياض ، وأبي العَبَّاس العَزَفي صاحب كتاب (الدُّر المنَظَّم في المَوْلد المعظَّم) .

---

(١) احمد بن محمد بن عمر بن يوسف بن ادريس بن عبدالله بن ورد التميمي أبو القاسم (٤٦٥ — ٥٤٠) ، سمع الموطأ من ابي علي الغساني . احاطة ٥٧/١ .

(٢) القاضي ابو عبدالله محمد بن خلف بن سعيد المعروف بابن المرابط . اجازة ابو عمر الطلمنكي ، توفي بالمدينة بعد سنة ٤٨٠ . ديباج ٢٧٣ ، ٢٧٤ .

(٣) احمد بن محمد بن ابي عبدالله بن ابي عيسى المعافري ابو عمر الطلمنكي ، المتوفي سنة ٤٢٩ ديباج ص ٣٩ .

(٤) قاسم بن اصبغ بن محمد بن يوسف بن ناصح أبو محمد البياني القرطبي (٢٤٤ — ٣٤٠) ، سمع من ابن وضاح . تاريخ علماء الاندلس لابن الفرضي ٢٩٧/١ .

(٥) محمد بن وضاح بن بديع القرطبي ابو عبدالله (١٩٩ — ٢٨٦) ، على خلاف في مولده ، ووفاته ، سمع من يحيى بن يحيى . ديباج ص ٢٣٩ — ٢٤٠ .

(٦) زياد بن عبد الرحمن بن زياد اللخمي المعروف بشبطون [بشين معجمة مفتوحة فباء موحدة ساكنة ، وبعدها طاء تليها واو ساكنة فنون] ، اول من أدخل مذهب مالك الى الاندلس ، وكان اهلها قبله على مذهب الاوزاعي . توفي سنة ٢٠٤ على خلاف . نفح الطيب ٣٤٩/١ .

ومنها عن شيخنا أبي عبدالله الكوسي خطيب الجامع الأعظم بغرناطة ، سمعتُ عليه بعضَه وأجازني بسائره وهو يَرويه عن الأستاذ أبي جعفر بن الزُّبَير عن القاضي أبي عبدالله بن بكّار ، وجماعةٍ من مَشيخة أهل الأندلس ، ويتَّصل سَنده فيه بالقاضي أبي الوليد الباجي (١) ، والحافظ أبي عُمَر بن عَبد البرّ بسَندهما .

ومنها عن شيخنا المكتّب أبي عبد الله محمد بن سعد بن بُرَّال الأنصاري شيخ القراءة بتونس ، ومُعَلِّمي كتابَ الله ؛ قرأتُ عليه القرآن العظيم بالقِرآآت السَّبْع وعَرضتُ عليه قَصيدتي الشَّاطِبي (٢) في القراءة ، وفي الرَّسم ، وعَرَضتُ عليه كتابَ التَّقَصِّي لابن عبد البرّ ، وغيرَ ذلك ، وأجازني بالإجازة العامَّة ، وفي هذه بالإجازة الخاصة ، وهو يَروي هذا الكتاب عن القاضي أبي العبَّاس أحمد بن مُحمد بن الغَمَّاز ، وعن شيْخِه أبي العبَّاس أحمد بن موسَى البَطَرْني بسَندهما.

ومنها عن شيخنا الأستاذ أبي عبدالله محمد بن الصَّفَّار المَرَّاكُشي ، شيخ القرآآت بالمغرب ، سَمِعت عليه بعضَ هذا الكتاب بمجلس السلطان أبي عثمان مَلِك المَغرب ، وهو يُسمعه إياه ، وأجازَني بسائره ؛ وهو يَرويه عن شَيْخه مُحدِّث المَغْرب أبي عبدالله محمد بن رُشَيد الفِهْرِيّ السَّبْتيّ (٣) عن مشيَخَة أهل سبتَة ، وأهلِ الأندلُس ، حَسبَما ذلك مذكور في كُتبِ رواياتهم وطُرقِ أسانيدهم ، إلا أنّها لم تحضُرني الآن ، وفيما ذكرناه كفاية والله يوفقنا أجمعين لطاعتِه وهذا حينَ أَبتَدي ، وبالله أهتَدي .

وانفَضَّ ذلك المَجلس ، وقد لاَحَظتني بالتَّجلّة والوَقار العيُونُ ، واستشْعرتْ أهْليتي للمناصب القُلوبُ ، وأخلَص النَّجيَّ في ذلك الخاصَّةُ والجُمهُور ، وأَنا أنتابُ مجلسَ السلطان في أكثر الأحيان ، لِتأدية الوَاجب من التَّحية والمُشافهة بالدُّعاء ، الى أن سَخِط السلطانُ قاضيَ المالكية يومئذ في نزعةٍ من النَّزَعات الملوكية ، فأبعَدَه ، وأخَّره عن خِطَّة القَضاء في رجبِ ستٍّ وثمانين وسبعمائة ، ودَعاني للولاية في مجلسه ، وبينَ أمرائه فَتفاديتُ من ذلك ، وأَبى إلاّ إمضاءه ، وخلَع عليّ ، وبَعثَ الأمراءَ

---

(١) سليمان بن خلف بن سعد بن ايوب ابو الوليد القاضي . رحل الى المشرق ، وعاد الى الاندلس بعلم كثير (٤٠٣ — ٤٩٤) . ديباج ص ١٢٠ .

(٢) اللامية المسماة بحرز الاماني ، والمشهورة بالشاطبية ، والرائية ، وتسمى «عقيلة اتراب القصائد» .

(٣) هو ابو عبدالله محمد بن عمر بن محمد بن عمر ...... بن رشيد الفهري السبتيّ (٦٥٧ — ٧٢١) .

معي إلى مَقْعد الحُكم بمدرسة القَضاء ؛ فقُمت في ذلك المَقامَ المحمُود ، ووفّيت عهدَ الله وعهدَه في إقامة رُسُوم الحقّ ، وتحريّ المَعدَلة ، حتى سَخِطني من لم تُرضِهِ أحكامُ الله ، ووقع في ذلك ما تقدّم ذكرُه ، وكثُر شَغَب أهلِ الباطِل والمِراء ، فأعفاني السلطان منها لحَوْلٍ من يوم الوِلاية ، وكان تقدَّمَها وصولُ الخَبَرِ بغرَق السَّفِين الواصِل من تُونس إلى الأَسكندرِيَّة ، وتلَف المَوجُود والمولود ، وعَظُمَ الأسف ، وحَسُنَ العزاء ، والله قادرٌ على ما يَشاء .

ثم خرجتُ عامَ تسعةٍ وثمانين وسبعمائة لقَضاء الفرض ، وركبتُ بحْرُ السويس من الطُّور إلى اليَنْبُع ، ورافقتُ المَحْمِل إلى مَكَّة ، فقَضيت الحجَّ عامَئِذ ، وعدتُ إلى مِصر في البَحْر كما سافرت أولاً . وشغَرَتْ وظيفةُ الحديث بمدَرَسةِ صلغَتْمِش ، فَوَلَّاني السُّلطانُ إياها بدلاً من مدْرَستِه في مُحَرَّم أَحد وتسعين وسبعمائة ، ومضيتُ على حالي من الانقباض ، والتَّدريس ، والتَّأْليف ، حتى ولَّاني خانْقاه بيْبَرس ، ثم عزَلني عنْها بعدَ سنةٍ أو أزيد ، بِسَببٍ أنا أذكرُهُ الآن .

* (ولاية خانقاه بيبرس ، والعزل منها) *

لما رجعت من قضاء الفَرْض سَنَةَ تسعين وسبعمائة ، ومَضَيتُ على حالي من التَّدريس والتأليف ، وتعاهُدِ السلطان باللِّقاءِ والتَّحيَّة والدعاء ، وهو ينظُر إليَّ بعَيْن الشَّفَقة ، ويُحْسن المَواعيد . وكانتْ بالقاهرة خانقاه شَيَّدها السلطان بَيْبَرس ، ثامِن مُلوك الترك الذي استبدَّ على النَّاصِر محمد بن قَلاون[(١)] هو ورفيقه سلار[(٢)] وأنِفَ النَّاصر من استِبدادِهما ، وخَرج للصيد ، فلمَّا حاذَى الكَرَك امتَنَع به ، وتركَهم وشأْنهم ، فجلَس بَيْبَرس على التَّخْت مكانَه ، وكاتَبَ الناصر أُمراءُ الشَّام من مماليك أَبيه ، واستَدْعَوه للقِيام مَعَه ، وزَحَفَ بهم إلى مصر ، وعاد إلى سُلطانِه ، وقَتَل بَيْبَرْس

(١) هو الملك الناصر محمد بن الملك المنصور ابن قلاوون . تولى الملك ثلاث مرات كانت الأخيرة منها في سنة ٧٠٩ ، وبقي ملكاً حتى مات سنة ٧٤١ ، وعمره ٥٨ سنة . الخطط طبع مصر ٩٨/٤ — ١٠٢ .

(٢) الامير سيف الدين سلار المنصوري ، كان من أسرى التتار ، فخلص وصار مولى لعلاء الدين علي بن المنصور بن قلاوون ، واليه ينتسب ؛ ساءت علاقته بالناصر ، فاعتقله ، واستصفى أمواله وقتله . راجع المجلد الخامس من هذا الكتاب .

وسَلار سنة ثمانٍ وسبعمائة[١] . وشيّد بيبرس هذا أيام سلطانه داخل باب النصر[٢] من أعظم المصانع وأحفلها ، وأوفرها رَيْعا ، واكثرها أوقافا ، وعَين مشيختها ، ونظرها لمن يستَعدّ له بشرطه في وقفه ، فكان رِزقُ النَّظَر فيها والمشيَخة واسعاً لمن يتولاّه ، وكان ناظرها يومئذ شرَف الدِّين الأشقر إمام السلطان الظاهر . فتوفي عند منصرفي من قضاء الفَرْض ، فولأني السلطان مكانه تَوسِعة عليّ ، وإحساناً إليّ ، وأقمتُ على ذلك إلى أن وقعت فتنة الناصري .

فتنة الناصري

* (وسياقه الخبر عنها بعد تقديم كلام في أحوال الدول يليق بهذا الموضع ، ويطلعك على أسرار في تنقل أحوال الدول بالتدريج الى الضخامة والاستيلاء ، ثم الى الضعف والاضمحلال ، والله بالغ أمره) *

وذلك أن الدُّول الكلِّية ، وهي التي تتعاقب فيها الملوك واحداً بعد واحد ، في مدة طويلة ، قائمين على ذلك بعصَبيَّة النَّسَب أو الولاء ، وهذا كان الأصلَ في استيلائهم وتَغلُّبهم ، فلا يزالون كذلك إلى انْقراضهم ، وغلَب مستَحقّين آخرين يَنْزَعُونه من أيديهم بالعَصبيَّة التي يقتدرون بهَا على ذلك ، ويحُوزون الأعمال التي كانت بأيدي الدولة الأولى ؛ يَفضون جِبايتها بينهم على تفاضل البأس والرُّجولة والكثرة في العِصابة أو القلّة ؛ وهم على حالهم من الخشونة لمعَاناة البأس ، والإقْلال من العَيشِ لاستصحاب حال البَداوة ، وعدم الثَّروة من قبل . ثم تَنمو الثَّروة فيهم بنـمُوّ الجباية التي ملكوها ، ويُـزيَّن حُبُّ الشَّهوات للإقتدار عليها ، فيَعظُمُ التَّرف في الملاَبس والمطاعم والمساكن والمراكب والمالك ، وسائر الأحوال ، ويتزايد شيئاً فشيئاً

---

(١) في المجلد الخامس من هذا الكتاب : ان ذلك كان في سنة ٧١ وهو الأشبه بالصواب ، لأن الناصر عاد الى الملك في سنة ٧٠٩ .

(٢) كذا بالأصل . ويظهر ان هنا كلمة سقطت أثناء النسخ . ومقتضى السياق :

«وشيد بيبرس هذا أيام سلطانه داخل باب النصر خانقاه ، وهي من أعظم المصانع واحفلها ... الخ» .

بتزايُد النِّعم وتتسعُ الأحوال أوسع مَا تكون ، ويَقصُرُ الدَّخلُ عن الخرْج ، وتَضيقُ الْجباية عن أرزاق الجُنْد وأحوالهم ، ويَحصل ذلك لكلِّ أحدٍ ممن تحت أيديهم ، لأنَ النّاس تَبَع لملوكهم ودَولتِهم ، ويُراجع كلُّ احدٍ نَظَره فيما هو فيه من ذلك ، فيَرجع وراءه ، ويطلبِ كفاءَ خَرْجه بدَخله .

ثم إن البَأْسَ يَقِلُّ من أهل الدولة بما ذهب لهم من الخشُونة ، وما صاروا إليه من رقّة الحاشية والتنعُّم ؛ فيتطاول من بقي من رؤساءِ الدّولة إلى الاستبداد بها غيرةً عليْها من الخللِ الواقع بها . ويستعدّ لذلك بما بَقِي عنده من الخشونة ، ويحمِلهُم على الإقلاع عن التَّرَف ، ويسْتأنف لذلك العصابةَ بعشيرة أو بمَن يدعوه لذلك ؛ فيستولي على الدولة ، ويأخذ في دَوائها من الخلَل الواقع ؛ وهو أحقُّ الناس به ، وأقربُهم إليه ؛ فيصير المُلك له ، وفي عَشيرِهِ ؛ وتصير كأنها دولة أخرى ، تمرُّ عليها الأوقات . ويقع فيها ما وقع في الأولى ؛ فيستولي آخَرُ منهم كذلك إلى أن تنقرض الدولة بأسرها ، وتخرج عن القوم الأولين أجمع . وتأتي دولة أخرى مُباينة لعصابةِ هؤلاءِ في النَّسَب ، أو الوَلاء . سُنَّةَ الله في عباده .

وكان مبدأ هذه الدولة التركية ، أنَّ بَني أيُّوب لمّا ملكوا مِصْرَ والشام ، كما قَصصناه عَليك في أخبارهم واستقلَّ بها كبيرُهم صلاح الدين ، وشُغِل بالجهاد وانتزاع القلاع والحُصون من أيدي الفرنج الذين ملكوها بالسَّواحل ، وكان قليلَ العِصابة ، إنما كان عَشيرُه من الكُرد يُعْرَفُون ببني هَذَان[1] ، وهم قليلون ، وإنما كَثَّر منهم جماعةُ المسْلمين ، بهمَّة الجهاد الذي كان صَلاح الدين يدعو إليه ؛ فعظُمت عصابتُه بالمسلمين ، وأسْمَع دَاعِيه ، ونصَر الله الدين على يَده . وانتَزع السَّواحل كلَّها من أيدي نَصارى الفرنج ، حتى مَسْجد بيتِ المَقْدِس ؛ فإنهم كانوا مَلكوه وأفحشوا فيه بالقتْل والسَّبي ؛ ؛ فأذهَبَ الله هذه الوَصْمَة على يد صلاح الدين ، وانقسم مُلْك بني أيوب بعدَه بين وَلده وولد أخيه . واستفحل أمْرُهم ؛ واقتسموا مدُن الشَّام ، ومصْر بينَهم ، إلى أن جاء آخرَهم الصالح نَجْمُ الدين أيوب بن الكامل محمد بن العادل أبي بكر أخي صلاح الدّين ، وأراد الاستكثار من العِصابة لحماية الدَّولة ، وإقامة رسوم الملك ، وأن ذلك يَحصل باتخاذ المماليك ، والإكثار منهم ، كما كان

---

(١) بفتح الهاء ، والذال المعجمة ، وبعدها ألف ، ثم نون ، وهي قبيلة كبيرة من قبائل الأكراد وفيات ٤٩٥/٢ .

آخراً في الدولَة العباسيَّة ببغداد ؛ وأخذ التُّجار في جلْبهم إليه ، فاشترى منهم أَعداداً ، وأقام لتربيتهم أَساتيذ[(١)] معلَمين لحرفة الجُندية ، من الثقافة والرَّمي ، بعد تعليم الآداب الدينية والخُلقية إلى أن اجتمع له منهم عددٌ جمٌ يناهز الألف ؛ وكان مقيماً بأحواز دِمْياط[(٢)] في حماية البلاد من طوارق الفرنج المتغلّبين على حصنها دِمْياط . وكان أبوه قد اتخذ لنزله هنالك قلعةً سمَّاها المنصورة[(٣)] ، وبها توفي رحمه الله ، فكان نجم الدين نازلاً في مُدافعة ساكني دِمْياط من الفرنج ، فأصابه هنالك حَدَث الموت ، وكان إبنه المعظَّم تُورَنْشاه نائباً في حصن كيْفا[(٤)] من ديار بَكر وراءَ الفُرات ، فاجتمع الجندُ على بيعته ، وبعثوا عنه ، وانتظروا . وتَفَطَّن الفرنج لشأنهم ، فهجموا عليهم ، واقتتلوا فنَصَر الله المسْلمين ، وأُسِر مَلِك الفرنج رَيْد إفرَنْس ؛ فبعثوا به إلى مِصر . وحُبِس بدار لُقمان ، إلى أَن فادَوْه بدِمياط ، كما هو مذكور في أخبَار بني أيوب . ونصّبوا — للمُلْك ، ولهذا اللقاء — زَوجةَ الصالح أيُّوب واسمُها شَجَرُ الدرُّ[(٥)] ، فكانت تحكم بين الجند ، وتكتُب على المراسيم[(٦)] ، وركِبت يوم لقاءِ الفرنج ، تحت الصَّناجق[(٧)] ، والجندُ مُحْدقون بها ، حتى أعزّ الله دينَه ، وأتمّ نصره . ثم وصل تورنشاه المعظَّم ؛ فأقاموه في خطَّة المُلك مكان أبيه الصالح

---

(١) اساتيذ وأساتذة ج استاذ : معلم .

(٢) وقد ضبطها ابن خلدون بخطه بالحركات ، بكسر الذال المعجمة ؛ وقد حكى الاعجام الزبيدي في «تاج العروس» ، والسمعاني في «الانساب» عن أبي محمد بن أبي حبيب الاندلسي قال السمعاني معقباً : «وما عرفناه الا بالدال المهملة» . (معجم البلدان) ، تاج العروس (دمط ، ذمط) .

(٣) بلدة أنشأها الملك الكامل بن العادل بن أيوب بين دمياط والقاهرة ، ورابط فيها في وجه الافرنج لما ملكوا دمياط وذلك في سنة ٦١٦ ، ولم يزل بها حتى استنفذ دمياط في رجب سنة ٦١٨ . (معجم البلدان) .

(٤) حصن كيفا : قلعة عظيمة مشرفة على دجلة ، بين آمد وجيزة ابن عمر من ديار بكر . (معجم البلدان) .

(٥) بعضهم يكتبها : «شجرة الدر» ، وكان يخطب باسمها على المنابر ، ونقشت على «السكة» ، وكان نقشها : «السكة المستعصمية الصالحية ، ملكة المسلمين ، والدة المنصور خليل» ، وخليل هذا ابنها من الملك الصالح توفي في حياة أبيه ، وكانت تكنى به . العبر ٥ ، الخطط ٢/٢٣٧ بولاق .

(٦) يعني اتخذت لها «علامة» تختم بها على المراسيم ، وكانت علامتها — فيما يرى ابن خلدون : «أم خليل» ، أما ابن الوردي فيقول : «والدة خليل» . العبر م ٥ ، ابن الوردي ٢/١٨٣ .

(٧) جمع سنجق وهو الأصل الرمح ، وكانت تجعل في رأسه الراية ، ومن ثم أصبح معناه : الراية مباشرة . صبح الاعشى ٥/٤٥٨ .

أيوب ، ووَصل معه مماليكُ يُدِلُّون بمكانهم منه ، ولهم به اختصاص ، ومنه مكان ؛ وكان رُؤساءُ الترك يومئذ القائمون بالدولة من عَهد أبيه وجدِّه . أَقْطايَ الجمَدار[1] وأَيْبَك التُّركُماني ، وقَلاوُن الصالحي ، فأَنِفُوا من تصرفات مماليكُ تُورنْشاه ، واستعْلائهم بالحظِّ من السلطان ، وسَخِطوهم وسخطوه ، وأجمعوا قتلَه . فلما رحل إلى القاهرة اغتالوه في طريقه بفارسْكُو ، وقتلوه ، ونصبُوا للأَمر أَيْبَكُ التركماني منهم ، واستحدثوا هذه الدولة التركية كما شرحناه في أخبارها ؛ وهَلك بعد أَيْبَك إبنه عليّ المنصور ، ثم مولاه قُطُز ، ثم الظاهر بَيْبَرس البُندُقْداري[2] . ثم ظهَر أمر الطَّطَر[3] ، واستفحل ملكهم . وزحف هولاكو بن طولي بن جنكِيزخان من خَراسان إلى بَغداد ؛ فملكها ، وقتل الخليفةَ المستعصم آخر بني العباس . ثم زحف إلى الشام ؛ فملك مدُنَه وحواضره من أيدي بني أيوب ، إلى أن استوعبَها . وجاء الخبر بأن بَركَة صاحب صَرايْ شريكه في نَسَب جنكِزخان ، زحف إلى خُراسان ؛ فامتعض لذلك ، وكرَّ راجعاً ، وشُغِل بالفتنة معه إلى إن هلك . وخرج قُطُزْ من مصر عندما شُغل هُولاكو بفتنة بَركَة ؛ فملَك الشام كله ، أمصارَه ومُدنَه ، وأَصارَه للترك موالي بني أيوب . واستفحلت دولةُ هؤلاءِ المماليك ، واتَّصلت أيامُها واحداً بعد واحد ، كما ذكرنا في أخبارهم . ثم جاء قَلاَوُن عندما ملك بَيْبَرْس الظاهرُ منهم ؛ فتظاهر به ، وأصْهر إليه ، والترفُ يومئذ لم يأخذ منهم ، والشِّدة والشكيمة موجودةٌ فيهم ، والبأسُ والرجولةُ شعارهم ؛ وهلك الظاهرُ بَيْبرس ، وإبناه من بعده ، كما في أخبارهم . وقام قلاَوُون بالأمر ، فاتَّسع نِطاقُ مُلكه ، وطال ذِرْع سلطانه ، وقصُرت أيدي الطَّطَر عن الشام بمهلك هُولاكو ، وولاية الأصاغر من ولده ؛ فعظم مُلْك قَلاَوُن ، وحَسُنت آثارُ سياسته ، وأصبَحَ حجةً على من بعدَه ؛ ثم ملك بعدَه إبناه : خَليل الأشرف ، ثم مُحمد الناصر . وطالت أيامُه ، وكثُرت عصابته من مماليكه ،

---

(١) أخبار أقطاي مفصلة في العبر ٥ م . والجمدار : هو الذي يتولى الباس السلطان ، أو الأمير ثيابه ؛ وأصله جاما دار فحذف المد منه فقيل : جمدار ، وهو مركب من كلمتين فارسيتين : « جاما » . ومعناها ثوب ، و« دار » ، ومعناها : ممسك . صبح الاعشى ٤٥٩/٥ .

(٢) أنظر ترجمته في الخطط ٣٠٠/٢ ، ٢٣٨ بولاق . وخبر توليه السلطنة في العبر ٥ . والبندقداري : هو الذي يحمل غرارة البندق خلف السلطان . والبندق : الذي يرمي به وأصله البندق الذي يؤكل ، وهو في العربية الجلوز ؛ صبح الاعشى ٤٥٧/٥ .

(٣) كذا بالأصل ، وهي : التتر .

حتى كَمُل منهم عَدد لم يقع لغيره . ورتّب للدَّولة المراتِب ، وقَدَّم منهم في كل رُتبة الأمراء ، وأوسَع لهم الأقطاع والولايات ، حتى توفرت أرزاقُهم واتسعت بالتَّرَف أحوالهم . ورحل أربابُ البضائع من العلماءِ والتُّجَّار إلى مصر ؛ فأوسعَهم حِباءً وبرّا . وتنافست أمراءُ دَولته في اتخاذ المدارس والرُّبط والخوانق ، وأصبَحت دولتهم غُرَّة في الزمان ، وواسطةً في الدوَل . ثم هلك الناصر بعد أربعين وسبعمائة ، فطفِق أمراء دَولته يَنصبُون بنيه للملك ، واحداً بعد آخر ، مستبدّين عليهم ، متنافسين في الملك ، حتى يغلبَ واحد منهم الآخر ، فيقتُلَه ، ويقتُلَ سلطانه من أولاد الناصر ، ويَنْصِبَ آخر منهم مكانَه ، إلى أن انساق الأمرُ لولده حسَن النَّصر ؛ فقتَل مُستَبدَّه شيخون ، وملك أمرَه . وألقَى زِمام الدولة بيد مملوكه يَـلْبُغا ؛ فقام بها ، ونافسَه أقرانُه ، وأغرَوا به سلطانَه ؛ فأَجمع قتلَه . ونُمي إليه الخبرُ وهو في علوفة البرْسيم عند خَيْله المُرْتَبطة لذلك ؛ فاعتزم على الامتناع ، واستعدّ للّقاء . واستدعاه سلطانُه ؛ فتَثاقَل عن القُدوم . واستشاط السلطان ، وركِب في خاصته إليه ، فركِب هو لمصادمته . وهاجم السلطانَ ففلَّه ، ورجع إلى القلعة ، وهو في اتِّباعه ، فلم يُلْفه بقصْره ، وأغرَى به البحث فتقبَّض عليه ، واستصفاه ، وقتَله ؛ ونَصَب للملك محمدَ المنصورَ بن المظفَّر حاجي بن الناصر . وقام بالدولة أحسن قيام ، وأغرَى نفسَه بالاستكثار من المماليك ، وتهذيبهم بالتَّربية ، وتوفير النِّعم عندهم بالإقطاع ، والولايات ، حتى كَمُل منهم عدد لم تعهده الدولة . ثم خلَع المنصور بن المظفَّر لسنتين ، ونصبَ مكانه للمُلك شعبانَ الأشرف بن حُسَين بن النَّاصر ؛ فأَقام على التَّخْت وهو في كفالته ؛ وهو على أَوَّله في إعزاز الدولة ، وإظهار التَّرَف والثروة ، حتى ظهرت مخايل العِزّ والنِّعم ، في المساكن والجياد والمماليك والزينة ؛ ثم بَطِرُوا النِّعمة ؛ وكفَروا الحقوق ، فحَنِقوا عليهِ لِما كان يتجاوز الحدود بهم في الآداب ؛ فَهمّوا بقَتله وخلَصوا نَجِيا لذلك في مُتَصيَّدهم الشَّتَوي ، وقد بَرَزوا له بخيامهم وسلطانهم على عادتهم . ولما أَحسَّ بذلك ركب ناجياً بنفسه إلى القاهرة ؛ فدخلوا على السلطان الأشرف ، وجاءُوا به على إِثْره ، وأَجازوا البحر ؛ فقبضوا عليه عَشِيَّ يومِهم . ثم قتلوه في مَحْبِسه عشاء . وانطلقت أَيديهم على أَهل البلد بمَعَرّات لم يعهدوها من أَول دولتهم ، من النَّهْب والتَّخطُّف وطُروق المنازل والحمَّامات للعَبَث بالحُرَم . وإِطلاق أَعنَّة الشَّهوات والبغْي في كل ناحية ؛ فمَرِج أَمرُ النَّاس ، ورفع الأمر إلى السُّلطان .

وكَثَر الدعاء واللَّجأُ إلى الله . واجتمع أكابر الأمر إلى السلطان ، وفاوضوه في كفِّ عاديتَهم ؛ فأمرهم بالركوب ، ونادَى في جُنده ورعيته بانطلاق الأيدي عليهم ، والاحتياط بهم في قَبْضَة القهر ؛ فلَم يكن إلا كلَمح البَصَر ، واذا بهم في قَبضة الأسر . ثم عُمِرت بهم السُّجُون ، وصُفِّدوا وطِيف بهم على الجمال ينادَى بهم ، إبلاغاً في الشهْرة ؛ ثم وُسِّط[١] أكثرهم ، وتُتبِّع البقيَّةُ بالنَّفْي والحَبْس بالثغور القَصِيَّة ، ثم أُطلِقوا بعدَ ذلك . وكان فيمن أطلق جماعةٌ منهم بحبْس الكرَك : فيهم بَرْقوق الذي ملك أَمرَهم بعد ذلك ، وبركة الجُوباني[٢] ، وأَلْطنُبغا الجوباني[٣] وجهرَكَس الخليلي .

وكان طشتمر[٤] ، دَوادار يَلبُغا[٥] ، قد لطُفَ محلُّه عند السلطان الأشرف ، ووَلِي الدَّوادارية له ، وكان يؤمّل الاستبداد كما كان أستاذه يُلبُغا ، فكان يحتال في ذلك بجمْع هؤلاء المماليك اليَلبُغاويَّة من حيث سقطوا ، يُريد بذلك اجتماعَهم عُصْبةً له على هواه ، ويُغرِي السلطان بها شِفاهاً ورسالة ، إلى أن اجتمع أكثرُهم بباب السُّلطان الأشرف ، وجعلَهم في خدمة ابنِه عليّ وليّ عهده . فلما كثروا ، وأخذتهم أرْيحيَّةُ العزّ بعَصَبيَّتهم ، صاروا يَشتَطُّون على السُّلطان في المطالب ، ويعتزُّون بعصبية اليُلبُغاوية .

واعتزم السلطان الأشرفُ عام سبعة وسبعين وسبعمائة على قَضاء الفَرض ، فخرَج لذلك خروجاً فخماً ، واستناب إبنه عليًّا على قَلعته ومُلكه في كفالة قُرطاي[٦] من أكابر اليُلبُغاوية ، وأخرج معه الخليفة والقضاة ، فلما بلغ العقَبة[٧] اشتَطَّ المماليك في

---

(١) وسطه توسيطا : قطعه نصفين ، ويقال قتل فلان موسّطا .

(٢) هو بركة بن عبدالله الجوباني اليلبغاوي الامير زين الدين . كان أميراً شجاعا يحب العلماء ؛ له مآثر خيرية بمكة ، والحرم ، وبطريق المدينة . قتل سنة ٨٧٢ .

(٣) علاء الدين الطنبغا بن عبدالله الجوباني اليلبغاوي الأمير ؛ كان من خيار الامراء دينا ، وعقلا وشجاعة . مات في الواقعة بين منطاش والناصري خارج دمشق سنة ٧٩٢ هـ ، وكان صديقا لابن خلدون ، وقد عرف به وأثنى عليه في العبر م ٥ .

(٤) طشتمر بن عبدالله العلائي الدوادار الاميرسيف الدين ، توفي في دمياط منفياً سنة ٧٨٦ . أثنى عليه ابن تغري بردي كثيراً بمقدار ما قدح في بركة ، والظاهر برقوق .

(٥) لقب للذي يمسك دواة السلطان او الأمير ، ويتولى من الأمور ما يلزم هذا المعنى ، من حكم ، أوتنفيذ أمور ، أو غير ذلك . صبح الأعشى ٤٦٢/٥ .

(٦) قرطاي (أوقراطاي) بن عبدالله المعزي الأشرفي سيف الدين ، رفيق أينبك ، وصهره ، وكان من أصاغر الأمراء في دولة الأشرف شعبان بن حسين ، ولكنه أصبح في أيام ولده عليّ أمير مئة ، ثم مقدم ألف . وأختلف مع صديقه أينبك ، فحبسه إلى أن مات سنة ٧٧٩ .

(٧) موقعها في النهاية الشرقية الشمالية لخليج العقبة .

طلب جِرايتهم من العُلُوفة والزَّاد ، واشتَطَّ الذين بمصر كذلك في طلَب أرزاقهم من المتولِّين للجباية . وصار الذين مع السلطان إلى المكاشفة في ذلك بالأقوال والأفعال ، وطشتمر الدَّوادار يُغْضِي عَنهُم يَحْسَبُ وقتَ استبداده قد أزِف ، إلى أن راغمهم السُّلطان بالزَّجر ؛ فركبوا عليه هنالك ، وركب من خيامه مع لفيف من خاصَّته ، فنَضَحوه بالنَّبل ، ورَجع إلى خيامه ، ثم ركب الهُجُن مساء ، وسار فصَبَّح القاهرة ، وعَرَّس هو ولفيفهُ بقُبَّة النَّصْر .

وكان قُرطاي كافلُ ابنه عليّ المنصور ، حَدَث بينَه وبين ناظر الخاص المَقْسي مكالمة عند مَغيب السُّلطان أحْقَدَته . وجاشَت بما كان في نفسه ؛ فأغرَى عليًّا المنصور بن السلطان بالتَّوثُّب على المُلك ، فارتاح لذلك وأجابه ، وأصبح يوم ثورة المماليك بالعَقَبة ؛ وقد أجلسَ عليًّا مكفوله بباب الإسطبل ، وعقَدَ له الراية بالنداء على جلوسه بالتخت ؛ وبينما هم في ذلك ، صبَّحهم الخبر بوصُول السلطان الأشرف إلى قبة النصر لَيْلَتَئِذ ، فطاروا إليه زُرافاتٍ ووُحْدانا ؛ فوجَدُوا أصحابه نِياماً هنالك ، وقد تسلَّل من بينهم هو ويُلْبُغا الناصري[١] من أكابر اليَلْبُغَاويَّة ؛ فقطوا رؤوسهم جَميعاً ، ورجعوا بها تَسِيل دَماً . وَوَجموا لُفقْدان الأشْرَف ، وتابعوا النِّداء عليه ، واذا بامرأةٍ قد دَلَّتهم عليه في مكانٍ عَرفته ؛ فتسابقوا إليه ، وجاءوا به فقتلوه لوقته بخلْع أكتافه ، وانعقدت بيعة إبنه المنصور . وجاء طشتمر الدَّوادَار من الغَدِ بِمن بقي بالعقبة من الحُرَم ، ومُخلَّف السلطان ، واعتزم على قتالهم طمَعاً في الاستبداد الذي في نفسه ؛ فدافعوه وغلبوه وحصَل في قبضَتهم ، فخلَعُوا عليه بنيابة الشام ، وصرَفوه لذلك ، وأقاموا في سلطانهم . وكان أيْنَبَكُ أميراً آخر من اليَلْبغَاوية[٢] قد ساهم قُرطاي في هذا الحادث ، وأصهرَ إليه في بعض حُرَمه ؛ فَاستنام له قُرطاي ، وطمِع هو في الاستيلاء . وكان قُرطاي مواصلاً صَبُوحه بغَبُوقِهِ ، ويستغرق في ذلك ؛ فركِب في بعض أيامه ؛ وأَركب معه السلطانَ عليا ، واحتاز الأمرَ من يد قُرطاي ،

(١) يلبغا بن عبدالله الناصري الاتابكي الأمير سيف الدين . وهو صاحب الوقعة مع الملك الظاهر بظاهر دمشق . الدرر الكامنة ٤/٤٤٠ — ٤٤٢ .

(٢) أينبك بن عبدالله البدري الأمير سيف الدين . كان هو وقرطاي صاحبي الحل والعقد في الدولة . استبد بالمنصور بن الأشرف . ثم تغلب عليه يلبغا الناصري وأودعه سجن الاسكندرية .

وصيَّره إلى صَفَد[1] ، واستَقَلَّ بالدولة ، ثم انتقض طشتمر بالشَّام مع سائر أمرائه ؛ فخرج أيَنْبَك في العساكر ، وسرَّح المقدَّمة مع جماعة من الأمراء ؛ وكان منهم بَرْقوق وبَركة المستوليان عَقِب ذلك ؛ وخرج هُو والسلطان في السَّاقة[2] ؛ فلما انتهوا إلى بُلْبِيس ، ثار الأمراء الذين في المقدمة عليه ، ورجع إليه أخوه مُنهزماً ؛ فرجع إلى القلعة . ثم اختلف عليه الأمراء ، وطالبوه بالحَرَب في قُبَّة النَّصر ؛ فسرَّح العساكر لذلك ؛ فلمّا فصَلوا فرَّ هو هارباً ، وقُبض عليه وثُقِف بالإسكندرية . واجتمع أمراء اليَلبغاوية يقدمهم قطلقتمر العلائي ، ويُلْبغا النّاصري ودُمَرْدَاش اليوسفي وبَركة وبَرقوق ؛ فتصدى دَمُرْداش ويُلْبغا وبركة وبرقوق ، إلى الاستقلال بالأمر وتغلّبوا على سائر الأمراء ؛ واعتقلوهم بالإسكندرية . وفوَّضوا الأمر إلى يُلْبغا النَّاصري ، وهم يرونه غير خبير ، فأشاروا باستدعاء طشتمر ، وبعثوا إليه ، وانتظروا . فلما جاءه الخبر بذلك ظَنَّها مُنيَةَ نفسه ، وسارَ إلى مصر ؛ فدفعوا الأمر إليه ، وجعَلوا له التولية والعزل وأخذ بَرقوق ، وبركة يستكثران من المماليك ، بالاستخدام والجاه ، وتوفير الاقطاع ، إكتافاً لعصبيتهما ؛ فانصرفت الوجوه عن سواهما ، وارتاب طشتمر بنفسه ، وأغراه أصحابه بالتوثّب ؛ ولما كان الأضحى في سنة تسع وسبعين وسبعمائة استعجل أصحابه على غير رَوِيَّة ، وركبوا وبعثوا إليه فأحجم ، وقاتلوا فانهزموا . وتقبّض على طشتمر ، وحُبس بالإسكندرية ، وبُعث معه يلْبغا الناصري ، وخلَت الدَّولةُ للأميرين برقوق وبركَةْ من المنازعين ، وعمَروا المراتب بأصحابهما . ثم كثر شغَبُ التُّركمان والعرب بنواحي الشام ، فدَفعوا يُلبغا النَّاصري إلى النيّابة بحلب ليستكفوا به في تلك النَّاحية . ثم تنافس بَرْقوق وبَركة في الاستقلال ، وأَضمر كلٌّ واحد منهما لصاحبه ، وخشيَ منه ؛ فقَبَض برقوقُ على بطانة بَركة من عصابته ليَخُصَّ بذلك جَنَاحَه ؛ فارتاع لذلك بَركة ، وخرجَ بعصابته إلى قُبَّة النَّصر ليواضع برقوقاً وأصحابه الحرب هنالك ، ورَجا أن تكون الدائرة له . وأقام برقوق بمكانه من الاسطبل ، وسرّب أصحابه في جموعهم إلى مُجاولة أولئك . وأقاموا كذلك أياماً يُغادُونهم ويراوحُونَهم ثلاثاً ، إلى أن عَضَّت بركة وأصحابَه الحربُ ؛ فانفضُّوا عنه ، وجيء ببَركة ، وبَعث به إلى

(١) صفد : مدينة في شمالي فلسطين ، واقعة في الشمال الغربي لبحيرة طبرية ، قريبة من حدود سوريا في الجنوب الغربي ، ومن حدود لبنان في الجنوب .
(٢) ساقة الجيش : مؤخره .

الإسكندرية ؛ فحُبِس هنالك إلى أن قتله ابن عرَّام نائب الإسكندرية . وارتفع أصحابه إلى برقوق شاكين ؛ فثأرهم منه بإطلاق أيديهم في النَّصَفَة ؛ فانتصفوا منه بقتله في ساحة القَلْعة ؛ بعد أَن سُمِّر ، وحُمل على جَمَل عقاباً له ؛ ولم يُقنعهم ذلك ، فأطلق أيديهم فيما شاءوا منه ، ففعلوا ما فعلوا . وانفرد برقوق — بعد ذلك — بحمْل الدّولة ينظر في أعطافها[١] بالتّهديد ، والتّسديد ، والمُقارَبة[٢] ، والحرص على مكافأة الدَّخْل بالخَرْج . ونَقَّص ما أَفاض فيه بنو قلاَوُن من الإمعان في التَّرف ، والسَّرَف في العوائد والنّفقات ، حتى صار الكيْلُ في الخَرج بالمكيال الرَّاجح ، وعجزت الدولةُ عن تمشية أحوالها ؛ وراقبَ ذلك كلَّه برقوق ، ونظر في سدّ خَلَل الدَّولة منه ، وإصلاحها من مفاسده ، يَعتَدُّ ذلك ذريعةً للجلوس على التَّخت ، وحيازة إسم السلطان من أولاد قَلاَوُن ، بما أفسَد الترفُ منهم ، وأحال الدولة بسببهم ، إلى أن حصَل من ذلك على البغية ، ورَضِي به أَصحابُه وعصابتُه ؛ فجلس على التَّخْت في تاسع عشر رمضان من سنة أربع وثمانين وسبعمائة ، وتلقَّب بالظاهر . ورتّبَ أهل عصابته في مراتب الدولة ؛ فقام وقاموا بها أحسن قيام ، وانقلبت الدولةُ من آل قلاون إلى برقوق الظاهر وبنيه . واستمرّ الحال على ذلك ، ونافسَه اليلبُغاويةُ — رُفَقاؤه في ولاء يلبُغا — فيما صار إليه من الأمر ، وخصوصاً يُلبُغا نائبَ حلَب ، فاعتزم على الانتقاض . وشعر به الظاهر فبعث باستدعائه ؛ فجاء وحَبَسه مُدّة ، ثم رجّعه إلى نيابة حلَب ، وقد وغر صَدرُه من هذه المعاملة . وارتاب به الظاهر ؛ فبعث سنة تسعين وسبعمائة دواداره للقبض عليه ، ويستَعين في ذلك بالحاجب . وانتقَض ، واستدعى نائبَ مَلَطْيَة[٣] ، وهو منطاش من أمراء اليلبُغاوية ، وكان قد انتقض قبله ، ودعا نواب الشام إلى المسير إلى مصر إلْباً على الظاهر ؛ فأجابوه ، وساروا في جُملته ، وتحت لوائه ؛ وبلغ الخبر إلى الظاهر برقوق ؛ فأخرجِ عساكره مع أمراء اليلبغاوية من أصحابه : وهم الدوادار الأكبر يونس[٤] ،

---

(١) الأعطاف : الجوانب .

(٢) المقاربة : ترك الغلو في الأمور ، وقصد السداد فيها .

(٣) بفتح الميم واللام ، وسكون الطاء ، ثم ياء مفتوحة ؛ والعامة تكسر الطاء ، وتشدد الياء . تقع في الشمال الغربي لديار بكر من الجمهورية التركية . (معجم البلدان) ، تاج العروس (ملط) .

(٤) يونس بن عبدالله الأمير سيف الدين الدوادار الأكبر لفك الظاهر ، ويعرف بالنوروزي (نسبة الى معتقله الامير جرجي النوروزي) . كان من أعاظم دولة الظاهر برقوق ، حارب منطاش ، والناصري ، وعاد في=

وجِهَرْكس الخليلي أمير الاسطبـل ، والأتـابكي أيتمش ، وأيـدكـار حـاجب الحجاب[1] وأحمد بن يُلْبُغا استاذهم[2] . وخرج النَّاصري من حلب في عسكره ، واستنفر العرب والتركمان وأمراء الشام ، ولما تراءى الجمعان بناحية دمشق ، نَزَع كثير من عسكر السلطان إليهم ، وصدقوا الحملة على من بقي فانفَضُّوا . ونجا ايتمش إلى قلعة دمشق ؛ فدخلها ، وقتل جهَرْكَس ، ويونس ، ودخل الناصري دمشق ؛ ثم أجمع المسير إلى مصر ، وعميت أنباؤهم حتى أطَلُّوا على مصر.

وفي خلال ذلك أطلق السلطانُ الخليفةَ من مَحْبِسه كان بعض الغواة أَنمَى عنه ، أنه داخَله شيطان من شياطين الجند ، يعرف بقُرط[3] في قتل السلطان يوم ركوبه إلى الميدان قبل ملكه بسنين ، فلما صَحَّ الخبر أمر بقتله ،وحبس الخليفة سبعاً إلى تلك السنة ، فأطلقه عند هذا الواقع ؛ ولما وصل الى قيطا اجتمعت العساكر ، ووقف السلطان أمام القلعة يومه حتى غَشِيَه الليل ، ثم دخل إلى بيته وخرج متنكراً ، وتسرّب في غيابات المدينة ، وباكر الناصري وأصحابه القلعة ، وأمير حاج ابن الأشرف ؛ فأعادوه إلى التخت ولقّبوه المنصور. وبعثوا عن الأمراء المحبوسين بالإسكندرية ، وكان فيهم أَلطنبُغا الجوباني الذي كان أمير مجلس[4] ، وقبض السلطان الظاهر عليه ، وحبَسه أياماً ، ثم أطلقه وبعثه نائباً على دمشق ، ثم ارتفعت عنه الأقوال بأنه يروم الانتقاض ، وداخل الناصريَّ نائب حلب في ذلك ، وأكّد ذلك عند السلطان ما كان بينه وبين النَّاصري من المُصافاة والمخالصة ، فبعث عنه . ولما جاء حبسه بالاسكندرية ؛ فلما ملك الناصري مصر ، وأجلس أمير حاج بن

= جيش منهزم الى القاهرة ، وفي طريقه قتل سنة ٧٩١ عن نيف وستين سنة . خطط المقريزي ٤٢٦/٢ بولاق .

(١) أيدكار بن عبدالله العمري سيف الدين ، كان أحد أعيان الملك الظاهر ، وولاه حجابة الحجاب . ثم انحاز إلى حزب منطاش ، ولما عاد برقوق إلى الملك قبض عليه في سنة ٧٩٤ ، وقتله .

(٢) الأمير شهاب الدين أحمد بن يلبغا العمري الخاصكي ، كان برقوق مملوكا لوالده ، ولذلك عفا عنه حين انحاز إلى الناصري ومنطاش . ولما مات الظاهر ، ثار ايتمش وآخرون بالشام ؛ فانضم اليهم أحمد بن يلبغا هذا ، وحاربهم فرج بن الظاهر ، فانتصر عليهم ، وقبض على أحمد بن يلبغا ، فقتله في سنة ٨٠٢ .

(٣) قرط بن عمر من التركمان المستخدمين في الدولة ، وكان له اقدام وشجاعة وصل بهما إلى مرادفة الأمراء في مذاهبهم . قتل سنة ٧٨٥ .

(٤) معناه صاحب الشورى في الدولة ، وهو ثاني الأتابك ، وتلو رتبته . العبر م ٥ صبح الأعشى ٤٥٥/٥ .

الأشرف[1] على التخت ، بعث عنه ليستعين به على أمره ؛ وارتابوا لغيبة الظاهر ، وبالغوا في البَحث عنه ، فاستدعى الجوبانيَّ واستنام له ، واستحلفه على الأمان ؛ فحلف له ، وجاء به إلى القلعة بعد أن ساور صاحبه الناصريَّ في المُضِيّ إليه وتأمينه . وحبسوه في بعض قصور الملك ، وتشاوروا في أمره ؛ فأشار أمراء اليُلْبُغاوية كلُّهم بقتْله ، وبالغ في ذلك منطاش ، ووصل نُعَيْر أَمير بني مُهَنَّا[2] بالشام للصحَابة بينه وبين الناصري ، فحضَّهم على قتله ، ومنَع الجوبانيُّ من ذلك وفاءً بيمينه ، فغَلَت صُدورهم منه . واعتزموا على بَعثه إلى الكَرَك[3] ، ودافعوا منطاشاً بأنهم يبعثونه إلى الإسكندرية ، فيعترضُه عند البحر بما شاء من رأيه . ووثق بذلك ، فقعد له عند المرساة ، وخالفوا به الطريق إلى الكَرَك ، وولُّوا عليها نائباً وأوصوه به ؛ فأخفق مَسْعَى منطاش ، ودبَّر في اغتيال الدولة ، وتمارض في بيته . وجاءه الجوباني عائذاً فقبض عليه ، وحبسه بالإسكندرية ، وركب مُنتقِضاً ، ووقف عند مدرسة الناصر حسن يحاصر الناصري بالقلعة . واستجاش هو بأمراء اليلبُغاوية ؛ فداهنوا في إجابته ، ووقَفوا بالرُّمَيْلة أمام القلعة . ولم يزل ذلك بينهم أياماً حتى انفضَّ جمع النَّاصري ، وخرج هارباً ؛ فاعترضه أصحاب الطريق بفارسكو ، ورَدُّوه ؛ فَحَبَسَهُ منطاش بالإسكندرية مع صاحبه ، واستقلّ بأمر الملك . وبعث إلى الكَرَك بقتل الظاهر ؛ فامتنع النَّائب ، واعتذر بوقوفه على خطّ السلطان والخليفة والقضاة . وبثَّ الظاهر عطاءهُ في عامَّة أهل الكَرَكَ ؛ فانتدبت طائفة منهم لقتل البريدي الذي جاء في ذلك ، فقتلوه ؛ وأخرجوا الظاهر من محبسه فأصحَروا . واستألف أفاريقَ من العَرَب ، واتصل به بعض مماليكه ، وسار إلى الشام . واعترَضه ابن باكيش[4] نائب

(١) الملك الصالح حاجي بن الأشرف شعبان بن حسين بن محمد بن قلاوون ، يلقب بالمنصور (غير لقبه الصالح الى المنصور) ، وخلع نفسه يوم أن عاد برقوق الى الملك .

(٢) نعير بن محمد بن حيار بن مهنا بن مانع ، لبثه القدم الراسخة في الإمارة .
وفي ظفر برقوق به ، وبمنطاش ، يقول الشيخ زين الدين بن ظاهر :
الملك الظـــــاهر في عزه ... أذل من ضل ومن طـــــاشا
ورد في قبضتـــه طـــائعاً ... نعيرا العـــاصي ومنطـــاشا

(٣) مدينة في الاردن على بعد ١٤٥ كلم من القدس عرفت قديماً باسم (كير مؤاب) كانت حصنا للمؤابيين ، احتلها الصليبيون واستردها صلاح الدين سنة ١١٨٨ ، كانت مقر مطرانية منذ اوائل العهد المسيحي كما كانت قاعدة لدولة المماليك سنة ١٣٠٩

(٤) الحسن بن باكيش الأمير بدر الدين التركماني ، نائب غزة من قبل منطاش . قتله الظاهر بالقاهرة سنة ٧٩٣ ، وكان مشهوراً بالشجاعة .

غزَّة[١] ، فأوقع به الظاهر ، وسار إلى دمشق ، وأَخرَج منطاش العساكرَ مع سلطانه أمير حاج ، وسار على التعبئة ليمانع الظَّاهر عن دمشق . وسَبَقه الظاهر فمنعه جنتمر نائب دمشق[٢] ؛ فواقعه ، وأقام محاصراً له . ووصل إليه كمشبُغا[٣] الحموي نائب حلب ، وكان قد أظهر دعوته في عمله ، وتجهَّز للقائه بعسكره ؛ فلقيه وأَزال عِلَله ، فأقام له أُبَّهة الملك . وبيناهم في الحِصار إذ جاء الخبر بوصُول منطاش بسلطانه وعساكره لقتالهم ، فلقَيهم الظاهر بشَقْحَب[٤] ، فلمَّا تراءى الجمعان ، حَمَل الظاهر على السُّلطان أمير حاج وعساكره ففَضَّهم ، وانهزَم كمشبُغا إلى حَلَب . وسار منطاش في إتْباعه ؛ فهجم الظاهر على تعبئة أمير حاج ؛ فَفَضَّها ، واحْتازَ السلطانَ ، والخليفة والقضاة ، ووكَل بهم . واختلَط الفريقان ، وصاروا في عَمْياءَ من أمرهم ، وفرَّ منطاش إلى دمشق . واضطرب الظاهر أَخبيته[٥] ، ونزل على دمشق محاصراً لها . وخرج إليه منطاش من الغَد فهزمه ، وجمع القُضاة والخليفة ؛ فشهدوا على أمير حاج بالخَلْع ، وعلى الخليفة بإعادة الظَّاهر إلى مُلكه . ورحل إلى مصر فلقيه بالطريق خبر القلعة بمصر ، وتغلُّب مماليكه عليها ؛ وذلك أن القلعة لما خلت من السلطان ومنطاش والحامية ، وكان مماليك السلطان محبوسين هنالك في مُطبق أُعدّ لهم ، فتناجوا في التَّسوُّر منه إلى ظاهره ، والتوثُّب على القلعة والملك ، فخرجوا ، وهربَ دوادار منطاش الذي كان هنالك بمن كان معه من الحاشية . وملكُ مماليكُ الظاهر القلعة ، ورَأَسَهم مملوكه بُطَا[٦] وساس أَمرَهم ، وانتظر خبر سلطانه ، فلما وصل الخبر بذلك الى الظاهر ، أغذَّ السَّير إلى مصر . وتَلقَّاه الناس فرحين مسرورين بعوده وجبره . ودخل مُنْتَصَفَ صفر من سنة إحدى وتسعين وسبعمائة ، وولَّى بُطا دواداراً ، وبعث عن الأمراء المحبوسين بالإسكندرية ، وأَعتَبهم ، وأعادهم إلى

---

(١) مدينة بفلسطين قرب الساحل ، بها ولد الإمام الشافعي ، ويروى له فيها شعر . (معجم البلدان) .

(٢) الامير جنتمر التركماني .

(٣) كمشبغا بن عبدالله الحموي اليلبغاوي الأمير سيف الدين . توفي سنة ٨٠١ .

(٤) شقحَب (كجعفر) : موضع قرب دمشق ، نسب إليه جماعة من المحدثين . (تاج العروس) .

(٥) كذا في الاصول ، وهي مكررة في أماكن متعددة من تاريخ العبر . وأظنها محرفة أثناء النسخ عن كلمة (ضرب) . فتصبح العبارة : «وضرب الظاهر أخبيته» .

(٦) الأمير بطا الطولوتمري ، خلع عليه الظاهر برقوق سنة ٧٩٢ دوادارا ، ثم نائب دمشق ، وليها من قبل استاذه في ذي القعدة سنة ٧٩٣ الى ان توفي بها سنة ٧٩٤ . وانظر تفصيل ثورة بطا ومن كان معه من المسجونين ، في «العبر» المجلد الخامس .

مراتبهم . وبعث الجوباني إلى دمشق ، والناصري إلى حلب كما كانا ، وعادت الدولة إلى ما كانت عليه . وولّى سودون على نيابته ، وكان ناظراً بالخانقاه التي كنتُ فيها ، وكان ينَقِم عليَّ أحوالاً من مُعاصاته فيما يريد من الأحكام في القضاء أزمانَ كنتُ عليه ، ومن تصرُّفات دواداره بالخانقاه ، وكانَ يستنيبُه عليها ؛ فوَغَر صَدره من ذلك ؛ وكان الظاهر يَنْقِم علينا مَعْشرَ الفقهاء فتاوَى[1] استدعاها مِنَّا مَنْطاش ، وأَكرَهنا على كتابها ؛ فكتبناها ، ووَرَّينا فيها بما قدرنا عليه . ولم يقبل السلطان ذلك ، وعتب عليه ، وخصوصاً عليّ ؛ فصادف سودون منه إجابةً في إخراج الخانقاه عَنّي ، فولّى فيها غيري وعَزَلني عنها . وكتبت إلى الجوباني بأبيات اعتذر عن ذلك ليطالعَهُ بها ؛ فتغافل عنها ، وأعرضَ عني مُدَّة ، ثم عاد إلى ما أعرف من رضاه وإحسانه ، ونَصُّ الأبيات :

سَيِّـــدي والظنونُ فيكَ جَميلَـــة ... وأَيـــاديك بـــالأمـــاني كَفيلَـــة
لا تَحُـــل عن جَميـــل رأيك إنّي ... مـــاليَ اليومَ غيرُ رأيك حِيلَـــة
واصطنعني كما اصطنعت بـــإسْدا ... ءِ يَـــدٍ من شفـــاعـــة أو وسيلَـــة
لا تُضِعْني فلستُ منك مُضِيعـــاً ... ذِمّـــة الحبّ ، والأيـــادي الجميلَـــة
وأجرني فـــالخطْب عَضَّ بنَـــابَيْـــهِ ... وأَجرَى الى حِمايَ خُيولَـــــــــــهْ

(١) في السلوك : « في ٢٥ قعدة ، احضرت نسخ الفتوى في الملك الظاهر ، وزيد فيها : « واستعان على قتل المسلمين بالكفار ، وحضر الخليفة المتوكل ، وقضاة القضاة : بدر الدين محمد بن أبي البقاء الشافعي . وابن خلدون ، وسراج الدين عمر بن الملقن الشافعي ، وعدة دون هؤلاء ، في القصر الأبلق ، بحضرة الملك المنصور ، ومنطاش ، وقدمت اليهم الفتوى ، فكتبوا عليها باجمعهم ، وانصرفوا » .

وفي تاريخ ابن الفرات :

« وفي يوم الاثنين اجتمعت الأمراء بالقصر الابلق بقلعة الجبل ، بحضرة السلطان الملك المنصور وحاجي ، والأمير منطاش ، والخليفة محمد ، والقضاة الأربعة ، والشيخ سراج الدين البلقيني ، وولى القاضي جلال الدين عبد الرحمن قاضي العسكر ، وقاضي القضاة بدر الدين بن أبي البقاء الشافعي ، وقضاة العسكر ، ومفتون (كذا) دار العدل ، وكتبت فتاوى تتضمن : هل يجوز قتال الملك الظاهر برقوق ام لا ؟ وذكروا في الفتاوى اشياء تخالف الشرع الشريف ، ومما تضمنته الفتاوى : انه يستعين على قتال المسلمين بالنصارى ، فسألوهم (كذا) الجماعة عن ذلك ، فقيل لهم ان الملك الظاهر معه جماعة من نصارى الشوبك نحو ٦٠٠ نفس يقاتل بهم في عسكره : ولم يكن الأمر كذلك ، وانما ارادوا التلبيس على العلماء المفتيين ، فعند ذلك وضعوا (كذا) المذكورون خطوطهم على الفتاوى المذكورة بجواز قتاله ، وانفصل المجلس على ذلك ونودي في بكرة هذا النهار في القاهرة لأجناد الحلقة : أن لا يتأخر أحد منهم عن العرض ، ومن لم يحضر قطع خبزه » .

ولَو أنّني دَعـا بنصْرِيَ داعٍ ... كنتَ لي خَيرَ معشرٍ وفَصيلَة
أنْـهِ أمري الى الذي جَعَل اللهُ ... أُمورَ الدُّنيا لـه مكفولَة
وأراه في مُلكـه الآيـة ... الكُبْرى فولاّه ثم كـان مُـديلَه
أشهدتـه عنايـة الله في التمحيص ... أن كـان عَوْنَه ومُنيلَه
العزيزُ السلطـان والملكُ الظّـا ... هرُ فخرُ الـدنيا وعزُّ القَبيلَة
ومُجيرُ الإسلام من كـل خَطْب ... كـاد زَلزالُ بـأسه أن يُزيلَه
ومُديل العدو بالطَّعْنة النَّجْلا ... وتُفَرّي مـاذيَّه ونُصولَه[1]
وشكـور لأنعم الله يُفْني ... في رضاه غُـدُوَّه وأصيلَه
وتلطَّفْ في وصف حـالي وشكْوى ... خلَّتي[2] يـا صفيَّة وخَليلَه
قـل لـه والمقـالُ يَكرُم من مثْلك ... في مَحفِل العُلا أن يَقُولَه
يـا خونـدَ الملوك يـا معد الدَّ ... هر إذا عَـدّل[3] الزمـان فُصُولَه
لا تقصِّر في جَبر كسْرى فما ... زلْتُ أُرجيك للأيـاد الطَّويلة
أنـا جـارٌ لكم منعتم حِماه ... ونَهَجتم الى المعـالي سَبيلَه
وغريب أنَّستُموه على الوَحْشَة ... والحُزْن بـالرضى والسُّهولَة
وَجمعتم من شَملـه فقضى اللهُ ... فراقـاً ومـا قَضى مـأمولَه
غـالَـه الـدّهرُ في البنين وفي الأهْـ ... ـل ومـا كـان ظنُّه أن يَغُوله[4]
ورَمَتـه النَّوى[5] فقيـداً قـد ... اجْتَـاحت عليه فُروعَه وأُصولَه
فجـذبتم بضَبْعِـه[6] وأَنَلتُم ... كـل مـا شاءت العُلاَ أن تُنيلَه
ورفعتم من قـدره قبـل أن ... إليكم عَيـاءه وخمُولَه
وفرضتم لـه حقيقـةَ وُدٍّ ... حـاش لله أن تُرى مُسْتَحِيلَة
همةٌ مـا عرفتُهـا لسواكم ... وأنـا من خَبرتُ دَهري وجيلَه

---

(١) الطعنة النجلاء : الواسعة العريضة . وتفري : تشق . والماذي (بالمعجمة) : كل سلاح من الحديد . والنصول جمع نصل ؛ وهو حديدة السهم .
(٢) الخلة (بالفتح) : الحاجة ، والفقر .
(٣) عدل الحكم : اقامه ، والميزان سواه .
(٤) يشير الى غرق اهله في المركب الذي اقلهم من المغرب ، وقد تقدم له ذكر هذا .
(٥) النوى : الوجه الذي ينويه المسافر من قرب أو بعد . وهي مؤنثة لا غير .
(٦) الضبع : العضد .

والعِـــدا نمَّقوا أحــاديثَ إِفْكٍ | كلهـــا في طرائق معلولَـــة
روّجوا في شأني غرائب زور | نصبوهـــا لأمرهم أُحبُولَـــة
ورَموا بـــالـــذي أرادوا من البهتـــان ظنــاً بـــأنها مقبولَــة
زعموا انني أتيت من الأقوا | ل مـــا لا يُظنُّ بـي أن أقولَــه
كيف لي أغمطُ الحقوق وأنّي | شكرُ نَعماكم عليّ الجزيلـــة ؟
كيفَ لي أُنكرُ الأيـــادي التي تعـ | ـرِفهـا الشَّمْسُ والظِّلالُ الظليلـة ؟
إن يكـن ذا فقـــد برئتُ من | الله تعـــالى وخُنتُ جهراً رسولَــه
طوقونـا أمر الكتـــاب فكـانت | لقـداح الظنون فينـا مُجيلَـة[١]
لا ورَبِّ الكتــــاب أُنزلـــه الله | على قلب من وعَى تنزيلَـــه
مـا رضينـا بـذاك فعلاً ولا جئنـاهُ | طـوعـــاً ولا اقتفينـــا دليلَـــه
إنما سامنــــا الكتــــابَ ظَلُوم | لا يُرَجَّى دِفــاعُـه بــالحِيلَـة
سَخَطٌ نـــاجزٌ وحِلمٌ بَطيءٌ | وسلاح[٢] للوخْز فينـا صقّيلَـة
ودعـوني ولست من مَنْصِب الحكم | ولا سَاحبـــاً لَـــديهم ذُيولَــه
غيرَ أنّي وشَى بــــذكريَ واش | يَتَقَصَّى أوتـــارَه وذُحولَـــه[٣]
فكتبنــــا معولّين على حلمك | تمحو الأصار عَنَّـــا الثَّقيلَـــة
مــا أشرنـا بـهِ لزيـد ولا عمرو | ولا عَيَّنُوا لنـــا تفصيلَـــه
إنما يـــذكرون عمَّن وفيمَن | مُبْهماتٍ أَحكـــامُهـــا منقولَـــة
ويظنُّن أنَّ ذاك على مـــا | اضمروا من شنــاعـــةٍ أو رذيلـــة
وهو ظنٌّ عنِ الصَّواب بعيـــدٌ | وظلاَمٌ لم يُحْسَنُوا تـــأويلَـــه
وجنـــاب السُّلطـــان نزَّهـــه اللهُ | عن العــاب[٤] بـالهُدَى والفَضيلَة
وأَجَـــلُّ الملوك قـــدراً صفوحٌ | يرَتجي ذنبَ دَهره ليُقيلَـــه
فـاقبلوا العُـذرَ إنّنـا اليومَ نرجُو | بحيـاةِ السُّلطـان منكُم قبُولَـه
واعينوا على الزَّمــــان غريبــاً | يشتكي جَـدْب عَيشِه ومُحُولَـه

---

(١) يشير الى الفتوى السالفة الذكر عن المقريزي وابن الفرات .
(٢) السلاح : آلة الحرب ، او حديدته ، ويؤنث .
(٣) اوتار جمع وتر ، بمعنى الذحل . والذحل : العداوة . والجمع ذحول .
(٤) العاب : العيب .

جارُكم ضيفُكم نزيلُ حِماكم   لا يُضيعُ الكريمُ يوماً نَزيلَه
جَدِّدوا عندَه رُسومَ رضاكم   فرُسُومُ الكرام غَيرُ مُحيلَة
داركوه برحمة فلقد أَمـ   ـسَتْ عقودُ اصطباره محلولَة
وانحلوه جَبْرا فليس يُرجّي   غيرَ إحسانكم لهَذِي النَّحِيلَة
يا حميدَ الآثار في الدهر يا   أَلطنْبُغايا رَوْض العُلاَ ومَقِيلَه
كيفَ بالخانِقاه ينقلُ عنّي   لا لذنَب أو جُنْحَةٍ منقولَة
بل تقلَّدتُها شغُوراً بمرسُو   مٍ شَريفٍ وخِلعة مَسْدُولَة
ولقد كنت آملاً لسواها   وسوّاها بوعْدِه ان يُنيلَه
وتوثَّقتُ للزَّمان عليَيْها   بعقود ما خِلتُها محلولَة
أَبلغَن قِصَّتي فمثلُك من يَقْـ   ـصِدُ فعل الحسنى بمن ينتمي لَه
واغنَموا من مثوبتي ودعائي   قُرْبَةً عند ربكم مقبولَة

وفي التَّعريض بسفَره إلى الشام :

واصحبِ العزَّ ظافراً بالأماني   واترُكِ العُصبَة العِدا مَفْلولَة
واعتَمِل في سعادة الملك الظَّا   هر أَن تَمحو الأذَى وتُزيلَه
وتُعيدَ الدُّنيا لأحْسَنِ شَمْلٍ   حين تُضْحِي بسَعْده مشمُولَة
واطلُب النَّصر من سعادته يصحَبْك   دأباً في الظعن والحَيلُولَة
وارتَقِب ما يُحِلُّه بالأعادي   في جُمادَى او زد علَيه قَليلَه
وخذُوه فألاً بحُسن قَبولٍ   صَدَّق الله في الزمان مَقُولَة
فلقد كان يَحسُنُ الفالُ عند   المصطفى دائما ويَرضَى جَميلَة

* (السعاية في المهاداة والاتحاف بين ملوك المغرب والملك الظاهر) *

كثيراً ما يتعاهد الملوك المتَجاورون بعضُهم بعضاً بالاتحاف بطُرَف أوطانهم ،

للمُواصلة والإعانة مَتَى دعا إليها داع . وكان صلاح الدين بن أيوب هادي يَعقوبَ المنصورَ ملكَ المغرب من بني عبد المؤمن ، واستجاش به بأسطوله في قطْع مَدَد الفرنج عن سواحل الشَّام حين كان مَعْنِيًّا بإرجاعهم عنها ، وبَعَثَ في ذلك رسولَه عبد الكَريم بن مُنقذ[١] من أُمَراء شَيْزَر[٢] ، فأكرَم المنصورُ رَسولَه ، وقعد عن إجابته في الأسطول لِما كان في الكتاب إليه[٣] من العدُول عن تَخطيطه[٤] بأمير المؤمنين ؛ فَوَجدَها غُصَّـةً في صَدره مَنَعَتْه من إجابته إلى سؤاله ؛ وكان المانع لصلاح الدِّين من ذلك كاتبَه الفاضِل عَبد الرحيم البَيْساني[٥] بما كان يُشاوِره في أُمُوره ، وكان مُقيماً لدعوة الخليفة العَبَّاسي بمصر ؛ فرأَى الفاضلُ أن الخِلافة لا تنعقد لإثنين في المِلَّة كما هو المشْهُور ، وإن اعتَمد أَهلُ المَـغْرب سوَى ذلك ، لمَا يَـرَون أن ، الخِلافة ليست لقَباً فقط ، وإنما هي لصاحب العَصَبية القائم عليها بالشدَّة والحماية ؛ والخلافُ في ذلك معْروف بين أَهل الحَقِّ . فلما انقَرَضت دَولةُ الموحِّدين ، وجاءت دولةُ بني مَرين من بعدِهم ، وصار كُبَراؤهم ورؤساؤُهم يتَعاهدون قضاء فرضهم لهذهِ البِلاد الشرقيَّة ، فيتَعاهدهُم ملوكُها بالإحسان إليهم ، وتَسهيل طريقهم ؛ فحَسُن في مكارم الأخلاق انتحالُ البِرِّ والمواصلة ، بالاتحاف والاستطراف والمكافأَة في ذلك بالهمم الملوكية ؛ فسُنَّت لذلك طرائقُ وأخبار مَشْهورة ، من حقِّها أن تذكَر ؛ وكان يوسف ابن يعقوب بن عَبد الحَقّ ثالث ملوك بني مَرين ، أهدَى لصاحب مصرَ عامَ سبعمائة[٦] ، وهو يومئذ النَّاصر بن محمد بن قَلاون ، هديةً ضخمةً ، أَصحبها كَريمة

(١) هكذا سماه ابن خلدون هنا ، وفي «المقدمة» ؛ وفي «وفيات ابن خلكان» (٤٣٣/٢) ، والروضتين لأبي شامة ١٧٣/١ ، والاستقصاء ١٧٤/١ ، ان اسمه عبد الرحمن .
وهو شمس الدين ابو الحرث (وكناه في الروضتين أبا الحزم) ، عبد الرحمن بن نجم الدولة أبي عبدالله محمد بن مرشد ، المتوفى سنة ٦٠٠ بالقاهرة ، والمولود بشيزر سنة ٥٢٣ .

(٢) قرية قرب المعرة بينها وبين حماة ، فتحت سنة ١٧ هجرية ، ومنها الأمراء من بني منقذ ، وأول من ملكها منهم من يد الروم علي بن مقلد بن نصر بن منقذ الكناني ، وذلك في سنة ٤٧٤ (معجم البلدان) ، وفيات ٤٦٤/١ ، تاريخ أبي الفداء ٣٥٢/٢ (سنة ٥٠٢) . وانظر أخبار بني منقذ في تاريخ أبي الفداء ايضاً ٣٢/٣ وما بعدها .

(٣) جاء في الروضتين (١٧٠/٢ — ١٧٥) نص الرسالة التي كتبها القاضي الفاضل إلى المنصور الموحدي ، ونص رسالة أخرى مضمونها تكليف الأمير ابن منقذ هذا بالسفارة الى الموحدين .

(٤) تحليته .

(٥) عبد الرحيم بن الأشرف بهاء الدين ... العسقلاني ، ثم المصري المعروف بالقاضي الفاضل مجير الدين (٥٢٩ — ٥٩٦) . وفيات ٣٥٧/١ وما بعدها .

(٦) أنظر العبر المجلد الخامس ، والاستقصا ٤٠/٢ — ٤١ ، حيث تجد تفصيل الحديث عن هذه الهدية .

من كرائمِ داره ، احتفل فيها ما شاء من أنواع الطُّرَف ، وأصنَاف الذَّخائر ، وخصوصاً الخيلَ والبغال .

أخبرني الفقيه ابو إِسحق الحَسْناوي ، كاتب الموحِّدين بتُونس ، أنه عاين تلك الهَدية عند مُرورها بتونس ، قال : وعددت من صِنف البغال الفارهة فيها أربعمائة ، وسكتَ عما سوى ذلك . وكان مع هذه الهدية من فقهاء المغرب ، أبو الحَسَن التَّنسيّ كبيرُ أهل الفُتْيا بتِلِمْسان . ثم كافأ النَّاصر عن هذه الهدية بأَعلى منها وأَحْفل[1] مع أميرين من أمراء دَولته ، أدركا يوسفَ بنَ يعقوب وهو يُحاصر تِلمسان ، فبعثَها إلى مَرَّاكُش للنَّزاهة[2] في محاسنها ، وأدْركه الموتُ في مَغيبِها ، ورَجعا من مرَّاكُش ؛ فجهَّزهما حافدُه أبو ثابت المالك بعدَه ، وشيَّعها الى مِصر ؛ فاعترَضتها قبائل حُصَين ونَهبوهما[3] ، ودَخلا بجاية ، ثم مَضَيا إلى تُونس ، ووصلا من هنالك إلى مصر .

ولمّا ملك السلطان أبو الحسن تِلمسان ، اقترَحتْ عليه جاريةُ أبيه أبي سَعيد ، وكانت لها عليه تَرْبية ؛ فأرادت الحجّ في أيامه وبعنايته ؛ فأذِن لها في ذلك ، وبعَث في خدمتها وليَّه عَرِيف بن يحيى من أمراء سُويد ، وجماعةً من أمرائه وبطانته ، واستَصحبوا هَدية منه للملك الناصر احتفل فيها ما شاء . وانتقى من الخيل العِتاق ، والمطايا الفُرْه وقُماش الحرير والكتَّان ، والصوف ومدبوغ الجلود الناعمة ، والأواني المتخذة من النحاس والفخَّار المخصوص كلُّ مصرٍ من المغرب بأَصناف من صنائعها ، متشابهة الأشكال والأنواع ، حتى لقد زعموا أنه كان فيها مَكيلة من اللالِيء والفُصوص ، وكان ذلك وقر خمسِ مائة بَعير ، وكانَت عتاق الخيلِ فيها خمس مائة فرس ، بالسروج الذَّهبية المرصَّعة بالجواهر ، واللجم المذهبة ، والسيُّوف المحلاّة بالذهب واللآلىء ؛ كانت قيمة المركب الأول منها عشرة آلاف دينار ،

---

(١) جاء في الاستقصاء : ٤١/٢ : « ... وأما الملك الناصر ، فانه كافأ السلطان يوسف على هديته ، بأن جمع من طرف بلاد المشرق ما يستغرب جنسه وشكله ، من الثياب والحيوانات ، ونحو ذلك ، مثل الفيل والزرافة ونحوهما ، وأوفد به مع عظماء دولته سنة ٧٠٥ » .

(٢) استعمال النزاهة ، والنزهة بهذا المعنى مختلف فيه بين اللغويين . وانظر تاج العروس « نزه » ، حيث تجد اقوالهم .

(٣) في الاستقصا : ٤٢/٢ : « ... ولما انتهوا الى بلاد بني حسن في سنة ٧٠٨ ، اعترضتهم الأعراب بالقفر ، فانتهبوهم ، وخلصوا الى مصر بجريعة الذقن ، فلم يعاودوا بعدها سفراً ، ولا لفتوا اليه وجهاً ، وطالما اوفد عليهم ملوك المغرب بعدها من رجال دولتهم من يؤبه له ، ويهادونهم ويكافئون ، ولا يزيدون في ذلك كله على الخطاب شيئاً » .

وتدرَّجت على الولاء إلى آخر الخمس مائة ؛ فكانت قيمته مائةَ دينار . تحدَّث الناس بهذه الهديّة دهراً ، وعُرِضت بين يَدي الملك النَّاصر ، فأشار إلى خاسكيته بانتهابها فنُهبت بين يديه ، وبُولِغ في كرامة أولئك الضّيوف ، في إنزالهم وقِراهم وإزوادهم إلى الحِجاز وإلى بلادهم ؛ وبقي شأن الهدية حديثاً يتجاراه الناس في مجالسهم وأَسْمارهم ؛ وكان ذلك عام ثمانية وثلاثين وسبعمائة . ولمّا فَصَل أَرسال[1] مَلِك المغرب ، وقد قَضَوا فرضَهم ، بعث المِلكُ النَّاصر معهم هَدّيةً كِفَاءَ هديتهم ، وكانت أصنافها حمل القُمَاش من ثياب الحرير والقماش المصنوعة بالإسكندرية ، تُحمَل كلَّ عام إلى دار السلطان ، قيمة ذلك الحمل خمسون ألف دينار ، وخيمة من خيام السلطان المصنوعة بالشام على مثال القُصور ، تشتمل على بيوت للمَراقد ، وأَوَاوينَ للجلوس والطَّبخ ، وأبراجٍ للإشراف على الطرقات ، وأبراجَ أَحدُها لجلوس السلطان للعَرْض ؛ وفيها تمثال مسجد بمحرابه ، وعَـمَده ، ومأذنته ؛ حَوائطها كلُّها من خرق الكتَّان الموصولة بحَبْك الخِياطة مفصَّـلَةً على الأشكال التي يقترحها المتَّخذُون لها .

وكان فيها خيمة أخرى مستديرةُ الشكل ، عاليةُ السمك ، مخروطة الرأس ، رحبةُ الفِناء ، تُظِلُّ خمس مائة فارس أو أكثر ، وعشرةٌ من عتاق الخيل بالمراكب الذهبية الصَّقيلة ، ولجمُها كذلك ؛ ومرَّت هذه الهَدِية بتُونس ، ومعها الخُدَّام القائمون بنَصْبَ الأبنية ، فعَرَضوها على السلطان بتونس . وعاينتُ يومئذ أصنافَ تلك الهدِية ، وتوَّجهوا بها إلى سلطانهم ، وبَقِي التعجّب منها دهراً على الألسنة . وكان ملوكُ تُونس من الموحِدين ، يتعَاهدون ملوكَ مصر بالهَدِيَّة في الأوقات .

ولما وصلتُ إلى مصر ، واتّصلتُ بالملك الظاهر ، وغمرني بنعمه وكرامَتِه ، كاتبت السلطان بتُونس يومَئذ ، وأخبرتُه بما عندَ المَلك الظاهر من التَّشوُّف إلى جِياد الخيل ، وخصوصاً من المغرب ، لما فيها [من تحمُّل] الشِّدّة والصَّبر على المتاعب ، وكان يقول لي مثلَ ذلك ، وأنَّ خيلَ مصر قصَّرت بها الرَّاحة والتَّنعُّم ، عن الصَّبر على التَّعَب ؛ فحَضَضتُ السلطانَ بتُونس على إتحاف الملك الظاهر بما يَنتقيه من الجياد الرَّائعة ، فبعث له خمسةً انتقاها من مراكبه ، وحملها في البَحر في السَّفين الواصل بأهلي وولدي ؛ فغرقت بمرسى الإسكندرية ، ونفَقت تلك الجياد ، معَ ما ضاع في

(١) فصل من البلد : خرج عنه . وقداستعمل ابن خلدون « ارسال » جمع رسول في اماكن متفرقة من كتاب العبر . وهذا غير جائز في مختلف كتب اللغة .

ذلك السَّفين ، وكلُّ شيء بقدَر .

ثم وصل إلينا عامَ ثلاثة وتسعين وسبعمائة شيخُ الأعراب : المَعْقِل بالمغرب ، يُوسف ابن عليّ بن غانم ، كبير أولاد حُسَين ناجياً من سَخَط السلطان أبي العبَّاس أحمد ابن أبي سالم ، من ملوك بني مَرين بفاس ، يَروم قَضاء فَرضه ، ويتوسَّل بذلك لرِضَى سُلطانه ؛ فوجَد السلطان غائباً بالشام في فِتنَة منطاش ؛ فعَرضتُه لصاحب المَحْمِل . فلمَّا عادَ من قَضاء فَرضه ، وكان السلطانُ قد عاد من الشام ، فوصَلتُه به ، وحضَر بين يديْه ، وشَكا بَثَّه ؛ فكتب الظاهر فيه شفاعةً لسلطان وطنه بالمغرب ، وحمَّله مع ذلك هديّة إليه من قُماش وطِيب وقِسِيّ ، وأوصاه بانتقاء الخيل له من قُطر المغرب ، وانصرف ؛ فقبِل سلطانُه فيه شفاعَةَ الظَّاهر ، وأعادَه إلى مَنزلته . وانتَقَى الخيولَ الرائعة لمهاداة الملك الظاهر ، وأحسَن في انتقاء أصناف الهدية ؛ فعاجلته المنيَّة دُون ذلك ، وولي ابنُه أبو فارس ، وبقي أياماً ثمَّ هلك ، وولي أخوه أبو عامر ، فاستكمل الهديّة ، وبعثها صُحبةَ يوسف بن علي الوارد الأول .

وكان السلطان الملك الظاهر ، لما أَبطأ عليه وصولُ الخيل مِن المغرب ، أراد أن يبعثَ من أُمرائه من ينتقي له ما يشاء بالشِّراء ، فعيَّن لذلك مملوكاً من مماليكه منسوباً إلى تربية الخليلي ، إسمه قُطْلُوبُغا[١] ، وبعثَ عنِّي ، فحضرتُ بين يَديه ، وشاورني في ذلك فوافقتُه ، وسألني كيف يكون طريقُه ، فأشرت بالكتاب في ذلك الى سلطان تُونس من الموحّدين[٢] ، وسلطان تِلمسان من بني عبد الواد ، وسلطان فاس والمغرب من بني مَرين ، وحَمَّله لكل واحد منهم هدية خَفِيفَةً من القُماش والطيب والقِسِيّ ، وانصرف عامَ تسعة وتسعين وسبعمائة إلى المغرب ، وشيَّعه كل واحد من مُلوكه إلى مأمنه ، وبالغ في إكرامه بما يتعيَّن . ووصلَ إلى فاس ، فوجَد الهَدية قد استكملت ، ويوسف بنَ عليّ على المسير بها عن سلطانه أبي عامر من ولد السلطان أبي العباس المخاطب أَوّلا . وأظلَّهم عيدُ الأصحَى بفاس ، وخَرَجُوا متوجّهين إلى مصر ، وقد أفاض السُّلطان من إحسانه وعطائه ، على الرّسول قُطْلُوبُغا ومن في جُمْلته بما أَقَرَّ عيونَهم ، وأطلق بالشكر ألسنَتَهم ، وملأ بالثناء ضمائرهم ، ومَرُّوا بتِلِمْسان ، وبها

(١) هو قطلوبغا بن عبدالله المتوفي سنة ٨٢١ . تولى نيابة الاسكندرية والحجابة أيام الظاهر . ونيابة الإسكندرية أيام المؤيد . قال في المنهل : وأظنه من مماليك جاركش الخليلي أمير أخور . والله اعلم .

(٢) هو أبو العباس أحمد بن محمد بن أبي بكر بن أبي حفص الموحدي .

يومئذ أبو زيَّان ، ابنُ السلطان أبي حَمُّو من آل يَغمْراسَن بن زيَّان ، فبعث معهم هديةَ أخرى من الجياد بمراكبها ، وكان يَحوكُ الشعر ، فامتدح الملك الظاهر بقصيدة بَعَثَها مع هديته ، ونَصُّها من أولها الى آخرها :

لمن الرَّكـائب سَيْرهن دَميـلُ[1] والصَّبْرُ — إلاَّ بعدَهن — جَميلُ
يـا أيها الحادي رُويْـدك[2] إنَّهـا ظُعُنٌ[3] يَمِيلُ القَلْبُ حَيثُ تُميل
رفقـاً بمن حملَتْـه فوق ظهُورهـا فـالحسنُ فوقَ ظهورهـا مَحمولُ
لله آيــة أنجم : شَفَّــافــة تنجـاب عنهـا للظلام سدولُ
شُهُبٌ بـآفـاق الصدور طلوعهـا ولها بـأستـار الجُـدول أفولُ
في الهَـوْدَج المَزْرُورِ منهـا غـادةٌ تَزَعُ الـدجى بجبينهـا فيحولُ
فكـأنها قمر على غُصْنٍ عَلى مَتني كثيبٍ والكثيب مَهيـلُ
ثـارَت مَطـايـا فثارَ بـيَ الهَوَى واعتـادَ قلبي زَفرةٌ وغَليـلُ
أَومَت لِتوديعي فغـالبَ عَبْرَتي نظرٌ تخالسُه العيون كليـلُ
دمـع أُغَيِّض منـه خوفْ رقيبها طوراً ويَغْلِبُني الأسَى فَيسيـلُ
ويحَ المحبِّ وشَت بـه عَبَراتُـه فكـأنّهـا قـالٌ عليه وقيـلُ
صانَ الهَـوَى وجفونُـه يوم النَّوَى لِمَصُون جَـوْهر دَمْعهنَّ تُـذيـلُ
وتَهـابُـه أُسْدُ السَّرى في خِيسها[4] ويَروعُـه ظَبـيُ الحِمَى المَكْحُولُ
تأبَى النفوسُ الضَّيْمَ إلاَّ في الهَوَى فـالحرُّ عبـدٌ والعَزِيز ذَليـلُ
يـا بانةَ الوادي ويا أَهْلَ الحِمَى هـل ساعـةٌ تصْغَين لي فـأقولُ
مـالي إذا هبَّ النسيم من الحِمَى أَرتـاحُ شوقـاً للحِمَى وأَميـلُ
خلُّوا الصَّبـا يَخْلُصْ إليَّ نسيمُهـا إن الصَّبـا لصَبـابتي تَعليـلُ
مـا لي أُحلاَّ عن ورود محلّـه وأُذادُ عَنـهُ ووِرْدُه مَنْهـولُ[5]

(١) الذميل : ضرب من سير الإبل فوق التزيد .
(٢) رويدك : اسم فعل بمعنى أمهل .
(٣) جمع ظعينة ؛ وهي المرأة تكون في الهودج ، والهودج نفسه .
(٤) الخيس : موضع الأسد .
(٥) حلأ الإبل عن ورود الماء : منعها ، وذادها .

والباب ليس بمرتَجٍ[1] عن مُرْتج[2] والظنُّ في المولَى الجميـل جَمِيـلُ

* * *

من لي بزَوْرَة رَوْضةِ الهادي الـذي مـــا مثلُـــه في المرسلين رسولُ
هو أحمـــدُ ومحمـــدٌ والمصطفَى والمجتَبَى ولــه انتهى التفضيـــلُ
يا خيرَ من أهدى الهُدَى وأجلَّ مَن أثنى عليـــه الوَحْي والتَّنزيــلُ
وحيٌ من الرَّحمن يُلْقيـــه على قَلْب النَّبي محمـــدٍ جبريـــلُ
مَـدَحتْك آيـاتُ الكِتـابِ وبَشَّرت بقـــدومك التَّوْراةُ والانجيـــلُ
صِلةُ الصَّلاةِ عليك تَحلو في فَمي مَهْما تكرَّر ذكرُك المَعْسُولُ
فَورَ بْعِكَ المأْهولِ إن بـــأَضْلُعي قلبـــاً بحُبِّك رَبْعُـــه مـــأهولُ
هـل من سبيلٍ للسَّرَى حَتى أَرَى خَيرَ الوَرَى فهو المُنَى والسُّولُ
حتَّـــامَ تمطُلُني اللَّيـــالي وعْـدَهَـا إنَّ الزَّمـــان بوَعْـــدِه لبخيـــلُ
مـــا عَـــاقني إلاّ عظيم جرائمي إن الجَرَائم حمْلُهنَّ ثقيـــلُ
أَنـــا مُغْرم فتعطَّفوا انـــا مُـذنِب فتحـــاوزوا أنـــا عَـــاثِر فـــأَقِيلوا
وأنـــا البَعيـــد فقربّوا والمُسْتَجير فـــأَمِّنوا والمُرتَجَى فـــأَنيلوا
يـــا سائقـاً نحو الحِجـاز حَمُولـةً[3] والقَلب بين حُمُولـــهِ[4] مَحمولُ
لِمحمَّـــدٍ بلِّـغ سلامَ سَمِيِّـــهِ فـــذِمـــامُـــه بمحمـــدٍ موصُولُ
وسَل الالـــه لـــه اغتفَـــار ذنوبـــه يُسْمَـــعْ هنـــاك دعـــاؤكَ المقبولُ

* * *

وعن المليك أبي سعيـــدٍ فلتَنُبْ فلَكَمْ لَـــــه نحوَ الرَّسول رَسُولُ
مُتَحَمِّـــــلٌ لله كِسْوة بيتِــــه يـــا حَبَّـــذاك المَحْمِـــلُ المحْمُولُ
سُعْـــدُ المَلِيك أبِـي سَعِيـــدٍ إنَّـــه سَيفٌ على أعـــدائِـــه مَسْلولُ
مَلِك يَحُجُّ المَغْرِب الأقصَى بـــه فلَهُم بـــه نَحوَ الرَّسول وصُول[5]

(١) باب مرتج : مغلق .
(٢) من الرجاء .
(٣) الحمولة (بالفتح) : ما يحمل عليه الناس من الدواب .
(٤) الحمول جمع حمل ، وهو ما حمل على ظهر الدابة .
(٥) كانت العناية التي يلقاها الحجاج المغاربة من ملوك مصر ، مما يقدره ملوك المغرب التقدير الجميل ، وكان مما يقلقهم ان يتعرض وفد الحجاج المغاربة للمتاعب في سفره . صبح الأعشى ٩/٢٥٠ .

مِلِكٌ بِــه نَــامَ الأنَــامُ وأُمِّنَتْ سُبُلُ المَخَافِ[1] فلا يخافُ سبيلُ
فـالمُلْكُ ضَخْمٌ والجَنابُ مؤمَّلٌ والفَضْلُ جمٌّ والعَطَــاءُ جَزِيــلُ
والصُّنْـعُ أَجمـلُ والفَخَارُ مؤثَّـلٌ والمَجْـدُ أكمَـلُ والوَفَـاءُ أصيـلُ
يـا مَالكَ البَحْرينِ بُلِّغتَ المُنَى قَـدْ عَـادَ مصرُ على العِراقِ يَصُولُ
يـا خـادِمَ الحَرَمَينِ حُقَّ لكَ الهَنَـا فعليك من رَوْحِ[2] الالــه قبولُ
يــا مُتْحِفِي ومُفـاتِحي بِرسالـةٍ سَلْسَالــةٍ يُزْهى بها التَّرسِيـلُ
أَهـديتَهـا حَسْنَـاءَ بِكراً مَـا لَهـا غَيري ، وإِن كثُر الرِّجال ، كفِيلُ
ضَاءَ المِـدَادُ من الوِدَادِ بصُحْفِهـا حتى اضمحـلَّ عُبُوسُه المجبولُ[3]
جُمِعَت وحـامِلَهـا بحضْرتنـا كما جُمِعت بُثَيْنَةُ في الهَوَى وجَميلُ[4]
وتـأكَّـدت بهدِيَّـةٍ ودِيَّـةٍ هي للاخـاءِ المرتَضَى تكميـلُ
أَطلعْتَ فيهـا للقِسِيِّ أهِلَّـةً يرتـدُّ عنهـا الطَّرْفُ وهو كليـلُ
وحُسَامَ نَصْرٍ زاهيــاً بِنُضَارِه رَاقَ العيون فِرِنــدُهُ المغْسولُ
ماضي الشَّبَا[5] لمَصَابه تَعنُو الظُّبَا فيــه تصولُ على العِـدا وتطُولُ
وبَـدائـعَ الحُلَـلِ اليَمانِيَـة التي رَوَّى معـاطفَهـا بمصر النِّيـلُ
فـأَجلتُ فيهـا نـاظري فرأَيتُهـا تُحَفـاً يجُول الحسنُ حيث تجول
جلَّت محاسنُهـا فـأَهوَى نحوَهـا بِفَمِ القبول اللَّثْمُ والتَّقْبيـلُ
يا مُسْعِدي وأخِي العزيزَ ومُنْجِدي ومن القُلوب إلى هَواه تميـلُ
إن كـان رسْمُ الوُدِّ منك مـذيَّلاً بـالبِرِّ وهو بـذَيلـه موصولُ
فنظيرُه عنــدي وليس يَضِيرُه بمعـارضٍ وهْمٌ ولا تَخييـلُ
ودٌّ «يزيـدُ» و«ثـابتُ» شَهِـدا بـهِ و«لخـالـدٍ» بخُلودهِ تـذييـلُ
وإليكَهـا تُنبيك صدقَ مودَّتي صحَّ الـدليـلُ ووافقَ المدلولُ
فـإذا بـذاك المجلسِ السَّامي سَمَتْ فلَـديك إقبـالٌ لها وقَبُولُ

---

(١) المخاف : موضع الخوف .
(٢) روح الاله : رحمته .
(٣) يعني : اضمحلّ العبوس الطبيعي .
(٤) جميل بن عبدالله بن معمر العذري ، وبثينة صاحبته التي عشقها منذ أيام صباه .
(٥) الشباة : حد السيف وطرفه ، والجمع شباً .

دام الوِدادُ على العِبـــاد موصِّلا   بينَ القُلوب وحبلُـــــه موصولُ
وبقيتَ في نِعَمٍ لَـديك مزيـدُهـا   وعليْك يضفُو ظلُّهــــا المسدُولُ

ثم مرُّوا بعدَها بتُونس ، فبَعث سلطانُ تُونس أبو فَارس عبد العزيز ابن السلطان أبي العبّاس من مُلوك الموحِّدين ، هديةً ثالثةً انتقَى لها جيادَ الخيل ، وعزّز بها هدية السلطانين وَراءه ، مع رَسوله من كِبار الموحّدين أبي عبدالله بن تَافْرَاكِين ؛ ووصَلَت الهَدايا الثلاث إلى باب الملك الظّاهر في آخر السَّنة ، وعُرِضَت بين يَدي السلطان ، وانتَهب الخاسِكية ما كان فيها من الأقمشة والسُّيوف والبُسُط ومراكب الخَيل ، وحَمل كثيراً منهم على كثير من تلك الجياد وارتَبط الباقيات .

وكانَت هديَّةُ صاحبِ المغرب تشتَمل على خمسة وثلاثين من عتاق الخيل بالسروج واللُّجُم الذهبية ، والسيوف المحلاَّة ، وخمسةٍ وثلاثين حِملاً من أقمشة الحرير والكتَّان والصوف والجلد ، منتقاةً من أحسن هذه الأصناف .

وهديَّةُ صاحب تلمسان تشتمل على ثلاثين من الجياد بمراكبها المُموّهة ، وأحمالاً من الأقمشة .

وهديّةُ صاحب تونس تشتمل على ثلاثين من الجياد مُغَشَّاةً ببراقع الثياب من غير مَراكب ، وكلها أنيق في صُنعِه مُستطرَف في نوعِه ؛ وجلَس السُّلطان يَوم عرضِها جلوساً فَخماً في إيوانه ، وحضر الرُّسل ، وأَدّوا ما يجب عن ملوكهم . وعامَلَهُم السلطان بالبِرّ والقُبُول ، وانصرفوا إلى منازلهم للجرايات الواسعة ، والأحوال الضَّخمَة . ثم حضرَ وقتُ خُروجِ الحاجّ ؛ فأستأذنوا في الحَجّ مع مَحْمِل السلطان ، فأذن لهم ، وأرغد أزودَتهم . وقَضَوا حجَّهُم ، ورَجعُوا إلى حضرة السلطان ومَعهود مَبرَّته . ثم انصَرفوا إلى مواطنهم ، وشيَّعهم من برّ السلطان وإحسانه ، ما ملأ حقائبهم ، وأَسنَى ذخيرتَهم ، وحصَل لي أنا من بين ذلك في الفخْرِ ذِكْرٌ جميلٌ بما تَناولتُ بين هؤلاء الملوك من السَّعْي في الوُصْلة الباقية على الأبد ، فَحمدت الله على ذلك .

* (ولاية القضاء الثانية بمصر) *

ما زلتُ ، منذُ العزل عن القضاء الأوَّل سنة سبعٍ وثمانين وسبعمائة ، مكباً على

الاشتغال بالعلم ، تأليفاً وتدريساً ؛ والسلطان يولّي في الوظيفة من يراه أهلاً متى دعاه إلى ذلك داع ، من موت القائم بالوظيفة ، أو عزله ؛ وكان يراني الأوْلَى بذلك ، لولا وجودُ الذين شَغَّبوا من قبلُ في شأني ، من أمراء دولته ، وكبار حاشيته ، حتى انقرضوا . واتفقَت وفاةُ قاضي المالكيّة إذ ذاك ناصر الدين بن التَّنَسِي (١) ، وكنتُ مقيماً بالفيّوم لضَمّ زرعي هنالك ؛ فبعث عنّي ، وقلّدني وظيفة القَضاء في منتصف رمضان من سنة إحدى وثمانمائة ؛ فجريتُ على السَّنَن المعروف مني ، من القيام بما يجب للوظيفة شرعاً وعادة ؛ وكان رحمه الله يَرضَى بما يَسْمع عنّي في ذلك . ثم أَدركته الوفاة في منتصف شوال بعدها ، وأحْضر الخليفةَ والقضاة والأمراء ، وعهد إلى كبير أبنائه فَرَج ، ولإخوته من بعده واحِداً واحِداً ، وأَشْهدهم على وصيّته بما أراد . وجعل القائم (٢) بأمر إبنه في سلطانه إلى أتابكه ايتمش (٣) ، وقَضى رحمة الله عليه ، وترتَّبت الأمور من بعده كما عَهد لهم ، وكان النائب بالشام يومئذ أمير من خاسكية السلطان يعرف بتنم (٤) ، وسمع بالواقعات بعدَ السلطان فغصّ أن لم يكن هو كافلَ ابن الظّاهر بعدَه ، ويكونُ زمام الدّولة بيده . وطفق سَماسِرةُ الفتَن يُغرونَه بذلك ، وبَينما هُم في ذلك إذ وقعت فتنة الأتابك (٥) أَيْتمش ، وذلك أنّه كان للأتابك دَوادار غِرّ يتطاول إلى الرئاسة ، ويترفَّع على أَكابر الدّولَة بحظّه من أستاذه ، وما لَهُ من الكَفالة على السلطان ؛ فَنَقَموا حالهم مع هذا الدّوادار ، وما يَسُومهم به من التَّرفُّع عليهم ، والتَّعرض لإهمال نصائحهم ؛ فأغروا السلطان

---

(١) هو أحمد بن محمد بن عطاء الله بن عوض الزبيري الاسكندري المالكي المشهور بابن التنسي (بفتح التاء والنون وكسر السين المهملة) ، ولد سنة ٧٤٠ ، وتوفي سنة ٨٠١ .

(٢) كذا بالأصل ؛ ولعلها «القيام بأمر» .

(٣) هو أيتمش بن عبدالله الأسندمري البجاسي الجرجاني الأمير سيف الدين ؛ أتابك العساكر بالديار المصرية ؛ أصله من مماليك اسندمر البجاسي الجرجاني (نسبة إلى جرجي نائب حلب) وكان ملك ايتمش قبل أن يحرره الظاهر برقوق .

(٤) الأمير سيف الدين تنم بن عبدالله الحسني الظاهري ؛ اسمه الاصلي تنبك ؛ وغلب عليه «تنم» ؛ كان نائب دمشق ؛ وهو من مماليك الظاهر برقوق ؛ قتل سنة ٨٠٢ بقلعة دمشق .

(٥) يطلق «اتابك» في أيام المماليك ؛ على مقدم العساكر أو القائد العام ؛ على انه أبو العساكر والامراء جميعاً . وهو مركب من كلمتين : «أتا» بمعنى «أب» ؛ و«بك» ومعناها أمير . صبح الأعشى ١٨/٤ ، ١/٦ .

بالخروج من ربقه الحَجْر ، وأطاعهم في ذلك ، وأحضر القضاةَ بمجلسه للدّعوى على الأتابك باستغنائه عن الكافل ، بما عُلِم من قيامه بأمره وحُسن تصرفاته . وشهد بذلك في المجلس أمراءُ أبيه كافَّة ، وأهلُ المراتب والوظائف منهم ، شهادةً قبلَها القضاة . وأعذروا إلى الأتابك فيهم فلم يَدفَع في شيء من شهادتهم ، ونَفَذ الحكمُ يومئذ برفع الحِجْر عن السلطان في تصرفاتِه وسياسةِ مُلكه ، وانفضّ الجمع ، ونزل الأتابكُ من الإسطبل إلى بيت سُكناه . ثم عاوَد الكثيرُ من الأمراءِ نَظَرهم فيما أتوه من ذلك ؛ فلم يَروهُ صواباً ، وحملوا الأتابك على نَقْضه ، والقيام بما جَعَل له السلطانُ من كفالة إبنه في سلطانه . وركب ، وركبوا معه في آخر شهر المولد النّبوي ، وقاتَلهم أولياءُ السُلطان فَرَج عشيَّ يومهم وليلتَها ؛ فهزمُوهم ، وساروا إلى الشّام مستصْرخين بالنائب تنم ، وقد وقَر في نفسه ما وقَر من قَبلٍ ؛ فبرَّ وفادتهم ، وأجاب صَريخهم . واعتزموا على المُضيّ إلى مصْر . وكان السُّلطان لما انفضَّت جموع الأتابك ، وسار إلى الشام ، اعتمله في الحركة والسَّفر لَخضْد شوكتهم ، وتفريق جماعتهم ؛ وخرج في جُمادى حتى انتهى إلى غزَّة ، فجاءَه الخبر بأنّ نائب الشام تِنم ، والأتابك ، والأمراء الذين مَعَه ، خرجوا من الشّام زاحفين للقاء السلطان ، وقد احتَشَدوا وأوعَبوا ، وانتهوا قريباً من الرَّمْلة[1] ؛ فراسَلَهم السُّلطان مع قاضي القُضاة الشافعي صَدر الدين المُناوي[2] ، وناصر الدين الرَّمَّاح ، أحد المعَلّمين لِثقافة الرماح ، يُعْذِر إليهم ، ويحْمِلُهم على اجتماع الكَلِمة ، وتَركِ الفِتْنة ، وإجابتهم إلى ما يطلُبون من مَصالحهم ؛ فاشتطُّوا في المطالب ، وصمَّموا على ما هم فيه . ووصَل الرَّسولان بخبرهم ، فركب السلطان من الغد ، وعبَّى عساكره ، وصمَّم لمعاجلتهم ؛ فلَقِيهم أثناء طريقه ، وهاجَمهم فهاجمُوه ، ثم ولَّوا الأدبارَ منهزمين . وصُرِع الكثير من أعيانهم وأمرائهم في صدر موكبه ، فما غشِيهم الليل إلاَّ وهم مصفَّدون في الحديد ، يَقْدُمهم الأمير تِنم نائب الشام وأكابرُهم كلّهم . ونجا الأتابك أيتمش إلى القلعة بدمشق ، فآوى إليها ، واعتقله نائب القلعة . وسار السلطان إلى دمشق ؛ فدخلها على التعبئة في يوم أَغرّ ، وأقام بها أياما ، وقَتَل هؤلاء

(١) الرملة : مدينة بفلسطين بينها وبين القدس نحو ١٨ ميلا ؛ كانت ذا شأن عظيم في الحروب الصليبية (معجم البلدان) .

صدر الدين محمد بن ابراهيم بن اسحق الشافعي .

الأمراء المعتقلين ، وكبيرَهم الأتابك ذبحاً ، وقَتل تنِم من بينهم خَنْقا ، ثم ارتحل راجعاً إلى مصر .

وكنتُ استأذنتُ في التقدُّم إلى مصر بين يَدَي السلطان لزيارة بيت المَقْدس ، فأذِن لي في ذلك . ووصلتُ إلى القدس ودخلت المسْجد ، وتَبرَّكت بزيارته والصّلاة فيه ، وتعفّفْت عن الدخول إلى القُمامَة[1] لما فيها من الإشادة بتكذيب القرآن ، إذ هو بناءُ أمم النصرانية على مكان الصَّليب بزعمهم ، فنكِرَتْه نَفْسي ، ونكِرْتُ الدُّخول إليه . وقضيت من سُنَن الزيارة ونافِلَتِها ما يجب ، وانصرفتُ إلى مدْفَن الخليل عليه السلام . ومررتُ في طريقي إليه ببيت لَحْم ، وهو بناءٌ عظيم على موضع ميلادِ المسيح ، شيَّدت القياصرة عليه بناءً بسماطين من العَمَد الصَّخُور ، مُنَجَدةً مصْطفّة ، مرقوماً على رؤوسها صُورُ ملوك القياصرة ، وتواريخ دُوَلِهم ، مُيَسَّرةً لمن يبتَغي تحقيق نَقْلها بالتَّراجمة العارفين لأوضاعها ؛ ولقد يشهد هذا المصْنَع بعِظَم مُلك القياصرة وضَخامة دولتهم . ثم ارتحلت من مدْفن الخليل إلى غَزَّة ، وارتحلتُ منها ، فوافيتُ السلطان بظاهر مِصْر ، ودَخلتُ في رِكابه أواخر شهرِ رمضان سنة إثنين وثمانمائة . وكان بمصر فقيه من المالكيّة يعرف بنُور الدّين بن الخلال[2] ، ينوب أكثرَ أوقاته عن قُضاة القضاة المالكيّة ؛ فحرِّضه بعض أصحابه على السَّعي في المنصِب ، وبذل ما تَيَسَّر من مَوجوده لبعض بطانة السلطان الساعين له في ذلك ، فَتَمَّت سِعايته في ذلك ، ولبِسَ منتصفَ المحرَّم سنة ثلاث وثمانمائة ؛ ورجعت أنا للإشتغال بما كنت مشتغلاً به من تدريس العلم وتأليفه ، إلى أن كان السَّفر لمدافعة تمر عن الشام .

* (سفر السلطان الى الشام لمدافعة الططر عن بلاده) *

هؤلاء الططر من شعوب الترك ، وقَد اتفق النسَّابة والمؤرخون على أن أكثر أمم العالم فرقتان ، وهما : العرب والترك ، وليس في العالم أمة أوفرَ منهما عدداً ، هؤلاء في

(١) القمامة (بالضم) : كنيسة كبرى ببيت المقدس . تاج العروس (قمم) (معجم البلدان) .

(٢) علي بن يوسف بن عبدالله (او ابن مكي) الدميري (او الزبيري) ، المعروف بابن الخلال المالكي .

جنوب الأرض ، وهؤلاء في شمالها ، وما زَالوا يَتناوَبُون الملك في العالم ؛ فتارةً يَملك العرب ويَزْحلون[1] الأعاجمَ إلى آخر الشمال ، وأخرى يَزْحَلهم الأعاجم والترك إلى طرف الجنوب ، سُنَّة الله في عباده .

فلنذكُر كيف انسَاقَ الملك لهؤلاء الططر[2] ، واستقرت الدُّول الإسْلامية فيهم لهذا العهد فنقول : إن الله سبحانه خلق هذا العالم واعتَمَره بأصناف البشَر على وَجْه الأرض ، في وسَط البُقْعة التي انكشفت من الماء فيه ، وهي عند أهل الجغرافيا مقدَار الرُّبع منه ، وقسَّموا هذا المعْمور بسبعة أجزاء يُسَمُّونها الأقاليم ، مبتدأةً من خط الإستواء بينَ المشرق والمغرب ، وهو الخطّ الذي تسامت الشمس فيه رؤوس السكان ، إلى تمام السَّبعة أقاليم . وهَذا الخط في جَنُوب المَعْمور ، وتَنتهي السبعة الأقاليم في شماله . وليس في جَنوب خط الإستواء عِمارةٌ إلى آخر الرّبع المنكَشف ، لإفراط الحرِّ فيه ، وهو يَمنع من التَّكوين ؛ وكذلك ليس بعدَ الأقاليم السَّبعة في جهة الشَّمال عِمارة ، لإفراط البرْد فيها ، وهو مَانع من التكوين أيضاً . ودَخَل الماء المحيطُ بالأرض من جهة الشرق فوق خط الإستواء بثلاث عشرة درجة ، في مدخَل فسيح ، وانساح مع خطّ الاستواء مُغَرِّباً ؛ فمرَّ بالصِّين ، والهند والسِّند واليَمَن ، في جنوبها كلّها . وانتهى إلى وسط الأرض ، عند باب المَنْدَب[3] ، وهو البحر الهِندي والصيني ، ثم انحرف من طرفه الغَربي في خليج عندَ باب المَندب ، ومرّ في جهة الشمال مغرِّبا باليَمَن وتِهامَة والحجاز ومَدْيَن[4] وأيْلة[5] وفاران[6] ، وانتَهى إلى

---

(١) زحل عن مكانه : زل . وبعد .

(٢) كذا بالأصل . وهي : التتر .

(٣) باب المندب : هو المضيق الواقع في النهاية الجنوبية للبحر الأحمر .

(٤) Midian : مقاطعة في شمال الحجاز تمتد على الساحل الشرقي للبحر الأحمر الى مبدأ خليج العقبة . وفي الجهة الشرقية منها يقع جبل الصفاة .

(٥) أيلة (Aila أو Ailat) : ميناء واقع في الزاوية الشمالية الشرقية لخليج العقبة . وكان في القديم مدينة تجارية ذات أهمية كبرى . وقد ورد ذكرها في التوراة ، في سفر الملوك ٩ : ٢٦ . ٢٧ . خطط المقريزي ٢٩٨/١ (طبع مصر) .

(٦) فاران : مدينة كانت على ساحل بحر القلزم بناحية الطور . ويقول المقريزي في الخطط (٣٠٤/١ طبع مصر) : «... وكانت مدينة فاران من جملة مدائن مدين الى اليوم . وبها نخل كثير مثمر . أكلت من ثمره ، وبها نهر عظيم . وهي خراب يمر بها العربان» .

مدينة القُلْزُم[1] ، ويُسمّى بحر السويس ، وفي شرقيه بلادُ الصّعيد إلى عَيْذَاب[2] ، وبلاد البُجَاة[3] ؛ وخرجَ من هذا البحر الهندي من وسطِه خليج آخر يُسَمّى الخليجَ الأخضر[4] ، ومرَّ شمالاً إلى الأبلة[5] ، ويسمّى بَحْر فارس[6] ، وعلَيْه في شرقيه بلادُ فارس[7] ، وكِرْمان[8] ، والسِّند[9] ؛ ودخل الماء أيضا ، من جهة الغرب في خليج مُتضايق في الإقليم الرابع ، ويُسَمَّى بحرَ الزُّقاق[10] ، تكون سعتَه هنالك ثمانية عشر ميلاً . ويمرُ مُشرِقاً ببلاد البَرْبَر ، من المغرب الأقصى والأوسَط وأرض إفريقية والإسكندرية وأرض التِّيه[11] وفلسطين والشام ؛ وعليه في الغرب بلادُ الإفرنج كلّها ؛ وخرج منه في الشمال خليجان : الشرقي منهما خليج القُسْطَنطينية[12] والغربي خليج البَنَادقة ، ويُسَمَّى هذا البحرُ البحرَ الرُّوسيّ ، والشاميّ .

ثم إن هذه السّبعة الأقاليم المعمورة ، تنقسم من شرقيّها وغربيّها بنصفين : فنصفُها

---

(١) القلزم بالضم ثم السكون ثم زاي مضمومة : بلد ساحلية بجوار السويس والطور ، واليها ينسب البحر ، فيقال بحر القلزم ، ويقول ياقوت في معجم البلدان : «... وأما اليوم فهي خراب يباب ، وصار الميناء الى مدينة قربها يقال لها السويس» .

(٢) عيذاب : مدينة مصرية على الساحل الافريقي للبحر الأحمر ، وكانت في العصور الوسطى ميناء مهماً للحجاج الذين يقصدون مكة من الغرب ، ومحطة للسفن الهندية التي كانت تأتي من عدن ، ولتجار افريقية الوسطى ، (معجم البلدان) .

(٣) البجاة ، ويقال البجة : مجموعة من القبائل الحامية تسكن فيما بين النيل والبحر الأحمر ؛ واسمها «البجة» قديم يرجع إلى ما قبل الاسلام ، الخطط (طبع مصر ٣١٣/١ — ٣١٩) . صبح الأعشى ٢٧٣/٥ .

(٤) يريد بالخليج الأخضر خليج عمان .

(٥) ضبطها ابن خلدون بضم الهمزة والباء الموحدة ، وتشديد اللام المفتوحة ؛ وهي مدينة على شاطىء دجلة في زاوية الخليج الذي يدخل الى مدينة البصرة . معجم البلدان ، صبح الأعشى ٣٣٦/٤ .

(٦) يسمى بحر فارس اليوم ، الخليج الفارسي .

(٧) فارس ، أو بلاد العجم : هي التي تعرف اليوم باسم ايران اشتقاقاً من كلمة «آرية» وتدل الآن على المملكة الفارسية . (معجم البلدان) .

(٨) كرمان : احدى المدن الجبلية من مدن ايران : وكانت في القديم ولاية تفصل بين فارس في الغرب ، وصحارى لوط في الشرق . (معجم البلدان) .

(٩) السند : بلاد كانت تفصل بين الهند وكرمان ، وبعضهم كان يعد من اقليم السند بلاد مكران الواقعة في جنوب فارس . (معجم البلدان) .

(١٠) هو مضيق جبل طارق الآن .

(١١) ارض التيه : هي شبه جزيرة سيناء اليوم .

(١٢) يتحدث الآن عن بحر ايجة الذي يصل البحر الأبيض عن طريق الدردنيل ، والبوسفوز بالبحر الأسود .

(١٣) خليج البنادقة ؛ هو البحر الادرياتي الذي يقع في نهايته الشمالية خليج البندقية . صبح الأعشى ٤٠٤/٥ وما بعدها .

الغربي في وسطه البحرُ الرّوميّ ، وَفي النصف الشرقي من جانبه الجنوبي البَحر الهندي ؛ وكان هذا النصف الغربيّ أقل عِمارةً من النصف الشرقي ، لأن البَحرِ الرّوميّ المتوسط فيه ، انفسَح في انسياحه ، فغمرَ الكثيرَ من أرضه . والجانبُ الجنوبي منه قليل العِمارة لشدّة الحرّ ؛ فالعمران فيه من جانب الشّمال فقط ، والنصف الشّرقي عُمرانه أكثر بكثير ، لأنه لا بَحر في وسطه يُزَاحم . وجانبه الجنوبي فيه البحر الهنديّ ، وهو مُتَّسع جدّاً ؛ فلطُف الهواء فيه بمجاورة الماء ، وعدَّل مِزَاجَه للتّكوين ؛ فصَارت أقاليمُه كلُّها قابلة للعِمارة ؛ فكثر عُمرانه . وكان مبدأُ هذا العمران في العَالم ، من لَـدُن آدَم صلواتُ الله عليه ، وتناسل ولدُه أَولاً في ذلك النصف الشرقيّ ، وبادت تلك الأمم ما بينه وبين نوح ، ولم نَعلم شيئاً من أخبارها ، لأن الكتُب الإلهية لم يرد علينا فيها إلا أخبارُ نوح وبَنيه ؛ وأما مَا قبل نوح فلم نَعْرف شيئاً من أخباره ؛ وأقدَم الكتب المنزلة المتداولة بين أيدينا التوراةُ ، وليس فيها من أخبار تلك الأجيال شيء ، ولا سبيل إلى اتصال الأخبار القديمة إلا بالْوَحي ؛ وأَما الأخبار فهي تدرُس بدروس أهلهـــا .

واتفق النّسَّابون على أن النسل كلَّه منحصر في بني نوح ، وفي ثلاثة من ولده ، وهم سَام ، وحَام ، ويافِث ؛ فمن سَام : العرب ، والعِبْرانِيون ، والسَّبائيون[1] ؛ ومن حَام : القِبْط ، والكَـنْعَانِيُّون ، والبرْبَر ، والسُّودان ؛ ومن يَافِث : التُّرك ، والروم ، والخَـزَر[2] ، والفُرس ، والدّيْلم ؛ والجيل .

ولا أدري كيف صَحّ انحصارُ النّسَب في هؤلاءِ الثلاثة عند النَّسابين ؛ أمِنَ النقل ؟ وهو بَعيدٌ كما قدّمناه ، أو هو رأي تفرّعَ لهم من انقسام جَماعة المَـعْمَور ؛ فجعَلوا شعوب كلِّ جهة لأهل نَسَب واحِد يشتركون فيه ؛ فجعَلوا الجنوب لَبني سَام ، والمغرب لبني حَام ، والشمال لبني يافث . إلاّ أنّه المتَناقل بين النَّسّابة في العالم ، كما قلناه ، فلنعتمده ونقول : أولُ من ملَك الأرض من نَسْل نُوح عليه السَّلام ، النَّمْرود بن كَـنْعَان بن كـوش بـن حام ووقع ذكره في التوْراة . ومَلك بعدَه عابر بن شالخ الذي يُنسَبُ إليه

---

(١) كذا في الأصل . ولعلها : «السريانيون» .

(٢) ضبطه ابن خلدون بفتح الخاء والزاي ؛ وفي «تثقيف اللسان» لأبي جعفر عمر بن مكي الصقلي «... ويقولون لقبيلة من الترك الخزَر بفتح الخاء والزاي والصواب الخزْر بضم الخاء واسكان الزاي ، ويقال انهم سموا بذلك لخزر أعينهم» أي ضيقها .

العِبرانيون ، والسُريانيّون ، وهم النّبَط ، وكانت لهم الدّولة العظيمة ، وهم ملوك بابِل ، من نبِيط بن أشُّور بن سام ، وقيل نَبيط بن ماش بن إرم ؛ وهم ملوك الأرض بعد الطوفان على ما قاله المَسْعُودي . وغلَبَهم الفرسُ على بَابِلِ ، وما كان في أيديهم من الأرض ، وكانت يومئذ في العالم دولتان عظيمتان ، لملوك بابل هؤلاء ، وللقبط بمصر : هذه في المغرب ، والأخرى في المشرق ؛ وكانوا ينتحلون الأعمال السحريَّة ، ويُعوّلون عليها في كثير من أعمالهم ، وبَرَابي مِصر[1] ، وفِلاحةُ ابن وحْشيَة ، يشهدان بذلك . فلما غلب الفرُسُ على بابل ، استقلّ لهم ملك المشرق ، وجاء موسَى ـــ صلوات الله عليه ـــ بالشريعة الأوليّة ، وحرّم السِّحر وطُرقَه ، وغلَب الله له القِبْط بإغراق فَرعونَ وقومه ؛ ثم مَلَك بنو إسرائيل الشّام ، واختَطوا بيت المَقْدِس ، وظهر الرومُ في ناحية الشمال والمَغرب ، فغلبوا الفُرس الأولَى على مُلكهم . وملَكَ ذو القرنين الإسكندر ما كان بأَيديهم ؛ ثم صار ملك الفرس بالمشرق إلى ملوكهم السَّاسانية ، ومُلْك بني يونان بالشام والمغرب إلى القياصرة ، كما ذكرنا ذلك كلّه من قَبل . وأصبحت الدولتان عظيمتين ، وانتظمتَا العالَم بما فيه . ونازع التركُ ملوكَ فارس في خراسان[2] ، وما وراءَ النَّهر[3] ، وكانت بينهم حُروبٌ مشهورة ، واستقرّ ملكُهم في بَني أَفْراسيّاب ؛ ثم ظهر خاتِمُ الأنبياء محمّد صلوات الله عليه ، وجمَع العرب على كلمة الإسلام ، فاجتَمعوا له ، «لو أَنفَقْتَ ما في الأرض جميعاً ما أَلّفْتَ بين قلوبهم ولكنَّ الله أَلّفَ بينهم»[4] ، وقبضه الله اليه ، وقد أَمَرَ بالجهاد ، ووعَد عن الله بأن الأرضَ لأمته ، فزَحَفُوا إلى كِسْرَى ، وقَيْصَرَ بعد سَنَتين من وفاته ، فانتَزعوا المُلْك من أَيديهما ، وتَجاوزوا الفُرسَ إلى التُّرك ، والرُّومَ إلى البَرْبَر والمغْرب ، وأصبَح العالَم كلُّهُ مُنتظِماً في دَعوة الإسلام . ثم اختلفَ أهل الدين من بعده في رجوعهم إلى من ينظم أَمرَهم ، وتشَيَّع قوم من العرب فزعموا أنه

---

(١) كان القدماء يعتقدون ان الرسومَ التي توجد على البرابي ، والمعابد المصرية القديمة ، ليست الا طلاسم وأوفاقاً ، نقشت على جدرانها ليكون لها مفعول سحري معين : خطط المقريزي ٤٨/١ طبع مصر ، معجم البلدان «برابي» .

(٢) تطلق خراسان اليوم على القسم الشرقي لايران ، الذي يتصل بافغانستان . وقد فتحت خراسان سنة ٣١ هجرية في ايام عثمان رضي الله عنه . (معجم البلدان) .

(٣) ما وراء النهر : اقليم مشهور يقع فيما وراء نهر جيحون «وهو المراد بالنهر» . (معجم البلدان) .

(٤) الآية ٦٣ من سورة الأنفال .

أوصى بذلك لابن عمّه عليّ ، وامتنع الجماعة من قبول ذلك ، وأَبوا إلاّ الاجتهاد في تعيينه ، فمَضَى على ذلك السَّلَف في دولة بني أميَّة التي استفحل الملكُ والإسلامُ فيها ، وتناقل التشيّع بتَشعّب المذاهب ، في استحقاق بني عليّ ، وأَيُّهم يَتعيَّن له ذلك ، حتى انساق مذهب من مذاهبهم إلى محمد بن عليّ بن عبدالله بن عبّاس[١] ؛ فظهرت شيعتُه بخراسان ، وملكوا تلك الأرض كلّها ، والعراقَ بأسره . ثم غَلَبوا على بني أُميَّة ، وانتزعوا الملك من أيديهم ، واستفحل ملكُهم ، والإسلامُ باستفحاله ، وتَعَدّد خُلَفاؤهم . ثم خامَرَ الدوْلة ما يخامر الدُّولَ من التَّرَف والراحة ؛ ففشلُوا . وكثُر المنازعون لهم من بني عليّ وغيرهم ؛ فظهرت دولةٌ لِبَني جعفر الصَّادق بالمغرب ، وهم العُبَيْدِيُّون[٢] بَنو عُبَيدالله المهدي بن محمد ، قام بها كُتامَة وقبائل البَربر ، واستولوا على المَغرب ومِصر ؛ ودولةُ بني العلَوي بطَبَرِسْتان ، قام بها الدَّيْلَمُ وإخوانهم الجيل ، ودولةُ بني أمية النائيةُ بالأندلس ، لأن بني العبَّاس لمّا غلبوهم بالمشرق ، وأكثَروا القتل فيهم ، هرب عبد الرحمن بنُ معاوية بن هشام بن عبد الملك ، ونَجا إلى المغرب . ثم ركب البحر إلى الأندلس ؛ فاجتمع عليه من كان هُنالك من العَرب ومَوالي بني أُميَّة ، فاستحدَث هنالك مُلكاً آخرَ لهم ، وانقسمت المِلَّة الإسلامية بين هذه الدوَل الأربع إلى المائة الرابعة . ثم انقرَضَ مُلكُ العَلَويَّة من طَبَرِسْتان[٣] ، وانتقلَ إلى الدَّيْلَم ، فاقْتَسمُوا خُراسانَ وفارس والعراق ، وغَلَبوا على بَغْداد ، وحَجَرَ الخليفةَ بها بَنُو بُوَيْه منهم[٤] . وكان بنو سامان — من أَتْباع بني طاهر — قد تَقلّدوا عَمَالات ما وراءَ النَّهر ، فلَمَّا فشِل أمرُ الخِلافة استبدُّوا بتلك النَّواحِي ، وأصاروا لهم فيها مُلكاً ضخماً[٥] ، وكان آخرهم محمود بن سُبُكْتَكِين من مَواليهم ، فاستبدّ عليهم ، ومَلَك خُراسان ، وما وراء النَّهر إلى الشَّاش ، ثم

(١) كان ذلك في سنة ١٢٩٠ هـ ، وانظر تفصيل القول في تاريخ الطبري ٨٢/٩ وما بعدها ، تاريخ أبي الفداء ٢٢٠/١ وما بعدها .

(٢) كان مبدأ دولة الفاطميين بالمغرب في سنة ٢٩٦ ، ونهايتها سنة ٣٦١ هـ .

(٣) طبرستان : اقليم متسع في غربي خراسان ، ويقول ياقوت انه الذي يسمى ايضاً بمازندران . وهو اقليم واقع في شمالي مرتفعات البرز ، ويشرف على بحر قزوين . (معجم البلدان) .

(٤) بنو بويه دولة اسسها اتراك من الديلم في خلافة الراضي بالله (٣٢٢ — ٤٤٧ هـ) . تاريخ أبي الفداء ٨٣/٢ ، ١٥٢ ، في المجلد الرابع وما بعدها .

(٥) ملكت دولة بني سامان هذه ما وراء النهر ، وأقامت هناك دعوة بني العباس ، ثم استقلت . وقد تحدث عنها ابن خلدون في المجلد الرابع ، أبو فداء ١٢٣/٢ ، ١٤١ ، صبح الاعشى ٤٤٦/٤ .

غَزْنَة[١] ، وما وراءها جنوباً إلى الهند . وأجاز إلى بلاد الهند ؛ فافتتح منها كثيراً ، واستخرج من كنوزها ذَخائر لم يعثر عليها أحدٌ قبلَه . وأقامت المِلّةُ على هذا النَّمط إلى انقضاء المائة الرَّابعة ، وكان التُّرك منذُ تعَبَّدوا للعرب ، وأَسلموا على ما بأيديهم وراءَ النَّهر ، من كاشْغَر[٢] ، والصَّاغون إلى فَرغانة[٣] ، وولاَّهم الخلفاءُ عليها ؛ فاستحدثوا بها مُلكاً ، وكانت بَوادِي التُّرك في تلك النواحي مُنتجعَةً أمطارَ السماء ، وعُشْب الأرض ، وكان الظهور فيهم لقبيلة الغُز من شعوبهم ، وهُم الخُوز ، إلا أن استعمال العرب لها عَرَّبَ خاءَها المعجمة غينا ، وأدغمت واوها في الزّاي الثانية ؛ فصارت زاياً واحدة مشدّدة . وكانت رياسة الغُزّ هؤلاء في بني سَلْجوق بن ميكائل ، وكانوا يُستَخدمون لملوك التّرك بتُركستان تارة ، ولملوك بني سامان في بُخارَى أخرى . وتَحْدُث بينهما الفتنة ؛ فيتأَلّفون مَن شاءوا منهما[٤] ؛ ولما تغلَّب محمود بن سُبُكْتكِين[٥] على بني سامان ، وأجاز من خراسان فنزل بُخارَى[٦] ، واقتَعد كرسيَّهم ، وتقبَّض على كبار بني سَلْجوق هؤلاء ، وحبسهم بخُراسان . ثم مات وقام بالأمر أخوه مَسْعود[٧] ، فملك مكانَه ، وانتقَض عليه بنو سَلْجُوق[٨] هؤلاء ، وأجاز الغُزُّ إلى خراسانَ فملكوها ، وملكوا طَبَرِسْتان من يد الدَّيْلَم ، ثم إصْبهان[٩]

---

(١) غزنة : مدينة من مدن افغانستان ، وكانت عاصمة الدولة التي اسسها نصر الدين محمود بن سبكتكين سنة ٣٦٦ ، والتي استمرت الى سنة ٥٧٨ هجرية . العبر م ٤ .

(٢) كانت كاشغر قاعدة «التركستان» وكانت تسمى ايضاً «أزدوكند» وهي اليوم في الصين «معجم البلدان» صبح الاعشى ٤/٤٤٠ .

(٣) فرغانة كورة واسعة فيما وراء النهر ، متاخمة لبلاد تركستان . (معجم البلدان) .

(٤) انظر كلمة موجزة عن الغز في تاريخ أبي الفداء ٢٧/٣ وما بعدها .

(٥) هو محمود بن ناصر الدولة بن سبكتكين (٣٦١ — ٤٢١) ، يلقب سيف الدولة ، ويمين الدولة . وليمين الدولة هذا ينسب التاريخ «اليميني» الذي ألفه له ابو نصر العتبي . ترجمة يمين الدولة في «الوفيات» ١١٠/٢ — ١١٤ ، وانظر تاريخ أبي الفداء ١٦٥/٢ .

(٦) تقع بخارى اليوم في جمهورية الاتحاد السوفياتي ، وكانت قاعدة الدولة السامانية ، فتحت فيما بين سنتي ٥٣ ، ٥٥ هـ ، في ايام معاوية . ياقوت (معجم البلدان) .

(٧) هكذا في الأصل : «أخوه مسعود» . وهو سبق قلم ، والصواب : «ابنه مسعود» العبر م ٤ ، «تاريخ دول آل سلجوق» ص ٨ .

(٨) ابتدأت الدولة السلجوقية في خلافة القائم بأمر الله العباسي سنة ٤٣٢ ، وانتهت في سنة ٥٧٢ ، تاريخ أبي الفداء ١٧١/٢ وما بعدها ، العبر ١/٥ وما بعدها . وقد خص هذه الدولة بالتأليف العماد الأصفهاني ، وطبع مختصر لكتاب العماد بالقاهرة سنة ١٩٠٠ م .

(٩) كذا بالأصل ، أصبهان ، وكذا في أكثر الكتب القديمة . وهي : أصفهان بفتح الهمزة وكسرها : مدينة =

وفارس ، من أيدي بني بُوَيْه ، ومَلِكُهُم يومئذ طُغْرُلْبَك[1] بن ميكائيل من بني سَلْجوق ، وغلب على بغداد[2] من يد بني مُعز الدولة بن بُوَيْه المستبدِّين على الخليفة يومئذ المطيع[3] ، وحَجَرَه عن التصرُّف في أمور الخِلافة والمُلك ، ثم تَجاوز إلى عِراق العَرب ، فغلب على ملوكه ، وأبادَهم ، ثم بلاد البحرين وعُمان ، ثم على الشَّام ، وبلاد الرّوم ، واستوعَب مَمالك الإسلام كلَّها ، فأصارها في مُلكه ؛ وانقَبَضَت العرب راجعةً إلى الحجاز ، مسلوبةً من المُلك ، كأن لهم فيه نصيب ، وذلك أعوامَ الأربعين والأربعمائة ؛ وخرجَ الإفرنج على بقايا بني أُمَيَّة بالأندلس ، فانتزعوا الملك من أيديهم ، واستولوا على حواضِر الأندلُس وأمصارها ، وضاق النِّطاقُ على العُبَيْدِيِّين بالقاهرة بملوك الغُزِّ يُزاحمونهم فيها من الشام ، بمحمود بن زنكي وغيره[4] من أبنائهم ومماليكهم ، وبملوك المغرب قد اقتطعوا ما وراءَ الإسكندرية ، بملوك صنهاجة في إفريقية ، والملَثَّمين المرابطين بعدَهم بالمغرب الأقصَى والأوسط ، والمَصَامِدة الموحِّدين بَعدَهم كذلك ، وأمام الغزّ والسّلجوقية في مُلك المشرق ، وبنوهم ومواليهم من بعدِهم إلى انقضاءِ القَرن السادس ؛ وقد فشل ريح الغُزّ ، واختلّت دولتهم ، فظهر فيهم جنكيزخان أمير المغُل من شعوب الططر[5] ، وكان كاهناً ، وجدّه النجر كاهناً مثلَه . ويزعمون أنه وُلد من غير أب[6] ؛ فغلَب الغُزّ في المفازة ، واستولى على مُلك الططر ، وزحَفَ إلى كرسيّ

= جبلية عظيمة في جنوب عراق العجم من بلاد فارس ، وتطلق اصفهان على الاقليم أيضا ، فتحت في سنة ٢٣ هـ في أيام عمر بن الخطاب (معجم البلدان) .

(١) أبو طالب محمد بن ميكائيل بن سلجوق ، ركن الدين طغرلبك (٣٨٥ — ٤٥٥) . وفيات الأعيان ٥٩/٢ — ٦٠ .

(٢) كان دخول بغداد والعراق سنة ٤٤٧ . وفيات الأعيان ٦٠/٢ ، تاريخ دولة آل سلجوق ص ٩ .

(٣) كذا بالأصل : «المطيع» والصواب : «القائم» لأنه الذي عاصر طغرلبك . وهو أبو جعفر عبدالله بن القادر ، القائم بأمر الله . ولد سنة ٣٩١ ، وولي الخلافة سنة ٤٢٢ ، وتوفي سنة ٤٦٧ . تاريخ الخلفاء للسيوطي ص ١٦٧ — ١٦٩ .

(٤) رسمه ، على قاعدته التي قررها في أول «المقدمة» بصاد وسطها زاي اشارة الى أن الصاد تشم — عند النطق بها — زايا . وانظر أخبار تملك محمود بن زنكي ، في تاريخ ابي الفداء ٣٠/٣ — ٥٨ .

(٥) ولد جنكيز خان ويقال جنكس قان) في سنة ٥٤٩ ، وهو من قبيلة تركية تسمى ثيات من أشهر قبائل المغل ، وأكثرهم عدداً ؛ وكان اسمه — حين بلغ من العمر ١٣ سنة — تموجين ثم أصاروه : «جنكيز» ؛ و«خان» تمام الاسم ؛ وهو بمعنى الملك عندهم . العبر م ٥ .

(٦) ينتهي نسبه إلى : «بوذَ نجر بن الان قوى» ؛ وألان قوى اسم امرأة هي جدتهم ؛ كانت =

الملك بخوارزم . وهو عَلَاء الدّين خُوارَزْم شاه ، سَلَفُه من موالي طُغْرُلْبَك ، فغالبَه على مُلكه ، وفرَّ أمامه ، واتَّبعه إلى بُحَيرة طبرستان ؛ فنَجا إلى جزيرة فيها ، ومَرِض هُنالك ومات[(١)] ، ورجع جنكيزخان إلى ما زندَران ، من أمصار طبَرستان فنزلها ، وأقَام بها ، وبعث عساكره من المغل حتى استولوا على جميع ما كان للغُزّ ، وأنزل ابنَه طولى[(٢)] بكرسيّ خراسان ، وإبنَه دُوشِيخان[(٣)] بصَرَاي وبلاد التُّرك ، وإبنه جفَطاي[(٤)] بكرسي التُّرك فيما وراء النَّهر ، وهي كاشْغَر وتُرِكسْتَان ، وأقام بما زَنْدَران إلى أن مات جنكيزخان ودفن بها[(٥)] ؛ ومات إبنه طولي وله ولدان ، قُبْلاَيْ[(٦)] وهولاكُو[(٧)] ، ثم هَلك قبْلاَي ، واستقلَّ هولاكُو بملك خراسان ، وحدث بينه وبين بَركَة بن دُوشيخان[(٨)] فتنة بالمنازعة في القانية ، تحاربوا فيها طويلاً ، ثم أقصرُوا ،

= متزوجة ثم مات زوجها ؛ وتأيمت وحملت وهي أيم ، فنكر عليها اقرباؤها ، فذكرت انها رأيت بعض الأيام أن نوراً دخل فرجها ثلاث مرات ، وطرأ عليها الحمل بعد ذلك ، وقال ان في حملي ثلاث ذكور ، فان صدقت عند الوضع فذلك ، والا فافعلوا ما بدا لكم ؛ فوضعت ثلاث توائم في ذلك الحمل ، فظهرت براءتها ، بزعمهم ، وكان ثالث التوائم «بوذنجر» جد جنكيز خان ، وكانوا يسمون التوائم الثلاث : النورانيين نسبة إلى النور المذكور ، ولذلك كانوا يقولون لجنكيز خان : ابن الشمس . العبر م ٥ .

(١) هو السلطان علاء الدين محمد بن علاء الدين تكش بن أرسلان : كان من علماء الملوك وعظمائهم ، وكانت مدة ملكه ٢١ سنة ، وتوفي عام ٦١٧ ، وانظر اخبار حروبه مع جنكيز خان في تاريخ أبي الفداء ٣/١٣٣ — ١٣٤ ، ١٥٤ — ١٥٨ .

(٢) هو الابن الاصغر لجنيكز خان ، وكان عاقلاً كيساً ، ولذلك أمره أبوه أن يرأس اخويه : جوجي ، وجفتاي في حرب قلعة الطالقان التي استعصى عليهما الاستيلاء عليها . وطاؤه تنطق بين التاء والطاء ، ويقال في اسمه ايضاً : «تولوي» . وانظر العبر م ٥ .

(٣) ويقال طوشي خان (بين التاء والطاء) ، ويقال جوجي خان .

(٤) جقطاي ، ويقال «جغتاي» ، ويسمى ايضا كداي ، وجداي .

(٥) كانت وفاته في سنة ٦٢٥ ؛ وهناك رأي غير ما ذكره ابن خلدون في مكان وفاة جنكيزخان ، تجده في السلوك ص ٢٢٧ — ٢٢٨ .

(٦) قبلاي بن تلوي خان المتوفى سنة ٦٩٥ . وقد ضبطه ابن خلدون بالحركات — بضم القاف ، وسكون الباء الموحدة ، ولام مفتوحة مخففة ، ثم ياء ساكنة .

(٧) يكتبه ابن خلدون : «هولاوو» بواوين أحياناً ، وأحياناً أخرى يكتبه : «هولاكو» بنقطة تحت الكاف إشارة الى أن الكاف تنطق كافاً فارسية . وقد ابتدأ أمر هولاكو في الظهور في سنة ٦٥٤ ، وتوفي سنة ٦٠٣ . وانظر السلوك ص ٥٤١ .

(٨) ويقال ايضاً : بركة بن توشي بن جنيكز خان . وقد توفي سنة ٦٦٥ . كان مسلماً يعظم اهل العلم ، وكان يميل الى الملك الظاهر بيبرس .

وصرف هولاكو وَجْهَهُ إلى بلاَد أصبَهان ، وفارس ، ثم إلى الخُلفَاء المستبدِّين ببغداد ، وعراق العرب ، فاستولى على تلك النَّواحي ، واقتحم بَغْداد[1] على الخليفة المستَعصم ، آخر بني العباس[2] وقتَلَه ، وأعظَمَ فيها العيْث والفَسَاد ، وهو يومئذ على دينه من المجوسيَّة ؛ ثم تخطَّاه إلى الشام ؛ فملَك أمصَاره وحَوَاضِرَه إلى القدس ، وملوكُ مصْر يومئذ من موالي بَني أيُّوب قد استحاشوا ببركة صاحب صَرَاي ؛ فزحف إلى خُراسان ليأخُذ بحُجْزَة هُولاكو عن الشام ومصر. وبلَغ خبره إلى هولاكو فحَرِد[3] لذلك ، لما بينهما من المنافسة والعداوة ، وكرَّ راجعاً إلى العراق ، ثم إلى خراسان ، لمدافعة بَركة . وطالت الفتنة بينَهما إلى أن هلك هُولاكو سنة ثلاث وستين من المائة السَّابعة ، وزحَف أمراء مصرَ من موالي بني أيُّوب ، وكبيرهم يومئذ قُطُز ، وهو سلطانهم فاستولى على أَمصار الشام التي كان هولاكو انتزعها من أَيدي بني أيوب ، واحدةً واحدة ، واستضاف الشام إلى مصر في ملكه . ثم هدى الله أَبغَا بن هولاكو إلى الإسلام ، فأسلم بعد أن كان أسلم بركة ابن عمّه صاحب التخت بصَرَاي من بني دُوشي خان على يَدِ مُريدٍ من أَصحاب شمس الدين كُبْرَى[4] ، فتواطأً هو وأَبغَا بن هولاكو على الإسلاَم . ثم أَسلَم بعد ذلك بنو جقطاي وراء النَّهْر ؛ فانتظمت ممالكُ الإسلام في أَيدي ولد جنكيزخان من المغل ، ثم من الطَّطَر ، ولم يخرج عن مُلكهم منها إلاَّ المغربُ والأندلس ومصرُ والحجاز ، وأَصبحوا ، وكأنّهم في تلك الممالك خَلَفٌ من السُلجوقيَّة والغُزّ . واستمرَّ الأمرُ على ذلك لهذَا العهد ، وانقرض ملك بني هولاكو بموت أَبي سعيد آخرِهم سنة أَربعين من المائة الثامنة[5] . وافترقت دولتُهم بين عمَّال الدولة وَقرَابتها من المغُل ؛ فملك عراق العرب ، وأَذْرَبيْجَان[6]

---

(١) دخل هولاكو بغداد في سنة ٦٥٦ هـ .

(٢) هو ابو احمد عبدالله بن المنتصر ، ولد سنة ٦٠٩ ، وقتل سنة ٦٥٦ .

(٣) حرد : اغتاظ وغضب .

(٤) هو ابو الجناب أحمد بن عمر بن نجم الخيوفي شيخ خوارزم . عرف به السبكي في طبقاته ٥/١١ ، ١٢ ، ولم يذكر مولده ولا وفاته ؛ ووصفه في تاريخ جنكيز خان بأنه : «شيخ المشايخ ، وقطب الأوتاد ، نجم الدين الكبري » ، وذكر انه مات في حصار مدينة خوارزم . وقد ضبطه ابن خلدون . بضم الكاف وسكون الباء ، وفي طبقات الشافعية : «الكبرى على صيغة فعلى كعظمى» .

(٥) هو ابو سعيد بن خربند بن ارغو بن ابغا بن هولاكو . وانصر اخباره في العبر م ٥ .

(٦) آذربيجان ، واسمها القديم أثروباتان : اقليم يقع في الجنوب الغربي لبحر قزوين (بحر الخزر) ويحده في الشمال اقليم داغستان ، واقليم جورجيا ، ومن المغرب ، والجنوب الغربي مقاطعة ارمينية . (معجم البلدان) .

وتَوْريز[١] ، الشيخ حسَن سِبْط هولاكو[٢] ، واتصل مُلكُها في بَنِيه لهذا العهد ؛ ومَلَكَ خُرَاسان وطَبَرِسْتان شاه وليّ من تابعة بني هُولاكو ؛ ومَلَكَ أَصبهانَ ، وفارسَ ، بنو مُظفَّر البردي[٣] من عُمَّالهم أيضاً ؛ وأقاموا بَنو دُوشِي خان في مملكة صَرَاي وآخِرُهم بها طقطمش بن بُرْدِي بَك[٤] ؛ ثم سَمَا لبني جَقَطَاي وراء النَّهر ، وملوكِهم أَمَلٌ في التغلُّب على أعمال بني هولاكو ، وبني دَوشِي خان ، بما استفحل ملكهم هنالك ، لعدم التَّرف والتَّنعم ، فبقُوا على البَداوة ؛ وكان لهم مَلِك إسمه ساطلمش[٥] هَلكَ لهذا العَهد ، وأَجلَسوا إبنَه على التَّخت مكانه ، وأُمراءُ بني جَقْطاي جميعاً في خدمته ، وكبيرُهم تيمور المعروف بتمر بن طَرَغاي[٦] فقام بأمر هذا الصبي وكفَلَه ، وتزوّج أُمّه ، ومدَّ يَدَه إلى ممالك بني دُوشي خان التي كانت على دعوتهم وراء النَّهر ، مثل سمرقند[٧] ، وبُخارى ، وخوارزم ، وأجاز إلى طَبَرِسْتان وخراسانَ فلكها . ثم ملك أَصبهان ، وزَحفَ إلى بغداد ؛ فملكها من يد أَحمد بن أُوَيس . وفرَّ أَحمد مستجيراً بملك مصر ، وهو المَلك الظاهِر برقوق ، وقد تقدّم ذكره ؛ فأجاره ، ووعده النَّصرِ من عدوِّه . وبعث الأمير تمر رُسُلاً إلى صاحب مصر ، يقررون معه الولاية والاتِّحاد ، وحُسْنَ الجِوار ؛ فوصلوا إلى الرَّحْبة ؛ فلقيهم عاملها ، ودار بينهم الكلام فأوحشوه في الخطاب ، وأَنْزَلهم ، فبَيَّتَ جميعهم ، وقتَلهم . وخرج الظاهر برقوق من مصر ، وجمَع العرب والتُّركُمان ، وأَناخ على الفرات ، وصَرَخ بطقطمش من كرسيّه بصَرَاي ؛ فحشد ووصل إلى الأبواب[٨] . ثم زحف تمر إلى الشام سنة ست وتسعين وسبعمائة وبلَغ الرُّهَا[٩] ، والظاهرُ يومئذ على

(١) توريز (تبريز) : احدى مدن ايران الشمالية ، وكانت في القديم تشملها مقاطعة آذربيجان (معجم البلدان) .

(٢) يسمى ايضاً الشيخ حسن الصغير .

(٣) ورد في العبر ٥ : «اليزدي» .

(٤) ضبطه ابن خلدون بالحركات بفتح الباء وضمها ، وسكون الراء بعدها دال ثم ياء مثناة تحتية ساكنة ، ثم باء موحدة مفتوحة .

(٥) كذا في الأصل ، وفي هامش أصل أياصوفيا بخطه : «سيورغتمش» وكتب فوقها كلمة : «أصح» .

(٦) في نسخة : «طرغان» ، وفي هامش أصل أياصوفيا بخطه : «ترغاي» وكتب فوقها كلمة «أصح» .

(٧) مدينة مشهورة ، تقع اليوم في جمهورية الاتحاد السوفييتي ، وكانت في القديم عاصمة بلاد الصغد . (معجم البلدان) .

(٨) يريد بالأبواب المضايق والممرات التي في الجبال الفاصلة بين اقليم مازندران والعراق العجمي .

(٩) بلدة مشهورة في شمال حران ، وتقع اليوم في الجمهورية التركية ، وتسمى أورفة .

الفرات ، فخَام[1] تمر عن لقائه . وسَار إلى محاربة طقطمش ؛ فاستولى على أعماله كلِّها ، ورجعت قبائل المُغُل إلى تِمُر ؛ وسَاروا تحت رايته . وذهب طقطمش في ناحية الشمال ، ووراء بُلْغَار ، متذمماً بقبائل أروس من شعوب التُّرك في الجبال . وسارت عصائب الترك كلها تحت رايات تمر ؛ ثم اضطرب ملوك الهند ، واستصرخ خارجٌ منهم بالأمير تمر ؛ فسار إليهم في عساكر المغُل ، ومَلك دِلِّي[2] ، وفرّ صاحِبها الى كَنْبَاية[3] مرسى بحر الهند ، وعاثُوا في نواحي بلاد الهِند . ثمَّ بلغه هنالك مهلكُ الظاهر برقوق بمصر ؛ فرجع إلى البلاد ، ومرّ على العراق ، ثم على أرمينيَة[4] وأرزنكان[5] ، حتى وصَل سيواس[6] فخرَّبَها ، وعاث في نواحيها ، ورجع عنها أول سنة ثلاث من المائة التَّاسعة . ونازلَ قلعة الروم[7] ، فامتنعت ، وتجاوزها الى حَلَب ؛ فقابله نائب الشام وعساكره في ساحتها ؛ ففضَّهم ، واقتحم المغْل المدينة من كل ناحية . ووقَع فيها من العيْث والنَّهب والمصادرة واستباحة الحُرَم ، ما لم يَعهَد الناس مثلَه ؛ ووَصل الخبر الى مصر ، فتجهز السّلطان فَرَج ابنُ المَلِك الظّاهر[8] الى المدافعة عن الشّام ، وخرَج في عساكِره من التُّركُ مُسابقا المُغُل وملكَهم تمر أن يصدَّهم عنها .

* (لقاء الأمير تمر سلطان المغل والططر) *

لما وصَل الخبر إلى مِصْر بأن الأمير تمر[9] مَلَكَ بلاد الروم ، وخرَّب سيواس ، ورجع

(١) خام عنه : نكص ، وجبن .

(٢) هي دلهي اليوم . صبح الأعشى ٦٨/٥ — ٦٩ .

(٣) كباية ، أوكبايت ، ضبطها ابن خلدون بالحركات بفتح الكاف وسكون النون ، وباء مفتوحة بعدها الف ثم ياء مفتوحة بعدها هاء للتأنيث . وفي صبح الأعشى ٧١/٥ : أنه ينسب إليها فيقال أنباتي وعلى ذلك فاسمها «أنبايت» بابدال الكاف همزة . وهي مدينة على ساحل بحر الهند .

(٤) أرمينية : اقليم واقع في غرب آذربيجان ، وفي شماله الغربي يقع اقليم جورجيا . صبح الأعشى ٣٥٣/٤ ، (معجم البلدان) .

(٥) أرزنكان ، ويقال أرزنجان : بلدة كانت تعد قديما من بلاد ارمينية ، وهي الآن من بلاد الجمهورية التركية . صبح الأعشى ٣٥٤/٤ .

(٦) سيواس : مدينة في تركية ، تبعد ستين ميلا نحو الشرق من «قيسارية» السلوك ص ٣١٣ .

(٧) هي قلعة حصينة واقعة في غربي الفرات مقابل «البيرة» . (معجم البلدان) .

(٨) هو الملك الناصر زين الدين أبو السادات فرج بن الملك الظاهر . المقريزي ٣٩٢/٣ — ٣٩٣ طبع مصر .

(٩) في عجائب المقدور ص ٥ ، ٦ : «... اسمه تيمور بتاء مثناة مكسورة ساكنة ، فمثناة تحت ، وواو ساكنة =

إلى الشّام ، جمع السلطان عساكره ، وفتح ديوان العطاء ، ونادى في الجُند بالرحيل الى الشام ، وكنتُ أنا يومئذ معزولاً عن الوظيفة[(١)] ؛ فاستدعاني دواداره يشْبُك[(٢)] وأرادني على السَّفَر معه في ركاب السلطان ؛ فتجافيتُ عن ذلك . ثم أظهرَ العزم عليّ بليّن القول ، وجزيل الانعام فأصخيْتُ ، وسافرت معهم مُنتصف شهر المولد الكريم من سنة ثلاث وثمانمائة ؛ فوصلنا إلى غزّة ، فأرحنا بها أياما نترقّب الأخبار ؛ ثم وصلنا إلى الشام مسابقين الططَر إلى أن نزلنا شَقْحَب[(٣)] ، وأسرينا فصبَّحنا دمشق ، والأمير تَمُر في عساكره قد رحل من بعلبك[(٤)] قاصداً دمشق ، فضرب السلطان خيامه وأبنتيه بساحة قُبَّة يَلْبُغا . ويئسَ الأميرُ تِمُرْ من مهاجمة البلد ، فأقام بـمرقَب على قُبَّة يُلبُغا يراقبنا ونراقبه أكثر من شهر ، تَجاول العسكران في هذه الأيام مراتٍ ثلاثاً أو أربعاً ، فكانت حربُهم سِجالاً ؛ ثم نُمِي الخبر إلى السلطان وأكابِر أُمَرائه ، أن بعض الأمراء المنغمسين في الفتنة يُحاولون الهَرَب إلى مِصر للثورة بها ؛ فأَجمع رأيُهم للرجوع إلى مصر خشيةً من انتقاض الناس وراءهم ، واختلال الدّولة

= بين ميم مضمومة وراء مهملة ، هذه طريقة املائه ... لكن كرة الألفاظ الأعجمية إذا تداولها صولجان اللغة العربية خرطها في الدوران على بناء اوزانها ... فقالوا تارة تمور ، وأخرى تمرلنك». وضبطه البدر العيني في «عقد الجمان» بخطه بالحركات بفتح التاء وضم الميم بعد راء ساكنة ، ثم لام مفتوحة ، فنون ساكنة ، فكاف .

(١) في عقد الجمان ، في حوادث سنة ٨٠٣ ، وتاريخ ابن قاضي شهبة كذلك : «... خرج السلطان الملك الناصر فرج ، ومعه الخليفة المتوكل على الله ، والقضاة الثلاثة ، وهم صدر الدين المناوي الشافعي ، والقاضي نور الدين علي بن الخلال المالكي ، والقاضي موفق الدين بن الحنبلي ، وأما القاضي جمال الدين الملطي الحنفي فانه سار لكونه ضعيفاً ، وشار معهم القاضي ولي الدين ابن خلدون المالكي ، وهو معزول» .

(٢) هو الأمير يشبك الشعباني كان من أمراء الملك الظاهر ، تقلب في مناصب مختلفة ، وجعل له الملك الظاهر الوصية على أولاده ؛ وفي أيام الملك فرج ، تولى وظيفة دوادار كبير ، ومشير المملكة تاريخ ابن اياس ٣٠٨/٢ ، ٣١٤ ، ٣٣٧ . وقد ضبطه البدر العيني بخطه في «عقد الجمان» بكسر الياء ، وسكون الشين ، وفتح الباء .

(٣) بفتح الشين والحاء المهملة ، وسكون القاف بينهما (كجعفر) ، ويقول المقريزي في الخطط ٣٩٩/٣ (طبع مصر) : «... انها بظاهر دمشق» ؛ وزاد في السلوك ص ٩٣٢ : «تحت جبل غباغب» ؛ فهي — بناء على هذا — في جنوب دمشق . وانظر تاج العروس (شقب) .

(٤) بعلبك : احدى مدن لبنان المشهورة ، وهي واقعة في الشمال الشرقي لمدينة زحلة . (معجم البلدان) .

بذلك ، فأسْروا ليلة الجمعة من شهر [....] [1] وركبوا جَبَل الصَّالحية ، ثم انحطُّوا في شِعابه ، وساروا على شافة البحر إلى غزَّة ، وركب الناس ليلاً يعتقدون أن السلطان سارَ على الطريق الأعظم إلى مصر ؛ فساروا عصباً وجماعات على شَقْحَب إلى أن وصلوا إلى مصر ، وأصبَح أهل دمشق مُتَحَيّرين قد عميت عليهم الأنباء .

وجاءني القُضاة والفقهاء ، واجتمعت بمدرَسة العادليَّة ، واتّفق رأيُهم على طلب الأمان من الأمير تِمُر على بيُوتهم وحُرمَهم ، وشاوروا في ذلك نائب القلعة ، فأبَى عليهم ذلك ونكره ؛ فلم يوافقوه . وخرج القاضي بُرهان الدِّين بن مفلح الحَنبلي [2] ومعه شيخ الفقراء بزاوية [....] [3] فأجابهم إلى التأمين ، وردهم باستدعاءِ الوجوه والقُضاة ، فخرَجوا إليه متدلّين من السور بما صَبَّحهم من التقدمة ، فأحسن لقاءهم وكتب لهم الرقاع بالأمان ، وردّهم على أحسن الآمال ، واتفقوا معه على فَتح المدينة من الغَد ، وتَصرُّف الناس في المعاملات ، ودخول أمير يَنزِل بمحل الإمارة منها ، ويملك أمرَهم بعزِّ ولايته .

وأخبرني القاضي برهان الدين أنه سأله عنِّي ، وهل سافرتُ مع عساكر مصر أو أقمت بالمدينة ، فأخبره بمقامي بالمدرسة حيث كنت ، وبتنا تلك الليلة على أهبة الخروج إليه ؛ فحَدث بين بعض الناس تشاجر في المسجد الجامع ، وأنكر البعضُ ما وقع من الاستنامة إلى القول . وبلَغني الخبر من جوف اللّيل ؛ فخشِيت البادِرة على نفسي ، وبكرت سَحَراً إلى جماعة القضاة عند الباب ، وطلبت الخروج أو التدلِّي من السُّور ، لِما حدث عندي من توهّمات ذلك الخبر ؛ فأبوا عليّ أولاً ، ثم أَصخَوا لي ، ودلّوني من السور ؛ فوجدت بطانتَه عند الباب ، ونائبَه الذي عَيَّنه للولاية على دمشق ، وإسمه شاه ملك ، من بني جَقطاي أهل عصابته ، فحَيَّيتُهم وحيَّوني ، وفدّيت وفدّوني ، وقدَّم لي شاه ملك ، مركوباً ، وبَعث مَعِي من بطانة السُّلطان مَن أَوصلني إليه . فلما وقفت بالباب خرج الإذن بإجْلاَسي في خيمة هنالك تُجاور خَيْمة جلوسه ، ثم زيد في التعريف باسمي أنّي القاضي المالكي المغربي ، فاستدعاني ،

---

(١) بياض بالأصل ، ولعله يريد (شهر جمادى الآخرة) . وانظر تاريخ ابن اياس ٣٢٩/١ .

(٢) هو برهان الدين ابراهيم بن محمد بن مفلح (٧٤٩ — ٨٠٣) ، وكان يحسن اللغتين : التركية ، والفارسية ، ولعلهم . لذلك — اختاروه للسفارة . وانظر ابن اياس ٣٣٦/١ .

(٣) بياض في الأصل ولم نعثر في المراجع التي بين أيدينا على اسم هذه الزاوية .

ودخلتُ عليه بخيمة جلوسه ، مُتكئاً على مَرفقه ، وصِحاف الطَّعام تَمُرُّ بين يديه ، يُشير بها إلى عُصَب المُغُل جلُوساً أَمام خيمته ، حلَقاً حلَقاً . فلما دخلتُ عليه فاتحتُ بالسَّلام ، وأَوميتُ إيماءة الخضوع ، فرفَع رأسه ، ومدَّ يده إليّ فقبَّلتُها ، وأَشار بالجلوس فجلستُ حيثُ انتهيت . ثم استدعى من بطانته الفقيهَ عبدَ الجبَّار بن النُّعْمان من فقهاء الحنَفِيَّة بخُوارزم[1] ، فأقعدَه يترجم ما بينَنا ، وسألني من أَين جئت من المغرب ؟ ولمَا[2] جئت ؟ فقلت : جئت من بلادي لقَضاء الفَرْض ركبتُ إليها[3] البحر ، ووافيتُ مرسَى الإسكندرية يوم الفِطر سنة أَربع وثمانين من هذه المائة الثامِنة ، والمفرحاتُ بأَسوارهم لجلوس الظّاهر على تخت الملك لتلك العشرة الأيام بعدَدِها . فقال لي : وما فَعَل مَعك ؟ قلت كل خير ، برّ مَقْدَمي ، وأرغَد قِراي ، وزوّدني للحجّ ، ولما رَجعت وفّر جِرايتي ، وأَقمت في ظلِّه ونعمته ؛ رحمه الله وجزاه . فقال : وكيف كانت توليتُه إياكَ القضاء ؟ فقلت : مات قاضِي المالكيّة قبل موته بشهر ، وكان يظنُّ بي المقام المحمودَ في القيام بالوظيفة ، وتحرّي المعدَلة والحق ، والإعراض عن الجاه ، فولاّني مكانَه ، ومات لشهر بعدَها ، فلم يَرضَ أهل الدَّولة بمكاني ، فأدالوني مِنها بغَيري جزاهم الله . فقال لي : وأين ولدُك ؟ فقلت : بالمغرب الجَوّاني كاتب[4] للمَلِك الأعظم هنالك . فقال وما معنى الجَوّاني في وصف المغرب ؟ فقلتُ هو عرف خِطابهم معناه الدَّاخلي ، أي الأبعد ، لأن المغرب كلّه على ساحل البحر الشامي من جنوبه ؛ فالأقربُ الى هنا بَرْقَة ؛ وإفريقية[5] ؛ والمغرب الأوسط[6] : تلمسان وبلاد زناتة ؛ والأقصى : فاس ومراكش ، وهو معنى

---

(١) هو : (عبد الجبار بن النعمان المعتزلي ، أحد خواص تيمور الذين طافوا معه البلاد ، وأهلكوا العباد ، وأظهروا الظلم والفساد) . ذكره علاء الدين في (تاريخ حلب) وقال : اجتمعت به ، فوجدته ذكياً فاضلا ، وسألته عن مولده ، فقال : يكون لي نحو الأربعين . ورأيت شرح الهداية لأكمل الدين ، وقد طالعه عبد الجبار المذكور ، وعلّم على مواضع منه ، ذكر أنها غلط . وذكره ابن المبرد في (الرياض) وقال : (كان له معرفة بالفقه ، والعلوم العقلية ، وكان يمتحن العلماء ويناظرهم بين يدي اللنك . وهو من قلة الدين على جانب كبير . توفي سنة ٨٠٨ هـ) .

(٢) كذا في الأصل بإثبات الف (ما) المجرورة عند الاستفهام ؛ وهي لغة حكوها عن الأخفش .

(٣) كذا بالأصل .

(٤) كذا في الأصل .

(٥) هي المملكة التونسية اليوم .

(٦) مكانه اليوم بلاد (الجزائر) .

الجَوّاني . فقال لي : وأين مكانُ طنجةَ من ذلك المغرب ؟ فقلت : في الزّاوية التي بين البحر المحيط ، والخليج المسمَّى بالزُّقاق ، وهو خليج البَحْر الشَّامي ؟ فقال : وسَبتَة ؟ فقلت : على مسافة من طنجة على ساحل الزُّقاق ، ومنها التَّعْدِية إلى الأندلس ، لقرب مسافته ، لأنها هناك نحو العشرين ميلا . فقال : وفاس ؟ فقلت : ليست على البحر ، وهي في وسَط التُّلول ، وكرسيُّ ملوك المغرب من بني مَرين . فقال : وسِجِلْماسَة ؟ قلت : في الحَدِّ ما بين الأرياف والرِّمال من جهة الجنوب . فقال : لا يُقَنِعني هذا ، وأُحبُّ أن تكتب لي بلادَ المَغرب كلَّها ، أقاصيها وأدانيها وجبالَه وأَنهارَه وقُراه وأمصارَه ، حتى كأني أُشاهِده . فقلت : يحصل ذلك بِسعادتك ؛ وكتبتُ له بعدَ انصرافي من المجلس لِما طلب من ذلك ، وأوعبتُ الغرَض فيه في مختصَرٍ وجيز يكون قدرَ إثنتي عَشْرة من الكراريس المنَصَّفة القَطْع . ثم أشار إلى خَدَمه بإحضار طعام من بيته يسمونه الرشتَة ، ويُحْكِمونَه على أبلغ ما يمكن ؛ فأُحْضِرَت الأواني مِنه ، وأشار بِعرَضها عليَّ ، فمَثَلْتُ قائماً وتناولتُها وشَربتُ واستَطبت ؛ ووقَع ذلك منه أحسنَ المواقع ؛ ثم جلستُ وسكتْنا ، وقد غَلَبني الوَجَل بما وقع من نكبَة قاضِي القُضاة الشافعيّة ، صدْر الدين المُناوي ، أَسَرَه التَّابعون لعسْكر مِصْرَ . بشَقْحَب ، ورَدُّوه ؛ فحُبِس عندَهم في طلب الفِدْية منه ؛ فأصابَنا من ذلك وَجل ؛ فزوّرتُ في نفسي كلاماً أُخاطبه به ، وأَتلطّفه بتعظيم أحواله ، ومُلكه . وكنت قبل ذلك بالمغرب قَد سمعت كثيراً من الحَدَثان في ظهوره ، وكان المنَجِّمون المتكلّمون في قِرانات العُلْوِيَّيْن[1] يترقّبون القِرانَ العاشرَ في المثلَّثة الهوائية[2] ، وكان يُترقَّب عام ستة وستين من المائة السَّابعة . فلَقِيتُ ذاتَ يوم من عام أحدٍ وستين وسبعمائة بجامع القَروِيين من فاس ، الخطيبَ أبا عليّ بن باديس خطيب قُسَنْطِينَة ، وكان ماهراً في ذلك الفَن ، فسألتُه عن هذا القِران المتوقَّع ، وما هي آثاره ؟ فقال لي : يدلّ على ثائر عظيم في الجانب الشَّمالي الشرقي ، من أمة بادية

---

(١) الكوكبان العلويان : زحل ، والمشتري ؛ والمراد بالقران — عند الإطلاق — اجتماع المشتري ، وزحل خاصة (مفاتيح العلوم ص ٢٣٢) .

(٢) المثلثة : كل ثلاثة بروج تكون متفقة في طبيعة واحدة من الطبائع الأربع . (مفاتيح العلوم ص ٢٢٦) . ولعل ابن خلدون كان يعرف أن تيمورلنك (كان يعتمد على أقوال الأطباء والمنجمين ، ويقربهم ويدنيهم ، حتى انه كان لا يتحرك الا باختيار فلكي) ، فحدثه بهذا الحديث .

أهل خيام ، تتغلّب على الممالك ، وتقلب الدُّول ، وتستولي على أكثرِ المعمور . فقلت : ومَتَى زمنُه ؟ فقال : عامَ أربعة وثمانين تنتشر أَخباره . وكَتَب لي بمثل ذلك الطبيبُ ابن زَرْزَر اليَهودي ، طبيبُ مَلِك الأفرنج ابن أُذْفُونَش ومُنَجِّمُه . وكان شيخي رحمه الله إِمامُ المعقولات محمد بن إبراهيم الآبلي متى فاوضتُه في ذلك ، أو سَايَلتُه عَنه يقول : أمره قَريب ، ولا بُدّ لك إِن عشتَ أن تراه .

وأما المتصوّفة فكنّا نسمع عنهم بالمغرب ترقُّبَهم لهذا الكائن ، ويَرون أن القائم به هو الفاطميُّ المشار إليه في الأحاديث النَّبَوية[1] من الشيعة وغيرهم ؛ فأخبرني يَحيى بنُ عبدالله حافد الشيخ أبي يعقوب البَادِسي كبير الأولياء بالمغرب ، أن الشيخ قال لهم ذاتَ يوم ، وقد انفتل من صلاة الغَداة : إن هذا اليوم ولد فيه القائم الفاطمي ، وكان ذلك في عَشْر الأربعين من المائة الثامنة ؛ فكان في نفسي من ذلك كله ترَقُّبٌ له .

فوقع في نفسي لأجل الوَجَل الذي كنتُ فيه أن أفَاوضه في شيء من ذلك يَستريحُ إليه ، ويأنَس به مني ، ففاتحته وقلتُ : أيّدك الله ! لي اليوم ثلاثون أو أربعون سنة أتمنّى لقاءَك . فقال لي التُّرجمان عبد الجبَّار : وما سببُ ذلك ؟ فقلتُ : أَمران ، الأول أَنك سلطان العالم ، ومَلِكُ الدُّنيا ، وما أَعتقد أَنه ظهَر في الخليقة منذ آدم لهذا العهد مَلكٌ مثلُك ، ولستُ ممن يقول في الأمور بالجُزاف ، فإني من أَهل العِلم ، وأُبيِّن ذلك فأقول :

إن المُلْك إنما يكون بالعَصَبِيّة ، وعلى كَثْرتها يكون قدرُ المُلك ؛ واتفق أَهلُ العِلم من قبْلُ ومن بعْد ، أن أكثر أمم البشر فرقتان : العَرَب والترك ، وأنتم تعلمون مُلْك العَرَب كيف كان لمَّا اجتَمعوا في دِينهم على نبيِّهم ، وأما الترك في مُزاحَمتهم لِملوك الفُرس ، وانتزاعُ مَلِكهم أَفْراسْيَاب خُراسانَ من أيديهم شاهدٌ بنصابهم من المُلك . ولا يساويهم في عَصَبيتهم أحدٌ من ملوك الأرض من كسْرَى ، أو قيصَر ، أو الأسكندَر ، أو بُختَنَصَّر ، أما كِسرَى فكبير الفُرس ومليكُهم ؛ وأين الفرس من الترك ؟ وأما قيصَر والإسكندر فملُوك الروم ، وأين الروم من الترك ؟ وأما بُختنَصَّر فكبير أهل بَابل ، والنَّبَط . وأين هؤلاء من التُّرك ؟ وهذا برهان ظاهِر على ما ادَّعيتُه في هَذا

(١) ذكر هذه الأحاديث في المقدمة .

الملك .

وأما الأمرُ الثاني مما يَحملني على تمَنِّي لقائه ، فهو ما كنت أسمعه من أهل الحَدْثان بالمغرب ، والأولياء ، وذكرتُ ما قصَصْتُه من ذلك قبل . فقال لي : وأراك قد ذكرتَ بُختنَصَّر مع كِسرَى ، وقيصَر ، والإسكندر ، ولم يكن في عِدادِهم ، لأنهم ملوك أكابر . وبُختنصَّر قائد من قوّاد الفرس ، كما أنا نائب من نواب صَاحب التَّخت ، وهو هذا ، وأشار إلى الصفّ القائمين وراءَه ، وكان واقفاً معهم ؛ وهو رَبيبُه الذي تقدَّم لنا أنّه تزوج أمَّه بعد أبيه سَاطلمش ، فلم يُلْفِه هناك ، وذكر له القائمون في ذلك الصفّ أنه خرَج عنهم .

فرجع إليّ فقال : ومن أي الطوائف هو بُختنَصَّر ؟ فقلت : بين الناس فيه خلاف ، فقيلَ من النَّبط بقية ملوك بابل ، وقيل من الفرس الأولى ، فقال : يعني من ولد مَنُوشِهر[1] . قلت نعم هكذا ذكروا ، فقال : ومَنُوشِهر له علينا ولادة من قِبَل الأمهات . ثم أفضتُ مع التُرجمان في تعظيم هذا القول منه ، وقلتُ له : وهذا ممّا يحعلني على بني لقائه .

فقال المِلك : وأيُّ القولين أرجح عندك فيه ؟ فقلت إنَّه من عقبة ملوك بابل ، فذهب هو إلى ترجيح القول الآخر . فقلتُ : يعكِّر تمليناا رأي الطبري ، فإنه مؤرِّخ الأمة ومحدّثهم ، ولا يَرْجُحُه غيره ، فقال : وما علينا مِنَ الطبري ؟ نُحْضِر كُتب التاريخ للعَرَب والعَجَم ، ونناظرك . فقلتُ : وأنا ايضا أُناظِرُ على رأي الطبري ، وانتهى بنا القول ، فسكتّ ؛ وجاءه الخبر بفتْح باب المدينة ، وخروج القُضاة وفاءً بما زعموا من الطاعة التي بَذَل لهم فيها الأمان ، فرُفِع من بَين أيدينا ، لما في رُكبَتِه من الداء ، وحُمِل على فرسَه فقَبَض شكائمَه ، واستوى في مركبه . وضُربت الآلات حِفافَيْه حتى ارتجَّ لَها الجوّ . وسار نحو دمشق ، ونزل في تربة مَنْجَك عند باب الجابية ؛ فجلس هناك ، ودخل إليه القضاة وأعيان البلد ، ودخلتُ في جُملتهم ؛ فأشارَ إليهم بالانصراف ، وإلى شاه مَلِك نائبه أن يخلعَ عليهمْ في وظائفهم ؛ وأشار إليّ بالجُلُوس ، فجلستُ بين يَدَيه . ثم استدعَى أمراءَ دولتِه القائمين على أمْر البِناء ؛

---

(١) كذا بالأصل وهو : منوجهر بالجيم المتوسطة بينها وبين الشين اسم ملك من الفرس . الأول ومعناه فضيّ الطلعة . وذلك لبهائه ؛ فان مينو بالفارسية : الضضة . فاقتصروا على حذف الياء وقالوا منو . وجهر : الطلعة .

فأحضروا عرفاء البُنيان المهندسين، وتناظروا في إذهاب الماء الدائر بحفير القلعة، لعلّهم يَعْثرون بالصِّناعة على مَنفَذه ؛ فتناظروا في مَجلسه طويلاً ، ثم انصرفوا ، وانصرفت الى بيتي داخلَ المدينة بعدَ أن استأذنته في ذلك ، فأذِن فيه . وأقمت في كِسْر البيت ، واشتغلتُ بما طلَب مني في وصف بلادِ المغرب ؛ فكتبتُه في أيام قليلة ، ورفعتُه إليه فأخذَه من يَدي ، وأمر مُوقِّعَه بترجمته إلى اللسان المُغلي . ثم اشتدَّ في حصار القَلْعَة ، ونَصَب عليها الآلاتِ من المجانيق ، والنُّفوط ، والعَرَّادات ، والنقب ؛ فنَصَبوا لأيام قليلة ستّين منجَنيقاً إلى ما يُشاكلها من الآلات الأخرى ، وضاق الحصار بأهل القَلعة ، وتهدّم بناؤُها من كل جهة ، فطلَبوا الأمان .

وكان بها جَماعة من خُدّام السلطان ومخلّفه ، فأمَّنهم السلطان تِمُر ، وحضَروا عنده . وخرّب القلعة وطَمَس معالمها ، وصادر أهلَ البَلَد على قناطيرَ من الأموال استولى عليها بعد أن أخذ جميع ما خلّفه صاحبُ مصر هنالك ، من الأموال والظّهْر والخيام . ثم أطلق أَيدي النّهَّابة على بُيوت أهل المدينة ؛ فاستوعبوا أناسِيَها ؛ وأمتعتَها ، وأَضرَموا النَّـــار فيما بقي من سَقط الأقمشة والخُرْثيّ ؛ فـــاتصَلت النـــار بحيطان الدُّور المدعمة بالخشَب ؛ فلم تَزل تَتوقّد إلى أن اتصلت بالجامع الأعظم ، وارتفعت إلى سَقْفه ؛ فسال رصاصُه ، وتَهدَّمت سُقُفه وحوائطه ، وكان أمراً بلغ مَبالغَهُ في الشّناعة والقُبح . وتصاريفُ الأمور بيد الله يفعل في خلقه ما يريد ، ويحكم في ملكه ما يشاء .

وكان أيامَ مُقامي عند السلطان تِمُر ، خرَج إليه من القَلعة يَوْمَ أَمَّن أهلَها رجلٌ من أعقاب الخلفاء بمصر ، من ذُرِّية الحاكم العبَّاسي [1] الذي نَصبه الظاهر بيْبَرس ؛ فوقَف إلى السلطان تِمُر يسأَله النَّصَفة في أمره ؛ ويطلب منه مَنصِب الخلافة كما كان لسلفه ، فقال له السلطان تِمُر : أنا أُحضِر لك الفقهاءَ والقُضاة ، فإن حَكَموا لك بشيءٍ أنصفتك فيه . واستدعى الفقهاءَ والقُضاة ، واستدعاني فيهم ؛ فحضرنا عندَه وحَضَر هذا الرجل الذي يسأل مَنصِب الخلافة ، فقال له عبدُ الجبَّار : هذا مجلس النصفة فتكلَّم . فقال : إن هذه الخلافة لَنا ولسلفنا ، وإن الحديث [2] صحَّ بأن

---

١) هو أبو العباس أحمد بن أبي علي الحسن القطبي المتوفي سنة ٧٠١ .

٢) في تاريخ الخلفاء للسيوطي ص ١٠٠ ، ١٠١ بعض الآثار التي تمسك بها العباسيون في خلافتهم .

الأمر لبني العبَّاس ما بقيت الدُّنيا ، يعني أمر الخلافة . وإني أحقُّ من صاحب المَنصِب الآن بمصر ، لأن آبائي الذين ورثتُهم كانوا قد استحقُّوه ، وصار إلى هذا بغير مستند ، فاستدعَى عبدُ الجبَّار كلاًّ مِنَّا في أمره ، فسكتنا بُرْهة ، ثم قال : ما تقولون في هذا الحديث ؟ فقال بُرهان الدّين بن مُفلح : الحديثُ ليس بصحيح . واستدعَى ما عندي في ذلك فقلت : الأمر كما قلتم من أنّه غير صحيح ، فقال السلطان تِمُر : فما الذي أَصار الخِلافة لبني العبَّاس إلى هذا العهد في الإسلام ؟ وشافَهني بالقول ، فقلت : أيّدك الله ! اختلف المسلمون من لدن وفاة النبي صلى الله عليه وسلم ، هل يجب على المسلمين ولاية رجل منهم يقوم بأمورهم في دينهم ودُنياهم ، أم لا يجب ذلك ؟ فذهبت طائفة إلى أنه لا يجب ، ومنهم الخوارج ، وذهبَ الجماعةُ إلى وجوبه ، واختلفوا في مُسْتند ذلك الوجوب ؛ فذهب الشيعة كلُّهم إلى حديث الوصية ، وأن النبي صلى الله عليه وسلم أوصى بذلك لعليّ ، واختلفوا في تنقُّلها عنه إلى عَقِبه إلى مذاهب كثيرة تَشذُّ عن الحصر. وأجمع أهل السُّنَّة على إنكار هذه الوصيَّة ، وأَن مستند الوُجوب في ذلك إنما هو الاجتهاد ، يعنون أن المسلمين يَجتهدون في اختيار رجل من أهل الحقّ والفقه والعدل ، يُفَوِّضون إليه النظرَ في أمورهم .

ولما تعدّدت فرق العلويّة وانتقلت الوصيّة بزعْمهم من بني الحَنَفيَّة إلى بني العبَّاس ، أوصى بها أبو هاشم بن محمد بن الحَنفيّة إلى محمد بن علي بن عبدالله بن عَبَّاس ، وبثَّ دُعاته بخُراسان . وقام أبو مُسلم[1] بهذه الدعوة ؛ فملك خراسان والعراق ، ونزل شيعتُهم الكوفَة ، واختاروا للأمر أبا العبّاس السفَّاح[2] ابنَ صاحب هذه الدّعوة ؛ ثم أرادوا أن تكون بيعتُه على إجماع من أهل السنَّة والشيعة ، فكاتبوا كبار الأمة يومئذ ، وأهلَ الحلّ والعقد ، بالحجاز والعراق ، يشاورونهم في أمره ؛ فوقع اختيارُهم كلُّهم على الرّضى به ، فبايَع له شيعتُه بالكوفة بيعة إجماع وإصْفاق . ثم عَهِد بها إلى أخيه المنْصور[3] ، وعهد بها المنصور إلى بنيه ؛ فلم تزل مُتناقَلة فيهم ، إما

(١) أبو مسلم عبد الرحمن بن مسلم الخراساني . له ترجمة واسعة في وفيات ابن خلكان ١/٣٥٢ — ٣٥٦ .

(٢) أبو العباس عبدالله بن محمد بن علي بن عبدالله بن عباس (١٠٤ — ١٣٦) وأنظر تاريخ الخلفاء للسيوطي ص ٩٩ وما بعدها .

(٣) أبو جعفر عبدالله بن محمد بن علي بن عبدالله بن عباس (٩٥ — ١٥٨) . تاريخ الخلفاء ١٠١ — ١٠٦ .

بِعَهْدٍ او باختيار أهل العَصر ، إلى أن كان المستعصمُ آخرهم ببغداد . فلمَّا استولى عليها هولاكو وقَتَلَه ، افترق قَرابتُه ، ولحق بعضُهم بمصر ، وهو أحمد الحاكم من عقِبِ الرَّاشد ، فنصَبه الظَّاهر بَيْبَرس بمصر ، بممالأة أهل الحَلِّ والعَقْد من الجُند والفقهاء . وانتقَل الأمر في بيته إلى هذا الذي بمصر ، لا يُعْلَم خلاف ذلك . فقال لهذا الرَّافِع : قد سمعتَ مقال القضاة ، وأهلِ الفُتيا ، وظهر أنه ليس لكَ حقّ تطلبه عندِي . فانصرِف راشداً .

* (الرجوع عن هذا الامير تمر الى مصر) *

كنت لما لقيته ، وتدلّيتُ إليه من السور كما مرّ أَشار عليَّ بعض الصِّحاب ممن يَخْبُر أَحوالهم بما تقدَمتْ له من المعرفة بهم ؛ فأَشار بأَن أُطْرِفه ببعض هَدِّية ، وإن كانت نَزْرةً فهي عندهم متأَكدةٌ في لقاء ملوكهم ، فانتقَيت من سُوق الكُتب مُصْحَفاً رائعاً حسَناً في جزء محذو ، وسجَّادة أَنيقة ، ونُسخَة من قصيدة البُردة المشهورة للأَبُوصيري[1] في مدح النبيّ صلى الله عليه وسلم ، وأَربع علب من حلاوَة مصر الفاخرة . وجئت بذلك فدَخلت عليه ، وهو بالقَصر الأبلق جالس في إيوانه ؛ فلمَّا رآني مقبلاً مَثَل قائماً وأَشار إِلي عن يمينه ؛ فجلستُ وأَكابر من الجقطيَّة حِفَافَيْه ؛ فجلستُ قليلا ، ثم استدرتُ بينَ يديه ، وأَشرت إلى الهَدية التي ذكرتُها ، وهي بيد خُدَّامي ؛ فوضَعتُها ، واستقبلني ؛ ففتحتُ المُصْحَف فلما رآه وعرفه ، قام مُبادراً فوضعَه على رأسه . ثم ناولتُه البُردة ، فسألني عنها وعن ناظمها فأَخبرتهُ بما وقفت عليه من أَمرها . ثم ناولته السجَّادة ، فتناولها وقبّلها . ثمَ وضعتُ علب الحلوى بين يديه ، وتناولتُ منها حَرفاً على العادة في التأنيس بذلك . ثم قَسم هو ما فيها من الحلوى بين الحاضرين في مجلسه ، وتقبَّل ذلك كلّه ، وأَشعر بالرّضى به . ثم حومت على الكلاَم بما عندي في شأن نفسي ، وشأن أَصحابٍ لي هنالك . فقلت أَيدك الله ! لي كلام أَذكره بين يديك ، فقال : قل . فقلتَ أَنا غريب بهذه البلاد غُربتين ، واحدة من

(١) هو شرف الدين أبو عبد الله محمد بن سعيد الدلاصي البوصيري الصنهاجي (٦٠٨ — ٦٩٤) على خلاف في تاريخ الوفاة . له ترجمة في فوات الوفيات ٢/٢٠٥ — ٢٠٩ ؛ حسن المحاضرة ١/٣٦٠ .

المَغرب الذي هو وَطني ومَنشأي وأُخرَى من مِصر وأَهل جيلي بها ، وقد حصلتُ في ظلك ، وأَنا أَرجو رأيك لي فما يُؤنسُني في غُربتي ، فقال : قل الذي تريد أفعَلْه لك ، فقلت : حالُ الغُربه أَنستني ما أُريد ، وعساك — أَيّدك الله — أَن تعرف لي ما أُريد . فقال : انتقل من المدينة إلى الأردو[1] عندي ، وأَنا إن شاء الله أو في كُنه قصدك . فقلت يأمر لي بذلك نائبُك شاه ملك ، فأَشار إليه بإمضاء ذلك ، فشكرتُ ودعوتُ وقلت : وبقِيَتْ لي أخرَى . فقال : وما هي ؟ فقلت هؤلاء المخلَّفون عن سلطان مصر . من القُرَّاء ، والموقِّعين ، والدواوين[2] ، والعمّال ، صاروا إلى إيالتك والمَلِكُ لا يُغفِل مثل هؤلاء فَسُلطانكم كبير ، وعَمَالاتكم متَّسعة ، وحاجةُ مُلْككم إلى المتصرّفين في صنوف الخدم أَشدُّ من حاجة غيركم ، فقَال وما تريد لهم ؟ قلت : مكتوب أَمان يَستنيمون إليه ، ويعوِّلون في أَحوالهم عَليه . فقال لكاتبه : اكتب لهم بذلك[3] ، فشكرتُ ودعوتُ . وخرجتُ مع الكاتب حتى كتب لي مكتوبَ الأمان ، وختَمه شاه ملك بخاتم السلطان ، وانصرفتُ إلى منزلي . ولما قَرُبَ سفرُه واعتزَم على الرحيل عن الشام ، دَخلت عليه ذاتَ يوم ، فلمّا قضينا المعتاد ، التفت إليَّ وقال : عندك بغلة هنا ؟ قلت نعم ، قال حسنة ؟ قلتُ نعم ، قال وتبيعها ؟ فأَنا أشتريها منك ، فقلتُ أَيدك الله ! مِثلي لا يبيع من مثلك ، إنَّما أَنا أَخدُمك بها ، وبأَمثالها لوكانت لي ، فقال : أَنا أَردت أَن أكافئك عنها بالاحسان ، فقلتُ : وهل بقي إِحسَان وراء ما أَحسنتَ به ، اصطنَعتَني ، وأَحللتَني من مجلسك محلَّ خواصّك ، وقابلتَني من الكرَامة والخير بما أَرجو الله أَ يقابلك بمثِله ، وسكَتَ وسكتُّ وحُمِلت البغْلةُ — وأَنا معه في المجلس — إليه ، ولم أَرها بَعد .

ثم دخلتُ عليه يوماً آخر فقال لي : أَتسافر إلى مصر؟ فقلتُ أَيَّدك الله ، رغبتي إنما هي أَنت ، وأَنتَ قد آويت وكفَلت ، فإن كان السَّفر إلى مصر في خِدمتك فنعم ، وإلا فَلاَ بُغية لي فيه ، فقال لا ، بل تسافر إلى عيالك وأَهلك ، فالتفتَ إلى إبنه ، وكان مسافراً إلى شَقْحَب لمرباع دوابّه ، واشتغل يَحادثه ، فقال لي الفقيه عبد الجبَّار الذي كان يترجم بينَنا : إن السلطَان يُوصي إبنَه بك ، فدعوت له ، ثم رأَيت أَن

---

(١) الأردو : المعسكر (تركية) .
(٢) كذا في الاصل . ولعلها : (بالدواوين) أو (وأصحاب الدواوين) .
(٣) ذكر هذه الشفاعة المقريزي في السلوك في حوادث سنة ٨٠٣ .

السفر مع ابنه غيرُ مُسْتَبين الوجهة ، والسفرُ إلى صَفَد أَقْرَبِ السواحل إلينا أَملكُ لأمري ، فقلتُ له ذلك ؛ فأَجاب إليه ، وأَوصى بي قاصداً كان عنده من حَاجب صفَدَ ابن الدَّاوِ يداري[1] ، فودَعته وانصرفتُ ، واختلفت الطريق مع ذلك القاصد ، فذهَب عنّي ، وذهبتُ عَنْه ، وَسَافرتُ في جمع أصحابي ؛ فاعترَضَتْنا جماعة من العشير قَطعوا علينا الطَّريق ، ونهبوا ما مَعنا ، ونجونَا إلى قرية هنالك عَرايا . واتَّصلنا بعد يومين أَو ثلاث بالصُّبَيْبة فخَلَفْنا بعضَ الملبوس ، وأَجزنا إلى صَفَد ، فأَقمنا بها أَياماً . ثم مر بنَا مركب من مرَاكب ابن عُثمان سلطان بلاد الرّوم ، وصل فيه رسولٌ كان سفر إليه عن سلطان مصر ، ورجع بجوار رسالته ؛ فركبتُ معَهم البحرَ إلى غَزّة ، ونزلت بها ، وَسَافرتُ منها إلى مصر ، فوصلتُها في شعبان من هذه السَّنة ، وهي سنة ثلاث وثمانمائة ؛ وكان السلطان صاحب مصرَ ، قد بعث من بابه سفيراً إلى الأمير تِمُر إجابةً إلى الصلح الذي طلب منه ؛ فأعقبني إليه . فلما قضى رسالته رجع ، وكان وصوله بعد وصولي ؛ فبعثَ إليَّ مع بعض أَصحابه يقول لي : إنّ الأمير تِمُر قد بعثَ معي إليك ثمن البَغْلة التي ابتاعَ منك ، وهي هذه فخُذْها ، فإنَّه عَزَم علينا من خلاص ذمَّته من مالِك هذا . فقلت لا أَقبله إلا بَعْد إذن من السُّلطانَ الذي بعثَك إليه ، وأَما دُون ذلك فلاَ . ومضَيتُ إلى صَاحب الدَّولة فأَخبرته الخَبرَ فقال وما عليك ؟ فقلت : إنّ ذلك لا يَجملُ بي أَن أَفعَله دون إطلاعكم عليه ، فأَغضى عن ذلك ، وبعثوا إليَّ بذلك المَبْلغ بعد مدَّة ، واعتذَر الحامل عن نقصِه بأَنه أعطِيه كذلك ، وحمدت الله على الخَلاَص .

وكتبتُ حينئذ كتاباً إلى صاحب المغرب ، عَرَّفته بما دار بيني وبين سلطان الطَّطَر تِمُر ، وكيف كانت واقعتُه معنا بالشَّام ، وضمَّنت ذلك في فصل من الكتاب نَصُّه :

«وإن تفضَّلتم بالسؤال عن حَال المملوك ، فهي بخير والحمد لله ، وكنت في العام الفارط توجّهت صُحبةَ الركاب السلطاني إلى الشام عندما زَحفَ الطَّطر إليه من بلاد الروم والعراق ، مع مَلِكهم تِمُر ، واستولى على حَلَب وحَماة وحِمْص وبَعْلَبَكْ ،

(١) كذا بالأصل وفي عجائب المقدور ص ١١٣ : « ... وكان في صفد تاجر من أهل البلاد أحد الرؤساء والتجار ، يدعى علاء الدين ، وينسب الى دوادار ، كان تقدمت له خدمة على السلطان فولاه حجابة ذلك المكان » .

وخرَّبها جميعاً ، وعاثت عساكره فيها بما لم يُسمَع أشنعَ منه . ونهَض السلطان في عساكره لاستنقاذها ، وسبق إلى دِمَشق ، وأقام في مقابلته نحواً من شهر ؛ ثم قفل راجعاً إلى مصر ، وتخلّف الكثير من أمرائه وقضاته ، وكنتُ في المخلَّفين . وسمعت أن سلطانهم تمُر سَأل عنّي ؛ فلم يَسع إلا لقاؤه فخرجتُ إليه من دِمَشْق ، وحضرتُ مَجلسَه ، وقابلَني بِخَيْر ، واقتضيتُ منه الأمان لأهل دِمَشق ، وأقمتُ عندَه خمساً وثلاثين يوماً ، أُباكره وأراوحه . ثمَّ صرَفني ، وودَّعني على أحسَن حال ، ورجعتُ إلى مصر . وكان طلَبَ منّي بَغْلَة كنت أركبُها فأعطيته إياها ، وسألني البيع فتأفَّفتُ منه ، لما كان يُعامل به من الجميل ، فبعدَ انصرافي إلى مصر بعث إليَّ بثَمَنها مع رَسول كان من جهة السلطان هنالك ، وحمدتُ الله تعالى على الخلاص من ورطات الدنيا .

وهؤلاء الطَّطَر هم الذين خرجوا من المَفازة وراءَ النَّهر ، بينه وبين الصين ، أعوامَ(١) عشرين وستّمائة مع ملكهم الشهير جنكزخان ومَلك المشرق كلّه من أيدي السَّلْجوقية ومواليهم إلى عراق العرب ، وقَسَم الملك بينَ ثلاثة من بنيه وهم جَغطَّاي ، وطولي ، ودوشي خان :

فَجَغطَّاي كبيرُهم ، وكان في قسمته تُركسْتان وكاشْغَر ، والصَّاغُون ، والشَّاش وفَرْغانة ، وسائرُ ما وراء النَّهر من البلاد .

وطُولي كان في قِسمته أعمال خراسان ، وعراق العجم ، والرَّيّ إلى عِراق العَرب وبلاد فارس وسِجِسْتان والسند . وكان أبْناؤه : قبْلاَي ، وهُولاكو .

ودُوشي خان كان في قسمته بلاد قَبْجَق ، ومنها صَرَاي ، وبلاد الترك إلى خُوارَزم .

وكان لهم أخ رابع يسمى أوكداي كبيرهم ، ويسمُّونَه الخان ، ومعناه صاحب التَّخت ، وهو بمَثابة الخليفة في مُلك الإسلام . وانقرَض عَقبه ، وانتقَلت الخانيَّة إلى قُبْلاَي ، ثم إلى بني دُوشي خان ، أصحاب صَراي . واستمرَّ مُلكَ الططر في هذه الدول الثلاث ، ومَلك هولاكو بَغداد ، وعراق العرب ، إلى ديار بكر ونهر الفرات . ثم زحفَ إلى الشام وملكَها ، ورجع عنها ، وزَحف إليها بَنُوه مراراً ، وملوكُ مصر من الترك يُدافعونهم عنها ، إلى أن انقرض مُلك بني هولاكو أعوامَ أربعين وسبعمائة ،

---

(١) كذا بالأصل . وهو تعبير مألوف في اسلوب ابن خلدون . ورد كثيراً في أماكن متفرقة من كتابه .

ومَلك بعدهم الشيخ حسن النُّوَيْنُ وبنوه . وافترق مُلْكهم في طوائف من أهل دولتهم ، وارتفعت نِقْمتُهُم عن ملوك الشام ومصر . ثم في أعوام السبعين أو الثمانين وسبعمائة ، ظهر في بني جُغْطاي وراء النهر أمير إسمه تيمور ، وشُهرته عند الناس تِمُر ، وهو كافل لصبيٍّ متَّصل النَّسَب معه إلى جَغْطاي في آباءٍ كلُّهم ملوك ، وهذا تِمُرُ بن طرغَاي هو ابن عمهم ، كَفَل صاحب التَّخت منهم إسمه محمود ، وتزوج أمّ صَرغَتْمِش ، ومدَّ يده إلى ممالك الترك كلِّها ؛ فاستولَى عليها إلى ديار بَكر ، ثم جال في بلاد الروم والهند ، وعاثت عساكره في نواحيها ، وخرّب حُصُونَها ومُدنَها ، في أخبار يَطول شرحها . ثم زَحف بعدَ ذلك إلى الشام ، ففعل به ما فعل ، والله غالبٌ على أمره . ثم رَجع آخراً إلى بلاده ، والأخبار تَتَّصل بأنه قَصَد سَمَرْقَنْد ، وهي كرسيُّه .

والقوم في عَدَد لا يَسَعه الإحصاء ، إن قدرتَ ألفَ ألفٍ فغير كثير ، ولا تقولُ أنقَص ، وإن خيَّموا في الأرض ملأوا السَّاح ، وإن سارت كتائبهم في الأرض العَريضة ضاق بهم الفضاء ؛ وهم في الغارة والنهب والفَتْك بأهل العُمران ، وابتلائِهم بأنواع العذاب ، على ما يحصّلونه من فِئاتِهم آيةٌ عَجَب ، وعلى عادة بوادي الأعراب .

وهذا المَلك تِمُر من زُعماء الملوك وفراعنتهم ، والناس يَنْسُبونه إلى العلم ، وآخرون إلى اعتقَّاد الرّفض ، لما يرون من تَفْضيله لأهل البيت ، وآخرون إلى انتحال السّحر ؛ وليس من ذلك كلّه في شيء ؛ إنّما هو شديد الفِطنة والذّكاء ، كثير البحث واللَّجاج بما يعلم وبما لا يعلم ، عُمُره بين السّتّين والسَّبعين ، وركْبَتُه اليُمنَى عاطلة من سَهْم أصابَه في الغارة أيام صِباه على ما أخبرني ، فيجرُّها في قَريب المشْي ، ويتناولُه الرِّجال على الأيدي عند طُول المسافة ، وهو مَصْنوعٌ له ؛ والملك لله يؤتيه من يشاء من عباده .

* (ولاية القضاء الثالثة والرابعة والخامسة بمصر) *

كنت — لما أقمت عند السلطان تِمُر تلك الأيامَ التي أقمت — طالَ مغيبي عن

مِصر ، وشيِّعت الأخبار عني بالهلاك ، فقُدِّم للوظيفَة من يقوم بها من فُضلاء المالكيّة ، وهو جمال الدّين الأقفهسي[1] ، غَزير الحفظ والذكاء ، عفيف النَّفس عن التصدِّي لحاجات النَّاس ، ورع في دينه ؛ فقلّدوه منتصفَ جُمادَى الآخرة من السنّة .

فلما رجعتُ إلى مصر ، عَدلُوا عن ذلك الرأي ، وبَدا لهم في أمري ؛ فولَّوني في أواخر شعبان من السنة . واستمررتُ على الحال التي كنتُ عليها من القيام بالحقّ ، والإعراض عن الأغراض ، والإنصاف من المطالب ، ووقَع الإنكارُ عليّ ممَّن لا يَدينِ للحق ، ولا يُعطي النَّصَفة من نفسه ، فسَعوا عند السلطان في ولاية شخص من المالكية يُعرف بجمال الدين البِساطي[2] ، بَذَل في ذلك لسُعاةٍ داخَلوه ، قطعةً من مالِه ، ووُجوهاً من الأغراض في قضائه . قاتل الله جميعهم ؛ فخلَعوا عليه أواخرَ رجب ، سنة أربع وثمانمائة . ثم راجع السلطان بصيرتَه ، وانتقد رأيه ، ورَجَّعَ إليَّ الوظيفة خاتمَ سنة أربع وثمانمائة ، فأجريتُ الحال على ما كان . وبقي الأمر كذلك سنة وبعض الأخرى . وأعادُوا البِساطي الى ما كان ، وبما كان ، وعلى ما كان ، وخلَعُوا عليه سادسَ ربيع الأوّل سنةَ ست وثمانمائة[3] ، ثم أعادوني عاشر شعبان سنة سبع وثمانمائة[4] ، ثم أدالوا به مِنّي أواخر ذي القعدة[5] من السنة وبيد الله تصاريف الأمور .

تم الجزء السابع من تاريخ ابن خلدون وبتمامه اكتمل للمؤرخ ديوان المبتدأ والخبر من عرب وعجم وبربر ويليه الجزء الثامن وهو فهارس عامة للتاريخ المذكور وضع باشراف دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع في بيروت .

وكان الفراغ من طبعة في الرابع والعشرين من شعبان عام ١٤٠١ هـ الموافق ٢٦ حزيران ١٩٨١ م والحمد لله رب العالمين .

---

(١) هو عبدالله بن مقداد بن اسماعيل بن عبدالله الأقفهسي ، جمال الدين المالكي المتوفى سنة ٧٢٣ هـ .
(٢) يوسف بن خالد بن نعيم بن نعيم بن محمد بن حسن بن علي بن محمد بن علي ، جمال الدين .
(٣) انظر «عقد الجمان» للعيني ، في حوادث سنة ٨٠٦ .
(٤) في صبح الأعشى ١٨٩/١١ نص «التقليد» الذي تولى به البساطي القضاء بعد ابن خلدون .
(٥) الذي في «عقد الجمان» للعيني في حوادث سنة ٨٠٧ ، أن الذي خلف ابن خلدون هو جمال الدين الأقفهسي . ولعل ابن خلدون أعرف بمن ولي بدله .

فهرس الجزء السابع من تاريخ ابن خلدون

المصادر والمراجع القديمة

١ — ابن الاثير (أبو الحسن علي بن أبي الكرم الشنياني الملقّب بعز الدين ٦٣٠ هـ — ١٢٣٣ م) .
* الكامل في التاريخ — دار صادر ١٩٦٥ .
٢ — الاصطخري (الشيخ أبي اسحق الفارسي) .
* كتاب الاقاليم — مكتبة المثنى — بغداد .
٣ — الاصفهاني (أبو الفرج علي بن الحسن بن محمد القرشي الاموي الكاتب ت ٣٥٦ هـ — ٩٦٧ م)
* الاغاني — الطبعة المصورة عن طبعة بولاق المصرية — دار الفكر — بيروت ١٩٧٠ .
٤ — ابن أبي أصيبعة الخزرجي السعدي (موفق الدين أبو العباس أحمد بن القاسم) .
* عيون الانباء في طبقات الاطباء — اعتناء الاستاذ مل . كونسبرج ١٨٨٤ م المطبعة الوهبية ١٣٠٠ هـ .
٥ — البلاذري (أحمد بن يحيى بن جابر ٢٧٩ هـ — ٨٩٢ م) .
* فتوح البلدان — عني بنشره رضوان محمد رضوان — المطبعة المصرية — الازهر ١٣٥٠ هـ — ١٩٣٢ م .
٦ — البلخي (أبو زيد بن سهل ت ٣٢٣ هـ) .
* البدء والتاريخ « ينسب الى مطهر بن طاهر المقدسي » .
٧ — البيروني (أبو الريحان محمد بن أحمد ت ٤٤٠ هـ) .
* الاثار الباقية عن القرون الخالية — طبعة ليبزج ١٨٧٨ م .
٨ — البغدادي السويدي (أبو الفوز محمد أمين) .
* سبائك الذهب في معرفة قبائل العرب — مكتبة المثنى — بغداد .
٩ — التلمساني (الشيخ أحمد بن محمد المقري) .
* نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب — دار صادر — بيروت ١٣٨٨ هـ — ١٩٦٨ م تحقيق الدكتور احسان عباس .
١٠ — الجاحظ (أبو عثمان عمرو بن بحر ٢٥٥ ه) .
* البيان والتبيين (تحقيق المحامي فوزي عطوي — مكتبة الطلاب — بيروت) .
* التاج في اخبار الملوك (تحقيق أحمد زكي باشا — المطبعة الاميرية القاهرة ١٣٢٣ هـ ١٩١٤ م) .
١١ — الجزري (عز الدين بن الاثير) .
* اللباب في تهذيب الانساب (دار المثنى — بغداد) .
١٢ — ابن حزم (أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الاندلسي) .
* جمهرة انساب العرب تحقيق عبد السلام محمد هارون (دار المعارف بمصر ١٩٦٢ م ١٣٨٢ هـ) .
١٣ — الحسيني الزبيدي (محمد مرتضى) .
* تاج العروس من جواهر القاموس (تحقيق عبد العليم الصحاوي ومراجعة عبد الكريم العزباوي وعبد الستار احمد فرج) مطبعة الكويت ١٩٧٤ .

١٤ — الحموي (شهاب الدين أبي عبدالله ياقوت ت ٦٣٦ هـ) .
* معجم البلدان — دار صادر .
١٥ — ابن خلكان (أبو العباس شمس الدين أحمد بن أبي بكر ٦٠٨ هـ — ٦٨١ هـ) .
* وفيات الأعيان وأبناء الزمان — تحقيق الدكتور إحسان عباس — دار صادر .
١٦ — الدينوري (أبي حنيفة أحمد بن داود ت ٢٨٢ هـ) .
* الأخبار الطوال — تحقيق عبد المنعم عامر ومراجعة جمال الدين الشيّال — دار احياء الكتب العربية — القاهرة ١٩٦٠ الطبعة الاولى .
١٧ — ابن أبي زرع الفارسي (الشيخ أبو الحسن علي بن محمد بن أحمد بن عمر ت ٧٢٦ هـ) .
* الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس طبع بفاس ١٣٠٣ هـ .
١٨ — السمعاني (أبي سعد عبد الكريم بن محمد بن منصور التميمي ت ٥٦٢ هـ) .
* كتاب الانساب — لندن ١٩١٢ .
١٩ — السيوطي (جلال الدين أبو الفضل عبد الرحمن بن أبي بكر ت ٩١١ هـ) .
* تاريخ الخلفاء تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد — مطبعة المدني — الطبعة الرابعة القاهرة ١٩٦٤ .
٢٠ — الضبيّ (أحمد بن يحيى بن أحمد بن عميرة . ت ٥٩٩ هـ) .
* بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الاندلس — طبع في مدينة مجريط بمطبع روخس سنة ١٨٨٣ م .
٢١ — الطبري (أبو جعفر محمد بن جرير . ت ٣١٠ هـ) .
* تاريخ الامم والملوك — دار صادر — بيروت .
٢٢ — ابن عربشاه الدمشقي ٧٩١ — ٨٥٤ هـ .
* عجائب المقدور في أخبار نوائب تيمود — ليدن ١٦٣٦ م .
٢٣ — ابن العماد الحنبلي (أبي الفلاح عبد الحي ت ١٠٨٩ م) .
* شذرات الذهب في أخبار من ذهب — دار الآفاق الجديدة — بيروت .
٢٤ — العيني (بدر الدين ٧٦٣ — ٨٥٥ هـ) .
* عقد الجمات في تاريخ أهل الزمان .
٢٥ — أبو الفداء (اسماعيل بن علي بن محمد ت ٧٣٢ هـ) .
* المختصر في أخبار البشر — المطبعة الحسينية المصرية — الطبعة الاولى .
٢٦ — القلقشندي (أحمد بن علي) .
* صبح الأعشى في كتابة الانشا — دار الكتب المصرية ١٣٣٨ هـ — ١٩٢٠ م .
٢٧ — الكندي المصري (أبي عمر محمد بن يوسف) .
* كتاب الولاة وكتاب القضاة — مطبعة الآباء اليسوعيين بيروت ١٩٠٨ ، اعادت طبعة بالأوفست مكتبة المثنى — بغداد .
٢٨ — لسان الدين بن الخطيب (٧١٣ — ٧٧٦ هـ) .
* الاحاطة في أخبار غرناطة — شركة طبع الكتب العربية — مصر — ١٣١٩ هـ .
٢٩ — ابن ماكولا ت ٤٧٥ هـ — ١٠٨٢ م .
* الاكمال في رفع الارتياب عن المؤتلف والمختلف في الاسماء والكنى والانساب . اعتني بتصحيحه والتعليق عليه الشيخ عبد الرحمن بن يحيى المعلمي اليماني — مطبعة مجلس دائرة المعارف

العثمانية — حيدر آباد — الطبعة الثانية .
٣٠ — المقريزي (تقي الدين أبي العباس أحمد بن علي ت ٨٤٥ هـ) .
* كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار المعروف بـ (الخطط المقريزية) — دار صادر بيروت .
٣١ — ابن منظور (أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم ت ٧١١ هـ) .
* لسان العرب — دار صادر — ١٩٦٨ .

المراجع الحديثة

١ — (الأمير شكيب) أرسلان .
* الحلل السندسية .
٢ — (كارل) بروكلمان .
* تاريخ الشعوب الاسلامية — ترجمة نبيه امين فارس — منير بعلبكي دار العلم للملايين بيروت — الطبعة الخامسة .
٣ — (فرانز) روزنشال .
* علم التاريخ عند المسلمين — نشر بالمشاركة مع مؤسسة فرنكلين للطباعة والنشر بغداد — نيويورك (مكتبة المثنى بغداد ١٩٦٣) ترجمة الدكتور صالح أحمد العلي . مراجعة محمد توفيق حسين .
٤ — زامباور .
* معجم الانساب والاسرات الحاكمة في التاريخ الاسلامي — أخرجه الدكتور زكي محمد حسن بك وحافظ أحمد حمدي وأحمد ممدوح حمدي — (مطبعة فؤاد الأول ١٩٥١) .
٥ — الزركلي (خير الدين) .
* العلام « قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين » (دار العلم للملايين الطبعة الرابعة ١٩٧٩) .
٦ — سركيس (يوسف) .
* معجم المطبوعات العربية والمعربة — مطبعة سركيس بمصر ١٣٤٦ هـ — ١٩٢٨ م .
٧ — ابن عبدالله (عبد العزيز) .
* الموسوعة المغربية للاعلام البشرية والحضارية — مطبعة فضالة — المغرب ١٩٧٦ .
* المعجم التاريخي (مكتبة السلام — مكتبة المعارف المغرب) .
٨ — ابن العربي (الصديق) .
* كتاب المغرب (مطبعة الامنية الرباط — ١٩٥٦ الطبعة الثانية) .
٩ — ابن منصور (عبد الوهاب) .
* قبائل المغرب (المطبعة الملكية — الرباط — ١٩٦٨ الجزء الاول) .
١٠ — نقاش (زكي) .
* العلاقات الاجتماعية — دار الكتاب اللبناني .
١١ — البينة — مجلة الرسالة الخالدة والثقافة المتحررة — العدد الثالث — ١٩٦٢ م — ١٣٨٢ هـ .